مجلة الأزهر

١٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سقيفة الصفا العلمية

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

١٠٣

المجلد الرابع والسبعون ـ القسم الأول

السنة ١٤٢٢هـ

الأزهر الشريف

سقيفة الصفا العلمية

مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25899823 / 25907497

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www. azhar. eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية

SAQIFAT AL-SAFA TRUST

لبوان ـ ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

وصدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩هـ

يصدرها

مجمع البحوث الإسلامية

في مطلع كل شهر عربي

رئيس التحرير

أ.د. محمد رجب البيومي

مدير التحرير

الطاهر محمد الطاهر الحامدي

سكرتير التحرير

عادل رفاعي خفاجة

المراسلات باسم

مدير التحرير / مجمع البحوث الإسلامية / م. نصر

ت: ٢٦٣٨٥٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

- لا حياة بلا دين
  للشيخ / إبراهيم الدسوقي
- الإسلام والغرب وحقوق الإنسان
  للدكتور / محمد عمارة
- من عيون التراث
  للأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم
- ما يقال عن الإسلام
  للدكتور / محمد رجب البيومي
- المجتمع الإسرائيلي
  للدكتور / محمد حسن عبد الخالق

الاشتراك السنوى

● داخل مصر	١٨ جنيهاً مصرياً
● الدول العربية	٥٠ دولاراً أمريكياً
● أوربا وأمريكا	٨٥ دولاراً أمريكياً
● اليابان وشرق آسيا	١٢٠ دولاراً أمريكياً

الاشتراكات: قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

☎ .. ٥٧٨٦١٠٠ - ٨٥٧٦٢٠٠

المثقفون والأدب الهابط

حين قام وزير الثقافة بإقالة من أشرفوا على نشر الأدب الهابط، كثر ترداد الصحف من يومية وأسبوعية لكلمة «المثقفين» تحت عناوين كثيرة، مثل احتجاج المثقفين، دعوة المثقفين إلى الاستقالة الجماعية، ثورة المثقفين، وذكرت بهذا الصدد أسماء لا تذكر إلا فى مجالين فقط، مجال الدفاع عن السقوط الخلقى أو مجال الإشادة بالإلحاد الدينى، وكأن هؤلاء الذين وصفوا بالمثقفين، لا عمل لهم فى الحياة إلا صيانة الانحدار الخلقى، والكفر الصريح معا بدعوى حرية الفكر.

وقد صودرت حرية الفكر فى أمور كثيرة غير هذين فلم نسمع لهم صوتا، إذ ليس هناك مجال يحرصون على حمايته غير الأدب السافل، والإلحاد الصريح!

والحق أن أصحاب هذا الشغب ليسوا من الأصلاء فى عالم الفكر لأن الأصلاء قد ربأوا بأنفسهم عن الانحدار الشائن، وفيهم من وجهت إليه دعوة للاحتجاج المفتعل، كالأستاذ الدكتور عبدالقادر القط، فلم يشأ أن ينحدر مع المنحدرين، واعتذر بكياسة نعرفها لدى من هو فى مثل فضله وأدبه، وهو بلاشك يعرف مقدار هؤلاء ويعلم وزنهم الهش، فأبى أن يسير معهم فى ركب واحد.

وأشد ما يؤلم النفس أن يدعى الثقافة من لا يتأهل إلى الانتساب إليها، لأن المثقفين الأصلاء الذى تسنموا زعامة الفكرالمصرى فى أزهى عهوده، كانوا من الالتزام الحقيقى بآداب الفكر الأصيل، ومن الترفع عن النزوات الهابطة بحيث حاربوا الهبوط الأدبى حربا لا هوادة فيها، وقد ذكرنا فى العدد الماضى كلمة للأديب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات تضع الحق فى نصابه، فشغب شاغب من هؤلاء على الزيات وعده فى رأيه أزهريا قديما ومكانة الزيات أرفع من أن ينبح حولها نابح، بل إن من فعل ذلك دل على خوائه وضحالة فكره وكان اتهامه للزيات شهادة صريحة بفضله وهو الذى حمل مشعل الأدب الرفيع، فقاد الثقافة المصرية قيادة رفعت رأس مصر فى العالم العربى أجمعه إذ كانت مجلة الرسالة أقوى مجلة حملت أمانة الفكر فى النصف الأول من القرن الماضى، ومازال تلاميذها يتلمسون العوض عنها فيما يصدر رسميا وغير رسمى من الصحف والمجلات فلا يجدون.

ولندع الزيات فى جوار ربه ونتحدث عمن لايشك أحد فى أصالة اتجاههم وجليل زعامتهم للفكر العربى لنعرف ما يقول هؤلاء المثقفون الحقيقيون فيكون حديثهم الصريح عصا موسى التى تلقف ما يدعى مثقفو اليوم ونصفهم بالثقافة جبرا لخواطرهم، فالواقع أنهم منها بمكان بعيد، وسيصابون بصدمة عنيفة حين نذكر لهم آراء عباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم ومنصور فهمى وهم جميعا من الزعامة الأدبية فى مصر والعالم العربى بحيث لا ترتفع إلى قاماتهم العالية قامة تتمثل فيمن يعارضون المنحى الخلقى فى الأدب متوهمين أنهم وحدهم أولو الثقافة الرفيعة، وإذا صدّقوا أنفسهم فيما يتوهمون فلن يصدقهم من يعرف الأصيل من الدخيل.

لقد أدهش العقاد ما يزعمه مروجو الأدب الماجن من ان الحرية الفكرية هى الدافعة إلى تصويره وكعادته فى سبر الأغوار باحثا عن الدوافع التى بعثت على هذا القول قال فى صراحة:

« حكاية الحرية هى نفسها ضرب من النفاق يسير وراءه السبب الصحيح أو السبب الأكبر لهذا الولع بالمسائل الجنسية وهو الحرمان الجنسى على أنواعه من حرمان العجز أو حرمان الفاقة أو حرمان الحظ والتوفيق، ولولا ذلك الحرمان لما راجت كتب الجنس وفضائحه ».

فإذا تحدث العقاد مبينا السبب فى اصطفاء هذا الضرب من المجون وهو الحرمان، انقض على شبهة أخرى يروجها عشاق الأدب الماجن وهى أن هذا الأدب يصف أمورا لا يجهلها أحد وحينئذ فمن الخير أن تذاع فيقول فى نسف هذا اللغو:

« وليس أسخف من حجة القائلين بأن كُتُبْ الشهوات والفضائح ينبغى أن تنشر، لأنها تصف أمورا واقعة لا يجهلها أحد لأن الناس لايكتبون عن ضرورات الجسد، وهى واقع لاينقطع فى مكان يسكنه إنسان، ولايكتبون عن النقائص التى اصطلحت الأذواق على سترها والسكوت عنها، ولا نعلم أن قانونا وضع من قبل لتحريم الكتابة فى هذه الأمور، فلا حجر على الحرية هنالك ولكنه الحجر على فساد الذوق وابتذال الخلق وسماجة الحديث.

وإذن فالقول بأن هذه الأشياء لا يجهلها أحد ليس مما يدعو إلى كتابتها، فهناك أشياء يعانيها الإنسان فى المرحاض وفى غير المرحاض لايجهلها أحد ولكن الذوق يأبى ان نتحدث بها، فما كل معلوم يجب أن يصرح به حتى يقول هؤلاء: إنها أشياء واقعية لايجهلها أحد!

وقد أبدع الكاتب الكبير حين علل الشغف بالتماس هذه المثيرات الجسدية بفقد العقيدة الروحية، وهو تعليل صائب لأن كل ذى عقيدة روحية يأنف من حديث الشهوات السافلة ويرتفع بنفسه عن دنس يلطخه بقاذوراته، أما هؤلاء فليس لديهم ما يحميهم من هذا الهوان يقول العقاد:

« إن الإنسان لا يطلب المثيرات الحسية إلا لأنه فقد القرار على عقيدة روحية أو على فكرة مثالية أو على ثقة خلقية، ومتى فقد هذا القرار دفعه القلق إلى أن يشغل نفسه بما يثر حسه، وسئم المثيرات لامحالة لأن هذه المثيرات تفقد معناها ولاتصبح مثيرة إذا استمر

التنبيه يوما بعد يوم، وهذا الذى عنيناه حين قلنا: إن الولع بالمثيرات تعويض خاسر عن العقيدة الروحية، وعن الفكرة المثالية وعن الثقة الخلقية؛ لأن هذه القيم الرفيعة تُزوّد النفس بعوامل الحركة وعوامل السكون فى وقت واحد، وإذا احتاج صاحب العقيدة إلى الصبر والقرار وجد من عقيدته معاونا على التبصر والاستقرار».

وفى كلام العقاد وصف وتحليل وعلاج فالوصف يتجلى فى كشف هذه النفوس المريضة وعزلها عن النفوس الصحيحة، والتحليل يتجلى فى إيضاح علة الولوع بوصف الأمور الهابطة فى المخادع والخلوات، وهى الحرمان الذى يعانيه من يدافعون عن كشف هذه العورات، والعلاج يظهر ففى استجاشة العقيدة الروحية وضرورة إحيائها لتكون سدا منيعا أمام هذه المنكرات!(١)

هذا بعض ما قاله العقاد، فماذا قال توفيق الحكيم؟

نعلم أن توفيق الحكيم عميد المسرح المعاصر، وقد وصف فى مسرحياته الكثيرة ألوان النشاط الاجتماعى وأحوال النفس البشرية وأجاد تصوير نوازعها المختلفة من هابطة وراقية ولكنه فى تصوير مشاهد الهبوط لم يتسفّل إلى حضيض المحظور من الانحدارات الهابطة مع أنه أجاد تصوير أدق المواقف الخطيرة بما لا يجرح مشاعر الإنسان المتحضر وكأنه التزم بالتصوير القرآنى حين يصف أدق هذه المواقف وصفا نبيلا يرتفع بالقارىء دون أن ينحدر به كما فى قول الله ـ عزوجل ـ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢).

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ ﴾(٣).

---

(١) يراجع الجزء الثانى من يوميات العقاد ص١٩٤، وص٤٤٣.

(٢) الأعراف (١٨٩).

(٣) البقرة (١٨٧).

وقد أنكر على فريق من الروائيين أن يخالفوا الخلق الرفيع فيما يعرضون من مواقف مؤكدا أن الفن الذى لايتسم بالخلق أحط مرتبة من غيره لأنه يشقى الإنسانية ولا يسعدها، ووظيفة الفن الرفيع أن يرتفع بالمشاعر إلى حيث تجد الطمأنينة والاستقرار، ثم يستشهد بقول جربو (إن الروح الأخلاقى عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معاً وفى وقت واحد من أعماق طبيعته، وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أحطّ مرتبة حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ذلك أن الفن العالى ليس هو الذى يثير فى النفس أحرَّ المشاعر وأعنفها فحسب، بل ذلك الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأنبلها وأرحمها، وإن خطر الفنّ يرجع إلى تلك القدرة العجيبة التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته ويستلب اعجابك بصوره وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض، فإذا أبدع الفن فى تصوير نوع من الشذوذ والانحطاط وحملك بهذا الاعجاب على ان تعطف على الانحلال، فإن مجتمعا بأسره تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن.(٤)

وإذن فعدوى الانحلال الروائى فى عالم الفن تنتقل مباشرة إلى المجتمع الإنسانى نفسه ويصير الأدب الساقط أداة هدم تكتسح رواسى الاستقرار، والذين يجنحون إلى هذا الضرب من التسفل يحتاجون إلى دروس فى الخلق الإنسانى، إذ أنهم يجهلون ما ترفده كتب الأخلاق من نوازع كريمة ترتفع بقارئها عن التسفل، ومن يصور الرذيلة هذا التصوير لايعرف كيف يصور الفضيلة، إذ هو يجهلها تمام الجهل ولو عرف منازعها الشريفة ما انحدر إلى هذه الموبقات، ومن هنا تخصص قصاصون فى الشرق والغرب فى تصوير الرذائل وحدها لأنهم لايفهمون غيرها، وإذا كان الكاتب بهذا القصور الإنسانى الشائه فحرام عليه أن يطالع الناس بمظاهر قصوره بل بمظاهر سقوطه! وقد قال بعض الكاتبين عن قصة بغيضة: إنها أدب جنس، فرد عليه العقاد بأنها جنس فقط! أما الأدب فلا يليق أن توصف به، والجنس تعرفه الحيوانات كما تعرفه الأناسى وإذن فلا فارق!

أما الدكتور منصور فهمى فهو مدير جامعة الأسكندرية من قبل وعميد كلية الآداب بالقاهرة حين كانت هى الكلية الوحيدة فى مصر التى ترسل أضواء الثقافة المعاصرة على العالم العربى جميعه وقد عرفته الندوات الأدبية فى قاعة يورث فى الجامعة الأمريكية وفى جمعية الشبان المسلمين متحدثا بارعا من كبار المحاضرين يقرن اسمه باسم الدكتور طه حسين، إذ كثيرا ما كانا يشتركان فى جدال علمى رشيد، هذا الرجل العظيم حقا قد تحدث عن وباء الأدب الإباحى بالجزء الثانى من مجلة كلية الآداب الصادرة فى سنة ١٩٥٧ وكأنه يتحدث الآن مع مضى ما يقرب من نصف قرن إذ ألهمه الله أن يرد على شبهات هؤلاء المتحللين فيدفعها بسيف لايفل وبمنطق سديد لايجد المنصف غير الاذعان له عن رضاً واطمئنان، تحدث عن الفوضى فى فهم الحرية وعن ادعاء أنها لا تتقيد بقيود فقال فى دفع هذا المروق:

(٤) فن الأدب لتوفيق الحكيم ص٧٧.

ولعل أول ما يعن للخاطر أن الحرية لا تتقيد بقيود، ولاتحدها حدود، ولكن الحقيقة أن الحرية فى الفن الجميل والإلهام الحر عند الفنانين تتقيد بسيرهم فى محيط الدائرة حين يصدرون عن مبدأ الجمال وينتهون إليه كما هو خالص مستمد من الأزلية ومن الله، يحدده العقل السليم، وَيقرُّهُ العرف المستقيم ويستسيغه الذوق القويم، وتهدى إليه فطرة الله.

وعلى ذلك فإن الحرية للفنان الموهوب لايمكن أن تسول إليه تصويرالفاحشة ليغرى بها، أو تشخيص الخيانة ليحض عليها، أو تبرز الإباحية ليزكيها، أو ترسم الضلالة ليدعو إلى السير فيها، فإن ذلك كله ليس من مطالب العقل السليم أو العرف الصالح أو مألوف الذوق المستقيم، كلا، ولا من فطرة الخلق ولا من وحى الله، فإذا انحدر الفنان إلى تصوير ما أسلفنا فإنك لاتحس إلا الذل والإسفاف الهوان؛ لأن ذلك من عمل الشيطان، فليس للفنان أن يلبس الحق بالباطل باسم الحرية فى الفن وليعلم أن الفن، يرتفع ويسمو بالناس إلى المعانى الخالدة ولا ينحط إلى حضيض الشهوات، والفن السليم وراءه الله، والحق مقصده ومرماه، والخير غايته وقصاراه ثم يرد فى مقال تالٍ على ما يزعمه بعض الأغرار من أن حديث الغرائز الهابطة مما يؤثر فى النفوس فهى إذن تتطلبه يرد على ذلك فيقول:

«ولعلك تقول لى كيف تنكر الجمال فيما يؤثر فى النفوس، فأقول: نعم إن الذى يثير فى النفوس شهوات دنيئة هو مؤثر بلاشك ولكنه غير جميل، فليس كل مؤثر يصح أن نخلع عليه صفة الجمال؛ لأنِ التأثر بالجمال قد يأتى من وسائل أخرى لاتمت إلى الجمال بصلة كتأثير السحرة الذين تنطلى عليك طرائفهم وأنت واثق أنهم كاذبون فهناك فرق إذن بين التأثير الحقيقى الذى يسكبه فى النفوس شعاع الجمال، وبين التأثير الزائف الذى تسوقه غرابة خادعة أو أكذوبه بارعة».

هذه أقوال صريحة لأئمة الفكر المعاصر من كبار المثقفين، أنقلها ليعرف من لم يكن يعرف أن زعماء الثقافة الحقيقية يقفون مع الخلق الكريم فى ترفعه ونبله وحيائه، فإذا جاء مدعو الثقافة اليوم ليعلنوا أنهم فى جانب الأدب الإباحى الذى يصور الواقع الخسيس دون حياء فليعلموا أنهم بعيدون عن مفهوم الثقافة الحقيقية! وإذا كان أمثال عباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم ومنصور فهمى قد أبانوا باطل هؤلاء المدعين فلم يبق عليهم إلا أن يعترفوا بأنهم ينحرفون عن معنى الأدب الصحيح.

دكتور / محمد رجب البيومى

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي

قال الله – تعالى –: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ
مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ
شَيْـٔٗا وَهُوَ خَيْرٞ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمْۗ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ

حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ **الآيات من ٢١٥ : ٢١٨**

أرشد الله -تعالى- المؤمنين إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم فى طاعة الله، وأن يعدوا أنفسهم للقتال فى سبيله

قال الآلوسى: عن ابن جريج قال: سأل المؤمنون رسول الله -ﷺ- أين يضعون أموالهم فأنزل الله -تعالى- قوله:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ الآية. وعن ابن عباس قال: كان عمرو بن الجموح شيخا كبيرا وعنده مال كثير فقال يا رسول الله: بماذا نتصدق، وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية.

والمعنى: يسألك أصحابك يا محمد أى شىء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم: ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتهما ووفاء لبعض حقوقهما، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم، والمساكين لفقرهم واحتياجهم، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده.

قال الإمام الرازى: فهذا هو الترتيب الصحيح الذى رتبه الله -تعالى- فى كيفية الإنفاق. ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال:

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

أى: وكل ما فعلتموه من خير إما مع هؤلاء المذكورين وإما مع غيرهم حسبة لله وطلبا الجزيل

ثوابه وهربا من أليم عقابه فإن الله به عليم فيجازيكم أحسن الجزاء عليه ..[1].

وظاهر الآية -كما يقول الآلوسى- أن السؤال عن المنفق فأجاب ببيان المصرف صريحا، لأنه أهم لأن اعتداد النفقة باعتباره. وأشار -سبحانه- إجمالا إلى بيان المنفق فإن قوله: ﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ يتضمن كونه حلالا إذ لا يسمى ما عداه خيرا، وإنما تعرض لذلك -أى لبيان المنفق عليه- وليس فى السؤال ما يقتضيه، لأن السؤال للتعلم لا للجدل، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء، طلبه المريض أم لم يطلبه. ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه كحاجتهم إلى ما ينفق بين الأمرين، «وهذا كمن به صفراء فاستأذن طبيبا، فى أكل العسل فقال له: كله مع الخل». فالكلام إذا من أسلوب الحكيم. ويحتمل أن يكون فى الكلام -أى فى كلام السائلين- ذكر المصرف -أيضا- كما فى سؤال عمرو بن الجموح إلا أنه لم يذكره فى الآية للإيجاز فى النظم تعويلا على الجواب، فتكون الآية جوابا لأمرين مسئول عنهما. والاقتصار فى بيان المنفق على الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما فى بيان المصرف للإشارة إلى كون الثانى أهم. وهل تخرج الآية بذلك عن كونها من أسلوب الحكيم أو لا؟ قولان أشهرهما الثانى[2].

ولم يتعرض -سبحانه- هنا لبقية المحتاجين كالسائلين والغارمين إما اكتفاء بذكرهم فى مواضع أخرى، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله -تعالى- فى آخر الآية

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

فإنه شامل لكل خير واقع فى أى مصرف كان.

قال الجمل و«ذا» اسم موصول بمعنى الذى والعائد محذوف، و«ما» على أصلها من الاستفهام ولذلك لم يعمل فيها يسألونك، وهى مبتدأ وذا خبره، والجملة محلها النصب بيسألون. والمعنى يسألونك أى الشىء الذى ينفقونه[3].

وقوله:

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

تذييل قصد به الحض على فعل الخير، لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله ويجازيه عليه بما يستحقه، يشجعه ذلك على الاستمرار فى عمل الخير. وإذا كان بعضنا يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصا ذا جاه يسره هذا العمل، فكيف يكون الحال عندما يعلم المؤمن التقى أن الذى يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذى لا تخفى عليه خافية، والذى يعطى من يشاء بغير حساب.

قال بعض العلماء: وقد اختلف فى هذه الآية. فقيل: إنها منسوخة بآية الزكاة وهى قوله -تعالى-:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ وقيل - وهو الأولى- إنها غير منسوخة، وهى لبيان صدقة التطوع فإنه متى أمكن الجمع فلا نسخ[4].

وقوله:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

حض لهم على بذل النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله، بعد أن حضهم فى الآية السابقة على بذل المال.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٢٦.

(٢) تفسير الآلوسى جـ٢ ص ١٠٥.

(٣) حاشية الجمل جـ١ ص ١٧٠.

(٤) تفسير آيات الأحكام جـ١ ص ١١٤ لفضيلة الأستاذ محمد على السايس.

والكُره -بضم الكاف- بمعنى الكراهية بدليل قوله -تعالى-:

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ﴾ أى أن القتال لشدة ويلاته، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة، وقرئ وهو كره لكم -بفتح الكاف- فيكون فيه معنى الإكراه، لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه، وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية.

ويرى كثير من المفسرين أن القتال إنما كان مكروها للنفوس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف، وإزهاق الأرواح والإنسان ميال بطبعه إلى الحياة، وأيضا لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والحيلولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد، ومشقات تتلوها مشقات، ولكن كون القتال مكروها للنفوس، لا ينافى الإيمان ولا يعنى أن المسلمين كرهوا فرضيته، لأن امتثال الأمر قد يتضمن مشقة، ولكن إذا عرف الثواب هان فى جنبه اقتحام المشقات. ولاشك أن القتال فى سبيل الله -مع ما فيه من صعاب وشدائد- ستكون عاقبته العزة فى الدنيا، والسعادة فى الأخرى.

ويرى بعضهم أن كره المسلمين للقتال ليس سببه ما فيه من شدائد ومخاطر وتضحيات بدليل أنهم كانوا يتنافسون خوض غمراته، وإنما السبب فى كراهيتهم له هو أن الإسلام قد غرس فى نفوسهم رقة ورحمة وسلاما وحبا، وهذه المعانى جعلتهم يحبون مصابرة المشركين ويكرهون قتالهم أملا فى هدايتهم ورجاء فى إيمانهم، ولكن الله -تعالى- كتب على المسلمين قتال أعدائهم لأنه يعلم أن المصلحة فى ذلك، فاستجاب المؤمنون بصدق وإخلاص لما فرضه عليهم ربهم.

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى ظاهر الآية، لأن القتال فريضة شاقة على النفس البشرية، بحسب الطبع والقرآن لا يريد أن ينكر مشقتها، ولا أن يهون من أمرها، ولا أن ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطرى بكراهيتها ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسهل صعوبته، وتحقق به خيرا مخبوءا قد لا يراه النظر الإنسانى القصير. وقد بين القرآن هذه الحكمة فى قوله:

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾

أى: عسى أن تكرهوا شيئا كالقتال فى سبيل الله -تعالى- وهو خير لكم إذ فيه إحدى الحسنيين: إما الظفر والغنيمة -فى الدنيا- مع ادخار الجزاء الأخروى وإما الشهادة والجنة، وعسى أن تحبوا شيئا كالقعود عن الجهاد وهو شر لكم فى الواقع لما فيه من الذل ووقوعكم تحت طائلة الأعداء.

قال الفخر الرازى: معنى الآية: أنه ربما كان الشىء شاقا عليكم فى الحال، وهو سبب للمنافع الجليلة فى المستقبل، ولأجله حسن شرب الدواء المر فى الحال لتوقع حصول الصحة فى المستقبل، وترك الجهاد، وإن كان يفيد -أى بحسب ظنكم- فى الحال صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق ولكن فيه أنواع من المضار منها: أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم.. والحاصل أن القتال فى سبيل الله

سبب لحصول الأمن من الأعداء فى الدنيا وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد فى الآخرة..(٥).

وقال القرطبى: والمعنى: عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقة وهو خير لكم فى أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون ومن مات منكم مات شهيدا، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم فى أنكم تغلبون ويذهب أمركم.

وهذا صحيح لا غبار عليه، كما اتفق فى بلاد الأندلس، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار، فاستولى العدو على البلاد، وأى بلاد؟ وأسر وقتل وسبى واسترق، فإنا لله وإنا إليه راجعون ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!! وقال الحسن فى معنى الآية: لا تكرهوا الملمات الواقعة؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك، وأنشد أبوسعيد الضرير:

رب أمر تتقيه
جر أمرا ترتضيه
خفى المحبوب منه
وبدا المكروه فيه(٦)

وهذا الكلام الذى كتبه الإمام القرطبى من مئات السنين يثير فى النفس شجونا وآلاما، فإن المسلمين ما هانوا وضعفوا إلا عندما تركوا الجهاد فى سبيل الله، وتثاقلوا إلى الأرض، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وآثروا متع الدنيا وشهواتها على الحياة العزيزة الكريمة.

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية: هذا إيجاب من الله -تعالى- للجهاد على المسلمين وأن يكفوا شر الأعداء من حوزة الإسلام. قال الزهرى: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد. فالقاعد عليه إذا استعين به أن يعين، وإذا استغيث به أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، ولهذا ثبت فى الصحيح: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية»، وقال -ﷺ- يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»(٧).

وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين، كل على حسب قدرته.

وقد ختم -سبحانه- هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أى: والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم فى الواقع وأنتم لا تعلمون ذلك، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنه لا يأمركم إلا بما علم فيه خيرا لكم، وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم، ومفعولا يعلم وتعلمون محذوفان دل عليهما ما قبلهما. أى: يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونهما. والمقصود من هذه الجملة الكريمة الترغيب فى الجهاد، والامتثال لما شرعه الله -تعالى- سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف، لأن العليم بالحكم والمصالح هو الله رب العالمين.

وبذلك نرى أن القرآن الكريم لا ينكر على الناس مشاعرهم الطبيعية، وأحاسيسهم الفطرية من كراهية للقتال، ولكنه يربى نفوسهم على الاستجابة لأوامر الله العليم بالغايات المطلع على العواقب، الخبير بما

(٥) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٢٩.
(٦) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٣٩.
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٢.

فيه خيرهم ومصلحتهم، وبهذه التربية الحكيمة بذل المؤمنون نفوسهم وأموالهم فى سبيل رضا خالقهم عن طواعية واختيار، لا عن قسر وإجبار.

وبعد أن حرض الله -تعالى- المؤمنين على بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيله عقب ذلك ببيان حكم القتال فى الأشهر الحرم فقال -تعالى-:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾

.. الآية.

وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير فى سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها: أن النبى -ﷺ- بعث عبدالله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلا كلهم من المهاجرين، وأعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه. فسار عبدالله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة -مكان بين مكة والطائف- فترصد بها عيرا لقريش وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبدالله: سمعا وطاعة!! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع فأما أنا فناهض! فنهضوا جميعا، فلما كانوا فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما يعتقبانه، فتخلفا فى طلبه، ومضى عبدالله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة فمرت عير لقريش فى طريقها لمكة وكانت فى حراسة عمرو بن الحضرمى وعثمان بن المغيرة، وأخويه نوفل والحكم بن كيسان. فتشاور المسلمون وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن فى الحرم فليمتنعن منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى «واقد بن عبدالله» عمرو ابن الحضرمى بسهم فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم.

وقيل كان ذلك فى أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ.

ثم أقبل عبدالله ومن معه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس فأنكر رسول الله -ﷺ- ما فعلوه وقال لهم: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام، واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله -تعالى- قوله:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾(٨).

والمعنى: يسألونك يا محمد عن حكم القتال فى الشهر الحرام، قل لهم: القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقبح، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاك لمحارم الله -تعالى-.

والسائلون قيل هم المؤمنون، وقد سألوا عن حكم

(٨) تفسير ابن كثير - بتصرف وتلخيص - جـ ١ ص ٢٥٤ ، وسيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٠.

ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم. وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعيير للنبي -ﷺ- وأصحابه حيث أقدم بعضهم وهو عبدالله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به .. إلخ أكبر من ذلك بكثير.

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين. وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم في حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجرا.

والمراد بالشهر الحرام: الأشهر الحرم جميعها وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، فـ«أل» في الشهر للجنس. وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذي حدثت فيه قصة عبدالله بن جحش وأصحابه. وقوله «قتال فيه» بدل اشتمال من الشهر الحرام، و ﴿ قِتَال ﴾ مبتدأ و ﴿ كَبِيرٌ ﴾ خبر و ﴿ فِيهِ ﴾ ظرف صفة لقتال مخصصة له.

قال الإمام الرازي: فإن قيل: لم نكر القتال في قوله -تعالى-: «قتال فيه» ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله -تعالى-: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾.

قلنا: نعم ما ذكرتم من أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني غير الأول. والقوم أرادوا بقولهم: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه» ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله وأصحابه فقال -تعالى-:

﴿ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ ﴾. وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيرا ليس هو القتال الذي سألتم عنه؛ بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة. ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة. فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب -بل تحت كل حرف منه- سر لطيف لا يهتدي إليه إلا أولو الألباب[9].

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التي كل جريمة منها أكبر من القتال في الشهر الحرام الذي فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجهلهم بالميقات فقال -تعالى-:

﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾

(٩) تفسير الفخر الرازي جـ ٦ ص ٣٢.

أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال فى الشهر الحرام كبير، ثم قل لهم أيضا على سبيل التوبيخ: إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه، ومن شرككم بالله فى بيته، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزرا عند الله من القتال فى الشهر الحرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبدالله بن جحش ومن معه، وتبكيت المشركين على جرائمهم التى أولها يتمثل فى قوله -تعالى-:

﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى: منع من يريد الإسلام من دخوله، وابتدأ - سبحانه - ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق فى ذاته.

وثانيها قوله: ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أى: كفر بالله -تعالى- وهو معطوف على ما قبله.

وثالثها قوله: ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾

وهو معطوف على سبيل الله أى: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار.

ورابعها قوله: ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ ﴾ أى: وإخراج النبى -ﷺ- وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه، كل ذلك «أكبر» وأعظم إثما «عند الله» من القتال فى الشهر الحرام.

قال الجمل: فقوله «أكبر» خبر عن الثلاثة أعنى: صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان:

أحدهما: أن يكون خبرا عن المجموع.

وثانيهما: أن يكون خبرا عنها باعتبار كل واحد كما تقول: زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد أى: كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد، وهذا هو الظاهر. والمفضل عليه محذوف أى: أكبر مما فعلته السرية(١٠).

ثم أضاف -سبحانه- إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال:

﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ أى: ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتل فى الشهر الحرام، لأن الفتنة عن الدين تفضى إلى القتل الكثير فى الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم فى الآخرة.

وقيل المراد بالفتنة هنا الكفر. أى: كفركم بالله أكبر من القتل فى الشهر الحرام. وأصل الفتنة: عرض الذهب على النار، لاستخلاصه من الغش، ثم استعملت فى الشرك وفى الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد.

ويعزى إلى عبدالله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا: استحل محمد وأصحابه القتال فى الشهر الحرام:

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة
وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد
وكفر به، والله راء وشاهد

(١٠) تفسير الجمل جـ ١ ص ١٧٣.

وإخـراجكم من مـسـجـد الله أهله
لئـلا يرى لله فى البـيـت سـاجـد
فـإنا وإن عـيـرتمونا بقـتـله
وأرجف بالإسـلام باغ وحـاسـد
سـقـينا من ابن الحـضـرمى رماحنا
بنخلة لما أوقـد الحـرب واقـد
دمـا، وابن عـبدالله عـثـمـان بيننا
ينازعـه غل من القـد عـانـد

وقوله -تعالى-:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾

بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها.

أى: ولايزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكى يرجعونكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه. والتعبير بقوله: «ولا يزالون» المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم.

و﴿ حَتَّىٰ ﴾ للتعليل أى

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ ﴾

أو بمعنى إلى، أى: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشىء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين.

وقوله: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ يدل -كما يقول الزمخشرى- على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم، وذلك كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بى فلا تبق علىّ، وهو واثق من أنه لن يظفر به، ويشهد لذلك التعبير بـ«إن» المفيدة للشك.

وفائدة التقييد بالشرط «إن» التنبيه على سخافة عقول المشركين، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدى إلى النتيجة التى يتمنونها وهى رد المسلمين عن دينهم، لأن لهذا الدين ربا يحميه، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه.

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

ويرتدد يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر.

و﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ أى: بطلت وفسدت وأصله من الحبط، بفتح الباء -وهو أن تأكل الدابة أكلا كثيرا تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك. شبه -سبحانه- حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالا عليه، بحال الدابة التى أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها.

والمعنى: ومن يرتدد منكم عن دين الإسلام، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة، وصارت غير نافعة لهم لا في الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين، ولا في الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا أبديا كسائر الكفرة، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئا.

وجيء بصيغة الافتعال من الردة وهي مؤذنة بالتكلف، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه، فهذا المرتد لم يكن مستقرا على هذا الدين الحق وإنما كان قلقا مضطربا غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول فى الدين الحق دون الثبات عليه.

وفى قوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهي أن يردوا المسلمين جميعا عن دينهم. بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم، فيكون الله -تعالى- قد نفى خبثه عن هذا الدين، إذ لا خير فى هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد إليهم بعد إيمانه، والكل مأواهم النار وبئس القرار.

قال الجمل: و« من » شرطية فى محل رفع بالابتداء، « يرتدد » فعل الشرط، و« منكم » متعلق بمحذوف لأنه حال من الضمير المستكن فى يرتدد، و« من » للتبعيض والتقدير: ومن يرتدد فى حال كونه كائنا منكم أى بعضكم، وعن دينه متعلق بـ« يرتدد » وقوله: « فيمت وهو كافر » عطف على الشرط والفاء مؤذنة بالتعقيب، وقوله:

﴿ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ جملة حالية من ضمير يمت. وقوله: « فأولئك » جواب الشرط. وقوله « وأولئك أصحاب النار » مستأنف لمجرد الإخبار بأنهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط..[١١].

وفى الإتيان باسم الإشارة « أولئك » فى الموضعين تنبيه إلى أنهم أحرياء بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر.

وفى التنصيص على حبوط أعمالهم فى الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم، فهم فى الدنيا -بسبب ردتهم- تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت، والدفن فى مقابر المسلمين، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين، أما فى الآخرة فشأنهم شأن الكافرين فى ملازمتهم للنار. هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة:

١- حرمة القتال فى الشهر الحرام، والجمهور على أن هذا الحكم منسوخ وأنه لا حرج فى قتال المشركين فى الأشهر الحرم لقوله -تعالى-:

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾

فإن المراد بـ« الأشهر الحرم » هنا هى أشهر العهد الأربعة التى أبيح للمشركين السياحة فيها فى الأرض،

(١١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ ص١٧٤.

لا الأشهر الحرم الأربعة المعروفة، فالتقييد بها يفيد أن قتلهم بعد انسلاخها مأمور به في جميع الأزمنة والأمكنة. وأيضا لأن الرسول -ﷺ- غزا هوازن وثقيف وأرسل بعض أصحابه إلى أوطاس ليحارب من فيها من المشركين، وكان ذلك في بعض الأشهر الحرم، ولو كان القتال فيهن حراما لما فعله النبي -ﷺ-.

قال الآلوسى: وخالف عطاء فى ذلك، فقد روى عنه أنه سئل عن القتال فى الشهر الحرام فحلف بالله -تعالى- ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكما مستمرا إلى يوم القيامة، والأمة اليوم على خلافه فى سائر الأمصار(١٢).

وقد رجح بعض العلماء ما ذهب إليه عطاء فقال: ومهما يكن فإن القتال فى الأشهر الحرم حرام فى حال الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه. ولقد قال جابر: كان رسول الله -ﷺ- لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يُغزَى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ.

ولقد قال بعض العلماء: إن تحريم القتال فى الشهر الحرام منسوخ بقوله -تعالى-:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾

وبقتال النبى -ﷺ- أهل الطائف فيه. والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ صريح فى النسخ فإن قوله -تعالى-:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال، وأن النبى -ﷺ- لم يبتدئ قتالا فى الشهر الحرام مختارا قط، والتحريم فى الاختيار والابتداء كما بينا لا فى البقاء والإضطرار، لذا قال -سبحانه-:

﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾، ولأن الأشهر الحرم نص عليها فى خطبة الوداع وكل ما جاء فيها غير منسوخ(١٣).

٢- كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من الآية أن الردة تحبط العمل فى الدنيا سواء أمات المرتد على كفره أم عاد إلى الإسلام قبل موته بدليل قوله -تعالى- فى آية أخرى:

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ فقد علق الحبوط بمجرد الشرك، والخطاب وإن كان للنبى -ﷺ- فالمراد أمته لاستحالة الشرك عليه. وعلى هذا الرأى سار المالكية والأحناف.

ويرى الشافعية أن الردة تحبط العمل فى الدنيا متى مات المرتد كافرا، لأن الآية تقول:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ﴾

ويظهر أثر الخلاف فيمن حج مسلما، ثم ارتد ثم أسلم، فالأحناف والمالكية يوجبون عليه إعادة الحج لأن الردة أحبطت حجه، والشافعية يقولون: لا حج عليه لأن حجه قد سبق والردة لا تحبط العمل إلا إذا مات الشخص كافرا.

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وبعد أن بين -سبحانه- وتعالى عاقبة من

---

(١٢) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١٠٨.

(١٣) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة - العدد العاشر ص ٥٩٩.

يرتد عن دينه أتبع ذلك ببيان عاقبة المؤمنين الصادقين فقال –تعالى–:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

قال الإمام الرازى: فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول: أن عبدالله بن جحش قال: يا رسول الله: هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا، فهل نطمع منه أجرا وثوابا؟ فنزلت الآية لأن عبدالله كان مؤمنا وكان مهاجرا وكان مجاهدا بسبب هذه المقاتلة.

وفى الثانى: أنه تعالى لما أوجب الجهاد قبل بقوله:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾

وبين أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به وجزاؤه فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد»(١٤).

والمعنى: إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واستقاموا على طريق الحق، وأذعنوا لحكمه، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه، ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ أى: تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرة دينهم، ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لإعلاء كلمته «أولئك» الموصوفون بتلك الصفات الثلاثة ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ أى: يؤملون تعلق رحمته –تعالى– بهم، أو ثوابه على أعمالهم ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أى: واسع المغفرة للتائبين المستغفرين، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين.

قال القرطبى: «والهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع، والقصد ترك الأول إيثارا للثانى. والهجر ضد الوصل، والاسم الهجرة. وجاهد مفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد. والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود، والجهاد – بالفتح – الأرض الصلبة.

وإنما قال ﴿ يَرْجُونَ ﴾ وقد مدحهم لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ لأمرين:

أحدهما: أنه لا يدرى بماذا ختم له.

والثانى: لئلا يتكل على عمله والرجاء أبدا معه خوف كما أن الخوف معه رجاء(١٥).

وجيء بهذه الأوصاف الثلاثة مترتبة على حسب الواقع إذ الإيمان يكون أولا ثم المهاجرة من أرض الظالمين إذا لم يستطع دفع ظلمهم، ثم الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق.

وأفرد الإيمان بموصول وحده لأنه أصل الهجرة والجهاد وجمع الهجرة والجهاد فى موصول واحد لأنهما فرعان عنه.

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد دعت المؤمنين إلى بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيل نصرة الحق بأحكم أسلوب وبرأتهم مما أثاره المشركون حولهم من شبهات وحذرتهم من السير فى طريقهم، وبشرتهم بحسن العاقبة متى استجابوا لتعاليم دينهم، واعتصموا بحبله.

«يتبع»

(١٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٢ ص ٤١.

(١٥) تفسير القرطبى جـ ٢ ص ٥١.

العناية بكتابة السنة النبوية

فى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام (*)

للدكتور / أحمد معبد (**)

يقول الله - عز وجل -:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) والذكر هنا هو القرآن الكريم، وقد قررت هذه الآية بوضوح وتأكيد أن الله تعالى بعظمته العليا كما تفرد بإنزاله على رسوله الكريم، فقد تفرد أيضاً بحفظه وصيانته العامة الأبدية من أى تحريف أو دخيل، ومن لوازم حفظه - سبحانه - لكتابه العظيم، أنه حفظ أيضاً سنة رسوله - ﷺ - التى جعلها بياناً له معصوماً من الخطأ، لصدوره من مقام النبوة الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، ولما كانت بداية بعثته - ﷺ - فى الأميين لحكم سامية، فإن المرحلة الأولى لتلك البعثة قد شاعت فيها أمية القراءة والكتابة بلغة العرب التى اختارها - الله تعالى - لتكون لغة القرآن الكريم، ولم تكن تلك الأمية مثل أمية عصورنا هذه التى تحول بين صاحبها وبين سلامة النطق واستقامة الفهم لما يسمعه، بل كان من دلائل نبوته - ﷺ - كونه أمياً، وكان الأمى من العرب الخلص يتمتع بسليقة أصيلة تجعله ينطق العربية نطقاً صحيحاً، ويفهمها فهماً سديداً.

(*) تستفتح مجلة الأزهر نهجاً فى الكتابة عن السنة النبوية الشريفة لعالم من علماء الأزهر نجله ونقدره كما نقدرهم جميعاً، كما نقدر أساتذتنا أهل التخصص فى الحديث نرجو للأستاذ الشيخ أن يتابع مع قراء المجلة هذا النهج الموثق الكريم.

كما نقدم دعوة صادقة لكل أساتذة الحديث، والفقه بالأزهر الشريف أن يوافونا بإنتاجهم الرفيع على هذا المستوى العلمى الذى يليق بالمجلة ويليق بهم. حتى نصدر أبواباً خاصة بالفقه والحديث.. والله الموفق.

(**) أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر.

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

كما كان العربى الأمى يتمتع – أيضاً – بحافظة تفوق قوتها ودقتها الوصف بحيث جعل الغالب فيهم تعويله الأصلى عليها بما يعوضه فى غالب أمره عن حفظ الكتابة والقراءة، بل إن محمد بن عكرمة ابن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام قال: كان ابن شهاب يختلف إلى الأعرج – يعنى عبدالرحمن بن هرمز صاحب أبى هريرة – فيسأله الحديث، ثم يأخذ قطعة ورق فيكتب بها ثم يتحفظ، فإذا حفظ الحديث مزق الرقعة، وفى رواية: كنا نأتى الأعرج ويأتيه ابن شهاب فنكتب ولا يكتب ابن شهاب، فربما كان الحديث فيه طول فيأخذ ابن شهاب ورقة من ورق الأعرج ثم يكتب، ثم يقرأ، ثم يمحوه مكانه، وربما قام بما معه فيقرؤها ثم يمحوها. (٢)

وروى الفسوى فى تاريخه من طريق عبدالرحمن ابن سلمة الجمحى قال: سمعت عبدالله بن عمرو ابن العاص يحدث عن رسول الله – ﷺ – حديثاً فكتبته، فلما حفظته محوته:

« قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً وصبر على ذلك » (٣)

ومن هذا يستفاد أهمية الحفظ للسنة فى الصدور ومدى الاعتماد عليه فى عهد الصحابة والتابعين لكن رغم هذا فإن الرسول – ﷺ – استعمل الكتابة وأذن فى استعمالها فى حفظ السنة النبوية طالما توافر تمييزها عن المكتوب من القرآن الكريم من جهة، وكانت الكتابة محققة لغاية الحفظ المطلوب للسنة أو لتبليغها للغير من جهة أخرى.

وبهذا صارت السنة النبوية تحفظ عن الرسول – ﷺ – وعن صحابته بطريقين متكاملين: الأولى: طريقة التلقى بالسماع أو المشاهدة أو غيرهما، وحفظ المتلقى فى الذاكرة فقط دون كتابة.

والثانية: طريقة الكتابة بجانب الحفظ فى الذاكرة وذلك فى بعض ما كان متيسراً مما يكتب عليه حينذاك من العظام والجلود والأوراق.

لكن هذه الطريقة الثانية لم تأخذ حظاً كافياً من إظهار دلائلها وصور العناية بها، وتعداد من قام بها من الصحابة والتابعين فى مباحث خاصة بذلك، ولعل ذلك لأنها لم تكن محل شك أو إنكار فى عصور تدوين السنة فى مصنفات خلال القرن الثانى والثالث.

لكن جاء فى العصور المتأخرة من غير واحد، ممن ينسبون إلى البحث والاطلاع والتمحيص ينتقدون السنة النبوية من جهة عدم العناية بكتابتها وتدوين مروياتها وتصنيفها فى مصنفات متداولة إلا فى وقت متأخر عن عصر الرسول – ﷺ – وصحابته، ويرتبون على ذلك الزعم بكثرة الدخيل فيها عند تصنيفها المتأخر عن عصر النبوة والصحابة.

وقد نهض – بحمد الله – من الباحثين المخلصين من ناقش هذه الانتقادات وردها جملة وتفصيلاً بالأدلة المناسبة، وذلك مثل الشيخ المعلمى فى كتاب: « الأضواء الكاشفة » والدكتور/محمد عجاج الخطيب فى كتابه: « السنة قبل التدوين » – يعنى قبل كتابتها كتابة عامة بأمر الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز فى مدونات جامعة والأستاذ الدكتور/محمد مصطفى الأعظمى فى كتابه: « دراسات فى الحديث النبوى » وغير هؤلاء كثير.

وما أقدمه اليوم هو مساهمة متواضعة فى البيان الواقعى للعناية الظاهرة بكتابة السنة النبوية فى عصره – ﷺ – وعصر صحابته الكرام.

---

(٢) ترجمة الإمام الزهرى من تاريخ ابن عساكر ص٦٠-٦٢ ط/مؤسسة الرسالة.

(٣) المعرفة والتاريخ للفسوى ٢/٥٢٣.

فمن وقائع عنايته - ﷺ - بكتابة السنة:

ما رواه رافع بن خديج - رضى الله عنه - قال: مر علينا رسول الله - ﷺ - يوماً ونحن نتحدث فقال: «ما تحدثون؟» فقلنا: ما سمعنا منك يا رسول الله، قال: «تحدثوا وليتبوأ مقعده من كذب عليّ من جهنم» ومضى لحاجته، وسكت القوم فقال: «ما شأنهم لا يتحدثون؟» قالوا: للذى سمعناه منك يا رسول الله. قال: «إنى لم أرد ذلك، إنما أردت مَنْ تعمد ذلك» فتحدثنا، قال: قلت: يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: «اكتبوا ذلك ولا حرج» [(٤)]

وفى الحديث كما نرى أمر بمعنى الإذن فى كتابة الحديث عموماً مع اجتناب الكذب عليه - ﷺ - قولاً وكتابة.

وللحديث شواهد منها:-

ما أخرجه الحاكم فى المستدرك (١/١٠٦) والنسائى فى الكبرى (التحفة ٣/٨٨٨٥) من طريق ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح، عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - ان النبى - ﷺ - قال: «قيدوا العلم» قلت: وما تقييده؟ قال: «كتابته»

وروى الحديث عن أنس - رضى الله عنه - مرفوعاً وموقوفاً [(٥)] وتضعيف المرفوع ينجبر بالشاهد السابق والآتى.

ولفظ رواية النسائى: إن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: يا رسول الله إنا نسمع منك أحاديث أفتأذن لنا أن نكتبها؟ قال: «نعم» فكان أول ما كتب: كتاب النبى - ﷺ - إلى أهل مكة. «لا يجوز شرطان فى بيع واحد، ولا بيع وسلف جميعاً...» الحديث.

وما فى سند هذا الحديث من عنعنة ابن جريج ينجبر بباقى الطرق السابقة واللاحقة وعن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله - ﷺ - فنهتنى قريش، وقالوا: تكتب كل شئ تسمعه ورسول الله - ﷺ - بشر يتكلم فى الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله - ﷺ - فأومأ بإصبعه إلى فيه فقال: «اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق» [(٦)]

وأخرج البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: ما من أصحاب النبى - ﷺ - أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب [(٧)]

وفى رواية لأحمد وغيره ان أبا هريرة - رضى

---

(٤) أخرجه الرامهرمزى فى المحدث الفاضل واللفظ له حديث (٣٣١)، والخطيب فى تقييد العلم ص٧٢ -٧٣، والطبرانى فى الكبير ٤/حديث (٤٤١٠) مع اختصار القصة فى أوله، ثلاثتهم من طريق عبدالرحمن بن ثوبان قال: حدثنى أبومدرك، قال: حدثنى عباية بن رفاعة بن رافع، ابن خديج عن رافع به وأبومدرك هو عبدالله بن مدرك الأزدى شامى - ذكره ابن عبدالبر فى الاستغناء (١٩١١) ولم يذكر فى حاله شيئاً ولا ذكر راوياً عنه سوى ابن ثوبان، وما ذكر فى الميزان ٤/ت ١٠٥٨٩، وفى اللسان ٧/ت ١١١٨ و١١١٩ فلا يتفق مع ترجمته فى الاستغناء وهى الموافقة، فهو مجهول. وانظر أيضاً تهذيب الكمال ١٤/ت ٣١٤٩ عباية بن رفاعة.

(٥) تقييد العلم ص٩٧، وجامع بيان العلم ١/٣٩٥، والمستدرك ١/١٠٦، ومسند الشهاب (٦٣٧).

(٦) أخرجه الإمام أبوداود حديث (٣٦٤٦)، وبنحوه أخرجه الإمام أحمد ٢/٢٠٧/ح ٦٩٣٠، والحاكم ١/١٠٥ وصححه، وأقره الذهبى، وقال الجاحظ فى الفتح (١/٢٠٧): إن طرقه يقوى بعضها بعضاً.

(٧) صحيح البخارى (مع الفتح)/كتاب العلم/حديث (١١٣).

الله عنه – قال: إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب بيده ويعى بقلبه، وكنت أعى ولا أكتب بيدى، واستأذن رسول الله – ﷺ – فى الكتابة فأذن له[8]

وبهاتين الروايتين ينجبر ضعف غيرهما مما تقدم، من حديث رافع بن خديج وأنس وبعض طرق حديث عبدالله بن عمرو ويكون ما ذكره الشيخ رشيد رضا – رحمه الله – فى مجلة المنار[9] من الاقتصار على تضعيف حديث أنس – رضى الله عنه – من بعض طرقه مردود عليه بوجود ما يشهد له من الصحيح والحسن كما ترى.

كما أن حديث أبى هريرة السابق ينبغى أن يلاحظ فيه أمران متعلقان بموضوعنا:

الأمر الأول: المنافسة الظاهرة بين أبى هريرة وبين عبد الله بين عمرو رضى الله عنهم فى حفظ ماتلقياه عن الرسول – ﷺ – بما يدل على علو همة من تصدى لهذه المهمة من الصحابة الكرام، وحرصه على القيام بها على أتم وجه.

الأمر الثانى: توافر عوامل طريقتى الحفظ معاً وهما حفظ الصدورمن أبى هريرة، وحفظ السطور من عبدالله بن عمرو – رضى الله عن الجميع. بحيث لا يظن من اقتصار أبى هريرة عن حفظ الصور أن محصلته كانت أقل أو ضبطه كان أضعف.

وذلك لأن ابن الجوزى وغيره ذكروا أن أبا هريرة قد روى عنه (٥٣٧٤) حديثا[10] فى حين ذكروا أن عبدالله بن عمرو قد روى عنه (٧٠٠) حديث، وقيل أقل من ذلك[11].

كما أن أبا هريرة أتيحت له فرصة ذهبية جعلت لحفظه مزية عليا حيث إن رسول الله – ﷺ – حدث يوماً وقال: أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثى هذا، ثم يجمعه إلى صدره، فإنه لم ينس شيئاً سمعه، قال أبوهريرة: فبسطت بردة على حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدرى فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئاً حدثنى به[12] ومن أجل ذلك قال الذهبى: كان حفظ أبى هريرة الخارق، من معجزات النبوة[13] وشهد له به غير واحد من الصحابة عن رؤية ومعايشة علمية، واختبار[14].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن هذه الأحاديث الصحيحة المفيدة لإذنه – ﷺ – فى كتابة الحديث عنه، والأحاديث أيضا التى اشتملت على نهيه – ﷺ – عن ذلك كحديث أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – عند مسلم: أنه – ﷺ – قال: «لاتكتبوا عنى شيئا غير القرآن» لا تعارض بينها فى الحقيقة لأنه يمكن الجمع بينها بوجوه متعددة ومعتبرة وقال: إن أقربها: أن النهى متقدم زمنا والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس، ثم قال: وقيل: إن النهى خاص بمن خُشىٍ منه الاتكال على الكتابة دون الحفظ، والإذن لمن أُمن منه ذلك، ثم قال الحافظ: قال العلماء: كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظاً كما أخذوا حفظاً، لكن لما قصرت الهمم وخشى الأئمة ضياع العلم دونوه.

---

(٨) المسند ٢/٤٠٣/ح ٩٢٣١، والفتح ١/٢٠٧.

(٩) مجلة المنار ١٠/٧٦٣ – ٧٦٦.

(١٠) ينظر تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى/ ٣٦٣ وسير النبلاء ٣/٥٩٤

(١١) تلقيح فهوم أهل الأثر /٣٦٣.

(١٢) أخرجه البخارى– كتاب الحرث والمزارعة برقم (٢٣٥٠) ومسلم، واللفظ له، فى فضائل الصحابة برقم (٢٤٩٢) كلاهما من حديث أبى هريرة.

(١٣) السير ٣/٥٩٤.

(١٤) سير النبلاء ٣/٥٩٨،٦٠٣،٦٠٤،٦٠٦،٦٠٧.

وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبدالعزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير فلله الحمد.(١٥)

وبجانب ما أفادته الأحاديث السابقة من إذنه ـ ﷺ ـ العام فى كتابة الصحابة الحديث عنه، فقد جاءت أحاديث أخرى بإذنه بالكتابة لأسباب ودواع خاصة: فمن ذلك: أنه فى عام الفتح لما قتل رجل من خزاعة رجلاً من بنى ليث، ركب ـ ﷺ ـ راحلته ليخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين».. الحديث فى حرمة مكة وحكم من يقتل فيها، فقام أبوشاه ـ رجل من أهل اليمن ـ فقال اكتبوا لى يارسول الله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اكتبوا لأبى شاه» قال الوليد بن مسلم ـ راوى الحديث عن الأوزاعى ـ قلت للأوزاعي: ماقوله: اكتبوا لى يارسول الله؟ قال: هذه الخطبة التى سمعها من رسول الله ـ ﷺ ـ(١٦) وفى رواية للبخارى أيضا ان الرجل قال: إن الرجل قال: اكتب لى يارسول الله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اكتبوا لأبى شاه» (١٧).

وتحديد زمن الحديث بأنه عام الفتح صريح فى صحة تأخر الإذن بالكتابة، لأن الفتح كان فى أواخر حياته ـ ﷺ ـ كما هو معلوم

وقد علق عبدالله بن أحمد ـ رضى الله عنه ـ على رواية الحديث فى المسند بقوله: »ليس يروى فى كتابة الحديث شئ أصح من هذا الحديث، لأن النبى ـ ﷺ ـ أمرهم فقال: «اكتبوا لأبى شاه ما سمع النبى ـ ﷺ ـ خطبته»(١٨).

ويلاحظ أن هذا الإذن بمناسبته المذكورة، ولسائل معين، ومع ذلك قرر عبدالله بن أحمد أنه أصح ما يروى فى كتابة الحديث مطلقا دون تقييد.

وهناك ماذكر أن سبب الإذن فى كتابته كان خشية النسيان.

فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن طريق عمروبن شعيب عن أبيه عن جده – يعنى عبدالله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما –قال: قلتُ يا رسول الله، إنا نسمع منك أحاديث لا نحفظها أفلا نكتبها؟

قال: بلى فاكتبوها.(١٩)

وما فى إسناده فى هذا الموضع من ضعف ينجبر بطرقه الأخرى مثل طريق أحمد الأخرى(٢٠) وأخرج الترمذى من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبى – ﷺ – فيسمع منه الحديث فيعجبه فشكا ذلك إلى النبى – ﷺ – فقال: يا رسول الله: إنى أسمع منك الحديث فيعجبنى ولا أحفظه، فقال رسول الله – ﷺ – «استعن بيمينك» وأومأ بيده للخط.

وقد ضعف الترمذى الحديث بإسناده الذى أخرجه به، ولكن أشار إلى أن ضعفه ينجبر بما يشهد له من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – فقال: وفى الباب عن عبدالله بن عمرو(٢١) وهو حديث صحيح كما تقدم.

وهناك ما كتبه النبى – ﷺ – لبعض عماله من الصحابة مثل عمرو بن حزم الأنصارى – رضى الله عنه – وكان ممن شهد غزوة الخندق، وقد استعمله –

---

(١٥) فتح البارى ٢٠٨/١.

(١٦) البخارى مع الفتح حديث ١١٢، ٢٤٣٤.

(١٧) البخارى مع الفتح حديث ٦٨٨٠.

(١٨) المسند للإمام أحمد ٢٣٥/٢.

(١٩) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢١٥/٢/ح ٧٠١٨.

(٢٠) وهى فى المسند ١٦٢/٢/ح ٦٥١٠٦.

(٢١) جامع الترمذى/ كتاب العلم/ حديث (٢٦٦٦).

ﷺ – على نجران، وكتب له كتاباً إلى أهل اليمن فيه الفرائض، والسنة، والزكاة، والديات، وغير ذلك(٢٢).

وعن الضحاك بن سفيان الكلابى، ممن وفد على رسول الله – ﷺ – وكان والياً على قومه، وروى سعيد بن المسيب عنه أن الرسول – ﷺ – كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها(٢٣).

وعن رافع بن خديج – رضى الله عنه – أنه قال لمروان بن الحكم: إن مكة إن لم تكن حراماً، فإن المدينة حرم، حرمها رسول الله– ﷺ– وهو مكتوب عندنا فى أديم خولانى، إن شئت أن نقرئكه فعلنا، فناداه مروان: أجل بلغنا ذلك(٢٤) وله شاهد فى صحيح مسلم يرتقى به إلى الصحيح لغيره(٢٥) والأديم الخولانى نوع من الجلود، وكانت الكتابة تتخذ للكتابة حينذاك.

ومنه يستفاد: أن رافعاً كان يحتفظ ببعض الأحاديث المكتوبة عن رسول الله– ﷺ– وكان يرجع إليها فى مناسباتها، وقد سبقت روايته حديث إذنه– ﷺ– بالكتابة خشية النسيان.

قال الخطيب: ولو لم يكن فى هذا الباب إلا وقوع العلم بما كان رسول الله – ﷺ – يكتبه من عهود السعاة على الصدقات وكتابه لعمرو بن حزم لما بعثه إلى اليمن لكفى، إذ فيه الأسوة وبه القدوة(٢٦).

وعن القعقاع بن حكيم أن عبدالعزيز بن مروان كتب إلى عبدالله بن عمر أن أرفع إلى حاجتك، قال: فكتب إليه عبدالله: إنى سمعت رسول الله– ﷺ– يقول: «ابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى»(٢٧).

وكان لعبدالله بن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه مرة عبدالله بن عمر: أنه بلغنى أنك تكلمت فى شئ من القدر فإياك أن تكتب إلىّ، فإنى سمعت رسول الله– ﷺ– يقول: «سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر»(٢٨).

وعن عاصم الأحوال، عن أبى عثمان: النهدى أنه كان مع عقبة بن فرقد بأذربيجان أو بالشام قال: جاءنا كتاب عمر: أما بعد ياعتبة بن فرقد.. الحديث وفيه: كان رسول الله– ﷺ– نهى عن لبوس الحرير إلا هكذا، ورفع لنا رسول الله– ﷺ– إصبعه الوسطى والسبابة وضمهما(٢٩)، قال زهير: قال عاصم: هذا فى الكتاب (٣٠).

وفى رواية لأحمد: عن أبى عثمان: كنا مع عتبة بن فرقد، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى– ﷺ– فكان فيما كتب إليه: أن رسول الله– ﷺ– قال: «لا يلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة من شئ، إلا هكذا وقال: بإصبعه السبابة والوسطى» (٣١).

---

(٢٢) أخرجه أبونعيم فى معرفة الصحابة ٤/ حديث (٤٩٧١) وعزاه الحافظ فى الإصابة إلى أبى داود، والنسائى، وابن حبان، والدارمى – الإصابة (مع الاستيعاب) ٢/ترجمة ٥٨١٠.

(٢٣) الإصابة ٢/ترجمة ٤١٦٦، والمنتقى لابن الجارود مع تخريج غوث المكدود/ حديث (٩٦٦) وجامع الترمذى/ حديث (٢١١٠) وقال: حسن صحيح.

(٢٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١٤١/٤ حديث (١٣٧٢٧٢).

(٢٥) صحيح مسلم/حديث (١٣٦١، ٤٥٧).

(٢٦) صحيح مسلم: حديث (١٣٦٢، ٤٥٧).

(٢٧) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١٥٢/٢/ح (٦٤٠٢) وإسناده حسن.

(٢٨) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٩/٢/ حديث (٥٦٣٩) بإسناد حسن، ومن طريقه أخرجه الحاكم فى المستدرك ٨٤/١، ومن طريق غيره، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(٢٩) إشارة إلى أنه لا يحل إلا مقدار أصبعين فقط.

(٣٠) رواه الإمام مسلم فى صحيحه من طرق عن أبى عثمان النهدى/ حديث (٢٠٦٩) مكرراً.

(٣١) المسند للإمام أحمد ٣٦/١/ حديث (٢٤٣).

الدعوة كما ينبغي أن نبلغها

٣

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

زاع واشتهر أن مدرسة الإمام أبى حنيفة - رضى الله عنه - هى مدرسة أهل الرأى وأن أبا حنيفة هو إمام أهل الرأى. كما زاع واشتهر أن مدرسة الإمام مالك بن أنس - رضى الله عنه - هى مدرسة أهل الأثر، وأن مالك بن أنس هو إمام أهل الأثر.

وكذلك اشتهر أن الإمام الشافعى - رضى الله عنه - جمع بين الرأى والأثر.

وليس فى ذلك جديد على المتابع للمدارس الفقهية، ولمن كتبوا عنها فهو مما يعرفه الجميع ويكاد أن يكون مقبولا.

لكن الأمر الذى يمكن أن يكون غير مقبول هو ما زعمه البعض من تعليلات وأسباب لنشأة المذاهب الفقهية، على هذا النحو، حيث قالوا: إن سبب نشأة مذهب أهل الأثر هو أن الإمام مالكا نشأ بالمدينة المنورة، حيث كانت الأحاديث متداولة، والرواة كثيرون والأقضية والسوابق فى الفتيا محفوظة لدى الناس فى دار النبوة فلا حاجة للرأى.

أما فى العراق حيث نشأ الإمام أبوحنيفة فإن النصوص قليلة فكان لابد من الاستعانة بالرأى والقياس.

هذه هى الحجة السهلة - أو الجاهزة أو المغرضة التى لها ما بعدها - التى يلقيها بعض الناس فى تعليل الخلاف بين المدرستين وأنه سبب هذه الظاهرة.

وبرغم سذاجة هذه الحجة من الناحية العلمية والواقعية إلا أن كثيرين ممن يترجمون للأئمة ... يذكرونها، وأحسب أنهم يذكرونها استسهالا لها، وأحسب أنها تريحهم من عناء البحث عن أسباب الخلاف.

وكان من الممكن أن نقبل هذا التعليل أو هذه الحجة (الجاهزة) لكن المشكلة تكمن فى خطر هذا التعليل، ليس على الحقيقة فقط ولكن خطره على ما يقصد به من التعليل وما يؤدى إليه، حيث إنه يؤدى إلى القول بأن الرأى خارج عن حدود النص.

على أنه مهما سلمنا بهذه الحجة - فرضا - فإن ما يدحضها أن مذهب الإمام مالك نفسه هو الذى يقول بالمصالح المرسلة. ولم يقل بها أحد سواه. وإن قال بها، فهو تابع للإمام مالك، والمصالح المرسلة هى الباب الملكى - كما يقولون

– الذى يبقى به الاجتهاد والتأصيل لما يجد من حوادث ومسائل، ولولا اعتماد القول بالمصالح المرسلة لما كان ثمة تجديد حقيقى فى الفقه، ولا كان له سند من علم الأصول.

على أن القول بالرأى لم يكن لعدم وجود الحديث كما يتوهم البعض، أو أن الخلاف كان لقلة الرواية، كما يحب البعض أن يشيع وربما قد شاع عند العامة، والذى نحب أن نؤكده أن الخلاف والرأى كان راجعاً إلى فهم فى نص موجود، وقبل أن أورد لك مثالاً أو أمثلةً لما أقول أحب أن تستوعب معى هذه القصة.

يحكى عن أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة قال: سألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير، فأجبته.

فقال لى: من أين قلت هذا يا يعقوب؟

فقلت: بالحديث الذى حدثتنى به أنت.

فقال: «إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك، ما عرفت تأويله إلى الآن»[(١)]

ولا أحسبك تفهم من هذه القصة أن أبا يوسف قال برأى من عنده، وترك الحديث، كما يروج الذين يرمون المذاهب الفقهية الآن، والذين يحبون أن يقولوا فى الدين بهوى، زاعمين أنهم من أهل الرأى.

ولا أحسبك تكون ممن يرفض المذاهب الفقهية بدعوى أنها مدعاة للخلاف بين المسلمين وما أظن هذا القول إلا أن ديانات أخرى ألقت بظلالها أو شباكها لتوقع بعض المسلمين فى لبس غير وارد ولا مطروح.

وأنهم يريدون إسلاماً بلا مذاهب، وهى حجة داحضة ولافتة براقة خادعة لأن فيها خلطا بين المذاهب السياسية وبين الوعى التشريعى فى الإسلام. حتى صدر كتاب لرجل نحترمه بعنوان: «إسلام بلا مذاهب» وظن البعض من العنوان دون أن يقرأوا حرفا من الكتاب ولا حتى لمسوه بأيديهم أن الكتاب يهاجم الفقه والمذاهب الفقهية، وما هو كذلك!

ونعود إلى الإمام أبى يوسف، إنه لم يضرب بالحديث عرض الحائط، لكنه فهم فهماً لم يصل إليه الأعمش مع علمه وفضله، وحتى لا تغضب وتسارع إلى الرفض، فليس هدفى خصومة أحييها بين الأعمش وأبى يوسف، ولا غلبة أنشدها، انما الحق أبغيه لى ولك بإذن الله.

إن ما دار بين الأعمش وأبى يوسف هو معجزة لرسول الله – ﷺ – أو هو استجابة لدعوة دعاها – ﷺ – قبل أن يولد أبو يوسف والأعمش – أيضا –

يقول – ﷺ –: «رحم الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فبلغها كما سمعها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[(٢)].

وأيضا – قول النبى – ﷺ – الذى ينبع والحديث السابق من معين واحد أو كما قال ملك الحبشة لما سمع سورة مريم من جعفر بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال: «إن هذا والذى أنزل على عيسى يخرج من مشكاة واحدة». إننى أستعير منه هذا التعبير الوضاء الزكى فأقول لك حديث رسول الله – ﷺ – الذى أعنيه وهو قوله: – ﷺ – «إن مثل ما بعثنى به الله – عز

(١) تاريخ بغداد (١٢/٢٤٦)، شذرات الذهب (١/٢٩٩).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير جـ ٥، رقم ٤٩٢٤.

وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»[٣].

وبعيدا عن قصة الأعمش وأبى يوسف – لو تأملت الأحاديث لأدركت أن الرسول الكريم – ﷺ – يخبر ويوصى بأنه علينا أن نسمع حديثه كما قال بلا تحريف وأن نعيه تماماً حتى وإن لم نفهم المراد منه، ولا تحملنا قلة – أو عدم – الفهم على الإنكار أو الرفض للحديث، أو تحريفه، وكل الذى علينا ونحن مطالبون به أن نعى ما نسمع وأن نبلغه كما سمعناه فلعل من يبلغه الحديث يكون أفقه منا، وفى قصة أبى يوسف والأعمش تحقيق لهذا الحديث

على أنه ثمة بحث طريف وعميق فى أصول الفقه بعنوان (عمل الراوى بغير ماروى) هل يؤخذ حديثه أم عمله؟ وليست المسألة (يانصيب) ماذا تأخذ وتختار حتى تحصل على (الكوبون الرابح). إنه عمل جاد يا أخى وهو علم لهونا عنه زمنا بخداع المجددين والحديثين والمطورين، وسوف أصوغ لك الحوار العلمى فى سؤال رشيد حتى تستوعبة:

هل يعتبر عمل راوى الحديث بغير ما رواه طعنا فى روايته فنرفض حديثه؟ أم نعتبر فقهه؟ أم نرفض حديثه وفقهه؟ ولماذا؟ وماهى الحجة عند كل قول؟

قالوا: إن عمل الراوى بخلاف ما روى يدل على وجود النسخ فلا يعمل بحديثه، بحيث لو أن راويا روى حديثا، لكنه عمل بغير روايته فهذا يدل على أن هذا الحكم الذى جاء فيه حديثه نسخ، لكن النسخ ورد من طريق آخر غير طريقه، فعمل هو به، وقد نقول: لماذا تبقى روايته، ولم ينقضها؟

أقول لك: إن الحديث ليس مثل مضبطة مجلس الشعب، نحذف ما نشاء وما لا نريد أن يسمعه ويقرأه الناس، إنما يروى الراوى ما سمعه هو ولا يكذب ماجاءه عن غير طريقه. وهناك بحث واع لفقيه مالكى عظيم، عن الفرق بين الشهادة والرواية.

لماذا نقبل رواية الحديث من راو واحد مع أن الرواية تتعلق بأمور الدين ونشترط فى الشهادة رجلين أو رجلا وامرأتين مع أنها أمور دنيوية.

وأحسب أنك قد بدأت تضيق لكنى لن أثقل كاهلك الغض بهذا البحث وأكتفى بأن أقول: إن البحث موجود وأحيلك إلى كتاب الفروق للعلامة أحمد ابن إدريس المالكى المشهور بالقرافى المصرى وإن كان بعض الباحثين ضن علينا وعلى الفقيه أن يكون مصريا فى مقدمة رائعة لتحقيق جيد لكتابه الذخيرة[٢].

واشترطوا أن لا يكون الحديث مخالفا للقياس، إذا كان راويه غير فقيه لأن عدم فقه الراوى يشكك فى صحة الحديث المخالف للقياس والقواعد العامة.

هذا وقد عمل الإمام أبوحنيفة بحديث مخالف للقياس.

وقد قال الإمام المظلوم الذين اتهموه بأنه يكثر القياس على حساب الحديث، قال: لولا الحديث لقلت بالقياس ولعلك تريد أن تعرف ماهو القياس الذى تركه إمام الرأى والقياس وماهو الحديث الذى آخذ به؟ ولا بأس عليك أن أروى لك الحديث وأذكر

---

(٣) مسلم، كتاب الفضائل (١٧٨٧/٤).

(٣) انظر كتاب الذخيرة، تحقيق د. محمد حجى، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٣ مجلد.

لك القياس فى مسألة أو فى مثال حتى تستبين وجه الصواب فى الفقه الإسلامى.

أما الحديث فهو قوله -ﷺ-: «من أكل أو شرب ناسيا وهو صائم فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه».(٤)

قال أبوحنيفة – رضى الله عنه –: القياس يقتضى أن كل من دخل فى جوفه طعام أو شراب فسد صومه، وكان عليه القضاء لكن أبا حنيفة امتنع من العمل بالقياس من أجل الحديث، وقال: إنه لا شيء على من أكل أو شرب ناسيا.

أما الذى عمل بالقياس فهو الإمام مالك، وقال: إن القياس يقتضى فساد الصوم، ولا تتسرع وتتهم عالم المدينة بأنه رفض الحديث، فهو لم يرفضه ولم يرم به عرض الحائط ولكنه قال: إن الحديث يرفع الإثم عن الذى أكل أو شرب ناسيا، أى أنه لا إثم عليه ولا وزر، لأن النبى -صلى الله عليه وسلم- يقول: رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.(٥)

ومع هذا فالصوم فاسد، ولذلك يقول بوجوب الإمساك حتى نهاية اليوم، وقضاء يوم، لأن هذا اليوم فاسد، فأنت ترى أن أبا حنيفة لم يفت بفساد الصوم، لأنه أخذ بالحديث ومالك أفتى بفساد الصوم، وأخذ بالحديث أيضا، فقد رفع الإثم عن الذى أكل أو شرب ناسيا.

على أننى لا أحب أن أتركك قبل أن أتحدث إليك عن حديث شاع للناس فيه فهم أظنه خاطئا، وأحسب أنه فى حاجة إلى تصويب وأرجو ألا نبادر بالرأى لا أنا ولا أنت، إنما نحتكم إلى العلم والمنطق، ورحم الله الشافعى الذى كان يقول: «ما ناظرت أحدا وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه».

فأنت ترى رجلاً تخلص من ذاتيته وأنانيته وحب الأثرة والغلبة وتجرد لله وحده، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يمن علينا بالإخلاص والتجرد فنحن لم نصل بجهدنا لعلم الشافعى نسأل الله أن نصل بدعواتنا ودعوات إخواننا إلى رحاب إخلاصه، وأحسب أننى أطلت عليك وأنك مشوق لمعرفة الحديث الذى أعنيه.

لقد سمعت أحد المسلمين يقرأ القرآن الكريم لكنه يلحن فيخطئ فى قراءته، فلم أطق صبراً، وتجاسرت عليه فأصلحت له بعض خطئه، وعاود القراءة والخطأ، وأصلحت له لكنه بدأ يضيق بى، وتحملت ما بدر من ضيقه، واحتسبت ما أعانيه عند الله، لكنه تمادى فى قراءته وخطئه، وبدا منه أنه لم يعد يحتمل مراجعتى وهالنى أنه احتج علىَّ بقول النبى – ﷺ – «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه شاق وهو له أجران»(٦).

وفى رواية أخرى: «إن الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به، فهو مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرؤه وهو يشتد عليه، فله أجران».

وهو يريد بذلك أن يبرر خطأه، وزعم أنه مأجور وليس من المهم أن تعرف ما وصلنا إليه أنا وصاحبى ولكن المهم أننى وجدت هذا الفهم عند كثير ممن يقرأون ويخطئون ويلحنون.

وثارت فى نفسى أسئلة: هل تجوز قراءة القرآن مع اللحن البيِّن؟

---

(٤) رواه ابن ماجة فى سننه، كتاب الصيام، باب ما جاء فيمن أفطر ناسيا (١/٥٣٥) برقم ١٦٧٣.

(٥) تفسير ابن كثير (٣/٥٧٠).

(٦) مسلم جـ ١، رقم ٢٤٤.

هل نشدد على المسلمين إذا طالبناهم بقراءة القرآن بقواعده المعروفة؟

هل حقيقة نحن نريد أن نجعل القرآن قاصراً على فئة معينة مثل ماهو واقع فى كتب الأديان السابقة أى: كهنوتية؟

وسألت نفسى: لماذا لو أنك أخطأت فى كلمة واحدة فى اللغة الإنجليزية تجد أكثر من شخص يصوب لك نطقك؟ فضلاً عما تلاحظه فى وجوه القوم حولك وعيونهم من سخرية بك؟ ولماذا نتكلف مادياً وأدبياً فى تحصيل اللغات الأجنبية – وإن كان ذلك جميلاً وحسناً – ما لا نتكلف عُشْرَه فى تعلم القرآن؟ سوف أترك لك الإجابة عن هذه الأسئلة؟

لكن الذى يعنينى فيما نحن بصدده: هل الاستشهاد بالحديث فى موضعه؟ بمعنى هل معنى يتعتع يُخطئ؟ وقبل أن تتسرع بالإجابة أحب أن أقول لك: هل كان الصحابة فى زمن النبى – ﷺ – عندما قال هذا الحديث يقرأون من مصاحف؟ وهل كان ثمة مصاحف فى زمن النبى – ﷺ – وهل كان الصحابة – رضوان الله عليهم يجيدون القراءة والكتابة؟ وهل كانوا يخطئون فى النحو والصرف وهم العرب الذين عنهم أخذنا اللغة؟

وأحبك أن تعرف أن عدد الذين كانوا يكتبون فى عهد رسول الله – ﷺ – قلة وأن المصاحف كانت فى صدور الرجال وبعض الرقاع إلى عهد أبى بكر وجمعت فى عهده ثم كتبت فى عهد عثمان – رضى الله – عنهم جميعا.

إذاً لا يمكن أن يكون معنى يتعتع: يخطئ فى القراءة، وإنما معناه – كما فهمناه وكما هو مثبت فى كتب اللغة وكما هو شائع ومعروف عند حفظة القرآن ومحفظيه فى الكتاتيب المصرية أحياها الله وأحيا من يعمل على إحيائها – معنى الكلمة لم يحفظ جيداً وهذا المعنى توحى به عبارة (الماهر بالقرآن) فى الحديث أى: جيد الحفظ، على أن قواميس اللغة تؤكد هذا المعنى واليك ما قاله صاحب تاج العروس بشرح القاموس: (والتعتع) كجعفر (الفأفأ) عن أبى عمرو قال: (ووقعوا فى تعاتع) أى فى (أراجيف وتخليط) نقله الجوهرى (وتعتعه تلتله) بأن أقبل به وادبر به وعنف عليه قال أبوعمرو (و) قيل تعتعه (حركة بعنف) عن ابن دريد (أو) تعتعه (أكرهه فى الأمر حتى قلق) عن ابن فارس وفى الصحاح تعتعت الرجل إذا اعتلته وأقلقته وفى الحديث قد يؤخذ للضعيف حقه غير متعتع بفتح التاء أى من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه (و) يتتعتع (فى الكلام) اذا (تردد من حصر أوعى) ونقله الجوهرى (كتعتع) ومنه الحديث الذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه له أجران أى يتردد فى قراءته ويتبلد فيها لسانه قال الجوهرى (و) ربما قالوا تعتعت (الدابه) وذلك إذا (ارتطمت فى الرمل) زاد غيره والخبار والوحل(٧).

وفى كتاب النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير جـ١ صـ١٩٠ باب التاء مع العين يقول ما نصه ومنه الحديث الآخر «الذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه أى يتردد فى قراءته ويتبلد فيه لسانه»

أليس ذلك خطأً فادحاً؟ ولسنا فى مجال أنه مقصود أو غير مقصود، لكن الذى يعنينا أن نصوب للناس وأن نعتمد فى البيان على مناهج وأساليب تناسب عصر الناس وعقولهم.

وأحسب أنى قد أطلت عليك، ويبقى لى معك حوارات أخرى حول موضوعات كثيرة سوف تكون موضوع حديثنا القادم إن شاء الله.

(٧) راجع فصل التاء، باب العين، جـ٥ صـ٢٩١ من شرح القاموس المسمى تاج العروس.

دعوة الإسلام إلى الوحدة

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

الوحـــدة:

هى اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات فى سائر أمور حياتهم ومعاشهم، وسيرتهم، وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئاً واحداً، أو أمة واحدة.

يقال اتحد البلدان أى صارا بلداً واحداً، واتحدت الأشياء، صارت شيئاً واحداً.

ويقال: وحّدَ المتعددَ: أى صيره واحدا، واتحد به: أى صار معه شيئاً واحداً.

ولأهمية وحدة الأمة واجتماعها، رد الله- سبحانه-أنسابنا جميعاً منذ وجدت الخليقة وإلى يوم يبعثون إلى أصل واحد، فكلنا لآدم -عليه السلام-، وللبشرية جمعاء أب واحد وأم واحدة، خلقنا منهما «من ذكر وأنثى» قال – جل شأنه – :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

ووضح سبحانه – أن الأمة واحدة، وأن الرب واحد فقال – جل شأنه – :

﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾(٢)

ووضح رب العزة – سبحانه وتعالى – أن وحدة الأمة تستوجب عليها ألا يتفرقوا فى الدين وألا يختلفوا، فقال سبحانه:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(٣).

والذين يفرقون دينهم ويختلفون شيعاً يعادى بعضهم بعضاً بعيدون عن الدين وعن الحق وعن الله ورسوله – ﷺ –، قال تعالى:

(١) سورة الحجرات (١٣).

(٢) سورة المؤمنون (٥١).

(٣) سورة الشورى (١٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

والمتفرقون فريسة لأعدائهم يتغلبون عليهم بسهولة وتتداعى عليهم الأممُ كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، فيُعتدى عليهم فى كل وطن، ويقاتلون فى كل مكان ويضيعون فرقة بعد أخرى وجماعة بعد جماعة، كما يكونون فى فرقتهم فريسة للشيطان ولكل عدوان، عن سعيد بن المسيب – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ –: «الشيطان يهم بالواحد والإثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم»(٥).

ولخطر الفرقة وعدم الوحدة حذر الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – منها أشد التحذير وبين أن الذى يخرج عن الطاعة ويفارق الجماعة يموت على ما كان عليه أهل الجاهلية من البعد عن الدين والوحدة فقال – ﷺ –: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتةً جاهلية»(٦).

وواضح أن قوة المؤمنين فى وحدتهم وأن ضعفهم فى تفرقهم قال – ﷺ –: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(٧).

ومن أجل أن يكون المؤمنون قوة واحدة، لابد أن يتآلفوا ويتعارفوا وأن تسرى روح التعاطف والتراحم فيما بينهم ليصبحوا كالجسد الواحد فيشعر كل منهم بشعور الآخر يفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويشاركه فى السراء والضراء، ويخف لنجدته، ويبادر بمساعدته مصداقاً لقول الرسول – ﷺ –: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٨).

وأن وحدة أمتنا واجبة وضرورية لمواجهة التحديات والتكتلات والأخطار التى تحدق بالأمة من كل جانب، ولو نظرنا إلى ما تملكه أمتنا الإسلامية والعربية من الثروة البشرية والمعدنية والبترول، والعقول والحضارة والعلم، والزراعة إلى غير ذلك من أسباب القوة والمنعة، لو نظرنا إلى ما تملكه أمتنا من هذا كله لكنا على يقين بأننا حين نتوحد ونتجمع نصبح أكبر قوة مؤثرة فى العالم كله.

ومن أجل هذا أدرك أعداء أمتنا، سر قوتنا، فراحوا يعملون على نشر مبدئهم: «فرق تسد» فكانت الحدود المصطنعة وكانت أساليب التفرقة المتعددة فى الثقافة وفى نشر مبادىء الاختلاف بين الأمة لإحداث شروخ بين فصائل الشباب المسلم، وبينهم وبين الدعاة والأنظمة، ومحاولة تضخيم بعض الاجتهادات والخلافات الفقهية.

وإلى جانب هذا سعوا جاهدين فى فصل الأمة عن دينها ودستورها لأنه يوحدها فقال أحدهم فى بعض المؤتمرات لا قرار لنا ما دام المصحف فى أيدى المسلمين.

---

(٤) سورة الأنعام (١٥٩).
(٥) رواه مالك.
(٦) رواه البخارى.
(٧) رواه البخارى.
(٨) رواه البخارى.

الوحـــدة فى الإســـلام

أهميـة الوحـدة: إن الوحدة أساس كل خير فى دنيا الناس وآخرتهم. وإن الفرقة أخطر الآفات التى تقضى على سعادة الناس، وترديهم فى مهاوى التهلكة، وتجرهم إلى وحل المعصية وتظل تفرقهم شيعاً حتى تجعلهم ينفصلون تماماً عن الدين، وفى هذا المعنى يقول الحق تبارك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾(٩).

بل إن العلم نفسه حين لا يقوم على أساس الإخلاص، يؤدى بأصحابه إلى الخلاف واشتجار الأفكار ذلك لأن آفة العناد والتعصب، والبغضاء والحسد كل ذلك يستبد بالفكر الإنسانى، لهذا جاء القرآن الكريم فى دعوته إلى الوحدة يحرر عقيدتها وفكرها من آفة البغى والحسد، ويرسى فى النفوس دعائم التوحيد والتمسك بالشريعة القوية التى جاء بها الرسول – ﷺ – فقال – تعالى –:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(١٠).

أساس الوحدة: وبين سبحانه أن أساس هذه الوحدة التى يدعو إليها الإسلام هى الدين الإسلامى والاعتصام به وبكتابه الذى هو سبب النجاة، وحذر – سبحانه – من التفرقة لما لها من الأخطار المحدقة والأضرار الفادحة، وذكر الله عباده من هذه الأمة، بما كان عليه الأوس والخزرج قديما، فقيل: إنهما كانا أخوين لأبوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة حتى جاء الإسلام فأطفأ نارها وأخمد شرها، وجمعهم بالإسلام وألف بينهم برسوله – صلوات الله وسلامه عليه – .. وتدعيما لأصول تلك الوحدة وترسيخاً لأساسها، يكلف الله – تعالى – هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، انتصارا للدين، وإقامة لوحدته، ودفعاً لآفات الشر والفساد التى قد تثار حول حماه، أو ترتكب فى الوطن الإسلامى ويضرب لنا القرآن الكريم المثل بمن قبلنا حين اختلفوا بعد أن جاءتهم البينات فكان لهم الوعيد الشديد.

عن تلك الملامح كلها تحدث القرآن الكريم حديثاً شافيا، هاديا للتى هى أقوم.

فقال الله – تعالى – :

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١١).

(٩) سورة الأنعام (١٥٩).

(١٠) سورة آل عمران (١٩).

(١١) سورة آل عمران (١٠٣-١٠٥).

وقد وجه الرسول – ﷺ – أمته إلى أساس الوحدة: وهو الاعتصام بحبل الله.

عن أبى هريرة – رضى الله – عنه – قال: – قال رسول الله – ﷺ – : «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم.. ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» رواه المسلم.

ولا شك أن حبل الله وهو دينه وكتابه يجمع معانى العهد بين الخلق وخالقهم والأمان لمن تمسك به، والصلة بينهم وبين الله – سبحانه وتعالى – فمن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١٢).

وقد جاء فى الحديث السابق التحذير من التفرقة، فى قوله: «ولا تفرقوا» بعد الأمر بالاعتصام، لبيان أن من اعتصم بحبل الله فهو بعيد عن التنازع بعيد عن التفرقة، أما الاعراض عنه، والتماس الاعتصام بغيره فقيه الضلال .. ومن التمس الهدى فى غيره أضله الله» وقد أشار القرآن الكريم إلى تأكيد هذا المعنى فى قوله – تعالى – :

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(١٣).

وقال – تعالى – :

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(١٤).

وهكذا نجد الآيات، بعد أن بين – سبحانه – أن الدين واحد والشريعة واحدة وأن الأمة واحدة تتفق على الايمان والتوحيد فى العبادة، أشار بعد هذا إلى حال بعض الأمم فى المخالفة، وشق عصا الطاعة، فتقطعوا قطعاً وأحزاباً مختلفة..

وفيما رواه البخارى، قال – ﷺ –: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات. مات ميتةً جاهلية».

وفى موطن آخر، أعلن الرسول – ﷺ – بُعْدَهُ عن مخالف الجماعة الذى لم يف لها بعهد، وراح يفرق بين الصفوف، ويضرب البر والفاجر.. فقال – ﷺ –: «من خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى بعهد ذى عهد فليس منى ولست منه» رواه مسلم.

ويقول الله – تعالى – :

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(١٤).

العبادات تطبيق عملى للوحدة: والإسلام فى حرصه الشديد على تقوية أركان الأمة الإسلامية وتضافر قواها جعل لعبادتها زيادة فى الفضل والأجر إذا كانت فى جماعة تعويداً لهم على الاتحاد، وغرساً لأصوله وروحه

(١٢) سورة البقرة (٢٥٧).
(١٣) سورة الأنفال (٤٦).
(١٤) سورة المؤمنون (٥٢ – ٥٤).
(١٥) سورة النساء (١١٥).

فيهم فجعل لصلاة الجماعة من الثواب والفضل ما يزيد على صلاة المنفرد، وصلاة الجماعة إذ شرعها الإسلام جعل فيها روح الوحدة اليومية خمس مرات كل يوم وكما هو الشأن فى صلاة العيدين من كل عام وفيهما يكون الاجتماع أكبر، كما شرع أوسع اجتماع ممكن وأكبر جماعة يمكن أن تضم أكبر عدد من المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية وعلى شتى الألوان والأجناس وذلك فى فرضه الحج إلى بيت الله الحرام، وفى عبادة الصيام والزكاة تطبيق عملى للوحدة.

نهاية الفرقة: هذا ومن خالف الرسول - ﷺ - فيما جاء به، واتبع غير ما عليه المؤمنون من العقيدة والعمل، يدعه الله ويتخلى عنه ويوليه ما تولى، ذلك فى دنياه، وأما فى الآخرة فيصليه جهنم وساءت مصيرا، وفى هذا المعنى يقول - تعالى :

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾(١٦).

والمتصفح لتاريخ الأمم والشعوب يرى أنه ما استطاعت أمة من أهل السلب والنهب والسطو والظلم أن تتمكن من غيرها إلا بعد أن تمكنت من تمزيق وحدة غيرها ومحاولة بث الفرقة والخلاف وتلك هى سياسة الاستعمار، وما الغزو الصليبى أو الصهيونية عنا ببعيد فقد كانت أسلحة التفرقة أقوى من أسلحة الميدان، وكانت عناصر التفرقة أضر من ضربات السنان.

لهذا كله فنحن نهيب بالمسلمين والعرب فى شتى الأقطار الإسلامية والعربية أن يجمعوا أمرهم وأن يلتقوا على كلمة سواء وأن يدركوا قيمة الهدى النبوى فى قول الرسول - ﷺ -: «يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ فى النار»(١٧).

فإلى وحدة قوية متماسكة البنيان، وصف واحد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وإلى تعارف وتآلف تتضافر فيه القوى أمما وشعوباً كما قال - سبحانه وتعالى - :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾(١٦).

واجب المسلمين فى توحيد موقفهم تجاه التحديات المعاصرة

لقد وحد الله الأمة الإسلامية، بتلك العقيدة التى تدعوها إلى عبادة إله واحد لا شريك له، وبتلك العبادات التى تتمثل فيها وحدة صفوفها فى الصلاة خمس مرات كل يوم.

وفى الزكاة التى تتوحد فيها مشاعر المسلمين فى تعاونهم مع إخوانهم المحتاجين، بما شرعه الله - تعالى - فى أموالهم من حق معلوم للسائل والمحروم.

وفى الصيام الذى يوحدهم حيث يمتنعون عن الطعام والشراب فى وقت واحد ويطعمون ويشربون عند المغرب فى وقت واحد.. وفى الحج إلى بيت الله الحرام الذى يتلاقى فيه الناس من كل

---

(١٦) سورة النساء (١١٥). (١٧) صحيح الترمذى (٢١٦٦)، (٢١٦٧). (١٨) سورة الحجرات (١٣).

فج عميق ويجتمعون بزى واحد وفى وقت واحد يلبون إلهاً واحداً لا شريك له، ويتدارسون فى مؤتمر الحج العالمى قضاياهم ومشاكلهم فجاءت كل تشريعات الإسلام توحد بين جميع المسلمين أفراداً وجماعات وأمماً وشعوباً، وجعل الله الغاية من خلقهم من ذكر وأنثى، ومن جعلهم شعوباً وقبائل أن يتعارفوا، قال – سبحانه –:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾(١٩).

وقال سبحانه آمرا بالوحدة:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾(٢٠).

ولنلق الضوء – أولا على حقائق الإسلام فى منهجه الربانى حتى نرى ونوقن أنها حقائق وتشريعات، توحد ولا تفرق.

حقائق التشريع الإسلامى توحد ولا تفرق

موقف الإسلام من الاجتهادات الصحيحة:

أن الإسلام هو دين العلم والمعرفة، يدعو أتباعه إلى المزيد من العلم والثقافة، بل أمر الله تعالى صفوة خلقه، وخاتم رسله بأن يطلب منه المزيد من العلم، وأن يدعو بذلك:

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(٢١) وهو الدين العالمى الذى جاء بالدعوة العامة فى الزمان وفى المكان، وبعث بدستوره السماوى الخالد خاتم رسل الله ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد – ﷺ –.

ولعموم الدعوة، وخلودها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين اتسم دستورها السماوى وهو القرآن الكريم بالعموم والخلود فنزل تبياناً لكل شىء:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(٢٢).

ولعموم الدعوة وخلودها تكفل الله بحفظ دستورها:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾(٢٣)

فحفظه رب العزة – سبحانه وتعالى – فى الصدور وفى السطور.

ولعموم الدعوة وخلودها أرسل لها رسولاً هو رحمة الله للعالمين لم تختص دعوته بقوم دون قوم ولا بزمان دون زمان كما قال الله –تعالى –:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(٢٤).

ولعموم الدعوة وخلودها صان الله تشريعها السماوى من أى دخيل أو مدسوس، فكما تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم تكفل سبحانه بحفظ كل حقيقى وصحيح من الحديث النبوى، ليكون بياناً للقرآن:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾(٢٥).

فقيض الله لحفظ السنة النبوية المطهرة رجالاً أمناء عرفوا بالعدالة وبالضبط والورع وقمة الذكاء فصانوا السنة النبوية المطهرة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

«يتبـع»

---

(١٩) سورة الحجرات (١٣). (٢٠) سورة آل عمران (١٠٣). (٢١) سورة طه آية ١١٤.
(٢٢) سورة التكوير آية ٢٧. (٢٣) سورة الحجر آية ٩. (٢٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧.
(٢٥) سورة القيامة آية ١٧ – ١٩.

لا حياة بلا دين

لفضيلة الشيخ / إبراهيم الدسوقي (*)

اليهود في مواثيقهم اتفقوا على كتاب اسمه، « بروتوكولات حكماء صهيون »، فقد أخذوا يبحثون عن طريقة لإفساد العالم أخلاقيا ويبحثون عن طريقة لإفساد العالم دينيا ومكثوا طويلا يفكرون في الطرق التي تفسد الإنسانية أخلاقيا ودينيا، وتعاهدوا على تنفيذها والعمل على تحقيقها بكل وسيلة وبكل طريقة، في هذا الكتاب يقول اليهود: نحن الذين رتبنا نجاح « داروين » لأن نظريته تفسد على أهل الدين وأهل الأخلاق أخلاقهم ودينهم.

أولا فيما يتعلق بنظرية التطور فإنها لم تثبت في يوم من الأيام كحقيقة، إنها مجرد فرض وهذا الفرض نفسه تقابله فروض أخرى تنقضه، يعني أنه لم يصل إلى يقين، بل لا يزال فرضا وهناك فروض أخرى تعارضه من الأوربيين أنفسهم ومع ذلك فإنهم يحاولون نشره بكل الوسائل لأنه يقول: « الإنسان متطور ومادام متطورا فحقيقة اليوم هي غلطة الغد والأديان والعقائد والأخلاق وكل شيء في سبيل التطور، فما نحن عليه الآن هو الذي يتناسب مع حالتنا التي نحن عليها في المجتمع فإذا تطورنا في الغد تركنا ذلك أخلاقا ودينا وعقائد وما شاكل ذلك إلى نواح تتناسب مع حالة ثانية وهكذا دواليك ».

وفكرة التطور أيضا مناقضة تماما للمسيحية وللإسلام وللخُلُق وللفضيلة لكل هذه النواحي وهي تنزل بنا إلى الهاوية، يقول اليهود: نحن الذين رتبنا نجاح « داروين » في الإذاعات والجرائد وبالمجلات وبالتدريس وبكل الوسائل.

ويقولون – أيضا –: نحن الذين رتبنا نجاح « نيتشه » وهو أحد الذين يهدمون الأخلاق ويقولون –عياذا بالله– يقولون: الله قد مات. فليس هناك بعث ولا نشور ولا حساب ولا فضيلة ولا رذيلة وإنما هناك استمتاع وليكن ما يكون فلا حلال ولا حرام. كل شيء مباح وهم الذين رتبوا نجاح « فرويد » الذي يقول لك: ربما تكون في شيء من البله إذا اعتقدت أنك تسير في هذا

(*) وزير الأوقاف الأسبق رحمة الله عليه.

العالم بحسب المثل العليا، أو بحسب الفضائل.. كلا أنت واهم.. الذى يسيرك فى جميع خطواتك إنما هو الغريزة الجنسية ومع كل حركة تتحركها وكل عمل تعمله.

إنهم يرتبون نجاح كل شخصية تفسد على الإنسانية دينها وأخلاقها، لقد وضعوا إفساد الإنسانية كغاية بالنسبة لهم ومنهج يجرون وراءه بواسطة بيوت الأزياء والأفلام المستهترة التى تكون فيها المرأة عارية تماما كيوم ولدتها أمها، ولِمَ يفعلون ذلك كله؟ لأن عندهم حلم السيطرة على العالم كلِّه، والسيادة فى العالم كله وهم يسعون وراء ذلك.

فالمسلم فى مجال العصمة واليقين والهدى والرشاد حين ينهج فى حياته فى سنا وضياء التربية الإلهية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فى العقائد وفى الأخلاق وفى التشريع. هذا هو المنهج الذى يجب أن نسير عليه.

إنه منهج الاتباع فليس للمرء بدٌّ من الاتباع لرسول الله -ﷺ-

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(١)

ومنهج الاتباع هو المنهج الذى أمرنا الله به أمرا فقال:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾(٢).

يحكمونك حال حياتك ويحكمونك بعد مماتك باتباع سننك وباتباع التشريع الذى جئت به.

﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(٣)

إذا فعلت ذلك فأنت فى مجال العصمة

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٤)

لا حياة بلا دين

وقد خيل لبعض الناس أن الإنسان يمكنه أن يستغنى عن الدين وأن يعيش متحررا من تكاليف الإيمان وخاصة فى عصر العلم حيث يستطيع أن يكيف حياته وينظم شئونه بعيدا عن الإيمان بالله وبمعزل عن رسالاته ويكسب عدة أشياء

١- الصحة العقلية والنفسية فإن عقائد الدين والإيمان بالغيب لا تقوم عليها الأدلة العلمية ولا تشهد لها التجارب الحسية.

وللرد على ذلك فإن مجال العلم غير مجال الإيمان فللعلم اختصاص لا يتعداه ومجال لا يتجاوزه وهو مجال الماديات والمحسوسات التى تدخلها الملاحظة والتجربة أما ما عدا ذلك مما وراء الحس وما وراء المادة فليس من وظيفة العلم ولا من اختصاصه إنما هو وظيفة الوحى، إن العلم منهج

(١) الأحزاب ٢١.
(٢)، (٣) النساء ٦٥.
(٤) آل عمران ١٠١.

صحيح لمعرفة المادة ولكنه ليس منهجا لمعرفة ما وراء المادة فهو يعرف كيف تسير الأشياء ولا يعرف شيئا عن مُسيِّرها ولا لماذا يسيرها. إن أقصى ما يصبو إليه العلم أن يعرف نصف الحقائق وهو الظاهر والإجابة عن «كيف»، أما النصف الآخر وهو أقوم النصفين وهو باطن الحقائق والإجابة عن «ما هى» لا «كيف هى» فعاجز كل العجز عنه لا يستطيع أن ينبس فيه بحرف. فمثلا الفلكى أبان بأن ملايين النجوم فى السماء بالقوة المركزية بقيت فى أماكنها أو أتمت دورتها، كما أن قوة الجاذبية فى العالم حفظت توازنها ومنعت تصادمها. وهنا نتساءل ما الجاذبية؟ وكيف وجدت؟ وما القوة المركزية؟ وكيف نشأت؟وأيضا من أنشأ هذه الحياة فى هذا العالم وجعلها تدب فيه؟ من عقله الذى يدبره؟ لا جواب إلا الله..

كما أن النشوء والارتقاء والاعتماد على هذا المبدأ لا يصلح تفسيرا لمبدع هذا الوجود بدقائقه وعجائبه وإنما يصلح تفسيرا لوحدة العالم ووحدة المصدر أما ما وراء ذلك فلا علم له به، وكلما تقدم العلم وقدم الكثير من أسرار العالم وعجز عن شرحها وتعليلها فليس أمامه إلا أن يهتف من أعماقه إن هذا العالم صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه وحده الله رب العالمين.

كما أن نتائج العلم ليست قطعية يقينية وبصورة دائمة فإن قابلية الشك والاحتمال قائمة فى كثير من نتائج العلم إذ أن أساس العلم التجربة والتجربة أساسها الحس، والحواس كثيراما تخدع، وهذا ما أقره المحققون من العلماء.

كما أن العلم ليس خصما للإيمان فَكَثيرٌ من العلماء هداهم علمهم إلى أن وراء هذا الكون قوة علمية تديره وتنظمه وترعى كل شىء فيه بميزان وحساب ومقدار.. يقول «هربرت سبنسر»: العلم يناقض الخرافات ولكنه لا يناقض الدين نفسه. ويقول: العلم الطبيعى لا ينافى الدين والتوجه إلى العلم عبادة صامتة واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التى نعاينها وندرسها ثم بقدرة خالقها ويضرب مثلا: أن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والأيدروجين بنسبة خاصة بحث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئا آخر غير الماء يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته وعلمه الواسع بأشد وأقوى وأعظم من غير العالم الطبيعى الذى لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب. وكذلك العالم يرى قطعة البرد النازلة مطرا وما فيها من جمال الهندسة ودقة التصميم لاشك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكثر من ذلك الذى لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد، أما ما يقال من إن الانخلاع عن الدين يؤدى إلى صحة النفس والعقل فهو أمر يكذبه الواقع وينفيه ما نشاهده فى دنيا الحضارة المادية الغربية التى أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها بما أوتوا من العلم التجريبى والتقدم التكتيكى.

يقول «توينبى» المؤرخ البريطانى المعاصر: لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها وجعلتهم يسلمونها قياد أنفسهم.. لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم وأخذوا بدلا منها السينما والراديو وكانت النتيجة إقفارا روحيا وصفه أفلاطون: بأنه مجتمع الخنازير، ويقول «توينبى» فى نهاية بحثه: إن خلاص الغرب لا يكون إلا بالانتقال من

الاقتصاد إلى الدين، إن الغربى يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفا روحيا يضمن سلامته بالقوة المادية التى ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية.

ويقول الدكتور محمد إقبال: الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة. فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه، لكنه قد سلبه إيمانه بمصيره هو، فقد أعشاه نشاطه العقلى فكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة، أى إلى حياة تتغلغل فى أعماق النفس وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه، وفى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره وقد استغرق فى الواقع فأصبح مقطوع الصلة بأعماق وجوده. تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه والذى أدركه «هكسلى» وأعلن سخطه عليه. وقد عبر عن ذلك شاعر ألمانى بقوله: نحن جيل بلا رابط ولا عمق، عمقنا هو الهاوية، نحن جيل بلا دين ولا راحة، شمسنا ضيقة، حبنا وحشية، شبابنا بلا شباب.

إننا جيل بلا قيود ولا حدود ولا حماية من أحد.

وادعاء أنصار الفكر المادى أنهم ربحوا من وراء التحرر من الدين والإيمان بعقائده الغيبية وأخلاقه القسرية الحرية الشخصية وآثارها فيرد عليهم بأن الحرية إذا كان معناها العبُّ من الشهوات بلا حساب والانطلاق وراء المتع الحسية بلا حياء، والتحرر من عُرا الفضائل والأخلاق والقيم العليا التى هى أغلى ما ورثته الإنسانية من تاريخها الطويل فهذه الحرية ليست كسبا يسعى إليه ولا غنما يحرص عليه، بل هى خسارة جسيمة على البشرية وهزيمة منكرة للمعانى الإنسانية التى بها صار الإنسان إنسانا، فالقيود التى يفرضها الدين على الإنسان لا يريد بها عذابه ولا حرمانه؛ إنما يريد بها أن يرتفع به من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانية الصاعدة وبذلك ينتصر الجزء السماوى فى الإنسان على الجزء الأرضى ينتصر الروح الشفاف على الجسد الكثيف. ينتصر العقل والإرادة على الشهوة البهيمية أو السبعية، فضلا عن أن الحياة الاجتماعية لا تصلح إلا بهذه القيود التى توجبها ضرورة التشابك والزحام إلى ما تتمتع به النفس من لذة أعمق وأبقى من لذة الانطلاق وراء المتع الحسية التى لا تدوم أكثر من لحظات. إن تدخل الدين فى حرية الفرد إنما هو بمثابة الإشارة الحمراء أمامه فى بعض المواقف. إنه تنظيم لمرور الإنسان وسيره فى طريق الحياة، وهو حماية له من الصدام بينه وبين الناس وحماية له من الخطر أن يصيبه هو أو يصيب غيره من جراء انطلاقه بلا قيود ولا حدود.

وكل مجتمع يخرج من هذه القيود أو يُهوِّن من شأنها فإنه يعرض نفسه للخطر ويقرب من حافة الهاوية وإن كان لا يدرك هذا إلا بعد تجربة وزمن تتجلى فيه آثار التحلل وأخطاره بارزة للعيان.. أما دافع العمل والإنتاج فقد حفلت الشريعة الإسلامية بضرورة العمل وبدلا من أن يكون فى خدمة عنصره المادى وحده فقد جعلت الجانب الروحى الذى يصله بالله ويكفل السعادة الأخروية بعد الحياة من إلزام الفروض على الإنسان

فى إطار من القيود والضوابط التى تكفل عمارة الحياتين الدنيا وما بعد هذه الحياة.

وقد يقال: إن علم النفس بفروعه ومكتشفاته وإمكاناته يستطيع أن يعالج الأنفس المريضة بطريقة علمية مأمونة من واقع الأرض لا من غيبيات السماء ولنستمع فى هذا المقام إلى الصحفى الكبير محمد زكى عبدالقادر يناقش هذا الموضوع فى إحدى يومياته بجريدة الأخبار إنه يقول: إن الإيمان يعد ضرورة يدعو إليها العلم وليست الأديان وحدها، والعلم لم يستطع ولن يستطيع أن يحل المشكلات التى يعانيها الإنسان فى الدنيا، فهناك حوادث مفاجئة ومآس تقع دون أن تكون لها أسباب مفهومة ونحن نسندها إلى القدر وإرادة الله ومنها ما يعجز الإنسان بكل ما أوتى من علم أو سلطان وقوة التخلص منها، الأمر الذى يحمل المصابين قهرا على اللجوء والضراعة إلى الله أن ينقذهم مما ألم بهم، إنه الإيمان بالله.

إن العلم بكل ما لديه من إمكانات وانتصارات لم يستطع أن يعرف كيف تعمل أعضاء الإنسان كلها، وكيف تتصرف وكيف تمرض وكيف تموت، لقد وفق فى علاج كثير من الأمراض ولكنه حتى الآن لم يوفق فى علاج كثير منها أيضا، وكما وفق فى معرفة بعض وظائف الأعضاء ولم يوفق فى معرفة سائر الوظائف إلى كثير من أمثال ذلك ويبقى اللغز الأكبر وهو: كيف وجد الإنسان؟ ولماذا وجد؟ وكيف يموت؟ ولماذا يموت؟ وماذا بعد الموت؟ وماذا قبل الحياة؟.. كل هذه ميادين لاتزال بكرا رغم كل الجهود التى بذلت وتبذل وستظل إلى ما شاء الله.

مجال الإيمان

فمثلا؛ النفس الإنسانية ذلك الجوهر الذى يسعد الإنسان ويشقيه ويجعله مرحا كأن الدنيا بين يديه، وفجأة تضيق وكأنها ثقب إبرة، هذه النفس تنحرف وتعتدل، تزكو وتضمر، تكون عبقرية كأنها يوحى إليها من السماء وتكون شريرة كأنها لهب من الجحيم، هذه النفس هل عرفناها هل حددناها هل صورنا أمراضها واهتدينا إلى علاجها؟ إن علم النفس بكل الجهود لايزال يقف عند الشاطئ ولا تزال نظرياته مجالا للاختلاف والشك ولاتزال تتطور جيلا بعد جيل. إن ما نعلمه عن الحياة وأسرارها بفضل كشوف العلوم وتفكير المفكرين لايزال ضئيلا جدا إذا قيس بما لا نعلم ولا نستطيع تعريفه ولا تعليله، علم النفس مجال للاحترام والتشجيع ولكن أن نعتمد عليه ليكشف كل غامض هو اعتماد من غير سند لا من حقيقة ولا مما وصل إليه ولا مما ننتظر أن يصل إليه.

كما أن كثيرا من الأطباء النفسيين قد ثبت لديهم بالتجارب المتكررة أن الإيمان بالله والآخرة من أعظم الأدوية الفعالة فى علاج مرضاهم ونجحوا أعظم نجاح: «إن كل من يعتنق دينا أو يتردد على دور العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لايزاول أية عبادة، إن الدين هو الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة هذه القوة هى قوة الله مدبر الكون خالق السموات وهو الاقتناع بالدستور الخلقى الإلهى الذى سنه الله فى كتبه المتعاقبة واعتبار التعاليم السماوية أثمن كنز نغترف منه الحقائق الدينية

وهى أسمى فى مرماها من العلوم كلها مجتمعة كما أن هذا الدين ليس ملجئا للضعفاء ولكنه سلاح الأقوياء فهو وسيلة الحياة الباسلة التى تنهض بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها لا فريستها وعبدها الخانع»(٦)

إن علماء الأمراض العقلية لا يجدون اليوم سلاحا أمضى وأبعد فاعلية فى علاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله والتطلع إلى رحمة السماء والتشبث بالرقابة الإلهية والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عند عجز كل قوة سواه.

الخاتمة :

فإذا كان بعض المثقفين فى أوطاننا لا يصغون إلا لصوت يجيئهم من الغرب فإن عليهم أن يستمعوا وينصتوا لتلك الصيحات المخلصة التى أطلقها أناس ليسوا بالأدعياء المتطفلين على العلم ولا بالسطحيين المحكومين بالعاطفة ولا بالخياليين المتعلقين بالأحلام الذين يسبحون فى غير ماء .. إنما هم علماء منصفون يحكمون منطق العلم العصرى وحده القائم على الملاحظة والتجربة والاستقراء، والعجيب أن تصدر كل هذه الصيحات فى بلد بلغ القمة فى الارتقاء العلمى والفنى والاقتصادى .. أعلامه ينادون بضرورة التشبث بالإيمان وقاية وعلاجا .. وزادا وسلاحا وهداية ونورا صباحا وليلا(٧).

وبعد :

فإن الإسلام الذى كتب له أن يرث الأديان كافة قد وضع للدعوة إليه منطقا دينيا تجلت فيه مبادئه الإنسانية تجليا كان له أثره فى نشره كما حبب الأمم فيه حبا فائقا كلَّ أثر أثمره العسف والإيغال فى الوحشية من دعاة المثل السابقة .. وأول أساس وضعه فى هذا الصدد قوله -تعالى-:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٨).

وثم فإن واجب العلماء اليوم أن يقوموا بواجبهم دعاة للحق والله حسبهم.

دستورهم هذا الهدى الإلهى، لا تأخذهم فى الله لومة لائم وهو القائل:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾(٩).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(١٠).

وبالله التوفيق

---

(٦) العودة للإيمان، للطبيب النفسى الأمريكى د.هنرى لنك.

(٧) الإيمان والحياة للدكتور القرضاوى (٣٢٧:٣٦٢) بتصرف كبير.

(٨) النحل ١٢٥.

(٩) الحج ٤٠.

(١٠) محمد ٧.

الإسلام وحوار الحضارات

للأستاذ الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى

الإسلام دين الله الذى بشّر به رسول الإسلام محمد بن عبد الله - صلوات الله عليه - هدى للناس ورحمة ودعوة إلى كل القيم الإنسانية الرفيعة التى يجب على الإنسان أن يحافظ عليها ويلتزم بها، ويتخذها دستورا له فى الحياة.

وناموس الإسلام أو قانونه، أو دعوته، ذلك مفصل فى كتاب الله الحكيم، الذى نزل به الروح الأمين، على نبىّ الله ومصطفاه ورسوله إلى خلقه، وإلى العالمين كافة، محمد - ﷺ -.

رسالة شريفة واضحة سامية، يقول محمد فريد وجدى[1]: الإسلام أن تسلم وجهك لله، مجرداً نفسك عن علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها، الخشوع دثارك، والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك، متجردا له كيوم ولدتك أمك على الفطرة، لتتحقق عبوديتك» ومن قبل قال عمر بن الخطاب لبعض أصحابه: لقد أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة من غيره يذلكم الله ومن بعد قال مستشرق غربى هو «ولز»: الإسلام هو الدين الحق الذى يساير المدنية» والهرمز الفارسى قد عرف الحقيقة، فقال لرسول عمر بن الخطاب: إنما غلبتمونا بالإسلام.

إن التوحيد هو الدعامة الكبرى لشريعة الإسلام، وهو الزاد الذى يستمد منه المسلم كل قوته، يقول الله– عز وجل – فى محكم آياته:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2].

ويقول – عز وجل–:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[3].

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ٢ : ٣٥٦.

(٢) الأنعام (١٠٢).

(٣) النساء (١٧٠).

ويقول تولستوى[٤]: خلاصة الإسلام كما نادى به محمد هو أن الله واحد لا إله إلا هو، وأن الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائى متوقف على الإنسان نفسه، فإذا سار حسب شريعة الله، وأتم أوامره واجتنب نواهيه فإنه فى الحياة الأخرى يؤجر أجرا حسنا، وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الحياة الأخرى عقابا شديدا.

فى عام ١٩٣٨ عقد فى لاهاى مؤتمر «القانون المقارن» وفيه قد قرر المجتمعون اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا مهما من مصادر التشريع بعد أن أشاد الأعضاء الأجانب على اختلاف مللهم بأحكام الشريعة الإسلامية.

وفى عام ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث فى الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم «أسبوع الفقه الإسلامى» ودعت إليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون فى الدول الغربية والشرقية، وقد حاضر الأعضاء فى موضوعات محددة حددها مكتب المجمع الدولى للقانون المقارن وهى: إثبات الملكية - المسئولية الجنائية - الاستملاك للمصلحة العامة - تأثير المذاهب الاجتهادية بعضها فى بعض - نظرية الربا فى الإسلام. وفى خلال المناقشات قال النقيب السابق للمحامين فى باريس: أنا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامى وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبين ما نسمعه الآن فى المؤتمر مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراهين النصوص والمبادىء.. وفى ختام الأسبوع قرر المؤتمر أن الفقه الإسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها وأن اختلاف المبادىء فى هذا المجال التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى مجموعة من الأصول الفقهية التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة. كما قرر المؤتمر أن تؤلف لجنة لوضع معجم للفقه الإسلامى المؤتمر يساعد على تسهيل الرجوع إلى مؤلفات هذا الفقه فى موسوعة فقهية تعرض فيها المعلومات القانونية الإسلامية وفقا للأساليب الحديثة.

وفى بحوث عديدة بين الباحثون أن الفقهاء المسلمين شرَّعوا المحاكم الدستورية العليا، واختصاصات هذا النوع من القضاء كما فصلها أبوالحسن الماوردى هى:

١- النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على أجهزة الحكم فى الدولة.

٢- النظر فى تظلم موظفى الدولة ضد تطبيقات القانون.

٣- تقرير الأحكام التى يعجز القضاء العادى عن إصدارها.

---

(٤) حكم النبى محمد لتولستوى صـ ٨.

٤- ما يختص بتقرير حقوق الإنسان.

وقد يملكنا الذهول عندما نعرف أن عمر ابن الخطاب وقف يوما يودع أحد ولاته قبل سفره إلى الإقليم الذى سيحكمه، وألقى عليه هذا السؤال: ماذا تفعل إذا جاءك سارق أو ناهب؟ وكان رد الوالى: أقطع يده. فاستدرك عمر الحديث معه قائلا: وإذن فإن جاءنى منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك. إن الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم ونوفر لهم حرفتهم. فإذا أعطيناهم هذه النعم تقاضيناهم شكرها، يا هذا إن الله قد خلق الأيدى لتعمل، فإذا لم تجد فى الطاعة عملا التمست فى المعصية أعمالا، فأشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.

وعندما ألف «روسو» كتابه «العقد الاجتماعى» وقرر فيه أن الأمة هى مصدر السلطات وهى سيده الحاكم الذى يستمد منها قوته وسلطته، لعله كان يعرف أن الإسلام قرر هذه المبادىء تقريرا وطبقها تطبيقا، وهذا هو عمر بن الخطاب يقول: إن من استرعاه الله على المسلمين فقد وجب عليه ما يجب على العبد لسيده، ومن حديث رسول الله - ﷺ - «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» - رواه البخارى ومسلم - أليس هذا المفكر الغربى على صواب وعلى هدى من الإسلام حينما تقرؤه يقول: ولز: الدين الحق الذى يساير المدنية هو الإسلام؟

أوروبا تخاف الإسلام، وتخاف من الإسلام، ليس ذلك على مستوى الحكومات فحسب، بل على مستوى الأفراد والجماعات ،وحرب الأقليات الإسلامية فى الغرب مستمرة اليوم ومن قبل وستستمر من بعد أيضا. ولقد وقفت الإمبراطورية الرومانية فى وجه الإسلام منذ معركة اليرموك حتى فتح القسطنطينية على يدى السلطان محمد الفاتح فى أواسط القرن التاسع الهجرى تشن عليه الحرب وتدبر له المؤامرات، وتؤلب عليه القوى المختلفة، وما حديث الحروب الصليبية بسر.. وكانت بيزنطة إحدى القوى المحركة للأحداث فى غزو التتار للعالم الإسلامى وفى تدميرهم لبغداد وقضائهم على الخلافة العباسية. وحسبنا دليلا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيتون ملك أرمينية المسيحى كان العامل الرئيسى فى إقناع الملك المغولى «مانجوخان» (٦٤٦ -٦٥٥هـ/ ١٢٤٨ - ١٢٥٧م) بإرسال حملة هولاكو المشئومة بل إن هولاكو نفسه زوج ابنه من ابنة امبراطور القسطنطينية المسيحى(٥).

ومذابح الصرب فى الهرسك وفى كوسوفا أثر لهذا الشعور الغربى المستحكم بالعداء للإسلام وللمسلمين.

---

(٥) ٢٥٢ و٢٦٠ الدعوة إلى الإسلام لتوماس ترجمة حسن حسن إبراهيم وعبدالمجيد عابدين - وراجع: كتاب المسيحية والإسلام وكتاب مغول إيران، وهما لعلى مصطفى بدر.

على أن فى الغرب منصفين يدعون ولايزالون يدعون إلى الحوار بين الشرق والغرب، الحوار بين الحضارات، ومن أبرز هؤلاء الدعاة ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز والإسلام منذ عصر الرسالة حتى اليوم لا يعرف طريقا إلى الحضارات والأديان الأخرى غير طريق الحوار والمجادلة بالحسنى، والله – عز وجل– يقول فى كتابه الحكيم:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾(٦).

إن الأصوات المنصفة فى الغرب، مع قلتها: تنفر من حرب الحضارات ومن كل ذلك نفورا شديدا.

فتشارلز ولى عهد بريطانيا ينادى بضرورة الحوار بين الحضارات، لا الصراع بينها.

ووزير الخارجية البريطانية السير روبين كوك ينادى فى كلمته التى ألقاها منذ نحو عامين فى أحد المراكز الثقافية الشرقية بلندن: بأن الثقافة الغربية مدينة للإسلام وحضارته، وبأن الغرب فى حاجة إلى الإسلام كصديق لأنه دين السماحة والحب والوئام، وبأن من الظلم أن نلصق الإرهاب بالإسلام لأنه دين السلام (صحيفة الأهرام – صفحة الفكر الدينى – ١٦/ ١٠/ ١٩٩٨).. قال روبين كوك: إن جذور ثقافتنا الانجليزية ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هى إسلامية أيضا فالفن الإسلامى والعلوم والفلسفة الإسلامية قد ساعدت على تشكيل تطورنا، والأرقام الإسلامية مازالت يعتمد عليها. إن ثقافة الغرب مدينة للإسلام.. والبعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو بعد انتهاء الحرب الباردة وأن الإسلام هو العدو الجديد، كما يقولون: إن صراع الحضارات قادم ولا مفرَّ منه، وأنا أقول: إنهم مخطئون خطأ فادحا، فنحن لسنا بحاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن فى حاجة إليه كصديق، قد تكون حضاراتنا أو أدياننا مختلفة، ولكن هذا لا يعنى أننا لا نستطيع أن نتعايش معا، إن علينا أن نتعاون معا لإفشال هذه الإدعاءات، فالقرآن الكريم يدعو فى سورة الحجرات (الآية ١٢) إلى التعارف بين الشعوب. إن القائل بأن ثقافتنا غير متجانسة مخطىء، فهناك قدر كبير من المعارف يمكن أن نتعلمه من بعضنا، والغرب مدين للإسلام بالشىء الكثير، فالإسلام وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة وكبيرة فى الحضارة الغربية. ومن أكبر الأخطاء التى يمكن للغرب أن يرتكبها هو الظن بأن الثقافة الإسلامية شىء غريب عنا فهى ليست كذلك فإن ثقافتنا قد تشابكتا عبر التاريخ والأجيال. ومازالتا تتلاقيان أيضا فى وقتنا الحاضر، إنى

---

(٦) العنكبوت (٤٦).

أقترح إجراء حوار جدى حول القضايا العديدة التى تهم الجانبين.

(انتهى حديث وزير الخارجية البريطانى) .

وأمامى كذلك كتاب « بين شتى الجبهات » للمفكر الألمانى عبدالهادى هوفمان الذى عمل فى الحقل السياسى الألمانى فترة طويلة، وعند بلوغه سن الواحدة والأربعين اعتنق الإسلام (أى عام ١٩٨٩ لأنه من مواليد ١٩٤٨)، ويجاهد فى إزالة الوهم العدائى بين المسلمين والألمان.. وهو غير مراد هوفمان السفير الألمانى السابق فى المغرب ومؤلف كتاب « الإسلام كبديل » . وهما يلتقيان فى الإيمان بالإسلام كدين صحيح وشامل لكل مناحى الحياة، وقد أصبحت أوروبا فى أمس الحاجة إليه.

إن الكتاب « بين شتى الجبهات » بصفحاته الـ ٢٥٠ حافل بالتنويه بدعوة الإسلام إلى حرية العلم وحرية الفكر وحرية العبادة، وإلى الشورى، ويقول: إن صورة الإسلام فى الغرب صورة عدو لدود، وهو وضع مقلوب للحقيقة، وإن الإيمان بإله واحد يجمع بين المسلمين والنصارى، كما يؤكد عظمة الحضارة الإسلامية وقيامها على أساس المسئولية الفردية، والوحدة والتعاون والإخاء وحقوق الإنسان.

هل نسى الغرب أن الإسلام وحضارة الإسلام وعلماء الإسلام هم الذين أحيوا التراث اليونانى القديم وقدموه محققا ومشروحا إلى أوروبا؟ .

وهل نسى الغرب أن الإسلام هو الذى حمى اليهودية واليهود فى العالم من بطش وجبروت العصور الوسطى فى أوروبا؟ .

وهل نسى الغرب أن الإسلام هو الذى حمى المسيحية، وحمى مصر المسيحية من جبروت الدولة البيزنطية وطغيانها؟ .

وهل نسى الغرب أن الإسلام دعوة سلام إلى العالم وإلى الدنيا جميعا، ودعوة أخوة وتعاون دولى لمصلحة الشعوب.

وكيف يعادى الغرب المدجج بكل أنواع التدمير النووى وغيره ،الشرق الإسلامى الذى جعل السلام شعاره فى كل شىء وفى كل وقت، بل فى كل عبادة ، بل فى كل عمل، وتحيته دائما هى: السلام عليكم إن الإسلام لم يصنع ما صنعته الصرب فى البوسنة والهرسك ولم يصنع ما صنعته روسيا والصين فى بلاد الإسلام وفى مسلمى بلادهما.

إن الإسلام والغرب، يجب أن يلتقيا، وبلا ريب فهما ولا ريب يمكن أن يلتقيا لو حافظ الغرب على روح الأخوة البشرية، وعلى حق كل منهما فى أن يعيش فى سلام وتعاون مع الآخر، وعلى أن الخروج على الشرائع السماوية باسم الحضارة والحرية خطأ لا يغتفر وشرك ما بعده من شرك.

والسلام على من اتبع الهدى.

الإسلام .. والغرب .. وحقوق الإنسان

للدكتور / محمد عمارة

بين الحين والحين.. نقرأ هجوما أو غمزا ولمزا، من دوائر معادية للعرب والمسلمين، ضد بعض الدول الإسلامية، لأن هذه الدول ماتزال ترفض أو تتحفظ فى التوقيع على الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٤٨م.
والبعض منا قد يريح نفسه من التوقف عند هذا الهجوم أو الغمز واللمز، قائلا: هذه دوائر معادية، ومن ثم مغرضة ومتجنية، لا تستحق وجهات نظرها التأمل والاعتبار!..

لكننا كثيرا ما نقرأ ذات النقد لإحجام أو تحفظ بعض دولنا الإسلامية على هذا الإعلان، من منظمات عالمية تطوعية لا ينكر أحد جهودها الخلاقة فى الدفاع عن حقوق الإنسان، فى كل المجتمعات، وعبر كل الحضارات، وفق قواعد وضوابط حددتها هذه المنظمات لهذه الحقوق.. الأمر الذى يدعونا إلى أن نأخذ هذا الأمر مأخذ الجد، فننظر: هل هناك مجال لتمايز حضارى، بيننا وبين الحضارة الغربية فى النظر إلى قضية «حقوق الإنسان»؟!..

***

باديء ذى بدء، فنحن لا نخفى إعجابنا الشديد باهتمام الحضارة الغربية، والمنظمات الدولية التطوعية - بخاصة التى أقامها الغربيون - بقضية الدفاع عن حقوق الإنسان.. ولا نخفى إعجابنا الشديد بما تحقق للإنسان فى ظل الكثير من نظم الحضارة الغربية من كرامة وحقوق، ومن الوعى الذى ترسخ فى مناهج وبرامج الأحزاب السياسية والمؤسسات الفكرية والقانونية والدستورية والقضائية والإنسانية بهذه الحقوق.. ونتمنى، من أعماق قلوبنا أن يحظى إنساننا العربى والمسلم بما حظى ويحظى به الإنسان الغربى فى هذا الميدان..

ومع ذلك.. فنحن نضيف أمنية نتمناها، وقضية ندعو إلى تبنيها، وهى أن يدرك مفكرونا ومناضلونا أن لأمتنا فى قضية حقوق الإنسان - إلى جانب ما هو «مشترك إنسانى عام» - مايميزها حضاريا، فى هذا الميدان، عن المفهوم الغربى لحقوق الإنسان.. وأن الوعى بهذه الخصوصية

الحضارية، والنضال لتحويلها إلى واقع يعيشه إنساننا العربى والمسلم، ويستمتع بثمراته، لن ينتقص من كرامة إنساننا وحقوقه عن نظيره الغربى، بل يزيدهما عمقاً وقدرا وعلوا، إلى الحد الذى نزعم فيه أن لدينا فى هذا الميدان ما هو جدير بأن يكون «الخيار المستقبلى» الذى تطمح الإنسانية فى اتخاذه نهجا ومعيارا لتحقيق الآمال فى ميدان حقوق الإنسان.. كل إنسان!..

***

إن تاريخ الغرب مع فكر ومواثيق وتطبيقات حقوق الإنسان، تاريخ قريب وحديث.. فإذا كانت أوروبا العصور الوسطى والمظلمة قد سادها الجهل والاستبداد وهيمنت عليها قسوة الرجعية وتحكمت فى إنسانها قيود الكهانة الكنسية وأغلالها.. فإن ما عرفته الحضارة الغربية فى حقبتها اليونانية من «الديمقراطية» لم يعد نطاق القلة القليلة من أحرار المدن اليونانية، أما الكثرة الكثيرة فقد كانوا أرقاء ليست لهم أية حقوق.. وعلى أكتافهم وكواهلهم كانت كل الواجبات.. فلقد كان التمييز، بل الفصل والتناقض بين القلة من الأحرار والأغلبية من الأرقاء حادا، والبون شاسعا.. وكذلك كان الحال بين «العمل الذهنى»، الذى يحظى وحده مع أهله بالاحترام، على حين كان «العمل اليدوى» مع أهله، فاقد الأهلية كلها.. وكان هذا الفكر، وكانت تطبيقاته الشرعية التى يفخر بها ويتيه الغرب فى حقبة اليونان والرومان.. والذين يعلمون طرفا من هذا الواقع، ولو من خلال قصة العبيد فى تلك الحضارة، والثورة التى قادها فيهم اسبارتاكوس [٧٣ - ٧١ق. م] وما حفلت به من آلام، وما انتهت إليه من مأساة يعرفون مصداقية هذا الذى نقول.

إذن هو حديث وقريب عهد الحضارة الغربية بمواثيق حقوق الإنسان وتقنياتها وتطبيقاتها.

لقد بدأت مسيرة الحضارة الغربية على هذا الدرب بفكر الثورة الفرنسية التى بدأت أحداثها سنة ١٧٨٩م.. فإبان هذه الثورة وضع «أمانول جوزيف سييس» [١٧٤٨ - ١٨٣٦م] وثيقة حقوق الإنسان، تلك التى أقرتها «الجمعية التأسيسية» وأصدرتها «كإعلان تاريخى» وكوثيقة سياسية واجتماعية ثورية، فى ٢٦ أغسطس سنة ١٧٨٩م.. ثم سجلت هذه الوثيقة فى الدستور الفرنسى، الذى أصدرته الثورة سنة ١٧٩١م.. ولقد كانت المصادر الأساسية لفكر هذه الوثيقة غربية فى الأساس.. فهى نابعة من فكر المفكر الفرنسى «جان جاك روسو» Rousseau [١٧١٢ - ١٧٧٨م]، ومن «إعلان حقوق الاستقلال الأمريكى» الذى كتبه «توماس جيفرسون» [١٧٤٣ - ١٨٢٦]، والصادر فى ٤ من يوليو سنة ١٧٧٦م.

ومن أهم المبادىء والحقوق التى تضمنتها هذه الوثيقة التاريخية: «أن الناس يولدون ويظلون أحرارا ومتساوين فى الحقوق، وأن حقوق الإنسان الطبيعية الخالدة هى الحرية، والملكية، والأمن، ومقاومة الطغيان، وأن القانون لا يحظر إلا الأعمال الضارة بالمجتمع. وأن السيادة للشعب. وأن القانون تعبير عن إرادته، ولكل مواطن حق الإسهام فى وضعه، وأن لجميع المواطنين حقوقا متساوية فى كافة المناصب والوظائف العامة وفقا لكفاياتهم لا تمييز بينهم إلا بفضائلهم

ومواهبهم. وأنه لا عقاب إلا على الأعمال التى يقرر العقاب عليها قانون سابق تاريخ ارتكابها. وأن كل متهم مفروض أنه برىء حتى تثبت إدانته. وأن لكل فرد حرية الرأى والعقيدة مالم تخل ممارستها بالنظام العام. وأن لكل مواطن حق الكلام والكتابة، دون إسراف فى استعماله؟؟

ولقد انتقلت مبادىء هذه الوثيقة إلى النطاق الدولى عندما تضمنها ميثاق «عصبة الأمم» سنة ١٩٢٠م.. ثم ميثاق «الأمم المتحدة» سنة ١٩٤٥م.. ثم أفردت، دوليا، بوثيقة خاصة هى [الإعلان العالمى لحقوق الإنسان]، الذى أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة -كما أسلفنا- فى ١٠ من ديسمبر سنة ١٩٤٨م.

ونحن نعترف، مرة أخرى، أن تاريخ الحضارة الغربية، فى هذا الميدان -ميدان «حقوق الإنسان»- رغم أنه حديث، إلا أنه غنى ورائع ومجيد.

***

فقط.. نريد أن نضيف، فنقول: إن لدى حضارتنا العربية الإسلامية فى هذا الميدان، «إضافات» تزيد فكر هذا الميدان غنى وتدعم ما فيه من ضمانات.. كما أن لدينا فيه، أيضا، «خصوصية حضارية» تميز بين فكريتنا وفكرية الحضارة الغربية فى هذا الموضوع!..

● إن هذا الذى عرفته فكرية الحضارة الغربية، حديثا، فى باب «حقوق» الإنسان.. عرفته فكرية حضراتنا العربية الإسلامية، بل ومارسته، قديما، ومنذ ما قبل أربعة عشر قرنا، لا كمجرد «حقوق» للإنسان.. وإنما «كفرائض إلهية وواجبات شرعية»، لا يجوز لصاحبها -الإنسان- أن يتنازل عنها أو يفرط فيها، حتى بمحض اختياره إن هو أراد!..

وتلك زاوية لرؤية القضية، ودرجة فى تناولها، لا شك أنها «إضافة» تزيد هذا الفكر غنى وأصالة وعمقا، وتوفر له المزيد من الفعالية وقوة التأثير..

فـ«الحياة».. ترى فكرية الحضارة الغربية فى «الحفاظ عليها» «حقا» من حقوق الإنسان.. لكن صاحب «الحق» حر فى التنازل عن حقه.. ولذلك لا تجرم هذه الحضارة ولا تؤثم من يتنازل عن «حقه» فى الحياة بالانتحار!.. وليس كذلك موقف حضارتنا العربية الإسلامية من «الحفاظ على الحياة»، لأنها تراه فريضة إلهية وواجبا شرعياً لا يجوز، حتى لصاحبه، أن يفرط فيه.. فهو يأثم إذا قنط من رحمة الله فانتحر.. ويأثم إذا فرط فى توفير مقومات الحياة- غذاء وكساء وأمنا- لذاته، حتى ولو اضطر فى سبيل ذلك إلى القتل والقتال. لأنه إذا طلب مقومات حياته، حتى بالقتال ضد الظلمة والمحتكرين، فهو فائز بإحدى الحسنيين.. إن انتصر كان مأجورا بصيانته وأدائه واجبا شرعيا، هو الحفاظ على حياته، وإن قُتِل فى سبيل ذلك فهو شهيد!

و«العلم».. فى فكرية حضارتنا، ليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان.. بل هو -كالنظر والتفكر- فريضة شرعية وتكليف إلهى واجب، يأثم الإنسان إن هو فرط فيه.. ولا يجوز له التنازل عنه بحال من الأحوال.. بل إن التفقه والتخصص والبراعة فى مختلف العلوم والمعارف تزيد فى الدرجة توكيدا وفى مراتب الفريضة علوا،، إلى الحد الذى جعلها إسلامنا «فرض كفاية»، أى «فريضة اجتماعية»، هى أشد

توكيدا من «فروض العين – الفردية»، لأن إثم التخلف عنها والتقصير فيها إنما يعم ويلحق الأمة جمعاء.. وليس كفروض العين التى يقف إثم التقصير فيها عند الفرد وحده؟!

و«الحرية».. رأتها وتراها حضارتنا فريضة إلهية وواجبا شرعيا، هى الأخرى، لأنها مساوية «للحياة».. ولقد نبه علماؤنا على أن حكمة جعل الشريعة «تحرير الرقبة» كفارة «القتل الخطأ»، هو ما فى الرق والعبودية من معنى «الموت»، وما فى العتق والحرية من معنى «الحياة».. فمن أخرج من الحياة نفسا بقتلها خطأ، فليدخل فى الحياة نفسا أخرى بتحريرها من موت الاسترقاق!.. وبعبارة الإمام النسفى [٧١٠هـ – ١٣١٠م]: «.. فإنه –[أى القاتل]– لما أخرج نفسا من جملة الأحياء، لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها، من قِبَل أن الرقيق ملحق بالأموات، إذ الرق أثر من آثار الكفر، والكفر موت حكما.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(١)،(٢)..

كذلك ذهبت حضارتنا على درب تحرير الإنسان إلى الحد الذى اعتبرت فيه هذا «الواجب» جُماع رسالة خاتم الرسل والأنبياء، محمد بن عبدالله – عليه الصلاة والسلام – فحدثنا القرآن الكريم عن أن جُماع هذه الرسالة قائم فى:

أ– اشتغال الإنسان بشئون أمته ومجتمعه العامة، متمثلا فى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».

ب – وتنظيم علاقة الإنسان بالأشياء، ما هو حلال منها وما هو حرام.

جـ– وتحرير الإنسان من القيود والأغلال.

فقالت آيته الكريمة عن هذه الغايات:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٣).

و«اشتغال الإنسان بسياسة مجتمعه وأمته».. ليس مجرد «حق» من حقوقه حتى يجوز له التنازل عنه بالسلبية والاعتزال للشئون العامة.. وإنما هو فريضة إلهية وواجب شرعى.. فاهتمام الإنسان بأمور الأمة «فرض عين».. فـ«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».. أما الاشتغال بسياسة الأمة، فهو فرض اجتماعى، آكد من فروض العين، تأثم الأمة جمعاء إذا لم ينهض به وبتبعاته فريق أو فرقاء من أبنائها.. وتدخل فى ذلك جميع مهام السياسة والاجتماع والاقتصاد، وسائر شئون عمارة الأرض وإدارة الدولة ونظام الاجتماع الإنسانى.. التى وضعها الفكر الإسلامى تحت باب «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»..

وكذلك «العدل».. و«الشورى».. و«الكرامة الإنسانية».. إلخ.. إلخ.. وكل ما تحدثت عنه

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) النسفى [مدارك التنزيل وحقائق التاويل] ج١ ص١٨٩. طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤هـ.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

الحضارات الأخرى فى باب «حقوق» الإنسان، عرضت له حضارتنا العربية الإسلامية كواجب شرعى وفريضة إسلامية، لا يجوز حتى لصاحب المصلحة فيها أن يتنازل عنها بحال من الأحوال.. وإلا كان آثما الإثم العام الذى يلحق الجميع!..

ولا شك أن لهذا المنظور، ولزاوية الرؤية هذه أكبر الأثر فى إثراء هذا المبحث، وزيادة درجته فى سلم الأولويات الإنسانية، الأمر الذى يضيف المزيد من القوة إلى رصيد وعدة المناضلين فى سبيل رفع الإصر والأغلال عن كاهل الإنسان.

فنحن مع فكرية الحضارة الغربية فيما هو موضع اتفاق، بهذا الميدان، وإلى هذه الفكرية نضيف ما تميزت به حضارتنا مما يدعم النضال الإنسانى العام، الساعى إلى تحرير الإنسان، ووضعه حيث أراد الله: الخليفة والنائب والوكيل عن سيد هذا الوجود!..

● أما «الخصوصية الحضارية»، التى تميز حضارتنا، بالمخالفة، وليس بمجرد الإضافة، عن الحضارة الغربية، فى هذا الميدان.. فإننا نوجز الإشارة إلى أهم معالمها ودلالاتها فى هذه النقاط:

● فالإنسان، صاحب «الحقوق»، فى عُرف الحضارة الغربية، هو، فقط، «الإنسان الغربى الأبيض»!.. وليس مطلق «الإنسان»؟!.. فنحن هنا أمام «عنصرية»، ولسنا أمام «إنسانية» حقيقية.. وهم فى هذا الموقف العنصرى، الذى تبرزه الممارسات والتطبيقات فى الدائرة الاستعمارية، وفى العلاقات الدولية، يمثلون الامتداد للتراث العنصرى فى الحضارة الغربية.. فإنسان الحقبة اليونانية، صاحب الحقوق، كان القلة الحرة -السادة- وإنسان «التلمود» اليهودى -وهو من مكونات الفكرية الغربية- هو المؤمن بالعهد القديم.. وليس مطلق الإنسان..

ويشهد على هذا الموقف العنصرى فى تحديد الإنسان صاحب «الحقوق» -كما قلنا- ممارسات الغرب وتطبيقاته -التى تمثل القاعدة العامة- والتى لا تخلو بالطبع من الاستثناء.. فالغرب قد صاغ مواثيقه عن حقوق الإنسان فى ذات الحقبة التاريخية التى مارس فيها الاسترقاق والاستعباد الجماعى للأمم والشعوب الملونة، وأنجز فيها أبشع مشاريع النهب الاستعمارى التى شهدها تاريخ الإنسانية الطويل.

وحتى فى هذا القرن العشرين، رأينا ولا زلنا نرى ممارساته فى العلاقات الدولية قائمة على معايير العنصرية إلى حد بعيد.. ولم تفلح مواثيقه عن مبادىء وحقوق الإنسان فى إخفاء المضمون العنصرى الكالح المستكن فى قلب هذه الممارسات، والمحرك لتياراتها.(٤)

لقد عشنا حينا من الدهر -وكثمرة من ثمرات الغفلة والغزو الفكرى -نلقن أبناءنا فى المدارس والجامعات، أن من أسباب نهضاتنا وثوراتنا الحديثة ما أشاعته مبادىء الرئيس الأمريكى ويلسون Wilson (توماس وودرو) [١٨٥٦ - ١٩٢٤م].. الذى حكم الولايات المتحدة الأمريكية ما بين سنة ١٩١٣ و١٩٢١.. ما أشاعته مبادئه الأربعة عشر من انتعاش لحقوق الإنسان، وخاصة فى مجال حق الشعوب فى

(٤) فى أمريكا قام أستاذ القانون بجامعة ولاية «إيوا» بدراسة إحصائية لأحكام الإعدام الصادرة ضد كل من البيض والسود فى ولاية «جورجيا».. ولقد اتضح منها أن السود إذا قتلوا بيضا فإن تعرضهم لحكم الإعدام يكون بنسبة احدى عشرة مرة، على حين تكون النسبة مرة واحدة إذا قتل البيض سودا؟!.. أنظر [النشرة الإخبارية لمنظمة العفو الدولية] - الطبعة العربية- يونيو سنة ١٩٨٧م.

«تقرير المصير» عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى. لا يخفى عليها استعلاء الرجل الأبيض، وتمييزه العنصرى لبنى جلدته وحضارته عن غيرهم من ملونى الحضارات الأخرى!..

أ – فهى «مبادىء التقنين لزحف الغرب القوى على مقدرات الشعوب الضعيفة».. وذلك عندما يدعو المبدأ الثالث منها إلى «إزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب بقدر الإمكان».

ب– وهى مبادىء التمييز العنصرى بين الشعوب فى «حق تقرير المصير»، عندما تذكر هذا الحق صراحة وتعترف به بالنسبة للشعوب الأوروبية البيضاء.. فينص المبدأ التاسع على «تعديل حدود إيطاليا بما يتفق مع توزيع القوميات الإيطالية».. وينص المبدأ العاشر على «تقسيم النمسا والمجر تقسيما يتفق مع توزيع قوميات الإمبراطورية».. وينص المبدأ الحادى عشر على «تعديل الحدود فى شبه جزيرة البلقان بما يتفق مع الأوضاع التاريخية وتوزيع القوميات».. فيقرر للقوميات الأوروبية حقوق أهلها فى تقرير المصير وفق سماتها وقسماتها ومكوناتها القومية، وأوضاعها التاريخية.

فإذا ما جاءت هذه «المبادىء» إلى الملونين، وإلى وطن العروبة وعالم الإسلام، على وجه الخصوص، اختفى منها تعبير «تقرير المصير»؟!.. ورأينا المبدأ الثانى عشر يقرر تصفية الخلافة العثمانية، ودون أن يذكر لشعوب هذه الخلافة أى حق فى تقرير المصير.. فينص هذا «المبدأ» على «قصر حكم الأتراك على رعايا من جنسهم، وتقرير حرية الملاحة فى مضيق الدردنيل»؟!.. وذلك لأن إعلان هذه «المبادىء» قد تم فى ذات الوقت الذى كان فيه الغرب يمهد الطريق لتقسيم تركة «دولة الرجل المريض» بين قوى الغرب الاستعمارى.. فكان أن اعترفت هذه «المبادىء» للرجل الأبيض– كشعوب أوروبية– بحقها فى تقرير مصيرها بنفسها.. كما اعترف للرجل الأبيض – كمستعمر غربى –«بحقه» فى تقرير مصائر شعوبنا نحن، رغما عنا، وفى غيبة منا؟!.. فقصروا حكم الأتراك على جنسهم التركى، واقتسموا العالم العربى وفق معاهدة «سايكس – بيكو» السرية التى عقدوها سنة ١٩١٦م.. وقررت الحكومة الصهيونية –التى هى نبت غربى– مصير فلسطين العربية، من خارجها، ورغما عن شعبها، وذلك وفق وعد بلفور Balfuor [١٨٤٨ – ١٩٣٠م] الذى أعلن فى ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧م، والذى وافق عليه الرئيس الأمريكى –صاحب المبادىء – ويلسون، قبل إعلانه؟!.. ثم وافقت عليه فرنسا فى ١٤ من فبراير سنة ١٩١٨.. وايطاليا فى ٩ من مايو سنة ١٩١٨م.. ثم وضعوه فى الممارسة والتطبيق بواسطة الانتداب البريطانى الذى باركته «عصبة الأمم» التى أقاموها سنة ١٩٢٠م!..

بل إن هذا الغرب لا يزال على هذا الموقف العنصرى من حق شعوبنا فى تقرير المصير.. فكل صهيونى، من أى جنس ووطن ولغة، من حقه وفق القانون الصهيونى، الذى تنفذه حراب الغرب، أن يقرر الاستيطان بفلسطين فيقرر مصيرها ككيان للاستيطان الصهيونى.. فى الوقت الذى يقف فيه هذا الغرب، حتى اليوم، موقف العداء من حق الشعب العربى الفلسطينى فى تقرير المصير؟!

محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين

٢

للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى

كانت مواجهتنا لهذه الخرافة الموغلة فى التزوير فى الحلقة الأولى، مقصورة على ما قاله المنصفون من المستشرقين فى الرد عليها وتكذيبها، وبيان ما فيها من ادعاءات هِى أوْهَى من بيت العنكبوت، لو كانوا يعلمون.

وفى هذه الحلقة، والتى تليها، نواجه هذه الدعوى المضحكة ببعض حقائق القرآن نفسه، لأن فيه من قذائف الحق ما ينسف كل باطل يختلقه خصوم الإسلام على كتاب الإسلام، ورسول الإسلام، وحقائق الإسلام.

ولو كان عند هؤلاء المستشرقين ذرة من عقل لأدركوا أن قولهم هذا أشد من الوهم غرابة ونكارة، ولأدركوا إنهم غالَوْا فى عظمة شأن الرسول مغالاة يرفضها الرسول نفسه، ويرفضها المؤمنون به؛ لأنها مغالاة تتجاوز حدود البشرية، وتبلغ به درجة "الألوهية"؟ وقد أعماهم الحقد عليه فجعلوه "إلها" وهم يريدون هدمه وهدم ما جاء به من رب العالمين.

فى هذه الحلقة نذكر من حقائق القرآن وقائع أخبر بها، مستحيل عقلا وواقعا أن يكون محمد - ﷺ - هو المخبر بها، وفى الحلقة التى تليها نعرض بعضا مما فى القرآن من العلوم الكونية والحياتية، التى لم يكن أحد يعلم عنها شيئا قبل عصر التقدم والازدهار العلمى وتطوره.

وهذه كتلك مستحيل أن تكون من تأليف محمد- ﷺ -.

ولو كان المستشرقون أصحاب هذه «الخرافة» معزولين عن طبيعة العصر، جاهلين بحقائق التاريخ الذى قصه القرآن على مسامع البشر، لو كانوا كذلك لالتمسنا لهم العذر فى هذا التخريف. ولكن كيف يعذرهم أحد وهم من أبصر الناس بحركات التاريخ ودوراته وتقلباته ولهم جهود عظيمة فى دراساته والإحاطة به، ومنهم متخصصون فى فن حضارات الأمم والشعوب، ومنقبون عن آثارها وحفرياتها ونقوشها، وراصدون صادقون لنشأة العلوم والمعارف الكونية والإنسانية، وقد بلغت

مؤلفاتهم فيها مئات الألوف من المجلدات والموسوعات؛ أجل، لو كانوا جهلة لعذرناهم، أما وهم على بصر نافذ ووعى ثاقب، بكل العلوم والمعارف، فإن التماس الأعذار لهم نوع من خداع النفس، وخيانة للأمانة، والغاء للعقل.

***

ولنبدأ المواجهة بواقعتين تاريخيتين من وقائع العالم القديم، واقعتان كان اهتمام المستشرقين بهما، ولا يزال، من أبرز ما أولوه لوقائع التاريخ؛ لأنهما - أعنى هاتين الواقعتين، عنصر له شأن فى تاريخ أوروبا المسيحية وللمستشرقين - عموما - شغف بدراسة وقائع التاريخ وبخاصة الوقائع الناشئة على أساس دينى، المسيحية طرف فيها.

تلك الواقعتان هما:

● هزيمة الروم أمام الفرس فى جولة أولى.

● انتصار الروم على الفرس بعد هزيمتهم فى جولة ثانية.

لا يرتاب أحد من المستشرقين فى وقوع هاتين الواقعتين. وهم يعلمون - يقيناً - أن القرآن الذى يدَّعون أن محمدا - ﷺ - قد ألفه فى غار حراء قبل أن يعلن للناس أنه رسول أوحى إليه الله القرآن، يعلمون أن هذا القرآن قد ذكر هاتين الواقعتين، ومعهما واقعتان أخريان فرعيتان، هما:

● تحديد زمن انتصار الروم على الفرس

● فرح المؤمنين من غير الروم بهذا الانتصار جاء هذا كله فى قوله تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١)

هذا ما ورد فى القرآن، الذى يدعى المستشرقون أنه من تأليف محمد - ﷺ - وليس وحيا من عند الله؟!

وإذا جارينا هؤلاء المستشرقين - جدلاً - فى دعواهم هذه نقول:

إن محمداً - ﷺ - كان قد فرغ من تأليف القرآن كله قبل أن يعلن أنه رسول من عند الله، وقبل أن يترك غار حراء ويتفرغ لترويج ما أودعه فى القرآن من أفكار ومبادىء من نسج خياله كما يدعون ومعنى هذا:

أن محمداً - ﷺ - كان قد أخبر عن هزيمة الروم أمام الفرس قبل أن تحدث هذه الهزيمة؟!

وأنه كان قد أخبر عن انتصار الروم على الفرس قبل أن يقع هذا الانتصار.

وأنه حدد لوقوع هذا الانتصار بضع سنين بحيث يقع فى إحداها ولا يتجاوز أو يتأخر عن هذه المدة المحددة بـ «بضع سنين».

«والبضع بالكسر: المستقطع من العشرة، ويقال ذلك لما بين الثلاث إلى العشرة، وقيل: بل هو فوق الخمس، ودون العشرة» (٢).

هذا هو معنى البضع فى اللغة، وله محملان، الأول: أن يكون سبع سنين على الاحتمال الأول، وهو ما فوق الثلاث إلى كمال العشرة.

(١) الروم (٢ - ٥).

(٢) مفردات الراغب (٥٠).

أو يكون أربعا، وهو من ست إلى تسع سنين

وأيا كان المراد فيلزم هؤلاء المستشرقين أن يسلموا بأن محمداً - ﷺ - قد تنبأ بحدوث هذه الوقائع قبل أن تحدث بأكثر من عشر سنين لو افترضنا أن سورة «الروم» هي آخر ما ألفه محمد - حسب دعواهم - من القرآن. لأن هزيمة الروم حدثت بعد ظهور الإسلام وقبل الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة.

أما انتصار - الروم فقد حدث - يقينا - بعد الهجرة إلى المدينة(٣).

تقول بعض المصادر الإسلامية: إن انتصار الروم على الفرس حدث عام الحديبية أو فى العام الثانى من الهجرة، مواكبا لانتصار المسلمين فى غزوة بدر الكبرى، وفرح المسلمون [المؤمنون] بانتصارات الروم على الفرس؛ لأن الفرس كانوا وثنيين. أما الروم فكانوا أهل كتاب، فهم أقرب إلى المسلمين من الفرس الوثنيين(٤).

وهذا الفرح سجله القرآن بقوله:

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾

وهكذا صدق ما أخبر به القرآن من أحداث كانت حين أخبر بها القرآن غيباً لا يعلمه أحد سوى الله علام الغيوب.

فكيف ساغ لهؤلاء المستشرقين «البله» أن يتفوهوا بهذه الخرافة:

«محمد ألف القرآن فى غار حراء»؟!

كيف استطاع محمد - ﷺ - أن يخترق حواجز الغيب الكثيف، ويثق فى نفسه كل هذه الثقة - إن كان هو الذى ألف القرآن - أن يعلن على الملأ وقوع هذه الأحداث دون أن يتخلف شيء مما أخبر به؟! وهل عرفوا رجلا من البشر - ليس رسولاً من عند الله - تكون له هذه المهارات والإمكانات التى تصنع معجزات لا يقدر عليها أحد من الخلق، ولو اجتمعوا عليها، وكان بعضهم لبعض ظهيراً؟

ألهذا الحد يدعوكم الحقد فتلغون عقولكم، وتتخذون من الحمق والسفاهة مطايا لبلوغ ما تريدون من طمس الحق، وقد ظهرت لكم علاماته، ورفرفت أعلامه؟

وما أصدق الشاعر الذى قال فى أمثالكم:

وأنزلنى طول النوى دار غربة
إذا شئت أن ألقى امرءاً لا أشاكله
فسافهته حتى يقال: سفاهة
ولو كان ذا عقل لكنتُ أُعاقله

***

وتعالَوْا معنا إلى مهواة أخرى هَوِيتْم فيها وأنتم تدعون أن القرآن ألفه محمد - ﷺ - وهو معتزل فى غار حراء، قبل أن يعلن أنه رسول موحىً إليه من الله

القرآن، الذى تزعمون أنه تأليف محمد، واجه اليهود بعد الهجرة بالمدينة مواجهات شتى، منها

(٣) المدخل إلى القرآن (١٧٨) د/ محمد عبدالله دراز.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى): (٢/١٤) وما بعدها.

هذه المواجهة، وهى مسوقة فى صورة خطاب للنبى - عليه السلام -:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾(٥).

هذه المواجهة اشتملت على نبأ ما كان قد حدث حين ألَّف محمد - ﷺ - القرآن كما تدعون. بل إن بين وقوع الصدق بهذا النبأ وبين فراغ محمد من تأليف القرآن الذى أدعيتموه، أكثر من عشرين عاما على الأقل. هذه واحدة

والثانية، أن هذه المواجهة وردت فيها وقائع كانت قد حدثت فى تاريخ اليهود القديم فى عصر موسى - عليه السلام - بقرابة ألفى سنة مضت قبل أن يرد ذكرها فى القرآن الأمين.

لقد واجه القرآن اليهود بهذه الحقائق، ولم يطعنوا فيها بالتزوير، بل أقروا بها كما وردت. بل لم يؤثر عن اليهود أنهم أنكروا نزول القرآن من عند الله، ولم يقع فى هذه الحماقة إلا جهلة، العرب، والمشركون منهم

أما اليهود، فإن القرآن يثبت لهم اعترافهم بأن القرآن منزَّل من عند الله، ولا نطلب دليلا على هذا أقوى من قوله تعالى فى شأن اليهود:

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٦).

كل ما فى الأمر أنهم لم يلزموا أنفسهم بالإيمان بالقرآن، بحجة أنه لم ينزل عليهم، وأنهم غير مطالبين بالإيمان إلا بما أنزل إليهم من قبل، وهو التوراة. وهذا ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٧).

ولهذا رفضوا الإيمان بالإنجيل المنزل على عيسى - عليه السلام - كما رفضوا الإيمان بالقرآن المنزل على محمد - ﷺ -

***

إذن، فقد أقر اليهود بهذه الحقائق التى واجههم بها القرآن وهى:

● سؤالهم الرسول أن ينزل عليهم كتابا آخر غير القرآن.

● قولهم لموسى: أرنا الله ننظر إليه عيانا بأبصارنا، كما يرى بعضنا بعضا.

(٥) النساء (١٥٣: ١٥٤).

(٦) آل عمران (٧٢).

(٧) البقرة (٩١).

● موت أسلافهم بالصاعقة، ثم بعثهم من موتهم.

● عبادتهم العجل من دون الله.

● رَفْعُ الله الطور فوقهم بميثاقهم.

● قول الله لهم: ادخلوا الباب وأنتم ساجدون.

● نهى الله إياهم أن يصطادوا الحيتان كل يوم سبت.

وبالنسبة لسؤال اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء غير القرآن. فإن هذا السؤال كان غيباً شديد الغموض حين ألف محمد - ﷺ - القرآن في غار حراء قبل إعلان الرسالة.

فما الذى أملاه على فكر محمد قبل وقوعه بأكثر من عشرين عاما؟ وكيف وقع فى وَهْم هؤلاء المستشرقين أن بشرا غير رسول الله يبلغ هذه القدرة الخارقة لكل نواميس الحياة فيطلع على هذا الغيب المجهول؟! هذا هو الذى ينكره العقل والواقع بكل قوة.

أما حين يؤمن العقل بأن محمداً رسول مؤيد من عند الله بالمعجزات الباهرة فإنه يؤمن بكل ما يقوله هذا الرسول وحيا من عند الله

أما ما ورد فى المواجهة من أخبار وقعت فى الماضى بين موسى - عليه السلام -، وبين اليهود، فإن محمداً - ﷺ - ما كان ليعلم شيئا منها لو كان مجرد رجل لا يأتيه مدد من السماء؛ لأنها حدثت فى زمن قديم غير الزمن الذى كان يعيش فيه. وفى غير البيئة التى كان يعيش فيها.

وإذا لم يكن الله هو الذى أعلمه بها، فمن أى مصدر يا ترى استقاها محمد - عليه الصلاة والسلام -؟

هل يقولون: إنه استقاها من طول التأمل والانقطاع عن الناس؟

هذا مستحيل؛ لأن المتأمل - مهما طال وصفا - لا يخترق حجب الزمن الماضى، ولا الزمن الآتى، وقصارى ما يدركه المتأمل هو الواقع المادى المحسوس. فإن تجاوز هذا بقليل فقد يتصور بعض الحقائق وراء هذا العالم المادى المحسوس ولكن فى كثير من الغموض والتذبذب. أما تحديد الأشياء بكل دقة ووضوح. فهذا ما لا يكون.

وإلا فعلى هؤلاء المستشرقين أن يقدموا لنا من تجاربهم ما ينسف علينا الدليل الذى أبطلنا به أن يكون التأمل وسيلة لإدراك الغيوب.

أم يقولون: إنه استقاها من بحيرا الراهب، ومن أسفاره فى التجارة إلى الشام، أو من نصارى تغلب ونجران الذين كانوا يقطنون بعض ضواحى شبه الجزيرة العربية؟

وهذا مستحيل كذلك؛ لأن محمداً - ﷺ - كان غلاما حين استضافه بحيرا الراهب، ولم يقض فى ضيافته سوى وقت قصير، يقضيه ضيف عابر سبيل، ثم يروح إلى حال سبيله ولأن بحيرا كان يحدث محمدا فى حضرة قومه، ومنهم من صار خصما لدوداً له بعد البعثة، ولو كان علم أنه أخذ أصول الرسالة عن بحيرا لاستعمل هذا السلاح ضده وهو رسول، وهذا لم يحدث أما نصارى الشام فلم تكن لهم لقاءات مع محمد وهو يذهب إليها للاتجار فى مال خديجة - رضى الله عنها -

كما أن محمداً لم يكن يخرج إلى الشام وحده. بل فى قوافل فيها ناس كثيرون، ولم يكن يخفى عن أحدٍ منهم من علاقات محمد شيء قط.

أما نصارى شبه الجزيرة، فقد فوجئوا بصوت الحقُ يُدَوِّى فى مكة كما فوجيء غيرهم بهذا النبأ

وقد ظلوا على عقائدهم النصرانية متحمسين لها ضد الإسلام إلى ما بعد الهجرة بزمن طويل.

كما أنهم بعثوا وفداً منهم إلى الرسول وهو بالمدينة يجادلونه فى أمر الرسالة، وقد دعاهم النبى إلى المباهلة والدعاء باللعنة على الكاذب من أى الطرفين، المسلمون وهم، فرفضوا المباهلة خوفا من اللعنة، وفيهم نزل قول الله – عز وجل – :

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾(٨) .

فأى عاقل يقبل أن يكون نصارى شبه الجزيرة هم الذين علموا محمداً – ﷺ – هذه الحقائق التى واجه بها القرآن اليهود فى المدينة؟

أم يقولون : إن محمداً أخذ هذه الحقائق من التوراة والإنجيل؟

وهذا مستحيل، مستحيل، ولعدة أسباب :

الأول : لم يكن محمد قارئا ولا كاتبا حتى يطلع على التوارة والإنجيل، ولم يكن للتوراة والإنجيل وجود فى مكة لا قبل النبوة ولا بعد النبوة

الثانى : إذا أصررتم على دعواكم الأخرى الباطلة، وهى أن محمداً كان يقرأ ويكتب ولكنه تظاهر بالأمية، قلنا سلمنا لكم – جدلاً – أنه كان يقرأ ويكتب، ولكن باعتراف كثير منكم أن التوراة والإنجيل لم يترجم واحد منهما إلى اللغة العربية إلا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين(٩) ومحمد ألف القرآن فى زعمكم فى أوائل السادس الميلادى، أى قبل ترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العربية بأكثر من ثلاثة قرون. فكيف يتصور من – رجل عربى كان لا يعرف اليونانية ولا العبرانية اللتين كان كتابكم المقدس مكتوبا بهما؟ أى عاقل يقبل منكم هذا الهراء

الثالث : وحتى لو كان محمد قارئا وكاتبا، وحتى لو كان الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مكتوبا باللغة العربية وحتى لو كان للكتاب المقدس رواج فى مكة فى القرن السادس الميلادى، الذى بعث فيه محمد – ﷺ – فإن دعواكم مردودة عليكم. أتدرون لماذا؟

الكتاب المقدس بعهديه يخلو من هذه الحقائق التى واجه بها القرآن اليهود فى المدينة.

وإلا فأرونا أين نجد فى التوراة سؤال اليهود رسول الله – ﷺ – أن ينزل عليهم كتابا من السماء؟

ثم أرونا أين موضع هذا السؤال فى الأناجيل الأربعة؟

إن هذا القرآن – ياسادة – لا يصلح أن يكون له مصدر لا من الإنس، ولا من الجن. ولا حتى من الملائكة.

ليس له مصدر إلا الله وحده. بدلالة النقل، وبدلالة العقل. وبدلالة الواقع.. ولوكره المستشرقون والمبشرون.

أم يقولون : إن ورقة بن نوفل هو الذى علمه القرآن؛ لأنه كان قريب من زوجه خديجة ابنة خويلد؟

وهذا محال محال؛ وذلك لثلاثة موانع :

الأول : أن ورقة نفسه فوجىء – كما فوجىء غيره بما جاء به محمد – ﷺ – من ربه، والقول المأثور عن ورقة فى اللقاء القصير الذى تم بينه وبين

---

(٨) آل عمران (٦١).

(٩) المدخل إلى القرآن، نقلا عن «مجلة العالم الإسلامى» باللغة الإنجليزية، من مقال لشدياك بعنوان: (دراسة عن الغزالى) إبريل ١٩٣٩م.

الرسول الخاتم، يدحض دعوى هؤلاء الحاقدين:

إن كل ما قاله ورقة لما سمع من الرسول القرآن: «إن هذا وما جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة» وهذه شهادة من ورقة بأن القرآن وحى من عند الله وليس من صنع أحد غير الله

الثانى: أن ورقة لم تكن له علاقة بمحمد - ﷺ - قبل البعثة، ولم يتردد عليه محمد بعد البعثة، وكان اللقاء الذى تم بينهما هو «بيضة الديك» إن حدثت مرة، فلا تحدث ثانية.

الثالث: إن بضاعة ورقة كانت الإنجيل، والإنجيل والتوراة معا لا يصلحان - عقلا ولا واقعا - أن يكونا مصدرا للقرآن لأن «فاقد الشيء لا يعطيه» حتى لو بقى كل منهما مصونا من التبديل والتحريف. فما بالك وقد ضاع الحق فيهما بين ركام من الباطل، وإلا فأين نجد عقيدة التوحيد فيهما؟ وهى قطب الدائرة فى القرآن؟

وهل كان مشركو مكة يصمتون عن «فضيحة» محمد لو كانوا يجدون أستاذية لورقة على من أنزل الله عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما.

أم يقولون: إن القرآن كان ثمرة الصرع الذى كان محمد مصابا به وهذا محال، لأن المنصفين من كبار أطباء الغرب ينفون إصابته بالصرع، ويستندون فى هذا النفى إلى أن أعراض الصرع (الحقيقى) تختلف عن الآثار الرائعة التى جاء بها محمد - ﷺ - والمصروع لا يأتى بالحكمة، ولا يؤسس دينا، ولا يقيم أمة، كما صنع محمد(١٠).

أم يقولون، وقد قالوا فعلا، إن قسانصرانيا انشق على الكنيسة، فأراد أن يحاربها بدين يخالف دينها، ولم يجد إلا محمدا، فلقنه مبادئ الدين الذى أعلنه باسم الإسلام وعلمه القرآن؟

هذا القس «الوهمى» لم يكن حسب تصويرهم إياه يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية، ولا كان محمد يعرف حرفا واحدا من لغة القس.

وقديما ردد مثل هذه الشبهة مشركو العرب، فواجه القرآن الفريتين القديمة، والحديثة، ونسفهما بدليل عقلى واقعى لا يمكن دفعه:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(١١).

وإذا كان مشركو العرب قد ماتوا، ومات قبلهم باطلهم، فإن على هؤلاء المستشرقين أن يأتوا برجلين، طبيب ومهندس، مثلا، كل منهما لا يعرف لغة الآخر ويعزلوهما فى مكان خاص شهرا، أو سنة، ثم يختبروهما:

هل صار الطبيب مهندسا، والمهندس طبيبا؟ أم أن الرجلين سيعودان من عزلتهما كما دخلا فيها: الطبيب طبيبا، والمهندس مهندسا. دون أن يعرف أحدهما ما يعرفه الآخر. والسبب أن وسيلة تبادل المعرفة بينهما، وهى اتحاد اللغة معدومة. فكيف ساغ لهم - إذا - أن يجعلوا.. «قسهم الأسطورى» أستاذا لمحمد علمه كل القرآن وكل الاسلام؟! (١٢).

عجيب - والله - هذيان هؤلاء المستشرقين، أو كما قال الشاعر

وليس يصح من الأذهان شئ
إذا احتاج النهار إلى دليل

«يتبع»

---

(١٠) محمد رسول الله (٢٠ - ٢١) إتين دينية، ترجمة الإمام عبد الحليم محمود.

(١١) النحل (١٠٣).

(١٢) سيرة محمد.. كارين ارمسترونج المقدمة.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إعداد وتقديم الشيخ / عبدالفتاح حسين الزيات

● **السؤال من / محمد السيد عبدالهادى من الزرقا – دمياط :**

- رجل يملك عدة أطيان ما بين عقارات وأراض زراعية، ومن ضمنها منزل كبير جعل بعضه لسكناه والباقى مؤجر للغير، وجميع الأطيان والعقارات المذكورة مؤجرة للغير بموجب عقود إيجار، وأثناء وجود هذه الأطيان والعقارات تحت يد المستأجرين وهبها الرجل لولده القاصر المشمول بولايته، فهل تكون هذه الهبة نافذة شرعا وتفيد ملك الموهوب له، أم تكون هذه الهبة غير نافذة ولا تفيد ملكية الموهوب له وليس له التصرف فيها بأى وجه من وجوه التصرفات؟

●● **الجـواب :**

- بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

نفيد : بأن هبة الأب لابنه القاصر المشمول بولايته الأطيان والعقارات المذكورة أثناء وجودها تحت يد المستأجرين بمقتضى عقود الإجارة كما ذكر لا تنفذ لعدم قبضه الذى ينوب عن قبض الصغير ولا تفيد الملك للموهوب له، فلو تصرف فيها الواهب بالبيع وهى تحت يد المستأجرين قبل انتهاء مدة الإجارة صح تصرفه غير أنه يكون موقوفا على إجازة المستأجرين مراعاة لحقهم بمقتضى عقد الإيجار، فإذا انتهت مدة الإجارة نفذ هذا التصرف كما يعلم ذلك من نصوص العلماء والدليل على ذلك ما جاء فى –البحر؟– من باب الهبة، عند قول المصنف : « وهبة الأب لطفله تتم بالعقد– ما نصه : لأن قبض الأب

ينوب عنه وشمل كلامه ما إذا كانت فى يد مودع الأب لأن يده كيده، بخلاف ما إذا كانت فى يد الغاصب أو المرتهن أو المستأجر حيث لا تجوز الهبة لعدم قبضه.. »

وبناء على ما تقدم فإن هبة الأب لابنه القاصر صحيحة وقبضه ينوب عن قبض الصغير إلا إذا كانت فى يد الغاصب أو المرتهن أو المستأجر حيث لا تتم الهبة وأنه بانقضاء مدة الإجارة فى السؤال فإن الهبة تنقلب صحيحة مالم يوجد تصرف آخر من الواهب قبل إنقضائها.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال.. والله أعلم.

● السؤال من الدكتور سعيد متولى الرفاعى- الوراق- جيزة:

ـ أنا من الذين يشربون السجائر بشراهة شديدة حتى أصابنى منها بعض الأزمات النفسية والصحية، وتأكيدا منى على ترك شرب السجائر فقد قمت بالحلف على كتاب الله الكريم ألا أشترى الدخان وقد نفذت فعلاً هذا القسم. وبطَّلت التدخين، ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان إذ زاد وزنى حتى خشيت على قلبى من السمنة وصرت ألهث إذا سرت بسرعة أو تحدثت كثيرا. وقد أشار عليَّ بعض إخوانى الدكاترة بالعودة إلى التدخين.

هل هذا جائز شرعا؟ وما حُكم الحلف على القرآن الكريم الذي حلفته؟

●● الجواب:

ـ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

فنفيد بأن الحلف بالقرآن العظيم أصبح من الأمور التى تعارف عليها الناس فى أيمانهم مثل الحلف بقول: والله العظيم فهذا يعتبر يمينا لأن القرآن كلام الله – تعالى – وكذلك تعارف الناس وخاصة فى هذا الزمان على الحلف بالمصحف – وذلك بوضع اليد عليه– وقولهم: وحق هذا، أو، وحق كتاب الله هذا.. فقد قال العلامة العينى من الحنفية: إنه ينعقد يمينا، وقال ابن قدامه فى كتابه المغنى: وإن حلف بالمصحف انعقد يمينا، وقد قال برأيه هذا غالب الأئمة، وحجتهم أن الحلف بالمصحف إنما قصد الحلف بالمكتوب فيه وهو القرآن الذى هو بين دفتى المصحف بالإجماع. والذى يتجه إليه النظر ونرى الأخذ به أنه يمين منعقدة، فإذا حنث الحالف فيها لزمته كفارة اليمين وهى مذكورة فى قوله – تعالى –:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾(١).

فالآية هنا صريحة فى ترتيب الكفارات فلا يصار إلى الصوم إلا إذا عجز عن الأنواع الثلاثة المذكورة قبله، والكفارة بالإطعام أن يطعم عشرة

(١) [المائدة/٨٩].

مساكين غداء وعشاء فى يوم واحد أو يطعم مسكينا واحداً غداء وعشاء مدة عشرة أيام. والكفارة بالكسوة أن يكسو عشرة مساكين لكل مسكين ثوب يستر أكثر بدنه، فإن لم يجد الحانث شيئا من الطعام أو الكسوة أو العتق، صام ثلاثة أيام متتابعة وأجاز ابن حنبل تفريق الأيام، وبه قال الشافعى ومالك، كما جاء ذلك فى المغنى لابن قدامة.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم.

● السؤال / من حاتم أبو الخير - دمنهور - بحيرة:

ـ عدت من عملى وأنا مرهق وتعبان فتشاجرت مع زوجتى وقلت لها: أنت مطلقة بالأربع مذاهب.. ولى منها بنت مازالت فى عمر الزهور وأنا أقرر أننى كنت فى أشد حالات الغضب، فما حكم الشرع فى هذا الطلاق؟

●● الجواب:

ـ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

نفيد بأنه إذا صدرت صيغة الطلاق المذكورة فى هذا السؤال وكان الرجل غضبانا غضبا شديداً بحيث لم يع ما يقول وقت تلفظه بهذا الطلاق، وأصبح يغلب الخلل والخلط فى أقواله وأفعاله، فإن هذا الطلاق بهذه الصيغة وعلى تلك الصفة لا يقع، لأن الرجل فى هذه الحالة أصبح عديم الأهلية لإيقاع الطلاق. أما إذا لم يصل به الغضب إلى الحالة المذكورة آنفا فإن الطلاق بالصيغة المذكورة يقع طلقة واحدة رجعية إن لم تكن هذه الطلقة مكملة للثلاث وكانت الزوجة بطبيعة الحال مدخولا بها.

وفى مثل هذه الحالة سئل «الخير الرملى» عن قول القائل لزوجته: أنت طالق على سائر مذاهب المسلمين، فأجاب بأنه طلاق رجعى، وكذا أفتى به ولده فيمن قال: أنت طالق على الثلاثة مذاهب، حيث قال: إنه يقع عليها طلقة واحدة رجعية، معللا بأن المذاهب الثلاثة أو الأربعة، بل وسائر المذاهب اتفقت على وقوع الطلاق الرجعى فى: أنت طالق، فله مراجعتها فى العدة.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم.

● السؤال من ممدوح أبوبكر - فرشوط - أسيوط:

ـ تبرع رجل لابنته الصغيرة «بحُلى» وبعض الأشياء الثمينة وأودع كل ذلك عند شخص أمين، وشرط عليه أن يسلمها لابنته عند بلوغها، وأشهد على ذلك. وقد بلغت البنت سن الرشد ولكن الشخص المؤتمن امتنع عن تسليم الأمانة وكذلك بعض الورثة، فما هو الحكم الشرعى؟

●● الجواب:

ـ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

فنفيد: بأن المصرح به فى أكثر كتب المذاهب أن تبرع الرجل لابنته الصغيرة يعتبر

هبة منه لها، وأن هبة الأب لولده الصغير تتم بمجرد الإيجاب، وينوب قبض الأب الواهب عن قبض الصغير الموهوب له، ويدخل الموهوب فى ملك الصغير بشرط أن يكون الموهوب معلوما غير مشاع وهو فى يد الأب أو مودعه أو مستعيره وعلى هذا فمتى كانت «الحُلى» وبعض الأشياء الثمينة معلومة للواهب وهى فى يد الأب وقت الهبة أو فى يد مودعه أو مستعيره ولم يكن مرهونا عند أحد ولا مغصوبا تمت الهبة من الأب لابنته المذكورين فى السؤال.. وقام قبض الأب مقام قبضها وصار الموهوب ملكا للصغيرة وليس للأب أن يرجع فى تلك الهبة، وإيداع الأب هذه الحُلى وغيرها عند أمين لا يُبطل الهبة، لأن الأب يودع مال ولده الصغير عند أى إنسان تطمئن إليه نفسه إلى أن يبلغ رشده وهنا فإنه متى بلغت البنت رشدها وتحقق ما ذكر بالطريق الشرعى، وجب على الأمين أن يسلم الأمانة إليها حتى لا يكون خائنا لها وجاحدا لحق إئتمن عليه وليس لبعض الورثة أن يعارضوا فى ذلك، لأن الهبة تمت فى حيال حياة الأب. هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم.

● سؤال من زينب عبدالفتاح لطفى - العياط - جيزة:

ـ هل يجوز حشو الأسنان أو تركيب غطاء لها من المعدن كالذهب والفضة والبلاتين. وما حكم المضمضة فى هذه الحالة وكذا الاغتسال مع عدم وصول الماء تحت سن من ذهب أو فضة أو بلاتين؟

●● الجواب:

ـ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

فنفيد بأن المضمضة كما عرفها الشوكانى فى نيل الأوطار، هى: «أن يجعل الماء فى فمه ثم يديره ثم يمجه» وقال الإمام النووى: أقلها أن يجعل الماء فى فمه ولا يشترط إدارته على المشهور عند الجمهور. وقد اختلف الفقهاء فى حكم المضمضة فى الوضوء والغُسل: فذهب أحمد وإسحاق وأبوعبيدة وأبو ثور وغيرهم إلى وجوبها فيهما. لحديث أبى هريرة - رضى الله - عنه: «أمر رسول الله ﷺ - بالمضمضة والاستنشاق» وذهب مالك والشافعى والأوزاعى وغيرهم إلى عدم وجوبها فيهما.

فعلى القول بعدم وجوبها يصح الوضوء والغُسل بدونها، وعلى القول بوجوبها، أنه لا يصح ما وجبت فيه من وضوء أو غسل إلا بها، ويجب أن يصل الماء إلى الأسنان والأضراس حتى يتحقق استيعاب الماء جميع الفم، فإن كانت الأسنان والأضراس بحالتها الطبيعية فالأمر ظاهر، وإن كان فيها تجويف يبقى فيه شيء من الطعام، فقد جاء فى (فتح القدير)· «ولو كان سنه مجوفا أو بين أسنانه طعا يجزئه، لأن الماء لطيف يصل إلى كل موضع غالبا، وجاء فى الفتاوى الهندية: «والعجين فى الظفر يمنع تمام الغسل والوسخ والدرن لا يمنع، يستوى فى ذلك القروى والمدنى، والتراب والطين فى الظفر لا يمنع والصباغ ما فى ظفرهما يمنع تمام الغسل.

ويعلم من هذا أن هناك خلافا فى صحة الغسل مع وجود بعض الطعام فى تجويف الأسنان والأضراس وأن الاحتياط فى إخراجه وإيصال الماء إلى التجويف، وهذا ظاهر فى المواد التى تبقى فى تجاويف الأسنان، أما حشو الأسنان والأضراس بما يسد فجواتها فى الصناعة أو تغطيتها بمعدن كالذهب والفضة والبلاتين أو نحوها أو شد بعضها إلى بعض بالأسلاك المعدنية بحيث أصبح الحشو والغطاء كأنه جزء من الأصل متصل به اتصالا ثابتا مستقراً، فالظاهر من القواعد العامة أنه لا يجب فى الوضوء والغسل إزالتها بل يجرى عليها الماء بحالتها الراهنة ولا يجب غسل ما تحت الحشو والغطاء أو الأسلاك لما فى ذلك من بالغ الحرج والمشقة وهما مندفعان فى التشريع بقوله – تعالى – :

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٢).

وقوله:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٣)

أما استعمال الذهب والفضة والبلاتين ونحو ذلك فى حشو الأسنان والأضراس أو غطائها فجائز للضرورة، فقد ثبت أن عرفجة الكنانى أصيب فى أنفه يوم كلاب فاتخذ أنفاً من فضة فأنتن، فأمره رسول الله –ﷺ– أن يتخذ أنفا من ذهب

وقد ثبت أن كثيرا من السلف الصالح قد شد أسنانه بالذهب مثل أبى رافع وثابت التبانى والمغيرة بن عبدالله وغيرهم، وبهذا علم الجواب.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم.

● سؤال من شفيقة السيد عبدالخبير – أبوكبير – شرقية:

– طلق رجل زوجته قبل أن يدخل بها فى مرض موته فرارا من أنها ترثه، وقد توفى هذا الرجل فعلاً بسبب هذا المرض، فما الحكم الشرعى فى ميراثها. هل ترث فى مطلقها المذكور، وهل تطالب بنفقة الزوجية من حين العقد إلى يوم الطلاق وهل تعتد عدة المطلقة أم عدة الوفاة؟

●● الجواب:

– بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه..

فنفيد: أولاً: إن هذه الزوجة إذا كانت غير مدخول بها دخولا حقيقيا ولا حكميا، فلا شك فى عدم ورثها من هذا الرجل، أما إذا كانت غير مدخول بها دخولا حقيقيا ولكنه قد دخل بها دخولا حكميا، وذلك بأن اختلى بها خلوة صحيحة، فللفقهاء هنا قولان:

قول بقيام الخلوة الصحيحة مقام الدخول الحقيقي فللزوجة في هذه الحالة

أن ترث زوجها إذا مات فى مدة العدة كما ذكر فى السؤال.

(٢) [البقرة/١٨٥].

(٣) [الحج/٧٨].

والقول الثانى أن الخلوة الصحيحة لا تقوم مقام الدخول الحقيقى، وفى هذه الحالة لا ترث، وهذا هو الظاهر من كلام الفقهاء من أنها لا ترث:

قال العلامة ابن عابدين فى رد المحتار ما نصه: «وعلى هذا -أى مافى الشرح- لو طلقها فى مرض بعد الخلوة الصحيحة قبل الوطء ومات فى عدتها، فإنها لا ترث».

وعلي هذا يجب التعويل على أنها لا ترث - بعد الخلوة الصحيحة.

ثانيا: إنه إذا لم يدخل بها دخولا حقيقيا، ولم يختل بها خلوة صحيحة ولا خلوة فاسدة فلا عدة عليها بل بانت منه حيث لا عدة.

أما إذا اختلى بها خلوة صحيحة أو فاسدة فتجب عليها العدة استحسانا على ما هو المذهب وهذه العدة هى عدة طلاق مطلقا على ما اخترنا من أن الخلوة الصحيحة لا تقوم مقام الوطء فى حق الإرث.

ثالثا: إن ما وجب لها من النفقة حال قيام الزوجية إلى يوم الطلاق فقد سقط بالموت.. اللهم إلا إذا كانت النفقة مفروضة بحكم قضائى أو مفروضة بالرضاء أو استدانت بإذن الزوج فإنه لا يسقط ما استدانته بل يعتبر دينا على الزوج ويحق لها المطالبة به من تركته.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم.

● **السؤال من: روحية ع. ف. - بيلا - محافظة كفر الشيخ:**

ـ رجل تزوج امرأة ودخل بها وبعد ثمان سنوات تزوج بامرأة أخرى ثيب وبعد أن دخل بها بشهرين قال أهل الزوجة الأولى: بأن الزوجة الثانية قد أرضعت الزوجة الأولى لأنها كانت قبل زواجها من هذا الرجل، زوجة لعم الزوجة الأولى، وهم لذلك يريدون فسخ العقد الأول، وأنهم يدعون أنهم يثبتون هذا الرضاع بشهادة الشهود، فما هو الحكم الشرعى فى ذلك؟

●● **الجواب:**

ـ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله ومن والاه..

فنفيد: إنه بعد أن اطلعنا على هذا السؤال بأن الفقهاء قد نصوا على أن الرضاع يثبت بما يثبت به المال، أى أنه يثبت بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين كذلك، وبناء على ذلك فمتى ثبت أن المرأة الثانية أرضعت الأولى فى مدة الرضاع وهو الحولين وبهذه الحجة فإنه يفرّق بين هذا الزوج وبين كل من زوجتيه لحرمتهما عليه، أما الأولى فلدخوله بالثانية التى هى أمها رضاعا، وأما الثانية فلأنها أم امرأته رضاعا، ولا تقع الفرقة إلا بتفريق القاضى، وذلك لما نص عليه صاحب البحر من قوله: ثم اعلم أن الرضاع إذا ثبت بشهادة رجلين عدلين فإنه لا تقع الفرقة إلا بتفريق القاضى.

فالتفريق هنا للقاضى لأن هذه فرقة وحرمة تتضمن إبطال حق العبد، فلا يتعلق هذا الحكم بالشهادة إلا بانضمام القضاء إليها.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال.

دار الهجرة والتحذير من هجرها

لفضيلة الشيخ / عبد الحفيظ فرغلى القرنى

دار الهجرة هى المدينة المنورة -على ساكنها أفضل الصلاة والسلام- كان اسمها يثرب فغيره النبى - ﷺ - إلى المدينة وإلى أسماء أخرى.

وقد سميت يثرب بهذا الاسم نسبة إلى رجل من العماليق اسمه يثرب بن عميل بن مهلائيل بن عملاق ينتهى نسبه إلى سام بن نوح -عليه السلام-. كما ذكر السهيلى فى الروض الأنف، ونقله القرطبى فى تفسيره عنه عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾(١).

وقد نهى النبى - ﷺ - عن أن يقال للمدينة يثرب، كأنه كره الثرب لأنه فساد فى كلام العرب، وقال ابن الأثير: غير النبى - ﷺ - اسم يثرب وسماها طابة وطيبة كراهية التثريب وهو اللوم والتعيير.

ومما ورد فى ذلك ما رواه الحاكم فى التاريخ من حديث عامر بن ربيعة عن النبى -ﷺ-: « من قال للمدينة يثرب فكفارته أن يقول المدينة عشر مرات »(٢).

وعن البراء بن عازب -رضى الله عنه- عن النبى -ﷺ-: « من سمى المدينة بيثرب فليستغفر الله، هى طابة، هى طابة، هى طابة »(٣).

وقد ورد لفظ يثرب فى القرآن الكريم مرة واحدة فى الآية التى ذكرتها.

ولكن لفظ المدينة ورد عدة مرات، منها قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾(٤)

وقوله -تعالى-:

---

(١) الأحزاب (١٣).

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٤/٢٨٥).

(٤) التوبة آية (١٢٠).

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾(٥)

وقد وردت الإشارة إليها باسم الدار فى قوله – تعالى– :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٦).

المدينة قبل الهجرة

كان يسكن المدينة قبل الهجرة قبيلتان كبيرتان هما الأوس والخزرج، وأصلهما من اليمن، وكان يسكن معهما طوائف من اليهود. وفعل اليهود كعادتهم ما يفعلونه فى كل زمان ومكان من الكيد لمن معهم وحولهم، لأنهم لا يحلو لهم العيش إلا فى الماء العكر، فأوقعوا العداوة بين الأوس والخزرج حتى نشبت الحروب بينهم، التى أكلت الأخضر واليابس، وكان اليهود هم المستفيدين من ذلك لأنهم كانوا يبيعونهم السلاح ويقرضونهم بالربا حيث يستولون على أموالهم وثمارهم وممتلكاتهم.

وظلت العداوة مستعرة بين القبيلتين الكبيرتين حتى هداهم الله –تعالى– لدينه، فالتقت وفود منهم بالنبى –ﷺ– فى موسم الحج بالعقبة وبايعوه على الإسلام والنصرة، وهاجر النبى –ﷺ– وأصحابه إلى المدينة وسمى الأوس والخزرج بالأنصار، وسمى المدينة طابة وطيبة وطيِّبة والمطيبة، ولها أسماء أخرى كثيرة تشير إلى فضلها.

وكانت ديانة الأنصار قبل الهجرة عبادة الأوثان، ومنهم من تهود تأثرا باليهود المقيمين معهم، ولكن الإسلام طهر قلوبهم وهداهم إلى الحق، فكسروا أصنامهم التى كانوا يعبدونها بأيديهم، ونبذ من كان قد تهود منهم اليهودية.

وأقبلوا على دين الله الذى اختاره الله للبشرية دينا.. ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ بحب ويقين، يجاهدون فى سبيله ويتسابقون لإعلاء كلمته، ويضحون بأرواحهم وأموالهم راضين مستبشرين حتى ارتفعت بهم وبالمهاجرين راية الإسلام وعلا أمره وعز شأنه.

الهجرة شرف وعزة

وأصبحت دار الهجرة بعد أن انتقل إليها رسول الله –ﷺ– مهوى أفئدة المسلمين فى كل مكان، وتتابعت إليها وفودهم، وأصبح لا يكتمل إيمان المسلم إلا بالهجرة، ونعى القرآن الكريم على قوم قعدوا عن الهجرة فقال فى شأنهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾(٧)

(٥) الأحزاب (٦٥). (٦) الحشر (٩). (٧) النساء (٩٧:٩٩).

نزلت هذه الآيات فى قوم أسلموا، فلما هاجر رسول الله -ﷺ- كرهوا أن يهاجروا وخافوا .. رواه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

وقال القرطبى فى تفسيره للآيات: إن الاستفهام فى قوله: «فيم كنتم» للتقريع والتوبيخ وتشير الآيات إلى وجوب هجر الأرض التى لا يتمكن الإنسان فيها من أن يقيم دين الله ويؤدى شعائره.

لقد أصبحت الهجرة واجبة على كل مسلم وأصبح لا يستوى القاعد عن الهجرة مع المهاجر، لقد ارتفع مستوى المهاجر فوق مستوى غيره من المسلمين وتشير الآية إلى ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٨).

لقد أصبحت المدينة دار هجرة ومركز هذا الدين القويم وعاصمة الدولة الإسلامية الجديدة، وأصبحت الهجرة إليها شعارا عمليا يشير إلى صدق الإيمان وقوة اليقين، فإيمان دون هجرة لا يعنى شيئا، وكأن الهجرة أصبحت صنو الجهاد، وقد تكفل الله بأجر المهاجر كما تكفل بأجر الشهيد تماما فقال -تعالى-:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٩).

قال قتادة: لما نزلت آية «إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم» قال رجل من المسلمين وهو مريض: والله ما لى عذر، إنى لدليل فى الطريق، وإنى لموسر، فاحملونى فحملوه فأدركه الموت فى الطريق فقال أصحاب النبى -ﷺ- الذين هاجروا-: لو بلغ إلينا لتم أجره، وكان قد مات بالتنعيم، وجاء بنوه إلى النبى -ﷺ- فأخبروه بقصته فنزلت الآية، وهذا الرجل هو ضمرة بن جندب أو جندب بن ضمرة.

كان المهاجر لا يترك دار الهجرة إلا لعذر قاطع وبموافقة النبى -ﷺ- الذى كان يأذن لمن يشاء منهم.

ومما يدل على شرف الهجرة وأنها وصف كمال لأصحابها تمسك النبى -ﷺ- بوصفها فقد ورد أنه قال: «لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار».

قال النبى -ﷺ- حين شكا إليه سعد بن عبادة ما رآه من تذمر الأنصار حين رأوا غنائم هوازن تعطى للمؤلفة قلوبهم من قريش وغيرهم، ولم يأخذوا هم شيئا منها. فقال

(٨) الأنفال (٧٢).

(٩) النساء (١٠٠).

لسعد: اجمع لى الأنصار فجمعهم ثم خطبهم النبى -ﷺ- فى خطبة طويلة منها: «أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة -متاع قليل- من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار.. ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار.. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»(١٠).

فهذا الخطاب يشير إلى فضل الأنصار ولكنه فى الوقت نفسه يشير إلى فضل الهجرة وأن شرفها يعلو فوق قدر النصرة، فلئن كان الأنصار قد آووا ونصروا فالمهاجرون ضحوا بالأهل والمال والوطن وتركوا كل ما يملكون وراءهم ظهريا غير ملتفتين إليه رضا بالله ورسوله -ﷺ-.

وداع النبى -ﷺ- مكة

لقد خرج النبى -ﷺ- من مكة حزينا على فراقها، والوطن جزء من الإنسان عزيز عليه، ليس بالسهولة أن ينساه وقد تنسم هواءه ودرج على أرضه، وأكل من خيره وشرب من مائه وسعى فى رحابه، وقد ورد أن النبى -ﷺ- وقف عند الحذورة فى أثناء هجرته ونظر إلى مكة وقال مخاطبا لها: «والله إنك لأحب البلاد إلى ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت»(١١).

ونزل فى ذلك قوله -تعالى-:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾(١٢)

ودعا النبى -ﷺ- ربه قائلا: «اللهم حبب إلينا المدينة كحب مكة أو أشد» ويروى أنه قال: «اللهم كما أخرجتنى من أحب البقاع إلىَّ فأسكنى فى أحب البقاع إليك»(١٣).

واستجاب الله -تعالى- دعاء حبيبه -ﷺ- فأحب المدينة حبا شديدا ودعا لها بالبركة فى ثمارها ومدها وصاعها، وجعلها حرما آمنا وقال فى ذلك: «إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما وأنا حرمت المدينة حراما ما بين مأزميها -جانبيها- ألا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح قتال ولا تخبط فيها شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا فى مدينتنا، اللهم بارك لنا فى صاعنا، اللهم بارك لنا فى مدنا، اللهم اجعل مع البركة بركتين، والذى نفسى بيده ما من المدينة شعب ولا نقب إلا عليه ملكان يحرسانها حتى تقدموا إليها»(١٤).

وقال أبوهريرة: حرم رسول الله -ﷺ- ما بين لابتى المدينة فلو وجدتُ الظباء ترتع بين لابتيها ما ذعرتها.

---

(١٠) سيرة ابن هشام.

(١١) رواه أحمد ، والترمذى وابن ماجه، والفاكهى فى أخبار مكة.

(١٢) القصص (٥٨).

(١٣) رواه الحاكم فى كتاب الهجرة.

(١٤) رواه مسلم فى كتاب الحج ، باب فضل المدينة.

النبى - ﷺ - ينهى عن ترك المدينة إلى أماكـــن أخـــرى

وحذر النبى -ﷺ- أصحابه عن هجر المدينة وتركها إلى غيرها من البلاد، فقد روى أبوهريرة أن رسول الله -ﷺ- قال: «يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه: هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

وفى رواية: «والذى نفسى بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها كما ينفى الكير خبث الحديد»(١٥).

فانظر إلى ما يشير إليه الحديث الشريف من تحذير من ترك المدينة وترغيب فى البقاء بها وعدم مغادرتها حتى ولو لاقى فيها المهاجر شدة وضيقا، يقول النبى -ﷺ-: «من صبر على لأوائها كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة»(١٦) واللأواء: ضيق المعيشة.

قال النووى: فى الحديث إغراء بسكنى المدينة والصبر على شدائدها وأن هذا الفضل باق مستمر إلى يوم القيامة.

ويحذر من تركها والعودة إلى الموطن الأصلى

وجاء فى حديث رواه جابر بن سمرة عن النبى -ﷺ- قال: «لعن الله من بدا بعد هجرة ولعن الله من بدا بعد هجرة، ولعن الله من بدا بعد هجرة إلا فى الفتنة فإن البدو فى الفتنة خير من المقام فيها»(١٧).

وتكرار اللعن فى الحديث يدل على خطورة نقض الهجرة والارتداد عن المدينة إيثارا لحياة البادية عليها.. بل لقد عدت العودة من دار الهجرة إلى الموطن الأصلى من الكبائر فى حديث رواه السيوطى فى الجامع الصغير قال فيه: «الكبائر سبع: الإشراك بالله وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وقذف المحصنة والفرار من الزحف وأكل الربا وأكل مال اليتيم والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة»(١٨).

وروى المنذرى حديثا آخر قال فيه: «آكل الربا وموكله وكاتباه إذا علموا والواشمة والمستوشمة للحسن ولاوى الصدقة والمرتد أعرابيا بعد الهجرة ملعونون على لسان محمد -ﷺ- رواه عبدالله ابن مسعود - رضى الله عنه -.

وإننا لنرى أن النبى -ﷺ- يطلب من ربه أن يمضى لأصحابه هجرتهم وألا يردهم على أعقابهم فيتركون المدينة عائدين إلى أوطانهم التى جاءوا منها، ويقص ابن الأثير فى «أسد الغابة» قصة عن سعد بن أبى وقاص تشير إلى ذلك. قال -أى سعد- : مرضت عام الفتح مرضا شديدا أشفيت منه على الموت، فأتانى رسول الله -ﷺ- يعودنى، فقلت: يا رسول الله، إن لى مالا كثيرا وليس يرثنى إلا

(١٥) أخرجه مسلم فى كتاب الحج، باب المدينة تنفى شرارها.

(١٦) رواه مسلم.

(١٧) رواه السيوطى فى جمع الجوامع وعزاه إلى الطبرانى فى الكبير.

(١٨) رواه أبوسعيد الخدرى، ورمز له السيوطى بالصحة والحسن، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب فى باب الترهيب من الربا مرويا عن أبى هريرة -رضى الله عنه-.

ابنتى أفأوصى بمالى كله؟ - فأشار عليه النبى - ﷺ - بأن يوصى بالثلث والثلث كثير- ثم قال سعد: يا رسول الله أخلف عن هجرتى؟ -أى هل أموت بمكة؟- فقال له النبى -ﷺ- : إنك لن تخلف بعدى فتعمل عملا تريد به وجه الله -تعالى- إلا ازددت به رفعة ودرجة، اللهم امض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم.. وشفى سعد، وقص هذه القصة بعد شفائه، وقال: «لكن البائس سعد بن خولة يرثى له رسول الله -ﷺ- أن مات بمكة. وكان سعد بن خولة مات بمكة فى حجة الوداع».

حفظ المدينة

وجاء فى فضل المدينة وهى دار الهجرة آثار كثيرة منها قوله -ﷺ- : «نعمت الأرض المدينة»(١٩).

وأنها محفوظة من الفتن، وأن الدجال لا يدخلها.

عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- قال: «يأتى الدجال وهو محرم عليه أن يدخل أنقاب المدينة فينزل بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله -ﷺ- حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون فى الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه فيقول -أى الرجل-: والله ما كنت فيك أشد بصيرة منى اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه»(٢٠).

ويكفى دار الهجرة شرفا أنها حوت جسد النبى -ﷺ- حيا بعد الهجرة عشر سنوات، ثم كان بها مثواه الأخير، حيث فضلت بذلك على كل بقاع الأرض، قال الشاعر فى ذلك:

جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت زكا مأواها

وروى عن على -كرم الله وجهه- قال: إنه ليس فى الأرض بقعة أكرم على الله من بقعة قبض فيها نفس نبيه -ﷺ-.

وروى أبويعلى عن أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- أنه قال: «سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «لا يقبض نبى إلا فى أحب الأمكنة إليه».

وجاء فى سبل الهدى والرشاد ج٣ ص٣١٦ : وأحب الأمكنة إليه أحبها إلى ربه -تعالى-، لأن حبه تابع لحب ربه، وما كان أحب إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وأكرمنا بجواره أحياء وأمواتا.

---

(١٩) رواه السيوطى فى جمع الجوامع من حديث طويل عن جابر -رضى الله عنه-.

(٢٠) رواه البخارى (٣٣/١٠٩) برقم (٧١٣٢).

الهجرة
سببها - أثرها

من روائع الماضي بمجلة الأزهر

لفضيلة الشيخ محمود شلتوت

إعداد وتقديم الشيخ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد:

فإن حادث الهجرة من أخطر الأحداث فى مسار الدعوة الإسلامية، بل أعظمها شأنا، إذ كانت نقطة البدء فى قيام الدولة الإسلامية وبروزها إلى الوجود البشرى، مشرق هداية، ومبعث حياة فى كل الجوانب على وجه الأرض. وكان من توفيق الله -سبحانه- أن يؤرخ فى الإسلام بهذا الحادث العظيم ليتذكر المسلمون دائما أن قوة العقيدة وحدها هى التى حققت للإسلام ودعوته أعظم نصر.

وإذا كانت الهجرة من مكة إلى المدينة -كحدث- قد مضت فإن معنى الهجرة مكتوب له البقاء ما بقيت السماء والأرض، وستظل الهجرة المحمدية معينا لا ينضب لأعذب المعانى، وأسمى القيم.

ولأن الهجرة كانت نقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية، ومرحلة انطلاق لها ولأتباعها فقد أثارت دهشة المنطقة العربية وما حولها آنذاك، ولا تزال تثير دهشة المؤرخين الذين عنوا بدراسة الإسلام مسلمين وغير مسلمين.

ونجاح الهجرة راجع أولا وقبل كل شىء إلى العقيدة الدينية السليمة التى أخذت بمجامع قلوب أتباعها فصاغتها فى قوالب من الإيمان القوى والإخلاص الندى، والطاقة الرائعة من الاحتمال والتضحية الكبرى بكل مرتخص وغال، ومع الإيمان والإخلاص والاحتمال والتضحية ثقة كبرى فى الله -عز وجل-.

إن عناية الله قد اختارت للهجرة الزمان والمكان المناسبين، فلو أنها سبقت زمانها بأعوام، أو تأخرت عنه بأعوام، وأيضا لو يممت وجهها إلى غير يثرب، لكان احتمال الفشل قائما.

إن على المسلمين اليوم أن يتذكروا ماضيهم ليصلوا به حاضرهم، ويؤمنوا طريق مستقبلهم ملتزمين بأوامر الله فى القرآن، وبسنة رسول الله إنهم إن فعلوا ذلك هانت تحت أقدامهم الخطوب، وانزاحت عنهم الكروب واجتمع شملهم وتوحدت كلمتهم.

وإليك ما قاله الكاتب -رحمه الله-:

الهجرة: اسم للخروج من أرض إلى أخرى، وهى من الهجر بمعنى الترك، ومنه قوله - ﷺ -: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(١). ثم غلب استعمالها على هذا الحادث التاريخى العظيم، الذى غير وجه البسيطة، وحول اتجاه العالم عن مجارى الشر والشقاء إلى سبيل الخير والسعادة، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. ذلك الحادث، هو انتقال النبى محمد - ﷺ - وصحبه الذين آمنوا به من مكة مهبط الوحى لأول مرة، إلى المدينة مأوى رجال الحلف والمناصرة.

وقد عنى المؤرخون كثيرا وهم يتكلمون على هذا الحادث بتصوير الأذى الذى لحق الرسول - ﷺ - وهو فى مكة تصويرا مكن لأرباب الهوى الخاص فى الكتابة على «النبى العربى» أن يلبسوا هجرته - عليه السلام - ثوب الفرار وعدم الصبر والاحتمال فى القيام برسالته، ولم يتورعوا إمعانا فيما يشتهون أن يطلقوا عليه (النبى الفار). وقد ظنوا أن هذا الثوب المهلهل الذى خلعوه على هذا الحادث العظيم يستطيع أن يستر الحقيقة التى يحملها ذلك الحادث بين جنبيه، والتى لم تلبث بعد الوصول إلى المدينة أن سطع نورها وانتشر أريجها، فبددت الغشاوة التى وضعها الجهل على العقل البشرى حينا من الزمن.

والواقع أن هذه الهجرة البدنية لم تكن إلا أثرا من آثار هجرة سبقتها، هى هجرة القلوب عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة، وشرائع باطلة، وعادات لها فى هدم الإنسانية ما ليس للمعاول القوية فى تقويض البناء الشامخ العتيد.

نعم: هاجر النبى - ﷺ - وصحبه الذين بادروا بتصديقه من يوم أن بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا هاجروا إلى التوحيد البرى، والإخلاص النقى، والإنابة الحقة، والتوكل الصحيح، ومحبة الخير للخير، والرجوع بالحول والقوة إلى الله الواحد القهار هاجروا إلى هذه التعاليم السامية التى نهضت بالإنسانية من كبوتها، ورفعتها من حضيض هوت إليه فى جاهليتها، وذكرتها بأنها ما خلقت عبثا ولا باطلا، ولا لتفسد فى الأرض أو تسفك الدماء، أو يأكل قويها ضعيفها. ذكرتها بأنها ما خلقت إلا لتكون خليفة عن الله رب العالمين تسبح بحمده وتقدس له، وتعمل صالحا حتى تسمو بالعالم إلى ما يمكن أن يصل إليه من درجات الرشد ومراتب الكمال.

هذا ما هاجر إليه النبى محمد - ﷺ - وصحبه القليل الذى لبى دعوته وهى فى مهدها، لا لشىء سوى أنها الحق الذى شرح الصدور، واستولى على الحواس والأفئدة، وامتزج بالدماء والأرواح، فامتلأت النفوس غيرة عليه فى حفظه ونشره، والعمل بمقتضاه وإسعاد الإنسانية به.

رأى هذا النفر القليل الذى أدرك اللذة الروحية من دعوة النبى، وأدرك أن سعادة العالم متوقفة عليها، أن مكة وقد تألب أهلها عليهم، وقلبوا لهم ظهر المجن، وقعدوا لهم فى كل مرصد، وتجسسوا عليهم من كل نافذة، وأذاقوهم من التنكيل صنوفا وألوانا - لم تعد دار

---

(١) رواه البخارى (١/٩)، (٨/١٢٧).

أمن وطمأنينة، يفسح لهم فيها مجال العمل، ويتمكنون فيها من تلبية الإيمان والقيام بحقه.

رأوا أن غايتهم التى لها يعملون تنحصر فى توحيد الله والدعوة إليه، وأن الله الذى وجهوا إليه وجهتهم فاطر السموات والأرض يعبد فى كل مكان:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

رأوا أن الأرض: منها خبيث مجدب لا يقبل البذر الطيب ولا ينبت النبات الحسن، ومنها طيب خصب يتشرب ماءه ويمد بذره بقوى الإنبات، ثم لايزال به حتى ينمو ويثمر:

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ ﴾(٣).

رأوا أن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لابد أن يظهره على الدين كله، وأنه غالب على أمره:

﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٤).

رأوا أن استمرارهم على الإقامة بهذا البلد مع هذا الاضطهاد وعدم تهيىء أهلها للقبول سيقضى لا محالة عليهم وعلى الدعوة التى امتلأت نفوسهم غيرة عليها وحبًا لها.

رأوا أن جبال مكة وهضابها لم تستطع أن تمنع أريج الدعوة التى آمنوا بها واستعذبوا العذاب والموت فى سبيلها، من أن يسرى وينتشر خارج مكة، ويحمله الجلال والجمال، حتى يقع من المدينة وهم بمكة قائمون

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٥).

رأوا أن هؤلاء الرجال يقتحمون العقبة عن إيمان قوى وحب عميق، ويمدون إليهم يد البيعة «نريد الوفاء والصدق وبذل العهد دون الرسول، فخذ لنفس ولربك ما أحببت!» فيتم العهد على عبادة الله وحده، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه الأبناء والأعزاء.

رأوا أن سبب النصر بهذا قد تهيأ، وسبيل العزة والعمل قد تمهد فلم يجدوا بدا من ولوج هذا السبيل والتمسك بذلك السبب، فاتجهوا إلى مدينة الحلف، وتم لهم بفضل الله ما أرادوا

وصل النبى - ﷺ - وصحبه إلى المدينة. وكان هذا من أشد ما يتخوفه المشركون، فقد اجتمع رؤساؤهم وقادة أمرهم فى دار الندوة للتشاور فيما يتخذونه من وسائل القضاء على محمد وصحبه، حينما سمعوا بنبأ (الحلف) المدنى الذى زعزع

---

(٢) البقرة: ١١٥.

(٣) الاعراف ٥٨.

(٤) التوبة ٣٢ .

(٥) النور ٣٦ - ٣٨.

ثقتهم بأنفسهم. فقال أحدهم: أخرجوه من أرضكم تستريحوا منه. فرفضوا هذا الرأى وقالوا: إنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه، وقال آخر: نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت. فرفضوا هذا أيضا وقالوا: إنا إن حبسناه لا يلبث الخبر أن يبلغ أنصاره ونحن أدرى الناس بمن دخلوا فى دينه، يفضلونه على الآباء والأبناء، فإذا سمعوا ذلك جاءوا لتخليصه، وربما جر هذا علينا من الحرب ما نحن فى غنى عنه. فقال ثالث: الرأى، أن نقتله، ونقتله قتلة لا يستطيع بنو أبيه أن يأخذوا بثأره، خذوا من كل قبيلة شابا ويرقبه الجميع أمام داره، حتى إذا خرج منها ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلها، ويذهب محمد بالدية. فوقع هذا الرأى عندهم موقع القبول، وهو آخر ما فى الكنانة من سهام، وأعدوا له وسائل التنفيذ الممكنة، ولكن الله الذى تكفل بحفظ محمد ورعايته، وأنزل عليه فى محكم كتابه:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٦).

أفسد عليهم تدبيرهم وأحبط أعمالهم، فأصمهم وأعمى أبصارهم، وأخرج رسوله محوطا بالعزة والكرامة.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾(٧).

وبهذه الهجرة: ترك النبى - ﷺ - قلوب قريش تغلى كالمراجل فوق النار المتقدة، تتبخر منها أفانين الحنق على سهام طاشت، ومكر ردت نصاله فى نحورهم، ومكايد ذهبت أدراج الرياح.

وبهذه الهجرة، أعز الله أولياءه وقوّى شوكتهم ونفخ فيهم من روحه، قذف فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزِّل به سلطانا.

بهذه الهجرة آواهم الله إلى قوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، آواهم إلى قوم هم: أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود. ذلك مثلهم فى التوراة، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. آواهم إلى قوم: يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

(٦) المائدة ٦٧.

(٧) الأنفال ٣١.

أى نصــر هـذا الذى أيد الله بـه أوليــاءه؟ ذلكم نـصـر الله الذى وعـد، نـصـر الله الذى يمنحـه المخلصين من عـبـاده، نصر الله الذى يهدد به من يخذل دينه ويسلم شرعه لأرباب الهوى والفجور:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾(٨).

وأى خذلان هذا الذى حل بالأعداء فأفقدهم رشدهم؟ ذلك خذلان الله يقرع به قلوب

﴿ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٩).

إذا لم تكن الهـجرة فرارا من الأذى، ولا هربا من التنكيل، ولا التمـاسا للرزق، ولا خـورا فى العزيمة، ولا خوفا من الموت فى سبيل الله، فقد كانوا يستعذبون الموت فى سبيل الخلود، ومن استعذب الموت فقد استعذب كل شيء دونه.

إنما هو الإيمان بالله يملأ نفس صاحبه عزة وكرامة، هو الإيمان يأبى على صاحبه الخلود إلى السكون، والرضـاء بالخنوع تحت سلطان القـهـر الذى يمنع المرء من الحـرية فى تصـرفه وإقامة دينه، والاتصال بإخوانه الذين يجب أن يتساند معهم ويكون وإياهم وحدة قوية تحمى البيضة، وتبث الدعوة، وتنشر العدل، وتحقق المساواة، وتدعو إلى الخير والسعادة.

الهـجـرة بهـذا أثر من آثار الإيمان الكامل، ولازم من لوازمه البينة، وليس بمؤمن من يرضى لنفسه الذل والهوان ويقبع فى بلده حرصا على ماله وخوفا على ولده وأهله

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١٠).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

(٨) التوبة ٤٠.
(٩) الاعراف ١٤٦ ـ ١٤٧.
(١٠) هود ١٥ ، ١٦.

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١١).

لم تكن الهجرة إلا تلبية لواجب الإيمان، والتماسا لوسائل العزة التى يجب أن يكون عليها المؤمنون:

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى مُحَوَّل

لم تكن الهجرة إلا نضالا واستعدادا للنضال، وتحيزا إلى فئة أخذت على نفسها العهد والميثاق أن تجاهد مع المهاجرين فى سبيل الله وسبيل دعوته حتى يكون الدين كله لله:

وكل امرىء يولى الجميلَ محبَّب
وكل مكان يُنبت العزَّ طيِّب

لم يتجه الرسول وصحبه فى هذه الهجرة إلا إلى المدينة؛ طريق أعدائه فى رحلتهم إلى الشام. فهلا - إن كانوا فارين - شرقوا أو غربوا؟ لم يشرقوا ولم يغربوا، وإنما قصدوا المدينة ممر القوم، وقعدوا لهم بالمرصاد ينشرون دعوتهم ويبلغون رسالتهم، ولم يكد يستقر بهم المقام هناك ويتم بينهم التآخى حتى تهيأوا لمنابذة خصومهم - خصوم الدعوة والدين - وأخذوا يتحرشون بهم فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا.

تضامت الوحدات، وأخلصت القلوب، وصفت الأرواح والنفوس، وعز عليهم ألا ينعم العالم بدين الله الحق. عز عليهم أن يتركوا بمكة نفوسا أقعدها العجز أن تخرج معهم، فظلوا بين الأعداء يشربون من أيديهم كؤوسا من يحموم، ولا ذنب لهم ولا جريمة إلا أن قالوا: ربنا الله. عز عليهم هذا وذاك، فأخذوا يتحرشون بالأعداء مرة بعد أخرى حتى تهيأت النفوس للقتال، وحصلت بين الفريقين مواقع عدة كللت فيها رءوس المؤمنين بتيجان الفتح والنصر المبين.

هذه هى الهجرة فى أسبابها والعوامل التى دفعت بالمؤمنين إليها.

أما الهجرة فى أثرها، فهى ذلك السلطان الذى استقر، وهذه الشريعة التى أخذ الوحى ينزل بها من السماء لينظم بها الإنسان حياته، والتى صار بها النبى محمد - ﷺ - مشرعا وحاكما وقائدا، بعد أن كان بمكة مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله.

هذه الشريعة التى ساد بها المسلمون حينا من الدهر، وساد بها من غيرهم من التزم أصولها واتبع إرشادها.

هذه هى الهجرة فى أسبابها وآثارها، فهل لهؤلاء الذين أعمى الله عن الحق بصائرهم أن يراجعوا عقولهم فى هذه الصفحة الخالدة فى تاريخ العزة الإنسانية والكرامة البشرية عسى أن يوفقهم الله للحق فيعترفوا به، ويبسط على قلوبهم من نوره فلا يلبسوه ثوب الباطل المهلهل؟

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(١٢).

(١١) النساء ٩٧ - ١٠٠.

(١٢) البقرة ٤٠ - ٤٣.

أبو عبيد بن مسعود الثقفى

إعداد الأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

فى الوقت الذى سحقت فيه جيوش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد جيوش الروم فى اليرموك كان الوضع فى العراق شديد الحرج، حيث استغل الفرس فرصة خروج خالد بجيشه إلى الشام لمحاولة استرداد ما استولى عليه المسلمون منهم وبذل المثنى بن حارثة الشيبانى جهوداً فائقة فى الحفاظ على الفتوحات الإسلامية فى العراق، ولكنه أدرك حرج الموقف، فسافر على عجل إلى المدينة المنورة للقاء الخليفة الصديق ليعرض عليه الأمر فوجده مريضاً مرض الموت لكنه أطلعه على حقيقة الموقف، وأنه لا يستطيع أن يحتفظ بما فتحه المسلمون من أرض العراق بتسعة آلاف مقاتل فقط فى مواجهة جحافل الفرس الجرارة، فصاح الصديق لمن حوله: «علىَّ بعمر» فجاء، فقال له الصديق: «إن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى»[١].

وينتقل الصديق إلى جوار ربه ويتولى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مقاليد الخلافة فيكون أول عمل له أن نادى فى المسجد «الصلاة جامعة» فاجتمع الناس، فدعاهم عمر إلى الجهاد لحرب الفرس، فلم يجبه أحد، فلما كان فجر اليوم التالى صلى المسلمون الفجر وعاد الفاروق يندب القوم للجهاد فلم يجبه أحد وبقى الناس على إحجامهم .فلما كان اليوم الرابع من وفاة الصديق ـ رضى الله عنه ـ تكلم المثنى بن حارثة الشيبانى فقال «أيها الناس، لايعظمن عليكم هذا الوجه، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد، وشاطرناهم، ونلنا منهم، واجترأ من قبلنا عليهم، ولها ـ إن شاء الله ـ ما بعدها . » .

وقام عمر ـ رضى الله عنه ـ فى الناس فقال: «إن الحجاز ليس لكم بدار على النجعة ولا يقوى عليه اهله إلا بذلك، أين الطراء المهاجرين عن موعود الله؟ سيروا فى الأرض

(١) الطبرى – تاريخ الأمم والملوك ٤/٤٣:٦٣.

التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾(٢) الله مظهر دينه، ومعز ناصره، مولى أهله مواريث الأمم، أين عباد الله الصالحون؟».

والتزم الجميع الصمت وعمر ينظر في وجوه القوم حتى سُمِعَ في المسجد صوت رجل يقول: «أنا لها يا أمير المؤمنين» وتشخص الأبصار صوب مصدر الصوت، فإذا هو «أبو عبيد بن مسعود الثقفي» وكان شاباً شجاعاً خبيراً بالحرب والمكيدة فتتابعت أصوات القوم معلنة التطوع للجهاد في سبيل الله حتى بلغ عددهم ألف مقاتل(٣).

ويتقدم عمر صوب هذا الرجل الذي لم تكن له صحبة مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليُؤَمِّرَهُ على القوم. فلما اعترض البعض بمقولة: «أَمِّر عليهم رجلاً له صحبة مع السابقين من المهاجرين والأنصار» فغضب عمر وقال: «والله لا أفعل.. والله لا أفعل.. يا أصحاب النبي ـ ﷺ ـ لا أندبكم فتنكلون. وينتدب غيركم فأؤمركم عليهم، إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم، وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء، فإذا فعل فعلهم قوم وأثاقلوا، كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً أولى بها منهم، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً».

ولكن الفاروق عاد واستدرك موجهاً الخطاب أبي عبيد فقال له: «اسمع من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ وأشركهم في الأمر ولاتجتهد مسرعا حتى تتبين، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف.. ولقد بعثت معك رجلاً هو أفضل منك إسلاماً فاقبل مشورته» وأشار إلى سليط بن قيس.

وتتابع المسلمون يلبون نداء الجهاد حتى بلغ عددهم خمسة آلاف فسار بهم أبو عبيد نحو (الحيرة)، وجعل لا يمر بحي من أحياء العرب إلا استنفرهم للجهاد في سبيل الله حتى انتهى إلى (قس الناطف) قرب الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي حيث كان المثنى يعسكر بجنوده. وكان الفرس قد حشدوا جيوشهم في موضع قرب الكوفة من أرض العراق يقال له: (النمارق) فسار إليهم أبو عبيد ومعه (المثنى ابن حارثة) في قلب الجيش، وعلى ميمنته (والق بن جيدارة) وعلى الميسرة (عمر بن الهيثم بن الصلت بن حبيب السلمي).

والتقى الجمعان في ٨ من شعبان سنة ١٣ هـ حيث دار بينهما قتال شديد هُزِمَ فيه الفرس وسقط (جابان) قائد الجيوش الفارسية أسيراً في يد (مطر بن فضة) و (أبو برجل) دون أن يعلما حقيقته، وكان شيخاً كبيراً، ووقع سلبه لـ (أبي برجل) وفداؤه لـ (مطر) فأخفى جابان حقيقته عن آسريه ولم يُعْلمهما بمكانته، وقال لـ (مطر): «إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك غلامين خفيفين في عملك» فقال له (مطر): نعم. فقال

(٢) التوبة (٣٣).

(٣) نفس المصدر السابق.

(جابان) : « فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه، فأدخله على أبى عبيد، فأجاز الأمر، على أن قوماً من بنى ربيعة تعرفوا على القائد (جابان) وأخبروا أبا عبيد بهويته وأشاروا بقتله، وقال (أبو برجل) : « أسرته أنا وهو على غير أمان »، ولكن أبا عبيد قال : « أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا؟ . . معاذ الله من ذلك، إنى أخاف أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم، المسلمون فى التواد والتناصر كالجسد الواحد، ما لزم بعضهم فقد لزم كلهم » . . فقالوا له : « إنه الملك » فرد عليهم أبو عبيد بقوله : « وإن كان . . . والله لا أغدر »[(٤)].

وواصل أبو عبيد مطاردة الفرس فى أنحاء العراق حتى تجمعت الفلول المنهزمة فى موضع يقال له : (السقاطية) جنوب (كسكر) فيقع قتال عنيف فى ١٧ من شعبان عام ١٣ هـ يحرز فيه المسلمون نصراً مؤزراً، ويبعث أبو عبيد خُمس الغنائم إلى الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ مع رسالة جاء فيها : « إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها، وأحببنا أن تروها ولتذكروا أنعام الله وأفضاله » .

واتخذ أبو عبيد من (كسكر) قاعدة انطلاق يبعث منها سراياه لمطاردة فلول الفرس الهاربة والإغارة كذلك على البلاد التى كانت أمضت صلحاً مع خالد بن الوليد ثم تمردت، فأرسل (المثنى) إلى (باروسما)، و(والق بن جيدارة) إلى (الزوابى) و(عاصم بن عمرو التميمى) إلى نهر (جوبر) فابتدر أهل هذه البلاد بطلب الصلح قبل أن تدهمهم جيوش أبى عبيد .

وأراد أهل (باروسما) و(جوبر) التقرب إلى أبو عبيد فقدموا إليه ألواناً من الأطعمة الفارسية غالية الثمن، وقالوا : « هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك » . . فرد أبو عبيد على من حمل له الطعام : « أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله؟ » فقالوا : « لم يتيسر » . . فرفض أبو عبيد الطعام قائلاً : « لا حاجة لنا فيما لا يسع الجند » . ورفض أن يطعم طعاماً لم يطعمه سائر جنده[(٥)].

ثم يعود الفرس لتجميع جيوشهم فى موضع يقال له : (باقسياثا) بقيادة (جالنوس) ويعلم أبو عبيد بذلك فيسارع إلى الانقضاض عليهم مشتتاً جموعهم ويضطر جالنوس إلى الفرار[(٦)].

ولم ييأس الفرس، فأعادوا حشد جيوشهم فى المدائن استعداداً لجولة جديدة تحت قيادة (بهمن جاذويه) الذى زحف بجيش جرار تجاه الحيرة والتى اتخذها أبو عبيد مقراً لقيادته، ويعلم أبو عبيد بذلك فخرج من فوره من الحيرة حتى بلغ نهر الفرات، فى حين وقفت جيوش الفرس على الجهة المقابلة من النهر وتعرف بـ (قس الناطف)، وأرسل (بهمن جاذويه) أحد رجاله إلى أبى عبيد يقول : « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » .

---

(٤) الطبرى (٦٣/٤ ، ٦٤).

(٥) الطبرى (٦٤/٤ : ٦٦).

(٦) الطبرى (٦٥/٤ ، ٦٦).

وهنا تحدث المأساة ويرفض أبو عبيد الثقفى مشورة قادة جنده (سليط بن قيس) و(المثنى بن حارثة الشيبانى) حيث ألحا عليه بأن يدع الفرس يعبرون أولاً، لكن أبا عبيد رفض ورماهما بالجبن فقال له سليط : « أنا والله أجرأ منك نفساً، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم » .

وهكذا بدأت الهزيمة قبل أن تبدأ المعركة، نسى أبو عبيد بن مسعود الثقفى أوامر الخليفة له يوم ولاه قيادة الجيش : « اسمع من أصحاب النبى وأشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين »، بل وخص الخليفة سليطاً بن قيس بالذكر بقوله : « قد بعثت معك رجلاً هو أفضل منك إسلاماً فاقبل مشورته » . ولكن حماس القائد الشاب وتتابع النصر أنساه تعليمات قائده الأعلى فضلاً عن استفزاز رسول (بهمن جاذويه) وكان يدعى (الخصى مردانشاه) حيث قال لأبى عبيد : « إن الفرس قد عيروكم بالجبن » .

وكان الجسر الذى سيعبر عليه المسلمون قديماً متهالكاً ضيقاً لا يسمح بحرية الحركة لجيش زاحف، فما أن توسط جيش المسلمين الجسر حتى انقض عليهم الفرس يمطرونهم بالسهام والمنجنيق قبل أن يكتمل عبورهم .

وعندما وصلت بعض القوات إلى ضفة النهر فى مواجهة القوات الفارسية فوجئوا بسلاح جديد لم يألفوه من قبل : الفيلة . . والخيل المغطاة بالدروع، مما أفزع خيل المسلمين، فأجفلت حيث لم تألف مثل هذه الأمور من قبل وولت هاربة .

فترجل أبو عبيد عن فرسه وتبعه جنوده فى شجاعة نادرة لمواجهة الفيلة وصاح أبو عبيد فى رجاله : « احتوشوا الفيلة وقطعوا بُطُنها واقلبوا عنها أهلها » .

وواثب أبو عبيد فيل المقدمة الأبيض فتعلق بحزامه وقطعه، فسقط من كانوا على هودجه، وأراد أبو عبيد أن يقتل الفيل فحذره أصحابه بقولهم : « إنا نخاف عليك » فقال لهم : « ربى ينصرنى، ولكن أخبرونى هل لهذا الفيل من مقتل؟ » . فقال بعضهم : « إذا قطع خرطومه يموت » فقال أبو عبيد : « يا معشر الناس إنى حامل على هذا فانظروا إن قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم، وإن قُتلت فأخى الحكم أميركم، فإن قُتل فولدى وهب، فإن قُتل فولدى مالك، فإن قُتل فولدى جبر، فإن قُتل فأبو القاسم، فإن قُتل أبو القاسم فعليكم بالمثنى » .

وسقط أبو عبيد شهيداً بعد أن وطئه الفيل، فحمل اللواء أخوه الحكم فقاتل الفيل حتى استخلص أخاه من تحت أقدامه جثة ممزقة، ثم حاول أن يقتل الفيل لكنه سقط تحت أقدامه، فحمل اللواء وهب بن أبى عبيد فقاتل حتى قُتل، فانتقل اللواء إلى جبر بن أبى عبيد فقاتل بدوره حتى قُتل(٧) .

وهكذا آثر البطل الشاب أبو عبيد بن مسعود الثقفى، هذا المجاهد الذى كان الصوت الوحيد الذى لبى النداء يوم سكت القوم بقوله : « أنا لها » آثر أن يموت وأبناؤه شهداء تحت راية الحق .

---

(٧) الطبرى (٤/٦٧) فتوح البلدان (٦٢٥ ، ٦٢٦) ، الدينورى - الأخبار الطوال (١١٣).

لمحات عن :
صاحب الفضيلة الشيخ / عبد الرحمن تاج
شيخ الأزهر الأسبق

للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى

اسلم القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين غراسا بشرية لم تزل مخبوءة فى أكمامها، وثمارا إنسانية لم تزل مغلفة فى أكنانها تكاد تتفجر بالطاقة متطلعة فى توثب ولهفة إلى النماء والعطاء.

ولم يكد القرن العشرون يبزغ من وراء الأفق حتى انتقلت هذه المواليد النابهة من القوة إلى الفعل، فرأينا النصف الأول من هذا القرن المنصرم - وقد أثرته عبقريات فذة نادرة فى كافة مجالات الحياة.

ألم يأتك نبأ العمالقة: مشرفة فى العلم، والمراغى فى الدين، والعقاد فى الأدب، وسعد زغلول فى السياسة، وطلعت حرب فى الاقتصاد، ولطفى السيد فى الفلسفة، ومحمد رفعت فى التلاوة، وشوقى فى الشعر وغيرهم.. وغيرهم؟

وهذه على أية حال أسماء لا يغنى حيالها المثال العجول عن الحصر والشمول.. فكثير ما هى.

ولهذا كم نتطلع – مع أبنائنا من الشباب – إلى موسوعة متخصصة مستفيضة تحاول أن تعرض بين دفتين مخلصتين هذه العبقريات لكى تنتقل من متحف مغمور إلى معرض معمور.

وليت أجهزة الشباب والثقافة والإعلام وغيرها – ممن ألقى الله على كواهلهم مسئولية تحقيق التواصل بين الأجيال للولاء والانتماء، ليتها تتناول هذه الفكرة بالدرس إسهاما فى وضع المثال المشرف الأصيل أمام الشباب.

وكثيرا ما يمتلك المرء العجب العجاب لتلك المساحة المحدودة من الزمان التى لا تتجاوز الخمسين عاما الأولى من القرن العشرين، عندما يراها وقد اتسعت ليزدحم فيها هذا الحشد الهائل الخضم فى كمه وكيفه من الشخصيات الجهيرة التى تبوأت مراكز الريادة دون منازع فى عصامية مقتدرة باهرة وكأنها تتحدى فى إصرار شديد، وعناد عنيد عوامل الاحتلال المتسلط والتخلف البليد.. بل كثيرا ما تستبد الدهشة والاستغراب بالمتأمل فى هذه الريادات حين يرى أن معظمها قد نشأ فى القرية المصرية التى رزحت طويلا تحت نير الأعداء الثلاثة التى اشتهرت بها آنذاك.. الفقر والجهل والمرض.. وهذه لعمرك صورة لافتة للانتباه تفسر لنا كيف يَخرج الحى من

الميت فى مجال الحضارة والعمران وليس فقط فى مجال النبات والحيوان؟

ومثالنا هنا نسوقه عن عَلَم شاهق من أعلام العروبة والإسلام هو « الأستاذ الدكتور الشيخ / عبدالرحمن تاج » الذى تنحدر أسرته من بلدة « منية الحيط » إحدى قرى مركز « إطسا » فى محافظة « الفيوم » وقد سماها العامة كذلك تحريفا لاسمها الأصلى « ميناء الحائط » حيث أقام محمد على باشا حول هذه البلدة حائطا مرتفعا سميكا لتخزين مياه « بحر يوسف » المنحدر إلى الفيوم من النيل أثناء الفيضان ولم تزل حتى الآن بقايا هذا الحائط بادية للعيان.

ولئن قُدر للطفل « عبدالرحمن » أن يكون مسقط رأسه أسيوط فى عام ١٨٩٦ حيث كان يعمل جده حسين وأبوه على فى إقامة قناطر أسيوط وإسنا، فإن أسيوط والفيوم ترتبطان بشريان حيوى عذب واحد هو « بحر يوسف » الذى يستمد اسمه من اسم نبى الله يوسف عليه السلام كما تروى بعض الروايات.

ولما تجاوز « عبدالرحمن » الخامسة من عمره التحق بالكُتاب وتلقى مع أقرانه ما كان متعارفا فى تحصيله فى « الكتاتيب » فى ذلك الزمان بجانب التحصيل الأساسى وهو حفظ القرآن الكريم.. وهكذا كانت سمة العصر.

ويبدو.. أن ذكاء الناشيء « عبدالرحمن » توقد مبكرًا ولاسيما حين رآه « سعد زغلول باشا » وزير المعارف حينذاك إبان رحلته التفتيشية فى الصعيد التى شملت خطتها زيارة الكتاب الذى يتعلم فيه « التاجى » الصغير.

فقد استرعى انتباه الوزير ذكاء الطفل، وسرعة خاطره وإجاباته السديدة مما يشير إلى عمر عقلى يتفوق كثيرا على العمر الزمنى وذلك دون أقران الكتاب... عندئذ أعجب الباشا به ورأى أن يكافئه ويشجعه فقرر الحاقه بالمدارس الأميرية على أن يكون ذلك على نفقة الدولة فى جميع مراحل التعليم.

إلا أن جَدّ الطفل الذكى أبى إلا أن يكون مجال تعليم حفيده الغض - بعد الكتاب - هو الأزهر الشريف حتى يدخل إلى الدين من بابه، ويتلقى العلم على أربابه.

وكأن فطرة الجد النقية وسليقته التقية قد أضاءت له من ظهر الغيب مستقبل حفيده المرموق فى الغد البعيد.

ومع أعمال المقاولات والبناء والتشييد انتقلت الأسرة إلى الإسكندرية حيث التحق « عبدالرحمن » بمعهدها الدينى، وكان لابد بعد ذلك أن يكمل مسيرته العلمية فرحل إلى القاهرة لينال شهادة العالميةمن الأزهر الشريف فى عام ١٩٢٣ وتدرج الشاب « عبدالرحمن » فى المدارج العلمية والوظيفية بالأزهر، فالتحق بقسم التخصص للقضاء الشرعى، ونال شهادته سنة ١٩٢٦.

وبعد أن ترك عبدالرحمن أسيوط غضًا، عاد إليها يافعًا، ولعلها استقبلته ولسان حالها يردد.. « هذه بضاعتنا رُدت إلينا » إذ عُين مدرسا فى معهد أسيوط الدينى ثم نقل مدرسا بمعهد القاهرة ولم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره إلا قليلا حين اختير مدرسا بقسم تخصص القضاء، ثم عضوا فى لجنة الفتوى للمذهب الحنفى فى عام ١٩٣٥.

فلما أن بلغ أربعين سنة وقع الاختيار عليه ليكون عضوا فى بعثة الأزهر إلى فرنسا.. فالتحق بجامعة « السربون » ليحصل على درجة « الدكتوراه » لقاء

رسالته القيمة التى بحثت فيها « البابية والإسلام » والبابية – كما هو معروف – أساس البهائية .

ولك أن تعلم أن هذا قد حدث فى خضم الحرب العالمية الثانية وظروفها القاسية المدمرة لاسيما الخطر الداهم الذى كان يحيط بفرنسا – وباريس بوجه خاص – فى الليل والنهار ولكن الفتى الذى عركته علوم « الكُتاب ناشئا وصقلته علوم الأزهر فتياً، كان قد أصبح يتمتع بشخصية صامدة متزنة وقور قديرة على اجتياز أدق الشعاب، وجديرة بارتياد أشق الصعاب وهكذا فعلت النشأة التربوية الجادة فى الناشىء الدءوب شأنه فى ذلك شأن العمالقة من أقرانه من طلاب الأزهر حينذاك حيث كان لا يصمد أمام الكتب الصفراء العريقة إلا أولو العزم من عشاق العلم والدين .

ففى خلال ثلاثة أعوام استطاع الشاب « عبدالرحمن » أن يشق طريقه العلمى الصعب بين حضارة غريبة عنه، ولغة جديدة عليه، وحرب عالمية طاحنة حوله من كل مكان .

وإن فى ذلك لآيات لشبابنا المعاصر الذى ينبغى أن يكفيه إيراد المثال عن طول المقال .

وعندما استقبلت مصر ابنها « الدكتور » العائد من باريس من بين دخان الحرب ١٩٤٣ كانت كلية الشريعة فى انتظاره تتلقفه فى أحضانها استاذا مقتدرا .

ولم يلبث حامل « الدكتوراه » العائد أن أسند إليه وظيفة « مفتش العلوم الدينية بالأزهر الشريف » .

ثم عين شيخنا « عبدالرحمن تاج » شيخا للقسم العام والبحوث الإسلامية بالأزهر .

وفى عام ١٩٥١ نال عضوية هيئة كبار العلماء جزاء بحث تقدم به إليها عن « السياسة الشرعية » .

ثم اختير بعد ذلك استاذا للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) قبل أن يتسنم قمة المراكز العلمية والإسلامية فى عام ١٩٥٤ حيث أصبح أستاذا أكبر وشيخا للأزهر . . ثم وزيرا فى اتحاد الدول العربية ١٩٥٨ .

ولاشك فى أن تجربة الرجل فى تحصيل اللغة الفرنسية لأهميتها فى تنفيذ بعثته إلى « السربون » وكذلك ظروف اغترابه أثناء تلك البعثة . . كل هذا قد انعكس على اهتماماته بعد أن أصبح الرجل الأول فى الأزهر حيث قرر تدريس اللغات الأجنبية بالأزهر، كما سعى إلى بناء مدينة البعوث الإسلامية لسكنى قصاد الأزهر المعمور المغتربين من أبناء العالم الإسلامى .

وللدكتور عبدالرحمن تاج تراث فكرى فريد ثرى من المؤلفات العلمية فى الشريعة والفقه الإسلامى، وهى أعمال لها من الثقل العلمى والوزن المتخصص الدقيق ما جعلها بعيدة عن متناول العامة من القراء .

ومن أبرز هذه المؤلفات : كتاب الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية وكتاب السياسة الشرعية والفقه الإسلامى ودراسات مطولة آثر الدكتور « تاج » أن يسميها بحوثا لا كتبا مثل ما كتبه عن الهجرة، والإسراء والمعراج، والحج، والصيام، وفى ليلة القدر، وفى الشئون الكونية، وفى تفسير القرآن الكريم، وغيرها .

ألا ترى فى مثل هذه العجالة إشارة إلى سيرة جادة ينبغى أن تكون وأمثالها – لدى أبنائنا من الشباب – نبراسا جديرا بالتأسى والاقتداء؟ إلا ياليت .

الشيخ/إبراهيم الدسوقى فى رحاب الله

(٣٠/١/١٩١٥ - ٢١/٢/٢٠٠١)

فقدت الأمة الإسلامية عالما فاضلا جليلا تحتسبه عند الله هو فضيلة الشيخ إبراهيم الدسوقى وزير الأوقاف الأسبق وعضو مجمع البحوث الإسلامية الذى وافته المنية يوم الأربعاء ٢١ / ٢ / ٢٠٠١.

ولد الشيخ إبراهيم الدسوقى فى ٣٠ / ١ / ١٩١٥، فى كفر النخلة إحدى قرى محافظة القليوبية.

أرسله أبوه إلى كتاب القرية كعادة أهل الريف حيث أتم حفظ القرآن الكريم فى سن الحادية عشرة، ثم التحق بالأزهر بمعهد القاهرة الدينى.

وقد وهب الله الشيخ موهبة الخطابة والمقدرة على إقناع الناس منذ نشأته، لذلك أسند إليه أداء خطبة الجمعة قبل تخرجه وبعد انتهاء الدراسة الثانوية.

ثم التحق بكلية أصول الدين، وفور تخرجه التحق بقسم التخصص فى الوعظ والإرشاد.

فى عام ١٩٤٣م عين الشيخ إماماً فى المنيا ثم إماماً لأحد مساجد القاهرة ١٩٥٢م.

ثم تدرج فى وظائف الدعوة بوزارة الأوقاف ثم ولى التفتيش حتى أحيل إلى التقاعد فى سنة ١٩٨٠.

ثم انتدب مستشارا للدعوة ثم اختير وزيرا للأوقاف فى الفترة من ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥.

وفى سنة ١٩٩٠ اختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية ثم عضوا بالمجلس الأعلى للأزهر سنة ١٩٩٥م.

وخلال هذه المرحلة المباركة كرمته الدولة بمنحه:

- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨٣م.
- وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٨٤م.
- وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٨٨م.

وقد قضى حياته المباركة فى سبيل الدعوة وكان مثلاً يحتذى للداعية الذى يدعو الناس بسلوكه القويم ولسانه العفيف.

كما عرفته الصحافة الدينية فى مصر، وسائر البلاد العربية والإسلامية.

شاءت إرادة الله أن يكون آخر انتاجه ما اختص به مجلة الأزهر فى حديثه عن أنواع العلوم الذى ننشر آخر حلقاته فى هذا العدد بعنوان: (لا حياة بلا دين).

وبهذه المناسبة نوجه الدعوة إلى أحبائه وأبنائه مريديه إلى جمع تراثه ونشره تعميما للنفع ووفاءً للفقيد - رحمه الله.

ومجلة الأزهر ترحب بما يرد إليها من تراثه الطيب.

رحم الله شيخنا وأسكنه فسيح جناته، ورفع درجاته بقدر ما كافح ونافح عن الإسلام وألحقنا به على الإيمان.

***

مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي

نشأته - منهجه - خصائصه

للمستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى (*)

لماذا نقول بالاقتصاد الإسلامى

جاء الإسلام، منذ خمسة عشر قرنا، خاتماً للأديان، ومن ثم انفرد بصفتين أساسيتين:

(١) عالميته، فقد جاء موجها للبشر كافة، وليس لفئة معينة من الناس شأن كافة الأديان السابقة عليه.

(٢) اكتماله، فلكونه خاتم الأديان وموجها للبشر كافة، فقد جاء كاملا لا يقتصر على مجرد الهداية الروحية شأن المسيحية التى شعارها أن (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وإنما جاء الإسلام الى جانب الهدايه والدعوة إلى الأخلاق الحسنة، بجوانب تنظيمية: سياسية واجتماعية واقتصادية للمجتمع. ومن ثم كان قولنا: إن الإسلام (دين ودنيا) أو أنه (عقيدة وشريعة).. ذلك أن الرسول، عليه الصلاة والسلام، لم يكن نبيا هاديا فحسب، وإنما كان أيضا حاكما منفذا: إذ أدار المجتمع، وأقام الشورى، وحصل الزكاة، ووقع الحدود... الخ

ومن هنا كان منشأ الاقتصاد الإسلامى، فهو قديم قدم الإسلام، وإن كانت مادته العلمية أى تدريسه، حديث للغاية. وقد يجرنا هذا إلى التساؤل: إذا كان الاقتصاد الإسلامى قديما قدم الإسلام، فلماذا كانت مادته العلمية حديثة للغاية؟؟

مرجع ذلك إلى أسباب كثيرة، نكتفى هنا بالإشارة إلى سببين رئيسيين: أحدهما قديم للغاية والآخر حديث للغاية:

١ - فأما السبب الحديث فهو تعقد الحياة العصرية، وانتهاء عهد المجتهد العام، فلم يعد يكتفى اليوم للباحث فى الاقتصاد الإسلامى، مجرد التعمق فى الدراسات الإسلامية الفقهية الواسعة، وإنما أيضاً وعلى ذات المستوى التعمق فى الدراسات الاقتصادية الفنية الدقيقة.

٢ - وأما السبب القديم فترده إلى عهد الخليفة معاوية، حين أخذ البيعة لابنه يزيد، ولم يكن على مستوى من الكفاءة. إذ جمع أهل الحل والعقد فى عصره، ووقف رئيس حرسه قائلا: أمير المومنين هذا، مشيرا إلى معاوية، فإن هلك فهذا، مشيرا الى ابنه يزيد، فمن أبى فله هذا (ملوحاً سيفه).

(*) أستاذ الاقتصاد الإسلامى ورئيس الجمعية الخيرية الإسلامية.

ولإشغال المسلمين بأمور بعيدة عن السياسة والحكم، برزت إثارة قضايا جدلية لا جدوى منها، ككون الإنسان مجبر أم مخير؟ وقضايا خلق القرآن وغيره من القضايا الخلافية والهامشية.

ثم كانت الضربة القاصمة منذ منتصف القرن الرابع الهجرى، حيث انقسمت الدولة الإسلامية إلى عدة دول، يتناحر رؤساؤها وولاتها وأفرادها على السلطه، فَشُغل أولى الأمر، والناس معهم، بالفتن والشقاق، واتقاء المكائد، أو تدبير وسائل القهر والغلبة.. وكما يقرر فضيلة أُستاذنا المرحوم الشيخ عبدالوهاب خلاف بأنه (فى مثل هذا الجو تصدى لإفتاء المسلمين فئتا المغرضين والجهال، عابثين بنصوص الشريعة وحقوق الناس. كما ظهر الفساد بين العلماء أنفسهم، فكان إذا طرق أحدهم باب الاجتهاد، فتح على نفسه أبوابا من التشهير، وحط أقرانه من قدره).

وبذلك، كما يقرر أيضا استاذنا المرحوم الشيخ عبدالوهاب خلاف (لم يرتفع فى الشريعة رءوس، خاصة فى المجالين السياسى والاقتصادى، وانتهى العلماء إلى التقليد، فقفل اختياريا أو تلقائيا باب الاجتهاد)، وكما يقول فضيلته– بكل أسف– (عولجت الفوضى بالجمود).

ولكى تضمن الفئات الإسلامية الحاكمة، على مر السنين والقرون، بقاءها وتباشر سلطاتها على هواها، عطلت المصدر الثالث للإسلام بعد القرآن والسنةَ وهو الإجماع.. كما حالت دون التوعية او الاجتهاد فى أصول الإسلام السياسية والاقتصادية والاجتماعية، محاولةً قصره على النواحى التعبدية (علم أحكام الوضوء) وكذا على الأحوال الشخصية (كالزواج والطلاق).

وأذكر أننى عقب حصولى على ليسانس الحقوق، ثم حصولى على دبلوم الدراسات العليا فى الاقتصاد السياسى، وأردت الوقوف على الجانب الاقتصادى فى الإسلام، بدخول دبلوم الدراسات العليا فى الشريعة الإسلامية، قالوا لى: إن هذا اسمه (سمك لبن تمر هندى) إذ لم يكن قد ظهر، وقتئذ، تصور علمى للاقتصاد الإسلامى أو حتى تصور علاقة بين الشريعة والاقتصاد، وإننى حتى بعد حصولى سنة ١٩٥٣على دبلوم الدراسات العليا فى الشريعة الإسلامية، وجدت نفسى مجهلا بأى مفهوم اقتصادى فى الإسلام، بل أُذكر أنه كان من ضمن مواد هذا الدبلوم دراسة أحد الأئمه، وكان ابن تيمية، ولم تتناول دراسته سوى فقه فى التعبد والأحوال الشخصية، بينما نجد المستشرق الفرنسى هنرى لاوست Henri Laost يصدر سنة ١٩٣٩رسالته للدكتوراه عن الاجتهادات الاجتماعية والسياسية لابن تيمية Les Doctrines sociales at politigues d'ibn Taimia، وكما تعلمون كانت بداية تدريس مادة الاقتصاد الإسلامى لأول مرة فى العالم الإسلامى كله، هو فى جامعة الأزهر، وذلك بعد خمس سنوات من صدور قانون تطوير الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١.

هذه كلمة سريعة عن منشأ الاقتصاد الإسلامى، وهى تكشف أنه على الرغم من أن الاقتصاد الإسلامى قديم قدم الإسلام، إلا أن مادته العلمية حديثة للغاية.

ماهية ومفهوم الاقتصاد الإسلامى

الاقتصاد الإسلامى بعبارة مبسطة للغاية، هو الذى يوجه النشاط الاقتصادى، (أى ما هو كائن) وجهة إسلامية أى إلى (مايجب أن

يكون)، وفقا لأصول ومبادىء الإسلام الاقتصادية حسبما ورد بنصوص القرآن والسنة. تماما مثل ما نقول: إن الاقتصاد الاشتراكى هو الذى يوجه النشاط الاقتصادى الكائن، وجهة اشتراكية، أى وفقا لأصول ومبادىء الاشتراكية، والتى تقوم على أساس الملكية العامة والتخطيط المركزى، مما يحيل المواطن، إلى مجرد ترس فى آلة كبيرة اسمها الدولة. ومثل ما نقول أيضا: إن الاقتصاد الرأسمالى هو الذى يوجه النشاط الاقتصادى وجهة رأسمالية أى وفقا لأصول ومبادىء الرأسمالية والتى تتلخص فى شعار (دعه يعمل دعه يمرlasser faire lasser passer) أى الاقتصاد الحر وآليات السوق.

ومن هنا نستطيع أن نميز بين أمرين أساسيين:

(١) اولهما: ما هو كائن أى النشاط الاقتصادى أو الأمر الواقع، والقوانين التى تحكمه، مثل قانون العرض والطلب، وقانون تناقص المنفعة، أو تزايد الغلة، أو قانون أقل مجهود.... الخ، فهذه كلها قوانين طبيعية لا يمكن وصفها بأنها إسلامية أو اشتراكية أو رأسمالية ، وهى تشكل ما نسميه (بعلم الاقتصاد)، وهو علم محايد يدرس ما هو كائن، ولا علاقة له بتوجهات السياسة أو الأخلاق.

(٢) ثانيهما: ما يجب أن يكون وهنا تختلف الاقتصاديات الوضعية ما بين رأسمالية أو اشتراكية بدرجات مختلفة حسبما تتبناه السلطة الحاكمة فى كل بلد، أو بعبارة أدق بحسب اختيارات أو أهواء الفئة الحاكمة.

وهنا نتبين نقطة هامة وهى أن الاقتصاد الإسلامى، يتميز بأن مرده، ليس اختيار المجتمع أو أهواء النخبة الحاكمة، وإنما مرده إلى حكم الله - تعالى - بحيث لا ينظم النشاط الاقتصادى، وهو أمر كائن، إلا وفقا لأصول ومبادىء الإسلام الاقتصادية، حسبما كشفت عنه نصوص القرآن والسنة... وهذا يؤدى بنا إلى نقطة أو قضية هامة وهى:

منهج الاقتصاد الإسلامى

نفرق هنا بين الباحث الوضعى، والباحث الإسلامى:

الأول: وهو الباحث الوضعى: يضع ما يشاء من نظم، فهو منشىء لاتجاه معين مثل: آدم سمث، وكارل ماركس، وكينز... الخ، وبالتالى فهو عرضة للخطأ والصواب، ومن ثم للتبديل والتعديل، وفى الأسس ذاتها، لا مجرد التفاصيل، مما يهز المجتمع ويمحق استقراره. وأعطى مثلا بتجربتنا المصرية فقد كان التوجه الإقتصادى قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، رأسماليا ثم صار اشتراكياً لسنوات عديدة، وهو اليوم يعود ليكون رأسمالياً.

الثانى: الباحث الإسلامى: فهو لا ينشىء شيئا من عنده، وإنما هو مجرد باحث، كاشف عن الأحكام الشرعية فى مختلف القضايا. وإنه حتى فى هذا الكشف، مقيد فيما يتوصل إليه من حلول إسلامية بالتزام الطرق الشرعية المقررة، من قياس، واستصحاب، واستصلاح، واستحسان... الخ،أى أنه إلى جانب وعيه ودرايته المتعمقة بنصوص القرآن والسنه، يجب أن يكون على إحاطة تامة بعلم أصول الفقه والأدلة الشرعية. وهذا موقف دقيق، قد اختلط حتى على بعض

الصحابة، والأئمة، وأذكر على سبيل المثال الصحابى أبو ذر الغفارى والإمام ابن حزم، فأبوذر، فى عهد معاوية، حين بدأت تظهر طبقة غنية تستأثر بالسلطة.

نادى برأيه القائل بأنه لا يجوز لمسلم أن يحصل على أكثر من حاجته، وهو قول لا يستقيم شرعاً سوى فى ظروف إستثنائية كحالات السفر أو المجاعة أو الحروب ولا يجوز تعميمه(١). ومثل قول ابن حزم الأرض لمن يزرعها بحيث لا يجوز فيها التأجير وإنما المزارعة، مستنداً فى ذلك إلى الحديث النبوى (من كانت عنده أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ولا يكريها أى يؤاجرها إياه)(٢)(*)، وهو تشريع خاص لظروف معينة وليس تشريعاً عاماً لكل زمان ومكان كما ذهب ابن حزم.

وعليه فإن مهمة الباحث الإسلامى فى مجال الاقتصاد الإسلامى، شأنه شأن مختلف الدراسات الإسلامية الأخرى، مهمة مزدوجة:

١ـ أولاهما: الكشف عن الأصول والمبادىء الاقتصادية الإسلامية، حسبما وردت بنصوص القرآن والسنة، ثم عرضها بلغة العصر أى اللغة التي يفهمها الناس. فمثلاً فى قوله ـ تعالى :ـ

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾(٣)

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾(٤).

استخلص منه الفقهاء القدامى أصلاً اقتصاديا أساسيا، انفرد به الإسلام منذ خمسة عشر قرنا، وهو ما عبروا عنه بمصطلح (ضمان حد الكفاية لكل فرد فى المجتمع الإسلامى). ومثل قوله ـ تعالى:ـ

﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾(٥).

بمعنى أنه لا يجوز أن يكون المال متداولاً بين فئة قليلة من أفراد المجتمع، أو أن يستأثر بخيرات المجتمع فئة دون أخرى، وهو ما استخلص منه فقهاء الإسلام، أصلا اقتصادياً إسلامياً عبروا بمصطلح (تحقيق العدالة الاجتماعية)، وما نعبر عنه حديثا بمصطلح (حفظ التوازن الاقتصادى

---

(١) ويكشف عن ذلك قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (رحم الله الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام أحدهم جمعوا ما عندهم وقسموه بينهم بالسوية) رواه البخارى والبيهقى وقول الرواة كنا فى سفر فقال الرسول ـ ﷺ ـ : (من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له و من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له) رواه مسلم وأحمد، ويضيف الرواه بإن الرسول ذكر من صنوف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد فى فضل.

(٢) رواه النسائى ومسلم، وابن ماجه.

(*) عقب هجرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المدينة ، ظهر اختلال فى المراكز الاقتصادية بين المهاجرين والأنصار ، بعد أن ترك المهاجرون أموالهم بمكة بينما كان الأنصار مستقرين بالمدنية وأساس ثروتهم هو الزراعة ،و كان لبعضهم أراض واسعة استخدموا فيها المهاجرين كأجراء وأخل التوازن الاقتصادى ، ومن ثم حرم الرسول على الأنصار تأجير أراضيهم للمهاجرين ، حتى إذا استقرت الأمور بالمهاجرين وتحسنت أحوالهم ، أجاز الرسول ـ عليه السلام ـ تأجير الأراضى الزراعية.

(٣) الذاريات (١٩).　(٤) المعارج (٢٤ – ٢٥).　(٥) الحشر (٧).

بين أفراد المجتمع) فالإسلام إذا كان يسمح بالتفاوت فى توزيع الثروة كل بحسب جهده وعمله، إلا أنه يرفض التفاوت الشديد .

فمثل هذه المبادىء الاقتصادية التى أفصحت عنها نصوص القرآن أو السنة، هى أصول اقتصادية ثابتة، يلتزم بها كل مجتمع إسلامى، فى كل زمان ومكان، وهى غير قابلة للتغيير أو التعديل، وبالتالى لا يجوز الخلاف حولها، وهو ما عبرت عنها بمصطلح (المذهب الاقتصادى فى الإسلام) ولى كتاب مستقل بهذا العنوان .

هذه هى المهمة الأولى للباحث فى الاقتصاد الإسلامى، وهى الكشف عن الأصول والمبادىء الاقتصادية الإسلامية حسبما ودت بنصوص **القرآن والسنة.**

٢ـ ثانيهما : تأتى المهمة الثانية للباحث الإسلامى، وهى بيان كيفية إعمال المبادىء والأصول الإسلامية، بحسب ظروف كل مجتمع، فهذه مجرد اجتهادات، وبالتالى يجوز الاختلاف فيها، فمثلا (ضمان حد الكفاية)، هو أصل اقتصادى إسلامى، يتعين إعماله، ولكن ما هو مقدار هذه الكفاية؟؟ هذا ما قد يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة بل، وباختلاف الأشخاص، فحد الكفاية بالنسبة لضابط الجيش أو القاضى غيره بالنسبة للعسكرى أو حاجب المحكمة، وهو اليوم غيره بالأمس، وغيره فى الغد .

المهم أننا فى منهج الإقتصادى الإسلامى، يتعين علينا التفرقة بين أمرين :

١ـ أولها : الأصول حسبما وردت فى القرآن والسنة، وهذه لا يجوز الخلاف فيها، وإلا خرجنا عن الإسلام .

٢ـ وثانيها : التطبيقات أى كيفية إعمال هذه الأصول، وهذه يجوز الخلاف فيها باختلاف ظروف كل مجتمع، وهو ما عبر عنه الحديث النبوى (اختلاف علماء أمتى رحمة) .

وعليه فإنه فى مجال الأصول الاقتصادية الإسلامية تتعدد وتختلف الإجتهادات سواء على :

(أ) المستوى الفكرى فى صورة نظريات اقتصادية مختلفة، مثل ما أشرنا إليه لدى الصحابى أبى ذر والإمام ابن حزم .

(ب) المستوى العلمى فى صورة أنظمة اقتصادية متعددة كالنظام الإقتصادى السعودى يختلف عن الكويتى أو المصرى . . إلخ فالأمر كما عبر عنه ابن القيم بقوله (تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة)، وهو ما فسره الأصوليون بقولهم (إنه خلاف زمان ومكان لا خلاف حجة وبرهان)، وعبر عنه الإمام ابن تيمية أدق تعبير بقوله (إنه اختلاف تنوع لا خلاف تضاد) .

وهنا أذكر مغالطة المستشرق الفرنسى ماكسيم رودينسون Mxaim Rodinson وهو قوله : لست أمام إسلام واحد، ولكنى أمام عشرة . . مائة . . ألف . . إسلام Je me suis pas devant un seal islam le suis devant dax sent, mille islam فهو يعتبر المذاهب والفرق الإسلامية إسلاميات متعددة، غافلا عن أنها اجتهادات : الاجتهاد المالكى . . الحنفى . . الشافعى . . الحنبلى . . الشيعة، المعتزلة ، الأشاعرة . . إلخ .

ذلك أن هذه المذاهب والفرق الفقهية، وبعبارة أدق، هذه الاجتهادات الفقهية مرجعها واحد، وهو القرآن والسنة، فلا خلاف بينها فى الأصول وإن اختلفت فى الفروع، أى فى التفاصيل والتطبيقات،

لاختلاف الظروف والأزمنة والأمكنة. بل إن الإمام الشافعى، كان له مذهب معين أفتى به فى العراق، وحين جاء إلى مصر، وجد أعرافا مغايرة، فأفتى بمذهب، أى باجتهاد آخر مخالف. ولذلك أفضل دائما التعبير عن المذاهب الفقهية المعروفة بمصطلح الاجتهاد، فأقول: الاجتهاد المالكى، أو الحنفى، أو الشافعى، أو الحنبلى، وذلك تعبيرا عن الحقيقة والواقع، ولنتجنب غلواء التشيع الذى قد يثيره مصطلح (المذهب).

وهنا ننبه إلى أهمية التفرقة بين الأصول الشرعية الثابتة حسبما وردت بنصوص القرآن أو السنة، سواء فى المجال الاقتصادى، أو السياسى، أو الاجتماعى ألخ، وبين إعمال هذه الأصول فى صورة اجتهادات أو تطبيقات مختلفة، باختلاف الأزمنة والأمكنة.

فهذه التفرقة الأساسية، نراها على أكبر جانب من الأهمية، ونؤكد بأن الوعى بها يساعدنا، ليس فحسب فى مجال تقييم الحلول المطروحة، وإنما أساساً لمواجهة أكبر أزمة، أو مشكلة يعانيها العالم الإسلامى، سواء على مستوى الحكام أو العلماء أو الشعوب، ألا وهى مشكلة التعصب لاجتهاد أو تطبيق معين، بادعاء أنه وحده المعبر عن الإسلام، وأن غيره بدعة، أو تيه، وضلال.. ومن هنا ـ بكل أسف ـ ترانا فى العالم الإسلامى نتفرق، مركزين على نقاط الخلاف فى الفروع، غافلين عن الأصول التى توحدنا، وليكون هذا المعنى محددا أضرب بعض الأمثلة.

١ـ موضوع تحريم الربا، هو أصل إسلامى لا يجوز الاختلاف فيه، وإلا خرجنا عن الإسلام، وإنما كون عملية معينة كشهادات الاستثمار، تنطوى على ربا من عدمه، فهذه مسألة إجتهادية، يجوز أن يختلف فيها المجتهدون المعترف بهم، ولا يقبل أن يكفر أحدهم الآخر، وعادة لا يحسم مثل هذا الخلاف، سوى اجتهاد جماعى صادر من مجامع فقهية متفق عليها.

٢ـ مثال آخر وهو المشكلة السكانية، إذ ينبرى البعض معترضاً باطلاق، على تنظيم النسل، وهو بذلك يتناسى أن المشكلة السكانية، قد تكون مشكلة كثرة، كما هو الشأن فى مصر أو مشكلة قلة، كما الشأن فى دول الخليج العربى، فلابد أن تواجه كل حالة بظروفها، وبالتالى تختلف الحلول والاجتهادات.

٣ـ مثال آخر وهو قضية الخلافة التى يطالب بها البعض، وهو بذلك يتناسى أن الخلافة، ليست بأصل إسلامى، حتى يصر عليه، وإنما هى مجرد تطبيق إرتآه المسلمون الأوائل، وهو قد يناسبنا أو لا يناسبنا اليوم، مما يتطلب الدراسة والتمحيص. ذلك أن الأصل الإسلامى الذى يعول عليه هو الشورى، وأن يكون الحاكم منتخباً بناء على مبايعة حقيقية ونزيهة، أما كون الحاكم ينتخب مدى الحياة، أو لمدة معينة، وكذا حدود صلاحياته، أو مسماه مثل ملك، أو سلطان، أو أمير، أو رئيس جمهورية، فهذه كلها مسائل اجتهادية تقبل الخلاف، ويحسمها رأى الأغلبية ويتصل بذلك أيضا اعتراض البعض على مصطلح الديمقراطية كتعبير عن الشورى، مما قد يخلق خصومة وهمية مع العالم المعاصر، بزعم أن الديموقراطية فى الغرب أجازت الشذوذ الجنسى، وهو بذلك يتناسى أن الديموقراطية أى الشورى فى العالم الإسلامى، لا تكون إلا فى حدود الأصول والثوابت الإسلامية.

«يتبـــع»

مواقف اسلامية

بين الأشرار والأخيار

للدكتور/ محمد عمارة

اغتم التلميذ لإساءة صدرت ممن لم يسيء إليه من جيرانه..
فلما اشتكى إلى شيخه ما يلاقى قال له الشيخ:
لو كنت مكانك لسررت!
لأننى إن غفرت له.. غفر الله لى.
وإن لم أغفر له.. فإساءته إلى غنيمة يسوقها الله - تعالى - إلى!
وعلى مدار الزمان.. مايزال الأشرار يتربصون بالأخيار الدوائر..
ولأن الأشرار ضعاف فى نظر أنفسهم فهم لايدخلون معركة صريحة.. وعلى أرض مكشوفة.. ولكنهم يحاولون التسلل من الأبواب الخلفية.. بينما الأبرار الطيبون لايملكون إلا الوفاء يبذلونه سجية فيهم غير محدثة.. ولا يعطون خصومهم هؤلاء تلك البسمة الصفراء.. كوردة تذبل بعد قليل..

وقد يستغل الأشرار نيات الطيبين. فيواصلون المكر بالأخيار ظانين أنهم قد انتصروا عليهم لما سكتوا.. فلم يردوا عليهم.. وكأنما كان سكوت الأخيار فى حس الأشرار ضعفا.. ولقد خاب ظنهم ذلك الذى أرداهم:

ذلك بأن الأبرار أقوياء بوفائهم.. ثم إن سكوتهم ليس عجزا.. ذلك بأن همهم مصروفة إلى هدف نبيل يرصدون له كل قواهم.. فلم يُبق لهم ذلك الهدف النبيل وقتا ولا طاقة يبذلونها فى معارك جانبية.. وتصفية حسابات شخصية!

دارت هذه الخواطر فى نفسى وأنا أطالع الموقف الآتى: عن ابى عباس رضى الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن.. فنزل على ابن أخيه «الحر ابن قيس» وكان من النفر الذين يدنيهم عمر - رضى الله عيه -. وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته: كهولا كانوا أو شبانا.

فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى: لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه.. فاستأذن له. فأذن له عمر رضى الله عنه.

فلما دخل قال:

هى يا ابن الخطاب[1].

فو الله ما تعطينا الجزل.. ولاتحكم فينا بالعدل.

فغضب عمر - رضى الله عنه - حتى هم أن يوقع به.

فقال له الحر: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه - ﷺ -:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2].

وان هذا من الجاهلين.

ووالله ما جاوزها عمر - رضى الله عنه - حين تلاها عليه.

وكان وقافا عند كتاب الله - تعالى -»[3].

لقد كان «الحر» باراً بعمه الحصين برا لم يفارقه حتى بعد هذه المؤامرة وهذه الخيانة!

ولقد كان بإمكانه أن يترك عمه لعمر.. ليدير «درته» على صلعته. جزاء خيانته.. لكنه ظل على وفائه القديم غصنا باسقا فى دوحة العائلة التى يعطيها من نفسه.. حتى فى الأوقات العصيبة.. التى تحاول أن تهدمه فيها.. ولكنه يبنيها!

لقد كان موقف عمه فَجًّا.. حَادَّ المواجهة.. حار الانفعال.. ولكن الحر كان نسمة رقيقة هبت.. وعلى الفور.. لترطب من جفاء هذا البذاء!

وقل معى قاتل الله الحقد.. فما ترك لأصحابه شيئا من الخير فكانوا أعداء أنفسهم.

إن «الحر» ابن أخيك.. وإذا صار أثيراً مرموق المكانة عند «الحاكم».. فهو أولا وأخيرا لك: عزه عزك..

ثم هو رمز العائلة المعبر عنها.. وصوتها المسموع فى المحافل الكبيرة.. وباسم الدم المشترك.. كان المتوقع أن يهش زعيم القبيلة لنجاح ولده.. وذيوع اسمه..

أما أن تجىء القذيفة من موطن الأمان.. فذلك ما لم يكن متوقعا.. لكنه هو الذى

(١) كلمة تهديد. أى: هى داهية.

(٢) الأعراف (١٩٩).

(٣) رواه البخارى فى كتاب التفسير.

حدث.. عندما أحرج العم ابن أخيه غاية الإحراج لدى الخليفة العادل الصارم.. واتق شر من أحسنت إليه..

إن الذى تحسن إليه قد يكون مغرورا.. سوّل له غروره أنه الأقوى.. فإذا وقع يوما – بسوء تصرفه – تحت رحمة من هو أصغر منه سنا وقدرا.. فذلك هو النقص الذى رأى أن يكمله.. لا بإصلاح نفسه.. وإنما بهدم المعبد كله على رءوس العائلة كلها!

الحل الإسلامى

وإذا كان فى الناس فلاسفة يسخرون من تفاهات من يؤذونهم ضاحكين..

وإذا كان هناك من يتألم باكيا.. من تحرش المغرضين المتآمرين.. فإن «الحر بن قيس» ـ رضى الله عنه – قدوتنا – حين لم يجد ردا على من عصى الله تعالى فيه.. إلا أن يطيع الله فيه بهذه الشفاعة الحسنة التى كانت خير دليل على أن الحر جدير بهذه الحظوة عند أمير المؤمنين.

والتى أظهرت فى نفس الوقت قيمة العفو عند المقدرة.. وإلى أى حد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ قادرا على ضبط أعصابه على هذا النحو النادر.. والذى كان منحة من الله ـ تعالى ـ يختص به أولى العزم من الرجال:

وكفى بربك هاديا.. إلى الحق.. بالدليل ونصيرا على أعدائه.. بالسلاح.. إنه سبحانه يقذف.. بقوة.. فإذا بالباطل يصاب فى مقتل.. «فيدمغه» وعلى الفور.. فإذا هو زاهق.. وليس فقط «هالك»

إنه زاهق.. لا وجود له على الإطلاق..

أمـا بعـد

فهل فكرت يوما أن تضىء الشمعة من طرفيها؟!

طبعا.. لم تفعل.. بل.. لن تفعل!

لأن ذلك العبث إنما هو اختزال لعمرها.. ولكن بعض العابثين يمارسون هواية الإفساد فى جيلهم فيحاولون إشعال الشمعة من طرفيها وقد تكون هذه الشمعة قيادة اجتماعية.. تضىء للحيارى طريقهم.. بل وتأخذ بأيديهم عبر النفق المظلم.. إلى حيث الضياء والهواء.. وأثناء ذلك يحاول العابثون وقف هذا الموكب المبارك.. بإشعال الشمعة من أسفلها.. لتحترق.. وتطير بدءا.. قبل أن تتم الرحلة كمالا..

ألا إنها النزعة الفرعونية.. تتحدر من الأسلاف إلى الأخلاف.. وذلك ما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(٤).

أجل.. إن العاقبة للمتقين.. ماداموا مستعينين بالله تعالى.. صابرين.. صامدين فى وجه البهتان. بسلاح الإيمان.

(٤) الأعراف. ١٢٧ – ١٢٨.

طرائف.. ومواقف

إعداد الأستاذ/ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

حملة القرآن

قال الحسن: حملة القرآن ثلاثة: رجل اتخذه بضاعة ينقله من بلد إلى بلد، يطلب به ما بأيدى الناس، ورجل حفظ حروفه وضيع حدوده، واستدرَّبه الولاة، واستطال على أهل بلده، وقد كثر هذا الصنف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على قلبه، فسهر ليلته، وهملت عيناه، وتسربل بالخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن، وهذا النوع من الناس أقل من الكبريت الأحمر.

مواساة المؤمنين أنواع

مواساة المؤمنين أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والإرشاد، ومواساة بالدعاء، ومواساة بالتوجع لهم، وعلى قدر إيمان المرء تكون مواساته لأخيه.

وصايا حربية

قال أبوبكر لخالد بن الوليد حين أرسله فى حرب الردة: اعلم أن عليك عيوناً من الله تراك وترعاك، فإذا لقيت العدو فأحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تغسل الشهداء لأن دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة.

وأوصى هارون الرشيد أحد قواده: فقال: أنت تاجر الله فى عباده، فكن كالمضارب الذكى إن وجد ربحاً اتّجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة قبل أن تتأكد من السلامة، ولكن احرص من عدوك، فإنه يحتال عليك كما تحتال أنت.

من كلام أبى حيان التوحيدى

- حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله.
- حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله.
- حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يطمع في غير الله.
- حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله.
- حرام على من أنس بالله أن يأنس بغير الله.

من شعر الإمام الشافعى

الناس بالناس ما دام الحياة بهم
والسعد لا شك تارات وهبات
وأفضل الناس ما بين الورى رجل
تقضى على يده للناس حاجات
لا تمنعن يد المعروف عن أحد
ما دمت مقتدراً فالسعد تارات
واشكر فضائل صنع الله إذ جعلت
إليك لا لك عند الناس حاجات
قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم فى الناس أموات

الضيف المتواضع

يروى أن طفيلا سمع بوليمة عند أهل بيت، فبادر مسرعاً، ودفع الباب عليهم داخلاً.. فسأله القوم: من أنت؟! فقال: أنا الضيف المتواضع الذى كفاكم مؤونة الرسول.!!.

العلم فى الجنة

حضر الشريف التلمسانى وهو صبى درس الأستاذ أبى زيد بن الإمام، فذكر الأستاذ فى حديثه نعيم الجنة، فقال الشريف: هل يدرس العلم فى الجنة يا أستاذ؟ فقال الأستاذ: نعم، قال: ما دليلك؟ قال، قول الله– تعالى–:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾(١)

والعلم يشتهى فهو موجود، قال الشريف: لو قلت لى لا، لحزنت فالحمد لله.

أبشرك بالنصر وتبكى

روى أن سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – جاءه البشير يوما بالنصر على الأعداء، فسأله عمر: كم لبثتم أمام الأعداء؟ فقال البشير: من غداة إلى عشية، فبكى عمر واستغرب المبشر بكاءه، وقال: أبشرك بالنصر وتبكى؟!

فأجابه عمر: لا يقف الكفر أمام الإيمان من غداة إلى عشية إلا بذنب أحدثتموه أنتم أو أنا.

من دعاء الحسين بن على رضى الله عنه

إلهى نَعَّمْتنى فما وجدتنى شاكراً، وابتليتنى فما وجدتنى صابراً، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدة بترك الصبر.

إلهى لا يكون من الكريم غير الكريم.

(١) سورة الزخرف٧١.

قصة العدد

إرادة جبّارة

١

« رأينا ألا تخلو « مجلة الأزهر » من قصص أدبية تصور نماذج حية فى الخلق الإسلامى الرفيع، وهذا نموذج متواضع لبعض ما نعنيه، راجين أن نجد من آثار الكرام الكاتبين ما يفوقه مغزى وأسلوبا، لتؤدى القصة الأدبية رسالتها على نحو بليغ ».

دعا فقيه المدينة وعالمها الكبير عروة بن الزبير بن العوام، تلميذه الفقيه الشاعر عروة بن أذينة، للقاء عاجل، وكان التلميذ موضع ثقة أستاذه، يستشيره فى كل ما يعن من الأمور، وبخاصة بعد مصرع أخويه الكبيرين: عبدالله بن الزبير ومصعب بن الزبير، وهما ألد خصوم الدولة الأموية، وقد بويع عبدالله بالخلافة تسع سنوات، وخاض حروبا انتهت بمصرعه وتولىّ مصعب إدارة العراق نائباً عن أخيه، وكلاهما جاهدَ وجالد، حتى انتصر عبدالملك بدهائه، وبقىّ عروة بن الزبير بعيداً عن مشاكل السياسة، يفكر فيما ورثه عن خالته عائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين من فقه وحديث وسيرة، ويُفتِى الناس بما جَمعه من العلم، حتى أصبح شيخ الفقهاء السبعة بمدينة رسول الله، وأستاذ الكثيرين ممن جاءوا من بعدهم ينشدون الفقه والحديث! وفى طليعتهم عروة بن أذينة!

عجب عروة لدعوة أستاذه العاجلة فقد كانَ معه فى صلاة الظهر بمسجد رسول الله، ولم يَبد عليه أنه يريد الاجتماع به وها هوذا قبل صلاة العصر يدعوه معجلا، فأىّ شىء طرأ؟ أسرعَ التلميذ إلى لقاء أستاذه قبلَ أن تحين صلاة العصر، ورآه مفكرا مشغول البال، كمن طرأه حادث ذو بال، فتقدمَ إليه متبسما، وقال فى مرح: أهى معْضلةٌ فقهية لم تجدْ لها حلا ياسيدى! وقد دَعوتنى لأَذهب إلى بعض زملائك الكبار من فقهاء المدينة، كما تعودت أن أذهبَ من قبل؟ فقال الأستاذ: لو كانْت معضلة فقهية لَانتظرت حتى ألقاك فى صلاة العصر، وقد أَلْقى من أحب من الفقهاء فأحسم الفتوى فى ضوْء ما يشيرون! ولكنها معضلةٌ سياسية! قال عروة: وما أنتَ والسياسة، وقد

اعـتـزلتَ أمـرها فى حـيـاة أخـويْك، وعـزمتَ ألاّ تتحدث فى غير شئون العلم والدين!

قال عروة بن الزبير: وفَـدَ إلىَّ الآن رسول الوليد بن عبدالملك، ولى عهد أمير المؤمنين، يخبرنى أنّ والده يعَانى من عقابيل المرض فى قصره بدمشق، وقد خَطَرله أن يدعوكَ إلى لقائه مجدّداً عهده بكَ حين كان يطلب العلمَ معك لدى من بَقى من صحابة رسول اللّه، ولن ينسَى كريم أُخوّتك فى زمنكَ النّاضر البعيد، وهو لا يدرى أيمتد به الأجل أم يحين؟ لذلك فكّر فى دعوتك، وقد أعدَّ لك ما يوجب السفر من وسائل مرفّهة فى المركب والمأكل والمشرب، حتّى تبلغ دمشق مستريحاً هانئا مع من تختار من التلاميذ والرفقاء! وولى العهد بمكة، وقد رأى أن يهيئَ أدوات الرحلة تنفيذا لمشيئة والده إذا قبلت! وأنا الآن حائر لا أدرى ما أصنع قال ابنْ أذينة، أرى أنْ تعجل بالرحلة إلى دمشق، فإن صلتك المتجدّدة بصديقك القديم تعينك على أن ترفع ما ينزل بالمدينة من جور على أيدى أمرائه وربّما وفّقت إلى اقتراحاتٍ صائبة ينعم بها أهل الحرمْين فى مكة والمدينة فالرّحلة لله وللمسلمين، قبل أن تكون لأمير المؤمنين.

فكّر عروة فى قول تلميذه، وقال: لقد أَعدّت إلىّ ما لم يخطر من قبل على ذهنى، وما دامت الرحلة للّه والمسلمين، فقد قبلت، على أن تكون معى يا ابن أذينة، فالطريق شاق، وبقاؤكَ معى محدثا وسميرا مما يهوّنه علىَّ! إنك قد أشرت علىَّ، فلا تخالفْ وأَمْر أسرتك مكفول عندى.

قال إبن أذينة، ومَع مَن سأكون؟ فقالَ عروة. ليسَ غيرك وغير ولدى محمد، يقضى محمد ما احتاجه من أمور الصحة وتَقْضى أنت ما احتاجه من المراجعة فى شئون العلم، ثم صفّق بيده فجاء الخادم ليقولَ له عروة: أبلغْ ولى عهد أمير المؤمنين أنّى وافقتّ على السفر تلبية لرغبة عبدالملك، وسيكون معى ولدى وتلميذى، فقال الخادم: إنّ الرسول بالباب ينتظر الرد ويقول: إن أمير المدينة سيهيىء وسائلَ الرحلة من الآن!

قال عروة: لنبدأ السفر من الغد، وعلى الله قصد السبيل.

كانت الرحلة هادئة مريحة، لأن القائمين عليها يعرفون متعرجات الطريق وملتوياته، فيسلكونَ ما يبعث الرضا والارتياح لدىَ المسافر الشيخ، وصاحبْيه الكريمينْ! كما كانوا يتجنبون السّير فى الظهيره حيث يريحون فى أمكنة يعرفونها بطول الدربة، ليقيلوا هانئين، ثم يواصلوا السير فى اللّيل، ناعمين بضوء القمر وسكون الصحراء! وكان ابن أذينة شاعرا عاشقا فاختارَ أوراقا يسجّل بها بعضَ ما تجود به قريحته. ورآه عروة بن الزبير يترنّم بأبيات لمسَ تأثيرها فى إشراق محياه، فطلب إليه أن يسمعها، فاعتذر ابن أذينة كمن يخشى الوقوع فى ذنب، وقد تعود أن يخوض مع أستاذه فى مسائل الفقه والحديث وسير الصحابة والتابعين، وما تعودَ أن يسمعه الشعر ناظما أو راوياً، ولكنّ عروة صاح به أعرف أنكَ شاعر يا ابن أذينة، وقد بلغَنى بعض ما قلت! فأنشدْنى ما فى ورقتك هذه بحقّى عليْك، فتلكأ عروة بن أذينة حائرا. ورأى الاهتمام فى عْين أستاذه، وفى تطلع ولده محمد، فأنشأ يقول:

إن التى زعْـمت فـؤادك ملّهـا
خُلقتْ هواك كـمـا خلقت هوى لهـا
بيـضـاء باكـرها النعيم فـصـاغـهـا
بلبـاقـة فـأدقـهـا، وأجلّهـا
منعتْ تحيـتـهـا فـقلت لصـاحـبى
مـا كـانَ أكـثـرها لنا وأقلهـا

فــــدنا وقــــال لعلّهـــا مـــعـــذورة
في بعض رقـبـتـهـا فـقلت لعلهـا
وإذا وجَـــدت لهـــا وســـاوس سلوة
شـفعَ الفـؤاد إلى الضـمـيـر فـسلّهـا

فصاحَ محمد بن عروة: هذا هو الغزل العفيف الرائع. والله ما سمعت بمثله فيما أعرف من شعر العذريّين، إنه فوق ما قالَ قيس وكثير وجميل غير أنَّ ابن أذينة كان حريصاً على سماع رأى أستاذه، فتطلّعَ إليه متلّهفا، كمن ينتظر حكما يسعده أو يشقيه، فقال عروة: أحْسنتَ والله، لابدّ للحزين من أن ينفث! وانتقل الحديث من الفقه إلى الشعر فجعل عروة يروى، وصاحباَه يسمعان مغتبطين! ولم تطل الرحلة مع ما استؤنف من السمر الأدبى، والنقاش العلميّ، إذ كانَ لدى كلٍ من الثلاثة ما يمتع ويروق ثم بلغت القافلة أبوابَ دمشق، فرأوا ضجةً عالية تغمر الناس، وشاهدوا ازدحاماً غاصا يتّجه إلى قصر الخلافة، فنزلوا يتساءلون، وفاجأَهم ما لم يتوقعوه، حيث انتقلَ عبدالملك إلى جوار ربه، وأخذ الناس يتزاحمون على مبايعة ولى العهد الوليد بن عبدالملك بإمارة المؤمنين، فتحير عروة، وقال لرفيقيه ما عسى أن نصْنع، وقد مات عبـدالملك؟ لقـد شـاء اللّه ألا يتم هذا اللقـاء فلنعجلّ بالرجوع!

قال عروة بن أذينة: سيدى إن الذى وجّه إليك دعوةَ أمير المؤمنين هو الخليفة الجديد وقد علم بمسيرك، وأمر بتهيئة الرحلة على ما تحبّ! فإذا هدأتْ حركة البيعة استأذنا عليه مبايعين أوّلا، ومقدّمين العزاء ثانيا، وسيسر الوليد بمقدمك. إذ أنّك حققتَ أمل أبيه!

وقال محمد بن عروة: وهذا ما أراه يا والدى، إذ لا يحسن أن يعلَم أمير المؤمنين أنّنا قدمنا إلى دمشق، ورجعنا دون أن نشهد مجلسه! ولعلّه يسألك عن أهل المدينة، ويستمع إلى رأيك فى سياستها، فيوفقك اللّه إلى ما فيه خير الناس؟ قال عروة: وهذا ما بدأت أميل إليه، فلننتظر حتى يتاح اللقاء.

٢

لم يفاجأْ أمير المؤمنين الوليد باستئذان عروة ابن الزبير، فهو يعلم أنّه جاء بناءً على رغبة والده، لذلك نهض إلى لقائه مكرّما، وأجلسه معه على سرير ملكه، وقد رأى فى وجهه شحوبا، وكأنه يخفى ألماً دفينا يحاول ألا يعرفه أمير المؤمنين، فسأله فى تودد عما يحسّ، فقال عروة: يا أمير المؤمنين، منذ قدمت دمشق، ورجلى تأكلنى، وقد كان الألم فى أصابعى فامتّد إلى القدم ، وأحّسه الآن ينمو فى السّاق! ولولا أنك سألت ما نطقت. صفّق الوليد بيديْه، وقال: أيْن طبيب القصر أبوالحكم؟ وسرعان ما قدم شيخ نصرانى أشيب الرأس واللحية، فقال له الوليد: دونك عروة شيخ المسلمين بالمدينة فلا تقصّر فى شئ: ففحصَ أبوالحكم رجلَ عروة، وامتقعَ وجهه حين قال: إنهّا الأُكْلة يا أمير المؤمنين قد بدأتْ بالأصابع، وامتدتْ إلى السّاق، وأخشىَ أن تصل إلى الركبة فلا ينفع معها علاج! سهمَ وجه الوليد، وتطلع إلى عروة مشفقا، فاستمّر أبوالحكم يقول: لابدّ أن تقطع السّاق الآن، فسادَ المجلس وجومٌ قطعه عروة بقوله مخاطباً أمير المؤمنين: لعلك كرهت أن يقطعوا منى عضوا يحطّ عنى بعض ذنوبى ففى الحديث أن أبا بكر قال: يا رسول اللّه. كيفَ الصلاح بعد قول الله – عز وجل –:

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[1] فكل سوء عَملناه سنجزى به، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: غَفر الله لك يا أبا بكر، ألستَ تمرض؟ ألستَ تحزن؟ أليسَ تصيبك اللأداد؟ قال: بلى يا رسول اللّه. قال ـ ﷺ ـ: فهو ما تجزون به، فإن ذاك بذاك»[2] وددت يا أمير المؤمنين أنها بقيتْ بدائها، فهى كفارة تحت الذنب.

وكانَ ما لابد أن يكون! فقد عجّل أبوالحكم بإجراء البتر، ونظر إلى عروة فى سنّه المعمّرة، وضعفه الواهن فقال له فى إشفاق: يا سيدى نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألما، فصاحَ غاضبا: معاذ الله أن أستعين بحرام الله على ما أرجو من العافية، سكت أبوالحكم متعجبا ثم سأل فى أدب، فإذا أبيتَ الخمر فى مثل حالتك، فهلْ فى شراب ينيمك فلا تحسّ، نسميه نحن الأطباء المرقد، فقال المريض فى صبر نادر: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى، ولا أجد ألماً يكون فى كفة ميزانى يوم ألقى اللّه، فتعجب الوليد بن عبدالملك ومن معه من موقف عروة، وصاحَ أمير المؤمنين: هذا ما لايطيقه إنسان! ولكنّ عروة قالَ للطبيب: هيّا فابدأ، فصفق بيده فدخلَ عليه قوم أشداء تظهر الغلطة فى وجوههم، فسألَ عروة: ومن هؤلاء، فقال الطبيب؟ هؤلاء أعوانى، يمسكون المريض بقوة حين يشتد الألم فلا يستطيع الفكاك، والمنشار يقد عظمه، لأنّ الصبر سيغرب عنه لا محالةَ فى هذا الكرب الكارب، فقالَ عروة: لا إله إلا اللّه به أعتصم، وإليه وحده ألجأ، أرجو أن أكفيكَ هؤلاء بما يفرغ علىَّ الله من صبر، وأخذ الطبيب يقطع العظم، وعروة لا ينقطع عن ذكر الله مهلّلا مكبرا، ثم جاءتْ مغارف الزيت المغلى ليوضع على الجرح كى يبرأ، فما أنْ وضع الزيت حتى غشى على المريض، وظنّ القوم أنّه مات! وجعلوا يفيقونه مستيئسين، ولكنّ الروح قد عاودته فأفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، ونظر بعيدا فرأى قدمه المقطوعة بأيدى المساعدين، فدعابها، وأخذ يقبلّها وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنى ما مشيت بها إلى حرام، إن الّذى حملنى عليك هو الذى شاءَ أن يسلبنى إياك، له العتبّى حتى يرضى قال أمير المؤمنين: احملوه برفق إلى سريره فى الحجرة المجاورة ليستريح! فقد ألقَى علينا عظة بالغة ما نظن أن مثلها سيحدث ذات يوم! له اللّه فى محنته! له اللّه فى محنته!

كان الوليد فى أسبوعه الأول من الخلافة، وهو جديرٌ أن يستشعر النشوة، حين ألقيت إليه المقاليد، وأصبحَ الرجلَ الأول فى بلاد الإسلام ولكنَّ ما رأى اليوم من مأساة عروة قد شغله عن الخلافة والحكم فجلس بين رجاله ساهماً، يفكّر فى أمر هذا الشيخ حين رَفض تناول الخمر، ورفَض تناول المرقد، ليحّسَ بالألم فيكون له ثوابه عند ربه، وقد فوجىء بمن دخل عليه من أفراد حاشيته حزيناً يحرك رأسه آسفا فقال له الوليد: كلنا حزينٌ لمأساة عروة ولست وحدك! فقالَ الرجل، فهما مأساتان لا واحدة يا أمير المؤمنين، فقد علمت الساعة ما أزعجنى، وملّك على الصوابَ فلا أهتدى إلى حلّ قال الوليد: عجّلْ يا رجل، فقد شردتْ ألبابنا حين سمعناك فقال: ابن عروة يا أمير المؤمنين، زين شباب المدينة محمد ابن عروة، كان فى انتظار أبيه، وهو لا يعلم شيئا عن علته، فذهبَ إلى اسطبل الخيل، ليرىَ دوابّه التى حملته من المدينة فهاج فى وجهه حصانٌ جامح، وقذفَ به إلى الأرض،

---

(١) النساء ١٢٣.

(٢) رواه أحمد (١/١١)، والبيهقى (٣/٣٧٣).

وجثمَ عليه فما انقضت لحظة حتى لفظ أنفاسه، وأبوه الآن لا يدرى عن مصرعه شيئا، ولا طاقة لنا بأن نخبره، وقد كابد من علته ما كابد!

نظر الوليد إلى جلسائه وقال: حقًا هما مصيبتان لا مصيبة، بل ربما كانت مصيبة الوالد الثاكل فى شيخوخته بابنه أنكى، وأوجع! لقد صبر على بلوى جسمه، فكيف إذا اجتمعت إليها بلوى الثكل العاجل على غير انتظار؟ قال أحد الجلساء: إن الأسَى يبعث الأسَى يا أمير المؤمنين، وقد سمعت فى الصباح عن شيخ من بنى عبس ماروّع وأفزع، سمعت عنه ثم رأيتَه الساعة يجلس فى فناء القصر، وبأمثاله يَتصبر عروة فى بلواه!

قال الوليد: عروة العالم الفقيه نجل أسماء ذات النطاقين تصبّر بمأساة شيخ من بنى عبس!؟ وعنده علم خالته أم المؤمنين عائشة، وفقه الصحابة من أهل المدينة؟ وقد سمع حَديث أمّه عن مصرع ابنها عبدالله، فلم يزد على أن استرحم وسأل الله له المغفرة! ماذا تَقول يا رجل!

فقال أحد الجلساء: نريد أن نعرف مأساة هذا العبسى: فرد صاحبه يقول: هو فى فناء القصر، فلو أذن أمير المؤمنين، لمثلُ بين يديْه! فقالَ الوليد: أذنت وسأرى. فقدم شيخٌ ضرير ليس فى وجهه نقطة من دم وقال: يا أمير المؤمنين بت ذات ليلة فى بطن وادٍ من أوْدية عبس، ولا أعلم عبسيا يزيد ماله عن مالى، فطرقنا سيل جارف ذهب بكل ما أملك من خيام وكراع وأهل وولد، غير بعير كنت أركبه بعيدا، وصبّى لى اخترته لرفقتى، وكان البعير صعباً عنيدا فند، فوضعت الصبى واتبعت البعير، فلم أجاوزْ قليلا حتى سمعت صيحة ابنى، ورأسه فى فم الذئب يمضغها مضغا، فلحقت البعير لأحبسه فركلنى برجله على وجهى فحطّمه، وذهب بعينيّ معا، فأصبحت لا مالَ لى، ولا أهل، ولا ولد ولا بصر!!

خشع الوليد لما سمع، وقال: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أنّ فى الناس من هو أشد منه بلاء، وكان عروة جالسا على سريره يسبح، فرأى الشيخ العبسى يتقدم إليه، ويحكى قصّته، فيقول له: هوّن عليك يا أخا عبس، فليس لنا مع الله أمر ولا نهى، وهنا تجرأ من أخبره بمصرع محمد، فشحب وجهه لحظة، وقال: لا حزن، فسألحقه عن قريب! وماذا بَقى فى الأجل!؟

دخل عروة بن أذينة على أستاذه، والدموع تترقرق فى عينه، حتّى إذا جمع صوابه، قال له فى خشوع: واللّه ما بك من حاجة إلى المشى، ولا من أرب فى السعى، وقد تقدّمك عضو من أعضائك، وابنٌ من أبنائك إلى الجنة وقد أبقى الله لنا منك ما كنّا إليه فقراء من علمك ورأيك، وثواب ولدك فى صحيفة حسابك، ثم أجهش بالدموع دونَ أن يصل الحديث.

فابتسم عروة وكأنّه يحاول أن يخفى برح صدره، وقال: يا ابن أذينة أبقى الله علمى حين أخذَ قدمى فلا بأس، وأخذَ ولدى على كبرة منى ليكون الملتقى عن قريب وإنا للّه!

وعلم الوليد بما قال عروة: فقال هنيئاً له، لاصبر فوق صبره! إنّه ممن قال الله فيهم:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾(٣).

عابر سبيل

---

(٣) البقرة ١٥٥ : ١٥٧.

روضة الشعر

نورُ الإسلامِ

للأستاذ / محمود حسن إسماعيل

بمناسبة العام الهجرى نختار هذه القصيدة التى تصور انبثاق الإسلام ليمحو ظلام الشرك وهى من روائع الشاعر الكبير الأستاذ محمود حسن إسماعيل

كانت الأرضُ قِصَّةً من ظَلامِ
رَدَّدَتْهَا قوافلُ الأيَّامِ
وتناجَتْ بها قلوبُ الْخِيَامِ
واستطارتْ بها نفوسُ الأنامِ
فَهْيَ إعصارُ جِنَّة فى قَتامِ والْبَرَايا فى قَبْضَتَيْهِ أسارَى

***

وَيْكِ يا نارُ .. أىُّ سِرٍّ حَبِيسِ
فى لظاكِ ، رآه أهْلُ الْمَجُوسِ
زَمْزَمُوا بالصَّلاة والتقديس
وأراقوكِ فى شِعَابِ النُّفُوسِ
خَمْرَةَ الُحْبِّ من يَدَىْ إبْليس ثم طافوا حوْلَ اللهيب سُكارَى

***

وَيْكَ يا صَـــخْـــرُ ... أنتَ رَملٌ ومـــاءُ
جَـــبَـلَـتْـــــه الـرِّيـاحُ والأنـواءُ
كـــيف هلَّتْ من طِينك الأضـــواءُ؟
كـيف صَـبَّتْ بك الغُـيـوبَ السَّـمـاءُ؟

فَـــأتَاكَ العُـــبَّـــادُ والخُـــشَـــعَـــاءُ وتـرامَـــوْا عـلـى يديْكَ صَـــغَـــارا

***

صَنَمٌ أَنْتَ .. أم صَـــفَـــاةٌ ! أجِـــبْنى
مــا لَجِــفْنَيْكَ ســاهتــان لجَــفْنى !
مَـــا لكَفَّـــيْكَ فى هَوَانٍ وَجُـــبْنِ
شُـلَّتَـــــا .. يا أصَـمُّ ! بـالـلـه دَعْنـى

مِـنْ رُبـوبـيَّـــــة زَعَـــــمْتَ، وفَـنٍّ كـيفَ ياشَىْءُ .. قَـدَّسَتكَ الصَّـحـارَى !

***

مَـــعْـبَـــد ... للْعـــبَـــاد يَحْنُو ويَخْـشَعْ
وَلِهَـــمْس الخُـــفَّـــاش يَعْنُو ويَخْـــضَعْ
وإذَا الـرِّيـح فـى الـدَّياجـى تُـزَعْـــــزِعْ
كَـــبْكَبَتْ وجْـــهَـــهُ الْمُـــعَـــارَ الْمُـــرَقَّعْ

فـــتـــلاشَى حَـــصَـــاهُ مِنْ كلِّ مَـــوْضِـعِ رَبِّ هـذا الظـلامُ يَـبْـــــغـى نَـهَـــــارا

***

مـــا لتلْكَ الوَلِـيـدَةِ الْمُـــسْـــتَـضِـــيـئَـــهْ
وُورِيَتْ فـى التُّـــرَابِ .. وهـى بَـرِيئَـــــهْ !
أَيُّمَـــا سَـــوْءَةٍ ؟ وأىُّ خَـطِيــــئَـــــه؟
يَـا لَتِـلْكَ الآثَـام هَـبَّتْ جَـــــرِيئَـــــهْ !

صُـــرِعَ القَـــوْمُ !. أمْ دَهَـتْـهُـمْ خَـبِـيـئَــهْ صَـــيَّـــرُوا حِكْمَـــةَ الـسَّـــمـوات عَـــارا

***

عَــابدَ النَّجْم .. لا تـرُغْ من عِــتَــابى
لَسْتُ مُــعْــفِــيكَ من عــذاب الجَــواب ..
مــا الذى فــيكَ منْ عطايا الشِّــهَــاب ؟
كــوكب يســتــعــيــرُ ضــوءَ الشِّــيَــاب
كــيفَ يُعْطِيك .. ؟ وهو عــبــد يُحــابِى دَوْرَةَ الشَّــمْس والبُــرُوجَ الكِبَــارَا !

***

أيُّهَــا الصَّــابىءُ الشّــريدُ الصَّــلاة
ضَــعْتَ مــا بَيْن غَــفْلَة الّلفَــتَــات
تَعْــبُــدُ النّورَ .. وَهْوَ عَــبْــدُ الحَــيَــاة
عَــبْــدُ مَنْ بَثّــهُ بِتلْكَ الفَــلاة
ثــمَّ ألقـــاهُ فى يد الظُّلُمـــاتِ فَــغَــدَا لِلْغُــيُــوب فُلْكا مُــدارا

***

مــا لَدَيْكُمْ يا ضَــاربى الأزلامِ ؟ ..
أنا أشكُو الطريقَ .. مــاذا أمَــامى ؟
مـا وَرَائى ؟ .. ما بَدْأتى ؟ .. مـا خِتَــامى ؟ ..
اسْــألُوا السَّــهْمَ .. لَيْسَ فــيــه لِرَامٍ
نَبَــأٌ يَشْــتَــفِى لَدَيْهِ أُوَامِى ! إنّهَــا ضَلَّةٌ سَــقَــتْكُمْ تَبَــارَا ! !

***

رَبِّ ! هذى مَــضَــاربُ الجَــاهليَّــةْ
خَــيَّمتْ فَوقَــهَــا العُــصُورُ الشّــقِــيَّــهْ
جــاءَهَا والزمــانُ يَجْــتَــرُّ غَــيَّــهْ ..
.. قــادمٌ .. فى خُطاهُ فــجــرُ البــريّهْ
وبِكَفَّــيــهِ نَجْــوَةُ الْبَــشَــرِيَّه من قُــرُونٍ صَــبَّتْ عَلَيْــهَــا الخَــسَــارا

***

قِيلَ: بُشْرى السَّماء.. قالتْ: «مُحَمَّدْ»
فَأكَبَّتْ أوثانُهُمْ وهْي تُعْبَدْ!
واستَجارتْ نيرانُهُمْ وهْيَ تُخْمَدْ!
وتَهاوَى إيوانُ كِسْرَى المُمَرَّدْ
وتَهادَى مِن سِدْرَة الله فرقَدْ دكَّ بِالنُّورِ كُلَّ لَيْلٍ وَسَارَا

***

طهَّرَ الكونَ مِن ضلالٍ ورِجْسِ
أنقَذَ الناسَ من ظلامٍ وبُؤسِ
وسَرَى نُورُه إلى كل نفْسِ
سِيرَةَ الشمسِ بين ماء وغَرْسِ
يُنْبِتُ الخَيرَ للحياة، ويُرسى مَجْدَها أيْنما على الأرض سَارَا

***

وبيُمْناه للدُّهور كِتابُ
نوَّرتْ من ضيائه الأحقابُ
وسقَى العالَمِين منه عُبابُ
فيه للعَصْر نجدَة وإهابُ
فيه عن ظُلْمَةِ الليالي حِجَابُ سَرْ مدىٌّ يُفَجِّرُ الأنوارَا

***

أعجَزَ المُشْرِكين منه بيانُ
كبَّرتْ من جلاله الأزمانُ
وتَهاوَى لسرِّه الكُهَّانُ
وجَثا الجِنُّ روْعةً واسْتكانوا
فْهوَ بحْر من الهُدَى.. وأمانُ كلُّ حَيٍ إليه يَبْغى الفِرارَا

***

الرأى

للشاعر/ أحمد زين

سأحملُ فى الرأى مَضَّ الألمْ … وأصبرُ للخطب إمَّا ألَم

وأحملُ نفسى عَلَى مُرِّها … إذا ضَامها ما يضيمُ الكرمْ

ولا أشترى كلَّ هذا الوجود … ولا العيشَ فيه ببعض الشَّمَم

وأزهدُ فيما بناهُ الرياءُ … وأصدع بالرأى مهما هدَمْ

فأَهْونْ عَلَىَّ بدنيا النِّفاق … وجاهٍ يُنالُ ببيع الذِّمَمْ

هو الرأىُ رُوحك فاحرِصْ عليه … فما بعدَ روحك غيرُ العدَمْ

وحكمُ القلوب بإلْهَامها … وما أصدقَ القلبَ فيما حكَمْ

فلا تَطلبنَّ ودادَ الصديق … بمدحٍ كَذوب خَسيس القيَم

فإنَّ اللسانَ رسولُ القلوب … يُعبِّر عنها بلا أوْ نعَم

وإن العقيدةَ عِرضٌ فصُنْه … إذا كنتَ مِمَّنْ يصونُ الحُرَمْ

سرَتْ فى فؤادك مسرَى الدماء … فلا تبذلِ الدمَ إلا بدمْ

أمانةُ ربِّك فى خَلْقه … فمن كتَمَ الحقَّ فيها ظَلَمْ

وميثاقُه قبلَ خَلْقِ الجسُوم … تلقَّتْه أرواحُنا فى القِدَمْ

بها رفَع اللَّهُ تلك النفوسَ … وميَّزها عن سوامِ النَّعَمْ

فلا تغبطنَّ أخَا حُظْوَةٍ … فما نالَها برخيصِ القيَم

ولكنَّه باعَ فيها الضمير … وألقَى العقيدةَ تحتَ القَدَمْ

وساومَ بالنفس فعلَ البَغيِّ … رمتْ بالحياء ابتغاءَ اللُّقَمْ

وكم أسخطَ الحقَّ فى موْطِنٍ … وكم ألبس النُّورَ ثوبَ الظُّلَمْ

تكادُ مظاهرُه الخالباتُ … تشفُّ لعينك عمَّا كتَمْ

ويُوشك منْظَرُه المجتلَى … يُحدِّث عما طَوَى من تُهَم

فلا تَغْتَرِرْ ببهاء الوضيع … فكمْ من حذاء صَقيل الأدَم

وعشْ بالعقيدة عَيْشَ الكرام … ومُتْ رجلاً تحتَ هذا العَلَمْ

ولا تعتَددْ بالألى خالفوك … وكُنْ أُمًّا إن عصتْك الأمَمْ

من عيون التراث

للأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم

١ - موطأ الإمام مالك

أبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى عالـم المدينـة

إذا كان لبعض الكتب أن تشرف بنسبتها إلى مصنفيها، وتطمئن القلوب إليها، فلا شك أن كتاب الموطأ قد بلغ بنسبته إلى الإمام مالك ابن أنس أقصى الغايات، وأبعد المقامات، إلى ما اجتمع لهذا الكتاب الجليل من كثرة رواته، وتعدد طرقه، ووفرة تعاليقه وشروحه.

وإذا كان لبعض الأئمة المجتهدين - أيضا - أن يعلو شأوهم، ويتألق سناهم، وتبقى على الأيام ذكراهم، بما صنفوا من الكتب أو خلفوا من الآثار، فإن الإمام مالكا قد نال من ثواب الله، والمنزلة الكريمة عند العلماء أوفى نصيب وأعظم مقدار، لما قام به من تصنيف الموطأ، وتمهيده للناس، وتقريبه لطلاب الفقه والفتيا، فوق ما تهيأ له - رضى الله عنه - من المكانة والفهم ونصاحة الرأى وعلو الرواية، مع العفاف والورع والتقوى، فى عمره المبارك الطويل.

وقد كانت المدينة المنورة دار إقامته، ومكان مولده ووفاته، وفيها صنف كتابه، وأحكم تبويبه وتهذيبه، بعد أن سلخ فيه أربعين عاما، ينتقى الروايات، ويختار أصح الأسانيد عن الأثبات من علماء الحجاز. وقد أداره على أبواب الفقه، ونبه إلى ما صح عند أهل الحجاز من المسائل والفروع، رواية وعملا، مفسرا للمفهوم الشرعى والمعنى العرفى، مع ذكر الكثير من فقه الصحابة وكبار التابعين من أهل المدينة، متحريا فى ذلك الحق والصواب.

وقد اشتهر الموطأ فى جميع الأمصار، وأصبح الإمام مالك وجهة العلماء ورحلة المستفيدين من سائر الآفاق، من مصر واليمن والعراق وخراسان وأفريقية والأندلس، ثم حمله هؤلاء العلماء إلى بلادهم، وتدارسوه فى مجالسهم وحلقات دروسهم، ومن أجل ذلك تعددت نسخه، واختلفت رواياته، قوة وضعفا، وزيادة ونقصا، عرف منها أكثر من ثلاثين رواية، أشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى فى المغرب.

وكان من أفضل هذه الروايات رواية محمد

ابن الحسن الشيباني فقيه **العراق، وصاحب** الإمام الأعظم أبي حنيفة **النعمان، إذ اجتمع** لها من المزايا ما لم يجتمع **لبقية الروايات**، فهي فوق أنها الرواية الكاملة عن مالك، تمتاز بما عارض به محمد بن الحسن رواية الحجازيين، وما ذكره من الروايات الأخرى مما يخالف رواية العراقيين والحجازيين، بل إنه في كثير من الأحيان يختار لنفسه مذهبا، يذكر دليله بروايته أو رواية غيره، فكان هذا الصنيع مما سوغ لفريق من العلماء أن يسموه موطأ محمد ابن الحسن، كما يقول محقق الكتاب.

وبهذه المزايا مجتمعة عد كتاب الموطأ بهذه الرواية من أوائل الكتب المصنفة في الفقه المقارن بين مدرسة أهل الحجاز ومدرسة أهل الرأي من فقهاء العراق، كما أنه رسم للعلماء طريقة الاجتهاد المستقل، والتوسع في الاستنباط المطلق.

ولعل ما قصد إليه الإمام محمد بن الحسن من هذا النهج، يتفق مع ما روى عن الإمام مالك في هذا الباب من قوله لأبي جعفر المنصور حينما أراد أن يحمل الناس على كتابه: "ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين أن تحمل الناس على قول رجل واحد يخطيء ويصيب، وإنما الحق مع رسول الله - ﷺ - وقد تفرق أصحابه في البلدان، وقلد أهل كل بلد من الأمصار ما صار إليهم، فأقر أهل كل بلد على ما عندهم".

وتقديرا لهذا الكتاب واستروحا إلى منهجه السديد، ورغبة في أن ينتفع به المسلمون في كل مكان، رأت لجنة إحياء التراث الإسلامي أن تقوم بنشره، فعهدت إلى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف أن يقوم بتحقيقه والتعليق عليه، فنهض لذلك بما شاء له علمه بهذا الفن ووفرة محصوله، وطول صحبته لكتب الحديث والرجال.

وطبع الجزء الأول في سنة ١٩٦٢م، ولقي عند العلماء أنسا وقبولا، ونفدت جميع نسخه، ثم رأت اللجنة أن يعاد نشر هذا الجزء مع بقية الكتاب، وأن يقوم الأستاذ عبد الوهاب - أيضا - بإعادة النظر في تحقيقه، فقام بذلك، وأضاف كثيرا من الزيادات، والشرح والتعليق، وقارن بين رواية محمد بن الحسن وبين غيرها من روايات الموطأ الأخرى، وغير ذلك مما تعد به هذه الطبعة خطوة واسعة في سبيل الكمال.

والأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف من صالحي العلماء، ومتقدميهم في علوم الحديث، حفظا ورواية، وتحقيقا وتأليفا وتدريسا، وقد قام بجهود موفقة في ميدانه، قام بتحقيق كتاب "تقريب التهذيب لابن حجر" و "تدريب الراوي للسيوطي" كما ألف كتاب "المختصر في علم رجال الأثر" وكتاب "التكملة في تواريخ العلماء والنقلة" و "مختارات الأحاديث والحكم النبوية" و "المعتصر من مصطلحات أهل الأثر"، وخَرَّج أحاديث كتاب الصواعق المحرقة لابن حجر وكتاب مفتاح الوصول للتلمساني إلى غير ذلك من البحوث والمقالات.

نسأل الله أن يديم النفع بهذا الكتاب المبارك، وأن يهيىء للمسلمين من أمرهم رشدا.

٢- تاريـــخ الخلفـــاء
لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى

تعتبر الخلافة شعيرة من شعائر الإسلام، ومظهرا من مظاهر الأبهة والمهابة فى الدنيا، وكان الخلفاء على أقدار متفاوتة من الذكاء والفطنة والمعرفة بأصول السياسة والحكم.

ويعتبر تاريخهم تاريخ الجهاد والغزو والفتوح، وتاريخ الحضارة فى عهد الازدهار وإبان التدهور والاضمحلال. وكانت مجالسهم – وخاصة فى العصر الأول – حافلة بألوان المناظرات ومختلف النوادر والطرف، وفيها وقف الشعراء، وأنشدوا قصائدهم، وكان بها أكرم المعانى وأعذب الألفاظ. وإلى ساحتهم قصد العلماء والأدباء والفلاسفة من شتى الجهات، وكانت المدينة المنورة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة فى الأندلس، فى عهد الخلافة، أسواقا تموج بالعلماء والشعراء، وتحفل بكل مظهر من مظاهر الفنون والآداب.

وهذا الكتاب الذى ألفَّه الإمام جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء يعد من أنفس الكتب فى هذا الباب، وقد حشد فيه ـ على إيجازه ـ خلاصة أخبارهم، وعنى بذكر مواليدهم ووفياتهم وما تم من الفتوح فى عهدهم، وقصصهم مع العلماء والشعراء ومن عاصرهم من ملوك الفرنجة والروم والفرس، ووشَّاه بكثير من النكت والملح والأفاكيه التى وقعت لهم، وقد استمد مادته من كتب الأدب والتاريخ، قال: "اعتمدت فى الحوادث على تاريخ الذهبى، وانتهى إلى سنة سبعمائة، ثم على تاريخ ابن كثير وانتهى إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ثم على المسالك وذيله إلى سنة ثلاث وسبعين، ثم على أبناء الغمر لابن حجر إلى سنة خمسين وثمانمائة، وأما غير الحوادث فقد طالعت عليه تاريخ بغداد للخطيب عشر مجلدات وتاريخ دمشق لابن عساكر، سبعة وخمسين مجلدا، والأوراق للصولى سبع مجلدات، والطيوريات ثلاث مجلدات، والحلية لأبى نعيم تسع مجلدات، والمجالسة للدينورى، والكامل للمبرد فى مجلدين وأمالى ثعلب مجلد، وغير ذلك. وقد عمل بعض الأقدمين أرجوزة فى أسماء الخلفاء ووفياتهم.. وانتهى فيها إلى أيام المعتمد. وقد عملت قصيدة أحسن منها، ورأيت أن أختم بها هذا الكتاب، وهى هذه "ثم ذكر القصيدة وأولها:

الحـمـد لله حـمـدا لا نفـاد له
إنما الحـمـد حـقـا رأس من شكَرا

٣- غاية المرام فى علم الكلام
لسيف الدين الآمدى

من أشرف العلوم التى عاشت فى كنف الإسلام وترعرعت تحت ظلاله، علم الكلام، وسمى بذلك، باعتبار أن أشهر مسألة وقع فيها الاختلاف هى مسألة الجدل حول كلام الله، أو علم التوحيد باعتبار أن أهم مقاصده هو توحيد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله، ويعرفه ابن خلدون، بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة والمنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

وهذا هو المطلب الأكبر والغاية العظمى من رسالة محمد – ﷺ –.

جاء الرسول – ﷺ – فدعا إلى الله وحده، وأتى

بشريعة سمحة، تسير مع الفطرة السليمة، وتبتعد عن التعقيد، وتحارب الجمود والتقليد، ويتآخى فيها العقل والدين. وجاء معه القرآن الكريم فنهج منهجا لم يكن معروفا من قبل، ولكنه لقى في أول أمره من أهل مكة صداً وإعراضاً، وصادف عنتاً وتكذيباً، فجنح إلى الاستدلال، وحاكمهم إلى الفكر والعقل والنظر، وأخذهم بالمجادلة بالحسنى، ودعاهم إلى الاعتبار بالأمم السابقة، ثم تركهم بعد ذلك أحرارا

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾(١).

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٤).

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾(٥).

وكان المسلمون – والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين ظهرانيهم – فى غير حاجة إلى التعمق فى فهم القرآن، والاجتهاد فيما يعرض لهم من أمور، فيستفتونه فى كل أحوالهم، وما يجد لهم فى حياتهم، وما يدور فى أفكارهم، وما تجيش به عقولهم وحلومهم، فيهديهم إلى سواء السبيل ويقف بهم على الحجة الواضحة والجادة المستقيمة.

ولما لحق – ﷺ – بربه، وقضى الخليفتان من بعده، حدث ما حدث فى عهد عثمان، وانتهى الأمر إلى قتله بغير حق، واهتز منصب الخلافة. ثم كان ما كان فى عهد على بن أبى طالب الخليفة الرابع، وانتهى الأمربقتله أيضا، فاضطرب الحبل، وانقسم الناس، وظهرت فرق الشيعة والخوارج، وكثرت الأحزاب السياسية، وشاعت الفرقة بين المسلمين.

ولكن ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الإسلامية، ولم يحل دون الجهاد والغزو، ولم يمض سوى قرن من الزمان حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، من الفرس والروم والسوريين والمصريين والأفريقيين، وتكوَّن مجتمع إسلامى زاخر بألوان الثقافات، وكلهم يحمل عقيدة التوحيد، ويدين بدين الإسلام، ولكن كان لابد لهذا المجتمع أن يلقى بموروث من الثقافة ورواسب من الديانات الأخرى. ثم كان القرن الثانى فترجمت كتب الأمم السابقة، وفيها كتب الفلسفة والرياضيات، واختلطت بما كان معروفا من الثقافة عند المسلمين، وظهرت موجة من الاضطراب الفكرى والاصطراع بين الآراء والمذاهب.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) سورة آل عمران آية ١٩٠.

(٣) سورة الذاريات آية ٢١.

(٤) سورة الروم آية ٢١.

(٥) سورة فصلت آية ٣٤.

فكان لابد من مواجهة هذه المواريث الفكرية والتيارات المذهبية، والآراء السياسية، ولابد من حماية العقيدة الإسلامية ومحاربة الفرق الضالة والمذاهب الإلحادية، فكان علم الكلام هو صخرة النجاة وسلم السلام والأمان، فاتسع نطاق هذا العلم وتنوعت موضوعاته، وتعددت طرقه ومناهجه على مر الزمان واختلاف الدول. وفى ضوء هذا المذهب شاع الجدل والنقاش، وأُقيمت المناظرات، واشترك فى ذلك العلماء والخلفاء، والخاصة والعامة واختلط العلم بالسياسة، ووقع بين الناس الحق والباطل، وظهرت الفرق الناجية والفرق الضالة المضلة.

وكان يواكب هذه الموجة الفكرية على اختلاف العصور فريق من العلماء، من ذوى البحث والنظر، ومن جهابذة الفكر والعقل، منهم الحسن البصرى، وواصل بن عطاء والنظام والجاحظ، وأتى من بعدهم الباقلانى وأبو الحسن الأشعرى والأسفرايينى والرازى والغزالى وإمام الحرمين وابن تيمية وغيرهم ممن جاء بعدهم... اشتركوا جميعا فى الجدال، ودخلوا حلبة المناظرة، ومنهم من أنشأ المقالات وأثار المسائل، ومنهم من جنح إلى التأليف والتصنيف، وسجلوا آراءهم وآراء معارضيهم، وتكوَّن من هذا وذاك ثروة فكرية عريضة وتراث إسلامى واسع يعتبر من أنفس ما فى التراث العربى وأغلاه.

ولكن هذه الثروة الفكرية أصابها ما أصاب التراث العربى كله من عوادى الزمن واختلاف الأيام، وما بقى منه أصبح موزعا بين الشرق والغرب، ولم ينشر منه إلا القليل.

ومن الكتب النادرة التى سلمت من الضياع كتاب "غاية المرام فى علم الكلام" للمفكر المسلم أبى الحسن على بن أبى على الآمدى، أحد أعيان الأشاعرة، ونَاظورَة العلماء فى عصره، ضمنه شرح العقائد الإسلامية من وجهة أهل السنة والجماعة، كما تعرض لأقوال مخالفيهم، واستطرد إلى ذكر جميع المذاهب الكلامية وآراء وأصحاب الفرق المختلفة. قال فى صدر كتابه: "أودعته أبكار الأفكار، وضمنته غوامض الأسرار، منبها على مواضع زلل المحققين، رافعا الأستار عن عورات المبطلين، كاشفاً الظلمات تهويلات الملحدين.. على وجه لا يخرجه زيادة التطويل إلى الملل، ولا فرط الاختصار إلى النقص والخلل".

والنسخة التى عثر عليها الأستاذ حسن محمود عبد اللطيف من هذا الكتاب هى نسخة وحيدة لم يعثر على سواها، على كثرة ما بحث ونقب، وهذه النسخة من نفائس المخطوطات بمكتبة شهيد على باستنبول، مما صوره معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

وقد بذل الأستاذ المحقق جهده فى ضبط النص وتحريره وشرح مصطلحاته، وعلق عليه بحواش، قارن فيها بين أفكار المؤلف وأفكار غيره من مفكرى الإسلام على اختلاف مذاهبهم وتنوع طرائقهم.

هذا بجانب ما التزم به من اتباع النهج العلمى الأصيل فى التحقيق والتعليق.

وقد وافقت لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية على نشره، لتسد به ناحية هامة فيما تنشره من كتب التراث الإسلامى فى مختلف فروعه، وحرصا منها على أن يأخذ هذا الكتاب الناجح مكانه الصحيح فى المكتبه العربية، وبالله التوفيق.

الحوارات الأدبية

نوعياتها ... دلالاتها

الحلقة الأولى

للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

الحوارات الأدبية قديمة قدم سقراط الفيلسوف اليونانى الكبير الذى بنى فلسفته على أساس جدلى، ربما ليختبر ماعنده وماعند الآخرين من خلفية معرفية، وربما ليرسى فهما صوابيا لماهية الحق والخير والعدل والجمال من حيث هى وجودات قيمة مطلقة يعاينها الفكر وتتشوف إلى حلولها علاقات الحياة.. وربما كان هذا الفعل الفلسفى نتيجة قناعة ذاتية لدى سقراط ترى أن الحوار أعمق فى الاقناع والتوصيل من مجرد الخطاب التجريدى أو الخطاب السردى، وربما كان دافعه إلى هذا الفعل الفلسفى ماأثاره فى الواقع اليونانى أولئك السفسطائيون من غبار بيانى حول حقائق الحق والعدل، وماحرصوا على تعليمه للشباب من حرفيات خطابية تستهدف مجرد الاستيلاء على الآخر وليس تثبيت حقيقة معينة.. وربما كان ميلا إلى استيلاد نوع أدبى يتسم بالحيوية والتلقائية والكثافة، ويقبل مبدأ التعديل والتحوير عبر جدل المناقشات، ويمتد بتأثيره إلى قاعدة جماهيرية أعرض وإن تكن آنية، ويمتلك معجمه اللغوى المأنوس والواضح والقادر فى نفس اللحظة على المناورة وإثراء مقولاته بمقولة الآخر.

ويأتى أفلاطون بعد أستاذه سقراط، فيؤصل لهذا الفن الإبداعى تأصيلا إجرائيا مثيرا، وتوشك مؤلفاته أن تكون تطبيقاً عملياً ينوع على أساس الحوار: فالجمهورية، ومحاورات أو طيفرون، والدفاع، وأقريطون، وفيدون، وفيدروس، وجورجياس، والسفسطائى، وغيرها... يمكن أن تكون أبلغ دلالة تاريخية على تجذر هذا المنهج الحوارى فى تأليف أفلاطون، ومن ثم فى تآليف معاصريه وتلاميذه من بعده، وهو حوار فلسفى مجرد يفترض قضايا شخوصا ومسرحا للفعل حتى يؤكد وهم الاعتقاد بأن مثل هذه الحوارات كانت واقعا تاريخيا حقيقيا، مع التسليم الأكيد

بأن جانبا هائلا منها كان بالفعل واقعا تاريخيا حقيقيا.. كل ماهناك أن عبقرية الإبداع الأفلاطونية مزجت الواقع بالمتخيل، والحقيقى بالمتوهم، والتاريخى بالخرافى، ومن ثم أرضت سليقة الخلق عند أفلاطون، وأبقت على شعلة الإبداع فى حالة حضور فنى دائم، ولم يطفئها ثلج المحدد فبقيت على حالها من التوهج والحضور..

وفى الفكر التراثى العربى تخلقت هذه الظاهرة تخلقا نابعاً من حاجة هذا الفكر الشفوى إلى تلبياتها لنداءات الإبداع المتكررة، فكان – مثلا – أول كتاب نقدى عربى، وهو (فحولة الشعراء) للأصمعى حوارا بين الأصمعى الأستاذ وأبى حاتم السجستانى التلميذ، يسأل أبوحاتم ويجيب الأصمعى، حتى تكونت من خلال هذه الحوارات أول قاعدة نقدية مدونة فى التراث العربى، والغريب أن الحوارات فى هذا الكتاب لم تكن تطّرد على نسق تسليمىّ كشأنها فى مجمل التراث القديم، ولكنها كانت تحتدم أحيانا، فيستدرك التلميذ، ويصوّب الأستاذ، ويقتنع الحوار مرة، ويجادل عن قناعاته الخاصة مرات، حتى أمكن فى النهاية تحديد المصطلح، وهو أول خطوات تأسيس المنهج، كما أمكن تحديد الوقائع الدالة والأسماء المرشحة فى تطبيقات مدعومة بالشواهد وموثقة بالبراهين... ومن ثم أمكن تصنيف (فحولة الشعراء) بثقة هائلة ضمن الإبداعات التى اعتمدت مبدأ الحوار الأدبى أساسا لحركتها.. وتواتر مدّ هذه الظاهرة فى الفكر التراثى العربى، على تباين نوعياتها ومستوياتها، ففى مجالس الخلفاء تثور حوارات من أنواع معينة، تَوَفَّرَ بعضُها على إبراز مفاهيم علمية وأدبية، وتوفر الآخر على جداليات لغوية أو عقدية تتسم بالوهلية والحضور الفكرى، وتوفر جانب منها لتأثيل تيار أو اتجاه أو مدرسة ونفى مايعارضها.. على أن هذا الاحتدام الجدالى فى مجالس الخلفاء والأمراء والعلماء لم يكن كل شىء فى التراث العربى، فقد أخذت الحوارات الأدبية طوابع إبداعية أخرى محققة أو متخيلة، ففى (رسالة الغفران) يدير أبوالعلاء المعرى حوارات ممتعة مع أبعاض من العلماء والشعراء لتجلية حقيقة علمية، أو تصحيح خطأ تاريخى، أو تعديل توجه فنى، أو إبراز جدارة ذاتية، أو إمعان فى التخييل إرضاء لحاسة الخلق والإبداع وتجسيد الاقتدار اللغوى والفنى والفكرى على السواء... وفى (الصاهل والشاحج) تتراءى عبقرية القص والتجسيد عند أبى العلاء، وموظفة توظيفاً فنياً هادفاً.. فليست مجموعة من حكايات شتى، بل قصة واحدة مترابطة الفصول والمشاهد، وهى لاتؤدى بطريق الحكاية والسمر لسوق العبرة ومضرب المثل، بل صيغ الحوار فيها على طريق التشخيص والإخراج التمثيلى الزاخر بالحركة والحيوية، وكأننا نشهد تمثيلية يؤديها شخوص من البهائم مكانها حيث يقف الشاحج معصوب العينين فى موضعه بمعرة النعمان، وموضوعها الرئيسى تصوير لما كان من جفلة الناس لما يتوقعون من خروج باسيل ملك الروم لغزو حلب رغم ظاهر القطيعة بينه وبين عزيز الدولة، كما تقول الدكتورة بنت الشاطىء فى تقديمها لتحقيق رسالة الصاهل والشاحج.

ومن قبل أبى علاء كان ابن المقفع قد ترجم

كتابه المثير (كليلة ودمنة) فوطد به دعائم نوعية رائعة من الحوار الإبداعى منذ أواخر العصر الأموى الذى انتهى بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ وهو حوار يدور أساساً بين دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف، ليضىء العلاقة بين كل حاكم وكل حكيم فى كل عصر ومصر... وهنا لابد من الإشارة إلى أن السياق السردى فى كليلة ودمنة يسيطر على ماعداه، بينما يلوح السياق الحوارى والتجسيدى فى الصاهل والشاحج مسيطراعلى ماعداه... أى أن أبا العلاء لم يجتهد فى احتذاء ابن المقفع من جهة، ولم يهدر إنجاز ابن المقفع إهداراً كاملا من جهة أخرى، فنحن نعرف أن السياق الحوارى يتسم فى مجمله بالحس السردى وكذلك يتسم السياق السردى فى مجمله بالحس الحوارى.. ومهما يكن من شىء فإن المنهج الحوارى يتأكد فى كليلة ودمنة ليس فقط فى تداول الفكر بين دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف، وإنما فى جدل العلائق بين الحمامة المطوقة والصياد، وبين البوم والغربان، وبين القرد والغيلم، وبين الناسك وابن عرس، وبين الجرذ والسنور، وبين ابن الملك والطائر فترة، وبين الأسد وابن آوى، وبين الحمامة والثعلب ومالك الحزين، وبين الناسك والضيف، وبين السائح والصائغ.... إلى آخر شخوص ابن المقفع فى كتابه المدوى كليلة ودمنة..... وإذا كان جهد ابن المقفع فى هذا الكتاب إنما هو أساسا جهد المترجم لا المؤلف، فإن ذكاء الاختيار، وروعة الترجمة وتوجيه السياقات كان كله من عمل ابن المقفع، بحيث أحله كل أولئك مرتبة الزعامة فى الإبداع النثرى فى الأدب العربى، وظل على هذه الزعامة لاتزحزحه جهود سابقة عليه، ولامعاصرة له، ولاتالية لعصره.

وأما أبوحيان التوحيدى فيقف كتابه: (الإمتاع والمؤانسة) فى كثير من لياليه الأربعين، على خط الحوارات الفكرية والأدبية والفلسفية، (فكان يدون فى كل ليلة مادار فيها بينه وبين الوزير على طريقة: قال لى، وسألنى وقلت له، وأجبته، وكان الذى يقترح الموضوع دائما هو الوزير، وأبوحيان يجيب عما اقترح، وكان الوزير يقترح أولاً موضوعا حسبما اتفق وينتظر الإجابة، فإذا أجاب أبوحيان أثارت إجاباته أفكاراً أو مسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها، فقد يسأله سؤالا يأتى فى أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبى سليمان المنطقى، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم، وهكذا يستطرد من باب لباب، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالبا أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالبا « ملحة الوداع »... كما يقول أحمد أمين فى المقدمة.

وإذا كان موضوع المناظرة بين (الشعر والنثر) أقرب إلى موضوعنا هنا، فإن إضاءة الحوار حولهما فى الليلة الخامسة والعشرين يبدو مهما، فبعد مقدمة يتشوف فيها الوزير إلى التعرف على مراتب النظم والنثر، وإلى أى حد ينتهيان، وعلى أى شكل يتفقان، وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع للعائدة، وأدخل فى الصناعة، وأولى بالبراعة... يتولى أبوحيان الإفاضة فيما سماه بالكلام على الكلام، وهو صعب، لأنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضه ببعضه ثم يروى ماقيل فى تفضيل النثر على الشعر، لأن النثر أصل والنظم فرعة،

والكتب السماوية منثورة لامنظومة، والوحدة فى المنثور أظهر منها فى المنظوم، والنثر طبيعى والشعر صناعى، وترتيب الكلام فى النثر لايحتاج إلى تكلف بينما يحتاج الشعر إلى ذلك، والنثر يتدفق من قبل العقل بينما يتدفق الشعر من قبل الحس، على أن نجوم السماء منثورة لامنظومة، وحديث النبى - ﷺ - منثور كذلك.. فأما ما يفضل به الشعر على النثر، فقد استقصى أبوحيان فى ذلك أقوالا كثيرة: فله صناعة تقتصر على القلة، وهو صالح للغناء دون النثر، وشواهد النحو واللغة تأتى من الشعر لا من النثر، وجوائز التفوق والبروز فى مجالس الخلفاء والأمراء تناط بالتفوق فى إبداع الشعر... ولكن أبا حيان لايترك المناظرة هكذا حدية الحكم بين الإبداعين: الشعر والنثر، وانما يقضى بموقف وسطى يؤكد أن لكل من الشعر والنثر بلاغته الخاصة (فللنثر فضيلته التى لاتنكر، وللنظم شرفه الذى لايجحد ولايستر، لأن مناقب النثر فى مقابلة مناقب النظم، ومثالب النظم فى مقابلة مثالب النثر، والذى لابد منه فيهما السلامة والدقة وتجنب العويص ومايحتاج إلى التأويل والتخليص.

وقد نتطوح فنعد كتب الأمالى أعمالا تنهض على منهج الحوارات الأدبية، بدءاً من مجالس ثعلب، ومرورا بأمالى اليزيدى، وأمالى القالى، وأمالى الشريف المرتضى، وانتهاء إلى أمالى ابن الشجرى.. فكلها تعج بالحوارات بين الشيخ وتلاميذه، تماما كما عجت المجالس بالحوارات بين الشيوخ والشيوخ، فإذا خلا بعضها من الحوار ومحضته الظروف لمجرد الإملاء والنسخ، فإن معظمها يحرص على إشعال الحوار استقصاء للمعلومة، أو اختبارا للمقولة، أو إثباتا لوجهة نظر خاصة... ومن ثم فإننا نستطيع تصنيف مثل هذه التآليف ببساطة شديدة ضمن كتب المحاورات الأدبية، على أنها نوع من هذه الحوارات وليست كل الحوارات بالطبع، وقد قلنا ان هناك نوعيات ودلالات فى كتب الحوارات الأدبية، وسنرى مثلا أن كتاب (المواقف والمخاطبات) للنِّفَّرى يشكل نوعا له خصوصيته البارزة من أنواع هذه الحوارات التى يمكن أن تختلط فيها الفلسفة بالأدب، والرمز بالحقيقة، والصوفية بالفكر، والنثر بالشعر أو فلنقل بقصيدة النثر، والتعبير عن الهم الذاتى بالتعبير عن الهم الجمعى.. وعلى امتداد ثمانية وسبعين موقفا، وسبع وخمسين مخاطبة، يتوارى صوت النفرى فى صوت الذات الإلهية رغبة ورهبة، ولكن السياق يتضمن هذا الصوت الآخر المتوارى... حتى حين يخيم الصمت على النفرى يلوح هذا الصمت أبلغ من الكلام، لأنه يفجر تساؤلات وعلامات استفهام، ويترك فى كل عبارة تبدأ بقوله: (وقال لى) تأكيداً لعبارة لم تُقل إلا ضمنا وهى: (وقلت)، كما يترك فى كل: (ياعبد) ضراعته النداهة: (يارب)...ولكن النفرى يغامر أحيانا (بقلت) إزاء (وقال لى)، ومن ثم يسفر الحوار عن وجهه كحقيقة أسلوبية بارزة فى السياق.. ويلاحظ أن المقول بعد: (وقال لى) يتغير من لحظة إلى أخرى، وهذا يعنى أن سؤالاً أو أسئلة مضمرة طرحت إن لم يكن بالفعل من خلال السياق فبالقوة من خلال حضور الغياب إذا جاز أن يقال، أى أن الأجوبة الحاضرة ترشح لنص الأسئلة الغائبة، مما يفرض حلول الجدل فى كل مساحة القول.

القصيدة العربية بعد البارودى بين الشكل والمضمون

للأستاذ الدكتور/ محمود جمعة أمين(*)

شهد الأدب تطورا واسعا فى مضامينه وأشكاله منذ مطلع القرن العشرين فى أعقاب النهضة الحديثة التى بدأت مع إطلالة القرن التاسع عشر إثر اتصال الآداب العربية بالآداب الأجنبية عن طريق المبعوثين العرب الذين استفادوا وأفادوا من أمثال العالم الأزهرى الشيخ «رفاعة الطهطاوى» وغيره من علماء الأزهر الشريف الذين استطاعوا أن يجيدوا اللغات الأوروبية إلى جانب إتقانهم - بالطبع - اللغة العربية وآدابها.

ثم كانت حركة البعث والإحياء التى رادها الشاعر الفذ «محمود سامى البارودى» فكانت مظهرا من مظاهر التطور الذى حدث للأدب العربي، ثم ظهور المدارس الشعرية المختلفة التى أخذت تؤدى دورها وفق مفهوم أصحابها للشعر ورسالته:

١ - **فمن محافظين** اتخذوا النمط العربى المشرق مثلا أعلى فى الأسلوب الشعرى، هذا النمط الذى تمثله النماذج الرائعة من الشعر والتى ورثناها من أعلام الشعراء وفحولتهم فى المشرق والأندلس من أمثال: أبى تمام والبحترى والصنوبرى وغيرهم من المشارقة، وابن زيدون وابن خفاجة وابن هانىء وأمثالهم من شعراء الأندلس، مع إبراز الجانب البيانى فى الشعر بشكل واضح والاعتماد عليه كعنصرٍ من عناصر الجمال فيه.

ولهذا فهم يعرضون فى القصيدة الواحدة أغراضا شتى مع تمهيد للانتقال من غرض إلى غرض وتهيئة له، ملتزمين بوحدة الوزن والقافية

(*) أستاذ الأداب والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بسوهاج - جامعة الأزهر.

إلى جانب تناولهم الصور الحيّة التى تتراءى فيها الحياة السياسية والاجتماعية وتنعكس عليها مشاهدهم النفسية.

وقد سار فى هذا الاتجاه - بعد البارودى - كثير من الشعراء فى سائر أنحاء الوطن العربى، ففى مصر: إسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم ومحمد عبدالمطلب وأحمد محرم وأحمد الكاشف وعلى الغاياتى.

وفى العراق: معروف الرصافى وجميل صدقى الزهاوى.

وفى الشام: إبراهيم اليازجى وشفيق جبرى وغير هؤلاء وأولئك ممن تأثروا بحركة البعث الشعرى المعاصر وآثروا النظام التقليدى فى قصائدهم فاتخذوه وسيلة تعبير عن حياتهم الخاصة، وأحاسيسهم الذاتية، ثم عن قضايا بيئاتهم ومشكلات أوطانهم القومية.

٢- ومن إبداعيين فى الشكل والمضمون:

فمن حيث المضمون نظروا إلى الطبيعة على أنها كائن حيّ، وأن على الشاعر أن ينفذ إلى جوهر الحقائق لا إلى ظواهرها، إذ أن خلف ظواهر العالم المحيط بنا حقائق روحية غير مرئية، وإذا كنّا لا نستطيع أن ندرك هذه الحقائق إدراكا حسّيا فإن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يكشف عن هذه الحقائق الروحية معتمدا على خياله. ومن هنا فقد أولوا الخيال عناية كبرى، وهم كذلك يرون أنه يجب أن يفهم الشعر على أساس أنه تعبير عن العالم الداخلى للشعور.

ومن ثم فإنه يكون تعبيرا عن رؤيته وشعوره وإحساساته الداخلية ووجدانياته المتدفقة ولمّا كانت الطبيعة تمثل الوفاء فى صدور الناس، كما أنها تمثل الحب متى غاض الحب فى قلوبهم، كما أنها كذلك تمثل الشفاء للروح والجسد متى تكالبت الأدواء والأرزاء وأطبقت الهموم على الكائن البشرى، فإنه يتعين على الإنسان - والشاعر بصفة خاصة - أن يلجأ إلى الطبيعة يفزع إليها يلقى نفسه عليها بكل ما فيها من انعكاسات وانفعالات، حتى لتغدو - الطبيعة - مصورة للنفس الإنسانية، فيناجيها وتناجيه، يبثها آلامه، ويشكو إليها همومه وأحزانه، فتشاطره الهموم والأحزان، وتشاركه الأفراح والأتراح متقلبة معه فى انفعالاته الوجدانية، وفى حالاته النفسية، فينعكس على مرآتها صورا لما فى نفسه من خواطر، وما يجيش فى صدره من آمال وآلام.

وبقدر عمق استيعاب الشاعر للطبيعة، وإبرازه لها، وعرضه لأحاسيسه ومشاعره نحوها بقدر ما تعلو منزلته ويكون لشعره قيمة.

أما من حيث الشكل فقد رأوا أن القصيدة ينبغى أن تؤخذ فى جملتها من حيث التركيب الكلى لا من حيث هى مجموع الأبيات يستهوى بعضها القارىء فيتعلق به ويطرح سائرها.

فالقصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا يكمل فيها تصوير خاطر، أو خواطر متجانسة كما تكمل الصورة بأجزائها، واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحيّ يقوم كل بيت منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغنى غيره فى موضعه إلا كما تغنى

الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة(١).

فليس بلازم – عندهم – أن تسير القصيدة على النمط التقليدى من حيث رعاية الوزن والقافية إذا كان ذلك يعوق القصيد عن أداء رسالته، وإنما فى إمكان الشاعر أن يخرج عن هذا القيد بأن يقسم القصيدة إلى مقاطع كل مقطع يمثل وحدة غنائية معنوية تحل محل وحدة البيت مع التزام الوزن فى كل مقطع، حيث اعتبروا الشاعرية هى الأصل ولها أن تستعين بالأوزان والقوافى لتكون لها تلك النبرات الموسيقية التى تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام.

وكان أصحاب هذا الاتجاه ممن تعمقوا فى دراسة الآداب والثقافة الأوروبية، وتغلغلت فى مسارب نفوسهم النزعة الرومانسية من أمثال: عبدالرحمن شكرى، وعبدالقادر المازنى، وعباس العقاد، وشكيب أرسلان، وبشارة الخورى، وخليل مردم، الذين رأوا الاتجاه المحافظ اتجاها تقليديا اتباعيا لا ينهض برسالة الشعر من حيث إنه يقوم على أساس من القوالب والتراكيب التى هى من فعل الذهن البحت التى تصاغ فيها خلجات النفس والوجدان فتخرج خافتة النبرات باهتة الألوان(٢).

وإحقاقا للحق وإنصافا للأدب ومن غير تعصب نقرر أن من أبرز شعراء هذا الاتجاه «خليل مطران» شاعر القطرين – مصر والشام – الذى عاصر جيل المحافظين، فحلق بشعره فى سماء التقليد، كما حلق به فى سماء التجديد، وبذا يُعَدّ من الرواد الأوائل الذين وضعوا أصول التجديد فى الشعر وقواعده الفنية، والدليل على ذلك دعوته إلى وحدة الموضوع فى القصيدة وإلى الوحدة العضوية فيها، تلك الوحدة التى تكفل لها أن تبنى بناء مترابطا بحيث يؤدى البيت فيها وظيفته بتلاؤمه مع ما جاوره فيكتمل جمالها الفنى بانسجام أبياتها وتناسق معانيها وتوافقها، وذلك حين كتب عن خطوط هذا الاتجاه الشعرى الجديد سنة ١٩٠٠ فى المجلة المصرية لافتا الأنظار الى الأخذ به فيقول: «إن خطة العرب فى الشعر لا يجب حتما أن تكون خطتنا، بل لهم عصرهم ولنا عصرنا، ولهم أدبهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا أدبنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا، ولهذا وجب أن يكون شعرنا مماثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم، وإن كان مفرغا فى قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية»(٣).

ثم أذاع ديوانه سنة ١٩٠٨م مصدرا بمقدمة تمثل الخطوط العريضة لهذا الاتجاه ومحتويا على كثير من النماذج التى تعد تطبيقا ناجحا له فيقول فى مقدمة هذا الديوان: «هذا شعر ليس ناظمه بعبده. ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح، لا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكره جاره، وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع

(١) انظر الديوان فى الأدب والنقد ص١٣٠ عباس العقاد بالاشتراك مع إبراهيم المازنى الطبعة الثالثة دار الشعب سنة ١٩٧٢م.

(٢) انظر خليل مطران فى «شعراء معاصرون» ص١٩٧ جـ٢ طبع دار المعارف سنة ١٩٨٤م تقديم أحمد إبراهيم الهوارى.

(٣) المجلة المصرية سنة ١٩٠٠ العدد ٨٥.

المقطع، وخالف الختام. ولكنه ينظر إلى جمال البيت ذاته وفى موضوعه، وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وترتيبها، وفى تناسق معانيها ومواقفها مع ندور التصور وغرابة الموضوع، ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعر الحر، وتحرير دقة الوصف واستيفائه على قدر»[٤].

فهو يرى أن قوالب العرب فى نظم الشعر ومذاهبهم فى صوغ الكلام أساس اتباعى تقوم عليه لغة الضاد، وأن المذهب الجديد ليس عليه أن يخرج عن هذه الأصول وإن كانت له الحرية من جهة المعانى وتوجيه الأغراض إلى السبيل الذى يشاء غير مقيد بشيء إلا أن تكون هذه المعانى والأغراض مستنزلة من روح العصر الذى يعيش الناطقون بالعربية فيه اليوم. ذلك ليكون هذا الشعر عصريا من حيث تنعكس من صفحته ظلال روح العصر.

وقد اقتضى ذلك أن تجيء القصيدة مسلسلة الأفكار مرتبة المعانى فلا تسبق الكبرى الصغرى، وإنما الأفكار بمثابة النتائج المترتبة على المقدمات فى تسلسل ودقة وإحكام.

وفى استطاعتنا أن ندرك هذا واضحا فى قصيدته «المساء» على سبيل المثال، والتى يقول فيها:

عبث طوافى فى البلاد وعلة
فى علة منفاى لاستشفائى
متفرد بصبابتى متفرد
بكآبتى متفرد بعنائى
شاك إلى البحر اضطراب خواطرى
فيجيبنى برياحة الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لى
قلبا كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهى
ويفتها كالسقم فى أعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق
كمدا كصدرى ساعة الإمساء [٥]

حيث جاءت بناءً واحدا متماسك الأجزاء بجانب وحدة الموضوع وتسلسل الأفكار ويطول بنا الكلام لو أننا استطردنا فى إيراد النماذج الدالة على ما ذهبنا إليه ولكننا سنكتفى بما ذكرنا.

وقد سار على هذا النهج جماعة «أبوللو» بعد انفراط عقد جماعة الديوان: شكرى، والمازنى، والعقاد، من حيث أنهم جعلوا الطبيعة مصدر إلهامهم ومن حيث دعوتهم إلى الوحدة الموضوعية العضوية فى القصيدة وأن القصيدة كالجسم إذا بتر منه عضو كان الجسم مبتورا، ومن حيث التعبير الصادق عن روح العصر الذى يعيشه الشاعر إذ الشعر فى أوجز تعريف له «التعبير الجميل عن الشعور الصادق» والشاعر فى أوجز تعريف له أيضا «هو الإنسان المتميز بالعاطفة والنظرة إلى الحياة القادرة على الصياغة الجميلة فى إعرابه عن العواطف والنظرات».

وهكذا رأينا القصيدة العربية بعد البارودى قد تطورت فى الشكل والمضمون بما يتفق وروح العصر.

---

(٤) مقدمة ديوان الخليل، دار مارون عبود، بيروت سنة ١٩٧٥م.

(٥) ديوان الخليل جـ١ ص ١٨.

لمحة من الاتجاه الإسلامى في شعر إبراهيم عيسى

للأستاذ / أحمد مصطفى حافظ

إذا البلبل الصدّاح أكمل شدوه فما تطلب الدنيا.. وقد نفد العمر؟

وقد رحل هذا الشاعر الكبير فى صمت، فى أوائل شهر رمضان الماضى، وكما يموت الناس، مات.. وخلّف لنا اللوعة والأسى، نحن أعضاء ندوة شعراء العروبة، التى كان يرأسها، طيلة العشر سنوات الأخيرة.. وقد حاولت أن أكفكف دمعى، والحزن الذى يعتصرنى، لصياغة بعض العبَرات، فى وداعه، شعرا، ووجدتنى أهتف من أعماقى:

أحقا صار (إبراهيم) ذكرى
وأن القبر صار له.. مقرا؟
وملء السمع، كان وملء قلب
وفى أحضانه كم ضمّ صدرا
أحقا، صار موعدنا: نحيبا
بندوتنا، فما نطيع صبرا
فرائده(١) توارت فى سكون
ويُتْم اليُتْم فى الأصحاب طرًّا

وعند البيت الأخير، غلبنى الوجد الشديد على أمرى، ولم أستطع المضى فى صياغة أبيات الرثاء، وآثرت أن أتحدث قليلا، نثرا، عن الشاعر الإسلامى الكبير إبراهيم عيسى، الذى كان يحمل والده على كتفيه، أثناء الطواف بالكعبة المشرفة، وهما يؤديان معاً فريضة الحج، منذ أعوام مضت..

***

(١) جمع فريدة: «وقد ألقيت هذه الدراسة فى حفل تأبين الشاعر الراحل إبراهيم عيسى».

ولا شك أن نزعة شاعرنا الصوفية؛ واستيعابه وتدبره، لروعة وإعجاز آيات الذكر الحكيم، هما مما ساعده على التحليق فى آفاق الشفافية، التى تتيح لشاعريته أن تفيض فيضا ذاتيا حارا متدفقا، كتلك التى نلمسها فى قصيدته التى تحمل عنوان: «فى الطريق إليه»[2]، أى إلى صاحب الروضة الشريفة - ﷺ - بعد أن أنْهَى مناسك الحج، وطاف مع الحجيج طواف الوداع، واستقل راحلته إلى المدينة المنورة .. ويستهل القصيدة، بقوله:

أى خير عَمَّ لما ضم قلبى (عرفه)
وأَفَضْنا، وشربْنا النورَ فى (مزدلفه)
وتلقَّى كل قلب، بيمين، صُحُفَه

***

واحتوتْنا، كاحتواء العين للنور (منى)
وأنا فى ظلها رُوحٌ .. تَغَنَّى للسَّنا
وإذا ناديتُ صَحبِى، قلتُ حُبًّا: يا أنا

ثم يُسدل الستار، ستار الختام، لهذه القصيدة، بتضمين بديع مُوفَّق، للنشيد اليثربى الخالد- الذى استقبل به المصطفى - ﷺ - بقوله:

واحْتشَدْنَا .. أنا والأشواقُ فى حُبٍ مُشاعِ
فإذا عَصَفَ الوجْدُ، ولم يُسْعفْ شِراعىَ:
طلع البدر علينا من ثَنِيَّات الوداع

ورونق الشعر وطلاوته، فى هذه الأبيات، وراء الأوزان والنغمات، إنه مناجاة صادقة، كالأمواج المنسابة فى ريث، التى تأخذ طريقها إلى نفس المتذوِّق، فى صدق وعمق، لأنها صدرت من عُمق أعماق الشاعر، فى حالة ولحظة نادرتين، قلما تتاح لشاعر.. وقبل أن ننتقل من هذه القصيدة، أحب أن أُنَبِّه إلى تناسق الإيقاع الصوتى، الذى جاء فى البيت الأول، بين الكلمات: (عَمَّ- لَمَّا - ضَمَّ)، مما جعل الأداء الفنى فيها مصحوبا بموسيقية عالية، مما جعلنى أتمنى -فيما بينى وبين نفسى- لو أن الشيخ الفيومى قد تَغَنَّى بها، بذات الروعة التى غَنَّى بها القصيدة المشهورة: (يحنُّ إلى أرض الحجاز فؤادى).

***

ويغرينا شعره الدينى، إلى قطف المزيد منه، لأنه يُظْهر لنا، بجلاء ووضوح، مدى تأثُّر الشاعر بالثقافة الإسلاميَة الخالصة، واقتباسه من بعض الألفاظ القرآنية بعفوية أملتها الدفقة الشعورية لديه، بعد أن وجد (موضوعه) واحتشد له، واستكمل أدواته فى عمل شعرى كبير، أسْماه: (رباعيات الحب)- واستهله بقوله فى قصيدة (الشاعر والزمان)[3].

هناك لدى جنة عاليه
وحول عيون بها جاريه
وعند نمارق مصفوفة
وطير بآفاقها شاديه
وتحت ظلال، تهادت جلالا
ومالت دلالا .. إلى ناحيه
.. تزاحم ركْبُ الملائك نورا
وأزْلِفت الفرحة الراضيه

(2) أنظر عدد مجلة الشعر الصادر فى يوليو سنة ١٩٧٧.

(3) مجلة الشعر عدد يوليو سنة ١٩٧٨.

لمــــاذا كـــل هـــــذا، يـــا تُــــرى؟

لماذا عمَّتْ الفرحة الوجود بأسره، حتى جعلت الشاعر يسترسل فى وصفه، قائلا:

وطافت دفــوف، ودقَّتْ كــفــوف
ورَنَّتْ هَتُــوف.. وفــاض الصــفــاء
بُعْــــرس وراءَ الغـــيــــوب، يغنى
وينســـاب فى قطرات الضـــيـــاء
رَعـــتْـــه الألوهة، فـــانْداح نورا
كـوجـه الضـحى، شـامخ الكبـرياء
وحــتى النجـوم، تلاقت، وصــارت
عـقـودا عـقـودا.. بِجـيـد السـمـاء

ولا يلبث الشاعر، أن يجيبنا عن تساؤلات (الأرض)، وتساؤلاتنا نحن - أيضا - بقوله فى تلك الأبيات، التى تمتزج فيها النزعة الفنية، بالنزعة الدينية:

وتلْتــفـتُ الأرض نحــو الســمـــاء
وتســأل: مــاذا بهـا من بشــائرْ؟
لمن ضـجَّـة العـرس فـوق النجـوم
لمن فى الســمـــاء تدق المزاهر؟
فـــغــرَّدَ صـــوتُ الخلود، ونادَى:
حنـانك، واسْتَـلهـــمِـي كلَّ طائر
وبُشــراك يا أرض.. إن الســمـــاءَ
تزف الغناء.. لميــلاد.. شــاعــرْ!

***

إلا أن هذا الشاعر المُحلِّق، الذى يبشرنا بميلاده، والذى توقَّعْنا أن يبقى منسابا مع الأنغام، فى منابع الإلهام، بأحلامه الوردية، وعرائس مروجه.. لا يلبث أن يستيقظ، ويوقظنا معه، على حقيقة مُرَّة، تتمثل فى صراعه مع الزمن، وذلك من خلال تجربة طريفة، عند تعيينه مديرا للتخطيط، فى إحدى الشركات، باعتباره من أحد الحاصلين على (بكالوريوس التجارة)، وأوْفدتْه الشركة فى دورة تدريبية. للتعمق فى دراسة علم (الجبر)، والتبحُّر فيه.. فيقول:

على كِـبَـرٍ عَلَّمُــونِىَ جـبــرا
وخطوا المقـــادير سطرا فــسطر
و(سين) و(صـاد).. وأُمْسى عليـهـا
تُبـــيِّت بين الجـــوانح شـــرا
تُشـتِّـتُنى فى (مـقـام) و(بسط)
فلم تُبْقِ نثـرا، ولم تُبق شــعــرا
وقـلبى طيـــر يكاد يطيـــر
فـيـجـذبه (الجـبـر) للأرض جَبْـرا!

إلا أن الله - سبحانه وتعالى - تَفضَّل على الشاعر، برضائه - عز وجل، حينما ارْتَضَى لسفينة حياته أن ترسو على بر الأمان، بوضعه فى المكان المناسب، كمدير عام لإدارة التفرغ بوزارة الثقافة، وتعيينه عضوا بلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإضافة إلى عضويته بلجنة النصوص فى الإذاعة، ورياسته لندوة شعراء العروبة الشهرية.

***

وصفوة القول، ما قيل قديما، من أن أشعر الناس، من أنت فى شعره.. وشاعر فى وزْن ومقدرة إبراهيم عيسى - رحمه الله - تجعلنا نشعر أن قلائده، كانت، وستظل، أشبه بالأغنيات التى تحمل بها النفوس الشاعرة، فى

لحظات التجلّى، وسَبَحات الإلهام.. فعلى قيثارة إبراهيم عيسى، كانت تعزف أناملُ الجمال، والجدَّة، والطرافة، والابتكار.. وكأنى به، حين كان يهم بإبداع قصيدة جديدة، بأدائه الفنى المتفرِّد، كان يحمل بين يديْه: نَوْلا سحريا، يحرِّكه ذات اليمين، وذات اليسار، لينسج بخيوطه الحريرية الأثيرية، أرَقَّ المطارف، المزركشة بالنقوش العبقرية الباهرة الصُّنع، التى تمثل للعين: أرْوع آيات الجمال والجلال، التى تُمْهرها بالسيرورة والخلود.

***

وأحسب أن مثل شعر إبراهيم عيسى، مما يحسم النزاع الذى احتدم، أخيرا، بين أنصار القديم والجديد، وما أُطلق عليه مسمى: الشعر التقليدى، والشعر الحر.. حينما جمع إبراهيم بين الحُسنيين، واتبع طريقة مُثْلى، فلم تَتَحلَّل قلائده من الأوزان، وأفاد -فى الوقت نفسه- من كل ما ظَفَر به الشعر العربى المعاصر، من تجديد مدرستى: (الديوان) و(أبولُّو) على الترتيب.. فى تنويع القافية، والنسج على منوال الموشحات الأندلسية، وابتكار الصور و استخدامها ببراعة، للتعبير عن نفثاته.. كما برىء شعره من الخَطَابيّة والمباشرة، وانطلق من عُمق روح، الشاعر وَحْده، فلم يقلِّد إلا: الجدول فى خريره وانسيابه، والبلبل فى تغريده وانتشائه، وشجرة الورد فى نفحها وعبيرها..

***

ومهما يكن من أمر، فإن إبراهيم عيسى، فى دواوينه الثلاثة التى أصدرها(٤)، يمتاز بالصور الجميلة، المكَثّفَة لمشاعره وأحاسيسه، بعد أن خلص من تأثير (على محمود طه)، أستاذ المرحلة المبكرة من حياته، فى الوثبة الأولى، لينفذ إلى إبداعِ عَالَمه الخاص به.

وقد جاءت دواوينه دقيقة الجرم، إلى حدٍّ ما.. ولكنها مثقلة ومُفْعمة بالمعانى المركَّزَه.. ولو أطلق إبراهيم عيسى العنان، للبوح المستفيض لمكنوناته، فيما اقتصر فيه، على مجرد الإشارة والإيماءة، والفَلْتَة الشعورية القلبية إذن.. لتضاعف حجم دواوينه، مرات ومرات..

وحسبنا قول (الرافعى)، فى تقديمه لكتابه الخالد: (وحى القلم): ربما عابوا السُّمُوَّ الأدبىَّ بأنه قليل، ولكن الخير كذلك..

وبأنه مخالف، ولكنَّ الحقَّ كذلك..

وبأنه مُحَيِّر، ولكن الحُسْن كذلك..

وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك..

إذا لم يكن البحر، فلا تنتظر اللؤلؤ وإذا لم يكن النَّجم، فلا تنتظر الشعاع..

رحم الله الشاعر إبراهيم عيسى رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

---

(٤) بشَّرنا الشاعر أحمد سويلم، فى حفل تأبين إبراهيم عيسى الذى أقيم يوم الجمعة الموافق الخامس من يناير سنة ٢٠٠١م أن الدكتور سمير سرحان رئيس هيئة الكتاب قد وافق على طبع الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر إبراهيم عيسى.

ما يقال عن الإسلام

نقد موضوعى للأفكار الهامة فى كتاب اليمين واليسار فى الفكر الدينى

١

للأستاذ الدكتور / محمد رجب بيومى

قبل أن نعرض للأفكار الخاطئة فى هذا الكتاب نشير إلى أمور هامة..

أولا: ليس فى الإسلام إطلاقا ما يُدعى باليمين واليسار، بل هو اصطلاح غربى يطلقه الباحثون هناك على الدول الرأسمالية فهى يمينية والدول الشيوعية فهى يسارية، والإسلام لا صلة له بالرأسمالية كمذهب، ولا بالشيوعية كمذهب آخر، فهو دين مستقل له أحكامه وأراؤه المستقلة ومحاولة جعله يمينا أو يسارا تضليل كاذب! لأن دين الله واحد.

نعم، توجد مذاهب مختلفة فى الفقه، ولكنها ترجع إلى أصول يتفق عليها جميع الأئمة، ولا مجادلة فى أسسها، وليس لها أدنى علاقة بما يسمى باليمين واليسار!

ثانيا: اليمن فى القرآن وصف أطلق على المؤمنين أصحاب الجنة، والشمال وصف أطلق على الكافرين أصحاب النار، كما قال الله ـ عز وجل ـ فى سورة الواقعة:

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾(١)

ثم قال:

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾(٢)

وإذن فالمؤمنون جميعا يندرجون تحت أصحاب اليمين، بنص القرآن، أماَّ محاولةُ

(١) الواقعة ٢٧.

(٢) الواقعة ٤١.

جعل بعضهم من أصحاب اليسار كما حاول المؤلف مع أسماء مؤمنة مثل الأفغاني، ومحمد إقبال، والكواكبي، ومحمد عبد الوهاب، ومحمد عبده، فهي محاولة كاذبة! ولَو بَحث الكاتب مؤلفات هؤلاء لعرف أنهم ينكرون كلّ ما ادّعاه ولم تظهر في سطر من مؤلفاتهم كلمة اليسار.

ثالثا: لا ندعو إلى مصادرة الكتاب، إذ لَيس فيه جديد يخشى منه فكّل ما قاله مدون متداول مرَدد في كتب الشيوعيين، وقد ألفت فيه كتبٌ كثيرة تَسب الدين بما هو برىء منه، وتحاول أن تقسّم المؤمنين إلى طائفتين متناحرتَيْن مع أنهم جميعا يتلاقون في الأصول، ويختلفون في الفروع ولمَ يقل أحد منهم. إني يميني. أو: إني يساري، بل أعلنوا التزامهم جميعا بكتاب الله والصحيح من سنة الرسول - ﷺ -، ودعوا إلى الاجتهاد في محيط هذين الأثريْن الكريميْن، وإذنْ فلا يسار ولا شمال بين المؤمنين..

رابعا: كان سقوط الشيوعية في أوروبا عامل فزع لمن يسمّون أنفسهم باليسارين من المسلمين، وعَزَّ عليهم أن ينهار البناء فوق رؤوسهم فيحطمهم تحطيما، وهنا حاولوا أن يتحدثوا عن مزايا ما يسمونه باليسار الإسلامي من جديد ونسوا أن هذا اليسار المحبوبَ لديهم قد تكشف في أوروبا عن محن اجتماعية منكرة، وظلم رأسمالي حاقد، حين تحكّم رؤساءُ الشيوعية في المال وبنوا القصور واستغلوا أثمن مظاهر الترف المنكر لأنفسهم خاصة، مع جوع الشعب وعريه وفقره ومدًّ يده! هكذا سَقَط اليسار في أوروبا إلى غير رجعة والذين يتحدثون عن محاسنه الموهومة ويحاولون إلصاقها بالإسلام بتفسير منحرف! عليهم أن يسألوا أنفسهم: كيف تَدمّر اليسار في روسيا؟ وكيف أتى بهذه الأهوال؟ وإذا كانت هذه عاقبته المشئومة فأين يذْهبون!؟

هذه نقاط أربع أتقدم بها قبل أن أنقد الواضح المكشوف من أفكار الكتاب:

(١) بدأ المؤلف حديثه عن الإيمان، فقال: إنّ موقف اليمين هو التسليم والرضا بما يعطى للشعب من حقائق عليه قبولها، فالفرد اليمينّي يكون أقرب للطاعة للأمراء والانقياد للحكام، والشعب كذلك يبدأ بالتسليم بالحقائق دون مناقشتها، أما اليسار، فيجعل النظر أمراً عاما شاملا لا يخص فردا دون فرد، أو طبقة دون طبقة «ص٨، ٩».

وهذا كلام بسطه المؤلف في أربعينَ سطرا، لا يمكن نقلها جميعا، ولكن خلاصتها هو ما تقدم، وهو كلامٌ واضح البطلان لأن جميع المسلمين في مذاهبهم المختلفة، يرون التفكير فريضة إسلامية، وقد قرر علماءُ الإسلام أن إيمان المقلد غير مقبول، ولذلك ظلّ المسلمون بعيدين عن التيارات المنحرفة، لأنهم آمنوا بالدليل والاقتناع، وقد دعا الإسلام أتباعه للنظر في الكون وفي أنفسهم بل دَعاَهم إلى قراءة التاريخ والنظر في أحوال الأمم السابقة، وقد علّل انتشار الإسلام وظهوره على الأديان الأخرى باعتماده على النظر والتفكير في شئون الكون والعالم، قال تعالى -:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(٤).

وقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(٥).

وكل ما قاله الكاتب من أنّ الإيمان يدعو إلى الخضوع وطاعة الحكام فى أحكامهم الباطلة هراء تنكره أصول القرآن التى لا يمترى فيها مسلم، وإذا كان الكاتب يرى، أن اليسار المسلم هو الذى يؤمن بالنظر وحده فنقول له: إنّ القرآن هو الآمر الحاكم ولا يختلف أحد فى ضرورة الالتزام به! وهو لا يستطيع أن يذكر اسما واحدا لعالم من العلماء.

قال: إن الانقياد إلى الحاكم هو انقياد مطلق بل جعلت طاعة الحاكم مقترنة بطاعة الله،

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾(٦).

وقد اعترف المنصفون من باحثى الغرب بحرية التفكير فى الإسلام، ولا يوجد مذهب واحد ينكر هذه الحرية! وإذن فكل ما قيل غير ذلك باطل مرفوض.

٢- تعرض الكاتب إلى صفات الله - تعالى - ص(١٣) إنّ وصفه - عز وجل - بالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، هو انتزاع لهذه الصفات من البشر فى رأى من سمّاهم باليمين، وهذا كلام ظاهر الخطأ، لأن الصفة نسبية فى شأن الخالق والمخلوق، فالإنسان يوصف بالقدرة والعلم والحياة فى ضوء حالته المعهودة، وذلك لا ينازع فى شىء صفات الله المطلقة، ولا أدرى كيف أجاز الكاتب لنفسه أن يقول: إن ذلك ينتزع من الإنسان أهمَّ صفاته وهى العلم والقدرة والحياة ص١٣ فيتحول إلى صنم عقلى ثابت جامد وهو نوع من الوثنية اللاشعورية إن البدائيين فى الشعوب المتأخرة يتمتعون بأحاسيس، ولهم قدر من التفكير يستطيعون به العيش فى محيط الحياة! فكيف يكون المسلم فى ضوء الإيمان منتزع الشعور بالحياة جاهلا فاقدا القدرة على التفكير وكيف يكون مردّ ذلك إلى الإيمان! بل كيف تكون صفات الله العظيمة أداة تعطيل للإنسان!

وقول المؤلف ص١٤: إنّ النظم التقدّمية تحاول أن تعيد بناء الإنسان عالما قادرا حيا وتقضى على مظاهر الجهل والعجز ومشارف الموت التى يتردى فيها الإنسان وهو موقف اليسار، هذا القولُ كاذب" لأن الإسلام منذ نزل على الأرض قد أعاد بناء الإنسان عالما قادرا حيا، وما بلغت الحضارة الإسلامية مبلغها الزاهر فى ظلال الإسلام إلا باتباع أصوله الداعية للنهوض الإنسانى! ولا

---

(٣) فصلت ٥٣.

(٤) الأعراف ١٨٥.

(٥) يوسف ١٠٥.

(٦) النساء ٥٩.

يوجد مسلمٌ واحد ينكر حق الإنسان فى العلم والعيش الكريم والصحة الموفورة فى ضوء التكافل الاجتماعى! وإذا كان المؤلف يرى أن هناك يمينا لا يدعو إلى ذلك فليدلنا عليه! ولن يستطيع.

وقد أحس المؤلف بشذوذه فقال إن اليمينَ يحاول أن يجعل هذه الصفات للأقلية الحاكمة فقط دون الأغلبية، لتظل وحدها المسيطرة، وماعداها عاجز جاهل ميت أصم، وأبكم، وأعمى، ومعنى ذلك أن الإسلام ليس دين المساواة، بل دين الطبقات.

والحديث عن المساواة فى الإسلام من الوضوح بحيث لا يجهله المسلم الذى يقرأ قول الله:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(٧) وليس فى الإسلام مزايا تتمتع بها الأكثرية دون الأقلية فالكل سواء كأسنان المشط، فمن أين أتى الكاتب بما يدعيه؟ ويصم به اليمين.

٣- تحدث الكاتب عن موضوع القضاء والقدر، فجعلَ ما سماه بالفكر اليمينى يصف الله بصفات القدرة والإرادة والعلم لينزع من الإنسان قدرته وإرادته، ويجعله ريشة فى مهب الريح، فهو كما قال المؤلف: «ليس له قدرة مستقلة، أو إرادة خاصة، وبالتالى فهو ليس صاحب قراره، أو مصدر تدميره فالفعل الإلهى سابق على الفعل الإنسانى ومعه وبعده والفعل الإنسانى ما هو إلا تابع لمتبوع وكل ما يحدث فى أفعال الشعور من هداية أو ضلال أو توفيق أو خذلان يحدث بالفعل الإلهى» ص١٦.

وهذا الكلام يُردد بعد مائة عام أو أكثر منذ ظهر بطلانه، فقد سبق أنْ ردده مستشرقو أوروبا، وأجاب عنه الأستاذ الإمام محمد عبده بما بين زيفه، حتى اتضحت حقيقة (القضاء والقدر) على وجهها الصحيح، فإذا كان الكاتب يثق فى الإمام محمد عبده ويجعله مثالا لليسار كما زعم فلم لم يصحح أخطاءه راجعا إلى ما قال الأستاذ الإمام فى رده على المسيو (هانوتو) وغيره من الذين فهموا مسألة القضاء والقدر على غير وجهها الصحيح!

إن الذين فهموا القضاء والقدر بالمعنى الذى أشار إليه الكاتب طائفة محدودة ظهرت فى العصر الأموى وعرفت بالجبرية، وقد ناقشها العلماء بالمنطق الحاسم، فلم يكن لها أتباع منذ ألف وثلاثمائة عام! فهل يكون العامة من المسلمين جبريين وهم الذين رفضوا هذا المذهب عن يقين. إن الكاتب يشعر بإرادته المطلقة فيما يزاول من أعمال، وكذلك كل إنسان يشعر بهذه الإرادة ولئن قلْتَ لإنسان ما: إنّك مجْبر على أن تسير فى طريق كذا، وفهم من قولك إعناته وجبْره وتضليله، لقال لك بملء فمه: لنْ أسير، ومعى حريتى تقودنى إلى حيث أريد، لقد كتب من سماهم باليمينيين عشرات الكتب فى حرية الإنسان، فهل قال قائل معاصر منهم فيما كتب: إن العبد لا إرادة له، وأنه فى مهب الريح، حتى يكون الفريق الأكبر من المؤمنين يفهمون القضاء والقدر على معنى التحكم والإجبار.

---

(٧) الحجرات ١٣.

وكعادة المؤلف حيث لا ينتهى من تقرير أمر يتعلق بالعقيدة إلا ربطه بالمال والاستغلال، فقد زعم أن هذه العقيدة التى جعلت حكام الدول الدكتاتورية يتحكمون فى الأرزاق والأسعار، فهى تروج لعقيدة القضاء والقدر لتوحى للناس بأنهم مسيرون لا مخيرون! وهكذا يتخذ المؤلف من كل حكم زائف مرتكزا لتقرير الماركسية، بل ولشىء أكثر من هذا، وهو الخروج بها من دول الشيوعية إلى الإسلام فى صميمه! لأن الموقف اليسارى المسلم فى رأيه هو الذى يقرن الفعل الحر بالمسئولية فتكون أفعال الإنسان ملتزمة بقضايا الواقع.. أما اليمينيون فجبريون، ثم إنى أتساءل: من يخاطب المؤلف بما قال: أيخاطب الجمهرة وكلهم مخالفوه؟ أم يخاطب الماركسيين فى العالم العربى وحدهم وقد بدأوا يتساقطون!؟ يا أخى، إذا وجدت إنسانا فيمن حولك ينكر إرادته فى عمله اليومى فدلنا عليه!

٤- يعلم الماركسيون أن القرآن حصن المسلمين، وملاذهم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويعلم أنه مدون منذ نشأته، ولا يشك أحد فى صدق تنزيله، والكاتب يحاول أن يزحزح هذا الاعتقاد، ولكنه لا يجد أمامه أدنى حجة! وإذن فليلجأ إلى التعميم ليجعل القرآن كالتوراة وكالإنجيل يندرج تحت ما يسمى بالوحى الشفوى وقد تم تدوينه مباشرة أو بعد عدة أجيال

يا هذا أنت فى صميم بحثك تتحدث عن الإسلام، فلماذا تقول عن كتابه بلهجة المتّردد، إنه دُوِّن إما مباشرة أو بعد عدة أجيال: أليسَ ذلك احتيالاى كريها للشك فى النص القرآنى! ثم تتدرج إلى ما تقصد فتقول: إن هناك موقفين، موقفا يجعل السلطة سابقة للعقل والعقل تابعا للسلطة وموقفا آخر، والسؤال ما دخل السلطة هنا وهل الالتزام بالصريح من نص القرآن يكون سلطة! أو يكون إرشادا للطريق المستقيم، وتزداد الجرأة الفظيعة حين يقول الكاتب: لا يوجد نص واحد ولو كان صريحا لا يختلف عليه اثنان ص١٧ يالله: أيختلف أحد من المسلمين فى أن الله واحد! أيختلف أحد من المسلمين فى أن محمدا رسول الله! أيختلف أحد من المسلمين فى أن الثواب والعقاب واقعان يوم الحساب؟ أيختلف أحد فى أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى؟ أيختلف أحد فى أن القصاص واجب، العين بالعين والسن بالسن والنفس بالنفس والجروح قصاص؟ أأنقل جميع تعاليم الإسلام الأصيلة لأبين أنه لا اختلاف عليها؟ ثم بعد هذا الفهم المنكر للنص القرآنى يقول: إن هذا الاختلاف المزعوم يفسر تارة لصالح الأغلبية ضد الأكثرية، وتارة لصالح الأكثرية ضد الأغلبية فيظهر تفسير رأسمالى للدين وتفسير اشتراكى!! وأنا أتساءل من المفسر العالم الحجة الذى قرأ القرآن وفهمه حق الفهم قد فسره تفسيرا اشتراكيا؟ إن مفسرى هذا العصر من العلماء الأثبات أمثال: محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدى، ومحمود شلتوت، وأبى الكلام أزاد، ومحمد الطاهر بن عاشور ممن سبقوا إلى رحمة الله، ولا أذكر من الأحياء أحدا على فضلهم الباذخ وهم مشهورون مرموقون كيلا أُرمى بالمجاملة والزلفى، هؤلاء جميعهم لم يفسروا

القرآن تفسيرا اشتراكيا، إنما فعل ذلك أمثال الكاتب فى بعض آيات لم يستطيعوا فهمها على وجهها الصحيح، ولم يستمع إليهم أحد، لأنهم ليسوا من أهل الذكر؟ ولم يفهموا القرآن على وجهه الصحيح حتى يفسّروه.

ثم إن القول باختلاف النقل عن العقل مرفوض فى الإسلام، فالنقل وحى صادق لا يختلف مع العقل، والمتشابه طريقة التأويل الذى تسيغه اللغة جريا على أسلوب البيان العربى، فقل لى أيها الرجل، فى أى تفسير من تفاسير كتاب الله منذ ابن عباس إلى محمد متولى الشعراوى التبس فيه الحق بالباطل، وضاعت حقوق الشعوب فى متاهات المفسرين! هات مفسرا واحدا قد أضاع حقوق المسلمين بتأويل يهضم هذه الحقوق!.. وبعد ذلك يعود الباحث إلى ما يتعمده من الدعاية الشيوعية فيقول: إن السلطة السياسية استغلت المفسرين لترويج ما يخدم صالحها! لأن أولوية النقل على العقل تحمى النظم الرجعية من استعمال الجماهيرلوسائل البحث! أليس هذا هو الهراء الشيوعى الذى افتضح ولم يعد له أدنى سند!

إن علماء الإسلام منذ العصر الأموى قد أدوا كلمة الله أمام السلطة الغاشمة، وفيهم من قتل فى سبيل الدفاع عن الحق ومن هولاء المناضلين فى رد العدوان سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وأبو حنيفة ومالك، وابن حنبل، والأوزاعى، وابن السكيت، والعز بن عبد السلام والمنذر بن سعيد ومحيى الدين النووى، وابن دقيق العيد، وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وحسونة النووى، ومحمد بخيت، وغيرهم ممن قاوموا السلطة بأقصى ما يستطيعون، وفى كتاب تاريخى تحت عنوان «علماء فى وجه الطغيان» فصلت فيه سير هؤلاء الأبطال! فهل وجد فى تاريخ أمة من الأمم طراز متصل الحلقات، مسلسل الوقفات كهذا الطراز الأمين! أتقول بعد ذلك: إن المفسرين يخضعون القرآن للسلطة! ولدينا مواقف هؤلاء الإعلام على ممر العصور! وما ذكرت منهم غير القليل.. وليسوا مفسرين فقط، بل أئمة عصور يأتلقون فى آفاقها كالمصابيح!

ثم يكرر الباحث ما رجف به من قبل فى قضية القضاء والقدر، ليقول (ص) ١٩: إن من يسميهم اليمينيين يقولون: إن كل شىء فى هذا العالم بخيره وشره لا يخضع لقانون ولا يهدف إلى غاية ولا يبنى مصلحة ص١٩ لأنه من فعل الله! وقد نسى أن الله حكيم مدبر رحيم! ثم يأتى إلى من سماهم باليساريين فيقول: إنهم يدعون إلى أن يشارك العامل فى رأس المال، وأن تكون الأرض لمن يصلحها أما الأصلح فهو الملكية العامة لوسائل الإنتاج! وكأن الرجل لا يعيش فى زمن انحسرت فيه موجة القطاع العام فى أوروبا التى يهيم بها، وكادت تنحسر فى الشرق بعد أن جرت ذيول الخراب والدمار، وساعدت على إفساد الذمم وغصب الأموال! لا يعيش الرجل فى هذا الزمن لأنه لايزال يدعو إلى الملكية العامة لوسائل الإنتاج! وقد رأى فشل ذلك بعينه! ولكن الماركسية تقوده إلى الهجوم على الفضلاء تارة وإلى إنكاره الواقع الصريح تارات!

٥- اتجه الباحث إلى إنكار النبوات وما يصحبها من المعجزات، وجعل اليمين من مؤيدى النبوة والمعجزة، واليسار من منكريهما،

وطبيعى أن يكون اليسار هنا ليس إسلاميا بالمرة وإنما معناه الماركسى الشيوعى، لأن كل مسلم مهما شط فى اعتقاده لا ينكر أن نبيه محمد - ﷺ - جاء بالوحى من عند ربه، وقد مهد الكاتب بهذا القول الخاطىء المخطىء لقوله: إن النظم اليمينية الرجعية تؤيد هذا الاتجاه لتؤكد سياسة الحاكم! ولأول مرة أسمع أن الحاكم المعاصر فى أى بلد يستند إلى النبوة فى تأكيد سلطانه! والكاتب لا يعد فرنسا وألمانيا وانجلترا من النظم الرجية قطعا، ولكن هذه الدول تؤمن رسميا بنبوة عيسى بل بألوهيته ويقوم رسلها بالتبشير للمسيحية فى كل مكان! فكيف يجوز القول بأن الدول الرجعية وحدها هى التى تؤمن بالنبوة! إن الرجل يتكلم بلسان الشيوعى الماركسى الذى يكفر بالله ثم بالنبوة تبعا لذلك! فهل يوجد مسلم ما يصدق عليه وصف المسلم لا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله لو أن ذلك متجه اليسار الإسلامى فى زعمه لما كان إسلاميا بالمرة بل كان كافرا جاحدا!! أما إنكار المعجزات فشىء طبيعى لمن ينكر النبوات، ومن الخلط الذى لا يصدقه طفل قول الكاتب ص٢١ : وكما يقوم النبى بالمعجزة، يقوم الزعيم السياسى وصاحب رأس المال بمعجزات مشابهة يهزم بها العدو فى ساعات، ويحل المؤسسات ويعقدها فى غمضة عين فتثق فى أقواله الجماهير، يا هذا إن سادتك من زعماء الماركسية قد حلوا المؤسسات، وأسقطوا الدول بالدبابات فى ساعات! فهل هؤلاء يؤمنون بالمعجزة التى أتاحت لهم ذلك، وجعلت السزج من الجماهير ينضوون تحت ألويتهم! لم لا تكون منصفا فتقول: إن النبوة والمعجزة لا شأن لهما فى التحكم السياسى، وفرض رهبة الحاكم يمينا أو يسارا! ثم لماذا لا يكون إسقاط المؤسسات وعقدها أمرا سياسيا اقتصاديا له ظروفه الملجئة تارة! والمحرمة تارة شيئا وفق ما تقتضيه الأحوال!

ومازال الكاتب غافلا عما كشفته الأيام من مآسى الشيوعية، حين يقول: لا تحاول النظم التقدمية فرض أية وصاية على الإنسان، مع أن زعيم الشيوعية لينين قد اعترف بأن سحق المعارضين فريضة ولو بلغوا الملايين! وقد نُفذَ هذا من بعده فى المجر، وفى تشيكوسلوفاكيا وفنلندا وبولندا، فأى وصية قاهرة أنكى من الدبابات والقاذفات تدمر المدينة فى طرفة عين! لتقول بعد ذلك: إن الجمهور هو الذى دمر بلده وقادها للخراب! وعاد الكاتب إلى حديث رأس المال ثانية، وكأن الكتاب من أوله إلى آخره يتحدث عن وجهة اقتصادية تؤيدها الشيوعية! ثم يكذب الواقع الأليم حين يزعم أن الإيدلوجية اليسارية ليست وصايا مفروضة على الإنسان بل هى تغيير نظرى عن واقعه ص٢٢ وتحقيق على مستوى الفكر لمتطلباته وتخطيط دقيق لكيفية الممارسة! وقد أُلفَتْ مئات الكتب عن البطش الشيوعى بالأرواح، وعن حصد الأمم المناوئة تحت قذائف النيران! كما افتخر الدب الروسى بأنه اكتسح فنلندا وبولندا فى يومين بقوته الباطشة! فهل كان ذلك تعبيرا عن الواقع النظرى وتحقيقا لمتطلبات الإنسان واستجابة للقاعدة الجماهيرية.

«يتبع»

كتاب الشهر:

عصر الإلحاد
خلفيته التاريخية وبداية نهايته

للأستاذ محمد تقى الأمينى الندوى

عرض وتحليل الأستاذ الدكتور إبراهيم عوضين

كتاب هذا الشهر كما يشير عنوانه. يقدم وصفا لعصر الإلحاد فى أوروبا ودوافعه وآثاره ونهايته فى نحو ثمانين ومائة صفحة من القطع المتوسط مضيفا حلقة إلى حلقات تلك السلسلة الممتدة التى نهض بها كثير من مفكرى المسلمين فى شبه القارة الهندية وباكستان.

وقد اضطر المؤلف إزاء ضخامة الصورة وتعدد عناصرها التى تغطى عصر الثورة الصناعية ومحدودية المساحة التى قدمت فيها .. إلى أن يكثف عباراته لتقدم كل عبارة منها أكبر قدر ممكن من الأفكار المتزاحمة بما تضمه من آثار.

ومؤلف الكتاب له جولات كثيرة فى ميدان الدراسات العقدية والفكرية المقارنة قدم خلالها نحو عشرين كتابا وهو من مواليد الهند سنة ١٩٢٦م وتخرج فى الجامعات الإسلامية وعين أستاذا بدار العلوم ندوة العلماء بلكهنو ثم أصبح مسئولا عن التدريس والإشراف على الشئون الدينية بجامعة عليكرة الإسلامية.

وقد ترجم الكتاب الى اللغة العربية الدكتور مقتدى حسن ياسين وكيل الجامعة السلفية بالهند وقام الدكتور عبد الحليم عويس بمراجعته وإعداده للطبع سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

والمؤلف إنما رأى فى عصر الثورة الصناعية عصرا للإلحاد لأنه لاحظ أن الإلحاد فى هذا العصر أصبح علما ومنهج حضارة وفلسفة يبشر بها، ولم يعد سلوكا فرديا ولا حتى سلوكا جماعيا عارضا؛ فقد وجد بالنظر الفاحص أن أوروبا ما اعتنقت النصرانية قلبيا ورسميا فحسب لكنها إلى ذلك قد اعتنقت عقليا وفكريا وتنظيميا ما أفاءته عليها الوثنية اليونانية الرومانية والفكر الفلسفى الدائر فى هذا المحور كما وجد أن فلاسفة كثيرين قد بذروا بذور الإلحاد فى نظريات ومذاهب وحاولوا تلفيق أديان جديدة لها بعض السمات الشكلية للدين ولكنها من صنع الإنسان نفسه ولا علاقة للوحى السماوى بها. وتحت هذا الستار نفثوها سموما فى شتى مناحى الحياة الأوروبية جيلا بعد جيل معتمدين على الهيمنة الإعلامية والثقافية فى التبشير بها، مع إخفاء مضارها الفتاكة.

والكتاب يضم مقدمة وتمهيدا وأربعة فصول عمل المؤلف فى أثنائها على أن يقدم لأوروبا فى هذا العصر الممتد الصورة العقلية فى علاقتها بالروح والقلب، والسلوك الإنسانى.

وكانت المقدمة نافذة تلفت القارئ إلى دور السياسة ـ حين تستبد الأمر ـ فى تزييف الدين وإبرازه فى هيئة منفرة تتراكم فيها العقائد البالية والعادات والتقاليد القديمة على الرغم مما بين السياسة والدين من توافق إذا كانا متوازنين كما تلفته الى لجوء السياسة لاختراع دين مصنوع يؤازرها ويعينها فى إزهاق روح الدين السماوى الخالص والتنفير منه وعزله عن الحياة؛ حتى يفقد فعالياته الفطرية وتلفته إلى منهج المؤلف فى استعراض ذلك.

مقررات قرآنية تكشف دور الدين المزيف فى هدم الحضارات

تحت هذا العنوان مهَّد المؤلف لدراسته فقدم من الآيات الكريمة ما ينبه إلى تلك النتائج الهدامة التى بلغت خمسين أثرا، كل أثر منها يكفى وحده فى زلزلة كيان البشرية، وختم هذا التمهيد مقررا: أن هذه الآثار المدمرة التى بين القرآن الكريم أنها تنشأ عن تزييف الدين قد أصابت مسلمى العصر الحاضر كما أصابت من قبل النصارى واليهود وغيرهما من الديانات السابقة وكانت أبرز هذه الإصابات وقوع المسلمين بين براثن التأويل والتزوير والاغترار والانخداع والاحتكار الدينى والطائفى التى وقع فيها من سبقهم من أهل الديانات الأخرى. على وعد منه بأن يضمن بقية الكتاب الشهادات التاريخية التى تؤكد وقوع هذه الآثار وتوضحها.

الدين قبل النشأة الثانية

تحت هذا العنوان قدم الفصل الأول ويقصد المؤلف بالنشأة الثانية،النشأة الثانية لأوروبا التى سبقت بتسلل عبادة الأوهام النصرانية فانحرفت بها وجعلت منها دينا ضعيفا هشا منقطع الصلة بالإنسان،من كل ما هيأ الفرصة لتحريف النصوص،وتمكين العقل البشرى من إخضاع الدين لرغباته لمدة تجاوزت ألف عام من سنة ٤٨٦ إلى سنة ١٤٩٥م.

ويذكر المؤلف أن عبادة الأوهام تلك قد بدت فى عدة مظاهر من أهمها:

١ـ توهم أن غاية التدين ومنتهى الأخلاق يتمثل فى قتل الجسد .

وقد نشأ هذا الوهم من الحكم على الإنسان بأنه مجبول على المعصية مفطور على الشر؛فسادت الرهبنة والزهد .

٢ـ وفى مقابل هذا الوهم ساد وهم آخر يعتمد على المكر والخداع ليحول الدين إلى طقوس ومظاهر شكلية يتمكن بها من اختراق وهم الرهبنة والزهد ليسود الترف والانحلال فيملأ الفراغ الذى نشأ عن اعتزال الحياة باسم الرهبنة .

٣ـ وفى ظل هذين الوهمين المتقابلين تحول الدين الى مظاهرة فارغة تحتمى بسلطان الكنيسة لتوفر لمن يبدون التزامهم بها أيسر السبل التى توفر لهم حاجات الحياة من غير جهد ولا عمل .

وباسم نشر الدين انتشرت الحفلات الدينية التى استغلت للتسلية وتحقيق المتع المادية وإشباع النهم الجنسى .

٤ـ الاهتمام بالاختلافات فى الفروع وتعصب كل لما يراه ؛من كل ما فرق شمل الدين وجعله ديانات كثيرة يخاصم كل دين منها ما سواه من الديانات الأخرى حتى انتشرت عبادة الأولياء والتماثيل استجابة لروح الصراع المتعصب .

٥ـ سيادة وهم جمود الإنسان ومقاومة كل من يخرج على ذلك بشتى وسائل القهر والمقاومة؛من لعن وطرد وسجن وتعذيب بالغ العنف ينتهى بالشخص إما إلى الموت أو إلى التوبة والرجوع عن آرائه كما جاء فى توبة « جاليليو » حين قال : إن الأرض تتحرك فواجه من أسباب القهر ما اضطره إلى أن يعلن توبته ورجوعه عن أقواله تلك .قائلا :« أنا المدعو بـ (جاليليو) فى سن السبعين أركع وأنا سجين أمام صاحب القدس وأقبل الإنجيل وأعترف بخطأ القول بحركة الأرض وأكره الإلحاد وألعنه » وهكذا أفرغ الجو من الدين السماوى الخالص لا ليسود الدين السياسى فحسب .بل ليسود، وليتعاون مع الفساد البشرى والاجتماعى كى يظل محتفظا بسلطانه وتسيده .

حركة الإصلاح الدينى

وفى الفصل الثانى تعرض لحركة الإصلاح الدينى فى أوروبا،فلم يكن ممكنا أن ينال هذا الفساد كل التأييد والرضا من جميع الناس؛فالفطرة البشرية المستقيمة تظل تبحث مهما بلغ ضعفها عن وسيلة للخلاص من الشذوذ والانحراف السائد .

١ـ وقد رأى الباحثون الأوروبيون أن أوروبا استفادت كثيرا من الاتصال بالمسلمين والوقوف على الدين الإسلامى فى أثناء الحروب الصليبية وما أمدتهم به مراكز الأندلس العلمية . وتمثلت تلك الإفادات فى اقتباس علوم الطبيعة والنجوم والفلسفة والرياضيات من المدارس العربية ثم أخذت تنتشر فى أوروبا منذ القرن الرابع عشر كما صرح بذلك « جان ديون يورث » و« رينان » وغيرهما .

٢ـ وكان من أبرز ثمار ذلك ظهور شخصيات أوروبية عنيت بالإصلاح الدينى مثل «جان كالفن» ١٥٠٩ ـ ١٥٦٤ و«إيراسمس» ١٤٦٦ ـ ١٥٣٦و«مارتن لوثر» ١٤٨٣ ـ ١٥٤٦ .وعلى الرغم من تعرض هؤلاء الإصلاحيين للطرد واللعن والسب بناء على أحكام محاكم التفتيش أثمرت جهودهم الإصلاحية تأسيس فرقة «البروتستانت» فى المانيا ثم انتشرت فى أوروبا حتى سيق قادتها ومعتنقوها الى محاكم التفتيش؛لمعارضتهم طريقة حياة البابا لإسهامهم فى التقدم العلمى والحضارى المناهض للدين الجامد الذى كان يسود أوروبا ولم يكن هؤلاء الإصلاحيون الذين نهضوا بحركات الإصلاح الدينى مقطوعى الصلة بعامة الناس، فقد صادفت هذه الحركات اتجاها أوروبيا عاما يميل إلى الإصلاح وينشده؛فكانت البداية الإصلاحية فى أوروبا قائمة على الدين الصحيح،حتى ذهب بعض المفكرين إلى أن أساس جميع الحركات التقدمية فى أوروبا قد قام على الدين الصحيح وذهبوا إلى ما هو أعمق من ذلك وأبعد وهو أن الغريزة الدينية طبيعة فى الإنسان.

٣ـ ومع هذا وقعت حركات الإصلاح الأوروبية فى أخطاء كان من أبرزها:

«أ» الفشل فى إيجاد توازن بين العقل والعواطف.

«ب» العجز عن التوصل الى كيفية صحيحة للإيمان.

«جـ» عدم بذل الجهود المخلصة لتوضيح التوافق بين الإصلاح والسنن الطبيعية.

«د»عدم الاهتمام بربط الإصلاح بالناحية الإيجابية للشئون الاجتماعية والحضارية.

«هـ» عدم المزج فى الإصلاح بين العقل والقلب ولا الاهتمام بإيجاد التوازن بين الدين والدنيا حتى تحل مشكلات الحياة وكان نتيجة ذلك أن جاء الإصلاح محدودا جدا.

ويدعم المؤلف ملاحظاته تلك بعدة شهادات تاريخية صدرت عن «هـ.و ويكمن» و«أ.ج.جرانت».

٤ـ وفى استعراض المؤلف لمقومات حركة الإصلاح ذكر أن ضعف الدين وفشله كان أهم مقومات نجاح حركة الإصلاح. هذا إلى أنها وسعت نطاق الفكر واتجهت إلى إعادة عصر الترف اليونانى السابق وتغيير صورة المجتمع بما فرضت عليه من اختلاط مشين فيما تبنته من حفلات ومجالس تشتمل على الرقص والغناء والعروض السافرة وتوجيه المناهج الدراسية الى كل ما يتصل بالنفس الإنسانية وإنشاء أساليب جديدة للصناعة وإضعاف سلطة الملوك والأغنياء وتشجيع حركة الكشوف الجغرافية وما تمخضت عنه من تأسيس المستعمرات الأوروبية.

٥ـ ومع تغير صورة أوروبا ونشوء عالم جديد فيها نتيجة هذا الإصلاح ..أصبحت الحاجة ماسة إلى دين شامل للتوجيه والإرشاد.بما يحتويه من تعاليم شاملة ولكن هذا العالم الجديد لم يحظ بهذا الدين؛إذا اكتفى بتلك الصورة الباهتة

الضعيفة للدين؛فلم يتوفر له من أسباب التوازن ما يحميه من تغلب الجانب المادى على الجانب الروحى بل زاد من عنف الانحراف إلى الجانب المادى أن الدين النصرانى الذى فُرِّغ من أهم خصائصه . .وأصبح مقصورا على الرهبنة ومعاداة التطور وأصبح ملهاة يتسلى بها القائمون على العالم الجديد،ففقد كل أدواره الحيوية لتخلفه التام عن التطور ولفقدانه ما يقدمه لحركات الإصلاح من دعم يتلاءم مع ما جد من تغير.

مع هذا كله . .أصبحت الحاجة ماسة إلى دين يتخلى عن بعض مبادئه الأساسية ويتفاهم مع الأفكار الحديثة ويتفاعل مع الحياة الاجتماعية بكل جوانبه على أن لا يتدخل فى الشئون الأخرى؛فكانت النصرانية الجديدة التى طورها « بولس » هى التى تستطيع أن تقوم بذلك الدور،ومازالت أوروبا تعيش إلى اليوم فى ظل هذه التركيبة الغريبة التى تقوم على التمسك بدين ذى عقيدة ميتة وبعض عادات وسلوكيات لا تحقق للنفس إلا التسلية والمتع الجسدية التى استمدها فى أوروبا من هيمنة آثار الحضارة الرومانية عليها كما أوضح ذلك « چيبون » فى كتاب سقوط الإمبراطورية الرومانية.

وبذلك لم تتوافر أية قوة للتفكير الدينى فى نشأته الثانية على يد حركة الإصلاح اللوثرية؛فانتشر التفكير اللادينى.

العصر الحديث وأحواله الخاصة

وفى الفصل الثالث تحدث المؤلف عن أوروبا فى العصر الحديث الممتد من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر فذكر أن أوروبا فى هذا العصر كان يسيطر عليها الاتجاهات اللادينية على اختلاف مظاهرها وذلك لأن الدين الحقيقى لم يكن ممكنا أن يتفاهم مع ما نشأ فيها من اتجاهات ونظريات تتلخص فى:

١ـ نظرية القومية والوطنية.

٢ـ المذهب الطبيعى.

٣ـ الحضارة المادية.

أما النظرية القومية فتنسب إلى « ماكيافيللى » الذى استوردها من روما مع ما استورد منها من العلوم والفنون الأخرى.

ولكنه عرضها بأسلوب جديد مقررا أن الدولة القومية هى أعلى كيان فى الكون وأن الدولة لذلك ليست أخلاقية ولا قانونية بل هى سياسية فقط؛فهى غير محتاجة إلى الأخلاق ولا إلى الدين ولا إلى القانون.

ولا مانع فى الدولة القومية من أن يبقى الدين تابعا للسياسة وخادما لها.

ولإصابة الحياة فى أوروبا بالجدب رحبت بنظرية القومية الميكيافيللية ليبقى الدين آلة مستخدمة فى يد السياسة كمتعة نفسية أو زينة لمجالس السمر على الرغم من سطحية النظرية القومية بما تقوم عليه من إهمال للأخلاق والسلوكيات.

ولم يقف هذا الترحيب الأوروبى بالميكيافيللية على رجال السياسة بل لقد انضم إليهم رجال الدين هناك فأثمر ذلك دينا جديدا هو « الدين الطبيعى » الذى لم يلبث طويلا حتى حل محل الدين السماوى.

وفى مبحث مستقل عمل المؤلف على التعريف بهذا الدين الجديد؛فذكر أنه الذى يبقى حرا من جميع العادات والتقاليد وينبنى على الطبيعة الإنسانية فقط وقد نهض بالتبشير به كثيرون مثل: «بودن» و«تورالبا» و«لورد هربرت» ويلاحظ أن هؤلاء جميعا كانوا حريصين على تحرير الإنسان من سلطة رجل الدين الذى كان يهيمن على كل مقدرات الحياة الأوروبية؛ ولذلك قام هذا الدين الطبيعى على مقولة: إن الإنسان يتلقى وحيا باطنيا مستمرا يوجهه ويحرره من نصائح الموجهين الدينيين.

مناقشة وتقويم

ثم أخذ المؤلف يناقش هذه الفكرة تحت عنوان «أخطاء الدين الطبيعى» منبها إلى ما فى «الوحى الباطنى» من خداع مضلل؛إذ لا يمكن أن يصان الإنسان فى ميدان الحياة عن الهوى والشهوة الشخصية التى تصيب الفطرة بالانحراف ......وموضحا أن فكرة «الدين الطبيعى» فكرة قد تخدع فى الظاهر ولكنها أمام الواقع الإنسانى قادته إلى الإلحاد واللادينية وذلك لاستحالة بقاء الفطرة مصونة من الزيف والغش بعد وقوعها تحت تأثير الوراثة والتربية.

ومع أن انتشار الدين الطبيعى استلزم التنفير من دين الوحى ....وجدت طائفة أخرى لا ترى حاجة حتى إلى تعاليم الدين الطبيعى، طلبا لمزيد من الحرية.

وكان من أثر ذلك أن ظهر فى بداية القرن الثامن عشر مصطلح «حرية التفكير» فى الآدب الإنجليزى قصدا إلى تحرير التفكير من جميع القيود.

وتحت عنوان «أسلوب سيطرة الدين الطبيعى على دين الوحى» ذكر المؤلف أن الدين الطبيعى قد اختار أسلوبا سياسيا للتغلب على دين الوحى حيث تدرج من الدعوة إلى اختبار كل شئ بالمقياس العقلى فبدا متوافقا مع الكتب المقدسة.

ثم بالمقياس العقلى قرر أنه «لا يعقل أن يوحى الله إلى بعض الناس مباشرة بينما يحرم البعض الآخر من الوحى بينما هناك من يجهلون الوحى تماما» .ويخلص الدين الطبيعى من ذلك إلى أنه لا حاجة للوحى؛لكفاية الدين الطبيعى من جهة ولأن الوحى ليس ممكنا من الناحية النفسية والخلقية.

وهنا يعرض المؤلف لجعل العقل مقياسا فى الحكم على شئون الدين والحياة؛ مقررا أن التسليم بما للعقل من دور فى إثبات الحقائق والأشياء لا يعنى أن هذه القدرة مطلقة فالتجربة والمشاهدة تثبتان أن دور العقل فى الدين والحياة محصور فى مدى محدود،لا يستطيع الخروج عليه ولو تجاوزه لأصبح تدخله مضرا.

بل إن العقل ليبدو عاجزا فى أكثر من أوقات الحياة حتى إنه لينحط إلى أودية العواطف والشهوات وينسى دوره فى التوجيه، وإذا وجد توجيها، فإنه لا ينفع، ولا يؤدى إلى نتيجة.

فمحدودية العقل تحول بينه وبين الأشياء والأمور التى تخرج عن حدوده.. ومن أبرزها أمور الدين، فالنقطة التى ينتهى عندها عمل العقل، يبدأ منها عمل الدين.

هذا إلى أن العقل بطبيعته سريع التغير والتلون تأثرا بما يكشفه وما يقف عليه كل يوم، مما كان يجهله، بحيث يقع هذا التغير من جيل إلى جيل. بل فى الفرد الواحد من عام إلى عام. من كل ما يقرر أن العقل لا يصلح مقياسا لتنظيم الحياة الإنسانية.

ومن هنا يتقرر أن العقل لا يمكن أن يقوم بتحليل دين الوحى، ولا يمكن أن يعارض أموره الأساسية.

وتقريراً لهذا قدم المؤلف نماذج تمثل العصور المختلفة، توضح مظاهر الانخداع فى قيمة العقل وقدرته، بدءا باستحالات الفيلسوف (زينون) المولود فى القرن الخامس قبل الميلاد، والتى استند فيها إلى عقله، فحكم بأن الحركة خداع ووهم، وأنها مستحيلة الوجود.

ومرورا بالفيلسوف (بيركلى) ١٦٨٥ - ١٧٥٣م الذى أوصله عقله إلى القول بأن جميع الموجودات إنما هى تصورات ذهنية، وليس هناك شئ موجود خارج الذهن.

ووقوفا أمام (هيجل) سنة ١٧٧٠ - سنة ١٨٣١م الذى وصل بعقله إلى أن وجود الكون قام على أساس التناقض، واجتماع الشئ وضده بعد أن كانت عقول السابقين تجزم باستحالة اجتماع الشئ وضده.

وبهذه النماذج الفكرية يثبت أن المقياس العقلى ضعيف، وأن الشئ الذى يوافق هذا المقياس لا يكون حقيقة قوية ثابتة.

ويتقرر بالتالى: أن المقياس العقلى لا يصلح لاختبار حقيقة الدين الثابتة.

ويستدرك المؤلف، فيذكر أن عدم صلاحية العقل لاختبار حقيقة الدين لا يعنى تعارض العقل مع الدين، ولا يعنى استغناء الحياة عن العقل. بل إن للعقل دورا مهما فى شئون الدين والحياة معا، لقيامه ببسط الأدلة التى تدعم المعتقدات الدينية، والتى تمد الحياة بكل جديد.

وهكذا يتقرر أن الدين الطبيعى، ومذهب حرية التفكير لا يستطيعان أن يقودا سفينة الحياة التى تلعب بها أمواج بحر الشهوات والعواطف إلى ساحل النجاة.

مع الحضارة الحديثة

ويذكر المؤلف أن الوقوف على حقيقة الدين الطبيعى، وإصابة العقل والفطرة بالخلل والتشويه، واستبداد الشهوات والغرائز بسفينة الحياة حتى أصيبت باليأس من الوصول إلى الشاطئ... كل ذلك كان من نتيجته ظهور الشعور بضرورة الإصلاح وأهميته. ونظرا لفقد القيادة القوية، والبرامج المتوازنة التى تنهض بعبء الإصلاح المطلوب، فتح المجال أمام بعض الإصلاحيين غير المؤهلين التأهيل المناسب، فلم يتمكن هؤلاء من الوصول إلى العلاج الحاسم، واكتفوا بتقديم المهدئات والمسكنات. وبرز

من بين هؤلاء الإصلاحيين اثنان من المفكرين، هما (جان جاك روسو) سنة ١٧١٢ - ١٧٧٨م، و(إيمانويل كانت) سنة ١٧٢٤ - ١٨٠٤م وهما - كما يقرر الواقع - لم يتجاوزا دور المفكر إلى دور القائد، ولذلك جاءت إصلاحاتهما محدودة للغاية.

أما (روسو) فقد فرض عليه توجهه الإصلاحى أن يسبح ضد تيار الحياة الجارف فى ذلك الحين، حيث كان الدين والأخلاق فى وضع متدهور، لما ساد من سوء الاعتقاد عن الدين النصرانى فى البلاد البروتستانية والكاثوليكية بسبب اتهام معظم القساوسة بالانحلال، وتحول النصرانية إلى مجرد أخلاق شخصية جذابة، لا تقوم على أصول دينية.

لذلك لم يجد (روسو) مفرا من أن يواجه تطرف عشاق الحضارة الحديثة بالتطرف فى تقويمها، فلم يلتفت إلا إلى سلبياتها كى يبرز مساوئها فى مواجهة الدين والأخلاق. ومع ذلك كان الدين الذى يدافع (روسو) عنه هو الدين الطبيعى الذى ظهر خلله وقصوره.

ولكنه حاول أن يرفع من قيمته بما قدم من إيضاحات وتفسيرات لم يستطع بها أن يجلى الغموض فى هذا الدين، ولا فى حل لغز النصرانية.

كما لم يستطع أن يبين السبيل لصيانة الفطرة من الوراثة وغيرهما من المؤثرات، حتى يستطيع الإنسان بها أن يصل إلى الدين الطبيعى.

بل إن حياة (روسو) نفسه الأخلاقية قد راحت ضحية الهوى والنزوات، فكانت حياته مليئة بالمخزيات الفاضحة، والأعمال القبيحة السوداء.

وأما (كانت) فقد حاول أن يوجه الحياة والفلسفة وجهة جديدة.

وكذلك انتهى الحال بـ(كانت) الذى حاول أن يخلص الدين من عيوبه القاتلة: فقد دخل هذا الميدان فاقداً التصور الواضح للدين، لانحصاره فى الرؤية النصرانية فحسب.

ولذلك قرر أن الأخلاق حرة غير مقيدة بقيود الطبيعيات وما بعد الطبيعيات والنفسيات والقضايا الدينية، فجرد النصرانية من مقومها الأساسى، وهو الأخلاق.

ولعدم وقوف (كانت) على التصور الواضح للدين، اضطر إلى الاعتماد على بعض المقولات التى أوقعته فى تناقضات خطيرة، فعلى الرغم من إعلانه الحفاظ على الدين، نجده لا يولى العبادات الدينية أى نوع من الأهمية، ولذلك فإن أفكار (كانت) لم تنجح فى إخراج الدم الفاسد من جسم الحضارة الحديثة.

ويختتم المؤلف هذا الفصل مقررا أن الشخصيات التى برزت فى العصر الحديث، مع محاولات الإصلاح لم تكن قادرة على أن تنفخ روح الإيمان والعقيدة فى القلوب والنفوس، بعد أن تغيرت طبيعتها الداخلية، وشوهت فطرتها الإنسانية.

كما فشلت هذه الشخصيات فى أن تقود سفينة الحياة المعرضة للطوفان، كى تصل بها إلى ساحل النجاة.

بعض نظريات الإلحاد

وفى الفصل الرابع قدم المؤلف أربع نظريات، رأى أنها كانت من أبرز النظريات التى عرفها القرنان التاسع عشر، والعشرون، لما أحدثته من آثار فى التفكير الأوربى فى هذا العصر، هى نظرية التطور لـ(دارون) ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢، التى رأت أن أصل الإنسان حيوانى وليس علويا. ونظرية الغريزة لـ(مكدوجل) سنة ١٨١٧م، التى حولت دفة الفطرة الإنسانية ونقاءها إلى ظلمة الغريزة. ونظرية الجنس لـ(فرويد) ١٨٥٦ ـ ١٩٣٩ التى حولت العفة والشرف إلى الجنس المستهتر، ونظرية الاشتراكية لـ(ماركس) ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ التى كسرت المرآة الروحية للإنسان بحجارة الاشتراكية الجامدة.

وفى سبيله إلى ذلك قدم عن كل نظرية دراسة موضحة، فتتبع نشأة الدارونية، وحقيقتها، والإنسان فى ميزانها، ومكانها من الفلسفات السابقة والمعاصرة، ومكانة الفطرة فيها، وأثرها فى البيئة والإنسان، وموقف (دارون) من الدين، وكيف أنه اضطرب فى أمر الدين، فلم يستطع أن ينكره إنكارا صريحا على الرغم من أن نظريته تفرض ذلك، من كل ما يوضح أن فلسفته قد فشلت فى حل كثير من مشكلات الحياة.

ومع ذلك عمل بعض رجال الدين النصرانى فى أوربا على إيجاد توافق بين نظرية (دارون) وبين نصرانيتهم المحرفة، فالنصرانية التى ترى أن الإله حل فى المسيح، وأنه - تعالى - تحول إلى إنسان، لا تختلف كثيرا عن الدارونية التى ترى الإنسان صورة متحولة عن الحيوان.

ولم يقف فى وجه (الدارونية) إلا الإسلام الذى لا يعترف بتحول الإنسان.

وفى حديثه عن نظرية الغريزة، بين المقصود بالغريزة، وأقسام الأفعال الغريزية، موضحا أنها تقوم على تقرير أن الإنسان صورة متطورة للحيوان، ولذلك فالغريزة فيه تماثل الغريزة فى الحيوان. وعلى هذا فالدين فيها ليس من أصول الفطرة الإنسانية، ولكنه وليد عواطف عديدة، فهو من اختراع الإنسان، إذ الدين إنما ظهر نتيجة شعور الإنسان بالعجز، وخضوعا لعاطفة الخوف.

وفى حديثه عن نظرية الجنس عرض لأصول تلك النظرية، وما أقامها عليه من مسلمات، مقررا أن نظرية (فرويد) لا تنتظم حياة الإنسان بكاملها، ولا تجرى فى طبقات الحياة المختلفة، وأحوالها العامة، ولكن الفوضى الجنسية لعصر الإلحاد قد جعلت من هذه النظرية العرجاء محور علم النفس الحديث، فأعطت فرصة كبيرة لتحقيق الفوضى الحيوانية، والتحرر الغرائزى، والتفلت من تعاليم الدين، وقيود الشرف والأخلاق.

وكذلك صنع مع نظرية الاشتراكية، فذكر أنها حرب دائمة ضد الدين، وضد جميع ماوراءالطبيعيات، وأنها على علاقة وثيقة بنظرية (دارون)، ونظريتى الغريزة والجنس، فلقد نظر (ماركس) فى الاشتراكية إلى الإنسان والكون من وجهة نظر خاصة، لا

يوجد فيها إله، ولا روح، ولادين، ولا أخلاق، ولا قيم إنسانية .بل **إنها جميعا من** وضع الإنسان الذى يتبع **الأحوال الاقتصادية**، فكانت صورة مكررة للمزدكية التى جعل فيها زعيمها (مزدك) المجوسى المال والأرض مشتركة مثل الهواء، والماء، وكان شعارها : الإباحية العامة، وحرية القول والفعل .

إفلاس.... وتطلع إلى البديل

من هذا العرض المزدحم بالصور الجزئية، يخلص المؤلف إلى أن كل نظريات الإلحاد قد أفلست ـ على الرغم مما واكبها من التقدم العلمى والصناعى المذهل ـ وأن كل المحاولات لتلفيق دين. أو اختراع دين طبيعى يجد الإنسان المكدود فى كنفه راحته واطمئنانه... كل هذه المحاولات قد فشلت .

ولم تستطع إلا أن تستند فى انتشارها إلى أسباب العنف والقهر، حتى استعانت بالقوة البوليسية لفرضها على الإنسان فى بعض الأجزاء من العالم، واعتمدت فى الغالب على الإعلان والدعاية المكذوبة الخادعة « عالية الصوت »

وكان هذا الفشل المتوالى لهذه النظريات الإلحادية نذيرا بأن ساعةالانفجار قد أوشكت، وأن شمس الإيمان قد قاربت أن تشرق من جديد، فى عالم آخر يحكمه المتواضعون لله، الذين تنبأت الكتب السماوية الصحيحة بأنهم ورثة الأرض .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾(١).

بهذه الرؤية المتفائلة ـ بعد تلك الجولة الشاقة المرهقة ـ ختم المؤلف الأستاذ محمد تقى الأمينى، فجاءت خاتمته بصمة إسلامية يمتاز بها الإسلام من دون غيره، حيث أشاع الطمأنينة فى نفوس القارئين إلى أن الإنسان مهما ضلت به أقدامه فى مسيرة الحياة .

ومهما شطحت به أفكاره واضطربت... لابد من أن يعود فى النهاية إلى حظيرة الأمان والتوازن .

ولقد بذل المؤلف جهدا شكورا فى ربط أطراف الأحداث على تشتتها وتوزعها، ليشكل منها تلك الصورة المتكاملة، مستهينا فى سبيل ذلك بما تحمله من جهد مضن .

ثم ضاعف ما بذل من جهد فى تحميل نفسه عناء إجمالها فى تلك الحدود التى تفرضها مساحة الكتاب بدلا من أن يشغل بها مئات الصفحات التى قد تتجاوز الألف .

ولكنه بذلك التكثيف فرض على قارئه أن يشاركه فى تحمل الجهد المضنى الذى يجعله يخرج من الكتاب ـ بعد الإعادة والتأمل ـ لاهثا، متلاحق الأنفاس، مكدود الفكر، فلعل فيما قدمت ما ييسر على القارئ أمره . والله المستعان .

---

(١) الأنبياء (١٠٥ ـ ١٠٦).

المجتمع الإسرائيلى

٣

للدكتور / محمد حسن عبد الخالق (*)

هذا المجتمع الصهيونى المتنافر يشكل في مضمونه كتلتين أساسيتين، تكادان تتعادلان من حيث التعداد، هما يهود الغرب « الإشكنازيم » ويهود الشرق.

وإن كان الإشكنازيم في العالم يشكلون حوالى ٨٨٪ من يهود العالم، وأن الهجرة الصهيونية هي أساسا إشكنازية، ثم بدأت هجرة يهود الشرق.

وبالمقارنة فيهود الغرب أصحاب ثقافات عالية، وجميع مناصب الدولة في أيديهم وأصحاب رؤوس أموال كبيرة، بعكس يهود الشرق الذين وفدوا من بلاد المشرق الإسلامى ووجدوا أنفسهم في أسفل السلم الإجتماعى، مع أنهم يشلكون فى النهاية نصف عدد السكان.

وقد عملت المؤسسة العسكرية الصهيونية بشتى الوسائل لاستقطاب يهود العالم العربى بطرق مشروعة وغير مشروعة، وكان لكل دولة الظروف والأسباب الخاصة بها لهجرة اليهود منها.

وبعد هجرتهم عاملتهم معاملة سيئة بحجة أنهم متخلفون عن يهود الغرب وكتب الأدباء الاشكناز يقولون: « نام الشرق فى سبات عميق ونام معه أيضا اليهود الذين سكنوا فيه ».

كما عمدوا إلى تصوير يهود المشرق العربى أكثر من مرة « بالغرابة » وأنهم وصلوا مصابين بأمراض عديدة ووصفوا حياتهم بالجهل والبطالة، ونسوا ما أحضروه معهم من أموال وبخاصة يهود مصر.

وقد حزن يهود الشرق على ما وصلوا إليه فى دولة الكيان الصهيونى، التى عاملتهم كدرجة ثالثة فى السُلم الطبقى للمجتمع.

ففى الماضى كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب المكانة المحترمة التى تعلو على طوائف إسرائيل الأخرى، حتى إنه فى نهاية القرن الثانى عشر كتب « موسى بن ميمون » ـ والذى يختصر إسمه « رمبام » (وهو حجتهم الدينية حتى يومنا هذا) إلى ابنه يحذره قائلا:

(*) دكتوراه فى الأدب العبرى.

«وأنت يا بنى، لا تكن صحبتك اللطيفة إلا مع إخواننا أحبائنا يهود الشرق لأن لهم ثقافة وفهماً وعقلاً راجحاً.. واحفظ نفسك عن الرجال الذين يسكنون الغرب».

ومن العوامل النفسية التى لعبت دورا بارزا فى ازدياد حدة التوتر هى شعور الاشكناز بأسبقية يهود الشرق فى الإقامة بفلسطين، بالإضافة إلى اقتران اليهود الشرقيين بالعرب، فهم يشبهون العرب فى كل شيىء، ويخشون أن يأتى اليوم وينحاز يهود الشرق للعرب.

وأود أن أشير إلى أن ظاهرة التوترات الطائفية ليست وليدة الفترة الأخيرة ولا اللقاء الطائفى المكثف الفجائى الذى تم فى فلسطين بعد عام ١٩٤٨ ولكنها كانت قائمة من قبل، وجذورها الثقافية والاجتماعية عميقة جدا. ولن ينجحوا فى التغلب عليها(١).

وقد أقلقت هذه الأوضاع المسئولين، وحاولوا عبثا إيجاد الحلول، لكن الحقائق أكدت عكس هذا، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أحـداث «وادى الصليب» ١٩٥٩ «حى فى حيفا» بسبب الاحتجاج على الأوضاع القاسية لمهاجرى المغرب بصفة خاصة، ويهود الشرق بصفة عامة.

وأحداث حركة «الفهود السود» ١٩٧١(٢) والذين يناضلون من أجل رفع المعاناة عن يهود الشرق ويتهمهم يهود الغرب بأن فقرهم راجع إلى جهلهم وكسلهم وإفراطهم فى إنجاب الأولاد.

وهم يدينون المؤسسة الإشكنازية بالظلم.

«وقد أصدر الفهود السود بيانا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ إتهموا فيه الجهاز الإسرائيلى الحاكم أنه بأعماله وإهماله قاد الشعب فى إسرائيل إلى هوة الجحيم، كما بينوا أن هذا الجهاز ابتز من الشعب الإسرائيلى قرابة ٢٥ مليار ليرة إسرائيلية خلال ست سنوات (٦٧ ـ ٧٣)».

والإشكنازيم هدفهم محاولة تذويب يهود الشرق فى إطار المجتمع الغربى ويهود الشرق يأملون تحويل الكيان الصهيونى إلى دولة ذات سمات شرقية.

والطائفتان تعتبران العرب عنصرا غريبا لابد من التخلص منه.

وأثر علماء الاجتماع واضح جدا فى دراسة الظواهر وإيجاد الحلول لها سواء فيما يتعلق بعدم الولاء والتحامل أو بالتميز الطبقى، كمحاولة لاستقطاب العناصر التى قد تشكل فى المستقبل تهديدا على أمن إسرائيل.

---

(١) ابراهام شطال: متحيم بينعدتييم بعم يسرائيل (توترات طائفية في شعب إسرائيل ص ٣٨.

(٢) منظمة بدأت في الظهور في الأحياء الفقيرة لمدينة القدس في يناير سنة ١٩٧١ كتعبير عن رفض اليهود الشرقيين لسياسة التمييز التى يمارسها اليهود الغربيون ضدهم، ويقودها عدد من أبناء مهاجرى المغرب بزعامة «إبن هكرميلى» ومعظم القيادات جاءت من صفوف الشباب «الهامشى» في المجتمع الإسرائيلى الذين لم يحظوا بنصيب وافر من التعليم بسبب وضعهم الطبقى والعرقى. فتحولوا إلي متشردين لهم سوابق في سجلات الشرطة الإسرائيلية، مما حرمهم من الخدمة في الجيش الإسرائيلى وبالتالى من أى وظيفة، لأنه كى يحصل أى مواطن علي عمل في إسرائيل لابد أن يكون حاملا لشهادة التسريح من الجيش».

راجع عبدالوهاب المسيرى: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونبة ص ٢٨٦.

والجيش والتعليم هما البوتقة التى يجب صهر الطبقات بها، وهذا ليس بجديد، فنرى بن جوريون يعلن فى كلمته المشهورة:

«إن الجيش هو خير مفسر للتوراة»

وقد أسهم علماء الاجتماع بتقديم الحلول لعلاج العلاقات القائمة أو المحتملة بين الطوائف فى الجيش وانعكاسات هذه المشاكل على الأداء فى الجيش الإسرائيلى، ويجب أن نشير إلى دور رجال الدين اليهود فى الجيش: فيهود الشرق على اعتبار أنهم أكثر تديناً من يهود الغرب، ولهم انتماءات دينية مختلفة، كانوا عقبة فى سبيل أداء الجيش لمهامه فكل أقلية منهم هاجرت إلى إسرائيل حاملة معها تراثها الدينى والحضارى وطراز المعبد وطرق الصلاة، مما دفع الساسة إلى الاستعانة برجال الدين من كل الطوائف، للبحث عن صلاة موحدة ترضى كل الأطراف، وبمرور الوقت تصبح هى الصلاة المعتمدة، على اعتبار أن الجيش هو آتون الصهر الحضارى الأساسى فى إسرائيل.

وقد بدأ يهود الشرق بكافة انتماءاتهم فى الهجرة إلى فلسطين منذ عام ١٩٤٨ تحت مسميات مختلفة مثل عملية (البساط السحرى) فى اليمن، وعملية (عزرا ونحميا) فى العراق، وعملية الهجرة من المغرب وليبيا، وبلاد أخرى فى شمال أفريقيا وهجرة اليهود الإيرانيين ثم هجرة الفلاشا وهم يهود الحبشة.

وقد حملت هذه الهجرة مليونا من السكان، كانوا فى غالبيتهم يخضعون لتقاليد ومعايير دينية معينة، وفى نفس الوقت كانوا محرومين من المهارات التكنولوجية المختلفة، باستثناء يهود مصر والعراق، حيث كانوا يتمتعون بمزايا تعليمية وحرفية واسعة بالإضافة إلى وفرة رؤوس الأموال لديهم.

والأدب العبرى الحديث زاخر بالصراع بين يهود الشرق ويهود الغرب، وكما هو معروف فقد نهل اليهود الذين عاشوا بين أحضان العرب كل العادات والتقاليد العربية، ولكنهم حافظوا على هويتهم بتمسكهم بأهداب الدين.

فنرى فى رواية «الجالسة فى الجنات» للأديب الصهيونى المعاصر، (حاييم هزاز)، يجرى هذا الحوار على لسان بطله «صهيون» الذى حضر إليه أحد اليهود الإشكنار، فقال له «صهيون» مداعبا:

ـ من أين يأتى المسيح اليهودى؟ من الإشكناز أم من يهود اليمن؟

فرد عليه الإشكنازى قائلا: بالطبع من الإشكناز.

فأجابه اليمنى قائلا:

كيف؟ من المؤكد أن المسيح اليهودى سيأتى من بين اليمنيين ويمتطى إشكنازى أبيض مثل حمارى الأبيض هذا[٣].

---

(٣) حاييم هزاز: رواية «هيوشيفت بجانيم» أى «الجالسة في الجنات» ص ١٣٧.

ويقول البطل فى موضع آخر:

«كأن العالم لم يخلق إلا للإشكناز»[٤].

ثم يلعنهم قائلا:

«الإشكناز أشرار.. حيوانات نجسة»[٥].

وأغلب يهود الغرب علمانيون.

حيث يقول «يهودا بورلا» فى رواية «عقبيا»:

«أما صلاة الإشكناز فغريبة على وجه الخصوص: بلا نظام ولا تقديس أو وقار.. هاهم يتكلمون، يتنقلون ويتجولون وقت الصلاة، وكأن كل واحد منهم يهيم على وجهه...»[٦]

وأود أن أشير إلى أن نقطة التحول النهائية التى أصابت يهود الشرق، أتت بعد أن ورث الحكم البريطانى الحكم التركى فى نهاية الحرب العالمية الأولى. ومنذ هذه الفترة اختفت أفضلية يهود الشرق، الذين تحدثوا العربية وعلت مكانة نازحى أوروبا. وعاش يهود الشرق على هامش الجسد الرئيسى الحاكم فى اليشوف ومؤسساته، وهم يهود أوروبا وروسيا وبولندا.

وتأججت التوترات الخطيرة التى أصبحت قائمة فى الاستيطان الجديد بين يهود الغرب من ناحية وبين أبناء الطوائف الشرقية المختلفة من ناحية أخرى[٧]

وهناك سلم اجتماعى بين يهود الشرق أنفسهم، فنرى أن يهود مصر، والعراق وسوريا ولبنان قد استوعبتهم إسرائيل من الناحية الاقتصادية والثقافية فقط عكس يهود اليمن وإيران وكردستان الذين يقبعون أسفل السلم الاجتماعى. وأسندوا إليهم الأعمال الوضيعة.

وإن كانت السلطة الحاكمة وعجلة الإدارة والاقتصاد، فى أيدى يهود الغرب فقد تفوق يهود الشرق عليهم فى اللغة والأدب وتنظيم الطائفة والتمسك بالدين والحفاظ على بعض العادات العربية التى اكتسبوها من العرب.

وإذا إفترضنا أن ٢٠٪ من عدد السكان هم عرب فلسطين، و٤٠٪ يهود شرق، و٤٠٪ يهود غرب

سنجد أن ٦٠٪ من إجمالى عدد السكان أصلهم شرقى والمتحكم فيهم من صهاينة الغرب ٤٠٪.

---

(٤) المصدر السابق ص ١٧٨.

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٤.

(٦) يهودا بورلا: رواية «عقبيا» ص ٢٣٠/٢٣١.

(٧) أبراهام شطال: متحيم بينعدتييم بعم يسرائيل (توترات طائفية فى شعب إسرائيل) ص ٢٨.

التراث العلمى الإسلامى ذاكرة الأمة ورصيدها الحضارى

للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا(*)

شهدت العقود الأخيرة اهتماما متزايدا بعلوم الحضارة العربية الإسلامية سواء من جانب الباحثين العرب والمسلمين أو من جانب المستشرقين والفلاسفة ومؤرخى العلم الغربيين. لكن البعض يتساءل أحيانا عن جدوى البحث فى كتب قديمة تعود بنا إلى الوراء ألف عام أو يزيد.. يقولون: لماذا تبذل كل هذه الجهود المضنية فى عملية رصد المخطوطات وجمعها وفهرستها وترميمها وحفظها، ثم فى تحقيق نصوصها ومعالجة نماذجها نسخا وقراءة وحلا لمشكلاتها واستجلاء غوامضها، ثم فى تناولها بالدراسة والتحليل والتفنيد بحثا عما يمكن أن تتضمنه من معلومات قد تفيد أو لا تفيد؟

وأنصار هذا الاتجاه فى التعامل مع التراث العلمى -رغم قلتهم- ينكرون الماضى تماما ويزدرون أى محاولة لإحياء تراثه. ويوجد فى ساحة الفكر العربى من يتبنى هذا الموقف الرافض لأى ربط بين التاريخ والحاضر بحجة أن مثل هذا الربط لا يصمد أمام أى تحليل عقلى دقيق، حتى وإن كان يفيد ظاهريا فى استنهاض الهمم ورفع المعنويات فليس فى التاريخ البشرى -أمجاد معنوية تتحول إلى جزء من «الجينات» المكونة لشعب من الشعوب وتظل كامنة فى أفراده على شكل استعداد للنهوض ينتظر اللحظة المناسبة لكى يصبح واقعا متحققا(١) بل إن هناك بكل

(*) عميد كلية العلوم - جامعة القاهر.

(١) د.فؤاد زكريا، أين العرب من الإبداع العلمى، مجلة آفاق علمية، العدد الأول، ١٩٨٥م.

ونشير هنا إلى الخطأ الواضح فى السند العلمى لعبارة الكاتب واستخدامه لكلمة «جينات» دون إلمام بمعناها الذى ازداد عمقا بعد اكتشاف «الجينوم» البشرى.

أسف، من أبناء جلدتنا- نحن معشر العرب والمسلمين- من يعيش بين ظهرانينا ويعلن صراحة أن إحياء التراث إنما يكون بقتله!![٢]

وإذا كان لأنصار ما يسمى بـ« القطيعة المعرفية » حججهم ومبرراتهم، فإن قضية الدفاع عن التراث العلمى وأهميته من القضايا التى تثار بين حين وآخر فى مؤتمرات وندوات عالمية وكان الحديث عنها -ولايزال- مرتبطا بمبحث تاريخ العلم وفلسفته. فقد تساءل « روبرت هول » فى خطابه أمام الجمعية البريطانية لتاريخ العلوم سنة ١٩٦٩م عما إذا كان من الممكن أن يصبح تاريخ العلم تاريخا؟ أى يصبح مجرد شىء من الماضى:

Can the history of science be history?

وفى عام ١٩٩١م عقدت فى « فلورنسا » ندوة لمناقشة المكانة التى يمكن أن يحتلها التراث العملى فى المجتمع الأوروبى المعاصر.

وفى سبتمبر من عام ١٩٩٧م ألقى « جون هيدلى بروك » كلمة فى الاحتفال بالعيد الذهبى « الخمسينى » للجمعية البريطانية لتاريخ العلوم، الذى أقيم بمشاركة الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم، وجعل عنوان خطابه السؤال التالى:

هل هناك مستقبل لتاريخ العلم؟

Does the history of science have a future?

وكان دافعه لهذا التساؤل أننا نسمع أحيانا « شائعات » تردد أن نهاية العلم قد اقتربت، ولن يبقى هناك شىء نحتاج إليه من العلم بعدما نتمكن من استنساخ الإنسان ونتوصل إلى تفسير لخطة الخلق.. ألا تعنى نهاية العلم نهاية لتاريخه؟.. ثم يقول « بروك » معلقا على سؤاله: « من الواضح لأول وهلة أن هذا غير ممكن، ومع ذلك فإن المؤرخين مشغولون بهذه القضية التى يزداد الحديث عنها مع نهاية كل من القرون الأربعة الأخيرة »[٣]

ونحن من جانبنا نطرح فى هذه الدراسة بعض جوانب القضية المثارة قوميا وعالميا لنتعرف على أهمية تراثنا العلمى فى حاضرنا ومستقبلنا.

التراث العلمى مشترك إنسانى .. ولكن

••

تشهد حركة إحياء التراث العلمى منذ عدة عقود نشاطا منظما على مستوى العالم يهدف إلى إعادة نشر الأعمال الكاملة للعلماء، على اعتبار أن هذا التراث مشترك

---

(٢) د.صلاح قنصوة، ندوة «الجمالية العربية»، مجلة الفكر العربى، العدد ٦٧، ١٩٩٢م.

(٣) راجع المقال الافتتاحى بعنوان «مستقبل تاريخ العلوم فى المجلة البريطانية لتاريخ العلم "BJHS":

John Hedley Brooke, Does the history of science have a future, BJHS, 32, PP. 1-20, 1999.

إنسانى ومسئولية دولية تستوجب الرعاية والتعاون من جميع الدول، بما فى ذلك الدول الغنية والنامية من العالم الثالث. فقد حدث أن لجأت الهيئات المسئولة عن نشر الأعمال الكاملة للعالم الشهير «برنوللى» إلى تدعيم جهودها عن طريق الاكتتاب العام، ويجرى حاليا إعداد طبعة جديدة لهذه الأعمال من خلال التعاون بين أكثر من سبع دول.

وسوف تصدر أجزاء هذه الطبعة تباعا فى نحو خمسة وأربعين مجلدا.

كذلك أمكن إصدار مجموعة الأعمال الكاملة لعالم الرياضيات المعروف «أويلر» عن طريق الاستعانة بإمكانيات ست دول، بالرغم من أن قاعدة العمل كانت تقع جغرافيا فى سويسرا.

وقد شرعت الولايات المتحدة الأمريكية حديثا فى تبنى هذا المبدأ لإصدار أعمال العديد من العلماء أمثال «جاليليو» فى إيطاليا و«نيوتن» فى إنجلترا و«جاوس» فى ألمانيا و«ديكارت» و«لابلاس» و«لاجرانج» فى فرنسا، وغيرهم. وربما يدهش المرء لطول الوقت الذى يستغرقه إنجاز مثل هذه المشروعات، ناهيك عن ضخامة التكلفة، فقد استغرق إصدار أعمال عالم الرياضيات الشهير «كوشى» أكثر من خمسين سنة.

ويواكب هذا الاهتمام العالمى بعملية إحياء التراث العلمى نشاط مكثف لمعالجة قضايا تاريخ العلوم، تتجلى مظاهره فى إنشاء الأقسام والمعاهد والمؤسسات الأكاديمية المتخصصة فى الكثير من جامعات العالم، وفى إصدار أكثر من مائة مجلة دورية متخصصة فى تاريخ العلم بعامة، أو فى أحد مباحثه، أو فى إحدى مراحل تطوره عبر العصور. يضاف إلى ذلك ما يعقد من مؤتمرات دولية فى تاريخ العلم بصورة دورية كل ثلاث أو أربع سنوات ، منذ عام ١٩٢٩م، وقد بلغت حتى الآن عشرين مؤتمرا، وعقد أحدها فى القدس عام ١٩٥٣، وكان آخرها فى «لييج» ببلجيكا سنة ١٩٩٧م. وسوف يعقد المؤتمر الحادى والعشرون فى الفترة ٨-١٤ يوليو ٢٠٠١م بالمكسيك العاصمة وعنوانه «العلم والتنوع الثقافى» Science and cultural diversity ويوضح الجدول التالى قائمة المؤتمرات الدولية فى تاريخ العلم(٤).

---

(٤) لمعرفة الإصدارات اللاحقة لأعمال هذه المؤتمرات الدولية، وأهم المجلات المتخصصة فى تاريخ العلم يرجع إلى: مجلة العلم والمجتمع، الترجمة العربية، ٨٢/١٦٠ ، اليونسكو، مارس/مايو ١٩٩١م.

المؤتمرات الدولية فى تاريخ العلم (*)

المؤتمـر	المكـان	تاريخ الانعقاد
١	باريس	٢٠-٢٥ مايو ١٩٢٩
٢	لندن	٣٠ يونيو - ٤ يوليو ١٩٣١
٣	البرتغال	٣٠ سبتمبر - ٦ أكتوبر ١٩٣٤
٤	براغ	٢٢-٢٧ سبتمبر ١٩٣٧
٥	لوزان	٣٠ سبتمبر - ٦ أكتوبر ١٩٤٧
٦	أمستردام	١٤-٢١ أغسطس ١٩٥٠
٧	القدس	١٤-٢١ أغسطس ١٩٥٣
٨	فلورنساميلان	٣-٩ سبتمبر ١٩٥٦
٩	برشلونة مدريد	١-٧ سبتمبر ١٩٥٩
١٠	إتياكا	٢٦ أغسطس - ٢ سبتمبر ١٩٦٢
١١	وارسو	٢٤-٣١ أغسطس ١٩٦٥
١٢	باريس	٢٥-٣١ أغسطس ١٩٦٨
١٣	موسكو	١٨-٢٤ أغسطس ١٩٧١
١٤	طوكيو - كيوتو	(١٩-٢٧) أغسطس ١٩٧٤
١٥	أدنبره	١٠ - ١٩ أغسطس ١٩٧٧
١٦	بوخارست	٢٦ أغسطس - ٣ سبتمبر ١٩٨١
١٧	بركلى - كاليفورنيا	٣١ يوليو - ٨ أغسطس ١٩٨٥
١٨	هامبورج - ميونخ	١-٩ أغسطس ١٩٨٩
١٩	سرقسطة - إسبانيا	يوليو ١٩٩٣
٢٠	لييج - بلجيكا	يوليو ١٩٩٧
٢١	اسبرتادو - المسكيك	٨-١٤ يوليو ٢٠٠١

(*) يلاحظ غياب البلدان العربية والإسلامية من قائمة الدول المضيفة للمؤتمرات..!

ولا نجد فى تعليقنا على هذا العرض الموجز لخريطة الاهتمام العالمى بقضايا التراث العلمى أفض من كلمات « جان دومبريه » الذى يرى « أن التراث العلمى لايزال مجال عمل ضخم لم يتم » ويقرر وجود فجوات واسعة وقصور شديد فى الأعمال التى تضمنتها النشاطات الدولية، إذ « ليس للعلماء غير الغربيين أى وجود بها، كما أنهم لم يحظوا بأى إعلام شامل عنهم، وفضلا عن ذلك فإن علماء الرياضيات والفلك يظهرون بصورة أوضح من التى يظهر بها الجيولوجيون وعلماء التاريخ الطبيعى، وهذا يعكس التحيز بصورة منفرة فى التعامل مع التراث العلمى، فنحن اليوم لانزال نعرف شارحى إقليدس، بدءا من ثابت بن قرة إلى أديلارد الباثى، ومن جيرار الكريمونى إلى عمر الخيام الذى لا يمكن إغفال ذكره باعتباره مبدعا وشاعرا وعالما فى الرياضيات »(٥).

ونضيف من جانبنا أن هذا التحيز الواضح فى الاهتمام العالمى بتراث العلماء الغربيين دون غيرهم يجب أن يقابله جهد مكثف من جانب أصحاب الحضارات المختلفة التى أسهمت فى صنع التقدم العلمى والتقنى عبر كل العصور، وخاصة أبناء الحضارة العربية الإسلامية التى شهدت دواما وانتشارا متلازمين لم تحققهما أى حضارة أخرى، وظل علماؤها الرواد لأكثر من ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة، ولا نعرف اليوم شيئا عن أغلب مؤلفاتهم ومخطوطاتهم المفقودة، أو التى لاتزال بكرا فى مظانها المختلفة بأنحاء متفرقة من العالم، تنتظر من يتولى البحث عنها وإحياءها لتحظى من جموع الباحثين بدراسات تحليلية معاصرة. ذلك أن العارفين بعالم المخطوطات يقدرون عدد المخطوطات الموجودة داخل العالم العربى وخارجه بما لا يقل عن ثلاثة ملايين وتصل نسبة التراث العلمى إلى حوالى ٢٠٪ منها. وهو تراث غنى فى الكم والكيف معا، كما أنه يتميز بالتنوع بين فلسفة وطب وهندسة وفلك وجبر وفيزياء وغير ذلك بل إنه يشتمل على معارف قيمة فى علوم معاصرة كالجيولوجيا والوراثة والميكانيكا والبيئة وغيرها.

وليس هناك من شك فى أن الدراسات التراثية من شأنها أن توضح أهمية التحليل المنطقى لتاريخ العلوم وتقنياتها فلا يمكن لأى باحث منصف مدقق إلا أن يضع النشاط العلمى والتقنى فى سياقه التاريخى العام على اعتبار أن هذا النشاط عملية ممتدة ومتصلة خلال الزمان، ولن يوجد فهم واقعى للعلم، بدون نقد متواصل له، فليس ثمة معرفة إنسانية لا تفقد طابعها العلمى متى نسى الناس الظروف التى نشأت فى أحضانها وأغفلوا المسائل التى تولت الجواب عليها، وحادوا عن الهدف الذى وجدت أصلا من أجله. ومن هنا يستحيل الفصل بين التراث العلمى ومراحله التاريخية نظرا لأهمية تاريخ العلم فى صياغة نظريته وفلسفته العامة، وإذا ما ران على العلم جهل بتاريخه، فإنه لا محالة مخفق فى مهمته(٦).

إن قضية التراث العلمى الإسلامى فى جوهرها قضية وجود ومصير ربما تكشف عن حقيقة ذاتنا وطاقتنا، تضىء لنا معالم وآفاق الطموح، وهى قضية تتسع أبعادها زمانا، وتستوعب الماضى والحاضر والمستقبل كما ترحب مكانا وتتجاوز حدود وطننا العربى(٧). وفى هذه الكلمات تحليل لقضية التراث إلى عناصر أساسية ثلاثة: الزمان والمكان وتحقيق الذات(٨).

---

(٥) عمل جان دومبريه أستاذا للرياضيات بجامعة «نانت» وكان رئيسا للجمعية الفرنسية لتاريخ العلوم والتقنيات فى الفترة من ١٩٨٣ – ١٩٨٨ م. راجع:
Jean Dhombres, "On the Track of Ideas and Explanation Down the Centuries: The History of Science Today", Impact of Science on Society, UNESCO (1990), No. 159, p.191.

(٦) راجع: صلاح قنصوة، فلسفة العلم، دار الثقافة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨١.

(٧) د.عائشة عبدالرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، دار المعارف ،ط٢ ، ١٩٩١م.

(٨) د.فيصل الحفيان، موقع تراثنا العلمى وإشكالاته، ندوة قضايا المخطوطات (٣) معهد المخطوطات العربية، القاهرة ٢٠٠٠م.

من الإعجاز الطبى فى القرآن الكريم

إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى

(١)

للأستاذ الدكتور / السيد الجميلى

نزل القرآن الكريم باللغة العربية، بلسان عربى مبين، فكان ذلك فخراً وشرفاً، ومجداً أثيلاً لا مزيد عليه للعرب وللعربية تتيه به على مدى الزمان، وحتى الأبد الأبيد.

من ثم كان من أولى الأدوات وأهمها على الإطلاق لفهم آيات القرآن الكريم، والوقوف على مقاصدها، واستيعاب روعتها.. الإحاطة باللغة العربية، ودقائقها ولطائفها الجليلة.

ثم إنه لابد لاستجلاء جوانب الإعجاز العلمى ولاسيما الإعجاز الطبى فى القرآن فى كتاب الله الخالد، لابد حتما من التعويل على كثير من الأدوات والآلات اللغوية والبيانية حيث إنه بواسطتها ومن خلالها تستخرج الكنوز العامرة المأهولة، وترتاد العوالم غير المحدودة التى تنطق بالحق واليقين.

قال تعالى فى كتابه العزيز على لسان زكريا ـ عليه السلام ـ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(١).

كان زكريا نبيا من أنبياء بنى إسرائيل، وكان ـ عليه السلام ـ مستجاب الدعوة، فلم يدع الله تعالى إلا استجاب له، لقوله:

﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾(٢) فهو لم يعهد من ربه ـ سبحانه وتعالى ـ إلا الإجابة، وهذا خيرُ دليل وبرهان على أنه من المقبولين الصالحين المرضيين، فمن كان شأنه هكذا، لابد أن يكون مقبولا مرضياً.

تقدم العمر بزكريا ـ عليه السلام ـ ولم ينجب ولم يعقب، وكانت امرأته عاقراً

(١) سورة مريم، الآية ٤.

(٢) سورة مريم، الآية ٤.

لاتلد .. وخاف أن يرثه بنو عمه وعصبته من بعده[٣].

ثم بعد تقديم الحيثيات والدواعي والأسباب يقدم زكريا بين يدى ربه توسلا ورجاءً أن يهب له من لدنه وليا:

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾[٤].

فتأتيه الإجابة عن مطلوبه:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾[٥].

ومن لطائف الإعجاز الطبى فى القرآن قوله: ﴿ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ فلماذا عزا وأرجع الوهن إلى العظم بخاصة؟؟

إنه من المقرر الثابت عند الأطباء أن العظام فى نموها وفى صلابتها وصلادتها وقوتها تعتمد وتعوِّل أساسا على هرمون التستوستيرون Tcstosterone وهو المسمى بالهرمون المذكر، لذلك يعمدأ خصائيو العظام ومعالجو هشاشة العظام إلى هذا الهرمون لتدعيم وتقوية الهيكل العظمى والحياطة له من التهشم والكسر.

وهناك حالة طبية معروفة «البلوغ المبكر» والمسماة Precocious Puberity وفيها يرتفع معدل الهرمون المذكر فى الدم إلى مستويات عالية يترتب على ذلك ظهور أمارات وأشراط وعلامات البلوغ المبكر فى الصبى وهى المسماة بعلامات الجنس الثانوية Sexual Characters. Secondary المتمثلة فى ظهور الشارب واللحية، وتضخم الصوت وغلظته، وقوة العضلات وبلوغ الجهاز التناسلى مبلغ التمام حيث تتضخم الأعضاء التناسلية للذكر ويصل إلى درجة البلوغ، وفى نفس الوقت لوحظ قصر عظام الساقين.. وهذا تبريره علمياً وطبياً ظاهر الوضوح إذ إن كثافة وزيادة الهرمون المذكر فى الدم يعمل على التسارع والعجلة فى نمو العظام عند الصبى وتكلس نهايات هذه العظام وتصلبها حيث تمتلىء الفراغات المتروكة للنمو التدريجى الذى يساير العمر الزمنى، لكن الكثافة الهرمونية للهرمون المذكر تسبق فى إغلاقها هذه المساحات المتروكة عن المساعدة فى نمو هذه العظام نموا كاملاً.. ولذلك نرى مثل هؤلاء الأفراد قصيرى القامة، من حيث إن طول قصبة الساق أقصر من نظيرتها فى الشخص الطبيعى مع كثافة شعر الرأس وكثاثة اللحية والشارب وكبر حجم الأعضاء التناسلية وفى نفس الوقت كل ما يتصل بهذا الخلل والاضطراب الهرمونى من آثار وتداعيات على المدى القريب والبعيد على حد سواء.

ولذلك فإن قلة هذا الهرمون تأتى عادة بتناقص تدريجى فى الرغبة الجنسية، وكذلك القدرة على الأداء والمعاشرة ويكون هذا

---

(٣) المراد بالميراث: العلم والنبوة، لأن النبى - ﷺ - قال: «نحن الأنبياء لانورث، ما تركناه صدقة» أخرجه الإمام أحمد فى ٦،٤/١ ،٩ ،١٠ و٤٧ و٤٩ و٦٠ و٢٠٨ و١٤٥/٦.

(٤) مريم ٥.

(٥) مريم ٧.

العرض تدريجيا حسب درجة النقص وقد يكون حاداً إذا نقص الهرمون بدرجة كبيرة من ثم يصل الحد بالشخص إلى العجز الحسى، والعنة.

لذلك لايكون خافيا على أحد أن هذا الهرمون هو المسئول عن نمو الأعضاء التناسلية، وهو المحفز والمنشط للرغبة الحسية، وهو الطلسم والمقوى للقدرة على الإنجاب، وكثيرا ما يكون عقم الرجال معزواً ومرجوعاً إلى نقصه بدرجة كبيرة فإذا ما تمت استعاضة هذا النقص فيه كان الرجل مهيئاً للإنجاب.

ونحن من هذه المثابة ومن هذا المنظور نرى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقدم لنا فى كناية لطيفة من أروع الكنايات اللطيفة فى كتابه العزيز.. وهى إشارة فائقة البلاغة فى قوله ـ تعالى ـ على لسان سيدنا زكريا ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ :

﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ وهذا تبرير ضمنى «فى صورة بالغة الروعة» بأن الشيخوخة التى يصحبها ويتزامن مع تقدمها ضعف ووهن بسبب نقص هذا الهرمون هما المسئولان عن عدم القدرة على الإنجاب لذلك كان مناط الاستهوال والغرابة من زكريا ـ عليه السلام ـ عندما بشرته الملائكة بيحيى.. كيف يكون ذلك والأسباب رثة، والعلائق مقطوعة، والمناخ من كل الجهات ليس موائما ولا مناسبا.. الشيخوخة من قبله ووهن العظام للسبب الذى ذكرناه آنفا، ثم إن امرأته هى الأخرى كانت عاقراً بطبيعتها فهى أيضا لاتلد لأسباب يعلمها الله وحده.. ومن هنا كانت المعجزة.. وكانت البشرى آية من آيات الله ـ تعالى ـ الذى يصرف فى ملكه ما يشاء.

ابتدر زكريا الاستهوال والغرابة وقتذاك لأنه نظر إلى الأمر من جهة الأسباب ووجوب ترابطها، وحتمية تساوقها وائتلافها على نسق واحد وسبيل واحدة حتى تتساند مع بعضها البعض لتحقيق المستهدف المقصود.. ولكنه فى نفس الوقت يعلم أن المسبب ـ جل شأنه ـ فوق الأسباب وهو القادر القاهر الذى أمره بالكاف والنون

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٦)

لو أن الإنسان بحث عن الأسباب، واقتران هذه الأسباب بما توجبه من نتائج وما تتأدى إليه من تداعيات فى كل أعيان المسائل والأمور المهمات ـ لأنهك عقله وفكره فيما لاطائل من ورائه ولكن التفويض والتسليم لأمره ـ تعالى ـ وطلاقة قدرته هو الأوْلى بالتقديم.

لم يكن الأطباء وقت نزول القرآن الكريم يدركون أو يعلمون شيئا عن هذه اللطيفة الجليلة من بلاغة القرآن، ولو أنهم عرفوها ووقفوا على سرها ومجلاها لأدهشتهم وكانت من أقوى الأدلة والبراهين على أن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين..

(٦) سورة ياسين، الآية ٨٢.

قبل أن تصير حصيدا

للأستاذ / مجدى عبد الحميد بشير

لا تعجب عزيزى القارئ حينما تسمع عن الجسور التى تفكر والكبارى العاقلة أو عندما تقرأ عن الطائرات التى تشعر وتحس، فنحن فى عصر كاد الفارق فيه بين الواقع والخيال يتلاشى، والحاجز بين الوهم والحقيقة يتداعى، مؤذنا بحقبة تزداد فيها أسهم رفاهية الإنسان ارتفاعا، وتتسع خلالها دائرة التقدم، والازدهار فتصبح أرحب آفاقا، وأشهى ثمارا، وأكثر مغنما.

فالطرق السريعة مثلا هى التى ستقوم باستدعاء طواقم الصيانة عندما تحس حاجة ماسة لإجراء بعض الإصلاحات. وأما الطائرات فستزود بمواد حساسة فى الجلود المستخدمة فيها، الأمر الذى يمكنها من دق ناقوس الخطر الذى يشى بمتاعب تصيب ما بالطائرة من مواد معدنية. وأما الكبارى والأنفاق فسوف تتاح لها فرصة تكييف أمورها ذاتيا، وذلك للتعامل الناجح مع ما تواجه من ضغوطات فجائية ناشئة عن هبوب الرياح العاتية، والعواصف المزمجرة، والأعباء المرورية الثقيلة التى لم تكن في الحسبان والأمثلة لا تنتهى.

كل هذه التطورات سوف تصبح أمرا محققا فى مدى عشرين عاما على الأكثر. وعقدان من الزمان فى مسيرة نهضة الإنسان أمر ذى بال إذا ما عدنا بالذاكرة إلى عصور طويلة قضاها مثلا فى ممارسة الصيد والجمع والالتقاط. وسر هذه الطفرة الكبيرة فى رقى الإنسان يعزى إلى ما أطلق عليه العلماء اسم : المواد الذكية التى كان لاستخدامها الفضل الأكبر فى إعادة تشكيل عالمنا وصياغة أنساق تفكيره بشكل يجعل الحياة أكثر يسرا وثراء، ومضاء ولقد تناول هذا الموضوع كتاب صدر عن الجمعية العالمية للمستقبل عنوانه : « فتوحات مستقبلية ».

والمسألة تبدأ حينما تقوم تلك المواد الذكية الإيجابية السلوك بمراقبة أحوالها ذاتيا، ومن ثم ترفع النتائج فى تقارير تدخل ملفات الحاسوب لتحليلها وتصنيفها وتبويبها لإيجاد الحل لما قد يكون بها من مشاكل. ولإيضاح الأمر يقول مؤلفا الكتاب : إن الكبارى فى المستقبل ستزود

أطرافها ورؤوسها بأعصاب – ولا تنزعج قارئى العزيز – فهذا هو التعبير البديل للمواد المعروفة لدينا جميعا بالألياف البصرية، بالإضافة إلى بيانات تتبع وتستقصى ما يمكن أن يوجد من شقوق بالمواد الخرسانية بتلك الجسور، بل تتغلغل فى معرفة الاهتزازات الناتجة عن أعمال المرور الأثقل من العادى. واستجابة لما تتلقى من معلومات، فإن العضلات فى الكوبرى ستشتد وتقوى مما يتولد عنه قوة إضافية. أما الأنسجة الأخرى بالكوبري، فإنها تقوم بمهمة أكثر إبهارا، فهى تصلح أية شقوق يزداد خطرها إن تركت وهى عملية شبهها الكتاب بما تقوم به خلايا الجسم من رتق لأى قطع أصاب أحد أعضاء الإنسان.

ويقدم الكتاب وصفا شاملا لأربعة أنواع متميزة لما أسماه العضلات الاصطناعية التى تستخدم فى مهمة جوهرية داخل المواد الذكية، فهذه العضلات الاصطناعية لها القدرة على تغيير وظيفة وشكل وصلابة ومتانة تلك المواد الذكية، وجعلها مرنة مطواعة. ولكل نوع من تلك الأنواع الأربعة مزاياه وإمكانياته والأهم من كل ذلك أن تلك المواد قد وجدت طريقها للتطبيق العملى. وأولى تلك المواد هى السبائك التى تتشكل منها الذاكرة، تعريفها يتلخص فى أنها مواد تستخدم فى أداء وظائف تتطلب الانسيابية، والتلقائية، أكثر من القوة الشديدة.

والتغيير فى تلك المواد يتسم بالبطء، لكنه البطء الحاسم والحيوى فى حينه، وتتمثل أهم معادن تلك المجموعة فى سبائك عنصرى النيكل والتيتانيوم التى يمكنها أن تكتسب شكلها بعد أن يقوم المصنعون بإجراء بعض العمليات لها من قبيل الثنى واللى والفرد والمط والسحب، بحيث تزيد على طولها الأصلى بنسبة لا تقل عن ٨٪ فتصبح أكثر فائدة وأعظم جدوى. ومن أهم ما تستخدم فيه تلك السبائك حاليا أذرع الإنسان الآلى، وأجهزة أخرى دقيقة أثبتت أهمية لا تنكر فى راحة الإنسان وتوفير جهده وماله ووقته.

وثانى هذه المواد الذكية هى المواد الكهربية المرنة، ولها القدرة على سرعة تغيير الشكل بأسلوب فورى، تماشيا مع التيار الكهربى الذى تتعرض له، بل إن لها خاصية فريدة تتمثل فى أنها تتمدد وتتقلص فى آن واحد معا تقريبا. وتعتبر مكبرات الصوت من أهم مجالات استخدامها إضافة إلى رؤوس وحبارات طابعات الحواسيب.

وثالث المواد الذكية هى : المواد المكبوحة مغناطيسيا أى : التى تم التحكم فى قدرتها المغناطيسية لينحصر تجاوبها فقط مع المجالات الممغنطة، ولا يمتد إلى التجاوب مع التيارات الكهربية، ومن ثم يصبح مجال الحركة فى تلك المواد محدود الإطار، إلا أن القوى الفائقة المتوافرة بتلك المواد تجعلها ذات فائدة عظيمة فى المحركات، وأجهزة التصوير بالإشعاع والرنين المغناطيسى.

ورابع تلك المواد وأخطرها هى السوائل، أى المواد الكهربية والمغناطيسية المسالة التى عندما تتعرض لمجال مغناطيسى أو كهربي، فسرعان ما تتحول إلى مواد تتخذ قواما يشبه فى غلظته ومتانته قوام نفايات قصب السكر بعد عصره، ويتم ذلك فى بضع أجزاء من الثانية. وأهم

تطبيقات تلك المواد هو استخدامها فى نظم الكوابح والأجهزة سريعة الالتحام. كالأقفال عالية الجودة.

وبعد ذلك الشرح الوجيز غير المخل لتلك الأصناف الأربعة من المواد الذكية يعلق مؤلفا الكتاب قائلين : إن معظم وسائل الراحة التى لا غنى للإنسان عنها، والتى صارت من بديهيات حياته، لم تكن لتبرز إلى حيز الوجود لولا هذه المواد الذكية، التى لم يكن الإنسان ليحلم بها منذ قرن من الزمان لاغير، وسيكون بإمكاننا كما يؤكد كتاب إمكانات مستقبلية القدرة الفائقة على حيازة أجهزة وآلات تجعلنا نعيش فى عالم أكثر قوة وأشد ترابطا.

وهنا وقفة، نؤكد فيها لمؤلفى الكتاب وغيرهما أن التقدم المادى بمفرده لا يمكنه إيجاد ذلك العالم المنشود الذى لابد له من السمو الروحى ورصانة الأخلاق ونبل المقصد. الذى بينه الشاعر فى قوله :

لا تحسبن العلم ينفع وحده

ما لم يتوج ربه بخلاق

فالأخلاق جزء لا يتجزأ من منظومة التقدم إن أريد لها النجاح بصدق. ثم يستطرد الكتاب، فيسوق نقطة علمية أخرى يوضح فيها أنه إلى جانب المواد الذكية سالفة الذكر توجد مواد أخرى تسمى : المواد فائقة التوصيل التى يمكن أن تحدث زيادات هائلة فى كفاءة الطاقة، لا أقول فى الطاقة فحسب، وهو أمر سيكون بالغ التأثير فى الارتقاء بما لدينا من أجهزة سترتفع كفاءة أدائها الى المستوى الذى يحقق الفائدة المرجوة، ولقد قام الباحثون بالفعل بتصنيع وتخليق (كوابل) لها قدرات توصيل فائقة، يمكنها أن تحل محل نوعية الكوابل والأسلاك النحاسية الصنع المستعملة حاليا فى خطوط التوصيل لمسافات طويلة وهى طبعا نوعيات ضئيلة الكفاءة إذا ما قورنت بتلك النوعية الجديدة من الكابلات ولن ينتظر العالم سوى سنوات معدودات حتى تنقل تلك الكوابل الكهرباء إلى شتى أنحاء أمريكا واليابان وأوروبا.

ولا يتوقف الأمر على مجرد نقل الكهرباء وتوزيعها بل يمتد التأثير المجدى إلى القوارب والسفن، والمراكب والقطارات ومعظم ما نستخدم من أجهزة تجعل الحياة أكثر إمتاعا وأعلى جودةو كل ذلك بفضل المجهودات الجبارة المبذولة فى تطوير الموصلات فائقة القدرة. والقاعدة فى ذلك ترتكز على مسلمة علمية تقول : «إن الإنسان إذا قام بلف سلك من الأسلاك فائقة التوصيل بشكل حلزوني، فإن هذا السلك سيشكل الأساس والقاعدة لصنع مغناطيس كهربى فائق القوة، وإن بدا صغيرا نسبيا، والمجالات التطبيقية لتلك المواد الجديدة مجالات رائعة حقا، فقد قام العلماء فى جامعة (أوزاكا اليابانية) وعدة شركات أخرى باليابان قاموا ببناء وصنع وإنشاء أول سفينة تدار بواسطة المغناطيس الهيدروديناميكى، والمعروف اختصارا بالأحرف (M.H.D).

وهذه السفن تعرف بـ (نفاثات الماء) وتدار كما أوضحنا بالمغناطيس فائق القوة. وعلى الرغم من أن إحدى تلك السفن تصل سرعتها الى ست عقد فى الساعة فقط وأنها صغيرة الحجم لا تستطيع نقل الحمولات إلا أن مصمميها يتنبأون أنها ستتمكن فى النهاية من دفع الحمولات

والسفن والبواخر الى سرعات تبلغ ٦٠ ميلا فى الساعة.

وآخر ما يحدثنا عنه كتاب (آفاق مستقبلية) هو العوامل عديمة أو قليلة الاحتكاك التى يمكن أن تحسن من كفاءة المحركات الضخمة العملاقة، التى تتنوع فائدتها الجمة اذ تستخدم فى إدارة المصانع وتشغيل طلمبات الرى ومعامل تكرير النفط والمنشآت الكيماوية ناهيك عن جعل بعض الأجهزة من قبيل معجلات الجزيئات، وهى تستخدم الذرة، وكذا الآلات التى تقوم باستخلاص المغناطيسيات إضافة إلى أجهزة التصوير الطبية جعل كل تلك الأجهزة وغيرها أصغر حجما وأجمل نسقا، وأكثر كفاءة فى استخدامها للطاقة ترشيدا وتوفيرا، وأحيانا أرخص ثمنا كل ذلك باستخدام أنواع من المغناطيس فائق التوصيل، بدلا من الأسلاك النحاسية الحالية التى أصبحت تقليدية من مخلفات الماضى، ولا تتوقف طموحات الإنسان عند حد، فطموحات الإنسان كما يقول المثل حدودها السماء ويوم تموت روح الطموح فى داخل الإنسان تتوقف الدنيا لكن على الإنسان أن يعلم علم اليقين أن عجلة التقدم التى لن تعود إلى الوراء لا بد لها أن تصل الى محطتها النهائية وتبلغ مرساها الأخير، فالسباق العلمى والتقدم المادى لابد إلى زوال، والدنيا قنطرة ومزرعة للآخرة يبذر فيها الصالحون بذور الخير التى تؤتى أكلها فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وأما غرور الإنسان وانبهاره بما حصل عليه من علم كان الأساس المكين فيه ما حباه الله إياه من عقل استعمله فى التمرد على مولاه. كل هذا لابد له من وقفة يفيق فيها المغرور من غروره، أكد ذلك البارى سبحانه فى كتابه الكريم فقال:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

فهلا تفكرنا قبل أن تصير حصيدا!

فطبيعة الماديات الفناء والزوال، لكن الله - تعالى - لم ييئس الإنسان من رحمته، وفضله، فقال فى الآية التى تليها:

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

فيا ليتنا ونحن نبنى الحياة ونعمر الدنيا نسترشد بهدى القرآن ونور الإيمان ولا نغتر بعقولنا مهما بلغ فى التقدم شأوها وحلقت فى العلياء نجومها فإن دار السلام قد تيهأت وتزينت لاستقبال أولئك الذين أنار الله قلوبهم وهدى بصائرهم سواء السبيل.

---

(١) يونس (٢٣).

(٢) يونس (٢٤).

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ/ محمود الفشني

اخترنا لك عزيزى القارئ هذه المجموعة من الأخبار والتعليقات التى تهمك وتهمنا.

ففى جريدة «عقيدتى» الصادرة يوم الثلاثاء ٢٦ من ذى القعدة ١٤٢١ هـ/ ٢٠ من فبراير ٢٠٠١م موضوع عن ندوة للدكتور العالم زغلول النجار، وهو غنى عن التعريف نقتطف منها هذه الكلمات:

إن الآيات الكونية التى تتحدث عن الكون تزيد على ١٠٠٠ آية أى ما يعادل تقريبا سدس القرآن، ومن إعجازها أنها لم تأت للإنسان بخطاب علمى مباشر فهى لم تأت بطريق الإخبار العلمى بل جاءت بنظام الاستدلال والسبب أن الله -سبحانه وتعالى- يعلم أنه أعطى للإنسان قدرات تمكنه من استخراج النشأة الكونية بنفسه وكل يوم يكشف العلم عن إعجاز جديد لقدرة الله - سبحانه وتعالى- فى خلق الكون، والآيات الكونية تؤكد أن الله الذى أبدع الكون قادر على إعادة خلقه مرة ثانية ونستطيع الآن أن نثبت أن الإشارات الكونية فى كتاب الله تشهد بأن هذا الخلق لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

وقال الدكتور زغلول النجار: هناك منهجان لدراسة القرآن الكريم الأول وهو التفسير العلمى للقرآن الكريم وهى محاولات لحسن فهم الآية القرآنية وهو تفسير لا حركة فيه لأنه محاولة بشرية حتى إذا أخطأ فلا ينسحب الخطأ على جلال الآية.

والمنهج الآخر هو الإعجاز العلمى الذى نريد أن نثبت به للناس أن القرآن الذى أنزل قبل ١٤٠٠ عام يحوى من حقائق هذا الكون ما عجز الإنسان عن فهمه إلى اليوم.

فى تفسيره لعدد من آيات الإعجاز قال الدكتور زغلول: الله -سبحانه وتعالى- أقسم فى سورة الطارق بالأرض ذات الصدع عندما اتجه العلماء إلى البحار والمحيطات للبحث عن الثروات المعدنية بها فوجئوا أن قيعان المحيطات متصدعة.. وتمتد هذه

الصدوع لعشرات الآلاف من الكيلو مترات طولا وعرضا.. ولولا هذه الشبكة من الصدوع لانفجرت الأرض منذ اللحظة الأولى لتيبس قشرتها، هذه الصدوع التى لم تكتشف إلا منذ أواخر الستينيات ذكرها القرآن قبل ١٤٠٠ عام.

وفى مطلع سورة الطور نجد الله يقسم بـ« البحر المسجور » فكافة المحيطات قيعانها مسجرة بالنيران وهى آية من آيات الله أن يلتقى الضدان الماء والنار وهى ومضة قرآنية مبهرة.

وردا على ما يدعيه الغرب من احتمال وجود مخلوقات على كواكب أخرى قال الدكتور زغلول: بودى ألا ننساق وراء البدع الأمريكية والغربية فنحن نعلم من كتاب الله وسنته أن الكون مليء بالخلق ولكنه خلق هيأه الله مع ما يتماشى مع مكونات الحياة على هذه الأجرام.. وهى أمور غيبية نحن غير مطالبين بالخوض فيها وقضايا لا أرى طائلا من ورائها.

وأضاف: اكتشاف الخريطة الجينية والشفرة الوراثية إنجاز له بعد إيمانى عظيم، ومن خلاله سنكتشف دلائل جديدة على قدرة الله فى خلقه .

الحج أشهر معلومات

وفى جريدة الجمهورية الصادرة يوم السبت الموافق ١٠ من مارس ٢٠٠١م كلمة للكاتب الصحفى جمال بدوى قال فيها:

الإعلامى اللامع جمال الشاعر، لم يحالفه التوفيق فى الندوة التى قدمها على قناة النيل الثقافية عن فريضة الحج تحت عنوان: «الحج أشهر معلومات» وكان الظن أنها ستتناول حكمة الحج، وشرح مناسكه، وأن تقدم للمشاهدين ثقافة دينية صحيحة فى الوقت الذى يتوجه فيه الحجيج إلى الأماكن المقدسة.. ولكننا فوجئنا بنوعية منتقاة من الضيوف جنحوا إلى مسائل تخالف ما هو معروف عن الدين بالضرورة، وتهدم الثوابت المستقرة منذ أنزلت فريضة الحج، ومنذ أداها الرسول -ﷺ- فى ميقات معلوم من شهر ذى الحجة، وهو ما أجمعت عليه كتب السيرة والفقه فأحد المتحدثين يرى أن الحج ليس له وقت محدد(!!) ومن ثم يصح أداؤه على مدار العام، وسبق لصاحب هذا الرأى أن أثار هذه القضية فى عمود الأستاذ صلاح منتصر بالأهرام، وقوبل رأيه الغريب باستهجان المسلمين الذين يؤدون الفريضة منذ خمسة عشر قرنا على النحو الثابت فى السنة النبوية، والذى سار عليه الصحابة والتابعون وعامة المسلمين إلى يومنا.

ولكن الرجل بلغ به الجموح فى تفسير القرآن « حسب رأيه » والمعروف عند أهل العلم أن القرآن لا يفسر بالرأى، وإنما بالقرآن نفسه ثم بالسنة الفعلية والقولية كما تواترت إلينا فى الكتب الصحاح، ونسب المتحدث

نفسه إلى طائفة المجتهدين الذين يحق لهم النظر فى القرآن بالرأى، ونسى أن الاجتهاد تحكمه شروط وقواعد، أولها أن لا يتناول الثوابت القطعية التى وردت فيها نصوص محكمة، وأن مجال الاجتهاد مباح فيما لم يرد فيه نص. وذلك عن طريق القياس على أمور وردت بشأنها نصوص، ولابد من توافر علة مشتركة بين الأمرين، وبغير هذه القواعد يكون الكلام لغوا وعبثا، ومحاولة للاستعراض وجذب الأنظار.

وطلع علينا الثانى وهو من مطاريد الأزهر ومنكرى السنة ليطعن فى صحة الأحاديث النبوية، ويردد اسطوانته المشروخة التى يزعم فيها أن الأحاديث لم تدون إلا فى العصر العباسى فتعرضت للتشويه وهو قول منكر هدفه هدم الدعامة الثانية للإسلام بعد القرآن الكريم، ويتجاهل صفحات عبدالله بن عمرو ابن العاص التى دون فيها أحاديث الرسول إبان حياته الشريفة، وصحيفة عبدالله بن عباس وغيرهما.. ثم ينكر إجماع المسلمين على أداء الحج فى ميقاته المعلوم، ويثرثر بتخاريف تزعم أن موسم الحج فى ذى الحجة هو من صنع بعض السلاطين والملوك لأنهم كانوا يحبون الذهاب للحج فى مهرجانات صاخبة(!!).

لقد بذل العالم الجليل الدكتور عبدالعظيم المطعنى، وزميله الدكتور داود جهدا مباركا فى دحض افتراءات الرجلين وكشف جهلهما وضعف محصولهما من الفقه والعلم حتى إن منكر السنة لم يحسن تلاوة القرآن، وكان كل من العالمين الفاضلين صابرا فى تحمل هذا الغثاء الذى استفز مشاعر المشاهدين وأثار أعصابهم غيظا وكمدا.

وأقول للأخ جمال الشاعر: إذا كنت تريد تقليد الفضائيات المنفلتة فى تقديم الغريب والشاذ لشد انتباه الناس، وصرفهم عن مشاهدة هذه القنوات فإن أمامك مجالات كثيرة غير الدين تصلح للإثارة أما الدين فإن له حرمة وقداسة، ومن هنا يجب احترام عقائد المسلمين فقد عشنا ونحن نؤمن بأن وقفة عرفات فى التاسع من ذى الحجة، والنحر فى اليوم العاشر، وسنموت على ذلك، وسنلقى الله على ذلك، ولسنا على استعداد لسماع أقوال وآراء شاذة لمجرد التباهى والتظاهر بالجرأة.. وأرجو يا عزيزى جمال أن لا تنساق وراء موضة الفضائيات العشوائية التى تتجرأ على الدين، وتزعزع العقائد، وتثير البلبلة وقاك الله شر الفتنة وما ينجم عنها من فساد.

وفى جريدة المجتمع الهندى خبر يقول:

الإسلام دين رسمى فى السويد

أصبح بإمكان المسلم فى السويد أن يمارس فرائضه، وواجباته الدينية كافة دون

أن يتعارض ذلك مع كونه من أصل سويدى، أو يحمل الجنسية السويدية، أو يقيم على الأراضى السويدية.

بهذه العبارات يتحدث الدكتور يان صامويلسون المتخصص فى الفلسفة وعلم الأديان فى أحدث كتاب صدر له فى السويد وباللغة السويدية ويحمل عنوان «الإسلام فى السويد».

ويعرف هذا الكتاب بالإسلام فى كثير من أحكامه وواجباته، ويحوى تعريفا بمختلف الجمعيات الإسلامية الموجودة فى السويد، التى يزيد عددها على عشرة ويتلقى معظمها دعما ماليا من الحكومة السويدية.

كل يوم

وتحت عنوان «كل يوم» نشرت الأخبار هذا العمود للأستاذ مازن محمود الشوا قال فيه:

أعجب لقارئ أو قارئة نشرة الأخبار يخطئ فى النحو والتشكيل، ولا يكلف نفسه الاعتذار وتصويب الخطأ، بل لا يجهد نفسه بدراسة النحو وإتقان اللغة.

وأعجب لكاتب أو أديب أو روائى وربما سيناريست، يلجأ لاستخدام عبارات منافية للآداب العامة، متجاهلا عادات وتقاليد وأخلاقيات المجتمع الذى ينتمى إليه.. ويعتبر هذا من قبيل الإبداع، رغم أن الإبداع لا يعنى الخروج على تقاليد المجتمع بل السمو بأخلاقياته، وسلوكياته، والمحافظة على قيمه والارتقاء بمظاهره الحضارية.

بل أعجب لكاتب أو أديب أو روائى يدافع بإصرار وتحد عن الخروج على المألوف ويعتبر ذلك من قبيل حريته فيما يكتب!

وفى الصفحة الأولى نشرت الزميلة «صوت الأزهر» فى عددها الصادر فى ٩ من مارس ٢٠٠١ هذا الخبر:

مركز عالمى للإنترنت بمدينة البعوث الإسلامية

افتتح الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر مركزا للإنترنت بمدينة البعوث الإسلامية للطلاب الوافدين يتيح للطلبة استخدام الشبكة العالمية للإنترنت إلى جانب تلقينهم المواد الشرعية والعربية على أجهزة الكمبيوتر، وأكد الشيخ محمود عاشور أن الأزهر يفتح أبوابه للعالم كله وأن مدينة البعوث تمثل مركزا لسفراء ٩٤ دولة إسلامية مشيدا بالجهود المبذولة بها والتطورات التى حدثت فيها خلال فترة قصيرة. وصرح الشيخ فرحات المنجى المشرف العام على مدن البعوث الإسلامية بأن مركز الإنترنت يحتوى على ١٢ جهاز كمبيوتر وقد قام بتأسيسه ستة طلاب بالمدينة من جزر المالديف بتكلفة ٩٠ ألف جنيه، وأن المركز بالإضافة إلى خدماته التعليمية يتيح للطالب الاتصال ببلاده عن طريق الإنترنت وأضاف أنه سيتم إنشاء مركز آخر للإنترنت بمدينة

البعوث للطالبات وستقوم بتجهيزه الندوة العالمية لشباب العالم الإسلامى بالمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة.

وهذا الخبر أيضا لـ«صوت الأزهر» يقول:

ترجمة معانى القرآن الكريم إلى جميع لغات العالم

قام مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة بترجمة معانى القرآن الكريم لـ٩٠ لغة عالمية وترجمة تفسير ميسر مختصر للقرآن الكريم إلى أهم اللغات ودراسة المشاكل المرتبطة بترجمات معانى القرآن وتقديم الحلول المناسبة.

قال الدكتور محمد سالم بن شديد العوفى – الأمين العام للمجمع–: إن إنتاج المجمع من الترجمات وصل إلى حوالى ٤٠ لغة و٤٥ إصدارا وهو يشمل ترجمات معانى القرآن الكريم وتم الانتهاء من طباعتها وتضم النص القرآنى ووصل عددها إلى ٢٨ ترجمة باللغات الإسبانية والألبانية والإندونيسية والإنجليزية والأنكو والأوردية والإيغورية والباتشو والبرهونية والبنغالية والبوسنية والبورمية والتاميلية والتركية والتايلندية والزولو والصومالية والصينية والفارسية والفرنسية والقازاقية والكشميرية والكورية والمقدونية والميلبارية والهوسا واليوربا واليونانية.

أضاف الأمين العام للمجمع: إن التفسير الميسر للقرآن الكريم من المشاريع التى انتهى المجمع من إنجازها حيث دعت الحاجة إلى هذا التفسير ليكون نواة لترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة ولخلو الساحة من تفسير مختصر يعتمد على الأقوال الصحيحة ويهتم بإبراز المعانى دون إطالة أو تكرار، ويعنى بالعقيدة الصحيحة ويبتعد عن التأويل والألفاظ الغريبة والخوض المتكلف فى القضايا الغيبية.

افتتح فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر والأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر المنتدى الفكرى الأول حول تطوير العمران فى الإسلام وبناء المدن المعاصرة ودور التشريع فى تكوين البنية العمرانية.. وتم فى هذا المؤتمر مناقشة القضايا السياسية والتحديات التى تطرحها تجارب النهضة ومعالمها الهندسية فى مصر والسعودية والبحث عن أفضل السبل لتعزيز مساهمة المواطن فى خدمة قضايا مجتمعه.

والهدف من هذا المؤتمر تقديم منهج عمرانى متكامل لتنمية المجتمعات الإسلامية عمرانيا مع تعميق مفهوم الشريعة فى العلوم الهندسية عامة وعلم التخطيط السكانى خاصة، وسيتم فى المؤتمر مسح لما جاء فى كتب التفسير والقرآن الكريم والحديث مع استعراض المصادر الفقهية القائلة بإحكام البناء.

وقد شارك فى المؤتمر الجهات المختصة بالعمران والبناء فى مصر والسعودية والمتخصصون فى علوم الهندسة والبحوث والدراسات السكانية.

بين المجلة .. والقارئ

إعداد وتقديم / عادل رفاعى خفاجة

تهنئـــة بالعـــام الجديـــد

تتقدم أسرة تحرير المجلة بتهنئة قرائها والعالم الإسلامى أجمع بحلول العام الهجرى الجديد.

نسأل الله أن يمتعنا وإياكم بالصحة والسعادة والعزة التى أرادها لعباده المؤمنين.. إنه ربى نعم السميع المجيب.

وبعد.. فقد كان دأبى فى تقديم هذا الباب أن أقدم له ببضع سطور، أو التعليق على إحدى رسائل القراء ثم أقدم الرسائل الأخرى دون تعليق مكتفيا بما أقوم به من تعديل لبعض العبارات أو تهذيب لبعض الكلمات بالإضافة إلى الاختصار اللازم حتى نفسح المجال لعددٍ من القراء ليشاركوا فى تحرير بابهم.

ولكنى تلقيت العديد من الرسائل والمكالمات تتلخص فى **رأيين**: **الأول**: يرغب فى أن تنشر الرسالة كاملة بدون إعادة صياغة أو تعديل للحفاظ على أسلوب صاحب الرسالة..

والآخر: يرى أن تنشر الرسالة كاملة يتبعها التعليق، ولما كان نشر الرسالة كاملة، أمراً لا تسمح به المساحة المخصصة للباب ولا يسمح به مبدأ إعطاء الفرصة لعدد أكبر من القراء، لما كان الأمر كذلك:

نرى أن نعرض لأهم خطوط المقال أو الرسالة مع تعليق مجمل عليها أو على أهم فقراتها.

ونسأل الله العلى القدير العون والسداد.

همســة فى آذان الدعــاة

الرسالة الأولى وردت من القارئ / وائل عبدالعزيز محمد بدير:

مدرس بمعهد كوم النور – دقهلية.

تحمل الرسالة ما تحمل من عتاب – يتحلى بالأدب الأزهرى – ثم تساءل عن مقالاته: هل سيتم نشرها؟.... إلخ.

ونقدم للقارئ إحدى هذه المقالات، بعنوان

« همسة فى آذان الدعاة » وتقع هذه الهمسة في تسع صفحات فلوسكاب. والموضوع فى مجمله « جيد » تناول ستة عناصر، قدم لها بقوله:

« ... لقد جعل الله – تعالى – لهذه الأمة علماء يهدونها إلى الخير ويأخذون بها إلى الطريق المستقيم، وفضل الله – تعالى – هؤلاء العلماء، فهم الذين يعلمون الناس أمور دينهم ويبينون لهم الحلال والحرام.

وهناك بعض أخطاء يقع فيها بعض علماء الدين والدعاة إلى الله بغير قصد.

أورد بعض هذه الأخطاء حتى يقف الدعاة عليها، ليتجنبوها. وما أسطره معرض للصواب والخطأ والأخذ والرد ».

١- تناول الموضوعات والمناسبات الإسلامية بأسلوب السرد:

فبعض الدعاة عند تناولهم للمناسبات الإسلامية، يكون أسلوب الحديث هو سرد القصة، دون النظر إلى ربط المناسبة بالواقع المعاصرأو استخراج العبر والعظات، والدروس المستفادة من المناسبة.

فمثلاً عند الحديث عن الهجرة: يتحدث الداعية عن أسباب الهجرة، وهجرة المرسلين، ونوم علي في فراش النبى.. الخ أين العبر والعظات؟ أين الدروس المستفادة؟ وكان يجب الربط بين سبب الهجرة وكيف تكون التضحية بأحب الأشياء في سبيل الله، كذلك بين بناء المسجد وأهمية المساجد فى الإسلام. وهكذا.

٢- المبالغة فى تعليل الحوادث الأوامر والنواهى :

حيث يعلل الداعية الأوامر والنواهى فى الدين بتعليلات لا ترتاح إليها النفس، مبتعداً عن أصل الأحكام، وهو أن الله – تعالى – خلق العباد لعبادته، فالأوامر فى الدين مطلوبة سواء علمنا ذلك أم لا.

فمثلا جعل الله – تعالى – علة الصيام التقوى ويأتى الداعية ويعلل الأمر بالصيام بتعليلات واهية، ويفتح بذلك باباً للمجادلة، فيقول مثلاً: عن علة الصيام: لكى يحس الغنى بجوع الفقير، فيجد من يقول له: إذن الفقير طالما أنه جائع – أصلاً – فلا صيام عليه!!

ويقول آخر: الغنى الذى يعطف على الفقراء ويحس بهم لا صيام عليه!!

ولو قال من البداية: إن العلة من الصيام التقوى، لكفاه.

٣- عدم التحدث فى الموضوعات المعاصرة :

وهذا سببه أن كثيراً من الدعاة يستقون معرفتهم وثقافتهم الدينية من كتب التراث في فروع الدين (التفسير – الحديث – الفقه... الخ) فيجعلون من هذه الكتب منبع ثقافتهم الأوحد، وإن كنا نقر أن هذه المصادر هى المنبع الذى لا ينضب، إلا أنه من المؤسف أن تقتصر المعرفة عليها، فهناك أمور مستحدثة، لم يرد ذكرها فى تلك الكتب مثل: الاستنساخ، ونقل الأعضاء، والتلقيح الصناعى، وشركات التأمين.... الخ.

ونحن فى عصر الإنترنت، وثورة الاتصالات نجد الداعية يتحدث عن أمور تكاد تكون محفوظة ويترك الأمور المعاصرة.

وهذه الموضوعات الحديثة المعاصرة تحتاج من الداعية الإلمام بالواقع المعاصر، والتيارات والاتجاهات الفلسفية المعاصرة..... الخ.

وهذا يتطلب من الداعية التزود بالكتب الحديثة فى شتى فروع المعرفة، والدوريات، والمجلات الإسلامية والصحف... الخ

وإذا كان علماء الأصول قالوا: (بأن الأحكام تتغير بتغير الحال والزمان) فمن الأحرى أن يغير المسلم نفسه إلى الأحسن ويطورها بالاطلاع ومتابعة الواقع الذى يعيش فيه.

٤- الانتصار لمذهب الإمام مع وجود الأصح والأرجح :

يرى بعض الدعاة أن آراء إمام المذهب – الذى درسوه – هى الفيصل فى كل المسائل الفقهية ولكن من الخطأ الجسيم أن ينتصر الداعية لشيخه ويفتى برأيه مع وجود الرأى الأصح في مذاهب أخرى.

٥- الإكثار من الأحاديث الواهية والضعيفة والإسرائيليات :

حيث يكثر بعض الدعاة من الأحاديث الضعيفة ضعفاً شديداً، والأحاديث الواهية والمكذوبة، بينما النبى – ﷺ – يقول: « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين » رواه مسلم.

« ..... ولكن بعض الدعاة يجد فى الأحاديث الضعيفة والواهية هوى وميلاً، لأن الناس تستهويهم هذه الأحاديث ويميلون إلى سماعها.. » .

٦- عدم التمكن التام من اللغة العربية :

ولا أعنى باللغة العربية اللغة العربية الفصحى المليئة بالألفاظ المهجورة، والتي تستشكل على عامة الناس ولكن اللغة العربية السهلة الميسرة، فلا داعى أن يتكلم الداعية بالكلمات الفصيحة الصعبة على الناس،

مع ضرورة الإلمام بالنحو لما له من أثر كبير في فهم اللغة.

هذا ملخص دقيق لمقال القارئ قدمته، لقناعتى بأنه موضوع يستحق أن تُنشر كل أفكاره وإن كانت لى بعض ملاحظات بسيطة تتلخص فيما يلى:

* النسبة لنقدك لأسلوب السرد.. فإننى أتفق معك بداية أن مهمة الداعية أن يبصر الناس بأمور دينهم وأن يستخرج العبر من الأحداث ويقدمها فى شكل جذاب ليحرك ما سكن فى الأفئدة.

ولكن مع ذلك يجب ألا نغفل دور هؤلاء الذين يقفون عند حد « السرد » وما لهذا الأسلوب من أثر فى تعليم النشء. بالإضافة إلى ما تحمله القصة من عظة.

* أما من ذكرتهم فى الفقرة الخامسة فليسوا دعاة بالمرة فلا يستساغ أن نسمى هذا – الذى يجد فى الأحاديث الضعيفة هوى وميلاً – داعية.

فبدلاً من أن يقول ما يحبه الله ورسوله، قال ما يحبه الناس!!

* أما مسألة الانتصار لمذهب الإمام فإن القول بأن الرأى الآخر أصح هو حكمك يا أستاذ وائل ولكن الأفضل ألا يفتى الداعية برأى واحد وعلى المستفتى أن يأخذ بالأيسر.

* ثم ملاحظة أخيرة على الفقرة السادسة: وهى ملاحظة شكليه من حيث الصياغة حيث قلت: « ولا أعنى باللغة العربية اللغة العربية الفصحى المليئة بالألفاظ المهجورة... » فهذه الصياغة توهم البعض أن الفصحى مليئة بالمهجور من اللفظ وهذا غير صحيح. وكان الأحرى بك أن تقول مثلاً: ولا أعنى باللغة العربية ما يقصد إليه البعض بحشو كلامهم بالمستغرب من الألفاظ المهجورة.

أما ما ورد في بقية المقال فاتفق معك فيه وبخاصة فى مسألة تعليل الأحكام لا سيما ما ورد فى تعليله نص من الكتاب والسنة، ويمكن لمن أراد الاستزادة الرجوع لمقال: « دعوة الإسلام كما ينبغى أن نبلغها » لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى بدءاً من عدد ذى القعدة ١٤٢١هـ.

ويختم الأستاذ/ وائل هذه المقالة بقوله: « وبعد: فهذه همسة فى آذان الدعاة حتى يتجنبوا هذه الأخطاء... » إلخ.

وأختتم تعليقى بهمسة فى أذنك يا أستاذ وائل:

من أين لهؤلاء الدعاة بكل هذا المال حتى يتابعوا هذا الزخم العلمي والمعرفى من خلال: (الكتب والمجلات والصحف اليومية والإنترنت) كما تقول!!

الهجـــرة وإنطـــلاق الدعـــوة

● **الرسـالة الثـانيـة من الأسـتـاذ المهندس / السيد حسين العزازى رئيس قطاع بالكهرباء يقول:**

ـ بقدر ما تعنيه الهجرة من اغتراب وانتقال واحتمال فإنها تحمل قصدا مباركا وتحديا للحصار المضروب والإرهاب المرفوض والمفروض لتضييق الخناق والحيلولة دون انطلاق الإسلام من مكة عبر الآفاق. وهى أعظم من أن تكون فرارا بل كانت قرارا عمليا لالتماس النجاة والانتصار للعقيدة بحملها وطرحها بالحسنى علي قلوب تنجذب لها وتتفاعل معها وتعاهد الله بالعزم والحزم على حماية الدعوة والداعية والتابعين وهو ما تكفل به أهل يثرب في بيعتى العقبة الأولي والثانية وشكلوا بتوحدهم وصدق توجههم أنصارا يزودون عن الإسلام رسولا ورسالة ويبذلون لأجل ذلك النفس والنفيس.

ـ ومهما قلنا عن المهاجرين وتضحياتهم وعذاب تحملوه أو مال تركوه أو وطن هجروه فقد عوضهم الله بصدور انشرحت بقدومهم وبيوت اتسعت لتحتويهم ونفوس سمت بالتضامن والرخاء إلي حد الإيثار وَمَنْ غيرُ الأنصار يتصفون بذلك؟.

وبالهجرة انتصر الله لرسوله ـ ﷺ ـ واستخلص الهدى من الضلال واستنقذ النور من الظلام مصداقا لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾(١).

ـ وتظل الهجرة معلماً للصبر والتوكل على الله والثقة في نصره وتأييده ودافعا للأمل فى نفوس الصامدين والمناضلين بأن الله على نصرهم لقدير كما يتجلى فيها الصدق والالتزام وعمق الإخلاص والتفانى ممثلا في المسلك الإنسانى الرفيع للصديق أبى بكر فكان نعم الرفيق والصديق للرسول ﷺ آزره في دعوته ورافقه فى هجرته وافتداه بنفسه وماله وقدمه على أهله وعياله وصدقه حين كذبه الناس ولم يخالف للرسول الكريم رأياً.

هكذا تظل الهجرة عنوانا مضيئا يؤرخ به لانقشاع الغيوم وبزوغ النور وانطلاق الإسلام.

والهجرة ليست رأياً بل وحياً، وليست هروبا بل خروجا بإذن الله وفى ظل توفيقه ورعايته، والرحلة من بدايتها منذ أن بارحت ناقة رسول الله ـ ﷺ ـ مكة حتى أناخت عند بيت أبى أيوب الأنصارى في يثرب تخللتها معجزات شهد بها المشركون وهم يترصدونه بالباب ليلا ويتعقبون أثره حتى غار ثور نهارا وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(٢).

ولنا على هذه المقالة ملاحظة:

سببها: الاهتمام بالسجع الوارد بين كلمتى

(١) التوبة (٤٠).

(٢) يس (٩).

«قرار وفرار» فى قولك عن الهجرة «... أعظم من أن تكون فرارا بل كانت قرارا عمليا ..».

وأقول إن الهجرة لم تكن قرارا يتخذه الرسول -ﷺ- من تلقاء نفسه أو بعد مشاورة، بل كانت تنفيذا لأمر الله -تعالى-.

ولم يكن ترك مكة بالشىء الهين على رسول الله -ﷺ- لما يكنه لها من حب وهو ما نراه فى قوله -ﷺ-: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ...» رواه البخارى ج٣ ص٢٩ : ٣٠.

وهذا ما لم يغب عن ذهن القارئ بل أثبته فى آخر كلمته حيث قال: «والهجرة ليست رأيًا بل وحيا ...» إلخ.

وشكر للقارىء العزيز جهده فى هذه المقالة، ونأمل أن يكون حواره معنا متواصلاً.

اهتمام الإسلام بالشباب

أما رسالة القارئ: حبيشى حسن حسين من طنسا ـ ببا ـ بنى سويف:

فيستهلها بقوله: «لا شك أن الشباب هم عدة الحاضر وأمل المستقبل وهم الذين يعمرون هذه الحياة بنشاطهم وجهدهم وحيويتهم».

ثم يقدم عددا من الشباب كنماذج للشجاعة والإقدام والبحث عن الحق والتمكن المبكر من أمور دقيقة كالعلم بتأويل القرآن، أو العلم بالخطط الحربية فقدم دليلا على ذلك:

١ ـ على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ كمثال للشجاعة والتضحية والفداء لما نام فى فراش النبى ليلة الهجرة.

٢ ـ أبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ كمثال للشجاعة والبحث عن الحق، حين أتى متحديًا حواجز المسافة وحواجز الصدود عن الإسلام يبحث عن رسول الله ـ ﷺ ـ ليعلم منه أمر الدين الجديد، ثم جهره بإسلامه برغم علمه بما سيلقاه من أذى على ايدى المشركين ـ لكنها الرغبة فى إظهار الحق.

٣ ـ أسامة بن زيد ـ رضى الله عنه: كمثال للموهبة الحربية وقد ولاه النبى ـ ﷺ ـ قياده الجيش وهو شاب وكان تحت إمرته شيوخ من الصحابة

٤ ـ ابن عباس ـ رضى الله عنه: كنموذج لمن وفقه الله وأفاض عليه من العلم حيث قدمه عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وهو شاب على شيوخ الصحابة لعلمه بتأويل القرآن.

وللقارئ الكريم تقديرنا على ما قدَّم، نأمل لشبابنا أن يجدوا فى شباب أسلافهم القدوة بدلا من البحث عنها فى سراب (الأفلام الأجنبية).

شهداؤهم .. أحيى من الأحياء

شـعر / نعمـت عامـر

جاءتنا من الشاعرة الأديبة نعمت عامر هذه الأبيات التى تفيض بالحماسة الدافقة حيث تقول:

ـ (الفطر .. والأضحى) بلا استثناء :
عـيـدان هذا العـام .. فى البـأسـاء
ـ إخـواننا بعـد انتـفـاضـتـهـم نرى
شـهـداءهم أحـيى من الأحـيـاء
ـ ونعــد بالمليــار فى تعــدادنا
لكـن .. نفئ لرقــدة البـلهــاء
ـ بعـد اقـتــتــال توحش ونذالة
أين الحـمـاة بحـومـة الهـيـجـاء
ـ سـيـحـاسـبـون بيوم حشـر هائل
هـذا التــقــاعس .. باعث الأرزاء
ـ شــذاذ آفــاق الأنام تنـمــروا
واسـتـأسـدوا فى هجـمـة هوجـاء

●●●

قبــس من الهجــرة

شعر / وفيقة عواد سلامة

(كنز الكنوز) وقمة العلياء   فى البدء كم لاقى من الجهلاء
لكـن مـنهم قلة قـــد آمنوا   بعـد انقشـاع غـشاوة بلهـاء
لم يحفلوا بوعيد كفر مُنذرٍ   بالبطش والتنكيل فى الرمضاء

***

هيهات من بالسفح يبلغ قصده   من ذا يدانى رفرف الجوزاء؟!
خابت وسائلهم وطار صوابهم   فاستنجدوا بالوعد والإغراء
عرضوا على «المعصوم» ملكا باذخا   فـيـهـم وأموالا بـلا إحـصـاء
لكن خير الخلق لم يعبأ بهم   فسراب دنياهم كمحض غثاء
لم ييأسوا وتدبروا، وتوجهوا   للعم .. للإقناع باسـترضـاء
وأبى الرسول وقال قولة صادق   مـتـسلح بالـهـمـة الشـمـاء
والله لو وضعوا ذكاءً فى يدٍ   والبدر فى الأخرى بلا إبطاء
ما كان ينكص عن طريق هداية   للناس طرا .. فى أتم صـفـاء

***

اذن الإله بـهـجـرة مـيـمـونة   كـانت سـبـيل تحفـز ومَضـاء
ليتم نصر الله والفتح الذى   عم الجـزيرة كـالسنا الوضـاء

●●●

أنباء مكتب شيخ الأزهر

لفضيلة الشيخ/ عمر البسطويسى

استقبالات فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف بمكتبه صباح يوم الاثنين ٢٦/٢/٢٠٠١م السيد الرئيس عبدالرحمن واحد رئيس جمهورية أندونيسيا والوفد المرافق لسيادة رحب فضيلة شيخ الأزهر الشريف بالضيف الكبير ومرافقيه فى رحاب الأزهر الشريف مشيدا بعمق العلاقات بين البلدين والروابط القوية بين مصر وأزهرها الشريف ودولة أندونيسيا الشقيقة الممتدة منذ عشرات السنين، وأوضح أن فى الأزهر الشريف أكبر عدد من طلاب وطالبات أندونيسيا يدرسون فى الأزهر بمعاهده وجامعته العريقة، ويقيمون فى مدينة البعوث الإسلامية ويتلقون العلم بجانب إخوانهم المصريين جنبا إلى جنب، وأعدادهم تفوق أعداد الطلاب من الدول الأخرى، وقد وصل عدد الطالبات الإندونيسيات اللائى يدرسن بالأزهر الشريف حوالى ٥٥٪ من إجمالى عدد الطالبات بمدينة البعوث الخاصة بالطالبات، وتقدم لهن كل التيسيرات الممكنة وتذلل لهم الصعاب حتى لا يشعرن بالغربة، لأنهن فى بلدهن الثانى مصر.

وأوضح فضيلة الإمام الأكبر بأن الدراسة فى الأزهر الشريف تمتاز بالاعتدال والوسطية، والبُعد عن العصبية البغيضة، كما تمتاز بالتمسك بحفظ القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة والعمل بهما إلى جانب دراسة الفقه بمذاهبه المختلفة، وعلوم اللغة العربية والدراسات الأخرى، كما أجاب فضيلته عن استفسارات السيد الرئيس بالنسبة للطلبة الإندونيسيين الذين يرغبون فى الالتحاق بالكليات العملية كالطب والهندسة وغيرهما، وكذلك الالتحاق بالدراسات العليا فى الأزهر الشريف، وأكد فضيلته على دراسة هذه الطلبات وتذليل

العقبات للتيسير على هؤلاء الطلاب. وقال فضيلته: نحن نسعى لأن يعم الخير والرخاء والأمان والاستقرار لدولة أندونسيا. كما نسعى لبلدنا مصر، وندعو الله - عز وجل - أن ينعم على أهل أندونيسيا بالأمن والأمان والاستقرار وأن يكثر عدد العقلاء عن عدد السفهاء، كما نسعى لأن تكون شريعة الإسلام لخدمة الناس جميعا لما فيها من حسن المعاملة ومن حسن القضاء والعدل والطهارة.

شكر السيد الرئيس فضيلة الإمام الأكبر على حُسن اللقاء مشيدا بدور مصر والأزهر الشريف بقيادة الزعيم والقائد السيد الرئيس محمد حسنى مبارك الذى لا يدخر جهداً فى الوقوف مع الشعب الأندونيسى، ودور الأزهر الشريف دور رائد وعظيم فى تعليم أبناء العالم ومنها أندونيسيا التى تحصل على منح دراسية كثيرة. وأضاف أنه تعلم بالأزهر الشريف وتخرج فيه وهو حاصل على الدكتوراه، وكان يسكن فى مدينة البعوث الإسلامية وعلى وجه التحديد بالعمارة رقم ١٨ فى أول مدخل المدينة، وقال فضيلة الإمام الأكبر: «سنسمى العمارة باسم السيد الرئيس عبدالرحمن عبدالواحد»، وأوضح السيد الرئيس أن الاستقرار يعم جمهورية أندونيسيا بعكس ما تظهره الصحف ووسائل الإعلام، ونحن نسير كما أمرنا الدين الإسلامى الحنيف ولا نخشى إلا الله، وقد وجه الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف لزيادة دولة أندونيسيا لما لتلك الزيارة من أثر كبير فى نفوس المسلمين هناك.

وفى نهاية اللقاء قدم فضيلة الإمام الأكبر المصحف الشريف طبع الأزهر هدية إلى السيد الرئيس. كما قدم لسيادته ولأعضاء الوفد المصحف المفسر أيضا.

حضر اللقاء فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف وفضيلة الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الشريف ونوابه. كما حضر السيد سفير مصر فى أندونيسيا وسفير أندونيسيا فى مصر، وفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر وفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفضيلة رئيس قطاع المعاهد الأزهرية.

●●●

● اجتمع مجلس مجمع البحوث الإسلامية برياسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف يوم ٢٨ / ٢ / ٢٠٠١ وناقش الموضوعات المدرجة بجدول الأعمال، وقد احتسبوا عند الله - تعالى - فضيلة المرحوم الشيخ إبراهيم الدسوقى وزير الأوقاف الأسبق وعضو مجمع البحوث الإسلامية الذى وافته المنية يوم الأربعاء ٢١ / ٢ / ٢٠٠١ وقرأوا الفاتحة ترحما على روحه الطاهرة.

كما ناقش المجلس الرد على الفتاوى الواردة من الجاليات الإسلامية التى تقيم فى الدول الأوروبية بشأن تحديد القبلة.

كما وافق المجلس على فتوى مفتى فلسطين بخصوص المكانة الشرعية لمكانة المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى سيدنا رسول الله ﷺ، كما

تم مناقشة بعض التقارير المقدمة من السادة الأعضاء عن الكتب والأبحاث التى ووفق على نشرها وتداولها لما لها من فائدة تعود على المجتمع، والكتب التى تم حجبها وعدم نشرها وتداولها لإساءتها إلى الإسلام.

وفى جلسة طارئة لمجلس مجمع البحوث الإسلامية برياسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى يوم ١٠ / ٣ / ٢٠٠١ وتمت مناقشة قانون التمويل العقارى بعد تعديله تنفيذاً لتوصيات الأزهر، وفق ما رأى المجلس، وبعد مناقشات أقر المجلس القانون من الناحية الشرعية حيث إنه لا يخالف فى مواده الشريعة الإسلامية، ورأى المجلس أن تعرض اللائحة التنفيذية للقانون على مجلس المجمع قبل اعتمادها من الوزير المختص.

وناقش المجلس ما يحدث فى أفغانستان من تدمير للآثار القديمة ورأى المجلس بالإجماع مناشدة طالبان التوقف عن تدمير الآثار القديمة لما يترتب على ذلك من فتن، العالم الإسلامى فى غنى عنها.

حضر هذه الاجتماعات فضيلة الدكتور محمود زقزوق وزير الأوقاف وفضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف وفضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية وفضيلة الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الشريف وفضيلة الشيخ سيد وفا أبو عجور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية والسادة الأعضاء ومندوبى وزارتى العدل والاقتصاد.

●●●

● رأس فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف اجتماعاً ضم أصحاب الفضيلة السادة رؤساء المناطق الأزهرية وذلك لمتابعة ما تم تنفيذه وإنجازه من أعمال بالمعاهد الأزهرية، وأوضح فضيلته أن الأولوية فى الترميم للمعاهد المضارة بالزلزال وسرعة الانتهاء منها، وأشار إلى أنه تم رصد مبلغ كبير من الميزانية للترميم وإنجاز الأعمال الضرورية الخاصة بالعملية التعليمية فى المناطق الأزهرية، وكلف الإدارة الهندسية بمتابعة المناطق، كما تم تكليف رؤساء المناطق بالإسراع فى إرسال خطة الترميمات للعام الجديد لإدراجها بميزانية العام الجديد. كما أكد فضيلته على سرعة الانتهاء من استلام الكتب التى وصلت لمخازن القطاع ليتم استلام المتبقى من الكتب. وأكد على أن يكون لكل طالب مقعد خاص به ليتمكن من التحصيل على الوجه المطلوب، والتأكيد على استمرار الدراسة حتى نهاية العام الدراسى المقرر، على أن ترسل استمارات الشهادات فى آخر شهر مارس ٢٠٠١.

حضر الاجتماع فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف، وفضيلة الشيخ على فتح الله رئيس قطاع المعاهد وفضيلة الشيخ عبدالكريم محمد عبدالرحمن الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر والسادة وكلاء القطاع.

● قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف الأحد ٢٥ / ٢ / ٢٠٠١ بتكريم سبعين من العاملين المتميزين وأصحاب الجهد الوفير

والمشهود لهم بالكفاءة وحُسن الانتاج وحُسن الخُلق والسلوك القويم من العاملين بالأزهر الشريف تحت إشراف اللجنة النقابية بمنطقة القاهرة الأزهرية برياسة السيد / هاشم مصطفى اسماعيل.

وتحدث فضيلته الإمام الأكبر عن أهمية الدور الذى يقوم به العاملون فى حقل التعليم فى نشر العلم والمعرفة والإبداع العلمى لخدمة المجتمع والإسلام، وقال فضيلته فى يوم الوفاء إن ما يقوم به التنظيم النقابى هو واجب قومى لأن هدفه الأساسى هو خدمة ورعاية أبناء المجتمع، والأزهر الشريف يرعى جميع العاملين به وليس هناك تفرقة بين خريجى الأزهر الشريف وخريجى الجامعات الأخرى وغيرهم الذين يعملون فى المعاهد الأزهرية، وقد أشار فضيلته إلى أهمية التعاون بين الإدارة والنقابة لتوفير الخدمات والرعاية للجميع وقرر فضيلته دعم أنشطة اللجنة النقابية بمنطقة القاهرة الأزهرية بخمسين ألف جنيه، كما قرر دعم صندوق التكافل للعاملين بالأزهر الشريف بمائة ألف جنيه.

وتحدث السيد / محمد وطنى رئيس النقابة العامة للتعليم والبحث العلمى فقدم الشكر لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف على رعايته للعاملين وأشاد بدور مدرسى الأزهر الشريف فى النهضة العلمية والتربوية التى تشهدها مصر الآن مؤكدا أنهم يقفون صفا واحدا بجانب إخوانهم فى التربية والتعليم، وأن ما يقوم به الأزهر لرموز العطاء فى يوم الوفاء هو بادرة طيبة من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف والنقابات العاملة بالأزهر الشريف ثم قام فضيلة الإمام الأكبر بتوزيع الجوائز وشهادات التقدير على المكرمين على رأسهم فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف، والشيخ سيد وفا أبو عجور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، والشيخ عبدالفتاح جمعان الأمين المساعد للثقافة الإسلامية بالأزهر، وفضيلة الشيخ محمد عباس رئيس الإدارة المركزية لمنطقة القاهرة الأزهرية، والشيخ موسى على قويشتى رئيس الإدارة المركزية، لمنطقة أسيوط الأزهرية.

●●●

● أكد فضيلة الإمام الأكبر فى خطبة عيد الأضحى المبارك - والتى ألقاها بمسجد الشهداء بمدينة شرم الشيخ بحضور السيد رئيس الجمهورية وكبار رجال الدولة - أن الله - عز وجل - شرع الأعياد من أجل الترويح عن النفس الإنسانية ومن أجل الإخاء والتعاون على البر والتقوى وحتى يتآخى الناس ولكى يقدم الغنى للفقير ما هو فى حاجة إليه.

وأوضح أن الأعياد تزداد بهجة وسرورا عندما نرى الأمة الإسلامية تتكاتف وتتعاون من أجل نصرة الحق والفضائل، ومن أجل أن تتعاون كل دولة مع شقيقتها، ومن أجل أن ينال الفلسطينيون حقوقهم كاملة غير منقوصة، مؤكدا على أن مصر رئيسا

وحكومة وشعبا تقف إلى جانب الشعب الفلسطينى وتؤيده وتساعده.

وقد أرسل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر برقية تهنئة بهذه المناسبة للسيد رئيس الجمهورية نصها:

فخامة السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس الجمهورية -السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد-.

فبمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك أتقدم لسيادتكم باسم الأزهر الشريف طلابه وعلمائه والعاملين فيه بأسمى آيات التهنئة القلبية داعيا المولى - سبحانه وتعالى - أن يديم على مصرنا الحبيبة الأمن والرخاء فى ظل قيادتكم الحكيمة، كما أدعوه - سبحانه - أن يمتعكم بالصحة العافية، إنه سميع مجيب، وكل عام وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شيخ الأزهر الشريف

د. محمد سيد طنطاوى

● تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف وبحضوره عُقِدَ (المنتدى الفكرى الأول فى العمران الإسلامى وبناء المدن المعاصرة) بقاعة المؤتمرات الكبرى للأزهر الشريف بمدينة نصر والذى تنظمه كلية الهندسة بجامعة الأزهر الشريف. وأكد فضيلة الإمام الأكبر فى كلمته فى حفل الا فتتاح على أن شريعة الإسلام مع التطور والتقدم فى حدود ما أحله الله - سبحانه وتعالى - لأن الحياة تتطور بتطور العلوم، مشيرا إلى أن ما كنا نراه من الكماليات أصبح اليوم من الضروريات عند أبنائنا، وأن التحديث وضرورة الأخذ بمعطيات العلم الحديث ووضع خطة للنهوض بمرافق الدولة وتجميلها فى الجوانب المختلفة أمر تقره شريعة الإسلام وترحب بكل تطور من شأنه إسعاد الناس وتيسير سبل الحياة لهم وسنة الحياة فى التطور، والأمة الإسلامية فى حاجة إلى التقدم العمرانى السليم وهى فى حاجة ماسة إلى بناء صحى ومناسب يدخله الشمس والهواء النقى.

وأعلن الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الشريف أن المؤتمرات التى تعقد تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف هدفها تواصل الأجيال ومواكبه التقدم العلمى والتحدى الحضارى لأن الجامعة تقوم برسالات الحضارة بجانب الرسالة الدينية كما أشاد بالعمارة الإسلامية.

وقال الدكتور عبدالواحد جبر عميد كلية الهندسة: إن المنتدى يناقش عددا من الأبحاث لإيجاد الحلول السريعة لمشكلات التحضر والموضوع الحيوى بالمنتدى هو دور التشريع الإسلامى فى تكوين البنية العمرانية وفى نهاية الجلسة الافتتاحية قام الدكتور محمد بن عبدالله بن صالح عميد كلية العمارة والتخطيط بجامعة الملك سعودبإهداء فضيلة الإمام الأكبر درع جامعة الملك سعود كما تم إهداء الإمام الأكبر درع جامعة الأزهر وتم تبادل الدروع بين جامعة الأزهر والمشاركين، وفى الجلسة الختامية:

طالب المؤتمر فى توصياته بإقامة وحدة بحوث تختص بأمور العمران للبحث عن حلول سريعة لمشكلات الإسكان والتحضر فى المدن الإسلامية، والعمل على إيجاد كلية للتعاون والاتصال بين المهتمين والباحثين فى شئون العمران والتخطيط، والعمل على إجراء اتصالات مع المؤسسات والأفراد بما يدعم البحوث والدراسات، وإنشاء بروتوكول للتعاون بين الأجهزة المنظمة لإقامة المؤتمر، وإيجاد آلية للتآخى بين الجمعيات العلمية العمرانية لكل من البلاد العربية الشقيقة المشاركة فى المؤتمر بالإضافة إلى تأسيس منظمة إقليمية للمخططين العرب تحت مظلة جامعة الدول العربية شارك فى المؤتمر الجمعية المصرية للتخطيط العمرانى، والهيئة العامة للتخطيط العمرانى، ووزارة الإسكان والمرافق، وزارة الشئون البلدية والقروية بالسعودية، وكلية التخطيط والعمارة بجامعة الملك سعود، والجمعية السعودية لعلوم العمران وكليات الهندسة والمراكز البحثية.

●●●

● استقبل فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف نيابة عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف السيد حسن جانس رئيس جمعية خريجى الأزهر الشريف بتركيا، وأكد فضيلته أن الأزهر الشريف على استعداد دائم لتذليل جميع العقبات للطلاب المسلمين جميعا، وخاصة الطلبة الأتراك الذين يرغبون فى الدراسة بالأزهر الشريف ليتعلموا العلم النافع. وأشار فضيلته إلى أنه تم تخصيص ١٢ منحة دراسية للأتراك للدراسة بالأزهر الشريف وذلك بصفة استثنائية لأن تركيا ليس لها طلبات رسمية للحصول على منح.

وقال رئيس اتحاد خريجى الأزهر بتركيا: إن تركيا لا تعتمد أية منح دراسية للتعليم بالأزهر الشريف وبالتالى لا تعترف بخريجى الأزهر من الأتراك ولكن نحن لنا رغبة قوية فى التعلم فى الأزهر الشريف وكثير من خريجى الأزهر فى تركيا يعملون خارج تركيا نظرا لهذه الأوضاع وقال: إنه يوجد فى تركيا حوالى ٧٠٠ مدرسة دينية بتركيا تسمى بمدارس الأئمة والدعاة مع أنها تخرج تخصصات مختلفة.

وطالب بمعادلة شهادات هذه المدارس بشهادات الأزهر الشريف حتى يتيسر لطلاب هذه المدارس الالتحاق بجامعة الأزهر دون الحاجة إلى معادلة.

وأكد فضيلة الشيخ وكيل الأزهر الشريف أنه سيتم دراسة الأمر واعتماد شهادات هذه المدارس فى حالة معادلة مناهجها بمناهج الأزهر، وقال: إنه يتم اعتماد المنح الدراسية للطلاب الأتراك من خلال السفارة المصرية فى تركيا نتيجة لرفض القوانين التركية اعتماد المنح الدراسية ويمكن اعتمادها من السيد رئيس جمعية خريجى الأزهر بتركيا.

●●●

● قام فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف نائبا عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف يرافقه فضيلة الشيخ سيد وفا أبوعجور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية وفضيلة الشيخ عمر البسطويسى رئيس الإدارة المركزية لمكتب شيخ الأزهر للإعلام والعلاقات بافتتاح المركز الثانى للكمبيوتر للحاسب الآلى والإنترنت بمدينة البعوث الإسلامية. وصرح فضيلة الشيخ فرحات المنجى المشرف العام على مدينة البعوث الإسلامية بأن هذا المركز أنشىء على نفقة طلاب جزر المالديف خدمة لطلاب وطالبات العالم الإسلامى فى مدينتى البعوث الإسلامية بالقاهرة الذين يدرسون فى الأزهر الشريف بمعاهده وجامعته، حضر حفل الافتتاح لفيف من العلماء وبعض رجال الأعمال الذين قاموا ببناء عمارات سكنية للطلاب وأعلن فضيلة الشيخ فرحات المنجى المشرف العام على مدن البعوث فى القاهرة والإسكندرية أنه سيتم افتتاح مركز فى مدينة الإسكندرية للبعوث لخدمة الطلاب هناك أيضا ثم قام فضيلة الشيخ محمود عاشور بإلقاء محاضرة للمشرفات اللائى تم اختيارهن للإشراف على مدينة الطالبات عن دور الأزهر الشريف وعما يجب عليهن حيال الطالبات من معاملة حسنة وروح طيبة وعناية ورعاية تعوضهن عن غربتهن ويكن بمثابة الأخوة الكبار حتى يعدن لبلادهن وهن يحملن ذكريات طيبة عن مصر وأزهرها الشريف.

●●●

● صدر قرار رئيس مجلس الوزراء رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠١ بناء على ما عرضه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بتعيين فضيلة الشيخ السيد وفا حسن أبو عجور أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالدرجة الممتازة لمدة سنة.

●●●

● صدر قرار شيخ الأزهر رقم ١٣٧ لسنة ٢٠٠١ بتجديد عضوية كل من:

١- فضيلة الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق.

٢- السيد الأستاذ الدكتور/ إبراهيم جميل مصطفى بدران

٣- فضيلة الشيخ/ إبراهيم الدسوقى عبدالحميد -رحمه الله تعالى.

أعضاء بالمجلس الأعلى للأزهر الشريف ممثلين لمجمع البحوث الإسلامية لمدة عامين اعتبارا من ٢٧ / ٢ / ٢٠٠١.

الأزهر يرأس لجنة التحكيم لمسابقة القرآن الكريم بدولة قطر

صدر قرار شيخ الأزهررقم ١٨٢ لسنة ٢٠٠١.

بالموافقة على سفر عدد من علماء الأزهر فى مهمة علمية إلى دولة قطر لرياسة لجنة تحكيم مسابقة القرآن الكريم للسنة الثامنة التى تنظمها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر.

الفهـــرس

● الافتتاحية: الم[illegible] والأدب الهابط
للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى ٢

● تفسير سورة البقرة
لفضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى ٧

● العناية بكتابة السنة النبوية
للأستاذ الدكتور / أحمد معبد ١٩

● الدعوة كما ينبغى أن نبلغها
لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى ٢٥

● دعوة الإسلام إلى الوحدة
للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم ٣٠

● لا حياة بلا دين
لفضيلة الشيخ / إبراهيم الدسوقى ٣٦

● الإسلام وحوار الحضارات
للأستاذ الدكتور / محمد عبدالمنعم خفاجى ٤٢

● الإسلام.. والغرب.. وحقوق الإنسان
للدكتور / محمد عمارة ٤٧

● محمد - ﷺ - فى كتابات المستشرقين
للأستاذ الدكتور / عبدالعظيم المطعنى ٥٣

● استفتاءات القراء
إعداد وتقديم الشيخ / عبدالفتاح حسين الزيات ٦٠

● دار الهجرة والتحذير من هجرها
لفضيلة الشيخ / عبدالحفيظ فرغلى القرنى ٦٦

● من روائع الماضى بمجلة الأزهر
إعداد الشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم ٧٢

● أبو عبيد بن مسعود الثقفى
للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين ٧٨

● لمحات عن صاحب الفضيلة الشيخ عبدالرحمن تاج
للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى ٨٢

● الشيخ / إبراهيم الدسوقى فى رحاب الله ٨٥

● مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى
للمستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى ٨٧

● مواقف إسلامية: بين الأشرار والأخيار
للأستاذ الدكتور / محمود عمارة ٩٣

● طرائف ومواقف
للشيخ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم ٩٦

● قصة العدد: إرادة جبارة ٩٨

● روضة الشعر ●

- نور الإسلام
للشاعر / محمود حسن إسماعيل ١٠٣

- الــرأى
للشاعر / أحمد زين ١٠٧

● من عيون التراث
للأستاذ / محمد أبوالفضل إبراهيم ١٠٨

● الحوارات الأدبية: نوعياتها.. دلالاتها (١)
للأستاذ الدكتور / محمد أحمد العزب ١١٣

● القصيدة العربية بعد البارودى بين الشكل والمضمون
للأستاذ الدكتور / محمود جمعة أمين ١١٧

● لمحة عن الاتجاه الإسلامى فى شعر إبراهيم عيسى
للأستاذ / أحمد مصطفى حافظ ١٢١

● مايقال عن الإسلام:
للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى ١٢٥

● كتاب الشهر: عصر الإلحاد
للأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين ١٣٢

● المجتمع الإسرائيلى
للدكتور / محمد حسن عبدالخالق ١٤٢

● التراث العلمى الإسلامى
للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا ١٤٦

● من الإعجاز الطبى فى القرآن الكريم
للأستاذ الدكتور / السيد الجميلى ١٥١

● قبل أن تصير حصيدا
للأستاذ / مجدى عبدالحميد بشير ١٥٤

● بين الصحف والمجلات
إعداد الأستاذ / محمود الفشنى ١٥٨

● بين المجلة والقارىء
إعداد وتقديم / الأستاذ عادل خفاجة ١٦٣

● أنباء مكتب شيخ الأزهر
لفضيلة الشيخ / عمر البسطويسى ١٦٩

الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

وصدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩هـ

يصدرها

مجمع البحوث الإسلامية

فى مطلع كل شهر عربى

رئيس التحرير

أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير

الطاهر محمد الطاهر الحامدى

سكرتير التحرير

عادل رفاعى خفاجة

المراسلات باسم

مدير التحرير / مجمع البحوث الإسلامية / م. نصر

ت: ٢٦٣٨٥٩٩

الاشتراكات: قسم الاشتراكات بالأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

- دعوة الإسلام إلى الوحدة
  للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم
- أمتنا وفن إدارة الأزمات
  للأستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة
- محاولة لفهم العولمة
  للأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومى
- شئون المرأة والوثب الأشل على الإسلام
  للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى
- ذاكرة الأمة ورصيدها الحضارى
  للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا

الاشتراك السنوى

- داخل مصر .... ١٨ جنيهاً مصرياً
- الدول العربية .... ٥٠ دولاراً أمريكياً
- أوربا وأمريكا .... ٨٥ دولاراً أمريكياً
- اليابان وشرق آسيا .... ١٢٠ دولاراً أمريكياً

الاشتراكات: قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

☎ ..٥٧٨٦١٠٠ - ٥٧٨٦٢٠٠

الدين مرتكز الخلق الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾(١).

صدق الله العظيم

١ - رأى الماديين فى نشـأة الخلق الإنسانى:

ينكر الماديون أن تكون هناك صلة مـا بين الدين والخلق، إذ يرون الوازع الخلقى قـد يكون تلقائياً لدى الإنسان فى عصوره الأولى خضوعاً لما صادفه من صعاب، فهو حين كان يأوى إلى الغابات ويتغذى بالثمار والفواكه، لم تكن لديه فى رأيهم حاسة خلقية تدفعه إلى الخير، وتثنيه عن الشر، بل كان يندفع كالحيوان إلى حاجاته الجسمية تلقائياً دون نظر فى هذا الدور يتصرف بمحض الغريزة، ومازال كذلك حين اضطرته عوامل البرد فى الشتاء وما يسقط من الأمطار والثلوج إلى أن يترك الغابات إلى المغاور والكهوف لتحميه مما يسبب الهلاك، وهو عندهم قد رأى زملاءه يموتون تحت عوامل الإفناء المروعة، فرأى أن ينجو بنفسه، ثم هو مضطر إلى اصطياد رزقه، ولكن وحوش الأرض من آساد ونمور وذئاب وضباع تعترض طريقه، ولابد من مقاومتها، فهى تتسلح بالأنياب والمخالب، ولابد من تعاون بنى الإنسان لدرء ما يصادفه من غزوات الوحوش، وإذا تعاون مع غيره فلابد أن يعمل على إرضاء من ينضم إليهم، وأن يعرف لهم بعض الحقوق، كما عليهم أن يحترموا رغباته، ومن هنا شرع المجتمع يضع قواعد للسلوك تحفظ حق الفرد وتمنعه أن يعتدى على سواه، وكانت هذه القواعد بدائية فى أولياتهم ثم أخذت تتفرع وتتسع بتقدم الأيام حيث نشأت الأسرة فالقبيلة فالدولة، حتى أصبح لدينا قانون أخلاقى لا تجوز مخالفته!

---

(١) الشمس (٧ - ١٠).

والإنسان في نظر هؤلاء الماديين لا يكاد يفترق عن النمل أو النحل حين يضطر إلى التعاون الجماعى سعياً وراء المنفعة، فالتعاون لديه عمل غريزى أكدته الحاجة، ودعت إليه الضرورة، وكذلك نجد الوازع الخلقى لدى الإنسان قد نشأ متدرجاً بتأثير أحواله الاجتماعية وسيتدرج فى نهضته بتدرج أحواله حيث تأتى عصور قادمة ببعض القواعد الأخلاقية التى لا نلتزمها الآن.

٢- الدين مصدر الخلق القويم:

وحين نتركهم إلى غيرهم من ذوى الرسالات السماوية فإننا نجدهم يرون الإنسان قد ولد مزوداً بالوازع الخلقى، لأن الله - عز وجل - حين علم آدم الأسماء قد أوضح له طريق الخير، وطريق الشر، وقد زوده بما ينفعه من الصالحات، وهداه النجدين، وقد قال الله عز وجل فى كتابه ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[٢].

فالنفس البشرية قد ألهمت معرفة الفجور والتقوى إلهاماً كان المصدر الأول للوازع الخلقى فى هذه النفس، ومن هنا يختلف الحيوان عن الإنسان، لأن الحيوان يسير فى دنياه بمقتضى غريزته التى تدفعه إلى حفظ الكيان بالتغذية وبقاء النوع بالتناسل، أما الإنسان فقد سما بعقله حين عرف الخير والشر فطرياً بحكم تكوينه، وبإحساسه حين رزق العاطفة الداعية إلى الرحمة والإحسان.

والمأساة الإنسانية الأولى على الأرض تظهر مكان الوازع الخلقى فى النفس، وتدل على أن صوت الضمير يبعث تحذيره من دوافع الشر كما يرسل صيحات الندم والأسف لدى وقوع الكارثة، فحين تنازع قابيل وهابيل، إذ قدما قربانين، فقبل الله أحدهما ولم يتقبل من الآخر، صاح قابيل لأقتلنك، وكان هابيل عاقلاً يهتدى بوازعه الخلقى، فرد عليه فيما حكى الله عنه:

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[٣].

وقائل هذا الكلام يعرف معنى الإثم ومعنى الظلم، وهو بالتالى يعرف معنى العدل والطاعة، وغريمه يعرف ذلك، ولكن شراسته قد أسكتت صوت الوازع لديه، يدل على

---

(٢) الشمس (٧ - ١٠).

(٣) المائدة (٢٨، ٢٩).

ذلك ندمه المفرط حين اقترف جريمته، ورأى أخاه جثة هامدة يعجز عن دفنها حتى يرشده الغراب! فيصيح منفعلاً:

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾(٤).

٣- الدين عنصر أصيل:

وإذا كان أصحاب نظرية التطور قد رأوا فى الدين أنه مجرد احساسات غامضة اتجه إليها الإنسان الأول حين رأى العواصف العاتية من بروق ورعود وسيول تكاد تأتى عليه، فاعتقد أن هذه القوى آلهة تتحكم فيه ويتقدم إليها بالقرابين، وأخذ يؤمن بالقوة الغيبية حين جهل التعليل العلمى لحوادث الطبيعة. إذا كان أصحاب هذه النظرية يذهبون إلى ذلك ليجعلوا المصادفة العمياء وحدها هى التى أوجدت الكون، وليطمئنوا إلى ذلك مكابرين، فإن أهل الدراية من علماء الطبيعة أنفسهم قد اهتدوا إلى ما يناقض تخيلاتهم الموهومة، ورأوا فى اللجوء إلى المصادفة العمياء فى معرض التعليل العلمى ما يشبه المزاح الهش، إذ لا يعقل أن تنتظم أمور الكون فى دوراته الطبيعية على نحو لا يختلف، وأن يتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر منذ ملايين السنوات على سنن لا يشذ، وأن تنشأ الحياة فى النبات والحيوان والإنسان مطردة على أحسن منهج، ثم يكون ذلك كله وليد المصادفة العمياء، فلابد أن يكون هناك صانع حكيم فطر الكون على أبدع نظام، ولابد أن يكون الإنسان الأول قد زُود بمعرفة الخير والشر إلهاماً من ربه الخالق.

وقد قاوم الباحث الألمانى الكبير الأستاذ «ماكس موللر» شبهات الماديين فى كتابه «الدين وترقيه» جازماً بأن الناس فى عهودهم القديمة كانوا أصحاب توحيد فى الدين، وأن تعدد الآلهة لم ينشأ إلا بعد انتكاس الطبائع، ولم يكن تأليهاً لمظاهر القوة فى الطبيعة بنوع عام، وإذا كان الإنسان الأول قد عرف التوحيد فقد آمن بالعدل والإحسان وميز الخير والشر، استجابة لدعوات الأنبياء، وسيراً وراء النظرة الهادية، وقد خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم مظهراً ومخبراً وصورة وفكرة لو لا ما اكتنفه من غشاوات التضليل ومتاهاتها المظلمات!

(٤) المائدة (٣١).

٤- دحض الشبهات :

وحين ننادى بتبعية الوازع الخلقى للدين، لابد أن نستعرض شبهات من يذهبون المذهب المادى فى نشأة الخلق، وأن نكر عليها بما يدحض أدلتهم الواهية ليتضح الحق دون خفاء.

فأول شبهة لديهم هى أن الجماعات البدائية لا يوجد لديها وازع من خلق، لأنها - وبخاصة فى القبائل الوحشية - تترك من الواجبات الأساسية نحو الآباء والأمهات والأطفال ما يدعو إليه الخلق العادى فضلاً عن الخلق المثالى، ونرد على ذلك بأن فترات الضلال هى التى تطمس هذا الوازع، لذلك اقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل فى ظلام هذه الفترات ليهدوا الإنسانية إلى طريق الخير، وإذا كان كل رسول يكافح العتاة ممن خالفوا أمره فإنه ينتصر فى النهاية، إذ يستطيع أن يخاطب العامة بما يكشف ضلال هذه الأغشية وإذ ذاك تنجلى الحقائق شيئاً فشيئاً على يده حتى يعود للوازع الخلقى حصانته المنيعة، وإذ كنا نرى القطة ترتكس فى بعض أحيانها فتأكل أولادها، مع أن غريزتها الأصلية تدعوها إلى الرعاية التامة بأفلاذ أكبادها، فإن مثل هذه القطة لا تنهض دليلاً على فقد الغريزة، بل تدل على أنها استثناء شاذ من قاعدة مطردة، وكذلك من يتنكر للوازع الخلقى من بعض الجماعات البدائية يمثل الشذوذ الإنسانى الذى لا يخرم القاعدة العامة، بل يؤكدها أبلغ تأكيد، فعلى الذين يضربون البدائيين مثلاً لمذهبهم أن يبحثوا عن مثل آخر لو يستطيعون.

أما الشبهة الثانية فهى ما نجده من تناقض فى السلوك الأخلاقى لدى الناس، إذ نجد بعض الأمم تعتقد الخير فى شئ، على حين تعتقد أمة أخرى أنه شر كل الشر، فالرق كان أمراً لا معابة فيه عند فريق عاقل متزن، وهو الآن جريمة نكراء، وقد كانت المرأة سلعة تباع وتشترى عند الإغريق - وهم أهل الحضارة الفكرية، وأنصار الفلسفة العقلية - وهى اليوم شقيقة الرجل وصاحبة حق مثله، والبوذيون - وقد اشتهروا بالرحمة - يرون قتل الحيوان الضار، كالثعبان والعقرب، جريمة نكراء، وقصارى أمرهم أن يتحاموا أمكنة كلٍّ شرس متوحش، وقتل الضوارى عمل مشروع لا حرمة فيه، والانتحار فى عصر الرومان أداة افتخار ودليل تضحية وشرف، وهو فى الأديان بعامة جريمة لا تغتفر، إذ لا يملك الروح غير فاطر السموات والأرض وحرمة مال الغير لدى بعض الطوائف - كاليهود مثلاً- ليست كحرمة مال من ينتمون إلى مذهبهم الدينى، ولكن المال اليوم ذو حرمة سواء كان مال عدواً أو صديق!

هذا التناقض فى المذاهب الخلقية يوحى أنها لا تجد مصدرها فى الدين، بل تتألف من عادات المجتمع ومثله الشخصية دون هيمنة سماوية.

والرد على هذه الشبهة سهل واضح، لأن هذه الخلافات لا تتعدى الفروع ولا تتوغل إلى

الأصول الثابتة فى أرض الأخلاق، إذ لا يوجد خلاف بتاتاً بين جميع الأمم شرقاً وغرباً على الأسس الثابتة لقواعد الأخلاق، كإقامة العدل والإحسان، وإسعاف المحتاج، وعلاج المريض، وعقاب المجرم، وجزاء المصلح، وتعهد الضعفاء بالبر والكفالة، وتدارك الطفولة بالتربية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وإذا كان لدى بعض الأمم خلافات فى المذهب السياسى فليس ذلك بمانع أن تتفق جميعاً على منهج للإصلاح الخلقى العام، وأول مصادره الكتب السماوية، التى ترسم للبشرية طريقاً قويماً لا يميز عنصراً عن عنصر ولا يرفع قوماً عن أقوام، بل يهتف بقول الله - عز وجل - :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٥).

وإذا وجدت حكومات عنصرية تنادى بالطبقية وتميز البيض عن السود فقد خالفت قواعد الخلق، وشذت عن أوامر الدين، فهى ذات انتكاس يتطلب الإنقاذ.

٥- ارتكاز الخلق على الدين:

بقى أن نشير إلى الدلالة الهامة لارتكاز المبدأ الخلقى على الدين، حين نقرر أن الدين يؤدى دوره الخلقى كاملاً حين يكون مصدر ارتكاز لهذا الخلق، فصاحب المعتقد الدينى يلتزم بالأخلاق الفاضلة استجابة لأوامر دينه، فهو يخاف الله قبل أن يخاف القانون، فإذا سرق أو قتل أو فجر عرف أن السماء رقيبة عليه وأنه لن ينجو من عقابها إلا بالتوبة النصوح، فأخذ يعمل على الرجوع إلى ربه نادماً مستغفراً، ومصراً على الإقلاع عن الذنب دون معاودة، أما صاحب الخلق الذى لا يؤمن بدين فأكثر ما يخشاه أن يقع تحت سيطرة القانون فتؤاخذه الدولة بجرمه، وإذا نجا من مسئولية القانون فقد انتهى كل أمر بالنسبة إليه، وله أن يعد نفسه بريئاً إذ لا يؤاخذه أحد، وفى ذلك حث على الجريمة، إذ ما أكثر أن تمنع الاحتياطات الدقيقة ظهور الجرائم، فينجو المجرم من العقاب!

ولصلاح المجتمع لابد أن ترتبط الأخلاق بالدين، وأن يعلم كل فرد أن عين اللّه ساهرة لا تنام.

إن صلة الدين بالوازع الخلقى لا تحتاج إلى إيضاح لدى من يؤمنون باللّه، وإذا احتاج غيرهم إلى مزيد من الإيضاح ففى ما تقدم ما يقنع ويفيد.

دكتور / محمد رجب البيومى

(٥) الحجرات (١٣).

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

قال الله - تعالى -:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

الآيات من ٢١٩ : ٢٢٠

وبعد حديث جامع عن البذل والتضحية، ساق القرآن فى آيتين ثلاثة أسئلة وأجاب عنها بما يشفى الصدور ويصلح النفوس.

قوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾. السائلون هم المؤمنون وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعى من حيث الحل والتحريم. لا عن الحقيقة

والذات فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتهما.

قال القرطبى: والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها- وكل شئ غطى شيئاً فقد خمره. ومنه «خمروا آنيتكم» فالخمر تخمر العقل أى: تغطيه وتستره.. فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك، وقيل إنما سميت الخمر خمرا، لأنها تركت حتى أدركت كما يقال: قد اختمر العجين، أى: بلغ إدراكه. وخمر الرأى ترك حتى يتبين فيه الوجه. وقيل: إنما سميت الخمر خمراً لأنها تخالط العقل من المخامرة وهى المخالطة ومنه قولهم: دخلت فى خمار الناس- بفتح الخاء وضمها- أى: اختلطت بهم. فالمعانى الثلاثة متقاربة . فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت، ثم خالطت العقل. ثم خمرته، والأصل الستر(١).

ويرى كثير من العلماء أن هذه الآية هى أول آية نزلت فى الخمر. ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾

ثم نزلت الآية التى فى سورة المائدة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

والدليل على ذلك ما رواه أبوداود وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال: «اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً» فنزلت هذه الآية

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال: «اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً».

فنزلت الآية التى فى النساء

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾

فكان منادى رسول الله - ﷺ- إذا أقام الصلاة- نادى أن: لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: «اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً». فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه، فلما بلغ

﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر: «انتهينا»(٢).

وبهذا الرأى قال ابن عمر، والشعبى، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

ويرى بعض العلماء أن أول آية نزلت فى الخمر هى قوله- تعالى- فى سورة النحل:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾

وعلى هذا الرأى سار صاحب الكشاف وتبعه بعض العلماء فقد قال: نزلت فى الخمر أربع

(١) تفسير القرطبى جـ٣ صفحة ٥١.

(٢) تفسير ابن كثير ج١ صفحة ٢٥٦

آيات، نزل بمكة قوله- تعالى-:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

فكان المسلمون يشربونها وهى حلال لهم، ثم إن عمر ومعاذا ونفراً من الصحابة قالوا: يارسول الله، أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت:

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾

فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلى فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون فنزلت:

﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعراً فيه هجاء للأنصار فضرب أحد الأنصار سعداً بلحى بعير فشجه، فشكا إلى رسول الله - ﷺ - ذلك. فقال عمر: «اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت «إنما الخمر والميسر..» إلخ الآية.. فقال عمر: انتهينا يارب[٣].

وأصحاب الرأى الأول يقولون: إن آية سورة النحل وهى قوله- تعالى-:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

ليس لها علاقة بموضوع الخمر، ويفسرون السكر بأنه ما أحله الله مما لا يسكر وأنه هو الرزق الحسن وأن العطف بينهما من باب عطف التفسير.

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتهونه ويحبونه من الخمر والميسر، يمثل أسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها فى الطرقات، بل وحطموا الأوانى التى كانت توضع فيها الخمر امتثالاً وطاعة لله- تعالى-.

وهكذا نرى قوة الإيمان التى غرسها الإسلام فى نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية، وتربيته الحكيمة.. تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته الطبائع.

هذا وجمهور العلماء على أن كلمة «خمر» تشمل كل شراب مسكر سواء أكان من: عصير العنب، أم من الشعير، أم من التمر،أم من غير ذلك، وكلها سواء فى التحريم قل المشروب منها أو كثر سكر شاربه أو لم يسكر.

ومن أدلتهم ما رواه الامام مسلم عن ابن عمر- أن رسول الله - ﷺ - قال: كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فى الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها فى الآخرة».[٤]

ومن أدلتهم أيضاً أصل الاشتقاق اللغوى لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر، سواء أكان من العنب أم من غيره.

وقال الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم

---

(٣) تفسير الكشاف فى ج١ صفحة ٢٥٩.

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ج٦ ص ١٠٠.

النخعى وسفيان الثورى وابن أبى ليلى: إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط، أما المسكر من غيره كالشراب من التمر أوالشعير فلا يسمى خمراً بل يسمى نبيذاً. وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره إنما هو الخمر من العنب. أما الأنبذة فكثيرها حرام وقليلها حلال.

وقد رجح العلماء رأى الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم.

قال ابن العربى: وتعلق أبوحنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها. والصحيح ما روى الأئمة أن أنساً قال: «حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر» أخرجه البخارى، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم- أى أوانى الخمر- وبادروا إلى الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر أى: وأقرهم رسول الله - ﷺ - على ذلك (٥).

وقال الآلوسى: «وعندى أن الحق الذى لا ينبغى العدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان، وبأى اسم سمى، متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده، حرام، وقليله ككثيره، ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته غليظة.

وفى الصحيحين أنه - ﷺ - سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام» وروى أبوداود «نهى رسول الله - ﷺ - عن كل مسكر ومفتر» وصح «ما أسكر كثيرة فقليله حرام» والأحاديث متضافرة على ذلك.

ولعمرى إن اجتماع الفساق فى زماننا على شرب المسكرات مما عدا «الخمر» ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب «الخمر» ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة وتبيح شربها للأمة - وهيهات هيهات - فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا إليه راجعون»(٦).

بعد هذه الكلمة التمهيدية عن الآية، وعن مدلول كلمة خمر ننتقل إلى معنى كلمة «الميسر»، فنقول: الميسر - القمار - بكسر القاف - وهو فى الأصل مصدر ميمى من يسر، كالموعد من وعد. وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجئ للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزر ثم أصبح علما على ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه.

قال القرطبى نقلا عن الأزهرى: الميسر: الجزور الذى كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسراً، لأنه أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل شئ جزأته فقد يسرته. والياسر: الجازر لأنه يجزئ لحم الجزور. ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور: ياسرون، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك(٧).

وصفة الميسر الذى كانت تستعمله العرب أنهم كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام أو الأقلام، فكانوا إذا أرادوا أن يقامروا أحضروا بعيرا وقسموه ثمانية وعشرين قسما وتترك ثلاثة من

---

(٥) أحكام القران لابن العربى ج١ صفحة ١٤٩.

(٦) تفسير الآلوسى جـ ٢ صفحة ١١٣.

(٧) تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٥٢.

تلك الأقداح غفلا لا علامة عليها وكانت تسمى: السفيح، والمنيح، والوغد. ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئاً من الجزور.

أما السبعة الأخرى فهى الرابحة وهى الفذ، وله سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة، والمعلى وله سبعة فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهما.

تلك صورة تقريبية لقمار العرب كما أوردها بعض المفسرين [٨].

ولاشك أنه يدخل فى حكمها من حيث الحرمة ما كان مشابها لها فى المخاطرة والرهان وأخذ الأموال بدون مقابل مشروع، أو ضياعها فيما حرمه الله.

ومعنى الآية الكريمة: يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام: فى تعاطيهما ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ أى: ذنب عظيم، وضرر شديد وذلك لما فيهما من القبائح المنافية لمحاسن الشرع من الكذب، والأذى، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس، واستلاب أموالهم بغير حق.

وقوله: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أى وفيهما منافع دنيوية للناس إذ الخمر تدر على المتاجرين فيها أرباحا مالية، والميسر يؤدى إلى إصابة بعض الناس للمال بدون تعب.

وأطلق – سبحانه – الإثم وقيد المنافع بأنها للناس، للتنبيه على أن الإثم فى الخمر والميسر ذاتى، فهما فى ذاتهما رجس كبير، وخطر وبيل، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس، فهى منافع خاصة وليست عامة، ويشهد لهذا قوله – تعالى – بعد ذلك.

﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ أى أن المفاسد والأضرار التى تترتب على تعاطيهما، أعظم من المنافع التى تنشأ عن تعاطيهما، إذ تعاطيهما يؤدى إلى منفعة بعض الناس، أما مضارهما فكثيرة، من ذلك أن تعاطى الخمر يضعف الضمير، ويفسد الأخلاق، ويميت الحياء، ويفقد الرشد، ويتلف المال، ويغرى بالتنازع بين الناس، ويتسبب – كما قال الأطباء الثقاة – فى كثير من الأمراض كأمراض الكبد والرئتين والقلب.. إلخ.

وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ما كتبه العلماء والمتخصصون فى ذلك [٩].

أما تعاطى الميسر فمن مضاره – كما يقول الاستاذ الإمام محمد عبده – «إفساد التربية بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية، بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التى هى أركان العمران، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر فى ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت فى العز والغنى

---

(٨) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ١١٣، وتفسير القرطبى جـ ٢ ص ٥٨.

(٩) راجع على سبيل المثال «تفسير الجواهر» في معنى الآية للمرحوم طنطاوي جوهرى وتفسير المنار جـ٢ ص ٣٢١.

وانحصرت ثروتها فى رجل أضاعها عليها فى ليلة واحدة، فأصبحت غنية وأمست فقيرة»[١٠].

إذن فالمنفع الدنيوية التى تعود إلى بعض الناس من تعاطى الخمر والميسر لا تساوى شيئاً بجانب تلك المضار الجسيمة التى تعود على أفراد الأمة فى دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترابطهم، وصدق الله اذ يقول:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

ثم ياتى بعد ذلك السؤال الثانى الذى ورد فى هاتين الآيتين وهو قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾.

ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم فى الوجوه المحرمة كتعاطى الخمر والميسر، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبو بهذا الجواب الحكيم.

قال الآلوسى «أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة فى سبيل الله أتوا النبى ـ ﷺ ـ فقالوا: إنا لاندرى ما هذه النفقة التى أمرنا بها فى أموالنا وما الذى ننفقه منها فأنزل الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾

وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل»[١١].

وأصل العفو فى اللغة الزيادة. قال ـ تعالى ـ:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾

أى زادوا على ما كانوا عليه من العدد. ويطلق على ماسهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية.

يقال: خذ ما عفا لك. أى ما تيسر. كما يطلق على الترك قال ـ تعالى ـ:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ ﴾ أى تركه وتجاوز عنه.

والمراد به هنا: ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة، إذ هذا القدر الذى يتيسر إخراجه ويسهل بذله، ولا يتضرر صاحبه بتركه.

والمعني، ويسألونك ما الذى يتصدقون به من أموالهم فى وجوه البر، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجه، ولا يشق عليكم بذله.

وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذى يأبى التبذير وينفر من التقتير، وفى أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول».

وأخراج مسلم عن جابر أن النبى ـ ﷺ ـ قال «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شىء فلأهلك فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا»

إلى غير ذلك من الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى.

---

(١٠) تفسير المنار جـ ٢ ص ٢٣٠.

(١١) تفسير الآلوسى جـ٢ صـ ١١٥.

وللأستاذ الإمام كلام جيد فى هذا المقام قال ـ رحمه الله ـ ما ملخصه: «إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل ما لها فى مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية الناشئة ـ تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئا فى مثل ذلك؛ لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة، إذ هو يعتبر نفسه جزءاً منها وهى كل له، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر.. وفى الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان فى جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم»(١٢).

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

أى: مثل هذا البيان الحكيم الذى بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم فى سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لكى تتفكروا وتتدبروا فيما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم، بأن تعملوا فى الدنيا العمل الصالح الذى يجعلكم تظفرون برضا الله فى أخراكم.

قال صاحب الكشاف: «وقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ إما أن يعلق بتتفكرون، فيكون المعنى: لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد فى النفقة وتتفكرون فى الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع. ويجوزأن يكون إشارة إلى قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فيكون المعنى: لتتفكروا فى عقاب الإثم فى الآخرة والنفع فى الدنيا حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب الأليم. وإما أن يتعلق بيبين على معنى: يبين لكم الآيات فى أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون»(١٣).

أما السؤال الثالث والأخير الذى ورد فى هاتين الآيتين فهو قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾

أخرج أبو داود والحاكم والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال:

لما نزل قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه. وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشئ

(١٢) تفسير المنار جـ ٢ صـــ ٢٣٨.

(١٣) تفسير الكشاف جـ١ صـــ ٢٦٣.

من طعامه وشرابه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله - تعالى -:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾

فخلطوا طعامهم وشرابهم بشرابهم [١٤].

والمعنى: ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف فى أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم فقل لهم: إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة. والمعاملة الحسنة، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا فى الوجوه المشروعة فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم، وتركهم، ولذا قال - تعالى - بعد ذلك:

﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ أى: وإن تعاشروهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم فى العقيدة والإنسانية، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة.

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبله. و«إصلاح» مبتدأ وسوغ الابتداء به مع أنه نكرة وصفه بالجار والمجرور «لهم» و«خير» خبره،

وقوله: ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط، وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهم إخوانكم، والجملة فى محل جزم على أنها جواب الشرط.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ وعد ووعيد، وترغيب فى الإصلاح وترهيب من الإفساد، أى: والله يعلم المفسد لشئون هؤلاء اليتامى من المصلح لها، كما أنه - سبحانه - لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، وسيجازى كل إنسان على حسب عمله، فاحذروا الإفساد ولا تتحروا غير الإصلاح.

ثم قال - تعالى -:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ﴾ العنت: الشدة والمشقة والتضييق. يقال: أعنته فى كذا يعنته إعناتا، إذا أجهده وألزمه ما يشق عليه.

أى: ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى، وبغير ذلك مما يشرع لكم، ولكنه - سبحانه - وسع عليكم وخفف فأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن، فاشكروه على ذلك.

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: إن الله – تعالى – غالب على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التى من جملتها إعناتكم قادر على أن يعز من أعز اليتامى ويذل من أذلهم، حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله، فلا يضع الأشياء إلا فى مواضعها.

وقد استدل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف فى أموال اليتامى على وجه الإصلاح، وعلى أن للولى أن يخالط اليتيم بنفسه فى المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة.

---

(١٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٦.

وقد وردت أحاديث متعددة فى رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما».

وروى الطبرانى عن أبى الدرداء. قال: أتى النبى ـ ﷺ ـ رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له النبى ـ ﷺ ـ أتحب أن يلين وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات فى مطاعمهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولاسيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى، والقلب الرحيم، ومن شأن الأمة التى تعمل بهذا التوجيه السامى الحكيم أن تنال السعادة فى دنياها. ورضا الله فى أخراها.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك فى اثنتين وعشرين آية(١٥) عن بعض أحكام وآداب الزواج والمعاشرة، والإيلاء والطلاق، والعدة، والنفقة، والرضاعة، والخطبة، والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها، وبنائها على أفضل الدعائم، وأحكم الروابط، إذ الأسرة هى اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع، ومن مجموعها يتكون، فإذا صلحت الوحدات والمكونات صلح البنيان، وإذا تصدعت تصدع.

ولقد ابتدأت الآيات التى معنا حديثها عن الأسرة بالحديث عن الزواج لأنه أعمق الروابط وأقواها ومنه تتأتى الذرية، لذا جعل أساس الاختيار فيه هو التدين السليم، والخلق القويم، الذى يسعد ولا يشقى، ويبنى ولا يهدم، ويحفظ ولا يضيع.. ولا يتأتى ذلك إلا باختيار المسلمة الصالحة والإعراض عن المشركة الكافرة.

***

(١٥) من الآية ٢٢١ وهى، ﴿ولاتنكحوا المشركات..﴾ إلخ قوله: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ الآية ٢٤٢.

وحى الألفاظ فى أسلوب القرآن

للأستاذ الدكتور/ عبد الحليم حفنى

من المعروف فى نقد الأدب أن اختيار الألفاظ من أهم الموازين التى يوزن بها الأدب، ومن المقاييس التى يتفاوت بها أسلوب عن آخر، ويعلو بها أو يسفل بعض الكلام عن بعض، وذلك أن الأديب الموهوب هو الذى يحسن اختيار كلماته بحيث تحمل ما يجول فى نفسه من مشاعر، وتنقلها إلى السامع أو القارىء، وهذا الاختيار ليس عملا ماديا أو محسوسا، بمعنى أن الأديب حين ينشىء الكلام لا يعمد إلى الموازنة بين كل لفظ ولفظ آخر ليختار ما يروق لحسه منهما، وإنما تتوارد على ذهنه تلقائيا الألفاظ التى تلائم التعبير عن حسه وشعوره، كما تتناغم حروفها صوتيا مع نسج التعبير.

فالألفاظ قد يوافق بعضها بعضا فى أداء المعنى، فيما يعرف بالترادف، ولكنها كثيرا ما تتفاوت تفاوتا غير يسير فى أداء المدلول البلاغى الأدبى، فنجد مثلا ألفاظا نحو (جاء - أتى - قدم - أقبل - حضر - وافى) تؤدى فى المدلول العادى معنى واحدا، ويمكن أن يوضع أحدهما مكان الآخر فلا يتغير المعنى، وتوصف بأنها مترادفة، ولكن الاستعمال الأدبى الدقيق لا يكاد يعترف بالترادف، لأن لكل لفظ فى موضعه البلاغى مدلولا لا يؤديه مرادفه، وقد يختلف علماء اللغة والنقد فى تعليل ذلك، ولكنهم لن يختلفوا فى مبعث التساؤل، وهو أن بعض الألفاظ يوحى بمشاعر أو خيالات لا يوحيها مرادفه لو جئنا بهذا المرادف مكانه، ومثال ذلك أن نقول : أقبل فلان سعيدا مبتهجا، أو يقول شاعر متغزلا فى امرأة : (أقبلت تتهادى) فالذوق الأصيل سيجد فرقا بين إحساسه بتعبير أقبل سعيدا مبتهجا وبين حضر سعيدا مبتهجا، وكذلك بين أقبلت تتهادى وقدمت تتهادى، وقد يكون من تعليل ذلك أن لفظ الإقبال يتضمن فوق المدلول العادى تصويرا أو مدلولا آخر يستفاد من معنى الإقبال الذى يستخدم كثيرا فى الرضا أو الرغبة، كما يُقال أقبل علىَّ فلان بوجهه، وقد يكون ذلك لأن قائل التعبير ضمَّن تعبيره مشاعره الخاصة نحو مدلول التعبير، وليس بعيدا أو غريبا أن يحمل الكلام روح صاحبه ومشاعره، وإن لم يخل هذا من غرابة مصدرها عدم القدرة على إخضاع المشاعر والأحاسيس وكل ما يتعلق بالنفس والروح للمقاييس العقلية.

وهذا الحديث يحتاج إلى بسطة فى القول، ولكن خلاصته أننا نجد بعض الألفاظ حين تستخدم استخداما دقيقا تؤدى فوق دلالتها اللغوية دلالة إيحائية، توحى بمشاعر وانفعالات زائدة عن المعنى اللغوى.

وعبدالقاهر الجرجانى إمام البلاغة العربية فى قواعدها يتحدث كثيرا عن إيحاء الألفاظ من خلال حديثه عن الاستعارة، ومن ذلك قوله: « وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة فى مواضع، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد.. ومن خصائصها أنها تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ.. فإنك لترى بها الجماد حيا والأعجم فصيحا ».

ونستخلص من كل ذلك أن الألفاظ المفردة لذاتها وبمراعاة سياقها وموضعها من الكلام توحى أحيانا بمعان وإشارات كثيرة فوق دلالتها العامة المقصودة من ظاهر التعبير، حيث تصبح هذه الدلالات والإيحاءات أشبه بالهالة المحيطة بالمعنى الأصلى للفظ، فتزيده وقعاً فى النفس، وتأثيرا فى المشاعر، زيادة عن كونها كالتأكيد والتثبيت للمعنى الأصلى.

والقرآن الكريم حافل بهذه الألفاظ ذات الإيحاء زيادة عن معناها الأصلى، ومنها على سبيل المثال:

١ – لفظ (تصعر) من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾(١)

فالمعنى فى السياق منصب على النهى عن مشية التعالى والغرور التى يبدو فيها المتكبر معرضا عن الناس بوجهه، والعامة يعبرون عن استنكارهم لهذه المشية وهذا المظهر بمثل قولهم (فلان عاوج رقبته) ويمكن أن يؤتى بكلام مستفيض بليغ عن استنكار الكبرياء، وذم الخيلاء، والنهى عن كل ما يتضمن تعاليا على الناس وتكبرا عليهم، مع إبراز مساوىء هذه الصفة، وما يترتب عليها من غضب الله وسخط الناس، ولكن ذلك كله لا يبلغ من نفوس السامعين، ولا من المتكبر نفسه ما تبلغه هذه الصورة الفنية التى يرسمها لفظ (تصعر) حيث ان أبرز دلالات الصعر (بفتح الصاد مشددة وفتح العين) ما يعرفه كل العرب حتى الصبية من الرعاة عن هذا المرض الذى يصيب بعض الإبل فيلوى أعناقها، فبينما يمشى البعير وصدره إلى أمام يكون عنقه منحرفا إلى جهة اليمين أو الشمال، ويصبح فى صورة تدعو إلى الضحك أو الإشفاق، والقرآن هنا حين يستنكر مشية الخيلاء والتعالى ذات الهيئة المعروفة لدى الناس لا ينعى على صاحبها بالتنفير منها بالكلام، وبيان مدى بُغض الله ـ سبحانه ـ لها، ولا بالاستخفاف بها والإنكار عليها، وإنما يكتفى بأن يقرن هذه الهيئة بصورة البعير المصاب بداء الصَّعَر، ومن الواضح أن هذا التشبيه يثير فى النفس مالا يثيره أى كلام عن التنفير من الخيلاء والغرور والتعالى على الناس، وأبرز مافى هذا التأثير أن التنفير بالكلام المجرد هو أسلوب الحقيقة المجردة ولكن هذا التشبيه بصورة الجمل المريض بالصعر فى هيئته المعروفة يلبس الكلام المجرد كساء من الطرافة والسخرية والتندر، وهذا يمثل قمة التنفير من مظاهر الكبرياء والخيلاء، فإن علماء

(١) لقمان آية «١٨».

النفس والاجتماع يلحظون أن السخرية أبلغ وسيلة فى تغيير العادات والتقاليد، فإن الذى يزاول عادة ذميمة قد يتغاضى عن إنكار الناس عليه، بل قد يتحداهم بزيادة الإصرار على عادته، ولكنه حين يجد الناس يسخرون منه إزاء هذه العادة، فإن أول ما ينبعث فى نفسه حينئذ هو محاولة ترك هذه العادة، والذى يتقمص هيئة الخيلاء والتعالى هذه حين يتصور أن الناس حين يرونه بهذه الهيئة ينظر بعضهم إلى بعض قائلين : إنه أشبه ببعير مريض بالصعر، فلا يعقل أن يتمثل هذه الهيئة مرة أخرى، وبهذا يكون القرآن الكريم قد بلغ الغاية فى التنفير من عادة بغيضة يتكلفها بعض الناس بلفظ واحد يتضمنه تعبير

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ولكن القرآن الكريم حين يتهكم أو يسخر يمتاز عن كل أساليب البشر بالصدق والواقعية، فالصعر واضح أنه مرض عضوى فى البعير، وكذلك المشية المقصودة فى الخيلاء والغرور هى نوع من المرض النفسى، حيث نجد فى علم النفس أن الذى يشعر بالنقص فى شىء يحاول التكلف فى الظهور بعكس هذا الشىء من باب التعويض النفسى، وهذا المختال المتعالى لا شك أنه يحاول بتكلّفه هذه المشية تعويض شعوره بنقص فى إعجاب الناس به أو خضوعهم له أو مساواتهم إياه بشخص آخر يتطلع هو أن يكون مثله أو نحو ذلك، فكلاهما مرض، غاية الأمر أنه فى البعير مرض عضوى، وفى المتكبر مرض نفسى.

٢- ومن هذه الألفاظ لفظ (النُّزُل) فى مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾(٢) فالنُّزُل فى لغة العرب و عرفهم هو ما يُعد من إكرام للضيف والنازل حين يُعَدّ مكان خاص بهذا، فالنزل هو الاسم العربى للفنادق، وبطبيعة الحال فإن الذى يُعد مكانا لنزول الضيوف فيه سيبذل جهده ليهيىء فيه كل ما يستطيع من وسائل الراحة التكريم، إما لأنه سيأخذ أجرا ماديا عاجلا بمقدار ما هيأ فيه من وسائل الراحة إن كان الهدف ماديا، وإما لأنه سيأخذ ثناء ومدحا من الناس إن كان الهدف أدبيا، وهذا كان هو الوضع الشائع عند نزول القرآن، وفى كل الأحوال فإن النزل مرتبط بوسائل الراحة والتكريم للنازل فيه، ولكن القرآن ينقل هذه الصورة الوردية الحالمة إلى صورة بالغة البشاعة والرهبة، هى صورة جهنم، فينتقل المعنى كله من واد إلى واد آخر، وتلتقى فى نفس السامع صورتان بينهما تناقض وتدابر، وفى اقترانهما مفارقة كبيرة، فالصورة التى يحددها سياق الكلام هى صورة جهنم التى لا يرتاب السامع فى تمثلها بكل بشاعتها عذابا لأعداء الله، ولكن السامع يفاجأ بأن المعد لهؤلاء الكافرين ليس جهنم التى يمليها السياق، وإنما أعد لهم شىء مختلف عن جهنم كل الاختلاف، أعد لهم تكريم ونعيم أو حسن ضيافة على الأقل، وذلك ما يدل عليه لفظ النزل، وتدخل الموازنة بين الصورتين المتناقضتين فى نفس السامع فى عملية عقلية مهما تبلغ من سرعة المرور فى الخاطر، وقد تتضمن هذه العملية العقلية تساؤلا سريعا أو خاطفا : هل حقا يُعد الله للكافرين حسن ضيافة و

(٢) الواقعة آية «٥٦».

تكريما؟ ولكن هذ الخاطر ينكره العقل بداهة، كما ينكره السياق، فترتد النفس سريعا إلى صورة جهنم، فهى المعدة فى الواقع للكافرين، فتستريح النفس وتستقر على هذه الصورة، ولكن تبقى فيها المفارقة والطرافة التى أثارها توارد الصورتين المتناقضتين فى موضع واحد، والتى ينبغى أن تثير فى نفس السامع وعقله مواعظ شتى، هل كان ذلك للتأنيب والتقريع والتهكم لأنهم اختاروا لأنفسهم العذاب، بدل أن يختاروا النعيم، أم كان ذلك للتذكير والتحذير بأن أمام الإنسان الطريقين ليختار أيهما يشاء: طريق الشقاء والعذاب، وطريق التكريم والنعيم، أم نحو ذلك من المعانى؟ ومما يزيد هذه المعانى بروزا ووضوحا، ويزيدها تأثيرا فى النفس لفظ الإشارة المقترن بالصورتين وهو (هذا) من قوله ـ تعالى ـ :

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ فإن الإشارة تجعل النزل الذى هو فى الحقيقة جهنم كأنه شىء مشاهد يشار إليه.

ولو جاء التعبير على أصل الحقيقة وهو هذا عذابهم لما وجدنا كل هذه الإيحاءات التى يوحيها لفظ النُّزُل، فالفارق الكبير واضح بين تعبير هذا عذابهم وبين ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ ﴾.

٣- لفظ الخزنة فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[٣].

فلفظ الخزنة يستعمل عادة فى الحراس الذين يقومون بالمحافظة والحراسة على شىء معين، وهذا الاستعمال حين يضاف إلى جهنم يرسم فى ذهن السامع صورة لجهنم وقد وكل بها حراس ينظمون أمر حفظها، ومراقبة من بداخلها حتى لا يفكروا فى الهروب منها، وحراسة أبوابها حتى لا يتسلل أحد من داخلها إلى خارجها، ونحو ذلك مما نتصوره فى حراس يوكل إليهم حفظ شىء مهم يخشى ضياع شىء منه، أو امتداد أيدى الطامعين إلى اختطاف أو سرقة شىء منه، مما يجعل السامع لأول وهلة من سماع لفظ الخزنة يتخيل هولاء الخزنة قائمين مثلا حول جهنم، وحارسين على أبوابها، خشية أن يهرب أحد من داخلها. أو يتسلل أحد من الخارج فيدخلها، أو تمتد يد إلى شىء مما فيها، أو نحو ذلك، وهذه الصورة يرسمها فى الذهن المدلول المباشر للفظ الخزنة، ولكن الصورة الحقيقية التى يؤكدها سياق الكلام ولا يرتاب العقل فيها أن النار لا يناسبها شىء من ذلك، فليس فيها شىء يطمع فيه فيحتاج إلى حراسة، وليست مغرية حتى يفكر أحد فى الدخول إليها فتحتاج إلى حجاب، وليس هناك مهرب أو مفر لمن فيها حتى يحتاجون إلى سجان يحول بينهم وبين الهروب، كما يقول الجاحظ: «والخزنة الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شىء، فيحفظ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به».

حينئذ نجد لفظ الخزنة يوحى لنا بصورة جديدة غير الصورة الحقيقية، فالصورة الحقيقية هى جهنم بنارها وعذابها المتصور فى الذهن، أما الصورة الجديدة التى أوحى بها لفظ الخزنة فهى صورة مكان جميل تهفو إليه النفوس، وهو يحوى أشياء

(٣) غافر آية «٤٩».

ثمينة تتطلع إليها المطامع والآمال، فهو فى حاجة إلى حراس وحجاب لحفظه وحمايته، واقتران الصورتين فى الذهن مما يثير كثيراً من المشاعر والمعانى التى تدور حول السخرية والتهكم بأهل جهنم، والتذكير والتحذير لأهل الدنيا قبل أن ينتهوا إلى هذا المصير.

ولولا إيحاءات لفظ الخزنة لما وجدت هذه الطرافة التى توقظ العقول للموازنة بين صورة الحقيقة وهى صورة جهنم وبين الصورة الجديدة التى أوحاها لفظ الخزنة وما يهدف إليه كل ذلك.

٤- ومن هذه الألفاظ لفظ الصياصى من قوله - تعالى - : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾(٤).

والآية الأولى فى شأن الأحزاب الذين صرفهم الله فاشلين وكفى المسلمين قتالهم، والآية الثانية فى شأن بنى قريظة الذين ظاهروا الأحزاب، وناصروهم على المسلمين، فلما فشل الأحزاب تحصن بنو قريظة فى حصونهم، يتحدون المسلمين بهذه الحصون المنيعة، ولكن الله يبين لهم أن أية حصون لا تصمد أمام قوة الله وجنوده، وإنما تكون حينئذ شيئا واهيا ضعيفا، وهذا المعنى لا يبسطه القرآن صراحة، وإنما يضمنه لفظ (صياصيهم) فالمعنى الظاهر: وأنزل الله الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من حصونهم، ولكن القرآن يختار لفظ صياصيهم بدلا من حصونهم ليكون موحيا بمعان وإيحاءات تُعد لذاتها صورا مستقلة، وذلك حين ننظر إلى اشتقاق هذا اللفظ، فالصيصية فى لغة العرب تستخدم فى عدة دلالات، منها قرن الثور والظبى، يُقال لكل منهما صيصة، ومنها الشوك الناتىء حول أرجل الديكة كأنه القرون الصغار، ومنها شوك النساجين، ونحو ذلك من الدلالة على أشياء توحى فى ظاهرها بالقوة والصلابة، ولكنها فى حقيقتها ليست كذلك وهذا مايهدف إليه استخدام لفظ الصيصية فى القرآن بدل الحصون، فالعربى صاحب هذه اللغة بفهمه لدلالات ألفاظها لو سمع الآية على أنها إنزال الله لهم من حصون لا نحصر ذهنه فى الحصون المعروفة، ولكنه يسمع إنزال الله لهم من صياصٍ فتتوارد على ذهنه ولو فى عجلة كل هذه الدلالات التى ترتبط بالصياصى فلا يجد ذهنه محصورا فى الدلالة على حصون حربية منيعة ذات شكل وصفة معينة، وإنما يجد فى ذهنه أرجل ديكة ونتواء فيها، وشوكا للنساجين، وقرونا للحيوانات تدافع بها عن أنفسها كما يدافع أصحاب الحصون بحصونهم، وغير ذلك من الدلالات التى يضيع معها التركيز فى صورة الحصون الحربية بقوتها ومنعتها، وهو ما يهدف إليه أسلوب القرآن، حيث يؤكد السياق كله التهوين من شأنهم وشأن حصونهم، فلفظ (صياصيهم) يؤدى المعنى الأصلى وهو الحصون، ولكنه يوحى فوق ذلك إيحاءات أخرى تدور حول تحقير حصونهم التى ظنوها مانعة لهم من الله، هذه الإيحاءات التى تجعل من حصونهم موضعا للسخرية والتفكه زيادة عن التهوين والتحقير، فقد كان يمكن أن يكون التعبير نحو أمكنكم الله منهم، أو نصركم

(٤) الأحزاب آية «٢٥، ٢٦».

عليهم، أو ملككم إياهم، أو جعلهم فى قبضتكم أو نحو ذلك، وهذا كله فى محيط أسلوب الحقيقة، ولكن تصور السامع أن حصونهم أشبه بأشياء معروفة فى البيئة يوحى ظاهرها بالقوة والصلابة ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك. هذا ينقل دلالة اللفظ إلى صور فنية توحى للسامع بخيالات ومشاعر شتى.

وقد يكون من أسباب روعة الإيحاء فى مثل هذه الألفاظ أن القرآن الكريم يختار فى المواضع ذات الهدف الخاص ألفاظا تستعمل فى عدة دلالات فى اللغة، فيستخدمها القرآن فى إحدى هذه الدلالات بغلبة الاستعمال، أو بتحديد السياق للمعنى المراد، ولكن الدلالات الأخرى للفظ تظل حائمة حول اللفظ متداعية بذكره، مزاحمة للمعنى المراد ولو مزاحمة يسيرة، فيما يعرفه علماء اللغة بدوران المادة حول معنى واحد، فإن هذه الدلالات الفرعية الحائمة حول المعنى الجوهرى تفتح لذهن السامع آفاقا وسبلا عديدة متنوعة، وترسم فى خياله صورا عديدة، قد يكون بعضها للسخرية والتهكم كما هو الحال فى أغلب هذه الدلالات، وقد تكون للتنفير أو الترغيب أو التحقير أو غير ذلك.

٥- ومن هذه الألفاظ لفظ (أركسهم) فى قوله تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾(٥).

فالمعنى فيه عتاب للمسلمين على اختلافهم فى شأن طائفة من المنافقين كانوا يظهرون أولاً أنهم مسلمون، ثم انتهزوا فرصة فلحقوا بالمشركين وانضموا إليهم، فالقرآن يقول لهم: لم يكن ينبغى أن تختلفوا فى أمر قوم ردهم الله إلى وضعهم الحقيقى وهو الكفر، ولا ينبغى أن تأسوا على فراق الضالين، واللفظ العادى المنتظر هو: والله ردهم بما كسبوا، ولكن القرآن يتجاوز لفظ الرد، ويختار مكانه الإركاس، واستعمال مادة الإركاس عند العرب منه (أركسه وركسه قلبه على رأسه، وشد دابته إلى الركاسة وهى الآخيَّه - الحلقة التى تشد إليها الدواب - وهذا ركس رجس، وبناء ركس رم بعد الانهدام) فحين يسمع العربى لفظ (أركسهم) يفهم منه معنى ردهم، ولكن معانى وصورا أخرى يوحيها اللفظ بدلالاته العديدة تتوارد على ذهنه، منها صورة قلب الشىء على رأسه، ومنها شد الدابة إلى ما تربط إليه، ومنها الشىء الرجس النجس، ومنها صورة البناء المتهدم الذى لا يمسكه إلا الترميم، وكل هذه الدلالات لا تتوارد لذاتها وإنما تقترن بالذين يعنيهم السياق وهم المنافقون، فيتصورهم العربى الذى يعرف لغته فى كل هذه الصور أو فيما يروق له منها مناسبا للسياق، ومناسبة السياق هنا تجعل كل هذه الدلالات مصاحبة للمنافقين، مهينة لهم، ساخرة منهم، ويكفى من ذلك إشارة اللفظ إلى تشبيههم بالدواب التى ردت إلى مرابطها وقيدت بها.

ولو جاء التعبير على الأصل وهو، والله ردهم، لما وجدنا فى الكلام هذه المتعة الفنية التى يوحيها لفظ (أركسهم).

---

(٥) النساء آية «٨٨».

العناية بكتابة السنة النبوية

فى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام

الحلقة الثانية

للأستاذ الدكتور/أحمد معبد عبدالكريم (*)

تستفتح مجلة الأزهر نهجا فى الكتابة عن السنة النبوية الشريفة لعالم من علماء الأزهر نجله ونقدره، كما نقدرهم جميعا، كما نقدر أساتذتنا أهل التخصص فى الحديث، نرجو للأستاذ الشيخ أن يتابع مع قراء المجلة هذا النهج الموثق الكريم.

كما نقدم دعوة صادقة لكل أساتذة الحديث والفقه بالأزهر الشريف أن يوافونا بإنتاجهم الرفيع على هذا المستوى العلمى الذى يليق بالمجلة ويليق بهم، حتى نصدر أبوابا خاصة بالفقه والحديث والله الموفق.

فى المقال السابق ذكرت نماذج منوعة لما كُتب من السنن، بإذنه - ﷺ - أو بأمره المباشر، وبينت استدلال غير واحد من العلماء بذلك على أنه يعتبر إذنا عاماً منه - ﷺ - بكتابة وتدوين عامة ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير، أو شمائله الخُلقية، أو صفاته الخلقية، وذلك بشرط أن يكون المكتوب من ذلك كله مستقلا عن المكتوب من القرآن الكريم وذلك لأن من الصحابة من كان يكتب عنه القرآن الكريم، ويأخذ عنه الحديث أيضاً تلميذ واحد، مثل بعض تلاميذ زيد بن ثابت - رضى الله عنه- [١].

كما ذكرت بعض نماذج لكتابة بعض الصحابة - رضى الله عنهم - بعض الأحاديث وتداولها.

(*) أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر.

(١) ينظر تهذيب الكمال (٢٤/١٠ - ٢٦) و (١٠٥/٢٤).

وفى هذا المقال أواصل ذكر نماذج أخرى تدل أيضاً على استمرار العناية العامة بكتابة السنة عنه -ﷺ- مباشرة بين يديه بواسطة صحابته الكاتبين، وكذلك كتابتها عن صحابته - رضى الله عنهم- مباشرة بصور كثيرة ومتنوعة. وذلك على النحو التالى :-

١- ألَّف الإمام محمد بن طولون الدمشقى الحنفى المتوفى سنة ٩٥٣هـ كتاباً بعنوان : «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» (٢) وقد أورد فيه ٤٩ كتاباً، أمر الرسول - ﷺ- عدداً من أصحابه بكتابة كل منها عن لسانه، بعضها إلى ملوك دول العالم والحكام فى وقته، فى فارس، والروم، واليمن، والشام، ومصر، والبحرين، وبعضها إلى قبائل وشخصيات معينة فى أنحاء جزيرة العرب وما حولها، وبعضها إلى بعض من عينهم من الولاة على بعض مناطق الجزيرة العربية التى دخلت فى الإسلام.

وتعتبر مشتملات هذه الكتب عموماً من سنته -ﷺ- القولية، أو الفعلية أو التقريرية فى عامة أمور الدين، العقدية والتشريعية وأحكام المعاهدين من غير المسلمين. ونجد ما ذكره الإمام ابن طولون فى هذا الكتاب قد جمعه مما هو مُفرَّق فى كتب السنة والسيرة النبوية المدونة والتى وقف عليها فى عصره، والمتداولة بيننا الآن، وفى مقدمتها صحيحا البخارى ومسلم، وكتب السنن، والمسانيد، وبعضها يرويه المؤلف بسنده إلى أحد المسانيد التى تعتبر حالياً مما افتقدت نسخه الخطية للأسف، وهو مسند بقى بن مخلد الأندلسى (٣) المتوفى سنة ٢٧٦ هـ قال عنه ابن حزم الذى اطلع عليه : ليس لأحد مثله(٤).

ومن يقرأ هذه الكتب النبوية يتضح له من مضمونها، ومناسبة كتابتها، ومَنْ كُتبت لهم أن الكثير منها كان بعد غزوة الحديبية، فى أواخر السنة السادسة للهجرة، وخلال السنة السابعة وما بعدها، وهذا يؤيد تأييداً واقعياً أن نهيه - ﷺ - عن كتابة أحاديثه كان متقدماً، وأن إذنه- ﷺ- بالكتابة، وكذا أمره بها وجوباً كان متأخراً كما فى مكاتبة الملوك، والحكام لدعوتهم إلى الإسلام وإبلاغهم مجمل عقائده، وأحكامه.

٢- قد سبق أن ذكرت أن عبدالله بن عمرو بن العاص قد أذن له الرسول - ﷺ - بأن يكتب عنه كل ما يصدر منه فى كافة أحواله من الغضب والرضا، وأن العلماء استدلوا بهذا على جواز ذلك أيضاً لغير عبدالله بن عمرو من الصحابة.

وقد جاء عن عبدالله بن عمرو نفسه ما يفيد وقوع ذلك فعلاً، فعن أبى قبيل المعافرى قال : كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وسُئل : أى المدينتين تفتح أولاً، القسطنطينية(٥) أورُومِّية؟ (٦) قال : فدعا عبد الله

---

(٢) طبع أكثر من مرة.

(٣) ينظر إعلام السائلين لابن طولون - ط/ مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٤٠٧ هـ ، ص٥٢، ٦٥، ٧٤، ٨٩، ٩١، ١٠٣، ١٣٤.

(٤) الرسالة المستطرفة للكتانى /٧٤- ٧٥.

(٥) هى «اسطنبول» الموجودة فى تركيا حالياً / ينظر معجم البلدان ٢٤٧/٤.

(٦) ذكر ياقوت الحموى أن «رومية» تطلق على بلدين:إحداهما تقع شمال غربى «القسطنطينية» السابق ذكرها، والثانية بالمدائن - يعنى من بلاد فارس. ينظر معجم البلدان ١٠٠/٣.

ابن عمرو بصندوق له حَلَق، قال: فأخرج منه كتاباً فجعل يقرؤه، قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله - ﷺ - نكتب، إذ سئل رسول الله - ﷺ - أى المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أورومية؟

فقال النبى - ﷺ -: «بل مدينة هرقل أولاً تُفتح» (٧) - يعنى القسطنطينية. وتقدم فى المقال السابق من حديث عبدالله بن عمرو هذا أيضاً: قلت: يا رسول الله إنا نسمع منك أحاديث لا نحفظها، أفلا نكتبها؟ قال: «بلى فاكتبوها» فمن قول عبدالله بن عمرو - رضى الله عنه - «أفلا نكتبها»، وقوله - ﷺ - «اكتبوها». ومن قوله فى الحديث السابق: «بينما نحن حول رسول الله - ﷺ - نكتب» يستفاد أن الكتابة للسنة كانت تقع بين يدى رسول الله - ﷺ - مباشرة، بعلمه وموافقته، وأن عبدالله ابن عمرو استأذن الرسول - ﷺ - لنفسه ولجماعة معه، وأذن الرسول - ﷺ - لجماعتهم فقال: «اكتبوها»، وبمقتضى هذا الإذن كانوا يجتمعون حوله - ﷺ - ويكتبون كتابة جماعية، كما يستفاد من الحديث الأول أن عبدالله بن عمرو كان يعتنى بصيانة ما كان يكتبه عن رسول الله - ﷺ - فى صندوق خاص حتى لا يتطرق إليه تلف أو ضياع أو دخيل، وهذا يعتبر تأصيلاً لما ذكره علماء المصطلح فى ضبط الكتاب، دون أن يذكروا له مثالاً كهذا، ويستفاد كذلك أن عمر كان يخرج المكتوبات التى فى هذا الصندوق، ويحدث منها بقراءته ويسمع منه جماعة الحاضرين، ومنهم من يسأله كما يفيده قول الراوى عنه «كنا عند عبدالله بن عمرو - رضى الله عنه - وسئل...» وقول الراوى: إن الصندوق الذى أخرج عبدالله منه المكتوب الذى حدثهم به كان له «حَلَق» إشارة منه لتأكده من مناسبة الحديث وملابساته، ووجود تلك الحَلَق فى الصندوق تفيد، إما كبر حجمه، بحيث وُضع له حَلَق تُسهل حملَه ونقلَه، وإما مزيد العناية بوضع حلق فيه لإحكام إغلاقه.

كما أن هذا يدل على أن ما كتبه عبدالله بن عمرو عن رسول الله - ﷺ - لم يكن صحيفته المشهورة فقط، والتى كان يعتز بها، ويسمها (الصادقة) كما سيأتى ذكرة، ولكن كان ما كتبه عنه ﷺ أكثر، بحيث احتاج فى حفظه وصيانته

---

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف ٣٢٩/٥ - ٣٣٠ كتاب الجهاد، واللفظ له، والباقون بنحوه.

وأحمد فى المسند ١٧٦/٢/ حديث (٦٦٤٥).

والدارمى فى سننه ١٣٣/١/ حديث (٤٩٢) كتاب العلم.

والحاكم فى المستدرك ٤٢٢/٤، ٥٥٥، كتاب الفتن.

أربعتهم من طرق، عن يحيى بن أيوب عن أبى قبيل - حيى بن نافع المعافرى - عن عبدالله بن عمرو، به، وصححه الحاكم فى الموضوع الأول على شرط الشيخين، وفى الموضع الثانى قال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى فى الموضعين.

وأخرجه ابن عبدالحكم فى فتوح مصر (٢٨٥) بتحقيق الأخ الدكتور / على عمر - رحمه الله -.

من طريق سعيد بن عفير عن يحيى بن أيوب به.

وقال الذهبى: «هذا حديث حسن غريب» / السير ٨٧/٣.

إلى صندوق له حَلَق مما يدل على أنه كان كبير الحجم.

وقد حكم الذهبى بتحسين حديث الصندوق المذكور، ثم قال: «وهو دال على أن الصحابة كتبوا عن النبى - ﷺ - بعض أقواله...، ثم قال: وكتبوا عنه كتاب الديات، وفرائض الصدقة، وغير ذلك»[٨].

وقال أيضاً عن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنه -: «وكَتَبَ الكثيرَ بإذن النبى - ﷺ - وترخيصه له فى الكتابة بعد كراهيته للصحابة أن يكتبوا عنه سوى القرآن، وسوَّغ ذلك النبىُّ - ﷺ - ثم انعقد الإجماع بعد اختلاف الصحابة - رضى الله عنهم - على الجواز والاستحباب لتقييد العلم... ثم قال الذهبى أيضاً: والظاهر أن النهى كان أولاً لتتوفر هممهم على القرآن وَحْدَه، وليمتاز القرآن بالكتابة عما سواه من السنة النبوية، فيؤمَنُ اللَّبس، فلما زال المحذور واللبس ووضح أن القرآن لا يشتبه بكلام الناس، أذن فى كتابة العلم، والله أعلم[٩] وفى المقال السابق ذكرتُ أن مجمل مرويات عبدالله بن عمرو بن العاص بلغت (٧٠٠) حديث أو أقل، ولو أننا استعرضنا ما توافر لدينا من أدلة معتبرة على ما كتبه عبدالله بن عمرو بنفسه، وما كتبه عنه بعض من سمع منه، فسنجد أن ذلك يكون نسبة غير قليلة من مجموع ما تقدم ذكره من أحاديثه المدونة فى كتب الحديث الأصلية من الصحيحين والسنن والمسانيد وغيرها.

كما جاءت عنه بعض روايات أنه كان يحتفظ ببعض الآثار الموقوفة:

فروى عمرو بن شعيب قال: وجدنا فى كتاب عبدالله بن عمرو، عن عمر بن الخطاب قال: «إذا عبث المعتوه[١٠] بامرأته، أُمر وَلِيُّهُ أن يُطلِّق»[١١].

وفى رواية أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص: «أنه يُؤجَّل سَنَةً، فإن برئ، وإلا فرق بينه وبين امرأته»[١٢]

وجاء عن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنه - أن مما كتبه عن رسول الله - ﷺ - صحيفة سماها (الصادقة) قال مجاهد: أتيت عبدالله بن عمرو فتناولت صحيفة من تحت مفرشه، فمنعنى، قلت: ماكنت تمنعنى شيئاً، قال: «هذه الصادقة، هذه ماسمعت من رسول الله - ﷺ - ليس بينى وبينه (فيها) أحد، إذا سَلِمتْ لى هذه، وكتاب الله - تبارك وتعالى - والوَهْط[١٣] فما أبالى ماكانت عليه الدنيا»[١٤]، ومن ذلك يفهم أن عنايته بكتابة السنة، لم تشغله عن عنايته بالقرآن الكريم.

وجاءت عنه رواية أخرى قال فيها: أما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله - ﷺ - وأما

---

(٨) سير اعلام النبلاء ٣/٨٧- ٨٨، ونصب الراية للزيلعى ٢/٣٣٥، ٣٤٤.

(٩) السير ٣/٨٠- ٨١ .

(١٠) أى المجنون، وشبهه.

(١١) أخرجه الإمام الدار قطنى فى سننه/ كتاب الطلاق والخلع والإيلاء ٤/٦٥/ حديث (١٥٩ - ١٦١).

(١٢) أخرجها الإمام الدار قطنى فى سننه أيضاً/ كتاب النكاح - باب المهر ٣/٢٦٧/ حديث (٨٦)

(١٣) سيأتى تفسير معناه فى الرواية الآتية.

(١٤) تقييد العلم (٨٤)، وطبقات ابن سعد ٤/٢٦٢.

الوَهْط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص، وكان يقوم عليها[١٥].

ونقل الذهبى عن بعض العلماء قوله: ينبغى أن تكون تلك الصحيفة أصح من كل شىء، لأنها مما كتبه عبدالله بن عمرو عن النبى ـ ﷺ ـ والكتابة أضبط من حفظ الرجال [١٦].

ويذكر الدارسون: أن هذه الصحيفة الصادقة هى التى رواها عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو [١٧].

ومَنْ يقف على وصف محتوياتها يظهر له أن تسميتها صحيفة ليس معناه أنها عبارة عن ورقة واحدة، بل كانت أوراقاً كثيرة، فقد وقف ابن حبان على نسخة منها ورواها عن شيخه أبى يعلى الموصلى وقال: فى نسخة كتبناها عنه طويلة [١٨].

فالمراد بالصحيفة أو النسخة فى اصطلاح المحدثين: مجموعة الأحاديث التى رويت بإسناد واحد ولو بلغت أوراقاً كثيرة مثل صحيفة أو نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وبهز ابن حكيم عن أبيه عن جده [١٩].

وقد أطلق ابن معين وغيره على صحيفة عمرو ابن شعيب اسم «الكتاب» [٢٠].

ومن آخر البحوث المتخصصة عن عدد أحاديثها ماقرر فيه صاحبه أنها تبلغ (٢٣١) حديثاً غير المكرر أكثر من مرة، وذلك بعد إحصائه لها من عدد من كتب السنن والمسانيد، وعلم الرجال حيث روى كل منها بعض أحاديثها [٢١].

لكن بعض تلاميذ عبدالله بن عمرو غير كل من: شعيب والد عمرو هذا، ومحمد بن عبدالله بن عمرو، جد شعيب، جاء عنهم أيضاً مايفيد وجود مكتوبات متعددة عنده، وكان يُسمعهم منها.

فتلميذه أبوراشد الحمرانى [٢٢] قال: أتيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت له: حدثنا ماسمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ فألقى بين يدى صحيفة فقال: هذا ماكتب لى رسول الله ـ ﷺ ـ فنظرت فيها فإذا فيها: أن أبا بكر الصديق قال: يارسول الله علمنى ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: يا أبا بكر قل: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت.. الحديث»[٢٣] وقوله: «هذا ماكتب لى رسول الله ـ ﷺ » أى: أذن لى بكتابته عنه، كما فى الروايات الأخرى التى سبق بعضها فى المقال الأول.

---

(١٥) أخرجها الإمام الدارمى فى سننه ١/حديث ٥٠٢/ كتاب العلم ، وتقييد العلم للخطيب (٨٤-٨٥).

(١٦) تاريخ الإسلام (وفيات سنة ١١٨ هـ) ص ٣٣٤.

(١٧) ينظر كتاب «صحيفة عمرو بن شعيب، وبهز بن حكيم عند المحدثين والفقهاء» للأستاذ/ محمد على بن الصديق ١٠-١١، و١٢٩ - ١٣٤.

(١٨) المجروحين لابن حبان ٢/٧٢.

(١٩) ينظر تهذيب التهذيب ١/ ترجمة (٩٢٤) و٣/١٢.

(٢٠) الميزان للذهبى ٣/٢٦٣ -٢٦٤.

(٢١) ينظر كتاب صحيفة عمرو بن شعيب وبهز بن حكيم ص/١٣٢- ١٣٤.
وتحفة الأشراف للحزمى ٦/حديث (٨٦٥٥ - ٨٨١٧).
وإتحاف المهرة لابن حجر) ٩/حديث (١١٧٠٠ - ١١٨٧١).

(٢٢) تهذيب التهذيب ١٢/٩١.

(٢٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/١٩٦/ حديث (٦٨٥٢) بإسناد حسن.

وكلام أبى راشد هذا، يفيد أنه كان بمفرده عندما جاء إلى عبدالله بن عمرو وأطلعه على صحيفة مما كتبه، ويعتبر صنيع عبدالله بن عمرو هذا مع تلميذه أبى راشد، من تأصيل التحمل بالمناولة، حيث ألقى بين يديه الصحيفة المكتوب فيها الحديث، وأخبره بأنها مما أذن له الرسول - ﷺ - بكتابته عنه، ثم مكنه من النظر فيها، وقراءة الحديث المذكور منها. ويبدو أن جماعة غير أبى راشد قد رأوا هذه الصحيفة أيضاً، وتحملوا منها رواية الحديث السابق نفسه بلفظ مقارب، فقد قال أبوعبدالرحمن الحُبلى المصرى، تلميذ عبدالله بن عمرو أيضاً: أخرج لنا عبدالله بن عمرو قرطاساً[٢٤] وقال: كان رسول الله - ﷺ - يعلمنا، يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شىء..» (الحديث)[٢٥].

فقول أبى عبدالرحمن الحبلى: «أخرج لنا» يفيد أنهم كانوا جماعة، وأن عبدالله بن عمرو قرأ عليهم المكتوب. ومن تلاميذه من روى بعض الأحاديث التى كتبها عبدالله بن عمرو وأرسل بها إليه، فأرض «الوَهْط» التى كانت لعبدالله بن عمرو - كما تقدم - كان له فيها عامل زراعى يقال له: «سالم مولى عبدالله بن عمرو» وعرض عليه جيرانه أن يشتروا منه مايفيض عن حاجة عبدالله ابن عمرو من المياه، قال سالم: أعطَوْنى بفضل الماء من أرضه بالوهْط ثلاثين ألفاً، قال: فكتبت إلى عبدالله بن عمرو، فكتب إلىَّ: لاتبعه، ولكن أقِمْ قِلْدَك[٢٦] ثم اسق الأدنى فالأدنى، فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - ينهى عن بيع فضل الماء»[٢٧].

وجاء عن أحد تلاميذ عبدالله أنه أملى عليه بعض حديثه وكتبها عنه فى صحيفة وهو: أبوسبرة الهذلى، فقد قال لعبيد الله بن زياد - لما سمعه يجادل فى حوض رسول الله - ﷺ - الذى جعله الله له فى الآخرة -: ألا أحدثك حديثاً فيه شفاء هذا، إن أباك بعث معى بمالك إلى معاوية، فلقيت عبدالله بن عمرو بن العاص، فحدثنى مما سمع من رسول الله - ﷺ - وأملى علىَّ، فكتبت بيدى فلم أزد حرفاً، ولم أنقص حرفاً، حدثنى أن رسول الله - ﷺ قال: «إن الله لايحب الفحش، أو يبغض الفاحش والمتفحش، قال: ولا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة، وحتى يؤتمن الخائن، ويخون الأمين، وقال: «ألا إن موعدكم حوضى عرضه وطوله واحد، وهو كما بين أيلة[٢٨] ومكة».. (الحديث) وفيه: «من شرب منه لم يظمأ بعده أبداً»، فقال عبيد الله: ماسمعت فى الحوض حديثاً أثبت من هذا، فصدق

(٢٤) القرطاس: ما يكتب فيه. انظر المفردات للراغب الأصفهانى، مادة«قرطس».

(٢٥) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١٧٨/٢/ حديث (٦٥٩٧) وإسناده حسن لغيره.

(٢٦) يعنى اسق ما عندك من نوبتك من الماء، ثم اعط ما زاد لمن يليك دون بيع.

(٢٧) أخرجه الإمام البيهقى فى سننه ١٦/٦، والإمام أحمد فى مسنده ١٨٣/٢ حديث (٦٧٢٢).
وله شاهد عند الإمام النسائى فى سننه ٣٠٧/٧ بإسناد صحيح.

(٢٨) هى المعروفة الآن باسم «العقبة» فى جنوب الأردن على شاطىء البحر الأحمر، وفيها ميناء العقبة.

(٢٩) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١٦٢/٢- ١٦٣ / حديث (٦٥١٤)
والحاكم فى المستدرك من طريق الإمام أحمد وغيره ١٧٥/١ وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى.

به، وأخذ الصحيفة فحبسها عنده (٢٩).

وفى رواية أخرى للحديث: أنه لما حبس عبيد الله بن زياد الكتاب عنده، قال أبوبُسرة: فجزعت عليه، فلقينى يحيى بن يعمر، فشكوت إليه، فقال: والله لأنا أحفظ له من السورة من القرآن فحدثنى به كما كان فى الكتاب سواء (٣٠).

وهذه الرواية تفيد أن حفظ الصدور، وحفظ الكتاب كانا متضافرين على صيانة السنة وتعويض أحدهما ما فُقد من الآخر، وأن حفظ الصدور كان من القوة بحيث يطمأن إلى نيابته عن الكتابة عند افتقادها.

وجاء أيضاً عن أحد تلاميذ عبدالله بن عمرو من التابعين المصريين، وهو شُفَى بن ماتع الأصبحى المصرى(٣١): أنه سمع من عبدالله بن عمر كتابين:

أحدهما: عبارة عن أحاديث قولية وفعلية مرفوعة.

والآخر: فيه مايتعلق بما يقع آخر الزمن من الفتن وعلامات الساعة إلى يوم القيامة، وذكر ابن يونس: أن نسختى هذين الكتابين قد افتقدتا بإلقاء أحد الناس لهما فى النيل (٣٢) ووصفهما بأنهما كتابين، مع بيان مشتملاتهما إجمالاً، يستفاد منه أن حجمهما كان كبيراً، لكن قد عوضنا الله – تعالى – عنهما بما حفظه لنا بعض تلاميذ شُفَى هذا، إما صدراً، وإما كتابة، ووصل إلينا مدوناً فى بعض كتب السنن (٣٣) والمسانيد وغيرها (٣٤).

وهكذا يظهر لنا من خلال ماتقدم: أن ماكتبه عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ـ ﷺ ـ كان قدراً كبيراً، فمنه ماكان يحفظه فى صندوق ذى حلقات، ومنه ماكان يعتز به أكثر فيحفظه تحت فراشه ليكون قريباً منه.

وبلغت نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحدها قرابة مائتين وخمسين حديثاً مرفوعاً بدون المكرر منها مرة فأكثر.

كما يظهر لنا أن عدداً آخر من تلاميذ عبدالله بن عمرو من غير أهله، قد تلقوا عنه مدونات فى أكثر من كتاب، مشتملة على سنن فعلية، أو قولية، فى العقيدة والشريعة، كما اشتملت أيضاً على بعض سنن الخلفاء الراشدين.

ويظهر لنا أيضاً أن ما أملاه عبدالله بن عمرو، أو كتب عنه عموماً، قد انتشر بواسطة تلاميذه فى أقطار الإسلام شرقاً وغرباً، كالشام، ومصر، والعراق، وغيرها. وبالله التوفيق.

---

(٣٠) أخرجها الإمام أحمد فى المسند ٢/١٩٩/ حديث (٦٨٧٢).

(٣١) تهذيب الكمال ١٥/٣٥٧ – ٣٥٩ و١٢/٥٤٣ – ٥٤٤.

(٣٢) تهذيب التهذيب ٤/٣٦٠، وخطط المقريزى ٢/٣٣٢، وتذهيب تهذيب الكمال للذهبى ١/ق ١٤٨ أ، ب (مخطوط».

(٣٣) ينظر تحفة الأشراف ٦/ حديث (٨٨٢٥– ٨٨٢٧).

(٣٤) ينظر إتحاف المهرة ٩/ حديث(١١٨٧٢، ١١٨٧٢ مكرر، ١١٨٧٣).
والمعجم الكبير للطبرانى ١٣/حديث ١٦–١٩.

الدعوة كما ينبغي أن نبلغها

٤

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدي

سبق أن ذكرت في عدد ذي الحجة ١٤٢١هـ فتوى الإمام يحيى بن يحيى - وهو مالكي المذهب - التي أفتى بها ملكًا من ملوك المغرب، أفطر عامدا في نهار رمضان بأن عليه الصوم ليس غير وكانت حجة الفقيه في هذا أن الملك موسر ولا يجوز في حقه عتق رقبة ولا إطعام ستين مسكينا؛ حيث إنه يستطيع بماله أن يعتق رقابا ويطعم كثيرا من المساكين.

وقد خطَّأ الفقهاء الإمام يحيى وقالوا: إن الكفارة على التخيير بين أمور ثلاثة هي: الصيام أوالعتق أو الإطعام.

وأما أن يلزم الإمام يحيى من أفطر عامداً بالصيام فقط بحجة أنه يستطيع أن يعتق وأن يطعم فلا يزجره العتق أو الإطعام، إنما يزجره الصوم ذكرت ذلك في العدد السابق، وكنت في غنى عن إعادته، غير أن صاحبا لي لما طالع ما سبق أن قلته، قال: إنه يؤيد رأى الإمام يحيى بن يحيى في فتواه، لأن الصيام هو الذي يردع الملك، ثم سألني لماذا أرفض فتوى الإمام يحيى مع أنها هي التي تردع المفطر عامداً؟ ثم سألني: ما هي حجتي في الرفض؟ ولم أثقل على صاحبي فأقول له ما هي حجتك في القبول؟

وقلت له وأقول لغيره - ممن يؤسس رأيه على غير فقه وربما كان أساسه كما أفصح عنه صاحبي هو زجر المفطر عامداً -:

أولا: إن إلزام المفتي للملك بالصوم وتعيينه له فيه انحراف بمهمة المفتي عن الإفتاء، وجعل نفسه قاضيا أو إن شئت فقل جلادا؛ لأن الذي يلزم هو القاضي وليس المفتي على أنه لفقهائنا كلام جيد ورأى مستنير تجده في بعض الحواشي في عبارة موجزة معبرة يقولون مثلا: هذا الرأى يجوز فتيا لا قضاء، ومرة يقولون ذاك يجوز قضاءً لا فتيا، وفي عبارتهم الرشيدة فصلٌ بين مهمة المفتي المجتهد وعمل القاضي الذي يحكم، بمعنى أن المفتي المجتهد عليه أن يتحرى ويبحث عن حكم الله في المسألة، وليس

عليه أن يلزم أو يؤدب تبعاً لما يراه، حتى وإن كان بعيداً أو خارجاً عن حدود النص.

ولا أحبك أن تفهم أن معنى أنه خارج عن حدود النص أنه غير مذكور صراحة، فربما يكون الحكم غير مذكور صراحة ومع هذا يتناوله النص بالحظر أوالإباحة وذلك مايعرفه علماء الأصول بأنه فحوى الخطاب، ولعلك اشتقت أن تعرف ما هى (فحوى الخطاب) حيث إنها وردت فى حديث سابق بيننا، وقد وعدتك ببيانها والحديث عنها هى وأخريات مثلها، وإنى موف بوعدى لك، ولن ألجأ إلى تعريفات قد تنفر منها أويضيق بها صدرك، لكنى سوف أستعين بمثال يوضح المقصود، وإليك البيان :

يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾(١).

فى هذه الآية حث للمسلمين على الإحسان لليتيم وحفظ ماله وصيانته، وإنمائه وتهديد ووعيد من يتعدى على مال اليتيم ويأكل منه، وتحذير له بأنه إنما يدخل ناراً فى جوفه، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فسيصلى سعيراً.

هذا فيمن يأكل مال اليتيم، ولكن ما قولك فيمن يتلفه بالإحراق - مثلا - أو التبديد، أو ينتفع به بغير حق بخلاف الأكل. مثل سكنى داره - مثلا -؟ أو استعمال ملابسه؟ أو أشياءه؟

أراك تسارع فتقول: إن له نفس الوعيد ونفس الجزاء. وقد أقول لك من أين أتيت بهذا الرأى؟ وأراك تسارع فتقول: إن هذا الرأى موافق لما جاء فى النص أو هو فحواه ومضمونه، فهذا حكم عقلى أو ضرورة منطقية. أى أن العقل يوجبه لأن النص يحرم أكل مال اليتيم، ويتوعد آكله بالعقاب الشديد، وفى الأكل إتلاف للمال على صاحبه، فمن باب أولى الإحراق والتبديد، وأراك تسارع فتقول: إن الشراب والاستهلاك بأى وجه من وجوه الانتفاع يَحْرُم، ويشمله الوعيد، وأنا أوافقك على هذا الرأى، وهذا الاستنباط الذكى والزكى معا وأسأل الله أن ينفعنا وإياك به، على أن الموضوع قد يكون أكثر وضوحا فى مثال آخر، وهو قوله ـ تعالى ـ فى مقام بر الوالدين والإحسان لهما، ووجوب ملاطفتهما وخفض الجناح لهما حيث يقول - سبحانه وتعالى -:

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾(٢).

إن النهى الذى ورد النص عليه هنا هو التأفيف ولم يرد فى الآية سواه

لكنى ألمح ظلال ابتسامة على محياك تنم عن استنكار لسائل يقول: ما حكم الضرب يا مولانا؟

وكأنى بك تسارع - أيدك الله - فتقول له: إذا كان التأفيف منهى عنه، فالضرب من باب أولى،

(١) النساء/١٠.

(٢) الإسراء/٢٣.

فتلك بديهة العقول السليمة والفطرة السوية، وأكاد أضمك إلى صدرى وأقول لك: هذه هى فحوى الخطاب.

على أن تحديد دور المفتى المجتهد فى بيان الحكم وأنه يبتعد عن دور القاضى فيه سبق رشيد لما تعالجه القوانين الدستورية المعاصرة، من فصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ثانيا: إن حكم الكفارة فى الإفطار من خلال النص هو على التخيير، فليس لأحد أن يحول التخيير فى الحكم إلى التعيين فإن فى ذلك انحرافا بمهمة المجتهد لأن مهمته هى الكشف عن حكم الله فى المسألة وليس إنشاء لحكم جديد مهما تكن دوافعه.

ثالثا: إن المشرع من خلال النص «القرآن أو السنة» هو الذى قرر التخيير، ولو جاز ملمح التعيين أو كان له مسوغ كما هو فى نظر الفقيه يحيى بن يحيى ما كان أيسر على النص أن يستثنى الملوك والأغنياء من التخيير - مثلا - كما هو حادث فى كثير من الأحكام التى تستثنى أصحاب الأعذار أو من تكون عنده أسباب الاستثناء، بمعنى أن النص ورد عن رسول الله - ﷺ - فى موضوعنا - لما قال له سيدنا سعد بن أبى وقاص: إنى أفطرت فى رمضان، فقال له النبى - ﷺ -: «صم ستين يوماً، أو اطعم ستين مسكينا أو أعتق»[٣] أو كما قال رسول الله - ﷺ - وما كان أيسر أن يقول - ﷺ - - مثلا - صم إن كنت غنيا وإلا فاعتق أو اطعم.

وأخيرا أعدت على صاحبى قول رسول الله - ﷺ -: «لا تنظروا فى ذنوب العباد كأنكم أرباب، ولكن انظروا فيها على أنكم عبيد، والناس رجلان: معافىً ومبتلى، فارحموا أهل البلاء واسألوا الله العافية»[٤].

وأحسست كأن صاحبى قد اقتنع وأرجو أن يكون كذلك، على أن الذى يعنينى فى الأمر، هو: التنبيه على أن عمل الفقيه يتركز فى النص الموجود أمامه، باعتباره من معطيات ومسلمات يصل بها ومن خلالها لتفسير النص وبيان الحكم منه، وعليه أن يحاذر من أن ينزلق إلى مهمة غير مهمته فإن هذا يخرجه من دائرة الاجتهاد أو الفقه إلى دائرة القضاء أو إن شئت فقل: إلى فكر أو مهمة رجل الشرطة.

بعد هذا انتقل بك إلى ما سبق أن قلته فى عدد المحرم ١٤٢٢هـ من أن ما قاله البعض عن سبب اختلاف الفقهاء هو قلة النصوص عند العراقيين وكثرتها فى دار الهجرة. ليس هو الصواب.

وقد ذكرت لك أن أسباب الخلاف غير هذا، وقد كتب أسلافنا العظام كتباً عن أسباب الخلاف وأدلته تشفى الغليل ويستريح لها العقل وتقوم بها وعليها عُمد التشريع والفقه الإسلامى، سوف تكون موضع حوارات - إن شاء الله - وما أود أن تعرفه وأن يستقر فى قلبك وعقلك ووجدانك أن أهل الرأى وأهل الأثر لم يختلفوا لأن نصوصاً كانت نادرة أو كانت كثيرة متاحة، لأن هذه

(٣، ٤) يراجع مقالنا السابق.

دعوى – ساذجة أو مغرضة – للقول فى الدين بالرأى.

إنما الخلاف فى الرأى راجع – فيما نعتقد – إلى التكوين العقلى والنفسى والتأثير الثقافى والبيئى واللغوى – لأن الفقهاء جميعا ممن يسمون بأهل الرأى وأهل الأثر يختلفون فيما بينهم وتتعدد آراؤهم فى نص موجود وقد ضربت لك مثالا فى المقال السابق(٥).

وسوف أسوق لك مثالاً آخر من القرآن الكريم اختلف الفقهاء فيه وحوله وتعددت آراؤهم إلى حد التباين ولم يكن سبب الخلاف قلة الأحاديث ولا مجال للصحيح والسقيم من الروايات؛ لأن دليل كل فقيه هى الآية نفسها. والمسلمون جميعا يمارسون العمل عن وعى بحرية الاختلاف العلمى الواعى مادام مبنيا على فهم سديد لأدلة الأحكام وكل ذلك بعيدا عن الأغراض المشبوهة عن أسباب اختلاف الفقهاء حتى لقد قال لى قائل ينتسب إلى أهل العلم ويزعم أنه ينشد وحدة المسلمين وأنه يسعى من وراء قوله إلى رأب الصدع. وكان مما قال: لماذا لا تقوم المجامع الإسلامية بجمع الأحاديث النبوية كلها وتأخذ الأحكام الفقهية منها حتى لا يقع خلاف بين المسلمين فى الفقه؟ ؛ وبذلك نقضى على تمذهب المسلمين أو إن شئت نص ما قاله – مذاهب المسلمين وسوف لا أشغلك برد هذه المقولة البلهاء لكن حسبى وحسبك أن تعلم أن السنة النبوية المطهرة مجموعة موثقة كأحسن ما يكون التوثيق وذلك ما يغيظ الجاهلين والأعداء على السواء.

وحتى تطمئن لما قلته لك عن أسباب الاختلاف أقول لك: لقد اختلف أو اجتهد الصحابة ليس بعد انتقال النبى – ﷺ – بل اجتهدوا واختلفوا فى حياته – ﷺ – فلا حجة إذن لمن يرجع أسباب اختلاف الفقهاء وجنوح أهل الرأى إلى الرأى لقلة الأحاديث فالرسول بين ظهرانيهم والقضية معروضة عليه، نعم القضية معروضة عليه – ﷺ – أؤكد على ذلك حتى لا يقول متقول أو يزعم زاعم بأنه حدث ما حدث فى حياة الرسول – ﷺ – لكن الأمر لم يعرض عليه.

بعد رجوع النبى – ﷺ – من غزوة الخندق منتصراً كما روى البخارى عن السيدة عائشة – رضى الله عنها – ... ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل – عليه السلام – فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: ههنا. وأشار إلى بنى قريظة، فخرج النبى – ﷺ – إليهم، فقال النبى لأصحابه يطلب منهم سرعة التوجه لبنى قريظة تنفيذا لأمر الله على وجه السرعة: «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة»(٦) فتوجه الجيش كله سائراً إلى بنى قريظة وقبل أن ندخل إلى جوهر وأسباب الخلاف وحجة كل فريق أود أن أسألك حتى تهيىء نفسك لتقبل مبدأ تعدد الآراء ولا تضجر منه وحتى لا تكون ممن يتخيلون أو يتحيزون إلى

---

(٥) انظرعدد محرم ١٤٢٢هـ من مجلة الأزهر.

(٦) البخارى ٤٣/٣ ط عيسى الحلبى.

الرأى الواحد ويريدون أن يجعلوا الناس عليه أو قل – إن شئت – يفرضوه على الناس اصغ بقلبك إلى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَوْشَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾(٧).

فليس الذى تميل إليه صواباً إنما هى دكتاتورية بغيضة واستبداد مرفوض يرفضه الواقع الإنسانى وها هى أشلاء الهوس الماركسى متناثرة تحكى تمرد الطبيعة الإنسانية على القهر والاستبداد والقوالب الجامدة. وبعد هذا أقول لك:

هل قال النبى – ﷺ – «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة» لفضيلة الصلاة فى بنى قريظة يود أن يحوز المسلمون فضلها؟ أو لأن الصلاة فيها تساوى الصلاة فى المسجد الحرام أو تدانيه وهو يود أن يدرك المسلمون هذه المزية؟

كل ذلك لم يكن، إنما أظن أن الذى كان والذى هو مقصود: الذهاب والتوجه إلى بنى قريظة والإسراع فى الذهاب وعدم التأخير هو المقصود من كلام النبى – ﷺ – وقد توافقنى فى هذا الاستنتاج أو ترفضه – وأنا أحب ذلك منك ولا أبغضه – شريطة أن تسلم لى حقى فى الاختلاف معك وأن تقدم حجتك فيما زعمت أنه رأيك وأن أقدم حجتى فيما رأيته.

الآن أصحبك إلى ساحة الحدث دخل وقت العصر والجيش فى الطريق إلى بنى قريظة فقال بعضهم: «لا نصليها حتى نأتى بنى قريظة إنا لفى عزيمة رسول الله – ﷺ – وما علينا من إثم، فصلوا العصر ببنى قريظة حين وصلوها بعد غروب الشمس. وقال بعضهم: بل نصلى. لم يرد منا أن ندع الصلاة. فصلوا...»(٨) فأنت كما ترى أن أناسا صلوا وقالوا: إن رسول الله – ﷺ – قصد بقوله الإسراع فى التوجه إلى بنى قريظة وتمسك الآخرون بنص قول النبى – ﷺ – «لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة» وقالوا: لا نصلى إلا فى بنى قريظة.

ولعلك متمسك بالنص لا تخرج عنه وذلك لك ما دمت لا تحيد عنه. لكن قل بربك: كيف تفهم قوله تعالى:

﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(٩).

وما هو العمى المقصود هنا فى الدنيا وفى الآخرة؟

---

(٧) هود (١١٨– ١١٩).

(٨) فتح البارى (٧/ ٤٧٠ – ٤٧١) كتاب المغازى – باب مرجع النبى – ﷺ – من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم – حديث ٤١١٧ – ٤١١٩.

(٩) الإسراء/ ٧٢.

ومن أين تقطع يد السارق فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾(١٠)

من الكف أم الكوع أم المرفق أم نهاية الذارع؟ بل كيف نفهم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾(١١)؟

وهل الخمر يعصر وهو معصور؟ وكيف يعصر الخمر وقد تخمر؟

ولعلك تخرج من ضيق النصوص إلى سعة التأويل وتكون رجلا عصرياً متمرداً تتمرد على الجمود وترفضه وتكون مع الذين قالوا إن الأمر غير مقصود لذاته إنما الهدف والمقصود هو الإسراع وعدم التأخير؟ أما الصلاة نفسها فى بنى قريظة فليست هو مقصودة.

لكنى أقول لك: هل نفعل ذلك فى كل أمر وكيف نفعله؟ هل الانفتاح بلا ضابط؟ أو هو تبع لهوانا نمارسه عندما نضيق بالأمر؟ وتلك مقولة صدق، فلابد أن يكون تأويل النص وتوجيهه راجع إلى أصل يعتد به وليس لمجرد الرأى والتأويل أوالضيق بالأمر نفسه. لقد قال الذين أوَّلوا النص إن الله – سبحانه وتعالى – فرض الصلاة وقال فى محكم كتابه:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾(١٢).

وهذا نص محكم. والنبى – ﷺ – أخبر بأن جبريل أتاه فبيَّن له وقت كل صلاة والنبى – ﷺ – كان يحث على أداء الصلاة فى وقتها قولاً وعملاً. فضلاً عن أن إيقاع الصلاة فى وقتها أثناء السير إلى بنى قريظة لا يخل بمبدأ الإسراع فلذلك كان من رأينا أن نصلى عند دخول الوقت فنحن لم نخرج عن حيز النص، على أننا نترك هذا كله وندع ونسلم لكل فريق بحجته فيما فعل ما دام مستندا إلى حجة مقبولة شرعاً وعقلاً ونذهب إلى ساحة المصطفى – ﷺ –لنرى سعة التشريع النبوى ورحابة النبوة؛ يقول راوى الحديث: «فذكر ذلك للنبى – أى تعجيل البعض وتأخير البعض – فلم يعنف – ﷺ – أحداً أى: من الفريقين فإن الذين تمسكوا بالنص قالوا: ما علينا من إثم فى التأخير والذى صلوا قالوا: لم يرد منا خصوص الصلاة فى بنى قريظة؛ فأنت ترى أن لكل فريق حجة مقبولة، وأظن بعد هذا أنه لا مجال عندك للقول بأن أصحاب الرأى قالوا بالرأى لانعدام النصوص فأنت ترى أن النص موجود بل النص واحد وصاحب الشرع المبلِّغ عن ربه بين ظهرانيهم.

وأحسب أنى قد بلغت منك ما أريد والله يهدينا وإياك إلى ما فيه الخير وإلى لقاء قادم إن شاء الله مع الآية التى وعدتك بها التى وقع الخلاف حولها.

(١٠) المائدة /٣٨.
(١١) يوسف/٣٦.
(١٢) النساء/١٠٣.

دعوة الإسلام إلى الوحدة

٢

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

ولعموم الدعوة وخلودها كانت حقائق التشريع فيها توحد ولا تفرق وتدعوا إلى التمسك بالوحى الإلهى من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله – صلوات الله وسلامه عليه – ، وفى دائرة هذا الوحى المعصوم كان الاجتهاد فى الأمور التى لم يرد فيها نص وكان التفكير الإسلامى من أهل العلم المتخصصين.

ولعموم الدعوة وخلودها كان منهاجها الربانى يتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن، فلم ينتشر بالقوة ولا بالسيف فقد قال الله تعالى:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾(١)

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ﴾(٢).

وقال – جل شأنه – ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾(٣)

وحين يكون المجتهدون – فى أمور الدين – أهلا لهذا الاجتهاد وتتعدد الآراء فإن الإسلام لا يحجر على رأى، ولا يصادر فكراً، وما دام صحيحاً وما دام صاحبه من أهل الاجتهاد، فقد كان رسول الله – ﷺ – يقر الاجتهاد وتعدد الآراء، تأكيداً لسماحة الإسلام ويسره، وما كان يعنف أحداً، فقد روى أن النبى – ﷺ – قال – يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة»، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم: بل نصلى، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبى – ﷺ – فلم يعنف أحداً منهم.

ومن أمثلة إقرار تعدد الآراء حين تكون صحيحة: نبأ الرجلين اللذين تيمما صعيداً طيباً، وأثناء صلاتهما وجد الماء فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الثانى، فقال النبى – ﷺ – للذى لم يعد «أصبت السنة» وقال لمن أعاد «لك الأجر مرتين»

بل كان ينفرد أحياناً بعض الصحابة باجتهاد فى مسألة ما من المسائل أو حال من الأحوال التى تعرض له، وقد يرى البعض اجتهاد هذا الصحابى غريبا أو مستبعداً، ولكن رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – حين يرد إليه الأمر يبين لهم الحق فيه، فحين يرى فى هذا التصرف أو الاجتهاد وجهاً من وجوه سماحة الإسلام يقره ولا يرفضه،

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦. (٢) سورة ق آية ٤٥. (٣) سورة الغاشية آية ٢٢.

ولا يعنف صاحبه، ولا يتشدد، يقول عمرو بن العاص – رضى الله عنه –: احتلمت فى ليلة باردة، فى غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح، فذكروا ذلك للنبى – ﷺ – فقال يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذى حدث.. وبقول الله – تعالى –:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(٤)

«فضحك رسول الله – ﷺ – ولم يقل شيئا» رواه أبو داود والحاكم.

وهكذا نرى أن الرسول صلوات الله سلامه عليه كان يقر الاجتهاد الصحيح ويقبل تعدد الآراء مادام ذلك فى إطار الحق والصواب، ومادام ذلك فيما لم يرد فيه نص، ولم يصادم آية من كتاب الله –تعالى –، ولا حديثاً صحيحاً من أحاديث رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه –.. بل إن علماء الحديث يعدون إقرار الرسول – ﷺ – لعمل أحد الصحابة نوعاً من أنواع السنة النبوية، والحديث الشريف، لأنهم يعرفونه بأنه ما أضيف إلى رسول الله – ﷺ – من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

وعبر عصور الإسلام الزاهرة، ما كان سلف هذه الأمة – حين تتعدد آراؤهم – يلزم أحدهم الآخر برأيه، ولا يكره أحدٌ أحداً على شىء، فقد روى عن الإمام أبا حنيفة النعمان – رحمه الله تعالى – أنه قال: هذا الذى نحن فيه رأى لا نجبر أحدا عليه، ولا نقول: يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شىء أحسن منه فليأت به.

موقف الإسلام من الآراء التى لا تكون صحيحة

وأما موقف الإسلام من الآراء التى لا تكون صحيحة، فإنه ينكرها ولا يقرها بل لا يقر – ابتداء – أحد على القيام بالاجتهاد أو الإفتاء أو الرأى فى دين الله إلا إذا كان مزوداً بعلوم الاجتهاد والإفتاء من التفسير وعلوم القرآن والقراءات وأسباب النزول والحديث وأسباب الورود والناسخ والمنسوخ والفقه والنحو والصرف وغير ذلك من العلوم.. ويأمر الله – تعالى – من لا علم لهم أن يسألوا العلماء المتخصصين وأهل الذكر العارفين، فقال سبحانه:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٥).

وحذر الإسلام من اتباع آراء من لا علم لهم، لأنهم يضلون ويضلون كما – قال رسول الله – ﷺ –: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الصدور، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» رواه البخارى.

وإن من لا علم له حين يفتى فى دين الله أحداً يضله ولا يهديه، ويعرض من يفتيه إلى الهلاك.

عن جابر – رضى الله – عنه قال: خرجنا فى سفر، فأصاب رجلاً منا حجر فى رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات.. فلما قدمنا على رسول الله – ﷺ –، أخبر بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العى السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة،

(٤) سورة النساء (٢٩).

(٥) سورة النحل (٤٣).

ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده . . » ففى قوله – ﷺ –: «قتلوه قتلهم الله» ما يفيد اعتبار الذين أفتوه خطأ فأوردوه موارد الموت بمثابة القتلة لأخيهم حين أفتوه خطأ بغير علم . .

ومن ذلك أيضا ما رواه أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله – ﷺ – فى سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك، فذكرته للنبى – ﷺ –، فقال رسول الله – ﷺ –: «آقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يارسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فمازال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم».

رواه البخارى ومسلم وأحمد أبو داود

ومع الاختلاف فى الرأى، فإن الأمر لا يصل إلى حد أن يكفر أحد أحدا ولا أن يحكم أحد على المخطىء بالفسق أو الابتداع، لأنه لا يمكن لأحد أن يدخل قلوب الناس، أو أن يسيطر عليها، فلا يعلم ما فى القلوب إلا علام الغيوب، ولا يسيطر عليها إلا الله – سبحانه وتعالى – الذى خلقها.

لا تعصب فى إجتهادات الأئمة

لقد كان لأئمتنا رحمهم الله – تعالى – جهودهم التى تذكر فتشكر فى مجال الاجتهاد وكانت لهم آراؤهم المتعددة، والتى قد يختلف بعضهم مع الآخر، ولكنهم مع هذا لم يتعصبوا، ولم يلزم أحدهم الآخر برأيه.

فقد كانت هناك أسباب عديدة لاختلاف وجهات النظر من بينها: ألا يكون الحديث قد بلغ بعضهم، أو يكون بلغه ولكنه لم يثبت عنده، لأن أحد رجال الإسناد مجهول أو متهم أو سيء الحفظ أو يعتقد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره، أو يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسيه.

ومن أسباب الآختلاف – أيضا –، ما يرجع إلى بعض القواعد الأصولية كأن يأخذ بعضهم مثلاً ببعض تلك القواعد الأصولية: (كالمصالح المرسلة أو سدّ الذرائع أو الاستحسان أو الاستصحاب أو العرف) ولا يأخذ البعض بهذه القواعد.

ومع اختلافهم فى بعض الأحكام، إلا أنهم لم يتعصبوا لآرائهم لأنها لم تكن اختلافات على الأصول بل فى الفروع، كاختلافهم فى قراءة البسملة وعدم قراءتها، وفى الجهر بها أو الإسرار، ولم يلزموا أحداً بآرائهم ولم يمنع اختلافهم هذا أن يصلى بعضهم خلف بعض.

فنرى الإمام الشافعى رحمه الله – تعالى –، يصلى فى مسجد الإمام أبى حنيفة قريباً من مقبرته، فلم يقنت فى صلاة الصبح، مع أن القنوت عند الإمام الشافعى سنة، فلما قيل له فى ذلك، أجاب قائلاً: أخالفه وأنا فى حضرته؟ وعندما أراد الخليفة المنصور أن يلزم الناس بالموطأ قال الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم . . فدع الناس وما اختار كل بلد منهم لأنفسهم» . . فقال الخليفة: وفقك الله يا أبا عبد الله.

ومن احتياط أئمتنا وتواضعهم ما روى عن الإمام مالك – رحمة الله – أنه سئل عن ثمانٍ وأربعين مسألة، فقال فى أثنتين وثلاثين منها: «لا أدرى».

وقال أبو الدرداء – رضى الله عنه –: «لا أدرى نصف العلم» فلا يصح لمن لم يؤت فقهاً فى الدين، وإستعداداً فى الاجتهاد أن يتجرأ على القول فى دين الله بغير علم، فأجرأ الناس على

الفتوى أجرؤهم على النار، وعلى عامة الناس ألا يسألوا في دين الله – تعالى – إلا من كان عالماً متخصصاً، كما قال الله – تعالى – :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهكذا نهج سلفنا من أئمة المسلمين منهج التثبت في دين الله وعدم التعصب لرأى دون رأى أو اجتهاد دون اجتهاد، ما دام لم يصادم نصاً من كتاب الله – سبحانه وتعالى – أو حديثاً صحيحاً من سنة رسول الله –صلوات الله وسلامه عليه –.

دعوة الإسلام إلى توحيد موقف المسلمين تجاه التحديات المعاصرة

إن حقائق الإسلام وتشريعاته، توحد المسلمين، ولا تفرقهم وإن اجتهادات الأئمة وتعدد الآراء واختلافها – أحياناً – أنما كان فى الفروع لا فى الأصول.. ولم يمنع الآختلاف من وحدتهم وتضامنهم ولم يكن – يوماً – مدعاة للتعصب لرأى دون الآخر.. ولما كان للتشريع الإسلامى هذا المنهج.. فإن من الطبيعى أن تقدر دعوته لتوحيد موقف المسلمين فى كل أمورهم الدنيوية، وفى كل خطاهم وحياتهم، وخاصة تجاه التحديات المعاصرة التى يتعرضون لها.

لقد وضح القرآن الكريم وحدة هذه الأمة

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾(٦).

وفى دعوة الإسلام لتوحيد موقف المسلمين تجاه التحديات يحذر القرآن الأمة الإسلامية من أهم تلك التحديات التى يحاول أعداؤها أن ينشروها بينهم وهى التى تتمثل فى:

الخلافات بين المسلمين :

والخلافات أكبر تحد وأخطر معول هدام يقضى على هذه الأمة، ومن أجل ذلك نرى الاستعمار قبل أن يغادر بعض الدول التى تحررت ترك حدوداً مصطنعة وترك حدوداً تمثل تنازعاً واختلافاً بين الدول حتى لا تتحد الأمة وحتى تظل فى خلافات سياسية ودولية فيما بينها.

وإلى جانب الاختلاف على الحدود، راح أعداؤنا يضخمون الخلافات الفقهية التى جرت بين العلماء فى بعض المسائل الفرعية، ففى جو الخلاف تضعف الأمة، ويتغلب عليها عدوها، وبهذه الخلافات فى الأمورالدينية استطاعوا أن يحدثوا شروخاً بين فصائل الشباب المسلم، ولا شىء أقسى وأخطر من الاختلاف فى الدين، إنه إختلاف يتهدد دنيا الإنسان بالأخطار، ويتهدد آخرته كذلك ، ولذا اعتبره القرآن خروجا عن حظيرة الإسلام

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(٧).

والذين يشغلهم الخلاف يهدرون حياتهم دون طائل، ويضيعون أعمارهم من غير فائدة. ومن

---

(٦) المؤمنون (٥٢).

(٧) (الأنعام) (١٥٩).

بين تلك التحديات ما ينهض به أعداء هذه الأمة من محاولة حصرها فى موقف المدافع، لا فى موقع المنطلق لنشر دعوته، المهاجم بها لكل الأباطيل، وبهذا المخطط الخبيث بث أعداؤنا كثيرا من الشبهات التى لا تقع تحت حصر ليجعلوا المسلمين فى موقف المدافع عنها وليشغلوهم بها، فانتشرت دعاوى وشبهات حول المرأة فى الإسلام وكون الرجل يأخذ ضعفها فى الميراث وشبهات أخرى حول تعدد الزوجات وحول الطلاق وانتشار الإسلام بالسيف أو بالقوة وكلها شبهات زائفة ولا أساس لها من الصحة.

وتعاليم الإسلام ذاتها تحمل الحكم التشريعية العليا، والأسرار الإلهية التى تحمل سعادة البشر وتحمل العدالة والحق والخير فى كل تشريع إلهى محكم.. وليس معنى هذا ألا نرد على تلك الشبهات، بل المراد أن نرد عليها بالقيام بنشر الإسلام وإبراز فضائله ومحاسنه وتشريعاته السمحة التى كانت من أهم الأسباب فى نشر الإسلام واعتناق الكثيرين له عن اقتناع ومحبة.

وهناك تحديات كثيرة عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وصحية وثقافية.. وتتمثل التحديات العسكرية فى الاستعمار وغزوه لكثير من البلاد والدول والأقليات الإسلامية.

وتظهر التحديات السياسية فى محاولة نشر المنظمات السياسية التى تفرق الأمة فى تناحر، وخلافات لا تنتهى.

وتظهر التحديات الاجتماعية فى نشر التعامل فى المجتمع بتلك التقاليد الوافدة فى الأسرة وفى البيئة وفى الزى وفى غير ذلك من المجالات الاجتماعية.

وتتضح التحديات الاقتصادية فى نشر التعامل بالربا ومحاولة تسميته بغير اسمه، ومحاولة استدانة الدولة الإسلامية ووقوعها غريقة بالديون التى تضيع معها هيبتها، ويهتز معها قرارها.

وأما التحديات الصحية: ففى نشر الخمور وتداولها والمخدرات والسموم البيضاء، وغيرها من المواد التى تقضى على صحتها وعلى عقل كل فرد من أفراد هذه الأمة.

وأما التحديات الثقافية: فتظهر فى الغزو الفكرى الذى يمثل أخطر هذه التحديات، والذى يعمل على تغريب هذه الأمة وتغييب رسالتها التى تقوم بها، وبإيقاف المد الإسلامى إلى الخارج وبضربه من الداخل.

وفى محيط هذه التحديات المتعددة، والمحيطة بالأمة من كل جانب تصاب الأمة بالوهن، وتوشك الأمم ان تتداعى عليها بسبب ضعفها وتسبب الخلافات التى تفرق فيها، كما أخبر بذلك رسول الله – ﷺ – حين قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا، وكراهية الموت». رواه أحمد وأبو داود.

وفى مواجهة تلك التحديات، لابد لنا من التمسك:

أولاً: بالعقيدة الإسلامية، وهى عقيدة التوحيد التى نؤمن فيها بالله ربا، وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد – ﷺ – نبياً ورسولا، ونؤمن

فيها بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويتطابق الإيمان مع العمل.. والتمسك بالإسلام عقيدة يستوجب التمسك به تشريعاً ومعاملة وسلوكاً وأخلاقاً والتمسك بالعقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد، يجعل من الأمة وحدة واحدة لا تختلف ولا تتفرق بل تعتصم بحبل ربها، كما قال – جل شأنه –:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾(٨).

والتمسك بعقيدة التوحيد يجمع الناس ويوحدهم فلايخرج أحد عن الطاعة ولا يفارق الجماعة: قال – ﷺ –: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات. مات ميتة جاهلية» رواه البخارى.

ثانياً: أن نتمسك بالقرآن ونشر تعاليمه ومدارسته، وتطبيق ما جاء به من هداية ومنهج ربانى يهدى إلى أقوم السبل ولأهمية القرآن الكريم فى توحيد الأمة، وفى إمدادها بالقوة الإيمانية الكبرى، أدرك أعداؤها ما يمثله القرآن من خطر عليهم فقال المستر (غلادستون) وزير بريطانيا الأول وكبير أعمدة الاستعمار فى الشرق الأوسط: «ما دام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق بل ولا أن تكون هى نفسها فى مأمن».

وقال «سيمون»: «إن الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال الشعوب السمر، وتعبر عن أمانيهم هى التى تساعدهم على رفض السيطرة الأوروبية والتخلص منها».

ثالثا: لابد من تكوين وحدة إسلامية بين جميع المسلمين، وحين يكون للمسلمين – على الأقل – موقف إسلامى موحد فإنه لن يكون لتلك التحديات سبيل علينا، بل تصبح الأمة الإسلامية أكبر الدول والأمم وأقواها وأعزها.

إن هذه الوحدة المنشودة هى التى دعا إليها الإسلام وأكد الدعوة إليها

ودعا الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – إلى توحيد المسلمين ومعاونة بعضهم فقال – صلوات الله وسلامه عليه –: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشده بعضه بعضاً ثم شبك أصابعه» رواه البخارى.

وإن على المجتمعات والدول الإسلامية أن توحد موقفها وتتعاون لإنقاذ الأقليات الإسلامية، ومواجهة التحديات العالمية وعلى جميع الدول الإسلاميةان تمد يد العون لكل البلاد المحتاجة والفقيرة وتساعد الأقليات، وتخلصها مما يدبره لها أعداء الإسلام، وحتى لا يكون لتيارات الفساد والشر سبيل عليها..

ويوم أن تتحد بلاد العالم الإسلامى وتتوحد على هدف منشود تحقق به خيريتها، وتنصر دينها، ينصرها الله نصراً مؤزراً، ويمكن لها فى الأرض لتقيم شريعة الله فى الأرض، مؤكدة صلتها به، ومقوية روابطها بالمجتمع، ومدافعة عن دين ربها، آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

---

(٨) سورة آل عمران آية (١٠٣).

إسلامية المعرفة.. ماذا تعني؟

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

إسلامية المعرفة.. أو التأصيل الإسلامي للمعرفة ـ في أدق.. وأبسط.. وأوفى التعريفات ـ هي: الإيمان بوجود علاقة ما بين المعارف والعلوم التي يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذي يتدين به الإنسان، الذي يكتسب هذه المعارف ويُحصّل هذه العلوم.. وذلك انطلاقاً من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته ومعايير التدين به على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التي صاغت وتصوغ «النموذج الثقافي» لهذا الإنسان الذي يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم.

فالمعتقد الديني يُلَوِّن نظرة الإنسان للحياة، وفلسفة رؤيته للكون، ويؤثر في تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيسي في تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والولاء والبراء، والانتماء والمفارقة، وقسمات الذات وسمات الآخر... إلخ.... إلخ..... ومن ثم يسهم هذا المعتقد الديني في تمايز الثقافة، التي تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها أو أخطر ميادينها..

وإذا كان التصنيف الموضوعي للمعارف والعلوم يميز ـ انطلاقاً من موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم ـ بين:

● **العلوم الشرعية**.. من مثل علوم العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن وعلومه.. والحديث وعلومه.. إلخ.....

● **والعلوم الإنسانية والاجتماعية**.. من مثل الاجتماع والاقتصاد، والسياسة، والنفس، والفلسفة، والآداب والفنون.. إلخ......

● **والعلوم الطبيعية ـ الدقيقة والمحايدة ـ**.. من مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والرياضيات.. إلخ.....

فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز هي الأخرى فنسبة العلاقة ـ أي الأسلمة ـ بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة، لأن الشرع والوحي والدين ـ أي الوضع الإلهي المطلق ـ هو موضوع هذه العلوم، حتى لتُسمى هذه العلوم: علوماً شرعية ومعارف دينية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف

على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين.. حتى إن الاجتهاد البشرى فيها، والفكر الإنسانى فى ميادينها ـ أى المعرفة الإنسانية المكتسبة فى علومها ـ محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها، التى هى وضع إلهى ووحى سماوى، يمثل الإطار الحاكم لأى تفَكُّر أو اجتهاد وتجديد فى هذه المعارف والعلوم..

ويلى هذه المعارف والعلوم الشرعية، فى العلاقة بالدين ـ ومن ثم فى نسبة الأسلمة ـ معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأن موضوعات هذه العلوم هى النفس الإنسانية، التى تتأثر تجاربها وخبراتها واختياراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها بعقائد الدين ومبادئه وقواعده وأحكامه وفلسفته فى التشريع.. فمناهج وتجارب وحقائق ومقاصد هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها: النفس الإنسانية ـ على المستوى الفردى والاجتماعى ـ ولأن هذه النفس الإنسانية قد اصطبغت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الدينى، ومعايير الحلال والحرام الشرعية، وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواريث المصطبغة أو المتأثرة بمطلقات الدين.. وأيضاً، لتنوع وتعقد عوالم النفس الإنسانية وفرادة واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، كان تلون وتمايز المعارف الإنسانية فى ميادين هذه العلوم.. فمهما بلغت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذى تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية..

بل إن تأثيرات المعتقد الدينى تظل فاعلة حتى فى نفس الذين مرقوا من الدين وألحدوا فيه.. تظل ـ كما يقول جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) ـ كأثر الجرح المندمل.. فإذا هُم مرقوا من روحانية الدين ومناسكه وشعائره تظل فيهم عصبيته.. وحتى إذا فارقهم الحب له، فسيظل الكره له شاغلاً لنفوس هؤلاء الملحدين فيه!..

فالعروة وثقى، إلى حد كبير، بين المطلق الدينى وبين النسبى الإنسانى فى معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية..

ويلى هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، فى العلاقة بالمطلق الدينى، حقائق ومعارف وقوانين، العلوم الطبيعية ـ الدقيقة والمحايدة ـ..

ففى هذا الحقل من العلوم والمعارف ـ التى تمثل المادة موضوعاتها ـ يكون الحياد كاملاً، والموضوعية تامة فى الحقائق والمعارف والقوانين المستخلصة من التجارب فى موضوعات هذه العلوم.. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض.. إلخ..... إلخ.... موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية.. وما التطور فيها والتراكم المعرفى والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب فى ميادين هذه العلوم.. فلا أسْلَمَة على الإطلاق فى الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما ترد الأسلمة ـ فقط ـ فى نوظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين ـ على المستوى

الفـردى والاجتـمـاعى ـ يضـبط توظيف هذه الحقائق بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقق مقاصده الشرعية، بينما الانفلات من الدين قد يوظفها فيما يخالف أحكام الدين..

فحقـائق تجارب زراعة العنب ـ مثلاً ـ لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته.. لكن هذه العقائد هى التى تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها لاستثمار العنب كى يكون خمراً.. والبعض يقف بوظائفها ـ فى زراعة العنب ـ عند الطيب والحلال..

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات ـ وهى ثابتة ـ تقف العقائد عند حدود ضوابط وظائفها.. فالبعض يشوه بها خلق الله، ويخلط بها الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها بمقاصد الشرعية الإلهية، وأخلاقيات الدين، وقيم الإيمان الدينى..

فالأسلمة، فى ميادين العلوم الطبيعية، لا دخل لها ولا تأثير فى حقائق وقوانين هذه العلوم، وعلاقتها بهذه العلوم خاصة بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة ومقاصد هذا التوظيف، فقط لا غير..

فإسلامية المعرفة ـ أى العلاقة بين المطلق الدينى والوضع الإلهى الثابت ـ وبين المعارف الإنسانية ـ الكسبية والنسبية ـ قائمة دائماً وأبداً.. لكن نسبتها وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف ـ فى الدرجة ـ باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.. فهى عالية جداً فى العلوم الشرعية.. وكبيرة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. وواقفة فى العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذه العلوم..

* * *

وإذا كانت هذه هى حقيقة إسلامية المعارف والعلوم.. وهى تبدو على هذا النحو من البداهة التى لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. فإن غرابة وشذوذ إنكار واستنكار هذه الحقيقية ـ حقيقة وجود علاقة ما بين المعتقد الدينى ـ وخاصة دين الإسلام المتميز بمنهاجه الحياتى الشامل ـ وبين المعرفة، تتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكرين لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينكرون وجود علاقات للفلسفات والأنساق والمرجعيات الفكرية غير الإسلامية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية!!..

● فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية.. أى وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والمنهج والمعتقد المادى فى تميّز نسق فلسفى ـ أى علم اجتماعى ـ بالصبغة المادية.. فلم يكون الإنكار والاستنكار ـ فقط ـ للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية والإسلامية وبين الفلسفة، على النحو الذى يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة؟!..

● ولا أحد ينكر وجود فلسفة وضعية، تقف بحقائق العلم عند الواقع وقوانينه ومعارفه.. فَلِمَ يكون الإنكار لتَميّز معرفى يحدثه العالم والعارف إذا هو أضاف إلى آيات الكون آيات الوحى.. وضم إلى معارف الواقع المادى نبأ السماء عن المغيبات التى لا يستقل بإدراكها عقل الإنسان وتجاربه الحسية؟!..

● ولا أحد قد أنكر أو استنكر وجود «علم اجتماع ماركسى»، تلوَّن بالفلسفة المادية الماركسية، المادية الجدلية.. والمادية التاريخية، وبالمقاصد الشيوعية فى إقامة مجتمع البروليتاريا اللاطبقى..

فَلِمَ يكون الإنكار أو الاستنكار ـ فقط ـ لوجود «علم اجتماع إسلامى»، كثمرة لعلاقة الإسلام بمناهج وحقائق هذا العلم فى عقول ومجتمعات المتدينين بالإسلام؟!.. وكثمرة لإعمال سنن الله وقوانينه فى الاجتماع البشرى؟!..

● بل لقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة، وجود علمى اجتماعى للاهوت التحرير[1].. فى أمريكا اللاتينية.. بل وحاول بعضهم استلهام وتوظيف هذا اللون من الفلسفة فى العلوم الاجتماعية بواقعنا الإسلامى..

فَلِمَ يستنكر هذا البعض الصبغة الإسلامية فى علم الاجتماع الإسلامى؟!.. أم أن تأثير «لاهوت التحرير» فى علم اجتماع أمريكا اللاتينية حلال، وتأثير الإسلام فى علم الاجتماع عندنا حرام؟!..

● ولا أحد ينكر ولا يستنكر ما قرره «ماكس فيبر» Max Weber (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠م)[2].. عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية ـ فلسفة واقتصاداً واجتماعاً ـ.. بل لقد غدا هذا الذى قاله «ماكس فيبر» إحدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجود علاقة بين الدين الإسلامى وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد متميزة معارفها بالإسلام، ومصطبغة بفلسفة الإسلام المتميزة فى علاقة المسلم ـ فرداً ومجتمعاً ـ بالثروات والأموال.. وذلك انطلاقاً من نظرية الخلافة والاستخلاف الحاكمة للعلاقة بين المالك الحقيقى للثروة ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ وبين الخليفة والنائب والوكيل ـ وهو الإنسان مالك المنفعة ـ فى الثروات والأموال..

فلا يكون «حلال» البروتستانتية ـ الذى قرره «ماكس فيبر»ـ رغم أنها تدع ما لقيصر لقيصر، ولا تجعله لله ـ لِمَ يكون «حلالها» هذا «حراماً» على الإسلام ـ رغم منهاجه الحياتى الشامل.. وتقرير القرآن الكريم لفلسفة متميزة فى علاقة الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ بالثروات والأموال؟!..

* * *

إننا فى الحقيقة وواقع الأمر ـ أمام تناقض فى مواقف هذا النفر ـ المنكرين لإسلامية المعرفة ـ يبلغ درجة الغرابة والشذوذ.. ولا تفسير له إلا الجهل بالإسلام ـ إذا حسنت النوايا ـ أو الكراهة لرؤية أية آثار للإسلام فى حياة المجتمعات الإسلامية، ومعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية فى هذه المجتمعات..

فالليبراليون الرأسماليون ـ من أعداء إسلامية المعرفة ـ يقبلون بوجود «روح بروتستانتية»

---

(١) لاهوت التحرير: تفسير اجتماعى للإنجيل، ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين، تبلور فى أوساط عدد من القساوسة الكاثوليك ـ ذوى النزعة اليسارية.. وربما الماركسية ـ فى أمريكا اللاتينية.. ولقد اتخذت منه البابوية الكاثوليكية ـ فى الفاتيكان ـ موقفاً معادياً.

(٢) عالم اجتماع ألمانى.. من أهم مؤلفاته (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) ـ سنة ١٩٠٥م ـ و(المفاهيم الأساسية فى علم الاجتماع) ـ سنة ١٩٢١ م ـ.

يسمونها « الإصلاح الدينى » ـ كى تقبلها جماهير أمتنا ـ لتصنع هذه الروح الرأسمالية، وتصبغ الليبرالية التى يريدون..

والماركسيون الماديون ـ من أعداء إسلامية المعرفة ـ يريدون الفلسفة المادية التى تفسر وتغير « البناء التحتى » ـ الاجتماعى والاقتصادى وما يرتبط به من بناء فوقى بورجوازى ـ فى الفكر ـ تستبدل به « بناءً تحتياً » شيوعياً، و« بناءً فوقياً » شمولياً..

وعلى ما بين الليبراليين والماركسيين من خلاف يبلغ حد التناقض العدائى.. نراهم يجتمعون على الإنكار والاستنكار لإسلامية المعرفة الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الإسلام، رغم إيمان كل فريق منهم بتأثير فلسفى وفكرى فى علم الاجتماع الذى يدعو إليه كل فريق، ويريد إقامته فى مجتمعات الإسلام!..

فعلاقة البروتستانتية بالاجتماع الرأسمالى ـ عندهم ـ مقبولة.. وعلاقة المادية الجدلية، والمادية التاريخية بالاجتماع الاشتراكى والشيوعى عندهم مقبولة، بينما علاقة الإسلام بالاجتماع الإسلامى هى وحدها الحرام، عند هذا النفر من المثقفين!!..

* * *

وإذا كان « التغريب » هو الداء الذى صنع ويصنع هذا الشذوذ الغريب فى موقف هذا النفر الذين ينكرون علاقة الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. فلقد يكون مفيداً فى علاج هؤلاء المرضى ـ الذين لا يستشهدون إلا بكل ما هو غربى.. ولا يحتجون إلا بما هو غربى.. ولا يسلمون إلا بما هو غربى ـ قد يكون مفيداً فى علاج مرضهم هذا ـ الغربى الغريب!.. أن نلجأ إلى « الصيدلية الغربية » لنأتى منها بعلاج لهذا المرض الذى بلغ بهم هذا الحال الشاذ والعجيب..

● فالمستشرق الإيطالى « كارل نلينو » Carlo Nallino (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م) قد كتب دراسة عن « محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية »، أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة الإسلامية، ميزت هذه الفلسفة ـ تبعاً لتميّز الإسلام ـ عن الفلسفة اليونانية[٣].. أى أن هناك ـ برأى هذا المستشرق ـ إسلامية للمعرفة الفلسفية فى حضارة الإسلام ومعارف المسلمين..

● والمستشرق الانجليزى « ألفريد جيوم » Alfred Guillaume يؤكد على أن الوسطية الإسلامية، التى جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويؤاخى بين الحكمة والشريعة، قد صبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة المتميزة.. فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين، وامتازت بها عن الفلسفات الأخرى التى انحازت إلى العقلانية المادية المجردة، أو إلى المثالية الباطنية الخالصة، فأصبح للإسلام ـ كما يقول « جيوم » ـ « فلسفة منطقية.. تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية »[٤].. فلقد

(٣) ترجم هذه الدراسة ونشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى، فى كتابه (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) ص ٢٤٥ ـ ٢٩٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

(٤) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٣٧٩. ترجمة جرجس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

أثمر الإسلام معرفة إسلامية فى هذا العلم الاجتماعى .. الفلسفة..

● والمستشرق الفرنسى « ديفيد سانتيلانا » David de Santillana (١٨٤٥ ــ ١٩٣١م) ــ وهو حجة فى القانون الرومانى وفى الفقه الإسلامى ـ يؤكد على علاقة النزعة الدنيوية الغربية بالطابع النفعى الدنيوى للقانون الرومانى .. وعلى علاقة الوسطية الإسلامية ـ الجامعة بين الدنيا والآخرة ـ بتميّز القانون وفقه المعاملات الإسلامى، عندما ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الدينى والمقصد الأخلاقى .. أى أن هناك تأثيراً للإسلام فى المعرفة القانونية ـ وهى علم اجتماعى ـ وإسلامية للمعرفة القانونية فى حضارة الإسلام .. يؤكد « سانتيلانا » على هذه الحقيقة المعرفية التى مايزت بين القانون الإسلامى وبين القانون الرومانى .. فيقول : « إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف ـ (فى الحضارة الغربية)ـ: مجموعة من القوانين السائدة التى أقرها الشعب، إما رأساً أو عن طريق ممثليه . وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم .. إلا أن التفسير الإسلامى للقانون هو خلاف ذلك .. فالخضوع للقانون الإسلامى هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعى فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضاً، فالنظام القضائى والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التى يستمد منها المجتمع الإسلامى وجوده وتعاليمه، فكل مسألة قانونية إنما هى مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً، والأخلاق والآداب، فى كل مسألة، ترسم حدود القانون . فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً .. »[٥] ..

فالدين الإسلامى وشريعته الإلهية قد صبغت القانون الإسلامى بصبغة ميزته عن القانون الرومانى .. أى أننا بإزاء إسلامية للمعرفة فى هذا العلم الاجتماعى ـ علم القانون وفقه المعاملات ـ يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير ..

فهل تجدى هذه الشهادات الغربية ـ بحسبانها « روشتات » من « الصيدلية الغربية » ـ لعلاج ذلك المرض التغريبى الشاذ، الذى جعل نفراً من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية ـ وبعضها ديانات ــ وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية .. اللهم إلا إذا كان الأمر بإزاء الإسلام، فإنهم ينكرون ويستنكرون أية علاقة له بالمعارف والعلوم؟! ..

لقد سبق لفيلسوفنا ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) عندما أراد معالجة ذات المرض الفكرى، عند نفر من معاصريه الذين لا يؤمنون إلا بما هو يونانى ـ وكان يسميهم « العوام »! .. أن سلك نفس الطريق فى علاج ذات المرض .. مرض « العاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين[٦] .

(٥) سانتيلانا (القانون والمجتمع) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٤١١ ، ٤٣٨، ٤٣١ مرجع سابق.

(٦) المشاؤون هم أتباع مدرسة أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) سمُوا بذلك لأن التعليم فى مدرسته الفلسفية ـ «اللو قيوم» كان يتم أثناء السير ـ المشى ـ ولقد تأسست هذه المدرسة فى أثينا سنة ٣٣٥ ق.م واستمرت نحو ألف عام.

الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم»، فعرض نصوص الفلسفة المشائية اليونانية، ليقنع بها هؤلاء «العوام».. ثم نبه على الفلسفة الإسلامية الحقة.. المصطبغة والمتميزة بالإسلام ـ فلسفة المشرقيين ـ أو الحكمة المشرقية ـ المتميزة عن الحكمة المغربية ـ فلسفة اليونان ـ(٧).

فهل يفيد هذا المنهاج فى العلاج؟!..

أم يظل هؤلاء المرضى بالاستلاب التغريبى على جمودهم الفكرى، يتحدثون عن علم اجتماع ماركسى.. أو مسيحى.. أو وضعى.. أو حتى لاهوتى تحريرى.. إلخ..... مستثنين ـ فقط ـ علاقة الإسلام وتأثيراته فى المعارف الإنسانية؟!..

لقد كتب واحد من هؤلاء ـ منذ سنوات ـ مقالاً نارياً يستنكر فيه استخدام كلمة «إسلامى» فى تسمية أحد المستشفيات.. فلما لفتُ نظره إلى أن بالقاهرة ـ منذ سنة ١٩٢٧م ـ مستشفى كبيراً وشهيراً ـ اسمه «المستشفى القبطى».. ولم يهاجم أحد تسميته هذه عبر هذه العقود من السنين ـ صمت هذا الكاتب.. لكن دون أن يقلع عن الهجوم على أى إطلاق لكلمة «الإسلامى» على أية مؤسسة من المؤسسات، أو علم من العلوم الإنسانية.. الأمر الذى فضح ويفضح موضوعية هذا النفر من المثقفين والكُتَّاب!..

هذه هى «إسلامية المعرفة» ـ أو التأصيل الإسلامى للمعرفة ـ والتى تعنى ـ فى أدق وأبسط العبارات:

العلاقة القائمة بين الدين الإسلامى ـ عندما يتدين به الإنسان ـ وبين المعارف والعلوم التى يبدعها هذا الإنسان المتدين بالإسلام..

فالعقيدة ـ أية عقيدة ـ وخاصة إذا كانت الإسلام الشامل لكامل منهاج هذه الحياة وما بعد هذه الحياة إنما تمثل «المنظار» الذى يرى المعتقد بها الكون والاجتماع من خلال عدساته. فتقوم علاقة ما بين هذه العقيدة وبين المعارف والعلوم التى يبدعها هذا الإنسان..

وهذه العلاقة ـ إسلامية المعرفة ـ لا تنفى «النسبية» عن المعرفة الإنسانية.. ولكنها تنبه وتكشف وتبرز علاقة هذه المعرفة الإنسانية النسبية بالمرجعية الدينية المطلقة والمحيطة والكلية فهى تنفى النسبية المطلقة عن المعرفة الإنسانية، فى ذات الوقت الذى لا تزعم فيه لهذه المعرفة الإنسانية صفات الإطلاق.. فحتى معارف الإنسان الدينية هى نسبية، وجزء من المطلق الدينى.. والعلم الإلهى هو المتفرد بالعموم والشمول والإحاطة والإطلاق..

وهكذا تبلغ إسلامية المعرفة مبلغ الحقيقة، وتصل فى البداهة إلى درجة المعلوم من الفطرة السوية بالضرورة.. أى التى لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. مطلق العقلاء!!..

---

(٧) نلينو: (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ص ١٧٨ ـ ٢٨٢. بحث منشور بكتاب (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) ـ مرجع سابق.

مواقف إسلامية :

أمّتنا
وفن إدارة الأزمات

د./ محمود محمد عمارة

من الأدعية الأثيرة لدىَّ.. العزيزة علىَّ.. ما كان يدعو به الصالحون:
(اللهم أصلحنا لحكامنا.. وأصلح حكامنا لنا)
ذلك بأننا - الحاكم والمحكوم - ركاب سفينة واحدة.. يتربص بها حوت عظيم..
فماذا نفعل؟
نقتله؟ أم نستسلم له ليقتلنا هو؟ ثم يحتوينا اليم جثثا طافية؟

إن أفضل من الاحتمالين معا.. أن نحتويه.. ومعا.. لصالحنا: كل على قدر طاقته وحيلته. ولا تكفى الأمانى العذاب عندئذ للقضاء على الخطر الداهم.. ذلك بأن الأمانى لا تتحقق لمجرد أن تجيش بها صدورنا.. ألا وإن رغبتنا الملحة فى تحقيقها.. لا تعطينا الحق فى هجوم غير محسوب النتائج.. على خطر جاثم.. لا يستثنى أحدا من أخطاره.. والموقف الأمثل هو:

أن نتسلح.. بعقل يفهم.. وإرادة.. تنفذ..

ومن وراء ذلك: قلب مخلص.. يتجه بالعقل والإرادة فى الاتجاه الصحيح..

أعنى:

أن يتعاون الحاكم.. والمحكوم.. معا:

فإذا ارتفع الحاكم إلى مستوى مسئوليته.. فأعد للخطر عدته.. وإذا وقف المحكوم إلى جانبه.. وفى خندق واحد - فلا خطر حينئذ.. بعدما صارت الأمة صفا واحدا.. يواجه خطرا واحدا..

وفى مشاهد تاريخنا المجيد.. ما يجلى هذه المعانى تجلية تلقى علينا مسئولية فقه ذلك التاريخ.. ونحن واجدون فيه ما يشفى الصدور:

ذات يوم:

خرج «المعتضد» الخليفة العباسى من معسكره..ومعه خادمه.. فلقيه أسد. وهو على فرسه. فقال الخليفة لخادمه:

هل فيك خير اليوم؟!

فقال: لا!!

فقال له المعتضد:

ولا أن تمسك بلجام فرسى؟

فقال الخادم:

أما هذه .. فنعم!!

فنزل الخليفة.

ثم ضرب الأسد ضربة قطعت رجله.. ثم كر عليه فصرعه ماسحا بفروته سيفه!!

يقول الخادم:

ثم مضى الخليفة البطل.. ولم يحدث أحدا بما فعل. كما وأنه لم يلم خادمه على ضعفه!!

تعليق:

ونقول بلغة العصر:

إن الأمة تواجه خطرا يتهددها..وقد تحمل الحاكم مسئولية الموقف برمته.. ولكنه يطلب معونة الشعب ممثلا فى هذا الخادم.. والذى تحسس قواه.. فاعتذر عن مواجهة خطر هو غير كفء له.. لكنه لم يتحلل من المسئولية بالمرة.. عندما وافق على أن يمسك بزمام الفرس.. وهو جهد المقل.. لكنه فى نفس الوقت عمل وإن بدا صغيرا.. إلا أنه يعين الحاكم على الإنجاز الكبير!

لقد واجه الخليفة الموقف بما يكافئه:

١- إعداد القوة المادية.. متمثلة فى سيفه البتار.

٢- ثم العدة الروحية.. المتمثلة فى مجموعة القيم التى كانت مع السيف.. يتسلح بها:

فهو أولا: لم ينفرد باتخاذ القرار.. وإنما عرض القضية على الخادم.. شريكه فى الخطر.. مؤكدا أهمية الشورى فى تناول الأمور.. لاسيما فى المواقف الصعبة. إلى جانب شجاعته النادرة.. والتى لم تكن لما يملك من سلاح ماض.. وعتاد مذخور..

وإنما كان له من الذكاء ما صار متكأً له.. عندما بدأ بقطع رجل الأسد.. ليشل حركته أولا.. حتى يمكن الإجهاز عليه!

وناهيك بزهده فى التحدث بما صنع.. على عظمته.. وكان الظن أن تتقدم أجهزة الإعلام لتلقى الأضواء على الموقف تنويها به وتقديرا له..

لكنها لم تفعل.. لأن الرجل كان زاهدا. فقضيته الأولى والأخيرة هى: حماية الأمة من الخطر..

ولقد تم ذلك كله فى إطار من الحكمة التى كان من مظاهرها أنه لم يفرض الدور على الخادم فرضا.. لم يرهق الأمة من أمرها عسرا.. ملتمسا له العذر.. نازلا به إلى ما يحسن من عمل.. فرارا من نكسة متوقعة إذا أسند إليه دورا لم يتهيأ له!

ولقد كان الخادم صريحا غاية الصراحة.. حين اعتذر بأدب عن القيام بدور فعال فى هذا الموقف العصيب.

لم يحاول أن يرهق نفسه من أمرها عسرا.. حين يحملها دوراً لا تطيقه فكان صادقا مع نفسه.. ومع الخليفة.. ولم يكن ليستطيع أن يغير نفسه هكذا قسرا.. لمجرد أنه يرضى الخليفة.. فالذين يحاولون تغيير مواقفهم لتنسجم مع آمال الآخرين.. سوف يفقدون أنفسهم فى نهاية المطاف.

وكما قيل:

إذا لم تنبت المعانى من رأسك.. كما تنبت أوراق الشجر.. فلا داعى لأن تفكر فى شىء!

من هدى السنة

ولموقف الخادم هذا شاهد من السنة المطهرة:

قال رجل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إنى جبان. وإنى ضعيف. فقال له: هلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج)(١)

وتأمل كيف ركز الرجل على جبنه وكان يكفيه الاعتذار بأنه ضعيف. ولا يجيد صناعة القتال. ولكنه الاعتراف الذى يبصر القائد حتى يجىء تشكيل الجيش محققا النصر المبين.. برجال على مستواه: نفسيا وعسكريا.

ونعود إلى الخادم الصادق مع نفسه:

لقد كان جزاؤه أن عفا عنه الخليفة مقدرا ظروفه.. مدركا أن ضعفه أمر لا حيلة له فيه.. وكل ميسر لما خلق له.. وما أكثر التلاوم بين الرفقاء اليوم: بين قائل أنا فعلت.. وقائل لم يفعل..

وقد تكون القضية تافهة لا تستحق التعليق.. لكنها تصير كالماء: يتسرب إلى أسفل السفينة.. فتتآكل.. ثم تغوص فى النهاية وتغرق.

تغرق.. بينما الراكبون لا يشعرون.

أما بعد:

فقد مضى الفكر الإسلامى يؤكد هذا المعنى ملتمسا الأعذار للناس دافعا لهم إلى عمل ما يطيقون.. والقليل على أى حال خير من العدم

قال أبوسليمان الدارانى لتلميذه: أحمد بن الحوارى: يا أحمد: كن كوكبا

فإن لم تكن كوكبا فكن قمرا فإن لم تكن قمرا.. فكن شمسا فقال له أحمد: يا أبا سليمان: إن القمر أضوأ من الكواكب والشمس أضوأ من القمر.. فكيف عكست الترتيب؟! قال أبوسليمان: يا أحمد: إنما أردت:

كن مثل الكواكب: يطلع من أول الليل.. إلى الفجر فقم لعبادة ربك من أول الليل إلى آخره فإن لم تقو على قيام الليل كله.. فكن مثل القمر:

يطلع فى بعض الليالى ثم يصيبه «المحاق» فقم بعض الليالى فى عبادة ربك فإن لم تقو على قيام الليل.. فكن كالشمس:

تطلع أول النهار إلى آخره.. فإن لم تقو على قيام الليل.. فلا تعص الله - تعالى - فى النهار يريد أن يقول له: اجتهد فى العمل.. فإن قصر بك العمل.. فأقلع عن المعاصى وإذا لم تستطع أن تكون وردة.. فلا تكن شوكة!

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والكبير. ورجاله ثقات.

محاولة لفهم العولمة

للأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الفيومى

(١) الكتاب وجوه الفكرى

إن خير هدية يهديك إياها صديق هى: الكتاب. والكتاب خير صديق. لقد أهدانى الأستاذ الفاضل صديقى د. محمد عبد الحليم عمر كتاباً إن شئت وصفه وصفاً دقيقاً قلت عنه: إنه كتاب العصر، وتلوح معالم أهميته للمطالع بداية من عنوانه: «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون: محاولة لفهم العولمة» ويعنى الكاتب: «فريدمان» من وراء عنوان كتابه معالجة مقارنة، بين حقبة العولمة، ما قبل الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، وحقبة الحرب الباردة، ثم نظام العولمة الجديد.

فالسيارة ليكساس هى رمز السرعة والتقدم والرفاهية وسعى الإنسان نحو التقدم والازدهار والتحديث، وشجرة الزيتون هى رمز الجذور والأصالة والانتماء والتمسك بالأرض والعادات والتقاليد، قيم تمثل دفء العائلة والاعتزاز بالنفس، والأمان.

من هنا كان موضوع الكتاب على درجة عظيمة من الإمتاع الثقافى يدفعك دفعاً إلى تلاطم أمواج الثقافة المعاصرة بمشاكلها وإشكالياتها، ومعارفها الثقافية والحضارية. وكانت ترجمته إلى العربية ضرورة ثقافية دفعت د. ليلى زيدان على تحمل تبعتها وكانت جديرة بالقيام بها حين قامت بها خير قيام وراجعتها فايزة حكيم، فلهما معا الشكر والتقدير.

والكتاب على هذا النحو حصيلة جهد علمى عظيم، ورحلة إبداعية ونقدية أنفق فيها الباحث زهرة شبابه حرصاً منه على أن يأتى عمله جيداً مجوداً.

وكنا نلاحظ على مادته العلمية، سعة ثقافية، وفرزاً نقدياً، ورؤية ذات أبعاد، وظف لها مادته العلمية، لذلك جاءت نتائج الدراسة وفق ما سعى الباحث لا وفق ما سعى البحث، وذلك - رغم زعمه حيدته المنهجية - وقع فيما أراد التنزه عنه ربما من شدة حماسه النقدى والسير وراء رؤاه الذاتية - حيث نقد كثيراً من

الآراء، وهو نقد قائم على الدراسة الموضوعية، لكن حين أخذ يبنى رأيه بناه على ذاتيته الطافحة بالإعجاب بالعولمة الجديدة.

ولا نستطيع أن نتهم مؤلف الكتاب، توماس. ل. فريدمان وهو من ألمع الكتاب الأمريكيين المهتمين بشرح الشئون الدولية.

ولد فى مينا بوليس فى ١٩٥٣ وتعلم فى جامعة لبراند يزو كلية القديس أنطونى باكسفورد وهو معروف، بأنه متيم بوطنه وبنظام العولمة الجديد وبالهيمنة الأمريكية على العالم.

وأسوق على سبيل المثال أنه يرى: أن هذا الكتاب: هو محاولة، لشرح كيف أن هذه الحقبة من العولمة أصبحت هى النظام الدولى المسيطر فى نهاية القرن العشرين، وحلت محل نظام الحرب الباردة، وبحث كيف أنها الآن تشكل السياسات الداخلية والعلاقات الدولية للجميع.

ويحدد المؤلف غايته من الكتاب بقوله: وبهذا المعنى، قصدت أن يكون هذا الكتاب إسهاماً فى مجموعة الدراسات التى تحاول تعريف العالم فى فترة ما بعد الحرب الباردة.

ويعتبر هذا الكتاب من بين أهم الكتب انتشاراً فى هذا النوع من الكتابات التى تتغزل فى أمريكا ومع هذا الكتاب هناك أربعة كتب تتغيا غايته العرقية الثقافية وهى فى مجموعها كتابات تدخل فى نوع من الأساليب التحذيرية للعالم بعدم الخروج من طوع السطوة الأمريكية:

ظهور القوى العظمى وسقوطها: التغير الاقتصادى والصراع العسكرى بقلم بول م. كينيدى. ونهاية التاريخ والإنسان الأخير بقلم فرانسيس فوكاياما. والمقالات والكتب المختلفة بقلم روبرت د. كابلان. وصامويل ب. هنتنجتون بعنوان تصادم الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمى.

ولئن كانت هذه الكتب جميعاً تنطوى على حقائق مهمة، إلا أن أيا منها فى اعتقادى لم يرصد عالم ما بعد الحرب الباردة بصورة كلية.

فقد كان عرض كابلان مفعماً بالحيوية والأمانة، غير أنه بحث فى أكثر أركان العالم تجهماً واستمد منها نتائج عامة لمصير باقى العالم.

ورأى هنتنجتون الصراعات الثقافية حول العالم ووسعها فى جموح لتصبح تصادماً مستمراً وحاد التعريف للحضارات، بل إنه أعلن أن الحرب العالمية القادمة، إن حدثت «ستكون حرباً بين الحضارات».

وفى اعتقادى أن كابلان وهنتنجتون معاً بخسا إلى حد بعيد تقدير مدى ما يمكن أن تفعله القوى الدولية، وجاذبية الأسواق العالمية، وانتشار التكنولوجيا، وظهور الشبكات وانتشار المعايير العالمية لدحض توقعاتهما التى تقتصر على الأبيض والأسود (معظمها سوداء).

لقد حاول كينيدى وهنتنجتون الاعتماد أكثر مما يجب فى التنبؤ بالمستقبل على الماضى، والماضى وحده.

ولقد رصد كينيدى (وببراعة شديدة) انهيار الإمبراطوريات الإسبانية والفرنسية والبريطانية، ولكنه خلص إلى أن الإمبراطورية الأمريكية ستليها فى السقوط بسبب تجاوزاتها الإمبريالية.

وكان يعنى ضمناً بذلك أن انتهاء الحرب الباردة لم يكن يعنى فقط نهاية الاتحاد السوفيتى وإنما كان أيضاً إرهاصاً بسقوط الولايات المتحدة.

وفى اعتقادى أن كينيدى لم يقدر التقدير الكافى أن انحدار الولايات المتحدة نسبياً فى الثمانينيات، عندما كتب ذلك الكتاب، كان جزءاً من إعداد الولايات المتحدة لنفسها لنظام العولمة الجديد وتهيئة نفسها له، وهى عملية لم تخضها الكثير من دول العالم الأخرى إلا الآن فقط.

ولم يتوقع كينيدى بأن أمريكا قد تلجأ تحت وطأة العولمة إلى تقليص ميزانيتها الدفاعية، وخفض عدد المشاركين فى حكومتها، وتحويل المزيد والمزيد من القوى إلى السوق الحرة بطرق من شأنها إطالة وضعها كقوة عظمى، وليس التقليل منه.

أما وجهة نظر هنتنجتون فهى أنه بانتهاء الحرب الباردة، لن يكون السوفيت هناك لنوجه إليهم عداءنا بعد الآن، ومن ثم فسوف نتحول نحن بعدائنا بطبيعة الحال نحو الهندوس والمسلمين الذين سيبادلوننا العداء نفسه.

واستبعد ضمناً ظهور نوع ما من النظام الدولى الجديد الذى يمكن أن يشكل الأحداث على نحو مختلف.

وليس هناك، بالنسبة لهنتنجتون، من شىء يأتى بعد الحرب الباردة سوى القبلية، وليس أى شىء جديد آخر.

ثم يأتى كتاب فوكوياما القاطع ليحتوى على رؤية مستقبلية دقيقة إزاء الأشياء التى استجدت، وأعنى بها انتصار الليبرالية ورأسمالية السوق الحرة باعتبارهما أكثر الطرق فاعلية لتنظيم أى مجتمع، غير أن عنوان كتابه (وليس الكتاب نفسه) يشير ضمناً إلى نهاية لهذا الانتصار لا تنسجم مع العالم كما أراه أنا.

وأصبح كل عمل من هذه الأعمال مشهوراً بطريقة ما، لأنها حاولت اغتنام فكرة واحدة آسرة هى «الشىء الوحيد الكبير»، أو الجزء المتحرك الرئيسى، المحرك المهم، الذى سيقود الشئون الدولية فيما بعد الحرب الباردة سواء كان ذلك صداماً للحضارات أو فوضى أو سقوط الإمبراطوريات أو انتصار الليبرالية.

(٢) الكتاب وطابعه الفكرى

أما هذا الكتاب فهو مختلف تماماً عن الكتب السابقة، ففى اعتقادى أنه إذا كنت تريد فهم عالم ما بعد الحرب الباردة فعليك أن تبدأ بالتسليم بأن نظاماً دولياً جديداً قد جاء بعده. وذلك هو ما أطلق عليه بالعولمة العولمة.

فهذا هو «الشىء الوحيد الكبير» الذى يجب على الناس التركيز عليه والعولمة ليست

الشيء الوحيد الذى يؤثر فى الأحداث فى العالم اليوم، ومع ذلك فهى أشبه بالنجم القطبى والقوة التى تقوم بتشكيل العالم أجمع، إنه ذلك النظام فهل هذا ممكن؟ أهو عود لمفهوم الإمبراطورية؟ أهو توحيد الإنسانية العالمية؟ حاولت أن أحدد «نظام العولمة» إجابة على ما أثاره فكرى من أسئلة ما استطعت إلى الإجابة سبيلا.

فالجديد إذن هو النظام، أما القديم فهو سياسات القوة والفوضى وصدام الحضارات والليبرالية كما عرفتها تلك الكتب.

وقد تمثلت تشكيلة عالم ما بعد الحرب الباردة فى التفاعل بين هذا النظام الجديد وتلك الانفعالات القديمة.

إنها نوع من التشكيلة المركبة التى مازال الفصل الختامى لم يكتب لها بعد، ولعل هذا هو السبب فى أنك ستجد فى ظل العولمة صداماً للحضارات وتجانساً للحضارات معاً، وكوارث بيئية وأعمال إنقاذ أو تحطيما مدهشا للبيئة على السواء، وانتصاراً لرأسمالية السوق الحرة الليبرالية وردة عنيفة عنها معاً، واستمراراً لبقاء الدول الأمم وظهور كيانات تمثيلية - جمعيات أهلية لها مسميات ذات قيمة عالية هائلة ولكنها ليست دولة.

يقول المؤلف: «إن ما سعيت إليه هو تأليف كتاب توجيهى لكيفية تتبع هذه الدراما وكيفية التفكير فى إدارتها».

لقد قدم عرضاً متميزاً للقضايا الثقافية والكتب الأمريكية التى ظهرت مصاحبة للعولمة والنظام الجديد يأخذك منطق بيانه وموضوعيته النقدية.

لكن حين يقترب من النظام الجديد أو التشكيل الجغرافى الأمريكى الجديد للعالم يأخذه الحماس غير المنطقى والعصبية الفكرية، وهى لون من الانفعالية الخاسرة فعلى هذه الطريقة الحماسية يقول: إنك إذا نظرت إلى العولمة على أنها النظام الدولى السائد اليوم، ونظرت إلى الصفات التى تحتاجها الشركات والدول على السواء لكى تحقق الازدهار فى هذا النظام، فسوف تخلص إلى أن أمريكا لديها أصول أكثر وخصوم أقل، فيما يتعلق بهذا النظام، من أية دولة كبرى أخرى وهذا هو ما أسميه الحماس المنطقى.

وسيرا على حماية المنطق يقول: إنه الحدس السائد بين المستثمرين العالميين بأنه فى حين مازالت كثير من الدول فى أوروبا وآسيا تحاول أن تكيف مجتمعاتها مع العولمة، وفى حين يقف بعضها بالكاد على خط البداية، فقد انتهى (أنكل سام) بالفعل من أول دورة له حول المضمار بأقصى سرعة.

وثمة طريقة مفيدة لتحليل هذا الحماس المنطقى تتمثل فى طرح السؤال التالى:

لو أنك جئت قبل مائة عام من الآن إلى مهندس جغرافى ملهم وقلت له: إنه فى عام ٢٠٠٠ سوف يعرف العالم بنظام يطلق عليه اسم «العولمة»، فما هو نوع البلد الذى سيقوم بتصميمه لكى ينافس ويفوز فى ذلك

العالم؟ الإجابة هي: أنه كان قد يصمم شيئاً يشبه إلى حد كبير الولايات المتحدة الأمريكية.

إنه قد يصمم دولة توجد في موقع جغرافي نموذجي من حيث القدرة على المنافسة.

بمعنى، أنه قد يصمم دولة تطل على كل من المحيطين الأطلنطي والهادي، بحيث تنظر بارتياح من كلا الاتجاهين، وفي الوقت نفسه تكون متصلة بكتلة من اليابسة بكل من كندا وأمريكا اللاتينية، حتى يتسنى لها التفاعل بسهولة مع كل الأسواق الرئيسية في العالم - آسيا وأوروبا والأمريكتين وهذه كلها ستكون في متناول اليد.

(٣) المؤلف ومدينة السعادة

ويسرف المؤلف إسرافا شديدا حين يتصور مناجيا نفسه أنه لو استدعى مهندسا وطلب منه أن يرسم قرية نموذجية (مدينة فاضلة) تخيلها الفلاسفة: مدينة الجمال والسعادة ربما كان فريدمان أحد هؤلاء فلاسفة القرن الخامس عشر ولم يصل أمريكا إلا في القرن الواحد والعشرين وقد ألقى رحله فيها وقال: هي تلك البلد الذي لو قيل لمهندس صمم دولة تتمتع بتنوع سكاني متعدد الثقافات ومتعدد الإثنيات (العرقيات) ومتعدد اللغات له ارتباطات طبيعية بكل القارات، ولكن هذه الدولة تكون في الوقت نفسه مرتبطة إلى بعضها البعض بلغة واحدة - هي الإنجليزية - التي قد تكون أيضاً هي اللغة المسيطرة للإنترنت.

وقد يصمم بلداً له أسواق شديدة التنوع والابتكار ورأس المال الكفء، تعتبر فيه الرأسمالية المغامرة بطلا نبيلاً ومقداماً، بحيث يستطيع أي إنسان عنده اختراع معقول (أو حتى سخيف) في بدروم أو جراج منزله أن يجد رأسمالياً مغامراً في مكان ما يقدم له الدعم.

وهذا شيء لطيف، ذلك لأنك عندما تتحدث عن السرعة فلا يوجد من هو أسرع من أسواق رأس المال الأمريكية في إلقاء الأموال إلى الأفكار الجديدة.

ومما لا شك فيه أن مُهندسَنَا الجغرافيَّ قد يصمم دولة يوجد بها أكثر البيئات القانونية والتنظيمية أمانة في العالم.

ويستطيع المستثمرون المحليون والأجانب على السواء في هذه الدولة أن يعتمدوا دائماً على وجود حلبة لعب مستوية إلى حد معقول، وبها قدر قليل نسبياً من الفساد، وقدر كبير من الضمانات القانونية لأي أجنبي يرغب في الاستثمار ثم الخروج بأرباحه في أي وقت، وسيادة القانون التي تمكن الأسواق والعقود التجارية من العمل وتحمي وتشجع الابتكار بحماية الاختراع وقد يصمم دولة لها نظام من قوانين الإفلاس والمحاكم يشجع بالفعل أولئك الذين يخفقون في مشاريعهم التجارية على إعلان إفلاسهم ثم معاودة المحاولة من جديد وربما يخفقون من جديد، فيعلنون إفلاسهم مرة أخرى، ثم يحاولون أيضاً من جديد وذلك قبل أن يتحقق لهم النجاح ويبدأون في تأسيس

شـركـة وذلك دون أن يحـملوا وصـمـة إفلاساتهم الأولى طوال حياتهم.

أما فى أوروبا فيعتبر الإفلاس وصمة مدى الحياة.

فـقـد يصـمم مـهندسنا الجغرافى بلا شك دولة مستعدة استعداداً طيباً لقبول مهاجرين جدد، بحيث يستطيع أى إنسان أن يأتى إلى سـواحلهـا وأن يعـامل دسـتـورياً على قـدم المسـاواة مع أى إنسـان آخـر، مما يمكن هذه الدولة باستمرار من سحب أفضل العقول فى العالم والجمع بينهم فى شـركاتها ومـراكـزها الطبية وجامعاتها.

فلكى تكون يابانياً لابد لك أن تكون من مواليد اليابان.

ولكى تكون سويسرياً يجب أن تكون من مواليد سويسرا.

ولكن لكى تكون أمريكياً فمـا عليك إلا أن ترغب فقط فى أن تكون أمريكياً.

وذلك لا يعنى أننا نسمح بالدخول لكل من يرغب فى أن يكون أمريكياً، ولكن عندما تكون المواطنة مسألة قانونية وليست عرقية أو عنصـرية أو وطنيـة، فـإن ذلك يجـعل الأمـر أسـهل كثيـراً على البلد لكى يمتص الموهبة الجديدة.

ويحب أحـد أصـدقـائى فى وادى السـيليكون أن يقـول فى ذلك: «إننى لا أخاف من اليابان أو الدول الآسيوية الأخرى.

فالآسيويون منا سوف يهزمون الآسيويين منهم فى أى يوم».

وقد يصـمم أيضـاً دولة تقـدر التدفق الحر للمعلومات إلى حد الدفاع عن حقوق أسوأ الإباحيين وأشد العنصريين إثارة للفتن فى أن يؤدوا أعمالهم.

فقد يكون ذلك رصيداً.

لأنه فى عالم سوف تتدفق فيه المعلومات، والمعرفة، والسلع والخدمات بسرعـة متزايدة عـبـر العـالم السـريع أو عن طريق الفـضـاء المعلوماتى (السـايبر سبيس)، فـقـد تكون هناك ميزة حـقـيقـيـة لتلك الدول التى تشعر بالارتياح فى مثل هذا الانفتاح وذلك التنافر وتلك الفوضى التى تصـاحـبـه أحـيانـاً، تلك الدول التى تشعـر بالارتيـاح فى جو التنافس على أسـاس التـخـيل، وليـس من خلف أسـوار الحماية.

والنتيجة النهائية

فى عالم الفائز فيه يحصـد كل شىء فإن أمـريـكـا، بلا شك، حـتـى الآن على الأقل، لديها نظام يحصل فيه الفائز على الكثير.

وذلك يجـعل أمـريكا دولة عظمى فـريدة، فهى تتفوق فى مصادر القوة التقليدية.

أى أن لديهـا جيشـاً عاملاً ضخمـاً، مزوداً بعدد من حاملات الطائرات والمقاتلات النفاثة المتطورة، وطائرات النقل، والأسلحـة النووية يزيد على ما كان لديها فى أى وقت مضى، بحيث تستطيع استعراض القوة بدرجة تفوق أى دولة أخرى فى العالم.

لم يبلغ هيام قـيس بليلاه حد هيام ذلك

الكاتب بأمريكا، فقد أضفى عليها من هالات التقديس ما يجعلها القطب الأوحد الذى تدور عليه العولمة فأمريكا هى العولمة ونظامها، والعولمة، هى أمريكا.

وأمريكا فى نظر ذلك الكاتب هى ذلك النموذج الذى فوق مثال المدن الفاضلة.

ولو قيل لمثال أبدع أحسن ما فى خيالك، ما استطاع أن يبدع أحسن مثالاً من أمريكا.

فلو قيل للجغرافى أبدع لنا مدينة لها موقع جغرافى متميز ما فعل أكثر من موقع أمريكا، ولو قيل لمهندس قدِم تخطيطاً لمدينة مثالية - لكانت أمريكا - ولو قيل للقوة اصنعى مدينة قوية القوى لكانت أمريكا، وهكذا نرى الكاتب جعلها فوق إبداع المبدعين.. من هنا كان الكاتب متحالفاً مع أسلوب الدعاية الرأسمالية الأمريكية والإعلام الأمريكى المغرض.

لذلك يعتبر الكتاب دعاية أمريكية الصنع يضع شعوب العالم فى كفة، وأمريكا فى كفة بينما علاقاتها بشعوب العالم أشد مرارة وما أوقعته بالشعوب كحرب الخليج والبوسنة والهرسك ليشهد عليها.

ولا نراه مصيبا فى قوله: «إن المجتمع العالمى المزدهر هو المجتمع الذى يستطيع أن يحدث التوازن بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون على الدوام، ولا يوجد نموذج لذلك على الأرض اليوم أفضل من أمريكا.

ولهذا السبب فإننى أومن بشدة بأنه يجب أن تكون أمريكا فى أفضل حالاتها - اليوم وغداً، وفى كل وقت، حتى يتسنى للعولمة أن تكون قابلة للاستمرار.

إنها يمكن أن تكون، ويجب أيضاً أن تكون، منارة للعالم أجمع. فلنعمل على ألا نبدد هذا الإرث».

وبعد، فإن الكتاب يبحث عن التوازن الدقيق بين السيارة ليكساس وشجرة الزيتون.

إن التوازن الذى هو هدف الكاتب وبثه فى كتابه وطرحه على القارىء، وحمل الفكر الإنسانى الجديد مسئوليته إنما هو هدف يطلب التوازن بين مرحلة حضارية عارضة طارئة تزدحم بالتكنولوجيا والإنترنت وبين الأساس الجوهرى الثابت فى الوجود الإنسانى وليس الحضارى المتغير وشتان بين تقاليد الأسرة والعائلة التى تعكس فلسفة التوازن التى توحى إليه أصالة الترابط الاجتماعى مشيرا إليه بأشجار الزيتون التى تعكس الروابط الخاصة بالمكان والمجتمع والثقافة والتعارف الودود، وبين عولمة الإنترنت التى تجمع بين أناس لم يتصلوا ببعض قط وبدلاً من أن تخلق أنواعاً جديدة من المجتمعات - خلقت فقط إحساساً زائفاً بالاتصال والحميمية.

هذه التكنولوجيا تؤدى بنا إلى التحنيط، إنها تمنحنا فقط القوة للوصول إلى أماكن أبعد من العالم فى حين تبعدنا عن الفعل الحقيقى اللازم لبناء علاقات ومجتمعات مع الناس الذين يسكنون إلى جوارنا؟

ما يقال عن الإسلام

نقد موضوعى للأفكار الهامة فى كتاب اليمين واليسار فى الفكر الدينى

٢

للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى

كنت أفضل أن يكون الكتاب حديثا عن الشيوعية بعيدا عن منطق الإسلام ليقول الكاتب عن مادته ما شاء! أمّا أن يحاول أن يجعل الإسلام شيوعيا باسم ما سماه باليسار! مع أن الإسلام فى أصوله وفى مد تياره لا يعرف كلمة اليسار أصلا، أمّا أن يحاول أن يجعل الإسلام شيوعيا باسم اليسار فهو ما عجز عن تحقيقه وما أوقعه فى مناقضات مكشوفة لا تستر بلثام!

ثم ماذا! لابد أن تتاح الفرصة للهجوم على السمعيات! وأنها ليست بذات دليل والسمعيات لا تضر الحياة الاجتماعية فى شئ هنا بل تفيدها فليس الاعتقاد بالجنة والنار وعذاب القبر وخلود الروح والثواب والعقاب حجر عثرة فى سبيل الإصلاح حتى تكون السمعيات عونا للرجعية على الاضطهاد! إن الاعتقاد بالسمعيات يعصم المجتمع من الشرور، فالذى يخاف الحساب يفكر فى الجريمة قبل أن يأتى بها، وأنت فى أمورك الشخصية تثق بمن يؤمن بالآخرة أكثر مما تثق بالمادى الكافر؛ لأن صاحب الدين ذو ضمير يرتجف للمعصية، وإذا أتى بها ظل الندم يلاحقه، أما الشيوعى الكافر الذى لا يؤمن باليوم الآخر فأكثر تعرضا للمعصية بل يستبيحها إذا لم يجد شاهدا عليه أمام القانون وهذا ما عناه الله - عز وجل - حين قال عن هؤلاء المنكرين.

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾(١).

(١) القيامة ٥، ٦.

فالذين ينكرون السمعيات لا يخدمون المجتمع ولا يدعون إلى إصلاحه بل يريدون أن يخلعوا عن النفوس رهبة المعصية فتأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن! وبعد ذلك كله نتحدث عن صلاح المجتمع ورفاهية الكادحين! ونعد السمعيات ضلالة أليس ذلك نفاقا! فوق أنه باطل صريح.

٦ـ أما الاختلاق الواضح فهو ما حرف به الباحث الكلم عن مواضعه فى توضيح مكانة الحكم فى الإسلام فقد قال «ص٢٦»: إن موقف اليمين يجعل السياسة ملحقا لعلم أصول الدين القديم وليست أصلاً من أصول التوحيد فهى أقرب إلى الفقه والشريعة منها إلى أصول العقائد النظرية ممّا يهبط حماس الناس السياسى لمّا كانت السياسة فرعا لا أصلاً.

وهذا الكلام ظاهر البطلان من جميع نواحيه فمن ناحية أولى نجده يقول: إن السياسة ملحق لعلم أصول الدين القديم وعلم الأصول فى العقيدة ليس له أصل وملحق فكل ما فيه لباب جوهرى وكل المسلمين يعلمون أن شهادة أن لا إله إلا الله معناها أن الحاكم المشرع هو الله وحده والحاكم الإنسان ملزم باتباع ما قال الله! فكيف تكون قضية الحكم ملحقا تابعا وليست من الأصول.

أما الناحية الثانية فقوله: «إن السياسة أقرب الى الفقه والشريعة فهى فى مرتبة أقل، والفقه والشريعة أحكام واجبة الأداء محتمة التنفيذ، فكيف تكون أقل وأضأل! الميراث والطلاق والبيوع والمعاملات والحدود أليست ذات أحكام مفروضة يجب الالتزام بها؟ فإذا كانت السياسة بابا من أبواب الفقه فكل ما جاء به بشأنهما فى القرآن والسنة محتوم التنفيذ ولن تكون أحكام السياسة الفقهية فى مرتبة أقل لأنها جاءت فى كتب الفقه!

واذن فالسياسة فى الإسلام أصل من أصول العقيدة باعتبار أن الحكم للّه وحده وما فرضه من شرع مطاع وهى باب من أبواب الفقه كأبواب المعاملات والبيوع والأحوال الشخصية والحدود! وكلها ذوات قوانين لازمة الاتباع! فكيف تكون السياسة فى الإسلام فى مرتبة أقل!

ويجيء الافتراء مرة ثانية حين يزعم الباحث أن السياسة فى الإسلام مركزة حول شخص الإمام وصفاته ومناقبه أما المؤسسات الدستورية مثل بيت المال، والخراج، والحسبة، والقضاء، والولاية، وحق الشعب فى الرقابة فلا يدخل فى السياسة لأنها انحصرت فى شخص الإمام وحده كما انحصرت العبادة فى الله!

وهذا الكلام افتراء صارخ لأن الكاتب يعلم أن كتَاباً ردّد مثْل هذه الأقوال وهو كتاب الإسلام وأصول الحكم وجوبه بالرد الذى يوضح مكانة السياسة فى الإسلام وتعداد الكتب الفقهية المؤلفة فى دراسة: بيت المال، والخراج، والحسبة، والقضاء، والولاية، حتى عرف كل من يجهل أن السياسة الشرعية فى الإسلام بابٌ مستوفى الفصول مقّرر الأحكام متعّدد المسائل فهل يجئ بعد ذلك من يتحدث عن السياسة فى الإسلام ليقول: إنها مركزة حول شخص الإمام وحده!

لقد فند الإمام محمد الخضر حسين الدعوى التى لاكها صاحب الإسلام وأصول الحكم وجاء اليوم يردّدها من لا صلة له بالبحوث الفقهية فقال الإمام الخضر فى وضوح(٢): إن العرب وقفوا على مترجمات كتب السياسة لأرسطو وأفلاطون وأن الكندى ألف

(٢) نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم للشيخ محمد الخضر حسين ص ٤٧.

فى السياسة إثنى عشر مؤلفات وأحمد بن الطيب ألف كتاب (السياسة الصغير) وكتاب (السياسة الكبير) والفارابى أصدر ثمانية مؤلفات فى السياسة منها : كتاب (السياسة المدنية) وهو يتحدث عن الاقتصاد السياسى بلغة العصر الحديث، والإمام الماوردى قد كتب عن الأحكام السياسية فى كتاب (سياسة الملك) والطرشوش قد أصدر كتاب (سراج الملوك)، ومضى الخضر يعدد أسماء الكتب السياسية فى الفقه الإسلامى فى سجل حافل وكلها تدور حول أدق المسائل الدستورية فى الحكم، فإذا كان الأستاذ المؤلف لا يطيق صبرا على مراجعة كتب الأقدمين فلْيَذْهَبْ إلى كلية الحقوق بجامعة القاهرة، ولا أقول كلية الشريعة بالأزهر؛ لأنه يجد فى نفسه صدوداً عنها، يذهب ليرى عشرات الرسائل عن الحكم فى الإسلام أشرف عليها الأئمة محمد أبوزهرة، وعبدالوهاب خلاف، وعلى الخفيف، وعبدالرحمن تاج، ومحمد يوسف موسى، وغيرهم، وكلها تتحدث بإشباع عن كل ما عناه الكاتب من مسائل : بيت المال، والخراج، والحسبة، والقضاء، والولاية، فالقول بأن السياسة فى الفقه الإسلامى تركزت حول شخصية الحاكم وحده، مجرد اختلاق مريب! وإذا كان الكاتب لا يعرف شيئا عما قاله الفقهاء فى هذا المجال، وأخطأ لجهله فلماذا يكتب فيما لا يعرف ولماذا يغرق هكذا فى شبر ماء؟

٧ـ يرى المؤلف أن الإشادة بالعصر الأول رجوع للوراء « ص٢٩ »، وأن مقولة « خير القرون قرنى » تبعد الشعب عن مساره، ويفيض فى انتقاص هذا الرجوع؛ لأنه يدعم موقف الرجعية، والكاتب ينص على عصر النبوة والصحابة زاعما أنه العصر الذى ينادى اليمين باحتذائه تأييداً للرجعية! وأنا أقول للكاتب : أنت تدعو للحرية والمساواة والإخاء وتدافع عن مسئولية الحاكم وتعده فردا يخطئ ويصيب، وهذا هو اليسار المحبوب فى رأيك! فلماذا تنكر عهد النبوة والصحابة وتعد العودة إليه رجعية، وهو عهد : محمد، وأبى بكر، وعمر ممن كانوا المثل الأعلى للإخاء العادل والمساواة الحقة، وكان صوت المعارض مجلجلا يسمعه الخليفة الراشد فيذعن إليه إذا وجد الحق فى جانبه! لماذا لا تحب الرجوع إلى عهد جاء بأحسن نماذج فى العدالة والحرية والمساواة وتعد ذلك تأخراً! لو كنت مستقيم المنهج لقلت : إن بعض عهود الإسلام بعد العصر الزاهر قد تنكب حقائق الإسلام فى أمور يجب أن نلتفت إليها وأن الرجوع إلى عصر النبوة والصحابة يمثل أحسن التطبيق العادل لمبادئ الحرية والمساواة! أما التهكم بمقولة : « خير القرون قرنى »، ومحاولة الارتماء الذليل فى أحضان الماركسيين باعتبارهم طوق النجاة فهذا مما لا يستقيم مع ما تتظاهر به من الدعوة إلى الحرية! الحرية تحققت لدى المسلمين فى عهد محمد – ﷺ – وصحابته، فلماذا تجعل العودة لهذا العهد رجعية تجنى على الأمة الإسلامية! أتستطيع أن تقارن فظائع لينين، وستالين، وجورباتشوف، بعدالة : محمد – ﷺ –، وأبى بكر، وعلى! وتقول : إن التاريخ لا يسير إلى الوراء وهذا حق، ولكن دساتير الرحمة والمساواة والعدالة والإخاء، ليس اتباعها سيرا للوراء بل هى مصابيح تضئ الطريق إذا أدلهم الظلام.

ثم ما هذا الخلط حين تقرر أن المسلم يعيش حياتين : حياةً فى مصنعه ومتجره يعمل ما شاء طبقا للنظام الرأسمالى، وحياة دينية فى معبده يقيم الصلاة ويمارس الشعائر! وكأنك تجهل أن ممارسة الشعائر هى الواقع الأكبر لحياة الجد والكفاح! فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والصوم دعوة إلى

المشاركة الوجدانية ليحدث التعاطف بين الغنى والفقير وارتقاء عن مهاوى الفحش والسباب؛ لأن من لم يدع قول الزور، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه، والزكاة هى التى تنصف أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء! لا أدرى كيف يدعى كاتب معرفة الإسلام، وهو يجهل أنه رقابة دقيقة من الله على عبده، ويهديه طريق الخير ويبعده عن طريق الشر؟

إن التاجر المسلم فى متجره، والصانع المسلم فى مصنعه، لا يغفل عن دينه طرفة عين، وقد يوجد من يغفل، ولكنه حينئذ لا يلتزم بمنهج الإسلام! وإنى لأدعوك إلى قراءة آثار الأفغانى، والكواكبى، والسنوسى، والمهدى، وإقبال، ومحمد بن عبدالوهاب الذين أشدت بهم عقب هذا الكلام لتعرف كيف فهموا الإسلام؟ وكيف صوروه فى كتبهم؟ أما أنهم يساريون فمن كان قبل ظهور الشيوعية فهو لا يعلم عنها شيئا ومن عاصرها كمحمد إقبال فقد لفظها وأكد أن الإسلام هو المنقذ الأوحد! يا أخى لا تتمسح بهؤلاء الشرفاء واكتب أسماء من يلتقون معك فى طريق لتكون الفواصل واضحة دون التباس.

ثم ماذا أيضاً؟

وصل الكاتب إلى ما مهد له وألح فى الحصول عليه حين قال «ص٣٢»: (إن مهمتنا هى تطوير فكرنا الإصطلاحى الحديث ودفعه خطوة للأمام فاختيار مصر بظروفها الحالية وفى مرحلتها الراهنة هو اختيار اليسار ومن ثم كان اختيارها الفكرى هو اليسار الدينى الذى بدأ فى حركات الإصلاح على مستوى ثقافتها والتزامها بقضايا العصر).

فالكاتب يعترف هنا أن اليسار الدينى هو الذى بدأ فى حركات الإصلاح على مستوى ثقافتها والتزامها بقضايا العصر.

ونحن لا نعيش فى جحور النمل حتى نجهل حركات الإصلاح الدينى التى آتت أكلها الأولى، ومازالت تنتظر بقية الجنى المأمول ولا أخترع أسماء لزعماء هذه الحركات ولكنى أرجع إلى باحث دقيق هو الأستاذ أحمد أمين حيث تحدث عن: (زعماء الإصلاح الحديث) فى كتابه المعنون بهذا الاسم فجعل منهم: محمد بن عبدالوهاب، وجمال الدين الأفغانى، وخير الدين التونسى، ومدحت باشا، وعلى مبارك، وأحمد خان، والسيد أمير على، وعلى مبارك، ومحمد عبده، والنديم، فهل فى هؤلاء من قال: إنه يسارى أو هل فى هؤلاء من يعترف بأن فى الإسلام يسارا أو يمينا؟ حتى تقول إن اليسار هو الذى قاد حركات الاصلاح و إذا اعترفت شعوب أوروبا الشيوعية أن اليسار هو الذى دمرها واعترفت الدولة الشيوعية الأولى بذلك! فهل تقدر أنت على أن تبعثه من جديد.

ثم بعد ذلك مباشرة يقفز إلى الغرض الصريح فيقول: إن المعركة بين الماركسية والدين مفتعلة!! يقول ذلك بهذه الصراحة الواضحة، كأنه لا يعلم أن الماركسى ينكر رب الوجود!! ويقول إن الدين أفيون الشعوب، فمن الذى افتعل المعركة إذن؟ قوم يؤمنون بكتابهم، ومتمسكون بتعاليمه، ويعبدون رباً خالقا رازقا، وقوم يكفرون صراحة بكل ذلك ويواجهون المسلمين فى القوقاز وأفغانستان والشيشان بالغزو والاحتلال! ثم تقول: إن المعركة مفتعلة! وأن القصد بها معاداة الحركات الوطنية؟ لينهب الاغنياء الثروات! تعال معى إلى زعماء الحركات الوطنية فى مصر منذ: أحمد عرابى، ومصطفى كامل، وسعد

زغلول، إلى الآن هل عاداهم أحد باسم الإسلام أو أن الإسلام كان العامل الأول فى تأييد هذه الحركات؟ أين تعلم عرابى؟ وفى أى معهد نشأ سعد؟ وعلى أى منبر دوت خطب الثورة المصرية!! ثم من قال إن الرأسمالية والدين متفقان فيما بينهما على الوسائل «ص٣٣»، والإسلام برئ من الرأسمالية كما هو برئ من الشيوعية؛ لأنه مذهب ربانى مستقل! ومن آيات التخبط الماركسى فى هذا المجال ما زعمه الكاتب من أن أغنياء المسلمين هم الذين كانوا يجهزون جيوش المسلمين بأموالهم! مضافا إلى ما زعمه كاتب آخر من هؤلاء فى قوله: إن أتباع محمد كانوا من الضعفاء والفقراء الذين وجدوا فى الدعوة الإسلامية ثورة على الأغنياء!! وكل ذلك هراء زائف فالإسلام دين عام يجمع الغنى والفقير وكل يساعد فى سبيله بما يملك! ولسنا فى حاجة إلى أن يختار كاتب ما أسماء بعض الأغنياء من الصحابة ليجعله دعوة رأسمالية، ويختار كاتب آخر بعض الفقراء ليجعله دعوة شيوعية! فى دين كان يقف فيه عمر، وبلال، معا فى مكان واحد ولم يمنع هذا الوضع أمير المؤمنين عمر من أن يقول عن أبى بكر وبلال: «أبوبكر سيدنا وقد أعتق سيدنا!! يا قوم! دعوا أسماء الصحابة فى صفحات جهادهم مشرفة ناصعة ولا تتلمسوا الأباطيل!».

٨ـ أعاد الكاتب فى إسهاب مرة ثانية ما قرره من أن الدين ليس عكوفا على الغيبيات، وليس صلاة وصياما وزكاة وحجا وإنما هو عمل، وحرية، وتحرير للأرض، وقضاء على التخلف ومحاربة للاستعمار، والزود عن حقوق المستضعفين، إلى صفحات كتبها فى هذا المجال والكاتب هنا يحارب فى غير عدو لأن الدين له كتاب يقرر كل هذه الحقوق ويُتلى على الناس صباح مساء، وتفسر آياته فى الإذاعات والصحف بما لم يدع مجالا لخفاء حقائقه! وكل ما ذكره عن الدين معلوم بالضرورة للمسلمين، لا لفريق منهم ولم يأت الكاتب فيه بجديد وكل الذين قاوموا الاستعمار الأوروبى فى مصر والجزائر والشام كان علماء الاسلام فى طليعتهم، بل إن الجزائر لم تتحرر إلا بقيادة عبدالحميد بن باديس، ومحمد البشر الإبراهيمى، وأعضاء جماعة الجهاد الإسلامية هناك، ثم تحدث عن العبادات حديث من يجعلها فى الصف التالى لا فى الصحف الأول، وقد سبق أن أوضحت أن الصلاة والصوم والزكاة والحج وسائل لغايات عملية لا يتحقق أداؤها إلا لتحقيق ما تصل اليه من غايات! وقوله :إن الشهادة بوحدانية الله تعنى رفض الآلهة المزعومة مثل: الجاه والسلطان، والربح، قول مشتهر قرره علماء التوحيد، وكتبوا فيه عشرات الصفحات بحيث أصبح من السذاجة المفرطة أن يذكره باحث معاصر وكأنه شئ جديد! وحديثه عن الروحانية والمادية حديث مستهلك قرره جمال الدين، ومحمد عبده ورشيد رضا، وأبوالحسن الندوى، ومحمد الغزالى، وعشرات الكاتبين مما يعد من البدائة وآفة الكاتب أنه لم يعش مع المتمسكين بالكتاب فيعلم حقيقة ما يقولون ويفعلون، ولكنه قرأ عن الإسلام كلام الموتورين، فظن الصحة فيما يقولون، وهو حين يزعم التفرد بالمناداة بالحرية والعمل والإخاء والكسب ومحاربة الاستغلال والربا وتكديس الأموال، يكون كدون كيشوت حين يحارب طواحين الهواء، وليأخذ أى كتاب من الكتب المقررة على التلاميذ ليجد ما يدعو إليه وقد صار من قبيل البدهيات! وأنصح

للكاتب أن يطالع ما كتبه الأصلاء من علماء الإسلام ليعرف أنهم أكثر إدراكا منه فيما يقرر من الحقائق المسلمة، ويزيدون عليه شيئا مهما للغاية هو أنهم متواضعون لا يزعمون التوجيه الكاذب والإدعاء المغرض، ولا تلمس فى أقوالهم مظاهر الاستعلاء! بل إنهم ذهبوا إلى أكثر مما ذهب إليه من مذاهب الإصلاح وعلموا أكثر مما يعلم ولذلك كانوا محل القدوة وموضع الاحتذاء.

وأخيرا كتب الباحث فصلا تحت عنوان: «المال فى القرآن» لم يأت فيه بجديد لا يعرفه المسلمون مع اصطناع أسلوب دعائى هو إلى البهرجة والتعالم أقرب منه إلى التحليل والإقناع، ثم اهتدى فى نهايته إلى حقائق زعمها جديدة، ليست مما يعرفه اليمينيون، وكلها مما عرف من الدين بالضرورة وأنا أسجل هذه الحقائق التى زعم جديتها لأسأله: هل يمترى فيها أحدا؟ وهل وجد معارضا لها ممن جعلهم خصومه فى الرأى؟ ثم تاركا البند الأول الذى تحدث فيه عن الرأسمالية وكأنها من صميم الإسلام وهو خطأ يعرف منحدره ولكنه يصر عليه ليجد مجالا للقول.

١ـ لقد أكد الدارس فى نهاية البحث أن المال مال الله وليس ملكا لأحد.. ومن حق السلطة الشرعية المصادرة لنفع العامة فهل نازع فى هذا أحد؟

٢ـ أكد أن المال حركة اجتماعية بين أفراد الجماعة لا يجوز اكتنازه واحتكاره، فهل نازع فى ذلك أحد؟ إن المجلدات التى أصدرها مجمع البحوث فى قرابة عشرين عاما، تؤكد ذلك بأقلام من هم فى مرتبة أساتذته، ولهم بحوث شافية تؤكد ذلك بالدليل أزهريون ومدنيون! وقد أوضحوا هذه الحقائق بما لا يستطيع أن يصل إليه! ففى أى ميدان يحارب؟ وإذا لم يصبر على قراءة هذه المجلدات فليكتف بالأجزاء الأولى.

٣ـ المال وسيلة لإظهار النشاط والجهد وليست قيمته فى ذاته بل فى قيمة العمل، و هذا هو المقرر المتعارف ولا جديد به.

٤ـ المال ليس دافعا إلى العمل فى صورة ربح وهذا ما نقف أمامه لنقول! إذا كان العمل مشروعا والربح طبيعيا لا استغلال فيه ولا فحش فذلك مشروع لا اعتراض عليه، والاستثمار لا يكون إلا من شئ يستثمر فهذه المقولة تحتاج إلى تصحيح.

وفيما تقدم نقض ما توهمه الباحث من أفكار مخطئة لا تستند إلى دليل ونلخص ما نريد التركيز عليه فى هذه النقاط:

١ـ لا يوجد شئ اسمه اليسار الإسلامى، فالمسلمون أمة واحدة يتفقون على مقررات مستمدة من كتاب الله وسنة الرسول وما يخالف هذين ليس بإسلام.

٢ـ أفكار الكاتب كلها مرددة فى كتب الماركسيين ومتعالمة لدى القراء ولم تأت بجديد ينسب إليها، فمصادرتها لا تحجبها عن القراء، والرد عليها بما تقدم كاف لدحضها وإذن فلا مصادرة بل تصويب وتسديد.

٣ـ إن سقوط الشيوعية بعد افتضاح تمويهاتها الخادعة كان دليلا عمليا على فساد ما يهرف به عملاؤها، وأولى بهم أن يبحثوا عن أسباب السقوط لا أن يكرروا ما لهجوا به عن عناد، فالقول الباطل لا يؤدى إلا إلى الباطل وقد وضح الطريق.

شئون المرأة، والوثب الأشل على الإسلام

للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى

اتخذ خصوم الإسلام فى الغرب والشرق، الحديث عن شئون المرأة المسلمة، طريقا لوثبهم الأشل على الإسلام، وقد خاض فى وحل هذا الطريق أبناء الغرب أنفسهم فى بدايات هذا الوثب الأشل، ثم نجحوا فى تكوين عملاء لهم من بنى جلدتنا، وفينا سماعون لهم، فتولوا آثام هذه المهمة، إما جهلا وتطفلا، وإما جهالة وعناداً.

وجميعهم سار فى الطريق مكبا على وجهه، ورجلاه إلى أعلى، فأنَّى يبصرون.

وفى هذه الفترة، التى نشط فيها الغرب فى الترويج لـ « العولمة » التى يدعو إليها، ازداد التآمر على الإسلام، وازداد الاهتمام بشئون المرأة بوجه عام فى سياساتهم المعلنة ولكن المقصود لهم أولاً وأخيراً، هو فتنة المرأة المسلمة، والكيد للإسلام من خلال الدعاية الكاذبة، وهى رعاية المرأة، وتمكينها من حقوقها، وتوفير الحياة الكريمة لها.

وفى هذا الإطار عقدت عدة مؤتمرات دولية فى عواصم مختلفة. تلف وتدور حول ما يسمونه بـ « تحرر المرأة » وإنصافها، وجعلها أكثر فاعلية مما هى عليه الآن.

والملاحظ على هذه المؤتمرات جميعا ما يأتى:

● سيطرة الفكر العلمانى الغربى على ما يلقى فيها من بحوث، وما يصدر عنها من توصيات.

● أن أعضاء هذه المؤتمرات يختارون بدقة تامة حيث يرى المنظمون لهذه المؤتمرات، فى الأعضاء المختارين انقياداً واضحا للأفكار التى تناقش فيها، والتوصيات التى تصدر عنها.

(*) يعود الاستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى لاستئناف سلسلة مقالاته حول افتراءات المستشرقين فى عدد قادم بإذن الله.

● إن الإسلام بتوجيهاته وقيمه يكون فى هذه المؤتمرات حاضراً – غائباً:

يكون حاضراً من حيث إنه المقصود بالوثب الأشل عليه، وتشويه حقائقه، ووضع المتفجرات فى كيانه ويكون غائبا من حيث حجب بضاعته النفيسة عن الأنظار، ومنع قيمه ومبادئه الرفيعة من الانتشار، لأنهم يدركون أن باطلهم وزيفهم لا يقر له قرار أمام مواجهة الإسلام، ومهما طلوا ذلك الباطل وموهوه.

ومن قبل كانوا يحاولون وثبهم الأشل على الإسلام من خلال شئون المرأة من الولائج الآتية:

– إرث المرأة من أبيها أو زوجها.

– جَعْل العصمة بيد الزوج دون الزوجة.

– تعدد زوجات الرجل، وحظر ذلك على المرأة.

– شهادة المرأتين تعادل شهادة رجل واحد.

– دية المرأة فى القتل الخطأ نصف دية الرجل فى بعض المذاهب الفقهية.

– حظر سفر المرأة بدون محرم سفراً يُخشى عليها فيه من الأخطار، لو كان سفر طاعة.

– قوامة الرجال على النساء.

– عدم تولى بعض المناصب العليا فى الدولة.

– حظر الاختلاط المشبوه.

– إلزام المرأة بستر محاسنها ماعدا الوجه والكفين أو «حجاب المرأة».

– اشتراط موافقة ولى المرأة فى عقد النكاح.

– حصول إذن الزوج إذا أرادت زوجته سفراً.

وبتأثير هذه المؤتمرات السيئة السمعة، أضاف أدعياء أنصار المرأة مشكلات أخرى مفتعلة، شملت:

– عمل المرأة وتوسيع نطاقه.

– إطلاق حرية المرأة من كل القيود.

– إلغاء اعتبار عدة المرأة من طلاق أو وفاة مانعًا من زواجها الفورى برجل آخر غير المطلق والمتوفى بشبهةٍ أن تقدم الطب والكشف المبكر عن خلو الرحم من الحمل، جعل العدة غير ذات موضوع!

– تحلل الزوجة من أية حقوق قبل الزوج.

والنظر فى هذه «القائمة» يكشف بكل وضوح أن كل واحدٍ من مجموعة القائمة يضاد تشريعا من تشريعات الإسلام ويمهد لحدوث خصومة عنيفة بين الرجال والنساء، وبخاصة الأزواج والزوجات.

والهدف هو إفساد العلاقات العائلية، وإحداث أفتك أنواع الخلل فيها، ليصيبوا الأمة فى أقتل مقاتلها.

ولست أدرى ماذا كان سيقول خصوم الإسلام فى شئون المرأة فى الإسلام، لو كان موقف الإسلام من شئون المرأة هو موقف غير الإسلام منها. وموقف غير الإسلام منها هو موقف الإسلام.

أعنى لو كان الوضع معكوسا، وأضيف إلى الإسلام مساوىء غيره فى شئون المرأة، وأضيف إلى غير الإسلام محاسن الإسلام فى هذا المجال.

لسنا ندرى ماذا كانوا سيقولون؟ لأنهم مع ما

للإسلام من محاسن يكثرون التحامل عليه، ويتهمونه -زوراً- بأنه ظلم المرأة؟ ثم نَصَّبُوا أنفسهم حماةً لها من ظلم الإسلام إياها.

ولو كان لهم سُلَّمُ فى السماء، أو نفق فى الأرض، فجدوا فيهما صاعدين هابطين، ما عثروا على سيئة واحدة فى الإسلام تصاب بها المرأة.. ولما ظفروا بحسنةٍ واحدةٍ فى أى نظام غير الإسلام، لم يظفروا بأحسن منها فى تشريعات الإسلام.

ومحاسن الإسلام فى شئون المرأة لا تكاد تُحصى، نجد ذلك فى كتاب الله العزيز، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتراه فى السنة النبوية الشريفة، وهما المصدران اللذان شيد عليهما صرح الإسلام الشامخ.

ففى كتاب الله العزيز

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾(1).

فأنت ترى أن الله ـ عز وجل ـ يثبت الرجال على المعاشرة الحسنة للزوجات حتى فى حال كراهة الزوج لزوجته، ويزيد الأمر ترغيبا بأن كراهية الإنسان لشيءٍ ما ليس دليلاً على شريته، بل قد يجعل الله فى هذا الشيء المكروه خيراً، وليس خيراً فقط، بل خيراً كثيراً.

ثم ينهى الله الأزواج إذا استبدلوا زوجات مكان زوجات ألا يقع منهم ضرر على الزوجات اللاتى يطلقونهن وألا يأخذوا شيئا مما سبق إعطاؤه لهن، ويحذرهم من ذلك تحذيراً شديداً، فيقول جل شأنه:

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(2).

ولما كان الرجل هو الذى يتقدم لخطبة المرأة، ثم يتم مراسم التزوج بها، جعل الإسلام العصمة فى يده، لأنه هو الذى أنشأ العلاقة الزوجية بإرادته الحرة، ورغبته الخالصة، فهو إذن الذى ينهى هذه العلاقة لأسباب معتبرة شرعا. وهذا هو أحد معانى قوامة الرجال على النساء، ومع هذا الحق المقرر شرعًا للزوج، فإن الإسلام لا يترك الزوج يتعسف فى استعمال هذا الحق، بما يلحق بالمرأة ضرراً، وإنما أحاط استعمال الزوج لحقه هذا بسياجٍ متينٍ من الأخلاقيات الفاعلة، التى طالب الشرع بها الزوج، ثم ضماناتٍ جعلها بيد الزوجة تدفع بها عن نفسها الضرر إذا أخل الزوج بتلك الأخلاقيات الفاعلة، وهذا كله يكون فى حالات نشوء الخلاف فى العلاقات الزوجية بين الزوجين:

فالأخلاقيات الفاعلة، التى ألزم بها الإسلام الزوج فى حالات النزاع تتلخص فى توخى العدل ورفع الظلم من أى نوع كان وترى هذه الأخلاقيات مبثوثة فى عديد من آيات الكتاب العزيز، منها ما تقدم ذكره من نهى الأزواج عن

1- النساء الآية ١٩.

2- النساء الآية ٢٠.

أخذ شيء مما أعطوه للزوجات المطلقات.

ومنها قوله عز وجل:

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ ﴾[3].

فقد حرَّم الله على الزوج الباغض لزوجته أن يمسكها اضراراً بها، وإنما عليه أن يخلى سبيلها لتحل لغيره من الأزواج.

ومنها قوله تعالى:

﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ ﴾[4] يعنى فى حالات إنهاء الحياة الزوجية، فينبغى على الزوجين إنهاؤها بالحُسنى دون أن يقع على المطلقة حيف.

ومنها قوله عز وجل:

﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ ﴾[5]، فهذا إلزام للأزواج بتوخى العدل إذا تعذر استمرار الحياة الزوجية.

ومنها أن الله فرض على الزوج المطلق متعة تناسب مقدرته المالية يبذلها للمرأة إذا طلقها، وهذه مواساة جميلة من الإسلام للزوجة فى حالة الطلاق، لتواجه مشقة الحياة الطارئة عقب الطلاق. وفى ذلك نزل ـ قوله تعالى ـ:

﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾[6].

وإذا كانت المطلقة حاملا أو مرضعًا استمر الإنفاق عليها على مطلقها حتى تضع حملها، وحتى يفطم الطفل، ولها حق الامتناع عن الإرضاع إذا لم ينفق عليها المطلق، لأن الإرضاع تجب تكاليفه على الأب لا على الأم.

ومن محاسن الإسلام أنه يضن أن تعرض الخلافات الزوجية فى ساحات القضاء، لأنها لا تخلو من أسرار ينبغى ألا تفشو بين الناس.

لذلك شرع الإسلام مبدأ «التحكيم العائلى» فى فحص أسباب الخلاف والتوفيق بين الزوجين، وقد حمل هذا المبدأ قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ ﴾[7].

والحكمان من أهلى الزوجين كالآباء والأخوة، وهؤلاء هم أقدر على استكشاف الحقائق والتوفيق بين الزوجين من القضاء، وأحفظ للأسرار، وعرض الخلاف عليهما أولى وأسبق من عرضه فى ساحات القضاء.

وفى جميع الأحوال نرى القرآن العظيم يتوجه بهذا الأمر إلى الزوجين وأهليهما فى حالات النزاع وفى غيره:

٣- سورة البقرة الآية ٢٣١.

٤، ٥- الطلاق الآية ٦.

٦- البقرة الآية ٢٣٦.

٧- النساء الآية ٣٥.

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾(٨).

وفوق هذا وذاك نرى الإسلام يجعل للمرأة – إن كانت زوجة– ربع ما تركه زوجها بعد موته إذا لم يكن له ولد وارث منها، أومن غيرها. فإن كان له ولدُ وارثُ فلها ثُمن ما ترك زوجها قل أو كثر، مهما كانت غنية، كما لم يكلفها الإسلام بالإنفاق على نفسها وهى فى عصمة الزوج ولو كانت أغنى منه.

وجعل لها الصداق (المهر) هبةً خالصةً تفعل به ماتشاء من الأعمال المشروعة، وليست مطالبة بأن تنفق منه درهمًا واحداً فى تأسيس منزل الزوجية بل على الزوج أن يهيىء لها المنزل المناسب. وفى ذلك ورد قوله تعالى:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾(٩).

فإن استأثرت به فى خاصة شئونها فليس لأحد مشاركتها فيه، لا زوجاً ولا أباً.

وما يجرى فى هذا العصر من اشتراك الزوجة فى تأسيس بيت الزوجية من المهر وغيره، إنما هو تطوعُ محضُ، ولا إلزام فيه شرعاً.

ثم جعل لها الإسلام ذمةً ماليةً مستقلة، ولم يجعل لأحد سلطة معها فيما تملك، ولا حجراً عليها من أحد يمنعها من التصرف فيه بإرادتها الحرة.

أما فى السُنة النبوية الشريفة فما أكثر التوجيهات والتوصيات بالمرأة فى جميع مراحل حياتها وأوضاعها ومن هذا ما قاله ـ ﷺ ـ:

«النساء شقائق الرجال»(١٠) ولا يخفى ما فى كلمة «شقائق» من معانى التواد والتراحم والتعاطف والتعامل بالحُسنى ومنه ما ورد فى خطبة «حجة الوداع»، كقوله ـ ﷺ ـ: «استوصوا بالنساء خيراً»(١١).

ومما يذكر بجدارة أن الإسلام أعطى المرأة حق طلب التطليق جبرا على زوجها إذا وقع منه عليها ضرر متكرر، فإذا ثبت هذا الضرر بطرق الإثبات الصحيحة فعلى القضاء أن يستجيب لطلبها، ويفرق بينها وبين الزوج الضار مالم يكف عن الضرر ويعاملها بالمعروف.

وتعدد الزوجات، الذى يعيبونه على الإسلام، هو من تشريعات الطوارىء، التى تحمى المجتمع من الخلل والانهيار الخلقى وهو فى الإسلام له ضوابط حكيمة، والرجل حين يعدد زوجاته لحاجة معتبرة شرعا يعددهن من النساء لا من جنس آخر فهو إذن فى مصلحة النساء وليس ضدهن، وفى أوروبا نادى به المصلحون فى مناسبات عديدة:

فقد عقد فى فرنسا مؤتمر عام ١٩٠١م كان موضوعه البحث عن أمثل الطرق للحد من

٨- البقرة الآية ٢٣٧.

٩- النساء الآية ٤.

١٠- كشف الخفاء (٢/٤٥٣).

١١- البخارى (٧/٣٤)، وابن ماجه ص ١٨٥١.

الإنجاب غير الشرعى، الذى كان قد بلغ فى مقاطعة واحدة خمسين ألف طفل اكتظت بهم الملاجىء الخيرية وانتهوا إلى أن العلاج الحاسم لهذا الفسق هو إباحة تعدد الزوجات.

ونادى به بعض الأساقفة فى انجلترا كعلاج للخيانات الزوجية وكثرة المواليد غير الشرعيين.

ونادوا به فى المانيا، وبخاصة النساء للقضاء على العنوسة والفسق، وفشوا الأمراض الناتجة عن العلاقات القذرة بين الرجال والنساء، وبين الشباب من الجنسين.

وقد أكد هذا الاتجاه مؤتمر الشباب العالمى فى ميونيخ بألمانيا عام ١٩٤٨م.

أما حظر سفر المرأة بلا محرم فهذا من حرص الإسلام على حمايتها من الأخطار، وليس لعدم الثقة فيها كما يقول الحاقدون على الإسلام.

والتفاوت فى الميراث فى بعض الحالات بين الذكور والإناث ليس المقصود منه احتقار الإناث أو حرمانهن، بل يرجع هذا التفاوت إلى تفاوت الأعباء المالية بين النوعين فالذكور مكلفون شرعا بالإنفاق على الأسرة وبذل الصداق للزوجة ولم يكلف الإسلام المرأة بالإنفاق حتى على نفسها، فنفقتها على أبيها قبل الزواج، وعلى زوجها بعد الزواج حتى لو كانت أغنى منه ونصيبها من الميراث أشبه ما يكون برصيد إضافى تواجه به الأزمات الطارئة.

وأما تأديب الزوج زوجته ولو بالضرب الخفيف، فإن من يعيب هذا على الإسلام فليرجع إلى الآية الكريمة:

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ ﴾(١٢)

ويسأل نفسه هذا السؤال:

- من هى الزوجة التى تُضرب؟ وإذا أصاب فى الجواب؛ فإن الزوجة التى تضرب هى الزوجة الفاقدة الإحساس، التى لا يجدى فيها وعظ، ولا يؤثر فى مشاعرها هجر.

كما أن الإسلام لم يحتقر المرأة حين جعل ديتها فى القتل الخطأ نصف دية الرجل، لأن الرجل إذ قتل خطأ أصاب أسرته ضرر مادى جسيم، أما قتل المرأة فلا يبلغ ضرره مبلغ ضرر قتل الرجل، والدية تعويض عن الضرر، لذلك نحا التشريع الإسلامى هذا المنحى العادل، الذى لا ضرر ولا ضِرار فيه.

وعمل المرأة خارج البيت إذا احتاجت هى إليه، أو احتاج إليه المجتمع فإن الإسلام لا يمنعه. وعملها فى إدارة شئون البيت ورعاية الأبناء والبنات هو الأصل، فهى سيدة هذه المملكة العظيمة. ولما أخلت بها المرأة المعاصرة أصاب الأسرة والمجتمع ضرر جسيم. وصار النشء -إلا من عصم الله- مخلوقًا مشوه

١٢- النساء الآية ٣٤.

الفكر والسلوك، وإن صحت أبدانهم، وطالت قـامـاتهم، لكنهم فى خـواء فكرى قـاتل، وانتحار خلقى مدمر.

أما الأم العاملة فما أكثر تعرضها للمتاعب، وتوتر الأعـصـاب وفـقـدان الراحـة الجـسـمـيـة والنفسية.

وفى أمريكا أجرت بعض معاهد استطلاع الرأى عام ١٩٩٧م استفتاء نموذجيًا بين النساء العاملات، وبين أزواج تلك النساء. حول:

هل الأفضل عودة المرأة إلى البيت والتفرغ لشئونه أم الاستمرار فى العمل؟.

وكانت النتيجة أن ٨٦٪ فضلن العودة إلى البيت. أما نتيجة استفتاء الأزواج فكانت أقل من هذا بقليل.

أما جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين فى الديون، فلأن هذه المعاملات تجرى بين الرجال، وفى مجالسهم. والمرأة فى الإسلام لا تزاحم الرجال فى مجالسهم، فلهن ميدان آخر عظيم الشأن يعملن فيه عملا يعادل الجهاد. فإذا شهدت فى معاملة مالية هى فيها قليلة التجارب، فربما نسيت معالم ما شهدت فيه، لذلك اشترط الإسلام ضميمة امرأة أخرى إليها، يتعاونان معًا عند أداء الشهادة على التذكر والمراجعة، صونا لها أن يذكرها الشاهد الرجل، وهو أجنبى عنها.

هذا، وقد جهل الحاقدون على الإسلام أنه خص النساء بالشهادة فى أمور لم يبح للرجال الشهادة فيها، وهى الشئون الخاصة بالنساء، فلماذا إذن لم ينعوا حظ الرجل هنا ويتباكون عليه كما تباكوا بدموع التماسيح على حظ المرأة؟!

والعجب كل العجب لمن نادين فى مؤتمر تحرير المرأة إياه بإلغاء عدة الطلاق والاكتفاء بالكشف الطبى على أرحام المطلقات إنهن جاهلات حمقاوات، فليس علة الحكم فى وجوب العدة هى استبراء الرحم من الحمل. بل علة الحكم أمر آخر، وهى إطالة مدة العدة ثلاثة أشهر أو ثلاث حيضات، وفى خلال هذه المدة قد يراجع المطلق نفسه، ثم يتبين له خطؤه فيراجع زوجته قبل فوات الأوان.

أما استبراء الرحم من الحمل فهو حكمة تشريع تأتى بعد تطبيق الحكم، وتكون ثمرة له.

وعلة الحكم هى السبب فيه، والمنشئة له. أما حكمة التشريع فلا صلة لها بإنشاء الحكم ولا التسبب، ثم العجب كل العجب لمن طالبن فى المؤتمر نفسه أن تتساوى المرأة مع الرجل فى تعدد الأزواج، اثنين، أو ثلاثة أو أربعة؟! فمن هى المرأة التى ترضى لنفسها هذه المهانة؟ وتصبح مثل أنثى الكلاب يجتمع حولها مجموعة من الكلاب فى مواسم السفاد؟! ألهذا الحد المزرى الوقح يصل تفكير بعض المفتونات.

(يتبع)

المثنى بن حارثة الشيباني

إعداد الأستاذ / أحمد السيد تقي الدين

« قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك وأعجبنى ما تكلمت به، ولكن علينا عهد من كسرى لا نحدث أحدا ونؤوى محدثا، ولعل هذا الأمر الذى تدعونا إليه مما يكره الملوك، فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى بلاد العرب فعلنا »(١).

بهذه الكلمات أجاب رجل من سادة العرب وأشرافهم دعوة رسول الله - ﷺ - يوم كان يعرض نفسه على القبائل فى الموسم.

ما إن سمع رجلنا رسول الله - ﷺ - يتلو قول الله - تعالى -:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢).

ما أن سمع هذه الكلمات إلا واستشعر عظمة منشئها وسنته فى خلقه.

وينصر المولى دينه ورسوله على العرب كافة ويسود الإسلام وينتقل رسول الله - ﷺ - إلى جوار ربه بعد أن ترك فى أمته ما إن اعتصموا به لن يضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه، وما أن ينتشر خبر وفاته - ﷺ - حتى ارتدت العرب قاطبة بحيث لم يبق لدين الله ذكر إلا فى مكة والمدينة، وبعض من هدى الله ومن هؤلاء البعض كان رجلنا.. بل بطلنا الذى آثر إلا أن يقاتل بقومه من نكص على عقبيه فأعمل فيهم السيف ومضى يتعقبهم، لا يمنعه من ذلك لجوئهم إلى دولة ذات حول وطول وقوة باطشة مرهوبة الجانب، فما الذى يمنعه وهو على الحق يبتغى إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة؟!

(١) الاستيعاب (٣/٤٩٦).

(٢) سورة الانعام آية (١٥١).

ولا يكتفى الرجل بطلب المرتدين بل يصطدم بجيوش تلك الدولة فى معارك خاطفة أبلى فيها البلاء الحسن، بل ويكتب إلى الصديق يعلمه بما هو فيه ويسأله المدد.

ويملاء الفخار والإعجاب قلب الخليفة فيقول: من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟!

فيجيبه قيس بن عاصم المنقرى حكيم بنى تميم: «هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد! هذا المثنى ابن حارثة الشيبانى»(٣).

لم يكن الخليفة وهو يسأل ينتظر أو يبتغى إجابة فهو عالم بأنساب العرب إن لم يكن أعلمهم على الإطلاق، ولكأنى به أراد أن يشاركه الناس إعجابه بالرجل؛ فبدلا من أن يقول: يالهذا الرجل، لجأ إلى أسلوب الاستفهام التعجبى ليحصل على إجابة تزيد الناس علما وإعجابا به، وممن تكون الإجابه؟ من حكيم بنى تميم خصوم بنى شيبان قبل الإسلام.

وشيبان فى العرب هى من هى، إنها صاحبة الحدث الأكبر فى تاريخ العرب قبل الإسلام عندما حملت لواء القبائل العربية لتلحق بفارس هزيمة مذلة فى معركة (ذى قار) على مقربة من العراق، ومن هنا كانت جرأة المثنى فى اقتحام العراق، فقد انتصر قومه على الفرس وهم على الشرك، فكيف وهم على الإسلام؟

وبنو شيبان أحد فروع بكر بن وائل بن ربيعة، من معد بن عدنان، وكانت ديار ربيعة بين الجزيرة والعراق إلى البحرين على شواطىءالخليج الفارسى.

وما أن انتهت حروب الردة إلا وسار المثنى حتى قدم المدينة على أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ طالبا منه الإذن بالإغارة على جنوب العراق فقال له: «أمّرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس، وأكفيك ناحيتى» فوافق الخليفة، وعاد المثنى فجمع قومه وأخذ يغير على جنوب العراق.

ولكن المثنى إدرك بحسه العسكرى أن الإمبراطورية الفارسية لم تعد كما كانت كما أن العرب لم يعودوا كسابق عهدهم فى الجاهلية، بل أعزهم الله بالإسلام، والعراق أرض عربية يحتلها الفرس، فلم لا تسترد هذه الأرض وينتشر الإسلام فى ربوعها؟ بل لم لا يدخل الإسلام الأراضى الفارسية نفسها؟!

فبعث المثنى أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر بالمدينة يسأله المدد، ويقول: «إن إمددتنى وسمعت بذلك العرب أسرعوا إلى وأذل الله المشركين، مع أنى أخبرك يا خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ أن الأعاجم تخافنا وتتقينا»(٤).

ويجد الصديق فى نفسه ميلا للاستجابة لرغبة المثنى، كيف لا وقد أخضع الخليفة العرب قاطبة وأجبرهم على الإذعان للحق،

(٣) الاستيعاب (٣/٤٩٦، ٤٩٧).

(٤) فتوح البلدان (٦٠١)، الاستيعاب (٣/٤٩٦، ٤٩٧).

كما عاد الجيش الذى أرسله إلى تخوم الشام لحرب الروم بقيادة أسامه بن زيد، فتجنب الروم مواجهته هربا من نتائج غير مضمونة.

ويستقر عزم الصديق على حرب الفرس وغزو العراق، فكتب إلى خالد باليمامة ـ حيث كان قد فرغ من أمر مسيلمة الكذاب ـ يأمره بالمسير إلى العراق، ولم ينس الصديق أن يرسل إلى المثنى رسالة مع أخيه مسعود جاء فيها:

«أما بعد فإننى قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده، ووازره، وكانفه، ولا تعصين له أمرا، ولا تخالفن له رأيا، فإنه من الذين وصف الله ـ تبارك وتعالى ـ فى كتابه:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾(٥).

فما أقام معك فهو الأمير، فإن شخص عنك فأنت على ما كنت عليه. والسلام عليك»(٦).

ويلتزم المثنى بتعليمات الخليفة ويسرع للحاق بخالد وجيشه الذى كان قد بلغ موضعا قرب الكوفة يقال له: (النباج).

وكان من الطبيعى أن يكون المثنى من أبرز قادة جيش خالد بن الوليد، فالرجل لم يجلس مكتوف الأيدى فى انتظار قدوم خالد إنما قام بدراسة مواقع القوات الفارسية فى أنحاء العراق وأخذ يدس العيون والأعوان هنا وهناك ليوافوه بأخبار العدو أولا بأول، ساعده على ذلك ولاشك انتماؤه إلى بنى شيبان من بكر ابن وائل الذين كانت منازلهم بتخوم العراق وحوض الفرات.

وقد ادرك خالد بن الوليد مكانة المثنى وما يتمتع به من خبرات هائلة فجعله على رأس مقدمة الجيش .

ورغم إغفال الكثير من المصادر لدور المثنى بن حارثة الشيبانى فى حملة خالد بن الوليد على العراق إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن خالد بن الوليد ما كان ليحرز هذه الانتصارات فى هذا الزمن القياسى لولا وجود المثنى بجواره، ففى أقل من أحد عشر شهرا خاض المسلمون خمسة عشر معركة بدأت فى المحرم من عام (١٢) للهجرة وحتى (١٥) من ذى القعدة للعام نفسه أوشك خلالها المسلمون على إخضاع العراق بأكمله.

فعلى سبيل المثال فقد خرج خالد بالجيش من معسكره فى (النباج) إلى (الأُبلة) قاطعا مسافة (٥٠٠) كيلو متر ليصل فى نفس الشهر (المحرم) ليسحق جيوش الفرس فى المعركة الأولى المعروفة باسم (ذات السلاسل) ومنها إلى معركة (المذار) على بعد (٢٥٠) كيلو مترا من موقع الأُبلة، وهذه المعركة كانت فى غرة شهر صفر، ومن المذار يقطع (٣٥٠) كيلو مترا ليلحق الهزيمة بالفرس فى

(٥) سورة الفتح آية (٢٩).

(٦) محمدحميد الله، مجموعة الوثائق (٣٧١).

(الولجة) فى ٢٢ من شهر صفر، ثم إلى (أليس) على بعد (٤٠) كيلو مترا حيث الحق بالفرس هزيمة جديدة فى ٢٥ من شهر صفر[٧]، وبالتالى فقد كان للمعلومات التى جمعها المثنى قبل قدوم خالد عظيم الأثر فيما تحقق من نصر

والذى أقصده من هذا الحديث أن المثنى هو بالتأكيد الذى أعد خط سير العمليات العسكرية فى العراق، بل وموقع كل معركة بالشكل الذى مكن خالد أن يسير من نصر إلى نصر فى زمن وجيز على أرض لم تطأها قدمه من قبل.

وعلى أى الأحوال فقد شارك المثنى بن حارثة الشيبانى فى جميع الوقائع التى شهدتها حملة خالد بن الوليد على العراق ومنها: (ذات السلاسل) و (المذار) و(الولجة) و (أليس) و(أمغشيا) و (المقر) ثم الحدث الأعظم على الإطلاق آنذاك وهو فتح (الحيرة) حاضرة العراق، ثم (المصيخ) ثم (الثنى والزميل) و(الفراض)[٨].

على أن الأمور لم تسر على ما هى عليه، حيث قرر الخليفة الصديق أن موقف جيوش المسلمين فى الشام بات يحتاج إلى جهود خالد بن الوليد، فكتب له يأمره: «أن سر بنصف الناس حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا»[٩].

وبدأ خالد بالفعل يستعد للرحيل عن العراق، وشرع يقسم الجيش إلى شطرين كأمر أبى بكر، شطر يخرج معه وشطر يبقى مع المثنى، وبدأ بأصحاب رسول الله - ﷺ - فاستأثر بهم وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة، ثم نظر فيمن بقى، فاستأثر بمن كان قدم على النبى - ﷺ - وافدا، وترك للمثنى أعدادهم من أهل القناعة، ثم قسم الجند بعد ذلك نصفين.

ورفض المثنى قسمة خالد قائلا: «والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر كله فى استصحاب نصف الصحابة، أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم، فكيف تعرينى منهم؟!» فترك خالد للمثنى نخبة من الصحابة حتى أرضاه، وكان فيهم: فرات بن حيان العجلى، وبشير بن الخصاصية، والحارث بن حسان، ومعبد بن أم معبد الأسلمى، وعاصم بن عمرو التميمى[١٠].

وعكف المثنى على إعادة تنظيم جيشه عقب رحيل خالد، ولم يمهله الفرس كثيرا حيث وجه ملكهم جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل يقودهم (هرمز جاذوية) ومعهم فيل يتقدمهم، فخرج المثنى للقائهم فى سواد ما وراء الفرات وكان على ميمنته أخوه المعنى وعلى الميسرة أخوه مسعود، وزحف بجيشه حتى بلغ (بابل) حيث وصلته رسالة من ملك الفرس (شهر براز بن أردشير) جاء فيها:

«من شهربراز إلى المثنى، إنى قد بعثت إليك جندا من وخش أهل فارس، إنما هم رعاة

---

(٧) أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٨) الطبرى (٤/٥:٢٠).

(٩) الطبرى (٤/٤٢).

(١٠) المصدر السابق.

الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم »
فأجابه المثنى برسالة عكست عمق إيمانه، وعظيم فطنته، وصدقه، ودراية وخبرة بالسياسة والملوك:

« من المثنى إلى شهر براز، إنما أنت أحد رجلين، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك، وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليه، فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير»

فتطير الفرس وتشاءموا من رد المثنى وقال بعضهم لـ(شهر براز): « جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به إليهم، فإذا كاتبت أحدا فاستشر» وشهدت (بابل) نصرا مؤزرا لجيش المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى فى أواخر ربيع الأول ١٣ هـ وقَتَلَ المثنى ورجاله الفيل الذى جعله الفرس فى مقدمة الجيش لإرهاب المسلمين ، وقُتِلَ من المجوس مقتلة عظيمة.[(١١)]

ويستشعر المثنى حرج موقفه وأنه لا يستطيع أن يحتفظ بما تحت يده بإمكانياته التى صارت محدودة بعد أن تم شطر جيش العراق شطرين، فسافر إلى المدينة المنورة ليعرض الموقف على الخليفة الصديق، فاستدعى الصديق- وكان مريضا مرض الموت- عمر بن الخطاب، وأوصاه قائلا: «إن مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى»[(١٢)].

وينتقل الصديق إلى جوار ربه وينفذ أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - وصيته،[(١٣)] ويجهز خمسة آلاف مقاتل على رأسهم أبو عبيد بن مسعود الثقفى الذى صار قائدا على المثنى الذى لم يجد غضاضة فى هذا الأمر وامتثل طائعا لأمر الخليفة فهو ليس باحثا عن إمارة وزعامة وإنما كان الجهاد والفتح شاغله الأكبر.

وأبلى أبو عبيد البلاء الحسن فى حرب الفرس، وكان المثنى هو مستشاره الأول، إلا أنه ما لبث أن ارتكب خطأ فادحا عندما رفض مشورة المثنى فى معركة الجسر، ورماه بالجبن.

ذلك أن (بهمن جاذويه) قائد جيوش الفرس كان قد زحف على رأس جيش جرار وقف به على ضفة نهر الفرات فى حين كان أبو عبيد واقفا بجيشه على الضفة المقابلة وبينهما جسر، ولابد من عبور واحد من الطرفين للآخر، فأرسل (بهمن) أحد رجاله إلى أبى عبيد يقول: «إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وأما أن تدعونا نعبر إليكم».

فتمسكك أبو عبيد بالعبور أولا ورفض نصيحة المثنى الذى حضر مع خالد بن الوليد موقفا مشابها فى معركة (الفراض) عندما وقف الجيشان وبينهما نهر الفرات فأرسلوا إلى خالد : « إما أن تعبروا إلينا أو نعبر

(١١) نفس المصدر السابق.

(١٢) المصدر السابق ص (٤/٦٣، ٦٤).

(١٣) انظر عدد شهر المحرم سنة ١٤٢٢هـ من مجلة الأزهر.

إليكم» فقال خالد: «بل أعبروا إلينا» وكان عبور الفرس أولا أفضل لخالد حتى يقطع عليهم خط الرجعة، فطلبوا من خالد أن يتنحى حتى يعبروا، فقال: « لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا»عندها قال الفرس لبعضهم البعض: «احتسبوا ملككم! هذا الرجل يقاتل عن دين وعقل وعلم، والله لينصرن ولنخذلن»[١٤] وبهذا الفكر الثاقب كانت الغلبة لخالد بن الوليد، ووعى المثنى درس هذه المعركة جيدا وحاول أن ينقل خبراته منها إلى أبى عبيد إلا أنه أبى، فكانت المأساة وحاقت بجيش المسلمين هزيمة مروعة، واستشهد أبو عبيد بن مسعود الثقفى وانتهى اللواء إلى المثنى وكان المسلمون يتدافعون نحو الجسر طلبا للفرار، فرأى ذلك أحمق من بنى ثقيف يدعى عبدالله بن مرثد الثقفى فبادر إلى الجسر فقطعه، ووقف يمنع الناس من العبور ويقول لهم: «موتوا على مامات عليه أمراؤكم أو تظفروا» فى حين اشتد ضغط الفرس على المسلمين الذين هبطت معنوياتهم فتواثبوا فى النهر، وغرق من لم يصبر بينما أسرع القتل فيمن صبر.

أما المثنى فقد بذل جهدا فائقا يفوق الوصف من أجل تأمين انسحاب الجيش بعد إصلاح الجسر، حيث وقف المثنى مع، عاصم ابن عمرو، ومذعور بن عدى، والكلج الضبى، وعروة بن زيد الخيل، وسليط بن قيس الأنصارى، وغيرهم من فرسان المسلمين وأصحاب رسول الله - ﷺ -،[١٥] وصاح المثنى فى جموع المسلمين يهدئ روعهم: «أيها الناس أنا دونكم فاعبروا على هينتكم، ولا تدهشوا، فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تغرقوا أنفسكم» ووقف المثنى وأصحابه درعا منيعا يحمى انسحاب المسلمين حتى تم له ما أراد، ورجل آخر غير المثنى ما كان ليلتمس غير الفرار فقد تسلم قيادة جيش منهزم ولا حرج عليه ولا تثريب، ولكن هيهات إنه المثنى القائد الذى يكون أول من يهاجم وآخر من ينسحب.

وتصل أصداء الكارثة إلى المدينة فيغتم عمر لما حدث ولكنه يعلن النفير ويدعو الناس للجهاد، وبعث للمثنى كل من وافاه

أما المثنى فما لبثت معنوياته أن ارتفعت بعدما لمس عزم الخليفة على مواصلة الجهاد فلم يدخر جهدا فى إعاده حشد وتعبئة قواته استعدادا ليوم الثأر، وقد كان.

أما الفرس فقد علموا بالتعزيزات التى بعث بها الخليفة للمثنى فقرروا أن يبادروا بالهجوم وألا يمكنوا المثنى من تنظيم صفوفه، ولكن خاب ظنهم، فلم يضيع المثنى لحظه واحدة.

وعند نهر الفرات كان لقاء الثأر، فى موضع يُقال له (البويب) فى رمضان من عام (١٣) للهجرة وقف الفرس بجموعهم تتقدمهم الفيلة وعلى رأسهم قائدهم (مهران) وعلى ضفة النهر الأخرى وقفت

(١٤) الطبرى (٤/٢٥).

(١٥) الطبرى (٤/٦٧)، فتوح البلدان (٢٥ ،٦ ،٦٢٦).

جـيـوش المسلمـين والمثنى يتـأمل مـسـرح العمليات ويتذكر معركة (الجسر)

أقام المثنى على موقعه حتى كاتبه مهران: «إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم» وكانت أوامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ألا يعبر المسلمون بحرا ولا جسر إلا بعد ظفر، وما كان للمثنى أن يعيد خطأ أبى عبيده، فقال لرسول الفرس: (اعبروا).

والتفت المثنى إلى رجاله يخطبهم ويحمسهم فقال: «إنكم صوام، والصوم مرقة ومضعفة، وإنى أرى من الرأى أن تفطروا ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم»

فأفطروا، وكان يمر بصفوفهم، وقد اصطفت كصفوف الصلاة فأبصر برجل يستوفز ويستنتل من الصف، فقال: «ما بال هذا؟» قالوا: «هو ممن فر من الزحف يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل» فقرعه المثنى بالرمح، وقال: «لا أبا لك. إلزم موقفك، فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل» قال: «إنى بذلك لجدير».

وامتطى المثنى فرسه «الشموس» وكان لا يركبه إلا لقتال، وطاف بين صفوف الجيش وهو فى درعه، ووقف على الرايات راية راية يحض رجاله ويحرضهم يقول لكل منهم: «إنى لأرجو أن لاتؤتى العرب من قبلكم. والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم» فيجيبونه بمثل ذلك.

ثم قال لهم: «إنى مكبر ثلاثا فتهيأوا، ثم احملو مع الرابعة، وكبر المثنى أول تكبيرة فبدأ الفرس زحفهم، وعاجلوا المسلمين، وأقبلوا نحوهم فى صفوف ثلاثة مع كل صف فيل ومشاتهم أمام فيلهم ولهم هدير عال.، فقال المثنى لجنوده: «أن الذى تسمعون فشل، فالزموا الصمت وائتمروا همسا»

والتحم الفريقان بعد أول تكبيرة للمثنى الذى أخذ يرقب قواته ويوجهها أثناء القتال وكلما لمح خللا فى الصفوف أرسل لمن كان منهم ذلك من يقول لهم: «إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم» فما يكون منهم إلا أن يقولوا: «نعم»، وجعل قادة الجند يرقبون المثنى لينفذوا توجيهاته أولا بأول.

وحمى وطيس المعركة وقال مسعود بن حارثة قائد مشاة المسلمين لجنده: «إن رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه، فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف، الزموا مصافكم واغنوا غناء من يليكم».

وكأن الرجل كان يحسب حساب ما سيقع له فقد أصيب مسعود فتضعضع من معه لإصابته وهو ضعيف قد ثقل من الجراح فقال: «يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله لا يهولنكم مصرعى»

ويدرك المثنى مايحدث فيصرخ فى الجيش: «يامعشر المسلمين لايرعكم مصرع أخى فإن مصارع خياركم هكذا»[١٦].

(١٦) الطبرى (٧٥/٤).

ويحمل المسلمون حملة صادقة على الفرس ويأخذ المثنى مكانه فى قلب الجيش صارخا: «أنصروا الله ينصركم» وأخيرا تضعضعت صفوف الفرس الذين شرعوا نحو الفرار يلتمسون الجسر ليعودوا أدراجهم فسابقهم المثنى إليه ليقطع عليهم خط الرجعة فتداولتهم خيل المسلمين وتبعتهم إلى الليل ومن الغد إلى الليل حتى أبادوهم(١٧).

ولا يمنع النصر العظيم المثنى من أن يلوم نفسه على قطعه خط الرجعة على الفرس، بل ويندم على ذلك أشد الندم فقال: «لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم، فإنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس، فإنها منى زلة، لا ينبغى إحراج أحد إلا من لايقوى على امتناع».

ولم يكتف المثنى بهذا النصر المؤزر الذى ثبت أقدام المسلمين إلى حد كبير فى العراق ومهد الطريق نحوا انتصار المسلمين الأعظم فى القادسية وسقوط المدائن، حيث أخذ المثنى يجوب أرجاء العراق شرقا وغربا، شمالا وجنوبا يغير على أسواق الفرس وتجارتهم ومن تعاون معهم من العرب فأصابهم بالهلع والخوف وبارت تجارتهم وكسدت.

ولم يكن المثنى هو ذلك الرجل الباحث عن المجد والشهرة، فعلى الرغم مما أحرزه من تقدم وانتصارات هائلة على الفرس إلا أنه أدرك أنه لن يستطيع بما تحت يده من قوات أن يستمر فى التوغل في أرض العراق أو حتى يحتفظ بمكاسبه فقرر أن يحفظ للمسلمين جيشهم إلى أن يكتمل له من العدد والعدة ما يمكنه أو يمكن من يأتى بعده من مواصلة المسيرة فانسحب بجيشه إلى (ذى قار) خارج حدود العراق فى أواخر ذى القعدة من عام ١٣ للهجرة، وفى نفس التوقيت جاءه أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: «أما بعد فأخرجوا من بين ظهرى الأعاجم وتنح إلى البر وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم وادع من يليك..»(١٨).

ورغم الجراح التى اثخنته، أعاد المثنى تنظيم صفوف جيشه على النحو الذى أمر به الخليفة، وكتب إلى كل من يليه من قبائل العرب ليوافوه بكل قادر على حمل السلاح.

فلما أحس البطل بثقل جراحه ودنو أجله حرص على أن يكتب وصيته إلى من سيحمل الراية من بعده بأن يقاتل الفرس على حدود أرضهم وليس فى داخلها وهكذا كرس بطلنا وقته كله حتى وهو على فراش الموت فى سبيل إعلاء راية الحق.

---

(١٧) المصدر السابق.

(١٨) الطبرى (٨٤/٤).

قطرات أدبية

حول الشعر العذرى

للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

تنسب حركة الشعراء العذريين إلى قبيلة بنى عذرة إحدى قبائل قضاعة التى كانت تنزل فى وادى القرى شمالى الحجاز، لأن شعراء هذه القبيلة توفروا على هذا اللون من الإبداع الشعرى، فتغنوا حبهم المثالى المعذب، وهاموا على وجوههم فى إثر من يحبون، وظلوا على ولائهم البادى لقيم الحب الطاهر العفيف، ولم يلوثوا هذه العاطفة النبيلة بعرامة الشهوة ولا بجسدية المتاع.

وقد شاع مثل هذا اللون فى مثل هذه البيئة البدوية الساذجة التى نأت بنفسها عن جواذب الفتون بما أشاعته الحضارة فى مكة والمدينة من لهو، وصار تقليدا فنيا أن يحب الشاعر هذا الحب المحكوم بالحرمان منذ البدء، وأن يقضى سحابة عمره متطلعاً إلى سماء لا يطولها على الإطلاق.. قيل لرجل: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا أحبوا ماتوا، فقالت جارية سمعته: عذرى ورب الكعبة!! ولأن الجمال في بنى عذرة والعشق كثير، فقد قيل لأعرابى عذرى: ما بال قلوبكم تنماث كما ينماث الملح فى الماء؟! أما تجلدون؟ قال: إنا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها!!

وتحت راية هذا الحس العذرى فى الحب نسج الرواة حول أبطال عديد فى القصص الغرامية ما شاء لهم خيالهم الرحب من قصص وأساطير كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون، ولعل قصص هؤلاء ما تزال معينا لطوفان من عواطف الحب والحرمان الذى سجل انتصاره الفنى من خلال شعر رائع كثير يتوهج بالمعاناة والتوتر العاشق ويجسد ملامح هذا الاتجاه.

لم يكن كل شاعر من هؤلاء الشعراء يرى غير معشوقته وحدها، وهذه الواحدية فى الحب تعبر عن تماسك روحى لا يتاح إلا لكبار القلوب.

يقول الدكتور زكى مبارك (وللتوحيد فى الحب نظائر فى أكثر الآداب ولكنه فى الأدب العربى أظهر وأوضح لأنه نشأ فى بيئة مفطورة على إيثار التوحيد.. إن الشرك فى الحب قد يعين على فهم الألوان المختلفة

من طبائع الملاح، وهذا ما قصد إليه فريق من شعراء الفرنسيس والألمان.. أما التوحيد فى الحب فيوجه العاشق إلى درس نفسه بقوة وعمق ليرى مبلغ قدرته على إدراك ما فى الروح من سجاحة الهدى وشراسة الضلال.. المشركون بالحب درسوا طبائع متعددة سمح الشرك بدرس تقلبها دراسة وافية، ولا كذلك الموحدون فى الحب فقد درسوا نفوسهم فى صحبة أحبابهم دراسة بلغت الغاية فى محاولة التعرف إلى سرائر الأرواح).

الحب العذرى إذن حقيقة واقعة وليس افتراضا متخيلاً، هو حقيقة لأنه تعبير عن أشواق الروح وتعاليات الوجدان وليس بالجسد وحده يحيا البشر. وهو حقيقة لأنه تجسيد للمثال الذى يحلم الشاعر بتحققه ليجعل الجمال غير الممكن ممكناً على الأرض.. وهو حقيقة لأنه يمثل نصف طاقة الإنسان الحى وهو طاقة التخيل والوهم.. وهو حقيقة لأنه ليس تجريدا مطلقا كما قد يظن، ولكنه (معركة عنيفة تقع فى ميدانين: الأول ميدان الصراع بين الشاعر وهواه، والميدان الثانى ميدان القتال بين الشاعر ومن يهواه.

وهو فى الميدان الثانى لا يطارد فريسة تنال بأيسر الجهد، وإنما يطارد ظبية عصماء لا تنال إلا باقتحام الأهوال فوق قمم الجبال).

وإذا كان كثير من الباحثين يرجع هذه الظاهرة، ظاهرة الحب العذرى، والتغنى به شعراً إلى يأس شعرائه من المشاركة السياسية على مستوى العصر، وإلى ابتعادهم النسبى عن بيئتى مكة والمدينة اللتين كانتا تعجان بحياة الفراغ والغناء فإن الباعث هنا لا يهمنا كثيرا بقدر ما يهمنا الشعر ذاته، وبقدر ما يهمنا ما ينطوى عليه هذا الشعر من خصائص فنية وجمالية معينة تضعه فى مناطه الحقيقى من حركة الشعر العربى فى القديم والحديث.

وقد يرى بعض الباحثين أن هذا اللون من الشعر الغزلى يتسم بكثير من عمومية الإحساس والمثال جميعاً، ويتسم كذلك بكثير من التشابه النمطى فى التعبير عن هذا الحس وهذا المثال معاً..

بمعنى أن عواطف أى شاعر من هؤلاء الشعراء توشك أن تكون هى عواطف الشاعر الآخر، وأن معشوقة شاعر من هؤلاء الشعراء توشك أن تكون معشوقة الشاعر الآخر، وأن الصيغة الفنية التى يعكس بها هؤلاء الشعراء تجاربهم الذاتية وأشواقهم الروحية توشك أن تكون صيغة واحدة أو قريبة من الواحدية.

إلا أننا (مع التسليم بصوابية بعض هذه الملاحظات) لا نستطيع أن نسلم بها هكذا على نحو من الاستغراق والشمول، لندين بها مرحلة شعرية من أخصب مراحل شعرنا العربى، فكما أن هؤلاء الشعراء الغزليين تشابهوا فى التعبير عن عوالمهم تشابهاً قريباً أو بعيداً، هنا وهناك فقد تخالفوا كذلك فى التعبير عن عالمهم تخالفاً يؤكد ذاتية الحس واستقلالية التعبير.

ومن قال إن التشابه الفنى والعاطفى يمكن أن يدين حركة فنية معينة؟؟ إن هذا التشابه وحده هو الذى يؤكد وحدة العصر وتاريخية الإبداع، بمعنى أننى أعيش عصرا تعيشه أنت، وأعانى هموم مرحلة تعانيها أنت، فإذا عبر كلانا عن إيقاع هذا العصر وضغوط هذه الهموم، فلابد أن مشابه كثيرة تفرض نفسها على حركتى الإبداعية كما تفرض نفسها على حركتك الإبداعية كذلك، مما يؤكد للمتلقى بعد عديد من العصور أننى وأنك عشنا معاً هموم مرحلة واحدة، وعرفنا طريقنا إلى التعبير عن هذه الهموم من منظور فنى يتشابه من بعض الوجوه.

ولعل هذا الالتقاء فى الحس (والتكنيك) عند شعراء الغزل فى عصر بنى أمية ينهض دليلا واقعا على

تاريخية أولئك الشعراء الذين أبدعوا هذا الشعر، مهما حاول غير واحد من الباحثين أن يرفض حتى مجرد وجودهم التاريخى، كالدكتور طه حسين، الذى أصرّ على نفى الوجود لكثير من هؤلاء ولكثير -أيضا- من غير هؤلاء.

صحيح أن القدماء أنفسهم شكوا فى تاريخية الوجود المادى لشاعر مثل قيس بن الملوح، أو مجنون بنى عامر حتى قال أحدهم: (سألت بنى عامر بطنا عن مجنون بنى عامر فما وجدت أحداً يعرفه) وحتى قال آخر: (رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا بالاسم: مجنون بنى عامر، وابن القِريَّة، وإنما وضعهما الرواة) .. ولكنه من الصحيح -أيضا- أن صاحب الأغانى نفسه فى كتابه قال: إن المجنون هو: قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس بن عدى بن ربيعة الخ ويستدل على أن اسمه قيسا بقول صاحبته ليلى:

ألا ليت شعرى والخطوب كثيرة
متى رحل قيس مستقل فراجع

ثم يسوق عديداً من الأقوال تجمع على أن اسم المجنون هو: (قيس بن الملوح) لقد ناقشت هذه القضية فى كتابى (دراسات فى الأدب) وقلت فيما قلت:

(إن اختلاف الرواة حول شاعر معين، اسماً أو وقائع حياة، لا يعطى الأجيال اللاحقة إمكان رفضه أبدا، إننا نختلف حول هذه المحاور بالنسبة لشعراء المرحلة الذين سبقونا إلى العالم الآخر، ومع ذلك فلسنا نبيح لأنفسنا أن نسرف إلى درجة إنكار الوجود).

كما قلت كذلك: (ولست أدرى لماذا تعجل الدكتور طه حسين الحكم فى قضية الشعر المنسوب إلى قيس بن الملوح، لقد عودنا الباحث الرائد أن يطيل التأمل فى كل القضايا، وأن يصدر الحكم بعد انسياب كامل مع كل فتات القضية حتى يستوعبها تماماً، ولكنه لسبب لا أدرى ما هو تعجل الحكم فى قضية شعر شاعرنا المخبل ولم يزد على كونه قعد لنظرية رائعة، إلا أنه بالتأكيدلم يستطع أن يقوم بدراسة تطبيقية على هذه النظرية ترمى بشاعر الغزل العذرى إلى دوائر الظلمات).

وقلت: (فحقيقى أن كل شعر لابد أن يشى بشاعره، ولاسيما شعر العاطفة الغنائى ولكن طه حسين لم يقل لنا كيف أن شعر قيس لم يعكس لنا شخصية قيس؟؟ وحقيقى أن شعراً تتفاوت سطوحه وأعماقه تفاوتا هائلا يشى بأن قائل هذا الشعر إما أن يكون أكثر من شاعر واحد، وإما أن يكون واحداً من أولئك الوضاعين الذين ينحلون شعر فلان لفلان من الناس.. ولكن طه حسين يؤكد هو نفسه بعد معاناة بحث ودرس لها فى هذا الصدد بسخاء، كما يقول بأن (هذا الشعر الذى يضاف إلى المجنون لا يخلو من أن يكون شعراً قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه إلى المجنون) وهذا اعتراف بأن كل هذا الشعر (لشاعر معروف وليس لشعراء كثيرين) ..

فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا لا يفترض الدكتور أن يكون هذا الشاعر هو قيس بن الملوح الذى ورد خبره فى أكثر من مرجع وعلى أكثر من لسان، وليس هو هذا الوهم المتخيل الذى يفترضه الباحث افتراضاً).

ولعلنا من خلال الشعر نفسه نستطيع أن نستروح هذا المتاع الفنى الذى يهبه شعر هؤلاء الشعراء، غير ناظرين إلى هذا الخلاف الأكاديمى المعطل، الذى يصيب المتلقى بالجمود والترقب والانحسار، بدلا من إتاحة كل الآفاق أمامه بلا حدود حتى يعبر من حاجز إلى ساحة، ومن سور إلى حديقة، ويعيش فى جنة الشعر والحب بلا قيود!!

عبد العزيز البشرى في المرآة

للأستاذ/ محمد مصطفى البسيونى

اخترتَ يومَ الهول يومَ وداع	ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد	قدماً تشيع، أو حفاوة ساع

أجل من مات فى فزع القيامة لم يجد قدما تشيع، كما قال شوقى فى رثاء المنفلوطى. إذ أن فقيد البيان العربى الأستاذ عبد العزيز البشرى قد رحل عن الدنيا منذ أكثر من نصف قرن فى هول القيامة، والصحف والمجلات مشغولة بأنباء الحرب العالمية الثانية، فلم تفسح صدرها حينئذ لتحليل أدبه، ولم تسل أنهارها بعبرات الحزن على فقده، وكنا نظن أن الرجل العظيم سيجد إنصاف معشره فيما يتلو الحرب من سلام هادىء مريح. ولكن أكثر من نصف قرن قد مضى بعد رحيله فى مارس ١٩٤٣م دون أن يأخذ الكاتب الكبير بعض حقه من الدراسة، ودون أن تأخذ الأجيال المعاصرة حقها من الاطلاع على سيرة هذا العملاق، والتعرف على مسيرته الفكرية والأدبية إذ أننا لم نطالع فى ترجمته وتحليله غير ما كتب عنه فى سلسلة أعلام العرب بمصر، وهى كتابة إلى السرد الإخبارى أقرب منها إلى التشريح الفنى الذى يجلو أمام أبناء الجيل ذلك الكاتب الألمعى الذى أحدث فى الأدب العربى أسلوباً طريفاً يهز قارئه إمتاعاً، ويرتفع به إبداعاً، ويهب على روحه كما يهب نسيم الروض مؤرجاً بالعبير..

إننى لا أقرأ البشرى مرة إلا ويتجلى أمامى طيف ابن الرومى، وصورة الجاحظ فلقد كان ابن الرومى يرسم الصورة بشعره فتحس أنك أمام مصور بارع قدير، ينقل إليك اللوحة الفنية فتكاد ترى المعانى شاخصات تتجسد، ونماذج تتعدد.. وكأنك إزاء إطار وألوان، لا أمام روى، وأوزان.

هذا ابن الرومى، أما الجاحظ فربُّ الأقصوصة والفكاهة، والبسط والتفريع دون منازع، وحسبك ما نعرفه عن كتاب «البخلاء» فقد جاءت أقاصيصه فيه أدبا استحال إلى طرب!! ولذلك كان البشرى إلى الجاحظ أقرب وأدنى.. ولا غرو فقد تأثر الرجل بسلفه أشد التأثر، وكأن روح الجاحظ قد هامت طيلة هذه القرون حتى اطمأنت أخيراً فى البشرى، جسدا يتحرك وعقلا يفكر، وقلما يعبر، ولسنا بهذا ندعى للرجل جديدا، ولسنا نحكى عنه ما لم يعرفه هو عن نفسه، فقد كان البشرى قديراً فى تحليل نفسه كما كان قديرا فى تحليل الناس، وقد سبقنا إلى إيضاح وجوه المشابهة بينه وبين الجاحظ فى حديث له مع صاحب «المعرفة» عن الأدباء الذين تأثر بهم فذكر على رأس هؤلاء الأدباء الجاحظ، وعنه يقول: «أُقدّر الجاحظ، واستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثره، وارتضى صحبته، وأفاخر بها، وأحرص عليها.. لقد عرفته منذ أمد بعيد. عرفته من الساعة التى أدركت فيها أثرا للقراءة القائمة على الدرس والتحقيق» ثم يركز البشرى على الجانب الفكاهى عند الجاحظ، وهو ما يفسر لنا غلبة التبكيت الواضح، والتهكم اللاذع على كتابة البشرى - فيقول: «إن الجانب الفكاهى ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل - الجاحظ - الفائقة على التهكم الواضح، والتهكم كلما أراد أن يسخر، وكلما شاء أن تخز نقداته فى القلوب»

وقد كان كاتبنا الكبير يسمى الجاحظ أحياناً بالإمام فى بعض حديثه عنه بمقدمة كتابه «المرآة»، وفى «المرآة» طابع الجاحظ ومنحاه لايكاد يختلف فيهما اثنان.

وليس من شك فى أن هذا كله يشير إلى أن مؤلفات الجاحظ كانت ذات مكان بارز فى ثقافة البشرى، فلا جرم أنه قرأ كتاب «الحيوان» وأعجب - أيضاً - بكتاب «البخلاء» وإن لاحظ عليه أحياناً أنه قد أسرف فى وصف بخلائه إسرافاً شديداً.

وقارىء البشرى والجاحظ معا يحس جانب التأثر والتأثير إحساساً متجسداً يُرى بالعين، ويُلمس باليد كما سبق أن ألمعت إلى ذلك فأنت إذا قرأت كلام الجاحظ عن الكندى أو أحمد بن عبدالوهاب، ثم قرأت بعد ذلك حديث البشرى عن أحمد زيور، ومحجوب ثابت تأكدت أن روحا واحدة كانت على ضفاف دجلة فى العصر العباسى أخذت تراوح ضفاف النيل فى العصر الحديث! وإذا كان الجاحظ قد أضحك الثكلى بما حكاه عن الكندى، فمن الذى لايطرب لما حكاه عبدالعزيز عن محجوب إذ يقول عنه «فى المرآة»: «لاشك فى أن الدكتور محجوب ثابت يُعَدُّ بحق فى ميراثنا القومى، ولو - لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من (دكتور محجوب ثابت) بأى طريقة من

الطرق. نعم هو فى ميراثنا القومى، لايقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء، أصبح على الزمان جزءاً من تقاليدنا الأهلية، كحفلة المحمل، ووفاء النيل وركبة الرؤية، وشم النسيم. ولما فكر المرحوم محمود بك رشاد، فى جعل العلم المصرى مُحلًّى بصور بعض الآثار القديمة، فرعونية وإسلامية، لم ير المصور بدا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول، وجامع برقوق، وحضرة سيدى أبى السعود، صورة الدكتور محجوب ثابت!!! والدكتور محجوب ثابت فى المصريين، كانجلترا فى الأمم، كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لاتنقضى على وجه الأيام!» هذا بعض ما قال عن محجوب.

أما حافظ إبراهيم فمع تمكنه من نفس صديقه البشرى بحيث كانا كنديمى جذيمة حقبة من الدهر لا يكادان يفترقان فى صباح ومساء مصداقاً لقول الشاعر العربى:

وكنا كندمانى جذيمة حقبة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

ومع هذه المودة العريقة فقد أحس شاعر النيل من نار عبدالعزيز ما أحس أحمد بن عبدالوهاب من نار الجاحظ حين تعرض إلى تصوير هيكله الجسمى فقال البشرى فى سخرية وإمتاع: «حافظ إبراهيم شاعر.. فهو يحب الجمال، ويجتمع له، ويكره القبح. وينعى على أهله. يجابه بذلك مجابهة، لايتقى فى القول ولايتحرف. وما طلع عليه فتى دميم الخلق غير مستوى معارف الوجه، إلا قال له: يافتى! ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤد مهرا.. وإذا اطردت نظرية حافظ، فلا شك أن المرحوم والده تزوج على الطريقة الإفرنجية فلم يدفع مهراً بل هو الذى أخذ «الدوطة»!! هو جهم الصوت، جهم الخلق، جهم الجسم، كأنما قُد من صخرة فى فلاة موحشة، ثم فكر فى آخر ساعة فى أن يكون إنساناً فكان.. والسلام. أما ما يُدعى فمه، فكأنما شُق بعد الخلق شقا! وأما عيناه... فكأنما دقتا بمسمارين دقا، وأما لون بشرته ـ والعياذ بالله! ـ فكأنما عهد به إلى «نقاش» مبتدئ.. قد تشابهت عليه الأصباغ والألوان.. فذاب أصفرها فى أخضرها فى أبيضها فى بنفسجيها.. فخرج مزجاً من هذا كله، لا يرتبط من واحد بسبب، ولا يتصل بنسب... وإنك لو نضوت عنه ثيابه، وألبستَه دراعة من دونها سراويل، وأفرغت عليه من فوقها جبة صافية، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات، لخلته من فورك دهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين، فإذا جردته كله، وأطلقته، فى البر.. حسبته فيلا، أو أرسلته فى البحر.. ظننته درفيلا..!!

وإذا قال هذا عن حافظ فما ظنك بما حكاه عن حسن غندر، وفكرى أباظة، ونافع باشا، والشيخ أبى الفضل؟ لك أن تقرأ البشرى فى ذلك كله لترى أنك تنادى الجاحظ من مكان قريب.

ومن الواضح أن كتب الجاحظ لم تكن هى كل ثقافة البشرى، غير أنها أنست لديه طابع الدعابة والسخرية، وموهبة المرح والفكاهة. فصادفت فيه مكمن الخصوبة الحية فأينعت... كما صادف منها المنهل العذب فتمثل بعد ارتواء..!!

وإذا كان الجاحظ شيخ البشرى فى القديم، فإن محمد المويلحى –رحمه الله– هو شيخ البشرى فى الحديث.. إذ كانت صحيفته الذائعة «مصباح الشرق» أثيرة لدى البشرى الناشئ يجرى فى أنهارها فيض من كلمات المويلحى التهكمية الساخرة حين يصبها فى قالب من البلاغة والجزالة، ويضعها فى إطار من الإشراق والأناقة.

ولقد قال البشرى عن «مصباح الشرق» أنها أمست مصباحاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول، أو ألموا بنظم الكلام..

وللبشرى ترجمة مستفيضة للمويلحى بالجزء الأول من «المختار» ألمع فيها إلى بعض ما نقول، فذكر فضل أستاذيته عليه بما لا يحتاج إلى تعليق.. ولو لم يشر عبدالعزيز إلى تأثره بالمويلحى فيما ساقه من ترجمته بالمختار لما سكت ناقدو الأدب المعاصر عن تسجيل ذلك.

فإن الصور الاجتماعية البارعة فى حديث عيسى بن هاشم قد انتقل صداها القوى إلى صور «المختار» و«المرآة» ولسنا نقول: إن الأسلوبين يتقاربان تقاربا دانياً فهذا ما لا يوحى به سجع المويلحى وترسّل البشرى، ولكننا نقول: إن الصور الاجتماعية لدى المويلحى قد ظهرت فى ثوب آخر لدى عبدالعزيز مع اتحاد المصدر المؤثر، ولك أن تقرأ فى حديث عيسى بن هشام غرائب المحكمة الشرعية، وأفانين رجال الإدارة، وغرائب أولاد الذوات ثم اقرأ ما خاض فيه قلم البشرى عن ذلك، لتعلم أن الأستاذ قد وجه التلميذ إلى طريق تتعدد صوره، وتنفرج زواياه عن كل نادر غريب!!.

ولئن غلبت الثقافة الأدبية على كاتبنا الكبير فقد تأثر أيضاً بالثقافة الدينية، وذلك طبيعى لمن نشأ فى بيت عريق عرف بالعلم والدين، إذ كان أبوه الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق، الذى تقلد هذا المنصب الإسلامى الرفيع مرتين عام ١٨٩٩ وكان أستاذ المالكية فى عصره، وله فى حوادث جيله سوابق ذائعة دوّنها التاريخ، ومآثر أدبية منها (وضح المنهج) تعليقاً على (نهج البردة) لشوقى.

وقد كان من اتساق الأمور أن يلم البشرى فى صباه بمبادئ القراءة والكتابة فى «الكُتَّاب» على نحو ما كان يفعل لداته حينذاك، ثم يحفظ القرآن الكريم، ولقد أوشك أن ينتظم فى المدرسة الابتدائية المدنية بعد ذلك، ولكن أباه - شيخ الإسلام - أبى إلا أن يدخل الأزهر وأن يدرس علوم الدين فكان

ما أراد حيث تلقى الدرس على أساتذة الأزهر المرموقين آنذاك مثل الشيخ عليش والشيخ الباجورى.. وقد هيأته هذه الدراسة لشغل بعض الوظائف الرسمية فقد تولى القضاء الشرعى، كما عُين مراقباً لمجمع فؤاد الأول للغة العربية.

ولسنا نرى أن الثقافة تقاس بالتحصيل المدرسى فحسب، بل بمنابع أخرى تتمثل فيما يحيط بالمرء من ظروف، وما يتفاعل به من أحداث.. إذ لا شك أن ثقافة البشرى التى عبرت عن نفسها فى مقالات تكتب، وأحاديث تذاع، لها أصول اجتماعية وسياسية من طبيعة جيله المعاصر، فقد أدرك الرجل منذ حداثته أحداثاً سياسية، وتقاليد اجتماعية، ونهضة أدبية، ولعل من أهمها إنشاء الحزب الوطنى سنة ١٩٠٦ بزعامة خطيبه المفوه المجلجل مصطفى كامل، ثم اشتعال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وما وليها من قيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول، مما أعقب ضجة أدبية حافلة رنت بها المنابر خطابة، وسالت بها الصحف كتابة، وغردت بها الأقلام شعرا رنان القوافى صادح الأبيات، وذلك كله بعض ما شارك فيه البشرى بدءا وختاما...

ولا ننكر مع هذا كله طبيعة المجتمع المصرى، وعاداته، وتقاليده المختلفة، مما ساعد البشرى على إتقان الصور، وابتكار الموضوعات، فكان قلمه البارع كالعدسة الدقيقة التى لا تسجل ما ترى العين المجردة وحدها، بل تضيف إليه من التحليل والتعليل ما يجعل الصورة فوارة الدم، قوية الحركة، تجيش بالحياة.

وإلى جانب هذه الثقافة العربية ذات الروافد الإسلامية، والأدبية والاجتماعية، كان البشرى على بعض الحظ من الثقافة الغربية، وهى وإن كانت قليلة الكم، إلا أنها عميقة الكيف، فقد أخذ البشرى من هذه الحضارة الأوروبية شيئاً يسيرا خفيف الظل، قوى التأثير فى الوقت نفسه.

هذه خواطر تتدافع عن الكاتب الكبير، وحسب هذه السطور أن تذكر القراء بأديب حى المشاعر، بارع الصور، فكه الروح، فى عصر لا يتسع لنظيره على كثرة من به من أدعياء البيان!! ولست أنا الذى أقول ذلك، بل إنه شاعر الأقطار العربية خليل مطران الذى أفزعه الخواء الأدبى بعد رحيل عبدالعزيز فقال فى رثائه:

أَخَلا من البشرىّ عصر لم يكن

فيه على ذاك المثالِ اثنان؟

رثاء

الأديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشرى

لشاعر الأقطار العربية الأستاذ خليل مطران

وَارَحْمَتَا لِى مِنْ صُرُوفِ زَمَانِى ... أَنَّى رَمَتْ رَامَتْ سِهَامَ مَكَانِى

إِنِّى لأَسْأَلُ وَالرِّفَاقُ تَحَمَّلُوا ... أَتُرَى يُطِيلُ عَذَابِىَ الـمَلَوَانِ؟

مَنْ مُبْلِغُ السُّلوانِ مَقْرُوحَ الحَشى ... سُدَّتْ عَلَيْهِ مَسَالِكُ السُّلوَانِ؟

***

مَنْعَاكَ يَا «عَبْدَالعَزِيز» أَمَضَّنِى ... وَأَضَافَ أَشْجَاناً إِلَى أَشْجَانِى

فَاجَأْتَنِى بِالنَّأْىِ قَبْلَ أَوَانِهِ، ... هَلْ حُرْقَةٌ كَالنَّأْىِ قَبْلَ أَوَانِ؟

أَتَسُوءُ إِخْوَاناً مَلَكْتَ قُلُوبَهُمْ ... ظَرْفاً، وَكُنْتَ مَسَرَّةَ الإِخْوَانِ؟

رَبَّ البَيَانِ - وَأَنْتَ بَالِغُ شَأْوِهِ - ... أَعْجَزْتَ بِالسَّبْقِ البَدِيعِ بَيَانِى

أَدَبٌ يَخَالُ مُطَالِعُو آيَاتِهِ ... أَنَّ الكَلاَمَ مَثَالِثٌ وَمَثَانِ

فُقْتَ الَّذِينَ أَخَذْتَ عَنْهُمْ يَافِعاً ... وَبَزَزْتَ مَنْ جَلُّوا مِنَ الأَقْرَانِ

هَذَا بِإِجْمَاعٍ فَمَاذَا عَارَضْتَ ... دَعْوَى دَعِىٍّ مِنْ سَنَى البُرْهَانِ؟

لاَ خَيْرَ فِى زَمَنٍ إِذَا مَا طَاوَلَتْ ... فِيهِ الصِّعَادُ عَوَالِىَ المُرَّانِ

أَحْـــدَثْتَ أُسْلُوباً وَكُنْتَ إِمَـــامَــــهُ ... وبَقِـــيتَ فَـــذًّا فِـــيـــهِ مَـــا لَكَ ثَانِ
جَــمَعَ السُّـــهُـولَةَ وَالجـــزَالَةَ لَفْظُهُ ... تَتَــــخَــالَفَــــانِ حلًى وَتَأْتَلِفَـــانِ
دِيبَـــاجَـــةٌ عَـــرَبِيَّـــةٌ مِـــصْـــرِيَّةٌ ... نُقِــــشَــتْ بِرائِعَـــــةٍ مِنَ الأَلْوَانِ
مَنْ لِلنَّوَادِرِ تَجْـــتَنِى مِنْهَـــا النُّهَى ... مَـــا تَشْــتَــهِى من طَيِّـبَـــاتِ مَــجَـانِ؟
مَنْ لِلبَـــوَادِرِ لاَ يَجُـــودُ بِمِـــثْلِهَـــا ... قَـــبْلَ الرَّوِيَّةِ أَحْـــضَـــرُ الأَذْهَانِ؟
مَنْ لِلدُّعَـــابَةِ وَهْىَ قَـــدْ قُـــرِنَتْ إِلى ... حِلْمِ الشُّـــيُـــوخِ تُرَاهَةَ الشُّـــبَّـــانِ؟
إِنْ ثُقِّـــفَتْ لَطُفَتْ وَفِى ضَـــحِكَاتِهَـــا ... إِيمَاضُ بَرْقٍ لاَ انْقِـــضَـــاضُ سِنَانِ
نَهْلٌ تَسَـــاقَـــاهَا القُلُوبُ فَـتَـــشْـتَـــفِى ... غُـلَلٌ، وَتُقْـــضَى لِلقُلُوبِ أَمَــــانِ
بَدَوَاتُ أَلْبَقِ كَـــاتِبٍ وَمُـــحَـــدِّثٍ ... صَـــافِى البَـــدَاهَةِ بَارِعِ التِّـــبْـــيَـــانِ
فِى جِـــدِّهِ وَمُـــزَاحِـــهِ مُـــتَـــصَـــرِّفٌ ... بِيَـــرَاعَـــةٍ خَـــلاَّبَةٍ وَلِسَـــانِ
أَخَـــلاَ مِنَ «البِـــشْـــرِىِّ» عَـــصْـــرٌ لَمْ يَكُنْ ... فِـــيـــهِ عَلَى ذَاكَ المِثَـــالِ اثْنَانِ؟
شَـــخْصٌ قَلِيلٌ ظِلُّهُ، طَاوِى الحَـــشَى، ... يَمْـــشِى فَـــلاَ تَتَـــوَازَنُ الكَتِـــفَـــانِ
طَلِقُ المُحَـــيَّـــا إِذْ تَرَاهُ، وَرُبَّـمَـــا ... نَـمَّتْ بِكَـامِنِ دَائِهِ العَـــيْـنَـانِ
حُـــبَّتْ مَـــلاَمِـــحُـــهُ بِمَـــسْـــحَـــةِ أُدْمَـــةٍ ... هِىَ مِنْ «مِنَا» إِنْ شِـــئْتَ أَوْ عَـــدْنَانِ
وَبِعَـــارِضَـــيْـــهِ الهَـــابِطَيْنِ وَلِمَّـــةٍ ... شَـــعْـــثَـــاءَ لَمْ تُلمَمْ مِنَ الثَّـــوَرَانِ
وَمَـــضِنَّةٍ يَطْوِى عَلَيْـــهَـــا صَـــدْرَهُ ... وَكَـــأَنَّهُ أَبَداً عَلَيْـــهَـــا حَـــانِ
مِنْ ذَلِكَ التِّـــمْـــثَـــالِ لاَحَتْ لِلوَرَى ... آيَـاتُ أَىِّ حِـــجًى وَأَىِّ جَنَـانِ
حُـــسْنُ المَنَارَةِ فِى سُطُوعِ ضِـــيَـائِهَـــا ... لاَ فِى زَخَــــارِفِـــهَـــا وَلاَ البُنْيَـــانِ

أَمَّا خَلائِقُهُ فَقُلْ مَا شِئْتَ فِي ... جَمٌّ المُرُوءَةِ رَاسِخِ الإِيمَانِ
مَا ضَاقَ صَدْراً، وَهْوَ أَصْدَقُ مُسْلِمٍ، ... بِتَخَالُفِ الآرَاءِ وَالأَدْيَانِ
نِعْمَ الفَتَى فِي غَيْبَةٍ أَوْ مَشْهَدٍ، ... نِعْمَ الفَتَى فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ
بِالعَدْلِ يَقْضِي فِي الحُقُوقِ، وَبِالنَّدَى ... يَقْضِي حُقُوقَ الأَهْلِ وَالجِيرَانِ
يَسْعَى كَدَأْبِ مَنْ سَعَى لِمُهِمَّةٍ ... مَهْمَا يُجَشَّمْ دُونَهُ وَيُعَانِ
مُتَشَمِّراً بِغُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ، ... عَجِلَ الخُطَى، مُسْتَرْسِلَ الأَرْدَانِ
لَوْ كَانَ مَا فِي جِدِّهِ فِي جَدِّهِ ... لَعَلَتْ مَكَانَتُهُ إِلَى كَيْوَانِ
لَكِنَّهُ لَمْ يُلْفَ يَوْماً عَاتِباً، ... أَوْ طَالِباً مَا لَيْسَ فِي الإِمْكَانِ
وَرَعَى حَقِيقَةَ نَفْسِهِ وَأَجَلَّهَا ... عَنْ أَنْ تُبَدَّلَ عِزَّةً بِهَوَانِ
مَا مَنْصِبٌ فَوْقَ المَنَاصِبِ، أَوْ غِنًى ... فَوْقَ المَطَالِبِ، غَايَةَ الفَنَّانِ
مَهْمَا يُزَاوِلْ فَالكَرَامَةُ عِنْدَهُ ... هِيَ فِي إِجَادَتِهِ وَفِي الإِتْقَانِ
مَاذَا يَكُونُ سَلِيلُ بَيْتٍ صَالِحٍ ... عَالِي المَنَارَةِ بَاذِخِ الأَرْكَانِ؟
أَلْوَالِدُ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ وَوُلْدُهُ ... شَرْوَاهُ فِي أَدَبٍ وَفِي عِرْفَانِ

***

صَبْراً جَمِيلاً يَا أَخَاهُ وَأَنْتَ مَنْ ... بِحِجَاهُ يُدْرِكُ حِكْمَةَ الرَّحْمَنِ
كَمْ فِي القَضَاءِ تَلُوحُ لِلفَطِنِ الَّذِي ... وَلِيَ القَضَاءَ سَرَائِرٌ وَمَعَانٍ!
وَعَزَاءَكُمْ يَا آلَهُ، إِنَّ الَّذِي ... تَبْكُونَهُ فِي نِعْمَةٍ وَجِنَانِ
وَعَزَاءَكُمْ يَا مُعْجَبِينَ بِفَضْلِهِ ... فِيمَا دَنَا وَنَأَى مِنَ الأَوْطَانِ

فقيد الأزهر

الدكتور/ محمد أحمد سحلول

١٩٤٠ - ٢٠٠١ م

قد لعمرى حكيت لى غصص المو
ت فحركتنى لها وسكنتا
« أبو العتاهية »

من أشق الساعات مرارة فى النفس، وحسرة فى الفؤاد ساعة تلقيت نعى الصديق الكريم الأستاذ الدكتور محمد أحمد سحلول وكيل كلية الدراسات الإسلامية بالقاهرة، فقد كان نموذجا منفردا فى السلوك الإنسانى النبيل، وقد نشأ فى القرية التى نشأت بها، وإن كنت أكبره سنا بأمد متطاول، فعرفت من شمائله الكريمة مالم أعرفه عند سواه، إذ كان ذا كف مبسوطة بالخير لمن يعرف، ومن لا يعرف، وكان قدومه للقرية مصدر بهجة غامرة لمن ينفحهم بخيره، وهم كثيرون، ولا أقول ذلك تزكية له. فقد انتقل إلى جوار ربه.

تقدمه عمله الصالح يسعى بين يديه، ولكنى أقوله ليكون قدوة مُثْلى لمن يحب مكارم الأخلاق، فيحذو حذوه وقد كان ذا بشاشة راضية ينشرح لها صدر من يراه، فهو يسأل مستفسراً عمن يعرف أن سؤاله سيكون موضع الارتياح لديه ولا يفعل هذا تصنعا بل عن طبع كريم فطر عليه، وإذا كلفه ذو حاجة بمسألة تهمه بذل الجهد الجاهد فى

قضائها، فإن لم يستطع سعى لمن يعرف لديه الاستطاعة، وقد يلحف إلحافا كأن المسألة تخصه هو، وهو شافع كريم.

لقد تعلم فى المعاهد الدينية، ونال الإجازة العالية من كلية اللغة العربية، ووظف محررا بدار المعارف حينا من الدهر، ولكن همته سمت به إلى الدراسات العليا فنال الدكتوراه فى النحو والصرف بمرتبة الشرف الأولى، وكانت رسالته عن «تاريخ النحو قبل التدوين» فكانت أول رسالة فى موضوعها، وقد لاقى صعابا كثيرة، لأن أكثر الذين خصهم بالحديث لم يتركوا كتبا مؤلفة يرجع إليها الباحث كمن جاء بعدهم من النحاة، ولكنهم تركوا آراءً متناثرة فى عشرات المؤلفات راجعها الدكتور سحلول بصبر دائب، حتى استوى موضوعه شافيا وافيا بتوفيق الله.

ثم اختارته جامعة الإمام محمد بن سعود فى هيئة التدريس بها، فأظهر مقدرة فائقة جعلت القائمين على الجامعة ينتدبونه إلى كليات مختلفة فى العام الواحد، كما كان صوته مسموعا فى اللجان العلمية، وفى لجان النشر المطبعى، فرفع من قدر بلده بما أسهم من جهد حميد، ثم رأى أن يلتحق بالجامعة، فقدم من البحوث ما أهله للتدريس بها عن جدارة، ومازال يرقى حتى نال الأستاذية، وأشرف على الرسائل العلمية، ووافاه القدر وهو وكيل كلية الدراسات العربية والإسلامية، فأحدث فراغا أى فراغ.

على أن روح الداعية المخلص كانت تتلبسه من يوم التحاقه بالأزهر طالباً، اذ كان يخطب الجمعة، ويلقى الدروس بالمساجد، ويعد ذلك فرضاً محتوما على كل أزهرى، ثم عمل جندياً أمينا بالجمعية الشرعية فأشرف على أوجه النشاط بها علميا واجتماعيا، وتعددت جولاته الإرشادية فى مختلف مناحى الجمهورية شرقا وغربا فى همة لا تعرف الكلل، وأصبح له - ولم يرد - أتباع كثيرون يحرصون على سماع محاضراته الأسبوعية، وذلك جهد يضاف إلى جهده الأكاديمى بالجامعة أستاذا للنحو، حيث قدم كثيرا من المؤلفات ذات الجدة المبتكرة والطرافة الحديثة، وقد قرأت أكثر ما وقع تحت يدى منها، فتملكنى الإعجاب الخالص، ولم يقتصر نشاطه فى مجال الدعوة على مصر، بل انتقل إلى دول مختلفة فى رحلات متوالية، فأدى أمانة العلم فيما خطب وحاضر وناقش، وفى أثناء هذه الرحلات كنت أسأل عنه فيقال: إنه غائب، فإذا التقيت به، وسألته عما شاهد اختصر الحديث، قال: وماذا صنعت؟ العبء ضخم، والجهد قليل!

ومؤلفاته العلمية ذات شقين مختلفين، شق يتجه وجهة الدعوة الاسلامية، وقد أصدر فى هذا المجال عدة مؤلفات كتبها بلسان الداعية الذى يحاول أن يصل إلى القارئ من أقرب طريق، ومن هذه الكتب: قبسات من

نور الرسالة، والقرآن يتحدث عن محمد - عليه الصلاة والسلام - والانسان فى مرآة القرآن، وسعادة الأمة فى العمل بالكتاب والسنة، وغيرها، وفى سطور هذه المؤلفات، نور مشرق، لأن كاتبها نقل عن قلبه قبل ان ينقل عن عقله، فسال قلمه عطرا يستنشقه القارئ فينشعه ويهديه، وأثر أستاذنا الكبير محمد الغزالى واضح فيما كتب، وهو أثر التلميذ المتشبع، لا المقلد المحتذى، ومن المهم أن أذكر أنه أشرف على سلسلة «إسلاميات» التى كانت تصدرها المؤسسة العربية الحديثة، وقد بلغت حلقاتها مائة كتاب راجعها الدكتور سحلول ونقدها واختار وترك وفقا لمنهج قام فى ذهنه وإن يريد إلا الإصلاح.

أما مؤلفاته العلمية فذات دسم قوى، وعناوينها تنبئ عنها، ومنها كتب، بين الاستئناس والاحتجاج في النحو العربى، والجرمى النحوى فى آرائه العلمية، واليزيدى القارئ النحوى، وروابط الجملة بين الذكر والحذف فى اللسان العربى، وشواهد القراءات بين ابن هشام وابن عقيل، وخواطر حول المعنى والإعراب، ولو ولولا ومدلولهما النحوى فى القرآن، وهى ثروة نحوية ذات بال، فليت الذين ينهضون بكتابة الرسائل العلمية لدرجتى الماجستير والدكتوراه، يجعلون من هذه المؤلفات موضوعا للبحث العلمى تقديراً لجهود نحوى أمين.

ان الخسارة برحيل الدكتور محمد أحمد سحلول كبيرة، إذ أن أمثاله قليلون، ممن يجمعون بين العلم والعمل فى اتزان مستقيم، فقد شعرت فى مخالطتى الكثيرة له، أن ما يقوله فى دعوات الإرشاد الخلقى صار جزءاً من سلوكه الواقعى، وهى مرتبة عزيزة المنال ولا تتاح إلا لمن اصطفاهم الله من الأخيار، لذلك كان ألمى لرحيله من القوة بحيث لم يهدئه فيض الدموع، وهو أمر اضطرارى لا حيلة فيه لباك ولا لصبور!

لم أقل كل ما فى نفسى، ولكنها مشاعر ذات أوار محتبس، ويتطلب التنفيس، وقد اختاره الله بعد أن أدى صلاة العشاء فى حادث تصادم أرعن فذهب شهيدا.

أبو حسام

***

القلادة المباركة

للأستاذ/ محمد فريد أبو حديد(١)

بقيت مكة واجمة حيرى، منذ خرج منها محمد بن عبدالله وأعجز مطارديه حتى دخل يثرب وحل فيها عزيزاً بعيداً عن سلطان قريش. ومضى عام طويل لم يزد أهل مكة إلا وجوما وحيرة، بل لقد زادهم قلقا وخوفا. فقد تجرأ عليهم أولئك الضعفاء الذين هاجروا من مدينتهم يتسللون، هربا من التعذيب والتنكيل ورفعوا رؤوسهم يتحدونهم على ملأ من القبائل، واستجمعوا نفوسهم وصاروا يخرجون بين حين وحين إلى سبل القوافل فى شرق يثرب وفى غربها يترصدون لتجارتهم فى ذهابها إلى الشام أو عودتها منها. بل لقد تجرأ هؤلاء المستضعفون على أن يسيروا إلى قريب من الطائف ويضعوا أيديهم عنوة على عير ضخمة عادوا بها غنيمة إلى مدينتهم ليقسموها بين أنفسهم.

وما كان أهل مكة يحسبون أن الأمور تؤول بهم يوما إلى مثل تلك الحيرة ولا ذلك القلق، بل كانوا يحسبون أن محمداً وأصحابه لن يلبثوا أن يضيقوا بحياتهم الجديدة ويسألونهم العفو، ويرضون بما يفرض عليهم من الخضوع لقاء السماح لهم بالعودة. ولكنهم رأوا بأعينهم كيف يتحمل هؤلاء كل مشقة فى سبيل عقيدتهم الجديدة، وكيف يقاومون الفتنة مهما أوقع بهم العقاب، فلا يزدادون مع الشدائد إلا ثباتًا ومقاومةً. وها هم هؤلاء قد أصبحوا خطراً داهماً يهدد ينبوع الحياة فى مكة ولم يمض عليهم فى يثرب إلا عام واحد، فكيف لو امتد بهم الأمر عاما بعد عام؟!

ومضى الصيف مرة أخرى منذ خرج محمد وأصحابه وكان الحر متقداً لا يريد أن يهدأ وكأن السماء تعمدت أن تزيد قريشًا من الضيق

(١) من روائع الماضى بمجلة الأزهر (رمضان سنة ١٣٧١هـ) الموافق (مايو سنة ١٩٥٢م).

والحنق، فكانت تشرق على البطحاء محرقة لا تعترضها غمامة تلطف من حرها، وكان الهواء يركد حتى يصير الفضاء كأنه قد فرغ وخوى، لولا دفعات لافحة كانت تثور بين حين وحين، فتعقد فى الجو سحائب غبراء خانقة، تلقف الصدور منها أنفاسها وتكاد تشرق بها. وكانت العيون تخشع للأشعة المتوهجة وتعشى منها، والشفاه تجف وتتشقق والنفوس تضيق وتفور غيظا. وكان الناس مع ذلك لا يطيقون أن يحتجبوا فى بيوتهم ليحتموا بظلها إذ كان ظلها أشد وطأة عليهم من وهج الفضاء وركود الهواء وسحب الغبار، كانوا لا يطيقون الاستقرار وكل يوم يطلع عليهم بنبأ جديد تغوص منه القلوب فى أجوافها وهى تشتعل بالحقد.

فكانوا يخرجون إلى الرحبة الفسيحة التى حول الكعبة، أو يجتمعون فى دار الندوة يقلبون وجوه الرأى، لعلهم يهتدون إلى حيلة فى دفع ذلك الخطر الرهيب، الذى يجثم لهم عند الأفق، يهدد حياتهم ويؤذن مجدهم بالزوال.

ولم يعد إلى نفوسهم شىء من السلام، بعد أن خفت وقدة الحر فى الخريف، ولا بعد أن أقبل الشتاء وترفقت بهم الشمس، ولان لهم جو السماء فقد بقى القلق جاثما على حياتهم لا يفارقها. وخرجت القافلة الكبرى التى اعتادوا أن يبعثوا بها كل عام إلى الشام فأودعوها كل ثروتهم، حتى لم يكد يبقى أحد من قريش بغير أن يضارب فيها بسهم، كأنهم أرادوا أن يكابروا خوفهم، ويخادعوا أنفسهم، عن الخطر الذى يحسونه فى أعماق صدورهم. وقفوا أسبوعين طويلين يترقبون عودة الرسل الذين ساروا مع العير ليحملوا إليهم بشرى سلامتها إذا مرت بيثرب بغير أن يتعرض لها محمد. ولما عاد الرسل إليهم لم تزدهم بشرى السلام إلا توجساً من المستقبل، إذ عرفوا أن أبا سفيان قائد العير لم يستطع النجاة إلا بأن تسلل مع الجهد والحذر، وكان يضرب فى أكباد الإبل ليلا ونهاراً ليسرع بها قبل أن يدركه محمد. فكانوا إذا جلسوا فى دار الندوة تناجوا فيما بينهم يتساءلون: هل يستطيع أبوسفيان أن ينجو فى عودته من الشام، وأن يتسلل بالعير مرة أخرى كما تسلل فى ذهابه؟

وكان الحديث يتمادى بهم حتى ينتهى إلى أن تمتلىء قلوبهم غيظاً، فإن مكة لن تستطيع أن تقضى حياتها على مثل ذلك الفزع المتصل. فإذا سأل أحدهم: كيف السبيل إلى تجنب ذلك الخطر أو إزالة ذلك الخوف؟ لم يجدوا جواباً سوى أن يعجبوا كيف استطاع هؤلاء المستضعفون أن يرفعوا رؤوسهم هكذا، وأن يردوا عليهم الكيد بمثل هذه الجرأة العجيبة!

واجتمع سادة قريش فى دار الندوة بعد أربعة أشهر من خروج العير إلى الشام، يتنسمون الأخبار عن عودة قافلتهم الكبرى، التى اعتادت أن ترجع فى مثل ذلك الوقت. ويتساءلون فى ضجر: كيف لم يبعث إليهم أبوسفيان رسولا يحمل إليهم أنباء العير ليهدىء عنهم المخاوف التى لا تدع لهم قرارا؟ وكان أشد القوم حنقا أبو جهل عمرو بن هشام.

فقال فى إحدى دفعاته الثائرة: أهكذا يستطيع رجل واحد أن يقهرنا جميعاً وأن يذلنا جميعاً وأن يشعرنا هذا العجز الذى نحسه فى قلوبنا؟ أهكذا يجعلنا محمد نجلس كل يوم نتبادل

الأحاديث الحانقة كما يجلس النساء لا نملك إلا أن نتساءل ونتجادل؟ أهذا كله ولم يمض على خروجه من مكة خائفاً يترقب إلا عام ونصف عام؟

وكان القوم مطرقين فى صمت وقلوبهم تختلج بما فيها من شجون. وعاد أبو جهل فقال وهو أشد ثورة:

ـ مالى أراكم لا تجيبون كأن وجوه الرأى قد أغلقت دوننا؟ مالى أراك يا أبا الوليد لا تحرك ساكنا؟

فرفع الناس رؤوسهم ينظرون إلى عتبة بن ربيعة لا يدرون بم يجيب، وقد عرفوا ما بين الرجلين من موجدة، ونظر عتبة إلى أبى جهل فى تحد وهو صامت. ومضى أبوجهل قائلاً:

أرضيت يا أبا الوليد أن يضيع هكذا مجدنا وأن تهون هكذا عزتنا؟ مالى أراك تنكت الأرض بهذا القضيب فى يدك، كأنك لا تبالى شيئا من هذه الكوارث التى تهددنا. فإذا كنت لا تبالى ضياع العز، ولا تغضب لما يلحقنا من الهوان، أفلا تحرص على أموالك التى خاطرت بها فى عير أبى سفيان؟ وإذا كنت لا تحرص على أموالك فى العير لوفرة غناك أفلا تهتم لضياع أموال أهلك من الفقراء؟

وقال عتبة فى صوت خافت يجمجم غضبه:

ـ أراك تخصنى بالحديث يا أبا الحكم.

فقل أبو جهل متماديا:

ـ أخصك بالحديث لأننى أعرف أنك لا توافقنى. فقد طالما نصحت لقومى بالشدة فأبيت إلا أن تلين، ونصحت لهم بالحرب فأبيت إلا السلام ونصحت لهم بالحزم فأبيت إلا الموادعة.

فقال عتبة فى دفعة:

ـ ليس هذا أول عهدى بهذا الحديث يا أبا الحكم. وحق هذه الكعبة ما أراك تنتهى بنا إلا إلى الكوارث التى نريد أن نتجنبها. ولقد صبرت عليك حتى نفد صبرى، وسكت حتى صرت تنعى على صمتى، ولست أدرى ماذا يرضيك منى حتى أبادر إليه مطيعا، أما يرضيك أننى فى كل موقف أنزل عن رأيى وألوذ بالصمت حتى أرى ما بينك وبين الناس؟ ألا يرضيك أننى أجمجم بما فى نفسى كلما أردت شيئاً حتى لا أوقع الفرقة فى قومى؟ ألا يرضيك أن أسكت حتى أرى ما يستقر عليه ملأ قريش ثم أمضى وراءه؟ قل لى ماذا يرضيك منى بعد هذا حتى أخضع لك وأطيعك، وإن كان ذلك على رغمى. أم تريدنى أن أقف وراءك كلما قلت رأيا صحت بأعلى صوتى: هذا هو الرأى أيها الناس فأطيعوه، لكى أتحمل وزر خطئك وأعينك على زيادة البلاء والوباء.

فوقف من الجمع رجل ضخم الجثة عظيم الهامة عميق الصوت وهو أمية بن خلف وقال:

ـ مهلا يا أبا الوليد فما ينبغى لك الغضب ومهلا يا أبا الحكم فلا تمض فى هذا القول.

فقال أبو جهل متجهاً إلى أمية ثم إلى عتبة:

ـ لم أقصد كل هذا يا أبا على، ولا تؤاخذنى يا أبا الوليد فما أردت أن أغضبك. ولكنى علمت مالك من سداد فى الرأى وشهامة فى النفس، فأحببت أن استطلع رأيك فتشير علينا بما يكشف هذه الغمة.

فقال عتبة وما يزال غاضباً:

ـ تريد أن تجد عندى رأيا أشير به؟ فاسمع يا أبا الحكم ما أقول إذا شئت أن تعرف رأيى:

دع ذلك الرجل حيث هو ولا تعرضنا إلى عداوة صريحة. دعه هناك وجنّب قومك عداوة أهل يثرب. وأما تجارتنا إلى الشام ففى يدنا أمرها. فلنبعث مع كل عير جيشا منا يحرسها حتى تبلغ مأمنها ثم لنبعث لها جيشا منا يستقبلها ولنبعد فى سيرنا إلى الساحل حتى نباعد ما بيننا وبين الأوس والخزرج. دعه حتى يبادئنا بالعداء والحرب فلن نعدم عند ذلك أن نجد من العرب أنصاراً يغضبون لنا.

فقال أبو جهل فى سخرية:

ـ أهذا رأيك يا أبا الوليد؟ أترى أن نتركه حتى يستفحل أمره وتنتشر رهبته؟ إذا كان هذا رأيك فلنقبع فى ديارنا حتى يغزونا فى عقر دارنا. أيها القوم دعوا محمداً يبعث على رأس كل شهر سرية تنزع منا أموالنا وتقتل رجالنا. دعوه حتى يجمع الناس عليكم ويقبل على حرمكم هذا ليحطم آلهتكم.

ولم لا تقول يا أبا الوليد أن نرسل إليه وفداً منا يعرض عليه إسلامنا؟ بل لم لا تقول إننا ضللنا سبيل الحكمة إذ لم نخضع له وهو مقيم بين ظهرانينا؟ أهذا ما تريد أن تقول؟

وتحرك الجلوس فى مواضعهم وعلت منهم همهمة غامضة وجعلوا يقلبون أبصارهم بين الرجلين المتحاورين وانفجر عتبة بن ربيعة قائلاً:

ـ مالى أراك تجابهنى بما أكره، وتقول على مالم أقل، وتسلقنى بحد لسانك الساخر؟! قل ماشئت أيها الرجل فلن تسمع منى بعد هذا لفظا. هلم فاذهب إذا شئت إلى يثرب وادع من أطاعك من قريش وأشعلها حربا تنسى الناس مامضى من أيام القتال. اذهب إليه وأضرم نيران حرب ضروس تتحدث عنها الأجيال من بعدنا كما نتحدث نحن عن تفانى عبس وذبيان وحروب بكر وتغلب وأيام داحس والغبراء.

وهمّ واثبا ينفض ثوبه يريد أن يعود إلى بيته ووثب الناس يتمسكون به من كل جانب. وبقى أبو جهل ساكنا لا يكاد يتبين شيئا من الأصوات المختلطة التى تعالت بين جدران المنتدى واستطاع أمية بن خلف أن يعيد عتبة إلى مجلسه واتجه إلى أبى جهل قائلاً:

ـ ما أراك تنصف صاحبك يا أبا الحكم. فقد علمت أنه كان من أشدنا وفاء لآلهتنا، وأنه كان لا يألو جهداً فى ردع سفهائنا، وعقاب ضعفائنا، ولم يخرج عن إرادتنا عندما اعتزلنا بنى هاشم ثلاث سنين فى شعب أبى طالب، ولا عندما تراضينا على الفتك بمحمد، ثم لم يتخلف عنا عندما خرجنا وراءه نقتفى أثره على طريق يثرب.

فقال أبو جهل:

ـ لست أنكر ما تقول يا أبا على وما أردت لوماً ولا تعنيفاً ولا سخرية، فوحق هذه الكعبة ما قلت حرفاً إلا وأنا مشفق على عزة قومنا.

فقال عتبة متمالكا نفسه:

ـ إذن فقل يا أبا الحكم ما شئت فيما نحن فيه، فلعلنا نجد عندك ما يزيل عنا الغمة التى ذكرتها.

فقال أبو جهل:

ـ أنصفت يا أبا الوليد ولن أتعرض لك بما

تكره، ولندع محمداً وأصحابه فى يثرب، ولننظر إلى أنفسنا، فلا أقل من أن نجمع رأينا على أمر واحد فلا نتفرق شيعًا وليس يجدينا أن كل عشيرة منا تبرز شوكتها كلما حسبت أن شيئاً يمس فرداً منها، فما لنا ندع البعض منا يوالون محمداً ويتربصون بنا الدوائر هنا؟!

فصاح أمية بن خلف:

ـ بيِّن لنا معنى قولك، وكن أكثر إفصاحا.

وقال عتبة:

ـ ألسنا نمسك بهؤلاء ونعاقبهم ونحبسهم ونحرمهم من كل خير حتى يعودوا إلى ما نرضى؟

فقال أبو جهل:

ـ بل هذا لا يغنى عنا شيئاً. فالذين نحبسهم ونعاقبهم أقل خطراً ممن نخشاهم ونحاسنهم. فالأولون يعلنون ما عندهم ويكشفون عما فى أنفسهم. وأما الآخرون فلا يظهرون إلا ما نرضى وهم فى قرارة أنفسهم كارهون لنا. يوالون محمداً ويصهرون إليه ويفضون بأسرارنا إلى نسائهم إذا انصرفوا عنا.

فصاح صوت عميق من أقصى الجمع:

ـ بيِّن لنا معنى قولك، كما قال أبو على، كن أكثر إفصاحاً.

وكان المتكلم رجلاً عريض الصدر، كبير الهامة وقام يعدل رداءه فوق كتفيه فكان رجلا طوالا كأنه يتحفز لنزال.

فقال أبو جهل فى صوت ساخر: أنصفت يا أبا على إذ تسألنى أن أكون أكثر إفصاحاً. هو ذاك يا أبا على. هو ذاك يا أبا العاص بن الربيع. أنت هنا مثلاً تقيم بيننا وَتَغْشَى مجالسنا وتجهر بما تشاء من الرأى فى شئوننا ثم تذهب إلى بيتك فتفضى بأسرارنا إلى زينب بنت محمد!

فصاح أمية بن خلف:

ـ على رسلك يا أبا الحكم.

ولكن أبا العاص بن الربيع اندفع قائلا بصوته الملىء: ماذا تقول أيها الرجل؟ لقد عرفت أنك تقصدنى وتشهّر بى، وقد طالما تحدثت إلى فى خلوة بهذا الحديث.

وأعاد أمية بن خلف قوله:

ـ على رسلك يا أبا على!

فمضى أبو العاص قائلاً بصوته الجهورى:

ـ ماذا يقول هذا الرجل عنِّى وعن أهلى؟ أما كفاه أن تجرأ علىَّ فسألنى أن أطلق امرأتى؟ أما كفاه أن رددته فى رفق قائلا إنها ابنة خالتى ومن بنات عمومتى؟

ألا فاعلم يا أبا جهل أنك لا تملك رقابنا ولا تفضلنا حسبا ولا نسبا. من ذا سلَّطك علينا وأباح لك الأمر والنهى فينا والتعرض لحرماتنا وأعراضنا. أكان محمداً يقول لصاحب له طلق زوجتك لو كانت مخزومية أو كانت ابنة أبى جهل؟ فما بالك تتعدى حدك وتستحل مالا يباح لك أو لغيرك؟ ألا فاعلم أيها الرجل أن زينب لو كانت زوجة رجل غيرى ثم أراد أن يؤذيها لوقفت له بسيفى دونها لأنها بعض دمى، ثم هى بعد ذلك صاحبتى وأم ولدى. وقطع لسان من ينطق يوما بكلمة تخدش سمعها لو بلغتها. ألا فاعلم يا عمرو ابن هشام أننى قد أعددت لك جوابا شافيا حاسما إذا حدثتك نفسك يوما أن تعيد علىَّ ما قلت فى شأن أهلى.

ثم مد يمينه إلى قائم سيفه واستدار فمضى مسرعا لا يجيب الأصوات التى تعالت من ورائه تناديه أن يبقى.

وما كاد أبو العاص ينصرف حتى شغل الناس عنه وعما كان بينه وبين أبى جهل، فبينما هم فى وهرة من أثر ذلك الخصام المحتدم علا صوت صريخ من جانب الوادى كأنه شيطان يعوى، وأسرع أبو جهل قائما يصيح بصيحات جشاء غير مبينة، وانفض الجمع مضطربا يتبادرون على غير هدى نحو الصوت الذى ما زال ينبعث من بطن الوادى. وبدا من بعيد شخص واقف على بعيره وقد حوّل رحله وشق ثيابه من أمام ومن خلف وكان البعير مقطوع الأذنين مجدوع الأنف والرجل يصرخ بأعلى صوته: «يا معشر قريش أدركوا عيركم! الغوث الغوث!»

ولما اقترب الناس منه جعل يعيد عليهم ما بعث إليهم أبو سفيان قبل أن يصل إلى يثرب، فقد عرف أن محمداً وأصحابه قد خرجوا من المدينة ليهبطوا على العير التى أودعها أهل مكة كل ثروتهم وكل أملهم فى الربح ذلك العام.

ومضت لحظة قصيرة خفتت فيها الأنفاس ثم انفجر أبو جهل قائلاً:

ـ ماذا ننتظر هنا أيها القوم ينظر بعضنا إلى بعض كأننا نساء فى مأتم، ألم أقل لكم ابدءوا به قبل أن يبدأ بكم؟ لا تضيعوا ساعة ولا يقف أحد منا يقول لصاحبه كلمة. هلموا إلى سيوفكم ورماحكم وخيلكم ورواحلكم واجعلوها موقعة فاصلة، إنه صوت الآلهة ينادينا إنه قد آن لنا أن نضرب الضربة القاضية.

وزاد اللغط، واختلطت الأصوات وصاح أبو جهل مرة أخرى:

ـ هلم يا قوم فاستعدوا للحرب ولا يتخلف منكم إلا من آثر القعود مع النساء.

ومضى مسرعا إلى بيته بغير أن ينظر إلى الناس وهم يتفرقون سراعا إلى بيوتهم فى لهفة.

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج من المدينة مع من استطاع الخروج معه من أصحابه يترقبون عودة عير قريش مع أبى سفيان، وكان المسلمون لا يحسبون أنهم يخرجون إلى حرب، بل أرادوا أن يكيدوا للذين أخرجوهم من وطنهم وأبوا عليهم الحرية التى وهبها الله للأحياء جميعا، أولئك الذين شردوهم، وحرموهم من أموالهم، وانتهكوا حرمة أشخاصهم، وعقيدتهم وأرادوهم على إنكار إنسانيتهم، أولئك الذين أرادوا أن يخدعوهم عن عقولهم وقلوبهم وأنزلوا بهم أشد العذاب لينزعوا الإيمان من صدورهم.

ثم جاءتهم الأنباء عندما صاروا قريبا من وادى بدر فعلموا أن أهل مكة قد عرفوا خروجهم وأقبلوا سراعا إلى نجدة صاحبهم، إذن فهى الحرب التى لم يتوقعوها وهى الصدمة التى لم يقصدوا إليها.

وأشفق رسول الله أن يقتحم بأصحابه حرباً على غير أهبة، وكان يعلم أنهم قليل فى العدد قليل فى العُدة، يعتقب الثلاثة منهم أو الأربعة بعيراً واحداً، وليس معهم من السلاح والدروع إلا اليسير الذى لا يغنى فى قتال جيش. وكان لا يريد من خروجه أكثرمن إيقاع عقوبة تروّع أهل مكة وتجعلهم أكثر خضوعًا للحق، وأقرب إلى

الإدراك والفهم. كان لا يريد أكثر من أن يفتح عيونهم لتبصر، وأن يفتح آذانهم ليسمعوا، وأن يظهر لهم أن للمسلمين شوكة لعلهم يجنحون إلى المسالمة. ولكنهم خرجوا إليه فصار بين أمرين: إما أن يرجع إلى المدينة، وإما أن يصادم جيشاً كبيراً.

واستمع إلى أصحابه يجيبونه فى صراحة عندما سألهم أن يشيروا عليه.

فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له.

وقال آخرون: امض فى سبيلك فنحن معك.

وقال غيرهم: لو خضت بحراً لخضناه معك. ولو علوت جبلاً لعلوناه وراءك، ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد لتابعناك عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك.

وعادوا يقولون: سر بنا على بركة الله!

فمضى الجمع المتحمس الصغير نحو وادى بدر، وهو يعلم أنه مقبل على عدو جاء إليه يسعى مدلا بقوته، حريصاً على أمواله جامحاً مع كبريائه. ثم توالت الأخبار، فعلم محمد وأصحابه أن أبا سفيان استطاع أن يفلت بالعير مباعداً بينه وبين المسلمين مقترباً من ساحل البحر. فلم يبق أمامهم سوى الجيش وحده- وقد أخرجت فيه مكة أبطالها وسادتها فحشدت فيه ألفًا من بواسل فرسانها.

وأقبل الليل فأرخى سدوله على الأرض وكان الوادى صامتا لا يسمع فيه حس ولا يجلجل فيه صوت جرس فى عنق بعير. ثم طلع القمر بعد حين إذ كان شهر رمضان قد مضى أكثر من نصفه. وغمرت الأشعة الفاترة بطن الوادى وخلعت عليه رهبة وغموضا.

وجلس محمد وأصحابه مرة أخرى يتشاورون ويتراجعون فلم يذوقوا تلك الليلة نوماً حتى قرب مطلع الفجر بعد أن اختاروا مواقفهم ودبروا معا خطة القتال إذا أقبل الصباح.

وخرج أبو العاص بن الربيع وحده من جيش مكة فاعتلى جانب الكثيب مشرفا على الوادى الصامت لا يرى فيه سوى أشباح تبرق ثم تختفى كأنها أرواح شفافة. وذهب خياله إلى مكة حيث ترك امرأته زينب وحيث خلف ولده عليا وابنته أمامة. وجالت فى نفسه خواطر شتى عن قومه، وعن محمد أبى امرأته: أقد جاء حقا يريد أن يحارب جد بنيه مع أبى جهل وأمية ابن خلف وسائر هؤلاء؟ أكان ينبغى له أن يخشى أقوالهم عندما اتهموه بخيانتهم والولاء لمحمد خفية عنهم؟ وهل كان يقوى على مخالفة قومه والتخلف عن الخروج، فتكون تلك سبة الدهر فتلصق به تهمة الجبن أو الخروج على قومه؟

ولكنه كان كلما تمثل صورة محمد، أحس قلبه يخذله ويكاد يتهمه. فكيف يخرج إلى حرب رجل عرفه ورأى نبله وصدقه؟ أليس هو الذى أخرجه قومه طغيانا وظلما بعد أن أذاقوه مرارة الاضطهاد والأذى؟ فكيف يخرج مع أبى جهل وأصحابه الذين يشمخون بأنوفهم كبرياء وغروراً لكى يحارب الرجل الذى يدعو إلى العدالة والكرامة؟

ولكنه عاد آخر الأمر إلى خيمته يجرجر قدميه فوق الرمال، وفى صدره معركة عنيفة من جدال حانق. وكان الناس مايزالون يصخبون فى خيامهم يتعللون بما يطلع به الغد عليهم من متع الحياة

ومباهجها، سيجدون الوادى خلاء من المسلمين الذين لن يقدروا على الثبات لهم فى القتال وسيجدون الجو صفا، فيقيمون ثلاثة أيام فى بطن بدر ينحرون الجزائر ويطعمون أهل القرى ويشربون الخمر ويستمعون إلى غناء القيان. وسوف تسمع العرب بموقفهم من محمد فيزدادون هيبة لهم ومسارعة إلى محالفتهم على المسلمين.

وطلع النهار واعتلى جيش قريش جانب الكثيب ليهبطوا على الوادى. وكان أبو العاص يسير قريبًا من عتبة بن ربيعة. وكان محمد وأصحابه هناك ما يزالون ينتظرون فى ركن صغير إلى جانب بئر، ومن ورائهم حوض ممتلىء بالماء أقاموه تحت ستر الليل.

فنظر عتبة إلى أبى العاص قائلا فى همسة:

ـ إنها الحرب يا أبا على. إنها الحرب لا ما يزعم هؤلاء، فما هى نزهة ولا خمر ولا قيان.

وقال أبو العاص مجيباً:

ـ فيم الحرب يا أبا الوليد وقد نجت العير التى خرجنا من أجلها.

فقال عتبة:

ـ لقد وددت يا ولدى لو عدت إلى مكة، ولولا المعرة وما يقوله هذا الأحمق أبو جهل لما نزلت إلى هذا الوادى.

وعاد أبو العاص يحدث نفسه:

ـ أحقًا أحارب اليوم وأضرب بسيفى من أجل هؤلاء؟ أئذا رأيت محمداً رفعت يدى هذه وأهويت عليه حتى أشفى غليل أبى جهل وأحرق قلب امرأتى؟

ولما رآه عتبة صامتا قال له:

ـ سوف أبذل الجهد يا ولدى لأخلص قومى من هذا القتال. إن ذلك الرجل يدفع بنا إلى هاوية.

ونزلا فى صمت مع الجيش الصاخب حتى صاروا فى فضاء الوادى وتفرق الناس فى أطرافه ينظرون إلى الجمع الصغير القابع حول حوض الماء، وأخذوا يحزرون عددهم ويجيلون أبصارهم فيما حولهم، وما لبثوا أن عرفوا أنهم لن يجدوا فى يومهم ماء، فقد طم المسلمون كل الآبار غير ذلك القليب الذى بنوا الحوض إلى جنبه.

وجاء حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة فقال له، هل لك فى خير لا تزال تذكر به آخر الدهر يا أبا الوليد؟

فنظر عتبة إلى أبى العاص نظرة سريعة ثم قال هادئًا: تجدنى مطيعًا لك.

فقال الرجل: اردع الناس عن القتال وعد بهم إلى مكة.

فقال عتبة: وهل يطيعنى هذا؟

فقال حكيم: أنت سيد قريش وما عليك أن يقول أبو جهل ما يشاء. ألا ترى هؤلاء المسلمين مع قلتهم يتلمظون للقتال. إنهم ثلثمائة رجل، ولكنهم لم يصابوا حتى يصيبوا منا مثل عددهم. وما خير الحياة إذا أصيب من هؤلاء الأشراف ثلثمائة؟

ونهض عتبة إلى بعير فركبه وسار بين الصفوف يدعو الناس إلى الانصراف بغير قتال.

وما كاد أبو جهل يسمع بما قال عتبة حتى انطلق يسير فى الجيش يتهم عتبة بالجبن وأنه

يخشى أن يصاب ابنه أبو حذيفة الذى خرج مع محمد.

وسمع عتبة ما قال أبو جهل فصاح غاضباً:

ـ سيرى هذا الأحمق أينا أولى بأن يكون الجبان المشئوم. هاتوا لى درعا وسأكون أول من يبرز للقتال. سيرى هذا الرجل أينا أحرص على الحياة.

وتفرقت الجموع تتشاحن وتتجادل بعضهم يوافق عتبة، وبعضهم يتابع أبا جهل، وتفرقت الآراء واختلفت الأهواء، واعتزل أبو العاص ركناً من الوادى وقلبه يفيض حزناً وغماً.

ثم بدأ القتال وغطى الغبار على الوادى بسحابة كثيفة تظلل ميدان المعركة الحاسمة. فلما انجلى الغبار آخر اليوم كان جيش مكة بين قتيل وصريع وأسير ومنهزم، يتلفت خلفه ويلوذ بالفرار من حذر المطاردة.

وكان أبو العاص بن الربيع واحداً من الأسرى السبعين الذين أخذوا إلى المدينة من بقايا المعركة، أما بدر فقد طوى رماله على جباه كثيرة كانت لا تعرف الانطواء: أبو جهل وعتبة وأمية بن خلف. وأكثر من كانوا يتجادلون فى دار الندوة ويتقسمون الرأى فى مكة.

وخرجت بقية السادة من مكة مرة أخرى يسيرون إلى المدينة ليسألوا محمداً أن يمن عليهم بإطلاق من عنده من الأسرى. وكان محمد يقبل منهم الفداء، كل على قدر ماله، فمن لم يكن له مال وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من المدينة يعلمهم الكتابة.

وجاء عمرو بن الربيع يطلب أخاه الأسير أبا العاص بن الربيع وعرض على رسول الله فداءه وكان عقدا ثمينا. فما كاد رسول الله يرى العقد حتى عرفه. وفاض قلبه الكبير رحمة ورِقَة.

كان عقد صاحبته الأولى وزوجه الوفية النبيلة التى وهبت له قلبها وأخلصت له إيمانها، كان عقد الصديقة الأولى التى كانت تشاركه فى البأساء والضراء و تواسيه فى أيام الكرب والشدة، خديجة بنت خويلد.

وقال عمرو بن الربيع: هذا فداء أخى حملته إليك من عند امرأته زينب.

وتمثلت للرسول الكريم صورة امرأته الحبيبة كأنها جاءت إليه تشاركه فى عزة الإسلام كما كانت تواسيه فى أيام شدته.

أهكذا تسخو زينب بهدية أمها، لكى تفدى زوجها، كان ذلك العقد هدية الأم إلى ابنتها عند زفافها، فأى موضع للرجل فى قلب امرأته!

ولم يكن أبو العاص ضئيلا أو خسيسا فقد ذاع بين الناس موقفه من صاحبته عندما تحدى أبا جهل علانية، وأبى أن يتخلى عنها أو يخدش سمعها بكلمة. وقد سمع رسول الله ذلك وشكره له، وإن كان أبو العاص ما يزال فى صفوف أعدائه، فإنه يحمل بين جنبيه قلبا كريما.

ونظر رسول الله إلى أصحابه جائش القلب، وقال لهم وفى صوته فيض من الرقة:

ـ إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا.

وأجاب من حوله وفى أصواتهم صدى رقته فقالوا: نعم يا رسول الله نفعل.

ثم هبوا فأطلقوا أبا العاص وردوا القلادة إلى أخيه عمرو ليحملها معه إلى الزوجة الوفية.

دعوة إلى نحو عصري بين الوهم والتخريب

للأستاذ الدكتور / مبروك عطية أبو زيد (*)

نشرت مجلة الفيصل فى عددها رقم (٢١٨) مقالا بعنوان: «مجامع اللغة العربية ودورها المنشود» جاء فيه ما نصه: «ألا ترى أن أدوات النفى فى عربية عصرنا لا تذهب بعيداً عن «ما» و«لا» و«لم» و«لن» وليس فيها «لما» ولا «لام الأمر» ولا «إنْ» النافية، إنّ هذا كله كان ينبغى أن يفيد منه المجمعيون، وأهل العربيّة من النحاة المعاصرين، فيقدموا نحواً جديداً مستوفى من العربية المعاصرة».

وفى هذا الكلام دعوة إلى نحو عصرى، قدّم فيه صاحب المقال تصوراً لما يكون عليه، وقدّم أنموذجاً له تحت عنوان: «أدوات النفى» وناشد المجامع اللغوية وأهل العربية من النحاة المعاصرين أن يؤلفوا نحواً عصريا جديداً مصدره العربية المعاصرة فعليهم إذَنْ أن يرصدوا أدوات النفى مثلاً على أفواه المعاصرين وما دام المعاصرون لا يستعملون من أدوات النفى سوى ما ذكر من (ما) و(لا) و(لم) و(لن) فليدونوا ذلك قائلين: تلك أدوات النفى التى يستعملها أهل الثقة المعاصرون، عرفتهم فالزموا.

وكاتب المقال أهمل «ليس» ولا أعرف إذا كان يرى أنها مع المستعمل أولا!

ومعنى ذلك أنْ يأتى زمان معاصر كذلك فى وقته وناسه، تهمل بعض الأدوات وتهجر فيوضع نحو جديد يدون فيه ما يستعمله أهل هذا العصر الذى سنكون فيه بلا شك

(*) رئيس قسم اللغويات في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بسوهاج.

فى عَداد الموتى - والموتى يبعثهم الله - ويهمل غير ما يستعملونه، إلى أن يأتى زمان تصبح فيه أدوات النفى أداة واحدة هى « ما » مثلا، أو « لا » فيرد على مؤلف هذا النحو ناقد حصيف شريف قائلا: لقد أخطأت أيها النحوى المؤلف، كيف تعنون للباب قائلا: « أدوات النفى » وما تحت عنوانك أداة واحدة، ومن المؤكد أنَّ ذلك المؤلف الراصد للنحو المعاصر لن يستطيع الرد عليه، فليس بين يديه عندئذ كتاب الخصائص لابن جنى ليطلع على سنن العربيّة، ويأتى بمسوغ مقبول يفحم به ناقده، فما الداعى إلى وجود هذا الكتاب النفيس أو إلى وجود غيره، فاللغة ميادينها معروفة، وشوارعها مرصوفة، وأزقتها مسدودة، لا تنفتح على تراث، ولا تلوى على ماض، ولا تتكل على قديم، يخرج أهل المجامع وأهل اللغة المعاصرون إلى المدارس الابتدائية ونوادى الرياضة والفيديو، ويسمعون، ويكتبون، ويدرس ما كتبوا، ولماذا يدرس ما كتبوا، أندرس النحو لمصادره، فلنترك تدريسه وكان لزاما لأنَّ تلاميذه هم شيوخه ومصادره، وما حاجتنا يومها - لا قدر الله - إلى مجامع لغويّة!

إنَّ ما تقوم به تلك المجامع تقوم به أية بائعة فى سوق الخضر، أليست عصرية - معاصرة!

ولسانها هو اللغة المعاصرة، فليقترب منها عالم النحو - أقصد رجل التدوين - وليسألها بأدب قائلاً:

بالله يا خالة: أعندك نعناع؟

فإن قالت: « لا »

كتبت وراءها: لم تستعمل هذه المرأة المعاصرة من أدوات النفى سوى « لا »

ولكى يبذل جهداً يستحق عنه أجراً عليه أن يقول لتلميذ راسب:

هل أهملت؟

فيرد عليه المهمل قائلا: أنا ما أهملت، ولكنَّ أستاذ العربيّة لم تعجبه لغتى المعاصرة، وعندئذ يترك المدوِّن الإداة الثانية ويتناسى تسجيلها قليلا ليسأل التلميذ:

هل يتحدث هذا الأستاذ بلغة مضبوطة؟

وهل يخرج طرف لسانه عند النطق بالثاء مثلا إذا قال لكم « ثعلب » أينطق بها هكذا أم يقول « سعلب »؟

إنّ هذه الدعوة من قبيل الهزل، وليس فيها من جد يجعلنا نلتف حولها، ونناصرها، والمقال الذى يدعو صاحبه إلى شطب « لمّا » و« لام الأمر » و« إن النافية » من أدوات النفى.

لم يتعرض لورود هذه الأدوات فى كتاب ربنا ـ تعالى - وكأنه يرى أنَّ النحو العربى ليس من هدفه صون اللسان عن اللحن فى كتاب الله - عز وعلا - ومن أمثلة « لمّا » النافية قول الله - تبارك اسمه -:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾(١).

ومن أمثلة «إن» النافية قول ربنا – سبحانه– ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾(٢).

وأمّا لام الأمر فلعله أراد أنها غير مستعملة فى اللغة المعاصرة أداة جزم، فلا أتهمه بأنه يجهل أنها ليست نافية، وإنما هى من الأدوات التى تجزم فعلا واحداً كلم ولمّا، ومثالها من القرآن الكريم قول ربنا –عز وعلا –:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾(٣).

وأنا أشعر أن صاحب المقال وأقطع بأنه يحفظ مثل هذه الآيات، ويتوقع أن يرد عليه بها، والدليل أنه يقول «... ثم إنّ النحوالقديم بعيد عن النحو فى لغة التنزيل»(٤) وهذا حكم كلىٌّ كله ظلم، ولا أدرى ما الكتب التى اطلع عيها كاتب المقال، فخرج منها بما أثبت وقال، وما وضع النحو الذى سّماه قديماً إلاّ خدمة للقرآن الكريم فقد روى أنَّ سبب وضع علىٍّ – كرّم الله وجهه – لهذا العلم أنه سمع أعرابيًا يقرأ «لا يأكله إلا [الخاطئين]» بدلا من «لا يأكله إلا الخاطئون».

ويُروى أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فقال: من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله – تعالى – على محمد – ﷺ – فأقرأه رجل سورة براءة، فقال:

«أنَّ الله برئ من المشركين ورسوله».

بالجر فقال الأعرابى: أو قد برئ الله من رسوله؟! إن يكن الله – تعالى – برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر ـ رضى الله عنه – مقالة الأعرابى، فدعاه فقال: يا أعرابى، أتبرأ من رسول الله – ﷺ –؟!

فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّى قدمت المدينة، ولا علم لى بالقرآن، فسألت مَنْ يقرئنى؟ فاقرأنى هذا سورة براءة، فقال: «إن الله برئ من المشركين ورسولِه» فقلت أو قد برئ الله – تعالى – من رسوله؟ إن يكن الله – تعالى – برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر – رضى الله عنه –: ليس هكذا يا أعرابى فقال: كيف هى يا أمير المؤمنين؟ فقال:

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾(٥).

---

(١) الحجرات ١٤.
(٢) فاطر ٢٣.
(٣) الطلاق ٧.
(٤) الفيصل ص٤٩ العدد (٢١٨).
(٥) التوبة ٣.

فــقــال الأعــرابىُّ: وأنا أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر - رضى الله عنه - ألاَّ يُقْرئ القرآن إلاَّ عالمٌ باللغة.

وروى أنَّ أبا الأسود الدؤلى جاء إلى زياد - وهو أمير البصرة - فقال: إنِّى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وفسدت ألسنتها؛ أفتأذن لى أنْ أضع للعرب ما يعرفون به كلامهم؟ فقال زياد: لا تفعل فلمّا جاء رجل إلى زياد، وقال: أصلح الله الأمير، (توفى أبانا وترك بنونا) فقال له زياد مستنكراً: توفى أبانا وترك بنونا!! أُدْعُ لى أبا الأسود فلما جاءه قال له: ضع للناس ما كنت نهيتك عنه، كما روى أنَّ أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسنُ السماء؟ فقال لها: نجومُها. فقالت: إنِّى لم أرد هذا، وإنما تعجبت منْ حُسنها فقال لها: إذن فقولى: ما أحْسَنَ السماءَ!

فحينئذ وضع النحو، وأول ما رسم منه باب التعجب(٦) واختلاف الروايات وتعددها ينتهى إلى أمر واحد هو أن النحو ما كان وضعه إلاَّ صوناً للسان من الخطأ فى كتاب الله - تعالى - لأنَّ خطأ اللسان في نحو: «ما أحْسَنُ السماء» مع إرادة التعجب لا يؤمن معه تسرب هذا اللحن إلى قوله - تعالى -:

﴿ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾(٧)

فيكون استفهاماً، وهو تعجب، فينحرف المعنى عن مراده، تلك نيّة العلماء من السلف، وهذه أياديهم شاهدة، وتلك مؤلفاتهم بين أيدينا، وما أكثر الكتب المصنفة فى إعراب القرآن الكريم، وبيان مشكله، وقراءاته وتوجيهها والاحتجاج لها، ولو نظر منصف إلى كتب النحو الأخرى لأخذ بقلبه وعينه ما يراه من شواهد سيبويه من القرآن الكريم. رسائل جامعية حصل أصحابها على درجة (العالمية) الدكتوراه فيها، وقد قيل لابن هشام الأنصارى، لم لم تؤلف كتابا فى إعراب القرآن؟ فقال - رحمه الله - أغنانى المغنى، ويقصد بذلك كتابه المشهور: (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) ومن ينظر فيه يقف على تلك الحقيقة - أيضاً - لكثرة ما يجد من ايات الكتاب، ولن تقف المعاصرة حجر عثرة بين الخادم (النحو) والمخدوم الأصلى (القرآن الكريم) أبداً ما دام فينا من يشهد لله بالوحدانية ولسيدنا محمد - ﷺ - بالرسالة وسوف تبقى أدوات النفى شاملة ما جاء فى كتاب ربنا وإن كره المعاصرون.

(٦) وانظر نشأة النحو للشيخ الطنطاوى ص١٧، ١٨.

(٧) البقرة ١٧٥.

الغرام السُّوقى

« تحفة من الشعر الاجتماعى الهادف نظمها الشاعر الأزهرى الكبير الأستاذ محمد الأسمر، وقد اختارها للنّشر الناقد الأديب الدكتور عبد اللطيف الحديدى الأستاذ بجامعة الأزهر»

لا يُلْهِينَّكَ تَغْرِيدُ العصافيرِ ... وناعمُ الريشِ عن نَقْرِ المناقيرِ !!
واحذر من القطَّةِ الملساءِ، إن لها ... أنيابها، ولها خَدْشُ الأظافيرِ
ورُبَّ حسناءَ أمسى قُبْحَ ما صنعتْ ... بالناسِ وهو أحاديثُ الجماهيرِ
فاحذر غوانَى إنْ صَدَّتْ وإن وصَلَتْ ... فهنَّ أشبهُ شئٍ بالمناشيرِ !!
يُصْبِينَ حتى أخا سبعين ليس لهُ ... صِباً فتسخو يداهُ بالدنانيرِ
هُنَّ التَواجِرُ فى كُلِّ الأمورِ فما ... يَسْقُطْنَ إلا على القومِ المياسيرِ
وهُنَّ حَوْلَ الذى يلقى بلُقْمَتِهِ ... شَواخِصَ الطَّرْفِ أشباه السَّنانيرِ
حتى إذا نضبتْ يوماً موائدهُ ... بحثْنَ عن غيرها بَحْثَ المساعيرِ
فاحذرْ شواردَ منها لا رقيبَ لها ... ولا تَغُرَّنْكَ ربَّاتُ المقاصيرِ
كم من قصورٍ حوتْ أركانُها دَنَساً ... تعجَّبَتْ منه أركانُ المواخيرِ !!
تلكَ الغواني غواني السُّوقِ ليس لها ... خِلٌّ، ولو كان وهَّاب القناطيرِ
وما شكَرْنَ يداً أسْدَتْ لهنَّ يداً ... بل هنَّ فى الأخذِ أشباهُ الأعاصيرِ !!
يَبيتُ فى أسْرِهنَّ المرءُ مُبْتَسِماً ... يَخْدَعْنَهُ فهو وضَّاحُ الأساريرِ
فيا عجيباً تراهُ وهو مُغْتَبِطٌ ... ولو درَى لرأى سُخْرَ المقاديرِ !!

***

هذا وكَمْ من رجالٍ أدنياءَ لَهُمْ ... إنْ صادفُوا غِرَّةً فَتْكُ المغاويرِ
وإنْ أحاطوا بسرٍّ ليسَ يَعرِفُهُ ... سواهُمُ أعلنوه بالمزاميرِ !!
ومنهمُ معشرٌ أعداءُ أُمَّتِهم ... لَهُمْ غرامٌ بتجريحِ المشاهيرِ !!

مُبالغونَ، وقد تلقاهُمُ وضَعُوا ... مايأفكونَ به، وَضْعَ الأساطير
لو أنَ كُلَّ امرىءٍ يعنى بحالته ... لم يَمْشِ قومٌ لقومٍ بالأخابير[1]
ياويحَ مَنْ أعْرَضوا عن بَحْثِ أنفسهمْ ... ويبحثون سواهُمْ بالمناظير!!
ومن تأمَّلَ يوماً ما صَحيفَتَهُ ... ألهاهُ ذلك عن فحص الأضابير[2]

***

يالهفَ نَفْسى على الزوجاتِ ضَيَّعَها ... من البُعولِ رجالٌ كالطَّراطير
تَخْفَى الحقائقُ عنهمْ وهى واضحةٌ ... فينظرون إليها كالسَّمادير[3]
ولا يثورونَ بُركاناً له حَمَمٌ ... لكن يثورون أشباهَ القراقير[4]
كيفَ اطمأَنُّوا فناموا عن حدائقهم؟! ... سَرَى اللصوصُ فما نومَ النواطير؟![5]
وكُلُ بُستانِ وردٍ نامَ صاحبُهُ ... عن حِفْظه فهو منهوبُ الأزاهير!!

***

ولهفَ نَفْسى على زَوْجٍ تُدَنِّسُهُ ... قَرينةٌ، زوجُها زوجُ (الفوازير)
من الغوامضِ لا (رَمْلٌ) يُبَيِّنُها ... ولا شيوخٌ قُعُودٌ بالطوامير[6]
من الَّلواتى إذ ما ريبةٌ عَرَضَتْ ... فَهُن ماهُنَّ فى خلقِ المعاذير!!
فيالها من ظلامٍ غيرِ مُنْكَشِفٍ ... يلوحُ كالصُّبحِ، وضَّاحَ التباشير[7]

***

اللهُ للناسِ، عَمَّ الشَّرُّ وامتلأتْ ... أسواقُهُ بالأباليسِ المَناكير
فاحذرْ وحذِّرْ وأصْلحْ ماستطعتَ ولا ... تَبْغِ الفساد، ورفقاً بالقوارير[8]

---

(١) الخبر جمعه أخبار، وجمع الجمع أخابير.
(٢) الأضابير جمع إضبارة: الحزمة من الصحف.
(٣) السمادير: الخيالات والأوهام.
(٤) القراقير: المراد بها هنا مايحدث فى البطن من الأصوات.
(٥) النواطير جمع ناطور: حافظ الكَرْم والزَّرع.
(٦) الطوامير: الصحف جمع طامورٍ، وطومار.
(٧) التباشير: أول كل شئ.
(٨) القوارير: أوعية الشراب الزجاجية، ويكنىُّ بها عن النساء، وقد جاء أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأنجشة وهو يحدو بالنساء حدواً من شأنه إسراع الإبل فى المشى (رفقاً بالقوارير».. وقالوا فى قوله تعالى (قوارير من فضة) إنها مع كونها من فضة فهى فى صفاء القوارير وشفيفيا.

يهود الشرق فى الأدب العبرى الحديث

للدكتور / محمد حسن عبد الخالق

إن الصراع المستعر بين يهود الغرب ويهود الشرق من المشاكل العويصة التى تؤرق الكيان الصهيونى وقد تجلى هذا الصراع فى الأدب.

فقد ظهرت فى الأدب العبرى الحديث صور عديدة عن حياة يهود الشرق فى فلسطين وان كان قد كتبها من الأدباء الاشكناز أمثال:

«آرى بن ذهاب»، «دوف قمحى»، «حاييم هزاز»، «شموئيل يوسف عجنون»، «لئه جولدبرج»، «يهوشع ابن يوسف وغيرهم». (١)

كما أن فصول الأدب التى تصف يهود الشرق فى الكتب التعليمية كانت عبارة عن مقتطفات أدبية مختارة لا تحدد شخصية ذاتية ايجابية للطالب الشرقى الأصل، فالأوصاف شكلية تعوزها الأصالة ولا تحتوى إلا على بعض السمات الشخصية لليهودى الشرقى مثل:

«أسود العينين» و«أسود الشعر» و«قصير القامة» و«نحيف» و«هزيل» و«ملابسه ممزقة» و«يسير حافيا» و«يلبس طربوشا أحمر». (٢)

وهذا الوصف قد دعم الصور القائمة فى كثير من الأحيان، فاليمنيون يبيعون النعال والأكراد حمالون، واليهود الشرقيون بصفة عامة شهوانيون، متسولون، جهلاء ومتلعثمون. (٣)

وبرزت هذه الصورة أيضا بين أبناء الطوائف الشرقية المختلفة فصفة البخل مرتبطة اكثر بيهود إيران، ويحكى أنه عندما سمع بعض الجنود من أبناء طوائف الشرق أن إسرائيل ارسلت مندوبا الى إيران لجمع التبرعات لصالح اليشوف، ضحكوا جميعا وأضافوا قائلين: أن الإيرانيين لن يعطوه شيئا، وانتشرت دعابات كثيرة حول هذا

(١) شاطل، توترات طائفية فى شعب إسرائيل (متحيم بين عماتييم بعم يسرائيل) ص٦٣.

(٢) شاطل، يهود الشرق فى أدبنا (يهودى همزراح بسفروتينو) ص٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢.

الموضوع، كما يصف يهود كردستان اليهود المغاربة بأنهم قذرون ملعونون يأكلون العشب. أما المغاربة فقد الصقوا بهم صفة العنف. (٤)

وللحقيقة يجب أن نذكر انه لم يكن يكفى أن يكون الأدباء سفارد ومن أبناء الطوائف الشرقية لكى يعبروا عن يهود الشرق بصورة ايجابية، فهناك أدباء سفارد صوروا اليهودى الشرقى بصور سلبية وعلى سبيل المثال نجد أن «شلوقو طبعونى» فى قصته «شاب فى كرمة اليمنيين» و«بن صهيون يهوشع فى قصته»، «مدينة فى الأفق»، و«مردخاى طبيب فى قصته» «قيثارة يوسى» و«دافيد سيطون» فى قصته «قصة حى»، قد وضعوا يهود الشرق بصور سلبية، فهم حقراء فاسقون يهملون أولادهم ويضربون زوجاتهم، وقد تفاوتت درجة السلبية التى يصورها الكتاب ليهود الشرق من كاتب لآخر على حسب رؤيته فمن الأوصاف التى يرددها الاشكناز عن يهود الشرق هى «سود». (٥)

وهناك مثل منتشر بين يهود العراق يسخر من الفتاة السمراء التى تحاول عبثا أن تظهر بياضها بالمساحيق «خنفساء فى الدقيق».

وتحكى «عليزة لبنبرج» عن أم نزحت من ليبيا حيث تقول عن ابنها وهو ولد جميل أسمر البشرة مسكين! انظروا كم هو أسود. (٦)

وفى قصة «شعشوع وابنته، يحذر شبتاى طبت ابنة شعشوع من الزواج برجل اسود فيقول» لن يكون لك منه بنات على قدر من الجمال ولن يطلبهم أحد منك للزواج. (٧) وهناك أغنية للاطفال مشهورة فى إسرائيل تقول:

«كنت مرة فى اليمن..... وهناك رأيت زنجيا صغيرا»

وصفة السواد هذه نسبية، فيهود شمال افريقية الذين يعتبرون سودا فى أعين الاشكناز كانوا ينقلون هذا الوصف للذين نزحوا من الهند الاكثر منهم سوادا. (٨)

وكى نتعرف على شعور يهود الشرق تجاه ابناء اليشوف الاشكنازى علينا أن نطالع النتاج الادبى الذى كتب فى هذه الفترة، فقد كتبت «مريم بوسقيلاه جوتمان» تصف أيام ميلادها بحيفا، وما قاسته كبنت لعائلة سفاردية اشكنازية كما تصف الاطفال بالمستوطنة وهم يسخرون منها، أما السفارد فى حيفا فقد كانوا يترنمون خلفها بقولهم: «النغلة البولونية»، «يا اشكنازى بيخ.بيخ، حطوا رأسه فى الطبيخ» وتضيف قائلة أما أنا فكنت أغطى وجهى وأكتم بداخلى الحقد فقد كنت أحقد على العالم كله. (٩)

وفى رواية «مزيفى الحياة» للكاتبة مريم طل يظهر صاحب البيت وهو يكيل الشتائم والاهانات

---

(٤) شاطل: توترات طائفية، ص٦٣.
(٥) شاطل. توترات طائفية، ص٦٣،٦٤.
(٦) حياط. شمعون: الأسرة فى أمثال يهود بابل، (همشباحاه ببتاجميم شل يهودى بابل)، أبحاث مركز الفولكلور، القدس، ١٩٧٣، ص١١٧.
(٧) شاطل: توترات طائفية، ص٦٥.
(٨) نفس المصدر.
(٩) شاطل: توترات طائفية، ص٦٦.

للشـاب اليـمنى الذى يعـمل عنده ويدعـوه باسم « الهمجى الاسمر » واخواته « القذرات » أما المحامى الذى هاجر من المانيا ويظهر فى نفس الرواية فإنه يقترح على الطلائع المثقفة العمل فى تخصصاتها أما الأعمال البسيطة فيقوم بها أبناء طوائف الشرق الذين يكونون الطبقة السفلى. [١٠]

وتقول على لسان بطلتها:

« لقد قالت لى أمى: انه فى الوقت الذى يأخذ الاشكنازى ثلاث ليرات، يأخذ الشاب من عندنا ليرة واحدة فقط، يبدو أن النقود جيدة من أجل اليهود البيض وسيئة من أجلنا.. » [١١]

وحسب أقوال عضو الكنيست « مردخاى بن بورات من قبل حزب العمل » أن ٣٪ فقط من الوظائف الكبيرة فى الدولة يشغلها أبناء طوائف الشرق » [١٢]

أما مردخاى طبيب فى قصته « مثل عشب الحقل » فيصور لنا « يحيى » وهو يستمع لاقوال مسئولة من الموشاف وهى تتحدث أمام النساء اليمنيات عن حقوق المرأة وتعرب عن قلقها لعادة زواج البنات وهن صغيرات، أما يحيى الذى كان يعرف المتحدثة جيدا فقد سألها:

« إن كنت قلقة هكذا على نساء اليمن وبناتهن، فلماذا تعمل النساء اليمنيات العاملات فى المنازل ثمان ساعات فى اليوم، ولماذا تستخدمين الفتيات اليمنيات فى الاعمال الشاقة وهن لم يتجاوزن الاثنى عشر عاما ».

كما أن النفس المشحونة بالألام لم تكن تكتفى بالإجابة الكلامية، فان « مردخاى طبيب » يصف فى نفس الكتاب كيف أوقع « يحيى » اليمنى الفلاح الاشكنازى القوى شندروفيتس وانهال عليه ضربا بكل قوة.

ونفس هذا المضمون يطرحه « شلومة طبعونى » فى قصته « شاب من كرمة اليمنيين » ويحكى أنه قد أوقع هو وأصدقاؤه مدير المدرسة الاشكنازية الذى يبغضهم وكسرت يداه [١٣]. وكيف أهين عندما أرسله الكيبوتس الخاص به للاشتراك فى ندوة للمحاضرين وبسبب لون بشرته، أى « بكونه ابن الطائفة اليمنية » عاد وأصيب بخيبة أمل عندما ادرك أنهم لن يعينوه محاضرا رغم انتهاء تعليمه بسبب لون بشرته. [١٤]

ورواية يهوديت هندل « شارع السلالم » التى تهتم بقضية حب على خلفية من التمييز الطائفى فى حيفا فى سنوات الاربعينيات وتصف المحادثة بين فتاة اشكنازية وشاب سفاردى وتقول الفتاة « لا ينبغى أن يكون الانسان أحسن من الاخرين كى يحصل على عمل » فيجيبها الشاب: « وان كان سفارديا فما العمل! ». [١٥]

وهذا المفهوم يتردد صداه فى عديد من الروايات والقصص حيث يحكى لنا « لف حقوق » فى احدى روايته الفولكلورية « المجموعون » عن رجل يعيش فى

---

(١٠) نفس المصدر، ص٣١.

(١١) نفس المصدر، ص٣٢.

(١٢) مشاكل السفارديم فى إسرائيل، ص٤٢. (بعيوت هسفارديم بيسرائيل) ص٤٢.

(١٣) شاطل: توترات طائفية. ص٣٢.

(١٤) نفس المصدر، ص٣٣.

(١٥) نفس المصدر: ص٤٥.

أمريكا ويرسل إلى إسرائيل خطابين متطابقين فى المضمون يطلب عملا لدى احدى الوزارات، ويذكر فى الخطاب الاول اسم المرسل، وهو اسم اشكنازى وفى الثانية اسم سفاردى، ويأتى الرد بالموافقة على صاحب الاسم الاشكنازى ويقترحون عليه وظائف مختلفة، أما صاحب الاسم السفاردى فيعتذرون له بعدم وجود أماكن شاغرة فى الوزارة. (١٦)

كما أن النتائج العملية لهذه التوترات كانت سيئة للغاية، رسوب فى المدرسة وتشرد واجرام وشعور بالقطيعة عن المجتمع، مما جعل الشباب من أبناء طوائف الشرق يرفضون الانضمام للمؤسسات التى يؤسسها الاشكنازيم ويفضلون الانضمام للحركات السرية وليس للارجون المركزى المألوف للاكثرية الاشكنازية. (١٧)

وقد كتب « يهودا بورلا » عام ١٩٢٠ فى المجلة التى حررها ابراهام المالح « من الشرق والغرب » عن غبن السفارديم واستخفاف اليشوف الاشكنازى القديم فى فلسطين بهم لدرجة رفض الاشكنازى الأكل من وعاء السفاردى. (١٨)

كما كتب ابراهام كوهين مزراحى وهو من مهاجرى إيران، يصف الطوائف القديمة والواسعة فى الموشافاه والتى تتعلق بالايرانيين واليمنيين، وكيف يطلق الاشكنازيم عليهم أسماء مخزية ويصفونهم بصفات سلبية مختلفة. (١٩)

وهذه العلاقة الاشكنازية قد دفعت الشرقيين الى الرد بصور مختلفة وان كان من الصعب الحفاظ على التوازن النفسى تجاه تعابير الازدراء لأبناء الجماعة القوية والتى تتحكم فى المجتمع، وفى معظم الاحيان كانت الاجابة التباهى بأمجاد الماضى وقد أثارت هذه العلاقة السلبية العداء لدى الطرفين.

ويصف لنا « مردخاى طبيب » فى قصة « مثل عرعر فى صحر العاراف » شابا يمنيا يسير الى جانب فتاة اشكنازية ولا يريد أن يبدأ معها الحديث كى لا تظن أنه متلهف عليها لكونها متعلمة واشكنازية. (٢٠)

وقد اعتاد يهود ليبيا أن يأكلوا فى ليلة غرة شهر « ابريل » البسيسة اعتقادا منهم أن بها بركة تكفيهم طول العام وبهذه المناسبة يجتمع أفراد الاسرة جميعا ويحتفلون بهذه الوجبة.

وقد حدث أن جاء أحد التلاميذ من نازحى ليبيا إلى مدرسة فصله وأعطاها من البسيسة التى أعطتها له أمه، وبالطبع لم تكن المدرسة تعرف هذه العادة. فنظرت اليه بازدراء وقالت له: ما هذه الاشياء البغيضة التى تقزز النفس، هل تأكلون هذا؟

وقد أصيب التلميذ بخيبة أمل وتذكر هذا الموضوع لسنوات عدة. (٢١)

---

(١٦) نفس المصدر: ص٢٥.

(١٧) شاطل: توترات طائفية، ص٣٣.

(١٨) بورلا. يهودا: السفارديم وأحياؤنا القومى (هسفارديم فتحياتينو هلؤميت) مجلة الشرق والغرب، العدد الأول، ١٩٢٠، ص١٦٧ - ١٧٥.

(١٩ مزراحى. إبراهام كوهين: لفاطيم، تل أبيب، ١٩٣٣، ص١٦٦، ١٦٧.

(٢٠) شاطل: توترات طائفية، ص٣٢.

(٢١) شاطل. إبراهام: الاندماج الثقافى فى إسرائيل (مزوج تربوتى بيسرائيل)، مكتبة من هموفيد، عم عوفيد، التربية والتعليم، القدس، ١٩٧٨، ص٨.

وقد طلبت احدى المربيات فى روضة للاطفال من الامهات السفارديات ان يتكرمن بمساعدتها فى أعداد المأكولات الخاصة التى تعودن عليها فى طائفتهن كى تستعد الروضة لاستقبالهن فى «عيد البوريم» وبدأت احدى الامهات تحكى عما كانت تعده لهذا العيد، لكن الجميع قاطعها قائلا «نحن فى اسرائيل ونريد أن يتعلم اولادنا ما يصنع فى البلاد، كلنا يهود وكل ما لدينا موجود لديكم». (٢٢)

وقد انتقلت العادات من طائفة الى أخرى سواء بتأثير المدرسة ووسائل الارتباط أو بعلاقات الجوار والزواج بين الطوائف السفاردية وأن كان الوضع يختلف بالنسبة للاشكناز والسفارد.

ففى احدى الوزارات كانت تعمل موظفة من رومانيا، وعلمت أن والد زميلتها الكردية قد توفى وأبلغوها أنها ستبقى فى منزلها سبعة أيام الحداد طبقا لعادة يهود كردستان، والمعترف بها فى عديد من الطوائف الأخرى فلا يطبخ الثكالى لأنفسهم، وكل من أتى لمواساتهم يحضر معه وجبات مطبوخة أو مواد غذائية مختلفة كالخضروات واللحم والقهوة والسكر، أما الموظفة الرومانية فقد أنهت عملها وذهبت الى السوق لاحضار ما تحتاجه لبيتها وفى الطريق عرجت على منزل زميلتها الكردية لتواسيها، فقد كان بيتها أمام السوق، ووجدت الزميلة ترتدى السواد وتبكى وتولول وبعد أن أنهت زيارتها وهمت بالخروج دهشت عنما سلمها أحد ابناء عائلة الفقيد سلال مشترواتها فارغة. (٢٣)

وقد وجد المهاجرون من اليمن وإيران وكردستان أنفسهم فى اسرائيل فى أسفل السلم الاجتماعى فى حين أن المهاجرين من مصر والعراق وسوريا ولبنان قد استوعبتهم «إسرائيل» من الناحية الاقتصادية والثقافية وليس دائما من الناحية الاجتماعية. (٢٤)

ويعيش الاشكنازيم فى ظروف أحسن: فالسيدة الاشكنازية تعمل بالوظائف العامة وتقضى معظم ٤ أوقات فراغها فى المقهى وتترك شئون بيتها لتقوم بها احدى السفارديات، والاشكنازى يرفض الضيف الذى يزوره دون سابق موعد بل انه مستعد حتى لطرده[٢٥] كما أنه لا يحب كثرة الأولاد وذلك بعكس السفاردى الذى يحب ضيفه ويرحب به فى أى وقت يشاء كما يحب كثرة الاولاد حيث يقول يهود المغرب فى حيفا: «إننا نحب الاولاد وهم يأوون الكلاب كما أننا نحتفل بأعياد الزواج والختان بيد سخية أما هم فلا يفكرون إلا فى كيس نقودهم». (٢٦)

وعندما ذهب داود حداد «بطل رواية الزوجة المكروهة» الى قبر «أمنا راحيل وتطلع الى عديد من النسوة السفارديات وهن يطفن حول الضريح مع أولئك النسوة الاشكنازيات اللاتى يثرثرن اكثر من اللازم قال فى نفسه: «هؤلاء

---

(٢٢) المصدر السابق، ص٩.

(٢٣) نفس المصدر، ص٣٥.

(٢٤) كوهين، اليهود فى بلاد الشرق الأوسط فى العصر الحديث، ص١٧٠. (هيهوديم بأرتسوت مزراح هتيخون بيمينو)

(٢٥) شاطل: توترات طائفية، ص٦٢.

(٢٦) شاطل: نفس المرجع السابق، ص٦٣.

الاشكنازيات مزعجات، يفعلن هنا -أيضا- مثلما يحدث فى شارع اليهود حيث يتزاحمن وسط الناس يومى الخميس والجمعة وهن يشترين من عنده الدجاج والبيض» . (٢٧)

وعلى العموم فان مستوى الاعتبارات التى تعد ايجابية فى عين اليهودى الأوروبى كالتنظيم والتوفير وغيره، تبدو فى عين اليهودى الشرقى عكس ذلك ويرى فى الاشكنازى الاهمال والبخل، وهنا يبدو الفرق بين ما تعود عليه اليهودى الشرق فى البلاد الإسلامية التى اشتهر أهلها بالكرم وبين ما يراه الآن ولسوف يفكر اليهود الشرقيون بحسرة ومرارة فى إهمال الصهيونية للعلاقات المتينة التى كانت تربط اليهود منذ أكثر من ١٢٠٠ سنة. (٢٨)

وعندما جاءت محاضرة ببلدة تنمية فى الجنوب وحاضرت أمام النسوة اللائى خرجن من المغرب وإيران على طريقة حفظ الطعام فى حجرة التجميد بالثلاجات وعن إعداد وجبة طعام ليوم واحد، قالت النسوة: ساخرات «علمونا كيف نصبح بخيلات» .(٢٩)

كما نرى ربة البيت السفاردية فى رواية «شارع السلالم» لـ «يهوديت هندل وهى تسخر من الاشكنازيات اللائى تعددن وجبة الطعام بالمعلبات وتقول عنهن «ربما لعدم اهتمامهن بالطبخ أو بسبب الكسل» .(٣٠)

وقد وصف لنا يهودا بورلا فى رواية «مغامرات عقبيا» عائلة اشكنازية حيث يقول:

«وكانت هذه العائلة لا تطيب فى أعين السفارديم وخاصة من الاناضول والبلقان من أين خرج هؤلاء اليهود الى عالم القدوس -تبارك وتعالى- كيف يحلقون رؤوسهم وكيف تتدلى سوالفهم كأعناق الدجاج المذبوح.. لحاهم معقدة ووجوههم مجعدة وعابسة وظهورهم منحنية وخطواتهم سريعة، ولغاتهم مختلفة، وعندما يرتلون العهد القديم تشعر بأنهم يتفوهون بألفاظ غير مفهومة، وصلاتهم لا نظام فيها ولا قداسة، ولا وصف ولا وقار.. هؤلاء يتحدثون وأولئك يلتفتون والآخرون يتحركون كمن مسهم الجنون.

أما فيما يتعلق بالنظافة والزينة ـ يرحمنا الله! فإنهم قذرون ورائحة الثوم والبصل والسمك المالح تنبعث من منازلهم طوال الايام والخلاصة: هؤلاء ليسوا بشرا» (٣١).

فلا عجب أن ينعت كل منهما الآخر بتعبيرات سيئة وتحدى كل منهما الآخر وتخاصموا فيما بينهم.

أما عن انطباعات الاشكنازيم حيال يهود الشرق فيصف لنا «مردخاى طبيب» أولاد الموشاف الاشكنازيم وهم يتطلعون لزميل لهم يمنى حين طرد من فناء المدرسة كما لو كان نوعا مختلفا من المخلوقات.

---

(٢٧) بورلا. يهودا:الزوجة المكروهة، (إيشتو هسنوءاة) دار نشر منسفا ١٩٢٢، ص٩.

(٢٨) دوماس، لوسيان كافرو: العار الصهيونى - ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢، ص١٣٥.

(٢٩) شاطل: توترات طائفية، ص٦٣.

(٣٠) نفس المصدر، ص٤٥.

(٣١) بورلا. يهودا: مغامرات عقبيا (عليلوت عقبيا) دار نشر مؤسسة بيالق، تل أبيب، ١٩٤٨، ص٢٥٤ - ٢٥٥.

«أيهـا الاولاد! تعـالوا وانظروا ولد يـمنى، وكـان أصـدقـاء هذا اليـمنى ينهلون أقـواله بظمـأ عندمـا يتحدث عن انطباعاته لدى الاشكناز كما لو كان قد عاد من رحلة بعيـدة»[٣٢] وفى معظم النتاج الأدبى نرى تعبيـرات بين الاشكنازيم والسفـارديم وأحيانا يقوم التناقض بين الجماعات السفاردية نفسها.

فـان طوفاه ابنة شعشـوع قد لاقت معارضة من جانب عائلتها مهاجرى العراق عندما صادقت شابا يمنيا« ماذا! يا طوفاه، أتتزوجين من زنجى». [٣٣]

ويقـول يهـوشع قنيئل:« لدينا إحصـاءات عن الزواج الطائـفى بين الطبـقـات ذات المسـتـوى المرتفع، وبين المستوى الأكثر انخفاضا، أما الطبقة المتوسطة، وهى القاعدة العريضة فحالات الزواج الطائفى فيها قليلة[٣٤].

أمـا «يعـقـوب يهـوشع» فـيـصف «الحـيـاة فى القـدس فى بـداية هـذا القـرن ويقـول: ان الزواج المختلط كان قليلا بسبب عدم رغبة الاشكنازيات الثريات فى الزواج من الشباب السفاردى الفقير والجـاهل ولوجـود فـوارق كـبـيـرة فى أنماط الحـيـاة والتى يمكن ملاحظتها بسهولة فى شتى مناحى الحياة. [٣٥]

كـمـا يصف زواج «يهـودى هنغـارى» من «يهـودية سفـاردية» ويقـول: «وذات يوم وعندما عـاد من المعبـد وجـد زوجـتـه تمسح الارض وهى حافية القدمين، وعندما رآها هكذا طلقها». [٣٦]

ويحـاول بورلا فى روايتـه «نعـمـة» أن يطـمس هذه الحقيقة ويرفع من شأن يهود الشرق حيث يصـف الجـدال بين «نعـمـة» وصـديقـاتهـا عن موضوع امكانية زواج يمنية من اشكنازى وتعرب نعمة عن رأيها وتقول:

«اننى لا أعترف بالفوارق بين الطوائف، ومن يعتقد هذا، فهو دليل على أنه يعترف فى أعماقه بأنه مختلف وأقل من أبناء طوائف اخرى لكنى لا أعـتـقـد ذلك ولا اشـعـر به لكنهم يعـتـقـدون ويشعـرون بذلك، وما فائدة أن كنت لا تفكرين ولا تشعرين بهذا.

ـ لا يهـمنى تفكيرهم وشعورهم، فأنا أعرف تفكيرى وشعورى. [٣٧]

وقد صور لنا «حاييم هزاز» فى رواية «الجالسة فى الجنات».

«روميـة»: ابنة صـهـيـون والتى تمثل الجـيل الثالث، وهى تعانى مما تشاهده من تفرقة عنصرية بين الاشكنازيم واليمنيين.

وركز «هزاز» فى قصصه على هذه الظاهرة لدرجة أنه أشار أكثر من مرة الى أن التـرتيب الأبجـدى فى حـيـاة الطائفـتـين يجـعـل الاشكنازيم فى أول القـائمـة واليـمنيـين فى آخرها [٣٨] وهى ظاهرة لها مغزاها فيما تعانيه

---

(٣٢) طبيب: نفس المصدر، ص٤٤،٤٦،٤٧.

(٣٣) شاطل: توترات طائفية، ص٤٥.

(٣٤) نفس المصدر: ص٢٤.

(٣٥) نفس المصدر: ص٢٥.

(٣٦) نفس المصدر: ص٢٦.

(٣٧) بورلا. يهودا «نعمة» أو «من السر والعلانية» (بنستار أوبنجلييه)، دار نشر سفارديم «متسبا»، تل أبيب، ص٨٩.

(٣٨) حاييم هزاز، الجالسة فى الجنات «هيوشفت بجانيم» ص٦٨.

إسرائيل اليوم نتيجة التنافر الموجود فى مجتمعها فبمجرد نظرة خاطفة الى المجتمع الاسرائيلى سوف نلاحظ من أول وهلة مدى الفارق الكبير بين العناصر البشرية المكونة للمجتمع الاسرائيلى والتى تتمثل فى السفارديم والاشكنازيم والعرب حيث نجد أن الاشكناز يحتلون المرتبة العليا فى بناء الهرم الاجتماعى فى إسرائيل ويأتى اليهود السفارد بعدهم من حيث التدرج الطبقى أما العرب فيمثلون المرتبة السفلى.

أما عن العلاقات الايجابية تجاه يهود اليمن فقد ظهرت أيضا فى أدب الاطفال فنجدها على سبيل المثال فى كتاب اليعزر شموئيلى أو فى أغنية «لفتى يمنى» لـ «يوآب الشطين حيث تقول كلماتها:

«وجهى أبيض وهو اسود، وأبوه منحن على كتاب قديم، انه العهد القديم المقدس، وهو الجسر بيننا[٣٩] ومن العوامل النفسية التى تلعب دورا بارزا فى ازدياد حدة التفرقة شعور اوائل اليهود الاشكناز بأسبقية اليهود الشرقيين فى الاقامة فى فلسطين.

لذلك كانت ردة فعل هؤلاء الاشكناز تجاه اليهود الذين قد استوطنوها قبلهم. بالاضافة الى اعتقاد الاشكناز باقتران اليهود الشرقيين الذهنى بالعرب، فهم يشبهون العرب فى شكلهم وانماط حياتهم.

ومن بين الاشكناز من يقول:

«من يعلم، قد يأتى اليوم الذى ينحاز فيه اليهود الشرقيون مع العرب، اذ ليس هناك فرق بينهم وبين العرب ».[٤٠] بالرغم من أن اليهودى الشرقى هو يهودى قبل كل شئ.

ومن كان يعتقد بأن الفوارق الطائفية آخذة فى التقلص ربما اندهش عندما رأى التوتر على الخلفية الطائفية قد زاد فى سنوات الاسترخاء والتى اعقبت حرب الاستنزاف مع تنظيمات «الفهود السود» فى يناير ١٩٧١.

أما فيما يتعلق بالتمثيل فان المشاكل الكثيرة التى تحدثنا عنها هى نتيجة عدم تمثيل ابناء طوائف الشرق فى المراكز الحكومية الحساسة والمؤسسات العامة، فان أبناء طوائف الشرق محرومون فيما يتعلق بالاحزاب والمؤسسات العامة، وعلى الرغم من أن الطائفة السفاردية تشكل نسبة لا بأس بها من السكان، وكما أوضحنا أن ظاهرة التوترات الطائفية كانت قائمة من قبل وجذورها عميقة ولا حلول لها، طالما أن عصا السلطة وتعنتها فى يد الاشكناز يهود الغرب وسيظل الصراع قائما.

---

(٣٩) شاطل: تواترات طائفية، ص٦٥.

(٤٠) شاطل: المصدر السابق من ١٠٨.

كتاب الشهر

دور يهود الدونمة في إسقاط الخلافة العثمانية

للدكتور محمد محمد ابراهيم زغروت

عرض وتقديم

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين

لا ريب فى أن الأديان السماوية موحى بها من الله -سبحانه- لهداية البشرية على اختلاف بيئاتها؛ فهى -فى حقيقتها- تقوم على أصول واحدة ثابتة، لا يعتورها خلاف. يقرر ذلك ما حكاه القرآن الكريم على لسان عيسى -عليه السلام- فى قوله:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾(١).

وما بين هذه الديانات من خلاف فى بعض الفروع إنما هو ذلك الخلاف الذى يستلزمه التباين البيئى بين حاجات الإنسان، واحتياجاته وظروفه.

ولا ريب -كذلك- فى أن الإنسان هو الذى اصطنع تلك الخلافات الناشبة باسم الدين بين اليهود والنصارى والمسلمين، فهى صور من الصراع البشرى الذى يُلبَس ثوب الدين، على الرغم من وحـــدة هذه الديانات، وتوافقها فى مصدرها، وحقيقتها، ومقاصدها.

وكان أبرز هذه الخلافات وما واكبها من صراع وتآمر.. تلك التى أثارها اليهود بين بنى إسرائيل من مبعث المسيح - عليه السلام-؛ فاشتعلت نيران الفتن بين من بقى على يهوديته، ومن اعتنق النصرانية. فلما بُعثَ محمد -ﷺ- ازدادت نيران الفتن احتداماً، حتى كادت حقيقة الدين - فى صوره الثلاثة- تختفى وراء ما اصطنعه هؤلاء من تآمر، وما أقاموا عليه العلاقات الإنسانية من تدابر وشقاق، اعتمدوا فيه على الدس والتزييف خصوصاً حين لمسوا قوة الإسلام الذاتية، واستشعروا ما فيه من إمكانات أخافتهم، فانطلقوا بكل وسائل الكيد يتتبعونه فى كل موقع لينالوا من قوته وصلابته، ويقضوا على وحدة المسلمين.

وقد بدأ اليهود تلك الحرب فى حياة الرسول -ﷺ-، وواصلوا تلك الحرب، مع تطويرها فى كل مرحلة بما يناسبها.. إلى عصرنا الحديث.

والكتاب الذى نقدمه اليوم، يصور قطاعاً صغيراً من اللوحة الكبرى التى تبرز هذا التآمر والتزييف الموجه من اليهود إلى الإسلام والمسلمين.

وهو يضم نحو خمسين ومائة صفحة من القطع المتوسط، أعده الدكتور محمد محمد إبراهيم زغروت، ونشرته دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر سنة ١٩٩١م وكان وقته أستاذاً مساعداً بكلية الملك خالد العسكرية بالرياض.

وقد ضمن الكتاب مقدمة وفصلين وخاتمة.

---

(١) الصف (٦).

أصـــل الدُّونمـــة

الفـصل الأول « تسلط حـركـة الدونمة على الدولة وعزل السلطان عبدالحميد » يضم ثلاثة مـبـاحث. عـرَّف في المبحث الأول بالدونمة، وأصولها، فذكر أن كلمة « دونمة » كلمة تركية مركبة من جزءين؛ الأول « دو » الفارسية بمعنى اثنين، والجـزء الثـانى « نمة » بمعنى « نوع »، فالتركيب يعنى : الفرقة القائمة على نوعين من الأصول؛ إشارة إلى أنها تطلق على تلك الجماعة ذات الأصل اليهودى المتظاهرة بالإسلام وأصبحت ذات هويتين، إحداهما مُظَهَرة - وهى الإسلام- والأخرى مُضْمَرَة، وهى اليهودية.

وقد أطلقها الأتراك على اليهود الذين فتحت تركيا الإسلامية أبوابها لتؤويهم من اضطهاد الأسبان، وما لاقوه من محاكم التفتيش هناك فتوافدوا على « سالونيك »، و« الآستانة ».

ولم يكن هذا السلوك الازدواجى من اليهود مقصوراً على من فروا إلى أرض الإسلام، فقد صنع ذلك من فروا منهم إلى البرتغال حيث تظاهروا باعتناق المسيحية الكاثوليكية، وأضمروا التمسك باليهودية -على ما كان عليه كثير من يهود المدينة المنورة منذ العهد النبوى، وكيف كانت منهم جماعة المنافقين.

بيد أنهم فى تركيا أحكموا التخفى، فتمكنوا من التدخل فى شئون الدولة، والهيمنة الكاملة على جـمـيـع مـجـالات الأنشطة الفكرية والاقتصاديةوالتربوية والسياسية.

والذى أعانهم على إحكام التخفى قيام شاب يهودى فى أواسط القرن السابع عشر يدعى (شبتاى صبنى) بتجميعهم سراً، بعد أن أقنعهم بأنه « المسيح المنتظر » ليخلصهم من ويلات الاضطهاد الذى يلاحقهم من أوروبا، مستغلاً فى ذلك جو الحرية الذى كفله الحكم الإسلامى فى تركيا، فبلغ « شبتاى » أوج مجده فى عاصمة الدولة العثمانية. ولما تنبهت الدولة إلى ما يقوم به -وكادت تفتك به- أعلن إسلامه؛ فنال إكرام الدولة، وتم تعيينه رئيساً للحُجاب، دون أن تعى الدولة ما يضمر، بينما أرسل إلى مريديه يطمئنهم إلى استمراره على الطريق، وأنه تظاهر بالإسلام ليتمكن من أداء دوره.

ثم طلب من المفتى أن يسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، فلما أذن له أمر مريديه بالدخول فى الإسلام، ولبس الجبب والعمائم مبالغة فى إخفاء هويتهم، مكوناً بذلك أخطر تنظيم يهودى سرى، تنمو فى إطاره جماعة الدونمة، وتتحرك فى حرية من مركزها فى « سالونيك ».

التحرك السرى للدونمة

وفى المبحث الثانى تتبع حركة « الدونمة » بعد أن أصبحت تنظيماً يسعى إلى هدف وغاية؛ فذكر أن « الدونمة » استمدت فلسفتها من تعليم مدرسة « الكابالا اليهودية »، بل إنها توسلت فى نشاطها السرى بما أفرزته « الكابالا » فى أوروبا من جمعيات سرية، مثل « الماسونية » وما انبثق عنها من جمعيات، مثل « إخوة الشيطان »، و« أصحاب

القداس الأسود »، و« جماعة شهود يهوه »، ومثل « أندية الروتارى »، و« أندية الليونز ».

فبعد أن استطاعت الدولة العثمانية إبان قوتها أن تعصم نفسها من هذه الجمعيات السرية، تمكن يهود « الدونمة » المتمركزون فى « سالونيك » من نشر هذه المحافل والجمعيات السرية فى أرجاء البلاد العثمانية، فأتيحت بذلك الفرصة للصهيونية العالمية، وقوى الاستعمار الأوروبى للعمل الجاد المنظم على إبادة تلك الإمبراطورية الإسلامية مترامية الأطراف.!

وكان وسيلتها فى ذلك إنشاء حركتين كان لهما الدور البارز فى إسقاط الخلافة الإسلامية، وتحويل الإمبراطورية العثمانية إلى دويلات لا حول لها ولا طول.

وكانت أولى هاتين الحركتين هى تحول الصهيونية إلى منظمة سياسية تسعى لإيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين، وتمثلت ثانيتهما فى ظهور جماعة « الاتحاد والترقى » التى استطاعت –بما كفلته لها الدونمة– أن تهيمن على مجريات الأمور فى تركيا.

ويذكر المؤلف أن الوثائق تشير إلى أن العقول المفكرة لجماعة الاتحاد والترقى كانوا من يهود « الدونمة » الذين خططوا لتتريك تركيا من جهة، وللهيمنة الاقتصادية عليها من جهة أخرى.

وَلَمَّا تنبه السلطان عبدالحميد إلى أطماع اليهود فى فلسطين بدأت تتحول – بعد ميلاد الصهيونية – من الصلة الدينية الروحية، إلى المطامع السياسية الاستعمارية... لما تنبه السلطان إلى ذلك أصدر فى سنة ١٨٨٥م أمراً يسمح بدخول اليهود إلى فلسطين كحجاج فقط لمدة إقامة محددة، ولكن اليهود –بالتعاون مع القناصل الأجنبية– استطاعوا تعطيل هذا القانون، والالتفاف حوله.

وحين ظهرت الحركة الصهيونية الحديثة بزعامة « هرتزل »، وأصبحت قضية الوطن المأمول فى فلسطين هى محور الحركة الصهيونية... حينئذ. وكانت يهود « الدونمة » من أبرز الطوائف التى استجابت لتلك الحركة، حيث ارتبطت بشبكة الصهيونية العالمية التى آزرت القوى الاستعمارية فى تطلعها للإجهاز على الدولة العثمانية بهويتها الإسلامية؛ فالصهيونية تسعى إلى ذلك لتيسر الاستيطان اليهودى فى فلسطين، والقوى الاستعمارية تؤازرها فى ذلك استجابة لدوافع الحروب الصليبية، لتمزيق تركة الرجل المريض – بعد الإجهاز عليه – للاستيلاء على تلك التركة.

وتقرر الوثائق التى استعرض الدكتور بعضها أن يهود « الدونمة » فى تركيا هم الذين تحملوا عبء تحقيق ذلك، حيث تمخض نشاطهم عن ميلاد حزب « تركيا الفتاة » الذى قام على يهود الدونمة والماسونيين، وكان ذلك داعياً لأن يمتد نشاطهم ليشمل يهود أوروبا، فتمكنوا من الهيمنة –ليس على السياسة فى تركيا وحدها– ولكن على السياسة الأوروبية كذلك؛ فكان ليهود الدونمة وجود قوى فى جميع المراكز الحساسة فى كيان الدولة العثمانية. ولم يتنبه السلطان عبدالحميد إلى ذلك إلا بعد فوات الأوان.

محفل سالونيك

وفى المبحث الثالث كشف معد الدراسة أسرار إحدى خطوات «الدونمة» فى تركيا للتمكين لنفسها؛ فذكر أن هؤلاء اليهود اختاروا ولاية «سالونيك» لتكون مقراً لنشاطهم؛ لما لها من مميزات استراتيجية خاصة، فصاروا يشكلون الأغلبية العظمى من سكانها الذين بلغوا سنة ١٩٠٩م ٣٤٠ ألفاً منهم ٢٨٠ ألفاًمن اليهود، حتى كادت تخرج من هيمنة السلطان؛ فحينما أدرك السلطان عبدالحميد خطر المحافل الماسونية أمر بإغلاقها، فاستجابت جميع المحافل، ما عدا محافل «سالونيك»، بل إنها -إلى ذلك- بدأت توجه الطعنات الظاهرة للسلطان؛ فارتبط كل يهود «الدونمة» و«الماسون» فى سالونيك بالصهيونية العالمية، وصارت ولاية «سالونيك» بمحفلها الماسونى فى أواخر القرن الثامن عشر مركزاً بارزاً للنشاط السياسى والعسكرى ليهود «الدونمة» عن طريق الاتصال المباشر بالقوى الصهيونية العالمية فى أوروبا، خصوصاً جماعة «الاتحاد والترقى» التى برزت فى المحيط السياسى التركى قوة مؤثرة، والتى كان أكثر أعضائها من «الدونمة»، كما يؤكد ذلك المؤرخ الصهيونى (Kallen).

ولم يقف يهود «الدونمة» عند حد الارتباط بالصهيونية العالمية، وصيرورتها مركزاً للنشاط الصهيونى العالمى، بل دعموا ذلك بنشر الجاسوسية فى شتى المناحى العثمانية، واستغلال ذوى النفوس الضعيفة من الأتراك فى تنفيذ أهدافهم، متسترين فى جماعة «الاتحاد والترقى» السرية، وحزب «تركيا الفتاة».

وكان أبرز هذا النشاط نجاحهم فى عزل السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٩م، وتعيين السلطان محمد رشاد، ليجعلوا منه ستاراً يحكم باسمه جماعة الاتحاد والترقى التى هيمنت على الحكم، وتمكنت من زمام الدولة بأكملها.

إثارة الأقليات غير المسلمة

وضمن الفصل الثانى «المؤامرة على إلغاء الخلافة العثمانية» أربعة مباحث، يمثل كل مبحث منها وسيلة من وسائل «الدونمة» لإلغاء الخلافة.

ففى المبحث الأول منها «إثارة الأقليات غير المسلمة» تحدث عن استغلال يهود «الدونمة» وجود تلك الأقليات متنوعة المذاهب فى الدولة الممتدة، ليجعلوا منها قوة تزلزل كيانها، وتثير الدول الأوروبية ضدها؛ فأشعلوا الفتنة بين الأرمن والأكراد، وحدثت مذابح سامون وسواها، وخربت ثلاثون قرية من قرى الأرمن عن آخرها، وفيها كان بعض الأرمن يذبحون بعضهم لينسب ذلك إلى الأتراك، بل إن منهم من ارتدى زى الأتراك، وقاموا بهذا العدوان إمعاناً فى الإثارة ضد الدولة، حتى ألصقوا بالدولة تهمة اضطهاد الأقليات زوراً، ولا أدل على ذلك التزوير من لجوء الأروام إلى دار الفتوى التركية لتفصل فى النزاع الناشب بينهم وبين البلغار على الكنائس الموجودة فى مقدونيا. هذا إلى جانب أن القسم الأعظم من وظائف الدولة فى يد الأقليات.

ومع كل ذلك أحكم يهود « الدونمة » خطتهم الدعائية، وحتى خلقوا من هذه الفرية مسألة تشغل الرأى العام العالمى آنذاك، وتناولتها الصحف الأوروبية بشكل دائم، لإثارة الشغب، وإشعال الثورات فى البلاد، وإشاعة العداء للنظام الإسلامى الذى تمثله الدولة، وإبرازه فى الصورة المشوهة البغيضة، التى يسعى الناس فى الداخل والخارج للخلاص منها.

تمجيد الحضارة الغربية

وفى المبحث الثانى « تمجيد الحضارة الغربية وتغريب تركيا » ذكر أن هذه كانت الوسيلة الثانية، فبينما يلصق بالنظام الإسلامى كل أسباب التخلف، نهضوا يمجدون الحضارة الغربية لتصبح هى الأمل المنشود، وكان « ضياكوك آلب » العقل المدبر للاتحاديين قد خطط بدقة لاستغلال جوانب الضعف فى الدولة العثمانية، ويربط بين هذا وبين انتمائها الإسلامى، ويقابل ذلك بالتقدم الأوروبى الكاسح، ليؤكد أن التمسك بالإسلام هو الذى فرض ذلك التخلف، وأن صالح البلاد يقتضى تقليد الأوروبيين.

وظل يبشر بذلك حتى إذا جاء مصطفى كمال جعل ذلك واقعاً يصبغ الحياة التركية، فأجبر نساء أنقرة على نبذ الحجاب، وعمل على غسل العقل التركى من كل تقليد إسلامى موروث فى أنماط معيشتهم، وأساليب حياتهم، زاعماً أن ذلك هو السبيل للوصول إلى النمط الأوروبى، وأصدر أوامره بإلغاء الكتابة بالحروف العربية، وترجمة القرآن إلى اللغة التركية، ومنع الأذان باللغة العربية، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد، وأصدر قانوناً سماه القانون المدنى الذى غير به حياة الأتراك الأسرية والاجتماعية والاقتصادية؛ فصارت الخمر والميسر ولحم الخنزير من أمارات الترقى والتحضر فى أنقرة، لدرجة أن الصحف التركية آنذاك صرحت بأن المقامرة ومعاقرة الخمر هما من ضرورات المدنية الحديثة، وأن الأمة التركية إذا شاءت أن تعلو فى درجات الترقى العصرى. فلابد من أن تسوق أبناءها إلى اللعب والشرب، والهزء بتعاليم الإسلام التى تمنع ذلك. الأمر الذى قاد إلى بتر كل صلة أو علاقة بالإسلام.

وهكذا استغل يهود « الدونمة » والصهيونية العالمية أخطاء بعض الحكام الأتراك، وتخلف بعض الأنظمة ليصنعوا منها الصورة المتخلفة المستبدة، ويلصقوها بالإسلام، حتى يتحقق لهم ما قصدوا إليه من أول الأمر، وينفر منه القاصى والدانى، وبالتنظيم الدعائى الدقيق والمحكم نجحوا فى فرض تلك الصورة، ووصم النظام الإسلامى بها.

التتريك وبعث القوميات

وفى المبحث الثالث « سياسة التتريك وبعث القوميات » ذكر أن هذه السياسة كانت أحد الخطوط العريضة فى المؤامرة على إسقاط الخلافة، والتى لعب الدور الأساسى فيها يهود « الدونمة » والدوائر الصهيونية.

وتقوم هذه السياسة على نقض البناء الموحد لدولة الخلافة، حتى يسهل التحكم فى كل جزء بعد ذلك، متوسلين فى ذلك بإحياء النزعات

القومية، والنعرات الطائفية القديمة التى أماتها الإسلام.

وكان يمثل هذه القوى الصهيونية جماعة الاتحاديين، ثم الكماليون بما يتزيون به من أزياء تركية، وما ينطوون عليه من نزعات يهودية «دونمية»، فبدأوا بوضع بذرتها فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى، مستغلين فى ذلك بعض المناوئين له، والحانقين على الخلافة الإسلامية، حتى إذا تمكن الاتحاديون والكماليون من الأمر، كان لهم ما أرادوا؛ فمزقوا شمل الدولة، ليجعلوا منها أكثر من ثلاثين دولة، لكل منها قوميتها، وديانتها، وجنسها، ومشكلاتها، وتوجهاتها.

وقد استعرض المؤلف هذه السياسة منذ بذرتها الأولى فى شىء من التفصيل المعتمد على الوثائق الكاشفة، والمؤكدة صحة رؤيته، فَتَنَقَّلَ معها بين عهدى السلطان عبدالحميد، والاتحاديين والكماليين، وكيف أن السلطان عبدالحميد تنبه إلى ذلك هو وبعض المفكرين المسلمين، وحاولوا صد هذا التيار. ولكن يهود «الدونمة» كانوا أقوى منهم تأثيراً، بما بثوه بين المفكرين المسلمين من أسباب الخلاف والفرقة التى أوهنت قواهم؛ فلم يستطيعوا الصمود أمام هذا الموج الكاسح، على الرغم من أن العلاقات بين العرب والأتراك كانت طيبة، باستثناء بعض الحالات التى كانت تحركها المكائد الصهيونية، والمحاولات الاستعمارية.

ثم أوضح دور الاتحاديين فى دعم تلك البذرة ورعايتها حين تولوا الحكم بعد انقلاب «سالونيك» الدونمى على السلطان عبدالحميد سنة ١٩٠٩م حيث بدأوا بالدعوة إلى الجامعة العثمانية، ثم الدعوة إلى الجامعة الطورانية -بعد حرب البلقان- التى أقاموها على ربط الأتراك بسائر أجناسهم خارج الدولة، وتحرير الثقافة واللغة التركية من الثقافة واللغةالعربية، والعمل على سيادة العنصر التركى حتى وصل بهم الأمر إلى أن يكون شعارهم: «نحن أتراك فكعبتنا طوران»، وإلى أن يعيدوا رمز الأتراك القدامى «الذئب الأغبر» وفى المقابل سعوا بكل الوسائل إلى دحر الإسلامية والعربية دحراً ساحقاً، حتى ينفسح المجال لتحقيق مآربهم.

فصل الدين عن الدولة

وفى المبحث الرابع «فصل الدين عن الدولة وإلغاء الخلافة» ذكر أن فصل الدين عن الدولة، وإفساح المجال لقيام حكومة علمانية كان أحد خطوات الاتحاديين والكماليين فى مسيرتهم إلى غايتهم العظمى، وهى القضاء على الوجود الإسلامى فى عمومه؛ فلم يكن كافياً لديهم فصل تركيا عن الأمة العربية، ولا عن العالم الإسلامى.

ولذلك نظر هؤلاء إلى الماضى، فوجدوا أن الإسلام يمتاز بأنه إذا حورب فى بلد، نهض فى بلد آخر، كما كان الحال عندما قضى على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ، فقد رأوها تنهض فى أماكن أخرى من الدويلات الإسلامية، محافظاً على رمزيتها المسلمون باعتبارها رابطة دينية وسياسية أصيلة... ولذلك حرص هؤلاء على أن تكون ضربتهم شاملة قاضية، ولا تقف عند حد فصل تركيا وحدها؛ ففى الوقت الذى

استهدفوا فيه الرأس، قاموا بتعقب الأطراف، محاولين تسريب العلمانية إليها لتحل محل الأنظمة الإسلامية الموروثة.

وقد عملت الدوائر الصهيونية العالمية، متعاونة مع القوى السياسية الاستعمارية على إنجاح تلك المحاولات. وقد تحقق لهم كثير مما أرادوا، فسرعان ما انتقلت ظاهرة الحكومة العلمانية إلى البلدان العربية والإسلامية، على اختلاف بينها فى الظهور والتخفى.

ويلاحظ المؤلف أن هذه القوى سلكت فى ذلك السبيل شعبتين تقودان إلى غاية واحدة؛ الأولى منهما: استغلال الوسائل الإعلامية المختلفة فى إبراز السلطان عبدالحميد فى صورة الحاكم المستبد المتخلف، وإرجاع استبداده وتخلفه إلى النظام الإسلامى.

والشعبة الثانية هى العمل على تفتيت دولة الخلافة، ببيعها للعواصم الأوروبية، على ما كان من الاتحاديين فى مؤتمر الصلح بلوزان، وقد مثل تركيا فيه الحاخام ناحوم المعروف بـ«قره صو»، ورضا نور الذى اعترف فى كتابه «حياتى وذكرياتى» بأنه هو الذى أعلن علمانية تركيا فى هذا المؤتمر. وقد تم ذلك سراً، دون علم المسلمين بما اتفقوا عليه.

ثم جاء مصطفى كمال ليقيم صلحه مع بريطانيا على أربعة شروط هى:

١ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً فى تركيا.

٢ ـ أن تقطع تركيا كل صلة بالإسلام.

٣ ـ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية فى تركيا.

٤ ـ استبدال الدستور المدنى بالدستور العثمانى القائم على الإسلام.

ويلاحظ أن معد الكتاب قد حرص على دعم كل هذه الأحداث بالوثائق الرسمية، والاعترافات الشخصية، تقديراً لدور يهود «الدونمة» الخطير، مقابلين بذلك المعاملة الحسنة من المسلمين لهم، وموجهين ضربة قاضية لمن آووهم، وملتفين – فى الوقت نفسه – حول من طردوهم من قبل وشردوهم، بالتعاون معهم على تدمير دولة الإسلام.

كما يلاحظ أن الدكتور معد الدراسة أطال الحديث عن جمال الدين الأفغانى، وأصله، وعلاقته بالسلطان عبدالحميد، ومخاوف السلطان منه، ودور يهود «الدونمة» فى إثارة تلك المخاوف.

كما أطال الحديث عن عبدالرحمن الكواكبى والخديوى عباس حلمى الثانى إطالة هنا وهناك تكاد تشغل القارىء عن الموضوع الأساسى، وما كان فى حاجة إلى ذلك؛ إذ كان يكفيه ذكر دورهما، مع التنبيه فى الهامش إلى أن الحديث المفصل عن كل منهما يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها ليفسح المجال لمزيد من التفصيل لدور يهود «الدونمة»، وكيفية تغلغلهم فى الحياة التركية؛ فالموضوع أوسع من أن يضمه نحو مائة وعشرين صفحة منها نحو ثلاثين صفحة خصصت للحديث عن الأفغانى والكواكبى.

وقد يشفع للدكتور حرصه على تغطية جوانب الموضوع، وإبراز ما للمفكرين المسلمين الذين عاصروا تلك الأحداث، وما عليهم فى ذلك.

والله من وراء القصد.

الحقائق العشر لحتمية تحول النبوة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل

للدكتور / محمد عبد العليم (*)

أول ما تستدعيه الذاكرة المؤمنة عندما تذكر فلسطين.. المسجد الأقصى والقدس الشريف والسر فى ذلك ببساطة شديدة يكمن فى ارتباط هذين المكانين بمعتقدات المسلمين وبعباداتهم وبجهادهم وبقرآنهم وبنبيهم - صلى الله عليه وسلم - كما يمثل فى ارتباطهما بوحدة الدين وانتقال السيادة والإمامة إلى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لكونها ونبيها أولى الناس بإبراهيم. عليه السلام. الذى طلب ذلك لذريته عندما قال له ربه

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ **فأجابه سبحانه:** ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[1].

لكن وبتبجح منقطع النظير يتردد دائما وأبدا على ألسنة زعماء أبناء صهيون وحاخاماتهم أن بيت المقدس ملك لشعب يهود وأن القدس الشريف عاصمة دولتهم المزعومة وقد كان ضمن هذه التصريحات ما جاء على لسان رئيس وزرائهم[2] الذى لم يكتف بالقول بأن « ستكون هناك أورشليم أكبر مما كانت عليه منذ الملك داود. وستكون موحدة ومعترفا بها من العالم كعاصمة لإسرائيل »[3]، حتى أتبع القول بالعمل فسمح[4] لزعيم الحزب اليمينى المتطرف

(*) المدرس بجامعة الأزهر.

(١) البقرة/١٢٤.

(٢) السابق إيهود باراك.

(٣) جريدة الأهرام فى غرة رجب ١٤٢١ ، ٢٠٠٠/٩/٢٩ الصفحة الأولى.

(٤) فى محاولة منه لتنفيذ مخططاته الأربع لتهويد القدس والإحاطة بها من كل جانب تمهيدا لما أسماه (مشروع القدس الكبرى) (صوت الأزهر. فى غرة رجب ١٤٢١ ص٤).

المعارض يومذاك[٥] باعتباره أول زعيم يهودى يتعامل مع القدس بجدية ويسعى للقضاء على الوجود العربى والإسلامى بها سمح له بإرسال كتيبة من العسكر يبلغ قوامها ثلاثة آلاف لحمايته أثناء اقتحام المسجد الأقصى عشية غرة رجب ١٤٢١ الموافق ٢٩ من سبتمبر لعام ٢٠٠٠ أى فى ذكرى تحرير صلاح الدين للقدس فى رجب ٥٨٣، سبتمبر ١١٨٧م.

وإذا كان أبناء صهيون يدعون أن نصوص كتبهم، بل ونصوص قرآننا المتبرئ منهم ومن فعالهم تشير إلى وعد قطعه الله على نفسه أن يمكن لإبراهيم ولنسله من بعده فى أرض فلسطين (أرض الميعاد) فإن هناك مجموعة من الحقائق المهمة التى تجدر الإشارة إليها والتذكير بها وتتمثل فى:

الحقيقة الأولى: تعليق موعود الله لبنى إسرائيل على استيفاء شروط:

إن وعد الله بالسيادة والإمامة كان بالنسبة لبنى إسرائيل وعدا مشروطا بتنفيذ التعاليم، وبصون أوامر الرب وبحفظ العهود والمواثيق التى أخذت عليهم، يؤكد هذا ما جاء فى القرآن الكريم إذ يقول – سبحانه –:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[٦].

وفى نصوص كتبهم فى سفر التثنية إصحاح: عدد ١٧، ١٨: «احفظوا وصايا الرب إلهكم وشهاداته وفرائضه التى أوصاكم بها، وأعمل الصالح والحسن فى عينى الرب لكى يكون لك خير، وتدخل وتمتلك الأرض الجيدة التى خلف الرب لآبائك»، ونفس المعنى فى التوراة السامرية فهل وفى بنو إسرائيل بعهودهم وبمواثيقهم؟

الحقيقة الثانية: إخلال بنى إسرائيل بأوامر الله: إن الجواب المنصف عن السؤال - سالف الذكر - والبعيد عن كل تعصب يدعونا لأن نسوق - لإثبات نقض سوادهم الأعظم لجميع المواثيق - نسوق طرفا مما نسبوا لموسى عليه السلام وجاء فى سفر التثنية ٩ :٢٣-٢٤ «يقول موسى: عصيتم قول الرب إلهكم ولم تصدقوه وذلك على لسان عيسى روح الله، جاء فى إنجيل متى ٢٣ : ٣١ – ٣٣.

«فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء.. أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم» وما بين هذين النبيين من أولى العزم، من زمن امتد بهم عشرات القرون، وضم خلاله مئات بل آلاف الأنبياء

﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[٧].

ومصداقا لذلك قال تعالى -:

---

(٥) أريل شارون (رئيس وزراء إسرائيل الحالى).

(٦) البقرة/٤٠.

(٧) المائدة/ ٧٠. وأنظر فى العهد القديم يشرح ١١/٧، وملوك ١٠/٩ و نحميا ٢٠/٣ وميخا ١٢،/٩/٣.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾(٨).

والنصوص فى ذلك فى القرآن وفى الأسفار أكثر من أن تعد، وحسبنا منها ما ذكرنا.. فأنى لقوم لم يحققوا فى أنفسهم فعل الشرط أن يتحقق لهم من قبل الرب، أو ينتظروا منه جوابه وجزاءه؟

الحقيقة الثالثة: موعود الله لبنى إسرائيل موقوت بفترة زمنية محددة: وكما كان وعد الله لبنى إسرائيل مشروطا بوصايا وبعهود، لم يصونوها، ومنوطا بتعاليم ومواثيق لم يراعوها... فقد كان مرهونا كذلك وموقوتا بفترة زمنية محددة، شاء الله لها أن تختم بنبى الله عيسى – عليه السلام – وتآمرهم عليه كما تآمروا على قتل غيره لولا أن رفعه الله إليه وألقى شبهه على غيره، لذا كان مجيء عيسى – عليه السلام – فرصة لهم لينزعوا إلى صبغة الله، ولا يرغبوا عن ملة آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويفسر لنا ذلك سر تركيز دعوة عيسى – عليه السلام – على التبشير بنبى آخر الزمان ففى إنجيل يوحنا ١٤: ١٥ وما بعدها «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد، وروح الحق الذى لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم، والفارقليط روح القدس الذى يرسله الآب باسمى هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كما قلته لكم، والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنوا» وفيه ١٦: ٧ «لكن أقول لكم الحق أنه خير لكم أن انطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء يوبخ العالم».

وفى إنجيل متى ٢١: ٣٣ وما بعدها بشأن كرم غرس وله ثمر قال لهم يسوع: أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره».

فالكرم - كما هو بين – كناية عن الأرض المقدسة. والكرامون هم بنو إسرائيل.

الحقيقة الرابعة: تمايز القلة المؤمنة من بنى إسرائيل مرده التمسك بعهد الله:

نفيد مما سبق أن النصوص الدالة فى آى الذكر الحكيم على تكريم بنى إسرائيل وتفضيلهم وجعلهم أوبعضا منهم أئمة يهتدى بهم.. إنما جيء به فى معرض الامتنان على بنى إسرائيل قبل تكليفهم وإعذارهم، أى قبل انحرافهم وإعلانهم الكفر والتأبى على أحكام الله وأوامر أنبيائه، استمالة

---

(٨) البقرة ٦٣/٦٥.

لقلوبهم وحضا لهم على فعل الخيرات كما جيء بها فى معرض الحديث عن تميز الفئة الظاهرة بما هى عليه من الحق.. والتى عادة ما تكون قليلة العدد.. عن الكثرة المنحرفة، وذلك للإعلام ـ على ما يقتضيه العدل الإلهى والإنصاف.. قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٩].

الحقيقة الخامسة: واتباعا لهذه السنة الماضية ـ سنة تفضيل الله وتمكينه للطائفة المؤمنة، قليلة العدد والعدة ـ واستكمالا للحديث عن الشق الثانى منها والذى جاء ذكره فى مثل قول ـ الله تعالى ـ:

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾[١٠].

نقول: إن جرائم بنى إسرائيل التى تعدت كل وصف وفاقت ـ كما وكيفا ـ كل حد، لا تخفى على ذى لب، والسؤال: ماذا يفعل الله بقوم تركوا ملة آبائهم التى أمروا ألا يعيشوا إلا فى كنفها، وألا يموتوا إلا عليها، وبدلا من يفعلوا ذلك راحوا يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وطفقوا يلتمسون الهدى فى عبادة العجل تارة وفى العقائد الباطلة التى برأ الله منها ساحة خليله إبراهيم وبنيه من الأنبياء جميعا، تارة أخرى، راغبين بذلك عن وصاياهم وضاربين بكلامهم عرض الحائط؟ يقول ـ سبحانه ـ مبينا ما وصل إليه حال تلكم الكثرة من بنى إسرائيل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾[١١].

ويحكى عنهم سلفا وخلفا قولهم:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ﴾.

ويأتى الرد على ذلك والتحذير منه والتنديد به فى قوله بعد

﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١٢].

لقد ارتكبوا بصنيعهم هذا، الخيانة التى تستوجب استبدال غيرهم بهم، وأقيمت عليهم وبنص كتبهم، الحجة حيث جاء فى سفر التثنية ٣٢ : ٢١ ما نصه «هم أغارونى بغير إله وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم» وإليه الاشارة بقوله:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[١٣].

(٩) السجدة /٢٤.
(١٠) الصافات/ ٧١.
(١١) الاعراف/ ١٥٢.
(١٢) البقرة/ ١٣٥.
(١٣) الجمعة/ ٢.

وإذا كان الجانب الآخر من الكبر يتمثل - بعد بطر الحق والكفر به - فى غمط الناس وظلمهم، فإن الناس الذين غمطهم بنوا إسرائيل ليسوا كأى أناس، لكنهم أنبياء مبلغون عن الله رسالاته، أى أنهم مصدر هداية لمن أرسلوا إليهم،ولو كان غمطهم إياهم اقتصر على مجرد التكذيب لهان الخطب على فظاعته، لكنه تعدى ذلك بكثير ووصل إلى ما هو أبعد منه بمراحل، إنه إزاء كفرهم بالله وتآمرهم على أنبيائه ورغبتهم عن ملة إبراهيم ومن صار على نهجه من النبيين، ولقاء ظلمهم وطغيانهم وتحريفهم للكلم عن مواضعه، كان لابد حسب ما تقضى به سنن الله الكونية فى الاستبدال والاستخلاف من أن تتحول إمامة وخلافة وريادة هذا العالم إلى آخرين يحافظون على العهد ويصونون الأمانة ويحفظون الوصاياوينفذون التعاليم فيستحقون عندئذ وعد الله الذى لم يتحقق لغيرهم لا فى الأرض المقدسة وحسب بل وفى إرث النبوة والأرض جميعا حيث، يقول – تعالى– وهو أصدق القائلين:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾(١٤).

«أى: ويكونون سامعين مطيعين له ولأوامره»(١٥).

الحقيقة السادسة: الإيذان بتحول الإمامة كان فى ليلة التتويج (ليلة الإسراء): وعلى نحو ما كانت إمامة النبى - ﷺ - ليلة الإسراء بإخوانه من الأنبياء عن طواعية وطيب نفس، إشارة واضحة إلى أن النبوات يصدق بعضها بعضا ويمهد السابق منها للأحق، وإقرارا مبينا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه أخذت كما هى على يد رسولنا - ﷺ - بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين(١٦)... فقد كانت كذلك تتويجا مشرفا لهذا النبى الخاتم ولأمته وإنفاذا مرتقبا لسنن الله الكونية والشرعية فى الاستبدال والاستخلاف وفى تحول الإمامة والقيادة والخلافة من بنى إسرئيل الذين رغبوا عن ملة إبراهيم إلى إخوتهم وبنى أعمامهم من بنى اسماعيل الذين رغبوا فيها، أما وقد تخلى بنو إسرائيل - أعنى أحفاده ممن هم من صلبه - عن تأدية هذه المهمة، وفعلوا ما استوجب استبدالهم فإن الحكمة تقتضى وفق سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير، أن يستعاض عنهم بآخرين ولابد أن يكونوا هنا من أبناء العم لكونهم ممن قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وأن يأتى من صلب اسماعيل الذى هو من نسل إبراهيم –أيضاً– من يجدد هذه الملة ويرسخ معالمها ويقيم دعائمها ويرفع بنيانها ويعيد أمجادها ويعلى من قدرها وهذا ما حدث بالفعل ليلة الإسراء التى انتقل فيها إرث الملك والنبوة إلى محمد

(١٤) محمد/ ٣٨.

(١٥) تفسير ابن كثير: ٤/١٨٢.

(١٦) فقه السيرة لمحمد الغزالى ص ١٤٠، ١٤١.

- ﷺ - والمؤمنين به من أمته بعد فترة تمهيد استمرت قرابة العشر سنوات، الأمر الذى يعنى ضمنا أن هذه الأمة وهى وحدها المؤهلة لوراثة أرض النبوات أرض الميعاد - بيت المقدس وسائر الأراضى الفلسطينية - وليس هذا فى شريعة المسلمين فحسب، بل وفى كتب اليهود والنصارى أيضا، فقد ورد فى سفر حجى ٢ : ٦ - ٩ » قال رب الجنود: « من بعد قليل فأزلزل السموات والأرض والبحر واليابسة، وأزلزل كل الأمم ويأتى مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجدا.. ومجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، قال رب الجنود، وفى هذا المكان أعطى السلام » انتهى النص، ومشتهى كل الأمم المذكور فيه أصله العبرانى « حمدون » أى محمود الأمم وهذا بصريح نبوة حجى ينطبق على سيدنا محمد - ﷺ - لأن اسم « محمود » هو من ضمن أسمائه - ﷺ - ويفاد من النبوءة أن المراد من البيت يت المقدس، ذلك أن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه حين أسرى به إليه فى حياته زاد ذلك من شرفه وهذا ما يوافق عبارة « أملأ هذا البيت مجدا » أما بعد وفاته - ﷺ - فقد قام المسلمون بفتحه[١٧]، وفى هذا المكان أعطى السلام؛ لأن الخليفة عمر بن الخطاب أعطى الأمان لبيت المقدس بعقد المعاهدة وتوثيق شروط الصلح مع بطريرك المدينة، والملفت فى قوله: « فى هذا المكان أعطى السلام » أنه لم يقل »إن مشتهى الأمم يعطى السلام بنفسه، لعلم الله أزلا أن الذى سيعطيه هو واحد من أخلص خلصائه »[١٨]. وقد كان ذلك لعمر رضوان الله عليه، وفى هذا يروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة فى كتاب الإيمان قوله - ﷺ -: « لقد رأيتى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط. قال: « فرفعه الله إلى أنظر إليه ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلى فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة[١٩] وإذا عيسى بن مريم عليه السلام - يصلى أقرب الناس به شبه عروة بن مسعود الثقفى، وإذا إبراهيم - عليه السلام - قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم يعنى نفسه، فحانت الصلاة فأممتهم.. الحديث »[٢٠] إنها الاشارة الواضحة إلى تحول المسار وإسلاس القيادة من قبل أصحاب الرسالات جميعا بلا استثناء لإمامهم وإمام البشرية جمعاء -صلوات الله عليه وسلامه- كما أنها الإشارة الواضحة إلى استحقاقه وأمته دون غيرهم إرث بيت المقدس ليعلم الناس جميعا أن شريعته ناسخة لجميع الشرائع، وأن كتابه مهيمن على جميع

---

(١٧) وذلك بعد أن مهد - عليه السلام - لهذا الأمر بغزو الروم فى مؤتة وتبوك وبسريته التى مات عنها وجعل على رأسها أسامة بن زيد.

(١٨) ينظر (محمد نبى الإسلام) للطهطاوى ص: ٢٦.

(١٩) الضرب من الرجال: الوسيط فى كثرة اللحم وقلته. والجعد: المسترسل الشعر. وشنوءة: قبيلة عربية.

(٢٠) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال ١٩٢/٢.

الكتب، وأن إمامته إمامة لجميع النبيين، وأن رسالته لسائر الخلق أجمعين.

والذى تجدر الاشارة إليه أنه ما إن تحمل هذا النسل المبارك من نسل إبراهيم أمانة الدين وعبء المسئولية إلا وانساح فى كل مكان من أرض الله يدك معاقل الشرك ويقوض برسالة التوحيد أركان الوثنية التى فشل اتباع الرسالات قبلها فى القضاء عليها وانطلق لا يبالى ولا يتوانى عن تنفيذ ما ندب إليه حتى تم على يديه إطفاء نار فارس واجلاء الرومان عن المنطقة بأسرها، وحقق وعد الله فى أقل من عشر سنوات وأقام شريعته فى المنطقة وما يليها فى أقل من قرن من الزمان.

الحقيقة السابعة: التواصل الإيمانى هو الأصل والأساس:

إن الأصل فى عمارة الكون الذى لا يعبأ بنو إسرائيل به كثيرا ـ لا سلفا ولا خلفا ـ هو التواصل الإيمانى، وما التواصل النسلى إلا تبعا لهذا الأصل، وفرعا عن ذاك الأساس، وهذه المقدمة تجعلنا نؤكد أن لا صحة لمافهمه كتبة العهد القديم من نصوص تشير إلى أن وعد إبراهيم بأرض فلسطين، إنما كان قاصرا على أولاده وأحفاده من نسل إسحاق،.. لأنا نقول إن هذا كان إبان المدة المقرة والمقدرة لهم أزلا، كما يدل عليه – أن ذلك كائن لنسل إسماعيل – أيضا– كما هو كائن لنسل إسرئيل، ففى العهد قال الله لإبراهيم «بإسحاق يدعى لك نسل، وفى إسماعيل أيضا «سأجعله أمة لأنه نسلك» سفر التكوين ٢١ : ١٢ ، ١٣هذا وليس فى العهد القديم ولا الجديد ما ينفي هذا الانتقال، ولا ما يفيد أن هذا الوعد سيظل إلي الأبد حكراً علي بنى إسرائيل بل إن العكس – علي ما رأينا فى النصوص السابقة – هو الصحيح، يؤكد هذا ويؤيده أنه لم يأت من نسل إسماعيل بن إبراهيم نبى غير محمد – ﷺ– كما يؤيده ويؤكده أن كلمة (الأبد) ما جاءت فى التوراة والإنجيل إلا فى حق هذه الأمة المنتسبة إليه إلى محمد المنتهى نسبة إلى إسماعيل بن أبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام(٢١)..

وهذا يعنى أن الأبوة المقصودة فى الخطاب لإبراهيم: (أجعلك أبا لجمهور الأمم) وكذا البنوة المرادة من قوله تعالى – على لسان إبراهيم:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾(٢٢) ليست هى مجرد أبوة أو بنوة نسب بل هى مع ذلك وقبله أبوة وبنوة إيمانية، الأمر الذى يعنى أن أبناء إبراهيم حقا هم الذين يتبعون ملته، وفى ذلك يقول – عز من قائل–:

---

(٢١) ومما ورد من ذلك فى سفر أشعيا ٢٦ : ٢ – ٤» افتتحوا الأبواب لتدخل الأمة البارة الحافظة للأمانة ذو الرأى الممكن.. توكلوا على الرب إلى الأبد» وقد ثبت عدم وجود هذه الصفات فى أمة يعقوب... ومما جاء فى إنجيل يوحنا ١٦:١٤ «أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد ولم يبعث بعد عيسى – عليه السلام – نبى سوى محمد – ﷺ –.

(٢٢) البقرة/ ١٢٤.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٣).

ولقد تجسد الولاء والتوادد الإيمانى مع الولاء والتوادد النسلى فى محمد الذى ينتهى نسبة - كإسرائيل تماما - إلى إبراهيم - عليه وعليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فما وجه الغرابة إذا؟

الحقيقة الثامنة: تقصية هاجر كان بمثابة التمهيد لإيجاد البديل المستحق لموعود الله:

لقد أراد الله أزلا من إبعاد هاجر عن الشام هذه التقصية التى ورد ذكرها ضمن نصوص العهد القديم والجديد، تحقيق وعد آخر لإبراهيم الخليل ذلك أنه - عليه السلام - لما وضع زوجه هاجر وابنهما اسماعيل، بأمر الله فى جزيرة العرب كان ذلك توطئة لرفع قواعد البيت الحرام، وإيذانا بأعمار هذا المكان، وإعداده للطائفين والعاكفين والركع السجود.. جأر إلى ربه ودعا ضمن ما دعا

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢٤).

وقد وافقت هذه الدعوة التى أجيبت بعد حين، قضاء الله الأزلى فى تعيين محمد - ﷺ - رسولا فى الأميين، بل وإلى سائر الأعجميين من الأنس والجن، فكان هذا التحول المشرف.. ليس إجابة لدعوة إبراهيم فحسب، ولا إنفاذا لبشارة عيسى وإعمالا للميثاق الذى قطعه الله عليه وعلى سائر الأنبياء بأن ينصروه ويؤمنوا به ويأمروا بذلك أقوامهم.. وفقط، بل إنقاذا فى المقام الأول للبشرية من وهدتها التى سقطت فيها، والذى سببه إفساد بنى إسرائيل فى الأرض.

وقد سبق وأن ذكرنا من نصوص العهد الجديد فى هذا الصدد - على سبيل الاستشهاد - ما به تقام الحجة وإلا فبشارات التوراة والانجيل بصفاته وبمقدمه - ﷺ - أكثر من أن تحصى(٢٥) ونرمق تأييد القرآن لما هو منسوب إلى الكتب السابقة فى مثل قوله - تعالى - على لسان إبراهيم حين أودع زوجه وولده إسماعيل بواد غير ذى زرع

﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾(٢٦).

---

(٢٣) آل عمران/ ٦٨.

(٢٤) البقرة/ ١٢٩.

(٢٥) بل لهذا مجلدات ومراجع لا يحصيها عد نذكر للاستزادة: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيميه، وهداية الحيارى لابن القيم وإظهار الحق لرحمت الله الهندى، ومحمد نبى الإسلام للطهطاوى.

(٢٦) البقرة/ ١٢٦.

ناهيك عن دعائه الصريح بأن يبعث فى ذرية من أودعه عند بيته المحرم من به ـ على أساس من منهج الله ـ يستمر صلاح الكون، وتستقيم حركة الحياة والأحياء، ويتحقق موعود الله بوراثة الأرض وإمامة من عليها.

الحقيقة التاسعة: أحقية المسلمين من ذرية إسماعيل فى أرض فلسطين كما ترويه حقائق التاريخ وأدلة العقل والنقل:

وإذا كان يهود عصرنا لا يكفون عن دعوى أحقيتهم فى أرض الميعاد بل وينازعون المسلمين فى قبلتهم الأولى (المسجد الأقصى) فيعملون جادين وجاهدين لإثبات هذا الحق المزعوم والوعد المكذوب على نقضه وطمس معالمه، فإن الثابت شرعا وتاريخا:

أن أول من بنى مدينة القدس منذ ثلاثين قرنا قبل الميلاد هم اليبوسيون وهم من العرب القدامى، وأن الفتح الإسلامى جاء والمدينة خالية تماما من اليهود لأنها كانت محرمة عليهم، وهم من بعد موسى ومن بعد الغزو البابلى والرومانى، قد قطعهم الله فى الأرض أمما، ومزقهم كل ممزق، وأن وجودهم المتقطع على مدار هذه الفترة كان وجودا طارئا، لم يقم لهم خلاله ملك ولا دولة.. مما تأكد عدم أحقيتهم لا فى مدينة القدس فحسب بل ولا فى أى شبر من أرض فلسطين، أن ما فعله عمر بن الخطاب عشية تسلم مفاتيح بيت المقدس حين اشترط عليه بطريرك القدس ألا يسمح لليهود بدخولها أو الإقامة فيها، لم يأت من فراغ فالعهد العمرى يجب أن يظل محترما ومعمولا به، لأن المسلمين مأمورون أن يتبعوا سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ولا ريب أن عمر أحدهم، ودين الله الخاتم يحتم على المنتسبين إلى محمد، وإسماعيل – عليهما السلام – والراغبين فى ملة أبيهم إبراهيم، والمؤمنين بحق بسائر النبيين، أن يحرروا تلك البقاع المباركة باعتبارهم وحدهم أصحاب الحق الشرعى والتاريخى فيها، والمؤتمنين عليها سيما وقد شهد التاريخ ولا يزال سيل الفظائع التى يرتكبها معشر يهود فى حقها وفى حق أصحابها المقيمين بها، كما شهد ما أصابها عندما احتلها الصليبيون من قبل وقتلوا فيها وفى مسجدها ما يقرب من السبعين ألفا من المسلمين وبقيت ترزح تحت أيديهم تسعين عاما أهلكوا خلالها الحرث والنسل إلى أن حررها القائد المسلم صلاح الدين عام ١١٨٧م.

الحقيقة العاشرة: مستقبل أرض فلسطين القريب والبعيد يحدده الشرع الحنيف لا أمزجة البشر:

وابتناء على ما سبق فأن النزاع الآن بين بنى إسرائيل وبنى إسماعيل على تحقيق وعد الله لا محل له، لأن هذا الوعد قد قضى الله فيه بأمر، وضمن ما قضاه ألا حق لبنى إسرائيل فيه بعد بزوغ فجر الإسلام، لا لأنه كان موقوتا بمدة معينة انتهت وفقط، بل ولأنهم مع ذلك تعجلوا ـ باحتيالهم على محارم الله ومخالفتهم أوامره وشرعه واعتداءاتهم على أنبيائه والصلحاء من عباده ـ هذه المدة، ولو أنهم استقاموا على الطريقة لظل موعود الله لهم ومعهم إلى أن أسلموه لأبناء أعمامهم عن طواعية اقتداء بحال أنبيائهم مع نبينا ليلة الإسراء، ولكان لهم فى ذلك أيضا الشرف أن لم يخرج هذا الأمر إلى أحد من غيرهم، بل ولما سلط الله عليهم ومن قبل ذلك بزمن طويل وإلى يوم القيامة من يسومهم من كل أمة سوء العذاب.

مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي

٢

للمستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى

انتقل إلى نقطة أخيرة وهي التى تتعلق بتحديد معالم أو خصائص الاقتصاد الإسلامى، والتى من خلال معرفتها نستطيع أن نتبين حقيقة الاقتصاد الإسلامى، بل وأن نحدد مقدما موقفه بالنسبة للاقتصاديات الوضعية السائدة.

ولقد عرضت هذه الخصائص في كتاب مستقل بعنوان (ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية)(١).

ولقد حصرت هذه الخصائص فى ثلاث خصائص رئيسية، أمر عليها مرورا سريعا وهى:

أولاً: خاصية الجمع بين المصالح العامة والمصالح الخاصة

أو ما أسميه خاصية التوفيق بين المصالح المتضاربة، وهو ما عبر عنه البعض (بخاصية الوسطية) التى تعنى الاعتدال والتوازن. فهى ليست وسطية حسابية مطلقة، (وإنما) هى وسطية اجتماعية نسبية، إذ الاعتدال، وهوسمة الإسلام، وأسلوبه فى كافة نواحي الحياة، لا يمكن أن يوضع فى قالب جامد، أوصيغة معينة، ولكنه أمر إجتهادى يختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان.

وهذا المبدأ الإسلامى، وهو التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وعدم اهدار أحدهما لحساب الآخر، كما هو الشأن فى الاقتصاديات الوضعية السائدة، يجد سنده في قوله تعالى:

﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾(٢) وقول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ (لاضرر ولاضرار)(٣) بل

---

(١) والذى صدرت منه حتى اليوم خمس طبعات، وترجم إلي اللغتين الإنجليزية والفرنسية بمعرفة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالرباط (ايسيسكو ESESCO).

(٢) البقرة ٢٧٩.

(٣) ابن ماجة ٢٣٤٠. ٢٣٤١ والإمام أحمد ٣١٣/١ مجمع الزوائد ١١٠/٤.

لقد أعطانا الرسول ـ ﷺ ـ صورة مبسطة، ولكنها عميقة الدلالة على تحقيق التوازن بين المصلحتين الخاصة والعامة بقوله: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قَوم استهموا علي سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين من أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادو هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)(٤).

وتطبيقا لذلك فإن الحلول الاقتصادية الإسلامية، تتميز عن غيرها من الحلول الرأسمالية أو الاشتراكية، بأنها ثمرة التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.. ونبين ذلك باختصار فى ثلاثة مجالات رئيسية وهى :

١ــ مجال الحرية الاقتصادية وتدخل الدولة فى النشاط الاقتصادي، فإنه فى الإسلام، ليس متروكا لمزاج ولى الأمر، أو أهواء الفئة الحاكمة، وإنما هو محكوم بالقدرالذي يكون دور الدولة عنصرا « مكملا » أو « مصححا » وليس عنصراً بديلاً أو « منافسا » للأفراد. فالأفراد مثلا لن يقيموا المرافق العامة، ولن يعمروا الصحارى، فيصير شرعا « فرض عين » علي الدولة القيام بكافة الأنشطة الضرورية التى يعرض عنها الأفراد، أو يعجزون عن القيام بها، بخلاف أنشطة الزراعة أو التجارة أو الصناعة التى يجيدها الأفراد فتترك لهم.

ومؤدى ذلك أن التنمية الاقتصادية فى الإسلام ليست « مسئولية الأفراد » حسبما يؤكد المذهب الفردى، وسائر النظم الرأسمالية المتفرعة عنه، كما أنها ليست « مسئولية الدولة » حسبما يؤكد المذهب الجماعى وسائر النظم الاشتراكية المتفرعة عنه، وإنما هى فى الاقتصاد الإسلامى مسئولية كل من الدولة والفرد، يكمل كلاهما الآخر،ولا يغنى أحدهما عن الآخر.

٢ــفى مجال الملكية: يقوم الاقتصاد الإسلامى علي الملكية المزدوجة: الخاصة والعامة فى وقت واحد، يتوازنان بحيث يكمل كل منهما الآخر، كلاهما كأصل وليس استثناء، وكلاهما ليس مطلقا بل هو مقيد بالصالح العام، بحيث تسقط شرعية الملكية، سواء كانت خاصة أو عامة، إذا لم يحسن الفرد أو الدولة، استخدام المال استثماراً أو إنفاقا فى مصلحته ومصلحة الجماعة. وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حين قال للصحابى بلال، وقد أقطعه الرسول عليه الصلاة والسلام، ـ أرض العقيق (إن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يقطعك لتحجز عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل ، فخذ ما قدرت علي عمارته وردَ الباقى).

وفى هذا الخصوص جاء الإسلام بفكر جديد، وهو أن (المال مال الله، وأن البشر مستخلفون فيه)، وعليه فإن اختصاص البعض بالمال في الإسلام، ليس « امتلاكا »، وإنما هو وظيفة وأمانة »،

(٤) رواه البخارى عن النعمان بن بشير، صحيح البخارى ٣/١٨٢ومسند الامام أحمد ٤/٢٦٩.

يسأل عنها لقوله تعالى :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(٥).

وقوله تعالى :

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(٦).

وقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(٧).

إن الإسلام تشجيعا للعمل والاكتساب، وحفزا للمبادرة والحافز الفردى. لايضع حدا أعلى للثروة أو الغنى، ولكنه يحاسب الغنى من زاوية لا تخطر على بال بشر وهى كيفية استخدام المال. فإنه فى كافة النظم الوضعية، متى اكتسب الفرد مالا بالطرق المشروعة، التى يقرها هذا النظام، فهو بعد ذلك حر فى استعمال ماله كيف يشاء، يخزنه، أويترفه به، أويرميه فى البحرلو أراد، بخلاف الإسلام، فالفرد ليس حرا فى التصرف فى ماله كيف شاء، وإنما هو مقيد بعدة قيود فهو :

أ- لا يملك أن يكنز ماله أويحبسه عن التداول بين الناس والإنتاج، لقوله تعالى - :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٨).

ب- وهو لايملك ان يصرف ماله على غير مقتضى العقل، وإلا عد « سفيها »، وجاز الحجر عليه لقوله - تعالى - :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾(٩).

ج- هو لا يملك ان يعيش عيشة مترفة (أى مبالغ فيها) وإلا اعتبر بنص القرآن« مجرما » لقوله - تعالى - :

﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾(١٠).

د- وهو مأمور بأن ينفق كل مازاد عن حاجته فى سبيل الله لقوله - تعالى - :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾(١١)

فالإسلام لا يكتفى بفريضة الزكاة بل يطالب القادرين أيضاً بفريضة الإنفاق فى سبيل الله وينذرهم حين إغفالها، بالتهلكة والحساب العسير، لقوله - تعالى -:

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾(١٢).

٣- في مجال التوزيع : فالأساس الأول فيه، هو الحاجة بمعنى ضمان حد الكفاية،لكل فرد فى المجتمع الإسلامى أيا كانت ديانته، أو جنسيته،

---

(٥) الحديد ٧.
(٦) النور٣٣.
(٧) التكاثر ٨.
(٨) التوبة ٣٤.
(٩) النساء ٥.
(١٠) هود ١١٦.
(١١) البقرة ٢١٩.
(١٢) البقرة ١٩٥.

باعتبار ذلك حق الله الذى يعلو فوق كل الحقوق، ثم بعد ذلك يكون لكل، تبعا لعمله لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾(١٣).

وإنه إذا كان الناس يتفاوتون في كفايتهم، وفى مقدار مايبذلونه من جهد، فإنه من الطبيعى أن يتفاوتوا في مقدار ما يحصلون عليه من دخل، أو يكونونه من ثروة. إلا أن التفاوت الذى يسمح به الإسلام، هو التفاوت المنضبط، الذى لا يخل بالتوازن الاقتصادى بين أفراد المجتمع، أو يمحق تماسكه، وإلا تعين على الحاكم التدخل لإعادة هذا التوازن عند افتقاده، وهو ما فعله الرسول ـ ﷺ ـ حين منع الأنصار من تأجير أرضهم الزراعية، وحين قصر توزيع فيىء بنى النضير على المهاجرين، واثنين من الأنصار كانوا فقراء.

والواقع أن مشكلة الاقتصاد الوطنى، هى أساساً في اختلال التوازن فى توزيع الثروات، والدخول، بين أفراد المجتمع. كما أن مشكلة الاقتصاد العالمى اليوم هى الهوة المتزايدة بين الدول المتقدمة الغنية، والدول النامية الفقيرة. ولا يستهدف أساساً أى تغيير أو اصلاح أو أى نظام اقتصادى جديد، سوى البدء فى تحقيق التوازن الاقتصادى بين أفراد المجتمع على المستوى المحلى، وتحقيق التوازن الاقتصادى بين دول العالم على المستوى العالمى. الأمر الذى نبه إليه الإسلام منذ أربعة عشر قرنا لقوله تعالى:

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾(١٤)، بمعنى ألا يكون المال، متداولاً بين فئة قليلة، تستأثر به دون غيرها، سواء كان ذلك على مستوى أفراد المجتمع أم علي مستوى دول العالم.

وخلاصة القول فى التوزيع، أن الاقتصاد الإسلامى، لا يسمح بالثروة والغنى إلا بعد القضاء على الفقر والحاجة، بضمان حد «الكفاية» لا «الكفاف» لكل فرد، بمعنى أنه إذا عجز أى فرد يتواجد فى مجتمع إسلامى، أيا كانت جنسيته أو ديانته، عن أن يوفر لنفسه المستوى اللائق للمعيشة، بسبب خارج عن إرادته، كمرض أو عجز أو شيخوخة، فإن نفقته تكون واجبة على بيت مال المسلمين، أى خزانة الدولة، وبالذات من فرع الزكاة وهو ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب مع الشيخ الضريراليهودى باعتباره مسكيناً يستحق من الصدقات.

كما أن الاقتصاد الإسلامى لا يسمح بتاتاً أن تستأثر أقلية من الأفراد أو الدول بخيرات المجتمع أو العالم، بل يطالب بأن يعم الخير الجميع. كما أنه لا يسمح كلية بممارسة أية صورة من صور الترف أو البذخ المفضى الى البطر، ولا صرف المال فى غير موضعه، مما يسمى بلغة اليوم، الانفاق المبدد أو الاستهلاك الاستفزازى.

كما لا يسمح الاقتصاد الاسلامى بأى حال من

(١٣) النساء٣٢.

(١٤) الحشر ٧.

الأحوال، أن يكون التفاوت فى الثروة والدخول، فاحشا أو كبيراً، بما يخل بالتوازن الاقتصادى بين أفراد المجتمع أو دول العالم، وإنما هو حسبما سبق بيانه، تفاوت منضبط بالقدر الذى يحض على العمل ويوفر الباعث، ويشجع المبادرة والإبداع، وبما يحقق التكامل لا التناقض، والتعاون لا الصراع، بحيث يتعين على أولى الأمر التدخل لإعادة التوزيع، كلما اختل هذا التوازن.

هذا وقد لخص الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سياسة الإسلام فى توزيع الثروة، بعبارتين دقيقتين مشهورتين عنه، أولهما قوله: (ما من أحد إلا وله فى هذا المال حق: الرجل وحاجته أى كفايته، ثم الرجل وبلاؤه أى عمله).

وثانيهما قوله: (إنى حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجزنا تأسَّينا في عيشنا حتى نستوى فى الكفاف)، وقوله فى عام المجاعة. (لو لم أجد للناس ما يسعهم، إلا أن أدخل على كل بيت عدتهم ـ أى عددهم ـ فيقاسموهم أنصاف بطونهم، حتى يأتى الله بالحيا ـ أى المطر ـ لفعلت، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم). ولقد عبر الامام الشافعى عن موقف الإسلام بالنسبة لتوزيع الثروة، وذلك فى عبارة فقهية دقيقة مشهورة عنه هى قوله: (إن للفقراء أحقية استحقاق فى أموال الأغنياء، حتى صار بمنزلة المال المشترك بين صاحبه وبين الفقير).

ذلك أن الحديث النبوى صريح « تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم »[١٥]، بمعنى ان يؤخذ من الأغنياء بقدر ما يكفى الفقراء.

ثانياً: خاصية الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية

أو ما أسميه بخاصية الإحساس بالعبودية لله ـ تعالى ـ ومراقبته، وابتغاء وجهه ـ تعالى ـ فى كل نشاط اقتصادى. فالهدف فى كافة النظم الاقتصادية الوضعية رأسمالية كانت أم اشتراكية، تحقيق المصالح المادية، وأن النشاط الاقتصادى ذو صبغة مادية بحتة. وخطأ هذه النظم الوضعية، أنها تصورت الإنسان مادة فحسب، وأن حقيقة العالم تنحصر فى ماديته، وأن الكسب المادى أو الكفاية المادية هى كل حياة البشر، ومن ثم كان هذا الخواء الروحى وذلك الإفلاس الذى تعانيه المجتمعات التى تدين بهذه النظم.

أما الاقتصاد الإسلامى، فإنه، إلى جانب إيمانه بالعمل المادى، وان النشاط الاقتصادى لا يمكن إلا أن يكون ماديا، إلا أنه لا يغفل الجانب الروحى فى الكائن البشرى. وكل ما يفعله الإسلام بهذا الخصوص، هو التنبيه بأن يتجه المرء بنشاطه الاقتصادى إلى الله ـ تعالى ـ ابتغاء مرضاته، وخشيته، مما يضفى على ذلك النشاط، الطابع الإيجابى والروحى، وشعور الرضا والسعادة.

وهنا تبرز نظرية هامة يغفل عنها الكثيرون، وهى أن الإسلام لا يعرف الفصل

---

(١٥) صحيح الإمام مسلم م: الإيمان رقم ٣١٢٩؟.

بين ما هو مادى وما هو روحى، ولا يفرق بين ما هو دنيوى وما هو أخروى... فكل نشاط مادى أو دنيوى يباشره الإنسان، هو فى نظر الإسلام عبادة، طالما كان هذا النشاط مشروعا وكان يتجه به إلى الله ـ تعالى ـ فليس صحيحاً ما يدعيه الفكر الغربى بأن هناك صراعاً بين الدين والدنيا، أو أن هناك مجالا لكل من النشاط الدنيوى والنشاط الأخروى... فالإسلام لا يعترف بهذا الفصل الميتافيزيقى بين الحاجات المادية أو الروحية، وذلك التميز المصطنع بين الأنشطة الدنيوية أو الأخروية، إلا على أساس مشروعية العمل وابتغاء وجه الله ـ تعالى ـ ويحكى أن بعض الصحابة رأى شاباً قويا، يسرع إلى عمله، فقال أحدهم: (لو كان هذا فى سبيل الله) فرد النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ (لا تقولوا هذا، فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو فى سبيل الله ـ وإن كان خرج على نفسه، يعفُّها، فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج رياء ومفاخرة، فهو فى سبيل الشيطان)[16] والإيمان فى الإسلام ليس إيماناً مجرداً abstrait، وإنما هو إيمان محدد Concret، مرتبط بالعمل والإنتاج لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[17].

ومرتبط بالعدل وحسن التوزيع لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[18]، ومرتبط بالإنفاق فى سبيل الله، وفعل المعروف لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[19].

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس)[20] ولم يقل أكثرهم صلاة أو صياماً. وقد أراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله فقال له الرسول – عليه الصلاة والسلام –: (لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله – أى الجهاد فى خدمة المجتمع – أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما)[21]، وقوله – عليه الصلاة والسلام –: (لأن يمشى أحدكم فى قضاء حاجة أخيه، أفضل من أن يعتكف فى مسجدى هذا شهرين[22]. ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال: (والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة)، ورحم الله جمال الدين

---

(١٦) اتحاف السادة المتقين ٥/٤١٤.

(١٧) التوبة ١٠٥.

(١٨) المائدة ٨.

(١٩) النساء ١١٤.

(٢٠) مجمع الزوائد ٨/١٩١ والطبرانى فى الكبير ٣/٢٠٩.

(٢١) الترغيب ٢/٢٨٥، اتحاف السادة المتقين ٦/٣٣٧.

(٢٢) الحاكم على المستدرك ٢٦٩، ٢٧٠ والترغيب ٣/٣٩١.

الأفغاني حين كان يردد: (أنا لا أفهم معنى لقولهم الفناء فى الله، وإنما الفناء يكون فى خلق الله بمساعدتهم وتوعيتهم بما فيه خيرهم)، وهذا الفهم الصحيح للإسلام يتفق مع الحديث القدسى: (ابغونى الضعفاء)[٢٣]، وحديث (إن الله تعالى ـ يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، فيقول العبد: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول ـ تعالى ـ: مرض عبدى فلان فلم تعده أما علمت انك لو عدته لو جدتنى عنده. يا ابن آدم استسقيتك فلم تطعمنى، قال. رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال ـ تعالى ـ: استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت انك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى. يا ابن آدم استسقيك فلم تسقنى، قال: رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال ـ تعالى ـ أستسقاق عبدى فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى)[٢٤] إنه فى كافة الاقتصاديات الوضعية، الرقابة في مباشرة النشاط الاقتصادى، هى رقابة خارجية، مناطها القانون. أما الاقتصاد الإسلامى، فإنه إلى جانب رقابة القانون أو الشريعة، فانه يحرص فى ذات الوقت، على إقامة رقابة أخرى ذاتية أساسها عقيدة الايمان، وحساب اليوم الآخر. ولاشك أن في ذلك ضمانة قوية لسلامة السلوك الاجتماعى، وشرعية النشاط الاقتصادى، لشعور الفرد المؤمن، بأنه إذا استطاع أن يفلت من رقابة ومساءلة القانون والشريعة، فإنه لن يستطيع أن يفلت من رقابة ومساءلة الله ـ تعالى ـ ومن هنا كان أساس المسئولية فى الإسلام (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن ترا فإنه يراك)، وتأكيدا لقول الرسول – عليه الصلاة والسلام – بأنه: (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)[٢٥].

ومؤدى ما تقدم، أن ثمة عامل مميز فى الاقتصاد الإسلامى هو اعتداده بالوازع الدينى، فى توجيه النشاط الاقتصادى، باستشعار المسلم رقابة الله ـ تعالى ـ فى كل تصرف، من تصرفاته، ومسئوليته، بحيث يلتزم المسلم تعاليم الإسلام، وذلك تلقائياً بباعث العقيدة والإيمان، أى عن رغبة وإختيار بغير حاجة إلى سلطان الدولة لإنفاذه، وهذا بعكس ما هو سائد فى النظم الإقتصادية الوضعية، حيث لا تهتم بعنصر الإيمان وتأثيره في النفوس، بل ينكر بعضها الوازع الدينى، فى توجيه النشاط الاقتصادى، ويبدو أثر ذلك في محاولة البعض فى ظل هذه النظم الوضعية التهرب من التزاماتهم أو الانحراف بنشاطهم الاقتصادى كلما غفلت عين الدولة أو عجزت أجهزتها عن رقابتهم ومساءلتهم.

وإنه من المفيد هنا الإشارة بأن الاقتصاد الإسلامى ينفرد دون سائر الاقتصاديات الوضعية

---

(٢٣) أبو داود ٥٩٤ البيهقى فى السنن الكبرى ٣/٣٤٥، ٦/٣٣١ وسنن النسائى ٦/٤٦.

(٢٤) إتحاف السادة المتقين ٩/٥٦٩ شرح السنة /٢١٨.

(٢٥) صحيح البخارى ٣/١٧٨، ٧/١٣٦، ٨/١٩٥، ١٩٧ والترمذى ٢٦٢٥ ومسند الإمام أحمد ٢/٣٧٦).

بالكشف عن عنصر هام من عناصر الإنتاج تغفله مختلف النظم الوضعية، بل يعتبره من أهم عناصر الإنتاج، ألا وهو عنصر «التقوى» أى إبتغاء وجه الله ـ تعالى ـ ومراعاته وخشيته فى كل ما نقوم به من عمل أو نباشره من نشاط اقتصادى، وعائده هو «البركة»، وهو ما عبرت عنه عدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية نذكر منها على سبيل المثال لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٢٦).

وصدق الله العظيم اذ يقول:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾(٢٧).

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٢٨)

ويقول ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾(٢٩).

ثالثًا: خاصية الجمع بين الثبات والتطور

أو ما أسميه بخاصية المذهب والنظام، فالاقتصاد هو اقتصاد «إلهى» من حيث أصوله،و«اجتهادى» من حيث تطبيقه.

ومؤدى ذلك أنه يتميز بصفتين أولهما: أنه «اقتصاد ثابت» من حيث أصوله الاقتصادية، حسبما وردت بنصوص القرآن والسنة مما سبق بيانه، فهذه الأصول غير قابلة للتغيير أو التبديل، ولا يجوز الخلاف حولها، وبحيث يخضع لها المسلمون فى كل زمان ومكان، بغض النظر عن تطور المجتمع من حيث تقدمه أوتخلفه، وبغض النظر عن أدوات واشكال الإنتاج السائدة، وهو ما عبرنا عنه بمصطلح (المذهب الاقتصادى الإسلامى)

ثانيهما: أنه «اقتصاد متطور» وذلك من حيث تطبيق المبادىء والأصول الاقتصادية الإسلامية بحسب ظروف الزمان والمكان. أو بيان مقدار حد الكفاية أو الحد الأدنى للأجور، أو إجراءات تحقيق العدالة الاجتماعية وإعادة التوازن الاقتصادى، عند افتقاده، أو بيان مدى الحرية الاقتصادية وتدخل الدول فى النشاط الاقتصادى، أوخطة التنمية الاقتصاية والتخطيط.. إلخ مما يتسع فيه مجال الاجتهاد وتتعدد فيه صور التطبيق، والتى نعبر عنها على المستوى النظرى أو الفكرى بمصطلح (النظرية أو النظريات الاقتصادية الإسلامية) وعلي المستوى العملى أو التطبيقى بمصطلح (النظام أو النظم الاقتصادية الإسلامية)

وفقنا الله تعالى وسدد خطانا

---

(٢٦) الأعراف ٩٦.
(٢٧) طه ١٢٤.
(٢٨) التوبة ٦٧.
(٢٩) الحشر ١٩.

التراث العلمى الإسلامى
ذاكرة الأمة ورصيدها الحضارى

للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا(*)

الاعتبار من دروس التاريخ:

إذا كانت الخبرة الإنسانية تدعونا دائماً إلى الاعتبار من دروس التاريخ، فإن تاريخ العلوم لا يدلنا فقط على المراحل الزمنية للتغيرات التى شهدها، ولكننا نتعلم منه أيضاً أن المشكلات والقضايا العلمية التى تواجهنا الآن ليست جديدة تماماً، فالأساليب التى عولجت بها هذه القضايا فى ظروف مغايرة عبر العصور لن تخلو أبداً مما يمكن أن نفيد منه اليوم أو غداً، ولذا فإن أية نظرية تطرح لنقد العلم قديماً وحديثاً تكتسب أهميتها من المبررات المنطقية التى تقدمها كمسوغ لإعادة قراءة تاريخ العلوم فى ضوء المرحلة التى يبلغها من تطوره على أساس ما يستجد دائماً من أفكار تتعلق بالجوانب المختلفة لنظرية العلم والتقنية، بحيث تجعل من هذه القراءة المعاصرة أساساً لتحليل الواقع واستشرافاً لآفاق المستقبل.

ومن هنا نعثر على السبب الحقيقى وراء الاهتمام العالمى المتزايد بإعادة تحليل تاريخ العلم والتقنية برؤية موضوعية قدر الإمكان، من خلال المؤسسات الأكاديمية والمجلات الدورية والترجمة والتأليف وإحياء تراث الأعلام فى فروع العلم المختلفة.

ومن هنا أيضاً تظهر بجلاء أهمية إحياء التراث العلمى للحضارة العربية الإسلامية، والعودة – من خلال الدراسات التأصيلية – بالعلوم التخصصية المعاصرة إلى جذورها فى المجتمع الذى كان شاهداً على ميلادها، والتعرف على طبيعة الظروف التى سمحت للمفاهيم والأفكار الوليدة

(*) عميد كلية العلوم – جامعة القاهرة.

أن تنمو وتزدهر، وتصبح بعد ذلك فروعاً فى شجرة المعرفة، وراوفد لا غنى عنها لتغذية الحضارة الإنسانية، ذلك لأن الحقائق العلمية ليست كلها على درجة متكافئة من الأهمية والدلالة عندما يتناولها المؤرخ بالتحليل والتفسير فى أى عصر من العصور، كما أن قيمة العلماء ومكانتهم تتحدد بقيمة القوانين والنتائج العلمية التى يتوصلون إليها، وبمدى أثرها فى دفع مسيرة التقدم العلمى والحضارى[(١)].

وكمثال على أهمية الاعتبار من دروس التاريخ فى مجال العلوم والتقنية نعرض بإيجاز لما جاء فى تقرير عن ندوة «تاريخ العلوم والثقافة العلمية فى أوروبا»، التى عقدت فى فلورنسا عام ١٩٩١م للبحث عن جهود إحياء التراث العلمى فى أوروبا المعاصرة، والمكانة التى يمكن أن يحتلها تاريخ العلم والتقنية فى المجتمع الأوروبى المعاصر[(٢)]:

جاء فى هذا التقرير أن العلم والتقنية ينظر إليهما كأساس ضرورى لمكونات «العزة القومية». لهذا فإن تأريخيهما يميل إلى اتخاذ شكل الدفاع والمباهاة فيما يتعلق بالمجتمع العلمى للبلد المعنى، ومن سماته المثيرة فى معظم البلدان الأوروبية ميله إلى النمو فى إطار قومى بالضرورة، على الرغم من العديد من اللقاءات والصلات الدولية القائمة بين الباحثين، ويتجلى الانحياز المقصود أو غير المقصود، بوضوح عند مؤرخى بلد ما، عند اختيارهم لموضوعات البحث، ومنها الحقب التاريخية، أو الإنجازات التى تبين تفوق دولة على الأخرى، مثال ذلك: الثورة الصناعية: الصلب والبخار والمنسوجات فى انجلترا خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وصناعة الحديد والصلب فى السويد فى القرن الثامن عشر، والميكانيكا والهيدروليكا فى إيطاليا فى عصر النهضة، وتقنيات التسليح والملاحة فى إسبانيا خلال عصر الاكتشافات، وهلم جرا. والنتيجة الواضحة لهذه الظاهرة هى صورة مشوهة لتطور العلم والتقنية فى أوروبا، وهى تشبه منظراً طبيعياً لا تظهر فيه سوى قمم الجبال.

كذلك أشار التقرير الهام إلى أهمية انتشار الفهم العميق للماضى العلمى والتقنى، وأكد على النقاط التالية:

١- إن مستوى العمل المؤسسى لرعاية التراث العلمى الأوروبى يكاد يكون غائباً، حيث يتناثر الباحثون فى جهات أكاديمية متعددة. واقترح البعض مناقشة تأسيس اتحاد أوروبى وإصدار دورية أوروبية لتاريخ العلم والتقنية، بالإضافة إلى إجراء مشروعات مشتركة على أساس تعاونى، مثل طبع الأعمال الكاملة لكبار العلماء.

٢- الباحثون المحرومون من الثقافة التاريخية، والمنعزلون عن الأسس التى تقوم عليها علومهم يكونون أكثر عرضة لأن يضلوا طريقهم ويضاعفوا أخطاءهم. وبعض الاكتشافات التى تقدم اليوم على أنها إنجازات ثورية وإبداعية غير

---

(١) راجع فى ذلك: د. أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى، دراسات تأصيلية، دار الهداية، القاهرة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) مايكل أندريه، تاريخ العلوم والثقافة العلمية فى أوروبا، مجلة العلم والمجتمع. عدد ١٦٧، اليونسكو ١٩٩٢م.

مسبوقة، قد لا تكون فى الحقيقة سوى إعادة تشكيل لبعض الأفكار القديمة التى أهملت وغمرها النسيان لسنين عديدة.

والآن، ترى هل يمكن أن نجد شيئاً يخصنا - نحن معشر العرب والمسلمين - فيما ذكرناه عن مظاهر وأسباب الاهتمام الدولى والأوروبى بقضايا التراث العلمى؟ ذلك الاهتمام الذى أخذ فى الازدياد بصورة تلفت النظر خلال النصف الثانى من القرن العشرين، خاصة بعد أن أظهرت الدراسات المتعلقة بتاريخ العلم وفلسفته أن الباحث الجيد هو الذى يكون على دراية تامة بأحدث ما توصل إليه زملاؤه فى مجال تخصصه، وأن يكون فى الوقت نفسه ملما إلماماً كافياً بأصول المفاهيم العلمية المتصلة بموضوع بحثه، وذلك من خلال متابعته الدقيقة لطبيعة نموها عبر مراحل تطورها. وهذا يعنى أن الجمع بين الأصالة والمعاصرة فى العلوم الكونية يعد من أهم سمات الباحث المتميز الذى يكون بلاشك أقدر من غيره على ممارسة البحث العلمى برؤية أعم ومنهج أصوب وذوق أرقى.

دعاوى مفندة:

التراث العلمى الإسلامى يشمل جزءاً كبيراً من التاريخ العلمى والحضارى، ويخص الحضارة الإسلامية ودورها الرائد فى مسيرة الحضارة الإنسانية، بشهادة المنصفين من المؤرخين، لكن بعض المنظرين يغفلون هذا الدور الإسلامى الرائد، فى الوقت الذى يحاولون فيه أن يؤرخوا لنظرية العلم بإيجاد أساس لها عند أفلاطون وأرسطو فى الحضارة الإغريقية، أو عند «بيكون» و«ديكارت» و«مل» وغيرهم من رواد النهضة العلمية الحديثة. بل إننا نجد من يثنى كثيراً على ما يسمى «بالعلم العبرى» أو «العلم المسيحى»، كما تساق التبريرات الواهية لاعتبار إسرائيل ضمن الحضارات الكبرى القديمة فى الشرق، وللإشادة بالعصر الذهبى «للعبقرية السامية» فى حضارة بابل وآشور.[٣] ولم يستطع أكثر المؤرخين المعاصرين إنصافاً للحضارة الإسلامية أن يخفى نزعته العرقية عندما تحدث عما أسماه «بالمعجزة اليونانية» وتفوقها على الحضارات المجاورة لها، قائلاً: «وحديثنا عن الماضى محدود من عدة وجوه، وأحد هذه الوجوه الضرورية أنه يجب علينا أن نقصر أنفسنا على أسلافنا فحسب... والواقع أن ثقافتنا النابعة من الأصل الإغريقى والعبرى هى الثقافة التى تعنينا كثيراً، إن لم تكن هى كل ما يعنينا.. .والزعم بأنها بالضرورة أرقى الثقافات فيه خطأ وشر.. لأننى إن كنت أرقى من جيرانى فليس لى أن أقول ذلك، ولكن لهم فقط أن يقولوه، وإذا زعمت لنفسى شيئاً من العلو لا يستطيعون - أو لا يقبلون - أن يصادقوا عليه، فإن ذلك لا يثمر سوى العداوة بيننا»[٤].

وفى كتاب «العلم فى التاريخ» لم يستطيع المؤلف (جون ديزموند برنال) أن يخفى تحيزه

---

(٣) رينيه تاتون R. Taton، تاريخ العلوم العام، العلم القديم والوسيط، ترجمة د. على مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٨م.

(٤) جورج سارتون، تاريخ العلم، الترجمة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

الواضح إلى جانب الإغريق والفرس والرومان، فى الوقت الذى يكيل فيه اتهامات متنوعة للإسلام والمسلمين دون أن يشرحها أو يدلل عليها، فالإسلام - فيما يزعم برنال - أقام ثقافة متلاحمة ظلت باقية إلى يومنا هذا، بالرغم من أنها ليست ثقافة تقدمية، واللغة العربية - فيما يزعم برنال أيضاً - هى التى حجبت الدور الكبير للعنصر الفارسى فى العلوم الإسلامية الشرقية، والمسلمون يتحملون مسئولية كبيرة عن إقامة حواجز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية إلى يومنا هذا، بدعوى أنهم لم يترجموا إنسانيات الإغريق مثلما ترجموا التراث العلمى والفلسفى، فانتقلت الإنسانيات والعلوم إلى الثقافة الحديثة عن طريقين مختلفين. وينكر « برنال » مآثر علماء المسلمين ويقصرها فقط على مجرد حفظهم لمواريث القدماء قائلاً: « رضى معظم علماء المسلمين بالنمط الكلاسيكى الأخير للعلوم، ووثقوا هذا النمط. ولم يكن لديهم طموح كبير ليحسنوه، ولم يكن لديهم أى طموح لأن يطوروه تطويراً ثورياً »(٥).

وتجدر الإشارة أيضاً بإيجاز إلى بعض صور التحيز الواضح من جانب بعض المؤرخين عندما يتجهون إلى التأليف فى تاريخ العلوم وتقنياتها لإذكاء نزعة قومية، حيث نجد بينهم من يكتب عن علم غير غربى، لا ليؤكد حق حضارة أخرى أسقط دورها من حركة التاريخ الإنسانى، ولكن لكى يثبت أسطورة الجنس الآرى وتفوقه، ويؤكد مقولة: « إن العلم لا يمكن إلا أن يكون غربيا ». فعندما صنف « جوزيف نيدهام » وزملاؤه سبعة مجلدات ضخمة (بدأ إصدارها عام ١٩٥٤م) عن العلم والحضارة فى الصين، إنما كانوا يحاولون أن يفسروا السبب الذى حال دون أن تتبع التنمية فى الصين نفس المسار الذى اتبعته الثورة العلمية الحديثة فى أوروبا ثم يسعون من خلال ذلك إلى تأكيد فرض ضمنى، مُفاده أن العلم والتقنية اللذين أينعا فى أوروبا النهضة، عالميان، وأن كل ما هو أوروبى لابد أن يكون عالمياً. وغالباً ما يطرح أمثال هؤلاء المؤرخين المتحيزين مسألة « العلم القومى » فى صورة منافسة يحاول فيها كل فريق التصدى بحماس لا يخلو من المبالغة فى كثير من الأحيان للرد على كل ما يقلل من شأنهم فى ساحة الفكر العالمى(٦).

وعلى غرار ما فعل « نيدهام » بالنسبة للعلم الصينى. أو شئ قريب منه، حاول « توبى هاف » مؤخراً أن يجيب على سؤال: لماذا ظهر العلم الحديث فى أوروبا، على حين أن العالم العربى الإسلامى كان متقدماً على الغرب الأوروبى بكثير طوال الفترة التى مهدت لظهور هذا العلم؟ وروج بالطبع لبعض المغالطات التاريخية فى نقده للثقافة الإسلامية، لكنه لم يستطع أن يخفى جوانب التقدم التى أحرزها العالم العربى الإسلامى، وتفوق بها على العالم الغربى فى المرحلة التى يسميها « فجر العلم الحديث »(٧).

---

(٥) ج.د. برنال، العلم فى التاريخ، ترجمة د. على على ناصف. الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩١م.

(٦) مجلة العلم والمجتمع، الترجمة العربية، اليونسكو، ع٧٣، ١٩٨٩م.

(٧) توبى أ. هاف، فجر العلم الحديث، الإسلام - الصين - الغرب - جزءان، ترجمة د. أحمد محمود صبحى، عالم المعرفة، الكويت، مارس وإبريل ١٩٩٧م. وقد أعددنا دراسة نقدية لهذا الكتاب نشرت بمجلة الأزهر، الأعداد ٧، ٨ (١٩٩٧م) و٢ (١٩٩٨م).

أما أولئك الذين حاولوا اختراق الثقافة الإسلامية من خلال دراستهم لتراثنا العلمى، فقد تطرقوا لأمور من صميم العقيدة الإسلامية ذاتها وروجوا لأفكار خاطئة عن الإسلام والمسلمين. ومن أمثلتهم «إميلى سيفيج سميث» الذى أورد فى دراسة حديثة حول «الاتجاهات الجارية فى دراسة العلوم والطب عند المسلمين فى العصر الوسيط» كلاماً مبتسراً عن الطب النبوى، والرسائل المؤلفة من قبل علماء الدين، وليس من قبل الأطباء، على أساس اعتقادهم بأن المعرفة يمكن الحصول عليها فقط عن طريق الوحى، والنبى محمد – صلى الله عليه وسلم – وأعراف الصحابة المقربين وآرائهم. ويزعم سميث فى دراسته أن رسائل الطب النبوى قد شاعت فى مقابل الطب القائم على أساس إغريقى على أيدى فريق من الأطباء النطاسيين، أمثال ابن جميع[(٨)].

وفى مقال آخر بعنوان «العلم فى خدمة الدين» يتخذ ديفيد كينج من خلال دراسته للتراث العربى الإسلامى مدخلاً لترويج أفكار خاطئة عن الإسلام، ويتخذ من هذا الستار العلمى رداء خادعاً، بحيث تبدو هذه الأفكار وكأنها تعبير صادق عن واقع الإسلام والمسلمين. ففى غمرة انشغاله بقضايا التراث العلمى الإسلامى المتعلقة بمسائل تحديد اتجاه القبلة واستطلاع أهلة الشهور القمرية، نجده يثير أسئلة لا تؤهله ثقافته للرد عليها، فهو مثلاً يتساءل عن سبب اعتماد المسلمين لخمس صلوات رئيسية فقط، زاعماً أن هذا التحديد لم يرد بشأنه – نص صريح فى آيات القرآن الكريم. أو فى أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويظهر من خلال مناقشته لهذه القضية التى أقحمها على موضوع بحثه إقحاماً أنه يخلط بين الصلوات المفروضة وصلوات التطوع، ويسوق روايات من عنده تنسب إلى – الرسول – صلى الله عليه وسلم – قوله: بأن صلاة الضحى بدعة موروثة، وهذا كان سبباً واضحاً – فيما يزعم – لحيرة المتأخرين وترددهم فى ضم صلاة الضحى إلى الصلوات الخمس الرئيسية[(٩)].

إن مثل هذه المواقف المتحيزة بدرجات متفاوتة للعلم الغربى، بل لكل ما هو غربى، على حساب الإنجازات الحضارية للأمم الأخرى بصورة عامة، والأمة العربية الإسلامية بوجه خاص، ومثل هذه الدعاوى والافتراءات الموجهة ضد الإسلام، والمشوهة لحقائق التاريخ والعلم على حد سواء، هو الذى يدعونا دائماً إلى البحث فى كنوز التراث لتأصيل ثقافتنا الإسلامية وإعادة صياغتها بما يلائم إيقاعات العصر، وتوقعات المستقبل، وذلك فى إطار الإلمام الواعى بكل الخصائص والقسمات الحضارية التى تخصنا وتميزنا عن الآخرين.

---

(٨) راجع الترجمة العربية لمقال «سميث» فى مجلة الثقافة العالمية، العدد ٤٤، الكويت ١٩٨٩م.

(٩) يعمل ديفيد كنج مديراً لمعهد تاريخ العلوم التابع لجامعة (يوهان فولفجانج (جوته) فى فرانكفورت. وقد قام منذ سنوات بفهرسة مقتنيات دار الكتب المصرية من المخطوطات العربية والفارسية والتركية المتعلقة بالفلك والرياضيات والميكانيكا والبصريات (٢٥٠٠ مخطوط)، ونشر أبحاثه فى ثلاثة مجلدات، يعرض كل منها نفس المخطوطات (٢٥٠٠) من خلال منظورات مختلفة. ومقاله المذكور «العلم فى خدمة الدين» منشور فى مجلة: Impact of Science on Society. Unesco, No. 159,245-262 (1990)

جنون البقر.. والخروج عن الفطرة

للأستاذ الدكتور/ عبد الراضي حسن المراغي (*)

ظهر مرض جنون البقر عندما غير الإنسان من غذاء الأبقار والأغنام والماشية من الأعلاف النباتية الى الأعلاف الحيوانية وعندما قدم لها غذاء يشتمل على مخلفات حيوانية جافة مصنعة من جثث الأبقار والأغنام النافقة المصابة بأمراض مثل: جنون البقر والحكة بالنسبة للأغنام أو حتى جثث الحيوانات الغير مصابة بهذه الأمراض. وتدخل جثث هذه الحيوانات فى سلسلة من المعالجات مثل التعقيم بالبخار وفصل العظم لاستخدامة فى صناعة مستحضرات التجميل، وتجفيف اللحم وطحنة. ويخلط مسحوق اللحم بمسحوق العظام ومسحوق الدم المجفف الذى يتم جمعة من المجازر ويضاف الخليط إلى علف الحيوان كعليقة تمتاز بكونها عليقة غنية بالبروتين رخيصة الثمن. ولم يخطر ببال الإنسان أنه غير من نظام تغذية هذه الماشية من تغذية نباتية عاشبة إلى تغذية حيوانية لاحمة وهذا التغير هو خروج عن الفطرة، فإذا كان المولى ـ عزوجل ـ قد حرم على الإنسان أكل الميتة والدم ولحم الخنزير (والذى إذا أصيب بهذه الأمراض تكون إصابته بالغة وكمية الأجزاء المصابة أكثر، بالاضافة الى أن جسم الخنزير ملىء بالطفيليات ودهونه تسبب أمراض القلب) ، قال ـ تعالى ـ فى محكم كتابة:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾(1).

ويرجع سبب تحريم أكل الحيوانات النافقة إلى تحللها بواسطة المحللات والرميات والكائنات الحية الدقيقة وأيضاً إلى احتواء لحوم الميتة على الدم الذى يتعرض لتفاعلات كيميائية وتغيرات فسيولوجية وبيوجزيئية غريبة تنتج أنواعاً من الأحماض الأمينية والبروتينات غير العشرين حمضا أمينياً المعروفة فى الطبيعية.

(*) أستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر.

(1) سورة المائدة : الآية (3).

ونتيجة لكل المعالجات التى يتم بها تحضير العلائق والأعلاف الحيوانية من جثث الحيوانات النافقة والدم المجمع من المجازر ظهر نوع جديد من البروتينات يسمى بالبريون الذى يعتقد أن جزيئه يتكون من ٢٥٠ حمضا أمينياً ويختلف هذا البروتين عن البروتينات الطبيعية بأن له خصائص فظة لاتمكن الإنسان من القضاء عليه مثل أنه يقاوم الحرارة العالية، ويقاوم المواد الحافظة مثل الكحول والفورمالين والفورمالدهيد ولايمكن القضاء عليه لا باستخدام الأحماض أو المواد المشعة. وينتج هذا الجزىء البروتينى الغريب نتيجة عمليات إعادة الاستخدام والهضم المتكررة بواسطة الحيوانات والرميات والكائنات الحية الدقيقة.

وعندما تتغذى الأبقار والأغنام والماشية بالأعلاف الحيوانية لايتم هضم البريون كأى بروتين غذائى آخر وعلى هذا الأساس لايتغير تركيب البروتين ولايستطيع الجهاز المناعى للجسم مقاومتة ويخترق الأمعاء الدقيقة عند منطقة اللفائفى (وهو جزء هام من الأمعاء الدقيقة يتم فيه امتصاص الطعام) ويصل إلى المخ والنخاع الشوكى عبر الأوعية الدموية ويحدث مرض التحول المخى الإسفنجى المعدى ويسمى بمرض جنون البقر (أو مرض جاكوب) والذى من أعراضة فقدان المخ لوظائفة الحيوية بالتدريج مما يؤدى إلى خروج الحيوان عن طبيعته ويصاب بتشنجات فى الجسم ويجلس جلسة الحصان ويسير بنفس طريقة سيره، وتقل كمية إدرار اللبن ويفقد الحيوان وزنه ويحرك رأسه حركة بندولية ويلعق أنفه فى حركة غير طبيعية بالإضافة إلى كونة سريع الهياج والقلق والتعثر فى السير عند الخروج من المحلب (مكان حلب الأبقار) ثم يصاب بالشلل فى النصف الخلفى ثم الشلل التام مما يؤدى إلى الموت.

وقد تمكن العلماء من اكتشاف صبغة معينة يحقن بها الحيوان لها المقدرة على أن تظهر الأماكن المصابة من الأعضاء والأنسجة بمرض جنون البقر وهى ثمانية وأربعون عضواً أو نسيجاً فى الحيوان مثل: المخ، النخاع الشوكى، العين، جميع الأنسجة العصبية، جميع الغدد اللمفاوية، الطحال واللفائفى. وتصل فترة حضانة المرض فى الأبقار من ثمانية إلى عشر سنوات وعلى هذا الأساس يفضل ذبح واستخدام الأبقار التى لايتجاوز عمرها ثلاثين شهرا لعدم إصابتها بهذا المرض.

وقد نشرت إحدى الهيئات العلمية فى موقعها على شبكة الانترنت بحثاً علمياً يشير إلى إمكانية انتقال مرض جنون البقر إلى الإنسان من خلال الألبان ومنتجاتها والحلويات والعدسات اللاصقة وخيوط الجراحة، بالإضافة إلى ماعرف بالفعل عن انتشار المرض الخطير عبر اللحوم والأعلاف التى قد تحمل الاصابة بجزىء البريون. ذلك بالرغم من عدم ظهور

حالات إصابة بجنون البقر فى الإنسان نتيجة تناوله اللبن أو منتجاته إلا أن هذا الأمر لايمكن إغفاله.

ويعود اكتشاف المرض إلى منتصف القرن العشرين فى بريطانيا وشخصت أعراضه فى عام ١٩٨٦ وعرفت أعراضه العصبية بدقة فى عام ١٩٨٧م وانتشر فى الفترة مابين عامى ١٩٨٩ إلى ١٩٩١م وتم حظر استخدام الأعلاف الحيوانية المسببة لهذا المرض فى آوائل عام ١٩٩٠م، وكان هذا الانتشار هو الأزمة الأولى لهذا المرض حيث تم تسجيل ١٨٠ ألف حالة إصابة في الأبقار خلال الثمانينات وحتى آواخر التسعينات وذلك نتيجة انتقال المرض من مكان الى آخر واستمرار بعض أصحاب مزارع تربية الأبقار فى استخدام الأعلاف الحيوانية.

وعادت الأزمة للظهور مرة أخرى فى أكتوبر من عام ٢٠٠٠م عندما انتشر المرض بصورة كبيرة فى كل من بريطانيا وفرنسا وسبب لهما خسارة اقتصادية كبيرة وامتدت الاصابة عبر أوروبا من المانيا حتى بلجيكا، وأكدت الفحوص الطبية انتشار مرض جنون البقر فى أنحاء أوروبا بدرجة أكبر مما كان معتقداً من قبل بعد الكشف عن حالات اشتباه الاصابة بالمرض فى الكثير من الأبقار، وأدى ذلك إلى انخفاض استهلاك لحوم البقر بنسبة ٢٧٪ فى دول الاتحاد الاوروبى وفى المانيا انخفض الاستهلاك بنسبة الثلث.

وقد تفاقمت أزمة مرض جنون البقر فى بداية عام ٢٠٠١م عندما صدرت بريطانيا منتجات ومعدات طبية وطعوم لشلل الأطفال ملوثة بمرض جنون البقر إلى ١١ دولة فى أنحاء العالم ومنها دول بالشرق الأوسط.

وأعلنت أيرلندا أن طعوم شلل الأطفال المصدرة إليها من بريطانيا تحتوى على زلال مستخلص من دم متبرع بريطانى مصاب بمرض جنون البقر وقد حصل الأطفال على معظم الجرعات المعطاة من الطعم وعددها ٨٣٥٠٠ جرعة وقد كشفت الشركة المصنعة لهذه الطعوم عن هذه المعلومات الخطيرة. وقد تم تصدير منتجات بلازما دم المصابين بمرض جنون البقر والتى استخدمت عن طريق الخطأ فى تصنيع عقار الجلوبيولين المناعى الذى يستخدم كبديل للمضادات الحيوية.

ويعتبر مرض جنون البقر من الأمراض المشتركة بين الحيوان والإنسان، وتتلخص أعراض مرض جنون البقر الذى يصيب الإنسان فى أعراض عصبية، وحركات لا إرادية واختلال فى طريقة الكلام ويؤدى حركات تشنجية مفاجئة ويترنح ويظهر عدم استمرارية فى الكلام والحركة كما تختل الذاكرة ويصاب المريض بالقلق والاكتئاب وغير ذلك من الأعراض النفسية كما تظهر بعض الأعراض العصبية مثل العته والخرف وعدم القدرة على التمييز والتعبير وخلل فى الإدراك وتتراوح أعمار المصابين بهذا المرض فى الإنسان فيما بين ٥٠ إلى ٧٠ عاماً.

وعندما تظهر هذه الأعراض تؤدى إلى وفاة المريض خلال فترة من أربعة أشهر إلى سنتين ومن غرابة جزىء البريون أنه استطاع أن يظهر صور مرضية أكثر مقاومة حيث زادت فترة حضانة المرض من ٨ إلى ١٠ سنوات إلي مابين ١٥ إلى ٢٠ عاماً بل واستطاع البريون أيضاً أن يصيب كل الأعمار.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد المصابين بمرض جنون البقر فى بريطانيا يصل إلى أكثر من ٩٤ شخصاً منهم ١٣ شخصاً تبرعوا بدمائهم وجرى استخدام مكوناتها فى إسعاف الآخرين وفى تصنيع هذه المنتجات. كل هذه المخاطر التى قد تنتقل إلينا عن طريق لحوم الأبقار أو الأغنام والماشية المصابة بمرض جنون البقر أو اى من منتجاتها نحن فى غنى عنها ويجب أن نتجنبها بالالتزام بنصح المولى ـ عزوجل ـ بالابتعاد عن مانهى عنه من عدم أكل لحوم الميتة والدم وعدم استعمالها كعلائف لتغذية الحيوانات وعدم أكل لحم الخنزير. فعندما يحرم الله ـ جلت قدرته ـ أمراً فهوا لصالح الإنسانية ورفاهية البشرية فالمولى ـ عز وجل ـ أعلم بما يفيد الناس ويضرهم . وظهور الأمراض الغريبة والشرسة هو تحذير للذين يخالفون طاعة آوامره قال ـ تعالى ـ :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢).

وجوانب الوقاية متعددة وخير العلاج هو الوقاية وأول خطوات الوقاية عدم الخروج عن الفطرة التى فطر الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه عليها بمعنى عدم إجبار الأنعام من الأبقار والأغنام على التغذية اللاحمة بدلاً من التغذية النباتية والعاشبة وطاعة الله واتباع آوامره بعدم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وعدم استيراد لحوم الأبقار والأغنام من الدول التى انتشر فيها هذا المرض أو التى تستورد منها هذه الحيوانات وينطبق ذلك على منتجات الأبقار والأغنام من ألبان ومستحضرات تجميل وعدسات لاصقة وخيوط الجراحة ومكونات الدم والمستحضرات الطبية والأدوية المصنعة من هذه المكونات وكذلك الجيلاتين وعدم استيراد اللحوم الغير مشفاة ووقاية العاملين بالمجازر وحرق الأجزاء المصابة بالمرض فى محارق تصل درجة حرارتها إلى ٥٠٠ درجة مئوية وتطوير طرق الكشف والتعرف على الحيوانات المصابة والعمل على الاكتفاء بالأبقار والأغنام المحلية وتنمية المزارع المحلية وتشجيع مشاريع تنمية الماشية مثل مشروع البتلو والاعتماد على تنويع التغذية باستخدام الدواجن والأسماك.

(٢) سورة النور : الآية (٦٣).

هل تغرق السفينة ؟ لطفك اللهم

للأستاذ / مجدى عبد الحميد بشير

كثيرة هى الأخطار التى تواجه الأرض، وجلها من صنع الإنسان، وأهمها كما زعِمَ: تدمير الأرض عن طريق اصطدامها بأحد المذنبات أو النجيمات الصغيرة، أو الشهب، أو النيازك، وذلك فى مدة لا تتجاوز الخمسة وستين مليون سنة القادمة، وأن نسبة حدوث ذلك الخطب الجلل لا تتعدى واحداً فى المليون فى العشرين سنة المقبلة.

ورغم كل تلك المخاوف، فإن سنة الله فى الخلق لا تختلف، وأن الإنسان يواصل المسيرة – شاء أم أبى – مهما كانت الصعاب، يقول – تعالى –:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾(١).

ومبعث هذا الذعر الممض هو التصور المادى البحت والنفعى المحض الذى يرى نهاية الإنسانية وما شادت من عمران شمل شتى المجالات بما فيها من لغات معقدة، وإرسال المستكشفين الآليين، وسفن الفضاء التى تحمل الآدميين لاستكشاف ما بالكواكب الأخرى يرى نهاية كل ذلك أمر من الصعب الإلمام به أو استيعابه، وهو تصور أهوج يريد أن يوحى من طرف خفى أن ذلك الإنسان الضعيف هو الذى خلق الكون، جاهلاً أو متجاهلاً خالقه ومبدعه جل فى علاه، والملوم الحقيقى فيما يحدث للأرض هو ذلك الإنسان، وما جنت يداه من مفاسد واقترفت من آثام بينتها الآية :

(١) الانشقاق (٦).

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

كما جسمها كل النشاطات البشرية التى يصعب التمييز فيها بين الطموح المشروع والجشع المرفوض، فكل تلك الأنشطة البشرية التى تعيق مسيرة التقدم الإنسانى، بل تنفذ من حيث تدرى أو لا تدرى ما قاله المثل العربي: «على نفسها جنت براقش» حيث تضر بنفسها ظانة النفع والفائدة. وتعتبر عمليات الانقراض لبعض المخلوقات التى ارتفعت نسبتها إلى عشرة آلاف مثلها فى العصور السابقة مثلاً صارخاً على ما نقول. وأهم ما طاله الانقراض مؤخرا: «السناجب الحمر» و«القواقع الحلزونية» و«الطيور المائية». وإيقاظاً للنوام تقدم مجلة "DISCOVER" عشرين سببا يكفى كل منها للقضاء على الحياة قضاء مبرماً، لكنها تناقش كل سبب مناقشة موضوعية لتضع يدنا على الداء، سائلين الله – تعالى – الشفاء والنماء.

١- أثر النيازك والشهب. وهو أثر شديد الضرر ولا علاقة له البتة بالتهاويل الفنية والمعالجات الخيالية. ففى سنة ١٩٠٨م اخترقت قطعة من نيزك بلغ اتساعها «٢٠٠» قدم اخترقت الغلاف الجوى للأرض وانفجرت فوق منطقة بسيبيريا مولدة طاقة فاقت القنبلة الذرية التى أُلقيت على هيروشيما باليابان ألف مرة، لكن من رحمة الله أن حدث ذلك فى منطقة قليلة السكان.

ويقدر الفلكيون أن أحداثا مماثلة تقع فى فترات تتراوح بين قرن إلى ثلاثة قرون، وأن إحداها كما يقول أحد علماء الاجتماع الإنجليز أودى بحياة عشرة آلاف إنسان فى الصين سنة ١٤٩٠م. ولطف الله وعنايته بالإنسان حتى ولو كان كافرا أمر لا مراء فيه ولاشك، حيث إن تلك الشهب والنيازك تهبط فى أعماق المحيطات أو المناطق غير الآهلة بالسكان. لكن هذا لا يمنع أن أجساما يربو حجم كل منها على نصف ميل ترتطم بالأرض كل ربع مليون سنة فتشعل العواصف النارية، التى يتبعها برود كونى ناشئ عن الغبار المتخلف عن تلك الأجرام التى تسبب انفجار إحداها –والذى زادت مساحته على خمسة أميال– تسبب فى نهاية عصر الديناصورات.

حزام كويبر Kuiper belt

وأما إن شئنا التحدث عن الشلل الحقيقى الذى يمكن أن يصيب المدنية، فلننظر إلى «حزام كويبر» وهو كما عرفه الفلكيون: منطقة تقع خلف كوكب نبتون وتحوى على الأقل مائة ألف كرة ثلجية يزيد قطر كل منها على خمسين ميلاً، ويبعث حزام كويبر وابلاً من النيازك الصغيرة فى اتجاه الأرض التى لو وصل أكبرها إلى كوكبنا لقضى على كل ألوان الحياة وأشكالها بما فيها الصراصير.

٢- طفرات أشعة «جاما» فلو شاهدت السماء بمنظار أشعة «جاما» لوجدت نفسك محاصراً بأشعة كونية عرفها الفلكيون بأنها وميض

(٢) الروم (٤١).

ساطع لامع يظهر ويفوق بريقه كل شيء على سطح الأرض، وسرعان ما يختفى وهو كما اتضح أخيرا قادم من مجرات موغلة فى البعد تزيد طاقتها على طاقة الشمس بمقدار عشرة « قوادر ليون » أى واحد وعن يمينه ستة عشر صفرا وربما كانت ناتجة عن اندماج نجمين عملاقين وهو اندماج لا يمكن تقصيه أو التنبؤ به . لكن على بعد ألف سنة ضوئية، وهى مسافة أبعد من كل النجوم التى تراها فى ليلة صافية على هذا البعد يظهر ذلك البريق ساطعا كالشمس، بيد أن الله لا يتخلى عن الإنسان، ولطفه معه حيثما كان، إذ سخر سبحانه الغلاف الجوى ليحمينا ويقينا من معظم الأشعة القاتلة، كأشعة «إكس» و« جاما» والنتيجة مرة أخرى أن ذلك الإشعاع القوى يحاول جاهدا أن يفتك بالغلاف الجوي، فيتسبب فى وجود «الأكاسيد النيتروجونية»التى تدمر طبقة «الأوزون» والتى لولاها لوصلت إلينا الأشعة فوق البنفسجية مسببة سرطانات الجلد .

والأخطر من ذلك أنها تقتل وتبيد نباتات البلانكتون الصغيرة المخلقة ضوئيا فى أعماق المحيطات، والتى تمد الغلاف الجوى بـ« الاكسجين »، فإن ماتت تلك النباتات البحرية، كان ذلك مؤذنا بانقطاع السلسلة الغذائية التى يعتمد بعضها على بعض، لكن بفضل الله فإن حدوث تلك الطفرات فى الأشعة نادر ولا يُعلم عنه الكثير.

٣- انهيار الفراغ الكونى وتداعيه، ففى كتابه « مهد القطة » أشاع مؤلفه فكرة أسماها (الثلج « ٩ ») وعرف ذلك الثلج بأنه نوع من الماء، لكنه أشد كثافة منه، ولذا يكون صلباً حتى ولو وُضع فى درجة حرارة الغرفة العادية، فإن قمت بإذابة قطعة منه، وردها إلى عناصرها الأساسية، لتحول كل ما على الأرض من ماء إلى (الثلج رقم « ٩ ») وذلك بشكل فجائى ثم تجمد وصار صلبا، وواضح أن هذه الفكرة ابتكار فكاهى لا غير، لكن نشوء فترة انتقالية ملأى بالكوارث المباغتة أمر غير مستبعد .

وقد أكد أحد علماء الكونيات البارزين أن الفضاء الكونى فى بداية الخلق كان مكتظاً بالطاقة، وهو ما أسماه الفراغ الزائف، ثم ظهرت نوعية من الفراغ أشد ثباتاً، نتج عنها كميات هائلة من الطاقة، أدت إلى التمدد السريع للكون، ومن المحتمل كذلك تخلق فراغ أشد ثباتاً .

وفى الوقت الذى يتمدد فيه الكون ويبرد، فإن فقاقيع صغيرة من ذلك الفراغ تبرز إلى حيز الوجود بسرعة تماثل سرعة الضوء، الأمر الذى يؤدى إلى تغيير قوانين الفيزياء لتنشأ طاقة يحول انفجارها كل شئ إلى فتات .

لكن أحد علماء الدراسات المتقدمة بأمريكا يفيد ذلك، ويلفت انتباه العلماء للتهديدات الأعظم خطراً التى أصبحت من اليقينيات عند المحققين من العلماء، وأهمها « الثقوب السود » .

٤- الثقوب السود

تمتلئ مجرتنا بالثقوب السود، وهى أجرام شمسيةٌ متصادمة، يبلغ حجم كل منها عشرات الأميال، ولا ندرى عددها . لكن لتسميتها سبب هو أن قوة جاذبيتها شديدة وفائقة لدرجة تمكنها من ابتلاع كل شيء، حتى الضوء الذى يحاول التسرب منها، وقد تمكن أحد العلماء

مؤخراً من تحديد ثقبين أسودين، والسبب أنهما تمكنا من تشويش وتضخيم ضوء النجوم العادية، الموغلة في البعد، حين امتد منهما خطوط الكترونية إلى تلك النجوم، ويقدر العلماء وجود عشرة ملايين ثقب أسود في مجرتنا المعروفة بـ «درب اللبانة» وهي تجوب الفضاء كالأجرام الأخري، لكنها تخالف غيرها في أنها قليلة الإعلان عن نفسها ولذا فمن الصعب تحديد موقع وكتلة كل منها. والأدهى أن الثقب الأسود ليس بحاجة للاقتراب من الأرض حتى يحدث ضررا إذ أن مجرد مروره عبر النظام الشمسي يصيب بالاختلال كل مدارات الكواكب وربما دخلت الأرض مداراً تسبب في تقلبات مناخية حادة.

٥- كورونا الشمس

وهي أجسام لامعة متأججة عملاقة شديدة التوهج ناشئة عن انفجارات مغناطيسية هائلة تحدث على سطح الشمس وتمطر الأرض من الذرات التي تتميز بسرعتها الشديدة.

والحق أن الغلاف الجوي للأرض ومجالها المغناطيسي يقومان بتحييد وتقليل خطر الآثار الفتاكة لتلك الانفجارات. ورغم كشف العلم عن انفجارات عملاقة من هذا النوع إلا أنها تسببت في ترقيق طبقة الأوزون أو على الأقل الحد من كفاءتها.

ويؤكد أحد العلماء بمركز علماء فيزياء الفضاء أن الكثير من النجوم من نوعية الشمس تمر بفترات خمود ممتدة تصبح في أثنائها أكثر إظلاماً حيث تقل نسبة ضوئها ١٪ وهي نسبة وإن بدت طفيفة، لكن لو تعرضت الشمس لمثلها لكانت سببا في دخولنا عصراً جليدياً آخر. وقد بين العالم السابق أن نشاطات شمسية متناقصة كانت السبب في ما تراوح بين ١٧ : ١٩ حقبة جليدية مرت بالأرض في العشرة آلاف سنة المنصرمة.

٦- انعكاس المجال المغناطيسي وانقلابه

يحدث ذلك كل بضعة مئات الألوف من السنوات حيث تتضاءل القوة المغناطيسية لتصل إلى لا شئ وذلك مدة قرن من الزمان. ثم يعود المجال المغناطيسي للظهور تدريجياً وقد تغير شكل القطبين الشمالي والجنوبي قليلا. وآخر مرة حدث فيها ذلك الانقلاب كانت منذ ٧٨٠ ألف سنة ولربما كنا على وشك حدوث انقلاب آخر. لكن الأسوأ هو أن قوة مجالنا المغناطيسي قلت بنسبة ٥٪ في القرن الماضي الأمر الذي أدى إلى هبوب زوابع من الجزيئات والأشعة الكونية القادمة من الشمس إضافة إلى الجزيئات الفرعية للذرة القادمة من الفضاء السحيق بعنفوانها المعروف. ولولا الحماية التي يوفرها المجال المغناطيسي لضربت هذه الزوابع الغلاف الجوي للأرض ومحت طبقة الأوزون الهشة، كما لا ينبغي أن يغيب عن البال أن الكثير من المخلوقات تسترشد في سيرها على الأرض بالمجال المغناطيسي وهو ما يعي أن الانقلاب المغناطيسي المروع سيتسبب في ضرر بيئي خطير. ورغم عدم وجود دلائل في الحفريات السابقة على ذلك إلا أن هذا لا ينفي حدوثه. ويعطي أحد علماء ناسا برهانا على ذلك حين يؤكد أن الجائحة التي أودت بربع السكان في أوربا ويعني بها الطاعون الأسود لم توقف بشكل جيد.

٧- الفيضانات البازلتية البركانية

ففي سنة ١٧٨٣ ثار أحد البراكين في أيسلندا

مخلفا ثلاثة أميال مكعبة من الحمم، وقد أزاحت الفيضانات والرماد والأبخرة ٩ آلاف نسمة من على وجه البسيطة وأبادت ٨٠٪ من الثروة الحيوانية كما قتلت المجاعة التى تلت ذلك ربع سكان أيسلندا. أما الغبار الجوى فقد تسبب فى فصول شتاء ذات درجات حرارة منخفضة جدا. أما ما حدث منذ ٦٥ مليون سنة فهو أن كتلة ملتهبة من الصخر انفصلت عن قشرة الأرض مكونة ما يعرف الآن بالهند. وتوالت الفورات البركانية قرنا بعد قرن مخلفة ربع مليون ميل مكعب من المواد المنصهرة. هذا وتنتج الغازات البركانية الكبريتية الأمطار الحمضية كما تمثل المركبات المحملة بالكلور تهديدا آخر لطبقة الأوزون وهو ما يوفر بيئة مناسبة لنمو الفطريات وتوالدها.

وصحيح أن البراكين تتسبب فى تدمير قصير المدى إلا أنها تطلق ثانى أكسيد الكربون الذى يؤدى بدوره إلى نشوء ما يعرف بالبيت الزجاجى الذى له آثار بعيدة المدى فى رفع درجة حرارة الأرض. وقد أدى آخر تلك البراكين إلى نشأة حوض نهر كولومبيا وذلك منذ ١٧ مليون سنة.

٨- الأوبئة

ولو توقفت الأرض عن الإضرار بنا لتولت الكائنات الأخرى القيام بتلك المهمة فلطالما تعايش الناس والجراثيم، لكن سرعان ما يفلت الزمام ويختل التوازن فقد قتل الطاعون الأسود ربع سكان أوروبا فى القرن الرابع عشر الميلادى كما أبادت الأنفلونزا ٢٠ مليونا بين سنة ١٩١٨ و١٩١٩ كما فعل الإيدز ما هو أشد وأنكى ففى ١٢ سنة فقط امتدت من ١٩٨٠ إلى ١٩٩٢م ارتفعت نسبة المصابين بأعراض نقص المناعة المكتسبة إلى ٥٨٪ كما بينت ذلك تقارير مراكز السيطرة والوقاية من الوفاة الناشئة عن العلل المعدية بأمريكا. أما الأمراض القديمة كالكوليرا والحصبة فقد طورت مقاومة جديدة للمضادات الحيوية. كما أن الزراعة الكثيفة وتنمية الأراضى تقرب الإنسان شيئا فشيئا من الإصابة بما يصيب الحيوان من أمراض كجنون البقر والحمى القلاعية. ولا تنس أن سرعة الانتقال والسفر بعجل بنشر العلل. ويصف أحد الأطباء حالة السوء التى وصل الإنسان إليها بقوله: «إن الإنسان يحاول السباحة ضد التيار فى بحر عال العباب متلاطم الأمواج فهل يفلح فى ذلك؟!» وأسوأ الاحتمالات هو ظهور نوع جديد من الأمراض أو الإجهاد يكون سريع الانتشار لدرجة لا يستطيع الإنسان معها حيطة ولا حذرا إذ تقاوم كل وسائل التحكم الكيماوى وذلك نتيجة حتمية لإثارتنا الدائمة والمستمرة للنظام البيئي. فمنذ ١٢ ألف سنة اجتاحت موجة مباغتة مجموعة الثدييات فانقرضت فى الأمريكتين، ويقول أحد المسئولين بالمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى معلقا: «إن الجانى الحقيقى هو مرض ذو أثر وبيل نقله الإنسان أثناء هجرته إلى العالم الجديد» وهو تعليق عنصرى يكاد يؤكد خلو بلده من الأوبئة ويلقى باللوم كله على من قدموا من تلك البلاد متهما إياهم بنقل العدوى والأمراض».

(يتبـــــع)

طرائف.. ومواقف

إعداد الأستاذ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

من لا يعلم.. فليقل الله أعلم

جاء رجل إلى ابن مسعود، وقال له: تركت رجلا فى المسجد، يفسر القرآن برأيه، إذ يفسر قوله- تعالى:

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾(1).

بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان، فيأخذ بأنفاسهم، حتى يأخذهم كهيئة الزكام، فقال ابن مسعود: من علم فيقل به، ومن لا يعلم فيقل الله أعلم، ثم أخذ يشرح سبب نزول هذه الآية وبين أصل معناها، فقال: إنما كان ذلك لأن قريشا استعصوا على رسول الله - ﷺ - فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد.

رأيـــان مختلفـــان

دخل أعرابى على بعض الولاة، وهو يجود بنفسه، فرآه مسرورا فى هذه الحالة الخطيرة، فقال له ما هذا السرور؟ فقال المحتضر: يا سبحان الله أخرج من بين الظالمين والحاسدين والمغتابين، وأقدم على أرحم الراحمين ولا أسرّ!.

وسأل الوليد بن عبدالملك شيخا كبيرا بلغ من العمر أرذله: أتحب الموت أيها الشيخ؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، ذهب الشباب وشره، وجاء المشيب وخيره، فإذا قمت حمدت الله، وإذا جلست ذكرته، فأنا أحب أن أعيش لتبقى لى هاتان الخصلتان.

أتشتمنى وفىَّ ثلاث خصال

شتم رجل ابن عباس- رضى الله عنهما- فقال ابن عباس: إنك لتشتمنى، وإن فىَّ ثلاث خصال: إنى لأقرأ الأية فى كتاب الله فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم من هذه الآية، وإنى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فأفرح ولعلى لا أقاضى إليه أبدا، وإنى لأسمع بغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح وما لى به سائمه.

(1) الدخان (10).

الأجــــــواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا فى عصر واحد : عبيد الله بن عباس، وعبدالله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطريق، وأول من حيا على طعامه، وفيه يقول شاعر المدينة :

وأنت ربيع لليتـــامى وعـــصـــمـــة
إذا المحل من جـــو الســـمـــاء تطلعـــا
أبوك أبو الفـــضل الذى كـــان رحـــمـــة
وغـــوثا ونورا للخـــلائق أجـــمـــعـــا

من كلام السيدة رابعة العدوية

رأت رابعة العدوية قوما يذمون الدنيا فى مجلسها، فصاحت بهم، اسكتوا عن ذم الدنيا، فلولا موقعها فى نفوسكم ما أكثرتم ذكرها، فمن أحب شيئا أكثر حديثه.

وقال الثورى لرابعة : لكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك، فقالت : ما عبدت الله خوفا من الله فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت، ولا حبا فى الجنة، فأكون كالأمة السوء إن أعطيت عملت، ولكننى أعبده حباً له، وشوقا إليه.

رذيلـــة الجهـــل

قال حكيم : اجتنب الجاهل فإنه يجنى عليك، ويجنى على نفسه، وهى أحب النفوس إليه.

قال أرسطو : الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديقا لغيره.

وقال آخر : الفرق بين الجاهل والعاقل أن العاقل منطقه لنفسه، والجاهل منطقه عليه لا له.

قـال سـفيان الثـورى

بلغنى أن قوما من بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة، وكانوا يخرجون إلى الجبال يبكون ويتوسلون بنبى لهم فأوحى الله إليه : لو مشيتم بأقدامكم حتى تحفى ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكل ألسنتكم عن الدعاء، فإنى لا أجيب لكم داعيا، ولا أرحم باكيا حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا، فأمطرت السماء.

من دعاء زين العابدين بن على

إلهى ومولاى، ارحمنى مريضا مطروحا على الفراش، تقلبنى أيدى أحبتى، وارحمنى مطروحا فى المغتسل، يغسلنى أحد أقربائى، وارحمنى محمولا على جنازتى والناس من حولى، وارحم نومتى فى قبرى المظلم ولا أنيس لى غير رحمتك، فأنت أرحم الراحمين.

إلى الجيل الجديد

في كلمة تنسب إلى عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - قال: «يحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور».

والمعنى: أن الأحكام والقضاء يتغير تبعاً لتغير الناس وخير مثال على ذلك أن الصناع كانوا لا يضمنون ما تحت أيديهم تطبيقاً لقاعدة: «الأمين لا يضمن».

ومعنى هذه القاعدة أنك إذا اأتمنت شخصاً ما على شيء فتلف أو هلك عنده فليس عليه الضمان إلا إذا ثبت تعديه بمعنى أنه مصدق فى أنها هلكت أو تلفت وذلك لأنه أمين.

وعلى هذا جرى الحكم والقضاء بشأن الصناع، فمثلاً: الترزى والنجار» إذا أعطيته قماشاً أو خشباً ليصنع لك جلباباً أو شباكاً وتلف عنده الثوب أو الخشب فإنه لا يضمن لك ما تلف عنده، وذلك أنه أمين على ما عنده وتحت يده أما الآن فقد جرى الحكم والقضاء على تضمين الصناع لأن الناس سرى فيهم الفساد وقلت عندهم الأمانة فتغير الحكم إلى أن الصناع يضمنون ما عندهم، لتغير الناس. وكذلك الحال فى العلوم، ما كان معلوماً ومعروفاً أصبح يحتاج الآن إلى بيان وإيضاح، فمثلاً أحكام الوضوء والغسل والصلاة، والإمام والمأموم وصلاة العيدين والجمعة وغير ذلك كان ذلك معروفاً، لكن الحال أصبحت غير الحال وكثرت الأسئلة لأن المعلومات عند كثير من الناس معدومة فأصبح الأمر يتطلب البيان والتوضيح، وليس فى ذلك من حرج لهذا رأت «مجلة الأزهر» أن تقوم بدورها فى هذا المجال ولما عرض الرأى فى الاجتماع الدورى للمجلة تعددت الآراء قال البعض: إن مجلة «الأزهر» ليس هذا دورها ولا رسالتها فليس من رسالة المجلة تعليم أحكام الفقه، إنما رسالتها فى توضيح أو بيان فلسفة التشريع مثلا ونشأة الفقه ومذاهبه وبيان طرق الاستدلال، والرد على هذا الرأى ما جاء فى صدر هذا المقال من أن الحال تغير

وما لم يكن واجباً أصبح واجباً وضرورياً، وإذا كان الحديث عن فلسفة التشريع ونشأة الفقه هما من رسالة المجلة فليكن، وما المانع من أن يكون للمجلة دور إلى جانب هذا فى تعليم الفقه وأحكام العبادات، مادامت الحاجة تدعو إليه والضرورة تلزمه وقال الآخرون: إن الأحكام الفقهية فى العبادات متيسرة متاحة فى كتب كثيرة متداولة، ومن احتاج إليها فليرجع إلى ما هو موجود متاح، وكان الرد بأن ما هو موجود من كتب الفقه فى العبادات بالذات جيد دون شك وقد نعتمد عليه فيما نكتب لكن ليس كل الناس يستطيع أن يقتنى كتب الفقه، وليس كل الناس أيضا - يرغب فى ذلك فضلاً عن كونه قد لا يستطيع أن يستوعب ما فيها من مسائل والمجلة بسعرها الزهيد متاحة للجمهور، كما أنها للمثقف المتعدد الثقافة الذى يحتاج إلى المزيد، كما لاحظنا أن خطبة الجمعة فى كثير من المساجد مستواها ضعيف هابط واللغة العربية تبكى على منابر الخطباء فضلا عن عدم وحدة الموضوع وترابط الفكرة، مما لا يخفى على كثير من المسلمين، رأينا أن يكتب أحد علمائنا خطبة جمعة وليست عناصر تصلح أن تكون خطبة أو موضوعا يقتبس منه الخطيب فيزيد عليه أو ينقص منه، إنما تكتب خطبة مكتملة العناصر والأفكار والشروط فى موضوع بسيط واضح فيه من الرقائق والحوادث وسير الصالحين.

يستطيع أى إمام وأى خطيب أن يقرأها أو يحفظها ويلقيها لتصح صلاته وصلاة المسلمين خلفه، ويستفيدون من موضوع محدد، واستقر الرأى أن نبدأ بعون الله وتوفيقه فيما دعت الضرورة إليه من كتابة خطبة وبعض أحكام العبادات تحت هذا لعنوان : «إلى الجيل الجديد»

ويسعد المجلة أن تتلقى آراء وأسئلة السادة القراء على عنوان المجلة - باب :

«إلى الجيل الجديد».

والله المستعان

أسرة التحرير

منبر الجمعة

من أضرار المعاصي

لفضيلة الشيخ/ على حامد عبد الرحيم

العناصر

١- حقيقة المعصية ٢- أنواع المعاصى ٣- حكم مرتكب المعاصى

٤- الإصرار على المعصية ٥- المعاصى تزيل النعم ٦- المعصية تورث الذل

البيان

الحمد لله رب العالمين، جعل العز والسعادة فى طاعته وتقواه، وقضى بالذلة والشقاء على من خالفه وعصاه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلق ليعبدوه، وأنعم عليهم بنعمه الكثيرة ليشكروه، قال عز من قائل:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(١).

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبدالله ورسوله خير من دعا إلى الله القائل: كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبي، قيل ومن يأب يا رسول الله؟! قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد فيا عباد الله.

إن الخير كلُّ الخيرِ فيما أمر الله - عز وجلَّ - به، وإن الشرَّ كلُّ الشرِ فيما نهانا عنه وحذرنا منه.

وإن من رحمة الله بعباده، وإحسانه إليهم، وتفضيله عليهم أن أرسل إليهم الرسل والأنبياء ليدعوهم إلى صراطه المستقيم، ويهديهم إلى العمل النافع، ويرشدهم إلى مكارم الأخلاق، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ومن حق الله على عباده أن يعبدوه وأن لا يخالفوا أمره ولا يعصوه.

---

(١) الذاريات (٥٦:٥٨).

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢).

كما نهانا - سبحانه وتعالى - عن المعاصي لما فيها من أدناس وأرجاس ولما تؤدى إليه من نتائج أليمة، وعواقب وخيمة، فهى رجس من عمل الشيطان، والشيطان عدو مضل مبين يأمر بالفحشاء والمنكر قال تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾(٣).

وبالمعاصى تقع العدواة والبغضاء بين الناس، وبها يصد المرء عن ذكر الله وعن الصلاة، والمعاصى فى جملتها خروج عن ما رسمه الشارع الحكيم من مباديء وأخلاق يسعد بها الفرد وتسعد بها الجماعة، والمعاصى كثيرة الأضرار حيث تبدل الألفة عداوة، والأمن خوفا والعز والنصر ذلاً وهواناً وفقرا. ولهذا حذر الإسلام منها، ونبه إليها: فما ظهرت المعصية فى قوم إلا منعوا الغيث، وظهرت فيهم الأمراض والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم، وحلت بهم النقم، وحرموا الخير وفقدوا النعم.

والمعاصى التى يغرى بها الشيطان أولياءه ويدفع إليها أحباءه منها ما هو من الكبائر ومنها ما هو من الصغائر كما هو رأى الجمهور وإن كان قد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن كل شيء عصى الله به فهو كبيرة قال العلامة ابن حجر: إنه لا خلاف بين الفريقين فى المعنى وإنما الخلاف فى التسمية والإطلاق لإجماع الكل على أن من المعاصى ما لا يقدح فى العدالة، ومنها ما لا يقدح فيها وإنما الأولون فروا من التسمية، فكرهوا تسمية معصية الله - تعالى - صغيرة نظراً لعظمة الله وشدة عقابه وإجلاله عن تسمية معصيته صغيرة، لأنها إلى باهر عظمته كبيرة أى «كبيرة» قال - تعالى -:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(٤).

والكبائر قيل إنها سبع كما جاء فى الصحيحين «اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتم وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات، الغافلات، وقيل تسع، وقيل عشر، وقيل أكثر» روى عبدالرزاق عن ابن عباس أنه قيل له: «هل الكبائر سبع؟ فقال هى إلى السبعين أقرب» روى ابن جبير: «هى إلى السبعمائة أقرب».

أيها المسلم: إن الإصرار على المعصية وإن كانت صغيرة فإنها تصبح به من الكبائر التى تورد الإنسان موارد التهلكة، إذْ مَنْ يُصرُّ على المعصية عامداً متعمداً عالماً بالنهى والوعيد لا يكون مؤمنا يُصدِّق الرسول ولا مذعناً لشرعه الذى تنال الرحمة والرضا بالتزامه والعذاب والنكال بتعدى حدوده ومخالفته. قال تعالى:

(٢) الأنفال (٢٤).
(٣) البقرة (٢٦٨).
(٤) النساء (٣١).

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(٥) .

وعن ثوبان – رضى الله عنه – عن النبى ـ ﷺ ـ فيما رواه النسائى وغيره « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »(٦) .

قال صاحب فيض القدير – المناوى – أى يحرم بركته أوسعته أو الشكر عليه، بل إن للمعصية آثارها السيئة على قلب صاحبها ونفسيته وشخصيته وحياته من الضيق والقلق والسخط وانعدام الثقة قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾(٧) .

قال : صاحب التفسير الواضح – الشيخ حجازى – عقب هذه الآيات : « ومن أعرض عن ذكر الله وسلك سبيل الغواية والشيطان، فإن له معيشة ضنكا فيها تعب وألم، وهو دائما فى تعب ونصب إن أعطى مالاً فهو مستقله ويطلب المزيد منه، وإن حرم منه فهو غير راض عن ربه فهو فى الحالين فى معيشة تعسة وحياة منغضة.

فاحذر المعاصى أيها المسلم فإنها تزيل النعم، وتجلب النقم واعمل الصالحات تفوز بجنة عرضها الأرض والسموات.

وتب إلى الله فإن التائب حبيب الرحمن والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فتوبوا إلى الله أيها المؤمنون لعلكم تفلحون. وادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له حذرنا من الشيطان، إن الشيطان للإنسان عدو مبين.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، ناصح الأمة وكاشف الغمة، والداعى إلى سبيل الرحمن، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أله وأصحابه الذين نصروا الله فنصرهم ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

أيها المسلمون، روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « ما من أحد إلا وله شيطان »، قالوا وأنت يا رسول الله؟ قال : « وأنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمر إلا بخير ».

والناس فريقان فريق يفزعون إلى ربهم بالذكر والاستغفار والتوبة كلما مسهم طائف من الشيطان فيفسدون على الشيطان حيلته،

---

(٥) النساء (١٤).

(٦) الترغيب والترهيب جـ ٤.

(٧) طه (١٢٤: ١٢٧).

ويقطعون عليه سبيله، وهؤلاء هم المتقون الذين أخبر الله عنهم بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾(٨).

جاء فى إغاثة اللهفان(٩):

قال شقيق: ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالى فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فاقرأ:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾(١٠).

وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من أخلفه فأقرأ

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾(١١).

ومن قبل يمينى يأتينى من قبل النساء فاقرأ

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾(١٢).

ومن قبل شمالى، فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾(١٣).

وهناك فريق استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وقعد لهم كل مرصد يزين لهم سوء أعمالهم يزخرف لهم أهواءهم وشهواتهم، ويشغل قلوبهم عن التفكير فى نعم الله والقيام بشكرها، ويشغل ألسنتهم عن ذكر الله بالكذب والغيبة. وكل ما نهى الله عنه.

أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

فاحذروا عباد الله شيطان الجن واستعيذوا بالله من شره وكيده، واحذروا شيطان الإنس فهو أشد خطرا من شيطان الجن. فجليس السوء شيطان يوقع فيما نهى الله من الشر والفساد، ويتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الله ورسوله.

واعلموا أن الله مطلع عليكم ولا يرضى لكم المعاصى.

وسوف تردون إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيكم بما كنتم تعملون

﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾(١٤).

وتوجهوا إلى الله أن يوفقنا إلى صالح القول والعمل. اللهم وفقنا إلى طاعتك وجنبنا معاصيك، وباعد بيننا وبين الشيطان، وقنا فتنة المحيا والممات.

ووفق ولاة أمور المسلمين لما فيه صلاح حال البلاد والعباد. واجعل أوطاننا آمنة مطمئنة.

واهدنا سواء السبيل. وأقم الصلاة.

---

(٨) الأعراف (٢٠١).
(٩) ص ٩٦.
(١٠) طه (٨٢).
(١١) هود (٦)
(١٢) الأعرلاف (١٢٨).
(١٣) سبأ (٥٤).
(١٤) الزلزلة (٧، ٨).

رسالة و رد

لفضيلة الشيخ / عبد الفتاح سيد جمعان (*)

جاءتنا فى بريد المجلة رسالة بتوقيع « مسلم » ، ونحن ننشرها ، لأن رسالة الأزهر هى التعليم والتوجيه وشرح أمور الدين ، وكنا نود من الأخ « المسلم » أن يوقع الرسالة باسمه فإن العالم كله يتحدث عن الشفافية والوضوح وليس فى الدين الاسلامى « بروتوكلات » سرية أو أعمال تحت الأرض ، والأزهر ومجلته تعملان فى وضح النهار ، وتقدم الرسالة والجواب عملا - بقوله تعالى - :

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ ﴾

بعث أحد القراء إلى المجلة رسالة مطولة ذيلها بتوقيع مسلم يقول فيها :

هل يجوز أن يذكر اسم الله - سبحانه وتعالى - فى الأغانى التى يتراقص عليها المغنون والمغنيات وأبشع من ذلك وألعن تصوير تلك الأغانى بمصاحبة فتيات عاريات راقصات يذكرن اسم الله على نغمات الموسيقى وهن يتمايلن ماذا أقول أرجو أن تتقوا الله فينا يا علماء الأزهر ويكون لكم رأى قاطع حازم جازم بمنع ذلك منعا باتا ، فتلك الأغانى تغنى فى كباريهات فيها الخمر والمخدرات والنساء العاريات ، أليس ذلك بحرام . بالله عليكم أين دور الأزهر فى ذلك أليس منكم أحد يغار ؟ أناشدكم الله امنعوا ذلك قبل السؤال يوم الحساب .

وقبل أن أجيب على هذه الرسالة الحماسية أوجه للأخ المسلم كلمتين هادئتين :

الأولى أشكر لك غيرتك على دينك وأحمد الله - تبارك وتعالى - أن فى المسلمين شبابا واعيا غيورا يتمسك بدينه ويلتزم بآدابه وتعاليمه لا تجرفه التيارات الهابطة ولا تؤزه رياح الفساد الهوج التى تهب من كل جهة على شبابنا المسلم ، ونسأل الله أن يعصمه ويحفظه ويقيه شر

(*) الأمين المساعد للثقافة بمجمع البحوث الإسلامية.

آثارها السيئة ليبقى درعا للإسلام وموئلا للمسلمين، فالشباب المسلح بالايمان، المترسم خطى السلف الصالح هم عدة المستقبل وجند الله وأمل الأمة فى غد مشرق بنور النبوة ريان بمجد الإسلام.

والثانية: لست أدرى لماذا يسئ أبناؤنا من الشباب المسلم المتحمس للدين الظن بعلماء الأزهر الشريف وهم منارات الهدى والعلم الصحيح البعيد عن الغلو والتطرف، حيث لا افراط ولا تفريط، ألأن بعضهم استمد معلوماته عن الدين من كتابات بعض من يسمون أنفسهم السلفيين والذين ينظرون إلى الإسلام نظرة ضيقة غير شاملة والسلف الصالح برئ من هذه النظرة، فالسلف – رضوان الله عليهم – أول من آمنوا بالتعددية فى الرأى، الناشئة عن الاجتهاد الواعى فى فهم النص الصحيح من الكتاب والسنة، تلك التعددية التى أثرت الفكر والفقه الإسلاميين فأخرجت أمثال: أبى حنيفة، ومالك، والشافعى، وابن حنبل والليث، والثورى، وابن حزم، وداود الظاهرى، والحسن البصرى، وأبى حسن الأشعرى، وواصل بن عطاء وغيرهم كثير ممن كانوا غايتهم الوصول إلى الحق وكان لسان حالهم بل ومقالهم يقول: رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب وكانوا جميعا يقولون الاختلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية إذ هو اختلاف لا خلاف.

وليت أبناءنا هؤلاء يتبعون السلف فى سعة الأفق وقبول الرأى المخالف مادام فى نطاق الاجتهاد الشرعى ولم يخرج عن النصوص الصحيحة.

وليتهم يعرفون كذلك أن الأزهر كان وما يزال كعبة العلم وقبلة قصاد المعرفة من كل أرجاء المعمورة ومهوى أفئدة العلم فى كل مجال، وأن هؤلاء الذين يتعصبون لآرائهم اغترفوا من معين الأزهر مباشرة أو عن طريق مؤلفات علمائه الأبرار فمعظم العلماء النابهين الفاقهين من شتى أرجاء العالم الإسلامى من تلاميذ الأزهر إما أن يكونوا رحلوا إلى الأزهر للتزود من علومه أو رحل الأزهر إليهم عن طريق أساتذته وشيوخه الذين أعيروا لجامعات الإسلام فى شرق الدنيا وغربها.

ولعل الهاجس الذى يهجس فى نفوس هؤلاء الشباب ما يشاع من أن العلماء يمالئون السلطة أو الحاكم وهذا ليس صحيحا على الاطلاق، فقد أمرنا الله بطاعة ولى الأمر فى غير معصية قال – تعالى –:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾(١).

وسيظل الأزهر هو المنبر الإسلامى الشامخ الجهير الصوت الذى تنطلق منه الكلمة المعتدلة والرأى المتزن الذى لا غلو فيه ولا

١- النساء / (٥٩).

تسيب وما على علماء الأزهر من بأس حينئذ إذا أدوا واجبهم ووفوا بحق الله عليهم فى النصح والإرشاد استجاب الناس أو لم يستجيبوا لأن وعظ العالم أو رأيه وفتواه أمر غير ملزم فقد استقر رأى أهل العلم أن الفتوى تخالف القضاء من حيث أن الثانى ملزم والأولى غير ملزمة.

ولا شك أن أخى القارئ ممن يعلمون أن رجال الأزهر ما فتئوا يقولون كلمة الإسلام فى دور العلم وقاعات الدروس ومن فوق المنابر وفى ساحات المساجد وفى كل محفل ومنتدى. وبعد هذه الكلمة التى كان لابد منها بين يدى الإجابة إليك الاجابة عما سألت:

لا يجوز أبدا ذكر اسم الله – تعالى – فى الأغانى التى يتراقص عليها المغنون والمغنيات، بل هو حرام حرمة مؤكدة أن يقحم اسم الله – تعالى –فى حفلات المجون والرقص فى أماكن أقل ما يقال فيها أنها أوكار للمعصية والفساد ولا أجد اسما ينطبق على الأماكن التى يشرب فيها الخمر والمخدرات ويختلطن النساء العاريات بالرجال العابثين الماجنين إلا أنها أوكار أو حانات أو مباءات للرذيلة هذا هو الرأى القاطع يا أخى فيما سألت عنه، لأن إقحام اسم الله – تعالى – فى هذه البذاءات تدنيس للمقدسات، وهل هناك أقدس من اسم الله – تعالى؟! إن من يفعل ذلك كمن يلقى بورقة من المصحف فى النجاسة أو القمامة، بل إن ما يفعله أصحاب هذه الأغانى أشد قبحا وحرمة، ولست أدرى ما الذى يدفعهم إلى ذلك العمل المرذول؟ هل لعلمهم أن جماهيرالشعب المصرى متدين بطبعه فيريدون أن يروجوا سمومهم عن طريق تملق الجماهير المتدينة بإيهامهم أنهم يفعلون شيئا يتصل بالدين؟ كمن يضع السم فى الدسم إن الجماهير المتدينة على مستوى من الوعى والذكاء بحيث لا تنطلى عليهم هذه الحيلة ولا تلك الخدعة، أم يريدون أن يقولوا للناس الطيبين أن هذه أغان مباحة، لأن فيها اسم الله – تعالى – فاسمعوها وأنتم مطمئنون، وهذه أيضا لن تنطلى على الناس الطيبين.

ومما لا شك فيه أن من الغناء ما هو حلال مباح كأغانى الأعراس التى ليس فيها إخلال بالأدب ولا تهيج للغرائز ولا ذكر مفاتن النساء وليس معه رقص أو شرب أى شئ يتعارض مع الدين، فقد جاء فى البخارى (عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت: زُفّتْ امرأة إلى رجل من الأنصار فقال النبى – ﷺ –: يا عائشة ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو) وفى بعض روايات هذا الحديث كما فى فتح البارى قال – ﷺ – هل بعثتم جارية تعزف بالدف، قلت: تقول ماذا؟ قال: تقول:

أتيناكم أتيناكم
فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحمر
ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السمراء

ما سمنت فتاياكم

وأختم هذه الاجابة بما قال شيخ الدعاة الراحل الشيخ (محمد الغزالى) – رحمة الله عليه –: فإذا أراد أحد أن يغنى أو يستمع إلى غناء فليفعل أما تحويل الإسلام نفسه إلى غناء فيصبح القرآن ألحانا عذبة وتصبح السيرة قصائد وتواشيح فهذا لا سائغ له وما لا يفعله إلا الصغار الغافلون. وقد تم هذا التحول على حساب الإسلام فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب وحق فيمن فعلوا ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾(٢).

فمن أراد أن يغنى أو يستمع إلى غناء فليفعل، وإثم ذلك عليه بحسب نوع الغناء الذى يقوله أو يسمعه وفى هذه الحالة يكون عمله صريحا واضحا لا يلبس الحق بالباطل أما أن يلبس الغناء الماجن والرقص الفاجر ثوب الدين بترديد اسم الله فى هذا الغناء الوقح فقد ارتكب إثمين كبيرين: أولهما: الغناء وما لابسه وصاحبه من عرى وعهر وخمر وثانيهما تدنيس اسم الله – تعالى – فى هذا الرجس الشائن وخداع جماهير المسلمين الطيبين.

هذا والله أعلم وبه التوفيق.

هذا وفى رسالة الأخ المسلم موضوع آخر يسأل فيه عن موقف علماء الأزهر من إعلان بعض الطوائف الدينية عن شريط يشخص السيد المسيح ويصور مراحل حياته ويقرر عقيدة التثليث ويستنكر الأمرين معا ويطلب رأى الأزهر فيهما والعمل على وقف هذه الأمر.

أما بالنسبة للأمر الأول وهو تشخيص المسيح – عليه السلام – عن طريق ممثل يتقمص صورته وحياته، أى ممثل، فالأزهر يستنكر، بل يحرم تمثيل جميع الأنبياء نظرا لقداستهم ولاستحالة أن يوجد ممثلون يستطيعون الاقتراب من هذه القمم السامقة ولأن تمثيلهم يقلل من قداستهم وتبجيلهم عند المشاهدين ولا يقف الأمر على تحريم تمثيل الأنبياء بل تجاوز الأزهر ذلك وحرم تمثيل كبار الصحابة – رضوان الله عليهم –.

أما الأمر الثانى: فالإسلام أقر التعايش مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ما داموا غير محاربين بل وأحل للمسلمين ذبائحهم وزواج بناتهم وقد عاهد رسول الله– ﷺ – اليهود وهم أسوأ خلق الله.

وإليك يا أخى العبارة التى ساقها ابن اسحاق فى هذا المقام قال ابن اسحاق: (وكتب رسول الله – ﷺ – كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم

وشرط عليهم واشترط لهم ١–هـ) قال – تعالى –:

٢– الأنعام / (٧٠).

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ﴾(٣).

وليس معنى هذا أننا نقر ماعدا التوحيد من العقائد، لأن القرآن الكريم صريح وقاطع فى إنكار واستنكار كل ذلك والآيتان اللتان ساقهما الأخ المسلم فى رسالته أكبر دليل على ذلك وسورة المائدة حافلة بهذه الحقائق وفى ختامها جاء قوله – تعالى –:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٤).

وهذه السورة وغيرها تتلى صباح مساء فى الإذاعة والتليفزيون والمحافل والمنتديات ودور العلم وهذا ما يجعلنا واثقين من ثبات عقيدتنا وغير وجلين عليها بسبب إعلان هنا وهناك ولموضوع الإعلانات حديث آخر ليس هذا محله ولكن نقول: إن الأزهر لو كان يملك وقف الإعلانات، لكان الأولى بالوقف الإعلانات التافهة التى تحمل البذاءات وتخدش الحياء وتغرى بالخلاعة والميوعة وتنشر الفساد مع أن ما تدعو إليه من كل ذلك لا صلة بينه وبين الشئ المعلن عنه على الاطلاق.

فالأزهر لا يملك أن يوقف هذه الإعلانات لأنه لاسلطان له على هذا الجهاز خاصة قطاعه الاقتصادى.

هذا والله أعلم.

***

٣- المائدة / (٨٢).

٤- المائدة / (١١٦ : ١١٨).

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

استفتاءات القراء

تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إعداد وتقديم فضيلة الشيخ/ عبدالفتاح حسين الزيات

● السؤال من إبراهيم شوقى عبدالعزيز / مفتش لغة عربية بالمعاش / العطارين الإسكندرية:

نسمع فى هذه الأيام عن التفسير العصرى للقرآن والتفسير العلمى للقرآن والتفسير الموضوعى، والقول بأن القرآن يتطور بتطور أحوال الناس وأنه يجب أن يفهم الآن فهما قد يختلف أو يخالف ما فهمه الرسول وأصحابه، إلى غير ذلك مما تطالعنا به دور النشر من وقت لآخر.

فهل يجوز تفسير القرآن بالرأى؟ وهل يجوز أن يفسر القرآن تفسيرا يتطور بتطور الزمن كما يقول بذلك بعضهم؟ إن خوفى على كتابنا العزيز هو الذى دفعنى إلى الكتابة إليكم.

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد: فنفيد بأننا نشكر للأخ السائل غيرته على كتابنا العزيز ونحب أن نطمئنه بأن الذى أنزله -سبحانه- هو الذى يتولى حفظه والدليل على ذلك أنه مضى على نزوله أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان لم يستطع أى مخلوق أن يتناوله بالزيادة أو النقصان أو الحذف أو التغيير أو التبديل. قال -تعالى-:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١)

فهو كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد -ﷺ- بلسان عربى مبين لهداية

---

(١) الحجر (٩).

الناس وبيان الأحكام التى يتعبد الناس ربهم بها فحفظه بألفاظه وعباراته ووعاه قلب رسول الله - عليه الصلاة والسلام - حتى وصل إلينا وسيظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

غير أنه يشترط فيمن يتعرض لتفسير القرآن شروط ضرورية لابد منها وهى:

١- أن يكون ملما باللغة العربية إلماما واسعا كبيرا - عالما بأحوال البشر وما كان عليه العرب..

٢- أن يقف على كل ما نقل عن الرسول - ﷺ - فى بيان القرآن وتوضيحه.

٣- أن يعرف ما فهمه الصحابة، لأنهم أقرب الناس إلى رسول الله - ﷺ -.

٤- أن يعرف أسباب النزول، فإن معرفة أسباب النزول يعين على الفهم الصحيح للقرآن.

والخلاصة أن تفسير القرآن وفهم معانيه مباح لكل مسلم توفرت فيه الشروط السابقة وهو مأمور شرعا بأن لا يفسره بالهوى، فالبشر متقلبو الأهواء، والقرآن فوق ذلك، ولا يوجد ما يمنع فيما وراء ذلك من تفسير غير معتمد على السماع والنقل فيما لم يرد فيه نقل أو سماع تفسيرا يظهر فضل القرآن وشرفه وعظمته وإعجازه وبلاغته، أما إغفال ما قاله العلماء السابقون واللاحقون والاستقلال عنهم بفهم القرآن، فأمر محفوف بالمخاطر، إذ أنه قد يوقع صاحبه فى الخطأ أو الغلط وهذا أمر غير جائز شرعا، أما القول بأن القرآن يتطور بتطور أحوال الناس.. الخ، فإن أريد به إبطال ما جاء إلينا عن رسول الله وصحابته فهو قول مردود مرفوض، وإن أريد به أن ما جاء فى القرآن يتفق مع أحوال البشر وحاجاتهم فى العصر الحاضر مما لم يسبق لغيره من المفسرين معرفته فإنه لا يكون مذموما ولا يوجد ما يمنع منه.

وإذا أردت مزيد إيضاح فعليك بكتب: السيوطى، والإمام محمد عبده، والإمام الغزالى، والقرطبى، والإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر وغيرهم.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم.

●●●

● السؤال من الشيماء محمد السيد / المحلة الكبرى:

إن ضغوط الحياة ومشاغلها واهتمام الإنسان بخصوصياته ومتطلباته تجعل الإنسان ينشغل أثناء الصلاة وتعتريه بعض الخواطر التى تباعد بينه وبين الخشوع فى الصلاة ولو للحظات، فهل لذلك تأثير فى صحة الصلاة، وما السبيل إلى التغلب على هذه الوساوس أو السرحات، لأننى أخشى أن تكون الصلاة فى هذه الحالة باطلة؟ أفيدونا أفادكم الله.

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه فنفيد:

بأن الله -تعالى- قال فى كتابه العزيز:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(٢).

فهذه الآية تفيد وجوب الخشوع والتوجه

---

(٢) البقرة (٢٣٨).

الكامل لله - عز وجل - فإن فى ربط الصلاة بالله صلاح للمؤمن وفلاح له فى الدنيا والآخرة.

وقال -تعالى- :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾(٣).

فقد أفادت هاتان الآيتان أن الصلاة لا تثمر ثمرتها من النهى عن الفحشاء والمنكر واقتلاع بذور الشر من النفس المؤمنة إلا إذا كانت ذات خشوع وخضوع وتوجه لله. هذا هو الواجب على العبد أثناء الصلاة.

ولكن الله - وهو العليم بأحوال النفس، إذ هو خالقها ومتوفاها - علم مشقة الخشوع القلبى على الإنسان وعلم أن شرود الفكر عنده غالب عليه قد يخرجه عن الخشوع المطلوب فى الصلاة مستشعرا عظمة الله - جل جلاله - رغب إليه أن يحارب ما يغلبه من الشواغل القلبية والخطرات النفسية التى تباعد بينه وبين الإحساس بلذة الروحانية فى الصلاة، وقد صور سيدنا رسول الله -ﷺ- هذا المعنى فيما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه -أن النبى -ﷺ- قال: «إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراطٌ حتى لا يسمع الأذان، فإذا قضى الأذان أقبل، فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا وكذا، مما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى، فإذا لم يدر أحدكم كم صلى ثلاثا أو أربعا فليسجد سجدتين وهو جالس»(٤) أى سجدة السهو، فهذا الحديث يرشدنا إلى أن حديث النفس فى الصلاة بما يصرف القلب فهو من عمل الشيطان وأرشدنا رحمة بنا إلى صحة الصلاة التى استوعب التفكير جزءا منها.

فعلى المسلم أن يذكر إذا وقف بين يدى الله وكبر للصلاة أن الشيطان واقف له بالمرصاد، وعليه أن يعتصم بذكر الله، ويتدبر ما يذكره بلسانه فى ركوعه وسجوده وقيامه وقعوده، وأن ينظر إلى موضع سجوده وهو قائم وإلى ظهر قدمه وهو راكع وإلى أرنبة أنفه وهو ساجد ويربط حواسه بهذه المواضع فتكمل له صلاته والله أعلم.

●●●

● السؤال من إبراهيم صالح عبد المجيد - دسوق - كفر الشيخ:

ما حكم الشرع فى الأموال التى ينذرها أصحابها لبعض الأولياء والتى توضع فى الصناديق الموجودة لذلك بأضرحتهم، هل تصح المطالبة بها من أى شخص يدعى بأن له فيها حقا لانتسابه لهذا الولى، وإذا كان لهذا الضريح مسئول معين لإدارة شئونه فهل يكون هذا المسئول حرا فى توزيع النذور حسب إرادته وأهوائه، وإذا سبق لهذا المسئول أن عقد اتفاقا مع بعض الأشخاص على توزيع هذه النذور بطريقة معينة، فهل يكون

---

(٣) المؤمنون (١ - ٢).

(٤) رواه البخارى، كتاب الصلاة، باب من يكبر فى سجدتى السهو (٢/٧٥).

ملزما بتنفيذ هذا الاتفاق أم يكون له حق العدول عنه، وإذا توفى من حصل الاتفاق بينهم وبين المسئول، فهل يكون لأحد الحق فى التمسك بهذا الاتفاق على اعتبار أنه وارث لمن تم هذا الاتفاق معه؟

نرجو الإفادة بحكم شرعى يضع الأمور فى نصابها الصحيح خوف الوقوع فى الشرك الأصغر.

●● الجواب :

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، فنفيد بأنه بعد اطلاعنا على ما جاء فى هذا السؤال وبعد قراءتنا فى هذا الباب نقول وبالله التوفيق ومنه الهدى والسداد :

إن النذر على ما هو مشاهد وواقع فى هذه الأيام قد يكون لإنسان غائب أو مريض أو له حاجة وما شابه ذلك، فهذا النذر باطل بالإجماع وذلك لوجوه منها :

أنه نذر لمخلوق، والنذر لمخلوق باطل شرعا، لأن النذر عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله -تعالى- ومنها أن المنذور له ميت، والميت لا يملك، إذ الملكية مقترنة بالحياة، ومنها أن الناذر يظن أن الميت يتصرف فى الأمور من دون الله -تعالى- وهذا شرك ظاهر، لكن إن قال : يا الله إنى نذرت لك إن شفيت مريضى أو رددت ضالتى أوقضيت حاجتى. أن أطعم الفقراء الذين بباب السيدة أو الحسين أو سيدى إبراهيم الدسوقى إلى غير ذلك مما يكون فيه نفع للفقراء والمساكين، فالنذر هنا لله – عز وجل – ولا شىء فيه إذ مصرف النذر هنا الفقراء وقد وجد المصرف، ولا يجوز أن يصرف ذلك لغنى، ولا يجوز لخادم المسجد أخذه ولا أكله ولا التصرف فيه بوجه من الوجوه، إلا أن يكون فقيرا وله عيال فقراء عاجزون عن الكسب فيأخذون على سبيل الصدقة.

فإذا علم هذا كان ما يؤخذ من الدراهم أو الشمع أو الزيت المنقولة لضريح الشيخ حرام بالإجماع، ومتى علم أن هذه النذور صدقات للفقراء فحكمها حكم الصدقة.. ومعلوم أن الصدقة لا تملك إلا بالقبض ولا يختص بها أشخاص من الفقراء بأعيانهم، فيستوى فيها القريب من صاحب الضريح مع غيره فإذا كان للضريح مسئول معين لإدارة شئونه وكان من مقتضى وظيفته تقسيم ما يرد من النذور وتوزيعه، فله تقسيمه وتوزيعه على الفقراء مطلقا بحسب ما يراه فى كل وقت ولا يتقيد باتفاق سابق حصل مع آخرين

والله أعلم

●●●

● السؤال من زينب عبد الله عبد المقصود - المعصرة :

ما حكم لبس السواد حدادا على الميت، وما هى مدة الحداد المشروعة، فإننا نرى ونسمع عادات مختلفة فى هذه المسائل، فما هو المشروع فيها والمنهى عنه؟

●● الجواب :

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد، فنفيد بأن الحزن حالة نفسية وقلبية تعترى الإنسان لفقد عزيز أو فاجعة أو مصيبة أو ما شابه ذلك وهى

حالة لا يد للإنسان فيها لأنها من طبائع النفس البشرية.

فالواجب على كل مسلم ومسلمة تلقى مصيبة الموت بالصبر الجميل والرضا بقضاء الله – سبحانه وتعالى– الذى قال فى كتابه الكريم:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾(٥) وإن مدة الحداد المشروعة أربعة أشهر وعشرا على الزوج المتوفى، وثلاثة أيام على من مات من الأقارب ونحوهم.

فيجب على الزوجة أن تحد على زوجها أربعة أشهر وعشرا فقط، ويباح للمرأة أن تحد على أقربائها ونحوهم ثلاثة أيام فقط، ويحرم الإحداد فيما زاد على ذلك لقوله – ﷺ –: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج فإنها تحد أربعة أشهر وعشرا) ـ(٦).

والإحداد يكون بترك الزينة والطيب ولبس الثوب الواصف ونحو ذلك ولا يكون بلطم الخدود وشق الجيوب وحلق الشعر والنوح والندب وغير ذلك مما هو محرم شرعا لقوله – ﷺ –: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية..»(٧).

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم

●●●

● السؤال من البسيونى على النجفى - الوراق - الجيزة:

انتشرت فى هذه الأيام ظاهرة الأتارى (والفيديو جيم) وبعض ألعاب الهدف منها القمار والرهان والاستيلاء على أموال الناس بهذه الطرق.

فما حكم الشرع فى ذلك وما عقوبة من يساعد على انتشار هذه المفاسد بين الناس وخصوصا الشباب ومن هم فى مقتبل العمر؟

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، نفيد بأن القمار محرم شرعا بنص الكتاب والسنة قال –تعالى–:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٨).

وقد ذكر سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - أن الميسر هو القمار، فكل ما كان قمارا فهو ميسر محرم بالآية الكريمة وهو نوع من أنواع أكل أموال الناس بالباطل.

ذلك لأن أكل المال بالباطل على وجهين: أحدهما، أخذ المال بغير رضا صاحبه، على وجه الظلم والغصب والقهر والسرقة والخيانة وغيرها، والآخر أخذه برضا صاحبه وهو موضع السؤال لأنه أخذه على وجه محظور شرعا وهو القمار والميسر.

---

(٥) القصص (٨٨).

(٦) رواه البخارى ومسلم.

(٧) أخرجه الشيخان.

(٨) المائدة (٨٩).

وعلى ذلك فإن ما كان على سبيل المقامرة بين شخصين أو أشخاص بحيث يغنم كل منهم ما يخسره الآخر، فهذا قمار منهى عنه شرعا، وذلك أخذا مما روى أن رجلا قال لرجل: إن أكلت كذا وكذا فلك كذا وكذا، فارتفعا إلى على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال: «هذا قمار» ولم يجزه.

وقال الحنفية فى هذا الموضوع أخذا عن الجصاص فى كتابه - (أحكام القرآن) إن الرهان بمال إنما يجوز فيما دل الدليل عليه بالإذن كالمسابقة بالخيل والإبل والرمى والأقدام، وقالوا: إن حكمة المشروعية أن الحاجة ماسة إلى تعلم هذه الأشياء، والمسابقة فى هذه الأشياء وسيلة إلى ذلك وهى تعلم الفروسية لإعداد الخيل والخبرة بالرمى.

وبناء على ماسبق فإنه يعلم أن مايحدث فى هذه الأيام من أنواع الرهان هو من القمار المحرم شرعا وليس هناك نصوص تبيحه، بل دلت النصوص على حرمته، وذلك لما يترتب عليه من المفاسد العظيمة التى نشاهدها كل يوم فقد أدى إلى ضياع أموال كثيرة وخراب بيوت وحدوث كثير من البغضاء والشحناء والقعود عن ذكر الله وعن الصلاة وضياع الوقت الذى يجب أن يستثمر فيما ينفع ويفيد، ووضع مستقبل الشباب فى يد عابثة ماجنة لا تخاف الله ولا تخشى عقابه فإن من يشيع ذلك له فى الدنيا خزى وله فى الآخرة عذاب عظيم -، فالواجب الابتعاد عن هذه الاماكن المشبوهة المضللة التى تحارب الفضيلة وتروج للرذيلة، هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم.

● سؤال من السيد / عادل صلاح سليمان الذى يقول فيه:

١- لقد قلت لأهل زوجتى أن ابنتكم طالق، لأنه كان هناك معركة بينى وبين أهلها.

٢- قلت لزوجتى: لو اتصلت بأهلى تصبحى طالقا، ولم يكن فى نيتى الطلاق وكنت أنوى التهديد.

٣- قلت لزوجتى: أنت طالق بعد يوم ١٦ / ٨ فما هو الحكم الشرعى فى هذه الأيمان؟

●● الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد، فنفيد عن السؤال الأول بأن هذا طلاق باللفظ الصريح فيقع به طلقة رجعية. وعن السؤال الثانى بأن هذا يمين وحيث إنه لم يقصد الطلاق فعليه كفارة يمين إطعام عشرة مساكين أكلتين مشبعتين.

وعن السؤال الثالث بأنه يقع عليه طلاق بعد يوم ١٦ / ٨ لأن هذا بصريح لفظ الطلاق فيقع به طلقة رجعية.

والخلاصة بأن هذا الزوج قد أوقع على زوجته طلقتين رجعيتين وله أن يراجعها مادامت فى العدة بدون إذنها، فإذا خرجت من العدة فيراجعها بعقد ومهر جديدين وبرضاها، وأما السؤال الثانى فعليه كفارة فقط والله أعلم.

بين المجلة... والقارئ

إعداد وتقديم / عادل رفاعى خفاجة

ماذا يريد الغرب منا؟!

فى كل المجالات يتدخل الغرب بأسلوب سافر فى أدق شئوننا بما لا يتسع المجال لذكره، ولا يطيق اللسان ترديده، مما يعرفه الجميع، وهو فى هذا يمتطى بعضاً من الساسة والمتغربين ليبث سمومه ويدس أفكاره، ومن هذا تلك البدعة التي أشاعها بين جمهرة ممن ينتسبون الى الثقافة والتحقيق تسمى: الارقام الهندية، وأن الارقام العربية هى ما يستعمله الغرب (1, 2) وأشاعها فى المغرب العربى، وإخواننا فى المغرب يستعملون هذه الارقام مكرهين أو مخدوعين، فإذا كانت هذه الارقام (1, 2, 3) هى الأرقام العربية، ويريد الغرب ان يردها إلينا، كأنه اعتراف بأننا أصحاب الحق فيها! فهل يرد إلينا الغرب ما سلبه منا طوال سنوات الاستعمار البغيض من ثروات وأموال؟

على أى حال، نحن نرفض هذه الأرقام (1, 2, 3)حتى وإن زعم الغرب أنها لنا، فنتركها له، لأنها ليست لنا، كما يقول أساتذة كلية الهندسة فى مؤتمرهم الموفق، فهى لاتوافق الخط العربى.

وإلى القارئ لمحه عن المؤتمر:

أقامت الجمعية المصرية لتعريب العلوم، يوم الاربعاء ١٩ من ذى الحجة ١٤٢١هـ الموافق ١٤ من مارس ٢٠٠١ م، ندوة بعنوان «قضية الارقام العربية» بالتعاون مع معهد الاهرام الاقليمى للصحافة، فى رحاب مؤسسة الاهرام. وشارك فى الندوة عدد كبير من أساتذة الجامعات وممثلى الهيئات والافراد المهتمين بقضية الرقم العربى. وبعد تلاوة مباركة لما تيسر من آى الذكر الحكيم افتتح الندوة الاستاذ الدكتور حمدى حسن المستشار الاعلامى لمعهد الاهرام الاقليمى للصحافة والأستاذ الدكتور عبدالحافظ حلمى محمد، رئيس الجمعية المصرية لتعريب العلوم ورئيس الندوة.

وقد انتهى الحاضرون إلى اتخاذ التوصيات الآتية:

١- تأييد استمرار بلاد المشرق العربى فى استخدام الارقام العربية الأصيلة (٩٨٧٦٥٤٣٢١٠,٠) المستخدمة فى مصر والتى ظل العرب جميعهم يستعملونها وباستمرار لاكثر من اثنى عشرقرنا حيث لايوجد على الإطلاق مايبرر العدول عنها إلى الأرقام الغبارية المستعملة حاليا فى أوربا (01234567890) والتى طوعت لتلائم الحرف اللاتينى، مع ملاحظة أن تغيير الأرقام كان تمهيدا لتغيير الحروف العربية نفسها عند من نبذ الحرف العربى.

٢- تمسك المشرق بالأرقام العربية الأصيلة (٩٨٧٦٥٤٣٢١٠,٠) فيه حفاظ على اللغة العربية ذاتها التى تتشكل مفرداتها من الحروف بجانب هذه الصورة من الأرقام، وحفاظ على تواصل التراث العربى القديم بزمننا الحاضر، ومحافظة على هويتنا، وييسر للتواصل بين البلاد الاسلامية غير العربية التى تستخدمها. فالأرقام العربية الأصيلة أكثر ملاءمة للحروف العربية وانتماء إليها والتصاقا بها على مر العصور، علاوة على أنها أكثر كفاءة من الأرقام الغبارية، ومن ثم يكون من المنطقى أن يتوحد العرب جميعهم على الأرقام العربية الأصيلة فالتمسك بها تمسك بالعربية.

٣- يهيب المجتمعون بالأفراد والهيئات والمؤسسات الاقتصادية والانتاجية والعلمية والثقافية وبجميع القطاعات الحكومية والعامة والخاصة والأهلية فى مصر وفى جميع البلدان العربية ومنها وسائل الإعلام وهيئات تحرير الصحف والمجلات والدوريات ودور النشر، أن يتبنوا قضية الرقم العربى المشرقى الأصيل (٩٨٧٦٥٤٣٢١٠,٠) وأن يقتصروا على استعماله بمفرده بالأسلوب والمواصفات الصحيحة فى مختلف مناشطهم وأعمالهم المحلية والعربية. كما يشكر المجتمعون الأفراد والمؤسسات وهيئات تحرير المجلات الدوريات التى أعادت استعمال الرقم الأصيل بعدما هجروه بعض الوقت.

٤- يناشد المجتمعون الهيئات والمؤسسات والشركات المنتجة والمستوردة للبرمجيات للمعدات وللمطبوعات ولمختلف المنتجات أن يكون أساس الاسخدام هو الرقم العربى المشرقى الأصيل (٩٨٧٦٥٤٣٢١٠,٠) فضلا عن الحروف العربية وذلك فى جميع ما تنتجه أو تستورده أو تتعامل فيه من منتجات بالأسلوب والمواصفات الصحيحة.

٥- يشكر المجتمعون رجال الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية على اهتمامهم الواضح بمتابعة أنشطة الندوة ويرجونهم متابعة اهتمامهم بالدعوة المقنعة الهادئة لقضية الرقم الأصيل. وهم إذ يؤكدون شكرهم لمعهد الأهرام الإقليمى للصحافة لرعاية هذه الندوة، يرجون أن تتولى مؤسسة الأهرام نشر كتاب يبسط الحقائق المتعلقة بقضية الأرقام، حتى تتاح موثقة لجمهور كبير من القراء.

المحرر: إلى من يهمه أمر اللغة العربية نقدم هذا العنوان:

الجمعي المصرية لتعريب العلوم، ص.ب ٥٣٠١ غرب مصر الجديد، القاهرة ١١٧٧١ هاتف ٦٣٢١٤٦٥ ناسوخ ٦٣٧٧٤٤٦ - القاهرة
بريد إلكترونى: mhamalwy @ hotmail .com
الصفحة الإلكترونية:
http:/ Communities. msn. com/ taareeb

لغــــة القــرآن

وللغة العربية نبض نحسه مع نبضات قلوبنا ويحسه كل مسلم، وتعبيراً عن هذا النبض والشعور الدافق كتب الأستاذ محمد محمد عبدالحى الشافعى ـ من المحلة الكبرى ـ غربية يقول:

سلاماً وإعظاماً، وتحية وإكراماً، وشوقاً وهياماً إلى لغة القرآن التى رفع الله شأنها ومن فوق سبع كرّمها، وبالقرآن طيّبها، فهنيئاً لها ولكل من رغّب فيها ورغّبها.

إن الذى مـلأ اللغـات محـاسناً

جـعل الجـمال وسـره فى الضـاد

فمن المميزات التى ميز الله بها العربية احتوائها على حرف الضاد، وهو صوت نادر بل يكاد لا يوجد فى غير العربية إذا أديت بصورة فصيحة لذلك قالوا عنها إنها لغة الضاد.

وقد شهد بذلك أهل الغرب فقال برجشتراسر:

« فالضاد العتيقة حرف غريب جدا غير موجود فى لغة من اللغات إلا العربية » ومن ينعم النظر يرى أن النبى ـ ﷺ ـ كان على حب شديد للعربية وأوصى بها خيراً حين قال:

« أحبوا العرب لثلاث لأنى عربى، والقرآن عربى وكلام أهل الجنة فى الجنة عربى » رواه الترمذى.

إنها لغة القرآن التى اختارها الله لتكون وعاء لكتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأعجز الله بها أهل الفصاحة وأرباب البيان فهى اللغة التى عندما سمع العربى القرآن بها وكان كافراً خرّ على الأرض مغشياً عليه فقال له أصحابه: هل آمنت بما نزل على محمد بن عبدالله؟

قال: لا. قالوا: ولم فعلت ما فعلت؟ فقال: « سجدت لفصاحة الكلام المنزل على محمد ».

ـ لغتنا العظيمة لك من الود أخلصه، ومن الإخلاص أعظمه فالخير منك وإليك يالغة القرآن.

بقيت بعز فى العُلا لك مجلس

علىٌ وقدرى فى الكمال عظيم

زهــور المســتقبل

لقد أسعدنا أن تصل إلينا طاقة أخرى من « زهور المستقبل » أقصد عدد جديد من مجلة زهور المستقبل التى يصدرها أبناء معهد أسوان الابتدائى النموذجى الازهرى، وإذا كان مصدر سعادتنا من قبل هو صدور المجلة عن معهد ابتدائى فمصدر سعادتنا هذه المرة هو استمرار صدور الزهور واستمرار التواصل مع أبنائنا.

ولقد حققت المجلة قفزة أخرى فى طريق التقدم، ونتمنى للقائمين عليها ولأبناء المعهد النجاح والتفوق.

وننقل عن المجلة هذه الفقرة من موضوع المسجد الأقصى.

يقع المسجد الأقصي المبارك ذو القبة الفضية المتميزة في الطرف الجنوبي للحرم الشريف مواجهاً الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وخلفه مدينة القدس العربية.

والمسجد الأقصي أكبر مساجد القدس، وطوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً.

حدود المسجد الأقصى:

الجهة الغربية للمسجد طولها ٤٩٠ متراً والشرقية ٤٧٤ متراً والشمالية ٣٢١ متراً والجنوبي ٢٨٣ متراً وهذا المكان كله حرم ووقف إسلامى، حتى حائط البراق، الذي وقف عنده البراق الذي حمل سيدنا رسول الله – ﷺ – فى إسرائه ومعراجه.

المحرر: نشر مع الموضوع صورة لمسجد قبة الصخرة ذو القبة الذهبية برغم إشارة الكاتب أن المسجد الأقصى ذو قبة فضية، لذا وجب التنويه.

وننشر للقراء صورة لكل من المسجدين.

المسجد الأقصى ذو القبة الفضية

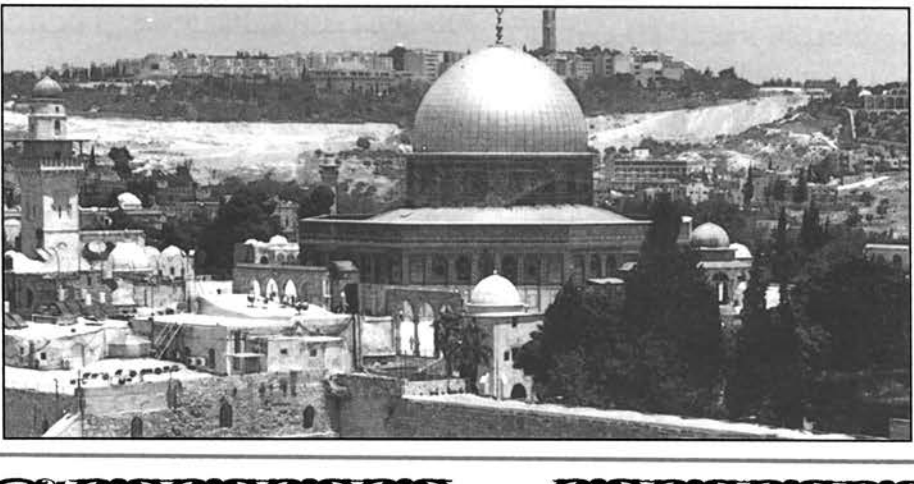

مسجد قبة الصخرة ذو القبة الذهبية

جنـــون البقـــر.. وفســـوق البشـــر

أما رسالة د / أحمد شوقى عرفة، فقد تناول فيها خروج الانسان عن الفطرة، وما يستتبع ذلك من أمراض

يقول:

توالى الصحف والإذاعات والتليفزيون نشر أنباء عن مرض جنون البقر، وعن البلاد التى أصابها والإجراءات التى اتخذت لمنع انشاره فى البلاد الأخرى ومنها قتل الأبقار المصابة ومنع تصديرها أو تصدير لحومها، كما تذكر وكالات الأنباء الإجراءات التى تتخذها البلاد المستوردة فهى تمنع استيراد اللحوم ومنتجاتها والأعلاف من أى بلد موبوء. كما تنشر أنباء عن بعض المصدرين الذين يتلاعبون فى كتابة تاريخ تصدير اللحوم وبلد المصدر حتى يمكنهم تصدير بضاعتهم والحصول على بعض المكاسب بالرغم من الأخطار التى يمكن أن يتسببوا فيها لمواطنى الدول المستوردة.

وعن أسباب حدوث المرض قيل أن المربين يضعون فى أعلاف الأبقار مسحوق عظام الحيوانات وبقايا حيوانية أخرى من دم وأمعاء وجلود حتى تنموا الماشية بسرعة فتزداد مكاسب المربين.

ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الماشية نجد ان الله سبحانه وتعالى قد خلق البقر وجعله يتغذى على النباتات، وهيأ جهازه الهضمى لهضم النباتات التى يتغذى عليها ليستفيد فيكبر ويتكاثر، فلما أكلت المواد الحيوانية وفيها مواد بروتينية حيوانية وهى غير مهيأة للتغذى عليها أصيبت بمرض جنون البقر.

وتحضرنى هنا أنه بعد أن أخبر موسى عليه السلام فرعون أنه رسول رب العالمين، سأله فرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٩ طه

فأجابه موسى – عليه السلام –:

﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

٥٠ طه

يقول المفسرون إن ربنا أبدع كل شئ خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه فقد أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان. فإذا تدبرنا أمر البقر والحيوانات التى تتغذى على النباتات نجد أن الله – سبحانه وتعالى –جعل لها أمعاء يمكنها أن تهضم وتستفيد من المواد البروتينية الموجودة فى النباتات وبها جميع الأحماض الأمينية باستثناء اثنين يوجدان فى الحيوانات، ثم إن الحيوانات آكلة النباتات حينما تجتر النباتات التى أكلتها تكون فى معدتها هذين الحامضين. وعلى ذلك فهى ليست فى حاجة الى التغذى على مواد بروتينية من أصل حيوانى فى طعامها ويكفيها النباتات والحشائش لتتغذى عليها. فلما أعطيت مواد بروتينية حيوانية أصيبت بجنون البقر.

وهذا يذكرنا بمرض آخر أصاب الإنسان وهو مرض الإيدز الذى حدث بسبب إتيان الرجال بالمخالفة لأمر الله – سبحانه وتعالى – الذى أباح التزاوج بالنساء للتكاثر وعمارة الأرض. لقد خالف الشواذ أوامر الله بالرغم من أنه – سبحانه وتعالى – نهى عن هذه الفعلة الشنعاء فى جميع الأديان فمارسوها فى نواديهم فانتشر بينهم هذا المرض الخطير الذى يصيب الجهاز المناعى فى الجسم فلا يعود قادرا على مقاومة الأمراض المعدية إن الاعراض عن أوامر الله ونواهيه له عواقب سيئة فى الدنيا والآخرة.

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

١٢٣– ١٢٤ طه

وهنا نتساءل ما الحل فى أزمة جنون البقر؟

أول إجراء هو أن يتوقف مربو الماشية فى أوروبا ـ وبالطبع فى باقى بلاد العالم ـ عن إعطاء الماشية مواد حيوانية لتتغذى عليها، لكن هذا الإجراء سيؤدى الى نقص فى المعروض من اللحوم. فإذا أردنا توفير احتياجات العالم من اللحوم فعلى مربى الماشية اللجوء إلى بلاد العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية حيث توجد المراعى وحيث توجد الأراضى الخصبة ولكن ينقصها التمويل وإصلاح البنية الأساسية. فعلى من ينادون بالعولمة إن العالم أصبح قرية واحدة أن يطبقوا ما ينادون ويبشرون به. وأن إقامة المراعى فى هذه البلدان تحتاج إلى تمويل ونقل الخبرات واللقاحات وإنشاء الثلاجات الضخمة ثم إصلاح البنية الأساسية من طرق وخلافه وإنتاج اللقاحات والأدوية وتدريب العاملين فى الطب البيطرى. حيئذ يمكن لدول العالم الثالث أن تساهم فى تغذية بعض مناطق فى العالم بغذاء صحى خال من الأمراض.

وهنا ندعو المسئولين فى العالم الإسلامى إلى إنشاء مزارع فى البلاد الإسلامية فى أفريقيا وآسيا لزراعة المحاصيل وتربية المواشى فتزود العالم الإسلامى بما يلزمه من غذاء بدلا من استيراد هذه المواد الأساسية اللازمة لشعوبها.

ـ المحرر:

هكذا حال الانسان ـ دائما ـ يسعى إلى الكثرة والسرعة حتى ولو كان فيهما هلاكه بداية من استخدام الكيماويات فى تغذية النباتات وما نتج عن ذلك من فشل كلوى لكثير من الناس، فالإنسان وهو يبتعد عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها – بل والتى فطر كل الخلق عليها – إنما يبتعد عن منطقة الأمان، ليأتى بالدمار إلى بنى جلدته وهو يظن أنه يحسن صنعاً.

بداية من استخدام الكيماويات فى تغذية النباتات والهرمونات فى تغذية الدواجن وما نتج عن ذلك من أمراض مختلفة وهو ما أعلنه عدد من مراكز الأبحاث العلمية من أن استخدام الكيماويات فى تغذية النباتات هو السبب الرئيسى وراء انتشار أمراض الكلى وغيرها من الأمراض!!

وانتهاء بمحاولة استنساخ النعجة «دوللى» ثم الجنوح إلى استنساخ البشر!! ولا عاصم للإنسان من هذا التخبط إلا بالتمسك بهدى الله – تعالى –.

من إبداعات القراء :

الـدرة هـيـج أحـزانـى

شعر : عادل محمد أبوالهيثم
خطيب ومدرس بأوقاف الغربية

الـــــدرة هيـــــج أحــــــزانى ** وأثـــــار النــــــار بـأركـــــانى
الـولــــــد يـهـــــرول يـا أبتــــى ** احــفظـــــنى فـالغـــــدر يرانـــــى
أقبــــــل يا ولــــــدى لا ترهــــــب ** ربــــــى يرعــــــاك ويـرعــــانى
اضــــمــمنى أبتــــى أمِّنــــى ** من خـــــوف رصــــاص الخـــوان
أبتـــــاه أصـــــابتنى طـــــلقة ** بلــــــغ إخـــــوانى تحنانـــــــى

نشرنا فى عدد سابق للأستاذ محمد سليم الدسوقى مقطوعة بعنوان «كم ذا عسيب وكم ذا ثمر» وننشر له فى هذا العدد هذه المقطوعة آملين استمرار الشذى وانتشار العبير.

إليكَ تهلّلُ ذاتُ الزغب

إلـيـــك تـهـلـــل ذات الــزغــب ** وتـســــعى إليك مـــروج الذهب
وتغــدو الســفــوح تزف الحــيــاة ** وتســجــد فــوق خـبــايا النُّوب
وطيـــرى تعـــود بطانا تعـــود ** إلــى وكــنــات المــنــى والــطــرب
تـصـــفق للعـــشب والأغنيـــات ** وتـقـطـف من دانيــــات العـنـب
وترقص للفـــجـــر عند الشـــروق ** وتعـــشق شـــتى فنون القُـــرَب.

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ / محمود الفشني

حتى لا ننسى

في يوم ٨ إبريل سنة ١٩٧٠ قام الطيران الإسرائيلى الغادر بضرب مدرسة أطفال في قرية بحر البقر التابعة لمدينة أبو حماد محافظة الشرقية فامتزجت دماء الأطفال الصغار بالأقلام والكراريس والكتب وليس غريبا على نذالة الصهاينة هذا الفعل الحقير

المحـرر

الوحيد الذى هلل للجنة المشبوهة

قرأت فى إحدى الصحف أن الدكتور سعد الدين إبراهيم أصدر أخيرا بيانا - تعليقا عن عدم استطاعته استقبال اللجنة الأمريكية المشبوهة التى وصلت إلى القاهرة، بسبب ظروف محاكمته - ولكنه انتهز الفرصة ليؤكد فى بيانه: «إن أقباط مصر يتعرضون لممارسات تمييزية بغيضة»!

ما زعمه سعد الدين إبراهيم فى بيانه الحقير، هو - بالضبط - ماجاءت اللجنة الأمريكية المشبوهة لسماعه!

الازدواج النفسى

طالعتنا جريدة صوت الأزهر بمقال على صفحاتها فى عددها رقم ٧٨ الصادر فى ٢٠٠١/٣/٢٣ تحت عنوان الازدواج النفسى بهذا المقال الرائع جاء فيه:

نلحظ أن الأمراض النفسية تزداد انتشارا بتقدم وسائل الحضارة، إذ نرى أبناء هذا الجيل أسرع إلى التوتر وأقرب إلى الانفعال ممن عاشوا فى الجيل الماضي، بل إن أبناء الجيل الواحد يفترقون صحة وهدوءا بالقياس إلى أماكنهم من القرى والمدن، فساكن القرية أهدأ نفسا، وأروح خاطرا إذا قرن بساكن المدينة، وأمريكا اليوم أكثر بلاد الله

رفاهية واستمتاعا، ولكن الأمراض النفسية تنتشر فيها بنسبة تجذب الانتباه وفى إحصائية عالمية لحوادث الانتحار ما يثبت أن اشتداد الأزمات النفسية لدى الأثرياء أكثر منها لدى الفقراء، فما معنى هذا؟

إن أكثر ما يعانيه إنسان العالم المتحضر اليوم انه مرتبط بقيود لا يستطيع الخلاص منها، وأشد هذه القيود حرجا فى نفسه انه لا يستطيع أن يفصح عن ذاته تمام الإفصاح فهو يضطر فى أحوال كثيرة إلى أن يقول ما لا يعتقد وكأنه ممثل يتقمص على المسرح شخصية سواه، ولست أقول: إن جميع الناس يفعلون ذلك، بل أقول إن كثيرين منهم يضطرون إلى التمثيل على مسرح الحياة، بحيث يعانون آلاما شاقة فى كتمان عواطفهم الحقيقية، فقد يبغض الزميل زميله لأمور يأتيها تكون موضع النقد، ولكنه يضطر إلى أن يتقبل أخطاءه دون تعليق، وقد يفرض عليه رئيسه من الأعمال ما لا يجد مبررا للقيام به، ولكنه يكبت إحساسه الداخلى متظاهرا بالسرور، وربما اندفع إلى تزكية ما يكره تملقا. فاذا خلا إلى نفسه صلى حربا أليمة من التأنيب والزجر، وبتكرار هذه المواقف تتأزم حياته، ويراها عبئا ثقيلا يود الخلاص منه، و هذا فى محيط العمل الخارجى وحده، فقد يرجع المرء إلى منزله فيجد أنه محتاج إلى التمثيل أيضا، بل يضطر إلى محاباة الزوجة وترضية الابن بالموافقة على أمور يراها غير جائزة فى رأيه، وهنا تتكاتف عليه الضغوط ولابد أن يأتى يوم يؤذن بالانفجار، وهذا كله مشاهد ملموس.

إن هذا الازدواج النفسى الذى يجعل صاحبه ذا مظهرين مختلفين، داء يتطلب العلاج، وأولى خطوات هذا العلاج، أن يحاول الإنسان تجربة الصدق شيئا فشيئا فيخلوا إلى نفسه مفكرا فيما يصنع، وليكن فى هذه الخلوة شخصا محايدا لا ينحرف عن صواب الرأى، ثم يتساءل: ماذا كان سيحدث من الخطر لو أنه التزم الصدق الحقيقى دون خداع؟ إنه سيتعرض إلى غضب بعض الناس، ولكن الغاضب بينه وبين نفسه سيحترم قوة شخصيته ويراه أهلا لأن يعتد به فى الأزمات، وكم من أناس وقفوا موقف الصراحة المهذبة المخلصة، فلم يقفوا على حافة الخطر، بل عرف عنهم الصدق، واحترام الواجب، لأن كل إنسان مهما كان نزاعا إلى الشر يحترم الفضائل الخلقية، ويود أن يتمسك بأسبابها ولكن غرائزه الهابطة قد تندفع به إلى ما يعرف عن يقين أنه طريق الانحراف وإذن فالصدق النفسى هو سبيل الراحة المطمئنة خارجا وداخلا، ففى داخل النفس يأمن الصادق هذا الصراع المتأزم، وما يعقبه من تأنيب الضمير، وسهر الليل دون استراحة وفى الخارج سيرتفع قدره أمام مجتمعه، فأصدقاؤه يولونه الثقة الأكيدة، ولا شئ أغلى منها، وخصومه يتمنون فى قرارة أنفسهم أن يصلوا إلى مستواه على أن الشاب الناشئ قد يجد نفسه صريع الازدواج النفسى لأمر لايد له فيه، وقد ظهر هذا بوضوح بين طائفة من الشباب الجامعى أهلهم مجموعهم إلى الالتحاق بكليات لا يرغبونها، وقد يكون ولى الأمر أحد أسباب هذا البلاء، إذ يصر على أن يلتحق ولده بكلية معينة يراها باب التقدم، وليس لولده من الرغبة فيها ما يدفعه إلى الالتحاق بها، ولكنه يصر، فيضطر الطالب إلى

دراسة لا تمت إلى إحساسه، ولا يجد لديه من النشاط ما يدعو إلى استيعاب علومها، وتكون النتيجة فى هذه الحالة مؤلمة، أعرف أن طالبا أجبره والده على الدراسة بكلية الطب، وهو بطبيعته نفور من رؤية المرضي، وصرخات الآلام، ويعرف سلفا أن هذه المهنة لا تناسب مشاعره الذاتية، وقد حاول جاهدا أن يختار كلية أخرى، فقال له والده أتكون مثل أخيك الذى دخل كلية الزراعة إنها كارثة لمثلى، وكانت النتيجة الأليمة أن الذى التحق بالطب فصل بعد عامين، وأخذ يبحث عن كلية تقبله، وأن الذى التحق بالزراعة حاز درجة الامتياز فى البكالوريوس وعين معيدا وسارت به الأيام فأصبح عضوا بهيئة التدريس، هذا الازدواج النفسى بين كثير من الطلاب حقيقة واقعة، وعلاجها أن يترك كل طالب وما يريد.

أعلم أن الإخلاص فى إعلان الرأى الصادق، يتطلب فى هذا العصر الوصولى شجاعة، ولكن هذه الشجاعة ليست مستحيلة إذا نشأ الإنسان فى بيئة مؤمنة تعلم جيدا أن فضائل الإسلام الداعية إلى الصدق والحق والعدالة هى أقوى وسائل التوفيق والنجاح، وقد يتأخر النجاح وقتا منا ولكنه لابد آت.

عفواً إنى اعتراض

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ الدكتور محمد مجدى مرجان فى جريدة الأخبار

حتى لا يندفع المتهورون بحُجة انصاف المرأة فيقلبون موازين المجتمع قال:

إننى أعتقد أن المعيار الحقيقى للتميز بين الجنسين فى العمل هو الكفاءة والإنتاج، بحيث يعين فى الوظيفة أو المنصب الأكفأ منهما والأقدر عليه، مع ملاحظة أنه إذا تساوى الاثنان فى الكفاءة والنشاط فإن الأسبقية تكون للرجل لأن ذلك هو ما يتفق وظروف مجتمعنا وما تقتضيه قواعد الدين والقانون، فالمعروف شرعا أن الرجل هو الملزم بالانفاق على زوجته من كده وعرقه، بحيث إذا قصر الرجل فى ذلك تم الحجز على مرتبه ودخله بل وقضت المحكمة بحبسه لعدم الانفاق، أما الزوجة فإنه مهما كان مقدار دخلها أو ثرائها فليست ملزمة بشئ تجاه زوجها، ولا تقبل نخوة وكرامة أى رجل حر أن تنفق عليه امرأة ولو كانت زوجته.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعانيه مصر حاليا من تزايد حجم بطالة الشباب، وأن الرجل العاطل يكون معرضا للانحراف وربما ارتكاب الجرائم والاخلال بالأمن أضعاف المرأة التى ينفق عليها أباها أو زوجها، فإن المصلحة العامة ومقتضيات الأمن القومى تقتضى دائما تفضيل الرجل وأسبقيته على المرأة فى التوظيف والعمل.

ولهذا فإننى أعترض وبشدة على التزام الحكومة الذى أعلنه رئيس الوزراء بأن تكون فرص العمل متكافئة للإناث والذكور فى شغل الوظائف الحكومية، وكذلك مطالبة القطاعين العام والخاص بالسير على هذا المنوال فى شغل الوظائف الخالية لديهما، ليس هذا فقط فلقد أعلنت الدكتورة فرخندة حسن الأمين العام الجديد للمجلس القومى للمرأة موافقة رئيس الوزراء على أن يكون ثلث وظائف مساعدى الوزراء على الأقل من النساء.

وهذا قرار غريب أشك فيه كثيرا واستبعد تماما أن يأخذ صفة الالتزام أو جدية التنفيذ لأنه يتضمن تمييزا عكسيا لصالح المرأة ضد الرجل، خاصة فى الوزارات التى يكون فيها دور النساء هامشيا أو مظهريا مثل وزارات الدفاع والداخلية والعدل وغيرها، كما أنه سيؤدى فى كثير من الأحيان إلى تعيين الشخص غير المناسب فى المكان غير اللائق فتتقدم الأقل كفاءة لأنها امرأة على الأكثر كفاءة لأنه رجل وهذا بالطبع فى غير صالح العمل وإن كان يفيد كثيرا فى مهرجانات النفاق والتهريج والمزايدة على تلميع المرأة وركوب «الموجة» أو «الموضة» الحديثة التى يتسابق فيها وللأسف الشديد العديد من المسئولين والقيادات بل والعلماء والكتاب الرجال وعلى عكس ما يؤمنون به أو يضمرونه فى أنفسهم وخلافا لما هو معروف عنهم ما يتبعونه فى حياتهم الخاصة وداخل بيوتهم مع زوجاتهم وبناتهم وأخوانهم ولكن لزوم أكل العيش وتسلق المناصب بأى ثمن ويا خسارة يامصر.

اللغة العربية فى محنة

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ الدكتور محمد شوقى الفنجرى فى جريدة الأخبار فى عددها بتاريخ ٥ / ٤ / ٢٠٠١.

ومجلة الأزهر تهيب بكل مسئول فى موقعه أن يهب لنجدة اللغة العربية فى محنتها فإن اللغة هى الهوية.

فالذين لا لغة لهم لا هوية لهم ولا تراث.

تتميز اللغة العربية بأنها لغة عبادة، ومن ثم انفردت اللغة العربية مهما ضعفت همة وحضارة أهلها ببقائها واستمرارها حتى تقوم الساعة وإلا فلنسأل أنفسنا أين اللغة الفرعونية أو اللغة الرومانية أو اللغة اللاتينية التى سادت العالم عقودا وقرونا. فاللغة العربية تنفرد دون سائر اللغات الشائعة أو المتداولة بأنه تستمد قوتها بل وعالميتها من كتاب الله -تعالى- وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾(١).

وقوله -تعالى-:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾(٢)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٣).

إلا أنه بالرغم من اطمئناننا على اللغة العربية، باعتبارها لغة القرآن ولغة خاتم الأديان، فإن ذلك لا يمنعنا أن نصرخ بأنها اليوم فى محنة بعد أن فقد الكثيرون الإحساس بها والشعور بأهميتها وضرورتها، لذلك كان لابد من وقفات وحساب، بعد أن رأينا مايلى:

أولا: اختلاط اللغة العربية الفصحى باللغة العامية بلهجاتها المختلفة والواقع أنه لا يضيرنا

---

(١) الرحمن/١:٤
(٢) الحجر/٩
(٣) يوسف/٢

استخدام العامية فى مجالاتها الطبيعية أى المشافهة، وإنما الذى يزعجنا هو شيوع اللحن فى اللغة العربية وكثرة الأخطاء النحوية والإملائية.

ثانيا: إن وزارة التربية والتعليم فى مصر، ويقلدها فى ذلك وزارات التربية والتعليم فى كثير من الدول العربية، تعمل اليوم على تقليص ساعات تدريس اللغة العربية ولا تلقى اهتماما بتحفيظ القرآن الكريم، وحتى فى تدريسها للغة العربية فانها تفتقر إلى الطرق الحديثة والإجراءات التى تحيلها إلى حصة استمتاع وتذوق وليس العزوف عنها.

ثالثا: إن كثيرا من علمائنا خاصة فى الطب والهندسة والعلوم، يلجأون إلى اللغة الأجنبية ومصطلحاتها التكنولوجية، دون محاولة لإكساب اللغة الأم المعرفة العلمية الحديثة. وذلك بالرغم مما هو معروف، بأن نمو أو ضمور أية لغة فى عصر العلم والمعلومات مرهون بأهليتها كإطار تتولد فيه الأفكار والمصطلحات العلمية، واتساع مفرداتها لمضامين المعرفة والتقنية الحديثة.

رابعا: ان الآباء اليوم يحرصون على تعليم أولادهم اللغات الأجنبية. دون اهتمام باللغة العربية. ولا يعنى ذلك أننا نعترض على تعليم أطفالنا للغات الأجنبية، بل بالعكس إننا نطلبها للتواصل الخارجي والتقدم التقنى، وإنما بشرط التركيز أيضا على لغتنا الأم.

خامسا: ان أغلب أجهزة الإعلام العربي، مكتوبة كانت كالصحافة، أو مسموعة كالإذاعة، أو مرئية كالتلفاز، لم تعد تشترط فى العاملين بها وخاصة كتابها ومقدمى برامجها، الإتقان اللغوى، وفاقد الشئ لا يعطيه.

سادسا: ان حركة الترجمة والتعريب سواء على المستوى العربى أم الإسلامى، مازالت قاصرة ومحدودة، وهى تحتاج إلى دفعة لما تحققه من تواصل وإثراء للغة الأم. ولاشك أننا اليوم فى حاجة ملحة إلى ألفاظ جديدة لمسميات حديثة، واللغة هى الإنسان، وبالتالى فإن العمل على تطويرها واثرائها هو ضرورة حضارية وحتمية.

سابعا وأخيرا: ان مؤسسات اللغة العربية ومراكزها، سواء فى مصر أو فى العالم العربى أو الإسلامى، وسواء كانت هذه المؤسسات أو المراكز رسمية أم أهلية، فإنها تفتقد التخطيط والتنسيق والتعاون فيما بينها، ومن ثم تأتى جهودها مكررة أو مبعثرة دون أن نحس بها أو نلمس اثرها. هذا فضلا عن عدم تحديثها بتطبيق التجارب وابتكار الأساليب واستخدام الوسائل الحديثة لتيسير أو تطوير أو تجويد أو تعميم تعليم اللغة العربية وقد يكون من المناسب اليوم المناداة بدعم مجمع اللغة العربية باعتباره المؤسسة الأم أو انشاء مجلس أعلى للغة العربية.

ما تقدم هو بعض الإشكاليات أو التحديات التى تواجه لغتنا الأم، التى لا تشكل الوعى والإدراك فحسب، وإنما هى تصوغ الوجدان والسلوك، وأنه يجب التعامل مع اللغة العربية ليس فحسب باعتبارها وسيلة أو أداة التعبير والتخاطب، أو أنها مجرد وعاء فكر الأمة وقوام ثقافتها وتراثها الحضارى وانما باعتبارها غاية فى ذاتها إذ هى الأساس فى إقامة الحياة ونموها وتقدمها، وأن وحدة العرب والمسلمين إنما تتحقق بوحدة لغتهم وتقدمها.

وإنه إذا صح التعبير عن الحضارة بالعملة الواحدة فإن أحد وجهيها هو التنمية الشاملة بمختلف صورها، والوجه الآخر هو اللغة أداة التعبير وحاملة الثقافة والتراث ورمز الهوية والاستقلال.

أنباء مكتب شيخ الأزهر

لفضيلة الشيخ / عمر البسطويسى

استقبالات فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

استقبل فضيلة الامام الاكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف بمشيخة الأزهر الشريف بحديقة الخالدين بالدراسة فى ١٨ / ٣ / ٢٠٠١ الوفد اليمنى من القضاة الذين يتلقون دراسات تدريبية فى معهد الدارسات القضائية بوزارة العدل المصرية بالقاهرة.

رحب فضيلته بالسادة الضيوف موضحا لهم مكانة الأزهر الشريف داخل مصر وخارجها، وأن المعاهد الأزهرية بلغت الآن حوالى ستة آلاف معهد ابتدائى واعدادى وثانوى بنين وبنات، كما بلغت كليات جامعة الأزهر الشريف ٦٥ كلية تشمل جميع التخصصات وهى منتشرة فى أنحاء الجمهورية، وبين فضيلته أن الدراسة بالأزهر الشريف تمتاز بالوسطية والاعتدال حيث يتم تدريس العلوم الشرعية والعربية بتوسع إلى جانب تدريس المواد الثقافية واللغات الأجنبية، وحفظ القرآن الكريم أساسى بجميع مراحل التعليم الأزهرى فيحفظ الطالب ١٨ جزءاً فى المرحلة الابتدائية ومدة الدراسة بها ست سنوات، ويحفظ الطالب ٧ أجزاء فى المرحلة الاعدادية ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات ويحفظ الطالب خمسة أجزاء فى المرحلة الثانوية ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات ويتم الامتحان فى المنهج المقرر على الطالب فى السنة التى يدرس بها وتقدر درجات النجاح بـ ٥٠٪ كما يتم الامتحان فى المنهج السابق وتقدر درجات النجاح فيه بـ ٥٠٪ حتى يتخرج الطالب وهو يحفظ القرآن الكريم حفظا كاملا وقد أجاب فضيلته عن أسئلة الوفد واستفساراتهم حول الخلاف فى

الموضوعات الاجتهادية فى الفقة الإسلامى، وأوضح فضيلته بأن الخلاف فى الفروع لا يؤثر ولايضر لأن اختلاف الأئمة رحمة للأمة، وأما الأصول الثابتة فلا خلاف عليها، وفى الفقة الإسلامى متسع لكل مستفت، كما أوضح فضيلته ان لكل قضية أو مسألة حكمها الشرعى الذى يناسبها، وحول سؤال عن وجود تأثيرات خارجية على إصدار الفتاوى الشرعية، أجاب فضيلته بأنه عمل مفتيا لمصر لأكثر من عشر سنوات وشيخا للأزهر لاكثر من خمس سنوات وحتى الآن ولم يتدخل أى انسان فى أى موقع بمصر لطلب إصدار فتوى معينة وكل الفتاوى التى صدرت فى مصر من الأزهر أو دار الافتاء تكون خالصة لوجه الله ودون تدخل من أحد كائنا من كان، والحمد لله ان هذا شئ لايحدث فى مصر على الاطلاق.

شكر الوفد فضيلة الامام الاكبر شيخ الأزهر على حسن الحفاوة والاستقبال وعلى المعلومات القيمة التى استفادوا منها.

● استقبل فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بمكتبه فى ٢٤/٣/٢٠٠١ وفد مكتب الحرية الدينية العالمية برياسة السيد فيروز كاظم زادة وقد شرح فضيلته للوفد بأن الحرية الدينية ركن من أركان الشريعة الإسلامية وأن كل قول أو فعل يأتى عن طريق الاكراه أو الإجبار فهو مهدد ولاقيمة له.

وأن الحرية الدينية هى أساس الشريعة الاسلامية وعندنا فى مصر فإن حرية العقيدة مكفولة للجميع، المسلم يذهب إلى المسجد ليصلى، والمسيحى يذهب إلى الكنيسة ليؤدى شعائر دينه بحرية تامة، ولا إكراه على العقائد إطلاقا لأن الإكراه على العقائد لايولد مؤمنين صادقين وإنما منافقين كذابين، وأنا كشيخ للأزهر الشريف أقول دائما فى ندواتى ولقاءاتى ولجميع وسائل الإعلام إن كل من يحمل الجنسية المصرية يتساوى فى الحقوق والواجبات، أما العقائد فالذى يحاسب عليها هو الله - عز وجل -، ونحن نعيش أخوة متحابين متجاورين، تجمعنا مصالح مشتركة بيوتنا متجاورة ونعيش على أرض واحدة وتظلنا سماء واحدة ونشرب من ماء واحدا، ونستنشق هواء واحدا بل إن بيوت العبادة معظمها متجاورة، الخير الذى يعم مصر للجميع للمسلم وللمسيحى يشترك المسلم والمسيحى فى التجارة وفى الزراعة وفى معظم المعاملات، وأنا شخصيا تربطنى بالبابا شنودة علاقات أخوية فلا يكاد يمضى شهر حتى نلتقى ونتزاور فى المناسبات المختلفة، وأؤكد وأقول: إن الحرية الدينية فى مصر حقيقة واقعة يراها الناس بأعينهم ويحسونها بمشاعرهم، ولاأنكر أن هناك بعض الخلافات بين المسلم والمسلم، وبين المسيحى والمسلم وبين المسيحى والمسيحى وهى خلافات فردية

شخصية، وهذه المسائل موجودة فى أمريكا وأوروبا وآسيا وكل دول العالم وما يحدث من خلاف يحكم فيه القضاء المصرى الذى يتسم بالنزاهة والذى يقول كلمة الحق.

ولايوجد فى مصر شئ اسمه المحاربة للحرية الدينية.

وأكرر بأن القضاء فى مصر إذا قال كلمته فنحن فى مصر نحترم حكم القضاء لما له من موازين واجتهادات مبنية على الموضوعية دون تميز لا لمسلم ولا لمسيحى أو أى ملة أخرى، وذلك من منطلق أن الشريعة الإسلامية تأمر بالعدل مع الصديق ومع غير الصديق ومع المسلم ومع غير المسلم، والخلاف بين الناس من أجل المصالح موجود فى أمريكا وفى أوروبا وفى كل دول العالم وأحب ان أؤكد أن من يأتى إلينا ليتعلم منا فمرحبا به، ومن يأتى إلينا لكى يفرض علينا رأيا معينا فنحن نرفض ونرفض ونرفض، وهذه حقائق جميع الأديان السماوية وجميع العقول السليمة تؤيدها.

وأجاب فضيلته عن أسئلة واستفسارات الوفد ومنها أن هناك بعض الاضطهاد للعقائد والحريات الدينية فى بعض أنحاء العالم كالصين وغيرها، أجاب فضيلته بأننا كمصريين وأنا كشيخ للأزهر الشريف باسمى وباسم الأزهر الشريف وباسم جميع المصريين نحن ضد منع أى أحد من إقامة شعائره الدينية.

وتحدث السيد رئيس الوفد فقدم التحية والاحترام لفضيلة شيخ الأزهر الشريف على إتاحة الفرصة لهذا اللقاء، موضحا بأن هذه اللجنة أنشئت بقرار الكونجرس الامريكى عام ٩٨ وهى ليست لها صفة الدبلوماسية ومهمتها أن تستوضح عن حالة الحريات الدينية الموجودة فى أنحاء العالم، وبداية أعمالها كانت عما يحدث فى الصين نظرا لأن الكنائس البروتستانتية لايسمح لها هناك بأداء الشعائر، كما أن المسلمين فى تركمستان لايسمح لمذهب معين بأداء شعائر الصلاة، وكذلك فى الهند وباكستان، وإننا كلجنة نقوم بجمع المعلومات ومعرفة الحقائق من مصادرها لكى نعلم الصدق.

وقد أشاد بالكلمات التى سمعها من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف وقال إنها كلمات هامة جدا وتعلمنا منها الكثير، وقد جئنا لنتعلم.

وحول سؤال عن عدم تولى المسيحيين مناصب عليا فى مصر أجاب فضيلة الأستاذ الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف بأن بعض قادة الجيوش فى حرب أكتوبر المجيدة سنة ٧٣ كان مسيحيا وبعض الوزراء فى مصر وبعض قيادات الشرطة وكثير من رؤوس الأموال ورجال الأعمال وكثير من أعضاء مجلس الشعب والشورى المنتخبين مسيحيون، وقد أوضح فضيلة الإمام الأكبر

شيخ الأزهر الشريف بأن المسلمين والمسيحيين في مصر لا يودون تدخل أى جهة في شئونهم فهم يعيشون فى حب ووئام وتجمعهم المصالح المشتركة ويعيشون متعاونين فى كل شىء فى حياتهم.

وأوضح فضيلة الإمام الأكبر أن بالأزهر لجنة تسمى لجنة الحوار بين الأديان ومقرها بإدارة الأزهر الشريف وهى تقابل جميع المهتمين بحوار الأديان.

وفى نهاية اللقاء شكر الوفد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر على إتاحة الفرصة لهذا اللقاء وهذه المعلومات التى تعلموها .

● استقبل فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف نائبا عن فضيلة الإمام الأكبر الوفد الباكستانى لممثلى المنظمات الإسلامية بباكستان برياسة السيد كرم إلهى بمؤسسة الشباب فى باكستان.

رحب فضيلته بالوفد شارحا لهم المراحل التعليمية التى يمر بها الدارسون حتى الانتهاء من التعليم الجامعى بجامعة الأزهر الشريف والدراسات العليا، وأشار إلى أن الأزهر يستقبل أبناء المسلمين من العالم الإسلامى للدراسة به على منح دراسية من الأزهر الشريف، ويقيمون فى مدينة البعوث الإسلامية التى يسكنها طلاب من نحو ٩٥ دولة من دول العالم فهى جامعة شعوب إسلامية وأشار إلى أن المعاهد الأزهرية فى تزايد مستمر سواء داخل جمهورية مصر العربية أو فى الدول التى تنشئ معاهد أزهرية ويمدها الأزهر بالسادة العلماء المدرسين والمناهج والكتب الدراسية، وأوضح أن أعدادا كثيرة من الطلبة الباكستانيين يدرسون بالأزهر الشريف فى المعاهد والكليات بجامعة الأزهر وهم متفوقون فى دراستهم والدراسة فى الأزهر الشريف تمتاز بالتوسط والاعتدال وتمتاز بحفظ القرآن الكريم بالإضافة إلى دراسة العلوم الشريعة والعربية والعلوم الثقافية واللغات، ولذا لا تجد أى انحراف أو إرهاب فى طلبة الأزهر أو جامعته، وكما يوجد طلبة من باكستان يدرسون فى الأزهر الشريف نجد بعثة من علماء الأزهر وأساتذته يذهبون إلى باكستان يدرسون لأبنائها فى معاهدها.

وقد أجاب فضيلته عن أسئلتهم واستفساراتهم التى دارت حول تحطيم الأصنام فى أفغانستان موضحا لهم بأن الشريعة الإسلامية تأمرنا باحترام التراث الإنسانى لأنه ملك للبشرية جميعا، وأشار إلى أنه ذهب إلى أفغانستان وفد على مستوى عال من رجال الدين الإسلامى وأعضاء مجمع البحوث الإسلامية يرأسه فضيلة الأستاذ الدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية، لمناشدة طالبان التوقف عن تدمير الآثار القديمة لما يترتب على ذلك من

فتن، العالم الإسلامى فى غنى عنها، كما أجاب عن أسئلتهم فى النواحى الفقهية والشرعية وأوضح أن وحدة العرب والمسلمين فى الوقوف إلى جانب الحق ونبذ الاعتداء والعدوان على الآمنين أمر مطلوب، كما أوضح أن الدين الإسلامى لا يمنع حرية العقيدة بل إن حرية العقيدة أمر مكفول للجميع، وإن مسايرة التقدم لرقى الأمم وازدهارها مع التمسك بتعاليم الإسلام السمحة أمر تقره شريعة الإسلام.

● وافق فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف على مشروع المنح السنوى الذى يقدمه الأزهر الشريف على مستوى العالم وتم تخصيص ٢٠٠٠ منحة دراسية لعدد ٩٤ دولة من دول العالم وأكبر الدول الحاصلة على منح دراسية هى الصومال وإندونيسيا وماليزيا والفلبين وذلك نظرا للكثافة السكانية فى هذه الدول، كما تم تخصيص خمس منح جامعية لأبناء فلسطين، كما تم إقرار مشروع منح الوفورات التى تعطى للطلاب الوافدين المتواجدين داخل جمهورية مصر العربية حيث تم اعتماد ٣٦٢ منحة.

● حضر فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف حفل افتتاح مؤتمر كلية الدراسات الإنسانية حول (قضايا المرأة المعاصرة من منظور إسلامى) والذى كان تحت رعاية فضيلته حيث أعلن أن الحياة لا تصلح ولا تعمر ولا تتقدم وترقى إلا بوجود الرجل والمرأة وأشار إلى أن هناك بعض أوجه المساواة بين الرجل والمرأة، المساواة فى أصل الخلقة، وفى الواجبات التى كلفنا الله تعالى بها، وفى التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها، والتحلى بمكارم الأخلاق، والمساواة فى الكرامة الإنسانية فكرامة الرجل من كرامة المرأة وكرامة المرأة من كرامة الرجل، والمساواة فى الحقوق العامة ، كالحقوق المدنية من بيع وشراء ووكالة وتصرف فيما يملكه الإنسان وطلب العلم وحق العمل وهذه الأمور وضحتها شريعة الإسلام توضيحا بأسلوب حكيم.

وأشار فضيلة الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر إلى أن العالم الحديث يموج بالفتن، وتظهر منظمات تدعى الدفاع عن حقوق الإنسان وهى بعيدة كل البعد عن هذا.

وأشادت الدكتورة فرخندة حسن أمين عام المجلس القومى للمرأة ورئيس لجنة التنمية بمجلس الشورى بدور الأزهر الشريف وجامعته فى توضيح دور المرأة وحقوقها الأساسية التى أعطاها لها الإسلام من قديم الزمان وأن المجلس القومى الذى أنشئ بقرار من السيد الرئيس محمد حسنى مبارك وترأسه السيدة الفاضلة سوزان مبارك قرينة السيد الرئيس يمكننا والمجتمع من ممارسة

هذه الحقوق وأكدت على المتابعة المستمرة من المجلس لكل ما يعمل على تنمية المرأة وقالت: إن كلمة فضيلة شيخ الأزهر المستنيرة ستكون منهج عمل لكل نساء مصر وسيسعى المجلس لتوزيعها ونشرها.

● برياسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر عرض على مجلس مجمع البحوث الإسلامية بجلسته المنعقدة فى ٤ من المحرم ١٤٢٢هـ الموافق ٢٩ / ٣ / ٢٠٠١ موضوع استخدام رحم امرأة أجنبية لوضع ماء زوجين فى رحمها وقد قرر المجمع: أن ذلك يكون حراماً سواء أكان الموضوع فى رحم تلك المرأة الأجنبية منيا أو بويضة أو جنيناً.

وقد قرر مجلس المجمع أن وضع ماء الزوج فى رحم زوجته بعد وفاته حرام شرعاً لأنها لم تصبح امرأة المتوفى، وهذا الفعل محرم شرعاً لأنه وضع حيوانات منوية من رجل فى امرأة صارت أجنبية عنه وقد قطع الموت ما بينهما.

● قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر يرافقه الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر الشريف ورئيس الإدارة المركزية بمكتب شيخ الأزهر للإعلام والعلاقات والأمين العام المساعد للدعوة والإعلام الدينى بالأزهر الشريف بزيارة لمحافظة أسيوط ومحافظة سوهاج.

وقدحضر فضيلته اللقاء الشعبى الكبير بمبنى محافظة أسيوط بحضور السيد المحافظ والقيادات التنفيذية والشعبية وأساتذة الجامعات وطلاب الأزهر وغيرهم وقد ألقى فضيلته محاضرة تحت عنوان «مصر وقضية القدس» وقال: إن القدس عربية ولن نسمح بأى اعتداء على المسجد الأقصى، وإننا نقف إلى جانب الحق وإلى جانب المظلوم حتى ينتصر ونقف فى وجه الظالم حتى يندحر، فمصر والحمد لله وقفت فى وجه المعتدين على مر التاريخ فهزمت التتار وردتهم على أعقابهم خاسرين وانتصرت فى معركة عين جالوت، ومصر خاضت أربعة حروب ٤٨، ٥٦، ٦٧، ٧٣ خاضتها مصر من أجل فلسطين وإخواننا فى فلسطين ومن أجل القدس الشريف لأن فلسطين قطعة من مصر ومصر قطعة من فلسطين، ويجب أن نكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً لقد ضحت مصر بفلذات أكبادها وزهرة شبابها إلى جانب ما تكبدت من أموالها واقتصادها.

مصر تقف رئيساً وحكومة وشعباً تقف إلى جانب إخواننا فى فلسطين تساعدهم وتعاونهم وتقويهم وتشد من أزرهم وكلنا يعرف ما يبذله السيد الرئيس مع أخيه السيد ياسر عرفات ويقدم للفلسطينيين كل دعم وعون حتى يحصلوا على حقوقهم كاملة غير منقوصة ولتكون لهم دولتهم تحت الشمس.

الفهـــرس

● **الدين مرتكز الخلق الحميد (الافتتاحية)**
للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى ١٧٨
● **تفسير سورة البقرة**
لفضيلة الإمام الأكبر ١٨٣
● **وحى الألفاظ فى أسلوب القرآن**
للأستاذ الدكتور / عبد الحليم حفنى ١٩٢
● **العناية بكتابة السنة فى عصر الرسول ﷺ وصحابته**
للأستاذ الدكتور / أحمد معبد عبد الكريم ١٩٨
● **الدعوة كما ينبغى أن نبلغها (٤)**
لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى ٢٠٥
● **دعوة الإسلام إلى الوحدة**
للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم ٢١١
● **إسلامية المعرفة.. ماذا تعنى؟**
للأستاذ الدكتور / محمد عمارة ٢١٧
● **أمتنا وفن إدارة الأزمات**
للدكتور / محمود محمد عمارة ٢٢٤
● **محاولة لفهم العولمة**
للأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الفيومى ٢٢٧
● **نقد موضوعى للأفكار الهامة فى كتاب اليمين واليسار فى الفكر الدينى**
للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى ٢٣٤
● **شئون المرأة والوثب الأشل على الإسلام**
للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى ٢٤٠
● **المثنى بن حارثة الشيبانى**
إعداد الأستاذ / أحمد السيد تقى الدين ٢٤٧
● **حول الشعر العذرى**
للأستاذ الدكتور / محمد أحمد العزب ٢٥٥
● **عبد العزيز البشرى فى المرآة**
للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى ٢٥٨
● **رثاء الأديب الكبير الشيخ عبد العزيز البشرى (قصيدة)**
للأستاذ / خليل مطران ٢٦٣
● **فقيد الأزهر: الدكتور محمد أحمد سحلول**
للأستا ذ الدكتور / أبو حسام ٢٦٦
● **القلادة المباركة**
للأستاذ / محمد فريد أبو حديد ٢٦٩
● **دعوة إلى نحو عصرى بين الوهم والتخريب**
للأستاذ الدكتور/ مبروك عطية أبو زيد ٢٧٨
● **الغرام السوقى (قصيدة)**
للأستاذ / محمد الأسمر ٢٨٢
● **يهود الشرق فى الأدب العبرى**
للدكتور / محمد حسن عبدالخالق ٢٨٤
● **دور يهود الدونمة فى إسقاط الخلافة العثمانية**
عرض الأستاذ الدكتور / إبراهيم عوضين ٢٩٢
● **الحقائق العشر لحتمية تحول النبوة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل**
للدكتور / محمد عبد العليم ٣٠٠
● **مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى (٢)**
للمستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى ٣٠٩
● **التراث العلمى الإسلامى**
للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا ٣١٧
● **جنون البقر.. والخروج عن الفطرة**
للأستاذ الدكتور / عبد الراضى حسن المراغى ٣٢٢
● **هل تغرق السفينة.. لطفك اللهم**
للأستاذ / مجدى عبد الحميد بشير ٣٢٦
● **طرائف.. ومواقف**
لفضيلة الشيخ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ٣٣١
● **إلى الجيل الجديد**
أسرة التحرير ٣٣٣
● **منبر الجمعة: من أضرار المعاصى**
لفضيلة الشيخ / على حامد عبد الرحيم ٣٣٥
● **رسالة و.. رد**
لفضيلة الشيخ / عبد الفتاح سيد جمعان ٣٣٩
● **استفتاءات القراء**
إعداد الشيخ / عبد الفتاح حسين الزيات ٣٤٤
● **بين المجلة والقارىء**
إعداد وتقديم الأستاذ / عادل رفاعى خفاجة ٣٥٠
● **بين الصحف والمجلات**
إعداد الاستاذ / محمود الفشنى ٣٥٧
● **أنباء مكتب الإمام الأكبر**
إعداد الشيخ / عمر البسطويسى على ٣٦٢

الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

وصدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩هـ

يصدرها

مجمع البحوث الإسلامية

فى مطلع كل شهر عربى

●●●

رئيس التحرير

أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير

الطاهر محمد الطاهر الحامدى

سكرتير التحرير

عادل رفاعى خفاجة

المراسلات باسم

مدير التحرير / مجمع البحوث الإسلامية / م. نصر

ت: ٢٦٣٨٥٩٩

الاشتراكات: قسم الاشتراكات بالأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

- مع سورة الفتح فى ذكرى مولد رسول الله ﷺ

لفضيلة الأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر

- فى ذكرى ميلاد سيد البشر

لفضيلة الشيخ / عبد الفتاح سيد جمعان

- ذكريات وتأملات فى يوم مولد الرسول ﷺ

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

- محمد ﷺ فى كتابات المستشرقين

للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى

- ما يقال عن الإسلام

للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى

الاشتراك السنوى

- داخل مصر .... ١٨ جنيهًا مصريًا
- الدول العربية .... ٥٠ دولارًا أمريكيًا
- أوربا وأمريكا .... ٨٥ دولارًا أمريكيًا
- اليابان وشرق آسيا .... ١٢٠ دولارًا أمريكيًا

الاشتراكات: قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

☎ ..٥٧٨٦١٠٠ - ٥٧٦٢٠٠ ٨

ربيع الأول ١٤٢٢هـ - يونيه ٢٠٠١م - الجزء الثالث - السنة الرابعة والسبعون

افتتاحية العدد

فى ذكرى المولد النبوى

(تحليل أدبى لبعض مواقف النبى الكريم)

حظيت السيرة النبوية بأوفى نصيب من التسجيل التاريخى والتحليل الأدبى فى القديم والحديث، لأن مواقف رسول الله -ﷺ- كانت من الروعة البالغة بحيث جذبت إليها أقلام المفكرين عن طواعية دافعة، إذ شاقهم أن يغوصوا على اللآلىء المكنونة فى سيرة هذا النبى العظيم، ولم يكن تعدد الكاتبين، وتنوع الدارسين مدعاة سأم للقارىء المستوعب، لأن لكل كاتب جدير بهذا الوصف مرآته الذاتية التى تريه من الملامح الخاصة ما يغيب عن سواه، لذلك تجد الموقف التاريخى الواحد لا يفقد جدته عند الكاتب الأصيل، إذ يلهمه من العواطف الذاتية ما يجعل قارئه يشهد الجديد الطريف، إذ يقرأ الحدث القديم.

ولعل هذا العصر كان من أحفل العصور وأشدها اهتماماً بتاريخ الرسول ﷺ، لأن سيرته الطاهرة لم تنحصر فى نطاق المتخصصين من أساتذة التاريخ، بل جذبت إليها كبار الأدباء من ذوى التصوير الناطق والتحليل المتعمق، والتعبير الشفاف، ونريد اليوم أن نعرض لموقف مؤثر من مواقف صاحب الرسالة ﷺ لنرى كيف ظهر فى مرايا الكاتبين من أدباء هذا العصر، ويضيق المجال عن تتبع هؤلاء، فيحتم علينا أن نقصرالحديث عن الرواد منهم، وفى طليعتهم: عباس محمود العقاد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وأحمد حسن الزيات!

أما الموقف الذى نعنيه فموقف الصابر المحتسب محمد بن عبد الله حين فقد ابنه الوحيد إبراهيم، وهو موقف شديد اللوعة جذب قطرات الدمع من عين الرسول القدوة، فبكى لبكائه من شهده من صحابته، وسُجِّلَ الحدث الرائع فى كتب السيرة على توالى الأجيال فجعل العيون القارئة تشارك العيون السالفة بكاءها الدامع، إذ بلغ الموقف المؤثر من الروعة الآسية أقصى ما يبلغ موقف لهيف.

ونبدأ بالعقاد – عن عمد مقصود – إذ أنه المحلل الفاحص الذى يتغلغل فى أعماق الموقف التاريخى مسلطاً مجهره الدقيق على الخوافى الكامنة من ذراته الضئيلة، حتى يأتلق للعين، ساطع الملامح، مؤتلق السمات.

عباس محمود العقاد

يقول الأستاذ توفيق الحكيم عن كتاب عبقرية محمد: «لقد أدركت من الفصل الأول أن لدى العقاد ما يقول، وأن الكلام الذى عنده يرغمنا على أن نصغى إليه، وأن كل ما عرف من قبل عن النبى محمد لن يغنينا عما عند العقاد، لأن العقاد قد درس وفكر، واستنتج لنفسه، ثم صنع للنبى –ﷺ– صورة قلمية لايمكن أن يرى نظيرها على هذا التمام فى صفحات مثل صفحات عبقرية محمد»

وهذا حق، لأن العقاد قد استبطن السيرة النبوية فشاهد فى مطاويها الغائبة ما جلاه لأول مرة، وكأنه يكتب عن حدث جديد! لقد كان إبراهيم قرة عين والده، وقد سعد بمشرقه، ورأى ملامحه فى وجهه فازداد به تعلقاً، وقضى ستة عشر شهراً لايرى عليه أثرا لمرض ثم دهمته العلة، ولم يطل به المرض، فسرعان ما شاهده أبوه فى حجر أمه يحتضر! وقد احتضر من قبل ولداه القاسم والطاهر صغيرين وماتت جميع بناته غير فاطمة، ورأى الرسول مانزل بوحيده من الخطب فذرفت عيناه باكياً! وأحس أن أصحابه يتعجبون لبكائه، فقال: تدمع العين ويحزن القلب، ولانقول غير ما يرضى الله! وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون.

هذا لباب الموقف ملخصاً من كتب التاريخ!فماذا قال عنه العقاد؟

إن الكاتب الكبيرقد تغلغل إلى أدق الخلجات الهامسة، حين نظر بعين الصقر إلى الحدث النفسى فى أبعاده المترامية فجلاه أحسن جلاء إذ قال:

«مات الطفل ولم يبلغ السنتين، مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين، ولكن المصائب فى الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه، وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا، وتعويل الصغيرعلى وليه أكبر من تعويل الكبير، وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم، والأمل يطول فى بداءة الطريق، وقد يقصر فى منتصف الطريق.

إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين، وأى مصاب أفدح من مصاب الستين وما بعدها فى الأمل الوحيد، الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه.

ما تخيلت محمداً أدنى إلى القلوب الإنسانية فى موقف من مواقفه على قبر الوليد الصغير، ذارف العين مكظوم الوجد ضارعاً إلى الله.

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الألوف بعد الألوف، وهى فى هذا الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز، رجاء ـ وأسفاه ـ لايحييه كل ما ينفثه المصلح من رجاء.

وكأنى بمحمد يوم ذاك، كان أقرب إلى نفوس الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله، ومع أقرب الناس إليه، كان أقرب الناس إليه زوجاته أمهات المؤمنين، وكن يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج، ولكن حبهن إياه لم يكن فى هذا الموقف من المقربات العاطفات، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة، وبمقدار ذلك الحب، ولالوم عليهن فيما طبع عليه الإنسان، وفيما لا يقصدونه ولايقدرن عليه وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه، وكان إكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء، بل إنه أب أرحم من سائر الآباء.

ظنوا أن النبى لا يحزن، كما ظن قوم أن الشجاع لايخاف، ولايحب الحياة، وأن الكريم لايعرف قيمة المال، لكن القلب الذى لايعرف قيمة المال لافضل له فى الكرم، والقلب الذى لايخاف لافضل له فى الشجاعة، والقلب الذى لايحزن لافضل له فى الصبر، إنما الفضل فى الحزن والغلبة عليه، وفى الخوف والسمو عليه، وفى معرفة المال والإيثار عليه»

هذا بعض ما قال العقاد فى موقف الرسول من رحيل إبراهيم! وهو على إيجازه يغنى عن إسهاب مطيل.

الدكتور طه حسين

إذا كان العقاد قد قال عن رحيل إبراهيم مالا يخطر فى بال أحد، فإن الدكتور طه حسين على النقيض، إذ قال فى هذا الموقف ما يمكن أن يخطر فى نفوس الكثيرين، ولكنه ساقه مساقاً بارعاً، إذ التزم الأسلوب القصصى فيما كتبه فى مؤلفه الشهير (على هامش السيرة). والدكتور قاص بارع حقاً يسرد الأحداث ويصور الشخصيات فى تسلسل وانسجام، وله خياله المصور، يرسم به مايريد أن يعبر عنه من العواطف والانفعالات، وهو كماقال الأستاذ أحمد الشايب قد انتقل بخياله إلى أناس فى صدر الإسلام، يحس بإحساسهم، ويأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون! وبذلك استطاع أن يقص الأحداث بجوهرها فنقل إلينا الماضى أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة، فإذا أردنا أن نعرف كيف صور رحيل إبراهيم فإننا نجده قد اصطنع الخيال ليربط حادثاً بحادث! فقد تخيل من يسمى بحنظلة الخزاعى، فرسمه شيخاً مهيباً له مكانة أثيرة لدى الناس فى الفسطاط،

وقد قدم إلى قرية من قرى الريف فوجد كبيرها مرزوءاً في ولده، يعزى عنه فلا يتعزى، فأسرع إلى مواساته إذ قص عليه مصاب الرسول في ولده إبراهيم! هما إذن مشهدان، لامشهد، مشهد متخيل جعل إطاراً لمشهد حقيقي، وبهما اكتمل الفن القصصي لدى الراوي المبين.

يقول الدكتور عن المشهد الأول متحدثا بلسان حنظلة الخزاعي:

«لقد ذهبت إلى القرية أتعهد بعض أعمالي، فما أبلغها وما استقر فيها حتى أعرف أن عظيما من عظماء النصارى قد رزىء في صبي له، فأرى من الخير والبر أن أسعى إليه معزيا فأفعل، ويلقاني الرجل حفياً بي، وقد ملك الجزع كل أمره، وأخرجه عن طوره، وكنت أعرفه جلداً صبوراً وقوراً، ولكن هذا الصبي كان وحيده، وكان قرة عين له حين تولى الشباب وأدركته الشيخوخة، فلما نزل به الخطب لم يثبت له، ولم يستطع عليه صبراً، وقد عجز من يحيطون به من القسيسين والرهبان عن تسليته، ويأخذني الرفق به والإشفاق عليه، فأتحدث إليه في لغته القبطية، مواسياً مسلياً، وأقول له فيما أقول، لو عرفت أن أحاديث نبينا تعزيك أو تسليك لقصصت عليك طرفاً منها، فقد رزىء نبينا في صبي وحيد له، كما رزئت في صبيك هذا الوحيد ،فتلقى الرزء كريماً يملأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً له، وإعجاباً به، ورحمة للصبية من أبنائنا، في احتفاظ بالرجولة، وثبات على المروءة، واصطناع للوقار، واعتراف بحق الله، فيما يمن به علينا من المال والولد، يأخذ كما أعطاه، دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نثور عليه، وإنما هي نعمة أهديت إلينا ثم أخذت منا، وقد ابتلينا بإهدائها إلينا كما ابتلينا بأخذها منا»

قال الرجل: فحدثني بحديثك، فإن ما تقوله يبعث في نفسي شيئاً من راحة وأمن ودعة!

هنا إنتهى المشهد الأول الذي جعله الدكتور إطاراً بارعا للمشهد الثاني، مشهد رسول الله حين وقع الخطب، فحزن الفؤاد ودمعت العين، ولم يقل نبي الله غير ما يرضي الله!

قال الدكتور على لسان حنظلة: إن نبينا قد رزق في آخر أيامه صبياً ابتهج لمولده ابتهاجاً عظيماً، وسر به سروراً لا يقدر، ولكن نبينا كان يحسن لقاء النعمة كما كان يحسن لقاء المحنة، كان لا يخرجه الابتهاج عن طوره، وكان البطر والأشر أبعد الأشياء عنه، وكان إذا رضي لم يستأثر بلذة الرضا، وإنما يشرك فيها الناس، فلم يكد يرزق هذا الصبي حتى أعلن ذلك للناس مغتبطاً، ثم تصدق على الفقراء ووسع على من ضيقت عليهم الحياة، وكان رفيقاً بابنه هذا يسعى إليه عند مرضعه إذا قال الناس، فيأخذه ويقبله، ويقول له: ما شاء الله أن يقول من الألفاظ الحلوة التي تصور أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم، وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تحصى، وكان فيها امتحان الله له في أحب الأشياء لديه، وآثر الناس عنده، فما يبلغ ابنه ستة عشر شهراً أوثمانية عشر شهراً حتى

تسعى إليه العلة، ويمضى النبى مع صفى من أصفيائه يقال له: عبد الرحمن بن عوف ليعوده، فيبلغه وهو يجود بنفسه، وينظر الأب إلى صبيه الوحيد الذى جاءه حين تولى عنه الشباب، وحين أقبلت عليه الشيخوخة، وحين استيأس من الولد، ينظر الأب إلى ابنه هذا أسفا محزوناً، ولكنه ينظر إليه مع ذلك راضياً مطمئناً، مذعنا لقضاء الله، وهذه عينه تدمع، وهذا صفيه ينكر منه ذلك، ويقول له: أتبكى وقد نهيت الناس عن البكاء؟ فيجيبه: إنما هذا رحم، وإن من لايرحم لايرحم، إنما ننهى الناس عن النياحة، وأن يندب الرجل بما ليس فيه ثم قال: لولا أنه وعد جامع، وسبيل مئتاه، وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا، وإنا عليه لمحزونون، تدمع العين ويحزن القلب، ولانقول ما يسخط الرب».

هذا لباب ما ذكر الدكتور طه حسين فى رحيل إبراهيم! وفى مجال الموازنة بينه وبين ما تقدم من كلام الأستاذ العقاد، نرى أن حديث العقاد يخاطب العقل أولاً والوجدان ثانيا، وحديث الدكتور طه يخاطب الوجدان أولا والعقل ثانيا! وكل قارىء فى حاجة إلى إقناع العقل وإمتاع الوجدان، ولست ترى منطقياً متحجراً، ولاعاطفياً ذائباً، إذ لابد من قدر مشترك بينهما فى الكيان الإنسانى، والذين يعكفون على طعام واحد يرون الدنيا بعين واحدة! وكما يحتاج الإنسان إلى أستاذ حاسم يوجه ويسدد، فهو فى حاجة إلى صديق مخلص يمتع ويؤنس!

أحمد حسن الزيات

أصيب الأستاذ أحمد حسن الزيات فى ولده الصغير (رجاء) فبكاه بمقال حار سال دموعا وتقاطر دما على صفحات مجلة (الرسالة) ثم شاء أن يخفف عن برحائه مرة ثانية فاهتدى إلى حديث إبراهيم بن محمد ﷺ حيث وجد فى مصاب الرسول أسوة شافية لجراحه، فكتب بالعدد الممتاز من مجلة (الرسالة) مقالا حارا تحت عنوان (محمد الوالد) يحس قارئه أن مأساة الزيات فى ولده قد رفرفت فى خياله حين تحدث عن إبراهيم -عليه السلام-، وقد ختم مقاله بقوله مناجيا رسول الله:

«تعزيت يا رسول الله، لأن الألم سبيل من سبل دعوتك، والعزاء أصل من أصول دينك، والأرض وما عليها أهون من دمعك والسماء وما فيها ثواب لصبرك، ولكن ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد الرجاء وليس له فى يومه صبر،، ولا فى غده عزاء».

والبائس المحزون فى هذا المجال هو الأستاذ الزيات، وأشهد أن حزنه البالغ كان من أسباب توفيقه فيما كتب عن محمد الوالد، إذ كان مقاله تحفة رائعة من البيان المصور، أقول هذا

وأنا أعرف أن أعداء البلاغة العربية يضيقون بالبيان المنمق الأنيق، ويعدونه مصدر افتعال وتكلف، وهم بعد أنأى عنه طريقا وأجفاهم عن تفهمه واستشفافه، ولو كتبوا جملة واحدة منه لطاروا بها فرحا، ولكنه العى والقصور ثم التهجم والغرور.

وإذا كان العقاد محللا، وطه قاصا، فالزيات رسام مصور حين وصف المسرح الهادئ لبيت النبوة، فقال: «بين ظلال النخل والكرم، وفى بيت محمد ﷺ المصرىّ على العالية من ضواحى المدينة، أتم الله نعمته على رسوله، فوهب له على الكبر إبراهيم، يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة المنيرة، ومست يد الربيع المخصبة دوحة النبوة، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر، يهنئون النبى بالخليفة الوليد، والأمل الجديد، والعوض المبارك، ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية، ليرى نعمة ربه، وبضعة كبده فوجد فى طلعة إبراهيم الأنس الذى يعوزه، والرضا الذى يرجوه والخلف الذى يتمثله، ففاضت غبطته لله حمدا، وعلى المؤمنين بركة وفى الفقراء صدقة، رفع أمه إلى مقام أزواجه، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه، ثم عق له بكبشين أملحين، وتصدق بزنه شعره فضة، وتعود كل صباح أن يزور أم ولده، فيحمله عنها ليضمه ويشمه، ويتذوق طعم السعادة الأرضية من أريجه، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه، ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المسلمين ولم يلدن، فيباهى بحسنه ويغتبط بنموه» وهذا التصوير الجيد تعقبه الحكمة الرائعة، حكمة ابتلاء الله لأنبيائه ورسله، وهم موضع أمانته، ومبلغو رسالته، وقد أحسن الزيات رسمها فى دقة بليغة حين قال ممهدا لحادث الفقد المحزن وأثره فى نفس الرسول:

«ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته، ودعوتهم الحق، والحق ثقيل، وعدتهم الصبر، والصبر كليل، وبرهانهم الألم والألم قاتل، غرباء فى الأرض لأنهم من السماء، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عبر، هذا إبراهيم حبة قلب أبيه، وسواد عين أمه، مسبوتا على فراش المرض تحت النخيل، تذوى نضارته على وهج الحمى، وتذوب حشاشته على عرك الموت، وأمه وخالته قائمتان على سريره، تشهدان منظرا أى منظر، وهذا أبو إبراهيم يضعضعه النبأ،لهيف الفؤاد إلى الصغير المحتضر، لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن،ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح، ولو كان فى قلب الشاكل المحزون شبهة لجلبتها محنة الله ورسوله، أخذ إبراهيم من حجر أمه فوضعه فى حجره، ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت، وقال بصوت متهدج، وفؤاد متأجج، واستسلام مطمئن: «إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا»!

يالله، إن النبى الذى ولد فى مهد اليتم، ودرج فى حجر العدم، وتقسمت عمره عوادى الخطوب، فكابد أذى قريش، وحقد المنافقين وكيد اليهود، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة قد احتمل كل ذلك بصبر المجاهد، ويقين المؤمن، وعزم الرسول، ويصيبه الله فى إبراهيم، فيرفض عنه الصبر، ويتملكه الجزع، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد، يرى جزءه الجديد يبلى، ورجاءه الناشئ يخيب، ثم يقول: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليجزع، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

هذا أيضا بعض ما قال الزيات، والمقال بتمامه فى الجزء الأول من وحى الرسالة، وما هو ببعيد.

محمد حسين هيكل

من مزايا أسلوب الدكتور هيكل -رحمه الله- التدفق والانسيال فى غير كدورة ولاغبش، فهو لا يكتب إلا حين يجيش خاطره بأمواج كثيرة يرسلها إلى القارئ فى تحدر واندفاع! وحين كتب (حياة محمد) لم يفارقه هذا الأسلوب الفياض المتدفع، ولا يرجع ذلك لقدرته الأسلوبية وحدها، بل يرجع إلى صدق حميته وعميق يقينه! وقد رأينا أناسا يشيحون عن كتابه الرائع لبعض ملاحظات لا يخلو من أمثالها كتاب يؤلفه إنسان! وقد نسوا أن الكاتب الكبير جعل حياة الرسول مجالا لأقلام حذته، وتأثرت به، ولولاه ما فكرت فى اتجاهه الرشيد، بل لنسوا أنه بكتابه الرائع عن رسول الله ﷺ قد جذب عشاقا لسيرته الطاهرة كانوا يصدون عنها من قبل، إذ لم تعرض فى مثل بيانه المؤثر ومنطقه المبين.

يقول هيكل عن إبراهيم وموقعه فى نفس أبيه:

«لم يكن تعلق محمد بإبراهيم لغاية فى نفسه لها اتصال برسالته أو بمن يخلفه، فقد كان ﷺ فى إيمانه بالله وبرسالته لا يفكر فى ولده ولا فيمن يرثه، بل كان يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»، إنما هى العاطفة الإنسانية فى أسمى معانيها، العاطفة الإنسانية التى بلغت من السمو فى نفس محمد مالم تبلغه فى نفس أحد غيره، العاطفة الإنسانية التى جعلت العربى يرى فيمن يخلفه من الذكر أنه صورة من صور الخلود، هذه العاطفة هى التى جعلت محمدا يخلع على إبراهيم كل هذا الحب، ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده، وقد زاد هذه العاطفة رقة وقوة فى نفسه أنه فقد ولديه (القاسم والطاهر) وهما ما يزالان طفلين فى حجر أمهما خديجة، وأنه قد فقد بناته بعد خديجة واحدة بعد الأخرى بعد أن كبرن

وصرن أزواجا وأمهات. فلم تبق له منهن غير فاطمة، هؤلاء الأبناء والبنات الذين تساقطوا من حوله فدفنهم بيده تحت صفائح الثرى، تركوا فى نفسه قرحة ألم، اندملت بمولد إبراهيم، وأثمرت مكانها رجاء وأملا، وكان حلاله أن يمتلئ بهذا الأمل غبطة واستبشارا»

وبعد أن يفيض فى وصف الاحتضار ومشهدالوداع ومسيرة الدفن يقول الدكتور هيكل:

«ووافق موت إبراهيم كسوف الشمس، فرأى المسلمون فى ذلك معجزة، وقالوا: إنها انكسفت لموته، وسمعهم النبى، أترى فرط حبه لإبراهيم وجزعه لموته قد جعله يتعزى بسماع مثل هذه الكلمة أو يسكت على الأقل عنها، أو يعذر الناس إذ يراهم مأخوذين بما يحسبونه المعجزة،، كلا! فمثل هذا الموقف إن لاق بالذين يستغلون فى الناس جهالتهم، أو لاق بالذين يخرجهم الحزن عن رشادهم، فهولا يليق بالنزيه الحكيم، فما بالك بالرسول العظيم، لذلك نظر محمد إلى الذين يذكرون أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم فخطبهم قائلا: «إن الشمس والقمر آيتان من أيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة». فأية عظمة أكبر من ألا ينسى الرسول رسالته فى أشد المواقف التى تملأ النفس بالفجيعة والهول!» رحم الله الدكتور هيكل، فقد ترك بكتابه مجدا لايبيد.

شعراء العصر

ذكرنا أقباسا من بيان الكبار من الكتاب فى موت إبراهيم، ولم أجد شاعرا معاصرا جعل من هذا الموقف المؤثر مستردا لخاطره، لأن أكثر شعرائنا يقفون عند الأحداث الرنانة كالهجرة والمولد وبدر ،ولا أنكر أن الشاعر الكبير أحمد محرم قد نظم سيرة الرسول فى ديوان رائع، ولكن أين من شفع جهد الشاعر الكبير –رحمه الله– بجهود تزيد عليه زيادة فنية تستجيب لعامل التطور الزمنى، وتقدم مواقف السيرة فى أفقها الأرفع بعيدا عن الرصف الحجرى، والاندفاع الخطابى... أين نجد من فعل ذلك، وفى كل بلد إسلامى أسماء ترن، وأبيات تصلصل دون غناء كبير.

دكتور / محمد رجب البيومى

(بمناسبة مولده ﷺ اختارت المجلة هذه الآيات الكريمة من تفسير فضيلة الإمام الأكبر لتقدمها للقراء احتفاء بمولده الشريف ﷺ).

مع سورة الفتح

في ذكرى مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي

قال الله - تعالى -:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢)
وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ
بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) ﴾

افتتحت سورة «الفتح» بهذه البشارات السامية، والمدائح العالية للنبى - ﷺ - افتتحت بقوله - تعالى - :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

والفتح فى الأصل: إزالة الأغلاق عن الشىء.. وفتح البلد: المقصود به الظفر به، ووقوعه تحت سيطرة الفاتح.

والذى عليه المحققون من العلماء أن المراد بالفتح هنا: صلح الحديبية وما ترتب عليه من خيرات كثيرة، ومنافع جمة للمسلمين.

ويشهد لذلك أحاديث متعددة منها: ما أخرجه البخارى وأبوداود والنسائى عن ابن مسعود قال: أقبلنا من الحديبية مع رسول الله - ﷺ - وكان قد خرج إليها - ﷺ - يوم الاثنين هلال ذى القعدة، فأقام بها بضعة عشر يوما، ثم قفل راجعا إلى المدينة، فبينما نحن نسير إلى المدينة إذ أتاه الوحى - وكان إذا أتاه اشتد عليه - فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله، فأخبرنا أنه أنزل عليه :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن مجمع بن جارية الأوسى قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله - ﷺ - واقفا عند كراع الغميم - موضع بين مكة والمدينة - وقد جمع الناس وقرأ عليهم :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ . الآيات.

فقال رجل: يا رسول الله، أو فتح هو؟ فقال - ﷺ - : «أى والذى نفسى بيده إنه لفتح»[(١)].

ويرى بعضهم: أن المراد بالفتح هنا: فتح مكة، والتعبير عنه بالماضى فى قوله :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾

لتحقق الوقوع، فهو من قبيل قوله - تعالى - :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾[(٢)] ويبدو لنا أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية لوجود الآثار الصحيحة التى تشهد لذلك، ولأن هذا الصلح قد ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله من أعظم الفتوح، إن لم يكن أعظمها.

لقد ترتب عليه أن انتشر الأمان بين المسلمين والمشركين، فاستطاع المسلمون أن ينشروا دعوة الحق فى مكة وفى غيرها، كما استطاعوا أن ينتقلوا من مكان إلى آخر للتبشير بدينهم، فترتب على ذلك أن دخل فى الإسلام عدد كبير من الناس.

قال الزهرى: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، وتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام .

قال ابن هشام: والدليل على صحة قول الزهرى، أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج إلى مكة فى عام الفتح - بعد ذلك بسنتين - فى عشرة آلاف من أصحابه.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير (٢٠٧/٧)، وتفسير الآلوسى (٨٣/٢٦).

(٢) النحل/ ١.

وقد أكد – سبحانه وتعالى – هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات، وهى «إن» والمصدر «فتحا» والوصف «مبينا» وذلك للمسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقيق هذا الفتح، ولإدخال السرور على قلوبهم، بعد تلك الشروط التى اشتمل عليها الصلح، والتى ظنها بعضهم أن فيها إجحافا بالمسلمين.

وأسند – سبحانه – الفعل إلى نون العظمة ﴿ فَتَحْنَا ﴾ لتفخيم شأن المخبر – عز وجل – وعلو شأن المخبر عنه وهو الفتح.

وقدم – سبحانه – الجار والمجرور ﴿ لَكَ ﴾ على المفعول المطلق ﴿ فَتْحًا ﴾ للاهتمام وللإشعار بأن ذلك الفتح كان من أجله – ﷺ – وفى ذلك ما فيه من تعظيم أمره – ﷺ – ومن وجوب طاعته، والامتثال لأمره.

ثم ذكر – سبحانه – بعد ذلك مظاهر فضله على رسول الله – ﷺ – فقال:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾

واللام فى قوله: ﴿ لِيَغْفِرَ ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ فَتَحْنَا ﴾ وهى للتعليل. والمراد بما تقدم من ذنبه – ﷺ – ما كان قبل النبوة، وبما تأخر منه ما كان بعدها.

والمراد بالذنب هنا بالنسبة له – ﷺ – ما كان خلاف الأولى، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو المراد بالغفران: الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها، فلا يصدر منه – ﷺ – ذنب، لأن غفران الذنوب معناه: سترها وتغطيتها وإزالتها.

قال الشوكانى: وقوله – تعالى – :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

اللام: متعلقة بفتحنا وهى لام العلة، قال المبرد: هى لام كى ومعناها: إنا فتحنا لك فتحا مبينا – أى: ظاهرا واضحا مكشوفا – لكى يجتمع لك مع المغفرة تمام النعمة فى الفتح، فلما انضم إلى المغفرة شىء حادث واقع حسن معنى كى.

وقال ابن عطية: المراد أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك، فكأنها لام الصيرورة.(٣)

وقال بعض العلماء: وقوله:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

هو كناية عن عدم المؤاخذة. أو المراد بالذنب ما فرط منه – ﷺ – من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه ﷺ أو المراد بالغفران: الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها، فلا يصدر منه ذنب. لأن الغفر هو الستر، والستر إما بين العبد والذنب، وهو اللائق

(٣) تفسير فتح القدير (٥/٤٤) للشوكانى.

بمقام النبوة، أو بين الذنب وعقوبته، وهو اللائق بغيره.

واللام فى ﴿ لِيَغْفِرَ ﴾ للعلة الغائية. أى: أن مجموع المتعاطفات الأربعة غاية للفتح المبين، وسبب عنه لا كل واحد منها.

والمعنى: يسرنا لك هذا الفتح لإتمام النعمة عليك، وهدايتك إلى الصراط المستقيم ولنصرك نصرا عزيزا.

ولما امتن الله عليه بهذه النعم، صدرها بما هو أعظم، وهو المغفرة الشاملة ليجمع له بين عزى الدنيا والآخرة. فليست المغفرة مسببة عن الفتح[(٤)].

ولقد كان - ﷺ - مع هذه المغفرة من الله - تعالى - له، أعبد الناس لربه، وأشدهم خوفا منه، وأكثرهم صلة به.

قال ابن كثير: قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرحمن، حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: كان - النبى ﷺ - يصلى حتى تَرِمَ قدماه أى: تتورم - فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»..

وعن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كان رسول الله - ﷺ - إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه - أى: تتشقق - فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟.

فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبدا شكورا»[(٥)]

وقوله - تعالى -:

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ معطوف على ما قبله. أى: ويتم - سبحانه - نعمه عليك - أيها الرسول الكريم - بأن يظهر دعوتك، ويكتب لها النصر، والخلود، ويعطيك من الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء، فضلا عن غيرهم.

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

أى: ويهديك ويرشدك - سبحانه - بفضله وكرمه، إلى الطريق القويم، والدين الحق، والأقوال الطيبة، والأعمال الصالحة.

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ ﴾ - تعالى -

﴿ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ أى: نصرا قويا منيعا لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع، لأنه من خالقك الذى لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.. هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة، يرى أن الله - تعالى - قد أكرم نبيه - ﷺ - إكراما لا يدانيه إكرام، ومنحه من الخير والفضل ما لم يمنحه لأحد سواه.

---

(٤) تفسير صفوة البيان (٢/٣٣٣) لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف.

(٥) تفسير ابن كثير (٧/٣٠٩).

ثم بين – سبحانه – بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾

والسكينة: من السكون، والمراد بها الثبات والطمأنينة التى أودعها – سبحانه – فى قلوب المؤمنين، فترتب على ذلك أن أطاعوا الله ورسوله، بعد أن ظنوا أن فى شروط صلح الحديبية ظلما لهم. وأن بايعوا النبى – ﷺ – على الموت بعد أن بلغهم أن عثمان – رضى الله عنه – قد قتله المشركون، وفى التعبير عن ذلك بالإنزال، إشعار بعلو شأنها، حتى لكأنها كانت مودعة فى خزائن رحمة الله – تعالى – ثم أنزلها بفضله فى قلوبهم بعد ذلك..

أى: هو – سبحانه – بفضله ورحمته، الذى أنزل السكينة والطمأنينة والثبات فى قلوب المؤمنين، فانشرحت صدورهم لهذا الصلح بعد أن ضاقت فى أول الأمر.

وقوله:

﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ تعليل لهذا الإنزال للسكينة.

أى: أوجد السكينة وخلقها فى قلوبهم، ليزدادوا يقينا على يقينهم، وتصديقا إلى تصديقهم وثباتا على ثباتهم.

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾(*)

وقوله – سبحانه – :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾(٦)

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها، أن الإيمان يزيد وينقص.

قال الآلوسى ما ملخصه: قال البخارى: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدا منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل أما العقل فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين فى الفسوق والمعاصى، مساويا لإيمان الأنبياء، واللازم باطل، فكذا الملزوم.

وأما الثانى: فلكثرة النصوص فى هذا المعنى ومنها الآية التى معنا وأمثالها ومنها ما روى عن ابن عمر قال: قلنا: يا رسول الله، إن الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخله النار».

وقال الإمام النووى وغيره: إن الإيمان بمعنى التصديق القلبى، يزيد وينقص – أيضا – بكثرة النظر، ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم (٧).

ثم بين – سبحانه – شمول ملكه وقدرته فقال:

(*) الأنفال (٢).

(٦) سورة التوبة الآية (١٢٤).

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أى ولله – تعالى – وحده جنود السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس، إذ الكل تحت قهره وسلطانه، فهو – سبحانه – الذى يدبر أمرهم كيف شاء ويدفع بعضهم ببعض كما تقتضى حكمته وإرادته وهو – تعالى – العليم بكل شىء. الحكيم فى جميع أفعاله..

واللام فى قوله – سبحانه – :

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

متعلقة بمحذوف أو بقوله: ﴿ فَتَحْنَا ﴾..

أى: فعل – سبحانه – ما فعل من جعل جنود السموات والأرض تحت سيطرته وملكه، ومن دفع الناس بعضهم ببعض، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ خلودا أبديا ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ ﴾ التى فعلوها فى دنياهم، بأن يغفرها لهم، ويزيلها عنهم، بل ويحولها لمن شاء منهم بفضله وكرمه إلى حسنات.

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال للمؤمنين الجنة، وتكفير سيئاتهم.. «عند الله» – تعالى – ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ لا يقادر قدره، لأنه نهاية آمال المؤمنين، وأقصى ما يتمناه العقلاء المخلصون.

﴿ وَيُعَذِّبَ ﴾ – سبحانه – بعدله

﴿ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾

أى: الظانين بالله – تعالى – وبرسوله وبالمؤمنين الظن السيىء بأن توهموا أن الدائرة ستدور على المؤمنين وأنهم هم الذين سينتصرون. أو أنهم هم على الحق. وأن الرسول ﷺ وأتباعه على الباطل.

فقوله: ﴿ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾ صفة لموصوف محذوف. أى: الظانين بالله ظن الأمر السوء.

وقوله – تعالى – :

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾ دعاء عليهم بأن ينزل بهم ما توقعوه للمؤمنين من سوء. أى: عليهم وحدهم ينزل ما يتمنونه للمؤمنين من شر وسوء.

والدائرة فى الأصل: تطلق على الخط المحيط بالشىء. ثم استعملت فى النازلة المحيطة بمن نزلت به وتستعمل أكثر ما تستعمل فى المصائب والمكاره.

قال صاحب الكشاف: قوله:

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾ أى: ما يظنونه

(٧) راجع التفسير الآلوسى (٢٦/٢٩).

ويتوقعونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم.

والسوء: الهلاك والدمار.

فإن قلت: هل من فرق بين السَّوء والسُّوء؟ قلت: هما كالكَره والكُره، والضَّعف والضُّعف: من ساء إلا أن المفتوح غالب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شىء، وأما السوء بالضم، فجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير(٨).

ثم قال - تعالى - :

﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

أى : ليس عليهم دائرة السوء فقط بل وفضلا عن ذلك فقد غضب الله - تعالى - عليهم، وطردهم من رحمته، وأعد لهم فى الآخرة نار جهنم، وساءت هذه النار مصيرا لهم.

ثم أكد - سبحانه - ملكيته لكل شىء فقال:

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

أى : ولله - تعالى - وحده جنود السموات والأرض، وكان - سبحانه - ومازال غالبا على كل شىء، حكيما فى كل أوامره ونواهيه. وفى كل تصرفاته وأفعاله.

ولما كان المقصود من ذكر الجنود هنا: تهديد المنافقين والمشركين، وأنهم فى قبضته - تعالى - ناسب أن تذيل الآية هنا بقوله:

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ لأن العزة تقتضى الغلبة للغير.

ولما كان المقصود من ذكر الجنود فى الآية الرابعة، بيان أن المدبر لهذا الكون هو الله - تعالى - ناسب أن تذيل الآية هناك بقوله - سبحانه - :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

ثم حدد الله - تعالى - الوظيفة التى كلف بها رسوله - ﷺ - وبشر المؤمنين الذين وفوا بعهودهم بالأجر العظيم فقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

وقوله:

﴿ مُبَشِّرًا ﴾ من التبشير، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر. وقوله:

﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من الإنذار وهو الإخبار بالأمر المخيف، لكى يجتنب ويحذر.

أى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ - أيها الرسول الكريم - إلى الناس، لتكون ﴿ شَٰهِدًا ﴾ لمن آمن منهم

---

(٨) تفسير الكشاف (٤/٣٣٤).

بالإيمان، ولمن كفر منهم بالكفر بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .

ولتكون ﴿ مُبَشِّرًا ﴾ للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم .

والحكمة فى جعله ﷺ شاهدا مع أن الله – تعالى – لا يخفى عليه شىء : إظهار العدل الإلهى للناس فى صورة جلية واضحة واضحة، وتكريم النبى ﷺ بهذه الشهادة .

وجمع – سبحانه – بين كونه ﷺ ﴿ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ لأن من الناس من ينفعه الترغيب فى الثواب ومنهم من لا يزجره الا التخويف من العقاب . وانتصاب ﴿ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ على الحال المقدرة .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله – تعالى – :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٩) .

وقوله – سبحانه – :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾(١٠) .

وقوله – عز وجل – :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾(١١) .

ثم بين – سبحانه – الحكمة من إرساله ﷺ فقال :

﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

وقوله : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ من التعزيز بمعنى النصرة مع التعظيم والتفخيم .

وقوله : ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أى : تعظموه وتقدروه .

وقوله : ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ من التسبيح بمعنى التنزيه . تقول : سبحت الله – تعالى – أى : « نزهته عما لا يليق به . و« بكرة » أول النهار، و ﴿ أَصِيلًا ﴾ آخره والمراد ظاهرهما، أو جميع أوقات النهار، كما يقال : شرقا وغربا لجميع الجهات .

والخطاب للرسول ﷺ ولأمته – كقوله – تعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾(١٢) والقراءة بتاء الخطاب، هى قراءة الجمهور من القراء .

قال الآلوسى : وهو من باب التغليب، غلب فيه المخاطب على الغائب فيفيد أن النبى ﷺ مخاطب بالإيمان برسالته كأمته . .(١٣)

أى : أرسلناك – أيها الرسول الكريم – شاهدا

---

(٩) سورة البقرة الآية (١٤٣). (١٠) سورة النحل الآية (٨٩). (١١) سورة الأحزاب الآية (٤٥).

(١٢) الطلاق : ١. (١٣) تفسير الآلوسى (٩٥/٢٦).

ومبشرا ونذيرا، لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به، وليتبعك فى ذلك أصحابك ومن سيأتى بعدهم، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا، ولينصروك ويعظموك، وليسبحوا الله – تعالى – فى الصباح والمساء. وعلى هذا يكون الضمير فى قوله – تعالى – :

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ يعود إلى الرسول ﷺ وفى قوله ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ يعود إلى الله – تعالى – .

قال القرطبى ما ملخصه: قرأ ابن كثير وأبوعمرو ﴿ ليؤمنوا ﴾ وكذلك

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ كله بالياء على الخبر..

وقرأ الباقون بالتاء فى الخطاب.. والهاء فى قوله:

﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ للنبى ﷺ وهنا وقف تام. ثم تبتدىء بقوله: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أى: تسبحوا الله بكرة وأصيلا.

وقيل: الضمائر كلها لله – تعالى – فعلى هذا يكون تأويل: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ أى: تثبتوا له صحة الربوبية، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك.(١٤)

ثم مدح – سبحانه – الذين عاهدوا الرسول ﷺ ووفوا بعهودهم أكمل وفاء، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ وقوله – سبحانه – : ﴿ يُبَايِعُونَ ﴾ من المبايعة أو من البيعة، بمعنى المعاهدة أو العهد، وسميت المعاهدة مبايعة، لاشتمال كل واحدة منهما على معنى المبادلة، وعلى وجوب الصدق والوفاء.

والمراد بهذه المبايعة، ما كان من المؤمنين فى صلح الحديبية، عندما عاهدوا الرسول ﷺ على الثبات وعلى مناجزة المشركين بعد أن أشيع أنهم قتلوا عثمان – رضى الله عنه – أى: إن الذين يبايعونك على الموت أو على عدم الفرار عند لقاء المشركين، إنما يبايعون ويعاهدون الله – تعالى – على ذلك قبل أن يبايعوك أنت، لأن المقصود من هذه البيعة إنما هو طاعته – سبحانه – وامتثال أمره، كما قال – تعالى – :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(١٥). فالمقصود بقوله:

﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾

تأكيد وجوب الوفاء بما عاهدوا الرسول ﷺ عليه من الثبات وعدم الفرار، والطاعة له فى كل ما يأمرهم به.

وقوله – سبحانه – :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ زيادة فى تأكيد وجوب الوفاء.

ومذهب السلف فى هذه الآية من آيات الصفات: أنه يجب الإيمان بها، وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله – تعالى – وترك تأويلها مع تنزيهه – تعالى – عن حقيقتها لاستحالة مشابهته – تعالى – بالحوادث، كما قال – سبحانه – :

---

(١٤) تفسير القرطبى (١٦/٢٦٦).

(١٥) النساء / ٨٠.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[١٦].

أما الخلف فمذهبهم تأويل هذه الصفات على معنى يليق بجلاله، فيؤولون اليد هنا بالقوة أو القدرة. أى: قوة الله - تعالى - وقدرته ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم، كما يقال: اليد فى هذه المسألة لفلان، أى: الغلبة والنصرة له.

أو المعنى: يد الله - تعالى - بالوفاء بما وعدهم من الخير والنصرة فوق أيديهم.. والمقصود بهذه الجملة - كما أشرنا - زيادة التأكيد على وجوب الوفاء والثبات.

قال صاحب الكشاف: لما قال - سبحانه - : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أكده تأكيدا على سبيل التمثيل، فقال: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ يريد أن يد رسول الله ﷺ التى تعلو أيدى المبايعين: هى يد الله، والله - تعالى - منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام..

وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق من الرسول ﷺ كعقده مع الله - تعالى -[١٧].

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الناكثين فقال: ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ أى: فمن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه، فإنما عاقبة نقضه يعود وبالها وشؤمها عليه.

فقوله: ﴿ نَّكَثَ ﴾ مأخوذ من النكث - بكسر النون - وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها، وقوله:

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

أى: ومن ثبت على الوفاء بما عاهد الله - تعالى - عليه فسيعطيه - سبحانه - من فضله أجرا عظيما على ذلك.

والهاء فى قوله: ﴿ عَلَيْهُ ﴾ قرأها حفص بالضم، توصلا إلى تفخيم لفظ الجلالة، الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وقرأها الجمهور بالكسر.

هذا، وقد وردت أحاديث متعددة، تصرح بأن الذين كانوا مع - النبى ﷺ - فى صلح الحديبية قد بايعوا جميعا النبى - ﷺ - على الموت أو على عدم الفرار، سوى جماعة من المنافقين، امتنعوا عن هذه البيعة، لمرض قلوبهم، وسوء طويتهم..

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن سلمة بن الأكوع قال: بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة، قيل: على أى شىء ؟ قال: على الموت.

وروى مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبدالله أنه سئل: كم كان عددكم يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة، فبايعنا الرسول - ﷺ - على أن لا نفر - سوى الجد بن قيس فإنه اختفى تحت بطن بعيره، ولم يسرع مع القوم..

وهكذا فاز المؤمنون الصادقون بشرف هذه البيعة وحرم منها المنافقون لمرض قلوبهم.

---

(١٦) الشورى/ ١١.

(١٧) تفسير الكشاف (٤/٣٣٥).

ذكريات وتأملات في يوم مولده ﷺ

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
لما أهل هلال ربيع قلتُ لنفسى: هل أقدم اعتذارا للقارىء على قطع سلسلة المقالات التى أكتبها تحت عنوان « الدعوة كما ينبغى أن نبلغها » والمناسبة جديرة أن أكتب عن رسول الله ﷺ وميلاده، ثم راجعت نفسى وقلت، لماذا أقدم اعتذارا وأنا أكتب عن سيد الدعاة ﷺ وهى ليست قطعا لسلسلة مقالات الدعوة، إنما فيها كمال اتصال به ﷺ.

فالحديث عنه ﷺ لا ينبغى أن يكون محل اعتذار، إنما هو أهم حلقة فى هذه السلسلة ولذلك أكتب عنه ﷺ من هذا المنطلق فأنا أحب أن أقدم للقارىء فى ذكرى ميلاده ﷺ تحت هذا العنوان: « ذكريات وتأملات فى يوم مولده ﷺ ».

وأول هذه الذكريات التى تداعت إلى خاطرى: ذكريات حب لرسول الله ﷺ تجلت فى مواقف رائعة وخالدة من السيرة النبوية نحن فى حاجة إلى أن نعيدها ونعيشها حية نابضة غضة كما كانت وليس حبه ﷺ ترفا يمارسه الهواة، وليس غناء يمارسه المداحون وليس دروشة يعالجها مجاذيب إنما هو ركن من أركان الإيمان، لا يتم إيمان المؤمن إلا به، وقبل أن أوضح لك هذه المسألة أود أن نعيش معا فى رحاب الذكريات العطرة.

روت كتب السنة أن النبى ﷺ كان يحتجم – والحجامة هى استخراج بعض الدم من الرأس علاجا فى بعض المناطق الحارة – فأخذ شاب قرشى الدم الشريف الخارج من رسول الله ﷺ وذهب به خلف جدار، ثم عاد إلى النبى ﷺ ودار الحوار الآتى بين الشاب والنبى ﷺ :

قال النبى ﷺ : أين الدم؟

قال الشاب : غيبته يا رسول الله :

فقال النبى ﷺ : أين؟

فقال : من وراء الحائط (وهى إجابة فيها فطنة وذكاء وترقب ووجل مخافة أن يكون ما فعله لا يُرضى رسول الله ﷺ كما أنه يرفض أن يكذب، فألقى بهذه الإجابة الذكية التى لا توقعه فى الكذب ولا تقطع عليه خط الرجعة) لكن النبى ﷺ قال طالبا التحديد فى الإجابة : أين غيبته ؟

فلم يجد الشاب مناصا من أن يقول : هو فى بطنى يا رسول الله. قال النبى ﷺ :« لقد أحرزت نفسك من النار »[(١)] وموقف ثان أحبك أن تعيه جيدا، فليس للتسلية أكتب لك، إنما أردت أن تعيش هذه المواقف، وأن ترتشف من رحيقها، وتعبَّ من سلسبيلها حتى ترتوى بها عظامك ولحمك ودمك، وجلدك وينبت بها شعرك، وتعيش بها مُتَّبِعًا هديه ﷺ فى كل أحوالك، ليس افتعالا أو ادعاء فى مواجهة الناس، حتى تحمد بينهم، إنما فى خلوتك مع نفسك وفى ليلك الطويل بعيدا عن الناس، واذكر كلمة لأحد الصوفية رضوان الله عليهم قال يستعيذ بالله من عمل فى ظاهره يرضى الله لكنه يبغى به الناس قال :

« اللهم إنى أعوذبك أن أقول قولاً فيه رضاك ابتغى به أحدا سواك، وأعوذ بك أن أعمل عملا يزيننى عند الناس ويشيننى عندك ».

أما الموقف الثانى الذى أحبك أن تعيه فهو كما يروى ابن هشام :

أن النبى ﷺ كان يصف الجيش فى غزوة بدر فخرج عن الصف قليلا سيدنا سواد بن الغزية رضى الله عنه فأرجعه رسول الله ﷺ بقدح فى يده وقال : « إسْتَوِيَا سواد » فقال : أوجعتني يا رسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني. فكشف رسول الله صلي الله عليه وسلم عن بطنه وقال : « استقد » فاعتنقه فقبل بطنه.

فقال النبى ﷺ : ما حملك على هذا (أى أن الموقف لا يحتمل هذا ولا يستدعيه) فأجاب الصحابى الجليل إجابة تشى بما يضم جنبيه عليه من حب لرسول الله ﷺ فى موقف هو صعب قال : ما ترى يا رسول الله فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له رسول الله ﷺ[(٢)] إن خيوط الحب هى التى أبدعت هذا الموقف ونسجته.

---

(١) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية للنبهانى ٢١٨، ٢١٩.

(٢) سيرة ابن هشام (٣/٣٨).

إذاً عندما ندعى أو نزعم فنقول إننا نحب رسول الله ﷺ فلسنا متزيدين فى هذا ولسنا مُفْرِطين إنما هو واجب علينا ولا يكتمل إيماننا إلا بحبه ﷺ فوق ما نحب أنفسنا ولنا فى ابن الدثنة أسوة حسنة فنحن أحفاده وينبغى أن نكون كذلك، فله موقف رائع جميل فريد يعرفه المسلمون جميعا لكنهم لا يفهمونه ولا يعوونه. لما أُحضر للقتل وحوله زعماء قريش فأراد أبوسفيان -ولم يكن قد أسلم بعد - أن يستخرج من الرجل شيئا ينم عن إيثار ابن الدثنة نَفْسَه عن رسول الله ﷺ فقال له مخاطبا : هل وددت لو أنك آمن فى بيتك الآن ورسول الله ﷺ مكانك الآن يقتل؟ اختبار صعب لكنه ليس صعبا على رجل يفدى رسول الله ﷺ بنفسه وهكذا كل المسلمين وكل المؤمنين، فقال ابن الدثنة كلمة تقف الإنسانية حيالها معظمة مكبرة عارفة قدرها : والله ما أود لو أنى فى مكانى هذا أقتل ورسول الله ﷺ فى بيته تصيبه شوكة فقال أبوسفيان وقد انهزم كبرياء الشرك فى نفسه هو ومن معه : والله ما رأيت أحدا يحب أحدا مثل حب أصحاب محمد محمدا ﷺ .

قلت لك : « إن حبه ﷺ ليس ترفا يمارسه هواة وليس غناء يمارسه مداحون وليس دروشة يعالجها مجاذيب إنما هو ركن من أركان الإيمان لا يتم إيمان المسلم إلا به، ودليلى فى هذا قول النبى ﷺ فى حديث رواه الإمام البخارى : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » قال عمر بن الخطاب كما عهدناه صريحا واضحا لا يمارى ولا يخفى شيئا ولا يجامل قال لرسول الله صلي الله عليه وسلم : يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسى فقال له النبى ﷺ : « لا والذى نفسى بيده حتي أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك ثم سار ساعه » فقال عمر : والله يارسول الله لأنت أحب إلى من نفسى التى بين جنبى. فقال له النبى ﷺ(٤) : « الآن يا عمر! »(٣) يقول شراح الحديث : معنى الآن يعنى : الآن اكتمل إيمانك أى أنه قبل هذا لم يكن إيمان سيدنا عمر كاملا لأن النبى ﷺ لم يكن أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه. إذاً نحن مطالبون بأن نحب رسول الله ﷺ فوق ما نحب أنفسنا ولذلك فى القرآن الكريم يقول الله - تعالى - :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾(٤) : على أنه إن كان البعض يرى أن إظهار الوجد فى حبه ﷺ غير مقبول ولا مستساغ، فإننا نرى أن ادعاء الوجد والتكلف فى إظهاره هو الذى لا نقبله، أما إن بدى الوجد وظهرت لواعج الشوق على البشرة، ونم عنها الكلام، فإننا نرتضيه ونقبله.

(٣) البخارى ١٦١/١ .

(٤) الأحزاب (٦).

ولنا فى ثوبان رضى الله عنه أسوة حسنة، ذلك الصحابى الذى كان يشتاق إلى رسول الله ﷺ فيتغير لونه وتشحب بشرته، ويذبل عوده حتى يروى نفسه وقلبه ويعطر وجدانه برؤيته ﷺ وذهب يشتكى إلى رسول الله ﷺ ما به من وجد وما يعانيه من بُرَحَاءِ الشوق، وتَذَكُّرْ الآخرة، ومقام النبوة السامى، ومنزلته ﷺ الرفيعة ومكانه فى الجنة وكأنى به يقول: وأين مكانك أنت يا ثوبان من الحبيب ﷺ فازداد شحوبا وبدا عليه ما يعانيه من وجد، فذهب يحمل همه وبين يديه معاناته، يلقيها بين يديه ﷺ .

فقال له الحبيب المصطفى ﷺ : « المرء مع من أحب »(٥).

يقول راوى الحديث: قال الصحابة: ما فرحنا بعد الإسلام أكثر من فرحنا بهذا الحديث.

ونزل قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾(٦).

قد يقول البعض: إن احتفالنا بمولد رسول الله ﷺ بدعة لم ترد، وأنا لا أوافقهم على هذا وبرغم جفوة هذا القول، فأنا أناقشهم فيما يزعمون فأقول: صام النبى ﷺ يوم الإثنين وسن صيامه للمسلمين وفى هذا كفاية، لكنه لما سئل عن سبب صيام هذا اليوم قال: « ذلك يوم ولدت فيه(٧) ».

أليس فى ذلك خصوصية منه ﷺ لهذا اليوم؟ ثم لماذا خصه بهذه العلة أو هذا الحدث وهو الميلاد؟ مع أن أحداثا أخرى عظيمة وجليلة حدثت معه ﷺ فى نفس يوم الإثنين، ربما تكون أخطر فى نظرك ونظر الدعوة، ألم يبعث النبى ﷺ يوم الإثنين ؟! ألم يهاجر من مكة إلى المدينة يوم الإثنين؟! ألم يصل إلى المدينة يوم الإثنين؟! يوم أن استقرت الدعوة وأمن المسلمون وبدأ الإسلام عصرا جديدا، لماذا لم يعلل به النبى ﷺ صوم ذلك اليوم؟ أليس فى تعليله بالميلاد معنى يفتح للمسلمين العاشقين له ﷺ مندوحة لا يلامون عليها ولا يكتمون حبهم، بل ويظهرون بعض ما عندهم من الحب والتقدير لرسول الله ﷺ .

ولعلك تذكر ذلك الصحابى الذى جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الساعة، قال له النبى ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ : « أنت مع من أحببت »(٨). وأعتقد أنك لا تفهم أن الرجل مُفَرِّطٌ فى الصلاة أو الصيام كما أننى أحبك ألا تفهم أن هذا الحب يغنى عن الاتباع

---

(٥) رواه أحمد والبيهقى عن أنس.
(٦) النساء (٦٩).
(٧) رواه أحمد ومسلم عن أبى قتادة.
(٨) رواه مسلم ٢٨٨/١.

والاقتداء بسنته ﷺ فإن الحب الذى لا ينتج تمسكا بالسنة والعمل بكتاب الله حب عاجز كسيح، وأنا أبغى لك حبا يدفعك إلى العمل بالسنة فى منشطك ومكرهك، فى فراغك وشغلك فى نهارك وليلك.

هل أرقت يوما فلم تضق بالأرق؟

وهرعت إلى ميضأتك ومصلاك تنشد فيهما قوله ﷺ : «ركعات فى جوف الليل والناس نيام خير من الدنيا وما فيها»(٩).

هل سمعت النداء – الأذان – وقلت كما يقول المؤذن، ثم صليت على رسول الله ﷺ ثم سألت الله الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة لرسول الله؟ هل واظبت على ذلك موقنا بأن هذا العمل الذى تراه بسيطا لك فيه براءة من النار؟ ووجبت لك الجنة.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ فإنه من صلى علىَّ، صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لىَّ الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لىَّ الوسيلة حلت له الجنة»(١١).

هذ هو الحب الذى يجعلك مع من أحببت.

على أننى أرى فى مظاهر التقدير الإلهى لرسول الله ﷺ احتفاء بمولده وفى اعتقادى إن الله سبحانه وتعالى هزم جيش أبرهة بفعلٍ خارقٍ، إكراما للنبى ﷺ إذ الثابت تاريخيا أن النبى ﷺ ولد عام الفيل.

فإننى أرى أن هذا النصر المؤزر المعجز على أبرهة وجيشه كان إكراما لميلاد النبى ﷺ بمعنى أننا لو تخيلنا أن أبرهة قد استطاع أن يغزو مكة وأن يفتحها بجيشه ماذا كان يفعل أى جيش غاز؟ يقتل الرجال ويستحى النساء ويسبى الأطفال وهكذا والنبى ﷺ كانت أمه حاملا فيه فكان من الممكن أن تقع آمنة بنت وهب أسيرة فى جيش أبرهة لكن الله سبحانه وتعالى أكرم نبيه ﷺ وأكرم مكة كلها. بأن دَحَرَ وهَزَمَ أبرهة وجيشه بهذه المعجزة الخارقة أو بهذا العمل الخارق الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم فى سورة عرفت بسورة الفيل وهى قوله سبحانه وتعالى

«بسم الله الرحم الرحيم»

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾(١١)

فأهل مكة كانوا وثنيين يعبدون الأصنام وهم أسوأ حالا من أبرهة وجيشه، فهؤلاء أهل كتاب، فتأمل معى لماذا ينصر الله الوثنيين

(٩) رواه البيهقي عن أنس، وأحمد وابن حبان عن أبى ذر الغفارى.
(١٠) رواه مسلم والنسائى والبيهقى.
(١١) سورة الفيل.

على أهل الكتـاب؟! لم يكن ذلك فى رأيى وتصورى إلا إكراما له ﷺ حتى لا تقع آمنة بنت وهب أسيرة عند جيش أبرهة. ثم تعال معى إلى حديث آخر، ترويه كتب السنة لما سئل رسول الله ﷺ: متى وجبت لك النبوة يا رسول الله؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد وفى رواية وآدم مجندل فى طينته(١٢).

وقبل أن أسألك عن المعنى الذى تفهمه من هذا الحديث أحب أن أوضح لك معنى كلمة «وجبت»، وأظنك توافقنى على أنها لا يمكن أن تكون بمعنى فُرضت، لأن نبوته ﷺ لم تفرض إلا بعد بعثته، كما أنك توافقنى على أنها لا يمكن أن تكون بمعنى ثبتت فى علم الله، لأن علم الله قديم، ونبوة سيد الخلق وخاتم النبيين ثابتة فى علم الله قبل أن يخلق الخلق، قديمة بقدم علمه تعالى

إذاً فما معنى «وجبت»؟ أرى أنها بمعنى عُرِفَتْ وأذيعت فى الملأ الأعلى. أى أن نبوته ﷺ عرفت وأذيعت فى الملأ الأعلى يوم أن كان سيدنا آدم مجندل فى طينته بين الروح والجسد؟

ولنا أن نتساءل معا أنت وأنا: لماذا لم تذع نبوة ذلك المخلوق الذى يوشك أن تدب فيه الروح وهو: أبوالبشر؟

ذلك الذى جرى بشأنه حوار بين الله وملائكته:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١٣)

ولماذا لم تذع نبوة نبى آخر؟ ولماذا محمد ﷺ وهو آخر الأنبياء؟

أليس فى ذلك تقدير واحتفاء وإعلاء لمقامه المنيف؟

فهل أُلام لو أنى طربت يوم مولده، وأحسست بالكون كله يطرب معى حتى أطفالى؟ وكيف يطربون؟ بل كيف يفهم الأطفال معنى النبوة العظيم؟ وكيف أدعوهم إلى محبته وأحرضهم عليها؟ وهل أُلام لو أنى قدمت لهم حلوى، حتى يدرك أطفالى هذا المعنى أو بعضه؟

إن كتابا صدر أغنانى عنوانه عن قراءته، صدقنى لقد فرحت بالعنوان، وأحسست به دعوة كريمة، ضممت عليها جوانحي، حتى لا تهرب منى بين الكلمات، هذا الكتاب بعنوان كريم نبيل حبيب: «علموا أولادكم حب النبى ﷺ» لمؤلفه الوزير السابق محمد عبده يمانى جزاه الله خيرا.

قبلت الدعوة وأرجو أن يقبلها جميع المسلمين، وأن يوجهوا ويقوموا بعض التجاوزات التى تحدث إن وجدت دون غضاضة أو نشاز.

والله يهدينا إلى ما فيه الخير والصواب.

---

(١٢) رواه أحمد.

(١٣) البقرة (٣٠ : ٣٤).

أنشودةٌ فى محرابِ نورِ البشرِيَّة

شعر / محمد فهمى سند

من زمان التَّخلُّق الأرضىِّ وبدايات كوننا البشرىِّ
من ظلام القرون، والظُّلم جاثٍ يتمطَّى على الطريق السَّوى
وسماء الوجود تحملُ وعداً بضياءٍ لطينها الآدمىّ
بشَّر الله خلقه فاستفاقوا من جنون وكلِّ فعْلٍ غبىٍّ
وتنادتْ براعم النُّور: يأأرْ ضُ أفيقى من رجسك الوثنى
واسْتعدِّى لمقدم الخير، كُونى خير أرض لمرسَلٍ قُرشىّ
طهّرى قلبك العصىّ من البَغْى على كلّ طاهر وأَبِىٍّ
فالحبيب الذى أضاء البرايا سوف يأتى لهدْى كل شقىّ
الحبيب الذى أنار قلُوباً أشعَلتْ حلمها بقلب العِصىّ

***

وصحا الكونُ من سباتٍ عميق يتناجى بوحيه القدسىٍّ
واستردَّ الرجالُ عقل المروءات ففاءوا إلى السميع العلىّ
واستعاد الرجال صوت البطولات فدوَّتْ فى كل درب قصىّ

يبـــذرون الخـــيـــر الذى قـــد أضـــاءتْ ... من حـــواشـــيـــه مـــهـــجـــة العـــربىّ

رفـــرفَتْ راية الهـــدى فـــاســـتظلّتْ ... بشـــــذاها غـــــرائز البـــــدوىّ

واســـتـــجـــابت قلوبُ أقْـــسى رجـــال ... لندى الفـــجـــر والشـــعـــاع السنىّ

***

ياحـــبـــيـــبى وأنت أغلى حـــبـــيب ... للبـــــرايا، لكل قلب نقىّ

أنت سُّـــر الوجـــود، أنت انطلاق ... النور من فـــيـــض نوره الأزلىّ

أنت من عَـطَّـر الإلـه بـه الكون ... فـــغنَّى بعطره كلُّ حىّ

ياطبـــيـــبى والدَّاء يفـــرش ظلاً ... لدمـــاء الخـــلاف فى كل شىّ

يانصـــيـــر العـــبـــيـــد من كل عَـــبْـــدٍ ... يتـــعـــالى بوهمـــه الإنسىّ

أنت مَنْ حـــرَّر الأرقَّـــاء من ظلم ... عـــقـــول قـــد تدثَّرتْ بغَـــوِىّ

أنت فـــيـــض الكريم، أنت نبىٌّ ... ورســـــول لكل خَلْق وحىّ

أنت فـــيـــض الرَّحـــيم يارحـــمـــة الله ... لدنـــيـــا الروحىّ والأرضىّ

أنت من صـــانه الإله دعـــاءً ... يتـــهـــادى بنوره النبـــوىّ

حـــامـــلاً خـــاتم الرســـالات يهـــدى ... كل برٍّ وفـــاجـــر وبغىّ

***

دارت الأرض واسْـــتـــجـــابتْ جـــمـــوعٌ ... لصـــدى دعـــوة الرســـول الْوفىّ

وتنـــادتْ قـــلوبُ هـــذى البـــرايا ... فـــاســـتـــردَّ الزمـــان وجـــه التَّـــقىّ

أصـــبح الإســـلامُ انْبـــثـــاق ضـــيـــاء يغـــسل الأرض بـالـيـــقـــين الشَّـــهىّ

عَـــزَّ دين الســـلام حـــين اتَّبـــعناك ، وسُـــــدْنا عـلى الـوجـــود العـــصىّ

وبَنَيْنَا حـــضـــارةً أيقظَتْ أفـــئـــدةً مـن ظـلامـــــــهـــــــا الأزلـىّ

ونعـــمـنا بـكل خــــيـــرٍ وحق وشــــربنا من كل شــــهـــد روىّ

***

وصـــحـــا الناس بينمـــا نحن غـــرقى فـى كـــــوابـيـس لـيـلـنـا الـلُّـجـىّ

نـتـنـادى واللـفظ صـــار غـــريـبًـــا والوجـــوه اكـــتـــست قناع الغـــبىّ

آل صـــهـــيـــون عـــربدوا فى فلسطين وبـاتـوامـن عـــصـــبـــة الســـامـــرىّ

ينهـــبـــون التـــاريخ والأرض والأطفـــال من بـين مـــهـــجـــة العـــربى

يســـرقـــون الشـــمس التى قـــد توارتْ خلف جـــدران المســـجـــد القـــدسىّ

زمن البـــعث يارجـــال ، أفـــيـــقـــوا واســـتـــعـــيـــدوا يقـــين صـــحب النبىّ

إنكم عـــصـــبـــة الرســـول فكونوا شـــعـلة النور فى الظلام العـــتىّ

اخـــرجـــوا من ثيـــاب تلك المراثى فـــدمـــاء الأطفـــال تهـــفـــو لرىّ

طهـــروا كل خـــفـــقـــة من تراب دنّســـتـــهـــا جـــحـــافل البـــربرى

حـــقـــقـــوا وعـــد ربكم واســـتـــردوا دُرَّة القـــدس من عـــيـــون البـــغِىّ

ارفـــعـــوا راية الهـــدى لتكونوا خـــيـــر جند الله العـــزيز القـــوى

***

وثيقة دستور دولة النبى فى المدينة

فى موسم حج السنة التى سبقت هجرة الرسول - ﷺ - من مكة إلى المدينة، كانت «بيعة العقبة»، التى عقدت بين الرسول وممثلى سكان المدينة، من الأوس والخزرج.. كانت هذه البيعة هى عقد التأسيس للدولة العربية الإسلامية الأولى، تلك الدولة التى بدأت تمارس سلطانها، عقب الهجرة، فى المدينة المنورة، ثم اتسعت حدودها بغزوات الرسول - ﷺ - وفتوحات الإسلام..

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

ومنذ اللحظات الأولى، فى حياة هذه الدولة، كان لها «دستور» ينظم علاقات الرعية، ويحدد الحقوق والواجبات..

والمصادر التاريخية القديمة، بدءا من سيرة النبى، التى وضعها ابن هشام (٢١٣ هـ/٨٢٨م) تسمى هذا الدستور «الصحيفة» و«الكتاب».. وتسميتها هذه مأخوذة من صلب هذا الدستور..فهو - كما جاء فى إحدى مواده -: «كتاب من محمد النبى، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين.. ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم» وبين غيرهم من أهل يثرب - (المدينة) - الذين دخلوا فى رعية الدولة الجديدة دون أن يدخلوا فى الإسلام الدين وفى جماعة المؤمنين والمسلمين.. والرعية المحكومين بهذا الدستور يوصفون - فى إحدى مواده - بأنهم: «أهل هذه الصحيفة».

وإذا كان مصطلح «الدستور» هو من المصطلحات المعربة، التى دخلت العربية من اللغات الأخرى، وإذا كان هذا المصطلح يعنى - حديثا -: «مجموعة القواعد الأساسية التى تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها، ومدى سلطاتها إزاء الأفراد..» -(المعجم الوسيط)- فإن هذه

الصحيفة -« الكتاب »- هى « دستور » الدولة العربية الإسلامية الأولى، بكل ما يعنيه -حديثا- مصطلح « الدستور » من مضامين.

● وإذا كانت مصادر التاريخ لا تذكر لنا كيف « وضع.. وصيغ » هذا الدستور.. فإننا، بحكم القاعدة الإسلامية الشرعية، نميل إلى أن وضعه وصياغته هى ثمرة لمشاورة الرسول - ﷺ - لوجوه الرعية، الذين يسمون فيه « أهل هذه الصحيفة ».. فهو نص ينظم شئون الدولة، ويقنن العلاقات الدنيوية بين رعيتها بالدرجة الأولى، ومن ثم فإن موضوعه هو مما تجب فيه الشورى الإسلامية، وفق منطوق ومفهوم القرآن الكريم.

● ولقد صيغ هذا الدستور، لينظم القواعد الأساسية لدولة المدينة ورعيتها، بعد أن نزل الوحى بقسم كبير من القرآن الكريم.. فكان ذلك دليلا على أن « القرآن »، بالنسبة لدستور الدولة، هو الإطار، فيه « المبادىء » وبه « الروح » والمقاصد والضوابط والغايات، وليس هو نص الدستور وذات مواده وعين قوانينه.. فوجود القرآن الكريم لا يغنى، فى نظام الدولة وتنظيمها، عن الدستور الذى يضبط القواعد وينظم الحقوق ويحكم العلاقات ويصوغ جميع ذلك صياغة دستورية محكمة الدلالة بينة الحدود!..

● وإذا كانت الدولة التى صيغ هذا الدستور مع تأسيسها قد قامت فى السنة الأولى منذ سنى الهجرة -(سنة ٦٢٢)-.. فإن حقيقة وجود دستور مكتوب لهذه الدولة، عرفته حضارتنا العربية الإسلامية، هى سنة من سنن الإسلام السياسى، لا تدعو إلى الفخار فحسب، وإنما تدعو - قبل ذلك وفوقه - إلى العض عليها بالنواجز، كى لا تغيب هذه السنة الحسنة والضرورية من قسمات « الدولة » ومقوماتها فى دنيا الإسلام السياسى وواقع السياسة عند المسلمين.. فغيابها، شكلا أو فعلا، عار لا يليق بخلف عرف أسلافهم هذه السنة قبل أربعة عشر قرنا من الزمان؟!..

***

وفى هذا الدستور، الذى قامت على أساسه دولة متحضرة، فى « الحاضرة » (المدينة)، التى تحيط بها بيئة تغلب عليها « البداوة »... والذى كان ثمرة إسلامية للشريعة التى أخرجت العرب من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام... فى هذا الدستور يستطيع المتأمل أن يرصد الكثير من المبادىء والقواعد، التى مثلت معالم على درب تطور وتقدم وتحرر وتحضر إنسان ذلك العصر... بل والتى لاتزال تحمل الخير لإنسان العصر الذى نعيش فيه!..

● ففيه تقنين لخروج الإنسان من إطار « القبيلة والقبلية » إلى رحاب « الدولة والأمة ».. فبعد أن كانت القبيلة هى « الأمة والدولة » غدت مجرد لبنة فى كيان الدولة الجديدة والأمة الوليدة، والرعية السياسية التى أقامت بناءها الاجتماعى على أساس هذا الدستور.

وقبل هذا الدستور ودولته، كانت شخصية الفرد ذائبة فى كيان القبيلة شرفه لها.. ووزره عليها.. وتبعاته مطلوبة منها.. وعليها عقوبات الجرائم التى يقترفها... فجاء هذا الدستور ليقنن لطور جديد فى تطور الإنسان العربى.. « ففروض الكفاية » -الاجتماعية- جعلها الإسلام على

« الأمة » .. و« فروض العين » –الفردية– أوجبها على الفرد .. وبدلا من « القبيلة » – التى سعى الإسلام إلى تذويبها فى الأمة – برزت ذاتية الفرد ومسئوليته، ووقفت الآثار، فى أحيان كثيرة، عند « أهل بيته » .. فنص الدستور على أن (من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ – (يهلك) – إلا نفسه وأهل بيته) .... وبعد أن كانت « القبيلة » تلحق إثم « الحليف » بحليفه، جاء هذا التطور، الذى قننه هذا الدستور، عندما نص على (أنه لا يأثم امرؤ بحليفه) .. وكذلك الحال مع « الجار » .. فنص على (أن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم) ..

لقد برزت ذاتية : الفرد، المسئول، المكلف .. ونص الدستور على أنه (لا يكسب كاسب إلا على نفسه) !

● ولقد استن هذا الدستور سنن « التكافل » بين رعية الأمة وجماعتها فى مختلف الميادين، مادية أو معنوية كانت تلك الميادين ..

فالأمة متكافلة ومتضامنة فى « الحق » .. (وأن النصر للمظلوم) ! .. وهى متكافلة ومتضامنة فى المساواة القانونية .. (ذمة الله واحدة .. والمؤمنون يجير عليهم أدناهم) .. الأمر الذى يعنى رفض « الطبقية » الجاهلية، عرقية كانت أو اجتماعية ... وهذه الأمة متكافلة متضامنة، كذلك، فى المعاش والأموال .. فهى مع (المفرح) – أى المثقل بالدين – حتى يتحرر من الدين الذى يثقل كاهله.

● ورغم أن « الحاكم » للدولة كان النبى – ﷺ – وعليه ينزل وحى السماء بالقرآن الكريم .. أى أنه قد جمع « الولاية الزمنية » إلى « النبوة والرسالة »، إلا أن هذه « الدولة » لم تكن « دولة دينية » بالمعنى الذى عرفته مجتمعات غير إسلامية، وفلسفات غير إسلامية والذى تسربت بعض من مقولاتها إلى بعض من فرق الإسلام! ..

فهذا الدسور قد « تميز » عن القرآن وإن لم يخالف روحه ومبادئه .. و« رعية » هذه الدولة لم تقف عند « الجماعة – الأمة – المؤمنة » بل كانت « رعية سياسية » اتخذت من المعيار السياسى والإطار « القومى » ميزانا حددت وميزت به الرعية عن الأغيار ... فهى قد شملت، إلى جانب الجماعة « المؤمنة » بالإسلام : سكان (يثرب)، ومن حالفهم ووالاهم وتبعهم ولحق بهم، بمن فيهم من العرب الذين كانوا قد تهودوا، ومن الأعراب الذين « أسلموا » – بمعنى أنهم انخرطوا فى الرعية السياسية – ولما يدخل « الإيمان » بالدين الإسلامى بعد إلى قلوبهم .. وكذلك ضمت هذه « الرعية السياسية الذين « نافقوا » النبى والمؤمنين، فأظهروا الإسلام واستسروا كراهية الإيمان بالدين الجديد ؟! ..

ولقد استخدم هذا الدستور مصطلح « الأمة » – بمعنى الرعية السياسية – وهو يعبر عن هذا البناء « السياسى – الاجتماعى » الجديد .. لقد نص على أن المؤمنين والمسلمين هم « أمة واحدة من دون الناس » – فهم « أمة الدين » وجماعته المؤمنة به –

ثم نص على أن يهود بنى عوف - «ومن ماثلهم من اليهود العرب» - أمة مع المؤمنين لليهود دينهم للمسلمين دينهم»!.. فقررت التسوية فى «المواطنة» وحقوقها وواجباتها بين هذه «الرعية السياسية» وأقر التمايز الدينى القائم فى داخل هذا الإطار «القومى - السياسى».. (وأنه من تبعنا من يهود فإن له: النصر والأسوة)؟!..

إنها، إذن، دولة «إسلامية -قومية».. القيادة العليا فيها للمسلمين.. والإطار الحاكم و«الجامع - المانع» فى تحديد «الرعية» وتمييزها عن الغير: قومى، لا يستبعد غير المسلمين الذين ارتضوا الحياة داخل هذه الدولة الواحدة، والذين جمعتهم بالمؤمنين سمات القومية الواحدة.. فهم رعية واحدة - بالمعنى السياسى - يحكمها وينظم علاقاتها هذا الدستور.

● وهذا الدستور الجديد لهذه الدولة الجديدة لم ينسخ - جملة وبإطلاق - كل اعراف الجاهلية، بل أقر منها ما هو صالح لا يتعارض مع روح الشريعة، ولا يتصادم مع التطور الجديد.. فالقبائل، التى دخلت فى التنظيم «الاجتماعى - السياسى» الجديد، وغدت لبنات فى الرعية «السياسية - القومية» للدولة الجديدة.. هذه القبائل، فيما يتعلق بالديات، (يتعاقلون معاقلهم الأولى).. أى يسيرون فى المو[illegible]ف من «الدية» - (العاقلة)- على ما كان معروفا لهم ومتعارفا عليه قبل الإسلام!..

● وإذا كان هذا الدستور قد مثل «القانون الأعلى» الذى نظم «الواجبات» على الرعية.. والذى ضمن مالها من «حقوق».. فإنه قد استثنى «الظلم» و«الإثم» وقرر أن لا حماية لظالم أو آثم حتى ولو كان من الرعية التى ارتضت الحكم بهذا الدستور!.. فنص على (أنه لا يحول الكتاب دون ظالم أو آثم)!..

وإذا كانت «يثرب» -(المدينة)- قد مثلت وطن الدولة التى حكمها هذا الدستور.. فلقد قرر هذا الدستور أن هذا الوطن حرم آمن لرعية هذه الدولة.. وقرر، فى ذات الوقت، وفى نفس النص، أن لا حصانة لظالم أو آثم، حتى ولو كان معتصما «بيثرب»، وعضوا برعية دولة هذا الدستور، فنص على (أنه من خرج آمن «ومن قعد آمن» بالمدينة، إلا من ظلم وأثم)؟!

***

● وإذا كان تطور المجتمعات، وتعقد شئون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، قد فرض ويفرض التطور فى الآفاق وفى الصياغات اللازمة للدساتير المعاصرة.. فإن قراءة هذا الدستور الأول للدولة العربية الإسلامية الأولى هى من الضرورات النافعة للأمة، رغم تجاوز واقعنا للملابسات التى قننها ذلك الدستور.

لقد حدد لنا - اقتداء بالقرآن الكريم - أن المرجع عند الاختلاف هو كتاب الله وسنة رسوله.. ففيهما «المبادىء» و«الفلسفات»

و« الأطر » الحاكمة للواقع المتغير دائما والمتطور باستمرار.. (وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد)..

كذلك تعلمنا منه – ويجب أن نتعلم – أن أمة اقترن تأسيس دولتها الإسلامية الأولى بالدستور المكتوب – المنظم للعلاقات والحقوق والواجبات – لا يليق بها أن تنكص على أعقابها، فيحكمها الاستبداد، متحللا من ضوابط الدستور، « شكلا » و« فعلا » – كما يحدث حينا – و« فعلا » – برغم وجود « الشكل » كما يحدث فى كثير من الاحايين؟!..

***

والآن.. وبعد هذا التقديم – إلى النص الكامل لهذه الوثيقة.. وثيقة الدستور الأول للدولة العربية الإسلامية لأولى..

نص: « الصحيفة – الكتاب »: –

(سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م)

(١) هذا كتاب من محمد النبى، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

(٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس.

(٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم[1]، يتعاقلون بينهم[2]، وهم يفدون عانيهم[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٤) وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٥) وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٦) وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٧) وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٨) وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١٠) وبنو النبيت على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) أى على أمرهم الذى كانوا عليه.

(٢) العاقلة: الدية، التى تجب عصبة القاتل، والمارد: دية القتل الخطأ.

(٣) العانى: الأسير.

(١١) وبنو الأوس على وبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تَفْدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١٢) وأن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[٤] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء، أو عقل [٥].

(١٣) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

(١٤) وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٦] ظلم، أو إثما، أو عدوانا، أو فسادا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

(١٥) ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

(١٦) وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

(١٧) وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

(١٨) وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

(١٩) وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعض.

(٢٠) وأن المؤمنين يبيىء[٧] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

(٢١) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

(٢٢) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

(٢٣) وأنه من اعتبط[٨] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود[٩] به، إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل[١٠]، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا القيام عليه.

(٢٤) وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذا الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا[١١] أو يؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(٢٥) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

(٢٦) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

---

(٤) المفرح- بضم الميم وسكون الفاء وفتح الراء - المثقل بالدين، والكثير العيال.

(٥) العقل: الدية.

(٦) الدسيعة: العطية، أى طلب أن يدفعوا له عطية على سبيل الظلم.

(٧) يبيئ:- من البواء - أى المساواة.

(٨) اعتبط مؤمنا: أى قتله بلا جناية جناها، ولا ذنب يوجب قتله.

(٩) القود - بفتح القاف والواو -: القصاص .

(١٠) العقل: الدية.

(١١) المحدث: مرتكب الحدث.. الجناية.. الذنب

(٢٧) وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[١٢] إلا نفسه وأهل بيته.

(٢٨) وأن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف.

(٢٩) وأن ليهود بنى الحارث مثل ماليهود بنى عوف.

(٣٠) وأن ليهود بنى ساعدة مثل ماليهود بنى عوف.

(٣١) وأن ليهود بنى جشم مثل ماليهود بنى عوف.

(٣٢) وأن ليهود بنى الأوس مثل ماليهود بنى عوف.

(٣٣) وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

(٣٤) وأن جفنة بَطن من ثعلبة كأنفسهم.

(٣٥) وأن لبنى الشطيبة[١٣] مثل ماليهود بن عوف، وأن البرّ دون الإثم.

(٣٦) وأن موالى ثعلبة كأنفسهم.

(٣٧) وأن بطانة يهود كأنفسهم.

(٣٨) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

(٣٩) وأنه لا تنحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته، إلا من ظُلم، وأن الله على أبرٍّ هذا.

(٤٠) وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم.

(٤١) وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

(٤٢) وأن اليهود ينفقون، مع المؤمنين ماداموا محاربين.

(٤٣) وأن يثرب حرام[١٤] جوفها لأهل هذه الصحيفة.

(٤٤) وأن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم.

(٤٥) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

(٤٦) وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يُخاف فساده. فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله - ﷺ - وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره.

(٤٧) وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها.

(٤٨) وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

(٤٩) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين.

(٥٠) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

(٥١) وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبرّه.

(٥٢) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جارٌ لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله [١٥] ١٠هـ.

---

(١٢) يوتغ: يهلك.

(١٣) فى «نهاية الأرب» للنويرى: «الشطنة» - بضم الشين مشددة، وضم الطاء.

(١٤) أى حرم.

(١٥) أنظر نص هذه الوثيقة فى (سيرة ابن هشام) و(نهاية الأرب) للنويرى. وهى محققة فى (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص١٥ - ٢١ جمعها وحققها د.محمد حميدالله الحيدر آبادى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين

٣

للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعني

لو جاز فى وَهم واهم (عاقل أو مجنون) أن يقول: إن واحدا ما من الناس، هو الذى خلق السموات والأرض، وما بينهما جاز أن يقع فى وهم واهم (عاقل أو مجنون) أن يقول: إن القرآن العظيم من تأليف محمد - # -، وإذا امتنع عقلاً وواقعاً أن يكون للأرض والسموات وما بينهما خالق إلا الله، امتنع عقلا وواقعا - كذلك - أن يكون للقرآن العظيم مصدر إلا الله.

أثبتنا هذه المقدمة الضرورية، بين يدى مواجهتنا الثالثة، للخرافة، التى تفوَّه بها مجموعة من المستشرقين المعاصرين، وهى:

« أن القرآن ألفه محمد - ﷺ - فى عزلته المعروفة فى غار حراء، ولما فرغ من تأليفه، قال للناس: أنا رسول من عند الله للناس جميعا، وقد أنزل الله علىَّ وحيا، وهو القرآن ».

المواجهة الأولى اقتصرنا فيها على ماقاله بعض المستشرقين أنفسهم فى تكذيب هذه الخرافة.

والمواجهة الثانية، اقتصرنا فيها على الاستشهاد ببعض ما فى القرآن نفسه من حقائق محال عقلا وواقعا أن يحيط بها أحد غير الله- عز وجل- ومحمد بشر مخلوق، لا يميزه عن البشر إلا كونه رسولاً موحى إليه من عند الله- عز وجل- وليس إلها يحيط علما بكل شئ.

وفى هذه المواجهة، نتصدى بخطى ثابتة، لخرافة المستشرقين (المضحكة) حقا، بما يعرفه هؤلاء المستشرقون، من حقائق العلم الحديث، التى ثبتت صحتها يقينا، ولم تكن معروفة فى عصر نزول القرآن، ولا بعده، إلا منذ عهد قريب، يناهز المائتين سنة، ولا يتجاوزها.

حقائق اكتشفها قوم المستشرقين أنفسهم،

وباهَوْا بها، وظنوا أنهم غير مسبوقين بها، أو بشئ منها، ولو كان قيل لهم: إن عالما ما من الناس سبقكم بها قبل وصولكم إليها بمائتى عام - مثلا - لسخروا ممن قال لهم ذلك، ولأقاموا مئات الأدلة على تكذيبه، ولقالوا: إن هذا لم تعرفه البشرية قط قبلنا، لأنه ثمرة النهضة العلمية الحديثة، التى على أيدينا نشأت، وفى جامعاتنا ترعرعت.

وها نحن فى هذه المواجهة نقول لهم:

إن القرآن العظيم، الذى تزعمون أن محمدا هو الذى ألفه من عنده، ولم ينزل به عليه وحى من الله، أشار، أو لمح، أو قرر كثيراً من تلك الحقائق، قبل أن تخلقوا بأكثر من اثنى عشر قرنا، وليس مائتى سنة.

والبشرية جمعاء كانت تجهل هذه الحقائق تماما فى عصر نزول القرآن، إذن، لو لم يكن القرآن العظيم وحيا من عند الله ما استطاع محمد - ﷺ - أن يأتى ولو بمقدار مثقال ذرة منها، لأنه - لو لم يكن رسولا موحى إليه من الله المحيط علمه بكل شئ. ما اهتدى إلى شئ مما أثمرته الحضارة الحديثة الآن. وهذا حكم العقل، وهو عامل مشترك بيننا وبينكم، فهيا نحتكم إليه، ولنرض جميعنا حكومته.

حركة الأرض حول نفسها

كان العالم أجمع قبل اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٦٠م، وهو اليوم الذى ظهر فيه مرقب جاليليو، وبدأت فيه فكرة حركة الأرض حول نفسها، كان العالم أجمع يعتقدون أن الأرض ثابتة، وأن الشمس هى الى تتحرك وتدور بين المشرق والمغرب، وقد ورث الناس هذا الاعتقاد عن مصدرين:

أحدهما: الإحساس الظاهرى بثبات الأرض ودوران الشمس

والثانى: الفلسفة اليونانية القديمة، التى جاهرت بهذا الاعتقاد العشوائى.

ورسخ هذه الفكرة فى الغرب الفكر الكنسى فى القرون الوسطى واعتبار من يخرج عن معتقداتها كافر بالله، مطروداً من الرحمة.

وكان ما كان فى حياة جاليليو وتلاميذه، من رواد النهضة الأوروبية الحديثة، وغلب العلم الجهل، وخطا خطوات واسعة إلى الأمام، حتى صارت فكرة دوران الأرض حول نفسها حقيقة علمية راسخة، وواقعا محسوسا لا ريب فيه، وثبت - يقينا - أن الشمس لا تكف ضوءها عن الكون لحظة واحدة، على مدى الأربع والعشرين ساعة، تكون الأرض خلالها ليلا فى شق من الأرض ونهاراً فى شق آخر.

وكثيرا ما يشاهد ركاب الطائرات فى آخر النهار، ظلام الليل فى شرق الأرض، وضوء النهار فى غربها.

وعكس هذه الظاهرة يشاهد ركاب الطائرات فى آخر الليل، ضوء النهار فى شرق الأرض، وظلام الليل فى غربها.

وهكذا، وهكذا، يتعاور الليل والنهار سطح الكرة الأرضية، فى نظام بديع، وتعاقب دقيق، دون أن يختل من هذا النظام الإلهى شئ.

ولا ريب أن الذى حققه العلم الحديث فى هذا الجانب، وفى غيره، إنجاز حضارى عظيم، ومذهل. وهذا ما وعدنا الله به فى كتابه العزيز:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(١).

والسادة المستشرقون، الذى سمحت لهم عقولهم أن يزعموا أن محمداً – ﷺ – هو الذى ألف القرآن وزعم أنه وحى من عند الله، يعلمون أن اكتشاف دوران الأرض حول نفسها، لم يدركه أحد قبل القرن التاسع عشر الميلادى، وهذا القرآن الذى نسبوه إلى مصدر بشرى قد أشار إشارات ذكية إلى هذه الحقيقة الكونية، قبل جاليليو وتلاميذه بأكثر من اثنى عشرة قرنا من الزمان نكتفى فى إقامة الحجة عليهم بإشارتين منها.

الأولى:

وفى القرآن منها ثلاث آيات فى ثلاث سور مكية، وهى وفق ترتيب نزولها:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾(٢).

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾(٣)

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾(٤)

هذه الآيات الثلاث، يدور معناها حول قطب واحد هو امتنان الله على خلقه بتثبيت الأرض لهم، ليعيشوا عليها وهم آمنون.

واللافت للنظر أن كلمة «تميد» وهى فعل مضارع تكررت فى الآيات الثلاث، بلفظها ومعناها. واللغة العربية غنية بمفرداتها، فلماذا – إذن – التزم البيان القرآنى بذكر هذه الكلمة؟ هل هذا يرجع إلى فقر فى اللغة العربية، فلم يكن فيها كلمتان بديلتان تختلفان فى اللفظ وتتفقان فى المعنى، مع كلمة تميد، وتأتى هاتان الكلمتان، فى آيتى سورتى «النحل» و«الأنبياء»، بدلاً من تكرار «تميد» فى المواضع الثلاثة؟

كلا. فإن فى اللغة العربية نظائر لكلمة «تميد» مثل: تتحرك، تهتز وآثر القرآن هذه الكلمة «تميد» فى الآيات الثلاث. بل أصر عليها إصراراً جازما لمعنى عظيم لا يفى به غيرها وفاء تاما.

لأن «الميد» هو الاضطراب، والاضطراب لا يكون إلا وصفا لحركة، لأن الحركة نوعان:

– حركة منتظمة.

– وحركة غير منتظمة (مضطربة) والاضطراب فى اللغة: هو وصف للجسم المتحرك.

وإصرار القرآن فى الآيات الثلاث على كلمة «تميد» وصفا منفيا للأرض، إعجاز علمى دقيق

١- فصلت (٥٣).
٢- لقمان (١٠).
٣- النحل (١٥).
٤- الأنبياء (٣١).

الملحظ. يدل دلالة ذكية على أن الأرض متحركة لا ثابتة ولا ساكنة، لأن الجسم الساكن لا يضطرب أبداً، وهذه حقيقة ملموسة لكل أحد، وإنما الذى يضطرب هو الجسم المتحرك.

فالسيارة الواقفة، والطائرة الهابطة على الأرض، لا يضطرب واحد منهما، وإنما يتوقع الاضطراب إذا فارقت الطائرة الأرض وحلقت فى الفضاء، وإذا قاد السيارة صاحبها وأسرع بها ولو كانت الأرض ساكنة، كما كان يعتقد ما حدث منها اضطراب ولا ميد.

لكن لما امتن الله علينا بأنه أرسى الأرض بالجبال لئلا يختل توازنها وتضطرب فنهلك، دل ذلك على أن الأرض تتحرك ولكن حركة منتظمة لا اضطراب فيها.

هذا هو السر فى التزام القرآن ذكر «تميد» فى الآيات الثلاث. وهذا هو ملمح الإعجاز العلمى، الذى ألمح إليه القرآن منذ أكثر من أربعة عشرة قرنا[٥].

وبجانب هذا الإعجاز العلمى، نجد إعجازا بلاغيا فى كلمة «تميد» إذا قارناها بكلمتى: تتحرك، وتهتز.

لو قيل: تتحرك بكم، لفسد المعنى، لأن مراد الله- عز وجل- هو نفى الاضطراب لا نفى الحركة، لأن حركة الأرض موجودة فكيف يقال: لئلا تتحرك بكم؟

وكذلك لو قيل: لئلا تهتز بكم، فإن المعنى يفسد كذلك، لأن الاهتزاز لايشمل كتلة الأرض كلها، فقد يكون فى جزء منها. أما الاضطراب فهو يعترى جسم الأرض كله.

هذه واحدة.

أما الثانية فإن الله- عز وجل- أثبت الاهتزاز لقشرة الأرض، فقال:

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[٦].

فاهتزاز قشرة الأرض، حين ينزل الله عليها الماء اهتزاز حقيقى لا مجازى، كما يرى بعض المفسرين حيث يجرون فيه المجاز الاستعارى، بأن الأرض أشبهت العروس، ففرحت بانزال الماء عليها

والثابت علميا وواقعيا الآن، أن تربة الأرض تهتز فعلا عند تساقط الماء عليها. ولا مجاز فى هذا الاهتزاز أما قوله تعالى: «وربت» بمعنى: زادت، فهذا كما ثبت علميا وواقعيا حقيقى لا مجاز فيه.

لأن التربة أو قشرة الأرض «الفوقية» تزيد فعلا فى أثناء اختلاط الماء بها.

وبعد: فإننا نقول للسادة المستشرقين من أين عرف محمد - ﷺ - أن الأرض متحركة لا ساكنة فى عصر كان العالم كله يعتقد أنها ساكنة لا متحركة؟ لو كان القرآن من تأليفه- صلى الله عليه وسلام- ما وجدنا فى القرآن شيئا من هذا. ولكنه كلام رب العالمين.

***

أما الإشارة القرآنية الثانية، الدالة على حركة

٥- وفى هذه الآيات دلالة أخرى على حركة الأرض حول الشمس كذلك.

٦- الحج (٥).

الأرض حول نفسها، فتراها فى قوله- تعالى-:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾(٧).

انها إشارة ذكية حقا، إلى تقرير حقيقة كونية عميقة الدلالة على قوة قدرة الله، وكمال حكمته، لأن القرآن نحا بها منحى الكناية الخفية الظاهرة، على تقرير تلك الحقيقة الكونية، فى أسلوب بليغ حكيم، يخاطب الناس فى كل العصور، بما لا يصدم مشاعرهم، ولا يخرج عن تقرير الحقيقة على ماهى عليه فى الوجود، وكل المعانى التى تشع من العبارة صحيحة، لا يلغى بعضها بعضا. ولا يبطل معنى منها معنى آخر.

فالناس - فعلا - فى كل عصر، يحسون من مجرد النظر إلى الجبال أنها «جامدة»: أى ساكنة مستقرة. وهذا ما قررته الآية من حيث الإحساس الظاهرى «وترى الجبال تحسبها جامدة» ثم تقرر فى الوقت نفسه أنها تتحرك. كما يرى الناس الحساب، وهو يتحرك فى الآفاق.

وقبل الناس هذا التزاوج فى المعنى «(جمود، وحركة) فى آن واحد، لم يرفض جيل أى عصر هذه الدلالة، التى تبدو فى طرفين متنافرين، كتنافر الإقبال مع الإدبار فى آن، أو الصعود والهبوط فى وقت.

والذى سوَّغ لهم قبول هذا التزاوج فى المعنى، سياسة البيان القرآنى الحكيمة، حيث أوردت هذه الآية عقب آية أخرى تتحدث صراحة عن أهوال يوم القيامة، وهى قوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾(٨).

فهذه الآية، تتحدث عن يوم القيامة حديثا صريحا لاخفاء فيه.

ثم ذكر بعدها مباشرة آية الجبال:

[وترى الجبال تحسبها جامدة، وهى تمر مر السحاب] ثم ذكرها بعدها آيتين تتحدثان عن يوم القيامة فى وضوح وهما:

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(٩).

فتأمل روعة البيان الإلهى كيف أُخرجت؟ وفى أى نظام عُرِضَتْ

حركة الأرض حول نفسها، التى أدركناها فى العصر على وجه اليقين، لو كان القرآن قد صرَّح بها فى عصر النزول، لأحدثت شروخا فى صرح الإيمان، ولاتخذ منها خصوم الدعوة منفذا واسعا فى التشكيك فى صحة الرسالة، وصدق الرسول، ولوقع الريب عند كثير من الناس، وسياسة الخطاب الدينى فى الاسلام هى:

٧- النمل (٨٨).

٨- النمل (٨٧).

٩- النمل (٨٩ - ٩٠).

«مخاطبة الناس على قدر عقولهم» فى رفق وأناة.

لذلك وضع الله آية حركة الجبال، الدالة على حركة الأرض حول نفسها، وضعها بين آيات تتحدث عن يوم القيامة، فوقع فى إدراكهم أن جرى الجبال سيكون يوم القيامة، واطمأنت بذلك قلوبهم، ودخلوا فى دين الله أفواجا، وظل هذا الإدراك مستقرا فى الأفهام، إلى أن أثبت العلم الحديث حقيقة مراد لله من مرَّ الجبال مرَّ السحاب.

لقد ادخر الله الدلالة الأم على حركة الأرض حول نفسها، التى كنى عنها بـ«تمر» مسندا إلى ضمير الجبال، ادخرها لتظهر ظهور الشمس فى عصرنا هذا، عصر الازدهار العلمى فى «الجغرافية الفلكية» وهندسة الكون العظيم، ولما ظهرت هذه الحقيقة الكونية على وجه اليقين، لم تبطل المعنى الذى تبادر إلى الأذهان من جمود الجبال وثباتها، بل بقى ذلك المعنى صحيحا فى دائرة الحواس، فالناظر إلى الجبال فى أى مكان، وفى أى زمان، يراها قارة راسخة فى مكانها، لا تميد ولا تميل.

أما مرُّها مر السحاب. وهى الحركة الناشئة دائما من حركة الأرض الحاملة للجبال، فهو معنى صحيح كذلك، ولكن فى «سلطان العقول» لا فى «دائرة الحواس» وبرز من كل ذلك الإعجاز العلمى القرآنى العظيم، قبل جاليليو وبرونو ونيوتن وكبلر بأكثر من اثنى عشر قرنا من الزمان.

***

وهذا الإعجاز العلمى فى هذه الآية الحكيمة، يصاحبه إعجاز بلاغى بيانى تسجد العقول لصانعه. ويظهر هذان الإعجازات (العلمى والبلاغى) المتعانقان من النظر فى وجه الشبه بين المشبه، وهو مر الجبال، والمشبه به، وهو مر السحاب، ووجه الشبه - عموما - عند البلاغيين، قد يكون أمرا واحدا كتشبيه الشجاع بالأسد فى الجرأة، وقد يكون أمرين أو ثلاثة لتشبيه القمر بالعرجون[١٠] القديم فى قوله- تعالى-:

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾[١١].

أى فى التقوس، والنحافة واصفرار اللون[١٢]

وتشبيه مر الجبال بمر السحاب قائم على عنصرين أو صفتين لا صفة واحدة، أو وجهى شبه لا وجه واحد.

الوجه الأول: يسر الحركة وسهولتها، لأن السحاب يجرى فى الفضاء بلا عوائق تعرقل حركته وحريته، وكذلك الجبال، لأنها تجرى بتأثير قدرة الله التى لا تعجز، ولا يقف شئ فى سبيلها.

أما الوجه الثانى: وهو مكمن الدلالة على الإعجاز العلمى فهو أن كلا من المشبه (الجبال فى

١٠- وهو سباطة النخل الحاملة للبلح.

١١- يس (٣٩).

١٢- الكشاف (٣/٣٢٣).

حركتها) والمشبه به (السحاب فى حركته) لا يتحركان حركة ذاتية، بل بدافع خارجى فالسحاب تدفعها الرياح فى الاتجاه الذى يريده الله- عز وجل- .

ألم يقل الله- عز وجل- :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾(١٣)

وكذلك الجبال، لا تتحرك حركة ذاتية من تلقاء نفسها وإنما حركتها ناشئة عن حركة الأرض الحاملة، ولو كانت الجبال تتحرك حركة ذاتية منفصلة، عن حركة الأرض لشاهدها الناس بأبصارهم، قبل أن يدركوها ببصائرهم وهذا ما لا يحسه أحد أبدا.

وهكذا يخاطب القرآن العقل المثقف الحديث، وفى كثير منه عناد ومكابرة، ولكن هل يبقى عناد أو مكابرة أمام قذائف الحق المعجز، التى تحملها كلمات القرآن المنزل من عند الله.

القرآن جلى الحقيقة فى يسر، ليؤمن من يؤمن عن بينة ويقين وليقيم الحجة على المكابرين والمعاندين. الله وليس محمد - ﷺ - هو صانع هذا الإعجاز وهو الذى جعله دليلا قاهرا لكل العقول المتمردة، على صحة الرسالة وصدق الرسول، وأن هذا القرآن ليس له مصدر إلا الله.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١٤).

ويتفرع عن الحقائق التى تقدمت أمران:

أحدهما تعقيب مهم.

والثانى إجابة عن سؤال قد يثار فى بعض الأذهان.

أما التعقيب فهو دفع شبهة، أثيرت قديما، وماتزال تثار وهى:

أن رؤية الجبال تمر مر السحاب، لما ذكرها الله فى سياق ثلاث آيات تتحدث عن أحوال وأهوال يوم القيامة، يجب فهمها فى سياق تلك الآيات، وتكون رؤية الجبال تمر مر السحاب ظاهرة من ظواهر القيامة، ولا ضرورة تقتضى انتزاعها من ذلك السياق.

وهذا كلام يبدو وجيها أمام النظر العابر، أما من حيث الواقع المدعوم بالبراهين فلا.

بل إن انتزاع تلك الرؤية من أحداث يوم القيامة هو المتعين، ولا شئ سواه، والذى يمنع من درجة من أحداث يوم القيامة أمران:

الأول: أن الله- عز وجل- قال فى عَجُز هذه الآية: «صُنْعَ الله الذى اتقن كل شئ. انه خبير بما تفعلون» وهذان المقطعان من الآية:

«صنع الله الذى اتقن كل شئ».

«انه خبير بما تفعلون».

أولهما: مقطع هداية وإرشاد، ولفت أنظار إلى كمال قدرة الله، وتصريفه الحكيم فى الكون، وهذه الاعتبارات الثلاثة، تمثل جانبا من مهمة التبليغ، وإقامة الحجة لله على المعاندين. وهذا مجاله الحياة الدنيا لا الآخرة.

١٣- الروم (٤٨).

١٤- هود (١٣ - ١٤).

وثانيهما: مقطع تهديدى إنذارى تخويفى، وهذا كذلك مجاله الحياة الدنيا لا الآخرة.

ولو لم يكن فى القرآن إلا هذان المقطعان لكفيا كفاية تامة فى الرد على من يقول: إن رؤية الجبال تمر مر السحاب واقعة من وقائع يوم القيامة، ولا صلة لها بالإعجاز العلمى الذى تتباهَون به. ولكن بقى لنا فى القرآن أدلة أخرى مفحمة، للمعارض كل الإفحام. منها ما سنذكره فى الأمر الثانى بعد قليل: ومنها لمحة أخرى عميقة الدلالة على ما نحن فيه وهى كلمة «جامدة» فى قوله- تعالى-:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أى مستقرة ثابتة. والناس يوم القيامة لن يروا الجبال جامدة ثابتة. بل سيرونها فى أشكال أخرى ستأتى فى الأمر الثانى، ونعجل للقارئ الكريم بلفظة منها، وهى قوله- تعالى-:

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾(١٥)

الأمر الثانى: تحدث القرآن عن الجبال، بما يشمل أوضاعها فى الدنيا والآخرة، حديثا مستفيضا ومتنوعا، وهو حديث خبير عليم بكل ما فى الكون من دقائق وأسرار، والذى يدخل معنا من حديث القرآن المستفيض عن الجبال، ما قرره القرآن من أوضاعها فى الآخرة.

ومن ذلك الآيات الآتية:

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾(١٦).

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾(١٧).

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾(١٨).

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾(١٩)

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾(٢٠).

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾(٢١).

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾(٢٢)

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾(٢٣)

هذه الآيات تقرر وضعين من أوضاع الجبال يوم القيامة.

الأول: إزالة تماسكها، وتفتيت كتلها، وقد أفاد هذا المعنى تشبيهها بالصوف المندوف (المحلوج) فى آيتى المعارج والقارعة وبكثيب

١٥- النبأ (٢٠).
١٦- المعارج (٩).
١٧- المزمل (١٤).
١٨- التكوير (٣).
١٩- القارعة (٥).
٢٠- المرسلات (١٠).
٢١- طه (١٠٥ - ١٠٧).
٢٢- الواقعة (٥ - ٦).
٢٣- الكهف (٤٧).

الرمل الرخو فى آية المزمل، وكونها مسيَّرة زاهية فى سورتى التكوير والكهف. وكونها مفتتة حتى تصير هباء طائرا فى سورة الواقعة.

أما الوضع الثانى، فهو كونها منسوفة مذراة طائرة كالشعاع فى الفضاء، كما فى سورتى الكهف والمرسلات، وقد شاركتهما فى هذه الدلالة آية سورة الواقعة رقم (٦).

ونخلص من هذه كله، بأن الجبال ستزول يوم القيامة، ولا يكون لها وجود.

فكيف يمكن لفت الأنظار إليها فى قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾

وأن تكون هذه الظاهرة إرشاداً وتوجيها إلى الإيمان، وتهديدا لمن عاند وتكبر؟

أما السؤال الذى وعدنا بالإجابة عنه، فحاصله: أن يقول جاهل:

إن وضع الله آية رؤية الجبال جامدة، وهى تمر مر السحاب بين آيات تتحدث عن يوم القيامة، فيه نوع من الخداع اذا كانت لإثبات حركة الأرض حول نفسها فى الدنيا، وكان حريا ألا يكون هذا الإلهاء عن حقيقة المراد.

والجواب:

ان توسط آية رؤية الجبال جامدة، وهى تمر مر السحاب فى الدنيا بين آيات تتحدث عن أهوال الآخرة، سمة من سمات الإعجاز البلاغى فى القرآن، وكونه كتابا يخاطب الأجيال فى كل العصور ولا يبطل معنى فيه مراداً لله معنى آخر أراده، مهما اختلفت درجات الثقافة بين الأجيال المتعاقبة، وهذا هو الرفق فى الخطاب المعجز، وقد تقدم أن جمود الجبال هو فى دائرة الحواس معنى صحيح، وإدراك العقول الآن مع تقدم العلم أنها تمر مر السحاب معنى صحيح كذلك. فأين الخداع ياترى.

وهكذا يثبت الإعجاز العلمى للقرآن سبق الكتاب المنزل من عند الله وبعلمه هو، لا يعلم سواه.

إن القرآن ليس من تأليف محمد – ﷺ – لأن محمداً بشر، فلو لم يكن رسولاً صادقا من عند الله ما اهتدى إلى الرمز الكاشف لكثير من حقائق العلوم الكونية، بأكثر من اثنى عشر قرنا من ظهورها فى عصر التقدم العلمى.

والإعجاز العلمى للقرآن هو أمضى سلاح الآن فى مجال الدعوة، وإن ورمت أنوف. وانتفخت أوداج، وضاق بالحق كارهوه.

***

فى ذكرى ميلاد سيد البشر

« أحبونى بحب الله .. »

لفضيلة الشيخ / عبد الفتاح سيد جمعان

باسم الله والحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:
فكلما أشرق علينا هلال ربيع الأول حمل معه أجمل الذكريات وأخلدها وأحبها إلى المسلمين وأعذبها، ذكريات مولد خير الورى وصفوة المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ.
إنها ذكريات معطرة بأريج النبوة، متضوعة بعطر السماء، ريانة برحيق الخلد، موصولة بجلال الوحى.

إن ميلاد محمد ﷺ أجل حدث وقع على هذه الأرض، فهو الحدث الذى لوى عنان التاريخ، وغير وجه البسيطة، وأثر فى كل شىء، وما يزال يؤثر حتى اليوم، فهو حدث له ما بعده.. لا بل الصواب أن نقول: له ما قبله وله ما بعده.

وجدير بالمسلمين بل بالبشر جميعا على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم ومعتقداتهم أن يترقبوا ذكرى هذا الحدث العظيم ترقب الظامىء للرى ليعيشوا فى إيحائه ورحابه فترة تجدد إيمانهم بالمثل العليا وتعلن عن تمسكهم بالمبادىء السامية والقيم الرفيعة، جدير بهم أن يحتفلوا بهذه الذكرى الخالدة وفاء لصاحبها صلوات الله عليه وتعبيراً عن حبهم العميق له، ذلكم الحب الذى لا يكمل إيمان المؤمن إلا به.

فحب محمد ﷺ فرض على كل مسلم ودَيْن فى عنق كل من ينتسب إلى الإسلام العظيم، قال ﷺ: «أحبو الله لما يغذوكم به من نعم وأحبونى بحب الله»(١) ومعنى الحديث أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاحب الخَلْق والأمر والمنن والنعم، جدير بالحب، ويترتب على ذلك حب من عرفنا بالله ـ تعالى ـ وبلغنا عنه، قال ـ تعالى ـ:

(١) اخرجه الترمذى والحاكم.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) .

إن الله ـ عزوجل ـ لايقبل الإيمان من أحد حتى يقرنه بحب رسول الله ﷺ فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »(٣) .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٤) .

قال القاضى عياض ـ رحمه الله ـ تعليقاً على هذه الآية : فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ إذ قرَّع الله تعالى ـ من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله ـ تعالى ـ(٥) .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »(٦) وحلاوة الإيمان هنا حلاوة روحية عقلية يدركها المؤمن بقلبه ويجد لها لذة فى وجدانه كما يجد آكل العسل لذته وحلاوته فى لسانه، والمراد بقوله « مما سواهما » كل شىء عداهما .

وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال للنبى ﷺ : (لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى التى بين جنبى) فقال له النبى ﷺ : « لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر : (والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلىّ من نفسى التى بين جنبى) فقال له النبى ﷺ « الآن يا عمر »(٧) .

فعمر ـ رضى الله ـ عنه حين علم أن إيمانه لا يكون كاملاً ولا معتبراً إلا إذا كان حب الرسول ﷺ أربى عنده وآثر من حبه نفسه أعلنها على الفور : (لأنت أحب إلىّ من نفسى التى بين جنبى) وأكدها بالقسم بالله ـ تعالى ـ الذى أنزل على رسوله الكتاب وكأنه ـ رضوان الله عليه ـ يشير إلى علة هذا الحب وسببه فهو حب ناشىء عن عقل وتفكير وروية إذ الكتاب ومن أنزله عليه هو السبب فى هداية عمر والناس أجمعين وهو فى نفس الوقت السبب فى هذا الحب .

---

(٢) آل عمران (٣١).
(٣) رواه مسلم.
(٤) التوبة (٢٤).
(٥) شرح الشفا فى شمائل صاحب الاصطفا ﷺ جـ٣ ص٥٣٦ وما بعدها ـ مطبعة المدنى.
(٦) رواه البخارى ومسلم.
(٧) رواه البخارى.

وقوله ﷺ: «الآن ياعمر» معناه الآن بعد أن قلت ذلك كمل إيمانك.

وقال بعض الشراح «لايبعد أن يكون على الاستفهام المقدر والمراد به الاستبطاء أى: إنك أبطأت فى هذا الأمر الذى ينبغى أن يكون من أول وهلة والمقصود من محبة الرسول ﷺ طاعته واتباع سنته فالحب بلا طاعة دعوى ليس عليها دليل فهى دعوى كاذبة وما أحسن قول الشاعر:

تعص الإله وأنت تزعم حبه
هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

ولهذا قال بعض العلماء: «المراد بالحب هنا ليس الحب الحقيقى لأن الطبع يدعو إلى محبة النفس أكثر من الولد والوالد، ومحبة الولد والوالد أكثر من غيرهما، لكن المراد الحب العقلى الاختيارى الذى هو إيثار ما يقتضى العقل رجحانه وإن كان على خلاف الطبع، ألا ترى أن المريض يكره الدواء المُرّ بطبعه ومع ذلك يميل إليه باختياره ويهوى تناوله إذا ظن أو علم أن صلاحه فيه؟ وكذلك المؤمن إذا علم أن الرسول ﷺ لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح دينه ودنياه وآخرته وعقباه وتيقن أنه ﷺ أشفق الناس عليه وألطفهم إليه وحينئذٍ يرجح جانب أمره بمقتضى عقله على أمر غيره وهذا أول درجات الإيمان وأما كماله فهو أن يكون طبعه تابعا لعقله فى حبه ﷺ قيل ومحبته ونصر سُنته والذب عن شريعته والاقتداء بسيرته[8].

ولأن هذه المحبة تنتج الطاعة وتستلزم الاتباع كان ثوابها عند الله عظيماً، فعن صفوان بن قدامة ـ رضى الله عنه ـ قال: «هاجرت إلى النبى ﷺ فأتيته فقلت: يارسول الله ناولنى يدك أبايعك فناولنى يده فقلت: يارسول الله أنى أحبك قال: «المرء مع من أحب»[9].

والمعنى أن صفوان ـ رضى الله عنه ـ مع النبى ﷺ فى الجنة، ومحال أن يرقى امرؤ إلى منزلة رسول الله ﷺ فى الجنة إلا بالعمل الصالح المتواصل والاقتداء الكامل الذى لاينقطع، لذا قال العلماء تعليقا على هذا الحديث ما معناه: «أجاب الرسول ﷺ صفوان ـ رضى الله عنه ـ بحكم عام شامل تام فيه إشارة إلى أن المعية على قدر المحبة الموجبة للطاعة». تأكيدا لقوله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ لأنس ـ رضى الله عنه ـ: «من أحبنى كان معى فى الجنة»[10] وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ (أن رجلاً ـ قيل هو ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتى النبى ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلىّ من أهلى ومالى، وإنى لأذكرك فما أصير حتى أجىء فأنظر إليك وإنى ذكرت موتى وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك. فأنزل الله ـ تعالى ـ:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[11]

(٨) شرح الشفا جـ ٥ ص ٢٣٩.

(٩) رواه الترمذى والنسائى.

(١٠) رواه الأصفهانى فى الترغيب.

(١١) النساء (٦٩).

فدعا به فقرأها عليه.

فى هذه الآية دليل على أن المراد بالمحبة.. الطاعة والامتثال.. ولذا فسر العلماء قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ أى يحبهما ويتبع أمرهما.

وأكبر دليل على أن المراد بالمحبة الطاعة قول الرسول ﷺ لمن أخبره أنه يحبه: «أعنِّى على نفسك بكثرة السجود» أى بكثرة الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر المؤدية إلى لزوم الطاعة والامتثال والاقتداء.

فإذا كان هذا معنى حب الرسول ﷺ فإن ما يفعله كثير من المسلمين الآن من ادعاء الحب مع البعد عن سنته ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ ومخالفة أمره ونهيه مع الاكتفاء بقصائد المديح والصلاة على الرسول فيما يسمى بالتواشيح لا يغنيهم فتيلا ولا يقربهم من رسول الله ﷺ حتى يحبوا سنته ويقيموا شريعته.

يقول الشيخ الغزالى ـ رحمة الله عليه ـ فى مقدمة كتابه (فقه السيرة):

وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير فى الإبانه عن تعلقهم بنبيهم إلا يوم أن تركوا اللباب الملىء وأعياهم حمله فاكتفوا بالمظاهر والأشكال ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام فقد افتنوا فى اختلاق صور أخرى لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه) ثم يقول: (فليفقه المسلمون سيرة رسولهم وهيهات أن يتم ذلك إلا بالتفقه فى الرسالة نفسها والإدراك الحق لحياة صاحبها والالتزام الدقيق لما جاء به.. ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاما وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً).

أما وقد عرفنا كيف نحب رسول الله ﷺ فقد بقى علينا أن نعرف كيف نحتفل بميلاده ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ.

أنحتفل بهذه الذكرى العاطرة بالدفوف نقرعها ونتمايل على دقاتها أم بالحلقات التى يسميها كثير من الناس ذكراً، والذكر مظلوم فيها وبرىء منها إذ يحدث كل شىء فيها من غناء وطرب وتمايل أقرب ما يكون إلى الرقص عدا الذكر.. أم نحتفل بالحلوى والمأكولات أم بالقصائد والموشحات؟

ياالضيعتنا إن كان ذلك كل احتفالنا بمولد رسول الخير والهدى سيد الرسل والورى وما أشد تفاهتنا وإسفافنا إذا كانت هذه المظاهر هى كل صلتنا برسولنا العظيم المكافح الجاد، إن الصورة المثلى للاحتفال بميلاد خير الأنام ﷺ تتمثل بعد الاقتداء به فى عرض سيرته وحياته وكفاحه وصبره على أنفسنا تبصرة وتذكرة، وتعليما لشبابنا الذى أصبح معظمه فى معزل تام عن حياة المصطفى ﷺ نتيجة الجهل المطبق بتاريخه وسيرته وسيرة خلفائه وأصحابه بينما هم على معرفة شبه تامة بما يسمون النجوم فى الفن والرياضة.

إن سيرة النبى محمد ﷺ حافلة بالدروس المفيدة والعظات النافعة وما أحرانا أن نتتلمذ عليها ونربى أبناءنا على نورها كى تعيننا على اجتياز الطرق المدلهمة والظروف الصعبة الى نعيشها معاشر العرب والمسلمين.

فاللهم عرفنا بسيرة رسولك وفقهنا فى سنته وارزقنا حبه الحب الذى يحفزنا إلى العمل والطاعة.. اللهم آمين،،

وصلى الله على سيد الخلق وصاحب الذكرى وسلم.

يا خير من يشفى الضنا مس كفه (*)

لفضيلة الشيخ/ محمد الطاهر الحامدى

أهدانى الأستاذ الطاهر الحامدى شذرات من شعر والده الكريم فرأيت أن اختار إحداها بمناسبة الذكرى العاطرة بمولد رسول الله ﷺ. وها هى ذى:

د. محمد رجب البيومى

هلالَ ربيعٍ عدت باليمن ثانيا ... فحركتَ أشجانى وهيجت مابيا

وأضرمت نار الوجد بين جوانحى ... وأبديت منه اليوم ما كان خافيا

وأذكرتنى أيام كنا بطيبةٍ ... نشم الغوادى أو نشم الغواليا

وأحييت آمالى وكُنَّ بواليا ... وجددت لى عهد الصبا والتصابيا

وقربت لى دار الحبيب كأننى ... أراها وإن شط المزار حِيَالِيَا

ومثلت لى لَمَّا دنونا من الحمى ... وقد أَغْرَقَتْ منا الدموعُ المآقيا

ولما عطفنا نحو روضةِ أحمدٍ ... وقمتُ تجاه القبر ثَمَّ مناجيا

وقمت تجاه القبر ولهان باكيا ... أبث له وجدى وأشكو التنائيا

(*) قيلت هذه القصيدة بمناسبة المولد النبوى الشريف عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

أناشــــده العطف الذى هو أهله ... وأسأله ـ عما جنيتُ ـ التغاضيا
وأرجوه أنْ يَأْسُو جِراحى وعِلَّتى ... ومازال ـ فى رأيى ـ الطبيبَ المداويا
هو المصطفى أزكى البرية مَحْتِداً ... وأشرفها أصلا وأكرم ناديا
وصفوة خلق الله إنسا وجِنَّةً ... وأفضل مبعوث إلى الخلق داعيا
أقام على الإنصاف والعدل ملةً ... تُحَاكى رواسيها الجبال الرواسيا
تباشرت الدنيا بليلةِ وضعه ... وعم به كل السرورِ النواحيا
وزادت به حسنا معاهدُ مكةٍ ... وفاقت مغانيها الحسانَ الغوانيا
أتاها كَوَسْمِىٍّ الحَيَّا متدفقا ... وَلاحَ كَبَدْرِ التّمِ يجلو الدياجيا
وقد خَرَت الأصنام للأرض سجدا ... وإيوان كسرى قد غدا متداعيا
وقد خمدت نار المجوس لأنها ... رأت نوره الوضاح أزهر صافيا
أيا خير من تسعى المطايا لأجله ... ويا ملجأ العانى قصيا ودانيا
ويا خير من يشفى الضنا مسُ كفه ... ويا خير من يكفى الخطوبَ العواديا
ومن جوده فاق البحارَ زواخرا ... وفى بأسه فاق السيوفَ المواضيا
قصدتك من مصرٍ ومِصْرُ بعيدة ... وجئتك ظمآناً أجوب الفيافيا
أجوب الفيافى مستهاما متيما ... وأقضى الليالى هاطل الدمع هاميا
(على نفسه فليبك من ضاع عمرُه) ... وما ذاق من سلسالها العذبَ صافيا
أيا سيد السادات مهما تعاظمت ... ذنوبى ومهما قد جنيتُ المساويا
فمازِلْتُ مشغولا بحبك مغرما ... ومازال قلبى حافظ العهدِ راعيا

أحن إلى وادى العقيق تشوقا ... إليك واشتاق النقا والعواليا

واهتز إن غنى الحداةُ بطيبةٍ ... لأنك فى أحشائها بتَّ ثاويا

فبالله خَلِّى الطيف منكَ يعودُنى ... ويبرى جراحاتى ويشفى سقاميا

وقد كنت قبل اليومِ فى الوصل طامعا ... ولكن قنعت اليومَ بالطيف ساريا

على أننى بالهجر أرضى وبالنوى ... إذا كنت يا مولاى بالهجر قاضيا

ومالى لا أرضى بأمر قضيته ... وأنت طبيبى والخبير بدائيا

ومهما يكن لى فى الحقيقة مأرب ... فإن رضاك العذبَ أقصى مراميا

فيا حبذا لو أكرم الله خاطرى ... بهذا وبتَ اليوم عَنِّىَ راضيا

إذا فزت يا مولاى بالحظ كله ... ونلتُ مدى قصدى وحزتُ الأمانيا

وهل مانعى هذا الرضا فعل زلة ... بها قدمى زلت وزل الهوى بيا

إذا ضاق بى باب النبى وجاهُهُ ... ففى أى بابٍ بعدُ ألقى رحاليا

***

حنانا أبا الزهراءِ قد قل ناصرى ... ومس الضنى جسمى وولى شبابيا

وأصبحت مكسور الجناح مضَيَّعًا ... وبت قليل الحظ حران صاديا

وقد خفت أن ألقى المنية بغتةً ... وفى النفس حاجات إليك كما هيا

***

قصة العدد

بشائر النبوة

اتجه زيد بن عمرو بن نوفل إلى الكعبة ناقما، لأنه رأى الأصنام تعبد من دون الله، وشاهد الزائرين من كل صوب يطوفون حولها خاشعين، ويذبحون الضحايا من الإبل والبقر والغنم تقرباً لها، ويعقدون عليها الآمال الدنيوية، فالمريض يلتمس شفاءه بزيارتها، والتاجر يرجو ربحه بعبادتها، والطريد يسألها الأمن، والمحارب يرجو منها النصر، وهى ألواح خشبية كانت مرماة فى قارعة الطريق، فأخذها نجار ليصنع منها آلهة، وجعل لها أسماء!

اتجه زيد بن عمرو إلى الطوفان الزاخر حول الكعبة، ليقول فى نفسه: أين عقول هؤلاء؟ أهذا دين إبراهيم الحنيف الذى دعا لعبادة الله وحده، وكسر أصنام قومه، فجعلها جذاذاً إلا كبيراً منها اتخذه مدعاة سخرية واستخفاف! ثم مضى يتساءل عن سر هذا الانصياع الذى امتد به الزمن، فلا يجد صيحة تعصف به، ورآه ورقة بن نوفل متأففاً يريد وجهه من الحنق، فخاف على انفعاله أن يشتد، وصحبه إلى مكان فى أقصى البيت ليقول له: هون عليك يا زيد، فقد كابدت ما كابدت، ونصحت القوم فما استمع إلىّ أحد، وأوشك سفاؤهم أن يريقوا دمى، هوّن عليك يا زيد!

قال زيد: ولماذا لا نهديهم إلى الحق، وهو جلى للعيان! فرمقه ورقة متطلعا ثم قال:

لكل صنم سادن يا زيد، يذيع عنه الأباطيل، ويزعم أنه يدبر الكون، ويرصد شئون الحياة، إن السدنة يجمعون الذهب والفضة مما يزعمون، فما يجدون صاحب حاجة يرجو، إلا فرضوا عليه النذور، وأخذوا ما معه من الفتات إن كان فقيرا. ومن الجامد والسائل إن كان غنياً، وقالوا له: إنهم يبذلون ما يأخذون فى سبيل الآلهة. وهم يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها!

قال زيد: وإذا كان السدنة مضللين؟ فأين عقول قريش؟

فضغط ورقة على يد زيد! وقال سامحك الله يا زيد! تسأل عن عقول قريش، وهى ترى عزها الشامخ، ومجدها الباذخ فى أن يفد الناس من شرق

وغـرب، ليطوفـوا بهـذه الأصنام! كـمـا ترى فى حمايتها عزة ومهابة لها بين العرب، هذا إلى ما تربحـه من الموسم التـجـارى حـين يأتى الناس بعروضهم ويبيعون ويشترون، ومنهم من يطمع فى الرياسة فى بلده حين يزعم أنه أهدى الأصنام من حر ماله. وساق الهدى لها عن طوع، فيزداد مكانةً وحظوة! وهكذا تآمر الناس على أن تكون الأصنام مجلبة جاه، ومورد ثراء، والناس هم الناس!

فظهر الغضب الآسف فى دم زيد، وقال: ولكنى لن أرجع عن مهاجمة الأصنام! لأن الله وحده هو المعبود، تلك ملة إبراهيم الحق، فلماذا أسكت عن الأباطيل يا ورقة!

قال ورقة: أخزى الله عمرو بن لحى فهو الذى جلب هذا العار للبيت منذ مئات السنين؟

فانتبه زيد كمن استيقظ من غفلة، وصاح بورقة: سمعت عن عمرو هذيا؟ ولم أتحقق حديثه، فبالله خبرنى عما تعلم عنه، فقد نستطيع بما نعرف من غيه أن نرشد الناس إلى ما ابتدع من ضلال!

قال ورقة: كان عمرو بن لحى زعيماً فى مكة، فنازعه ابن عمه، وجلب عليه بماله وسطوته، وعز على عمرو أن يندحر بعد استعلاء، وقد نظر فرأى المال باب السيطرة فى القوم، وبه استطاع ابن عمه أن يستحوذ على نفوذه، فأصر على أن يضرب فى شاسع الأرض، حتى يعود بما يرفع من قدره، أو يظل شريداً تائهاً، لا يرى عزته تزول بمكة، وسيطرته تغيب عنها، وهو قابع فى منزله لا يملك شيئاً!

سار عمرو فى فجاج الأرض، حتى وصل إلى البلقاء من أرض الشام، فشاهد أصناماً تعبد هناك، وسأل عنها بعض السدنة، فقال إنها آلهة تنفع وتضر! فتعجب لما سمع، ثم رأى السادن يجمع المال من كل وافد، حتى ضاقت خزائنه بما يجمع، فتودد إليه وقال له: ولماذا بذل الناس لك المال عن طوع! فقال: ليس لى ولكنه للآلهة وقد أجازت لى أن أتصرف فيه كما أشاء! وقد أنفقت ما أنفقت وبقيت كنوز الذهب معى لا أستطيع لها إنفاقا، وهنا تنبه عمرو إلى ما أهمه، فحدث نفسه أن يكون سادناً للأصنام. وأن يجمع المال فيثرى ويعظم، وهنا قال للسادن أتسمح لى أن أحمل أحد هذه الأصنام إلى الكعبة ليعبده الناس! فضحك السادن، وقال: عجباً لك يا مكى، تحمل الصنم من البلقاء إلى مكة متعباً جاهداً، وأنت تستطيع أن تصنعه من خشبة هناك! فسكت عمرو قليلاً ثم قال: وكيف أصنع الصنم من الخشبة أمام القوم، ويصدقون أنه إله يعبد، وله قوة الأمر والنهى؟

قال السادن: خذ الخشبة إلى منزلك، واصنعها مستترا، واخرج بها إلى الناس، وكأنك أتيت بالصنم من البلقاء.

قال عمرو: وإن كذبتنى امرأتى، وهى تشهد الخشبة قبل أن تصنع! فضحك السادن وقال: تكذبك، وهى ترى المال يملأ بيتها، والناس يعظمون قدرك، هى إذن حمقاء! وقد اقتنع عمرو بحديث السادن، وشاهد المكِّيون صاحبهم يخرج عليهم بصنم سماه «هبل» ودعا الناس إلى عبادته، وجعله مصدر الرجاء والأمل، فهرع إليه ذوو الحاجة من كل صوب، ولم يكتف عمرو بصنم واحد، بل كان يحدث أصناما متعددة بتوالى الأيام، حتى امتلأت الكعبة على عهده وعهد من تبعه! هذه قصة الأصنام يا زيد!

فصاح زيد : تعرف هذه القصة . ولا تذيعها فى الناس! أما والله لابد أن أشيعها بين الزائرين والقاطنين حتى أكشف هذا الزيف الصريح! ولم يتمالك زيد أن وقف على أعلى الصفا وصاح : إلىَّ يا قوم، فهرع الناس نحو الصفا من كل حدب، فقال : إنكم تعبدون خشباً وأحجاراً، ابتدأ بها عمرو بن لحى، وإن ملة إبراهيم الحنيف تدعو إلى رب واحد، هو رب السموات والأرض!

دهش الناس، وقالوا : أمجنون هذا؟ أيعيب عبادة الأصنام! وهمُّوا به، ولكن الخطاب بن نوفل عم زيد، رأى أن يكون هو المتصدى لزيد، كيلا يسبه أحد من القبائل الأخرى، فيضطر إلى نصرته باسم العصبية، وتسمه قريش بالجبن والعقوق إن تلكأ، فأقدم الخطاب إلى أعلى الصفا ليزيح زيد بن أخيه، ويقول له : أعرف أنك مجنون يا زيد، ولئن استمررت على غيك لأريقن دمك! ويصفق القوم للخطاب، وينسحب زيد مخذولاً، فيتلقاه ورقة آسفا ويقول له فى عتاب : ألم أقل لك؟ جربت يا أخى من قبل، فلقيت الهوان!

لم يصبر الخطاب بن نوفل على فعل ابن أخيه، بل توجه إليه فى منزله مع مشيخة من بنى عدى قومه، وقادوه مقيدا بالحبال إلى مغارة بجبل أبى قبيس، يأتيه طعامه وشرابه، ولا يخرج حتى ينتهى موسم الحج قبل الإسلام، وزيد صابر يتلمس رجلاً ينصره فى محنته فلا يرى غير دموع ولده الصغير سعيد بن زيد، الذى يقول له سأظل معك يا أبى فى مغارة الجبل، فيقول زيد : تعال يا سعيد لأعرفك ما فى نفسى، أنت غلام صغير، فانظر إلى هذه الصخرة القائمة فى مرأى عينك بأعلى الجبل، ما قيمتها؟ فيقول حجارة لا تضر ولا تنفع، فيقول الوالد، لو جاء الخطاب بن نوفل من الغد وقطعها، وحمل منها جزءاً يجعله صنما، هل تغير وضعها؟ فيقول الغلام : لا، يقول الوالد : هذا ما أريد أن أعلنه بين الناس فأقول : إنكم تعبدون من دون الله حجارة لا تضر ولا تنفع! فيقول سعيد : ولكن الناس جميعاً يعبدون الحجارة، فماذا تفعل معهم؟ قال الوالد : لقد قلت يا بنى وسأقول .

انتهى موسم الحج، وفكت أغلال زيد بعد تهديد الخطاب ووعيده، وكانت صحته قد توعكت لما لاقى من برودة الجبل، وقسوة المعاملة، وتهكم الناس، وقد اشترطوا عليه ألا يبرح داره إلا بإذن الخطاب فقبل ظاهرا، ثم ارتقب حتى إذا حان موسم عكاظ تسلل خفية إليه . وفى نفسه أن يصادف رجلاً عاقلا يبثه نجواه إذ ليس من المعقول أن تكون جميع القبائل الضاربة فى الجزيرة العربية شمالا وجنوبا خالية من رجل عاقل يأتى إلى عكاظ فيعلن رأيه فى سوقها، كما أعلن زيد رأيه فى ساحة البيت، وفى أعلى الصفا، وصح ما توقع زيد أن يكون، إذ ما كاد يأتى هذه السوق، حتى وجد رجلاً مهيباً يلبس السواد، ولحيته البيضاء تملأ وجهه نورا . وقد ركب جملا أورق فعلا مكانه وارتفع صوته وهو يقول :

أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، اعلمُوا أن من عاش مات . ومن مات فات . وكل ماهو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، إن فى الأرض لعبرا، وإن فى السماء لخبرا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تُرِكُوا هناك فناموا، لا ورأس قُسّ، إن للكون إلها هو وحده الذى يملكه ويتصرف فيه . .

ذُهل زيد لروعة ما يسمع، وأخذ يتأمل قول الرجل: «إن للكون إلهـا هو وحده الذى يملكه، ويتصرف فيه».

ويقول: هذا ما أعنيه! وكأنه هاب الخطيب فلم يشأ أن يتقدم إليه، وهو على جمله الأورق، فوقف غير بعيد، يحادث رجلا، رأى على وجهه من الدهشة ما يرى مثله فى نفسه، فقال له فى تودد: من هذا يا أخاه! فقال الرجل: ألا تعرفه، إنه خطيب العرب قُسّ بن ساعدة الأيادى! وهو من قومه فى منعة، يتكلم بما يشاء فيسمعون ولا يعترضون! قال زيد: ولماذا يحبه قومه، ولا يؤذونه، وقد آذانى قومى لأنى قلت بمثل ما قال؟

فنظر الرجل إلى زيد وقال: إن بنى إياد قد رأوا قُسًّا يجلس فى الصحراء وحوله الآساد، تقرب منه ولا تؤذيه فعلموا أن له مكانة تحول دون إيذائه، فهل تقدر أنت إخضاع الآساد! قال: أما هذه فلا!

زاد زيد رسوخا فى عقيدته، وصمم على أن يهاجر بدينه إلى حيث يرى بصيصاً من ضياء! وأين، لقد علم أن صوامع الرهبان تملأ الآفاق فى العراق والشام واليمن، وأن بها من يهدونه السبيل، وإذا كانت مكة قد ضاقت به. وإذا كان رئيس قومه الخطاب بن نوفل قد جعل عشيرته إلباً عليه، فليرحل إلى حيث يطمئن قلبه دون اضطهاد، وانتهز زيد أول قافلة تسير، فالتحق بها. ورحب ببعده عن مكة، كما رحب بذلك من تضايقوا منه فى أهله وعشيرته، وصاحب الفكر المستمد من يقينه، يستشعر قوة تعينه على البلاء، وإذا كانت الرحلة مجهدة على مثله، فإن هذه القوة ظلت تمده بالعزم، وتطلق من لسانه، إذا اجتمع بالرهبان والمتألهين! لقد كانت خطبة قس موقد لهيب متأجج فى صدره، فلعله يسمع أمثالها ممن يؤمهم فى كل دير، وقد سئل عن نسبه وبلده، فقال: إنه عربى مكى! وكان عجيباً أن يسمع أن مكة ستكون مشرق النور، بل سمع فعلا أن نبياً بُعث بمكة بعد أن ارتحل، وأنه يدعو دعوة إبراهيم، ويقول لقومه إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، وقد خطب بأعلى الصفا فقال فى أول كلمة علنية هتف بها: والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبداً!..

ما هذا الذى فوجىء به زيد!! لقد ظن مكة موئل الشرك فإذا هى الآن مشرق التوحيد، وعليه أن يسرع إلى القافلة الجديدة التى أشرق عليها الضياء. لو كان يعلم ذلك ما تكبد هذه الرحلة المضنية، وما تعرض لصعاب شاقة تغلب عليها بقوة يقينه، وسيتغلب على مثلها وقد هم بالرجوع، كانت كل خطوة تدنيه من مكة مبعث فرحة فى قلبه وابتسامة فى ثغره، وقد تصور نفسه وقد رجع إلى مكة. فوقف بأعلى الصفا وصاح. يا قوم لقد حدثتكم بالأمس فى هذا المكان بما كنتم تنكرون. وأنا اليوم أحدثكم بما يعرفه نفر من خياركم. إذ ظهر نبى التوحيد، وأنا أول متبعيه! تصور زيد نفسه هكذا، ولعله أعد فى خياله خطوات متتابعة ينهض بها فى سبيل تأييد الدعوة ولكن ما يعده المرء فى خياله لن يكون حقيقة واقعة. إلا إذا قدر لها أن تكون، وقد قدر الله أن يموت زيد فى طريق العودة إذ هجم عليه من يريد أن يأسره ليصبح عبداً تحت يده، وقد دافع الرجل عن نفسه ما استطاع، حتى لقى حتفه موحداً غريبا! وسئل الرسول ـ ﷺ

ـ عنه، فقال: إنه سيبعث أمة وحده.

أشرق النور الوضيء في مكة! وأفاق سعيد بن زيد بن عمرو على أصداء الرسالة الجديدة، رسالة التوحيد، فاستمع إليها في حنين، وتذكر ما قاله أبوه له وهو في مغارة أبي قبيس إذ سأله: يا سعيد انظر إلى هذه الصخرة القائمة في مرأى عينك بأعلى الجبل، ما قيمتها؟ فيقول سعيد: حجارة لا تضر ولا تنفع! فيقول زيد: لو جاء الخطاب بن نوفل من الغد. وقطعها. وحمل منها جزءاً يجعله صنما، هل تغير وضعها؟ فيقول سعيد: لا، فيرد الوالد، هذا ما أريد أن أعلنه للناس فأقول إنكم تعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع! تذكر سعيد ذلك. فجاشت في نفسه عواطف شريفة واندفع إلى زوجته فاطمة بنت الخطاب بن نوفل، يحدثها حديث الأمس عن أبيه زيد، وحديث اليوم عن رسالة محمد بن عبدالله! فأشرق في صدرها نور الإيمان كما أشرق في صدر سعيد، وذهبا إلى الرسول فأديا الشهادة، وكتبا ما سمعاه من آيات القرآن، ورجعا إلى منزل زيد، يعيدان ذكراه، ويتلوان آيات كتاب الله!

مات الخطاب بن نوفل! ولم يشهد مشرق النور في مكة! وقام ولده عمر بن الخطاب مقامه في محاربة الإسلام، وقد سمع أن أخته فاطمة وزوجها سعيدا قد اعتنقاه. فهاج هائجه. وتوجه إلى منزلهما يقرع الباب في عنف، وهما يتلوان شيئاً من كتاب الله، ودخل مغيظا فسارعت فاطمة تخفي الصحيفة بين فخذيها، وأخوها يسأل في حنق: ما هذه الهينمة التي سمعتها قبل أن ألج الباب؟ لعلكما صبأتما كما صبأ المستضعفون؟! فقال سعيد في هدوء: أرأيت يا عمر لو كان الحق على غير دينك، ماذا أنت صانع؟ فوثب عمر عليه وبطش بلحيته وتواثبا وكان عمر شديدا فضرب بسعيد الأرض، وجلس فوق صدره، وهرعت فاطمة تدفعه فلطمها بيده حتى أدمى وجهها، فصاحت به أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله رغم أنفك!! فلما سمع عمر مقالة أخته. أدركه هدوء لم يعهده، وقال: أين الصحيفة التي كنتما تقرءان منها، فقالت أخته: إنك رجس، ولا تمسكها حتى تغتسل. فنهض مذعنا. وكأن قوة خافية بدلت شعوره، فدفعت إليه الصحيفة. وكانت تحمل الآيات الأولى من سورة طه. فجعل عمر يقرأ حتى إذا وصل إلى قول الله:

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴾(١).

فصاح عمر: ينبغي لمن يقول هذا، أن لا يعبد معه غيره، دلوني على محمد.

ابتهجت فاطمة وابتهج سعيد، إذ رأيا ما لم يكونا يتوقعان! وهتف سعيد، في هذه الدار المؤمنة هتف زيد والدي بالحق، وفي هذه الدار أسلم فتى قريش عمر بن الخطاب! وهتفت فاطمة: وسيكون إسلام أخي عزة وتأييداً لدينه الحنيف! وبهجة لرسول الله ﷺ.

عابر سبيل

(١) طه (١٤ - ١٦).

روائع من الماضي بمجلة الأزهر

مولد النبي صلى الله عليه وسلم (١)

للأستاذ / محمد فريد وجدي

إعداد وتقديم الشيخ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

من الأحداث الكريمة ما يغير مجرى التاريخ الإنسانى، ويبدل أوضاع الحياة، ويعدل سلوك الناس، وينقلهم من الضيق إلى السعة، ومن الجور إلى العدل، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن أنصع الحوادث التى مرت بالإنسانية فغمرتها بالنور والسعادة، ونقلتها من الضلالة إلى الهداية، ومن الظلم والفجور إلى العدل والتقى ؛ ميلاد الرسول الأكرم محمد بن عبد الله النبى الأمى الذى أرسله ربه إلى الإنسانية يُقوِّم منها السلوك والأخلاق، ويوجهها إلى الكمال فى ترابط ونظام لا يختل إذا ما استكانت إلى وحى الله، واهتدت بسنة رسول الله ﷺ.

إن حياة صاحب الذكرى محمد ﷺ قانون إلهى خالد وكتابه بحوْل الله وقوته يتلى، وفيه صلاح الدين والدنيا، وإن من أساس الإسلام أن نطيع الله فى كتابه، ونطيع الرسول – فى سنته وآدابه

فهل مع هذا النبع الإلهى الصادق يظل المسلمون فى مراغة الخمول، ويقتنعون بالدون، ويتخلون عن مكان الصدارة فى هذا الوجود.

أما لو أنهم اتخذوا من أحكام ربهم منهاجا، ومن كلام رسولهم علاجا، لو فعلوا ذلك لرفع الله عنهم الإصر، وأنعم عليهم بما لايقع عن النعم تحت الحصر.

قال الكاتب – رحمه الله –:

يبحث المؤرخ المنصف تاريخ محمد – ﷺ – فيرى أمرا جللا : يرى نبيا أرسل بشريعة لهداية الخلق كافة، وأيد بالآيات، فلم يمض على رسالته كبير زمان حتى أسس على

(١) مجلة الأزهر ملحق العدد الثالث / ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ المجلد السادس.

أنقاض الجاهلية الأولى دولة أصبحت بعد سنين معدودة، سيدةَ الدول فى العلم والحضارة، كلما أنشأ من فلول الأمم المتباغضة، أمة كان لها تاريخ حافل بالعظائم وجلائل الأمور.

وأخيرا يرى أن ما جاء به - ﷺ - من ضروب الإصلاح الاجتماعى قد دُعِّم على أصل راسخ عام صالح لكل الأزمان، ولكل الأمم والبيئات.

فإذا قارن المؤرخ هذه الأصول بما أتى به بعده كبار المجددين لم يجد لهم شيئا مذكورا. هذا قول لم يمله علينا التحمس للعقيدة، ولكنه يعبر عن حقيقة يسهل التدليل عليها من طريق عملى محسوس، لامن طريق الاستنتاج الذى يمكن أن تَقبل مقدماته التعديلَ أو التجريح.

نعم: إن محمدا أوجد أمة، ولكن أية أمة؟ هنا مجال فسيح للكلام يقف حياله علم الاجتماع حائرا، لخروجه عن دائرة النواميس المعروفة، ولدلالته على مؤثرات علوية لم تدخل فى نطاق معلوماته وتجاربه بعد.

وهو مؤسس دولة، ولكن أية دولة؟ هنا أيضا ميدان بعيد الأرجاء للقول يَرى علم السياسة نفسه إزاءه ضئيلا، حتى ليكاد يعتقد أنه لايزال فى المهد.

وهو صاحب شريعة، ولكن أية شريعة؟ وهذا موطن للبيان لو عرض على صاغة القوانين، وفلاسفة الاشتراع لحاروا فى فهم كيف تتولد أصول هذه الشريعة قبل أن تولد مقتضياتها ولم تنضج لها الشئون الاجتماعية بعد؟ وكيف تبلغ أقصى ما يتخيله العقل من العدل المطلق، ولم يتحقق هذا الخيال فى أرقى الأمم إلى اليوم؟

وهو رسول ديانة، ولكن أية ديانة؟ وهذه باحة قصية الأكناف تقوم تجاهها فلسفة الأديان حيرى لاتدرى كيف تروج أصول هذه الديانة السامية فى شعب كان بالأمس مضرب المثل فى الفوضى والجهل؟

وهو واضع أصول إصلاح عام شمل جميع ما قام به العباقرة بعده من التجديدات - فى سائر فروع النشاط الإنسانى فى خلال قرون متوالية إلى يومنا هذا. وهذا موطن يجد علم النفس فيه أنه من القصور بحيث لايستطيع أن يفهمه فضلا عن أن يدلى فيه برأى.

أمة محمد

أتدرى ما هى أمة محمد؟ هى أمة رابطتها الاجتماعية الأصولُ الأدبية، والمبادىء الخُلُقية، لا الحاجات المادية، ولا الضرورات المعاشية. فهى أول أمة فى تاريخ العالم قامت على هذه القواعد الخالدة. وهذه الرابطة بهذا الوصف وُضعت لتسع العالم كافة، بصرف النظر عن اختلافهم فى البيئات والألوان واللغات، خلافا للروابط الاجتماعية المبنية على الحاجات المادية، فهى لاتصلح إلا لقوم تجمعهم بيئة واحدة، وتؤلف بينهم مقتضيات مشتركة. فالأولى رابطة جامعة لأمّة، والثانية خاصة مفرقة.

لهذا السبب جَمعت الرابطةُ الاجتماعية الإسلامية بين آحاد من قوميات شتى، وأجناس ليس بينها أدنى صلة من لون ولا لغة ولا تاريخ. فالأمة التى تقوم عليها يصح أن توصف بأنها عالمية عامة.

ولما كانت رابطتها المبادىء الأدبيةَ، والأصول الخلقية، كانت بنيتها تأبى الاعتداد بالفوارق القومية، وبالطبقات الاجتماعية، ولا تعول إلا على شىء واحد وهو الفضائل الشخصية. وقد أشار الله إلى ذلك بقوله – تعالى– :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(١).

وقال النبى – ﷺ –: «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح، كلكم من آدم وآدم من تراب»(٢).

هذا لعمرى أجلُّ من أن يقال فيه إنه ترق فى رابطة الاجتماع، لأنه فذ فى نوعه لايمت إلى الروابط الاجتماعية بأدنى صلة. فأين تلك الروابط التى تقوم على الحاجات القومية التى أثرها الفرقة والعداوة، من هذه الرابطة الإسلامية التى تقوم على الناموس الأدبى ويكون من أثرها التسوية بين الناس، ومعاملتهم كافة بالعدل والإحسان، ورفع الأصلح إلى أعلى مكانات الشرف ولو كان عبدا حبشيا، أو أسود زنجيا، أو نزيلا أعجميا، أو مجهول الأصل؟

فهذه أول أمة فى تاريخ العالم وصل فيها الذين كانوا عبدانا بالأمس إلى ولاية الخطط الحكومية، وإلى سيادة الأقاليم فى العلم والإمامة.

فكم تقدِّر أن يمر من الزمن حتى تصل أرقى الأمم إلى مثل هذه الحالة الاجتماعية المبنية على العدل المطلق، والحقوق الطبيعية؟

دولة محمد

دولة محمد – ﷺ – ديموقراطية دستورية بأوسع ما يحتمله مدلول هاتين الكلمتين: فهى ديموقراطية لأنها كانت شعبية محضة مُحقت فيها الفروق الطائفية، والامتيازات الأريسطوقراطية. وُجِّه الخطاب فيها إلى الشعب كافة لا إلى طبقة منه خاصة؛ ووزعت الحقوق والواجبات فيها على الأفراد على حد سواء، لافرق بين ذكر وأنثى ولا بين سيد ومولى؛ وفتحت آفاق الوصول إلى الغايات البعيدة أمام المتنافسين من كل جنس ولون وبيئة، ينال قصب السبق فيها مَن سَمتْ به همته وكفايته إليها لايصده حائل من أى نوع كان. ألم يول النبى – ﷺ – بلالا على المدينة وفيها جلة العرب من الأنصار والمهاجرين وهو عبد حبشى اشتراه أبوبكر وأعتقه؟

أولم يسند عليه السلام إلى مهران الفارسى ولاية اليمن وهو من صميم الفرس،

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) مجمع الزوائد (٨٤/٨).

فلما مات أسندها إلى ابنه؟ أو لم يقلَ صلوات الله عليه وسلامهَ: «سلمان منا أهل البيت» وهو فارسى لاتزال العجمة تعتور لسانه؟

وقد جرى أصحابه وأتباعه على هذا المبدأ لأنه أصل من أصول الإسلام. قال الحسن البصرى - رضى الله عنه -: حضر بابَ عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبوسفيان ابن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس، وصهيب وبلال من أولئك الموالى (أى الذين كانوا بالأمس عبيدا) وقد شهدوا بدرا. فخرج إذن عمر لأولئك الموالى وأخر أولئك السادة. فقال أبوسفيان: لم أركاليوم قط: يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لايلتفت إلينا؟! فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا: أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، دُعى القوم ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم؟

وكانت دولة محمد - ﷺ - دستورية، لأن الحكومة قيدت فيها بكتاب إلهى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذه أخص صفات الأمم الدستورية. وقد حقق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية: فجعل الحكم شوريا، وحذف الامتيازات الفردية والطائفية، ومحا ما بين الطبقات من الفروق فى الحقوق والواجبات، ووحدّ الشريعة، وأخضع لها الكافة لا فرق بين حاكم ومحكوم. رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو يطوف على الناس رجلا وامرأة على فاحشة، فحار فى أمره، فجمع الناس وخطبهم وقال: ما قولكم إذا رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة؟ فنهض إليه على بن أبى طالب وقال: يأتى على صحة قوله بأربعة شهداء وإلا فيقام عليه حد القذف.

الله أكبر! أرأيت قوما فى جميع أدوار الحكومات أرسخ أقداما، وأقوى إيمانا فى الدستور من هؤلاء؟ هذه هى الدولة التى وضع محمد أساسها، وشيد بنيانها قبل أن يعرف الناس حقيقة الدستور ومعنى الديموقراطية الصحيحة بنحو اثنى عشر قرنا.

شريعة محمد

شريعة محمد - ﷺ - أساسها المساواة والعدل بأخص معانى هاتين الكلمتين: المساواة والعدل بين الأغنياء والفقراء، وبين الشرفاء والوضعاء، وبين العلماء والجهلاء، بل وبين المؤمنين والكافرين، لا ينهضم فيها حق ضعيف لضعفه، ولا يحابى فيها مؤمن لإيمانه.

حدث وعمرو بن العاص واليا على مصر أنّ أحد ولده ضرب رجلا من العامة لأمر بدر منه قائلا له: أنا ابن الأكرمين. فلما كان موسم الحج تكلف المجنى عليه بمشقة الانتقال إلى المدينة ليرفع أمره إلى أمير المؤمنين نفسه. فبينما كان عمر فى حشد من رجال دولته

وفيهم عمرو بن العاص وابنه، قام ذلك الرجل ورفع أمره إلى الخليفة، وأقر الضارب بما فعل. فناول أبوحفص الشاكى درته (عصاه) وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك، فصدع الرجل بما أمر به حتى اشتفى. فالتفت أمير المؤمنين إلى المشكو منه وقال له: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟

انظر كيف ساوى عمر بين ابن قائد من أكبر قواد دولته، وبين رجل من عامة الناس لا يمت إلى أحد بصلة؟ ولكن مبدأ المساواة الذى أوجبه الإسلام على القائمين بالأمر هو الذى دفع عمر إلى ما فعل، ولم يصادف فعله اعتراضا من أحد، بل أعجب به الكافة، وجعلوها منقبة من مناقبه.

وحدث أيضا أن يهوديا شكا على بن أبى طالب إلى عمر فى أمر كان بينهما، فأحضرهما أمير المؤمنين للنظر فى شأنهما. فلما عرض قضيتهما التفت الخليفة إلى على وقال له: قم (يا أبا الحسن) فقف بجانب خصمك، فلاح على محيا علىّ شئ من التأثر. فقال له عمر: أكرهت يا على أن تقف إلى جانب خصمك؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين ولكنى رأيتك لم تسوّ بينى وبينه، إذ عظمتنى بالتكنية ولم تكنه.

ما أجلّ هذه الآداب وأكرمها، وما أولى مثل هذه الأمة بسيادة الأمم، وقد نصب الخصوم أنفسهم على المبادئ العالية حراسا، وعلى حرم العدالة حفظة!

وغرض شريعة محمد – ﷺ – العدل المطلق لا المقيد ببيئة أو طائفة أو أى امتياز لأحد. فليس أمام هذه الشريعة شريف ووضيع، ولا أبيض وأسود، بل ولا مؤمن ومشرك، ولكن أمامها أن تصل إلى العدل الخالص من الشوائب فى كل ما يستنزل فيه حكمها. أتريد أعجب من وصايتها بالعدل حتى فى مواطن البأس حيث تتهاوى السيوف على الرقاب، وتتسابق الرماح إلى الصدور، وتغلى الدماء فى رؤوس الأبطال طلبا لإحدى الحسنيين؟!

نعم: تطالب شريعة الإسلام أهلها بالعدل حتى فى هذه المواطن، وتنذر المقصرين فى جنبه بالعقاب الشديد. أرأيت شبيها بهذا العدل فى تاريخ الشرائع الوضعية حتى لدى الأمم الآخذة بأكبر قسط من المدنية؟ قال الله – تعالى –:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾(٣)

(أى ولا تحملنكم عدواتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم)

﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٤)

(٣) سورة المائدة الآية ٨.

(٤) سورة المائدة الآية ٨.

وقال - تعالى -:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٥)

حقا لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد فى العدل، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الحقوق والحياة الإنسانية، من الشريعة الإسلامية. ويخيل لى أنه قد تنقضى أجيال كثيرة ليصل التطور الاجتماعى بالناس إلى فهم كنه هذه العدالة الإلهية.

ديانة محمد

ديانة محمد - ﷺ - عامة للبشر كافة، قال الله - تعالى -:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(٧).

ربما يستبعد بعض السطحيين أن يكون للناس دين عام تسكن له نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، وهم يتخالفون عواطف وميولا ووجهات وأغراضا، وقد قضى عليه هذا التخالف بأن يتخالفوا فى أديانهم ونحلهم إلى ما بعد الحدود المعقولة حتى بلغ عدد الأديان فى الأرض المئين الكثيرة. ولكن لو دقق هؤلاء السطحيون فى هذه المسألة لرأوا أن كل هذه الخلافات عرضية اقتضتها أحوال عرضية مثلها، الزمان كفيل بإزالتها، ومتى زالت استقر أمر الإنسان على الحقائق الطبيعية.

ولتفصيل هذا الإجمال نقول: إن الإنسان منقاد فى نشاطه الأدبى والمادى إلى عاملين: فطرته الإنسانية، وعقله فأما فطرته فهى جملة الغرائز والميول والعواطف التى طبع عليها، وهى مشتركة فى جميع أفراد نوعه. وأما عقله فهو ذلك النور العلوى الذى مُنحه ليستضئ به فى ظلمات هذا العالم، ويفرق به بين الحق والباطل والحسن والقبيح لمصلحة وجوده وترقيه.

نعم: كثيرا ما يفسد الناس فطرهم بالتعاليم الضارة والعادات المرذولة، ويطمسون نور عقولهم بالعقائد الباطلة، والموروثات المضلة، ولكن ناموس الترقى دائب على تخليص الفطرة والعقل من شوائب التربية الناقصة، وحجب الوراثات والتقاليد الساقطة. وقد لوحظ أثر ذلك الناموس فى كل زمان ومكان، وهذا الأثر اليوم أصبح جليا واضحا بتقدم العلوم، وارتقاء

(٥) سورة البقرة ١٩٠.

(٦) سورة سبأ الآية ٢٨.

(٧) سورة النساء الآيتان ١٧٤، ١٧٥.

المدنيـة، حـتـى إننا لنجـد أن سليـمـى الفطرة والعـقل من كل نحلة يؤلفـون أسـرة عـالميـة قـد توحـدت ميولهم، وتساوت عقولهم، فتوافقت مذاهبهم، وتلاءمت مداركهم، وأصبحوا على بعـد الديار إخـوانا كـأنهم اشـتـقـوا من نبـعـة واحدة. وسيكثر عديدهم على مر الزمان بشيوع العلوم حتى تكون لهم الغلبة فى العالم كله.

فـإذا كـان هـذا التـآخى بين الناس فى المذاهب والمرامى نتـيـجـة طبـيـعـيـة لسـلامـة الفطرة وصـحـة العـقل، فإن الله قـد أقـام دينه العام عليهما، فقال – تعالى –:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٨).

وقـد أكـثـر من الإشـادة بذكـر العـقـل فـخـتم عشرات من الآيات بقوله – تعالى –:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٩). وقال – تعالى – فى الهالكين:

وحـصـر الخير كله فى العقل فقال:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(١٠).

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١١) وقـال النبى ﷺ: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»(١٢).

والدين الإسـلامى فى ذاته سـيؤيده حـتـمـا جـهـاد الإنسان وراء العـقـيـدة الجـامـعـة العـادلة التى يصـبـو إليـهـا، ويمكـن أن تـتـفق كـلـمـة العـالم كـافـة عليـهـا، فـتـزول من بينهم هذه الخلافات التى فرقتهم شيعا، وأحلت التناكر بينهم مـحـل التـعـارف، والتـزاحم مـحـل التعاطف. فالديانة الإسلامية تقتضى القائم على صراطها أن يعترف بأن دين الله واحد لا يتعدد، وأنه قديم كقدم العالم، وأن الخلاف المشاهد بين أصحاب الأديان قد أتى من بغى قـادتهـا، فى تحريف بيناتهـا، وتأويل آياتهـا، وأن الدين الجامع لميول العالم كافة هو الذى ينص على الإيمان بجميع رسل الله وكتبه لا يفرق بين أحد منهم، وأن يستقيم على جادة العـقل والعلم حتى يصل إلى الكمـال الذى دُفع بفطرته للوصول إليه. فأنزل الله الإسلام موفيا بهذه الحقائق العلمية فقال ـ تعالى ـ:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤ ﴾(١٣)

---

(٨) سورة الروم الآية ٣٠.
(٩) سورة البقرة الآية ٧٦.
(١٠) سورة الملك الآيتان ١٠، ١١.
(١١) سورة الرعد ١٩.
(١٢) المطالب العالية رقم: ٢٧٤٧، وابن عدى (٩٦٧/٣).
(١٣) سورة الشورى الآيتان (١٣، ١٤).

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ ﴾ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم) الله يجمع بيننا وإليه المصير ».

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ ﴾ أى فادع لهذا التوحيد فى الدين. وقوله:

﴿ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ﴾ أى: لا محاجة: ولا خصومة.

وقال – تعالى –:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾(١٤).

وقال ـ –تعالى –:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ ﴾(١٥)

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾(١٦).

فالدين فى نظر الإسلام كل لا يتجزأ، يجمع كل من أرسله الله للأمم من رسل، وما أنزل إليها من كتب، فهو عام فى جوهره، شامل للإنسانية كلها بطبيعته. قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾(١٧).

هذا هو الإسلام الذى جعله الله دينا عاما للبشر، أفلا ترى أن انتهاء الناس إليه سيكون كنتيجة طبيعية لمحاولاتهم الأدبية، متى خلصت فطرهم وعقولهم من الشوائب التى رانت عليها، وتجلت لها آيات الله بتقدم العلوم واستبحار الحكمة؟

نعم: وهذا ما أشار الله ـ تعالى ـ إليه بقوله:

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾(١٨)

بل صرح الكتاب بأن الإنسانية ستتأدى إلى هذا تحت تأثير ناموس التطور العام طوعا أوكرها، فقال ـ تعالى ـ:

(١٤) سورة آل عمران الآية ١٩.

(١٥) سورة الأنعام الآية ١٥٩.

(١٦) سورة البقرة الآية ١٣٦.

(١٧) سورة النساء الآيتان ١٥٠، ١٥١.

(١٨) سورة فصلت ٥٣.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(١٩).

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢٠).

اتيان النبى بجميع أصول الإصلاح العالمى

إن من مميزات الشخصية المحمدية أنها تلقت من طريق الوحى المباشر كل أصول التطورات الأدبية والفلسفية والعلمية مما ألهم ببعضه كبار العباقرة على توالى العصور، واعتبروا بسببه فاتحين لآفاق جديدة فى وجه الإنسانية.

فما (ديكارت) فى وضعه الشك أساسا للبحث، وما (بيكون) طارد الظنون والأوهام من حظيرة العلم، (وما أوجوست كونت) واضع الدليل على أساس المحسوسات، ما هؤلاء جميعا وغيرهم إلا مسبوقون بالنبى - ﷺ - قرونا كثيرة. ويجرى هذا المجرى كل ما حدث فى الأمم من الانقلابات الاجتماعية التى كان من ثمراتها تحرير العامة من أسر الخاصة، والاعتراف بالسيادة للحق لا للقوة، والتسوية بين الأقوياء والضعفاء فى الحقوق المدنية والسياسية، وإبطال امتيازات الطوائف والطبقات الاجتماعية، وتحرير العقل من أسر التقاليد الوراثية، وفرض حقوق للمحرومين فى أموال الطبقات الثرية الخ الخ من ضروب الإصلاحات التى تمت فى الأمم عقب ثورات دموية. كل هذه الانقلابات فى أحوال الأمم وشئونها أتى بها النبى - ﷺ - بوحى من ربه، ومضى فى تطبيقها على العمل. وقد أفردنا لتفصيلها فصولا فى هذه المجلة لا يتسع المقام لإعادتها هنا.

إن محمدا - ﷺ - استنادا إلى هذه الدلائل المحسوسة القاطعة، يعتبر بحق أكبر نبى أنجبته الإنسانية، وهو الرجل الوحيد الذى تزداد عظمته كل يوم ظهورا بتقدم العلوم وارتقاء العقلية الإنسانية. ولسوف ينتهى العالم تحت سائق من العلم وإلى الاعتقاد برسالته العامة للبشر كافة، وإلى اعتبار الكتاب الذى جاء به وحيا إلهيا

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(٢١).

---

(١٩) سورة آل عمران (٨٣، ٨٤)..

(٢٠) سورة الزمر الآيتان (١٧، ١٨).

(٢١) سورة فصلت الآية ٤٢.

إنَّهَا النُّبُوَّة

للأستاذ الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى

حقاً، إنَّها النُّبُوَّة، وليست سلطانا أو مُلكا

النُّبُوَّة، وما أعظمها!!

والوحى، وما أكرمه!!

والرسالة وما أرفعها!!

رسالة الله إلى محمد ﷺ سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، رسالة إلى الإنسانية كلها، وإلى العالم جميعا. وإلى البشر كافة وإلى كل العصور والأجيال.

رسالة حملت شريعة الله، وكان الإسلام هو نهاية المطاف فى حياة البشرية، التى انحرفت عن جادة السبيل، وهوت فى مزالق الشرك والضلال.

الإسلام هو النور يضىء الطريق، وهو الأمل يدفع بالناس إلى حياة الطموح والعمل، وهو العزة والشرف والفوز للمؤمنين، ولمواكب المحرومين والمعذبين والمضطهدين والحائرين.

لقد رفض نبى الإسلام أن يكون ملكا حين عرضت قريش عليه الملك على أن يترك الدعوة لدين الله، وأبان للناس أنه رسول من الله.

وكان العرب يظنون النبوة ملكا، حتى لقد قال أبوسفيان بن حرب للعباس عم الرسول ﷺ فى فتح مكة، وقد شاهد من عظمة النبوة ما شاهد: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك -الغداة- عظيما، فَردَّ عليه العباس: يا أبا سفيان إنَّها النبوة. وقال عروة بن مسعود، يوم وجهته قريش إلى الرسول مفاوضا عام الحديبية: أيا معشر قريش، إنى قد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه مثل محمد فى أصحابه، وأخطأ عروة، إنها ليست ملكا، ولا سلطانا إنَّها النبوة حقاً وصدقاً، وليست ملكا ولا رياسة ولا شرفا، إنها رسالة الله رب العالمين إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ.

وكان فى الجاهلية من يطمح أن يكون له مثل هذا المجد الكبير، وأن يكون نبيا، كأمية

ابن أبى الصلت، ولكن الله أعلم بمن يمنحه رسالته، وكفر أمية وكان من الهالكين، بل كان منهم من طمح فى أن تكون له الرياسة على قومه، وكانوا يظنون النبوة سيادة وملكا وجاهاً ونفوذا، فهذا الوليد بن المغيرة فى مكة قد عملت له قريش تاجا ليتوجوه به، وكانوا يسمونه «ريحانة قريش»، فلما اصطفى الله محمدا برسالته حسده وكفر به، وعظم عليه الأمر، واشتد فى مقاومة الدعوة والرسالة، وهو و الد خالد بن الوليد، وكان يقول: أينزل على محمد وأترك، وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك ابن مسعود الثقفى سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين -مكة والطائف- فنزل قوله تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾(١).

ولما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة كان سيد أهلها هو عبدالله بن أبىّ بن سلول، لا يختلف عليه فى شرفه اثنان، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه شريف مطاع، وهو «أبوعامر بن صفى، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح، وصار يُقال له «الراهب»، وكان يبشر برسول يبعث إلى الناس، ويطمح أن يكون هو ذاك الرسول، فلما بُعث رسول الله وهاجر إلى المدينة، وصار للإسلام فيها السيادة انتكس ابن أبى وأبوعامر هذا وانسلخا عن آيات الله، والتهم الحقد قلبيهما على رسول الله ﷺ، فتآمرا عليه بالعداوة والبغضاء والحرب الخفية والمعلنة، ولكنهما باءا بغضب من الله وعذابه، وقال سعد بن عبادة: يا رسول الله اترك ابن أبى لغضب الله، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، وإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً.

ويقول الله - عز وجل - فى كتابه الحكيم من سورة الأحزاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾(٢).

وسلام على نبى الله محمد فى الأولين، وسلام عليه فى الآخرين وسلام عليه إلى يوم الدين.

لقد بعثه الله رسولا إلى العالمين، وبه ختمت الرسالات فهو خاتم المرسلين، وآخر أنبياء الله إلى البشر أجمعين.

(١) الزخرف (٣١، ٣٢).

(٢) الأحزاب (٤٥: ٤٧).

ويقول الله -عز وجل- لرسوله الكريم:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٣).

ويقول:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤).

أرسله الله شاهدا على أمته بأنه قد بلغهم الرسالة، وأدى إليهم شريعة الله كاملة غير منقوصة.

وأرسله مبشرا للمؤمنين من أهل طاعته، ونذيرا للكافرين والعاصين، وداعيا إلى الله، وإلى منهج السماء، وإلى الإيمان والطاعة، وإلى الفضائل والصراط المستقيم، وسراجا منيرا يستضاء بهديه فى كل شئون الحياة إلى يوم الدين.

والبشارة بشارة بالنصر والغلبة وانتشار الدين، وبشارة بالفوز بالنعيم المقيم فى الدار الآخرة.

ومن ثم أطلق على رسول الله لقب «البشير النذير» وهو لقب شرف عظيم، ومجد كريم، لم ينعم به أحد غير رسول الله (ﷺ) وقد تكرر فى كتاب الله لفظ البشير ولفظ النذير ومشتقاتهما أكثر من مائتى مرة ومن أولى وظيفة الرسالة أن يكون الرسول بشيرا ونذيرا، وما أجملهما من وظيفتين، وما أعظمهما من صفتين.

ولم تكن قريش تفهم معنى الرسالة والنبوة، ولا تدرك أن قدرة الرسول النبى لا تخرج عن قدرة البشر ولا تعلو على ما فى متناول الإنسان.

لذلك قالوا لرسول الله ما قالوا، قالوا له ما يقصه علينا القرآن الكريم:

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ ﴾(٥)

ومعنى جنة: أى بستان مثمر.

واستمر كفار قريش فى لجاجهم وجدالهم، بل وسخريتهم، وكما يقص علينا القرآن الكريم، يقول الله - عز وجل -:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(٦)

(٣) الأعراف (١٥٨).
(٤) سبأ (٢٨).
(٥) الفرقان (٧، ٨).
(٦) الإسراء (٩٠: ٩٣).

ومعنى: كسفا أى قطعا، وقبيلا: أى جماعة أو مقابلة وعيانا. وزخرف: أى ذهب أو زينة مزوّقة.

وكان رد الرسول عليهم واضحا وحاسما، قال لهم: ما جئت بما جئتكم به، أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى رسولا، وأنزل علىَّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم، وما بعثت بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا.

وبهذا حدد لهم رسول الله (ﷺ) معنى الرسالة تحديدا واضحا لا لبس فيه ولا خفاء.

ولقد بشر رسول الله(ﷺ) الناس كافة بنزول الرسالة عليه، وبعموم هذه الرسالة، وخلودها ما دامت الدنيا وما بقيت الحياة.

ولسوف يبقى الإسلام شريعة الله فى الأرض، تتلاقى عليه الأجيال، وتسعد بضيائه العصور والأحقاب والدهور لأنه دين الله، وشريعة الحق والصدق، ودعوة الإيمان والتوحيد إلى البشرية كافة. دين أعلى من شأن العقل والفكر ورفع كرامة الإنسان إلى أعلى ما يطمح إليه الإنسان، وقام على الطهر والشرف وسمو الغاية، ونبل المقصد وعلى كل القيم الرفيعة، والفضائل السامية، ورعى حقوق الضعفاء والمعذبين فى الأرض، كما رعى المرأة والطفل والعامل والخادم والمريض والهرم والفقير والمسكين وجعل الزكاة فريضة والإحسان شريعة والصدقة سلوكا كريما فى الحياة.

وعزز مكانة الأسرة ومكانة الأم ومكانة الأب إلى أعلى درجة.

دين جعل العدل ناموسا للمسلم فى الحياة، وألزم المسلم به كما ألزمه بالتقوى وعمل الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا.. والتحام طبقات المجتمع فى نسيج قوى متين وتكافل الطبقات اجتماعيا، من أهم فرائض الإسلام والعلم والقراءة واحترام العلماء، كل ذلك مبادىء قامت عليها حضارة الإسلام، وما أعظم ما نادى به ديننا الخالد

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾(٦)

---

(٧) فاطر (٢٨).

فى ذكرى المولد النبوى

للشاعر المطبوع الأستاذ أحمد محرم

من هيبة يغضى القريض ويطرق … ويميل فيك إلى السكوت المنطقُ
إيذن يفض هذا البيان فإنه … مما يفيض بيانك المتدفقُ
ما فى النوابغ من لبيب حاذق … إلا وأنت ألبُّ منه وأحذق
إن يلبس الشعر الجمال منوراً … عبقًا، فأنت جماله والرونق
والقول مستلب المحاسن عاطلٌ … حتى يقولَ العبقرىُّ المفلق
رُضْتُ الأوابد لى أقودُ صعابها … ورضيتنى، إنى إذاً لموفق
هى مُدْحَتِى انطَلَقَتْ إليكَ مشوقة … والسُّبْل تسطع، والمنازل تعبق
أنت المجال الرحب تعتصر القوى … فيه، وتمتحن العتاق السبق
(حسان) منبهر و(كعب) عاجز … و (الشاعر الجعدى) عانٍ موثق
أطمعتهم فتنازعوا فيك المدى … وأبيت فانقلبوا وكل مخفق
لى عذرهم، ماأنت من عدة المنى … إلا وراء مخيلة ما تصدق
أنت احتملت الأمر تنصدع القوى … مما يشق على النفوس، وتصعق
وسننت للمتعسفين سبيلهم … متبلجاً سمحاً يضئُ ويشرق
يمشى الهدى فيه على يدك التى … هى للهدى عضدٌ أبر ومرفق

(١) من ديوان الشاعر الكبير.

ذُعرت (قريش) هل يبدل دينها ... رجل ضعيف في العشيرة مملق؟
لا المال ينصره، ولا هو إن دعا ... خفق اللواء له، وخف الفيلق
ينهى عن الأصنام وهي بموضع ... تمحي حواليه النفوس وتمحق
المال والعرض الممنَّعُ سورُه ... والمجد والشرف الصميم المعرق
من وصفه الأسد الضواري تدعى ... والخيل تصهل، والقواضب تبرق

***

الحق أقبل في لواء (إمامه) ... والحق أولى أن يسود وأخلق
يرمي به سود الغياهب ساطعا ... تنجاب حول سناه أو تتشقق
حار الظلام، فما يلوذ بجانبٍ ... إلاَّ يحيط به الضياء ويحدق
الوحي مطرد، وبأس (محمد) ... جار إلى غاياته لا يلحق
لا الضعف يأخذ من قواه ولا الونى ... بأولئك الهمم الدوائب يعلق
بغُي الأولى خذلوه من أنصاره ... والبغي نصر للهداة محقق
زعموا الأذى مما يفل مضاءه ... فمضى البلاء به، وجد المصدق
يأوي إلى النفر الضعاف وإنهم ... لأشد منهم في النضال وأوثق
هم في حمى (الوحي المنزل) صخرة ... تُعْيي الدهاة، وجذوة تتحرق
وهبوا لربهم النفوس كريمة ... لا تفُتدى منه، ولا هي تعتق
المؤمنون الثابتون على الهدى ... والأرض ترجف، والشوامخ تخفق
رزقوا اليقين، فلا ذليل ضارع ... يطوي الجناح، ولا جبانٌ مشفق
جند النبي، إذا تقدم أقبلوا ... والموت يفزع، والمصارع تفرق
صدعوا بناء الشرك تحت لوائه ... فهوى، وطارَ لواؤه يتمزق

***

إن الذى جعل الرسالة رحمة | لم يرحم الدم فى الغواية يهرق
بعث الرسول معلماً ومهذباً | يبنى الحياةَ جديدةً يتأنق
يتخير الأخلاق ينظم حسنها | فى كل ركن قائم ويُنسّق
عفت الرسوم وأخلقت فأقامها | شماء لا تعفو ولا هى تخلق
قدسية الأرجاء، ما بِرِحَابِهَا | عَنَتٌ، ولا فيها مكان ضيق
تسع الممالك والشُّعوبَ بأسرها | وتفيض خيراً ما بقينَ وما بقوا
عَرَفَتْ لحاجات العصور مكانها | فلكل عصر سؤْلُهُ والمرفق
منعت مغالقها الشرور وما بها | للخير والمعروفِ بابُ مغلق
فيها لدنيا العالمين مثابة | لولا التباعد والهوى المتفرق
(المصلح الأعلى) أتم نظامها | فانظر أينقضه الغبى الأخرق؟
أوفى على الدنيا، وَمِلْءُ فجاجها | بَغْى يزلزلها، وظلم موبق
والناس فوضى فى البلاد يغرهم | دينٌ من الخبل المضل ملفق
النفس مغلقة على أوهامها | والعقل مضطهد يضامُ ويُرهق
سجدوا لما صنعوا! فأين حُلُومُهُمْ؟ | ولمن جباه بالمهانة تُلصق؟
أهى التى رفعوا وظنوا أنهم | قوم لهم فوق السماك مُحلَّق؟؟
من يدعى شرف الحياة لمعشر | كفروا بمن يهب الحياة ويخلق؟

***

إن تَنْب (مكة) بالرسول فما نبا | عزم تُهدُّ به الصعاب وتُسحق
كَذَبَ الطغاة: أيُرجفون بقتله | والوحى سورٌ والملائك خندق؟؟
وَرَدَ (المدينة) زاخراً فجرى بها | آذيُّهُ، وطما العُباب المغرق
بطلُ توسَّع فى ميادين الوغى | لما تضايق عن مداه المأزق

ساس الحوادثَ والنفوس، فتارة ... يَقِصُ الرقاب، وتارة يترفق

يدعو إلى الحسنى، فإن جمح الهوى ... فالسيف مسنون الغرار مذلق

يرمي العوان بكل أغلب باسل ... يهفو إلى غمراتها يتشوق

لمس العروش فما يزال يهزها ... ذعر يطوف بها. وهمٌّ مقلق

صَدَعَتْ قُوَى الإسلام شامخ عزها ... فإذا الملوك أذلة تتملق

وإذا الممالك ما يهلل مغربٌ ... إلا استجاب له فكبر مشرق

***

هذا تراث المسلمين، فبعضه ... يُرجى علانية، وبعض يسرق

عجز الحماة، فنائمٌ متقلبٌ ... فوق الحشيَّة، أو مغيظ مُحنق

عجزوا، فلا السلَب المباح كريمه ... يحمى، ولا العانى المكبَّل يطلق

القوم صمٌّ فى السلاح، وقومنا ... مستصرخ يعوى، وآخر ينعق

إن كنت ذا حق فَخُذْه بقوةٍ ... الحق يخذله الضعيف فيزهق

لغةُ السيوف تَحُلُّ كُلُّ قضيةٍ ... فدع الكلام لجاهل يتشدق

وكن اللبيب، فليس من كلماتها ... شرع يداس، ولا نظام يخرق

الخيل والرهج المثار حروفها ... والنار والدمُ والبلاء المطبق

فتشت ما بين السطور فلم أجد ... أن الأسود بصيدها تتصدق

أرأيت أبطال الكفاح وما جنى ... أمل بأجنحة الرياح معلق؟

لا يأس من نفحات ربك إننى ... لأرى السنا خَللَ الدُّجى يتألق

***

سيرة النبي محمد

تأليف

كارين أرمسترونج

١

عرض وتقديم

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين

مع ذكرى ميلاد خير البشرية تفعم النفس بمشاعر الحب، والوفاء، والإخلاص، التى تمازج كل ذرة فى كيان المسلم، وتهيمن على كل خلية تنبض بالحياة فى جسمه، وتوجه فكره، وتقود رؤاه.

من هنا.. رأيت مع إقبال شهر ربيع الأول ـ بما يحمل من أنسام عطرتها ذكرى مولده ﷺ أن أتخير واحدا من الكتب التى تناولت حياته ﷺ أو طرفا من حياته، أو التى تضمنت دراسة تناقش ما كتب عنه ﷺ.

ومع كثرة هذه الكتب تستعصى على الإحصاء والمتابعة، ومع تنوع اتجاهاتها تنوعا يوقع فى الحيرة.. أثار انتباهى كتاب محمد للكاتبة البريطانية «كارين أرمسترونج»، فلما قرأته استحوذ على اهتمامى استحواذا حفزنى على أن تستقبل به مجلتنا العزيزة «الأزهر» شهر ربيع الأول، لعلى به أستطيع تقديم التحية لصاحب الذكرى ﷺ ولعلى به أستطيع أن ألفت نظر المسلمين إلى أن تقدير محمد ﷺ ليس منوطا بالنزوع العاطفى وحده، ولكنه ثمرة للعقل المتوازن، والفكر العميق كذلك، فهذه الكاتبة البريطانية إنما دفعها لتقديم تلك الدراسة الجادة عن محمد ﷺ ما لمسته فى أبناء الغرب من جهل به وبدينه، تملكهم بما توارثوه من رؤية عمياء، وآراء متعصبة، خلفها لهم آباؤهم وأجدادهم ـ عن جهل أو عن سوء مقصد ـ منذ حاولوا الاستيلاء على بلاد الشرق الإسلامى، فأشعلوا ما عرف بالحروب الصليبية، وماواكبها من دعاوى مضللة تسم الإسلام ورسوله بكل السمات المنفرة والمثيرة للازدراء والاحتقار.

وكان المحرك الأصيل لتلك الكاتبة ما أحدثه سلمان رشدى بروايته «آيات شيطانية» من رفض إسلامى ثائر أخرج الكثيرين عن الصواب، وقبول غربى مسيحى مرحب، فلم تقبل الكاتبة أن تسكت عن إعلان الحقيقة، ولو واجهت بها أبناء جلدتها. وكان أن نشطت لتقديم تلك الدراسة التى قصدت بها الإنصاف، وسعت من ورائها إلى تجلية الحقيقة، وتفسير ما يبدو على السطح هنا وهناك من خطل وخلل، متوسلة إلى ذلك بالخطاب الغربى الذى يقتحم على العقل مكمنه، فيحرك به العواطف، ويدفع إلى القبول الراضى المقتنع، فهى إنما تخاطب أبناء الغرب بذلك لتعدل الميزان لديهم، ولتصحيح الرؤية أمام أعينهم، فلا يندفعوا وراء هذا الزيف الحديث المتشح بسواد القرون الوسطى المضلل.

ومع ذلك، فقد رأيت فى تقديم الكتاب مترجما إلى العربية فائدة أخرى تعنى الدعاة وأصحاب الأقلام إذا اضطرتهم الظروف إلى مواجهة من يرفضون خطاب العاطفة فى شأن الإسلام ورسوله من العلمانيين الذين يعيشون بيننا، أو ممن ثقفوا ثقافة غربية من أبناء المسلمين.

الإسلام والتعصب

وكتاب «سيرة النبى محمد» ألفته الكاتبة البريطانية «كارين أرمسترونج» التى شغلت بالبحث فى تاريخ الأديان، بعد أن قضت شقا من حياتها راهبة؛ فكرست جهدها للدراسة المستنيرة، والبحث الدءوب، لتصحيح المفاهيم، ودحض الأساطير.

وقد ترجم هذا الكتاب الدكتورة فاطمة نصر، والدكتور محمد عنانى، وقامت بنشره شركة سطور،

الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨، فجاء فى أكثر من أربعمائة صفحة، تضم عشرة فصول.

فى الفصل الأول «العدو محمد» عملت الكاتبة على تقديم صورة محمد ﷺ فى رؤية أبناء الغرب، لتوضح السر فى عدم تفهم أبناء الغرب مدى الإساءة التى وجهت للمسلمين بسبب الصورة الخيالية التى رسمها سلمان رشدى للنبى محمد ﷺ فى رواية (آيات شيطانية) مؤكدة أن أبناء الغرب لم يستشعروا شيئا مما استشعره المسلمون إزاء ذلك؛ لاختلاف رؤيتهم عن رؤية المسلمين اختلافا شاملا، ولو أن أبناء الغرب عرفوا مكان محمد ﷺ من نفوس المسلمين، لعرفوا أن سلوكهم تجاه سلمان رشدى لم يكن عن تعصب لا يرجى لهم البرء منه، كما توهم أبناء الغرب، ولكنه رد الفعل للتعدى الكاذب على محمد بقصد تشويه صورته.

وما كان لأبناء الغرب أن يدركوا ذلك، لأنهم مازالوا خاضعين لما توارثوه عن أجدادهم من كره حاقد لمحمد ﷺ جعلهم لا يرون محمدا على حقيقته، ولا قريبا من حقيقته. ولم يكن لذلك من سبب موضوعى، سوى رفض أبناء الغرب المسيحى للآخر، على ما بدا واضحا، منذ عهد لويس التاسع، فالغرب المسيحى ـ لا الإسلام ـ هو الذى لا يطيق التعايش مع الآخرين.

ومن هنا.. أخذت الكاتبة تستعرض من الأحداث ما يؤكد أن المسلمين أبعد الناس عن هذا التعصب؛ فذكرت ما كان من الراهب (بير فكتوس) سنة ٨٥٠م، حين خرج إلى سوق قرطبة ـ عاصمة دولة الأندلس الإسلامية ـ فسأله بعض المسلمين أن يفاضل بين النبى عيسى، والنبى محمد، فتحفظ فى أول الأمر، ثم انطلق يصب وابلا من الشتائم والسباب فى نبى الإسلام ـ على الرغم من أن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين كانت طيبة على وجه العموم ـ وعند تقديمه للمحاكمة قدر القاضى المسلم أن الراهب كان ضحية استفزاز من بعض المسلمين، فلم يحكم بإعدامه، على ما يقضى به القانون فى ذلك الوقت، ولكن الراهب أفلت زمامه ثانية، وطفق يسب نبى الإسلام سبا بذيئا، فقدم للمحاكمة من جديد، ولما نفذ فيه حكم الإعدام قام جماعة من المسيحيين بتمزيقه قطعا، ليضفوا عليه هالة من التقديس، ويظهروا المسلمين فى هيئة المتعصبين.

وأصبح هذا المسلك الجنونى يمثل ظاهرة، اضطرت أسقف قرطبة نفسه إلى أن ينهض لمقاومتها، والحد من تيار هذا التقديس المزيف، الذى يضفونه على كل من يسب محمدا والإسلام، حتى إذا أعدموا جعلوهم شهداء، ونهضوا يدافعون عنهم، ويزعمون أنهم من «جنود الله» الذين كانوا يقاتلون دفاعا عن عقيدتهم.

وذكرت الكاتبة أن المسلمين ـ إلى ذلك ـ لم يكونوا ينفرون من الاستماع إلى ما تقوله الأديان الأخرى، فلم يكن قانون الإمبراطورية الإسلامية يحرم جهود الدعوة المسيحية، بشرط أن لا يتعرض المسيحيون فى غضون ذلك للهجوم على النبى محمد.

ومن هنا.. ظل أبناء أديان التوحيد الثلاثة ـ اليهود والنصارى والمسلمون ـ يعيشون فى سلام نسبى على مدى الأعوام الستمائة التالية، على الرغم مما كان يسود أوروبا من تخلف وهمجية، كان من أثرها ما أصاب اليهود هناك من بطش، وقتل وطرد.

عداوة محمد موروث غربى

وتقرر الكاتبة أن الغربيين فى ظل هذا التسامح الإسلامى انطلقوا يحاربون الإسلام، حتى يوقفوا مده

الكاسح، فأخذوا يرسمون صورة من خيالهم تضم كل المنفرات، ليخيفوا منه عامة أبناء الغرب، ويحولوا بينهم وبين الإسلام بستار كثيف يخفى الحقيقة كل الإخفاء.

وكان على رأس هؤلاء الغربيين المتعصبين القسيسان (يولوجيو) و(بول ألفارو)، اللذان نهضا ينشران عن محمد ﷺ الأكاذيب المضللة، مستعينين فى ذلك بما كان لديهما من سيرة مختصرة لحياة محمد، أعدها فى أواخر القرن الثامن أحد الأديرة (ديرلير) بالقرب من بامبلونا.

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين قد حاولوا وضع تصور موضوعى صادق لنبى الإسلام وللدين الذى أتى به، ولكن الصورة الخيالية التى قدمها هنا القسيسان كانت أسرع انتشارا، وأقرب إلى نفوس العامة من الغربيين، حتى أصبح محمد العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة، واستمر هذا الوهم مسيطرا على الغربيين حتى يومنا هذا.

وقد اهتم القائمون على الحروب الصليبية من الأوربيين بإشاعة هذه الأوهام الخيالية عن محمد ﷺ وعن الإسلام، حتى يقنعوا العامة فى أوربا بجدوى الحرب، فيتقبلوا تكاليفها المادية والمعنوية الباهظة عن طيب خاطر، مادام فيها تطهير الأماكن المقدسة من هذا الوباء الذى اصطلح هؤلاء الصليبيون على أن يطلقوا عليه (القذارة)، وأن يحرفوا اسم محمد ﷺ ليطلقوا عليه (ماهوند)، وألصقوا به من الصفات المنفرة، والأفعال الأسطورية الكاذبة ما يسوغ لهم تفسير نزول الوحى عليه بمعاناته من مرض الصرع، واتهامه بأقذع ضروب الشذوذ والدجل؛ من كل ما يجعلهم اليوم يتقبلون ما جاء فى رواية (آيات شيطانية) ؛ لاتفاقها مع الأوهام الغربية الراسخة.

وتواصل الكاتبة قائلة : وحقيقة الأمر أن الغربيين إنما لجئوا إلى ذلك تعبيرا مشتطا عن بواعث قلق المسيحيين على هويتهم؛ فلجئوا إلى وصم الإسلام بما فيهم من عدوان على الآخرين، أناطوه بعقيدتهم ليضمنوا استجابة عامة الأوربيين لهم، ويجملوا صورة المسيحية فى عدوانها.

ولما فرضت الكنيسة على رجال الدين الامتناع عن الزواج، لجئوا إلى وصم الإسلام بأنه دين المتعة والشهوة.

ولما حظر الغرب مناقشة المسائل الدينية – خصوصا فى زمن الحملات الصليبية – بادروا بإلصاق هذه التهمة بالإسلام، وهو برىء منها كل البراءة.

والجهل الطاغى وراء التعصب ضد المسلمين

وتأكيداً لذلك قدمت الكاتبة عدة صور تعكس آثار تجاوز ذلك، ولما وجدوا أن أثر الإسلام فى الأوربيين أقوى من آثار تصرفاتهم الإرهابية هناك؛ فقد فرضوا على المسيحيين مقاطعة جيرانهم المسلمين، وصدرت تشريعات كنسية بهذا. وفرضوا على المسلمين أزياء خاصة بهم، حتى أعلن البابا (كليمنت الخامس) سنة ١٣٠٥م– ١٣١٤م أن وجود مسلم على الأرض يعتبر إهانة لله.

وفى ظل هذا بادر الحكام بالتخلص من المسلمين إرضاء للكنيسة، وأعانهم فى ذلك المفكرون والأدباء. ولقد شذ بعضهم عن ذلك فحاولوا التوصل إلى رؤية تتسم بشىء من الموضوعية، كما نرى فى دراسة (وليم مافربرى) فى نحو سنة ١١٢٠م حيث بلغ العداء للإسلام ذروته – التى جاء فيها : « إن أبناء الشرق والأتراك يعبدون الله الخالق، ويجلون محمدا، لا باعتباره ربا، بل باعتباره نبيا لهم » ولكن مع تلك

المحاولة الخجولة المنصفة من بعض الغربيين كان العداء للمسلمين يتفجر، مطبوعا بالعنف الشديد.

وقد استمرت صورة الإسلام الموهومة التى روجها نصارى قرطبة، وقادة الحروب الصليبية، ومعهم رجال الكنيسة.. استمرت هذه الصورة الموهومة والمكذوبة مسيطرة على أبناء الغرب فى عصر النهضة الأوربية، حتى أولئك الذين تصدوا للدراسات الإسلامية؛ فقد قدم (بارتلمى ديربيلو) سنة ١٦٩٧م دراسته التى وصفها بأنها (دائرة المعارف الإسلامية الأولى)، فجاء حديثه فى مقدمتها عن محمد، مما يبعث على الأسى، حيث ردد فيها ما كان يردد من قبل من نعوت وصفات للإسلام ولمحمد ﷺ كاذبة لا تليق.

وفى هذا العام نفسه نشر المستشرق الإنجليزى (همفرى بريدو) كتابه (محمد: طبيعة الرجل الحقيقية) مؤكدا به استمرار سيطرة الأفكار غير العقلانية على المفكرين الغربيين.

ومع إشراق القرن الثامن عشر بدأ بعض المفكرين - على استحياء وخوف من إغضاب العامة - يعدلون من نظرتهم إليه فيما يكتبونه، كما وضح فى كتاب تاريخ الإسلام الذى أصدره (سايمون أوكلى) سنة ١٧٠٨م، وكتاب (أخلاق الأمم وروحها) الذى قدمه (فرانسوا فولتير) سنة ١٧٥١م، وكتاب (حياة محمد) الذى قدمه (الكونت هنرى دى بولانيه) سنة ١٧٣٠م.

ولما أراد المستشرق الهولندى (يوهان يعقوب رايسكى) المتوفى سنة ١٧٧٤م أن يبرز السمة الربانية فى حياة محمد ونزول القرآن، أصابه اضطهاد زملائه؛ فالتعصب الموروث كان أقوى من مقاومة بعض الأصوات التى حاولت الإنصاف، أو النظر الموضوعى إلى محمد ﷺ وإلى القرآن الكريم.

ومع اتسام القرن التاسع عشر بسيطرة الروح الاستعمارية، تملك الأوربيين اعتقاد سقيم بتفوقهم على الأجناس الأخرى، وأن عليهم إنقاذ العالم الهمجى فى أفريقيا وآسيا من مصابهم، فانتكس التفكير الأوربى، وعاد إلى ما كان عليه إبان الحروب الصليبية، ففى عام ١٨١٠ - ١٨١١م نشر (شاتوبريان) كتابه (الرحلة من باريس إلى أورشليم، ومن أورشليم إلى باريس) وصف فيه القرآن بأنه لايتضمن «مبدأ واحدا من مبادىء الحضارة، ولا فرضا يسمو بأخلاق الإنسان»، وأنه «لا يحض على كراهية الطغيان أو حب الحرية»

ودعم الأوربيون نهجهم القولى على الإسلام بالانقضاض العسكرى فى وحشية على الأرض الإسلامية، حتى إن المؤرخ الفرنسى المعاصر (م.بودريكور) وصف إحدى تلك الغارات بقوله: «وحتى جنودنا الذين عادوا من الغارة كانوا يشعرون بالخجل» من كل ما أغضب العالم الإسلامى، وأشاع مشاعر العداء للغرب بينهم، فتولد من بين المسلمين من نزع إلى مواجهة التعصب الغربى بالتعصب الإسلامى الذى تمثل فى رفض الغرب خيره وشره، ومقاومة كل ما يفد من أوربا. وكان أن قابلنا ذلك فى الغرب بوضع أنماط وقوالب جديدة للتعبير عن كراهيتنا للإسلام، مستغلين مسألة (سلمان رشدى) فى تصوير الإسلام بأنه يهدر دم الإبداع وحرية الفنان، مخالفين الواقع الحقيقى للإسلام الذى وقفت عليه من خبرتى فى دراسة القرآن، وتاريخ الإسلام.

وتصرح الكاتبة بأنها إذ تقرر ذلك عن الإسلام والقرآن نعلم سلفا ما سوف يجلبه ذلك عليها من

اتهام بالنفاق والجهل، من وجهة نظر من يحيون التقاليد الصليبية التى تعتبر أن أى احترام للإسلام يعنى الخيانة الثقافية . ولكن الذى يخفف عنها من أثر ذلك أن هذا الاتجاه الصليبى لايسير فيه جميع النقاد الغربيين اليوم.

فالمشكلة الغربية – فى مجملها – ترجع إلى أن الغرب ظل على امتداد قرون طويلة ينظر – عن تعصب أو عن جهل – إلى محمد باعتباره مناقضا للروح الدينية، وعدوا للحضارة المهذبة.

محمد رجل الله

وتخلص الكاتبة من استعراضها صورة محمد ﷺ فى رؤية الغربيين لتقدم – على عجل – فى الفصل الثانى (محمد رجل الله) صورة مجملة لمحمد– ﷺ– كما تبدو على صفحة الواقع العربى والعالمى والتراثى. وكأنها تلاحق القارىء بالصورة الحقيقية لمحمد ﷺ تؤكد بها ما قررته فى الفصل الأول من أن تعصب الغربيين وجهلهم كان وراء تشويه صورة محمد هذا التشويه الغريب.

وفى هذا الفصل استعرضت الكاتبة نهج كتب السيرة التى قدمت سيرة محمد ﷺ فى تاريخها المبكر، لافتة النظر إلى تميز محمد ﷺ والإسلام من بين سائر الأنبياء والقادة والديانات بوجود وفرة من المؤرخين سعت بكل وسيلة فى زمن مبكر للتأريخ لهما، معرِّفة بمنهجهم فى تقصى الحقائق، ومعاناتهم فى التنقل وراء الأخبار والمعلومات، منبهة إلى مواطن الدقة فى جمعهم المعلومات وتحليلها، وتصفيتها، ثم عرض مايستوثقون من مصداقيته، مع نسبته لمصدره، تاركين للقارىء حرية اختيار الأصلح والأكثر مصداقية، فرغم تبجيلهم لمحمد لم تكن كتاباتهم لونا من سير القديسين غير النقدية.

ثم أخذت الكاتبة تستعرض البراهين التى تقرر أن محمدا ﷺ رجل الله، فذكرت أن تعاليمه أطلقت مخزون قوة العرب، لدرجة أنهم – وفى خلال مائة عام – امتدت امبراطوريتهم من جبل طارق إلى الهيمالايا، وأنهم لم يحققوا هذه الانتصارات بسهولة، ولكن ارتكازهم على الدين جعلهم يستهينون بذلك، وكتب لهم البقاء، وذكرت أن القرآن بأسلوبه غير العادى كان وراء دخول كثيرين فى الإسلام فور سماعه، كما كانت قوته وراء تغيير شعوب كثيرة للغاتها، وأنه قدم محمدا شخصية شديدة الإنسانية، قوية المشاعر، لديه مواهب روحانية وسياسية عظيمة، وأنه ألقى على كل واحد من الأفراد المتدينين مسئولية إقامة مجتمع خير عادل، فلم يدع أحد من المسلمين أنه مقدس.

وذكرت أن معرفة محمد باليهودية والمسيحية كانت محدودة للغاية، فلم يعمل على إحلال الحل التوحيدى من خلال موروث ذى رؤية خاصة، ولكن شق طريقه وحده نحو روحانية توحيدية خالصة. وأنه بنهاية حياته كان قد قضى على جذور دورة العنف القبلى المزمنة التى تسود المنطقة، كما قضى على الوثنية.

ولكى توضح أبعاد ما أحدثه محمد ﷺ فى بلاد العرب، وقيمة قضائه على العنف والوثنية قدمت فى الفصل الثالث (الجاهلية) صورة للبلاد العربية وللعرب فى ظلال الجاهلية، وعلاقاتها بالدولتين العظميين المجاورتين لها، وأثرهاتين الدولتين فى التوجه الدينى لبعض القبائل العربية،

ووصول صور المسيحية المحرفة إلى وسط الجزيرة العربية. وأشارت إلى تقبله بعض القيم الإنسانية التي تتواءم مع الإسلام مثل المروءة والكرم - ورفضه من ذلك مالايتواءم مع الإسلام مثل الثأر، والغزو، والسطو، إلى غير ذلك مما ينافى الأخلاق.

وفى ثنايا ذلك تعرضت الكاتبة لما يقال عن الإسلام خطأ أنه دين الصحراء، بينما هو شأن جميع الأديان كان نتاجا للمدنية، وإن كان ذلك غريبا عليهم فى أوربا، لأنهم درجوا على اعتبار عزوف عيسى عن العالم هو خلاصة الروح الدينية.

الوحــــى

وفى الفصل الرابع (الوحى) مهدت الكاتبة لبحثها بحديث عقلى متبصر عن حياة محمد المبكرة، فعقدت مقارنة سريعة بين ماروى عن ميلاد محمد ﷺ وطفولته، وماروى عن المسيح عليه السلام وماقد يكون صنعه الخيال فى هذه الروايات، ثم ميزت محمدا بأنه لم يكن صانع معجزات كعيسى- عليه السلام - ولكنه كان دائم القول: إن تنزيل القرآن هو فى حد ذاته معجزة، وأنه كثيرا ما كان يصر على أنه رجل مثل كل الرجال.

ومع ذلك.. كانت هناك إرهاصات بقرب بعث نبى من العرب جعلت بعض العرب يهيئون أنفسهم لذلك، وجعلت بعضا آخر يسعى لمحاولة التعرف على من يمكن أن ينال ذلك الشرف، حتى إن بعض المسيحيين العرب فى الكنيسة السريانية ترجموا جزءا من الإنجيل بطريقة تبين أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد، وأن بعض هذه الترجمة جاءت مطابقة لما ذكره القرآن من أن المسيح بشَّر برسول من بعده اسمه أحمد، وأن أحد حاخامات اليهود السوريين نبه يهود يثرب إلى ذلك، ودعاهم إلى المسارعة لتوطيد علاقتهم به، من كل مايشير إلى سيطرة عدم الارتياح الروحى على العرب وغيرهم فى مطلع القرن السابع الميلادى.

وأتبعت الكاتبة ذلك باستعراض لبعض ماذكرته كتب السير عن طفولة محمد ونشأته، وفى أثناء ذلك أشارت إلى ما أبداه بعض الباحثين من تشككهم فى ممارسة محمد التجارة، وعزت ذلك التشكك إلى كراهيتهم محمدا؛ لعدم وجود سبب يدعو إلى اختراع أمر كهذا.

وذكرت - فى إيجاز - ماتحقق لمحمد من وراء اشتغاله بالتجارة، وأبرزت من بين ذلك إعجاب خديجة بنت خويلد به إعجابا دفعها إلى السعى للزواج منه، وكانت زيجة موفقة - على الرغم من غمز كثير من الغربيين - ولا أدل على ذلك من أنه لم يتزوج بأخرى أصغر منها سنا طوال زواجه منها، كما تستدل بذلك على أن تعدده الزواج بعد ذلك لم يكن لاستجابة عاطفية، أو جنسية، أو سعيا وراء مصلحة شخصية.

وتلتفت الكاتبة فى أثناء ذلك إلى دور محمد - وهو فى الخامسة والثلاثين - حين احتكم إليه زعماء قريش فى شأن وضع الحجر فى مكانه من الكعبة بعد إعادتهم بناءها، فقدم الحكم الذى أرضى الجميع، وقضى على النزاع، تشير إلى ما كان عليه من فطنة، وما كان له فى النفوس من تقدير.

ثم خلصت الكاتبة إلى الحديث عن خلوته للتعبد، وتلقيه الأحلام الصادقة، دون أن يكون لديه إدراك لما وراء ذلك؛ فهو - كما نعلم من القرآن - لم يتخيل قط للحظة واحدة أنه سيكون ذلك الرسول،

ولذلك كان وقع زيارة الملك له فى الغار عنيفا على نفسه، حيث أصابه من الفزع ما ألجأه إلى العودة السريعة إلى زوجته يرتعد، متوسلا إليها أن تدثره حتى تزول عنه أسباب تلك الرعدة كما تصور.

وترى الكاتبة أن ماصادفه محمد فى خلوته، وما أصابه من جراء ذلك قد عانى منه أنبياء سابقون ـ بيد أن محمدا يختلف عنهم فى أنه لم يكن هناك دين آخر قائم يؤازره ويساعده على تأويل تلك التجربة، وكل ماكان.. أن خديجة عملت على تخفيف الأمر عليه بنفسها وبواسطة ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان ملما بعض الإلمام بالديانات السابقة، والذى أشاعت تعليقاته على ماحدث فى نفس محمد الطمأنينة، حيث صاح قائلا: قدوس. قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له: فليثبت.

وتحاول الكاتبة أن تقرب أمر الوحى إلى عقل الغربيين الذين كانوا من قبل يحكمون على مثل تلك الرؤى بأنها هستيريا، أوعقائد فاسدة، فتذكر أن ماحدث الآن من كشوف علمية تفرض رفض هذه الاحكام القديمة، وتقرب ذلك بما حدث من (أرشميدس) الذى قفز من حمامه حين اكتشف مبدأه الشهير، صائحا: (وجدتها)، وما ذلك إلا لأن العقل فى تلك اللحظة قد تزايدت سرعته، وليس كما كان يقال: إن العقل تراجع.

وتواصل الكاتبة عملها لذلك، فتقول: وبلغة علمانية محضة فإن محمدا قد وصل إلى أعماق المشكلة التى كانت تواجه معاصريه، ثم جاءهم بما لم يكن إلا لدى القلة منهم الاستعداد للاستماع له.. وكان عرب الحجاز على مايبدو يبحثون عن حل دينى يوائم احتياجاتهم المحددة، لكن محمدا لم تكن لديه حينذاك أى فكرة أنه يؤسس دينا عالميا جديدا. وكان التنزيل الذى بدأ محمد تلاوته بوحى إلهى على جبل حراء قرآنا عربيا. ولم يكن هناك ماهو جديد، فجميع الأديان بشكل جوهرى ديانة واحدة، وقد أكد الأنبياء جميعا ذلك، أما الشىء الفريد الذى تميز به وحى محمد فهو أن الله قد أرسل رسولا إلى قريش، وأنزل كتابا بلغتهم، فلم يجد المسلمون قط مشكلة فى أن يتعايشوا مع أهل الكتاب، لكن أوربا الغربية المسيحية هى التى وجدت أنه من شبه المحال أن تتقبل المسلمين واليهود فى أراض مسيحية.

ورغم أن محمدا يدعى فى القرآن النبى الأمى ـ بمعنى الذى لايعرف القراءة ولا الكتابة ـ يفسر بعض الدارسين الغربيين كلمة (الأمى) بمعانى أخرى بعيدة، لينفوا معجزة القرآن، وليدعموا المعنى العنصرى الذى يحاولون إلصاقه بالمسلمين، متجاهلين الحقائق التاريخية التى تؤكد عدم معرفته القراءة والكتابة.

وتذكر الكاتبة أنها لاتعلم كل ما أنزل على محمد فى الأيام الأولى، ولكنها تعلم أن محمدا وخديجة وورقة آثروا الصمت، فلم يكن محمد أبدا ذلك الفرد الذى يشتاق أن يروج لنفسه كما يصفه أعداؤه الغربيون. ولكن المعلوم أنه بعد الإيحاءات القليلة الأولى مر بفترة عامين، صمت أثناءها الوحى، فكانت فترة أسى وألم عظيم.

وبعد.. فلانملك إلا أن نرجىء بقية العرض إلى العدد القادم إن شاء الله– تعالى– وبالله التوفيق.

«يتبـــع»

مواقف إسلامية

درس فى الإنصاف

للأستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة

على أى أساس تقوم علاقة الحاكم بالمحكوم؟

على أساس من النفاق؟ .. لا!

لأن الحاكم حينئذ يملك الأجساد.. يملك الأشباح.. لا الأرواح.. ومهما ملأ الجيوب.. فإنه لن يملك القلوب!!

بمجرد التبعية؟ .. لا!

لأن الله تعالى يقول:

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾(١)

بتبادل المنافع؟ .. أيضا: لا ..

لأن الله تعالى يقول:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

ولكنها فى الإسلام شئ آخر:

إنها إنسانية الحاكم.. والتى تنشر رحمتها على المحكوم.. الذى يجد فى ظله برد الأمان.. وما يترتب على ذلك من ثقة متبادلة يصلح الله تعالى بها الحاكم.. والمحكوم معاً.. فإذا طاقة الأمة متجهة إلى البناء والتعمير.. بدل أن تتبدد فى معارك جانبية تستنزف هذه الطاقة.. بدداً.. وفى غير ميدان.

وهذا الموقف الذى نحن بصدد التعليق عليه

(١) سورة البقرة (١٦٦).

(٢) سورة الزخرف (٦٧).

واحد من دروس الإنصاف التى استطاعت القيادة به أن تجمع القطيع الشارد على كلمة سواء:

خطب رسول الله ﷺ فى مرض موته، فقال:

من كنت جلدت له ظهراً.. فهذا ظهرى فليستقد منه. [ليتقدم ليقتص منى] ومن كنت شتمت له عرضا.. فهذا عرضى فليستقد منه. ومن كنت أخذت له مالاً.. فهذا مالى فليستقد منه لايقول رجل: إنى أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ.

ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتى. ولا من شأنى. ألا وإن أحبكم إلىّ: من أخذ حقاً كان له.. أو حللنى.. فلقيت الله وأنا طيب النفس.

فقام إليه رجل فقال: يارسول الله: إن لى عندك ثلاثة دراهم!! قال: أما إنا لانكذّب قائلا. ولا نستحلفه.. ففيم صارت لك عندى؟ قال: تذكر يارسول الله يوم مرَّ بك مسكين فأمرتنى أن أدفعها إليه. فقال: ادفعها إليه يا فضل] «ابن عمه»(٣)

تمهيد:

قرأت مقالاً لواحد من أشياخنا حول هذا الموقف تحت عنوان: «درس فى العدل»

وقلت على الفور:

لا.. بل درس فى الإنصاف. لأن العدل أن يقول ﷺ هنا: من جلد ظهره أو شتم عرضه. أو أخذ ماله.. فأنا معه حتى آخذ له حقه..

أما إذا كان المسلم طرفاً فى القضية.. ثم يأتى طواعية واختيارا.. ليحرض قومه على أن يناقشوه الحساب.. وأنه مستعد للقصاص.. فهذا مالا عهد للبشرية به.. على مستوى الحكام على الأقل.

إن كثيرا من الرواد ونستعير هنا قلم «جبران» [يقولون فى أنفسهم: أريد أن انتفع من أمتى] بينما شعار الأطهار: أريد أن أنفع أمتى.

وكثير منهم تجار:

يتخذون من عَوَز الناس وسيلة للربح والانتفاخ: فيحتكر الضروريات.. ليبيع بدينار ما ابتاعه بدرهم. وقد يسهل التبادل بين الحائك والزارع.. ويجعل نفسه حلقة بين الراغب والمرغوب.. فيفيدهما.. ثم فى النهاية يستفيد!

وقد ينسج المدير من [سذاجة الناس لباساً ورياشا ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه.. ثم يدعى كره إبليس.. بينما يعيش بخيراته؟

لكن التقى الورع:

يرى فى فضيلة الفرد أساسا لرقى الأمة فى مدارج الكمال فإن كنت الأول: فأنت لاشئ: صمت النهار. أم صليت الليل.

وإن كنت الثانى: فأنت زنبقة فى جنة الحق. ضاع أريجها بين أنوف البشر.. أوتصاعد حراً طليقاً.. إلى الغلاف الأثيرى.. حيث تحفظ أنفاس الأزهار.

وعلى هذا النحو يريد ﷺ أن يصوغ أمته لتكون حقاً شاهدة على الناس: إنه ليس ذلك الرائد:

---

(٣) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الكبيرة الأوسط.

الذى يتصاغر أمام ولى نعمته.. ليستصغر من تولى عليهم ولايحرك يدا إلا ليضعها فى جيوبهم.. ولا يخطو خطوة إلا لمطمع له فيهم.. وإنما هو الراعى الأمين الذى يدير شئون الناس. ساهراً على مصالحهم ساعياً لتحقيق أمانيهم.

مغزى الموقف

إن الرسول ﷺ وفى آخر عهده بالحياة يوزع تركته: وتركته كإخوته من الأنبياء ليست ديناراً ولا درهماً.. وإنما هى القيم التى يُمكِّن لها فى القلوب حتى فى اللحظة التى يشغل فيها الإنسان بنفسه.. وهو يجود بآخر أنفاسها.

وحين تختلط المبادئ بالمصالح.. وتتشابك الأفكار مع العواطف.. فإنه ﷺ يحرر المبادئ مما علق بها من أهواء البشر.

وإذا كان أصحاب المنافع يدورون معها حيث دارت.. ولو على أشلاء الضحايا.. فإن أرباب المبادئ.. يكونون حيث تكون القيم.. وإن لم تتحقق لهم مصلحة فردية.

ألا يسترخص المؤمن روحه.. متى كان ذلك سبيلاً إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل؟!

وهكذا كان الرواد الأوائل فى مدرسة الرسول ﷺ: يدورون مع الحق.. ناسين حظوظ أنفسهم صاعدين من العدل إلى الإنصاف:

لقد غضب علىّ رضى الله عنه لما ناداه القاضى بكنيته.. دون خصمه.

وعمر رضى الله عنه عندما يقيم «عمرو» الحد فى مصر على ابنه يقيمه سراً.. لكن عمر رضى الله عنه يوبخ الوالى.. ثم يعيد إقامة الحد على ابنه.. وعلانية!

إن قيمة الإنصاف يجب أن تبقى ولو ذهب عمر.. وآل بيت عمر جميعاً.

وكان عمر كذلك لأن رائده ﷺ لم يكن يكذب أهله.. وإنما كانت شرعته الإنصاف.. فسار على دربه الأصحاب..

ولو أنه رتع.. لرتعوا!!

سؤال:

ولكن.. متى جلد رسول الله ﷺ ظهراً، أو شتم عرضاً أو أخذ مالاً؟

لقد كان هو الذى حمى الظهور من عدوان جلاديها.. فاستقامت.. وارتفعت الهامات اعتزازا بدين الله عز وجل ثم هو النبى العربى الذى اختصت لغته بمعنى «العرض» الذى لا نظير له فى أية لغة من لغات الدنيا والتى خلت من هذا المعنى.. فلم تحفل به ولم تصنه؟

وفيما يتعلق بالمال.. فنحن نقول: هل كان ﷺ يأخذ.. أم كان يعطى؟

إنه القائل ﷺ :

«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم: فمن توفى من المؤمنين. فترك دينا.. فعلىّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته»(٤) متفق عليه.

---

(٤) متفق عليه.

موقف الصحابة

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون ذلك.. ومن ثم كان المتوقع أن يسكتوا.. صادرين في صمتهم عن يقين عميق بأنه ﷺ ماجلد ظهراً. ولا شتم عرضاً ولا أخذ مالاً.. بل إذا كان ولابد من حساب.. فأولى بالصحابة أن يكونوا هم فى موقف الاتهام.. لا الرسول ﷺ الذى جاءهم بالهدى. وحماهم من الردى.

من الاهتداء.. إلى الاقتداء

ولكن الرسول ﷺ يريد فيما يريد.. أن يعمق فى قلوبهم قيمة أخرى هى: الشجاعة الأدبية.. والتى تعنى بإيثار الحق والانحياز له مهما كانت التكاليف.. يريد الاستعلاء بهم فى مدارج الرقى.. حتى لايرضوا بالذرى بديلا، وإذا كان أهل الدنيا يتنافسون فى اللذاذات هابطين.. فأولى بالمؤمنين أن يتنافسوا فى الكمال صاعدين: اهتداء بالكتاب. واقتداء بالرسول ويعنى ذلك: أنه ﷺ لايقول ذلك استهلاكاً محلياً. ولا خروجاً من العهدة.. وإنما يحرضهم تحريضاً بقوله:

هذا ظهرى.. وهذا عرضى.. وهذا مالى.. هأنذا بين أيديكم فمن شاء أن يقتص منى فأنا جاهز لهذا القصاص.. إنه إذن لايقول الإنصاف كلاما.. ولكنه يصنعه صنعا ولكن الحياء قد يعقد الألسنة.. فلا تنطلق بما تعتقد أنه الحق.. من أجل ذلك يقول لهم:

« لايقول رجل إنى أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ »

لايسكت واحد عن المطالبة بحقه خشية منازعة الرسول له.. لأن الشحناء ليست خيطا فى طبيعته.. ولا هى من شأنه.. فلو فرض أنه تكلفها.. ما طاوعته نفسه.

بل إنه إذا كان فيكم من يسكت حياء.. ومن يطالب بحقه، فأحبكم إلىَّ: من يطالب بحقه ويأتى المتسامح فى مرتبة تالية، يقول ﷺ ذلك لمن قالوا له من قبل: خذ من أموالنا ما شئت وما تأخذه أحب الينا مما أبقيت.. وهكذا تكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم.. فى أمة من دعائها: اللهم أصلحنا لحكامنا.. وأصلح حكامنا لنا!

النفس العظيمة

إنها نفس القائد العظيم.. والتى تعطى لحظة الفراق ما تجمل به الحياة وتكمل.. بل إن العطاء لحمتها وسداها.. ومن قوانين هذه النفس فى حياة الأفذاذ:

[أن أوجاع ميسور لايؤخذ منه.. أشد هولاً من قنوط فقير لايرزق.. وأفضل أن أكون قيثارة تشنف الآذان.. على أن أكون قيثارة فضية الأوتار.. فى منزل: ربه مبتور الأصابع.. وأهله طرشان]!!

إنها النفس المثقلة بثمارها.. والتى تحمل الرخاء إلى الأرض الجدباء.. إنها النفس التى تنادى فى الناس:

أنا مثقلة بثماري:
ألا فارحموني.. وخذوا مني
اشفقوا عليّ.. وخذوا مامعي..
نفسي مثقلة بثمارها..

فهل من جائع.. يجنى ويأكل ويشبع؟

أليس بين الناس من صائم رؤوف.. يفطر على نتاجى.. ويريحنى من أعباء خصبى وغزارتى؟

نفس رازحة تحت عبء من التبر واللجين.. فهل بين الناس من يملأ جيوبه.. ويخفف عنى حملى؟]

الدرس.. يؤتى أكله

وقد وضح ذلك فى هذا الرجل الذى قال:

يارسول الله: إن لى عندك ثلاثة دراهم!! ونستشعر هنا رد الفعل العنيف لدى الصحابة من هذا الادعاء الذى يواجه به رسول الله ﷺ وكأنى بهم يحدثون أنفسهم بما يلى:

١ إنها فقط ثلاثة دراهم.. قدر زهيد.. فلم الإحراج؟!

٢ ثم إنها خرجت من يده.. مباشرة إلى يد مسكين..

٣ لم يعطها النبى ﷺ لقريب له أو محسوب عليه!

٤ ثم هى صدقة منك على المسكين.. فقد أعطيتها مالاً.. فكانت لك ثواباً.. مآلا!

٥ وقد اختصك ﷺ بالذات.. دون رفاقك من الجالسين.. فليكن ذلك شرف أربى فى ميزانك من هذه الدريهمات!

الدفاع عن الرجل

ويسارع الرسول ﷺ إلى إسكات هذه الخواطر

أولاً: دفاعاً عن الرجل.

وثانياً: رأباً للصدع الذى يمكن أن يحدث بين الصحابة.. ليظلوا موحدين متوحدين.

وإذا كان من قيادات الدنيا من سياسته: فرق تسد.. فإن محمدا ﷺ يوحد أمته.. ولايمكن الشيطان الرجيم من أن يجد ثلمة ينفذ منها ليجعلهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض.

حسن الظن

من أجل ذلك يقول.. وفور انتهاء الرجل من بسط دعواه: أما إنا لانكذب قائلاً ولا نستحلفه.. وإذن فالرجل صادق فى دعواه طبق هذه القاعدة.. التى تبدو فيها قيمة الثقة بالمسلم الذى هو بحكم إسلامه صادق فى دعواه.. لايكذب.. ولايطالب باليمين تأييداً لدعواه..

حتى يظل القائد.. قائداً

ولكن الدعوى على أى حال وبمنطق البشر لاشك مُحْدثةً شبهة قد تفسد التصور فتفسد الأحكام.. من أجل ذلك يثنّى ﷺ بقوله: «ففيم صارت لك عندى»؟

كيف أخذتها منك.. وفى أية ظروف تم ذلك.. وذلك حتى لاتذهب الظنون بالناس كل مذهب.. وحتى يظل القائد قائدا.. وقبل أن يتخذها المغرضون تكأة لهم فى ترويج بضائعهم الكاسدة.

أدب المسلم

ويبدو الفتى المسلم على غاية مايكون الأدب: فهو لايقول للرسول: إن لى عليك..

ولكنه يقول: إن لى عندك.. فاستبعد حرف الجر.. على.. ومايفيده من إلزام.. وصور القضية كأنها أمانة عنده.. وهو وإن لم يستردها فهى عنده فى الحفظ والصون!

ثم إنه يقول له: (تذكر يارسول الله يوم كذا).. وإذن فلم تكن الواقعة أمس.. أو أمس الأول.. وإنما هى واقعة قديمة.. بعيدة رابضة هناك فى اللاشعور.. ومن ثم.. يذكره بها.

ويعنى ذلك: أن الرجل لم يكن فى نيته أن يطالب بدينه.. فقد مضت مدة طويلة ولم يطالب به.. وإنما المطالبة له.. وليست عليه: لأنه ﷺ يلح على كل صاحب حق أن يطالب به..

ورغبة من الرجل فى أن يلقى الرسول ربه «طيب النفس» فإنه يطالبه بأمر منته بالفوز بحبه ﷺ وهو غاية المراد من رب العباد. وإذن.. فالطلب محسوب له.. لا عليه!

قيمة صلة الرحم

ولايغيب عن البال قيمة صلة الرحم.. عندما أمر ﷺ ابن عمه «الفضل بن العباس» والذى قضى دينه.. وقبل هذا كان هو الذى جاء بالنبى ﷺ إلى المسجد ليخطب هذه الخطبة وهو: موعوك.. معصوب الرأس.. وهكذا أبناء العم دائماً: أو مايجب أن يكون: معاً فى الملمات..

المربى.. الإنسان

قال عمر بن عبدالعزيز يوماً: «أيها الناس: إنما يراد الطبيب.. للوجع الشديد. ألا فلا وجع أشد من الجهل. ولا داء أخبث من الذنب. ولا خوف أخوف من الموت»

ولقد كان ﷺ هو الطبيب الذى حرض مرضى الذنوب على التحلى بشجاعة الاعتراف بالذنب.. حتى يتم تشخيص العلة.. وتتأكد رغبة المريض فى الشفاء.. وإلا فإن الجبن المانع من طلب الشفاء.. دافع إلى سريان العلة إلى الحد الذى تتفاقم فيه تداعياتها..

ولقد ظهر ذلك.. فى نفس هذا الموقف الذى شجع فيه صاحب الدراهم الثلاثة إخوانه على أن يكونوا صادقين مع أنفسهم. ومع رسولهم ﷺ فى محاولة لاستئناف حياة جديدة:

جاء فى مجمع الزوائد: ثم قام إليه رجل آخر. فقال: عندى ثلاثة دراهم. غللتها. قال: ولم غللتها؟ قال: كنت محتاجاً إليها. قال: خذها يافضل.. ثم قال: «يأيها الناس: من خشى من نفسه شيئاً فليقم أدعو له».

من أصول التربية

إن أول خطوة على طريق الشفاء أن يحس المريض بعلته.. ثم يرغب فى التخلص منها مضحياً بما قد يترتب على هذا الاعتراف من حرج.. وذلك بعدما وجد اليد الحانية تمتد إليه.. وهذا ماحدث بالفعل:

فقد قام رجل فقال: يارسول الله. والله إنى لكذاب. وإنى لمنافق. وإنى لنؤوم. فقال ﷺ: «اللهم ارزقه صدقاً. وإيمانا. واذهب عنه النوم.. إذا أراد!».

ولاحظ من مظاهر عمق رغبة الرجل فى الخلاص انه يتطوع من تلقاء نفسه مؤكداً تخلقه بكل خصلة من هذه الخصال الوبيلة.. بالقسم.. ونون التوكيد.. مشفوعة باللام..

ولاشك أن غريزة حب الذات كانت تنازعه لكنه غلبها مؤثراً براءته من علته على الأوضاع الاجتماعية.. وما تفرضه من فضيحة يخف بها ميزانه لدى الناس.. ويجئ دعاء الرسول ﷺ بلسماً شافياً.. وهو فى نفس الوقت شهادة بصدق رغبة الرجل فى التخلص من أوضاره صدقاً أعان الطبيب على وصف الدواء الشافى بإذن الله تعالى.

ولاحظ من فقهه ﷺ هنا قوله: [إذا أراد] ذلك بأن الخطوة الأولى على طريق الشفاء تبدأ من قلب المذنب نفسه: فإذا أراد الشفاء.. ورغب فيه.. بل وصمم عليه كان ذلك سبيلاً إلى بلوغ المراد.

وهذا مايقرره علماء النفس اليوم عندما يشترطون للشفاء أن يكون المريض صادقاً مع نفسه.. وإلا.. فلا أمل فى الشفاء!

الفضيلة تسرى بالعدوى!

يقول بعض الصالحين: لكى تتقى حقد الناس عليك: كن قاسياً على نفسك.. كريماً معهم.

لقد كان من ثمرات هذا الموقف المبارك.. أن حرك الرغبة فى الخلاص لدى بعض الجالسين.. الذين فرض عليهم منطق الرسول ﷺ أن يستجيبوا لدعوته إلى الاعتراف بما قدمت أيديهم وصولاً إلى تحقيق أعز أمانيهم.. حين يدعو رسول الله لهم فيتقبلهم ربهم.

إن الخطأ وإن كان فاحشاً.. مع الاسترشاد.. أحمد من الصواب مع الاستبداد..

وهو نفسه الدرس الذى يعلن عن نفسه من خلال هذا النقد الذاتى.. لرجال غالبوا نوازع النفس.. ثم فى النهاية غلبوها..

وذلك عندما توفرت لديهم شجاعة الاعتراف بالخطأ بعدما استيقظ الضمير فيهم.. والذى هب مزعوراً فى كيانهم.. فى محاولة لتطهير النفس من أدرانها.. فى أمة يقول صالحها:

لأن أترك التهجد فى الليل.. لأصبح مستغفراً.. خير لى من أن أتهجد، ثم أصبح مغرورا.

أجل هبوا.. تحت وطأة الإحساس بأن أحدهم قد يستغنى عن الطعام والشراب أياماً.. بل قد يستغنى عن الهواء لحظات.. لكنه لايستغنى عن فضل الله تعالى لحظة من زمان وهاهى ذى تباشير هذا الفضل متمثلة فى دعوته ﷺ إلى الاعتراف سبيلاً إلى الخلاص.

تصحيح المفاهيم

ولقد سرى ذلك التيار فأيقظ النوام الذين هبوا من رقادهم متحررين من كيد الشيطان.. وهذا رجل ثالث يقول: إنى لكذاب. وإنى لمنافق. وما من شئ من الأشياء إلا وقد أتيته.

فقال له عمر: ياهذا: فضحت نفسك! قال: مه ياعمر: فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة! ثم قال: اللهم ارزقه صدقاً، وإيماناً وصير أمره إلى خير فكلمهم عمر بكلمة فقال رسول الله ﷺ: عمر معى. وأنا معه والحق بعدى مع عمر حيث كان.

فقام رجل فقال: يارسول الله: إنى رجل جبان. كثير النوم.

قال: فدعا له. قال الفضل: فرأيته أشجعنا. وأقلنا نوماً. قال: ثم أتى بيت عائشة.. فقال للنساء مثل ماقال للرجال. ثم قال: من غلب عليه شئ فليسألنا ندعو له. قال: فأومأت امرأة إلى لسانها. قال: فدعا لها][٥]

لقد كانت دعوة الرسول ﷺ مسك الختام الذى توج الله به جهاد هؤلاء المرضى.. جهادهم أنفسهم النزاعة إلى تجاهل العلة دون حساب لمخاطر المستقبل.

موقف المرأة

وإذا كان موقف الرجال هنا عجيبا.. فأعجب منه موقف المرأة التى تناست طبيعتها.. ثم داست على أشواقها.. متجاهلة ما سوف يجر عليها الاعتراف من قبل زميلاتها من شماتة.

لكنها قررت أن تفر إلى الله تعالى والفارُّ إلى سيده لايلوى على شئ.. ولايفكر فى شئ إلا فى الوصول إلى بر الأمان.

ولاحظ من حكمتها أنها لم تعلن عن نفسها كما أعلن الرجال.. ولكنها فقط تشير إلى لسانها.. لأن أمرها قائم على الستر.

ألا إن الإنسان ليحب حسن السمعة. وطيب الذكر.. لكن التجربة تقول: لايكفى أن نحب شيئاً ليصبح بمجرد حبه ملكا لنا.

بل يجب قبل ذلك أن ندفع الثمن.. مهما كان ذلك الثمن.. ولقد دفع الناس هنا الثمن.

وقد يبدو الثمن أحياناً صغيراً.. لكنها سماحة الإسلام التى تجعلنا نحقق بالعمل الصغير أعظم أمانينا.

درس فى الوحدة

وما تزال قيمة الوحدة هى الدرس الأثير فى خطابه ﷺ فى مرض موته.

الوحدة التى لم يكن يلقيها خطباً.. وإنما يتمثلها عملاً وسلوكاً..

---

(٥) مجمع الزوائد.

أشواق.. حجازيّة الإيقاع

شعر د. صابر عبد الدايم

مِنَ النيل شُرياني إلى البَيْتِ يَمْتَدُّ … وشَوْقي إلى أم القرى ما له حَدُّ

وإني إمامُ العاشقين.. ولا أرى … لمعشوقتي نِدًّا.. وهل في الهوى نِدُّ؟؟!!

هي الشمس تَجْري.. والهُدَى مستَقَرُّها … وفي كُلِّ روحٍ من أشعتها وَقْدُ

هنا البيت رَيْحَانٌ ورَوْحٌ.. وقبلة … هنا النفس طير لا يكبله قَيْدُ

هنا الخلق أفواجٌ.. ومن كل بقعة … يطوفون كالأطياف يُنْظِمُهُمْ عِقْدُ

«تساوَوْا.. فلا الأنساب فيها تفاوتٌ» … ولا سَيِّدُ فيهم يُؤلِّهُهُ عَبْدَ!!!

هنا الركن والحِجْرُ الطَّهُور وزَمْزَمٌ … هنا مَشْرِقُ الرؤيا.. هنا الحُبُّ والمَهْدُ

وإني إمام العاشقين.. وقصتي … حجازيَّةُ الإيقاع.. تَعْزِفُها نَجْدُ

تَسِيرُ بها الركبانُ.. تَروِي مواسِمًا … من الشوق تُذْكيها الصَّبَابَةُ والوَجْدُ

أَفيءُ إلى الأستار.. أُلقِي مواجعي … وأَحْمِلُ أثقالا.. ينوءُ بها الجَهْدُ

وتَجْأَر أسراري.. وتَنْطق أدمعي … بما النفس تَطْويه.. وفي بَوْحها يَبْدُو

وتَظْمأُ أشواقي.. وتَذْوَى منابعي … وفي حِجْر إسماعيل يَنْهَمِرُ الوَعْدُ

وعَيْنَي نَاجَتْ.. واللسان مشاهدٌ … يرى الضوء فوّاحًا به الحَجَرُ الصَّلْدُ!!!

هنا الضوء إيقاعٌ.. هنا العطر سدرةٌ بها تسبح الأرواحُ في ساحها تَشْدو
هنا أوَّلُ الأشواق.. من عهْد آدمٍ هنا كان ميثاقُ النبيين.. والعَهْدُ
هنا قصة الإيمان تَتْرى فُصولُها هنا الحق.. والإيثار والعِزُّ.. والمَجْدُ
هنا البأسُ.. والإيلافُ.. والهَدْى والنهى هنا الفَتْح أَسْيَافٌ ورَحْمَتُها حَدٌّ
هنا رايةُ التوحيد تَعْلُو على المدى وفي ظِلِّها الوضَّاء أَحْلاَمُنَا تَعْدُو
وفي كُلِّ فَجٍّ.. كم يَرُوحُ مُمَزَّقٌ ومن فَيْءِ بيت اللَّه في أَمْنِه يَغْدُو
وإني إمام العاشقين.. وقصتي حجازِيَّةُ الإيقاع.. تَعْزِفُها نَجْدُ
هنا تركض الأشواقُ ملَهْمَةَ الرُّؤَى وللشوق أَفْرَاسٌ مُسَوَّمَةٌ جُرْدُ
هنا تبدأُ الأشواق رحْلَة نَبْضِها وكم في دياجير الرؤى ضَلَّ مُرْتَدٌّ!!!
هنا القلب في شَمْس الحقائق سابحٌ وكم تاه في الأَبْعَادِ.. لم يُنْجِه بَعْدُ!!!
وكم طال إبحاري.. وكم تاه مرفأى!!! وكم غَرَّني برق.. وكم غالني رَعْدُ!!!
وكم مال ميزاني.. وكم جف منهلي!!! وكم صِدْتُ أحزاني.. وذَاتي هِيَ الصَّيْدُ!!
وفي ظل بيت اللَّه في موئل الهدى أَقَمْت موازيني.. وعَادَ لِي الرشْدُ
وإني إمام العاشقين.. وقصتي حجازِيَّةُ الإيقاع.. تَعْزِفُها نَجْدُ
تَسِيرُ بها الركبانُ.. تَروِى مواسِما من الشوق تُذْكِيها الصَّبَابَةُ والوَجْدُ
من النيل شُرياني.. إلى البيت يَمْتَدُّ وشوقِي إلى أُم القُرَى مَالَهُ حَدُّ

***

مُشكلاتٌ أعجزت العِلم وحلّها الإيمان

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

كان للعلم الحديث أثر بالغ فيما قدمه إلي الحضارة الإنسانية من خدمات، وفيما بذله من عناصر ومقومات، كان له أثره كذلك فيما اكتشفه واخترعه من أشياء قربت البعيد، واختصرت المسافات، ووفرت الزمن وقدمت للإنسان المعاصر العديد من أسباب الراحة ومظاهر السعادة.

ولكن كل ما قدمه العلم الحديث إنما هو فى شكل الحياة وليس فى داخلها، وفى مظهرها وليس فى مخبرها، بمعنى: أنه قدم تلك الأسباب المادية التى تعين الإنسان فى حياته، وفى مختلف شئونه وأموره ووظائفه بيد أنه لم يستطع أن يدخل إلى الأعماق الإنسانية أو أن يعالج النفس البشرية من تلك المخاوف التى ازدادت أشباحها مع زيادة العلم الحديث، وتعددت تعدد نظرياته واكتشافاته.

إننا فى هذا لا ننكر العلم الحديث جملة، ولا نرفضه جملة، ولا نعول عليه وحده، أما أننا لا ننكره، فلأنه قائم بيننا بنظرياته وأدواته وعياداته ومصانعه واكتشافاته واختراعاته التى قدمت خدماتها للإنسان، والإنسان محتاج دوما إليها.

ثم لأن الإسلام هو دين العلم، لا يتعارض معه بل يدعو إليه ولا يهون من شأنه بل يكبره.

ولهذا فنحن لا ننكره ولا نرفضه بالجملة، وإنما نرفض أن يعول الناس عليه وحده وأن يكون هو الموجه وحده للحياة الإنسانية.

ومما لا شك فيه أن التعويل عليه وحده، ضرب من الإسراف فى القول والبعد عن الجادة وضياع وتغريب لأنه مازال عاجزا أمام العديد من المشاكل التى لم يجد لها حلا، والتي حاول أصحابها اقتحام لجة علم النفس فأغرقهم بدل أن يحل مشاكلهم.

وإذا كان الطب الحديث استطاع تقديم العديد من العلاج للعديد من الأمراض فإن هناك أمراضا كثيرة مازال الطب الحديث عاجزا عن تقديم العلاج لها.

ومازال سر الحياة والموت وكيفية الموت وأمور كثيرة، لم يزل العلم واقفا أمامها دون جدوى.. معنى هذا أنه لا يعول عليه وحده، ولكن هناك قوة أكبر منه، وأعظم أثرا هى قوة العقيدة، والإيمان بالله. ومع هذه القوة الإيمانية تختفى بادىء ذى بدء كثير من المشاكل و المتاعب والألغاز.

إن المؤمن لا يخاف، ولا يجبن، ولا يكذب ولا يغش ولا يحتال، والمؤمن لا يؤذى جاره، والمؤمن يقول الحق والخير، والمؤمن صادق فى القول، مخلص فى العمل، وفى بوعده، أمين على ما اؤتمن عليه.

والإيمان، هو الذى يمكّن صاحبه من مواجهة المشاكل العديدة والكوارث الفادحة التى لا يمكن للعلم أن يقدم فيها شيئا.. إن حوادث الحياة المتكررة من غرق وحرق وزلازل وبراكين وأمثال ذلك كثير، ماذا يقدم العلم لأصحابها وللمحيطين بهم؟ لا شىء أما الإيمان ففى صيدليته جزاء للصابرين، ودعوة صادقة للصبر وعلاج للنفس من الجزع والفزع والهلع وأخذ بيد الإنسان إلى شاطىء الأمان.

ومن أجل هذا نقول: إن العلم الحديث والطب الحديث وعلم النفس فى أمس الحاجة إلى الإيمان وبدونه لا يستطيع العلم أن ينجح فى علاج النفس البشرية ولا أن يدفع عنها ما يساورها من شكوك، ولا ما يحيط بها من مشاكل لا تنتهى ولا حلول لها.

يقول «ديل كارينجى»: إنى لأذكر الأيام التى لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين، ولكن هذا الجدال انتهى إلى غير رجعة، فإن أحدث العلوم ـ وهو الطب النفسى ـ يبشر بمبادىء الدين، ولماذا؟

لأن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى، والاستمساك بالدين والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف والتوتر العصبى، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى تشكوها. نعم إن أطباء النفس يدركون ذلك، وقد قال قائلهم الدكتور «أ. ابريل»: إن المرء المتدين حقا لا يعانى مرضا نفسيا أبدا.. وإذا كان المؤمن يحيا فى أمن وطمأنينة، فإن غير المؤمنين من الملاحدة والمنحرفين يحيون فى مخاوف دائمة.

وفرق واسع بين المؤمن ونظرته إلى الآخرة وبين غيره ونظرته إليها وفرق واسع كذلك بين

النظرتين تجاه الموت. فغير المؤمن يخاف الموت ويخشى عواقبه ويرى فيه انتهاء لحياته وانحلالاً لبدنه، وبطلانا لتركيبه.

وأما المؤمن فيرى أنه ينتقل إلى ربه الذي خلق فسوى وقدر فهدى، وخلق الموت والحياة والنشور.. ويشير ابن مسكويه إلى الأول فى قوله:

«إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدرى الموت على الحقيقة ولا يعلم إلى أين تصير نفسه، أولأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدم ودثور، وأن العالم سيبقى موجودا، وليس هو بموجود فيه».. وأما المؤمن فكما لم يخف فى دنياه، فإنه لا يخاف من آخرته ولا من الموت. وقد قيل لأعرابى اشتد مرضه: إنك ستموت، فقال: وإلى أين يذهب بى بعد الموت؟ قالوا: إلى الله.. فقال: ويحكم، وكيف أخاف الذهاب إلى من لا أرى الخير إلا من عنده؟

إذن ففى الإيمان حفاظ على الإنسان وعلى الحياة من الانقلاب النفسى، والتدهور والضياع، لأن الذى يؤمن به هو الله الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى.

والإيمان فيه هداية للقلب وهداية للنفس وأمان لها من كل المخاوف

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾(١).

والإيمان يحفظ لأصحابه حياة طيبة فى الدنيا، وأما فى الآخرة فيقول الله تعالى:

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٢)

والمتتبع لنماذج البشر من المؤمنين وغيرهم، ومن مشاكل هؤلاء وأولئك يتضح له إلى أى مدى كان للإيمان أثره البالغ على حياة الناس، وكيف حل مشاكلهم وأخذ بأيدى المجتمعات المؤمنة إلى شاطىء الأمان.

***

فلما قسى قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت الرجا منى لعفوك سُلمّا

تعاظمت ذنبى فلما مزقته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

الإمام الشافعى

(١) التغابن (١١).

(٢) النحل (٩٧).

الإسلام السياسي

تأليف

جويل بنين   جو ستورك

مناقشة وتحليل :

الأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي

ألف الأستاذان جويل بنين أستاذ تاريخ الشرق الأوسط، ومدير برامج الفكر الحديث والأدب بجامعة ستاندفورد، وجو ستوك مؤسس مشروع أبحاث الشرق الأوسط والمعلومات ألفا كتابا تحت عنوان: (الإسلام السياسى) فى خمسة أجزاء تتحدث عن الإسلام فى القديم والحديث حديثا يتجه إلى نظرة خاصة بهما، وقد قام الأستاذ سليمان أمين عبد الحميد بتلخيصه على نحو ما رآه، وقدم التلخيص تحت عنوان (عرض كتاب الإسلام السياسى) ورأت وزارة الإعلام (الهيئة العامة للاستعلامات) أن تطلب رأى الأزهر فى هذا التلخيص، وقد قرأت ما جاء به، حين كلفت بكتابة تقرير عنه وها هو ذا.

١ - الإسلام السياسى:

يتحدث المؤلفان عما يسمى بالإسلام السياسى: وكأنه معادل لإسلام آخر غير سياسى، والحقيقة أن هذه التسمية مضللة، لأن الإسلام فى جوهره قانون واحد يشمل شريعة الله التى تصلح لكل زمان ومكان، والسياسة جزء من هذا القانون، فكما نقول العبادات فى الإسلام والمعاملات فى الإسلام والحدود فى الإسلام نقول السياسة فى الإسلام، أما أن نقول «الإسلام السياسى» فتلك خديعة توحى بأن هناك إسلاما آخر غير سياسى وكل من قرأ كتاب الله يعرف أن الإسلام دين ودولة لا يفصل أحدهما عن الآخر، وغير ذلك لا يدعى إسلاما.

وقد اختار المؤلفان هذه التسمية ليتمكنا من مهاجمة أنصار السياسة الإسلامية، وتأييد العلمانية التى تحارب شريعة الله، وكأن دعاتها يمثلون الإسلام فيما يتجهون مع أنهم حين ينادون بفصل الدين عن الدولة لا يتبعون شريعة الإسلام!

وبادئ ذى بدء أعلن أن التلخيص الذى قدم إلينا يتحدث عن أمور فى السياسة المعاصرة فى دول الإسلام كإيران والسعودية والسودان والجزائر ويتجه إلى نقدها، وفى هذه الأمور قد لانملك الدليل على صحته، لذلك فإننا فى هذا التقرير لا نتحدث عن الوضع السياسى لهذه الدول كما جاء فى الكتاب وليس لنا أن نبدى حكما على رجالها وزعمائها، لأن الأدلة الصحيحة غير متوفرة، ومن ثم نتجه إلى مناقشة ما يتعلق بالآراء الإسلامية التى وردت فى التلخيص لنحكم عليها فى ميزان الإسلام الحق، ونحن بذلك نخوض فى بحر نعرف السباحة فى موجه، ونستطيع أن نميز بين الخطأ والصواب، أما الآراء السياسية المتعلقة بالدول المعاصرة فليست مما نعنى به إذ لا نملك الأدلة الصحيحة على ما سطره المؤلفان، ونصرف النظر عما قيل عن نشأة ما يسمى بالإسلام السياسى منذ جمال الدين إلى العهد الراهن لأن الوقائع التاريخية لا تجعل مثل محمد عبده، وجمال الدين ومن تبعهما إلى الآن متميزين بلون خاص يفصلهم عن الدين الصحيح، بل هم يتحدثون بالدليل المقنع من الكتاب والسنة، وهم أولى بالحديث من أناس لم يتصفوا بمعرفة الشريعة الإسلامية، وإذا تحدثوا عن السياسة فى الإسلام جانبواالصواب، ومع ذلك فقد تتبع المؤلفان آراءهم، وجعلاها مقابلة للاتجاه الآخر بل أفهما القراء أن هؤلاء هم المستنيرون! وأنهم يصلون هجوما ضاريا لا مبرر له، وهذا خطأ واضح، فليس فيهم من تثقف بثقافة دينية تؤهله للخوض فى أحكام الإسلام، وأعرض عن ذكر الأسماء فما أقصد إلى التشهير!

وقد تحدث المؤلفان في نهاية المقدمة بأن غرضهما من هذا الكتاب هو التضامن مع كل من العلمانين والإسلاميين الذين يكافحون من أجل الحقوق الإنسانية والسياسية ضد الدول والحركات الديكتاتورية، والسياسة فى الإسلام ترعى حقوق الإنسان وتحارب مظاهر الطغيان، وليست تتفق مع الاتجاه العلمانى الذى ينكر رقابة الله على الأعمال والأقوال! فجمع الإسلاميين مع العلمانيين فى خندق واحد يعطى أبعد معانى التضليل.

وقبل أن يدخل المؤلفان فى صميم موضوعهما، ذكرا أن المستشرقين القدامى يميلون إلى أن الإسلام يعاون الاستبداد، ويسرى الاستبداد فى كيانه، وأن المستشرقين المحدثين يكتفون بأن الإسلام لا يتفق مع الديمقراطية، ومن يتأمل الرأيين عند الفريقين يجدهما رأيا واحدا، يصم الإسلام بالسيطرة والتحكم ولا نتوقع من كهنة الاستشراق غير هذا اللغو! فلنتركه.

٢ - الأزهر:

وإذا كانت هذه هى الروح السائدة فى هذا البحث المغرض، فلا ننتظر أن تقال كلمة إنصاف عن الأزهر الشريف، بل لابد أن تكال له التهم الظالمة حيث جاء فى هذا التلخيص ما نصه ص ٩ : «إن الدافع الاستبدادى فى مصر لا ينبع فقط من الدولة، ولكن أيضا من بعض مراكزالسلطة الإسلامية، وهناك أصوات استبدادية تخرج من الأزهر الذى هو صوت الإسلام الرسمى فى مصر، وترتفع بشكل متزايد ضد الرأى العلمانى والليبرالى، ومثال ذلك منع كتب علاء حامد والمستشار سعيد العشماوى، هذا بالإضافة إلى أن المؤسسات الإسلامية تشكل وسيلة يتحكم بها التيار الإسلامى، ويوجه الجماهير، والخطاب الدينى لا يعطى صوتا لهذه الجماهير، ولكنه يوجهها نحو التعليم الأخلاقى على المستوى الفردى، وأن العوائق التى تواجهها القوى الليبرالية هائلة».

وفى هذه العبارة ما يلخص هدف الباحثين من تأليف الكتاب بأجزائه الخمسة، فالغرض الأساسى عندهم هو حماية من يهاجمون شريعة الله من أمثال عشماوى وعلاء حامد، وإذا تدخل الأزهر ليقول: إن هؤلاء لا يفهمون القرآن كما نزل، وأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه كان ذلك صوتا استبداديا يخرج من الأزهر! وكأن الأزهر عقبة فى سبيل التقدم!

ولم يسأل الباحثان عن رسالة الأزهر فى صميهما، وهل خرج عنها حين وضح الصواب من الخطأ فى أقوال تحرف كتاب الله وتغاير ما انعقد عليه الإجماع بالدليل! أكان الباحثان ينتظران من الأزهر أن يقول للمستشار العشماوى ومن سار على دربه، أنت على صواب فى خطئك ولن نبين ماوقعت فى تدوينه من الانحراف، فإذا جهر الأزهر بالحق ووضح طريق الانحراف كان صوت استبداد! ومناهضا للحرية!

٣ - ملاحظة هامة:

حين يتعرض الباحثان لرأى الإسلاميين يوجزانه إيجاز مخلا، أما حين يتعرضان لرأى العلمانيين فالبسط والإسهاب، وقد حددا ما يريده العلمانيون فى هذه السطور ص١١ .

«خصوم الشريعة أو بالأحرى تطبيق الشريعة يقرون بأن الشريعة قائمة على كلمة الله، ولكنها قابلة للتطوير والتعديل، وتخضع للتحفظات مثل القوانين الوضعية، هذه واحدة، والفقه غير قابل للتطبيق فى كل الظروف الحالية وهذه نقطة ثانية، والنقطة الثالثة أن الحدود تتعارض مع حقوق الإنسان، وفوق ذلك فهى (أى الشريعة) قد تسهل الميول الدكتاتورية للحكام»

هذه الاعتراضات الأربعة، أجاب عنها الفقهاء بما لا تزيد بعده من الإقناع، ولكن أبواق العلمانية ترددها وكأنها لم تقرأ ردا شافيا يقنع ذا البصيرة المحايدة، ولو كانت هذه الاعتراضات المخطئة لم تجد التصحيح الحاسم لقلنا: إن الذين يرددونها معذورون إذ لم يهتدوا إلى يقين، ولكن الردود تعاقبت وذاعت، فكان على المعترضين أن يكفوا عن ترديد ما ثبت بطلانه، ولكنهم لا يبحثون عن الحقيقة لذات الحقيقة بل يلبسون الحق بالباطل، وسأحاول أن أشير إلى رد موجز لهذه الاعتراضات فأقول:

(أ) هناك فرق بين القول بتطوير الشريعة كالقوانين الوضعية، والقول باختلاف الفتوى وتغيرها بحسب الأزمنة والأحوال والبيئات والعوائد، لأن كلمة التطوير تدل على العدول عن أصل، والتمثيل بالقوانين الوضعية غير الثابتة يؤكد ذلك، أما اختلاف الفتوى وتغيرها بحسب الأزمنة والأحوال والبيئات فقد أكده الفقهاء وعملوا بمقتضاه «يقول ابن القيم في أعلام الموقعين بالجزء الثالث[1] تحت عنوان (فصل في تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال): هذا فصل عظيم النفع جدا، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجدت من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها، ومصالح كلها،وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، ومن الرحمة إلى غيرها ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل» . ا هـ.

وكتب التشريع المعاصر قد ضربت عشرات الأمثلة بما لا إيضاح بعده! فهل قرأ هؤلاء ما قيل؟

(ب) الفقه غير قابل للتطبيق في الظروف الحالية! هذه قضية يجاهر بها من لم يقرأ كتب التشريع المعاصرة، حيث تخصص أعلام من الدارسين في كتابة الفقه الإسلامي على نحو يرتفع في تقنينه وتدليله إلى أسمى ما تعورف من كتب القوانين، وقد كان من الجائز أن يقال ذلك منذ قرن مثلا، أما أن تزخر المكتبة الفقهية بالآثار المعاصرة التي تقنن التشريع الدقيق لمستحدثات العصر ومتطلباته مقارنة بما يماثلها من القوانين الوضعية، ومرجحة وجهة النظر الإسلامي ثم يقال: إن الفقه غير قابل للتطبيق فهذا خطأ صريح.

(ج) القول بأن الحدود تتعارض مع حقوق الإنسان، لغو باطل، وضح الدليل على خطئه، لأن حقوق الإنسان شرعت لمن يبعد عن الجريمة لا لمن ينغمس فيها! والقانون العادل لا يحمي المجرم، ولا يدلل المارق، والرحمة بالجاني هي القسوة بعينها، ولكل حد من الحدود شروط واضحة بحيث لا تطبق إلا على المنحرف الأصيل، وجريمة السرقة بالذات لا تكون غالبا إلا في الخفاء، ولاتثبت إلا بجهد، فكانت عقوبتها صارمة! والذين يصفون الحدود بالقسوة هم الذين يشنون الحروب الظالمة لتحصد آلاف الأرواح في دقائق معدودات، ويعدونها عملا وطنيا مشروعا، وفي مجال القول سعة لو أردت، وقد تحدث الفقهاء بإسهاب عن عدالة الحدود.

(د) والداهية القاصمة أن يقول قائل: إن شريعة الله تسهل الميول الديكتاتورية للحكام! وسياسة الحكم في الإسلام توضح مركز الحاكم، وتقيده بالشرع، واختياره بالشورى، وعزله مفروض إذا لم يصلح! وما جاءت

---

(١) اعلام الموقعين جـ (٣)، صـ (١)، وما بعدها.

النظم الديكتاتورية إلا بمخالفة أصحابها للإسلام! وليذكر لنا الباحثان حاكما واحدا حكم بالبغى والديكتاتورية باسم الإسلام! بل إن القوانين الوضعية هى التى أوجدت الطغاة من أمثال نابليون وهتلر وموسولينى ومن لا نحصى من أعداء الشعوب.

وانتقل المؤلفان إلى ما سمياه: المبادئ الرئيسية فى الإسلام، فأشارا إلى موقع الفرد فى السياق الاجتماعى الإسلامى، وإلى تحريم الربا فى الإسلام، ونظام الزكاة، واصمين بذلك كله بدعوى غموض المسئولية فى تحديد المنفعة الاجتماعية، ودعوى أنه لا اقتصاد بدون فائدة، وأنه ليس هناك تعريف واضح للمساواة والعدالة، وأن الزكاة لا تكفى بتوفية حق الفقراء، وكل ذلك مدروس ومردود عليه، وأذكر أن المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر المنعقد فى المحرم سنة ١٣٨٥هـ الموافق مايو سنة ١٩٦٥م، قد درس شئون المال والاقتصاد دراسة مستوعبة، فتحدث الدكتور محمد عبدالله العربى عن المعاملات المصرفية، وتحدث الأستاذ أبوزهرة عن الزكاة، وتحدث الدكتور العربى ثانيا عن طرق الاستثمار، وبين الدكتور محمد مهدى علام معنى الصدقة فى الإسلام، وشغل ذلك فراغا كبيرا فى المجلد الخاص بالمؤتمر، وهو مطبوع متداول، ولمن يريد النظر الموضوعى النزيه أن يراجع بحوث المؤتمر التى أشرت إليها ليعرف أن كل ما ذكره الباحثان فقاقيع تبدو على السطح ثم يهوى بها التيار، وليس هذا التقرير مجالا للرد حتى أفيض ببعض ما أشار إليه هؤلاء الفضلاء، وفى أعداد المؤتمر التى أصدرها من بعد والتى بلغت تسعة أعداد بحوث أخرى تنحو هذا المنحى فتفيد من ألقى السمع عن صدق وإخلاص.

وفى الختام تحدث الباحثان عن المرأة فى الإسلام حديث من يرصد بعض ظواهر الحجاب فى دول خاصة ودون أن يرجع إلى الوضع القانونى للمرأة فى الإسلام، وإنما المصدر شاشات التليفزيون وأقوال مراسلى الصحف! وما هكذا يدور البحث فى مسائل التشريع.

واختتم التلخيص بآراء لعدة أناس اختارهم الباحثان كما أرادا فأدلوا بآراء عن الجماعات والأشخاص، لتلقى انطباعا خاصا بالنفور من المد الإسلامى، وقد ذكرت أننا لا نرد على المسائل المستقاة من الصحف المغرضة، والتى ساقها الباحثان وكأنها حق لا شبهة فيه، واختيار هذه الأسماء المنحرفة عن تعاليم الإسلام يدل على الغرض الأول وهو الإشادة بهذا الانحراف على أنه هو الأسلوب الصحيح!

ومجمل القول يتضح فيما يلى:

١- أن كتاب الإسلام السياسى يمثل اندفاعا لتأييد العلمانيين ممن يعارضون حكم الله، ويعدهم أصحاب الرأى البصير، وكأنهم هم المصيبون.

٢- كما يمثل ضيقا بالفكر الإسلامى المتمسك بالثابت من أصول التشريع قرآنا وسنة، ووصما له بالديكتاتورية حينا، وبالتأخر حيناً آخر.

٣- لم يأت الكتاب بجديدٍ ما حول ما أثاره كاتباه، فصحف العلمانيين متشابهة المضمون متحدة الإيقاع! والكتاب محاولة للهتاف بما يروجون.

٤- وإذا كانت حقائقه مشهرة لدى أصحابها الذين لا يملون ترديدها، فقد اكتفينا بتسليط الضوء على المخالفات الصريحة لأصول الإسلام وقضاياه، أما الأحداث السياسية فليس من شأننا أن نخصها بالتعليق، ولكننا نصرح أن الكاتبين لم يكونا فى سرد الأحداث منصفين، بل كان الانحياز واضحا إلى غير سبيل المؤمنين، مع التهجم على كل من يعلن تمسكه بشريعة الإسلام، وكأنه مناوئ عنيد.

الإسلام وإشكالية الفكر الحضارى

للأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم الفيومى

يوصف الإنسان فى نظر مؤرخى الأديان: بأنه حيوان متدين. كما يوصف فى نظر علماء الاجتماع: بأنه حيوان اجتماعى. فمثلما يوصف بالضرورة الدينية فى حياته، يوصف أيضا بالضرورة الاجتماعية، ومعنى وصفه بالضرورة الدينية: أن طبيعته الدينية لا تنفض عنه ولا ينفض عنها، فالدين ضرورى له فى حياته، ومعنى وصفه بالضرورة الاجتماعية: أن طبيعته الاجتماعية لا ينسلخ عنها ولا تنسلخ عنه، فالاجتماع ضرورة له.

فالإنسان وفق هذين التفسيرين هو: حيوان اجتماعى متدين.

غير أن الجدل الإنسانى فى الميادين الفكرية ينازع المعنى الاجتماعى الذى يوصف به الإنسان، وينازع أيضا المعنى الدينى الذى هو عليه الإنسان... فهناك من الفلاسفة الذين يشقون الرأى على أنصار النزعة الاجتماعية بالنزعة الفردية، وهناك كذلك من المفكرين الذين ينفضون أيديهم عن القائلين بالفطرة الدينية ليزعموا فى قولهم بأن الأصل فى الإنسان: النزعة الإلحادية... ولا نظن أننا ننتظر من دوائر الفكر الإنسانى الجدلى أكثر أو أقل مما هو عليه فى الرأى والمذهب من الاختلاف... فالخلاف سمة بارزة فى تاريخ الفكر الإنسانى.

وليس بدعا أن نرى خلافا بين الذين يرون: أنه حيوان اجتماعى، وبين الذين يرون: أنه حيوان متدين. فحين يرى الاجتماعيون: أن الظاهرة الاجتماعية متغيرة من صنع الجماعة وتفرض نفسها على الفرد.. أى على الفرد أن

يوافق أعراف الجماعة موافقة إلزامية ولايكاد يخالفها حتى يتعرض لقهر من الجماعة فالإنسان فى نظر علماء الاجتماع يوصف بالمتغيرات الاجتماعية وهذا ماعليه الفكر الحضارى. فى حين يرى علماء الأديان: أن الدين الإلهى غير الوضعى له خصائص منها أنه ثابت غير قابل للتغيير ولا تصنعه الجماعة فالإنسان فى نظر علماء الأديان يوصف بالثوابت الفطرية.. فإذا كانت الظاهرة الاجتماعية متغيرة ويوصف بها الإنسان وإذا كانت الظاهرة الدينية غير اجتماعية أى ليست من صنع الجماعة وهى ثابتة لا تتغير ويوصف بها الإنسان.. فكيف يوصف بهما معا؟.. أى كيف يوصف بالثابت وبالمتغير؟

وإذا كان من المفروض لدينا. أن تقود الظاهرة (الثابتة) الظاهرة الاجتماعية (المتغيرة) فكيف يقود الثابت المتغير؟

رأى علماء الاجتماع أنه من أجل ألا يقعوا فى خلط كبير - ومن خلال دراسات لنماذج دينية ليس الإسلام من بينها - رفضوا كون الدين وحيا إلهيا كما رفضوا أنه ينطوى على قيم ثابتة، وأخضعوا تفسيره على أنه ظاهرة، وقَدَّم " أوجست كونت" تفسيره للظاهرة الدينية: بأنها أحد مظاهر قانون الأحوال الثلاثة الذى يرى فيه: أن الفكرة الدينية تعد مرحلة من مراحل التطور العقلى للإنسانية.

ورأى علماء الاجتماع فيما بعد.. ووفق ظروف قاسية مر بها المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى... بسبب هيمنة الكنيسة عليه - أن ينقلوا معنى "إلهية الدين" إلى "بشريته".. أى أنه من وضع الجماعة البشرية، وشاء لهم أن يضعوا قوانين تخدم معنى التطور الدينى فى حياة البشرية

كما وجد علماء الاجتماع فى المجتمع الأوربى ما ينهض لهم حجة تقيم الدعوى على مناهضة الرأى القائل بقيادة الضرورة الدينية للضرورة الاجتماعية... ووجدوا فى الكنيسة مثالا سيئا حين تصدرت قيادة المجتمع الأوربى ، لطخت من سمعتها ومن سمعة الدين فنبذها المجتمع وأصبحت هى ومرحلتها الزمنية مثالا حيويا على سوء القيادة الدينية لدى دوائر الفكر الفلسفى يشهرونه حين يريدون أن ينبهوا على سوء القيادة الدينية للمجتمع الإنسانى، وكانت المسيحية منذ تاريخها الأرضَ السهلة التى اخترقتها المذاهب الإنسانية الناشئة فى أوربا حيث لم تقو أظافرها ومخالبها دفاعا عن نفسها.. كذلك لم يشهد لها واقعها بِحُسْن الأسوة مما قوى على ضعفها حركة نقدية نشطة.. كما آذر من مسلك الحرية النقدية للمسيحية وجود ديانات على شبه من ضعف المسيحية كاليهودية والهندوسية... حتى بات من المسلم به أن المسيحية تآكلت من الداخل بفعل التحديث منذ مدرسة الإسكندرية حتى الأن.

أمـا البـوذية والهـندوسيـة، فـهى، فى نـظر الغـرب: أقـرب الى الخـرافـة.. واليـهـودية ديانة منغلقة وأتبـاعهـا قلة.. وكـانت تـلك المواقف من نتائج الحركة العقلية فى أوربا.

أما الإسلام فإن الغرب لم يـدرسه حتى عصر النهـضة وإنما عـمم حكمـه واعتـبر شـأنه شأن الأديان التى درسها أو أقل درجة منها.

نلاحظ أن الدين الذى تناوله الفكر الأوربى إبان عـصـر النـهـضـة لفظ عـام أطلق من غـيـر تخصيص على:

* الأديان الوضعية.

* الأديان السماوية باختلاف درجاتها.

والمعايب التى اتخذها الفكر الأوربى كـانت مستوحاة حقيقية من الواقع الاجتماعى الذى عاش فيه وعاشته أوربا.

وكـان هذا الواقع خاضعا لحكم طبقة دينية أظهرت دينها كأنه مخدر للأمة.

وبدراسة الدين الذى كـان سائدا فى العصر الوسيط لاحظنا أنه مجموعة مزيجها فلسفة مشوهة واجتهادات كهنوتية فى مجموعها تخدم أغراض الكهنة وأطماعهم الدنيوية، ولما كـــان ديـنهـم هو هـذا المزيج الفـكرى الذى يخالف دين التوراة والإنجيل ثار عليهم قديس ألمانى "مارتن لوثر".

فـالثورة على الدين فى أوربا أشعلهـا رجل الدين نفسه.

ومن هنا نؤكد على أن الدين الإسلامى لم يكـن مـقـصـودا بالثـورة عليـه إبان النـهـضـة الأوربية، إنما الذى كان مقصودا بالهجر والنبذ هو الدين الكهنوتى.

والدين الكهنوتى ليس هو الدين النموذجى الإلهى، إنما كان دينا مشوها ومحرفا ثار عليه الإسلام بالرد والنقد قبل أن تثور عليه أوربا، غير أن أوربا كانت على غير علم كامل بنظام الإسلام ولا بموقفه من الأديان السابقة عليه.

فإذا ثارت أوربا على الكنيسة فليست بدعا فى ذلك، إنما تعـتـبـر ضـاعـفت وناصـرت من صوت الإسلام أخيرا حين اعتبر المسيحية دينا منسوخا وأنها غير صالحة للتطبيق الاجتماعى.

أمـا الإسلام فلقـد بنى سنتـه الحـياتيـة على العقل الإنسانى الذى يخطىء ويصيب.. دون العقل المعصوم التى تقوم به المسيحية وبعض الأديان وتفـوض إليـه سلطة الرقابة والحكم فى محـاكم تفـتـيش لتـصـادر به حـرية الفكر، أو لفرض رقابة على الآراء والمعتقدات والأعمال.

كـــذلك لايعـــرف الإســـلام نظام الحكم الاستبدادى الذى يقف أمام الفكر فيمنعه من البحث الحر لمعرفة حقيقة جديدة أو يقف دون كشف نور جديد حائلا دون سعى العقل فى عـالم المجهـول ليس فى الإسـلام هذه السلطة سواء كانت كنسيه أو طبقة دينية معصومة تمثل المركز الوحيد فى تفسير الحقيقة السماوية وتلزم الإنسان أن يخضع لهـا أو تفـرض عليـه

فكرا معينا باسم "القوة الروحية" لتنظيم المجتمع.

آيةً على ما نذهب إليه أن الخلافة الإسلامية اعتمدت على المبايعة الحرة واصطبغ بعض الجدل السياسى حولها بصبغة المصلحة الشخصية وبعضه بصبغة المصلحة الدينية دون أن يَدَّع الخليفة أنه يستمد شرعيته من مصدر إلهى أو أنه مفوض من أسرة دينية لها تقاليد القداسة. الدينية ليستبد بمقاليد السياسة والحكم.. لذلك اهتم الإسلام بأساسيات المعرفة منها: العقل الإنسانى. والتجربة: بدءا من ملاحظة أحوالنا الداخلية إلى ملاحظة ما حولنا فى الكون.

منها تكونت مواد التفكير فى العقل الإسلامى.. وكان المسلمون يصدرون فى أعمالهم دائما عن دافع المصلحة العامة والغاية الدينية.

أعانت هذه الأساسيات المسلم على أن يمارس حياته العملية.. وزادت من اهتمامه بالنشاط الفكرى ليناضل ضد الجمود والركود موطئا طريق الاستقامة فى المنهج نحو إرساء نظرية الرأى التى تساعده على مواكبة التغيرات الاجتماعية.. حتى أصبح الرأى الاجتهادى من أهم سمات الحركة الفكرية فى الإسلام يحمل الطابع الإسلامى من حيث الشمول والوحدة خالصا من التعصب الأعمى.. وأدرك العلماء من مفكرى المسلمين مغزى الدعوة إلى الرأى.. فقاموا بجهود مشتركة إلى بناء أصول البحث والنظر فى الدين.. لإرساء قواعد فكرية إسلامية تركز أصولها بالطرائق النقدية فى العلم والمعرفة اعتبرت مصادر للتشريع الإسلامى بجانب الوحى الإلهى وهى متعددة وهى: الإجماع، القياس، الاستصحاب، شرع من قبلنا، الاستحسان، المصالح المرسلة، سد الذرائع، مذهب الصحابى، البراءة الأصلية فى العصر النبوى.. فضلا عن قواعد أخرى مثل: الأمور بمقاصدها، والمشقة تجلب التيسير، مصادر متنوعة عكف على التأليف فيها مفكرو العرب القدامى الذين حملوا راية الإسلام.. حين أرادوا أن يعالجوا الرأى العلمى وضعوا له مقاييس علمية دقيقة تتوخى البرهان العقلى لتقود الضرورة الدينية الضرورة الاجتماعية غير أنها تحتاج منا إلى نظرة معاصرة.

ولما كانت طبيعة القضايا الاجتماعية التى تجد لهم متنوعة.. فإنهم اعتمدوا لحلها على مصادر متنوعة.. بدءا من القرآن إلى الاجتهاد.. تنوعا استوجب منهم الاعتماد على العقل.. أضف إلى ذلك تأويلهم الذى كان يتم بشكل حر دون تقيد بمدرسة أو مذهب، أو عبارات بلاغية أو كما يقول الأصوليون دون عبارات مبسوطة.. وكان غير كاف لديهم بل مرفوض أن ينتحلوا لإثبات صحة الرأى أن يستشهد، أو يستأنس له برأى تاريخى قديم وفقط دون التفكير فيه.

وكنا نرى من خلال اختلافهم - أى علماء أصول الفقه الإسلامى - حول تقرير تلك القواعد، نقاشا حرا مستنيرا للغاية، يتيح للعقل أن يتفهم مكانه من النص الإلهى وعلاقته به دون أن نرى مقالة تكفر هذا، أو تلعن ذاك، أو أن النقاش بدعة، وإنما كانوا يقولون: "للمجتهد أجر إن أخطأ، وأجران إن أصاب[(١)]، وذلك هو حال الطبيعة الإنسانية على ما هى عليه من غير ادعاء العصمة لها.

وساد المدارس جو هادىء من الحوار الفكرى الخلاق المبدع كفل لها أن تباشر مسئوليتها نحو دينها ونحو مجتمعها.. من غير أن تنعزل عن دينها باسم المجتمع أو عن المجتمع باسم دينها.. فكان هدفها خلق مجتمع يحكمه طابع التوافق والانسجام بينه وبين القانون الإلهى.. فجاء إسهامها فى فهمها التاريخى للأشياء ليس لاهوتيا صرفا، إنما كانت عدة اعتبارات تحكم اختلافها منها: أن العالم ليس ثابتا، وإنه فى كل مظاهره فى تبديل ونمو، ومنها احترام اختلاف الأماكن.. أى فلا تسوى المدينة بالعراق.. فالأولى يحتج مالك بعملها، والشافعى قد كان له بالمشرق ماكان من فقه، ثم أحكمه بمصر فصار له مذهبان: جديد بمصر وقديم بالعراق.

كل ذلك كان منهم تقديرا لسير الحياة المتغيرة ووزنا لتدرجها المتطور.. بهذه الطرق المصنوعة دخل على الدين تيار إنسانى ليرفع قيمة تعامل الإنسان مع النص الإلهى وقيمته الخلقية والفكرية ويربط الدين بالمجتمع ومتغيراته ويؤاذر مسلك العقل فى فهم سنن الإسلام الحياتية ويعزز مقاييسه التى تقرر الاجتهاد وتنتقد التقليد فى الدين ويعايش بها المؤمن سننه الحياتية وسنته الدينية.

وأثبتت هذه الطرق المصنوعة والمتنوعة: أن كل ما أوحى الله به غير مناقض للعقل والحياة الاجتماعية المتغيرة.. وفى النهاية كانت هذه الطرق بالنسبة للعقل مولدا جديدا له فقربت بينه وبين الدين وحافظت عليه من أن تستهويه نظرة خاصة أو فكرة شخصية نزقه.

وليست الفرق الإسلامية ومذاهبها إلا تعبيرا عن الممارسة العملية للمسلم وأنها ليست واحدة من حيث الفهم والتطبيق.. وبفضلها ظل الدين بجهود الفقهاء معبرا عن حاجات الإنسان الدينية والاجتماعية فى جميع مراحلها الزمنية والمكانية متآلفا مع ما يستجد من معارف ومشكلات ومع المتغيرات الحضارية ونظم الفكر والاجتماع، لأن الفقهاء كانوا يرون أن واجبهم الأول يقتضيهم أن يعملوا على توافق النظام الاجتماعى مع مبادىء الدين وكان قسطا من النزاع شجر بينهم من محاولة مخلصة لتوضيح الرأى الصحيح من غير أن يجعلوا من نزاعهم حواجز تحجز بين أرائهم..

(١) كانوا يقولون ذلك استنادًا لحديث «إذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر».

ولقد وضحت نتائج كثيرة من الموضوعات الدينية بفضل مناقشتها فى أماكن العلم العامة حتى أصبح تداول نقاشها فى الميادين العامة.. وذلك ليس خاصا بأمور الشريعة وليس ذلك فقط خاص بالجانب التشريعى إنما أيضا كنا نلاحظ أن الجانب العقدى وهو خاص بعالم الغيب فإن له علاقة بالعقل التى يصفها الفكر الإنسانى بأنها علاقة مشوبة بحذر أو بتوتر، لماذا؟

لأن تلك العلاقة ليست واضحة أمام العقول بمستوى واضح.. فبعضها يبنى علاقته على الإيمان بتلك العوالم الغيبية.. ويوصف مثل هذا الموقف فى عرف الفكر الإنسانى بأنه ينطوى على الاحترام الظاهر بينهما.. ومن حيث الحقيقة يوصف بأنه في حالة جمود مغلق أمام الدين وفى ذلك وفق مايرون مايجرح كبرياء العقل.. ويعتذر العقل عن ذلك بأن هذا الجانب لاعقلى وليس بالضرورة أن يسبر غوره.. إنما يكتفى معه بالإيمان فقط. هنا تندرت بعض دوائر الفكر الإنسانى بالعقل الذى يؤمن باللامعقول وقالت: حينما تكون هناك أمور غير مفهومة لدى العقل ينبغى أن يلجأ إلى الإيمان للخروج من الحيرة.. وكان هذا التندر مدخلا سهلا للذين وصفوا عالم الغيب بالخرافة وحملوه مسئولية الجمود العقلى.. بينما هذا الجانب ذاته اعتبره أصحاب النوايا الطيبة مجالا جديدا للعقل تعرف عليه بعد أن كان محدودا بآفاق معينة وذلك بفضل الدين.

أما فى الإسلام فاننا نراه يربط بين عالم الغيب والعقل.. ويشير على العقل بأن يعمل الفكر فى الكون وهو ملىء بالأسرار التى تحفزه سعيا لاكتشاف معقولية الوجود مع رفض النزعة الشكلية التى تنتهى بالإنسان إلى عبثية الوجود.

لذلك حرص مفكرو الإسلام على إبراز التفاعل بين جانبى الدين: المعقول منه، واللامعقول، حين قرروا وفق قواعد منهجية:

أن العقل لا يستطيع أن يعرف ما هو الله.. إلاّ من خلال الوجود الطبيعى وقوانينه التى تعين على الجزم بوجوده خارج أنفسنا وداخلها مثل قولهم:

العالم متغير - وكل متغير حادث.

إن العالم حادث.. هذه نتيجة صارت بدورها مقدمة لقضية أخرى تقول: كل حادث لابد له من محدث.. وذلك المحدث هو الله - من غير شرح أو تفصيل فإن هذه النتيجة ربطت بين الطبيعى وغير الطبيعى.

فمن خلال فهم العقل للواقع الطبيعى.. يبرز لنا نظما ومناهج نتخذها ضمانا للحقيقة ومعراجا لإثبات وجود الله.. وحين بين الإسلام مشكلات عالم مابعد الطبيعة (اللامعقول) فما يبقى على المسلم إلا اعتناقها ثم يتفرغ لكل ما يجب فيه البحث والنظر.. وتصلح له المناهج العملية.. وفى ذلك تقدير للعقل ليُعنى بمجالات الطبيعة وشئونها وهو مايخص مجالات التجربة الإنسانية وما يقع فى إطار تاريخها.

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

شعر الأستاذ الدكتور محمد بدر معبدى

بدا الهلال فعمّ الكونَ ألحانُ ... والسعد لاح ودوح البشر فينانُ
والطير تعزف بالبشرى مغردة ... والأيك بالنبأ الميمون.. نشوانُ
بطحاء مكة في شدو وفى طربٍ ... ويَومُهُا بَاسِمٌ بالنور.. يزدانُ
يوم به عز دين اللّه مرتفعا ... وأشرقت بهدى التوحيد.. أكوانُ

***

يوم إذا عدت الأيام كان لها ... قلبا يغلفه حبٌ.. وتحنانُ
فيه المنى ببشير الخير مقبلة ... وقد تغنى بها فى الدهر ركبانُ
اللّه أكبر جاء الحق.. مؤتلقا ... وقد تلاشى إزاء الحق.. بهتانُ

***

محمد أنقذ الأكوان من ظلم ... وحقبة ملؤها ظلم.. وطغيانُ
تنكب الناس هديا للطريق ولم ... تصخْ إلى منطق الإنصاف آذانُ
تراكضوا لسبيل الغى وانطلقوا ... قدما وطاف بهم للفتك.. طوفانُ
فجاء أحمد يعليها مدوية ... تعنو لصيحتها بالحق.. أركانُ
الناس فى الدين إخوان سواسية ... سيان عندهم عمرو.. وسلمانُ
وكعبة النور والإيمان تجمعهم ... إذا نأت بهمُ دور.. وبلدانُ
وإن أتقاهم فى اللّه أكرمهم ... ومن هداه إلى التوحيد قرآنُ

***

دستـورنا المنقـذ الهـادى إلى سنن ... فيـه لأمـتنا نور.. وعـرفـانُ

لقـد شـقـينا بهـجـران لشـرعـتـه ... وقـد تداعى على الأوطان سـرحـانُ

وليس من قلة فـينا تهـددنا ... فجـمـعُنا كـغـثـاء السـيل.. وسنانُ

مـا ذاك علّمنا المختـار قـائدنا ... ومـا بذا جـاءنا هدى.. وإيمانُ

فـأجـمـعـوا أمـركم يا قـوم وائتلفـوا ... فـالمؤمنون لدى الهـيـجـاء بنيـانُ

أحـيـوا الجـهـاد فـمـا من أمـة قـعـدت ... إلا وعـاث بهـا للبـغـى.. ذؤبانُ

وطهـروا القـدس من رجس يدنسـه ... ويسـتـبـيح حـمـاه اليـوم.. طغـيـانُ

لا تأمنوا القـوم إن الغـدر طبـعـهـم ... وإن ديدنهم جـور.. وبهـتـانُ

لا تأمـنوا لعـهـود ملؤها خـدع ... وبين طيـاتهـا صل.. وثعـبـانُ

فـالعـهـد عندهم قـتل ومـرزأة ... والعـهـد فى شـرعـهم بغى وعـدوانُ

سل عن جـرائمـهم لبنان باكـيـة ... وعن فظائعـهم تنبـيك جـولانُ

***

يا مـسلمـون ألا هبـوا بقـوتكم ... ولا تنامـوا فـإن الشـر.. يقظانُ

إن لم تصـونوا بلاداً صـانهـا عـمـر ... وخـالد وأبوبكر.. وعـثـمـانُ

فـلا تقـولوا بأنا مـسلمـون فـمن ... يقل بذا قـوله زورٌ.. وبهـتـانُ

***

أتبـاع أحـمـد للقـرآن فـاحـتكمـوا ... فـحكمـه رحـمـة كـبـرى وريحـانُ

ومن أعـز من القـرآن مـحـتكمـاً ... تمضى الدسـاتيـر والقـرآن ريانُ

ولن يعـود لنا عـز ومكرمـة ... حـتى يحكم فى الأرجـاء قـرآنُ

ويشـرق الكون بالقـرآن مـؤتلقـا ... ويسـتـعـاد لنا عـز.. وسلطانُ

ويرجع القـدس مـخـتـالاً بقـبلتـه ... تيـهـا ويُهـزم عـدوان.. وبطلانُ

أقـول والنفس بالآمـال مـشـرقـة ... بدا الهـلال فـعّم الكون.. ألحـانُ

***

التراث العلمى الإسلامى

ذاكرة الأمة ورصيدها الحضارى

٣

للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا

يتساءل البعض عن جدوى العمل التراثى وما يمكن أن يقدمه إحياء التراث العلمى من فوائد للأمة فى الحاضر والمستقبل ومن عجب أن نجد أنفسنا مطالبين باتخاذ موقف المدافع عن التراث والبحث عن أدلة مقنعة تؤكد أهميته ومكانته فى حياتنا المعاصرة والآتية، فى الوقت الذى نجد فيه أناسا زالت حضارتهم واندثرت على مر العصور، وغدت لغتهم أغرب من أن يتكلمها حتى المنتمون إليها، ومع ذلك فلا يزالون يعتزون ويفخرون بما يسمونه «حضارتهم»، مع أنهم لم يقدموا للإنسانية إلا المآسى تعقبها المآسى.

والحق أن الفوائد التى نجنيها من تحقيق تراثنا العلمى ودراسته عديدة ومتنوعة، ويفاد منها فى مختلف المجالات المعرفية والتطبيقية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- بفضل المعلومات الجيولوجية والتعدينية التى تضمنها كتاب «الجوهرتين» للهمدانى اهتدت بعثة المسح الجيوفيزيائى لمعرفة موارد اليمن المعدنية والبترولية إلى اكتشاف العديد من المناجم المهمة التى تحتوى على خامات الزنك والحديد والرصاص، إلى جانب الفضة، بكميات تجارية.

٢- كتب باحث غربى عن الفولاذ الدمشقى أنه أكثر أنواع الفولاذ صلابة، وسرد تاريخ دراسته من جانب الأوربيين، وأشار إلى أهميته فى الصناعات الحديثة.

٣- جاء فى عدد من الكتب التراثية وصف دقيق للهزات الزلزالية التى تعرضت لها البلدان العربية والإسلامية خلال القرون الماضية، منها:

كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمدانى، وكتاب «بدائع الزهور ووقائع الدهور» لابن إياس، وكتاب «كشف الصلصلة عن وصف

الزلزلة» لجلال الدين السيوطى، وغيرها. ولا شك أن مثل هذه المؤلفات التراثية تعد بمثابة سجلات زلزالية موثقة، على أساس من الملاحظة والتجريب. والاسترشاد بما جاء فيها عن كل ما يتعلق بظاهرة الزلازل، وتواريخ حدوثها، ودرجات تأثيرها فى المنطقة العربية والإسلامية خلال القرون الماضية، يعد ضرورة منهجية ومعرفية لأى دراسات معاصرة أو مستقبلية تتعلق بخرائط التوزيع الزلزالى وتوقعات حدوث الزلزال فى منطقة ما، خاصة بعدما ظهر حديثا ما يشير إلى أن أجزاء كثيرة من الأرض العربية والإسلامية لم تعد بعيدة تماما عن «الأحزمة» النشطة زلزاليا فى أماكن محددة من العالم.

٤- يزخر التراث الإسلامى بالعديد من المؤلفات فى مجالات علوم النبات والحيوان والعلوم الزراعية وعلم الرعى والمراعى، نذكر منها:

كتاب «النبات» للدينورى، وكتاب «جامع فوائد الملاحة فى جوامع فوائد الفلاحة» لرضى الدين بن محمد الغزى، وكتاب «الفلاحة النبطية» لأبى بكر أحمد بن وحشية، وكتاب «الفلاحة الأندلسية» لأبى زكريا محمد بن العوام الإشبيلى. وقد ترجم هذا الكتاب الأخير فى القرن الماضى إلى الإسبانية والفرنسية، وقال عنه «أنطوان باس» فى تقرير قدمه سنة ١٨٥٩م إلى الجمعية الوطنية الفرنسية: أنه موسوعة زراعية تامة تفرد بها القرن الثانى عشر الميلادى. وقال عنه مؤرخ الحضارة «وول ديورانت»: إنه أكمل بحث فى علم الزراعة ألف فى القرون الوسطى برمتها.

ويمكن الإفادة من هذه المؤلفات التراثية حاضرا ومستقبلا فى تحديد العوامل الأكثر أثرا فى زحف الملوحة والجفاف على مناطق عديدة من الأرض العربية والإسلامية التى تعجز الآن عن تلبية احتياجات أهلها، بعد أن كانت تجذب فى عصور الازدهار الإسلامى كل الأوربيين بجمالها وخيراتها. ويبقى على المهتمين والمختصين أن يدرسوا أنواع النبات بهذه المناطق، وكيفية نموها والعناية بها وببيئاتها.

والأسماء العربية للنباتات كثيرة فى التراث العلمى الزراعى، وتحتاج من المحققين العرب الهمة والدأب للكشف عن كنوز علمية وتعريبية فى غاية الأهمية للأجيال العربية القادمة.

٥- توجد مؤلفات تراثية عديدة يمكن الإفادة منها فى مجال طب الأعشاب، الذى برع فيه علماء السلف ولا يزال معتمدا فى أكثر الدول، فقد أنشأت الهند والصين وباكستان معاهد وكليات لتدريسه، وتجرى فيه بحوث تطبيقية فى أكثر من مؤسسة بمصر والمملكة العربية السعودية، ويدعو بعض الباحثين الغربيين إلى إحياء تدريس الطب العربى وإنشاء اللوائح والأنظمة الضابطة للأطباء والصيادلة الممارسين له.

ومن الملاحظ أن علماء أوروبا وأمريكا بدأوا يعيدون قراءة هذه المؤلفات التراثية، بعد أن قل الاهتمام بها لفترة أمام التطور العلمى والتقنى، وشرعوا فى إجراء التجارب على الوصفات الشعبية التى وردت فيها، فى محاولة للكشف عن أدوية جديدة للأمراض.

وفى السنوات الأخيرة زاد اهتمام شركات الأدوية فى ألمانيا والدانمرك وهولندا وإيطاليا وأمريكا بهذا الموضوع، وطلبوا من مصر وبعض دول المشرق شراء بعض النباتات، مثل ورق السكران لتصنيع البنج الموضعى، وبذور الخلة لاستخلاص أدوية القلب، وبذور البقدونس لعلاج احتباس البول، وبذور الرجلة لعلاج الأرق، وغيرها.

وإذا علمنا أن هناك كثيرا من الأمراض لا تزال تنتظر تطوير العلاج اللازم لها، وأن العلماء يبحثون فى كل مكان فى أعماق الغابات وقيعان المحيطات، عن أعشاب تخلص البشرية من الأمراض الصعبة، وأن كتب التراث لا تزال كنزا لم تصل إليه أيدى الباحثين- أدركنا أهمية هذا التراث فى عصرنا هذا، وتزايد حاجتنا إليه فى المستقبل.

٦- يهتم الباحثون المعاصرون بدراسة الأساس العلمى للتصميمات الهندسية التى قامت عليها تقنية العقود والقباب بأشكالها المختلفة وزخارفها المتنوعة، وذلك لإظهار قيمتها الجمالية الفائقة من جهة، ولإرشاد المعنيين برعاية الآثار قبل الشروع فى أعمال الترميم والصيانة وإعادة البناء والتركيب والزخرفة، من جهة أخرى.

ونشير هنا إلى أهمية الأبحاث التى تجرى حاليا حول هندسة العمارة الإسلامية فى معهد أمير ويلز للآثار بلندن. أيضا يقوم العديد من الباحثين بتطبيق ما ورد فى كتب التراث العلمى باستخدام الحاسب الآلى، وخرجوا بنتائج بالغة الطرافة والدقة والنفاسة، ومن ذلك أن أكثر من باحث استعمل الصيغ الرياضية التى وردت فى كتاب «مفتاح الحاسب» لجمشيد الكاشى حول تصميم القبة المقرنص والأزج أو الطاق، وأدخل تلك الصيغ فى الحاسب الآلى لاستخراج تصاميم حديثة فى العمارة الإسلامية.

٧- كتب التراث العلمى والتقنى تفيد كثيرا فى مجال التربية والتعليم، لتدريب الطلاب على إعادة تركيب بعض الأجهزة والآلات البسيطة. فقد كان المهندسون والتقنيون فى عصر الحضارة العربية الإسلامية يتبعون منهجاً علمياً رائداً فى كل أعمالهم، ويبدأون فى الحالات الصعبة برسم مخططات، ثم يصنعون نموذجا مصغرا لما ينوون تنفيذه. وقد أعاد الفنيون المحدثون بناء العديد من التركيبات والآلات تبعاً للشروح التى قدمها التقنيون الإسلاميون فى مؤلفاتهم، ثم «كتاب الحيل» لبنى موسى بن شاكر، وكتاب «الجامع بين العلم والعمل النافع فى صناعة الحيل» لبديع الزمان الجزرى، وكتاب «الطرق السنية

فى الآلات الروحانية » لتقى الدين بن معروف الدمشقى، وكتاب « الأسرار فى نتائج الأفكار » لأحمد بن خلف المرادى.

الشيء نفسه يصدق على الآلات والأجهزة والأدوات العلمية والفلكية التى طورها علماء الحضارة العربية الإسلامية. ومثل هذه الأعمال تفيد كثيرا فى الأغراض التعليمية، كما تفيد لمعارض ومتاحف العلوم. وقد قام أكثر من باحث بتحديث التعامل مع المعلومات التراثية، لاستخراج أوقات الصلوات، وتحديد المناسبات الإسلامية المهمة من الصيغ الرياضية المقتبسة من كتب التراث، وأمكن الاستعانة بالحاسب الآلى لوضع جداول حديثة لكل المدن فى العالم، فى كل أيام السنة الشمسية[(١)]. ونجد فى عصرنا جهازا شبيها بالاسطرلاب الخطى، هو المسطرة الحاسبة الزلاقة Slide Rule، والتى كانت الآلة الحاسبة الأحدث، المعتمدة فى الأبحاث العلمية قبل نحو خمسة وعشرين عاماً، عندما انتشرت الآلات الحاسبة الإلكترونية (أجهزة الكمبيوتر).

فوائد أخرى لدراسة التراث العلمى الإسلامى

(أ) إثراء المدخل التاريخى فى تدريس العلوم، وتنمية الحس النقدى والثقة بالنفس لدى الناشئة، والوقوف على طبيعة التطور العلمى ومنهجية البحث والتفكير فى العلوم المختلفة.

(ب) كشف حالات الغش الفكرى والقرصنة العلمية من قبل بعض المؤرخين والنقلة والمستشرقين فى حق تراثنا العربى والإسلامى.

(جـ) التأصيل الجيد لمختلف فروع العلم المعاصر (البصريات - الصوتيات - الوراثة - البيئة - الشفرة - الجيولوجيا - الفلك.. إلى آخره).

(د) الكشف عن المزيد من النظريات والاختراعات المتقدمة فى التراث الإسلامى ونسوق مثالا على ذلك: قوانين الحركة والجاذبية التى اكتشفها ابن ملكا البغدادى والحسن الهمدانى قبل نيوتن بعدة قرون.

يقول ابن ملكا البغدادى فى كتاب « المعتبر فى الحكمة » معبراً عن تناسب القوة مع تصارع الحركة: « القوة الأشد تحرك أسرع وفى زمان أقصر ». ويقول معبراً عن قانون الفعل ورد الفعل: « إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين فى جذبهما قوة مقاومة لقوة الآخر، وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب ».

وإن شئنا مثالا آخر، فقد أبرز ديفيد كنج أن رسالة السلطان الأشرف اليمنى (ت ١٢٩٦م) تحتوى على أول إشارة مُبَكِّرة فى المصادر الفلكية البسيطة إلى بوصلة مغناطيسية، وذلك

---

(١) M. Ilyas, Astronomy of Islamic Time for the 2 its Century, Mansell Publishing Ltd. London. 1989.

على الرغم من أن السلطان لم ينسب هذا الابتكار لنفسه. وقد ألحقت بهذه الرسالة إجازتان من أستاذى السلطان تشهدان له بصحة ستة اسطرلابات صنعها الأشرف بنفسه. ويوجد أحد هذه الاسطرلابات حالياً فى متحف «متروبوليتان» للفنون فى نيويورك، وبالرغم من مدى أصالته كان مدار تساؤل قبل نشر فهارس (ديفيد كنج).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ديفيد كنج نشر فى عام ١٩٨٣ مجلدا عن «علم الفلك فى اليمن الوسيط»، استعرض فيه أكثر من مائة مخطوطة فلكية يمنية محفوظة فى مكتبات أوروبا والشرق الأوسط، وقدم قائمة بأكثر من خمسين فلكياً، يمنياً مع مؤلفاتهم، بعد أن عرض تاريخ علم الفلك فى اليمن من القرن العاشر إلى أوائل القرن العشرين، كما تضمن الكتاب مؤلفين فى الحساب، والمساحة، والمعضلات المتعلقة بتحديد أنصبة الميراث.

(هـ) يمكن توظيف نصوص جيدة من التراث العلمى العربى فى أغراض التأصيل لمناهج البحث العلمى ونظريات فلسفة العلم المعاصر. ويكفى أن نشير هنا على سبيل المثال إلى ما ذكره ابن الهيثم فى مقدمة كتابه «المناظر» عن المنهج العلمى ومقارنته بآراء فرنسيس بيكون وغيره، وما ذكره فى مقدمة كتابه «فى الشكوك على بطليموس» ومقارنته بمبدأ التكذيب المنسوب إلى كارل بوبر. وهنا يجد الباحث فى تراثنا العلمى مدداً متدفقاً ومتجدداً لدراسات مستقبلية فى مجالات الفكر العلمى.

(و) تتضمن مخطوطات العلوم إفادات مباشرة وغير مباشرة تغنى مؤرخى الحضارة. مثال ذلك أن كتاب أبى الوفاء البوزجانى فى المنازل السبع، تضمن أدق البيانات عن الضرائب ونظام الخراج وأعطيات العساكر، مما يُعد إضافة فريدة لا توجد فى غيره، وأن كتاب «التيسير فى صناعة التدبير» لابن زَهْر الإشبيلى، اشتمل على تفاصيل مهمة عن الصراعات الداخلية والدسائس فى أسرة دولة المرابطين بالمغرب، وهو كتاب طب لا يقصده الباحث عادة لمثل هذه الإفادات(٢).

(اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على طمس البصيرة منك).
ابن عطاء الله السكندرى

(٢) إبراهيم شبوح، لماذا التراث؟ مؤتمر الفرقان: «تحقيق مخطوطات العلوم فى التراث الإسلامى»، لندن ١٩٩٧.

إســـرَائِيـل
مِن
الـــدَّاخِل

الصورة من صحيفة يديعوت أحرونوت فى عددها الصادر فى ٢٠٠١/٤/٢٧ لطفل يهودى يجلس فوق المدفع يقول:

(أنا أكره العرب)

صورة الطفلة الشهيدة التى أودت بحياتها شظية من قنبلة إسرائيلية.

تتساءل الشهيدة:

(لماذا تكرهنى؟)

عرب فلسطين

للدكتور / محمد حسن عبد الخالق

إن المرحلة الراهنة التى تعيشها الأمة العربية ليست مرحلة نضال لاسترداد حقوق الشعب الفلسطينى ولكنها المرحلة الأخيرة لرصد النوايا الصهيونية وكشف أوراقها ونواياها تجاه مضمون السلام الشامل والعادل.

شئنا أم أبينا.. لابد من إعادة ترتيب البيت العربى. ولمّ الشمل عملياً وفى أسرع وقت.

لابد من البحث عن آليات فعالة للتأثير الإعلامى العربى، وأن نرصد له كل الإمكانيات، خاصة ونحن أصحاب الحق الشرعى، ولا ننسى دور الإعلام الصهيونى فى تزييف الحقائق.

أين اللوبى العربى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهة اللوبى الصهيونى؟

العرب فى فلسطين

منذ صيف ١٩٤٨، وبعد قيام إسرائيل أصبح مليون مواطن عربى فريسة للجوع والحرمان والمرض، وأُسيئت معاملتهم وأهملت القوى العظمى قضيتهم. وفى نهاية عام ١٩٤٩م، قامت حملة باسم «لجنة الطوارىء للأرض المقدسة» - دعيت باسم H. E. L. P، غايتها توجيه أنظار الأمريكيين إلى حالة المواطنين العرب، لمساعدتهم، وكان يرأس هذه المنظمة الرئيس السابق لاتحاد المدارس اللاهوت، الدكتور «هنرى كوفن» كم ضم مجلسها حوالى ٣٠ شخصية من رجال الدين والقضاء ورؤساء الكليات والدبلوماسيين والكُتاب والمحسنين(١).

وقد حاربت الصهيونية كل من انضم إليها، ولم تتمكن المنظمة من الاستمرار فى أعمالها، فتوقفت بعد ثلاثة أشهر من تأسيسها(٢).

ومن الشعارات التى رفعتها الحركة الصهيونية

(١) الفريد ليلينتال: ثمن إسرائيل، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨١ ص ١٠٨

(٢) المصدر السابق: ص ١١٠

من أجل تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين « شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب » .

مع أنهم يدركون جيدا أن فلسطين لم تكن خالية من السكان، بل كان يسكنها العرب الفلسطينيون، وهم عائلات ترجع بأصولها إلى عمق التاريخ عندما كانت تسمى أرض كنعان .

وشاء قدر عرب فلسطين أن يعيشوا تحت ظل احتلال فُرض عليهم بهويته الإسرائيلية . وذاقوا كل أنواع الذل والهوان، على مرأى ومسمع من العالم كله، لم يتخلوا عن عروبتهم، وتحلو بالصبر

ويرى الدكتور (عزمى بشارة)(*) فى تعبير لا يخلو من القسوة :

« أن عرب إسرائيل بقايا مهزومة لمجتمع مهزوم سعوا للحصول على الأمن وليس على المساواة، وأن الهوية المزدوجة لدى عرب إسرائيل تعكس تناقضا خطيرا بين الفلسطينية التى ينتمون إليها وبين الإسرائيلية التى فرضت عليهم، وأن الخط الأول للسياسة هو « الدولة اليهودية » ، التى امتنعت عن إدماج العرب داخل الهوية الإسرائيلية وأنها دولة لليهود، وخدعة الديمقراطية التى يتشدقون بها فيما يتعلق بحق المواطنة والتصويت والخدمات لكل رعاياها لا تشمل العرب . (٣)

ومن أوائل زعماء الصهيونية الذين جاهروا بالدعوة إلى طرد الفلسطينيين « إسرائيل زنجويل » الذى زار فلسطين عام ١٨٩٧م، حيث قال : « علينا أن نستعد لطرد القبائل صاحبة الملكية بحد السيف كما فعل أجدادنا » .

وعلى العرب دراسة الخاصية السلوكية الخاصة بالروح العدوانية تجاه العرب لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية دراسة مستفيضة . مع العلم بأن هناك العديد من مراكز البحوث الإسرائيلية، أنشأت خصيصاً لرصد وتحليل أوصاف « الطابع العربى » ، فى الوقت نفسه فإن الدراسات عن الشخصية اليهودية الإسرائيلية لم تحظ باهتمام واسع من الباحثين العرب المعنيين بالدراسات الإسرائيلية بالمقارنة بما لديهم رغم الجهد الواضح للدراسات الجادة التى يقوم بها الأساتذة المختصون، بالإضافة إلى المراكز البحثية العديدة التى تتبع المؤسسات الصحفية وغيرها وكذلك المؤسسات الخاصة إلا أنها جهود فردية

والمجتمع الإسرائيلى مجتمع معقد بطبيعته من حيث البناء الفكرى، مجتمع تحيط به هالة من الكذب والتشويه وطبيعة اجتماعية تفرض التغيير السريع، ولديهم حساسية مفرطة تجاه سقوط القتلى فى المعارك والحرب لجيش الدفاع الإسرائيلى المرتبط بعوامل تاريخية ونفسية ودينية عديدة طوال تاريخهم .

مما جعل الأدباء يلتزمون بفكرة الغربة والخلاص، وتبعهم الزعماء وسارعلى هديهم

(*) باحث فلسطينى، رئيس «التجمع العربى» وعضو الكنيست الإسرائيلى عن كتلة «حداش» (الحركة من أجل الديمقراطية والسلام)

(٣) عزمى بشارة: عل شتيلت هميعوط هبلستينى بيسرائيل (حول مسألة الأقلية الفلسطينية فى إسرائيل تل أبيب ١٩٩٣م ص٢٠٣ – ٢٢١

بقية اليهود، وهى الفكرة الصهونية التى شاعت وشغلت بالهم منذ بداية خطواتهم فى الأدب والسياسة والتى تقوم على:

١- نبذ التاريخ اليهودى القديم السابق لقيام الدولة والمحمل بالمفهوم السلبى.

٢- طرح مبدأ الصهيونية كحد فاصل بين التاريخين الماضى والحاضر كنتاج لهذا الرفض. والتىَ جاءت تحمل معها العنف والقوة التى زودت بها الفرد اليهودى كبديل للاضطهاد والخُذلان الذى فرضه عليه المفهوم اليهودى الممثل فى تاريخ اليهود السابق لقيام الدولة.

فقد كرهتهم شعوب الأرض جميعا نظير ما اقترفت يداهم قبل الميلاد وبعده، فقد أبعدوا عام ٧٢٠ ق. م على يد الآشوريين، وفى ٥٨٦ق. م طردهم البابليون، وفى عام ٧٠م طردهم الرومان وفى ١٢٩٠م طردوا من إنجلترا وفي عام ١٤٩٢م طردوا من أسبانيا، وفى ١٨٨١ طردوا من روسيا وفى ١٩٣٣ - ١٩٤٥ طردوا من ألمانيا.

وقد اتضح هذا المفهوم كثيرا فى الأدب، حيث يقول «يودكى» بطل قصة الموعظة:

«إننى لا أحترم التاريخ اليهودى كله تنكيل واضطهاد وموت. كما أننى أقترح عدم تدريس مادة التاريخ اليهودى فى المدارس لأطفال اليهود».

لأنه قد لاحظ «أن أطفال اليهود يعجبون بقصص العرب المليئة بالبطولات والفتوحات»[(٤)].

وقد حدث لهم صعود فجائى فهم - كما زعموا - شعب الله المختار، ثم سقوط فجائى، تشتتهم بين الأمم منذ موسى -عليه السلام- ثم صعود فجائى آخر تمثل فى سلبهم فلسطين وانتصارهم عام ١٩٦٧م، ثم سقوط فجائى عام ١٩٧٣م قضى على مقولة الجيش الذى لا يقهر، والآن لا يريدون العودة إلى سقوط فجائى آخر قد يكون الأخير، وإذا تشردوا مرة أخرى فلن تقبلهم شعوب العالم أجمع.

وقد بات واضحاً أن المجتمع فى إسرائيل يتكون من قوتين متنافرتين هما اليهود المحتلين والعرب أصحاب الحق الشرعى وما أقلق الكيان الصهيونى أنه وطوال نصف قرن من الزمان لم يستطع أن يجعل العرب يتخلون عن هويتهم العربية رغم الضغوط والظروف الصعبة التى حلت بهم.

وتعرض العرب للتنكيل وفقا للمخطط الصهيونى الذى وضعه مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتسل: حيث قال «لا نستبعد فكرة طرد الفلسطينيين وترحيلهم»[(٥)].

والمخطط مستمر حتى وصل إلى الإبادة الجماعية على يد ما يسمى جيش الدفاع الإسرائيلى الشارونى.

وقد استغلوا انتصارهم عام ١٩٦٧م أسوأ

(٤) حاييم هزاز: هدراشاه «الموعظة» ص ٩ - ١٣.

(٥) طاهر شاش: التطرف الإسرائيلى ص٦٤

استغلال حتى وصل بهم الأمر إلى معاملة العرب فى فلسطين أسوأ معاملة تتسم بالقسوة والعنف وكأنهم مغانم حرب.

كما أن الصورة التى يرسمها الأدب والفكر والإعلام الصهيونى للشخصية العربية هى صورة سلبية تضع العربى فى مرتبة متدنية للغاية تصل إلى حدّ نزع الصفات الإنسانية عنه وتجريده من صورته البشرية ليس من قبيل السب والتجريح ولكن فى إطار عملية فكرية نابعة من عقيدة دينية مزيفة يعرفها علماء النفس جميعاً وهى عملية تسهيل العدوان عليه باعتباره كائن أدنى.

وقد وصفهم أحد قادة جيش الدفاع الإسرائيلى بأنهم «خنافس سامة لا تستحق سوى أن تنحشر فى زجاجة ليأكل بعضها بعض».

وقد لعب الأدب دوراً بارزاً بالإضافة إلى وسائل الإعلام الإسرائيلية فى غسل العقول اليهودية والافتراء على العرب بقصص دنيئة أصابت العرب فى كل عزيز وغال حتى يهيئوا يهود العالم للانتقام.

فبعد أن هاجر الأدباء والمفكرون من شتى بقاع العالم وخاصة يهود الغرب فى أوائل القرن ١٩ مع بدء الهجرات اليهودية الحديثة إليها كان من الطبيعى أن يتناولوا هذا العالم الجديد فى أعمالهم الأدبية، وكان رفض العرب لهذه الهجرات هو أحد الموضوعات الرئيسية فى الأدب العبرى الحديث الذى كتب فى فلسطين فى بداية هذا القرن والصدام كان حتميا بسبب سعى اليهود إلى إقامة قرى زراعية خاصة بهم والاستيلاء على أرض يملكها العرب ويتوارثونها جيلا بعد جيل وكان من الطبيعى أن يحمل المهاجرون الجدد مشاعرالعزلة والكراهية تجاه العرب.

وينخدع العرب فى التفريق بين اليهودى والصهيونى.

والحقيقة أنهم يبسطون التقريب بينهما. بجملة تتكون من خمس كلمات وهى بالعبرية:

«صَاريخْ لهْيُوت إِيرِتْس لعَم يسْرَائيل» أى «يجب أن تكون هناك أرض لشعب إسرائيل» وكل يهودى يؤمن بهذه الجملة فهو صهيونى.

ويسعى القائمون على أمور التجمع الإسرائيلى سعياً دؤوبا إلى تمييع الحدود بين الإسرائيلى والصهيونى واليهودى والمتدين والعلمانى وذلك تنفيذاً لقرارات المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين ١٩٦٨ والذى يعتبر أن «محاولة التفريق بين الصهيونية والشعب اليهودى محاولة إجرامية»(٦).

واتحدوا كصهاينة فى الانتقام من العرب، وكل رئيس وزراء إسرائيلي انتقم من العرب يعتبر -فى نظرهم- بطلا قوميا، وعليه أن يسطر تاريخه القومى بدماء عربية، ولنستعرض أبطالهم وما اقترفت يداهم بحق العرب:

بن جوريون: مذبحة كفر قاسم.

---

(٦) أ. د قدرى حفنى: دراسة فى الشخصية الإسرائيلية (الاشكنازيم) مركز بحوث الشرق الأوسط ص٨٥.

جولدا مائير: مذبحة بحر البقر.

مناحم بيجين: مذبحة صابرا وشاتيلا.

إسحاق شامير: مذبحة دير ياسين.

إسحاق رابين: مذبحة الأسرى المصريين.

شيمون بيريز: مذبحة قانا.

نتنياهو: مذبحة المسجد الأقصى.

باراك: مذبحة المسجد الأقصى.

شارون: مذابح تصفية الشعب الفلسطيني علناً وعلى مسمع ومرأى من العالم أجمع.

وقد وصفهم المؤلف الإنجليزي (سيريل سكوت) قائلاً:

«إن أساليبهم تشبه أساليب هتلر النازية يبثون الخوف والرعب والإرهاب، يثيرون القلاقل والاضطرابات في العالم ويعيشون في الأرض فساداً»[7].

ومسلسل الإجرام والتطاول على العرب والمسلمين مستمر في الصحافة والإعلام والأدب العبري، بإشارات تهدف إلى التنكيل بهم وإخراجهم من فلسطين، ولم يقتصروا على تشويه السمات فقط ولكن امتد تطاولهم ليشمل الجانب الديني أيضاً.

وقد سمعنا عن الإهانات التي يرددها المتطرفون اليهود ضد الإسلام والمسيحية بنشر صور تسيء للرسول الكريم محمد ﷺ والسيدة مريم العذراء.

وكذلك بالنسبة للمسجد الأقصى انطلقت مقولة هدمه وبناء الهيكل على أنقاضه في عدة قنوات فضائية، وقامت إحدى الجماعات الدينية المتطرفة والتي أطلقت على نفسها «جماعة إعادة بناء الهيكل»، بنشر صورة للهيكل اليهودي المزعوم مكان المسجد الأقصى (في حالة هدمه) على سبيل تحقيق ذلك مستقبلاً، وكان ذلك في أوائل الثمانينات، وتصدت لهم مجموعة من المسيحيين المنصفين واستمر نمو هذه الحركة وتغلغلت في نسيج صناعة القرار الأمريكي في غياب خط فعال عربي في مواجهتها[8].

ويستعيد العالم الذكرى الثانية والثلاثين لجريمة إحراق المسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين وثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وقد نفذتها أياد يهودية ملطخة بالدماء في ١٢ / ٨ / ١٩٦٩م، وهو اليوم الذي أعلنت فيه منظمة المؤتمر الإسلامي في جدة بياناً بأن هذا اليوم هو يوم التضامن مع الشعب الفلسطيني.

وتعمل السلطات الإسرائيلية حاليا على تقسيم المسجد الأقصى كما فعلت بالمسجد الإبراهيمي في الخليل حيث أصدرت المحكمة الإسرائيلية العليا قراراً بالسماح لليهود بأداء

---

(7) (SYRIL SCOTTA:) An Outline of modern Occultism, second edition 1949p. 210.

(٨) حسن وجيه: نحو هندسة عربية لدبلوماسية المسار الثاني ص١٠.

صلواتهم داخل المسجد الأقصى.

وكل ما فعلوه يتعارض مع أبسط القيم الإنسانية ومع القرار الجماعى للكونجرس الأمريكى الصادر فى ١٩من ديسمبر ١٩٤٥ والذى قرر فيه عدم المساس بالحقوق الدينية لجميع الطوائف الأخرى(٩).

وإن ما يقوم به إرئيل شارون هو ترجمة لفكر أستاذه جابوتينسكى الذى كان يرى:

« أن الدولة اليهودية سوف تضم جالية عربية كبيرة لن تكف عن المقاومة إلا إذا أقامت الصهيونية جداراً حديدياً يقضى على كل أمال لديها » (١٠).

وأود أن أشير هنا إلى أن حركات الاحتجاج على هزيمة إسرائيل فى حرب العاشر من رمضان أكتوبر سنة ١٩٧٣ قد تلاشت بنفس السرعة التى ظهرت بها، فإن مجموعتين فقط من بين هذه الحركات واصلتا الوجود فى اتجاهين متناقضين تماماً.

المجموعة الأولى: هى جماعة « جوش إيمونيم » الدينية الأصولية التى كان لديها حل جاهز ينطوى على تعزيز الإيمان بالخلاص والعبادة، وحددت أن مبادئها هى:

لا تنازل ولا انسحاب ولا تخلى عن طريق الإيمان بضرورة استيطان كامل « أرض إسرائيل التاريخية » حسب ما يزعمون.

المجموعة الثانية: حركة السلام الآن.. التى نادت بأن نتائج حرب اكتوبر ١٩٧٣ تقود إلى الطريق المعاكس وهو حتمية التفاوض حول إعادة الأراضى المحتلة مقابل السلام، وقد ظهرت فى أثرها حركات أخرى للسلام. إحداها تمثل اليهود الشرقيين هى « الحركة من أجل السلام »، وحركتان تمثلان الرؤية الدينية للسلام هما « السلام والقوة » و « سبل السلام »(١١)

ولتزييف الحقائق سبق أن قال بيجين:

« لم ولن نستخدم تعبير الشعب الفلسطينى وأن الضفة الغربية ستسمى: « يهودا والسامرة » وهذه الأرض تخص الشعب اليهودى بينما يمتلك الشعب العربى ٢٠ دولة، ١٢ مليون كيلو متر مربع أرض، ومن يزن هذه الإدعاءات بميزان العدل، يستخلص بنفسه أن قضيتنا هى العادلة »(١٢).

وأكد هذا المفهوم بنيامين نتنياهو حيث قال:

« يجب أن يتنازل العرب عن أربعة أجزاء من عشرة آلاف جزء (٠٫٠٠٠٤) من المناطق الواسعة التى يسيطرون عليها وهذا التنازل يجب أن يكون عن منطقة الضفة الغربية قلب الوطن القومى اليهودى، والسور الواقى لدولة إسرائيل

(٩) وثائق فلسطينية ١٨٣٩ - ١٩٨٧ - دار الثقافة منظمة التحرير ص ١٧٣.

(١٠) السفير طاهر شاش: التطرف اليهودى جذوره وحصاره ص٥٨/٥٩.

(١١) د. رشاد عبد الله الشامى: إشكالية الهوية فى إسرائيل ١٩٩٧ عالم المعرفة ٢٢٤ الكويت ص ١٤٨.

(١٢) هانى عبد الله: الأحزاب السياسية فى إسرائيل ص ٧٠.

(١٣) بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس ص ٣٨٦.

والتى تشكل استمرارا للجدار الواقى فى هضبة الجولان »[١٣].

والضفة الغربية بالنسبة لهم حيوية استراتيجية، ولهذا فهم يستميتون فى ضمها وطرد أو إبادة من فيها وقد كتب نتنياهو:

« على إسرائيل ضمان سيطرتها على مصادر المياه فى الضفة الغربية، أى السيطرة على المناطق الواقعة فوق أحواض المياه الجوفية الحيوية للاقتصاد المائى الإسرائيلى.

حيث يوجد أسفل مرتفعات « السامرة » الغربية حوض المياه « يركون تنينيم » الذى يزود إسرائيل بحوالى ٤٠٪ من مياهها الجوفية.. ودون هذا الحوض ستواجه إسرائيل مشكلة خطيرة تهدد وجودها بصورة لا تقل عن مسألة الأمن العسكرى »[١٤].

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا بأن الدعوة إلى « إسرائيل الكبرى » لا تقتصر على حزب أو فريق صهيونى دون آخر، وإن اختلفت الأساليب وتعددت الطرق ومناورات « الحق التاريخى، دواعى الأمن، متطلبات الدفاع.. » التى يتشدقون بها إنما يخفون نواياهم وخرائطهم التى رسمها قادتهم.. والتى يسعون جاهدين لتنفيذها.

فقد كتب « تيودور هرتسل » ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ يقول:

شعارنا فلسطين داود وسليمان[١٥].

كما أفتى الحاخام « يهودا كوك » قائلاً:

« أن الله أمرنا أن نستولى على الأرض ونستوطنها ومعنى الاستيلاء هو الغزو »[١٦]. والهدف الإقليمى للصهيونية غير محدد، وليست هناك أية تصريحات تحدد معالم وحدود الدولة المغتصبة:

فنرى إسرائيل « هرتسل » فى رواية « الأرض القديمة ـ الأرض الجديدة » امتدت من النيل للفرات واشتملت على بيروت وسلسلة جبال لبنان.

وإسرائيل « بن غوريون »: تضم النقب برمته وسنجق الكرك « معان والعقبة » وجزء من سنجق دمشق.

وإسرائيل « موشيه ديان »: أيضاً لم تُعرف لها حدود ولم تُرسم لها خرائط « لأن شعب إسرائيل هو الذى سيقرر حدود دولته ».

وحتى جولدا مائير تقول: « لم تعين لنا حدود ولن يتعين، نحن الذين نعين الحدود فى أى مكان »

وقالت أيضاً: « واعلموا جيداً ان أى مكان تستوطنون فيه وتدافعون عنه سيكون هذا المكان داخل حدودنا »[١٧].

أما بنيامين نتنياهو فيقول:

« بما أن السلام فى الشرق الأوسط يرتكز أولاً وقبل كل شىء على الأمن، يجب أن نوضح ما هى الحدود الآمنة بالنسبة لإسرائيل، وأن حدود ما قبل حرب الأيام الستة كانت حدود حرب وليست حدود سلام... لذلك يجب السيطرة على جبال الضفة الغربية الجدار الواقى للدولة »[١٨].

---

(١٤) بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس ص٣٩٢.

(١٥) غازى السعدى: الأحزاب والحكم فى إسرائيل ص ١٤١.

(١٦) طاهر شاش: التطرف الإسرائيلى ص ٧٥.

(١٧) أ. جورجى كنعان: سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية ص ١٩.

(١٨) بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس ص٣٧٧

فعلى مدى خمسين عاما من الزمان، حكم اليهود شعبا أجنبيا لأول مرة فى التاريخ مما حملهم أعباء مرهقة لم يتعودوها فى سياق التجربة اليهودية، مما أسفر عن معارك أيدلوجية مريرة داخل إسرائيل نفسها، وقد أضر هذا بالهيكل الاجتماعى لها وأدى إلى اعتبار إسرائيل فى الداخل والخارج دولة قمعية(١٩).

وما نراه الآن منذ بدء انتفاضة الأقصى وقد دخلت فى شهرها الثامن غنى عن التعريف. وليعلم العالم والعرب أن هناك أكثر من مليون و٣٠٠ ألف فلسطينى يعيشون تحت خط الفقر فى غزة والضفة الغربية.

وتضخم معدلات البطالة ٣١٠ آلاف عاطل وأقامت إسرائيل ٩١ حاجزاً عسكريا تقطع أوصال الضفة الغربية وقطاع غزة.

والمشكلة الحقيقة التى يواجهها الكيان الصهيونى أن عدد اليهود فى العالم شبه ثابت وبالمقارنة فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بارك فى نسل العرب، وهذا ما تخشاه المؤسسة الصهيونية ولهذا فإنها تعارض بشدة أى اتفاق يتعلق بعودة اللاجئين الفلسطينيين، ولابد من الاعتراف بأن انتفاضة الأقصى قد قلبت الموازين العسكرية والأمنية الصهيونية، وانتقلت بؤرة الخطر على إسرائيل من الخارج للداخل، ووجدت المؤسسة الصهيونية الحاكمة أنها أمام نمط جديد من المقاومة يختلف جذريا عن نمط الحروب التى اعتادت عليها من الخارج.

وقد أكد هذا المعنى من قبل «شيمون بيريز» حيث قال:

«إن المخاطر الخارجية تتضاءل أمام المخاطر الداخلية المتمثلة فى أنشطة العنف والزيادة الكبيرة المتوقعة فى عدد السكان العرب»(٢٠).

وليت العرب يعلمون ذلك ويساندون الانتفاضة بالجهد المادى والإعلامى الحقيقى.

والحل فى نظرهم: - حرب هجومية إجهاضية سريعة.

- تدمير الآلة العسكرية العربية.
- احتلال الأراضى كورقة للمساومة والتوسع.
- التوصل السريع لوقف إطلاق النار.
- تغييب الوعى العربى.
- بث الفرقة بين العرب.
- العمل على إبادة الشعب الفلسطينى أو ترحيله.

وضاع حلم اليهود فى سياسة التوسع بعد الغزو الفاشل عام ١٩٨٢م، وانقلبت مغامرة (شارون) إلى خيبة أمل يعوض عنها الآن بحرب البقاء بعد نشوب الانتفاضة الفلسطينية بكل تداعياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وحملات التهديد التى تشنها أبواقهم ليست إلا بالونات اختبار لجس رد الفعل العربى والإسلامى والذى يقاس عليه ما سيكون بعد ذلك.

والسؤال المطروح على الساحة العربية والإسلامية:

- أين هى الشرعية الدولية التى تطبق على العرب فقط وتستعرض الدول الأوروبية عضلاتها مع أمريكا لتدمير كل من يخرج عن الشرعية الدولية بالحرب

---

(١٩) ميلتون فيورست: رمال الأحزان ص ٨٠١.

(٢٠) شيمون بيريز: الشرق الأوسط الجديد - ترجمة محمد حلمى عبد الحافظ - الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٩٤ ص ٢٢.

إسرائيل والبحث عن الهوية

للأستاذ / صلاح عبدالرحيم محمد

تمثل مشكلة الهوية فى إسرائيل إحدى المعضلات التى تحاول هذه الدولة الناشئة أن تجد لها مخرجاً خاصة أنها مجتمع من المهاجرين اليهود، ولقد تزامن ظهور هذه المشكلة بالنسبة لليهود مع عملية «العلمنة» فى بداية القرن الثامن عشر، حينما قامت حركة التنوير اليهودية (الهسكالاة) بمحاولة إزاحة الدين اليهودى عن عرش سلطانه باعتباره أساس الانتماء بين اليهود، كما برز على الصعيدين الاجتماعى والدينى مفهوم جديد وهو: «كن يهوديا فى بيتك، أما خارجه فلتكن إنسانا». ومن ذلك الحين واليهود فى حيرة من أمرهم، وهم يبحثون عن إجابة لسؤال يلح على فكرهم، ويشغل بالهم ألا وهو: «ما هى هويتهم؟».

إن اليهود فى بلاد الشتات التى يعيشون فيها يكتسبون السمات الحضارية لهذه البلاد، فيكتسبون لغتها، وثقافتها، وقيمها، وتقاليدها بحيث تتميز الشخصية اليهودية بعدد من سمات الهوية القومية الخاصة بهذه المجتمعات، فلا يمكن فهم يهودية اليهودى الفرنسى أو اليهودى الرومانى، أو اليهودى المغربى، أو اليهودى اليمنى بمعزل عن التأثيرات الحضارية للمجتمع الذى يعيش فيه كل منهم، وإسرائيل باعتبارها مجتمعاً من المهاجرين اليهود، فهى خليط من أجناس عديدة، وثقافات، ولغات، وعادات مختلفة، فاليهودى الشرقى الوافد من الشرق الأوسط وإفريقيا له ثقافته ولغته التى يحملها معه من المجتمع الذى نشأ فيه، واليهودى الغربى القادم من أوروبا وأمريكا له – أيضاً – ثقافته ولغته التى يتميز بها عن اليهودى الشرقى.

وثمة اختلاف بين إحساس اليهودى الشرقى، واليهودى الغربى بهويته اليهودية، فقد نقل «بتشوفسكى» الوصف التالى عن أوضاع اليهود الوافدين من أوروبا الشرقية: «فى المجر يُشار إلى اليهودى باعتباره يهودياً، وفي رومانيا

يقال له: يهودي، وكذلك يكون الأمر في بولونيا، لكن عندما يأتي هؤلاء اليهود الثلاثة إلى إسرائيل، فالأول يُعتبر مجرياً، والثانى رومانياً، والثالث بولونيا»، وربما كان هذا الشعور المغاير بالهوية يصدق على اليهود الشرقيين إلى حد أبعد وأعمق، ففى تحليل مماثل لأوضاع اليهود القادمين من بلدان شرقية وغربية نجد أنفسنا أمام الظاهرة التالية: «إن اليهودى المصرى، أو العراقى عندما كان يعيش فى وطنه الأصلى كان يطلق عليه اسم يهودى وبالتالى كانت يهوديته جزءاً من شعوره بالذات، ولكنه عندما ذهب إلى إسرائيل أطلقوا عليه هناك اسم المصرى أو العراقى، وبالتالى أصبحت مصريته أو عراقيته جزءاً من إحساسه بذاته ويهوديته، وهذا جعله يحرص على الاحتفاظ بالعلاقات الاجتماعية والثقافية مع اليهود الآخرين الذين أتوا من مصر أو العراق، بينما فقدت اليهودية دورها كأداة للتماسك الاجتماعى[1] لكن معظم الباحثين يجمعون على مقولة: «إن سد الهوة الفاصلة بين اليهود الشرقيين والغربيين سوف يبقى مسألة وجود بالنسبة لدولة إسرائيل، وحتى فى ظل دولة إسرائيلية تعيش مع جيرانها فى سلام وأمان لابد للمفعول التراكمى الناتج عن التناقضات الإثنولوجية والاجتماعية من البقاء كسيف مسلط فوق الرقاب»[2].

وبالنسبة للواقع الإسرائيلى هناك أقوال وصفية منها أن إسرائيل مجتمع من المهاجرين اليهود، وأنها أيضاً مجتمع صهيونى تقوده عقيدة تنبع من مبادىء معينة، وهناك منطلق آخر يقول: «إن إسرائيل هى مجتمع مازال يبحث عن هويته القومية أو اليهودية، وهنا يثور سؤال: ما هو حظ المجتمع الإسرائيلى من «الإسرائيلية» أو «اليهودية» إلى جانب صهيونيته؟. وأين يقبع مغزى البحث الإسرائيلى عن الهوية القومية بالنسبة لمجتمع المهاجرين؟»[3].

ويتحدثون الآن فى إسرائيل عن الحاجة إلى مرونة أكثر فى تعريف من هو اليهودى، خاصة بعد أن تأكد أن عدداً كبيراً جداً من المهاجرين اليهود القادمين من روسيا ودول الانفراط السوفيتى ليسوا من اليهود المتشددين، بل يغلب على كثرتهم الطابع العلمانى، بمعنى آخر يكفى فى المستقبل أن يقول إنسان إنه يهودى، أو يريد أن يكون يهودياً حتي يصبح فى نظر إسرائيل يهوديا، وينسجم هذا التطرف فى المرونة مع اتجاه آخر يطلق عليه «التهويد العلمانى»، ويعنى السماح للأغيار «أى غير اليهود» بالانتماء الى الشعب اليهودى، وليس إلى الديانة اليهودية استناداً إلى قاعدة أن اليهودية دين أو قومية، وليس إلى قاعدة أن اليهودية دين وقومية فى آن واحد[4] ففى دراسة قامت بها «آن دو تنغى» الباحثة فى المركز

---

(١) د. أسعد رزوق، فى المجتمع الإسرائيلى، ص٨٥ ـ ٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص٤٣ ـ ٤٤.

(٤) جميل مطر، تهويد العالم فى الخيال الإسرائيلى، مجلة الهلال، يوليو ٢٠٠٠.

الوطنى للبحث العلمى فى فرنسا والمختصة بالشئون الروسية، عالجت فيها الخصائص التى تميز «الروس» الإسرائيليين بوصفهم جماعة إثنية جديدة فى إسرائيل، فمع أن اندماجهم «السهل» فى الحياة السياسية، و«الصعب» فى الحياة الاقتصادية قد تحقق إلا أن ذلك الاندماج تم على قاعدة رفض الثقافة الجديدة فى إسرائيل، والحفاظ على الطابع الإثنى للجماعة الروسية، وعلى هوية خاصة استندت على العديد من القواسم المشتركة منها: حاضرهم الإسرائيلى بأفراحه وأحزانه، وماضيهم المشترك، وثقافتهم الروسية، بحيث نجح هؤلاء المهاجرون الجدد فى حصر أنفسهم داخل بيئة روسية بالكامل تقريبا، وصاروا يمتلكون فيها بالإضافة إلى حزبهم السياسى، لغتهم، وصحافتهم، وجمعياتهم، وفرقهم الموسيقية، وأحياءهم، وتذكر الباحثة «آن دو تنغى» فى معرض حديثها عن طبيعة تركيب المهاجرين الروس بأنه وفقاً للمصادر الرسمية كان ٨١,٢٪ من الوافدين من الاتحاد السوفيتى السابق، ما بين ١٩٩٠، ١٩٩٤ من اليهود، في مقابل ٩,٤٪ من اليهود من جهة الأب فقط، و٧,٣٪ من غير اليهود، غير أن نسبة غير اليهود بين الوافدين «الروس» راحت تتزايد سنة بعد أخرى، وبعد أن تتطرق الباحثة إلى الطبيعة العلمانية لغالبية الروس (أعلن أكثر من ثلاثة أرباعهم فى استطلاع للرأى أجرى فى عام ١٩٩٦ أنهم علمانيون، وتضمن حزبهم السياسى «يسرائيل بعلياه» فى العام نفسه دعوة صريحة إلى إقامة مقابر علمانية، وتشريع الزواج المدنى، وعدم الخلط بين الدين والدولة تخلص الباحثة إلى أن العلاقة بالمجتمع الإسرائيلى التى حدد الروس طبيعتها تسمح للكثيرين منهم من غير اليهود أو من العلمانيين بالتدخل فى العملية الرامية إلى تحويل إسرائيل من دولة خاصة بالشعب اليهودى إلى دولة لكل مواطنيها تقوم على التعددية الثقافية نظراً لاستحالة صهر هذا الخليط المتنافر فى بوتقة واحدة(٥).

ولقد أشاد «سامى سموحة» أستاذ علم الاجتماع فى جامعة حيفا فى دراسة له حول المشكلات الكبرى التى تواجهها إسرائيل اليوم، فذكر منها أنها بلد يجمع ثقافات عديدة، وثقافات فرعية متنوعة، لكنه مجتمع يفتقد تعددية ثقافية حقيقية، إذ أن الصهيونية بعد أن فشلت في مسعاها الرامي إلى تجاوز الاختلافات الإثنية القائمة بين اليهود، وجمعهم فى إطار وحدة قومية أحادية الثقافة من خلال الدمج والمماثلة بينهم، وجدت نفسها مضطره إلى الاعتراف بشكل من أشكال التنوع الثقافى حيث لم يعد اليهود الشرقيون والروس والأثيوبيون يطالبون بالتخلى عن تراثهم الثقافى، وإنما صار بوسعهم الحفاظ على خصوصياتهم الثقافية إن هم اندمجوا فى المجتمع، ويشير الباحث إلى الإنقسام التاريخى بين اليهود الاشكنازيم الذين يمثلون ٥٥٪ من السكان اليهود، ويرجعون بأصولهم إلى بلدان أوروبا الوسطى والشرقية فى

(٥) إسرائيل إزاء تحديات هويتها، (مجموعة دراسات)، عرض ماهر الشريف، مجلة النهج.

الأساس، واليهود السفارديم الذين يمثلون ٤٥٪ من السكان اليهود، ويرجعون بأصولهم إلى بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، ليثبت بأن هذا الانقسام لم يكن عابراً وسطحيا، بل كان حقيقيا، ففى التسعينات ظهرت علاقات عديدة تدل على استمرار الطابع الإثنى للجماعات اليهودية.

ويخلص الباحث إلى أن وجود ثقافات عديدة، وثقافات فرعية قد تخلق انطباعاً خاطئاً بوجود « ديمقراطية إسرائيلية متعددة الثقافات »، بينما هناك عوائق من طبيعة أيديولوجية تحول دون إبراز واقع متعدد الثقافات بصورة حقيقية فى إسرائيل، إذ إن الصهيونية بوصفها أيديولوجية مهيمنة نظرت دوماً بعين الشك إلى التعدد الثقافى، وبرغم التسامح النسبى مع اليهود الشرقيين والروس والاثيوبيين، ومع العرب (الأقلية العربية) إلا أن كل هؤلاء يظلون إسرائيليين من الدرجة الثانية، مما يزيد من إشكالية الهوية فى إسرائيل[٦] أما عن أوضاع الأقلية العربية فى إسرائيل، ومستقبلهم، فذكر الباحث « مجيد الحاج » أستاذ علم الاجتماع المساعد فى جامعة حيفا فى دراسة له حول هذا الموضوع أن المجتمع اليهودى ينظر إلى الأقلية العربية فى إسرائيل على أنها أقلية معادية، وغريبة عنهم، لكنهم نجحوا، رغم الحصار الذى ضرب حولهم، فى بلورة هوية قامت على مركبين اثنين، أوجدوا بينهما نوعاً من التوازن هما: « المواطنة الإسرائيلية » من جهة، و« الوطنية الفلسطينية » من جهة ثانية. ويخلص الباحث فى هذه الدراسة بأن عملية السلام المتعثرة والصراع العربى الإسرائيلى قد عمق الوضعية المزدوجة للأقلية العربية فى إسرائيل، فى ظل انشغال إسرائيل المتزايد بمصير هويتها وبمستقبل الانقسام العميق داخل غالبيتها اليهودية[٧] أما بالنسبة للمتدينين اليهود فى إسرائيل، فهناك شريحتان رئيسيتان: شريحة « اليهودية الصهيونية » أى الذين يعترفون بالصهيونية، وبدولة إسرائيل، ويعتبر الحزب الدينى القومى (المفدال) أفضل ما يعبر عن هذه الشريحة، أما الشريحة الثانية فهى الخاصة « بالحريديم » أى غلاة الأصوليين اليهود الذين يرفضون الدولة الإسرائيلية، والحركة الصهيونية ويعبر عنهم حزب « أجودات إسرائيل » أى « جمعية إسرائيل ». وقد استند هذا الحزب على العقيدة اليهودية، واستنكر بشدة علمنتها من قبل الصهيونية، وعارض بشدة مفهوم « الوطن القومى اليهودى »، لكن هذا الصدام خفت وكاد أن يتلاشى بعد ذلك عندما دخل هذا الحزب انتخابات الكنيست الإسرائيلى (البرلمان)، وأصبح جزءاً من النظام السياسى الإسرائيلى (حكومة ومعارضة) رغم معارضته اعتبار إسرائيل دولة يهودية، لها علم، ونشيد وجيش، لذا فهو يرفض خدمة المنتمين له فى الجيش الإسرائيلى، كما يعبر عن الشريحة الثانية أيضا حزب شاس « اتحاد حراس التوارة السفارديم ». ويقف هؤلاء المتدينين جميعاً على عقيدة واحدة، وهى أن خلاص اليهود سيكون بأمر إلهى على يد المسيح،

(٦) إسرائيل إزاء تحديات هويتها، المرجع السابق.

(٧) نفس المرجع السابق.

وليس أمراً أرضياً بيد إنسان، وحتى يتحقق ذلك على اليهود أن ينتظروا[8] وقد أكد عضو الكنيست (فى انتخابات ١٩٩٦) « شلومو بثيزارى » من حزب شاس على أهمية خلق « هوية طائفية » قائمة بذاتها فى إسرائيل بقوله : « فى المعاهد التلمودية (اليشيفوت)، وفى مدارس معينة فى « بنى باراك »، وفى القدس نسبة محددة للسفارديم لكى يدرسوا فيها، وهذه المعاهد الدينية، والمدارس تابعة للأحزاب الاشكنازية، مثل الحزب الدينى القومى (المفدال)، وحزب « أجودات إسرائيل »، وغير مسموح فيها بالدراسة إلا لليهود المتدينين الاشكناز[9]، ومن هنا فإن هذه الظاهرة الطائفية التى تسعى لتمييز نفسها كهوية قائمة بذاتها تشكل حائلا دون تطبيق الطرح الإسرائيلى للهوية لأسباب شديدة منها وجود حالة من الانعزال ـ على المستوى المرتبط بالحفاظ على التقاليد الدينية السفارادية ـ عن الكتلة الاشكنازية المهيمنة فى المجتمع الإسرائيلى وهو ما يحول دون تكوين ثقافة إسرائيلية عليا داخل المجتمع الإسرائيلى يلتزم بها مواطنوها من اليهود السفارديم والإشكنازيم، وهو أحد شروط الطرح الخاص « بالدولة ـ الأمة » الذى تنادى به الهوية الإسرائيلية، فضلا عن اتجاه اليهود الشرقيين « السفارديم » إلى دعم الاستقطاب الطائفى داخل إسرائيل بتكوين أحزاب سفارادية دينية، وهى ظاهرة تؤثر بشكل واضح على فعالية جهود إسرائيل من أجل تذويب اليهود الشرقيين فى الثقافة الاشكانزية المهيمنة على المجتمع الإسرائيلى وتسوده .وستؤدى هذه الظاهرة ـ على المدى البعيد ـ إلى قيام « هوية يهودية سفارادية » مستقلة داخل المجتمع الإسرائيلى، وقيام « هويات يهودية فرعية » أخرى على أساس دينى، وعلمانى، وإثنى[10].

ويخضع اليهود فى إسرائيل ـ سواء كانوا متدينين أو علمانيين ـ لسلطات دار الحاخامية الارثوذكسية الاشكنازية فى أحوالهم الشخصية، وغير ذلك من المسائل التى تتناول حرية المواطن، وكرامته الإنسانية، كما تقع مسئولية الأوضاع السائدة فى إسرائيل على غياب الدستور المكتوب لأن الموارد الدستورية التى تحدد طبيعة الدولة بوصفها كياناً علمانياً وديمقراطياً لا وجود لها مما يفسح المجال كليا أمام الطوائف الدينية لتمارس الإكراه الدينى ضد المواطنين العلمانيين، إذ أن إسرائيل دولة بلا دستور[11].

لاشك أن مشكلة « العلاقة بين الدين والدولة » فى إسرائيل هى واحدة من المعضلات التى يكاد يستحيل حلها على الصعيد الإيديولجى والعقائدى طالما أنه يتعذر الاتفاق على طبيعة الدولة، وتحديدها في نصوص مواد دستورية مكتوبة، فعلى حسب قول البعض أن التوراة لا يمكنها بحال من الأحوال أن تصبح دستور

(٨) أمين اسكندر، السلام فى برامج أحزاب الحريديم، مختارات إسرائيلية، العدد ٦٨، أغسطس ٢٠٠٠.
(٩) د. رشاد عبدالله الشامى، إشكالية الهوية فى إسرائيل، ص٢٥١.
(١٠) إشكالية الهوية فى إسرائيل، المرجع السابق، ص٢٥٢.
(١١) د. أسعد رزوق، قضايا الدين والمجتمع فى إسرائيل، ص١٩٧.

إسرائيل الحديثة وفقاً لما تطالب به الأحزاب الدينية، ومن جهة ثانية يستحيل على إسرائيل أن تتبنى دستوراً ليبرالى الطابع مضمونا وروحاً بحيث يكفل هذا الدستور حرية الدين والمعتقد بصورة كاملة فى إطار دولة علمانية القلب والقالب[١٢]، والرأى السائد لدى نفر من الباحثين هو أن السواد الأعظم من دعاة العلمانية فى إسرائيل - رغم معارضته الشديدة للنزعة التيوقراطية (العرقية) - يؤيد فكرة إسرائيل كدولة يهودية، ويأخذ على عاتقه مسئولية خاصة فى الحفاظ على التقليد الدينى اليهودى، لأن يهود إسرائيل يعرفون تمام المعرفة كيف أن الطقوس والشعائر الدينية اليهودية أصبحت وثيقة الارتباط بكيان الشعب اليهودى، مما يعيدنا الى صميم المعضلة اليهودية فى العصر الحديث وهى: هل اليهود يؤلفون « طائفة دينية » ينتمى أفرادها إلى سائر الشعوب والقوميات فى العالم؟ أم أنهم يشكلون « أمة » متميزة تجمع بين « الدين والقومية » تحت سقف واحد[١٣] وإزاء الإصرار الصهيونى على اعتبار اليهودية « دينا وقومية » فى آن واحد تقف إسرائيل وسط بحثها المحموم فى سبيل العثور على هويتها القومية، وتبرز قضية: « من هو اليهودى؟ » فى إطار الدولة والدين[١٤] وكما هو معروف فى إسرائيل أن اليهودى من ولد لأم يهودية، أو من تهود وفق الطقوس والشعائر اليهودية .

إن العبء الأكبر من المسئولية يقع على عاتق الصهيونية، والكيان السياسى الذى أوجدته على شاكلة دولة يهودية اسمها « إسرائيل » . فقد قامت الصهيونية على أساس الإدعاء القائل بضرورة تقديم حل سياسى ونهائى للمشكلة اليهودية فى العالم[١٥] ولقد عبر « ليونارد فاين » أصدق تعبير عن أزمة الصهيونية وإسرائيل فى سعيهما الجاد للبحث عن هوية يهودية وقومية محددة بقوله: « تتصف سائر البلدان عموماً بحتمية لا تشارك فيها إسرائيل، فهى إما بلدان لها جذور تاريخية كأمم مستقلة لها حدودها المعروفة والمحددة، أو أن شعوبها عاشت منذ قديم الأزمنة داخل حدود جرى تعيينها حديثاً.

بينما يختلف الأمر بالنسبة للإسرائيليين، فإسرائيل بلد مصطنع أوجدوه بأنفسهم[١٦] أى أن إسرائيل دولة ليس لها جذور فى أرض فلسطين إذ هى صنيعة الصهيونية وهى دولة تحت الإنشاء قامت على أساس دعوى كاذبة مفادها: « أرض بلا شعب لشعب بلا أرض » وهي مجتمع مهاجرين يهود، وطنهم الأصلى بلاد الشتات، وفلسطين المحتلة التاريخية ليست وطنهم، بل هى وطن الفلسطينيين أصحاب الأرض ذوى الأصول العربية الضاربة فى عمق التاريخ.

وإسرائيل تنظر إلى ذاتها باعتبارها دولة « يهودية ديمقراطية »، وبرغم التناقض بين يهودية الدولة

---

(١٢) نفس المرجع السابق، ص١٩٩.

(١٣) قضايا الدين والمجتمع فى إسرائيل، المرجع السابق، ص٢٠٠.

(١٤) المرجع السابق ص٢٠٢.

(١٥) المرجع السابق ص٢٠٢.

(١٦) قضايا الدين والمجتمع فى إسرائيل، المرجع السابق ٢٠٣.

وديمقراطيتها، فإن غالبية علماء الاجتماع في إسرائيل، وغالبية النخب الثقافية يقررون أن صورة الحكم في إسرائيل « ديمقراطية غربية ليبرالية ».

وطبقا لهذه الدعاوى فإن هذين الأساسين (يهودية ديمقراطية) في الرؤية الذاتية لإسرائيل هما متساويان في المكانة، إذ لا تضر يهودية الدولة بديمقراطيتها، فيقول النائب السابق لرئيس المحكمة العليا الإسرائيلية « مناحم ألون » بهذا الصدد: « إن مبدأ كون دولة إسرائيل هي دولة الشعب اليهودي هي أساس وهدف دولة إسرائيل، ومبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين ليس من شأنه أن يغير مبدأ أن دولة إسرائيل هي دولة الشعب اليهودي فقط ».

لكن جاء البعض منتقداً، وعلى رأسهم « سامي سموحة » استاذ علم الاجتماع بجامعة حيفا الذي ذكر أنه لا يمكن وصف النظام الحاكم في إسرائيل بالديمقراطية الليبرالية، أو التعددية لأن الدولة الإسرائيلية ليست على الحياد من الناحية العرقية، فهي لا تقيم مساواة كاملة وتامة بين مواطنيها اليهود من جهة، ولا تعترف بالمواطنين العرب (الأقلية العربية في إسرائيل) ولا بحقوقهم من جهة أخرى، ويصف نظام الحكم في إسرائيل بأنه « ديمقراطي عرقي »[(١٧)]. ويعتقد البعض أن إسرائيل بها نوعان من المواطنة: مواطنة « ليبرالية » للعرب. بمعنى أنها تسمح بالاحتفاظ بحقوق فردية معينة للعرب، ومواطنه « جمهورية » لليهود، بمعنى أنها تسمح لجمهور اليهود بالمشاركة في تقرير « الشأن العام الأفضل » للمجتمع الإسرائيلي، ولا تسمح للعرب بهذه المشاركة، مما يؤدي إلى إقصائهم من الجماعة السياسية الإسرائيلية، وتحويل الأقلية العربية في إسرائيل إلى مواطنين من الدرجة الثانية، كما يشكل الانتماء العرقي اليهودي شرطاً حاسماً للعضوية في الجماعة السياسية (عضوية الأحزاب) الإسرائيلية، ويرى البعض أن إسرائيل، في أساسها، وبرغم عيوبها الكثيرة، هي « دولة ديمقراطية »، وهي من ناحية التمييز العرقي تعتبر « دولة عرقية » غير ديمقراطية، تمنح أفضلية تامة لجماعة عرقية واحدة (كل الجمهور اليهودي) وهي التي تحكم وتدير الدولة[(١٨)].

والتعريف العرقي للانتماء في إسرائيل يؤدي إلى عدم التفريق بين اليهودية والمواطنة، وهكذا لم يتبلور حتى اليوم في إسرائيل « شعب إسرائيلي » أو « أمة إسرائيلية » ذات صلة بأرضها، ولا ترتبط باليهودية[(١٩)]. وهذا مما يعد مشكلة الهوية في إسرائيل، ويجعلها قضية مفصلية تعاني منها كثيراً لكونها مجتمعا من خليط متعدد الهويات، يكاد يستحيل صهره في بوتقة واحدة، تفرز هوية متميزة، واضحة الملامح، دقيقة السمات. ومع بروز إشكالية الهوية في إسرائيل، فقد تؤدي التناقضات الإثنولوجية والاجتماعية فيها إلى تفسخ المجتمع الإسرائيلي بخليطه السكاني المتنافر، وربما تصبح الفجوة الفاصلة بين هذا الخليط أحد الأسباب المؤذنة بزعزعة أركان هذا المجتمع المصطنع.

---

(١٧) رون جيفزون - عصام أبورية، الفجوة اليهودية العربية في إسرائيل، السمات والتحديات، مختارات إسرائيلية، العدد ٥٩، نوفمبر ١٩٩٩.

(١٨) الفجوة اليهودية العربية في إسرائيل، السمات والتحديات، المرجع السابق.

(١٩) المرجع السابق.

من قادة الفتوحات الإسلامية:

القعقاع بن عمرو التميمى

١

إعداد الأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

قال لى رسول الله ﷺ « ما أعددت للجهاد؟ » قلت: طاعة الله ورسوله والخيل. قال ﷺ: « تلك الغاية »

حوار دار بين رسول الله ﷺ وبطل من أبطال الفتوحات الإسلامية أغفلت كتب التاريخ دورهم وقدرهم مع عظم ما كان لهم من قدر ومكانة.

حوار إن دل على شىء فإنما دل على ما سيصير إليه حال القعقاع والغاية التى سيسعى إليها ألا وهى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ورسوله.

وبطلنا الذى نتحدث عنه هو القعقاع بن عمرو التميمى، كان لهذا البطل دور وأى دور فى فتوح العراق والشام معا وهى حقيقة تؤكدها المصادر التاريخية، ولكن مع بخل وشح فى التفاصيل، فالكل يجمع على شجاعته وفروسيته وبطولته، ولكنه لم ينل من الاهتمام ما ناله آخرون أمثال عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعقبة بن نافع، وطارق بن زياد وغيرهم من عظماء الفاتحين، وإن عده المؤرخون من قادة الصف الثانى بخلاف الحقيقة.

أسلم القعقاع بن عمرو التميمى فى العام التاسع للهجرة، حين أسلمت قبيلته تميم، وقدم وفدها على النبى ﷺ فى عام الوفود.

وكان من الرجال الذين اعتمد عليهم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فى حروب الردة فوجهه للقضاء على ردة بنى كعب وكان عليهم علقمة بن علاثة وأوصاه الصديق بقوله: « يا قعقاع سر حتى تغير على علقمة بن علاثة لعلك تأخذه لى أو تقتله، واعلم أن شفاء الناس الخوض، فاصنع ما عندك ».

وكانت تلك أول مهمة حربية يعهد بها الخليفة إلى القعقاع ولعلها أول مهمة له فى الإسلام ولذا حرص على أن يقوم بها خير قيام، فبغت علقمة فأسره هو وزوجته وبناته ونساءه ومن أقام معه من الرجال، ولا تذكر المصادر وقوع قتلى من الجانبين فى هذا اللقاء الأمر الذى يؤكد على أمرين هامين: الأول كفاءة القعقاع العسكرية حيث بغت بنى كعب فى سرعة أذهلتهم عن المقاومة، الثانى حرص القعقاع على أن يأسر الجميع لعلهم يثوبوا إلى رشدهم ويندموا على ما كان فلم يعمل فيهم السيف، وكان القعقاع مصيبا فى عمله هذا، حيث تبين أن من بين الأسرى من لم يرتد ومنهم ابن علقمة وزوجته، وحمل القعقاع الجميع إلى الخليفة فأسلموا فقبل منهم الصديق ذلك بما فيهم علقمة نفسه.

ويعجب الصديق بالقعقاع وحسن تصرفه فهو من جهة قضى على ردة بنى كعب، فى سرعة وحسم، ومن جهة أخرى منحهم فرصة التوبة فلم يقتلهم على ردتهم، ولو فعل ما لامه أحد.

وعندما قرر الصديق أن يشرع فى فتح العراق كتب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة بعد أن فرغ من أمر مسيلمة الكذاب يأمره بالمسير إلى العراق، وأن يأذن لمن شاء بالرجوع ولا يستكره أحدا، فلم يبق مع خالد إلا ألفان هم كل جيشه الذى سيتوجه به إلى العراق، فكتب إلى الخليفة الصديق يسأله المدد، فأمده برجل واحد! ياللعجب رجل واحد هو كل المدد الذى يرسله الخليفة لفتح العراق وحرب الفرس، أحد أعظم قوتين فى العالم آنذاك كان الرجل الذى أمد الخليفة به خالد بن الوليد لفتح العراق هو القعقاع بن عمرو التميمى، فقيل للصديق: أتمد رجلا قد انفض عنه جنوده برجل واحد ؟ وكان أبو بكر عليما بالرجال، فقال:

«**لا يهزم جيش فيه مثل هذا ..**»

كما قال:

«**لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل**»

وصدق حدس الخليفة وتقييمه للقعقاع ففى أول لقاء بين المسلمين وبين الفرس فى المحرم عام ١٢هـ فى معركة (ذات السلاسل) تجلت براعة القعقاع، حيث تراصت صفوف جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، فى مواجهة جيوش الفرس بقيادة «هرمز» فى (الأُبلة) ورسم هرمز خطته على الغدر بخالد، فخرج بين الصفين وطلب المبارزة فنادى: «رجل ورجل .. أين خالد؟ وكان هرمز قد عهد إلى فرسانه بالغدر وتواطأوا على ذلك، ونزل خالد بين الصفين وخرج هرمز، فالتقيا فاختلفا ضربتين .. وغدرت حامية هرمز فهجموا على خالد وهو مشتبك مع هرمز وأحاطوا بهما من كل جانب حتى اختفيا بينهم فما شغل ذلك خالدا عن قتله أما القعقاع فقد تولى قيادة الجيش وهجم على الفرس ليحول بينهم وبين ما أرادوا والتحم بهم فكشفهم عن خالد.

واعتبارا من هذه المعركة أصبح القعقاع بن عمرو الساعد الأيمن لخالد بن الوليد حيث

شهد إلى جواره جميع المشاهد فى العراق وكان صاحب مشورة مسموعة عنده من ذلك ما حدث فى معركة أليس فى ٢٥ من صفر عام ١٢هـ حيث كان خالد ابن الوليد قد أقسم بقوله: «اللهم إن لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ألا استبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم» فما أن بدت بشائر النصر حتى صاح خالد فى جنوده: «الأسر .. الأسر .. لا تقتلوا إلا من امتنع» وجمع خالد الأسرى، وحبس الماء عن فرع من نهر الفرات ووكل إلى رجال انتقاهم يضربون أعناق الأسرى فكان للقعقاع رأى سديد منع القتل وأبقى على الأسرى وحقن الدماء.

وفى ربيع الأول عام ١٢هـ سقطت الحيرة ودخلها خالد وإلى جواره القعقاع بن عمرو الذى أنشد يقول:

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة
وأخرى بأثباج النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزا
وبالثنى قرنى قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت
على الحيرة الروحاء إحدى المصارف
حططناهم منها وقد كاد عرشهم
يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا
غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا
إلى الريف من أرض العريب المقانف

القعقاع نائبا لخالد

وكان سقوط الحيرة حدثا عظيما، إذ هى آنذاك حاضرة العراق، بل هى من أهم حواضر الامبراطورية الفارسية إن لم تكن فى أهمها على الإطلاق بعد المدائن على الإطلاق، ولم يكن بإمكان خالد أن يترك الحيرة ليواصل عملياته العسكرية ويعود إليها فيما بعد، بل كان يجب أن يجعل عليها رجلا يستطيع أن يدافع عنها باعتبارها قاعدة انطلاق جيوش الفتح ومركز القيادة، نظر خالد حوله فلم ير غير هذا الرجل الذى عندما سأل الصديق المدد أمده به فحسب، وقال عنه: «لا يهزم جيش فيه هذا» أجل اختار خالد القعقاع بن عمرو نائبا له على الحيرة وكان اختيارا موفقا تجلت آثاره فيما بعد.

ذاك أن خالد غادر الحيرة بجزء كبير من الجيش فى أواخر جمادى الآخرة عام ١٢هـ لمواصلة عمليات الفتح فى الأنبار وعين التمر ودومة الجندل، فلاحظ الفرس غياب خالد بجزء كبير من الجيش فخرجت حشود فارسية من المدائن تريد الأنبار التى كانت قد سقطت فى قبضة المسلمين، فرصد الزبرقان بن بدر عامل خالد على الأنبار خروج هذا الجيش وكتب بذلك إلى القعقاع بن عمرو فى الحيرة.

وكان القعقاع قد اكتسب من خبرات خالد بن الوليد الكثير واصطبغ بصبغته، فما أن بلغته أنباء تحرك الفرس حتى بعث قوة إلى (الحصيد) - بلد فى طريق الأنبار - يقودها

أعبد بن فدكى وأخرى إلى (الخنافس) يقودها عروة بن الجعد البارقى ليستطلعا الأمر ويقطعا الطريق على الجيش الفارسى المتجه إلى الأنبار وقال لهما القعقاع: «إن رأيتما مقدما فأقدما» فخرجا من الحيرة وحالا بين جيوش الفرس وبين الأنبار، ولم يكتف القعقاع بذلك إنما عمد يبث السرايا الواحدة تلو الأخرى على طريق الأنبار كما لو كانت الإمدادات تتوالى فدب القلق فى صفوف الفرس فتوقفوا لاستطلاع الموقف، وعاد خالد إلى الحيرة بعد أن فتح الله عليه دومة الجندل ليحيطه القعقاع علما بما حدث، فيعبىء خالد جيشه ويرسل القعقاع إلى (الحصيد) حيث أوقع بجيوش الفرس هزيمة منكرة، ومنها اتجه إلى (المصيخ) على طريق الأنبار أيضا ليلحق بخالد ليطبقا معا على فلول الفرس المنهزمة ومنها انطلق القعقاع إلى (الثنى والزميل) فى ٢٣ من شعبان ليدحر جيوش الفرس فيها ثم يلتقى بخالد ثانية عند (الفراض) إلى الجنوب الشرقى فى طريق العودة على تخوم الشام والعراق والجزيرة حيث أنهيا تماما وجود الفرس فى هذه المنطقة.

وهكذا بلغت ثقة خالد بالقعقاع عنان السماء تركه منفرداً بالقيادة فى الحيرة لنحو شهر كامل. ليس هذا فقط بل قام خالد بن الوليد بأداء فريضة الحج تاركا جيشه تحت إمرة القعقاع حتى يعود، وهو تصرف مع ما فيه من مآخذ إلا أنه يعكس ثقة غير عادية من جانب خالد فى كفاءة القعقاع وحسن قيادته.

الرحيل إلى الشام

على أن الخليفة الصديق رأى أن الشام صار محتاجا لجهود خالد بن الوليد حيث كان خليفة رسول الله ﷺ قد وجه أربعة جيوش على رأسها يزيد بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص، وشق الأمر على المسلمين فى مواجهة جحافل الروم، فكتب الخليفة إلى خالد بالعراق: «أن سر بنصف الناس حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا»

وأبى خالد بن الوليد إلا أن يكون القعقاع بن عمرو فى صحبته إلى الشام وفى ذهنه مقولة الصديق «لا يهزم جيش فيهم مثل هذا» بل كيف لا يصطفيه لنفسه وقد قاتل بجانبه فى معارك طاحنة كان فيها صاحب رأى سديد ومشورة مخلصة الى جانب أنه مقاتل عنيد على مدى عام كامل بدأت أحداثه فى معركة ذات السلاسل فى المحرم عام ١٢هـ، مرورا بمعارك (المذار) و (الولجة) و (أليس) و (أمغيشيا) و (المقر) و (الحيرة) و (حصيد) و (خنافس) و (المصيخ) و (الثنى والزميل) وانتهت بمعركة الفراض فى ١٥ من ذى القعدة عام ١٢هـ[1].

«يتبع»

(١) الطبرى أحداث سنة ١١، ١٢ هـ، الإصابة ٧١٢٩، الاستيعاب ٣/٢٥٢.

الرافعى .. ومواقفه من قضايا الشعر

١

للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

حين ننسى تاريخنا الأدبى.. كله.. أو بعضه.. يصيبنا من هذا النسيان دواريغيم الرؤية.. ويشوه من حقائق الأشياء.. ويعطى المحدثين من أدبائنا.. وشعرائنا على السواء.. انطباعًا عامًا يخيل إليهم أنهم فعلا جيل بلا أساتذة.. أو حاضر بلا ماض على الإطلاق !!!

وقد لاننسى تاريخنا عمداً.. فالذين يحرقون إمكانية الخصب فى تراب أرضهم صغار.. لا يستحقون حتى مجرد أن يكون لهم انتماء إلى تاريخ معين.. أو تراث حضارى بالذات.. ولكن النسيان قد يكون شيئا من غباء التضييع لا من غباء الرفض. ومادامت النتيجة فى نهاية الشوط طرحا لا جمعا.. فالذين يقفون فى منحنى هذا المنطلق يحملون كل وزر القضية. وقد يحملون بعد ذلك منطق التجريم !

والمفكر العربى المسلم «مصطفى صادق الرافعى» واحد من أولئك الذين فرضوا أنفسهم على تاريخنا الفكرى فأصبح بذلك جزءا من هذا التاريخ.. ونسيانه هكذا مدخل إلى حكم قد يكون قاسيا على جيلنا بأكمله، وقد لايكون، ولكنه حكم فى غير صالح الجيل على أية حال.. إن لم يكن بدينونة الرفض، فبرعونة التضييع !

إن الرافعى ـ على مستوى فكرى بحت ـ يجب أن يظل فى منطقة الضوء، فالقضايا التى أثارها قلمه منذ عشرات السنين ماتزال حية جائشة فى معتركنا الأدبى حتى اليوم، وماتزال آراؤه فيها حية وقابلة للحياة.. وقادرة إلى جوار ذلك على الفعل عبر أجيال وأجيال.

ولقد اخترت أن أتحدث من الرافعى عن موقفه من قضية الشعر عاشقا ـ وناقدا. فربما كان هذا الجانب هو أضوأ الجوانب الفكرية جميعا فى شخصية هذا الرجل. وربما كان ذلك أدل على مزاجه الفنى، ومنطلقه فى

تناول الأشياء، فالرافعى شاعر قبل كل شىء.. شاعر حتى وهو يكتب المقال والبحث والنظرية النقدية، حتى وهو يدير بينه وبين مقاتليه بالقلم الحوار.

أنا إذن فى هذه السطور، سأتناول موقف الرافعى من قضية الشعر، وموقفه من قضية النقد، لنرى معا إلى أى مدى كان تحليقه الفكرى حين يتحدث عن أخطر قضايانا المعاصرة، بفكر كاشف ووعى عميق.

ونبدأ بالتعرف على ملامح موقفه من قضية الشعر، وأرجو أن لا يلفتنا شيء عن حقيقة أنه كان شاعرا أولا. وإذا لم يكن الرجل شاعرا فماذا نسميه حين يقول بحساسية بالغة النفاذ والعمق: «الشاعر.. هو ذلك الذى يرى الطبيعة كلها بعينين لهما عشق خاص.. وفيهما غزل على حدة»؟؟؟

أى أن الشاعر ـ كما يرى الرافعى ـ متفرد بالبصر الثاقب فى أسرار الكون، وألفاف الطبيعة مدفوعا إلى ذلك بنوعية خاصة مؤهلة بالعشق الكونى، والغزل الطبيعى لقشور الوجود ومضامينه على السواء. فإذا وفق الشاعر على نحو ما للترقى إلى هذا الأوج من العشق الثنائى للوجود ـ قشريا وجوهريا ـ فإنه ـ أى الشاعر ـ مطالب بعد على مستوى شعرى بالغوص وراء الجوهرى.. والصميمى من الأشياء.

٢

يلتقى الرافعى مع أكثر النظريات النقدية حداثة ومعاصرة إذا ما تحدث عن الشعر، فإن ما يطلب الآن من الشاعر ليس هو التماس القشرى مع سطوح الأشياء فى مجال الكون.. أو مجال النفس.. بقدر ما هو معانقة ماوراء السطوح والأشكال. وليس يطلب من الشاعر أن ينقل إلينا الطبيعة بقدر ما يطلب إليه أن ينقل إلينا إحساسه بالطبيعة. ولقد فطن الرافعى إلى هذه الحقيقة فقال فى معرض حديثه عن فلسفة الشعر ونقده: «... والشعر فى أسرار الأشياء... لافى الأشياء نفسها».

إن الشعر ـ كما يرى الرافعى ـ استقطار لمعنى الحياة الخالد الأبدى. وليس مجرد تداعيات هشة وساذجة.. تخاطب على الأكثر فى إنسانها المتلقى نوازع عرضية وقشرية.

يقول:

«ولو سئلت أزمان الدنيا كيف فهم أهلها معانى الحياة السامية، وكيف رأوها فى آثار الألوهية عليها، لقدم كل جيل فى الجواب على ذلك معانى الدين ومعانى الشعر».. وهكذا يعطى الرافعى إمكانية الكشف الملون بإمكانية الوحى، ويؤكد أن الشعر ليس ترفا عائما فى حياة الناس بقدر ما هو معنى من معانى الحياة السامية التى نراها دائماً فى آثار الألوهية عليها.

ويرى الرافعى أن الشاعر إذا كان مطالبا بتجلية غوامض الكون، وتفسير قضاياه الوجودية، فهو ليس مطالبا على الإطلاق بالبحث عن حقائق خالية من الجماليات، بقدر ما هو مطالب بالبحث عن جماليات لا تخلو من الحقائق.. وفى هذا الصدد يقول الرافعى:

«وليست الفكرة شعرا إذا جاءت كماهى فى العلم والمعرفة.. فهى فى ذلك علم وفلسفة.. وإنما الشعر فى تصوير خصائص الجمال الكامنة فى هذه الفكرة»!

وهنا نتذكر الضجة المثارة الآن حول قضية «الشعر والفكر» إيجابا وسلبا. ونذكر للرافعى تهديه إلى هذا المفهوم الحقيقى والمعاصر للشعر فى كلماته الفاهمة: «وإنما الشعر فى تصوير

خصائص الجمال فى هذه الفكرة». وليست الفكرة التى يتحدث عنها الرافعى من لون الفكرات العابرة فى حياة الناس، وإنما هى الفكرة الشمولية الكونية التى تسيل على قلمه حين يقول: «الشعر فكرة الوجود فى الإنسان، وفكرة الانسان فى الوجود».

٣

حين ننطلق مع الرافعى فى حديثه عن الشعر كعاشق وفنان، إلى حديثه عنه ناقدا ومفكرا، تجبهنا فى هذا الصدد حقائق كثيرة. فى طليعتها أن الرافعى غيور على الشعر بقدر ما هو غيور على شىء مقدس وهو ساخر حتى الأغوار من أولئك النقاد الذين لايزيدون فى نقدهم على أن يسبحوا معلقين على كلام الشاعر كأنهم شروح على متنه الموجز. ويسخر من أولئك الذين «يتناولون الشاعر باعتباره رجلا له موضعه من الناس، ومنزلة من الحياة، ثم لايغدو ذلك». ويرى أن الناقد الحقيقى: «يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخ الآداب وتقصى مواردها ذوقا فنيا مهذبا معقولا. ثم يجمع إلى هذين «أى الإحاطة والذوق» تلك الموهبة الغريبة التى تؤلف بين العلم والفكر والمخيلة فتبدع من المؤرخ، الفيلسوف، الشاعر، العالم، شخصا من هؤلاء جميعا هو الذى نسميه «الناقد الأدبى».

واعتقد أن هذا المستوى الصوابى فى ثقافة الناقد هو ما يعوز المرحلة التى نحياها أعماقا وأبعادا، فإن شلل الإبداع الفنى الذى يوشك أن يكون سمة المرحلة ليس شيئا منفصلا تماما عن شلل الفكر النقدى المعاصر، الذى يرجع بالدرجة الأولى إلى نضوب ثقافة الناقد، أو ضمورها على أحسن الفروض! وإلى تقحم النقاد ميادين لم تؤهلهم ملكاتهم النقدية أساسا إلى تقحم مجاهلها الكثيفة. ولقد يعزز الرافعى رأيه فى هذا الصدد حين يعاود الحديث عن هذه القضية مرة أخرى فيقول: «لاينبغى لنقد الشاعر والكلام عنه إلا شاعر كبير يكون ذا طبيعة فى النقد، أو كاتب عظيم يكون ذا طبيعة فى الشعر، أى لابد من الأدب والشعر معا لنقد الشعر وحده. فيأتى الكلام فيه من العلم والذوق والإحساس والإلهام جميعا».

ولقد يتهم الرافعى بأنه كاتب «جمالى» يعنى بالقضايا الكلية المجردة لأنه لايستطيع أن ينزل إلى أرض التطبيق وربط الشعر بقضايا الإنسان، ومعاناته الحياتية. والرافعى لايرفض هذا الاتهام، ولايريد -فيما نظن- لأحد أن يدفع عنه، ولكنه يأخذ هذا الاتهام من يديه جميعا، ليضعه فى موضعه الصحيح من قضية النقد وقضية الفن على السواء.. إن دراسته للشاعر الكبير حافظ إبراهيم تبرز هذا الفهم إبرازا لايتحمل من أحد أن يزيد عليه بتأويل، لأنه يضع الرؤية الشعرية ابتداء فى مفترق بين التعبير عن معاناة الشاعر الاجتماعية، وللتعبير عن خوالج عالم الإنسان. ثم ينحاز إلى التعبير الإنسانى الشامل من أول الطريق، رافضا أن يكون الشاعر عظيما لأنه يعبر عن معاناة اجتماعية: «فالشاعر الاجتماعى شاعر فى حيز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه، وإذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فنا، إذا كان الفن إنسانيا، وكان شاملا عاما».

وكذلك يستقيم الفهم السوى للرافعى فى هذه القضية، قضية أن يكون الشعر بوقا اجتماعيا أولا يكون، فليس مجد الشاعر أن يتغنى بدخان المصنع، وفأس الحطاب، وهزائم البسطاء، بقدر ما هو استقطاب الإنسان الأعلى فى كل منازع تفكيره الروحى والحياتى بما فى ذلك معاناته الاجتماعية.

«فالفلسفة الشعرية كلها أن يحل فى الشاعر الملهم ذلك السر الجميل الجاذب والمنجذب معا، المستقر والمتحول جميعا، الباطن والظاهر فى وقت واحد، فيكتنه الشاعر ما لايدركه غيره» كما يقول الرافعى !!

٤

ولابد أن يرد تعريف الرافعى للخيال الشعرى، كواحد من التعاريف التى تطلق الخيال فى فضائه اللانهائى ولاتكبل أجنحته الطائرة فى أفق واحد مكسور. يقول الرافعى: «إن الخيال الشعرى يزيغ بالحقيقة فى منطق الشاعر لا ليقلبها عن وضعها ويجيء بها ممسوخه مشوهة ولكن ليعتدل بها فى أفهام الناس ويجعلها تامة فى تأثيرها.. وتلك من معجزاته.. إذا كانت فيه قوة فوق القوة، عملها أن تزيد الموجود وجودا بوضوحه مرة، وبغموضه مرة أخرى.».

وعلى غير موعد، تفجؤنا كلمة الرافعى: «وبغموضه مرة أخرى» إن ما يتصايح به النقاد من أن اكتشاف الغموض فى الشعر الحديث كواحد من الشواهد المميزة، إضافة لها قيمتها ولها خطرها فى أن. فقد فطن إليه الرافعى وهو ماض فى طريقه لا يتشدق بأنه قد صادف كشفا أو قريبا من الكشف، حين أكد أن من معجزات الخيال تعميق وجود الموجود بالوضوح مرة وبالغموض مرة أخرى. صحيح أننا لانتعامل اليوم مع القصيدة التى تبذل نفسها من أول لقاء وعند أول قراءة بقدر كاف من التقدير. ولكننا نتعامل بأقدار من الإعزاز مع القصيدة الأخرى، التى تخفى أكثر مما تبدى وتسر أكثر مما تعلن. أولا : على أن يكون إصرارها وغموضها ليس حائطا غير قابل للكسر، وإلا استحالت القصيدة إلى نبع جاف وجامد تماما. وثانيا: على أن يكون وراء هذا الغموض ثراء فى الرؤية الشعرية، وزخم فى الخيال الشعرى، وغنى فى الخلفية الفلسفية التى يصدرعنها الشاعر. وثالثا: على أن يكون الغموض فى القصيدة الشعرية غموضا نابعا من عفوية ذات ثراء خاص. وليس نابعا من عمدية فجة، هادفة أساسا إلى الظهور بمظهر الشعراء الفلاسفة أوالفلاسفة الشعراء، وغيرخاف هنا أن الرافعى لم يتعرض لقضية الغموض. على هذا النحو التفصيلى. ولكن يكفيه فعلا أن يكون قد اهتدى إلى أساس للقضية، وجاوزها إلى ما يريد !

هذه لمحات خاطفة، أوقل بعض انطباعات عن رؤية الرافعى مبدعا، وناقدا، فى مجال الحديث عن الشعر. وهى رؤية إن لم ترتفع إلى مستوى النظرية الأكاديمية المحددة الملامح والسمات، وقد ترتفع إلى مستويات الفهم الأولى لعملية الإبداع والخلق فى بكارة ميلادها الأول. واذا كان«للنظرية» دورها الإيجابى فى تعميق الدراسة الأكاديمية المتخصصة فإن كونها «نظرية» يضعها دائما فى منهاب التغيير كلما أتيح لنظرية أخرى أن تدفع موجها فى عباب الخضم النقدى والفكرى، وفى الوقت الذى تظل فيه «الرؤية».. من نوع ماكتب الرافعى، محتفظة ببقائها وشموليتها.. لأنها لم تقف عند رصد الظاهر المحس.. وإنما تغلغلت إلى مواطن التعرف على سمات الجمال والجلال فى ملامح وجه العمل الفنى.. وليست سمات الوجه الحقيقى مما يقبل التغيير.. والتحوير!

على أية حال،

أرجوأن نراجع ـ كجيل ـ موقفنا من الفكرية.. حتى وأن تراحبت بيننا وبينهم آماد الخلافات. فأنا اختلف معك.. وأن تختلف معى.. شيء مغاير حتى الأعماق.. لأن لوثت قلبى بكراهيتك.. وأن تلوث يديك بدماء تاريخى المذبوح!

من شعراء الأزهر :

السيد حسن القاياتى
الشاعر الجزل الرقيق

للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى

شاء الله - عز وجل - أن التقى بالأزهرى الفاضل والألمعى الكبير الشيخ حسن القاياتى، وأن أتعرف على عبقريته الفذة وإبداعه الخلاق، وأنا لم أزل بعد فى السن الجياشة حيث تبحث الملكة عن قدوة، ويشرئب الاستعداد إلى مثل أعلى يأخذ بيده إلى الأدب الجيد، والإبداع الجاد..

ولئن درج التلاميذ على التهيّب من الاقتراب من سيرة الأساتذة، فإننى على عكس ذلك استشعر المتعة واللذة معاً عندما أتحدث عن أستاذى القاياتى العملاق لأننى أحس عند ذلك بأننى أنوب عن الأجيال الثقافية - التى يبدو أنها قد نسيت ذلك الرائد الكبير - فى إحياء ذكراه محاولاً على استحياء شديد أن أعيد صورته من جديد إلى بؤرة الشعور الأدبى والثقافى الذى اختلط فيه الغث بالسمين والحابل بالنابل كما يقول المثل العربى القديم، وإنى لأجد فى ذلك عملاً يتضافر فيه التشريف والتكليف جميعاً.

عرفت شاعر الجزالة والرقة والرصانة الشيخ حسن القاياتى لأول مرة منذ الأربعينيات، وذلك فى زوراته الموسمية لمحبيه ومريدى طريقته وطريقة آبائه الصوفية من أبناء مدن وقرى «الفيوم» حيث كان يمشى فى ركابه فى هذه الزورات الوعى الرشيد، والرأى السديد، والتصوف المستنير إلى أعماق عشاقه من الفلاحين والبسطاء رواد ندواته المسائية بين الحقول الخضراء والحدائق الغناء يتبسط معهم فى الحديث الشهى فيبسط لهم جوهر الدين ومبادئ الأخلاق ونقاوة الإيمان.

وكنت وزملائى من ناشئة الأدب حينذاك نسعى إلى تلك الندوات الريفية المسائية الشيقة سعياً فنلتف حول « السيد » .. وكان التعجب والإعجاب يستوليان على أنفسنا الغضة ونحن نستمع إلى عضو مجمع اللغة العربية وعضو مجلس النواب آنذاك وهو يصوغ لأهلنا البسطاء فى أعماق الريف المعانى الدينية الرفيعة والقيم الأخلاقية المنيعة فى غذاء سائغ الهضم، وميسور الفهم لا يكاد يمس الأسماع حتى يتعمق العقول والقلوب لينضح فيما بعد سلوكا ومثلا عليا تمشى على الأرض.

وكان « السيد » يخصنا – نحن هواة الإبداع – بحديث خاص أحيانا يتناول فيه سيرة معاصريه من علماء الأزهر الأفذاذ مثل الشيخ مصطفى عبدالرازق والشيخ عبدالجليل عيسى، وكذلك رفقائه من أساطين الفكر والأدب المحدثين والمعاصرين، مثل : عبدالعزيز البشرى، وحافظ إبراهيم، وعبدالحميد الديب، وطاهر أبوفاشا كما كان يحلولنا– وله – أن يستمع إلى إبداعاتنا الناشئة فى الشعر والفكر فيعلق عليها فى رفق مشجع يشعل جذوة الأمل فى جوانب الأفئدة المتطلعة إلى المستقبل المضىء.

وعندما انتقلنا إلى التعليم الجامعى فى القاهرة كانت سعادتنا الكبرى فى أننا سنحظى فى العاصمة بلقاء رائدنا الكبير، وشاعرنا الخطير السيد القاياتى، وكم كان يرحب بنا فى حدب وحبور فى بيته القاياتى العريق الذى كان لصيقاً بسور القاهرة القديم فى عطفة القاياتى « السكرية سابقاً »، بجوار باب زويلة أو « بوابة المتولى » كما يقال، فى حى الغورية العتيق.

وفى رحبة هذا البيت، ذات الفناء الواسع، كنت ترى الأرائك مصفوفة، ومعدة فى كل يوم لاستقبال الزائرين من كبار الأدباء وناشئتهم ومن مريدى التصوف ومحبيه، وكنت ترى أقداح الشاى العربى الهنئ تدار على القاعدين من حين لآخر، فيرتشفون الأدب والعلم، والشاى فى آن.

كما تشهد هذا المتكأ من علٍ نخلة سامقة تشرئب فى وسط الفناء، لو تحدثت لروت مما تسمع أدبا، ولحكت مما ترى عجبا. وقد حدثنى « السيد » ـ رحمه الله ـ أن هذه النخلة قد شهدت ميثاقا مبرما عقده فى ظلها – وفيما بينهم – زعماء الثورة المصرية برياسة الزعيم أحمد عرابى.

فبيت القاياتى إذن بيت جمع فيما بين الجدر، عديد الصور، وشتى الذكريات، فهو بيت الدين والعلم. وبيت الأدب والسياسة، إذ من أعلامه فى الدين : السيد أحمد عبدالجواد أحد علماء الأزهر وشيخ الفشنية فى القرن التاسع عشر، والسيد عبدالعظيم شقيق شاعرنا السيد حسن، ومن زعمائه فى السياسة السيد محمد عبدالجواد والد أديبنا الكبير، وشقيقه السيد أحمد فى الصف الأول من زعماء الثورة العرابية وقد أبعدا إلى الشقيقة سورية نفياً لمدة أربعة أعوام أفرزت كتابا تاريخيا قيما للسيد محمد عبدالجواد القاياتى بعنوان « رحلة الشام » .. وفى السياسة كذلك يحدثنا التاريخ عن الشيخ مصطفى القاياتى أستاذ الزعيم الوطنى مصطفى كامل، ومن بعده شقيقه السيد إبراهيم شيخ الفشنية السابق بالأزهر الشريف كأبطال للثورة المصرية سنة ١٩١٩ بزعامة خالد الذكر سعد زغلول باشا .. وهى أسماء خالدة فذة لها – إلى جانب الدين

والسياسة – دور فى الأدب جد عريق كان فارسه المحجل «السيد حسن»..

والرجل مع منزلته الأدبية كان يتمدح بدور عائلته السياسى ولا ينسى أن يتحدث فى ثقة واعتداد عن بعض ذكريات طفولته، وعندما طرق بابهم طارق، ذات يوم فذهب ليرى من الزائر، فإذا برجل فعل الزمن بهيئته كل سوء ظهر أثره فى ثيابه، ولحيته وانحناء ظهره، فسأل «الطفل» هل السيد محمد عبدالجواد بالدار؟ فلما استفسر «السيد» عن اسمه أجابه بأنه «أحمد عرابى».. أجل!! زعيم الثورة المرموق فى عهدها الثائر، وكانت كل البيوت قد تنكرت للرجل بعد عودته من المنفى، مجاملة للخديو وللقصر، إلا بيتا واحدا. هو بيت القاياتى..

وإن بيتاً اجتمعت فيه إمامة الدين، وزعامة السياسة وريادة الأدب وعراقة الفكر، لهو دون شك بيت يفتح للكرم والجود أوسع الأبواب، فلقد كانت تؤمه الوفود من الواحات وبلاد المغرب، وأقاليم مصر الوسطى لتجد فيه الأهل والسهل جميعا.

أما السيد حسن القاياتى فهو فى ذلك الحفل اليومى رائد وفى تلك الندوة العامرة إمام يضفى على المكان من مهابته مهابة، ومن بساطته بساطة، حتى لتكاد تلمح روح «السيد» تشع فى كل شئ هنا وهناك وهو بعد جالس فى الصدارة يتحدث فى هدوء يلزم مريديه إلزاما على التسمع الدقيق والإنصات العميق.

ولقد كان الرجل مؤمناً بدوره الأدبى إيمانا شديدا، ولعله كان يرى فى إقامة هذه الأمسيات الأدبية فى داره تحقيقا لرسالة يؤمن بها، وهى جمع رواد الأدب ومريديه فى صعيد واحد، يؤلف الشمل ويلف الجمع.

وقد ذكر هذه المعانى يوماً فى صحيفة الأهرام بعددها الصادر فى ٢٨-٧-١٩٤١، عندما تحدث عن «النادى الأدبى الرياضى فى الدولة الأموية» ثم ذيّل حديثه بدعوة صادقة إلى «إخوتنا الأدباء العصريين والشعراء لتأليف منتديات أدبية يأوى إليها من رجالات البيان بأوعية الفكر بالأدب البكر».

ولقد كان القاياتى يتحلى بتواضع العلماء، وكرامة العظماء، وفى الذاكرة نقوش كثيرة، وأمثلة وفيرة على ذلك التواضع الرفيع والخلق المنيع، فمن ذلك أن يطلب منا الرجل وكانت أقلامنا لم تزل تحبو على صفحات الصحف الإقليمية بالفيوم – أن يكتب أحدنا عنه مقالا فى تلك الصحف المحلية محدودة الانتشار بعنوان «القاياتى أديباً»..!!

هكذا كان الرجل يمدنا بالنموذج العملى فى معاملة الرواد للناشئة، وكم أود أن يبعث اليوم مثل هذا الخلق فى مجالات التربية وآفاق الفكر والإبداع فى الآداب والعلوم والفنون، إذن لصار لهذه المجالات والآفاق شأن وأى شأن.

يطلب منا الرجل ذلك فى ابتسامة هادئة لم تخف ما وراءها من مرارة وأسى أنه لم يجد من يكتب عنه وعن شعره الذى طبع ديوانه الأول فى عام ١٩١٠، أو عن نثره الذى زخرت به كبريات الصحف والمجلات مثل «الرسالة والثقافة وكوكب الشرق وصحف الأهرام والمصرى» وغيرها أو عن

جهوده اللغوية الأصيلة فى اللغة العربية سواء فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية، أو فى الندوة القاياتية بالسكرية أو فى اللقاءات الأدبية «بكازينو الحلمية» فى باب الخلق بالقاهرة.. ألم أقل لك منذ قليل أنى أبادر دائماً إلى الكتابة عن ذلك الرجل العظيم أداء لبعض حقه على الأوفياء من تلاميذه وقليل ما هم؟

وعندما بدأ القلم يستقر بين أصابعى كتبت عنه مقالاً بعنوان «السيد حسن القاياتى» فى «مجلة الأديب اللبنانية» فى عددها الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧، وساقت الأقدار هذا المقال إلى باحث أزهرى من مغاغة بلدة القاياتى وهو الشيخ محمد عبدالوهاب عبداللطيف مفتش الوعظ آنذاك بمحافظة بنى سويف، وكان يبحث عن موضوع غير مطروق لرسالة الماجستير يتقدم به لكلية اللغة العربية فشعت فى وجدانه النفحات القاياتية عندما قرأ المقال، وأراد الله أن يختار «القاياتى شاعرا» موضوعا لرسالته.. وسأل «الباحث» عن صاحب المقال حتى التقينا معا وتوالت بيننا اللقاءات التى كنت فيها أمده بما أملك من معلومات شخصية وعامة عن «القاياتى» وبما كنت احتفظ به من المخطوطات القاياتية النادرة التى كان قد خصنى بها «السيد حسن» من أشعار ومكاتبات، حتى اتخذ فضيلة الباحث منى مرجعاً حياً رأى القاياتى وعاش فكره الرائع، وحديثه الممتع.، وخلقه المتين.

وفى إحدى أمسيات شهر ديسمبر لعام ١٩٨٠ وبعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة القاياتى وفى قاعة الشيخ أحمد حمروش بمبنى كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف دارت مناقشة الرسالة حول القاياتى الذى أحببته حب القلب واللب جميعا، وذلك بإشراف الأستاذ الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى وعضوية الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود، وكنت من بين عشرات الحضور- أسعدهم جميعا لأننى كنت أتمثل أمامى القاياتى بقامته الفارعة وهندامه الأنيق الرشيق، كما كان ينظر إلىّ فى جذل وحبور إذ أصبح موضوعا يناقشه العلماء ويبحثه المفكرون وتدبج فيه الرسائل العلمية ولاسيما فى الأزهر المعمور أعرق جامعات الدنيا وهو المعقل العلمى العتيق الذى شهد القاياتى طالبا أديبا ومفكرا لبيبا مع لداته ممن تصدروا الرعيل الذى تحلق حول الأستاذ الإمام محمدعبده يتفقه فى الدين ويتفهم العلم من ذلك المنبع المتدفق المعطاء، وهو الجيل الذى ملأ النصف الأول من القرن العشرين علما، وأدبا عبر المحافل الفكرية الحافلة، والصحافة الجادة الهادفة والصالونات الأدبية الممتازة، وما أكثرها فى ذلك الزمان.

غير أنه يبدو أن عزة النفس، وأنفة العبقرية، والثقة فى إمكانات الذات قد نأت بالقاياتى أو نأى القاياتى بها عن ارتياد مجالس الدعاية والإعلام والإعلان، ولم يكن ذلك تكبرا أو غرورا فقد تحدثنا منذ سطور عن تواضع الرجل مع البسطاء وناشئة الأدباء، ولكن لعل ذلك كان إيمانا بمبدأ توارثته الأصالة الإبداعية العربية جيلا بعد جيل، وهو أن يحج الناس إلى أصحاب الفكر الثرى ويتعرفوا عليهم، وينهلوا منهم عرفانا لهم وتقديرا لمكانتهم التى ينبغى أن تصان عزيزة الجانب كريمة السيرة يقتدى بها الناس فكرا وعملا، ومبدأ وسلوكا.. أليست عزة المفكرين وكرامتهم مستمدة من عزة الفكر وكرامته؟ وهكذا كان «السيد» عيوفا عزوفا

ارتضى مقامه المفضل فى دار آبائه وأجداده أصحاب الأيادى البيضاء المعروفة على الحركة الوطنية والثقافية فى مصر فى تلك البقعة العريقة من سور قاهرة المعز القديم مؤمنا تماما بأن العلماء يُطلبون ولا يَطلبون.

ولقد ضم شعر القاياتى كثيرا من المعانى التى تبرر سلوكه المتعالى لا عن غطرسة واستعلاء ولكن عن اعتزاز وإباء، ولك أن تقرأ فى ذلك بعض الأبيات الحارة فى «قاياتية» صادقة معبرة عما فى نفس الرجل عندما يقول:

أنا فى عهد خداع، أهله
نفخوا الزق وظنوه السمن
كل من سارت له أكذوبة
بجميل، نحلوه كل فن
كم عظيم الكبر باد جهلة
ظنه الناس على شئ فطن

ثم يعيب على الأدعياء وأشياعهم فيقول:

طائرل الصيت لديهم كل من
أرسل الشعر سقيما أو لحن
ليس طيب الذكر حقا كله
يذكر البدر بحسن ما فتن
حسب من أحسن صنعاً صنعه
لا تقل: من رب هذا وابن من؟

وينحى باللائمة على الشعراء الذين يدعون الوطنية فى أشعارهم لقاء جاه أو منصب أو مال:

جل من ناحوا على أوطانهم
أخذ الأجر على الدمع ومن

وما أهون هؤلاء الأدعياء المفتونين على الناس، إنهم موتى بين الأحياء فما بالهم لو ما توا حقا إنهم عندئذ لن يستحقوا الكفن الذى يلفهم إلى التراب:

إن فى الناس لموتى نتقى
موتهم ضنا عليهم بالكفن.

وفى قصيدة تقرب من الستين بيتا نشرت فى مجلة الرسالة (٢١ فبراير ١٩٣٨)

يعيب على بعض أبناء جيله التباهى بالحرية بينما هم عبيد لكل معطاء.

جيلٌ تباهى بِلُبٍّ حُرٍ
وظل عبداً لدى العطايا
من ادعى أنه طليق
إلام يختال فى السبايا؟

وشعر القاياتى حول هذه المعانى كثير ووفير، وفى مقابل ذلك نراه فى بعض شعره يعتز بنفسه أيما اعتزاز حين يقول مثلاً:

إنى لأضخم من فى مصر قافية
ليستمع ذاك من فى أذنه صمم
الشعر يشهد أنى قائل لبق
لا تجحدونى هذا أيها العجم

أو حين يقول:

أصد والحظ يبتغينى
أقول باسمى دعا سوايا

غير أن الرجل لم يكن منطوياً عن مجتمعه أو بعيدا عن أحواله وظروفه وإنما كان معبرا عن نبضه مفصحا عن كرامته، ففى قصيدة بعنوان «غوث

اللهيف » يدعو الأثرياء إلى مد يد المعونة إلى الفقراء والمحتاجين دون أن يبددوا أموالهم فيما لا طائل تحته فيقول:

لهفى على مال يذوب نضيره
نهبا لكأس مرة أو أغيد
أبذل تسد فى الناس غير مسود
ليس التشدد من خصال السيد
كم تحت جنحك يا دجنة موجع
قال الأسى لونه: لا ترقدى

ثم ينهى قصيدته الطويلة قائلاً:

تلك النصيحة فاشهدوا أسديتها
لسراة مصر، وأنت يا مصر اشهدى

وفى موضوع آخر فى قصيدة نشرت له عام ١٩٥٦ بمنبر الشرق التى كان يصدرها صديقه الحميم الشيخ على الغاياتى نراه يستنهض همم قومه ليسعوا إلى طلب العلم النافع الذى سيبوئهم المقعد اللائق بهم تحت الشمس فيقول:

كفى بالجهل متلفة وغيا
إذا كان الهوان له عتابا

ثم يشير إلى أهمية العمل فى الدنيا مهادا للآخرة:

إذا لم تملك الدنيا ثناء
فلست بمالك الأخرى ثواباً

وكان شاعرنا الصادق مع نفسه وبلده يسهم دائما فى المناسبات الوطنية ويتفاعل معها، ويعبر عنها فى إخلاص شديد.. وعندما أُعلنت الجمهورية فى عام ١٩٥٣ عبر عن شعوره بهذه المناسبة فى قصيدة ضمن مخطوطاته لدىّ بعنوان «النيل ملكى» يقول فيها:

نعمتُ بعد التشكى
النيل أصبح مِلْكِى
تبسم النيل حراً
فقل لفرعون يبكى

ثم يحيى اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر:

هذا نجيب رئيسى
وسدة النيل مُلكى
لمن ثناء المساعى
أشم نفحة مِسك
«نجيب» ويُنجى و«نوح»
بجحفل وبفُلكِ

ذلكم بعض ما جال بخاطرى، وتداعى بفكرى ووجدانى نحو أستاذى الراحل الكبير السيد حسن القاياتى، وإن هذا لنزر جد يسير مما أحفظ له من ذكريات حبيبة غالية.

غير أنى لا أبرح حتى أسوق لذواقة الشعر القاياتى هذا المثال الذى أوحى إلى «السيد» وهو يخطر متأملا على شاطئ بحر يوسف الذى يشق الفيوم كترعة تراثية قديمة تستمد اسمها - كما يقال - من اسم يوسف الصديق -عليه السلام-

مشى الحسن رفافا على «بحر يوسف»
فيالك من حسن على النهر مترف
زُليخا تشق الثوب أم شق «يوسف»
حُلى نهره الفتان من حُسنِ يوسف؟

هل تغرق السفينة ؟ لطفك اللهم

٢

للأستاذ / مجدى عبدالحميد بشير

التسخين الكونى

فالأرض ترتفع حرارتها ولذلك آثار وخيمة تتمثل فى ذوبان الجليد وارتفاع منسوب مياه البحار والأنهار وإغراق المدن بالفيضانات وتدمير المحاصيل.

وقد دق الباحثون مؤخرا أجراس الإنذار التى تحذر من أن كوكبا رطبا يمكن أن يساعد على انتشار الأمراض المعدية حيث يوفر مناخا أكثر ملاءمة للطفيليات وانتشار الأمراض الاستوائية كأمراض المحاصيل. وإضافة إلى التغيرات المناخية الحادة تتسبب كل هذه الأمراض فى انتشار المجاعات. وتقوم الغازات الجوية والحرارة الكافية الموجودة بالقرب من سطح الأرض بجعل الصورة أكثر سوءا فإن زاد الحر قليلا اشتد الخطر إذ يتبخر الماء بشكل أسرع يؤدى إلى ظاهرة الاحتباس الحرارى الذى يؤدى بدوره إلى امتصاص ثانى أكسيد الكربون من الصخور فتزداد درجات الحرارة ارتفاعا حتى يصل الأمر بالأرض إلى أن يشبه جوها فى حرارته جو كوكب الزهرة حيث تصل الحرارة إلى ٩٠٠ درجة فهرنهيت.

١٠ - انهيار النظام البيئى :

إن صور الأفيال المذبوحة والغابات المطيرة التى تم حرقها صور مروعة من الصعب أن تزول من ذاكرة الإنسان. لكن الطامة الكبرى تتمثل فى الفقدان الكلى لما بالبيئة من تنوع

وثراء وثنائية تتمثل فى الذكر والأنثى. فعلى مر السنين خلق الله عالما اعتمد فيه ازدهار ورفاهية كل كائن حى على الآخر فى نسيج موشى من الكائنات والمخلوقات التى لا يحصيها عد ولا تقع تحت حصر. وهاك مثل تمت دراسته.

فقد شجعت فصول الشتاء كثيفة الثلوج الذئاب على صيد الآيائل والغزلان بأعداد كبيرة مما أدى إلى نمو شتلات خشب التنوب السام التى كانت تتغذى عليها الغزلان الأمر الذى أدى إلى أن تلك الشتلات سحبت ثانى أكسيد الكربون من الغلاف الجوى وهو ما أثر بدوره على المناخ، إنها سلسلة متصلة الحلقات ولمواجهة الأعداد المتنامية من البشر تزال الغابات للبناء عليها والزراعة فيها ونحن بذلك نستبدل النباتات البرية شديدة الثراء والوفرة بحفنة قليلة من المحاصيل الضعيفة. كما نقوم بضخ كيماويات جديدة فى البيئة، وتسبب النشاط البشرى كذلك فى أن يختفى في كل عام نحو ثلاثة آلاف نوع على الأقل من النباتات، ويقول أحد علماء نظم البيئة الاجتماعية: إن هناك عددا من الوسائل والأساليب التى يسيىء بها الإنسان إلى التوازنات البيئية المعقدة وهو ما يعنى نشوء أنماط جديدة من الأمراض. كما أن الحشرات الملقحة للنباتات يمكن أن تنقرض، الأمر الذى يعجل بفشل وبيل الآثار على المحاصيل وهو أمر لابد من تداركه قبل فوات الأوان.

١١- مضار التقنيات الحيوية:

وليتنا توقفنا عند الإضرار بمخلوقات الله - تعالى - بل إننا نوجد أنواعا جديدة من خلال الهندسة الوراثية.

صحيح أن المحاصيل المعدلة وراثيا تمتاز بقوة تحملها وبأنها ألذ طعما وأشد إشباعا لآكليها إلا أن كل تلك الأمور نسبية. كما أن الميكروبات المهندسة يمكن أن تخفف من مشاكلنا الصحية وكذا العلاج بالمورثات يقدم إنجازا واعدا فى تثبيت العيوب الأساسية فى الحمض النووى للخلية (DNA) وبرغم عدم توفر أدلة على خطورة النباتات المعالجة وراثيا إلا أن هناك أدلة على بعض المورثات منها يمكن أن تتسرب وتتخذ طريقها إلى المخلوقات الأخرى، كما يمكنها أن تكون مرفأ لمقاومة المبيدات الحشرية. ويقول المتشككون: إن الأعشاب الضارة العملاقة والآفات الشرهة يمكن أن تؤدى إلى زيادة زعزعة النظام البيئى المهترىء أصلا. ناهيك عن صعوبة التحكم فى الميكروبات الأخرى. وأما أشد الأمور إفزاعا فهو الاستخدام السيىء المتعمد للتقنيات الحيوية. خد مثلا على ذلك جماعة ترى أن مادة الانتراكس السامة ليست سامة بما فيه الكفاية ومن ثم تقضى الليل قبل النهار لإنتاج نموذج من مرض الإيبولا وتنشره فى الهواء الذى نتنفسه فما أشر الإنسان وأطغاه.

١٢- عشوائية معجلات الإليكترونات :

وقد هذى أحدهم مرة بفكرة تقول : إن تجربة لأحد معجلات الجزيئات يمكن أن تؤدى إلى سلسلة من التفاعلات تؤدى فى النهاية إلى تدمير العالم .

والمخيف أنها فكرة تشيع لدى ذوى العقول الجبارة من الفيزيائيين ويصرحون بها فى اجتماعاتهم الخاصة وفيما يكتبون بخطوط لا تكد تقرأ على أظهر المظاريف التى يستخدمونها وشاع ذلك الموضوع شيوعا بعد تقرير نشرته صحيف لندنية جاء فيه : إن تصادم الشحنات الثقيلة نسبيا مثل الذى حدث فى إحدى الجزر بنيويورك والمشار إليه بالأحرف RHIC يمكن أن يوجد ثقبا أسود مؤلفا من فرعيات الذرة الأمر الذى يؤدى إلى تآكل بطئ لكوكبنا .

وعلى العكس من ذلك أن يخلق فتاتا مروعا من المادة المتغيرة التى أطلق العلماء عليها اسم "Strangelets" ومن خواصها أنها تطمس معالم المادة العادية وكنوع من التطمينات عقد أحد مديرى المعامل مؤتمرا رفض فيه تلك الفكرة بجانبها المهين والمهول .

١٣- المضار الناتجة عن تقنيات الناتو :

فقبل إن تتسخ لوحة مفاتيح حاسوبك الخاص فإن الجهاز المنزلى سيظل معقما والسبب هو التقدم اللاهث الذى لا يكاد يلم به عقل فى تصغير وتدقيق الدوائر على رقائق السليكون فالمهندسون يستخدمون تلك التقنية الآن وموازين ذرية بحتة ليوجدوا مجالا جديدا سموه تقنيات الناتو .

ففى غضون بضعة عقود أو أقل سيصبح ميسورا صنع الإنسان الآلى المجهرى .

وستقوم تلك الأجهزة بإجراء العمليات الجراحية داخل جسم المريض وسيمضى كل شيء على ما يرام إذا ما صنعت تلك التقنيات كما هو مخطط لها .

١٤- السموم البيئية :

يمتلئ التاريخ البشرى بأمثلة مريعة لأخطار الملوثات الصناعية ففى مدن رئيسية حول العالم يمتلئ الهواء بجزيئات وذرات الديزل التى تعتبرها المعاهد الصحية من المسرطنات فالمعادن الثقيلة المعبأة بالأدخنة تشكل حزاما حول الكرة الأرضية حتى أن فطرياتها تتوطن القارة المتجمدة كما أن الاستخدام المفرط للمبيدات الحشرية فى الزراعة يؤدى إلى أنها سرعان ما تتسرب للأنهار والترع .

فإذا زادت الجرعات وبقيت فى النباتات فإنها تعرقل نمو الأجنة وتعيق الوظائف التناسلية، وقد أحصت إحدى الهيئات الصحية ٢١٨ مادة غير معروفة ومسببة للسرطان ويؤكد المسئولون بمؤسسة الحياة البرية أن كل المركبات السابقة تشبه فى آثارها الهرمونات التى تقلل الخصوبة ويعارض علماء آخرون تلك الآراء التى إن ثبتت صحتها لهددت المخلفات الكيماوية بقاءنا .

١٥- الحروب :

لاتزال أمريكا وروسيا تحوزان ١٩ ألف رأس حربى نووى نشط وصحيح أن الحرب النووية أمر مستعد بل مستحيل لكن المواقف السياسية غير ثابتة فى الوقت الذى تظل القنابل فتاكة، كما لا ننسى احتمال نشوب حرب نووية عشوائية «غير متعمدة» أما نظام الدفاع بالصواريخ البالستية ذات التقنيات العالية فلن يكون قادرا إلا على إيقاف حفنة من الصواريخ التى تضل طريقها وذلك لو افترضنا أن هذا النظام يعمل أصلا.

كما لانغفل أيضا الأنواع الأخرى من الأسلحة فقد بدأت اليابان تجربة الأسلحة البيولوجية بعد الحرب العالمية الأولى كما أن العلماء يقومون بتجريب الجراثيم القاتلة.

وبمقارنة الأسلحة الجرثومية والبيولوجية بالقنابل الذرية وجد أن للنوعين الأولين ميزات وخصائص - أن صح التعبير - منها: رخص ثمنها وسهولة إنتاجها ويسر إخفائها وصعوبة السيطرة عليها بعد إطلاقها، ويشير أحد الفلاسفة الكنديين إلى أن الهندسة الوراثية تساعد على إيجاد سلاح بيولوجى عرقى صنع وصمم لمهاجمة مجموعات عرقية بعينها.

١٦ - عصر الإنسان الآلى:

ابتكر البشر الإنسان الآلى الرشيق الذى سرعان ما تمرد على الإنسان وشرع فى الهيمنة على أمور العالم والتحكم فيه ويتوقع أحد مؤسسى أقسام الإنسان الآلى أنه بحلول سنة ٢٠٢٠ سيماثل ذكاء الآلة ذكاء الإنسان وربما وعيه وضميره وقد يتفوق.

١٧- الجنون الجماعى:

فبينما تحسنت الصحة الجسدية فى معظم أرجاء العالم فى القرن الماضى أخذت الصحة النفسية فى السوء والتدهور وتقدر منظمة الصحة العلمية أن نصف بليون نسمة يعانون من اضطرابات نفسية وفى سنة ٢٠٢٠ سيكون الاكتئاب ثانى الأسباب الرئيسية المؤدية للوفاة وهو فى ذلك يلى مرض الأوعية الدموية.

وطول أعمار البيئة بعقد المشكلة إذ أن أرذل العمر مدعاة للوحدة ووهن الشيخوخة فالأمريكان فوق سن الخميس والستين يقدمون على الانتحار بشكل مطرد.

وقوة الإيمان حصن حصين من الاكتئاب الذى ربما يكون ناشئا عن خوف قلة الرزق أو الأجل وهما أمران كفلهما الله لكل إنسان.

١٨- الأمر الإلهى

وهو ما يزعمونه التدحل الإلهى فى الكون ولاشك أننا نحن المسلمين نرفض هذا المصطلح ونلفظه سائلين بدورنا: متى تخلى الله عن شئون العالم حتى نتدخل فيها؟ فاليهود والنصارى والمسلمون كلهم تبشر كتبهم بيوم الدين يوم الجزاء والثواب والعقاب.

وما يقلق الكفرة والملحدين والماديين أيا كانت ترهاتهم هو أن يأخذ إنسان الأمر بيده

ويقرر إفناء العالم وقد جرت محاولات من هذا القبيل سنة ١٩٩٥ حينما قام أعضاء طائفة يابانية تسمى «أومشينريكيو» بإطلاق غاز السارين السام فى أحد محطات أنفاق طوكيو العاصمة فقتلوا ١٢ وأصابوا أكثر من خمسة آلاف.

ولو سارت الخطط كما دبروا لكانت المصيبة أفدح، وإذا كان هذا هو الحال مع من أهملوا نعمة الله عليهم وأخذوا يحلون مشاكلهم بالمخلب والناب فماذا لو كان هذا المخلب وذلك الناب سلاح فتاك قاتل مميت نوويا كان أو بيولوجيا من تقنيات الناتو كان أو جرثوميا وحازته مجموعة أُشربت قلوبهم الشر والعنف؟!

١٩- أبدا ما كان حلما:

ولا مناص هنا من الرؤى الأدبية وأضغاث الأحلام حين يهب أحدهم من نومه زاعما مدعيا أن كل ذلك كان حلما لا غير، ثم يتمادى أصحاب ذلك الرأى فى أوهامهم قائلين: هل نحن نعيش وجودا زائفا تدفعنا فيه حماقتنا وجهلنا إلى الاعتقاد بأننا نعيش حقيقة واقعة وما يفتأ ذلك السؤال المعتوه يتردد فى الفكر الثقافى والكتابات المختلفة.

وقد عبر عن تلك الهلوسات الأدبية والتهويمات البوهيمية أحد فلاسفة الصين القدماء فى القرن الرابع ق. م وذلك فى أسلوب شاعرى وتصور خيالى مضلل فقال وهو يصف حلما قام منه للتو وتخيل نفسه فيه مجرد فراشة لا تعى أو تدرى ما وجودها ولا حياتها فعندما استيقظ من نومه أخذ يتساءل قائلا: هل كنت أنا من قبل فلانا الذى رأى نفسه فى المنام فراشة أو ترانى الآن فراشة ترى نفسها فى النوم فلانا؟! وهو تصور أجوف يدغدغ المشاعر ويلعب بالأحاسيس ويفرغ الحياة من مضمونها الجوهرى ويخلى عقل الإنسان وقلبه من رسالته العظمى فى الحياة التى حددها الله - سبحانه وتعالى - وبينهما فى قوله عز وجل.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

فتلك مهمة الإنسان التى إن أضاعها استحق ما يلاقى لولا لطف الله.

***

(١) الذاريات (٥٦).

طرائف.. ومواقف

إعداد الأستاذ / عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

أكرم.. الثلاثة

جلس بعض القوم يفضّلون الكرماء، ويوازنون أيهم أكرم من صاحبه؟ فقال رجل: أسخى الناس فى عصرنا هذا، عبدالله بن جعفر بن أبى طالب، وقال ثان: بل أسخى الناس عُرابة الأوسى، وقال ثالثْ: بل أسخى الناس: قيس بن سعد بن عبادة، وأكثروا اللجاج، وعلا ضجيجهم حول الكعبة، واجتمع عليهم الناس، فقال قائل منهم: ولماذا الجدل؟ ليذهب كل واحد منكم إلى صاحبه فينظر ما سيعطيه، وبعد ذلك يكون التفضيل، والحكم على العيان.

فذهب صاحب عبدالله بن جعفر إليه فصادفه خارجاً من منزله، وقد وضع قدمه فى ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال له: يا بن عم رسول الله، قال: قل ما تشاء قال: أنا ابن سبيل، ومنقطع به، فأخرج رجله من مكانها، وقال له: ضع رجلك، واستو على الراحلة، وخذ ما فى الحقيبة واحتفظ بالسيف فإنه من سيوف على بن أبى طالب.

فجاء بالناقة والحقيبة وفيها مطارف من حرير، وأربعة آلاف دينار، وأعظمها وأجلها سيف على بنَ أبى طالب.

ومضى صاحب قيس بن عبادة فصادفه نائماً، فقالت جاريته: هو نائم فما حاجتك؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، فقالت: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، والله يعلم أن ما فى دار قيس غيره، ثم امض إلى معاطن الإبل، فخذ من رواحلها ما يعينك على السفر وامض لشأنك، ولما انتبه قيس حدثته فشكرها وأعتقها.

ومضى صاحب عرابة الأوسى، فألفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة، وهو يمشى مع عبدين وقد كف بصره، فقال يا عرابة: ابن سبيل قد انقطع به الطريق، فخلى العبدين، وصفق بيمناه ويسراه، وقال: أواه، ما تركت الحقوق لعرابة مالا، ولكن خذ

العبدين، فدهش الرجل، وقال: كيف تسير وليس معك من يهديك؟ ما كنت والله بالذى يقص جناحك؟ فصاح عرابة: إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فخذ، وإن شئت فاعتق.

ورجع إلى منزله يتلمس الحائط بيده، فليس معه من يهديه! فأخذهما الرجل وذهب إلى رفاقه فمن أكرم الثلاثة؟

من أدبك؟

يروى أنه قيل لسيدنا عيسى - عليه السلام - من أدبك؟ قال: ما أدبنى أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً فاجتنبته.

علامات حسن الخلق

جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال:

هو أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، براً وصولاً وقورا صبورا شكورا رضيا حليما، لا لعانا ولا سبابا، ولا نماما ولا مغتابا، ولا حقودا ولابخيلا، ولا حسودا، بشاشا، هشاشا، يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويرضى فى الله، ويغضب فى الله فهذا هو حسن الخلق.

لا تطيلوا الجلوس

دخل قوم على مريض فأطالوا، ثم قالوا عند انصرافهم: أوصنا شيئاً، فقال: أوصيكم أن لا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عدتموه.

عزة المؤمن

جح هشام بن عبدالملك أيام خلافته، فوجد فى الكعبة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، فقال له: يا سالم سلنى حاجتك أقضيها لك.

فقال سالم: استحى وأنا فى بيت الله أن أسأل غيره، فلما خرج من الكعبة ناداه، وقال: يا سالم الآن فاسأل، قال: سالم إنى ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟.

دعاء

اللهم أفردنى لما خلقتنى له، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تحرمنى وأنا اسألك، ولا تعذبنى وأنا استغفرك.

منبر الجمعة :

مولد خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام

لفضيلة الشيخ / على حامد عبد الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى شرف الوجود بأكرم مولود، وأنعم على عباده بميلاد خاتم الأنبياء والمرسلين، ليقود الناس إلى الحق وإلى صراط الله المستقيم، وليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١).

وأشهد أن محمدا عبدالله ورسوله الأمين، ورحمته إلى الناس أجمعين القائل: «إنما أنا رحمة مهداه» اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين الذين سعدوا بمولده، وابتهجت نفوسهم بمشهده.. فنصروا دعوته، واتبعوا سنته، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون.

أما بعد: فيا عباد الله: يستقبل المسلمون

(١) الأحزاب (٢١).

فى مشارق الأرض ومغاربها فى شهر ربيع الأول ذكرى من أعظم الذكريات، وما اهتمت الدنيا لميلاد إنسان كاهتمامها بميلاد سيدنا محمد بن عبدالله ﷺ، وما تحدث الناس عن مولود قبل ميلاده كحديثهم عن الصادق الأمين قبل ظهوره، فقد تحدثت الكتب السماوية قبل ميلاد الرسول الأعظم والنبى الأكرم ﷺ - بقرون عديدة، وعن أهداف رسالته ﷺ من قبل أن يكون فى عالم الوجود، قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٢).

كما أنبأنا التاريخ عن حديث الكهان والرهبان عن ذلك النبى الذى حان حينه ولمعت أنواره، وقالوا عنه: نبى مصلح يظهر فى بلاد العرب يغير وجه التاريخ ويفك الإنسانية من أسرها وأغلالها ويهديها إلى الصراط المستقيم، وصدق الله حيث يقول:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣)

وذكرى مولد رسول اللهﷺ هى الذكرى التى أذن الله فيها للعالم أن يهتدى بعد الضلالة، وأن يستقيم بعد الغواية وأن يستنير بعد الجهالة، وأن يتحد بعد الفرقة والشتات، وأن يتآخى بعد النكران، وأن يتطهر من المآثم، وأن يترفع عن المظالم، وأن يعبد الله لا يشرك به سواه.

إن ذكرى خير الورى، ونور الهدى، نحو الخير والفلاح، إنها لذكرى تشع منها أضواء تتلألأ تنير الطريق لمن أراد أن يعتبر، أو ألقى السمع وهو شهيد، إنها أضواء من سيرة المصطفى وشمائله وهديه وفضائله، وهى مجموعة من المثل العليا فى مكارم الأخلاق.، ومحامد الأفعال، وجلائل الأعمال، والتاريخ أصدق شاهد على صبره ومثابرته، وجده فى نشر رسالته، واحتمال الأذى فى سبيل دعوته مع صدق وأمانة، وإقدام وشجاعة، وتواضع وسماحة، ولطف وسخاء، ورحمة ووفاء، إلى غير ذلك من عظيم الصفات لقد بلغ ﷺ القمة فى الأخلاق الفاضلة، والذروة فى

---

(٢) الأعراف (١٥٦)، (١٥٧).

(٣) المائدة (١٥) و(١٦).

الشمائل الحميدة، وكيف لا يكون كذلك وهو الأسوة الحسنة التى ينهل من ينابيعها الصافية كل راغب فى خير الدنيا والآخرة، لقد كان خلقه القرآن، قال عنه ربه فى القرآن:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٤).

وقال صلى الله عليه وسلم : «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

فإذا جئت إلى حسن معاملته ـ تجده ﷺ ـ أحسن الناس معاملة ـ فإذا استلف سلفا رد وقضى خيرا منه ـ ودعا لصاحبه فقال: بارك الله فى أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء. ولم يكن صلى الله عليه وسلم يتصف بالقسوة حتى مع أعدائه مهتديا فى ذلك بقول ربه عز وجل:

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾(٥).

وعندما أمسك أحد المشركين برقبته ـ عليه السلام ـ وشهر عليه سيفه قائلا: من ينجيك منى فقال النبى ﷺ : (الله) فسقط السيف من يد المشرك، وفعل النبى مع المشرك ما فعله معه، فطلب المشرك من الرسول العفو عنه، فعفا عنه وأخلى سبيله ولا أدل على ذلك من عفوه عن أهل مكة الذى آذوه وآذووا أصحابه: كيف عفا عنه م عفو القادر المتمكن قائلا: اذهبوا فأنتم لطلقاء. بل يدعو لمن آذاه بالهداية: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» لقد أقام الحق والعدل. وعندما أراد أن يقيم الحد على السارقة وتشفع أسامة فى العفو عنها ـ قال النبى «يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله؟!» ثم قام فخطب فقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله: لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وفى جانب الجرأة والشجاعة فى الحق كان له صلى الله عليه وسلم مواقفه الجريئة أمام جبروت الكفرة وضيقهم بدعوته إلى الإسلام لقد قال لعمه أبى طالب حين جاء يحمل إليه دعوة القوم ويقدم له عروضهم السخية فى حالة عدوله وتركه لدعوة الإسلام فقال: «والله يا عم، لو وضعو الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه» وكان شجاعا فى مواجهة المقاطعة التى استمرت سنوات حتى أكل المسلمون أوراق الشجر حتى سقطت المقاطعة وانتصر الحق، كما كان شجاعا فى مواقف السلام، يؤثر الحكمة،

(٤) القلم (٤).

(٥) الحجر (٨٥).

والموعظة الحسنة حتى يبلغ أمر الله، استجابة لقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾(٦).

لقد كان الرسول الكريم معروفا منذ نشأته بالجود والسخاء والبذل والعطاء، يحمل الكل ويكسب المعدوم ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق، يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم: أقوى الناس إيمانا بالله وأسخاهم بمال الله، وأعطفهم على المعوزين من عباد الله، إذ كانت ثقته بما فى يد الله أشد من ثقته بما فى يده، فلابدع أن كانت كفه أجرى بالخير من الريح المرسلة.

فها هو رسول الله الذى طهره الله من دنس الجاهلية، وكرَّمه وشرف الوجود برسالته، فكان داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فكان أفضل الناس فى جميع الكمالات: أحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأعظمهم حلما، وأحسنهم جودا، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، فهدى الله به الناس بعد ضلالة، وأرشدهم إلى الطريق القويم، فكان الرحمة المهداه وصدق الله حيث يقول:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٧).

فهل نهتدى بهدى رسول الله، فنأخذ من أخلاقه من صفات العزة والشجاعة التى تجعل المسلمين يدافعون عن دينهم، ويحمون محارم الله، ويحررون الأرض، ويحافظون على العرض والشرف والكرامة، حتى ينتصر الحق على الباطل وتعلو راية السلام فى كل مكان، وحق الذكرى علينا أن نؤمن بمنهج نبينا، ونتمسك بجميل فعاله حتى تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٨).

فاتقوا الله أيها المؤمنون واعلموا أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا.

هذه بعض أخلاق رسول الله تلك التى أبرزت عظمته للعالمين فما أحوجنا إلى أن نكمل أخلاقنا من خلقه ونجمل سيرتنا من سيرته ونقتفى أثره، ونترسم خطاه، حتى نفوز برضا رب العالمين قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

أو كما قال: التائب حبيب الرحمن والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

فادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة.

---

(٦) النحل (١٢٥).

(٧) الأنبياء (١٠٧).

(٨) التوبة (١٠٥).

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إعداد وتقديم فضيلة الشيخ/ عبد الفتاح حسين الزيات

● السؤال من إبراهيم القبانى موظف سابق فى وزارة الحكم المحلى - المرج.

قال الله - تعالى - :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾(١).

وحيث إن الإسلام قد قضى نهائيا على الرق بحيث لم يصبح له وجود فى الحياة، فلم يبق إلا الدية، فهل لكم أن تلقوا الضوء على هذه العقوبة، وهل مازال معمولا بها وما مقدارها ولمن تؤدى، لأن الكثير - إن لم تكن الغالبية العظمى من المسلمين - لا يعرفون عنها شيئا خصوصا فى هذا العصر الذى تعددت فيه أسباب القتل وتنوعت وسائل المركبات وغير ذلك.

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد:

بأن الله - سبحانه وتعالى - قد شرع الدية عقوبة مالية مقدرة بنص الآية الواردة فى السؤال وهى تجب كاملة فى القتل الخطأ وفى فقد الأطراف أو الحواس كالسمع والبصر

(١) سورة النساء ٩٢.

والشم واللمس فقدا كاملا، وتقدر بحسب الإصابة إذا أدت إلى أقل من ذلك.

والأصل أن الدية تجب على المتسبب فى الضرر فإن عدم لأى سبب من الأسباب فعلى عصبة الجانى البالغين، ومن ذلك قضاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بالدية على عاقلة الجانى لأنهم أصل ديوانه، وأصل الديوان فى أيامنا هذه هم الجهة التى ينتسب إليها الجانى أو يعمل بها كالمؤسسات والهيئات والنقابات وغير ذلك من جهة العمل. فهى الملزمة بالدية للمجنى عليه أو لورثته، لأن الجانى واحد منها فى هذا الالتزام، ولا تسقط إلا بالعفو منها.

وقد يثور تساؤل: هل تختلف الدية من شخص إلى آخر باختلاف الدين والملة؟

والجواب: لا: فلا فرق فى إيجاب الدية بين مسكلم وغير المسلم أو بين المرأة والرجل وذلك بنص القرآن الكريم:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾(٢).

فبالنظر لهذه القاعدة التى جاء بها القرآن الكريم نجد أنها الأنسب فى المعاملة مع الناس على اختلاف الملل والأجناس وبهذا أخذ الدستور المصرى فى التسوية بين المواطنين إذ الكل نسيج واحد لحمته المحبة وسداه الإخاء.

أما مقدار الدية فهو (١٠٠٠) ألف دينار ذهبا- وهذا تحديد متقدم جدا ولكنه لا اختلاف فيه مطلقا، وقد دلت بعض الأبحاث التى أجريت على العملات التى كانت تستخدم فى صدر الإسلام على أن الدينار فى ذاك الوقت كان وزنه ٤,٥ جرام وهذا التقدير يمكن أن يتخذ أساسا فى تحديد قيمة الفدية فى الوقت الحاضر وبالسعر المعمول به فى الذهب فإذا فرضنا أن متوسط سعر الجرام فى الوقت الحاضر هو ثلاثون جنيها تصبح الدية ١٠٠٠ دينار X ٤,٥ جرام X ٣٠ جنيها يكون مقدارها ١٣٥٠٠٠ جنيه تقريبا.. وهذا المبلغ على ما فيه من ضخامة إلا أن حياة الإنسان أغلى وأثمن عند الله من أضعاف هذا المبلغ.

وبهذا علم الجواب والله أعلم.

● **سؤال من الآنسة فاطمة ع. ز - مينا القمح - شرقية.**

أنا أداوم على الصلاة منذ سنين طويلة ولكن منذ بضعة سنوات أصبح الشك يلازمنى كثيرا فى الوضوء وأنا أتوضأ وبعده فى الصلاة وخارجها وترتب على ذلك أننى أقوم بإعادة الوضوء عدة مرات وكذا الصلاة إذ أننى أصبحت أشك فيها من ناحية الزيادة أو النقصان وذلك بعد الفراغ منها..

فما الحكم الشرعى وماذا أفعل للتغلب على هذا الشك؟

(٢) المائدة ٤٥.

●● الجواب :

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد :

بأنه يفهم من سؤال السائلة أن الشك يحدث لها أثناء الوضوء وفى صحة الصلاة بعد الفراغ منها، ومعنى ذلك أن الشك يطرأ عليها بعد الوضوء وتيقنها من الطهارة وبعد تمام الصلاة وتيقنها من هذا التمام، وقد فهم من السؤال أن هذا الشك أصبح يلازمها منذ عدة سنوات وإنها أصابها من جراء ذلك وهم من عدم قبول صلاتها.

وإلى الأخت السائلة نقول بأن حكم الوضوء شرعا فى حالتك هذه صحيح وتطهرك لاشك فيه فيجب عليك عدم الالتفات إلى ما يعتريك من شك فى هذا الأمر لأن الشك لا يرفع الأمر المتيقن شرعا.

وكذلك حكم الشك فى الصلاة مادام يحدث بعد تمامها. إذ الشك فى هذه الحالة غير معتبر إذ أنه لا يرفع الأمر المتيقن شرعا كما سبق.

هذا كله إذا لم تتيقنى من وجود الحدث أو لم تتيقنى من ترك بعض أركان الصلاة أو ارتكاب ما يبطلها بالقول أو الفعل.

وعلى الأخت السائلة أن تتوضأ مرة واحدة وتصلى ولا تلتفت لهذا الشك مطلقا مهما كان أثره فى نفسها، ولا تعيد الوضوء ولا الصلاة فإنها إن فعلت ذلك تكون قد أدت الواجب عليها شرعا وأبرأت ذمتها أمام الله، لأن الدين يسر، وعليها أن تطرد وساوس الشيطان من مخيلتها لأن الشيطان لا يسوؤه أمر قدر ما يسوؤه وقوف العبد المؤمن بين يدى خالقه عند ذلك يولى مدبرا وهو كظيم، فإذا داومت على ذلك وتغلبت على هذا الشك اطمأن قلبك وارتاح خاطرك وغمرك رضوان الله من كل جانب.

هذا إذا كان الحال كما ورد بالسؤال والله أعلم.

● **السؤال من عبدالعزيز الدسوقى البدوي، سيدى سالم - محافظة كفر الشيخ.**

ما حكم الشرع فى تصرف بعض الآباء أو بعض الأمهات فى البيع الصورى لبعض أملاكهم أو كلها لأحد الأبناء أو أحد البنات أو زوجة محبوبة مثلا وحرمان باقى الأبناء من حقهم الشرعى الذى فرضه الله فى كتابه. وطبقه رسول الله ﷺ قولا وفعلا..؟

●● الجواب :

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد :

فإن الإسلام وضع الأسس السليمة لبناء الأسرة المسلمة ناهيا نهيا قاطعا عن كل ما يهدد كيان هذه الاسرة وهدم بنيانها، بنبذ أسباب العداوة والبغضاء والشحناء بين أبنائها، لأن الأسرة فى الإسلام هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع وأن الآباء لابد أن يكونوا قدوة للأبناء فى البر والعطف والعدل

والتسوية وخصوصا فيما يتعلق بموضوع «الميراث» لأنه قد يكون من أهم الأسباب التى تنبت الشرور وتذرع المفاسد بين الآباء والأبناء.

فالميراث حق مقرر فى القرآن والسنة وفريضة محكمة لا يعتريها تغيير أو تبديل قال تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾(٣)

وقوله:

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٤).

ومع وضوح هذا التشريع الربانى وهذا التحذير المشدد، إلا أننا نرى بعض المسلمين - آباء وأمهات - يغضون الطرف عن حكم الله فى الميراث ويتعجلون توزيع أموالهم وهم على قيد الحياة بدافع الميل والهوى والشهوة والغرض، فيحرمون المستحق ويعطون غيره، ويعكسون حكم الله فى الميراث فيفسدون أسرهم ويزرعون بذور العداوة والبغضاء بين أبنائهم فيخربون بيوتهم بأيديهم ويهدمون كيان أسرة بتصرف طائش، ورأى نزق، معتمدين فى ذلك على بعض الأقوال التى لا تكون نصا فى الموضوع مثل «أنت ومالك لأبيك» و«المالك حر فيما يملك» متناسين أن الله - عز وجل- تولى توزيع التركات وبيان أنصبة المواريث.

نعم أباح الشرع للمالك أن يوصى بشيء من ماله، تقربا إليه أو دفع حاجة وقد قال ﷺ: «إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم عند وفاتكم زيادة فى حسناتكم ليجعلها لكم زيادة فى أعمالكم» وعلى ذلك وبناء على ما تقدم فإن الوصية أو ما فى معناها كالبيع الصورى أو الاحتيالى أو الهبة لزوجة ذات منزلة خاصة فى نفس زوجها أو لأولادها وحرمان الأولاد الآخرين تصرف سيىء محظور شرعا ويدخل فى ذلك الوصية أو البيع للأبناء الذكور دون الإناث، كل ذلك تصرف منهى عنه شرعا فكل هذه التصرفات وما فى معناها منهى عنها شرعا.

كذلك فإن تفضيل بعض الأبناء على بعض فى العطايا والهبات، له من الآثار السيئة ما نراه ونقرأ فى الصحف والمجلات من مآس ومشاكل ونزاعات وقضايا ترفع أمام المحاكم.

فياليتنا نأخذ من توجيه الرسول ﷺ إلى بشير والد النعمان: «لا تشهدنى على جور، إنه عمل غير صالح» «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» «إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم كما لك عليهم من الحق أن يعدلوا فى برك، والله أعلم.

● **سؤال من منصور. د. ع - الزرقا - دمياط.**

ما حكم الشرع فى زوجة موظفة وشعرها من النوع الأكرت الذى يلتف حول نفسه دائما وهى لذلك تذهب إلى مصفف الشعر

(٣) النساء (١١).

(٤) النساء (١٧٦).

مرة كل خمسة عشر يوما أو أقل أو أكثر كى يضع له بعض الكريمات وما يساعد على إظهاره بمظهر لائق.

وما هى الكيفية التى تتطهر بها هذه الزوجة لأن الماء يفسد شعرها ويذهب مفعول ما وضع عليه من كريمات أو أصباغ وهى لذلك لا تغسله إلا عند تصفيفه أى كل أسبوعين تقريبا.

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد:

بأنه من المقرر فى فقه السادة الحنفية أنه لا بد من مسح الشعر بالماء فى الوضوء أما فى الغسل من الجنابة أو من الحيض أو النفاس، فلابد أن يصل الماء إلى منابت الشعر وفروة الرأس غير أنه لا يلزم المرأة نقض ضفائرها إذا كان الشعر مضفورا.

وفى واقعة السؤال المطروح نقول للسائل أولا: أنه لا يجوز شرعا للزوجة أن تذهب إلى مصفف الشعر أصلا إذا كان المصفف رجلا لأن شعر المرأة عورة لا يجوز شرعا للأجنبى أن يلمسه فضلا عن أن يصففه أما إذا كانت المصففة امرأة مأمونة فلا بأس.

ولابد لها أن تمسح شعرها بالماء فى الوضوء وإلا كان الوضوء غير صحيح شرعا، أما فى الطهارة من الحيض أو النفاس ومن الجنابة فلابد من وصول الماء إلى أصول الشعر وفروة الرأس مهما ترتب على ذلك. إذ بغير ذاك لا تتم الطهارة ولا عبرة بأية حجة تتحجج بها ما لم يترتب عليها ضرر هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم.

● سؤال من أبوالمعاطى سعد مصطفى - وراق العرب - جيزة.

سمعت وأنا أقضى فريضة الحج هذا العام من يقول بوجوب غسل العضو بعد الجماع والوضوء قبل الغسل من الجنابة وكان هذا القول غريبا على لأن العادة جرت على أن يستحم الإنسان مباشرة لإزالة الجنابة بدون وضوء، فما هو الرأى الصحيح فى هذا الأمر؟

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد:

بإن فقهاء المذاهب الأربعة اختلفوا فى فرائض الغسل على أقوال.

قال الحنفية إن فرائض الغسل: المضمضة والاستنشاق وغسل سائر البدن وقال المالكية: النية وتعميم الجسد بالماء ودلك جميع الجسد مع صب الماء قبل الجفاف وموالاة غسل الاعضاء مع الذكر، والقدرة وتخليل جميع شعر جسده بالماء.

وقال الشافعية إن فرائض الغسل: النية وتعميم ظاهرة الجسد بالماء.

وقال الحنابلة: تعميم الجسد بالماء وادخلوا فى الجسد الفم والأنف فيجب غلسلهما تبعا للبدن واشترطوا النية فى صحة الغسل

وأوجبوا التسمية فى أوله.

ولكن ثبت أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ قبل الغسل، فقد روى عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - عن غسل النبى ﷺ من الجنابة قالت: كان يبدأ بيديه فيغلسهما ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يخلل أصول شعره حتى إذا ظن أنه قد استبرأ البشرة اغترف ثلاث غرفات فيصبهن على رأسه ثم أفاض على سائر جسده» قال ابن نمير: غرف بيديه ملىء كفيه ثلاثا» مسند الإمام أحمد ومن هذا يتبين أن الوضوء قبل الغسل من الجنابة ليس بفرض ولا واجب عند الأئمة الأربعة بل هو سنة قبل الغسل عندهم.

هذا إذا كان الحال كما ورد بالسؤال والله أعلم.

● **السؤال من شلاضم بسطاوى - البدرشين.**

توفى رجل وترك أما وأختا لأم وأولاد أخ ذكورا وإناثا وأولاد أخت ذكورا وإناثا، فمن يرث ومن لا يرث من هؤلاء؟ ولكم جزيل الشكر.

●● **الجواب:**

بعد الحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله نفيد:

بأن للأم الثلث فرضا لعدم وجود الفرع الوارث، وللأخت لأم السدس فرضا ولأولاد الأخ المتوفى إذا كان شقيقا أو لأب الباقى للذكور فقط دون الإناث تعصيبا لقول رسول الله ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها وما بقى فلأولى عصبة ذكر» يقسم بينهم بالتساوى ولا شيء للإناث لأنهن لا يرثن تعصيبا.

أما إذا كان المتوفى قد ترك أولاد أخ لأم فلا يرثون لأنهم من ذوى الأرحام المؤخرين فى الميراث عن أصحاب الفروض والباقى من التركة فى هذه الحالة يرد إلى الأم والأخت لأم حسب نصيبهما، فتأخذ الأم الثلث فرضا والثلث ردا أى تأخذ الثلثين فرضا وردا، وتأخذ الأخت لأم السدس فرضا والسدس ردا أى تأخذ ثلث التركة فرضا وردا.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال، والله أعلم.

***

فقه العبادات فى ضوء غاياته

بقلم/ أبو محمد الأقصرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد

فلما تهيأت للكتابة عن فقه العبادات، وجدت كثيراً من الكتب التى تكلمت عنه وهى متاحة وجيدة، ولكنها فى الأعم الأغلب تهتم بالجانب الفقهى البحت، بمعنى أنها تبين الأحكام من فرائض وسنن ومندوبات وأحسست أن القارىء يخرج منها بنتاج عقلى يهتم ويركز على صحة الأداء، لكنى لم ألمس فى أغلبه أو فيما هو متاح منها الجانب السلوكى الذى ينشد الغاية من العبادة وهو مقصود التكليف، فأصبح الإنسان يؤدى العبادة وكأنها لم تمس قلبه.

ولا نلوم من كتبوا فى الفقه فهم أساتذة عظام، لكن هى ضريبة التخصص فيما نظن، وقد لا أتفق مع أساتذة كبار فى أسباب هذه الظاهرة، لكنى أتفق معهم فى ضرورة تغيير المنهج، وقد أعجبنى فى هذا المجال كلمتان للأستاذ الدكتور محمد عمارة وفضيلة الدكتور يوسف القرضاوى يلحيان على النهج القديم، واتفق معهما فى هذا، لكنى قد اختلف معهما فى الأسباب كما ذكرت.

يقول الدكتور محمد عمارة:

إن كثيراً من الأحكام الفقهية التى تعود إلى فترة تراجع العقل المسلم والحضارة الاسلامية قد وقفت عند شكل الأحكام وشكل العبادات وقفت عند الطقوس وغاب منها الروح الاسلامية وعلى سبيل المثال: فإننا عندما نرى تعريف السجود فى كتب الفقه أجده تمريناً رياضياً، أين البعد الروحى لها؟ هذا غائب! وعندما نقرأ الكتب التى توزع على الحجاج نجدها أقرب إلى الدليل السياحى الذى يصف الطرق وغاب منها روح

المناسك، فالحاج يرمى جمرات العقبة دون أن يعلم أن هذه العقبة قد عقد فيها تأسيس الدولة الإسلامية. مثلاً، أُصلِّى فى الروضة لأن الثواب فيها سيعدل ضعفاً يعنى صفقة تجارية BUSINESS أما أنها الجامعة الذى خرج منها النور وغيرت مجرى التاريخ والحضارة فهذا لا تحسه.

حينما تطوف حول الكعبة لا تشعر أنه أول بيت وضع للناس فى الأرض وأصبح قبلة هذه الأمة الخاتمة تجسيداً لوحدة الدين وإمساكاً للمجد من طرفيه فروح العبادة أصبح غير موجود.

كذلك فإن عقد الزواج فى القرآن الكريم هو عقد مودة ورحمة وسكن وميثاق غليظ بينما أصبح فى الفقه عقد تمليك بضع الزوجة لا علاقة له بروح الشريعة ومضامينها الجميلة الراقية.

ولعل هذا ما دفع أبا حامد الغزالى إلى رفع شعار ثورة «إحياء علوم الدين» لأنها ماتت وجفت روحها وهذا الإحياء هو ما نحتاج إليه.

وفى هذا الإطار فإننا نحتاج أيضاً إلى الجمع بين العقل والقلب ولعل ما ميز علماء مثل محمد عبده وحسن البنا ومحمد الغزالى أنهم جمعوا بين العقل والقلب وهذا ما نحتاجه فى تجديد الفقه حتى فقه العبادات الذى يحتاج إلى بث إشعاعات القلب والوجدان فى الصلاة والصيام والحج والزواج.

كما كتب الدكتور يوسف القرضاوى فى هذا المعنى أنه ينبغى بيان الحكمة من التشريع حتى يقتنع به العقل ويطمئن به القلب فإن الله ـ تعالى ـ لم يشرع شيئاً إلا لحكمة وهو كما تنزه عن الباطل فى خلقه

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾[1].

تنزه عن العبث فى شرعه حتى إن القرآن الكريم جعل للعبادات المحضة عللاً وحكماً مفهومة كما فى قوله تعالى عن الصلاة:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[2]

وقال فى تعليل فرضية الصوم

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[3].

وفى الحج:

﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾[4]

كما قال فى الزكاة:

﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[5] وينبغى الاستفادة مما كتبه الاختصاصيون فى هذا العصر مما يفيدنا فى بيان حكمة الشرع واشتماله على

(١) آل عمران/١٩١.
(٢) العنكبوت/٤٥.
(٣) البقرة/١٨٣.
(٤) الحج/٢٨.
(٥) التوبة/١٠٣.

أعلى المصالح للبشر مثل ما يكتبه الأطباء في بيان مضار الخمر وأكل لحم الخنزير والأمراض الخطيرة التى تنشأ من اقتراف الزنا والشذوذ الجنسى ونحو ذلك.

ومثل ما يكتبه الاقتصاديون عن الآثار المدمرة للربا فى الحياة الإنسانية وما يكتبه النفسيون عن أثر الصلاة والعبادة فى تكوين الشخصية السوية القوية المتمتعة بالسكينة والطمأنينة والتى لا تنهار لأول صدمة.

على أنه يجب الحذر والتحذير من التعليلات القاصرة التى تفتح باباً للمتحللين والمنكرين مثل تعليل تحريم الربا باستغلال حاجة الفقير وتعليل تحريم الزنا بمنع اختلاط الأنساب فهذه وما شابهها تعليلات قاصرة لا تعطى كل الصورة الواقعية «للعبادات والمعاملات فى الإسلام».

لهذا كان مما ينبغى العناية به فى الفقه المعاصر بيان الأسرار الباطنة للعبادات المفروضة، فمما لا ريب فيه أن للعبادات الاسلامية حكماً وأسراراً ينبغى الالتفات إليها والاهتمام بإبرازها.

فالعبادة جسم وروح فجسم العبادة هو الشروط والأركان الظاهرة التى تؤديها الجوارح، أما روحها فهى التقوى والإخلاص والإحسان الذي فسره النبى ﷺ بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه لباب العبادات أما الرسوم الظاهرية فهى مظهرها ولهذا قال تعالى فى هدايا الحج وذبائحه:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾(٦).

وقال فى الصلاة:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾(٧)

وقال فى الصوم:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٨)

وفى الصحيح: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه).

إن عيب الفقهاء فى كتبهم فى - الأعم الأغلب - أنهم وجهوا عنايتهم إلى (الظاهر) ولم يتلفتوا كثيراً إلى الباطن فإذا بحثوا فى الصلاة دار بحثهم كله حول تحقق الأركان والشروط المتصلة بصورة الصلاة وظاهر المصلى أما روح الصلاة وهو الخشوع وحضور القلب - فهم بمعزل عنه واذا تحدثوا عن ذلك

---

(٦) الحج/٣٧.
(٧) المؤمنون/٢٧.
(٨) البقرة/١٨٣.

فلابد من أن يكون ذلك بصفة أخرى غير صفة الفقيه.

ولهذا نجد الإمام الغزالى يتحدث عن الجوانب الظاهرة والشكلية التى يعتنى بها إخوانه وتلاميذه من أهل الفقه ثم يقفز قفزة إلى الأمام وإلى أعلى ليتحدث عن الأسرار والروح كما نجد ذلك فى الربع الأول من الإحياء فهو يتحدث عن الصلاة وشروطها ثم يثب وثبة عالية ليتحدث عن الخشوع والخاشعين، وكذلك فى الزكاة والصيام والحج: يتحدث عن الأسرار الباطنة وراء كل عبادة من هذه العبادات وهذا ما ينبغى للفقه المعاصر ألا يغفله(٩).

بعد هذا أقول: إن أول من نظن أنه كتب فى الفقه على هذا النحو هو الامام أبو حامد الغزالى – رضى الله عنه – ومن نحا نحو هذا المنهج نذكر منهم: الامام الشعرانى فى كتابه «لواقح الأنوار القدسية» وكتاب آخر له قد لا يعرفه الكثيرون وهو «الميزان» وهو قمة فى أسباب الخلاف بين الفقهاء وعلة التشديد والتخفيف فى بعض الأحكام، واهتم بالجانب الروحى أو الغايات من العبادات وكتب أخرى كثيرة.

وأقصد من هذا أن أبين للقارىء الكريم أننى لست مبدعاً أو مؤلفاً إنما أنا ناقل أسأل الله أن أكون أميناً فى النقل محسنا فى العرض ونبدأ حديث العبادات بالوضوء وأحبك أن تنظر إلى الوضوء على أنه عبادة مستقلة، هى قربة إلى الله – تعالى – فتؤديها بإتقان، واستحضار نية العبادة وأن المحافظة عليها من كمال الإيمان لأن المؤمن جليس الملائكة فعليه أن يحافظ على الوضوء وطهارة الثوب والبدن والمكان فليس الوضوء غسلاً لأعضاء تبيح الدخول فى الصلاة فقط بل هو تأهيل عملى للدخول فى حضرة الله فالوضوء سلاح المؤمن وللمحافظة على دوام الوضوء منزلة عظيمة يقول النبى ﷺ يسأل بلالاً عن المنزلة الرفيعة التى بلغها، بأى عمل وصل إليها .. يقول الرسول ﷺ «بم سبقتنى يا بلال إنى دخلت الجنة فسمعت خشخشة نعليك فى الجنة؟ فقال: والله يارسول الله إنى منذ أسلمت ما أحدثت إلا توضأت، وما توضأت إلا صليت ركعتين»(١٠) ويكفى الوضوء منزلةً أن النبى ﷺ يقول فيما يرويه البخارى ومسلم عن أبى هريرة: (إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع أن يطيل غرته فليفعل) فهذه دعوة من رسول الله ﷺ لك أيها المسلم على إحسان الوضوء وإتقانه وأن تطيل غرتك.

يكفى أنه علامة يعرفك بها رسول الله ﷺ

---

(٩) من تعقيب دكتور محمد عمارة فى ندوة تجديد الفقه ـ القاهرة فى ١٩٩٨/٢/١٣ يرجع إلى كتاب (تجديد الفقه الإسلامى) للدكتور جمال عطية والدكتور وهبة الزحيلى ص٣١ وما بعدها.

(١٠) رواه أحمد ٣٥٤/٥.

يوم القيامة وتكون بها فى كنفه فى ذلك اليوم العصيب كما يقول النبى ﷺ فيما روى مسلم وغيره عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لا حقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابى وإخواننا الذين لم يأتوا بعد.. قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دُهم بهم ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض.. رواه مسلم وغيره.

وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يرفع رأسه فأنظر بين يدىَّ فأعرف أمتى من بين الأمم ومن خلفى مثل ذلك وعن يمينى مثل ذلك وعن شمالى مثل ذلك. فقال رجل: كيف تعرف أمتك يا رسول الله من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس لأحد كذلك غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذريتهم.(١١)

الوضوء فيه محو للذنوب فالانسان خطَّاء كثير العثرات وله حواس أنعم الله عليه بها، هومسئول عنها فى كل ما يصدر منها من خير أو شر ومسئوليته توجب المحاسبة والمحاسبة تعنى وقوفا بين يدى الله وكما يقولون من نوقش الحساب عُذب. يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(١٢)

فالوضوء وسيلة من وسائل محو ما ارتكبت الحواس وما أكثرها يقول النبى ﷺ إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر اليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب.

أو كما قال رسول الله ﷺ.

وإلى لقاء قادم إن شاء الله مع أحكام الوضوء.

***

(١١) رواه أحمد.

(١٢) الأسراء/٣٦.

أسس العلاقات الاجتماعية في الإسلام

للأستاذ الدكتور / عبد الحليم حفنى

الإنسان اجتماعى بطبعه، بمعنى أنه لا بد أن ينشأ فى مجتمع يعيش فيه ويتعامل معه، ولذلك احتل المجتمع مكانا بارزا في التشريع الإسلامي، حيث تناول التشريع الإسلامي كل جوانب المجتمع وحاجاته اللازمة لاستقراره، واطمئنان أفراده، وجعل لكل هذه الجوانب أسسا ينبغى أن تقوم عليها، ومن أهم هذه الأسس:

أســس التضــامن الاجتماعــى

أولا : ينبغى أن تقوم العلاقات بين أفراد المجتمع من الناحية الاجتماعية على رابطة نفسية مطمئنة وثابتة، هى رابطة الإيمان، والعلاقات المعروفة نوعان، علاقة دائمة، وهى علاقة النسب، وعلاقة عارضة، وهى علاقة المصالح والظروف الطارئة، فالدين يجعل علاقة الإيمان من النوع الدائم، لأن الرابطة وهى العقيدة دائمة، فهى تشبه علاقة النسب، وفى القرآن الكريم ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1] ويجعل الإسلام هذه العلاقة أساسا يترتب عليه ما يترتب على علاقة أخوّة النسب فى الود والمعاملة؛ فالأخوة لذاتها ليست هى الهدف، لأنها لا فائدة منها إذا لم يظهر أثرها فى التعامل، بل قد تتحول الأخوّة إلى عداوة.

ثانيا : يجب التعاون بين أفراد المجتمع فى كل ما تتطلبه مصلحة المجتمع، كما يحرم التعاون فى كل ما ينتج عنه ضرر، وفى القرآن

(١) الحجرات (١٠).

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾(٢).

فوجوب التعاون على ما فيه مصلحة، وتحريم عكسه، يتحقق سواء أكان الأمر يتعلق بالمجتمع كله أم ببعضه.

ثالثا: مراعاة الخُلق الإسلامى فى التعامل، وفى الصلة بين أفراد المجتمع، وهى جوانب كثيرة فى كل مجالات التعامل والصلة، ومنها الآداب العامة، التى تتضمن على سبيل المثال وجوب رد التحية عند اللقاء، وفى القرآن الكريم

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾(٣).

ومن أمثلتها وجوب الاستئذان عند دخول أى بيت للغير، وفى القرآن:

﴿ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾(٤).

وحتى فى الطعام من آداب الأكل مع الغير، كما فى الحديث النبوى « سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك ».

رابعا: يخص الإسلام نوعين من أفراد المجتمع بجعل حسن الصلة بهما حقاً لهما وليس تفضلا عليهما، وهما قرابة الأرحام، والجيران، لأنهما يمثلان الصلة الملاصقة، وفى القرآن

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٥).

وفى كثير من الأحاديث النبوية بيان لحقوق هذين النوعين.

أسس التضامن الأمنى

الحاجات الضرورية لأفراد أى مجتمع تنحصر فى أمرين: أحدهما الأمن النفسى، والآخر الأمن المعيشى، فالأمن النفسى أن يشعر الفرد بالأمن على نفسه وعرضه وماله، والأمن المعيشى أن يشعر بالأمن على وسائل معيشته وأهمها الطعام، والقرآن الكريم يجمع الأمرين فى سياق المن على قريش فى قوله تعالى:

﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾(٦)

والإسلام يضع تشريعا مفصلا وأحكاما محددة شاملة كأحكام العقوبات فيما يتعلق بالأمن النفسى، ويضع أحكام الزكاة بكل صورها وفروعها فيما يتعلق بالأمن المعيشى لتحقيق هذه الغاية فى المجتمع، ولكنه يدعو إلى أن يعمل أفراد

---

(٢) المائدة (٢).
(٣) النساء (٨٦).
(٤) النور (٢٧).
(٥) النساء (٣٦).
(٦) قريش (٤).

المجتمع أنفسهم على تحقيق هذه الغاية بوازع دينى وليس بالوازع القانونى وحده، لأن الوازع الدينى أدوم وأعم وأشد إخلاصا فى التطبيق.

فأما عن التضامن المعيشى بين أفراد المجتمع فإن من جوانبه أن الزكاة وهى ركن من أركان الإسلام تؤدى معنى التضامن الاجتماعى، والقرآن يكرر أنها ليست تفضلا من المزكى، وإنما هى حق للمحتاجين من أفراد المجتمع، كقوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(٧).

وبالإضافة إلى ذلك نجد فى الإسلام دعوة صريحة وواضحة إلى التضامن المعيشى بين الأفراد فى كثير من الأحاديث النبويه مثل: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»(٨) ومثل: «أيما أهل عرصة (حى) أصبح فيها امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله»(٩) ومثل: «لا يشبع الرجل دون جاره»(١٠).

وقد طبق المسلمون الأوائل هذا التضامن كما حدث فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار عند الهجرة، فلم يكن المهاجرون الوافدون إلى المدينة يملكون شيئا، فضم كل أنصارى أخًا من المهاجرين وقاسمه كل ما يملك، ولذلك نجد فى الإسلام دعوة ملحة إلى الإنفاق فى سبيل الله زيادة عن الزكاة المفروضة، فالزكاة أنصبة معلومة محددة فى كل نوع من أنواع المال، ويشير إليها القرآن كما فى الآية السابقة:

﴿ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾

ولكن فى آية أخرى حق مطلق، أى غير معلوم ولا محدد، وانما هو متروك لما يمليه دافع الإيمان والسخاء، ففى القرآن

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(١١)

فهو حق مطلق وليس محددا معلوما كالزكاة. ويحرص التشريع الإسلامى على معنى بالغ الأهمية، وهو ألا تشوب الزكاة أو الصدقة أية شائبة تشعر المحتاج بذل ومهانة، ويوضح التشريع أن أى إيذاء لنفسية المحتاج يبطل الصدقة ويفسد نتيجتها، ويوضح أن الكلمة الطيبة التى تحفظ على المحتاج مروءته وكرامته خير من الصدقة التى يتبعها إيذاء نفسى له، وفى القرآن

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾(١٢).

---

(٧) المعارج (٢٥).

(٨) رواه أحمد ٢٧٠/٤.

(٩) اتحاف السادة المتقين ٧٤٨/٥، الترغيب والترهيب ٥٨٢/٢.

(١٠) رواه أحمد ٥٥/١.

(١١) الذاريات (١٩).

(١٢) البقرة (٢٦٢ - ٢٦٤).

٢- وأما عن التضامن فى الأمن النفسى فإن الإسلام يجعل كل فرد فى المجتمع مشتركا فى المسئولية عن حماية هذا الأمن، ومطالبا ببذل كل جهده المستطاع لمنع كل ما من شأنه الإخلال بهذا الأمن، بل مطالبا بمنع أى انحراف عن السلوك المشروع من أى شخص مهما يكن وضعه فى المجتمع، لأن أى انحراف لا بد أن يكون فيه إضرار، مباشر أو غير مباشر بالغير، أو تهديد لأمن الغير على نفسه أو عرضه أو ماله، والمنحرف بطبيعته غير مأمون الضرر، ووجود منحرفين فى المجتمع يتضمن تهديدا لأمن أفراد المجتمع.

ومقاومة المنكر والنهى عنه مسئولية كل أفراد المجتمع فى صورة فرض الكفاية الذى إذا أداه البعض سقط عن الكل، وإذا لم يؤده أحد أثم الجميع، وفى القرآن الكريم

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١٣).

وأيضا

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١٤).

والحديث النبوى المشهور: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

ولو أن المجتمع الإسلامى طبق تشريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تطبيقا صحيحا لتحقق المجتمع المثالى الذى تحلم به البشرية منذ تخيل أفلاطون لهذا المجتمع، وقد استطاع الجيل الأول من المسلمين الذين تتلمذوا على يد النبى - ﷺ - أن يطبقوه فكونوا مجتمعا يشهد له التاريخ بسيطرة الفضائل الخلقية على سلوكه، ونلحظ أن القرآن الكريم حين شهد لهم بأنهم خير أمة، حدد سببا واحدا غير العقيدة وجعله سابقا لها وهو التزامهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حيث يقول:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(١٥).

وتقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان إشارة إلى أنه أجدى فى إصلاح المجتمع من الإيمان السلبى من باب «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

وإذا نظرنا إلى الحديث النبوى المشهور فى النهى عن المنكر وهو: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١٦).

ثم أخذنا منه أضعف وسيلة وهى النهى بالقلب لكانت كافية لتحقيق الأمن النفسى فى المجتمع وحمايته من وسائل الانحراف وإن كانت

(١٣) آل عمران (١٠٤).

(١٤) لقمان (١٧).

(١٥) آل عمران (١١٠).

(١٦) رواه أحمد (٣/٢٠).

بطيئة الأثر أحيانا، وذلك أن التطبيق الصحيح للنهى بالقلب هو معاملة مرتكب المنكر معاملة انفعالية ظاهرة، لأن القلب رمز للحب وللكراهية، ومؤدى النهى عن المنكر بالقلب أن يشعر مرتكب المنكر بكراهية أفراد المجتمع له ونفورهم منه، وأن تظل هذه المشاعر من الجميع واضحة نحوه، ولا يستطيع شخص فى العادة أن يتحمل بصفة دائمة الشعور بأنه مكروه ومنبوذ من المجتمع كله، فحينئذ إما أن يقلع عن المنكر، وإما أن يغادر هذا المجتمع، فإذا انتقل إلى مجتمع إسلامى آخر فعلوا به كالمجتمع الأول، وفى كل هذا صلاح للمجتمع، وهذا ما يهدف إليه الإسلام من تشريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وأما أمن أفراد المجتمع على أعراضهم وكرامتهم وسمعتهم فقد فرض الإسلام لحمايته عقوبات صارمة تعرف بالحدود كحد الزنا، وحد القذف، وكذلك شرع عقوبة التعزير التى يحددها ولى الأمر أو القاضى فيما لم ترد فيه عقوبة محددة فى التشريع.

ومن هذا يتبين أن الإسلام يجعل التضامن الأمنى والمعيشى بين أفراد المجتمع ليس خلقا كماليا اختياريا، وانما هو واجب اجتماعى مما يعرف فى التشريع الإسلامى بفرض الكفاية الذى إذا أداه البعض سقط عن الكل وإذا لم يؤده أحد أثم الجميع.

وهذه الأسس التى يضعها التشريع الإسلامى ليبنى عليها المجتمع، تكفل للمجتمع -فضلا عن أمنه واستقراره- أن يظل متمتعا بقوة البنيان وصلابة التماسك، والفرد والمجتمع كلاهما فى حاجة إلى العنصرين، الإيمان النفسى، واستقامة السلوك، ولكن الفرق بينهما فى الترتيب، فالفرد أحوج إلى الإيمان والمبادىء أولا، أما المجتمع فهو أحوج أولا إلى استقامة السلوك، ثم الاهتمام بالقيم الروحية والنفسية، والقرآن الكريم يشير إلى هذا الفارق فى الترتيب فى أكثر من موضع، فحينما يتحدث عن الفرد يقدم الجانب الروحى فيقول:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾(١٧).

وحينما يتكلم عن المجتمع والأمة يقدم جانب السلوك فيقول:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾(١٨).

أسس التضامن الاقتصادى

يدور التشريع الاقتصادى فى الإسلام حول عاملين محددين، أحدهما التشجيع على العمل والاستثمار، والآخر المحافظة على روح الأخوة بحيث لا يطغى عليها حب المال، والنتيجة هى الموازنة المعتدلة بين الدعوة إلى الإنتاج والاستثمار، والدعوة إلى روح الإخاء والتعاون فى المجتمع.

ففى مجال الدعوة إلى العمل نجد القرآن يكرر

(١٧) لقمان (١٧).

(١٨) آل عمران (١١٠).

كثيرا نحو قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[19].

والمراد بالمشى فى مناكب الأرض السعى فى أوجه العمل والرزق، وكذلك فى الحديث النبوى الشريف نجد كثيراً نحو: «من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له»[20].

وفى مجال الدعوة إلى الاستثمار نجد الإسلام يبيح كل الوسائل التى لا تخل بروح الأخوة والخلق القويم، وهذه الوسائل تكاد تنحصر فى أمرين يحققان استثمار كل ما يمكن استثماره عادة وهما:

١- أن يستثمر الإنسان ما يملكه بنفسه، فإن كان يملك ما يصلح للتجارة استثمره فى التجارة ونحوها من المشروعات الاستثمارية، وإن كان يملك ما يصلح للزراعة استثمره فى الزراعة، وإن كان يملك ما يصلح للرعى استثمره فى الرعى، وهكذا.

٢- الوسيلة الأخرى أن يكون مالكا للشىء الذى يصلح للاستثمار، ولكنه لا يحسن الاستثمار أو لا يستطيعه، فالإسلام يبيح له الاستعانة بغيره فى استثمار ما يملكه، فإن كان يملك مالا نقديا يجوز له أن يستعين بغيره فى استغلال ماله، بأن يتفق مع شخص أو جهة على استثمار ماله، هو عليه رأس المال، والآخر عليه العمل والاستثمار، والربح شركة بينهما حسب ما يشترطان فى نصيب كل منهما، وهذا يسمى فى الإسلام «المضاربة».

وإن كان المالك يملك أرضا زراعية أو ذات أشجار أو حدائق فله أن يسلمها إلى شخص يتولى زراعتها أو سقيها مقابل نسبة معينة من الغلة يتفقان عليها، وهذا يسمى فى التشريع الإسلامى المزارعة أو المساقاة، لمن يتولى الزراعة أو السقى، وكذلك له أن يؤجرها.

وكل هذا له بحوث واسعة مستفيضة فى الفقه الإسلامى، ولكنه جميعا يتجه إلى الدعوة إلى العمل والاستثمار، سواء بالنفس أو بمعاونة الغير.

وأما العامل الثانى مما يدور حوله تشريع الاقتصاد فى الإسلام فهو المحافظة على روح الأخوة والخلق القويم فى التعامل بين أفراد المجتمع، فالخلق القويم الذى تدعو إليه كل الأديان ينافى الغش والخداع فى التعامل، وكل تعامل بهما فى الإسلام باطل، سواء تعامل بهما المسلم مع مسلم أو غير مسلم، فإذا غش البائع المشترى وخدعه فالبيع باطل ولو بعد دفع الثمن، وفى الحديث النبوى المشهور: «من غشنا فليس منا»[21] ومن التنفير بل الوعيد للغش فى المكيال والميزان قوله - تعالى -

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[22]

(١٩) الملك (١٥).

(٢٠) رواه أحمد ٣/٤٩٨.

(٢١) اتحاف السادة المتقين ٦/٩.

(٢٢) المطففين (١:٥).

بين المجلة... والقارئ

إعداد وتقديم/ عادل رفاعى خفاجة

مولـــد خيـــر الأنـــام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد فقد تنافس القراء فى شرف المشاركة فى الاحتفال بذكرى مولد الرسول ﷺ وورد العديد من الرسائل واكثرها محاولات شعرية منها الجيد ومنها ما يحتاج إلى مزيد صقل.

وأمام هذه المشاعر الجياشة نقدم بعض ما ورد ونكتفى بأجزاء من القصائد لإتاحة الفرصة لأكثر من قارىء.

وننتهز هذه المناسبة لنقدم أصدق التهانى للمسلمين كافة مع خالص شكرنا لكل من ساهم بقلمه فى هذه الذكرى العطرة.

وقد وقع اختيارنا فى هذا العدد على رسالتين ليتقدما رسائل القراء، أما الأولى: فلأنها ناسبت ذكرى مولد رسول الله ﷺ، ولأنها فى - نظرى - على صغر حجمها عالجت الفكرة بشكل جيد، وهى بعنوان شعراء حول الرسول أما الرسالة الثانية.. فهى رسالة القارىء/ محمد عنتر محمد عبدالكريم الطالب بكلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة الإسكندرية وقد أسعدنا ورود تلك الرسالة - على ما تحتوى عليه من عتاب - فقد دلت على أن هناك من يقرأ المجلة بكاملها (أو كما يقال: من الجلدة إلى الجلدة) كما أوضحت أن صاحب الرسالة قارىء متميز ونحن إذ نشكر له اهتمامه ومتابعته نؤكد أن الرسائل التى ترد الى المجلة لا ينالها - أبدا - أى إهمال يا أستاذ محمد وإنما تدرس بعناية وما بها من أفكار جيدة يجد طريقه إلى النشر.

وإنه ليسعدنا ويثلج صدورنا أن نعلم أن: (أناسا لا يزالون يمتلكون الفطرة السليمة والحاسة الصادقة، يستطيعون التمييز بين الجيد والردىء) يحملون بين أيديهم مجلة الأزهر.. يقرءون جل صفحاتها إن لم يكن كل صفحاتها. نسأل الله لنا ولكم الهداية والرشاد.

ونعود مرة أخرى للرسالة الأولى بعنوان: **شعراء حول الرسول**، وهى - كما قدمت - رسالة جيدة المحتوى وإن لم تقدم غير شاعر واحد هو **الصلصال ابن الدلهمس بن جندلة** مع وعد بتقديم العديد من الشعراء، ولا ينقصها سوى إثبات المراجع. وهى للأستاذ محمد عبدالحليم غنيم يقول:

هو **الصلصال بن الدلهمس بن جندلة** بن المحتجب بن الأعز بن الغضنفر بن تيم بن ربيعة بن نزار أبو الغضنفر. أحد الصحابة الذين قدموا على النبى (ﷺ) مع وفد بنى تميم، وعندما أوصاهم النبى (ﷺ)، قال قيس بن عاصم الذى أعجبه كلام النبى (ﷺ): وددت لو كان هذا الكلام أبياتا من الشعر، نفتخر به على من يلينا، وندخرها، فأمر النبى (ﷺ) بأن يأتوه بحسان بن ثابت، وعند ذلك قال الصلصال: يا رسول الله قد حضرتنى أبيات أحسبها توافق ما قلت يا رسول الله، فقال له النبى (ﷺ): هاتها. فقال:

تجنب خليطا من مقالك إنما
قرينُ الفتى فى القبرِ ما كان يفعلُ

ولابد بعد الموت من أن تعدّه
ليوم يُنَادى المرءُ فيه فيقبل

وإن كنت مشغولا بشىء فلا تكن
بغير الذى يرضى به اللهُ تشغلُ

ولن يصحب الإنسانَ من قبل موته
ومن بعده إلا الذى كان يعملُ

ألا إنما الإنسان ضيفٌ لأهله
يقيم قليلا بينهم ثم يرحلُ

والمعانى فى الأبيات السابقة إسلامية إسلامية لاشك فى ذلك، فهى فى الأصل صياغة شعرية لأقوال النبى (ﷺ)، لذلك تُعد أشعار الصلصال بن الدلهمس من أشعار الدعوة الإسلامية ولا يعرف له غير هذه الأبيات.

فى حب النبى ﷺ

ويرسل الأستاذ/ إبراهيم عبدالوهاب شرف - مدير الإدارة القانونية - بجامعة المنصورة

يقول:

«حبيبى يا رسول الله - لقد كان خلقك القرآن الكريم كنت قرآنا تمشى على الأرض، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

صلاة وسلاما وبركة عليك يا خاتم الأنبياء وإمام المرسلين

أنت الذى نظم البرية دينه
ماذا يقول وينظم الشعراء

المصلحون أصابع جمعت يدا
هى أنت، بل أنت اليد البيضاء

وكأنى بالاستاذ/ إبراهيم شرف ينادى بكل المسلمين أن اجعلوا احتفالكم بالرسول الكريم «بالصلاة عليه» حيث يقول:

سيدى يا رسول الله ولا يتم حبنا لك إلا بالصلاة عليك آناء الليل وأطراف النهار.

روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة» ومعنى حلَّت أى وجبت.

مولد الهادى

يشارك الشاعر محمد حسن داود بقصيدة «مولد الهادى» من ديوانه «اغتراب النوارس» نقدم له منها هذه الأبيات:

فى كل عام استحث مواهبى ** ويفوتنى نغم له أصداء
هذا المقام تهزنى أضواؤه ** والعى فى حرم الكبار ثناء
من أى بحر استقى أغرودتى ** ويرف من شذراتها لألاء
كانت حياة الناس ترزح فى دجى ** والقهر بين صدورهم مذ جاءوا
عبدوا الحجارة حين عمَّ ضلالهم ** والعقل قد لعبت به الصهباء
وإذا (بحيرا) لا يكذب ظنه ** فى رصد نجم باليقين يضاء
منحٌ من الآيات تترى بالهدى ** والمعجزات هداية وجلاء
فى يوم مولده الشريف يهزنى ** شوقى وكم ملأ الفؤاد سناء
علَّ الحبيب على هوانِ قصيدتى ** يهب الشفاعةَ والقبولُ رجاءُ

***

من ذكريات العلماء فى مولد خاتم الأنبياء

أرسل الدكتور/ صلاح محمود عبدالوهاب العادلى مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية - جامعة الازهر هذه الكلمة التى نقدم منها قوله:

كثيرة هى تلك الذكريات الخاصة بذكرى مولد أشرف مولود شَرُفَ به الوجود، وهو سيدنا محمد ﷺ، وليس فى مكنة هذه السطور الإلمام بها، ولا بأكثرها، وهاك بعضها:

رغب الشيخ محمد رشيد رضا أن يكون مولد كتابه «الوحى المحمدى»، فى يوم مولد النبى ﷺ، بيد أنه وجد أمامه تاريخين:

أولهما: ما اشتهر بين المسلمين من أن تاريخ ميلاد النبى ﷺ هو الثانى عشر من ربيع الأول.

ثانيهما: ما حققه المغفور له محمود حمدى الفلكى «المتوفى فى ١٩ يوليو ١٨٨٥م»، من أن مولده ﷺ يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول، وذلك فى كتابه «التقويم عند العرب قبل الإسلام» الذى كتبه بالفرنسية ونشرته الاكاديمية البلجيكية فى بروكسل، وترجمه إلى العربية المرحوم أحمد زكى باشا «المتوفى فى ٥ يوليو ١٩٣٤م» بعنوان «نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام» ط المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٥هـ.

فماذا يفعل الشيخ رشيد، وهو يريد أن يرى كتابه النور فى يوم مولد النور الهادى ﷺ تحديدا؟، وأنَّى له ذلك؟

فما كان من الشيخ ـ رحمه الله ـ إلا أن كتب مقدمة الكتاب فى ليلة التاسع، ونشر الكتاب فى الثانى عشر، فقد قال فى ختام مقدمة الطبعة الأولى للكتاب سالف الذكر:

«وحررت هذه المقدمة فى ليلة ذكرى المولد المحمدى من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ وهى على الأرجح عند المحدثين التاسعة من هذا الشهر، ونشر الكتاب فى اليوم الثانى عشر منه، وهو يوم المولد النبوى المشهور.

وأذكر أيضا أنه فى إعادة طبع الكتاب أرجىء الطبع شهورا حتى يهل هلال شهر مولد النبى ﷺ!!

مما يبين أن هذا فى طبعه أصيلا.

***

فى ذكــرى مولـــد النـــور

أما القارىء: رفيع عبداللطيف النجار من دراجيل/ الشهداء/ منوفية:

فيقول:

لكل أمة من الأمم أعياد ومواسم عزيزة عليها وللشعوب على اختلاف ألوانها ذكريات مجيدة تحتفل بها على مر الزمان ومن قديم الأبد وللأمة الإسلامية ذكرى مجيدة تعتبر هذه الذكرى من أجلِّ الذكريات وأعظمها إنها ذكرى مولد سيدنا محمد ﷺ وإذا أردنا أن نتحدث عن مولده فعلينا أن نُرجع شريط الذكريات عندما دخل عبدالله ابن عبدالمطلب بزوجه آمنة بنت وهب فى ليلة صفت سماؤها، وطاب هواؤها وبعد أيام من بنائه بها خرج عبدالله مع قافلة ذاهبة إلى الشام، وطال الفراق بين آمنة وبينه، وعادت القافلة ماعدا عبدالله.

لقد مات ودفن بالمدينة عند أخوال أبيه من بنى النجار، وهكذا ولد الرسول ﷺ يتيما، فآواه الله من يُتم، وأغناه من فقر، وهداه إلى طريق الحق ومهما كانت الكلمات بليغة والعبارات فصيحة فلن نصل إلى درجة الكمال فى الكلام عنه وما علينا فى هذه الذكرى الجميلة إلاَّ أن نتذكر ما تحلى به من مكارم الأخلاق، وجميل الخصال وعظيم الفعال حتى يكون لنا فيه الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة.

قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

الأحزاب ٢١

فى الشــرف وعلـــو الهمــــة

ونختتم بهذه المساهمة من القارىء أحمد على حسانين - القناطر الخيرية عمارة ٤٥ التقسيم السياحى يقول:

« قيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ قال: لم أخاصم أحدا إلا تركت للصلح موضعا.. »

وقال سعيد بن العاص: ما شاتمت رجلا مذ كنت رجلا. لأنى لم أخالط إلا أحد رجلين.. إما كريمًا فأنا أحق أن أجله. وإما لئيماً فأنا أولى أن أرفع نفسى عنه.

وإلى اللقاء إن شاء الله..

المحرر: نأمل أن يكون هذا اللقاء قريبا

أنباء مكتب شيخ الأزهر

لفضيلة الشيخ/ عمر البسطويسى

وزير الثقافة السودانى:

مكانة شيخ الأزهر فى السودان

لا تدانيها مكانة

استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف بمكتبه بمشيخة الأزهر الشريف، معالى الوزير/ عبدالباسط عبدالماجد وزير الثقافة والسياحة بدولة السودان الشقيق يرافقه السيد المستشار/ إبراهيم عبدالباسط، المستشار الثقافى لسفارة السودان بالقاهرة فى ٨ / ٥ / ٢٠٠١م.

رحب فضيلته بالضيفين الكريمين فى الأزهر الشريف، مشيدا بعمق الروابط التى تجمع بين شعبى مصر والسودان من أخوة صادقة ومحبة خالصة، وأكد أن بين الشعبين مصالح مشتركة وواجبنا أن نتكاتف ونتعاون لتدعيم الأخوة والمحبة الخالصة لوجه الله، لقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾(١).

ومصر وأزهرها الشريف تقف بجانب الشعب السودانى الشقيق تؤازره وتمد له يد العون والمساعدة فى شتى المجالات العلمية والتعليمية والثقافية بل فى كل مناحى الحياة، كما أن الأزهر الشريف لا يدخر وسعا فى تلبية احتياجات السودان من العلماء والأئمة والمدرسين والوعاظ ويدرس بالأزهر مئات من الطلاب السودانيين على منح من الأزهر الشريف ويحصلون على أعلى الشهادات ويعودون إلى السودان الشقيق لينشروا العلم النافع بين أبناء بلدهم.

شكر الضيف فضيلة الإمام على حُسن الحفاوة واللقاء، وأعرب عن سعادته بهذه الزيارة وأنه لا يشعر بالغُربة فى مصر وأزهرها الشريف، وخاصة أنه تعلم فى الأزهر وتخرج فيه حاصلا على شهادة العالمية.

(١) المائدة (٢).

وأوضح أن شعب السودان يتابع أخبار مصر الشقيقة وأخبار فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ويقرأون مؤلفاته ويستفيدون من محاضراته ودروسه التى يقدمها خدمة للمسلمين فى شتى بقاع الدنيا، وأن مكانة مصر ورئيسها ومكانة شيخ الأزهر لدى المسلمين فى السودان لا تدانيها مكانة.

وطمأن سيادته فضيلة الإمام الأكبر على الوضع فى السودان الشقيق من خير ووفاق، وأن العلاقات مع مصر تتطور وتتقدم للأفضل، وطلب أن تدعم العلاقات السياسية المتطورة بالعلاقات الثقافية فى مجال الدعوة والبحث.

وقدم الوزير الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر من مجلس الفقه الإسلامى بالسودان لزيارة السودان ومجمع مجلس الفقه الإسلامى على أن يحدد فضيلته الموعد الذى يناسبه، كما طلب التواصل بين مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ومجمع الفقه الإسلامى بالسودان، والتعاون المثمر بينهما. كما أوضح أن جامعة أم درمان الإسلامية تنتهج منهج الأزهر فى التوسع والتطوير وأن هناك جامعة القرآن الكريم وتهتم بالدراسات القرآنية و الشرعية والدعوية والإعلامية، وطلب التعاون بينها وبين جامعة الأزهر فى كافة المجالات الثقافية والعلمية والتعليمية، والمناهج والأساتذة والكتب و المنح الدراسية، وأضاف بأنه تم تكوين دار لرابطة خريجى الأزهر ومقرها الخرطوم، تضم حاليا أربعة آلاف خريج.

وطلب فضيلة الإمام الأكبر من السيد الوزير أن يرسلوا أبناء السودان لحضور الدورات التدريبية التى يعقدها الأزهر الشريف لأئمة ووعاظ العالم الإسلامى وتستمر الدورة ثلاثة أشهر على نفقة الأزهر الشريف وهذه الدورات تعود عليهم بالنفع والفائدة العظيمة حيث يتم تبادل الخبرات وتلقى العلوم الدينية والعربية المختلفة وفى نهاية الدورة يتم تسليم كل عالم مكتبة إسلامية قيّمة تعينه على أداء مهمته كداعية إسلامى.

حضر اللقاء فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف.

المالديف تطلب إشراف الأزهر على مناهجها الدراسية

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بمكتبه السيد / إبراهيم مانيك وزير الإعلام والثقافة بجمهورية المالديف والسيد / محمد رشيد إبراهيم رئيس المحكمة العليا ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو خريج الأزهر الشريف، والسيد / أحمد فاروق نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بدولة المالديف.

رحب فضيلته بالسادة الضيوف فى الأزهر الشريف مشيرا إلى أن الأزهر فى خدمة أبناء المسلمين فى كل مكان من أرجاء المعمورة، وبخاصة أبناء جمهورية المالديف ويوجد طلاب من المالديف يدرسون فى الأزهر الشريف فى مراحل التعليم المختلفة وفى جامعة الأزهر الشريف، وأضاف فضيلته أنه تربطه بفخامة السيد الرئيس مأمون عبدالقيوم رئيس جهمورية المالديف علاقات وروابط طيبة وتعاون كامل فى مجال التعليم، وسيادته تعلم وتخرج فى جامعة

الأزهر الشريف، وندعو الله له بدوام السداد والتوفيق.

شكر السادة الضيوف فضيلته على حُسن اللقاء والحفاوة التى استقبلوا بها فى مشيخة الأزهر الشريف ونقلوا تحيات السيد الرئيس مأمون عبدالقيوم ودعوته لفضيلة الإمام الأكبر لزيارة جمهورية المالديف.

وقد أشادوا بدور علماء الأزهر الموفدين للمالديف الذين يقومون بالتدريس فى معهد الدراسات الإسلامية والمعهد الأزهرى، وقد طالبوا بزيادة عدد المنح الدراسية لأبناء المالديف. وأشاروا إلى أن السيد الرئيس مأمون عبدالقيوم نادى بتطوير معهد الدراسات الإسلامية تحت إشراف الأزهر وانشاء قسم الدراسات الإسلامية وقسم اللغة العربية وقسم أصول الدين لمواكبة العصر، طبقا للخطة الموضوعة.

رحب فضيلته بهذه الطلبات ووعد بدراستها تمهيدا لتلبيتها فى القريب العاجل.

●●●

إريتريا تطلب علماء من الأزهر

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بمكتبه السيد / محمود عمر ثروم، سفير أريتريا بالقاهرة، حيث رحب فضيلته بالضيف موضحا له أن الأزهر الشريف يقوم على نشر العلم النافع لأبناء المسلمين وتوضيح المفاهيم الإسلامية الصحيحة بعيداً عن التطرف أو الانحياز لمذهب معين، والأزهر الشريف لا يدخر وسعا فى تقديم العون والمساعدة لأبناء دولة أريتريا.

شكر الضيف فضيلته على حُسن الاستقبال والترحيب وعلى ما يقدمه الأزهر لأبناء الشعب الأريترى الذين يتعلمون ويدرسون بجانب إخوانهم المصريين فى معاهد الأزهر وكليات جامعته على منح من الأزهر، كذا مواكبة التعليم فى معاهد أريتريا بما يعادلها فى الأزهر الشريف من تطور وتحديث. وطلب إمداد دولة أريتريا بعلماء الأزهر الشريف لتعليم أبناء أريتريا أمور الدين الإسلامى الحنيف الذى يتميز بالوسطية والاعتدل والبُعد عن المغالاة.

وقد وعد فضيلته بتلبية رغباته فى القريب العاجل.

●●●

مجمع أزهرى تعليمى بدولة جيبوتى

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف، وفضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر سعادة السفير / محمود على يوسف سفير جمهورية جيبوتى بالقاهرة يرافقه السيد / إبراهيم عثمان صالح مستشار أول السفارة، رحب فضيلته بالضيف ومرافقه فى الأزهر الشريف، مشيدا بعمق الروابط بين البلدين وبخاصة فى مجال التعليم والثقافة الإسلامية ، وقال: إن الأزهر الشريف دائما يمد يد العون والمساعدة لتعليم أبناء دولة جيبوتى بالأزهر حيث يدرسون على منح بأعداد كبيرة.

شكر الضيف ومرافقه فضيلة شيخ الأزهر وفضيلة وكيل الأزهر على حُسن الاستقبال والحفاوة البالغة وعلى ما يقدمه ويقوم به الأزهر نحو أبناء دولته لتلقى التعليم بالأزهر الشريف على منح وبأعداد وفيرة. بما للأزهر من باع طويل

وعريق فى هذا المضمار ومن ينكر ذلك فإنما ينكر جهد الأزهر الشريف فى خدمة المسلمين فى كل مكان وقدم سيادته الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف لزيارة دولة جيبوتى ووضع حجر الأساس للمجمع الأزهرى الابتدائى والإعدادى والثانوى الضخم الذى يتم بناؤه على أرض دولة جيبوتى لنشر القرآن الكريم وتعلم العلوم الشرعية والعربية، وقد تبرعت الدولة بالأرض، واشتركت الهيئات بالمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة فى تمويل بنائه ويكون أكبر مجمع أزهرى تعليمى يخدم أبناء دولة جيبوتى، حيث يتولى الأزهر الإشراف الفنى عليه، وفق المناهج التى يتم تدريسها فى معاهد الأزهر الشريف.

شكر فضيلة الإمام الأكبر الدعوة وأناب فضيلة الشيخ وكيل الأزهر الشريف لزيارة جيبوتى على رأس وفد لوضع حجر أساس المجمع الأزهرى فى منتصف شهر يونيه ٢٠٠١م إن شاء الله ـ تعالى ـ.

●●●

تخفيض سن القبول بمعاهد الأزهر الابتدائية

● برياسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف اجتمع السادة أصحاب الفضيلة رؤساء ومديرو عموم المناطق الأزهرية بأنحاء الجمهورية حيث تم مناقشة الأسس والإجراءات التى تتعلق بامتحانات النقل والشهادات بالمعاهد الأزهرية، على مستوى الجمهورية ووضع الإطار اللازم لتأمين اللجان ومراكز توزيع الأسئلة وتقدير الدرجات، كذا تحديد الدور الذى يضطلع به رؤساء المناطق وأجهزة الإشراف فى كل منطقة فى متابعة سير الامتحانات.

كما تم اتخاذ التدابير اللازمة لاستلام الكتب الدراسية للعام الدراسى ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ وتذليل كل المعوقات التى تعترضها فى هذا الصدد.

كما وافق فضيلة الإمام الأكبر على صرف مبالغ مالية للمناطق، لإنشاء المكتبات، وتجهيز المعاهد بالإمكانات الضرورية للعملية التعليمية، وتم التنبيه على الإدارة الهندسية باتخاذ الاجراءات اللازمة على وجه السرعة فيما يخص ترميمات المعاهد الأزهرية.

كما تمت الموافقة على النزول بسن القبول بالمعاهد الأزهرية الابتدائية ثلاثة أشهر فيقبل الطالب بالصف الأول الابتدائى وسنه خمس سنوات وتسعة أشهر ويقبل بالحضانة وسنه ثلاث سنوات وتسعة أشهر بالتنسيق حسب الأماكن الخالية ويختص بذلك رئيس كل منطقة أزهرية، كما تمت الموافقة على أن يعلن عن خمسة آلاف درجة توزع على المناطق طبقا لاحتياجاتها من المدرسين والوعاظ والعمالة الفنية والخدمات المعاونة.

حضر الاجتماع فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف وفضيلة الشيخ على فتح الله رئيس قطاع المعاهد الأزهرية، وفضيلة الشيخ عبدالكريم محمد عبدالرحمن، الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر ورؤساء المناطق ونواب رئيس قطاع المعاهد الأزهرية.

المجلس الأعلى للأزهر يقرر:

إنشاء فرع لكلية البنات الإسلامية بأسيوط

● اجتمع المجلس الأعلى للأزهر الشريف برياسة فضيلة الإمام الاكبر شيخ الأزهر حيث وافق المجلس على قواعد وشروط قبول الطلاب المصريين والوافدين بمرحلة الإجازة العليا بكليات جامعة الأزهر -بنين وبنات- فى العام الجامعى ٢٠٠١/ ٢٠٠٢.

ووافق المجلس كذلك على إنشاء فرع لكلية البنات الإسلامية بأسيوط، ويكون مقره مبنى دار الزهراء بمدينة قنا محافظة قنا. كما تقرر فى الاجتماع كذلك جعل اللغة الفرنسية لغة ثانية بالمعاهد الأزهرية اعتبارا من الصف الأول الثانوى والغاء تدريسها بالمرحلتين الابتدائية والإعدادية.

حضر الاجتماع فضيلة الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف، وفضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر، وفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر والسادة أعضاء المجلس.

الإمام الأكبر لأئمة ودعاة العالم الإسلامى:

الداعى إلى الله قدوة طيبة قبل كل شىء

● شهد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف حفل تخريج الدورة ٥٢ لأئمة ودعاة العالم الإسلامى الذين أتموا الدورة التدريبية بمدينة البعوث الإسلامية وعددهم ٢٧ إماما وواعظا من دول: بوروندى- غينيا كوناكرى- الكاميرون- إفريقيا الوسطى- قيرقيزستان- سيرلانكا والجزائر، واستمرت الدراسة لمدة ثلاثة أشهر اعتبارا من ١/ ٢/ ٢٠٠١ وحتى ٣٠/ ٤/ ٢٠٠١ تلقوا خلالها التدريبات على الفتيا وتلقوا أيضا المحاضرات فى العلوم والمعارف الإسلامية من أساتذة متخصصين من علماء الأزهر الشريف وعلى رأس المحاضرين فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى وفضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر.

وقد ألقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف كلمة حث فيها الخريجين على الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتوسط والاعتدال فى الفتوى فى أمور الدين، موضحا بأن الدين الإسلامى دين يُسر لا عُسر، ودين تبشير لا تنفير، ودين يدعو إلى الوسطية فى كل شىء، يبغض العنف والتطرف، والظلم، واغتصاب حقوق الغير، دين يحث على إعطاء كل ذى حق حقه، ينصر المظلوم ويقف بجانبه، يساوى بين الناس فى الحقوق والواجبات، كما وجههم فضيلته بأن يظهروا سماحة الإسلام، الذى يدعو إلى التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان. كما حثهم على أن يتحلوا بمكارم الأخلاق، والترفع عن الخلافات المذهبية والتيارات الخارجية، كما وجههم بأن يكونوا عند عودتهم لبلادهم رسل سلام ويذكروا مصر وأزهرها الشريف وأساتذتهم وإخوانهم فى مصر بالخير وأن يكونوا على تواصل دائم، وأن تكون دعوتهم دائما إلى الله لإخوانهم فى بلادهم بالحكمة والموعظة الحسنة،

لأن الله عز وجل يقول:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾(٢).

والداعى إلى الله ـ عز وجل ـ قدوة طيبة قبل كل شيء، والله يقول:

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾(٣).

وأشار فضيلته إلى أن هذه الدورات أقيمت من أجل خدمة ديننا وأمتنا الإسلامية عن طريق تقديم العلم النافع ونشر المفاهيم الصحيحة عن ديننا الحنيف.

وأكد الأئمة العلماء فى كلمتهم التى ألقاها نيابة عنهم الشيخ عبدالكريم محمد الصالح من الجزائر أن الدورات التى يقيمها الأزهر الشريف فى مجال الدعوة الإسلامية هى فرصة عظيمة لتعلم بعض العلوم المعاصرة كالاقتصاد الإسلامى إلى جانب التعرف على كثير من القضايا الدينية على أيدى كبار العلماء وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف، خاصة أن علماء الأزهر يعتبرون من أفضل علماء العصر الذين ينهل منهم طلاب العالم الإسلامى، وقال: إن وفود العالم الإسلامى من الدعاة والأئمة يعتبرون سفراء للإسلام وللأزهر الشريف فى بقاع الأرض.

وقال الشيخ عبدالخالق نصير، الأمين العام للجنة العليا للدعوة: إن الاحتفال بتخريج أئمة ووعاظ العالم الإسلامى بمثابة ثمرة جهد الأزهر فى نشر الدعوة الإسلامية والعقيدة الصحيحة، وهذا الجهد يسلح الدعاة بالعزيمة القوية والمعرفة الصحيحة للدين أمام التيارات المختلفة المعاصرة، وأن نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة فى العالم الإسلامى هو هدف من الأهداف السامية التى يقوم بها الأزهر الشريف من خلال تدريب دعاة العالم الإسلامى فى رحاب الأزهر على فن الدعوة وثقافة الداعية بأسلوب يتناسب مع التقدم العلمى والحضارى فى العالم على أيدى أساتذة وعلماء متخصصين ليصبح للإسلام سفراء فى كل مكان.

ثم قام فضيلة الإمام الأكبر بتوزيع شهادات التخرج على الأئمة والوعاظ وأهدى كل عالم مكتبة إسلامية بها كتب قيمة لتكون مرجعاً له ويستعين بها فى أداء مهمته العلمية.

كما قام فضيلته بافتتاح الدورة ٥٣ لأئمة ودعاة العالم الإسلامى وعددهم ٢٣ إماما وواعظا من دول: الصين- اليمن- سيراليون- بورما- الجزائر.. وتبدأ هذه الدورة من ١/٥/٢٠٠١ وتنتهى فى ١/٨/٢٠٠١ وتتحمل موازنة الأزهر الشريف تذاكر السفر ذهابا وعودة لهؤلاء الدارسين بالإضافة إلى نفقات الإعاشة والإقامة فى مدينة البعوث الإسلامية.

حضر الحفل فضيلة الشيخ سيد وفا أبو عجور، الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الشيخ عبدالفتاح جمعان، الأمين العام المساعد للدعوة والثقافة الإسلامية، وفضيلة الشيخ على أبو الحسن، الأمين العام المساعد للدعوة والاعلام الدينى.

---

(٢) النحل (١٢٥).

(٣) الأحزاب (٢١).

الإمام الأكبر فى الموسم الثقافى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية:

الداعية الإسلامى هدفه التيسير على الناس

● فى ختام الموسم الثقافى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية للعام ٢٠٠٠ / ٢٠٠١ ألقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف محاضرة موضوعها (الإمام الفخر الرازى وجهوده فى خدمة الدعوة الإسلامية) بقاعة المحاضرات بمسجد النور بالعباسية، وقد ألقى فضيلته الضوء على جهود الإمام الفخر الرازى فى خدمة الإسلام، ومفسرا، واهتمامه بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم وهو ما لم يتعرض له من سبقه من الأئمة أو من جاء بعده من التفاسير.

وطالب فضيلته الداعية بضرورة الاهتمام بقضايا العصر ومشكلاته واحتياجاته، والالتحام بالجماهير لمعرفة مشاكلهم والإسهام فى حلها من خلال عمله كداعية إسلامى هدفه التيسير على الناس فى حياتهم ومعيشتهم وذلك هو باب النجاح للداعية، كما طالب الدعاة ببذل الجهد فى تحصيل العلم النافع ومعرفة كل جديد ليواكبوا العصر، وألا يتوقفوا لحظة عن المعرفة والبحث والتنقيب فى كنوز المعارف، وعليهم أن يتأسوا بعلماء الإسلام الأوائل العظام والأفذاذ الذين أثروا الحضارة الإنسانية بفكرهم الثاقب وعطائهم العلمى والفكرى المتميز، وهو واجب دينى وثقافى وقومى يفرضه الإسلام على علمائه ودعاته.

وقدم فضيلة الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف الشكر لفضيلة الإمام الأكبر على هذه المحاضرة القيمة بهذا الأسلوب السهل الممتع وهذه المعلومات القيمة. وأشار إلى أن الدولة حريصة على العلماء والدعاة وتوفر لهم كل احتياجاتهم المادية والأدبية، وبالتالى فلا بد أن يقابل الدعاة ذلك بالجهد فى العمل والتواجد بين الناس فى أماكن تجمعهم. وقال: إن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية يستأنف نشاطه بمعسكر (أبو بكر الصديق لشباب العالم الإسلامى) بالأسكندرية فى منتصف يونيو ٢٠٠١، وقال: إن القاهرة سوف تشهد مؤتمراً إسلامية عالميا وذلك لمناقشة سبل تطوير الأمة ويشارك فيه أكثر من ٣٠٠ وزير ومفتى وعَالِم من أكثر من ٨٥ دولة من العالم.

حضر الندوة علماء الأزهر الشريف والأوقاف وعلماء العالم الإسلامى الذين يتدربون فى الأزهر الشريف وطلاب جامعة الأزهر وطلاب وطالبات البعوث الإسلامية.

الإمام الأكبر فى سلطنة عمان

● بدعوة كريمة من جلالة السلطان قابوس بن سعيد سلطان دولة عُمَان الشقيقة، قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بزيارة لسلطنة عمان على رأس وفد رفيع المستوى ضم الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف، وفضيلة الأستاذ الدكتور نصر

فريد واصل مفتى الجمهورية، وغيرهم من رجال الفكر والصحافة والإعلام، وذلك لحضور حفل افتتاح جامع (السلطان قابوس الأكبر بمسقط).

وقد استقبل جلالة السلطان قابوس بن سعيد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر والوفد المرافق لفضيلته بحفاوة بالغة وتقدير يليق بقدر الأزهر وتاريخه ورسالته، وكان هذ الوفد على رأس الوفود المشاركة فى الافتتاح وأكد السلطان قابوس خلال الافتتاح أن للمسجد فى الإسلام دورا عظيما حيث تربى فيه الرعيل الأول من الصحابة، فحملوا مشاعل الدين والهداية، واستمر دور المسجد كمصدر إشعاع علمى وفكرى على امتداد الساحة الإسلامية وانطلاقا من هذا المفهوم جاء انشاء هذا المسجد المبارك ليكون مركزا للثقافة والفكر، وليسهم فى إحياء التراث الإسلامى، ويبرز القيم الحضارية للأمة الإسلامية.

وتحدث فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف فقدم خالص تقديره لمواقف السلطان قابوس بن سعيد الشجاعة فى مناصرة الحق والقضايا الإسلامية وعلى دوره فى توطيد عُرى المحبة والأخوة بين الشعوب الإسلامية، وقال:

إن السلطان صاحب آراء متميزة وأفكار مستنيرة، وإن جهوده فى خدمة القضية الفلسطينية وفى القلب منها قضية القدس الشريف تستحق التقدير وخاصة الدعم الكبير الذى يقدمه للأشقاء فى فلسطين فى انتفاضتهم الباسلة، ودفاعهم عن مقدسات الأمة الإسلامية.

وأثنى فضيلته على جهود السلطان فى خدمة الإسلام والمسلمين عامة وعمارة بيوت الله خاصة، وهى جهود يلمسها الجميع.

وأشار فضيلته إلى أن التعاون بين الأزهر الشريف وسلطنة عمان يُعد نموذجا رائعا وخاصة فى مجالات الوعظ والإرشاد والدعوة ونشر رسالة الإسلام، وهو تعاون تدعمه قيادة البلدين الشقيقين، وأن اهتمام السلطان بإنشاء هذا الجامع دليل على قوة الإيمان وسلامة العقيدة. وقال فضيلته: إننا سعداء بوجودنا على أرض عمان الطيبة لنشارك فى افتتاح هذا الصرح الإسلامى العظيم، ودعا الله ـ عز وجل ـ أن يديم نعمة الصحة والعافية والأمن والأمان والسلام على شعبى البلدين الشقيقين ويثبتهما بنعمة الإخاء والمحبة والمودة والتعاون الصادق على البر والتقوى تحت قيادة رئيس مصر وسلطان عمان.

وأكد الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف أن السلطان قابوس زعامة إسلامية بارزة تستحق كل التقدير من الجميع وجهوده فى خدمة الإسلام واضحة على الصعيدين الدولى والاقليمى ومواقفه مشهودة فى إعلاء كلمة الحق والوقوف إلى جانب الشعوب الإسلامية وأعرب عن خالص تمنياته للشعب العمانى، وقال: إن هناك تعاونا مستمرا بين وزارة الأوقاف المصرية وسلطنة عمان فى مختلف الأمور التى تهم المسلمين وهو تعاون يدعمه السلطان قابوس بكل إخلاص.

وقال فضيلة الدكتور نصر فريد واصل، مفتى الجمهورية: إن جهود السلطان قابوس فى إعلاء كلمة الإسلام ونشر الدعوة واضحة وملموسة ويعتز بها المسلمون فى كل مكان، والتاريخ سيظل يسجل مواقف جلالته الراسخة بكل فخر واعتزاز، وخاصة مواقفه فى مساندة ومساعدة الشعوب الإسلامية انطلاقاً من مبدأ الأخوة الإسلامية التى حث عليها الله ـ عز وجل ـ المسلمين، وقال: إن مصر قيادة وشعبا تعتز بدور السلطان الرائد فى إيجاد مناخ التسامح والتصالح بين الشعوب العربية والإسلامية.

وشارك فضيلة الإمام ومرافقوه فى ندوة فى السفارة مع الجالية المصرية أجابوا فيها عن أسئلتهم واستفساراتهم.

الإمام الأكبر فى محافظة سوهاج

قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر على رأس وفد ضم عددا من السادة أصحاب الفضيلة علماء الأزهر بزيارة إلى محافظة سوهاج، حيث استقبله السيد المحافظ اللواء أحمد عبدالعزيز بكر وفضيلة الشيخ رئيس منطقة سوهاج الأزهرية وعلماء الأزهر والأوقاف والقيادات الشعبية والتنفيذية ورجال الدين للمشاركة فى احتفالات المحافظة بعيدها القومى وافتتاح مشروعات الأزهر الجديدة بالمحافظة ومنها استراحة علماء الأزهر الشريف وافتتاح معهد حماد حسين مخلوف العمدة الدينى الابتدائى الأزهرى بقرية الكوامل القبلية، والمعهد الدينى بقرية المزالوة، والمعهد الدينى الإعدادى للفتيات بقرية إدفا، والمعهد الدينى بمركز طما (مجمع فضيلة الإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف) ووضع حجر أساس معهد دينى بمدينة طما وفى قرية الكشح تم افتتاح المعهد الدينى الابتدائى الاعدادى.

كما التقى فضيلته بالسادة المسئولين بمنطقة سوهاج الأزهرية حيث تم دراسة احتياجات المنطقة الأزهرية ومعاهدها المختلفة وخصص فضيلته بمبلغ مليون ونصف المليون جنيه وذلك لاستكمال متطلبات المنطقة من إعداد مقاعد للطلاب وبناء أسوار حول الأراضى الفضاء الخاصة بالأزهر وشراء أثاث للمنطقة والمعاهد الأزهرية وترميم بعض المعاهد إلى غير ذلك لاستقبال العام الدراسى الجديد.

***

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ / محمود الفشني

طالعتنا صحيفة الأهرام بمقال للدكتورة سعاد صالح أستاذ ورئيس قسم الفقه المقارن بجامعة الأزهر فى موضوع طفا على سطح الأحداث بضعة أيام، وذهب أدراج الرياح، وكان للدكتورة الفاضلة هذا المقال الرائع الذى يقدر الأمومة حق قدرها، ويحفظ للإنسان كرامته، وليس كل شئ للإيجار أو للبيع، والمجلة تنشر المقال كاملا، تقديرا لهذا الرأى.

تكريم الإنسان وتأجير الأرحام

مسألة تأجير الأرحام والأم البديلة وهو مصطلح حديث وافد إلينا يخترق أخص خصائص الإنسان وهو تكريمه، بل أخص خصائص الأمومة وهى المهنة المميزة لدى المرأة التى احتفظت بها منذ بداية الخليقة حتى يأتى زمن العجائب العلمية فينزعة منها من أجل مكاسب دنيوية وتقطع أهم صلة إنسانية ابدية لا يتصور انقطاعها وهى صلة الأم بوليدها وأحقيتها التامة لأمومتها له.

ولاشك أن هذه المسألة أثارت جدلا واسعا ورفضا عاما، لأنها تتعلق بكرامة الإنسان عامة وكرامة المرأة والمحافظة عليها بصفة خاصة بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١).

ويقول جل شأنه:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾(٢).

وهذه المسألة ترتبط بمقصد مهم من مقاصد الشريعة الإسلامية وهو حفظ النسل، ولئن كانت الذرية رزقا وهبة من الله يهبها من يشاء ويمنعها عمن يشاء فكل شئ بإذنه ووفق مشيئته والحكمة

(١) الإسراء/ ٧٠.
(٢) لقمان/ ١٤.

هو يعلمها وإن كان الإسلام يكرم العلم وأهله ويحث على طلبه إلا أنه يضع له الضوابط الأخلاقية التى تحافظ على الأسرة الإنسانية فى مجملها وعلى الفرد باعتباره خليفة الله على هذه الأرض. ولهذا فإننا نجد أن الإسلام كما أمرنا بالرضا بما قسم الله والامتثال لمشيئته فإنه قد أمرنا بالأخذ بالأسباب التى يسرها الله لنا لتحقيق مشيئته فى الشفاء، فعلينا أن نأخذ بالأسباب ونشرع فى العلاج، راضين بقضاء الله فى الحالتين، فإن شاء وهبنا وإن شاء منعنا ولكن فى حدود الضوابط التى رسمتها الشريعة لتحقيق هذا الهدف.

فالنسب فى الإسلام ليس هبه تمنح، ولا رداء، يخلع ولا يخضع لإرادة الناس ولا إلى أهوائهم أو قوانينهم لهذا حرصت الشريعة الإسلامية كل الحرص على ثبوت النسب وصيانته من التدليس والتزييف والضياع وجعلته حقا خاصا للولد والوالدين قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» ولهذا نادى العلماء بضرورة وضع إطار من الضوابط والأخلاقيات فى الإخصاب الطبى ولعل أهم فتوى حول هذا الموضوع هى التى صدرت فى الدورة الثامنة للمجمع الفقهى بمكة المكرمة والتى جاء فيها:

● يجوز تلقيح الزوجة صناعيا داخليا بماء زوجها حتى يتم الحمل.

● التلقيح الذى يتم خارجيا فى إناء ببذرتى الزوجة والزوج ثم يعاد إلى رحم الزوجة هو أسلوب مقبول مبدئيا فى ذاته بالنظر الشرعى ولكنه غير سليم تماما من موجبات الشك فيما يستلزمه ويحيط به من ملابسات فلا ينبغى أن يلجأ إليه إلا فى حالات الضرورة القصوى وبعد أن تتوافر الشروط التالية:

● أن يتم التلقيح من منى الزوج.

● أن يتم ذلك فى حياة الزوج وليس بعد مماته.

● أن يكون الطبيب من المسلمين المؤتمنين.

● أن يتم ذلك بموافقة الزوجين.

أما بالنسبة للفتوى الخاصة بالأم البديلة «الرحم المستأجر» فقد صدرت فى ندوة «الإنجاب فى ضوء الإسلام» وفحواها «أن يكون حراما إذا كان فى الأمر طرف ثالث سواء كان منيا أم بويضة أم جنينا أم رحما» وهذا معناه تحريم هذه الصورة تحريما قاطعا: لأنها تتضمن إدخال نطفة رجل فى رحم امرأة لا تربطه بها علاقة زوجية شرعية وعلى هذا يمنع التبرع او الاتجار بالبويضات أو الخلايا المنوية، فالمتطوعة بالحمل أجنبية عن الزوجين مصدر البذرتين فتدخل هذه الأساليب فى معنى الزنا، دون أدنى شك حيث إنها تؤدى الى اختلاط الأنساب قال تعالى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾(٤)

والامشاج هى الأخلاط وهذا يدل على اشتراك صاحبة البويضة فى تكوين الجنين ولكن مع ذلك

---

(٣) الفرقان/ ٥٤.

(٤) الإنسان/ ٢.

فاللقيحة لا تسمى جنينا فعلا إلا بعد تصويرها في مرحلة تالية في رحم الأم وقد دل على أن هذه اللقيحة ليست ولدا قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾(٥).

إذن اللقيحة المشتركة فيها صاحبة البويضة ليست ولدا ولم تكن هي التي حملته في رحمها في المراحل التالية والتي تنتقل فيها من حال إلى حال حتى يتخلق فيها إنسان سوى وما يستتبع ذلك من تغذيتها بدمها وتحمل لآلام الحمل وآلام الوضع وغير ذلك ـ مع هذا ـ فإنه لا يمكن القطع بأن هذه المرأة هي أمه وإن كانت شبهة الجزئية فيها قائمة أما صاحبة الرحم فإننا نراها هي التي حملت البويضة الملقحة في رحمها وتنقلت من طور إلى طور حتى خلق الله فيها إنسانا سويا ثم وضعته بعد تكوينه وتصويره وتحملت بسببه آلام الحمل والوضع وكانت غذاءه ومأواه في رحمها ومرضعته بعد انفصالها قال تعالى:

﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾(٦).

وقال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾(٧).

فالقول بالتحريم أقرب الى الاحتياط صونا للنسب وحماية للأعراض من العبث.

إن هذه الوسيلة فضلا عن كونها ذريعة إلى اختلاط الأنساب نتيجة الازدواج في التكوين والنشأة والخلقة فإنها وسيلة أيضا إلى الشر والفساد وكل ما يؤدي إلى الضرر أو الحرام فهو حرام فعادة الشارع الا يترك المفسدة حتى تقع ثم يعالجها بل يحتاط في سد المنافذ إليها . ولا يقال أن ذلك من باب الضرورات التي تبيح المحظورات لأن ضابط الضرورة خوف الهلاك أو الضرر الشديد على إحدى الضروريات للنفس أو للغير يقينا أو ظنا إن لم يوجد ما يدفع به الهلاك أو الضرر الشديد ومن ضوابطها أن تكون متفقة مع مقاصد الشارع وأن تكون مستندة إلى قواعد شرعية وألا يترتب على إزالتها إلحاق مثلها بالغير (الضرر لايزال بالضرر) وأن تقدر بقدرها والأهم ألا يخالف المضطر مبادئ الإسلام في تحريمه للزنا وحرصه على ثبوت النسب وعدم اختلاط الأنساب والأصل في الإسلام: « دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح »

ولا يقال أيضا إن مسألة تأجير الأرحام جائزة شرعا مثل تأجير المرضعة للاختلاف بينهما في أمور عدة منها:

ان المنفعة في تأجير المرضعة منفعة مشروعه أجازتها النصوص من الكتاب والسنة في قوله ـ تعالى ـ:

(٥) الحج/ ٥.

(٦) المجادلة/ ٢.

(٧) لقمان/ ١٤.

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴾(٨).

وقوله تعالى فى بيان المحرمات

﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ ﴾(٩).

وقوله صلى الله عليه وسلم « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، أما العقد على استنجار الرحم فهو عقد على منفعة غير مشروعة لأن الرحم جزء من آدمية حرة لا تصلح للمعقود عليه.

وإن الولد فى عقد الرضاع وليد مكتمل ثبت نسبه من أبوية بينما هنا جنين غير مكتمل تتم مراحل اكتماله داخل الرحم المستأجر.

الرضيع يمكن أن يستغنى عن الغذاء باللبن الى غيره لحالات ذكرها الفقهاء كامتناعه عن التقام الثدى أو وجود مرض معد فى المرضعة بينما فى حالة الرحم المستأجر فالجنين لا يستطيع الاستغناء عن الغذاء من الأمشاج أو دم الأم.

من شروط صحة العقد ألا يترتب عليه نزاع أو خصام بين المتعاقدين وهذا العقد يقينا يؤدى إلى النزاع بين الأبوين وبين المستأجرة فى أحقية كل منهما لامتلاك الجنين ونسبه إليهما.

هذا العقد - تأجير الرحم - يؤدى الى الفساد من وجوه:

١ - جعل المرأة ممتهنة ومبتذلة بعرضها رحمها للبيع أو الهبة.

٢ - الاعتداء على أمومتها وأحقيتها فى ضم الوليد بعد أن تغذى منها وحملته وهنا على وهن.

٣ - حينما تكون المستأجرة متزوجة وعندما يجامعها زوجها فيختلط ماؤه مع ماء غيره وذلك محرم قطعا لقوله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسق ماءه ولد غيره »

٤ - قد تكون المستأجرة - بل يجب أن تكون - فى حالة تبويض كما جزم الأطباء بذلك فماذا لو تم تلقيح بويضتها مع نطفة زوجها أثناء حملها ببويضة المخصبة؟! وهل تمنع من معاشرة زوجها الأصلى حتى تضع حملها المستأجر؟!

٥ - هل الطفل بعد ولادته سيكتب باسم أمه صاحبة البويضة الملقحة ام باسم صاحبة الرحم التى حملته حتى ولادته؟

٦ - ماذا لو كانت الأم البديلة أما أو أختا لصاحبة البويضة الملقحة؟

٧ - ماذا لو تمسكت صاحبة الرحم بالرضيع باعتباره ابنها أو لو رفضت صاحبة الرحم استلامه إذا ولد مشوها؟

٨ - ماذا لو قامت صاحبة الرحم بتأجير رحمها لأكثر من أسرة ثم حدث مستقبلا تزاوج بين أبناء هذه الأسر؟

٩ - وأخيرا ماذا لو كانت الأم البديلة غير متزوجة ثم ظهر عليها الحمل أليس فى ذلك تعريض لها للقذف وإشاعة الفاحشة فى المجتمع

(٨) الطلاق/ ٦.

(٩) النساء/ ٢٣.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١٠)

ومن ثم فإننا يجب أن نحافظ على شريعتنا وثوابتها ومصالحها وقواعدها حتى يعم الأمن والأمان بين افرادها .

●●●

وفى جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ ٢٠٠١/٥/٦م كان هذا المقال للدكتور محمد الفار، أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة المنصورة

تأجير الأرحام بين العلم والقرآن

نشهد بهذه الأيام – للأسف الشديد – جدلاً واسعاً حامى الوطيس حول قضية « تأجير الأرحام » أو « الأم البديلة » ويعزى ذلك لكونها قضية متعددة الأبعاد ولابد أن ننظر إليها بمنظور طبى وعلمى ودينى وأخلاقى وقبل كل ذلك بمنظور إنسانى وليس حيوانياً .

وبداية فأسلوب « الرحم المستأجرة » فى الإنجاب يتم بأخذ البويضة من الزوجة ليجرى إخصابها – خارجياً – بالحيوان المنوى من زوجها . وكنتيجة لأسباب متعددة تجعل صاحبة البويضة غير قادرة على الحمل فى رحمها فلقد ابتدع علماء الغرب فكرة إدخال هذه البويضة الملقحة لرحم امرأة أخرى بدلا من رحم صاحبة البويضة وبهذا الأسلوب تحمل الأم البديلة هذا الجنين وحتى الولادة وبهذه الطريقة فإن المولود الجديد يولد معه جدل لا يموت إلا بموت صاحبه لأنه سيظل دائماً فى حيرة من أمره ولا يعرف من هى حقاً أمه، ولهذا ظهر اصطلاح « الأمومة المشتتة » وبهذا يصبح العذاب النفسى هو توءم المولود بهذا الأسلوب .

وبادئ ذى بدء فإن الرحم ليس مجرد وعاء أو حضانة وكما يدعى البعض بل هو القرار المكين بالأم لحمل الجنين فيه

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾(١١).

وهناك آيات وأحاديث تؤكد بصورة جلية الصلة الربانية النورانية بين الله - تعالى - والأرحام وأكبر دليل على ذلك أن الله جعل الرحم يشهد أهم أطوار خلق الانسان وتصويره وكذا نفخ الروح بالجنين فيه

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾(١٢)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾(١٣).

وللدلالة على تشريف الله للرحم فلقد اشتق المولى اسمها من اسمه لقوله فى حديثه القدسى « أنا الرحمن وهذا الرحم شققت لها اسما من

---

(١٠) النور/ ١٩.
(١١) المؤمنون/ ١٣.
(١٢) الزمر/ ٦.
(١٣) آل عمران/ ٦.

اسمى..» .. بل جعل الرحم معلقة بالعرش لقول رسول الله – عليه الصلاة والسلام – فى حديثه الشريف «الرحم معلقة بالعرش» ولهذا وضع المولى ـ تعالى ـ أكبر سر من أسرار أطوار الخلق به وأحاطه بصفات معجزة فى كيفية أداء عمله ولذا فالرحم – فى أوقات الحمل وشهوره – يتضاعف حجمه ليصل آلاف المرات ويتضاعف وزنه أيضاً لمئات المرات وذلك لكى يحتضن الجنين على الرحب والسعة به.

ويطرح البعض سؤالاً محيراً وهو: هل يمكن اعتبار البويضة الملقحة كائنا بشريا متكاملا؟!

والجواب نجده فى آيات القرآن الكريم عن مراحل خلق الإنسان وسبحان الله فهى تتلاقى مع ثوابت العلم الحديث وتقنياته المبتكرة فى رصد وتصوير مراحل خلق الجنين بالأرحام.

ويشير المولى بجلاء إلى ان طور الخلق بعد آدم هو طور النطفة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾(١٤)

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه فى قرار مكين».

أما النطفة الأمشاج «بمعنى المختلطة» فهى التى يختلط فيها نطفة الذكر «الحيوان المنوى» بنطفة الأنثى «البويضة» من أجل انتاج البويضة الملقحة وسبحان الله الذى قال:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾(١٥)

ومن أصدق الله قيلا؟!

وبعد هذا الاختلاط فإن هذه البويضة الملقحة تبدأ فى الانقسام الخلوى المتتالى وفى خلال أيام يصبح شكلها مثل الكرة وتشبه مجازا ثمرة التوت وتنتقل بعد ذلك لآخر مرحلة فى طور النطفة وتعرف باسم الكرة الجرثومية و«جرثومة الشئ أصله» وتسمى البلاستولا أو الخلية الأورمية أيضاً.

وتبدأ بعد ذلك الخلية الأورمية بدفن نفسها فى تلافيف جدار الرحم وتتعلق به ليبدأ بذلك طور اللقة، وسبحانه أشار لأطوار الخلق الأساسية

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾(١٦)

والحقائق العلمية الموثقة بالصور ثلاثية الأبعاد لمراحل المضغة قد نشرت حديثاً بمجلة العلوم الأمريكية وتشير إلى أن طور المضغة يبدو عليه نتوءات تجعله يظهر بالصور ككتلة بدنية وكأنما مضغتها الأسنان «وكما وصفها القرآن» بل وجد انه لا يوجد فى بدايتها أى ملامح انسانية لأى عضو جسدى ولكن بمرور الأيام يتطور شكل المضغة فيظهر عليها براعم الأيدى والأرجل والرأس والصدر والبطن وتتكون معظم الأعضاء الداخلية وتحتفظ ـ بالرغم من كل ذلك ـ بالشكل

(١٤) المؤمنون/ ١٢ ـ ١٣.

(١٦) الحج/ ٥.

(١٥) الإنسان/٢.

الخـارجى ككتلة بدنيـة تشبـه قطعـة اللحم الممضوغة.

وسبحان الخالق الذى وصفها بأنها مخلقة وغير مخلقة وهذا من أسرار الإعجاز بالوصف القرآنى والذى يتطابق تماما مع الصور التى نراها لأطوار الجنين.

ثم يشهد طور المضغة التخليق ويبدأ بعد ذلك طور تخليق العظام ويتبعه كساء العظام باللحم وتلك هى الأطوار الأساسية وكما صورتها الآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون وسبحان الخالق.

والعلماء أشاروا إلى أن الأسابيع الثمانية الأولى من عمر الجنين بالرحم يتكون خلالها معظم الأجهزة وتتشكل بها الملامح الأساسية لشكل الكائن البشرى. وبهذا فالبويضة الملقحة لا تعتبر كائناً بشريا متكاملا.

والسؤال التالى هو: هل الرحم البديل يؤثر فى صفات الجنين أو الموروثات «الجينات» التى يحملها؟

وحتى نستخلص الإجابة فعلينا أن نعلم أن هناك تفاعلاً حيوياً وكيميائيا وبيولوجيا بديعا بين الجنين والأم الحاملة له وثبت أن هناك كثيرا من الخفايا عن موروثات الجنين بالأرحام وأن صورة عمل تلك الجينات كاملة مازالت فى طى الكتمان ولا يعلمها إلا الله كلها.

ويقول العلماء بأن دم الأم - الموصول بالجنين - يحمل كل مكوناته الوراثية، وإذا كانت الأم حاملة لموروث «جين» أحد الأمراض الوراثية فإن ذلك يؤثر على الجنين بل وقد يستمر تأثيره لبعد ولادته.

وللعلم فلقد نشر كتاب لعالم أمريكى شهير منذ عام بعنوان «الحياة فى الرحم» وأشار فيه بجلاء إلى أن حالة الإنسان الصحية طوال حياته تتحدد بالفعل أثناء التسعة أشهر برحم الأم، وبذلك فإن صفات الجنين قد تتأثر بالبيئة المحيطة به بالرحم وهذا للعلم لا يلغى نظرية الوراثة وكما أشار هو.

والسؤال التالى هو: ما هو موقف الأطباء ونقابة الأطباء من موضوع تأجير الأرحام أو الأم البديلة؟

والجواب - والحمد لله - منشور بمجلة «المصور» حيث أشار أ.د. محمد فياض رئيس الجمعية المصرية للخصوبة والعقم ورئيس الجمعية الأفريقية لصحة الأم والطفل بأنهم ضد هذه الفكرة فى نقابة الأطباء وبأن نقيب الأطباء وزملاءه وضعوا ضوابط قانونية وأخلاقية لمنع إجراء هذه العملية فى عشرات المراكز بمصر، ونحمد الله أن أطباء مصر أتقياء يراعون الله.

والسؤال الأخير هو: ما هو موقف مجمع الفقه الإسلامى السعودى ومجمع البحوث الإسلامية المصرى؟

أشار مجمع الفقه الإسلامى بمكة - منذ عامين تقريباً - بتحريم كل الحالات التى يقحم فيها طرف ثالث على العلاقات الزوجية سواء أكان رحما أم بويضة أم حيوانا منويا أم خلية جسدية للاستنساخ.

أما مجمع البحوث الإسلامية المصرى فلقد قرر تحريم تأجير الأرحام أو الأم البديلة.

وبهذا يجب أن يسدل الستار الآن حول هذه القضية فهناك أمور علمية فى علم الغيب للآن ولذا من الأفضل تطبيق المبدأ والمنهج الإسلامى بأن دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وختاما أقول: أن الغاية لا يجب أن تبرر أبداً الوسيلة وفوق كل ذى علم عليم..

الفهـــرس

● فى ذكرى المولد النبوى (الافتتاحية)
للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى ٣٧٠
● مع سورة الفتح فى ذكرى مولد رسول الله ﷺ
لفضيلة الإمام الأكبر/ محمد سيد طنطاوى ٣٧٨
● ذكريات وتأملات فى يوم مولده ﷺ
لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى ٣٨٨
● أنشودة فى محراب نور البشرية
شعر/ محمد فهمى سند ٣٩٤
● وثيقة دستور دولة النبى فى المدينة
للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة ٣٩٧
● محمد ﷺ فى كتابات المستشرقين
للأستاذ الدكتور/ عبدالعظيم المطعنى ٤٠٤
● فى ذكرى ميلاد سيد البشر
لفضيلة الشيخ/ عبدالفتاح سيد جمعان ٤١٣
● يا خير من يشفى الضنا مس كفه
لفضيلة الشيخ/ محمد الطاهر الحامدى ٤١٧
● قصة العدد: بشائر النبوة ٤٢٠
● من روائع الماضى فى مجلة الأزهر:
إعداد الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم ٤٢٥
● إنها النبوة
للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالمنعم خفاجى ٤٣٤
● فى ذكرى المولد النبوى
للأستاذ/ أحمد محرم ٤٣٨
● سيرة النبى محمد
عرض الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين ٤٤٢
● درس فى الإنصاف
للأستاذ الدكتور/ محمود محمد عمارة ٤٥٠
● أشواق حجازية الإيقاع
شعر للدكتور/ صابر عبدالدايم ٤٥٨
● مشكلات أعجزت العلم وحلها الإيمان
للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم ٤٦٠
● ما يقال عن الإسلام
للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى ٤٦٣
● الإسلام وإشكالية الفكر الحضارى
للأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الفيومى ٤٦٨
● محمد رسول الله ﷺ
شعر للأستاذ الدكتور/ محمد بدر معبدى ٤٧٤
● التراث العلمى الإسلامى
للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا ٤٧٦
● إسرائيل من الداخل ٤٨١
● عرب فلسطين
للدكتور/ محمد حسن عبدالخالق ٤٨٢
● إسرائيل والبحث عن الهوية
للأستاذ/ صلاح الدين عبدالرحيم محمد ٤٩٠
● القعقاع بن عمرو التميمى
للأستاذ/ أحمد السيد تقى الدين ٤٩٧
● الرافعى ومواقفه من قضايا الشعر
للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب ٥٠١
● السيد حسن القاياتى
للأستاذ محمد مصطفى البسيونى ٥٠٥
● هل تغرق السفينة؟! لطفك اللهم
للأستاذ / مجدى عبدالحميد بشير ٥١١
● طرائف.. ومواقف
إعداد الشيخ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم ٥١٦
● منبر الجمعة: مولد خير الأنام
لفضيلة الشيخ/ على حامد عبدالرحيم ٥١٨
● استفتاءات القراء
إعداد وتقديم/ عبدالفتاح حسين الزيات ٥٢٢
● فقه العبادات فى ضوء غاياته
بقلم/ أبو محمد الأقصرى ٥٢٨
● أسس العلاقات الاجتماعية فى الإسلام
للأستاذ الدكتور عبدالحليم حفنى ٥٣٣
● بين المجلة والقارىء
إعداد وتقديم الأستاذ/ عادل خفاجة ٥٣٩
● أنباء مكتب الإمام الأكبر
لفضيلة الشيخ/ عمر البسطويسى ٥٤٤
● بين الصحف والمجلات
إعداد الأستاذ/ محمود الفشنى ٥٥٣

مجمع البحوث الإسلامية

الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م
وصدر العدد الأول في المحرم ١٣٤٩هـ
يصدرها
مجمع البحوث الإسلامية
في مطلع كل شهر عربي

رئيس التحرير
أ.د. محمد رجب البيومي
مدير التحرير
الطاهر محمد الطاهر الحامدي
سكرتير التحرير
عادل رفاعي خفاجة

المراسلات باسم
مدير التحرير / مجمع البحوث الإسلامية / م. نصر
ت: ٢٦٣٨٥٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

- تفسير سورة البقرة
لفضيلة الإمام الأكبر
- الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان
للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم
- الدعوة كما ينبغي أن نبلغها
لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدي
- محمد ﷺ في كتابات المستشرقين
للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعني
- العربي بين الأصالة والمعاصرة
للأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم الفيومي

الاشتراك السنوي

- داخل مصر .... ١٨ جنيهاً مصرياً
- الدول العربية .... ٥٠ دولاراً أمريكياً
- أوربا وأمريكا .... ٨٥ دولاراً أمريكياً
- اليابان وشرق آسيا .... ١٢٠ دولاراً أمريكياً

عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام
شارع الجلاء - القاهرة
☎ ..٥٧٨٦١ - ٨٥٧٦٢٠٠

ربيع الآخر ١٤٢٢هـ - يوليو ٢٠٠١م - الجزء الرابع - السنة الرابعة والسبعون

افتتاحية العدد

العدل ظاهرة كونية قبل أن يكون فضيلة خلقية

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾(١).

ظاهرة كونية

العدل سنة من سنن العالم الطبيعى به سارت الكواكب فى مجاريها وعلى نظامه توقف مجرى الليل والنهار، فالشمس تجرى لمستقر لها لا تتزحزح عنه، والقمر له منازل معلومة مرصودة، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان.

لقد اكتشف الفلكيون بعد أن رصدوا الكواكب السيارة أن أبعادها بالنسبة إلى الشمس تسير على نظام عادل لا يختلف [٣- ٦ - ١٢- ٢٤- ٤٨] وبالعدل الدقيق قامت حركة الكون فى اطرادها المديد، كما أن الخلل الشاذ فى بعض مظاهر الكون لا يكون إلا عقابا على ترك العدل، لأن الظلم يمحق الحياة الإنسانية كما تمحق الزلازل والبراكين هدوء العالم الأرضى فى وقت من الأوقات، وإذا كان الزلزال يرسل الحمم ويبعث الصواعق، فالظلم الحائد عن طريق العدل هو مدعاة هذه الأهاويل، لذلك كان الخسف والرجف والزلزال بعض العقاب الذى سلطه الله على الطغاة من الظالمين.

(١) سورة الرحمن الآيات من ٥ إلى ٨.

الظلم يدمر الكون

وقصص الجبابرة من الطغاة فى كتاب الله تنتهى دائما برجفة كونية تكون نتيجة لانهيار العدل فى مجتمع هؤلاء البغاة، وقد عرضت سورة هود قصص البغاة ممن مردوا على الحق، وكانت كل قصة تنتهى بالخسف والمحق والغرق، فقد فار التنور وماج الماء مدرارا من السماء وفوارا من الأرض فى قصة نوح، وأخذت عاد وثمود بالرجفة والصيحة، وأرسلت على قوم لوط حجارة من سجيل منضود، وأخذت الذين ظلموا من قوم شعيب الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، ثم قال الله ـ عز وجل ـ عقب هذه الأحداث :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾(٢) .

وفى مثل هذا المعنى يقول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾(٣) .

فكأن العوامل الطبيعية التى تنزل الكوارث بالناس هى فى كثير من أحوالها نتيجة منطقية للظلم القائم، وسبب من أسباب تغيب العدالة بين الناس، لذلك وضع الله الميزان بالقسط حين خلق السماوات والأرض وجعل العدل مناط الاستقرار، وقد شاع لدينا المثل القائل: «بالعدل قامت السماوات والأرض» .

العدل اتجاه فطرى

وكما أن العدل ظاهرة كونية فهو أيضا اتجاه فطرى فى النفس إذا سلمت من غواشى البيئة الفاسدة، وبرئت من سيطرة الغريزة الهابطة، فحين ترتكس النفوس فى حمأة الضلال لا تطمئن اطمئنانا كافيا لشذوذها المنحرف بل تضيق به وتحس كأنها بمنأى شاسع عن الطريق الصحيح إحساسا يورثها لذع الألم، وبَرْحَ الندم، مهما تظاهر المذنب بالتماسك والالتئام، إذ

(٢) سورة هود الآيات من ١٠٠ إلى ١٠٣.

(٣) سورة الحج الآية ٤٥.

يشعر شعورا داخليا أنه يأتى بما لا يناسب إنسانيته من الآثام. ويتمنى لو أمكنه سريعا أن يسدل ستارا على مخازيه بأن تهيىء له الظروف ما ينجيه من انحداره نجاءً خالصا لا رجعة فيه لأن صوت الفطرة فى أعماقه يؤرقه، وقد يموت الضمير نهائيا عند قلة قليلة، وهؤلاء شواذ لا تستقيم بهم قاعدة عامة، ومن دلالة هذا الاتجاه الفطرى فى النفس أن صاحب الخلق المحمود إذا عدل فى أهله ورعيته يشعر بالارتياح المغتبط فى كل موقف من مواقف عدالته، حتى ولو عادت عليه هذه العدالة المتحرزة ببعض الأضرار المادية أو المعنوية، لأنه يعرف أن الجزاء من جنس العمل وأن الضرر الذى لحقه بإجراء العدالة ضرر ظاهرى يخفى نفعا كثيرا له قبل أن يلحق النفع سواه، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره خضوعا للقانون الإلهى فى الحياة وهو العدل، وحين قال الله ـ عز وجل ـ:

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾(٤).

وقد مهد جل جلاله لذلك كله بقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾(٥)، ومن علّمه البيان لا يستطيع أن ينكر أن كل شيء يقوم فى الحياة بميزان أى ميزان، فالبيان هو ثمرة الحكمة العاقلة ذات الوعى البصير.

عدالتان: خارجية وداخلية

وعلماء الأخلاق حين يتحدثون عن العدالة يجعلونها عدالتين: عدالة داخلية، وعدالة خارجية.

فالعدالة الداخلية هى مراعاة الالتزام الدقيق بقواعد النظام العادل فى السلوك الإنسانى بحيث لا تقوى ناحية ما فتسيطر على غيرها سيطرة تفقد المرء توازنه النفسى، أو تعظم غريزة هابطة فيسوء أثرها حين تسيطر على عاطفة شريفة فتمحقها، وتفصيل ذلك أن الإنسان يخضع لقوى عقلية وقوى شهوية، والقوة العقلية هى التى تحتل مكان القيادة فتوجه صاحبها إلى الطريق الصحيح، وتكبح جماح القوة الشهوية حين تميل إلى تجاوز ما أحل الله من متاع، أو سلب ما يحوزه الغير من مال، وبمراعاة العدالة بين القوتين يحدث الانسجام النفسى لدى الإنسان، إذ يكون موفقا فى حياته فلا تعصف به نزوة هائجة إلى عمل عدوانى، أو انحطاط بهيمى، لأن العدالة الإلهية قد منحت الإنسان إدراكه البصير ليسير فى المحيط الزاخر آمنا مهاب العواصف الهوج، والزعازع الهائجة، فيصل إلى الشاطىء

---

(٤) سورة الرحمن الآيات من ٥ إلى ٧.

(٥) سورة الرحمن الآيتان ٣، ٤.

بسلام وما يقوله الأخلاقيون قديما عن القوى العقلية والقوى الشهوية يقوله علماء النفس حديثا عن الإدراك والوجدان والنزوع، والمآل واحد، وإن اختلف الاصطلاح.

هذه هى العدالة الداخلية، وكثيرا ما يغفلها المتحدثون عن العدالة مع أنها أصل من أصول الاستقرار الإنسانى، وبتحقيقها يعيش المرء سعيدا هانئا ولاشك أنها تتطلب جهادا شاقا، وكفاحا مريرا، لأن للغرائز سيطرتها الغاشمة إذا اتسع أمامها ميدان دون كبح، فلابد أن يعالج الإنسان توازنه النفسى ليوصد منافذ الشر فلا يندلع شرورها على حياته، وللتربية الخلقية أثرها فى السيطرة على النوازع الهابطة، وهى تربية لابد أن تلزم الناشىء من مفتتح حياته ليسمو بنفسه مبدئيا، فيظل بعيدا عن جواذب الشرور، ودوافع الانحطاط.

العدالة الخارجية

أما العدالة الخارجية فهى التى تتجاوز التنظيم الداخلى للنفس إلى الاتصال الاجتماعى بين الناس، ولاشك أن كل إنسان حريص على ألا يضيع حقه فهو يتطلع إلى استيفاء ثمرات جهوده، تطلعا قد يدفعه إلى الطمع فى ثمرات غيره.

إذا فقد عنصر الحق فى نفسه، إذ من الحق كل الحق ألا يجور إنسان على إنسان، حتى ولو كان فى نهاية الحد الأقصى من عدالة المتربصين، فقد قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٦).

والنصوص القرآنية فى هذا المجال كثيرة يعرفها الدارسون، وعلينا أن نتفهم نفوسنا حين نصدر الحكم فى تحديد العلائق بيننا وبين الناس، لأن الشيطان يعجز عن أن يدفع المسلم المتحرز دفعا صريحا للظلم، فيأتى إليه من باب التدليس، ليزين له الشر حين يرسمه فى صورة الخير، فيجعل من ميوله الذاتية فى حب الاستئثار بالنفع ما يريه الباطل المحض فى صورة الحق الصريح إذا لم يعتصم بالحجة الواضحة دافعا تطلعات الهوى المغرض، ومن هنا قال الله ـ عز وجل ـ مخاطبا نبيه داود ـ عليه السلام ـ:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾(٧).

---

(٦) سورة المائدة آية ٨.

(٧) سورة ص آية ٢٦.

وداود نبى ذو خلق وعقل وإيمان، وقد حذره الله مع مواهبه الثالبة من الهوى. فتحذير غير الأنبياء أوجب وألزم وإذا كنا نستعرض نوازع الشر فى النفوس، فلا نظلم الحق حين نقول: إن فى بعض النفوس كرائم نفيسة يدفعها التسامح الحميد إلى التنازل عن بعض الحقوق العادلة حبا فى الرحمة المطلقة، فهى ترضى بالعدالة عن التخاصم، فإذا تحقق لها ما تريد تنازلت عن حقها الصريح استجابة لقول الله:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٨)

ولن يرتفع الإنسان إلى الرحمة الغافرة إلا إذا تأصلت أخلاق القرآن الكريم فى نفسه بحيث أصبح لا يستطيع عن المثل الأعلى صبرا واحتمالا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

العدل فى العدل

يقول الأستاذ إبراهيم الجبالى ـ رحمه الله ـ: «إذا نظرت إلى المعاملات وجدت قانون العدل محكما، وطريق الإنصاف محتما لأن الإسلام قد عدل فى العدل، نعم لقد عدل حتى فى العدل، لأنه لم يحتم على صاحب الحق أن يأخذ بالعدل، كما لم يحرمه حقه من العدل، وإنما قال له: لك الحق فى أن تستوفى حقك بالعدل، ولكنى مع ذلك أرغبك فى الإحسان فما أشبه الإتيان بالإحسان بعد العدل أن يكون اعتدالا فى تقرير العدل».

وكأن الأستاذ الجبالى ينظر إلى قول الله ـ عز وجل ـ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾(٩)

فيجد العدل هو الميزان الطبيعى للمصالح العامة ويرى الإحسان فى العدل منزلة مستثناة للخاصة، وهى التى تجاوز العدل إلى العفو وهو الإحسان وإذا كان من علماء الأخلاق فى الغرب من جعل الإحسان فى العدل دون تجاوز، فإن هذا الأخلاقى الكبير لم يحط خيرا بكل النفوس، إذ أن من البشر من تسمو نفسه إلى التسامح متنازلا عن حقه العادل، وقد رأينا من كرام الناس من يبكى لمآسى أعدائه ويود لو هادتهم الأوصاب ومن يتنازل مشكورا عن حقه العادل فى ساحة القضاء رغبة فى ثواب الله يوم الجزاء، وتجاوز العدل إلى الرحمة سمو نفسى دعا إليه الإسلام مخيرا بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، وتلك عليا مراتب الفضلاء.

دكتور / محمد رجب البيومى

(٨) سورة الشورى الاية ٤٣.

(٩) سورة النحل الآية ٩٠.

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

قال الله - تعالى - :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

الآية : ٢٢١

قوله ـ تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ﴾

النكاح فى اللغة الضم وتداخل أجزاء الشىء بعضها فى بعض، ثم أطلق على العقد الذى به تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مشروعة.

والمشرك فى لسان الشرع: من يدين بتعدد الآلهة مع الله ـ تعالى ـ وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشىء بينك وبين غيرك شركة، فمن يعبد مع الله ـ تعالى ـ إلها آخر يعد مشركا، وهو فى الآخرة من الخاسرين.

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة: مشرك، ومشركين، ومشركات فى القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان، وأنها صارت فى استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب، أو بوصف الكفر دون الشرك كما فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾(١)

وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين فى الآية عبدة الأوثان.

وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومه المرأة الوثنية، واليهودية والنصرانية.

وقد ترتب على هذا الخلاف فى إطلاق كلمة، مشرك، أن أصحاب الرأى الأول قالوا: إن النهى فى الآية إنما هو عن زواج المشركات اللائى يعبدن الأوثان ولا كتاب لهن، وأنه يجوز ـ مع الكراهة ـ أن يتزوج المسلم الكتابية، لأن القرآن يقول:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾(٢).

ولأنه قد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكتابيات فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت، وطلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين.

أما من قال بالرأى الثانى فيرى حرمة الزواج بالوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعا، وأصحاب هذا الرأى ـ كما يقول الآلوسى ـ يجعلون آية المائدة وهى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾(٢)..

منسوخة بالآية التى معنا نسخ الخاص بالعام.. وإلى هذا الرأى ذهب الإمامية وبعض الزيدية (٣).

وروى عن عمر وعبدالله ابنه ـ رضى الله عنهما ـ أنهما حرما ذلك وفى رواية أنهما كرهاه وهى الأصح.

قال القرطبى: وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيدالله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا: نطلق يا أمير المؤمنين ولا نغضب، فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة، قال ابن عطية وهذا لا يستند جيداً، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة: أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا الموسات منهن.

ثم قال القرطبى: وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية، قال حرم الله المشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئا من

---

(١) سورة المائدة الآية (٧٨).
(٢) سورة المائدة الآية (٥).
(٣) تفسير الألوسى جـ٢ ص١١٨.

الإشراك أعظم عن أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله، قال النحاس: وهذا قول خارج من قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهم: عثمان وطلحة وابن عباس.. ومن التابعين: سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد.. وفقهاء الأمصار عليه، وأيضا فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التى فى سورة المائدة، لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول ـ أو يخصصه ـ وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه، لأن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان متوقفا، فلما سمع الآيتين فى واحدة التحليل وفى أخرى التحريم ولم يبلغه النسخ توقف، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تؤول عليه، وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل[4].

والذى نراه أن زواج المسلم بالكتابية جائز لأن القرآن صريح فى ذلك، ولأن عمر ـ رضى الله عنه ـ أقر بأنه ليس بحرام، فتكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة على فرض عمومها، ومبينة لحكم جديد خاص بالكتابيات، وهو الجواز ولكن هذا الجواز لايمنع كراهته، لأن الزواج بالكتابية كثيراً ما يؤثر فى إضعاف العاطفة الدينية عند المسلم، وعند الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج، لأنهم يخرجون إلى الحياة وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم، ولأن المرأة الكتابية التى تقبل الزواج بالمسلم كثيرا ما تكون منحرفة فى سلوكها وأن الدافع لهــا إلى هذا الزواج إنما هو المال أو الجمال أو الجاه وليس الدين أو الخلق، لأنه لو كان الدافع ذلك لرضيت بالإسلام دينا، وبأدابه خلقا لها، وما أحكم قول عمر لحذيفة: «لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن».

هذه خلاصة لآراء العلماء فى هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى أقوالهم فى مظانها[5] والمعنى: أنهاكم أيها المؤمنون أن تتزوجوا بالنساء المشركات حتى يؤمن بالله ـ تعالى ـ ويذعن لتعاليم الإسلام وآدابه.

وقوله:

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾

تعليل للنهى، وبيان لفضل المؤمنات على المشركات، ولفضل طهارة النفس على جمال الجسم والمراد بالأمة هنا الأنثى المملوكة من الرقيق، وبالمشركة الحرة الجميلة بقرينة المقابلة.

أى ولأنثى رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير فى التزوج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية، ولأن الزواج ارتباط روحى بين قلبين، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله فى عبادته، وقلب لا يدين بذلك،

(٤) تفسير القرطبى جـ٣ ص٦٨ بتصرف وتلخيص.

(٥) راجع ـ على سبيل المثال ـ تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٥٧، وتفسير القرطبى جـ٣ ص٦٦.

وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم فى إفادة التأكيد مبالغة فى الحمل على الانزجار، وقد أمر النبى ﷺ أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم فى الزواج، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك».

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولاتتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، لأمة سوداء ذات دين أفضل».

والأحاديث النبوية فى هذا المعنى كثيرة

ثم قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾

أى: لا تزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات للرجال المشركين حتى يتركوا ما هم عليه من شرك ويدخلوا فى دين الإسلام، فإذا فعلوا ذلك حل لكم أن تزوجوهم النساء المسلمات، لأنهم بدخولهم فى الإسلام قد أصبحوا إخوانا لكم.

والنهى هنا يتناول المشرك الذى يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لايدين بالإسلام كأهل الكتاب، لأن القرآن قد جعل الإيمان غاية للنهى، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة، لأن الله ـ تعالى ـ يقول فى آية أخرى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾(٦).

فهذه الآية صريحة فى أن زواج المسلمة بالكافر لايجوز وكلمة كافر تشمل أهل الكتاب بدليل قوله ـ:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾(٧).

وقوله تعالى:

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٨).

قال الفخر الرازى: لا خلاف هاهنا فى أن المراد به ـ أى بلفظ المشركين ـ الكل، وأن المؤمنة لايحل تزويجها من الكافر ألبتة على اختلاف أنواع الكفرة(٩).

وقوله:

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾

بيان لفضل الإيمان على الشرك، كما فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾

إذ نسبة المؤمن أو المؤمنة إلى هذا الدين الذى

---

(٦) سورة الممتحنة الآية (١٠).

(٧) سورة المائدة الآية (٧٨).

(٨) سورة البقرة الآية (١٠٥).

(٩) تفسير الفخر الرازى جـ٦ صفحة ٦٤.

ارتضاه الله لعباده أفضل وأجل من الانتساب إلى أى شىء آخر.

ثم بين ـ سبحانه ـ علة النهى عن الزواج بالمشركين والمشركات فقال ـ تعالى ـ:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ ﴾

أى: أولئك المذكورون من المشركين والمشركات يدعون من يقارنهم ويعاشرهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التى تفضى بصاحبها إلى دخول النار فى الآخرة والله ـ تعالى ـ يدعو عباده على ألسنة رسله إلى الأقوال والأعمال والعقائد التى توصل إلى جنته ومغفرته.

فالمراد بالدعاء إلى النار الدعاء إلى أسبابها وإلى ما يوصل إليها، وكان الاقتران بهؤلاء المشركين والمشركات سببا فى الوصول إليها، لأن الزواج من شأنه الألفة والمودة والمحبة وشدة الاتصال، وكل ذلك يجعل المسلم أوالمسلمة يتقبلان ما عليه المشرك أو المشركة من فسوق وعصيان لله ـ تعالى ـ بل ربما بمرور الأيام لا يكتفيان بالتقبل بل يستحسنان فعلهما، وبذلك تنحل عرا الإسلام من نفس المسلم والمسلمة عروة فعروة، حتى لايبقى منه سوى الاسم، كما نشاهد ذلك فى كثير من المسلمين الذين تزوجوا بغير مسلمات.

والمقصود من قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ ﴾ إغراء المؤمنين بالتمسك بتعاليم دينهم، وتنفيرهم من الاقتران بغير من يكون على شاكلتهم فى الدين، لأن من يخالفهم فى عقيدتهم طريقه يغاير طريقهم، وهدفه يخالف هدفهم، وعاقبته تباين عاقبتهم.

والدعاء إلى الجنة والمغفرة المراد به الدعاء إلى أسبابهما كما فى الجملة السابقة المقابلة وقيد ـ سبحانه ـ الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله:

﴿ بِإِذۡنِهِۦۖ ﴾ أى بأمره وإرادته وعلمه، لأنه ـ سبحانه ـ هو المالك لكل شىء، ولايقع فى ملكه إلا ما يريده ويقدره.

قال بعض العلماء ما ملخصه: وقد يقول قائل: هذه الدعوة إلى النار قد تكون أيضا فى زواج المسلم بالكتابية، كما هى فى زواج المسلم بالمشركة، وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقا، كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقاً وإن لذلك الكلام موضعه، ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية، بل زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتابية محرم كزواجه من المشركة.

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحل، ولا يعملون العلة ليهمل النص، بل يرون علة التحريم لا تتوافر فى الكتابية توافرها فى المشركة، فإن المشركة لا ترتبط بأى قانون خلقى يعصمها من الزلل.. أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية.. لا تزال باقية فى تعاليم دينها فيمكن الاحتكام إليها.

والقرآن فى جدله مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها كما فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾(١٠).

وأمرنا أن نجادلهم بالتى هى أحسن فقال:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾(١١).

فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة غير المبعدة، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ فى إباحة الزواج من الكتابيات أمران:

أولهما: أن النص القرآنى المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾(١٢).

والمحصنات ـ فى أظهر التفسير ـ هن العفيفات، فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن فى أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات.

ثانيهما: أن ولى الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامى له أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدا للذريعة ومنعا للشر، وذلك من باب السياسة الشرعية، لا من باب تحريم ما أحل الله، لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذى يلحق المسلمين، إذ فى ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه، كما أن أصل الأكل حلال، ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام، ولذلك سارت الدولة على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات.

وقوله ـ تعالى ـ فى ختام الآية:

﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

معطوف على يدعو إلى الجنة أى أنه ـ سبحانه ـ يدعو الناس إلى ما يوصلهم إلى جنته ومغفرته ويبين لهم آياته وأوامره ونواهيه فى شئون الزواج وفى غير ذلك من الأحكام لكى يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرهم الله به فيعملوه، وما نهاهم عنه فيتركوه.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد رسمت للناس أقوم السبل، لكى يعيشوا فى ظل أسرة فاضلة، تظلها السعادة ويسودها الأمان والاطمئنان ويتعاون أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

(يتبع)

(١٠) سورة آل عمران الآية (٦٤).

(١١) سورة العنكبوت الآية (٤٦).

(١٢) سورة المائدة الآية (٥).

قضايا قرآنية :

قضية الوقف على رؤوس الآيات فواصل الآيات : لدى القدامى والمحدثين

٢

فضيلة الشيخ / صديق بكر عيطة

إن مؤلف كتاب « الفرقان » ـ رحمه الله وسامحه ـ يندد بالقراء، لوقوفهم على رؤوس الآى، لمجرد أنها رؤوس آى.. ويا ليته كان أكثر دقة وأمانة، وأبعد مصداقية فى مناقشة مثل هذا الموضوع.. إذن لدعا القراء للوقوف على رؤوس الآى إحياء لسنة النبى صلى الله عليه وسلم ثم يدعوهم ـ مراعاة للمعنى ـ إلى وصل ما يستحق الوصل ؟ حيث نسمع القارىء يتوقف عند آخر الآية، وليس هناك ما يمنع من ذلك، ثم يصل ما يستحق الوصل.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

فى هاتين الآيتين الكريمتين، عدة وقفات تتراوح بين الجواز مع ترجيح الوصل، وقد رمز لها بالعلامة (صلى)، والجواز مع ترجيح الوقف وقد رمز لها بالعلامة (قلى) وإن من يتأمل الآية يرى جواز هذا وذاك حسب توجيه المعنى ـ ولا داعى للإطالة فى تحليلها فليس هذا مكانه ـ وهى أيضا تشمل الوقف على رأس الآية

(١) البقرة/ ٢١٩، ٢٢٠.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ مع التعلق النحوى الواضح بين هذه الجملة وأول التى تليها. لكن لم يقل أحد - فيما نعلم - من علماء المسلمين بخطأ الوقف عليها أو حرمته، وكثيرا ما نسمع الوصل بعد الوقف

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

وهو وجه حسن، يقتضيه المعنى، وإن لم يمتنع الوقف، مراعاة للسنة، وللحفاظ على الجمل الموسيقية التى يشعر بها فى الإطار العام للآيات (خالدون - غفور رحيم - لعلكم تتفكرون - عزيز حكيم - لعلهم يتذكرون) .

مثال آخر:

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾(٢) .

فى هذه الآية المباركة، وقف لازم عند كلمة « قولهم » وقد أشاروا له بالعلامة « مـ » ومن الواضح أن المعنى يأبى الوصل تماما. ولذا كان الوقف موضع اتفاق بين كافة المسلمين. لكن لماذا لم تكن رأس آية؟ الجواب: إن رؤوس الآيات فى هذا الجو المبارك كانت كالتالى (أفلا يشكرون - ينصرون - محضرون - يعلنون - خصيم مبين) فلو كان رأس الآية فى وسط هذا الجو العام « قولهم » لعد ذلك نشازا بين جمل الموسيقى التى يعيش القارىء فى ظلها حال القراءة. هذا من جانب. ومن جانب آخر لكان الوصل خيارا محتملا تمشيا مع ما هو سائد فى القرآن كما رأينا فى مقالنا السابق، وهو ما يرفضه المعنى تماما. وقد قيض الله لهذا القرآن رجالا نذروا أنفسهم لبيان كل هذه المواضيع بما لم يعد فيه مجال لأى شك، ومصاحفنا والحمد لله مدون بها كل ذلك. سواء ما يراه القارىء على امتداد التلاوة كلها، أو ما هو مدون فى آخر أغلب الطبعات الحديثة من المصاحف مما أطلق عليه علماؤه « اصطلاحات الضبط - وعلامات الوقف » .

وهذا كله لا يعنى أن يقف المسلم القارىء فى أى موضع يشاء خارج هذا الإطار، إذ لابد من أن يصطحب حصافته ووعيه دائما، حتى لا يسول له عقله أن يقف فى قراءة

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾(٣) .

قبل أن تتم العبارة برمتها فلا يقف على « الأرض »ولا « بينهما » ومثل ذلك تماما فى قوله - تعالى -:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾(٤) .

وما شابه ذلك، حتى لا يوهم غير مرادات الله من الآية أو ما يتنافى مع سلامة العقيدة.

ومن كل ما مر نرى أن رأس الآية يلتقى ويفترق الوقفات، التى أجمع عليها المسلمون، وبجميع أنواعها، حسبما يقتضيه الحال . .

---

(٢) ياسين/ ٧٦.

(٣) الحجر (٨٥).

(٤) الدخان (٣٨).

وهذا يقطع الطريق أمام مثل هذه الهجمات الظالمة التى يشنها مؤلف كتاب «الفرقان» على القراء دون مبرر. وإن لم يقطع الطريق أمام النظر الدائم فى كتاب الله - تبارك وتعالى -، لاستنباط ما فيه من حكمة هنا وراء هذا الوصل، وحكمة هنا وراء هذا الفصل، وحكمة هنا وراء جواز الفصل والوصل.. وغير ذلك مع الاستدلال على ترجيح طرف منهما أو عدم ترجيحه.. إلى مالا نهاية له من كنوز هذا الكتاب الذى لا تنقضى عجائبه.

ولكن المؤلف يثق بعقله أكثر مما يجب حتى وصل الى درجة الاغترار بالنفس، فأقام من نفسه حكما يصادر آراء الآخرين من علماء المسلمين والسلف الصالح، وما توارثته الأمة عن رسول الله ﷺ وصحابته الأبرار، ولذا فهو - للأسف الشديد، وكما يفهم من كلامه - يدعو الى إلغاء رؤوس الآيات، وإعادة رسم أوائلها وأواخرها، حسبما يزعم أنه المعنى. وهو لا يدرى، أن الوقوف على رؤوس الآى، لم يسد الطريق أمام فهم مرادات - الله - تعالى فيها، لأنها تتدراك بإعادة الوصل لمن يرى ذلك.

رأى الزركشى فى قضية الفواصل

يقول الإمام بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشى في كتابه القيم «البرهان فى علوم القرآن» عن ضوابط الفواصل فى القرآن نقلا عن الجعبرى: «ولمعرفتها طريقان: توقيفى وقياسى:

«الأول التوقيفى، روى أبوداود عن أم سلمة: لما سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ قالت: «كان يقطع قراءته آية آية. وقرأت: (بسم الله الرحمن الرحيم) إلى (الذين)، تقف على كل آية» فمعنى «يقطع قراءته آية آية» أى يقف على كل آية، وإنما كانت قراءته - ﷺ - كذلك ليعلم رؤوس الآى.

«قال (أى الجعبرى): ووهم فيه من سماه وقف السنة، لأن فعله ﷺ إن كان تعبدا فهو مشروع لنا، وإن كان لغيره فلا. فما وقف عليه السلام عليه دائما تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى، احتمل الوقف أن يكون لتعريفهما، أو لتعريف الوقف التام، أو للاستراحة. والوصل أن يكون غير فاصلة، أو فاصلة وصلتها لتقدم تعريفها»(٥).

ولابد من وقفة هنا قبل الاسترسال فى عرض ما ذكره الزركشى لبيان ما يعنيه الجعبرى بقوله: «ووهم فيه من سماه وقف السنة» فإن الجعبرى لا يقصد نفى السنة من أساسها فى الوقف، وإنما يقصد نفى أن يكون تحقيق السنة فى الوقف على رؤوس الآى هو الهدف الوحيد، وإلا كان هناك تعارض، فيما ذكره، فكل ما أثر عن النبى ﷺ داخل فى إطار السنة بمفهومها المطلق سواء كان تشريعا واجب التنفيذ، أم مستحب التنفيذ. ومجمل ما نطمئن إلى فهمه من عبارة الزركشى التى نقلها عن الجعبرى أن الوقف

(٥) صـ١ ص٩٨ من كتاب «البرهان».

على رؤوس الآى توقيفى عن رسول الله ـ ﷺ ـ وليس مجرد سنة مستحبة التنفيذ، لك أن تخرج عليها أو تغير فى أماكنها.

يقول الزركشى: «الثانى القياس، وهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب. ولا محذور فى ذلك، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل، والوقف على كل كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياس إلى طريق تعرفه، فأقول: فاصلة الآية كقرينة السجعة فى النثر، وقافية البيت فى النظم، وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحذو والإشباع والتوجيه[٦] فليس بعيب فى الفاصلة، وجاز الإنتقال فى الفاصلة والقرينة وقافية الأرجوزة من نوع إلى آخر، بخلاف قافية القصيد. ومن ثم ترى (يرجعون) مع (عليم)(آل عمران ٧٢، ٧٣)، و(الميعاد) مع (الثواب)، و(الطارق) مع (الثاقب) (آل عمران ١٩٤، ١٩٥ ـ الطارق ١، ٣)[٧].

هذا ما قاله الإمام الزركشى فى ضوابط الفصل فى القرآن، وهو ما عنيناه بجانب السنة فى التلاوة، ثم ما حمل عليه أو ألحق به دون أن ينص عليه.

أما جانب موسيقى التلاوة، التى روعيت فى فواصل الآى، فللإمام الزركشى كلام طويل أيضا، لا يتسع المقام لذكره، غير أننا سنكتفى بذكر بعض المقتطفات التى تدل على صدق العالم مع نفسه، أثناء النظر فى كتاب الله ـ تعالى ـ يقول الإمام ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جدا، ومؤثر فى اعتدال نسق الكلام وحسن موقعة من النفس تأثيرا عظيما، ولذلك خرج عن نظم الكلام لأجلها فى مواضع:

«أحدها زيادة حرف لأجلها، ولهذا أطلقت الألف بـ« الظنون » فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[٨] لأن تقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الألف، فزيد على النون ألف لتساوى المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل. ومثله:

﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾[٩].

﴿ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾[١٠].

«الثانى حذف همزة أو حرف اطرادا، كقوله تعالى:

---

(٦) الحذو والإشباع والتوجيه من عيوب القافية، التى تندرج تحت ما اصطلحوا على تسميته بالسناد، وهو اختلاف ما قبل الروى «هو الذى تبنى عليه قافية القصيدة من الحروف» وسناد الإشباع: هو اختلاف مركز الدخيل، مثل كسرة الهاء وفتحة العين فى قولك: «مجاهد وتباعد». وسناد الحذو: اختلاف مركز الحرف الذى قبل الروى المطلق، مثل فتحة النون وكسرة الكاف فى قولك: «سند، وكيد» وسناد التوجيه: اختلاف حركة الحرف الذى قبل الروى المقيد، كفتحة اللام وضمها فى قولك: «حلم وحلم» (البرهان: ص٩٩ صـ١ ذيل الصفحة. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم).

(٧) البرهان للزركشى ص٩٨، ٩٩.

(٨) الأحزاب (١٠).

(٩) الأحزاب (٦٧).

(١٠) الأحزاب (٦٦).

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾[11].

« الثالث الجمع بين المجرورات، وبذلك يجاب عن سؤال فى قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾[12].

الإسراء ٦٩

فإنه قد توالت المجرورات بالأحرف الثلاثة، وهى اللام فى (لكم) والباء فى (به) و« على » فى (علينا) وكان الأحسن الفصل » .

« وجوابه » أن تأخر « تبيعا » وترك الفصل أرجح من أن يفصل به بين بعض الروابط، وكذلك الآيات التى تتصل بقوله:

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴾[13]، فإن فواصلها كلها منصوبة منونة، فلم يكن بد من تأخير قوله: (تبيعا) لتكون نهاية هذه الآية مناسبة لنهايات ما قبلها حتى تتناسق على صورة واحدة » .

« الرابع تأخير ما أصله أن يتقدم، كقوله - تعالى -:

﴿ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾[14] لأن أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول، لكن أخر الفاعل، وهو « موسى » لأجل رعاية الفاصلة » .

« قلت: للتأخير حكمة أخرى، وهى أن النفس تتشوق لفاعل « أوجس » فإذا جاء بعد أن أخر وقع بموقع »[15].

رؤوس الآيات وروعة الأداء القرآنى

وللأستاذ/ مصطفى صادق الرافعى كلام جيد فى قضية فواصل الآيات يحسن بنا أن نورد بعضه هنا ليكون مدخلا مناسبا للحديث عن سياق الجو الشعورى العام، الذى يستلزم نوعا معينا من الجمل الموسيقية، التى تتضافر جمعيها لتعطى لخواتيم الآيات ومفتتحها مذاقا إيمائيا خاصا يدعو إلى أن تنتهى الآية على هذا النحو أو ذاك.

يقول - رحمه الله - فى كتابه « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية »: « وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم، وهما

---

(١١) لنا فى هذه الألفات رؤية أخرى تضاف إلى ما قاله الإمام الزركشى - رضى الله عنه - فألف «الظنونا» تصور أمام القارئ أبعاد هذه الظنون التى تترامى أبعادها، عمقا وشمولا، حيث لم تترك أحدا من المسلمين، فكلهم قد أحاطت بهم الظنون، وذهبت بهم كل مذهب من خوف على الإسلام وعلى رسول الله - ﷺ - فى هذا الموقف العصيب، الذى أطبق فيه الأعداء على المدينة من كل جانب، حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر أما زيادة الألف فى «وأطعنا الرسولا» فإنها توحى بطول الهم والحزن على ما أضاعوا من فرصة سنحت لهم فى الدنيا، وهى طاعة الله وطاعة الرسول، فهم فى حالة ندم طويل لا ينقضى. أما زيادة الألف فى «وأضلونا السبيلا» فهى تدل على إنه ضلال بعيد، ذلك الذى أطاعوا فيه سادتهم وكبراءهم. ولا منافأة هنا بين ما ذكره الزركشى من تساوى المقاطع المستفاد من هذه الألفات، وبين ما ذكرناه، مما يدل على انه تطريب هادف. (كاتب المقال).

(١٢) الفجر (٤).

(١٣) الإسراء(٦٩).

(١٤) طه (٦٧).

(١٥) البرهان صـ١ ص٦٠ - ٦٢.

الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعى فى القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا فى الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة أو الصفير أو نحوها مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى.

«وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة، وأثرها طبيعى فى كل نفس، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة، ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ، الذى يطمع فيه أو فى أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى.

ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللا بيّنا، أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفى انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت لذلك هجنة فى السمع، كالذى تنكره من كل مرئى لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا، وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكرة»[١٦] ولنضرب مثالين على ما جاء بكلام الرافعى خذ المثال الأول: سورة طه. هذه السورة، لها مذاق خاص، تستيقظ فيه النفس على أضواء الملأ الأعلى، وقد أشرقت على الأرض من طور سيناء، حيث الشجرة المباركة التى تجلى عليها الرب ـ تبارك وتعالى ـ فى لحظة فريدة من الزمان.

والملاحظ أن خواتيم الآيات تتناسب مع إيماءات هذا الجو المبارك

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[١٧].

إلى آخر السورة المباركة:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾[١٨].

يقول الشهيد سيد قطب «فى ظلال القرآن» ص٢٣٢٧: «وللسورة ظل خاص يغمر جوها

---

(١٦) إعجاز القرآن ص٢١٦، ٢١٧.

(١٧) طه (١: ٨).

(١٨) طه (١٣٣: ١٣٥).

كله.. ظل علوى جليل، تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه.. إنه الظل الذى يخلق تجلى الرحمن على الوادى المقدس، على عبده موسى، فى تلك المناجاة الطويلة، والليل ساكن، وموسى وحيد، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل.. وهو الظل الذى يخلق تجلى القيوم فى موقف الحشر العظيم:

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[١٩].

«والإيقاع الموسيقى للسورة كلها (وملاكه خواتيم الآيات) يستطرد فى مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا نديا بذلك المد الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلها».

حتى تلك الآيات القليلة التى خرجت خواتيمها على هذا الإطار الذاهب فى السماء كان لها مد آخر، حيث إنها تسبح فى الإطار الموسيقى العام للسورة، فلقد ذهبت بعيدا بعيدا فى أطواء النفس البشرية التى أشرقت عليها أنوار الرب - تبارك وتعالى - فصارت أرحب من الكون المترامى، وأبعد غورا من أقاصيه. اقرأ هذه الآيات وركز على خواتيمها:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[٢٠].

مثال آخر: سورة الأحزاب. الملاحظ فيها أن خواتيم آياتها عدا القليل النادر تقوم على قافية واحدة، وهى ياء المد، التى بعدها ألف الإطلاق، ويفصل بينهما حرف واحد.

وإن من يتأمل محتوى السورة الكريمة بشكل عام متكامل، يرى أن ذلك يتمشى تماما مع أهدافها العليا، وما بها من مواضيع كبرى، تنتظم فى عقود السورة المباركة، فالسورة تشمل:

أولاً: التوجيهات والآداب الإسلامية.

ثانيا: الأحكام والتشريعات الإلهية.

ثالثا: الحديث عن غزوتى: الأحزاب وبنى قريظة[٢١].

والواقع أن السورة بتطرقها لهذه المواضيع، إنما تضع أسس مجتمع قوى صالح لأن يكون نواة لدولة مسلمة قوية ناهضة، تتحرر من أغلال العادات والتقاليد الجاهلية، التى جاء الإسلام لإبطالها، كما تضع بعد ذلك نظاما جديدا تنطلق فيه ملكات الفرد والجماعة، دون ضغط من جماعات الشرك والبغى، سواء من خارج مجتمع المدينة أو من داخله.

وإن من يتبع النظرة بعد النظرة، فى أهداف السورة المباركة يرى ألف الإطلاق أمامه، تمتد إلى عنان السماء، بآفاقها الرحبة، وهى تعلن:

أولاً: أن التشريعات الإسلامية، ما جاءت لتحد من ملكات الإنسان فى هذه الأرض، وإنما جاءت لترفعه من مادته الطينية الخالصة، إلى أن يصبح خليفة لله فى أرضه، يرتفع بهمته وعقيدته إلى عنان السماء.

---

(١٩) طه (١٠٨).

(٢٠) طه (٢٥: ٣٢).

(٢١) راجع صفوة التفاسير، مقدمة سورة الأحزاب.

وتعلن ثانيا: أن تألب قوى الشرك والبغى، ما كان لينال من الإسلام وأهله، فالإسلام جاء ليبقى، وتسمق شجرته، حتى تصل ما بين الأرض والسماء، ومن هنا، فالمسلم حينما يقرأ هذه السورة المباركة، ويرى أمامه هذه الحدود العالية، التى تنهى كل آية من آياتها، تتسلل إلى اعماقه روح الثقة فى ظهور الإسلام، كما تتولد لديه أيضا روح السخرية بكيد الكائدين، وتدبير المنافقين والمرجفين. اقرأ معى هذه الآيات الكريمات، وتدبر حكمة الله ـ تعالى ـ فى هذه المدود، التى تشكل قافية السورة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢٢).

وقال:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٢٣).

وقال أيضا:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾(٢٤)

إلى آخر السورة على هذا النحو من خواتيم الآيات المحدودة، لتتمدد معها طموحات وآمال المؤمنين إلى عنان السماء.!!

هكذا يجب أن يكون النظر فى كتاب الله ـ عز وجل ـ لمن أراد أن يستنبط وجوه الإعجاز وروعة الأداء فى رؤوس الآى، لا أن يقرأه فقط لاستنباط أوجه التشكيك فى جهود العلماء، وإهالة التراب على كل ما بذلوه فى خدمة كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وإلى اللقاء فى قضية أخرى من قضايا هذا الكتاب الأقدس.

***

---

(٢٢) الأحزاب (١: ٣).

(٢٣) الأحزاب (١٨: ٢٠).

(٢٤) الأحزاب (٦٠: ٦٥).

الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان

١

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

اشتملت الشريعة الإسلامية على كل ما فيه سعادة البشرية فى الدنيا وفى الآخرة واستوفت بتعاليمها السمحة، وقوانينها الثابتة المحكمة، كل ما يكفل للفرد والجماعة حياة طيبة فى الدنيا، ومثوبة عظيمة فى الآخرة، قال الله ـ تعالى ـ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

وكان للشريعة الإسلامية فضلها الذى لا ينكر حتى من أعداء الإسلام فى ترسيخ دعائم الحق ونشر قوانين العدالة التى أنقذت الإنسانية المعذبة من مخالب الجهالة والضلالة وأخذت بيد الضعيف ورفعت من قيمة البسطاء العاديين والفقراء والكادحين وكل فئات النوع الإنسانى التى كادت تجرفها تيارات الضياع والهلاك وهى معزولة.. وضعيفة لا تملك من أمرها شيئاً، وكان للشريعة فضلها الذى لا ينكر فى نظرتها الحانية إلى الفقراء والمساكين، وأبناء السبيل واليتامى والأرقاء والخدم وأصحاب المهن البسيطة والحرف العادية وغير ذلك، فجعلت الشريعة لهم فى صفوف الحياة الكريمة مكاناً واضحاً ووضعاً لا يغبنون فيه كل ذلك قبل أن تعرف المواثيق الدولية حقوق الإنسان بأربعة عشر قرناً، وكان للشريعة فضلها فى إعطاء المرأة حقها بعد أنْ كانت لا حق لها، بل كانت محرومة من كل الحقوق حتى من حق الحياة نفسها إذ كانت تؤءد وهى طفلة صغيرة إلى غير ذلك من الحقوق التى لا تحصى، فى شتى المجالات، ولسائر فئات الناس من رجل أو امرأة، ومن حُرٍّ أو عبد، ومن غنى أو فقير، ومن أفراد أو جماعات، ومن أمم أو شعوب. لقد كفلت الشريعة الإسلامية لبنى الإنسان الكرامة والعزة

(١) النحل (٩٧).

يتمتع بها المؤمنون السائرون على هديها ومبادئها قال الله - سبحانه - :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . . (٢)

أساس حقوق الإنسان

وأقامت شريعة الحق بناء دعوتها، وجميع ما فيها من حقوق للإنسان على أساس الإيمان بالله - تعالى - وحده لا شريك له، وهنا نقف على عظمة الشريعة الإسلامية وحكمتها وعلى قوة تنفيذ هذه الحقوق من الحاكم ومن المحكوم، ومن الرئيس والمرءوس ومن الغنى والفقير وهكذا. . فإذا كان الإيمان هو القاعدة التى تنطلق منها دعوات المصلحين والنداء بحقوق الإنسان تشريعاً وتطبيقاً فإن للإيمان أثره فى الالتزام بتحقيق العدل والخير، وبسرعة الطاعة فى كل أمر وتنفيذ كل حق من الحقوق ويظهر جانب الالتزام بتنفيذ كل الحقوق على هدى من الكتاب والسنة وطاعة لله ولرسوله . .

قال الله - تعالى - :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ﴾ (٣).

وبين الله - تعالى - أن فى تنفيذ ما أمر به وفى طاعة رسوله ﷺ الرحمة للإنسان قال - سبحانه - :

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤).

وقال - تعالى - :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ (٥).

وهنا نرى الفارق الكبير بين دعوة الشريعة إلى حقوق الإنسان، وبين الدعوات الأخرى التى تنادى بها المواثيق الدولية، فإن الدعوة إلى حقوق الإنسان فى رحاب الشريعة نابعة من الإيمان، صادرة عن العقيدة الإسلامية التى يلتزم أمامها الإنسان المسلم، ويرى ضرورة العمل والتطبيق وتنفيذ الحقوق بأسرع ما يكون، ففى تنفيذها الأمن وفى تطبيقها الرحمة وفى البعد عنها والنكوص عما تنادى به بُعْدُ عن حقيقة الإيمان ووقوع فى الخسران، فثمرة حقوق الإنسان، فى رحاب الإيمان، أنها مأمونة الجوانب لا خوف عليها من أحد، لأن المسلمين يصدرون عن عقيدة وراءها حساب وثواب أو عقاب بخلاف غيرهم وأما الجانب الثانى : الذى يلزم فيه بتطبيق وتحقيق حقوق الإنسان، انطلاقاً من الإيمان فهو جانب المراقبة وهذا ليس موجوداً عند غير المسلمين، ويظهر أثر ذلك فى سرعة إعطاء كل ذى حق حقه، وعدم الجور على حقوق الآخرين فإذا حدَّثت

(٢) سورة المنافقون الآية (٨).

(٣) سورة النساء الآية (٥٩).

(٤) سورة النور الآية (٥٦).

(٥) سورة الحشر الآية (٧).

إنساناً نفسُه أن يسطو على مال الغير أو حياته أو عِرْضه أو حريته وأن يسلبه حقاً ما من الحقوق فإن عنصر المراقبة يوقظ فى أعماقه الضمير الدينى، الذى يجعله يدرك خطورة ما يقع فيه ومدى عاقبة الجرم الذى يرتكبه فإنه يؤمن بأن الله مطلع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويعلم ما تبدون وما تكتمون.

وكما رأينا بأن الإيمان هو الأساس الأصيل ومنه يكون الالتزام بأداء الحقوق ومراقبة الله السميع البصير فيها، فإن فى الشريعة الإسلامية تطبيقات لحقوق الإنسان واجبة الأداء كالزكاة وصلة الرحم وإكرام الجار وحسن معاملته وإعطاء كل ذى حق حقه. فى البيع والشراء، فى العمل، وفى الشركة، وفى الإجارة، وغير ذلك من المعاملات التى استوفاها الفقه الإسلامى بأبوابه وفصوله.

ثم كان فى الجانب الأخلاقى استثمار لهذه الحقوق وسموٌ بها إلى المثالية العالية حيث لا يكتفى الإنسان بالقيام بالواجب فحسب؛ بل إن هناك جوانب نادى بها الإسلام ارتفاعاً بحقوق الإنسان وشمولاً لكل مناحى الحياة وجوانبها المختلفة وعلاقتها المتعددة.

وتحقيقاً للأمان لهذه الحقوق نجد فى الحدود الإسلامية ما يحفظ للإنسان حقه فى الحياة وفى المال وفى العرض وفى الحرية والمساواة والعمل والشورى والكرامة وما إلى ذلك من الحقوق التى كفلها الإسلام وحافظ عليها ودعا لها.

ففى الاعتداء على حق «الحياة» تكون العقوبة من جنس الجريمة قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(٦).

وبالنسبة لحق الإنسان فى الأمن نجد الشريعة قد جعلت للاعتداء على هذا الحق حداً هو حد الحرابة، قال ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(٧).

وبالنسبة لحق المال نجد الشريعة قد جعلت عقوبة الاعتداء على هذا الحق ما وضحه القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ :

---

(٦) سورة البقرة الآيتان (١٧٨، ١٧٩).

(٧) سورة المائدة الآيتان (٣٣، ٣٤).

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[8].

وعن حق النسل أو العرض، نرى عقوبة ذلك فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[9].

وبالنسبة للمحصن الرجم وهكذا.. إلى آخر الحدود والعقوبات التى جاءت فى الشريعة الإسلامية ولا نجد لها مثيلا فى أى قانون من القوانين الوضعية..

إنها حدود وعقوبات عادلة تقوم بحفظ حقوق الإنسان ورعايتها وصيانتها من التعرض لها. إنها تصون حقوق الإنسان فى حياته ونفسه وفى ماله ونسبه وعرضه وهكذا نرى فى شريعة الله المحافظة على حقوق الإنسان واستتباب الأمن والطمأنينة فى الحياة على شتى مجالاتها ومما سبق يتضح أن الشريعة الإسلامية، قد استوفت كل الحقوق بعقيدتها الصحيحة التى هى أساس العبادة والعمل والأحكام والأخلاق وبتشريعاتها ومبادئها المستقيمة، التى تصون حقوق الإنسان وتحافظ عليها وتدعو لها على هدى وبصيرة. إنها الشريعة التامة الكاملة التى أكملها الله وأتم بها النعمة قال ـ سبحانه ـ

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[10].

وقال الرسول ﷺ « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتى.. »[11].

وبهذا التشريع الربانى المحكم، والوحى الإلهى صان الإسلام حقوق الإنسان، ونادى بتطبيقها وشرع الحدود عقوبة للمعتدين عليها والمقتحمين حماها بغير حق وبهذا أعطى الإنسان حقه فى الحياة الكريمة بعد حقبة من الزمن عاشها الإنسان يرسف فى أغلال الظلم والاستعباد حتى جاء الإسلام ففك هذه الأغلال وحرره وكرمه وجعل حياة المجتمع الإسلامى تشرق بالتوحيد الخالص الذى لا شرك فيه وبالعدالة الكاملة التى لا ظلم معها وأحلّ الإسلام الكرامة محل الاستذلال، والمساواة محل التفرقة، والعلم محل الجهل، والحرية بدل الاستعباد، والتعارف والتآلف بدل التناكر والاختلاف، والعمل بدل البطالة، والشورى بدل الاستبداد بالرأى، والإيثار بدل الأنانية، والحق بدل الباطل، وأكد الإسلام على حرمات المسلمين.. فلقد جاء فى خطبة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى حجة الوداع، قوله: « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[12] ويدعم القرآن أصول الحق وركائز الإيمان، منادياً بالأصول الأساسية لحقوق الإنسان فى قوله ـ تعالى ـ :

(٨) سورة المائدة الآية (٣٨).
(٩) سورة النور الآية (٢).
(١٠) سورة المائدة (٣)
(١١) رواه الحاكم.
(١٢) كنز العمال جـ٥، برقم ١٢٣٠٤ وعزاه إلى مسلم وأبى داود وابن ماجة عن جابر.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾(١٣).

حرمة النفس وحقها فى الحياة

حق الحياة بالنسبة للإنسان أغلى ما يكون إذْ أنَّ الحياة منحة إلهية أعطيت للإنسان، ليقوم برسالته على ظهر الأرض وليؤدى دوره فى الحياة إيماناً وعملاً، وعبادة لله الخالق الرزاق، المحيى المميت، الذى بيده مقاليد السموات والأرض وهو على كل شىء قدير.

وقد حدد الإسلام مهمة الإنسان فى الحياة ورسالته فيها، باستخلافه فى الأرض وقيامه بتوحيد خالقه ورازقه، وعبادته وحده لا شريك له شكراً لله على آلائه ونعمائه وهو سبحانه الغنى الحميد..

قال - تعالى - :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(١٤).

إذاً فلم يخلق الله عباده عبثاً - حاشا لله - وليست حياة الناس من السهولة بمكان بحيث يتخلصون منها أو يعتدون على نفوس غيرهم، فإن الحياة والموت بيد الله المحيى المميت.

فى خطبة الوداع

وأكد الإسلام حرمة النفس وحقها فى الحياة ووضح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هذه الحقيقة فى خطبة الوداع إذ يقول: (.. إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه).

من أجل هذا نجد أن الإسلام قد حرم كل ألوان الاعتداء على حق الحياة بأية صورة وعلى أى وضع كان هذا الاعتداء والظلم. فحرم قتل الأولاد الصغار وحرم وأد البنات كما كان فى الجاهلية وأنكر عليهم تلك الوحشية الظالمة

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(١٥).

وقال - سبحانه - :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾(١٦).

وقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾(١٧).

كما حرم اعتداء الإنسان على نفسه كظاهرة

---

(١٣) سورة النساء (٥٨).

(١٤) سورة الذاريات (٥٦، ٥٨).

(١٥) سورة النحل الآيتان (٥٨، ٥٩).

(١٦) سورة التكوير الآية (٨).

(١٧) سورة الإسراء (٣١).

الانتحار. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(١٨).

ولمرتكب هذا الجرم عقابه فى الآخرة، من نوع ذنبه وجريمته فى الدنيا فإن قتل نفسه بسم أو حديدة أو تردى من جبل فهو على ذلك فى النار. قال رسول الله ﷺ: «من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسّى سُماً فَقَتل نفسه فسمُّه فى يده يتحسّاه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا»(١٩).

تحريم قتل الغير

كما حرم الإسلام قتل الغير بغير حق وتوعّد عليه فالقتل من أكبر الكبائر وأخطر الجرائم وأشدها على الأفراد والجماعات. إنها جريمة إذا ظهرت فى مجتمع أو تفشت فى بيئة نشرت الرعب والفزع وقضت على الأمن والاستقرار وأشاعت الإحن والبغضاء وقضت على الروابط الإنسانية ورملت الزوجات ويتمت الأطفال. لهذا أنزل الله تعالى فى شأن القاتل وعيداً شديداً قال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾(٢٠).

وقال سبحانه:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾(٢١).

وهذا الحق فسّرته السنة الشريفة، قال صلوات الله وسلامه عليه، «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٢٢).

القصاص فى الشريعة

ولما كان القتل عدواناً على نفس بغير حق وعلى النوع الإنسانى وإفساد للمجتمع وقضاء على عضو من أعضائه وإهدار لحق الحياة وهو أغلى شىء عليه. شرع القصاص زجراً للناس وجزاء على الاعتداء على النفس فهو من أعظم الجنايات بعد الشرك بالله، لهذا كان القصاص. ليكف الجانى، وتسلم الحياة من العدوان وصدق الله إذ يقول:

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وحين تحدث القرآن على أول جريمة قتل على ظهر الأرض فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢٣).

---

(١٨) سورة النساء (٢٩).

(١٩) رواه البخارى ومسلم.

(٢٠) سورة النساء الآية (٩٣).

(٢١) سورة الإسراء الآية (٣٣).

(٢٢) رواه البخارى ومسلم.

(٢٣) سورة المائدة الآية (٢٧).

حين تحدث القرآن بهذا النبأ كشف عن طبيعة العدوان الكامنة فى النفوس الشريرة، والعدوان الصارخ منها، وكشف عن الجريمة المنكرة التى تثير الضمير الإنسانى والشعور الجارف الحار والحاجة الملحة إلى قصاص عادل يصون حق النفس فمن أجل هذه النماذج الشريرة والعدوان على الأبرياء كان قتل النفس الواحدة، حين لا يكون قصاص ولا دفاع عنها، يمثل قتل جميع الناس، لأنها واحدة من نفوس البشر جميعاً، تشترك هى وغيرها فى حق الحياة وكان إبقاؤها حية للدفاع عن حقها فى الحياة أو بالقصاص إذا اعتدى عليها يمثل إحياء النفوس جميعاً ففى صيانة حياتها صيانة لحق الحياة الذى يشترك فيه الناس جميعاً، فقال ـ تعالى ـ تعقيبا على نبأ ابنى آدم

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾(٢٤).

القصـــاص حيـــاة

وقد بين الله ـ تعالى ـ أن فى القصاص حياة وهذا وجه الحكمة فيه قال ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ وذلك من وجهين:

الأول : أن فيه الحياة بطريقة الزجر، فإن الإنسان الذى يقصد قتل إنسان آخر إذا فكر فى عاقبة أمره وما يلحقه من جريمته، وأنه إذا قتله قتل به انزجر عن قتله فكان حياة لهما لذا فإن الإنسان الذى تحدثه نفسه بهذه الجريمة. حين يعلم أن حياته ثمن لجريمته، أو أنه إذا قطع أو أتلف عضواً ألحق به مثل ذلك، فلا شك أنه يفكر مرات ومرات قبل الإقدام على مثل هذه الجريمة، مما يجعله يكفّ عما يريده، فتكون فيه حياة لمن يريد الاعتداء عليه وحياة له وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه السجن مثلاً: إذ أن إلحاق عقوبة فى البدن مثلا قطعا أو تشويهاً فى الخلقة شىء غير آلام السجن.

الثانى : أن فى القصاص دفعاً لسبب الهلاك، فإن القاتل بغير حق يصير حرباً لا هوادة فيها على أولياء القتيل لإحساسه بأنهم يلاحقونه لما ارتكبه فهو يخشى على نفسه منهم، فيقصد حربهم ويتمنى إفناءهم ليزيل شبح الخوف الذى يلاحقه ويتابعه، والشرع قد مكنهم من قتله قصاصاً لدفع شره عن أنفسهم، وفى القصاص إطفاء لثورات القلوب المشتعلة بالسخط والكراهية وقضاء على حزازات النفوس التى يقودها الغضب والحمية إلى ظاهرة الثأر ذات العواقب الوخيمة، ظاهرة الثأر التى تحرك أهل القتيل لتلمس كل ذريعة لإرواء أحقادهم وتحين الفرص لإهدار الدماء التى لا تقتصر على القاتل وحده أحياناً بل تسيل الدماء على مذابح الأضغان العائلية وبين الحين والحين يهدر دم من هنا ودم من هناك، لهذا كله شرع القصاص، فكان فيه حياة بكل ما تتسع له معنى الحياة، حياة لمن تحدثه نفسه بالقتل فيكف عنه حين يعلم مصيره وفيه حياة لمن كان سيقع عليه القتل وفيه حياة للعائلات وللأفراد والجماعات بسدّ باب الثأر والعداوات.. ففى القصاص شفاء لنفوس أهل القتيل من الحقد والرغبة فى الثأر.

(يتبـــع)

(٢٤) سورة المائدة الآية (٣٢).

الدعوة كما ينبغى أن نبلغها

٥

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

كنا قد انتهينا فى آخر لقاء (فى شهر صفر ١٤٢٢هـ) إلى وعد أن أذكر لك آية من كتاب الله اختلف حولها الفقهاء أو إن شئت فقل: إلى حكم من الأحكام تباينت فيه آراء الفقهاء أشد التباين إلى درجة الاختلاف.

وقد تضيق بالاختلاف وتتهم الفقهاء بأنهم يُعَقِدون الأمور، وحولوا العبادات والمعاملات الإسلامية إلى معارك كلامية، زاعماً أنها لا تفيد، فإنك تريد أن تعبُد الله فى هدوء بعيداً عن هذه الصراعات وكأنى بك تقول: أحرى بنا أن نعيش عصر الكمبيوتر والانترنت. فلا وقت لهذه المعارك الكلامية. وأراك تتحدث عن الكمبيوتر والؤنترنت كأنك أجدتهما أو كأنهما منهج حياتك، ولا أقول كأنك اخترعتهما.

فإننى أراك تلهث خلف استهلاك فج واستخدام مترهل لاختراعات الشعوب الجادة، وحتى لا تضيق أو لا تنفر من خلافات الفقهاء، أحب أن أسمع إجابتك عن سؤال أطرحه عليك فى قضية مصيرية للأمة العربية جميعاً وليس لك وحدك، أو لوطنك وحده: هل تعرف أن خلافك الأزلى مع إسرائيل حول أشهر قرارات الأمم المتحدة (قرار رقم ٢٤٢) هو خلاف حول حرف «الـ»؟!..

وأحسست من صاحبى أنه لا يعرف القرار أصلاً، وأنه بعيد عن ما يدور فى الأرض المحتلة، وتحاملت على نفسى وكتمت غيظاً يوشك أن ينفجر.. محاولاً شرح المسألة. إن خلافنا مع إسرائيل حول تفسير القرار سالف الذكر يتلخص فى حرف «الـ» كما قلت لك حيث إن القرار ينص على ضرورة جلاء القوات الإسرائيلية عن الأرض العربية التى احتلت عام ١٩٦٧، وزعمت إسرائيل أن القرار ينص على جلاء القوات الإسرائيلية عن أراضٍ عربية احتلت بعد عام ١٩٦٧.

ولعلك أدركت الآن الفرق بين العبارتين يعنى مرتفعات الجولان والضفة الغربية، حتى سيناء لم تتنازل عنها إسرائيل إلا فى اتفاقية مع مصر، وكل هذا بسبب الفرق بين كلمة الجلاء عن (أراضٍ عربية) أو (الأراضى العربية).

وأرجـو أن تـكـون قــد أدركـت الفــرق بين الأراضى التى احتلت و (أراضٍ) فإن معنى الأولى كل الأراضى التى احـتلـتـهـا إسـرائيل بعـد سنة ١٩٦٧ ، أما أراضٍ بغير « الـ » فهى يمكن أن تكون أى جزء من أرضٍ احتلتها إسرائيل بعد ١٩٦٧ . .

ربما أكون قد أطلت عليك، لكن الذى يعنينى أنى قـد وصلت إلى أن أثيـر اهتـمـامك بما نحن بصدده، وخطورة الحرف خصوصاً عند الفقهاء، ناهيك عن الكلمات .

ولعلك تهيأت نفسياً لقبول موضوعنا اليوم، لقد اختلف الفقهاء فى حكم مسح الرأس فى الوضوء . . ما هو المقدار الواجب مسحه من الرأس على النحو التالى :

قال الإمام مالك : الواجب مسح جميع الرأس .

وقال أبو حنيفة : الواجب مسح ربع الرأس .

أما الإمام الشافعى فقد قال : إن الواجب يسقط بمسح شعرة واحدة .

وأرجـو ألا تتـسـرع وتقـول : لماذا لم يتـفق الفقـهـاء . . ما لنا ولهذا التباين؟ . وهذا الخلاف الذى لا نعرف أسبابه ولا طائل تحته؟ . فهل عند الفقهاء ما يستوجب هذا الخلاف؟ .

أما قولك : أنك لا تعرف أسبابه، فأنا أوافقك على هذا وأرتضيـه منك ولأنك صادق فيـه ولا أكذبك . شريطة أن تطلب المعرفة وتبحث عنها جاداً مثابراً، أو على أقل تقدير أن تعترف لأهل الاخـتـصـاص والفـقـه بحـقـهـم فى النزاع، أو الاختلاف .

أمـا أنه لا طائل تحتـه، فـأنا أرفض منك هذا ولا أرتضيـه . . لأن هـذه اللا مبـالاة قـد ساهـمت فى أن نزدرد ذلك الطعم الذى قدمه لنا أحد ساسة بريطانيا أو إن شئت فقل أحد ثعابين بريطانيا من النوع السام . فوافقنا على القرار ٢٤٢ بصيغته الماكرة .

ولعلك ترمى الفـقـهـاء بأنهم ربما استندوا فى آرائهم إلى أحاديث ضعيفة، وأراك تسارع، تحاول ضجراً أن تتذكر آية الوضوء، فتقول : إن هناك آية تناولت أحكام الوضوء قلها لى، فإننى أظن فيها فـصـل الخطاب، ولعلهـا تريحنا من عناء فقهائك! . . قلت :

أسـأل الله لى ولك الهـداية وكـأنى بك تعنى قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾(١) .

وكأنى بك تبادر فتقول : الحمد لله . . انتهى الخلاف، وكـمـا تقـولون فـى الأمـثـال العربيـة : (قطعت جهيزة قول كل خطيب) . . الآن وضح الأمر، وليضع الفقهاء السلاح، ولا داعى للمعارك اللفظية! . . أقول لك : لقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء .

تعال معى نتأمل الآية التى أجهدت نفسك فى البحث عنها وهى آية الوضوء .

وأرجو أن نتحلى أنا وأنت بالجد والصبر والأدب، إذا أردنا لأنفسنا أن ندخل ساحة العلماء! . .

---

(١) المائدة (٦).

وحتى نصل معاً إلى الصواب. أرجو أن نضع نُصْبَ أعيننا الملاحظات الآتية علها تهديك وتدفعك إلى تقبل خلاف الفقهاء، ونحمد لهم جهدهم.

وأولى هذه الملاحظات:

أن الآية تناولت فرائض الوضوء الفعلية وهى: غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين، وأظنك تعلم أن فرائض الوضوء سبعة هى: عدا هذه الأربعة (النية ـ والترتيب بين الأعضاء ـ والموالاة).

أما الثانية:

تأمل لفظ الآية مع كل فرض ورد فيها..

١- قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ .. ﴾.

٢- قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ .. ﴾.

٣- قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ .. ﴾.

٤- قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾.

ثالثاً: لنتأمل كل فرضٍ ونبين حَدَّه ومدى غسله:

١) ﴿ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ .. ﴾ ترك تحديد الوجه. بعكس الأيدى والأرجل، فقد نص فى الأيدى فقال: ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾.. وقال فى الأرجل: ﴿ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾.

رابعاً: تأمل أن الأيدى محددة بغاية ـ أى نهاية ـ وهى المرافق، مع أنها فى نفس آية الوضوء وهى الآية رقم (٦) من سورة المائدة وردت فى التيمم قال ـ تعالى ـ:

﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾..

وأيضاً كما فى حد السرقة قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾(٢).. وردت الأيدى غير محددة.

فإلى أين يكون المسح فى التيمم، وإلى أين يكون القطع فى حد السرقة؟.. ولماذا؟..

وسوف أعفيك من الإجابة الآن، عن غاية المسح فى التيمم وغاية القطع فى حد السرقة حتى نكمل ما نحن بصدده، خوفاً عليك من الملالة.

خامساً: تأمل أن مسح الرأس جاء فى آية الوضوء مخالفاً للفرائض الأخرى، حيث إنه دخل عليه حرف الباء، فقد جاءت الآية:

﴿ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾.. ولم تجىء الباء فى الوجه أو اليدين أو الرجلين.. ولعله يلفت نظرك ونظرى ولابد إن أسألك: لماذا جاءت الباء هنا؟. وماذا أفادت؟.. فإن مجيئها، ودخولها على مسح الرأس لابد أن يكون له معنى، فما هو هذا المعنى؟.

ولا أحبك أن تقول أن الباء زائدة ـ تنزه كلام الله ـ تعالى ـ عن الزيادة، وتنزه سبحانه عن العبث ـ ولا أحب أن استدرجك إلى اصطلاحات النحويين فى حرف الجر الزائد وغير الزائد، فأنا أعلم سلفاً أنك لا تحب ذلك ولا تطيقه. واكتفى بأن أتلو على مسامعك قول الله ـ تعالى ـ:

---

(٢) المائدة (٣٨).

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(٣).

وليس الإحكام من عند الحكيم الخبير تاركاً مجالاً للزيادة بله العبث.

وتعال معى نبحث عن معنى هذه الباء التى دخلت على مسح الرأس دون باقى الأعضاء، ولابد لى أن أصحبك إلى كتب اللغة نستطلع منها معنى حرف الباء، فنأتى البيوت من أبوابها، ولا نُخْبِط خبط عشواء كما يقولون.. والأمر يسير ولا عناء فيه، فثمة كتاب رشيق سوف تجد فيه مبتغاك يُغنيك عن كتب كثيرة لعالم مصرى دؤب اسمه ابن هشام. وهو بعنوان «مغنى اللبيب».. واللبيب هو أنت بإذن الله فأحسبك نابهاً لبيباً مادمت تبحث معى وتصحبنى فى رحلة البحث.

هذا الكتاب موضوعه باختصار شديد معانى الحروف المفردة: الهمزة، والباء، والتاء.. وهكذا، ثم الهمزة مع الباء ومع التاء.. وهكذا مع باقى الحروف الأبجدية. شواهده وأمثلته من الشعر العربى القديم والكتاب العزيز وسوف نجد فيه بغيتنا. فقد أورد ابن هشام للباء المفردة أربعة عشر معنى ولا أحبك أن تفهم أن ابن هشام هو الذى اخترع هذه المعانى للباء أو لغيرها، وإنما هو متتبع جامع فقط لما ورد فى لغة العرب التى نزل القرآن بها.

ومن بين هذه المعانى ماذا نختار؟. وكيف نختار؟. بل، ولماذا نختار؟. والذى أحبك أن تعرفه قبل الإجابة عن هذه التساؤلات، أن اختيار أى من هذه المعانى الأربعة عشر ليس عشوائياً، إنما هو اختيار مبنى على استقراء المعانى، واستجلاء معنى الآية نفسها والمعانى الأخرى للباء أيضاً ـ وكل ذلك فى هدى من اللغة والسنة المطهرة، وحتى لا نتوه أنت وأنا فى المعانى المتعددة الكثيرة للباء، أقول لك: إنك تدرك قطعاً الفرق بين قولك مسحت المنديل، ومسحت بالمنديل. فالأول يفيد تعميم المسح.. أما قولك مسحت بالمنديل، فإنك تفهم أن المسح لم يشمل المنديل كله وإنما شمل جزءاً منه.. إذاً فإن الباء أفادت معنى جديداً هو التبعيض أو الآلة.

ولو أنك قلت أمسكت باللص، وقلت أمسكت اللص.. فإنك واجد فرقاً بين العبارتين. وسببه الباء. وذلك أن قولك أمسكت باللص تفيد أنك قبضت على شىء من جسمه أو ثوبه. أى أن المسك كان فيه تلامس بين يدك وبين شىء منه. أما قولك أمسكت اللص، فلا تفيد هذا التلامس إنما تفيد الإمساك المجازى. أى أنك قدرت وتغلبت عليه ومنعته من التصرف وحبسته مثلاً. فى حين أنك لم تلمسه كأن يقول الضابط مثلاً أمسكت اللص بمعنى أنه قدر عليه وألقى رجاله القبض عليه وحبسوه.

فى حين أنه لم يلمسه بيده، بعكس المعنى الأول وهو أمسكت باللص. فهو يفيد أنه ألصق يده بجسمه أو بشىء من ثوبه. وهذا المعنى الدقيق تقوله إذا كنت تجرى خلف لص هارب أنت وآخرين وكانت هناك جائزة لمن يمسك به، وأنت صاحب الجائزة تقول فى هذه الحالة أمسكت باللص.

---

(٣) هود (١).

وهذا المعنى الذى هو الإلصاق قالوا إنه معنى لا يفارق الباء بمعنى أن المعانى الأخرى الثلاثة عشر تجيء مع وجود هذا المعنى، أى أن الإلصاق هو المعنى الأصلى للباء وما عداه من معانٍ أخرى يزيد على هذا المعنى أو يقويه.

ومن معانى الباء أيضاً أنها تدخل على الآلة فنقول مثلاً قطعت بالسكين وكتبت بالقلم. ومن معانيها أيضاً أنها تفيد المصاحبة كقوله ـ تعالى ـ:

﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾[3] وتفيد السببية مثل قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾[4]

وكقوله ـ تعالى ـ:

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾[5].

وقال المالكية إن الواجب مسح جميع الرأس لأن معنى الإلصاق يتحقق باستغراق الممسوح بآلة المسح، والممسوح هو الرأس لابد أن تعمها آلة المسح وهى اليد حتى يتحقق معنى الإلصاق الذى هو المعنى الأصلى للباء. ولذلك أوجبوا مسح جميع الرأس.

أما الأحناف فقالوا: إن الباء للآلة، وتدل على التبعيض ولا يفارقها معنى الإلصاق، وأما أنها للآلة فيجب أن تعم آلة المسح وهى اليد الممسوح الرأس وهو ولو قدرنا اليد لكانت تساوى ربع الرأس تقريباً لذا قالوا: إن الواجب مسح ربع الرأس. وهذا يتفق مع المعنى الأصلى للباء، فإن ذلك يقتضى إلصاق آلة المسح وهى اليد بالممسوح. كما أنه يمشى مع التبعيض الذى تفيده الباء. وقد استدل الأحناف على معنى التبعيض للباء بقوله ـ تعالى ـ:

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾[6] والتبعيض جاء من أن الباء هنا أخذت معنى مِنْ، لأنه لا يمكن أن تكون للآلة لأن المقربين يشربون من هذه العين ولا يمكن أن يشربوا بها. وقال العلماء إن التعبير هنا بالباء متضمناً معنى مِنْ يفيد معنى الرِّى.. وأن اليد هى آلة المسح وعليه قال الشافعى: إن الباء للتبعيض مثل قول الشاعر: شربن بماء البحر أى شربن من ماء البحر.. ولهذا قال: إن الواجب يسقط بمسح بعض الرأس. ولأن الباء تفيد التبعيض فقد جاءت بمعنى مِنْ، ومِنْ للتبعيض أصلاً، فلما جاءت الباء بمعناها فقد أفادت التبعيض ومنه قوله ـتعالىـ:

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾.

وقوله ـتعالىـ:

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾[7].

فالمعنى لابد أن يكون يشرب منها، فالعين لا يشرب بها، والعين لا تكون آلة للشرب، ولكن يشرب منها.

أما لماذا جاءت الباء بدلاً من (مِنّ) فذلك ملمح رائع كتب فيه المفسرون من أهل اللغة

(3) هود (48). (4) البقرة (54). (5) العنكبوت (40).
(6) المطففين (28). (7) الإنسان (6).

والبلاغة ما حكوه من أن الكلمة لها فى السياق القرآنى إشعاع يتصل بما قبلها وما بعدها. ولذلك تسقط الترجمة فى براثن العجز اللغوى عن الأداء القرآنى مهما أوتى المترجمون من براعة وإتقان، ولذلك قيل بحقٍ: لا يمكن ترجمة القرآن الكريم.. إنما تترجم التفاسير والمعانى فقط.

وأحس بك كأنك تريد أن تستريح من عناء البحث، لكن قبل أن أودعك أرجو أن تتاح لك الفرصة لقراءة ما كتبه علماء اللغة والأدب فى أسرار حروف الجر فى القرآن الكريم.

ولا أحب أن أترك الحديث إليك، فإن الحديث معك يوقظ فى نفسى متعة الدرس والتحصيل.

وثمة آية أخرى اختلف الفقهاء فى فهم معناها ومن ثم اختلف الحكم فيها على رأيين متباينين أشد التباين.. وهى قوله -تعالى-:

﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[8]..

وقبل أن تجيب أو قبل أن تسأل ما هى عدة المطلقة التى تحيض. هل هى ثلاثة حيضات، أم ثلاثة أطهار، لابد أن تفهم ما معنى كلمة «قرء»؟. لأنه بفهم المعنى سوف يتحدد الحكم الواجب التطبيق ولا يعيب الفقهاء أنهم لم يتجرأوا على الفُتيا وإصدار الأحكام قبل الرجوع إلى اللغة وأدوات الاجتهاد، ولكن يعيبنا أننا قصرنا فى محاولة فهم لغتنا والاعتزاز بها وإننا تجرأنا على فقهائنا بالملامة والعتاب.

لا عليك يا أخى ولنرجع إلى كتب اللغة وأيسرها متناولاً وأظنك تقتنيه وهو «مختار الصحاح» ارجع إلى مادة «ق ر أ» فتجد القَرء بالفتح الحيض. وجمعه أقراء كأفراح و«قروء» كفُلُوس. وأقرءُ كأفلُس والقرء أيضاً الطهر وهو من الأضداد.

وإذا رجعت إلى شرح القاموس المسمى بتاج العروس[9] فستجد «القرء» يطلق على الحيض والطُهر وهو ضد، ذلك لأن القرء هو الوقت فقد يكون للحيض والطهر. واكتفى معك بهذا القدر وحسبى أن أكون قد أثرت غيرتك على لغتك التى هانت عليكم أبناء هذا الجيل.. ولا أكتمك ضيقاً أحس به، يصل إلى حد الإحساس بالقهر مما أعانيه وأنا أسير فى بعض شوارع قاهرة المعز أو إن أردت الحقيقة فقل بعض أحيائها، فأجد لافتات الحوانيت قد تنكرت للغتنا العربية فى وقاحة شرسة، فهى تحمل أسماء أجنبية.. حتى هذا الذى يظن أنه يتفضل علينا، فيكتب النطق الأعجمى بحروف عربية، فلا تكاد تعرف شيئاً، وتذكرت شاعر العربية العظيم المتنبى وبيته الشهير وهو يخطو فى شعب بوَّان قال كأنه ينعى حاله أو حالنا قال:

ترى الفتى العربى فيها
غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنةٍ لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان

وبهذا القدر اكتفى وأتركك على موعد للقاء مع أحكام أخرى فى أصول الفقه يسمونها:

---

(٨) البقرة (٢٢٨).

(٩) جـ١ ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٣.

« المطلق والمقيد » ولعلك تذكرت ما كنا بصدده في أول اللقاء من قوله –تعالى– :

﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ . .

مع قوله –تعالى– « في التيمم :

﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾

ما هو حد المسح في التيمم ولماذا؟ .

وهذا ما يسميه علماء الأصول : « المطلق والمقيد » وهو بحث رائع ودقيق لهم فيه شروط حكيمة موفقة، سوف أجعلها موضوع لقائنا المقبل بإذن الله ـ تعالى ـ.

لكني أود أن أثير شوقك فقط إلى ما سوف نتناوله، بأن أحاول أن نفهم معاً معنى كلمة « مطلق » ومعنى كلمة « مقيد » وما المقصود بهما.

واستعين على الفهم بمثال، فلو أن مسئول مدينة الطلبة طلب منك قائلاً : أرجو أن تجيئني بطالب من الداخل، فما عليك إلا أن تنادي أي طالب أمامك، وتطلب منه أو تأخذ بيده إلى مسئول المدينة، وتكون بذلك قد نفذت الأمر وهو سهل ميسور، ولو أن المسئول قال لك : أرجو أن تجيئني بطالب هندسة أو شريعة مثلاً، فأنت لست في حلٍ أن تصحب أي طالب، لكن لابد من البحث عن طالب هندسة أو طالب شريعة.

أرأيت الفرق بين الأمرين. أظن أنه واضح ظاهر، ولعلك تقول : إنه لايحتاج لكل هذه الإطالة، ومادمت أدركت أنه واضح ظاهر، فالحمد لله على ذلك. وأقول لك : إن الأمر الأول هو مايسميه علماء الأصول « المطلق » والأمر الثاني يسمونه « المقيد ».

ثم اقرأ معي على مهل، وكثيرا ما أقول : إن القرآن في حاجة منا الى قراءة متأنية، أو نحن في حاجة إلى أن نقرأ القرآن قراءة متأنية اقرأ قول الله ـ تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١٠)

ولو أنك أكملت الآيات لرأيت الشروط التي وردت في وصف البقرة أو القيود في الأمر بعد أن كان مطلقا بلا قيد، ولهذا قال ابن عباس ما قال.

الخلاصة : أن هذا هو المطلق وهذا هو المقيد.

لكن حوار الأصوليين جاء على النحو التالي : ماذا لو أن الشيء جاء مقيدا في أمر وهو نفسه جاء مطلقاً في أمر آخر؟

مثال : اليد في التيمم مطلقة، وفي الضوء مقيدة بالمرافق.

للأصوليين تقسيمات وشروط عديدة، وبيان يثري العقل الفقهي الحديث، كما أثراه في القديم، ويقنع جيل « الإنترنت » ـ وتلك مهمة الداعية ـ ويكشف له عن عظمة تراثه، ويكسبه اعتزازاً بحاضره وذلك ما أرجو، وهو موضوع لقائنا القادم إن شاء الله.

(١٠) البقرة (٦٧) وراجع تفسير ابن كثير «١٠٩/١» وكتب التفسير عند قوله تعالى: «وإذا قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة»

اختلاف فقهاء الشريعة حول التأمين

للمستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى (*)

تمهيـــد

(١) يتصور البعض بأن الخلاف الفقهى حول عقد التأمين، هو خلاف مستحكم، بل ردد البعض بغير حق، بأن فقهاء الشريعة المعاصرين عاجزون أن يصلوا إلى حل بشأن عقد التأمين التجارى يتفق وحكم الشرع ويحقق مصالح المجتمع.

ويدللون على ذلك بأن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، قد عرض موضوع التأمين على مؤتمر علماء المسلمين الثانى المنعقد بالقاهرة فى المحرم وصفر سنة ١٣٨٥هـ الموافق مايو ويونيوسنة ١٩٦٥م، فاتفقوا بشأن التأمين التعاونى ونظام المعاشات الحكومية ونظام التأمينات الحكومية، وأنها من الأعمال الجائزة شرعا واختلفوا بشأن التأمين التجارى، حتى ولوتولته الدولة عن طريق شركات القطاع العام كما هو حادث فى مصر.

وإنه منذ انعقاد مؤتمر علماء المسلمين الثانى سالف الذكر سنة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥م، وحتى انعقاد مؤتمر علماء المسلمين التاسع المنعقد بالقاهرة فى مارس سنة ١٩٨٣م، والموضوع يؤجل لعدم إمكان الاتفاق على رأى حوله.

(٢) نقول: إنه رغم ذلك، فإن الخلاف بين فقهاء الشريعة على نحو ما سنبينه هو خلاف ظاهرى لا حقيقى.

وإنه إذا كانت قد تأخرت نسبيا إعلان كلمة الشرع بشأن التأمين التجارى فذلك لمتطلبات الدراسة الدقيقة، وللرغبة فى الوقوف على آراء علماء المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية بالقدر المستطاع.

(٣) وقد جاء المؤتمر العالمى الأول للاقتصاد الإسلامى المنعقد بمكة المكرمة فى الفترة من ٢١ الى ٢٦ من صفر سنة ١١٣٩٦هـ/ الموافق ٢١ إلى ٢٦ فبراير سنة ١٩٧٦م، والذى جمع بين علماء الدين وعلماء الاقتصاد فى جميع أنحاء العالم

(*) وكيل مجلس الدولة المصرى سابقًا.
وأستاذ الاقتصاد الإسلامى وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

الإسلامى، وبعد دراسة دقيقة لمختلف أوجه النظر قرر فى توصياته الختامية : (يرى المؤتمر أن التأمين التجارى الذى تمارسه شركات التأمين التجارى فى هذا العصر، لا يحقق الصيغة الشرعية للتعاون والتضامن، لأنه لم تتوافر فيه الشروط الشرعية التى تقتضى حلّه، ويقترح المؤتمر تأليف لجنة من ذوى الاختصاص من علماء الشريعة وعلماء الاقتصاد المسلمين لاقتراح صيغة للتأمين خالية من الربا والغرر وتحقق التعاون المنشود بدلا من التأمين التجارى) .

ونلاحظ أن المؤتمر قد قطع الرأى بالنسبة للتأمين التجارى الذى تتولاه شركات القطاع الخاص، ولكنه لم يتعرض للتأمين التجارى الذى تتولاه شركات القطاع العام كما هو الحال فى مصر.

(٤) ونرى أن الأمر مازال يحتاج إلى بيان وتفصيل، ونحاول أن نلقى عليه أضواءأخرى، فى الفروع الثلاثة الآتية :-

الفرع الأول: بيان ما اتفق عليه فقهاء الشريعة.

الفرع الثانى: بيان ما اختلف عليه فقهاء الشريعة.

الفرع الثالث: الخلاف بين فقهاء الشريعة ظاهرى لا حقيقى.

الفرع الأول
بيان ما اتفق عليه فقهاء الشريعة

(١) لقد اتفق فقهاء الشريعة على مبدأ وفكرة التأمين، فهو يقوم على التعاون بين المستأمنين والذى يشكل وحدة الأساس المشترك بالنسبة للتأمين بجميع أنواعه.

كما اتفقوا على أهمية وضرورة التأمين، فهو وإن كانت فكرته قديمة إذ الأخطار قديمة قدم الإنسانية، إلا أنه بتقدم الحضارة والتصنيع وزيادة المخاطر أصبح التأمين اليوم ضرورة لاغنى عنها.

كما اتفقوا على أن عقد التأمين بصورته المعروفة حاليا، هو عقد مستحدث سنده الشرعى هو المصلحة، وأنه لا يقاس عليه أى من العقود الشرعية المعروفة ، فهو لا يشبه عقد المضاربة، ولا ولاء الموالاة، ولا الكفالة بجعل ولا نظام العواقل، ولا الوعد الملزم.. الخ.

(٢) ولقد سبق أن أوضحنا أن الزكاة هى مظلة التأمين الكبرى فى الإسلام، وأن سندها الشرعى هو النص.

كذلك أوضحنا أن التأمين يقوم جنبا إلى جنب بجوار الزكاة، محققا أهدافها، وأن لكل منهما مؤسساته ومنظماته، ولكل مجاله، ولكل الحاجة القصوى إليه.

فمؤسسة الزكاة فى الإسلام تُؤمِّن غير القادرين من الفقراء والمساكين وغيرهم بدون مقابل، بينما منظمات التأمين تؤمن القادرين وبمقابل، وقد اشتدت الحاجة اليوم إلى التأمين بعد أن ازدادت المخاطر التى يتعرض لها الإنسان واشتدت وطأتها مع تقدم الحضارة الحديثة بحيث أصبح من ضرورات المجتمع.

(٣) كذلك اتفق فقهاء الشريعة على شرعية نوعين من أنواع التأمين: وهما التأمين التعاونى، والتأمين الحكومى فى صورتين منه هما نظام

التقاعد والمعاشات ونظام التأمينات الاجتماعية.

أ- من حيث التأمين التعاونى:

فإن المستأمنين يؤمن بعضهم بعضا دون وسيط سوى المنظمة التى تمثلهم وتعمل لحسابهم، وأن ما يدفعه كل مستأمن إنما يريد به التعاون مع زملائه فى تخفيف الضرر أو رفعه عن أحدهم إزاء ما نزل به بحدوث الكارثة المؤمن عليها، وكل ما يأخذه مما خصصه أصحابه لذلك تبرعا منهم له وإرصادا لهذا الغرض وهو غرض التعويض عما لحقه من ضرر.

فالتأمين التعاونى هو معاملة أساسها التعاون والتبرع، فهى خالية من معنى المعاوضة بتاتا، وإذا انعدم فى هذا النوع من التأمين معنى المعاوضة، فقد انتفت عنه مفسدة الجهالة والضرر والغبن وشبهة الربا.

وهذا النوع من التأمين يحقق مصالح كثيرة يأمر بها الشرع، فهو يحقق التعاون وقد أمرنا به بقوله - تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾(١)، وهو يحقق الحذر، وقد أمرنا به بقوله - تعالى:

﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾(٢).

وهو يحقق الوقاية من المكروه والضرر، والذى أمر به الشرع بقاعدة (لا ضرر ولا ضرار).

ب- ومن حيث التأمين الحكومى فى صورة نظامى المعاشات والتأمينات الاجتماعية:

فإن الحكومة هى التى تؤمن المستفيدين منه سواء كانوا موظفين بها أو مواطنين عمالا.

والحكومة تفرضه على سبيل الإلزام بالنسبة لهذه الفئات بحيث لا يكون لهم خيار بشأنه ولا يستقل المستفيدون منه بأداء أقساطه بل تشارك فيه الدولة أو أصحاب العمل بحسب الأحوال.

فالتأمين الحكومى فى صورة تأمينات اجتماعية، هو معاملة إلزامية أساسها التعاون والمعاوضة، وهو كمعاوضة احتمالية يصاحبها ولاشك مفسدة الجهالة والغرر، فقد يأخذ الموظف أو العامل أو ورثتهما أكثر أو أقل مما دفعا، وقد يموت الموظف أو العامل وليس له من يستحق معاشا فتأخذه الحكومة.

ومع ذلك فقد أغفلت شبهة أو مفسدة هذا الضرر، ورجحت المصلحة التى تقضى العمل بهذا النظام لاسيما وأن أغلب الموظفين والعمال يموتون عن زوجة وقصر، فلا يكون للمفسدة أو الشبهة أثر إذا ما تعارضت مع المصلحة، وذلك إعمالا للقاعدة الشرعية أن (المفسدة المحتملة إذا عارضتها مصلحة راجحة، قدمت المصلحة وألغى اعتبار المفسدة)، وهو ما عبر عنه الإمام ابن حزم بقوله: (المفسدة المفضية إلى تحريم، إذا عارضتها مصلحة أو حاجة راجحة، أبيح المحرم).

على أن شرعية التأمين الحكومى فى صورة نظم المعاشات والتأمينات لا تستمد فى نظرنا من يسر الشريعة وترجيح المصلحة على المفسدة، مما قد يختلف فى تقديره أوجه النظر والاجتهاد.

وإنما لأن هذا النوع من التأمين ليس بعقد يبرم اختبارا مثل عقد التأمين وإنما هو نظام تفرضه الدولة إلزاما، كما أن الدولة لا تستهدف من

(١) سورة المائدة الآية (٢).

(٢) سورة النساء الآية (١٠٢)

ورائه كسبا، وإنما تأمين مستقبل موظفيها أو مواطنيها من العمال حتى إنها تشارك مع موظفيها فى أداء الأقساط وتجبر أرباب العمل على مشاركة العمال فى أدائها.

على أنه لا مانع عندنا بالإضافة إلى الحجتين الأساسيتين اللتين سقناهما، أن نذكر ما أبداه البعض بشأن إباحة هذا النوع من التأمين، بأنه من قبيل كفالة الدولة للعاملين فى خدمتها ولرعاياها، فهو ضرب من ضروب ولاية الدولة وهيمنتها على جميع شئون أفرادها واضطلاعها بسد حاجتهم ورفع الضرر عنهم بعونهم فى مغارمهم.

ونضيف أيضا ما يذكره البعض بأن ما تحصله الدولة من الموظفين والعمال وأرباب العمل من أقساط، يعتبر تجميعًا لمدخراتهم لديها، مما يكون عونا ماليا لأداء مهمتها فى شتى مرافق الحياة ومنها تأمين مستقبل الموظفين والمواطنين من العمال ورعاية أسرهم، وعليه فإن ما يؤدونه من أقساط بحسب هذاالرأى، هو من قبيل «الضريبة» أو التوظيف وإن سمتها نظم المعاشات والتأمينات الاجتماعية «اشتراكا».

الفرع الثانى

بيان ما اختلف عليه فقهاء الشريعة

(١) لقد اختلف فقهاء الشريعة حول التأمين التجارى، وهو الذى تتولاه شركات التأمين لحسابها الخاص وبقصد تحقيق أكبر قدر من الربح، فهذا النوع من التأمين هو معاوضة اختيارية بحتة، وهو كمعاوضة احتمالية يصاحبها ولاشك مفاسد أو شبهات الجهالة والغرر والربا، فضلا عن جنوح شركات التأمين التجارى إلى فرض شروط تعسفية واستغلال المستأمنين جريا وراء الربح.

وقد رأى البعض إجازة هذا النوع من التأمين، باعتبار أنه لا يكون للشبهات والمفاسد أثر إذا ما تعارضت مع الحاجة والمصلحة، وأنه يمكن دائما للقضاء أو للسلطة التشريعية فى الدولة التدخل لإبطال الشروط التعسفية ولمنع الاستغلال.

فى حين رأى البعض تحريمه ومنعه، باعتبار أنه ليس لنا به حاجة أو مصلحة، إذ يمكن الاستغناء عنه بإحلال التأمين التعاونى الذى لا مفسدة ولاشبهة فيه، بل يحقق مصالح ومنافع باستبعاد دور الوسيط المستغل ممثلا فى شركات التأمين.

(٢) كذلك اختلف فقهاء الشريعة حول التأمين الحكومى الذى تحل فيه الدولة محل شركات التأمين التجارى، حيث تتولاه شركات القطاع العام كما هو الشأن فى مصر.

فيرى البعض إجازة هذا النوع من التأمين التجارى الذى أممته الدولة وأشرفت عليه، وذلك باعتبار أن ما كانت تحققه شركات التنأمين التجارى من أرباح وتستقل به وحدها، أصبحت تستقل به الدولة ويعود نفعه على المجتمع كله إذ أن أموال الدولة هى أموال الناس جميعا.

بينما يرى البعض تحريمه، طالما الثابت أن شركات القطاع العام تسير على نفس النهج الذى كانت تسير عليه شركات التأمين الخاصة من حيث استغلال حاجة الناس إلى التأمين.

(٣) ونرى أن التأمين التجارى المؤمم بصورته الحالية كمصر، وإن حقق فائدة مؤكدة من حيث سيطرة الدولة على مدخرات المواطنين والحيلولة

دون خطر تحكم أفراد قلائل فى الاقتصاد القومى أو استغلالهم هذه المدخرات وفقا لمصالحهم الخاصة وعلى هواهم دون اعتداد بصالح المجتمع، إلا أنه لم يراع صالح المستأمنين أنفسهم إذ ظلت شركات القطاع العام تفرض ذات الشروط التعسفية كما ظلت تحصل ذات الأقساط المبالغ فيها.

وإنه من هذه الوجهه الأخيرة، أصبح هذا النوع من التأمين أكثر خداعا وتضليلا، إذ يمارس فيه الاستغلال باسم الدولة، وهو أمر غير جائز وغير مقبول شرعا، وأنه يتعين على الدولة إعادة النظر فى شروط هذا النوع من التأمين، وفى تقدير الأقساط، وبما ينفى عنه أية صفة من صفات الاستغلال، حتى يمكن الترحيب به والقول بشرعيته.

الفرع الثالث

الخلاف بين فقهاء الشريعة ظاهرى لا حقيقى

(١) يتبين مما تقدم أن الفقهاء المعاصرين مجمعون على شرعية التأمين التعاونى كما أنهم متفقون على شرعية التأمين الحكومى الذى يتمثل فى نظام التقاعد والمعاشات وكذا نظام التأمينات الاجتماعية، ولكنهم مختلفون حول شرعية التأمين التجارى، ولو تولته الدولة.

على أن المتأمل فى أقوال فقهاء الشريعة المجيزين للتأمين التجارى بإطلاقه يتبين أنهم جميعا ضد الشروط التعسفية التى تفرضها شركات التأمين، وأنهم جميعا ضد أقساط التأمين المرتفعة أو المبالغ فيها والتى تشكل عنصرا من عناصر الاستغلال، وأنهم جميعا لا يقرون استغلال شركات التأمين لأموالها فى استثمارات ربوية،وأنهم لا يسلمون بأى حال من الأحوال بأى شرط يحل حراما أو يحرم حلالا.

ويحرص فقهاء الشريعة من أنصار التأمين التجارى على التأكيد بأن المفاسد والشبهات التى تصاحب التأمين التجارى، هى صفات خارجة عن جوهر التأمين فى ذاته، لأنها ليست منه وليست إلا عملا أضيف إليه وقرن به بناء على رغبة أحد المتعاقدين لا بناء على أنها عنصر من عناصر التأمين، وأنهم بالتالى يصرون على ضرورة إحكام رقابة الدولة على التأمين التجارى، وإعادة تنظيمه على وجه يحول دون قيام هذه المفاسد والشبهات، وأنهم فى النهاية إذ يجيزون التأمين التجارى بعد إعادة تنظيمه وإحكام الرقابة عليه، فإنهم بسبب صفته الاسترباحية لا يقبلونه إلا على مضض لحاجة الناس إليه.

(٢) وقد عبر عن ذلك كله، أكثر أنصار التأمين بإطلاق تحمسا، وهو فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى الزرقاء، فنجده مثلا فى بحثه الأخير المقدم إلى المؤتمر العلمى الأول للاقتصاد الإسلامى المنعقد بمكة المكرمة فى الفترة من ٢١ - ٢٦ صفر سنة ١٣٩٦ هـ الموافق ٢١-٢٦ فبراير سنة ١٩٧٦م يقول فى صفحة ٢٢ : (الذى حصل أن عنصر الربح لما دخل فى الموضوع أصبح عنصر إغراء يدفع إلى الاستفادة، وأصبح بالتالى هو الهدف الرئيسى لدى شركات التأمين قبل الفكرة التعاونية

النبيلة، فانعكس الموضوع وأصبحت الوسيلة غاية والغاية وسيلة، وأصبحت شركات التأمين تتحكم فى الحاجة الملحة إليه، لاسيما حين تفرضه القوانين بصورة إلزامية على الناس كالتأمين على السيارة من المسئولية وتأمين رب العمل على حياة العمال، أو يفرضه التعامل التجارى كالتأمين على البضائع المستوردة إذا فتح اعتمادا بقيمتها لدى مصرف فإنه لايفتح بقيمة البضاعة اعتمادا إلا إذا أمن المستورد عليها لتكون ضمانا للاعتماد المصرفى. وهكذا أصبحت شركات التأمين تفرض أقساطا عالية وتجنى أرباحا باهظة استغلالا لحاجة الناس واضطرارهم طمعا فى زيادة الربح الذى أصبح هو هدف شركات التأمين.

وينتهى فضيلته فى بحثه المذكور بقوله: «كون الجهه التى تنصرف إلى القيام بهذه العملية تربح منها، فإنه أمر طبيعى أن يربح من العمل من ينصرف إليه ويقوم به، وهذا لا ينبغى ولا ينافى المعنى التعاونى الموجود فى أساسه ومبناه، وهو موضوعه الأصلى. وإنما تبقى النوائب اللاحقة بهذا العمل التعاونى من سلوك القائمين به كالمراباة والاستغلال للاستكثار من الربح، فهذه أمور جانبيه ليست فى صميم التأمين ولا من مستلزماته فتأخذ أحكامها بصورة منفصلة وتعالج بالتدابير القمعية على حدة».

«٣» فالثابت أن أنصار التأمين التجارى، وهو التأمين محل الخلاف، لا يسلمون به إلا بعد تخليصه من الضرائب والمفاسد التى أخذها عليه معارضو هذا النوع من التأمين، ويكون بذلك الخلاف بينهم خلافا ظاهريا لا حقيقيا وأنه كلما اتسعت الرؤيا ضاق الخلاف.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما أغفله فقهاء الشريعة من أنصار التأمين التجارى، حيث إنهم لم ينظروا إليه من الوجهة الاقتصادية ومدى تأثيره على الاقتصاد القومى، وأنه يمثل خطرا اقتصاديا على الدولة من حيث سيطرة شركات التأمين ممثلة فى أفراد قلائل على مدخرات المواطنين وتوجيهها وفق هواهم ومصالحهم الخاصة، الأمر الذى اضطر بعض الدول إلى التدخل بإلزام شركات التأمين باستغلال أموالها فى أوجه معينة تعود بالنفع على المجتمع، واضطر بعضها إزاء لجوء شركات التأمين على التحايل أن تؤمم جميع شركات التأمين التجارى.

وإذا أضفنا أيضا، ما سبق أن أوضحناه بكتابنا (الإسلام والتأمين)، أن التأمين التجارى هو فى انكماش تلقائى. إن لم يكن إلى زوال نهائى بسبب صفته الاستغلالية، وتبعا لانتشار التأمين التعاونى فى صورته الحديثة المتطورة، فإنه بذلك لا يكون ثمة خلاف حقيقى بين فقهاء الشريعة حول التأمين، فهم جميعا يجيزونه فى صورته المتفق عليها وهما:

أ- التأمين التعاونى.

ب- التأمين الحكومى فى صورة نظام التقاعد والمعاشات أو فى صورة التأمينات الإجتماعية.

وهم إن اختلفوا حول التأمين التجارى، فهو على نحو ما توضح هو خلاف ظاهرى لا حقيقى.

إذ لا يقرونه إلا بعد تخليصه من الشوائب والمفاسد التى قارنت تطبيقه الحالى.

نسأله تعالى التوفيق والسداد.

محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين

٤

للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعني

كتابات المستشرقين عن الإسلام ـ عموما ـ تسيطر عليها ثلاث آفات شديدة التأثير على ما يقولون، إلا من عُصِمَ منهم، وهم قليلون. هذه الآفات هى:

▹ الشعور بالاستعلاء، حيث يرون أنفسهم وأيدلوجياتهم ومناهجهم أعلى قدرا من الإسلام الذى يتصدون للكتابة عنه.

▹ نظرتهم إلى الإسلام على أنه محبوس أمامهم فى « قفص الاتهام » وأن مهمتهم هى توثيق « الجرائم » التى صار بها الإسلام متهما فى نظرهم.

وأقلهم تحاملا على الإسلام هو من يرى نفسه محاميا عن هذا « المجرم » ولكنه يطالب بتوقيع « أخف » العقوبات عليه، كما يقول واحد كان منهم، هو ليوبولد فانس، الذى أسلم وتسمى « محمد أسد » فى كتابه « الإسلام فى مفترق الطرق » فالاتهام عندهم قرين الإسلام دائما، وليس من هؤلاء ولا أولئك الذين درسوا الإسلام بوعى وعناية، ثم اعتنقوه عن اقتناع لما ظهرت لهم علائم الحق فيه.

● أما ثالثة هذه الآفات، فهى الجهل بالإسلام، والوقوف أمام « جزئيات » لاتصلح أساسا للحكم على الإسلام أو الحكم له.

فلا غرو ـ إذن ـ أن تبلغ تحاملاتهم على الرسول ﷺ اتهامه بتزوير القرآن، على النحو الذى تقدم لأن كل واحدة من تلك الآفات الثلاث كافية فى نزع الثقة عن كل ما تأثر بها، فما بالك إذا اجتمعت فى التأثير فى كل ما يكتبه هؤلاء المستشرقون؟ إنهم ـ خضوعا لهذه الآفات ـ لا يبالون على أى وضع كانت نتائج دراساتهم وبحوثهم عن الإسلام؟ فيستوى عندهم الكذب والصدق، والباطل والحق وأن أدى إلى إضحاك العامة عليهم.

●●●

والقرآن الذى ينسبونه إلى التزوير، يحمل قوة دفاع « ذاتية » غير محتاج فى الدفاع عنه، إلى

وسائل تستجلب من خارجه، فـ « قوة الدفاع الذاتية الكامنة فيه » قادرة على نسف كل ما يوجه إليه من مطاعن، لأنه:

﴿ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(١).

وما تقدم فى الحلقات الثلاث كاف فى الرد على هذه المزاعم الكاذبة، وفيه إفحام قاهر لخرافة هؤلاء المستشرقين، الذين حملهم الحقد الأسود على تلك « المقولة » التى هى أوهى من بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، ولكن لايزال لنا رصيد آخر من « قذائف الحق » الناسفة لباطلهم، وإن بعضهم لبعض ظهيرا، وحالهم ـ كما قال الشاعر:

وليس يصح فى الأذهان شىء
إذا احتاج النهار إلى دليل

حركة الأرض حول الشمس

كان الحديث فى الحلقة الماضية يدور حول: حركة الأرض حول نفسها، أو حول محورها كما يقول كثير من أهل العلم، وهى حقيقة كونية اكتشفها العلم الحديث، منذ قرن ونصف قرن تقريبا.

وقد عرضنا كيف أن القرآن العظيم كان قد سبق العلم الحديث فى الإشارات « الذكية » إلى تقرير هذه الحقيقة، قبل العلم الحديث بأكثر من اثنى عشر قرنا.

وحركة الأرض حول الشمس حقيقة كونية من مئات الحقائق سبق القرآن العظيم فى أسلوب محكم معجز إلى تقريرها وثبوتها فى الوجود، منذ خلق الله الكون العظيم، ومعلوم أن صلة العلوم الحديثة بهذه الحقائق الكونية، هى صلة اكتشاف لا صلة تكوين وإيجاد. فالموجد المكون لها هو الله ـ عز وجل ـ.

وفى القرآن العظيم، الذى أنزله رب العالمين، على خاتم النبيين إشارات « ذكية رائعة » إلى وجود هذه الحقيقة الكونية، القديمة الوجود، قدم وجود الكون نفسه، وقبل إعداد الأرض للحياة، أى فى مرحلة الخلق الأول ومن هذه الإشارات الذكية الآيات الآتية:

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾(٢).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾(٣).

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾(٤)

القرآن العظيم فى هذه الآيات يعبر بالفعل « يولج » عن حقيقة، كونية ناشئة عن دوران الأرض حول الشمس فى كل سنة دورة واحدة كاملة.

وهذه الدورة البطيئة، بالنسبة لدورة الأرض حول نفسها يترتب عليها حقيقتان كونيتان آخريان، هما حدوث الفصول الأربعة: الشتاء – الربيع – الصيف – الخريف، وكل فصل منها ينشأ عن وضع كونى

(١) فصلت [٤٠ – ٤١].
(٢) آل عمران [٢٧].
(٣) الحج [٦١].
(٤) فاطر [١٣].

للأرض تجاه الشمس، فى الرحلة الكونية للأرض، ويستغرق كل فصل ثلاثة أشهر كما هو معروف.

أما الحقيقة الكونية الثانية، التى تترتب على دوران الأرض حول الشمس فهى:

تفاوت الليل والنهار فى الطول والقصر، وإلى هذا المعنى أشار القرآن العظيم بالفعل

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾.

والولوج الدخول(٥)، والإيلاج الإدخال، والأول يأتى لازما ومتعديا.

فمن اللازم: دخل الليل، بمعنى أقبل.

والمتعدى مثل: دخل فلان السوق، وفيه قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٦)

أما الثانى فلا يأتى إلا متعديا بالهمزة.

والفرق بين الدخول والولوج بعد اشتراكهما فى أصل الدلالة أن الدخول أعم، والولوج أخص، لأن الولوج هو الدخول بلطف ويسر، واستعمال القرآن لمادة «ولج» يدل على هذا الفرق الدقيق بين مجرد الدخول، والولوج.

وإيلاج الليل فى النهار كناية عن أخذ الليل أجزاء من زمن النهار، وإيلاج النهار فى الليل كناية عن أخذ النهار أجزاء من زمن الليل.

وهذا الإيلاج يكون بنسب متفاوتة كل يوم، ففى الشتاء يأخذ الليل فى الطول تدريجيا بدءاً من ٢٢ ديسمبر، ثم يبدأ فى النقصان بدخول فصل الربيع ٢١ من مارس، وهكذا بالنسبة للفصول الأخرى حسب مواقعها على الأرض.

ولما كان هذا الإيلاج له حكمة عظيمة، وينشأ عن إرادة الله وقدرته هو وحده، نرى النظم القرآنى الحكيم يسند هذا الفعل: «تولج» أو «يولج» إلى الله ـ عز وجل ـ لأنه هو وحده، الذى قدَّر وأنجز حركتى الأرض اليومية والسنوية.

وجعل هذا الصنع من أدلة الإيمان، والاتعاظ والاعتبار ففى سورة «لقمان» يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٧).

فها هنا توقيف وتوجيه ولفت أنظار للتأمل فى هذه الآيات الإلهية. باعتبارها دلائل على الإيمان بالله العظيم.

وقد أجمع علماء الهيئة، وبخاصة فى العصر الحديث، على أنه من المحال أن يكون تفاوت الليل والنهار فى الطول والقصر والاعتدالان الربيعى والخريفى ظواهر كونية ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها، وإنما هى ناشئة عن حركة الأرض حول الشمس، وكذلك تعاقب الفصول الأربعة.

وبهذا يكون القرآن العظيم قد أثبت للأرض حركتين قبل اكتشاف العلم الحديث هذه الحقائق العلمية اليقينية بأكثر من ثلاثة عشر قرنا.

---

(٥) مفردات الراغب [٥٣٢].

(٦) الإسراء [٧].

(٧) الآية [٢٩] لقمان.

ومنهج القــرآن العظيم فى تقـرير هذه الحقائق، لم يكن بطريق مباشر، وإنما قررها عن طريق آثارها المترتبة عليها فى الوجود. وهو ما عـبـرنا عنه من قـبل مـرات بـ «الإشـارة الذكية» ونقصد بها الإشارة الملائمة لفهم كل جيل، وكل عصر، مهما كان حظه من الثقافة والمعارف السائدة وهذا ـ بلا ريب ـ وجه من وجوه الإعجاز القرآنى، الذى لم يتوقف، ولن يتوقف، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ويعبر بعض العلماء عن هذه الإشارة الذكية تعبيرا آخر إذ يقول:

«وللقـرآن الكريم ـ فى كل من ميـداني الخاص والعام أسلوبه الحكيم، للدلالة على ما يريد أن يدل عليه من أسرار الفطرة؛ ليكون كل سر منها ـ إذا أذن الله بالكشف عنه ـ هاديا إلى الله فاطر الفطرة، ومنزل القرآن، ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله ـ سبحانه ـ فقد اقتضت الحكمة الإلهية، فى آياته الكونيـة، أن ينزل بأسلوب لا يصـدم البـديهى المسلم به عند الناس فيكذبوه ولا ينافى الحقيقة الكونية، فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذ يسَّر الله سبيل الكشف عنها لأولى العلم فى مستقبل العصور.

وهذا من أعجب عجائب القرآن، التى لا تنقضى، ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما، أو يدل عليها أولى العلم، ثم لا يصدم الناس فى ما يعتقدوه.. هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية، أو فى دلالة أولى العلم عليها، أمر يعجز عنه البشر، ولا يقدر عليه إلا الله»(٨).

●●●

هذه الحقائق العلمية الكونية، غير مجهولة عند جماعة المستشرقين وفى بيئاتهم المعاصرة، ولكثير من علمائهم بحوث ودراسات قيمة فى كل المجالات، وبخاصة فى مجال الفلك والجغرافيا، ومع هذا يتهمون محمدا ﷺ بأنه زوَّر القرآن فكيف ساغ لهم ذلك، وترجمات معانى القرآن إلى لغاتهم وفيرة لديهم، ومنهم من يجيد قراءة القرآن نفسه باللغة العربية التى أنزله الله بها، وليس مقبولا أن يعتذر عنهم بأنهم جاهلون بالقرآن ودلالته، وحتى لو صح هذا فليس لهم أن يحكموا عليه بالتزوير، وهم له جاهلون وإنما السبب الوحيد فى هذا «التهور» هو التعصب والعناد، لأنهم لو كانوا قد أذعنوا لصدق القرآن للزمهم الإيمان به، وهم غير مؤهلين لهذه المهمة، التى لو حدثت لكان معناها أنهم اعترفوا ببطلان ما هم عليه ولا نهدم حاضرهم قبل ماضيهم، اللذان بنوهما على الأوهام.

●●●

وبقيت إشارات عظيمة الدلالة، على حركة الأرض حول الشمس، غير دلالة «الإيلاج».

هذه الدلالة هى ما ورد فى القرآن العظيم، من إفرد المشرق والمغرب، ثم تثنيتهما، ثم جمعهما، وذلك فى الآيات الآتية:

---

(٨) الإسلام فى عصر العلم [٢٣٩] د/ محمد أحمد الغمراوى ـ رحمه الله.

فى إفراد المشرق والمغرب ورد قوله تعالى:

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٩).

وفى تثنيتهما ورد قوله تعالى:

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾(١٠).

وفى جمعهما ورد قوله تعالى:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾(١١).

تحدث القرآن العظيم عن شروق الشمس وغروبها وقد حصر ذلك فى ثلاثة معان هى ما يدركه الحكم العقلى غير ناقص ولا زائد عما هو فى الوجود، لأن الأعداد لا تخلو من الفردية، أو الإثنينية أو ما زاد عليهما وهو الجمع، الذى يبدأ من ثلاثة، فما فوق إلى غير نهاية ومجىء حديث القرآن على هذا قد يثير تساؤلا، بل قد أثار هذا التساؤل فعلا فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام، أثاره بعض الطاعنين فى القرآن من الزنادقة وبخاصة فى القرن الثالث، فتصدى لهم الإمامان الجليلان: أحمد بن حنبل، ومحمد بن مسلم بن قتيبة - رضى الله تعالى عنهما -.

والسبب فى هذا التساؤل أن المحسوس للناس من حيث الإدراك الظاهر مشرق واحد، ومغرب واحد، لا مشرقان ومغربان، ولا مشارق ومغارب.

وقد حاول المفسرون القدامى توجيه التثنية والجمع على النحو الآتى:

«والمراد بالمشرقين مشرقا الشتاء والصيف، وبالمغربين مغرباهما»(١٢).

هذا هو توجيه التثنية، أما توجيه الجمع فهو: «مشرق كل يوم ومغربه»(١٣).

أما الإفراد فالمراد به الجهة، على وجه العموم: أى جهة الشروق، وجهة الغروب.

وما قاله القدماء صحيح إلا فى توجيه التثنية، فإنه احتمال بعيد.

والمحدثون لهم إضافات فى توجيه التثنية والجمع جاراهم عليها الجغرافيون، بناء على ملاحظات عملية واقعية، تنظر فى مظانها من الدراسات الحديثة(١٤).

فالشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - أضاف توجيها جديدا لكل من التثنية والجمع، وخلاصة ما قال:

إن كل وجه من وجهى الأرض له مشرق تشرق منه الشمس صباحا، ومغرب تغرب منه مساء، فيكون هناك مشرقان ومغربان بالنسبة، لوجهى الأرض، على مدى الـ ٢٤ ساعة هذا ما يراه - رحمه الله - فى توجيه التثنية الواردة فى قوله تعالى:

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾.

أما ما أضافه فى توجيه الجمع «المشارق - المغارب» وتابعه عليه آخرون، فهو: أن لكل قطر

---

(٩) الشعراء [٢٨].

(١٠) الرحمن [١٧].

(١١) المعارج [٤٠].

(١٢) فتح القدير للإمام الشوكانى [١٦١/٥].

(١٣) فتح القدير للإمام الشوكانى [٣٥٣/٥].

(١٤) انظر - مثلا - : المنهج الإيمانى للدراسات الكونية فى القرآن الكريم [ص ٢٦٨] وما بعدها. د/ عبدالعليم عبدالرحمن خضر الدار السعودية للنشر.

مشارق ومغارب حسب خطوط الطول كل أربع دقائق. فالشمس فى حركتها الظاهرية، من المشرق إلى المغرب فى كل وجه من وجهى الأرض لها مشرق ومغرب كل أربع دقائق، ففى نصف الكرة الشرقى تكون مشارقها ومغاربها ١٨٠ مشرقا ومغربا.

وكذلك الشأن فى نصف الكرة الغربى فيكون المجموع الكلى لوجهى الأرض هو ٣٦٠ مشرقا ومغربا.

هذا هو خلاصة ما يفهم من كلام الشيخ الشعراوى ـ رحمه الله ـ[١٥].

ولا يخفى أن المشارق والمغارب بهذا المفهوم تخضع لعوامل سرعة متناهية.

وبعض الجغرافيين المعاصرين طبق ما قاله الشيخ محمد متولى الشعراوى[١٦].

وما ذهب إليه الشيخ الشعراوى مقبول، ولكن أساس حركة الشمس الظاهرية من المشرق إلى المغرب، وهذه الحركة كما تقدم ناشئة عن دوران الأرض حول محورها، لا عن دورانها حول الشمس، وهى الدورة التى تقطعها الأرض فى عام كامل.

والمعروف أن هذه الدورة تكون فيها حركة، الشمس الظاهرية من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، وهى موضوع الحديث فى هذه المقالة.

والذى نعوِّل عليه هنا هو حركة الشمس الظاهرية من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، لأن هذه الحركة هى دليل على دوران الأرض حول الشمس.

والمعروف أن الشمس لها كل يوم مشرق ومغرب على مدار أيام العام ولا تشرق ولاتغرب يومين أو أكثر من مكان واحد شروقا وغروبا، إلا فى الاعتدالين الربيعى والخريفى وهما مشرقان ومغربان متباعدان فى الزمن، فإذا استبعدنا مشرقى ومغربى الاعتدالين من أيام السنة «القمرية» نجد المشارق والمغارب المختلفة طول العام ٣٥٢ مشرقا ومغربا.

وترتيبا على هذا فإن قول الله ـ تعالى ـ:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾.

بجمع «المشارق والمغارب» إشارات صادقة إلى هذه الحقائق الكونية. وهذا هو ما أشار إليه صاحب «فتح القدير» وغيره من قدامى المفسرين ـ كما تقدم ـ حيث وجهوا الجمع فى «المشارق والمغارب» بأنه مشرق كل يوم، ومغرب كل يوم.

أما التثنية «رب المشرقين ورب المغربين» ففيه توجيه آخر محتمل غير التوجيه الذى تقدم.

إذ لا مانع أن يكون المراد بـ «المشرقين والمغربين» هما مشرقا الاعتدالين ومغرباهما. ويكون السر فى اختصاصهما بالذكر هو اتفاقهما فى المقدار الزمنى، بخلاف ماعداهما من مشارق ومغارب.

---

(١٥) معجزة القرآن - «كتاب اليوم» [٢٥ : ٢٨].

(١٦) المنهج الإيمانى [٢٧٠] وما بعدها. مرجع سبق ذكره.

ودلالات هذه الإشارات على الحركة الثانية للأرض وهى حركتها حول الشمس، قد ألمح إليها القرآن الحكيم بإضافة كلمة «رب» إلى المشرق والمغرب، والمشرقين والمغربين والمشارق والمغارب، لأن هذه الإضافة تفيد تكوين المضاف «رب» للمضاف إليه: المشرق والمغرب، والمشرقين والمغربين، والمشارق والمغارب.

لأنه ـ عز وجل ـ خالق ومدبر حركة الأرض حول الشمس التى ترتب عليها هذا التفاوت العظيم فى الوجود.

●●●

وقد أكدت آية أخرى هذا المعنى المفهوم من إضافة «رب» إلى ما أضيفت إليه فى الآيات الثلاث التى تقدم ذكرها، وهى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾(١٧).

أفادت إضافة «رب» إلى «المشرق والمغرب التمهيد للألوهية والوحدانية؛ لأن الحركة العظيمة التى ترتبت عليها ظاهرات الشروق والغروب والإيلاج سواء كانت ملاحظة من الشرق إلى الغرب، أو من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، هذه الحركة لا صانع لها فى الوجود غير الله ـ عز وجل ـ.

وهذه الظواهر الكونية التى صارت الآن حقائق تحدث عنها القرآن المعجز، فى عصر كانت البشرية فيه فى أمية ضاربة أطنابها على العالم كله. فإن جارينا ـ جدلا ـ بعض المستشرقين، الذين اتهموا محمدا ﷺ بتزوير القرآن فى غار حراء، فنحن وهم مطالبون أولا بأن نقنع أنفسنا بمصدر تطمئن إليه النفس، علَّم محمدا ﷺ هذه الحقائق المذهلة. ونحن وهم لسنا واجدين فى الأرض من يصلح فى ذلك الوقت أن يكون مصدرا استقى منه محمد ﷺ هذا الفيض العظيم من العلوم والمعارف، التى لم تكن معروفة لأحد من البشر إلا منذ قرن أو يزيد قليلا من الزمان.

فهل من سبيل أمامنا وأمامهم يُعْثرُنا على ذلك المصدر، الذى علم محمدا ﷺ ما لم يكن يعلم، حتى يمكن القول بأن محمدا هو الذى ألف القرآن فى غار حراء، وليس وحيا عُلْويا من عند الله.

لانخال أن أحدا منهم سيحدد أو حتى يسلم مجرد تسليم بأن محمدا تلقى هذه المعارف المذهلة عن مصدر كان يجيد الإحاطة بها فى تلك العصور

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١٨).

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(١٩).

---

(١٧) المزمل [٩].

(١٨) البقرة [١١١].

(١٩) هود [١٤].

بلبل الفردوس .. بلال بن رباح

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾
الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾
الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن
نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ **سورة الليل الآيات (١٤، ٢١)**

أبو هشام

١

سجع الطير فى الوكور فأبكاه
من الطير أنه يتغنى
نغمات تهز منه حناياه
فيشتاق أن يعالج لحنا
كلما دوت اللحون دعته
أن يعيد الصدى ليبدع فنا
أن رأى خلوة من الناس غنى
بأهازيجه فرادى ومثنى
وتر فى اللهاة يغفو مع الصبح
ويصحو مع الدجى حين جنا
كتم الشدو عن ذويه حياء
مَن من السامعين ينصف قنا
لو تغنى صاحوا به فى ازدراء
دونك البيد، فارع نوقا وضأنا
حبشى تؤوده لغة الضا
د فتمضى الألفاظ فى فيه لكنا
دفع اللفظ، واستمع بحة الصو
ت فتلك المنى لمن يتمنى!
ساكن السطح ثائر الغور يغلى
بالظهر منه يناقض بطنا !
ولعينيه فى محياه ومض
هل رأيت البروق تخطف وهنا
يستشف الذكاء من مقلتيه
وبه يعتلى على الرق شأنا
سلس، هين القياد وإن قا
سى من القيد ما يقاسى المعنى
ألف الصبر، حين لا يبعث الصبر
لذى الهيعة المروع أمنا

أتراه قد كان يسمع همسا
من وراء الغيوب يسرى الهوينا
معلنا مشرق السنا لحفاة
قد ترامو فى البيد سهلا وحزنا

٢

وأصاخت أم القرى ذات يوم
لنداء من سدة العرش رنا
بعثت قوة الحقيقة فيه
منطقا يفحم المقاول معنى
لو على الطود رتلت منه آى
سجد الطود فى خشوع وحنا
أمراء البيان قد شدهوا منه
فصاروا بكما وكانوا اللسنا
قد تحداهمو، فهموا، ولكن
بعدت شقة التفاضل بونا
كم خصيم مفوه بات بالعجز
مغيظا، فراح يقرع سنا
زلزل الحق أذنه فحشا السمع
بإبهامه، يريد مجنا!
ينظم الفاتن الخلوب من العصم
قصيدا يروق معنى ومبنى
فإذا حاول التحدى بشىء
راح بالعجز والفهاهة يمنى
الألداء روعوا وذوو الإنصا
ف شاموا فى الوحى سعدا ويمنا

همر السلسل النمير عليهم
فكأن السماء تنهل مزنا
الشفاه الظماء روت غليلا
طالما لوح الصدور وعنى
والقفار الفساح أورق فيها الصخر
روضا، وظلل الكرم مغنى
(وبلال) يصغى لرائعة الوحى
فيختال معجبا يتثنى!
فضض الوحى نور كون جديد
من يخال الألفاظ تبعث كونا!
هز معنى الإنسان فيه وقد كا
ن بديدا يكاد فى الرق يفنى
وجلا معدن الكرامة فيه
فعلا واثبا، ورف، وغنى
ليس غير الرحمن أولى بتقد
يس فأبئس بظالم يتجنى
سادة، قيل عنهمو، ورءوس
عاليات منهم لدى الصخر تحنى
عبدوا الصخر ويحهم ثم راحوا
يقهرون العبيد ذلا وغبنا
(وبلال) فى قبضة الهول يبدى
البشر زيفا، ويمضغ الشوك حزنا
عبدالله وحده فتلظت
أنفس تعتلى على الله ضغنا
أيشذ العبد الرقيق عن القو
م ولا يحتسى المنية هونا

فليعذب، ولا خسار إذا ما
ت، فلن يسمو القميء، وأنى!
طرحوه على اللظى ما توانى
عن تسابيحه، ولاند ذهنا
كتم الحسرة اللهيفة فى القلب
فما ناح جازعا أو أنا
أحد درعه يعود بها الصخر
على صدره المعذب عهنا
أحد فى اللظى نداء لهيف
فإذا ردد النداء اطمأنا
أسلموه لفتية سحبوه
فوق حر الرمال يسرى ويمنى
لم يصعد من زفرة أو يغضن
صفحة الوجه وهو سأمان مضنى
كاد لولا (الصديق) يلقى رداه
حيث واتاه عاجلا ما تأنى
بذل التبر عن سخاء حيى
يا لنبل، لغيره ما تسنى
طاب دنيا، فرف روحا شفيفا
أى قلب من قلبه البر أحنى
قدم المال مؤمنا يتزكى
فمضى غانما، وبوىء عدنا

٣

وزهت غرة الحنيفة فى الكو
ن فكانت من طلعة الشمس أسنى
وتوارى الذباب فى نفق الأر
ض وقرت ملائك النور عينا
وعلت راية الهدى فأظلت
قوة تعتلى قلاعا وحصنا
وأثار الحنين صوت بلال
فعلا شاديا يؤذن وهنا
عاشق الطير فى الوكور تغنى
بأذان هز الأحاسيس منا
لا تسل كيف كان قبل، ولكن
ردد الطرف كى ترى كيف كنا!
جل أن يطلب الأغانى فنا
فغدا بالأذان أكرم فنا
قام يشدو (الله أكبر) فاهتا
ج ضمير، ورف قلب، وحنا
وغدا داعى السماء فى اللأ
رض تربو على صداه وتغنى
كان قبل الإسلام لا شىء لكن
قد حباه الإسلام ما يتمنى

***

العربى بين الأصالة والمعاصرة

للأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الفيومى

... تردد سؤال فى دوائر الفكر الإنسانى عن العرب فى تاريخهم [1].. هل قدم العرب المسلمون الأوائل للحضارة الإنسانية عطاء يستحق من المرء أن يقف عنده؟ أم أن هؤلاء البداة الذين انطلقوا من الجزيرة العربية.. ما عرفوا النور لو لم تكن لهم تلك المماحكات مع الفكر اليونانى؛ فلسفة.. ورياضة.. وعلوما..؟

ما بال أولئك.. يحاولون التجريح بحضارتنا تارة.. وبفكرنا طورا.. وبتطلعات أمتنا مرة أخرى، ترى من ينكر علينا أننا هضمنا الفكر الإنسانى، وأضفنا إليه جديدا فى كل شىء، ثمة أكاذيب كبرى فى التاريخ.. ولكن عطاء أمتنا العربية المسلمة كان حقيقة.

وفى تلك هوية الإنسان العربى وهوية انتمائه إلى تاريخه، وإذا لم يمتلك هذا الإنسان هوية الانتماء التى تميزه عن الآخرين.. فجدير به أن يكون عرضه للضياع والتمزق والقلق.. وبالتالى السقوط فى مهب التيارات العاصفة تقذف به كيف تشاء.

ونحن كأمة عربية مسلمة يليق بنا أن نصل أسباب تقدمنا بأسباب أصولنا المعرفية والفكرية على ألا يتحول هذا الموروث العظيم إلى « صنم نتحجر » أمامه.. أو نحرق البخور له.. جامدين فى أماكننا لا نريم.. فالتراث حركة متجددة مشعة ومضيئة فى الأجيال إذا أردنا ذلك.

لذلك يطرح هذا الكتاب قضية أساسية ومركزية تواجه الإنسان المعاصر، ولاسيما بعد النقلة الحضارية التى طرأت على المستويات والصعد: الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والسياسية.. هذه القضية هى العودة إلى « الأصالة » كنوع من أشد أنواع الانتماء الإنسانى على أنه فى المقابل تقف مسألة « المعاصرة » ومواجهة العصر والحداثة التى تغزو حياتنا اليومية.

فهل نحن حقا معاصرون؟ بمقدار ما نحن منتمون إلى أصالتنا؟

(١) من حوار أجراه معى الشاعر الإذاعى السورى حسان عطوان.

أم ننطلق من فراغ؟

.. وهل تعنى المعاصرة أن ندخل العصر مجردين من تراثنا العربى والإسلامى؟

وهل تعنى العودة إلى التراث: التشبث بكل الموروث الحضارى؟.. ترى كيف نعود إلى هذا التراث؟

وهل هى عودة المأخوذ المستلب؟ أم عودة المتسائل الطارح قلقه، والباحث بين تضاعيف هذا التراث عن أسئلة شافية لأدواء هذا العصر؟

هل نأخذ كل ما ورد فى هذا التراث؟ أم هى عودة انتقائية؟

يتطرف البعض ويقول: علينا أن نرفض كل ما ورد فى التراث.. بدعوى أننا لا ندخل العصر حتى نندمج معه فعلينا أن نطرح جانبا كل ما يشدنا إلى الماضى ونقوم بعملية تهوية كاملة.

والبعض الآخر يتطرف بدوره فيقول:

.. لا.. علينا أن نرفض المعاصرة جملة وتفصيلا لأنها نوع من الاستلاب الحضارى بمعطيات العرب.. وعلينا أن نتمسك بتراثنا ولندخل هكذا..

وهناك من يقف بين هؤلاء وهؤلاء

لذلك علينا أن نبدأ بالتعريف.. ماذا تعنى «المعاصرة» و«الحداثة» ومفهوم التراث والأصالة؟

.. لا شك أن قضية التراث والأصالة طرحت مقابل دعوتين:

الدعوة إلى التراث فقط.. مقابل الدعوة إلى المعاصرة.. أو التحديث فقط.. ولكل من هاتين الدعوتين أنصار.. غير أننا لا ندخل فى التفاصيل كى لا يرهقنا الجرى وراء الدفاع بمقدار ما نريد أن ندخل بالتفاصيل فى تلك القضية، وهو أن الذين يدعون إلى المعاصرة يتولون الولاء الغربى بمعنى الانتماء إلى اتجاهات غربية بكل أصنافها.. كذلك الذين يدعون إلى التراث هم مبالغون لأن الإنسان لا يستطيع مطلقا أن يكون معاصرا وهو يعيش فى ضمير الماضى.. هذا هو الصراع الحقيقى، كذلك الذين يدعون إلى المعاصرة يبالغون لأنهم يتصورون أننا نشأنا من فراغ.. هذا من شأنه أن يؤدى إلى توتر بين الطرفين.. الأمر الذى رتب على هاتين الدعوتين فواصل أقامت بناءها على كثير من التنابذ..

فمثلا: الذين يدعون إلى التراث يصمون أهل المعاصرة بألقاب التقدمية واليسارية.. وكذلك هؤلاء يصمون الذين يدعون إلى التراث بألقاب أخرى كالرجعية والتزمت.. ولكن لو أردنا أن نفصل بين هؤلاء وهؤلاء، فإننا نجد من يدعو إلى المعاصرة منبتا عن الماضى موصولا بحاضره.. والذى يدعو إلى التراث نجده كذلك منبتا عن العصر موصولا بماضيه.

فكلاهما منقطع عما يدعو إليه.. والمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.. هناك من يرى أن القول بالوسطية هو المخرج الوحيد من الطريق المسدود، وكما يقولون نتجنب بذلك سوء الفهم، وحين نطرح القول بالوسطية للمناقشة بمعنى أن نأخذ من التراث شيئا.. ومن المعاصرة شيئا عن طريق الانتقاء.. سنجد أنفسنا أمام مشكلة البحث عن معيار الانتقاء.. بمعنى، على أى معيار أخذنا هذا من التراث وتركنا ذلك؟ وأخذنا هذا وتركنا ذلك من المعاصرة؟.. سوف نقع مرة ثانية فى

دائرة اختلاف مليء بالتعصب حول المعيار الفاصل بين الصالح من التراث أو المعاصرة، ولاسيما أن هناك أنصارا للمعاصرة سوف يبالغون فى معيارهم وأنصارا للتراث سوف يبالغون كذلك فى معيارهم.. فندخل بسبب تلك الاختلافات حول استفهامات قد تنهك العقل، إذن ليست ثمة دعوة للوسطية.

وإنما دعونا نستجب لطبيعة الإنسان «الأشياء تفرض قوانينها»..

.. ذلك لأن ثمة اختلافا بين حضارتين: الحضارة الأوربية تأخذ قوتها من المعاصرة فقط مهملة بقية جوانب الروح.

أما الحضارة العربية الإسلامية فتستمد قوتها من المواءمة بين حاجات الروح وحاجات الحياة.. هنا يظهر الاختلاف.. فلنستجب إلى أصالتنا الإسلامية إذن، لنرتد إلى الأصالة لنأخذ منها قوة متجددة، ومن المعاصرة: الحركة والتوظيف لكل الممارسات الحضارية.. تراثنا العربى الإسلامي كان ممارسة وحضارة ولم يكن ذكريات فقط.. ولكى يعيش الانسان معاصرا لعصره فلابد أن يمتد إلى آفاق الماضى كى يستطيع أن يأخذ برنامجه، أو أن يوظف معالم حضارته المعاصرة، فالتراث والمعاصرة وجهان لعملة واحدة، لذلك ندعو إلى التفاعل بينهما بكل ما تعنى كلمة التفاعل من آفاق.

من هنا نطرح هذه القضية من خلال الحركة الدءوب بين القديم والحديث وهي:

مسألة الانتماء والولاء.. فلا يمكن إذن أن نبدأ من فراغ، ولاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار أن الحركة الأوربية لم تدع أنها بدأت من فراغ وإنما اتجهت إلى ما ينفعها من اللاتينية والإغريقية والإسلامية حتى استوفت مقوماتها عبر ارتدادها إلى الماضى بحثا عن العلوم التطبيقية ومقوماتها المنهجية منذ تاريخها.

فحين نذهب إلى أى بلد أوربى نجد الإيطالى فى فرنسا يستعمل سيارة إيطالية، والفرنسى فى إيطاليا يستعمل سيارة فرنسية، إنه يعتز بطابع تكنولوجيته الخاص، حتى السيارة فهى متميزة فى إيطاليا أو فى فرنسا للمحافظة على سمة التميز الحضارى وانتمائه.

أما نحن.. عن أسف لا نكاد نتلمس هويتنا الحضارية وتميزنا العظيم.

وأنا اعتقد أننا إذا تمسكنا بفكرنا العربى ولغتنا العربية نستطيع أن نحقق ولاءنا لأصالتنا، وإذا تمسكنا بأصالتنا، فسوف لا نقف حيارى أمام المعاصرة التى تجعلنا نعانى أزمة أمام تراثنا.. لأن الإنسان العربى غير متفاعل بالشكل المطلوب مع حضارته سواء من حيث التفكير أم اللغة.. ولهذا نسوق مثالا وهو.. موقفنا من لغتنا، فنحن نتحدث بلغة: لهجة دارجة.. ونكتب ونقرأ فى مدارسنا بلغة عربية، ولا نجد لها استعمالا فى الحياة اليومية.. وحياتنا التكنولوجية ليست من اللغة التى نتفاهم بها أو التى نكتبها.. إنما هى لغة غير عربية: إنجليزية أو فرنسية.. إلخ.

فهنا نقطة أساسية، وهى أن اللغة العربية لا نجدها على ألسنتنا فى الممارسة العامة بل نتحدث

بلهجات محلية.. على أنى اعتقد أن اللغة العربية ليست عاجزة إطلاقا عن مواكبة العصر، فاللغة صالحة وإنما العجز كامن فينا نحن.

وكذلك نضع أمامنا ما يمكن أن نطلق عليه «متغيرات العصر» تحملها كتب ونظريات تجاوزها الزمن وألغاها وأبطل ما جاء بها: إما باكتشاف حقائق أكثر صحة ودقة، أو بتخطى ما جاء فيها.. فهناك ضرورة لغربلة وانتحال التراث.. فنبعث المضىء والمشرق منه.. ونطرح ما كان دعوة إلى الانحطاط والاضمحلال، وذلك لا يتم بشكل بناء إلا إذا أقمنا بيننا وبين تراثنا حوارا بناء وإيجابيا ولا نتركه عرضة لتراكم غبار الزمن عليه، كما لا يمكن أن نعتمده كله.. كيف يكون مقبولا أن نأخذ بكتب ونظريات بعض الجغرافيين العرب الأوائل.. الآن ثبت أن هناك حقائق علمية تناقض ما قالوا به.. وهناك كتب لابن سينا.. والزهراوى.. وجابر بن حيان.. اعتبرت إلى مطلع القرن التاسع عشر.. كتبا معتمدة فى التدريس، ولكن الآن وبعد تقدم الاكتشافات العلمية، على كل صعيد نظريات متواضعة فلا يكون التشبث بها إلا لكونها تشكل تراثنا.

ومع تقاصر المسافات وكثرة وسائل الاتصال وسرعتها أصبح التراث الإنسانى العام تراثا للجميع.. وكما يقال: ليست المعرفة مقتصرة على وطن أو أمة.. وكما جاء فى الأمر: «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

فأنا أفهم المعاصرة على أنها منهاج وليست انتقاء من هذا لذاك ومن ذاك لهذا.. إذ كيف انتقى وأنا لست محكما على القديم.. بمعنى أنه لا ينبغى أن أعطى نفسى لكونى معاصرا حق الحكم على القديم بأن هذا يتفق مع العصر وهذا لا يتفق، لأن الإنسان الذى يمنح نفسه هذه السلطة مازال غير متلائم مع عصره.. وغير متلائم مع الماضى.

أما حين تكون المعاصرة منهاجا فهو الذى يحدد لى ما هو المطلوب من التراث وفق المكتشفات العلمية.. هذا كله فيما ليس داخلا فى الثوابت منه.

.. ومن الذين اعتمدوا منهج الانتقاء والاختيار.. د. زكى نجيب محمود حين ألف كتابه «تجديد الفكر العربى» وكتبا أخرى.. حمل قلمه وأراد أن يجدد فى الفكر.. طبعا له نظراته قد نوافق على بعضها ونختلف معه على البعض الآخر.. وهذا شأن الإنسان مع كل فكر.. لكننا نأخذ عليه، أنه حين أراد بيان وجهة نظره فى الفلسفة الإسلامية: اعتمد على كتاب «هنرى كوريان» فى الفلسفة الإسلامية مترجم إلى العربية.. وكان عليه الرجوع إلى مصادر الفلسفة الإسلامية ذاتها، ثم يردف برأى كوريان مادام يريد الحكم على التراث.

ولاشك أن نظرة الانتقاء تعنى بشكل جوهرى الأخذ، والترك، وما أتركه يلزمنى الحكم عليه واضهاده، وما آخذه يجب على أن أتقولب داخله، وفى هذا عنت شديد.. فالتناقض فى الواقع ليس فى التراث ولا فى المعاصرة وإنما فى فكر الإنسان المعاصر فهو لا يعيش حضارته إلا بقدر ما يستهلك منها.. بمعنى أنه لا يدخل بعقله فى آفاق المخابر، ولا

فى آفاق التجارب العلمية، وغير مشارك كذلك فى التنظير العلمى.

إنسان يعيش حياته قلقا مشدوها، حاضرا متدنيا، غير واع لتاريخه الذى مارسه فى ظل دولة الإسلام الأولى، فمازال الإسلام هو الإسلام الذى قلب حياة ذلك البدوى لينشر فى الآفاق حضارة ومعرفة، وجادل الفكر الوثنى وصرعه وانتصر عليه، لا نظن أنه مهما كتب أعداؤه ضده سوف ينالون منه.. فالإسلام دين الحياة ودين الممارسة.. فأنا لا أقول بالوسطية بين التراث والمعاصرة إنما أقول: إن الحكم التقويمى بالمعقول أو اللامعقول.. يحدده العصر نفسه، بمعنى أنه ثمة قضايا.. إذا تجاوزت مع تاريخها وأصبح ليس لها نظير معاصر فى متطلب عصرى.. وربما كانت الأهواء الشخصية قد أدرجتها فى عداد الآراء غير المعقولة.. فليس التراث إثما كله، وليست المعاصرة حاضرا منقطعا عن الماضى، وأسوق مثالا على ذلك، آراء ابن باجة وهى من التراث.. أرى أنها تحمل كيانا فكريا جديرا بالمناقشة، لأنه يتصور وجود مدينة فاضلة يعيش فيها الإنسان ابنا للطبيعة.. أنا قد لا أتجاوب مع آرائه وأتخيل أنها عديمة الفائدة.. والواقع أننى أستفيد منه فى دراسة المنحنيات الفكرية التى تربط المفكر بعصره أو تفصله.. وتثير فى الذهن أسئلة منها.. لماذا يهرب المفكر من عصره إلى مدينة يتخيلها يعيش فيها متوهما أنها كنف السعادة مثل هذه الاستفهامات ضرورية.. لأننى محتاج إلى بناء فكرى متكامل.. أحتاج إلى ذلك البناء الخيالى والعقلى، ومتى عاش الإنسان بعقله فقط؟ وهذا هو معنى المنهج، فالتراث مهم لأنه يعطينا نهجا إصلاحيا لحاضرنا، ويزداد هذا المنهج الإصلاحى تفاعلا مع رواد الإصلاح بفضل مقررات قواعد القياس والاستحسان وسد الذرائع، مثل هذه القواعد لم توضع عبثا وإنما هو جهد إنسانى وضعه أسلافنا ليواكبوا بين الإسلام، وحاجات العصر، وعندما كنت أدرس فى فرنسا وجدت تراثنا العربى والإسلامى مفهرسا فهرسة جديدة، ومعنيا به عناية شديدة ازددت زهوا وأنا غريب فى ديار الفرنسيين وجدت فيه ذاتى، فهلا ننهض بجمع تراثنا دراسة وتبويبا ولدينا الإمكانات والحمد لله لنقوم بعبء تبعته.. ومن أجل أن يستقيم المنهج فلابد أن تزدهر روح النقد والتحليل، وإلا أعطينا الحقيقة والكذب نفس السلطة.

فلاشك أن الاهتمام بالتراث ضرورة من ضرورات المعاصرة كى لا تستولى علينا روح الشك فنقذف بقيمنا كما نقذف بالأشياء المهملة، ونتولى عن ماضينا، وإذا تولى الناس عن الماضى وتراءى لهم غير مؤكد أو غير صحيح سحبوا الثقة منه وجرفهم عن الماضى تيار عاصف من الشك فى أسلافهم غير مبالين بقيم هؤلاء الأسلاف وماضيهم، وتتأرجح أحكامنا بين الخطأ فى الحكم، وبين الكذب على الأسلاف، وإذا اهتزت علاقتنا بالماضى يحدث ما يماثل الانهيار الشديد فى الذاتية والهوية، وصار الناس لا يرون شيئا مؤكدا إلا حاضرا مشوشا، وأما المستقبل فيكون قد انتقل إليه سراب الشك من الماضى.

مواقف إسلامية

من دروس التربية العملية

للأستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة

من الأهميـة بمكان: أن نعـود إلى الماضى.. وفى أزهى عـصـوره.. نتـمـلاه ممثـلاً فى رمـوزه وكنوزه من الرجال العظام:

نفتح أبصارنا على أعمالهم.. وبصائرنا على أخلاقهم..

نرطب ألسنتنا بمأثور كلامهم.. ومنثور حكمهم.. من كل مفيد نبعث به من جديد.

فإذا الأمة:

ماضية: بسليقة الإقدام.. وليس الإحجام.. الاقتراب.. لا الانسحاب.. الانتعاش.. لا الانكماش.

وفى تأمل سير الصالحين إلى جانب ذلك: فرار من الثقافات الرديئة.. والبدع السيئة.. من كل مايعكر هذا النبع الرائق.. وذلك مايشير إليه علماؤنا.. الذين قالوا: (من شغل نفسه بالبدعة. قلّت رغبته فى السنة، فمن سمع الأغانى. قلّت رغبته فى سماع القرآن.. ومن شغل نفسه بالسفر سياحة.. لم يفكر فى الحج.

وهكذا:

إذا أخذ العبد من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته.. قلّت رغبته فى المشروع. وقلّ انتفاعه به).

وتأسيساً على هذه القاعدة.. فنحن مدعوون إلى سفر طويل فى أعماق ماضينا.. تجلية للعبرة.. وكشفا عن الأسوة فى صحبة الإمام: عبدالله بن المبارك ـ رضى الله عنه ـ

من هو ابن المبارك

كان جواداً سخياً: ينفق ولا يخشى من ذى العرش إقلالاً.. وكان ـ مع غناه ـ عاشقاً للحديث الشريف.

قيل له يوماً:

ألم تمل من طول البقاء فى دارك.. دارساً للحديث؟

فقال لعاذليه:

كيف أمل صحبة رسول الله ﷺ.. ثم.. لعل الكلمة التى سأنجو بها.. لم أقلها بعد!

ومع هذا:

فلم يقف جوده عند بذل المال.. ولا علمه عند الشرح والتحليل.. ولكنه جاد بأعز مايملك: روحه.. روحه التى حملها على كفه مجاهداً جسوراً.. مخلصاً.. ومن إخلاصه: أنه كان يجاهد ملثّماً. حتى لا يعرفه أحد.. وقد أعجب به رجل يوماً.. وهو يجاهد الكفار.. فكشف الغطاء عن وجهه.. فما كان من ابن المبارك إلا أن عاتبه.. لأنه فضحه!!

ولك أن تتصور.. ابن المبارك.. حركة دائبة لا تتوقف.. وهو واحد من مدرسة يقول قائلها: أثقل الساعات علىّ.. ساعة آكل فيها!!

ابن المبارك.

الرائد الذى لا يكذب أهله

هكذا كان ابن المبارك عظيماً فى جهاده.. وجوده.. وعلمه..

كان يجاهد عاماً.. ويحج عاماً..

ولم يكن حجه «سياحياً» ترفيهياً.. ولكنه كان فيه مصلحاً اجتماعياً.

كان يخرج مع الموكب الذاهب إلى الحج.. من اليوم الثالث من شوال.. طبق خطة الرحلة. والتى تتلخص فيما يلى:

١ ـ كل حاج يدفع من جيبه: الواجد. والفاقد.. الكل فى الدفع سواء.

٢ ـ يضع كل ما أخذه فى خزانته.

٣ ـ أثناء الرحلة: يأكل الجميع من طعام واحد.. وفى وقت واحد. إلا رجلاً واحداً هو ابن المبارك نفسه.. والذى يمر عليهم متفقداً.. ثم لا يتناول طعامه إلا أخيراً.

وهكذا القائد الإنسان.: يطمئن على جنوده أولاً..

٤ ـ ثم.. وبعد العشاء.. يكون الغذاء الروحى: إنه ينقلهم بدروسه من الأرض.. إلى قيم السماء.

فكانت دروسه تهيئة للنفوس من أو شابها.. حتى تكون مستعدة للتعامل مع جو الحج الطهور.

العلماء..والأمراء معاً..على الطريق

كان من دعاء الصالحين:

اللهم أصلح لنا ولاة أمورنا.. وأصلحنا لولاة أمورنا. ذلك بأن صلاح الحاكم والمحكوم مؤدٍ إلى صلاح الأمة كلها.. والتفرغ للعمل الجاد لها.. بدل بذل الطاقة فى التنافر والتنابز.. فإذا كان المحكوم عالماً.. فإن ثمرات الوفاق ستكون أزكى.. من حيث كان اتحاد الأمراء والعلماء مدخلاً إلى عزة أمة انسجمت عناصرها المؤثرة والتى تتساند ولا تتعاند.

نذكر هذا.. ونحن نرى بعين خيالنا موكب ابن المبارك يدخل مكة المكرمة: لقد سبقه الرشيد

إلى هناك بموكبه الضخم الفخم.. ولكن الرشيد يذهل من موكب العالم الذى كان على أو فى مايكون الوقار والجلال..

ولكن الخليفة المؤمن لم يحقد عليه.. ولم تأخذه عزة الخلافة بالإثم.. بل قرر أن يضيف من جلال الشيخ إلى حسابه.. حين قرر أن يستفيد بابن المبارك فى تدعيم ملكه..

لقد استبعد الخليفة الحسد المدمر.. حتى لا يدير معركة تنزف بها دماء الأمة فى دوامة التنافس المحموم.. حين صمم على أن يكون عز ابن المبارك عز له.. والقلوب الملتفة حوله.. تميل إليه وتقبل عليه.. جزاء إكرامه للشيخ..

وليس بالضرورة أن يكون من مقومات العالم.. مقاومته للحاكم.. ولا أن تكون مميزات المحدث على قدر هجومه على السلطة القائمة.. لكن الحكم على هذا أو ذاك. راجع إلى توفير جو من الانسجام بين الطرفين.. فراراً من فتنة تنتهى حتماً بهزيمة الإثنين.

الحاكم.. عند حسن الظن به

أراد الحق ـ تعالى ـ أن يوضع إخلاص الخليفة على محك الاختبار.. فكان من تدبيره ـ تعالى ـ أن يحدث جفاف..

وعلى الفور.. أمر الخليفة أن يكون الإمام فى صلاة الاستسقاء.. «ابن المبارك».. إيماناً منه أولاً بورعه وتقواه.. وثانياً: استجابة لمشاعر المسلمين المتعلقة به.. والراغبة فى إمامته.

وتقدم ابن المبارك.. وأمّ المصلين.

ثم دعا بدعاء علىّ. ـ رضى الله عنه ـ:

[اللهم: قد يبست جبالنا. واغبرت أرضنا. وهامت دوابنا. وتحيرت فى مرابضها. وعجت عجيج الثكالى على أولادها. وملّت التردد فى مراتعها. والحنين إلى مواردها. اللهم فارحم أنين الآنة وحين الحانة. أللهم فارحم حيرتها فى مذاهبها.

اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا السنون.. فكنت الرجاء للمبتئس.

والبلاغ للملتمس. ندعوك حين قنط الأنام ومنع الغمام: ألا تؤاخذنا بأعمالنا. ولاتَأْخذنا بذنوبنا. أللهم سقياً منك تَعشَب بها نجادنا. وتجرى بها وهادنا. وتُخصب بها جنابنا. فإنك تنزل الغيث بعدما قنطوا وتنشر رحمتك. وأنت الولى الحميد].

وعندئذ.. تطلعت القلوب إلى تحقيق أملها فى المطر.. لكن المطر لم ينزل. وخيم على الناس حزن دفين.

سرّ الله.. فى أضعف خلقه

وكانت المفاجأة الكبرى.. عندما التفت ابن المبارك.. وهو فى دوامة شجونه.. فأبصر فتى أسمر.. يتعلق بأستار الكعبة. ثم يدعو بهذا الدعاء:

[اللهم إنى لا أسألك لنفسى.. فإنى لا أخشى الموت ظمآناً.

ولكنى أسألك:

للطفل الرضيع. والحيوان الجائع. والأرملة البائسة.. هم عبادك يارب.. وقد قصدوا حرمك. ووافَوْا ساحتك].

عندئذ بكى ابن المبارك.. واتجه صوب هذا الفتى.. والذى اختفى بين الزحام.. ثم.. أمطرت السماء!!

رجال لا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا

وقد أسرع الناس إلى ابن المبارك مبتهجين مهنئين.. ظانين أنها بركة ابن المبارك..

ولكنه ذكر لهم أن ذلك ببركة هذا الفتى الأسمر.. والذى حاول رؤيته فى اليوم التالى.. ثم كرر المحاولة دون جدوى..

من جوانب العظمة فى شخصية ابن المبارك

إذا كان هناك ناس مزوّرون: يفرحون بأفعالهم.. بل ويحبون أن يحمدهم الناس بما لم يفعلوه.. فإن لله ـ تعالى ـ رجالاً ينسون مايفعلون من الخير.. راجعين بالفضل لأهله.. وفى مقدمتهم ابن المبارك ـ رحمه الله ـ

وفى الصنف الأول يقول صاحب الظلال:

«نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأى. وتكاليف العقيدة. فيقعدون متخلفين عن القتال. فإن غُلب المكافحون وهزموا.. رفعوا رءوسهم وشمخوا بأنوفهم. ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة. أما إذا انتصر المكافحون وغنموا.. فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدى خطتهم. وينتحلون لأنفسهم يداً فى النصر. ويحبون أن يحمدوا بمالم يفعلوا!

إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبن والادعاء.

نموذج يرسمه التعبير القرآنى فى لمسة أو لمستين.. فإذا ملامحه واضحة للعيان.. وسماته خالدة فى الزمان.. وتلك طريقة القرآن»[1] وحين نطالع الجمال.. جمال الاعتراف بالحق ونسبته إلى أهله يتمثله ابن المبارك ـ رحمه الله ـ فإن إعجابنا به يزداد عمقاً.. واتساعاً: وهو درس للدعاة اليوم:

فإذا كان هناك من هو أقل منى: سناً.. ورتبة.. ثم حقق الله الخير على يديه. فليكن سرورى بذلك معادلاً لسرورى لو تحقق الأمل على يدىّ..

إن هذا الذى حقق الله أملنا على يديه.. يسير على ذات الطريق.. إلى نفس غايتى، التى أريدها.. وإذن.. فمجهوده تدعيم لمجهودى وليس مناقضاً له.

وإلا.. فإن تصور الحق حكراً علىّ وحدى.. مناقض لطبائع الأشياء.. وهو نضح قيمة عفنة ذكرها القرآن الكريم فى قوله. واصفاً خلُق المعاندين الحاقدين القائلين ماحكاه عنهم:

﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ .. ﴾[2].

لقد آمن ابن المبارك بحكمة الله ـ تعالى ـ ومن أجل ذلك رضى بحكمه ـ تعالى ـ

ومن حكمته أن يجرى الخير على يدمن

---

(١) تفسير سورة آل عمران.

(٢) الأحقاف (١١).

يبدو أقل منه.. فقد يكون فى المفضول ماليس فى الفاضل..

وياويل أمتنا من هؤلاء الذين لا يرحمون.. ولا يريدون لرحمة الله ـ تعالى ـ أن تنزل..

الذين يريدون الخير حكراً عليهم.. أما من غيرهم.. فلا.

إن جهود الدعاة مضمومة إلى بعضها.. تشكل فى النهاية صرحاً ممرداً قائماً على أصوله..

بقدر مايكون التنافر والتناحر بعثرة للجهود الكبيرة والصغيرة معاً..

فى وقت يحاول اللصوص فيه التجمع.. على حساب تفرقنا.. ومن خيانة الأمانة أن نمكنهم من رقابنا .. وباختيارنا!!

من خداع النفس

ومأكثر ماتضحك علينا أنفسنا.. حين تملى لنا أننا الأفضلون دائماً.. دون اعتبار لغيرنا ممن هم فى الواقع أفضل منا.

ومن خداع النفس:

أنك قد تمدح إنساناً فى مجلس مّا.. لكنك.. سرعان ماتنقبض.. ويتلون وجهك.. حين ينبرى واحد فى المجلس ليمدح من تثنى عليه.. ليمدحه.. بما لا تعرف أنت من فضائله.. ولكن.. لماذا تغيرت وتحولت.. لما أمسك غيرك بطرف المديح؟ إنك:

أولاً: تريد أن تنفرد بالحديث عنه لتثبت أنك منصف.. فأنت فى الحقيقة تمدح نفسك.

وثانياً: فإذا تحدثت.. كان ذلك بالقدر الذى تسمح به نفسك أنت.. بلا زيادة من أحد.. حتى تظل أنت.. وحدك.. سيد المجلس.. أو سيد الناس!!

لأنك تتصور أن مدحه مخصوم من حسابك أنت..

ولقد كان موقف ابن المبارك مثالياً.. مؤكداً للناس أن تقدير المواهب حساب يضاف إلى رصيد الأخلاق.. ودم جديد يتدفق فى شرايين الأمة..

وقد كان من الممكن أن يركب الموجة مع من تصوروا أن المطر نزل بسببه..

ولكن.. كانت له فى رسوله الكريم ﷺ أسوة حسنة لما مات ولده إبراهيم: فلقد كسفت الشمس عند وفاته.. وأرجع الناس ذلك الحدث إلى وفاة إبراهيم.

ولكن الرسول ﷺ.. يحق الحق ويبطل الباطل.. مؤكداً بركة الصدق.. وإن بدا أنه يضرك.. وفساد الباطل.. وإن بدا أنه ينفعك.. فقال: [إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله: لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته][٣].

لقد سعد ابن المبارك بهذا الفتى الذى حقق الله بسببه أمل الأمل.. منطلقاً من تواضعه

---

(٣) كنز العمال جـ٧، برقم ٢١٥٥١ وعزاه إلى مالك وأحمد والبيهقى وأبو داود والنسائى عن عائشة.

الجم.. وعلمه اليقين بأنه: عبدالله.

ومهما عبدالله ـ تعالى ـ فلن يوفيه نعمة واحدة أنعمها عليه ـ تعالى ـ وهو لم يأخذ عهداً مع الله ـ سبحانه ـ أن يحقق دعاءه.. كما أراده ولو بكى ابن المبارك.. حتى سقطت عيناه. ولو رفع يديه إلى السماء.. حتى تجمدت يداه.. ولو ركع.. حتى انحنى ظهره. ولو سجد.. حتى التصقت جبهته بالتراب..

بل لو أكل من هذا التراب ما وَفَّى بعض حق الله ـ تعالى ـ عليه. ومن أجل ذلك.. كان راضياً بما حدث..

ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره.

ثم إن لحظة الهداية والتوفيق.. لا تدرى متى تكون.. وعلى يد من تكون.

وينبغى ألا تغرنا الأسماء اللامعة ـ على ماتملك من علم وإخلاص..

ولابد من المراجعة.. كما راجع سليمان عليه السلام أباه فى قضية الحرث.. وكان الحق على لسان سليمان.. على لسان الجيل الجديد.. الذى أسعد بتوفيقه.. قلوب الجيل القديم!

فى دار العبيد

أرسل ابن المبارك رجاله فى إثر الفتى.. فرأوه يدخل دار العبيد.. الذين يتاجر فيهم «ميمون الأشدق».

قال ابن المبارك لميمون:

أين عبيدك؟

فعرض عليه عبيده..

وسأله ابن المبارك «ميمون» هل بقى منهم أحد؟

قال:

بقى شاب.. أهوج.. أحمق.. لا نفع فيه..

قال ابن المبارك:

ولكنى أريد أن أراه!

فلما جئ به.. إذا هو الفتى الذى يريد.. والذى دعا الله ـ تعالى ـ فنزل الغيث!

وساوم ابن المبارك عليه.. لكن ميمون قال له:

خذ سواه.. فهو ذو ريبة.

لكن ابن المبارك اشتراه.. ثم قال له:

اعتقتك.. فانتظرنى بمكانك بالحرم.

فقال الفتى لابن المبارك:

إن كنت قد أعتقتنى.. فدعنى حراً.. انتظر. أو لا انتظر!!

ألقاك كما أريد!!

فقال له ابن المبارك:

ماتراه!!

فانطلق الفتى مسرعاً.

ميلاد إنسان

ولد الفتى من جديد.. وعلى يد ابن المبارك ـ رضى الله عنه ـ لقد كان بين هذا الفتى وبين الله ـ تعالى ـ سريرة.. كان من بركاتها نزول المطر غيثاً مدراراً.

وماأكثر الكفايات الغائبة فى زحام الحياة.. لكنها فقط تحتاج إلى رائد مصلح ينقذها من براثن العبودية.. وقبل أن تحطم ملكات الخير فيها.

وكان ابن المبارك واحداً من هؤلاء المصلحين.. الذين حرر الله - تعالى - على أيديهم ذلك العبد المؤمن.

والذى كان يعيش تحت رحمة ميمون الجشع.. المفترى وفى بيئة يتحكم فيها الفجار.. حافظًا على عقيدته..

فخرج.. أو أخرج من البيئة الفاجرة بقلب طاهر.. وعقل حر. وهكذا النخلة: تمتد هامتها فى الفضاء.. بين المقابر.

وبينما جذورها تمتص من دماء الموتى.. لكن فطرة الطهر فيها تحول الرميم.. كيماوياً.. إلى عزة وإباء: لقد تحول العظم.. إلى نواة.

وصار رميمها ثمراً حلواً.. تماماً.. كما صار الفتى بالحرية خلقاً آخر.

إن الإنسان وسط الذئاب المتوحشة.. والسباع الباطشة لا يستسيغ.. بل لايستطيع أن يعيش فيها.. لكن العظماء من الرجال يستعلون عليها - وإن كان لها أثر ما - فيظلون محتفظين بكبريائهم.. فلا تفرض عليهم البيئة مالا يريدون.. ولن يكون الإنسان كذلك.. إلا إذا وجد فى الأمة هذا الطراز المتخصص فى إنقاذ المواهب من أعدائها..

ومن هذا الطراز: عبدالله بن المبارك.. والذى كانت شيبته: زبدة.. محضتها الأيام. وفضّةً.. سبكتها التجارب.. يضئ له شعره الأبيض.. مسالك الطريق.. فأبصر على سناه تلك الموهبة التى حررها.. فقدم إلى الوطن هدية هى أحوج ماتكون إليها:

إن المشيب - رداء العقل والأدب
كما الشباب رداء اللهو والطرب !

تحرر السادة.. قبل تحرير العبيد!

ولكن مازال فى الموقف أسرار تغرى بالبحث والنظر؛ فقد تحمل ابن المبارك مرارة الموقف.. حين رفض الفتى أن يستجيب لرغبته.. التى من أجلها حرره.. وفى نفس اللحظة، ذلك بأنه إنما حرر الفتى.. لله.. وليس إرضاء لغروره.. لقد كان مؤهلاً بأريحية تسع هذا الموقف المتصلب من قبل الفتى..

وماكان لهذه الأريحية أن تحرره من يد «ميمون» ليصير عبداً لابن المبارك.. لقد تحمل ابن المبارك مسئولية الموقف.. راضياً.. ولم يكن عجباً أن يفعل ذلك.. لكن العجب أن يكون غير ذلك:

تعجبين من سقمى
صحتى هى العجب

أما عن إباء الفتى:

فقد بهرنا بالحقيقة التى تسيطر على العقول بصدقها.. وتأسر القلوب بجمالها: لقد أذن مؤذن الحرية.. فاستيقظ.. [وصاحت ديَكة الفجر تطرد بقايا النوم من عيون الزهر].

[لقد نبتت له بالحرية أجنحة النسر.. الذى خلق ليضرب فى كبد السماء مشرّقاً يحدق فى عين الشمس.. ثم سار على درب المجرة. الذى فرشت أرضه بالنجوم].

لقد استشعر معنى الحرية.. والحرية منذ اليوم سلاحه فى معركة التعمير.. ولن يتنازل عن سلاحه بعدما تمكن منه.. لأن اليد العزلاء لاينتصر بها حق. ولا ترتفع بها راية.

ثم رفض الحرية المشروطة والتى يراد لها أن تكون منحة لتصير من بعد محنة!..

لقد تحرر ابن المبارك من هنا فى نفسه.. ومن إسار هواه.. فكان مؤهلاً لتحرير فتى.. كان هو أيضاً مرشحاً.. لهذه الحرية التى صار جديراً بأهلها..

إنه الإيمان الذى يصنع الرجال: لقد حرر بعض الأغنياء فى دولة كبرى.. بعض العبيد.. لكنهم عادوا إلى أسيادهم فى اليوم التالى.. لأنهم لم يتحملوا مسئولية الحرية.. التى نهض بها فتى مغمور.. لا يعرفه الناس.. لكن رب الناس يعرفه!

ميمون ينتهز الفرصة

لما رأى ميمون ذلك الفتى يتمرد على من حرره.. انتهزها فرصة ليقول لابن المبارك:

قلت لك إنه أهوج، وذو ريبة.. فلم تصدق!

فصاح ابن المبارك:

كفّ يارجل عنه.. فأنا أعرف مكانته من ربه. وقد شاهدت منه ماشاهدت.. فقلب التاجر يديه. ثم قال له: إن لم تصدقنى.. فاسأل «زيتونة» فهى تحكى عنه ماتعلم!

وسأله ابن المبارك:

ومن زيتونة؟ قال: جارته هنا بدار الرقيق.

ونذكر هنا.. ماقاله الحكيم عندما سئل: ماهو أثقل من وقوع السماء على الأرض قال: ظلم البرئ!

ولقد كان الفتى واحداً من هؤلاء المظلومين..

لكن الحق – تعالى– لا يجعل للفساق على الأبرياء سبيلاً..

الفساق: الذين ينتهزون الفرص.. موظفين كل إمكاناتهم فى تلويث سمعة الأبرياء..

ولكن الحق – تعالى– يقيض لعباده المظلومين مايرفع من شأنهم.. ويرد كيد الكائدين إلى نحورهم.. على نحو يفرض على كل مظلوم ألا يقطع حبل الآمال فى نصر قريب..

لقد دبر الحق – تعالى– ذلك الموقف.. ليخرج الفتى من الظلمات إلى النور.. ثم ليقف إلى جانبه شيخ العلماء فى عصره.

خير الخطائين

وجاءت زيتونة تمشى على استحياء.. وهى تبكى.. وخلا ابن المبارك بها.. مع ميمون التاجر.. ثم سألها:

ماشأن هذا الشاب معك يأمة الله؟ فقالت: أنا تجنيت عليه وافتريت الباطل: فلقد وقع هواه فى قلبى.. فلم يعد فيه سواه.. فانتهزت فرصة خلا بها فى مكان منعزل.. وهرعت إليه أقبله دون مقدمة!

فصفعنى على وجهى. وصرخت من الألم.

ودوّى الصوت. فتجمع القوم.

وأقبل سيدى ميمون. فأردت أن أنقذ نفسى فقلت:

إنه راودنى فأبيت. فلطمنى.

وسكت الشاب ولم ينطق. فصدّق سيدى مازعمت!!

ولم أزل ناقمة على نفسى. أتلمس الطريق لاسترضائه.

حتى فوجئت الآن بعتقه وفراره:

هو برئ.. وأنا المريبة!

قال ابن المبارك:

كم ثمن هذه ياميمون؟

لقد صدقت القول.. فلابد أن تعتق. وعندى من سيتزوجها فى ركب خراسان.. إذا رضيت.. فهيا يا ابنتى!!

نصرة المظلوم

عندما انتهز «ميمون» الفرصة للحط من قيمة الفتى.. كان الحق على لسان ابن المبارك.. الذى وقف إلى جانب المظلوم ينصره.. بما يملك من أدلة على براءته مما نسب إليه..

بل إنه نصر الظالم نفسه بما كشف عنه من دلائل تكف لسانه عن مواصلة الافتراء..

وما أكثر الذين نظلمهم.. فنفترى عليهم الكذب.. وما أحوج الأمة إلى شجاعة الدفاع عن المظلوم.. الذى نجعل منه بالإنصاف عنصراً فعالاً.. يأخذ موقعه فى خدمة دينه وأمته.

ثم ما أحوج الأمة إلى «شجاعة الاعتراف بالخطأ» مشفوعة بالعزم على التوبة النصوح.. وكذلك كانت زيتونه..

وما أحوج المظلوم إلى الدفاع عن نفسه.. قبل أن يغرق فى طوفان الادعاء والافتراء.. فلقد سكت الفتى لما رمته زيتونة بدائها.. فركبته التهمة.. وفتح على نفسه باب الظنون.. وكان الظن أن يهب ليرد التهمة الباطلة.. كما ردها يوسف - عليه السلام- عندما قال فيما حكاه القرآن الكريم عنه (هى راودتنى عن نفسى).

سلامة إجراءات التحقيق ولاحظ من فقهه

أولاً: أنه لم يستنطق.. زيتونة.. على ملأ من الناس.. فقد يعقد الخجل لسانها.. وتظل الحقيقة خافية.. ومن ثم.. قرر الاجتماع بهما منفردين.. ضماناً لسلامة إجراءات التحقيق.

وثانياً: لما جاءت الأمة تبكى.. لم يفاجئها بالسؤال وهى فى دوامة الانفعال، لأن قوة الانفعال مانعة من اعتدال المزاج.. فيعتل الكلام..

وثالثاً: قرر مكافأة المرأة على شجاعة الاعتراف.. وفضيلة الإنصاف.. فاشتراها ثم أعتقها.. مما يحملنا على أن نقول: أنها «غُدة» المروءة التى تفرز القول جميلا.. والعمل

جليلا.. غدة شيمتها العطاء.. تضيف كل يوم جديداً.. بلا زهو.. وبلا ادعاء.

وهو درس يحمل الأغنياء مسئولية البحث عن المواهب واستثمار ملكاتها.. ليأخذوا سمتهم العملى.. فيجوسوا خلال الديار.. وإنهم لواجدون من المواهب المطمورة ما يكون إحياؤها إحياء للأمة.. وتجديد للدم فى شرايينها.

زيتونة المرأة الشريفة

ويفتح المجتمع ذراعيه لزيتونة.. الأمة الشريفة.. لتأخذ مكانها تحت ظل زوج يسعد بها .. وتسعد به..

ويسدل الستار على ماض تولى.. لتستأنف حياة جديدة على تقوى من الله ورضوان..

ولاحظ من حكمة ابن المبارك:

أنه لم يعتقها فقط.. لكنه أحس بالفراغ الذى يمكن أن يحتويها لو لم تجد الصاحب المعين..

وفراراً بها من معاطب الانطلاق.. أراد تحصينها بالزواج.. ومن تكريمه لها أنه لم يفرض عليها زوجاً.. لكنها لو أرادت.. فإنه سيختار لها ذلك الزوج.. وهكذا يستقبل المجتمع فتى.. وفتاة.. كان كلاهما من قبل رهين السجن.. واليوم.. يتعلقان بمواهبهما التى كانت معهما حبيسة.. إلى الساحة الكبرى.. ليردا إلى المجتمع جميلا.. لا ينسى.

درس فى مخاطر الاختلاط

ويبقى بعد ذلك درس فى مخاطر الاختلاط:

لقد خلا الجو.. فكان سبباً فى هجمة الفتاة على الفتى.. وكان ما كان.. ولولا الخلوة.. ولولا الاختلاط.. لما حدث ذلك.. لقد اجتمع الرجل والمرأة.. فكان الشيطان ثالثهما.. وإذ يتجاهل أناس ذلك الخطر مهونين من شأنه محسنين الظن.. حيث لا مكان للحسن هنا.. إذ يفعلون ذلك.. فلسنا على استعداد أن نصدقهم.. ثم نكذب الواقع الصارم المبين!!

وما أكثر التائبات توبة نصوحاً.. الراغبات فى عود حميد إلى الأسرة الكبيرة. تحت مظلة الطهر والعفاف..

أجل ما أكثرهن..

ولكن ناساً يقفون فى طريقهن.. جاعلين من أنفسهم أصحاب جنة ما أقامهم الله – تعالى– حراساً عليها.. وإنهن لأ حوج ما يكون إلى:

قلب وسيع كقلب ابن المبارك.. يستقبل العائدات بهذا القلب المفتوح.. حتى تتحول إرادة المتعة الحرام إلى غرام بالعمل الخيرى، تكفيراً عن الماضى.. وإعماراً للمستقبل.. حتى لتتمنى المرأة عندئذ أن لو كان عمرها أعماراً.. تستحيل بها الحياة جنات وأنهاراً.

قصة العدد

الحق المر

أرق الحجاج فى ليلة، فلم يذق للراحة طعما، وكأن هذا الجبار يخفى شجونه عن أهله وولده، فهو إذا انفرد بهمّ اعتكف دون أن يكلم أحدا، وقد عرف معاشروه فى منزله عادته تلك، فكانوا لا يجرءون على مخاطبته، إلا إذا فاتحهم ببعض ما يشغلهم عن أمره، وهم يعلمون أنه يتظاهر بما لا يبطن فيسايرونه كما يريد، وقد نادى ولده محمدا فى حندس الليل، وصاح به: علىَّ يابراهيم بن محمد بن طلحة عالم الحرمين، فقال محمد: وهل أوقظه من نومه، والرجل لا محالة نائم يستريح! فعبس الحجاج فى وجهه، وصاح به: يعز عليك أن يستيقظ إبراهيم ساعة من ليل ولا يعز عليك ألا يذوق أبوك من النوم ساعة من ليل، فهرع محمد إلى منزل إبراهيم يستدعيه، فوجئ الفقيه العالم بمن يوقظه من مثل هذه الهجعة الهادئة، ليقابل الحجاج، فقال فى نفسه: الرجل غضوب عسوف، ولابد أن واشيا بغيضا أوحى إليه بما كدَّر خاطره عنى وجمع نفسه من تشتتها الحائر، ليسأل محمدا؟ كيف حال الأمير؟ وماذا أهمه فاستدعانى - قال محمد: وهل يعلم أحد ما أهم الأمير؟ إنه أرق ليله الأطول ثم صفق بيده فاستدعانى لأحضرك وهذا مبلغ علمي، قال إبراهيم، كل خافٍ سيُعلم، وليس لى أن أسيء الظن، فقد تجرى السنن على ما أحب، وما لقيت من أبيك إلا كل خير!

ولم يطل الوقت حتى كان إبراهيم فى مجلس الحجاج، وقد عرف ما يختلج فى خاطره من الشجون حين نظر إلى وجهه العابس المتجهم، فقال له فى هدوء: طاب ليلك أيها الأمير فابتسم الحجاج مكرها، وأدنى جليسه منه ليقول له فى جد واهتمام: تعلم يا إبراهيم أن عبدالله بن عمر قبل أن يلقى ربه شكانى إلى أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان، لأنى قاومت معارضته لى فى بعض ما أصدر من المهام، ولن يستقيم أمرى إذا وجدت معارضا فى منزلة ابن عمر بن الخطاب يجابهنى بالرد على مشهد من العامة، فأغلظت له القول، وبعث بشكايته إلى أمير المؤمنين، فغضب عليَّ غضبا شديدا وكتب يقول: لو أن ابن عمر جابهنى فى قصر الخلافة ما استطعت أن أرد عليه فكيف تجابه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق عمر؟ وجعل يتهددني، وأنا

أعرف أن حاجة أمير المؤمنين إليَّ هي التى عاقته حينئذ عن عزلى! ليطمئن العامة على كرامة صاحب رسول الله!

قال إبراهيم وقد مات ابن عمر، وخلا الجو من معارضته، وسكت عنك أمير المؤمنين فماذا أهمك؟

فقال الحجاج: أنس بن مالك صاحب رسول الله وخادمه، ظن نفسه فى منزلة ابن عمر، فجعل يعارضنى، ولكنى أغلظت له القول بما أطار النوم عن عينه، فكتب إلى أمير المؤمنين كتابا لا أعرف كيف اهتدى إلى معانيه القارصة وأفكاره الموجعة، لا أعهد فى أنس بلاغه وإصابة ولكنه أتى بما يُعجز سواه! فقال إبراهيم: إن إصابة أنس لا تستغرب فقد كان جليس رسول الله فبربك أن تخبرنى ما قال لأمير المؤمنين.

فأخرج الحجاج كتابا كان تحت وسادته ونشره ليقرأ منه قول أنس: يا أمير المؤمنين لو أن رجلا خدم عيسى بن مريم أورآه أو صحبه تسمع عنه النصاري، لهـا جرت إليه ملوكهم ولنزل من قلوبهم المنزلة العظيمة، ولعرفوا له ذلك ولو أن رجلا خدم موسى بن عمران أورآه وسمع به اليهود لهرعوا إليه وفعلوا له من الخير والمحبة ما استطاعوا وإنى خادم رسول الله وصاحبه، رأيته وأكلت معه، ودخلت عليه وخرجت وجاهدت معه أعداءه، ولكن عاملك الحجاج أضر بى علانية وفعل بى ما فعل قال الحجاج وقد أخبرنى من شهد أمير المؤمنين أنه بكى وصاح: قاتل الله الحجاج لأفعلن به، ولأفعلن! وأنا أتوقع الخطر منذ عرفت ذلك، فماذا بعد أن يبكى أمير المؤمنين ؟

قال إبراهيم، الأمر جاد أيها الأمير ولابد من علاج!

فنظر إليه الحجاج وقال: ولهذا استدعيتك فأنا أعلم فقهك وورعك ومنزلتك من أهل الحرمين، ومكانك من أمير المؤمنين، وقد كتب إليّ يدعونى للقائه، ولابد أن تكون معى لتزور الخليفة ويسعد بك.

دهش إبراهيم بن طلحة، وقال: وكيف أزوره وهو لم يدعني! فنظر إليه الحجاج غاضبا، وقال: تكون معى فى حضرة أمير المؤمنين، وتشهد أنى لا أفرط فى حق الدولة، وأقابل الصعاب وأحرم النوم لكى تستقر الأمور على نحوما يرضى أمير المؤمنين! ولك عندى بعد ذلك أن استشيرك فى كل ما أهم به نحو السابقين من صحابة الرسول وتابعيهم بإحسان!

قال إبراهيم: على بركة الله، وليس لى غير أن أطيع!

كانت الرحلة شديدة فى أشهر الصيف، ولكن الحجاج قد بذل جهده الجاهد فى ملاطفة إبراهيم، والعمل على راحته وسوى بينه وبين نفسه فيما يركب ويأكل ويشرب ويلبس، بل جعل يقدمه ليؤم الركب إذا حانت الصلاة على غير عادته مع من بقى من صحابة رسول الله! حتى إذا دنت الساعة، وطلب الحجاج إذنه على أمير المؤمنين، صحب إبراهيم بن طلحة، وخاطب الخليفة قائلا:

لقد قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز وعالمه وفقيهه ولا أعلم له نظيرا فى الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق.

فابتسم عبدالملك وقال للحجاج، كأنك تجهل

منزلة إبراهيم لدى فتعرفنى به يا حجاج! أتجهل أنى قضيت أطيب حياتى بمكة والمدينة وعرفت خيارهما وأشرارهما؟ وعقدت الأواصر بينى وبين علماء الشريعة، حتى جعلونى واحدا منهم وقد سعدت بصحبة إبراهيم! لقد ذكرتنى عهدا سعيدا وصحبة ماضية ورحما قريبة، وحقا واجبا، إذن يا إبراهيم فمكانك لدى أقرب من مكان الحجاج!

ودار نقاش عام حول ما صنع الحجاج بأنس فأخذ الرجل الماكر يعتذر، ويتعلل ويذكر أنه يجمع الناس من حوله وكأنه أمير فصاح به عبدالملك: أشيخ همٍّ فى التسعين يا حجاج يجمع الناس من حوله وكأنه أميرا!! لماذا لم تجعله أحد مستشاريك فإذا كان له فى الناس سابق فضل رأوا إعظامك إياه، وتفضيلك لرأيه عرفوا أنك تحب أهل الحق، وغفروا ما سبق من هناتك، لأن الحسنات يذهبن السيئات!

أدرك الحجاج أنه لا يناقش نظيرا، بل يناقش رئيسا يملك الأمر والنهى فقال: هذا ما فاتنى يا أمير المؤمنين ومن لى بمثل رأيك وهدى عقلك، وسأفعل مع أنس ما يشرف قدرى لديك وشاهدى أمامك إبراهيم بن طلحة، ولن يشهد بغير ما يرضى الرحمن!

فسكت عبدالملك مفكرا، ثم قال فى هدوء، تنح عنا قليلا يا حجاج! فقد يكون بينى وبين إبراهيم ما لا أود أن تسمعه، وسأدعوك حين أفرغ! ونهض الحجاج حيث أراد عبدالملك، وخلا الرجلان فى مجلسهما، فابتسم عبدالملك وقال لإبراهيم: لا عليك الآن، قل ما تعلمه عن الحجاج! وإنى لسامع فمستجيب.

فقال إبراهيم مندفعا دون تلكؤ: لقد عمدت يا أمير المؤمنين إلى الحجاج فى كبريائه الآثمة، وتغطرسه السفيه، وبعده عن الحق، واندفاعه إلى الباطل، فوليته الحرمين وهما ما هما؟ وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار، والموالى والاخيار يطؤهم هذا الفاجر بطغام أهل الشام ومن دونهم، ثم يسومهم الخسف، ويحكم بغير السنة بعد الذى كان من سفك دمائهم وانتهاك حرمهم فى مدة ابن الزبير، ثم ظننت يا أمير المؤمنين أن الذنب لدى الله ذنب الحجاج ولا ذنب لك وأنت الذى وليته ووضعت فى يده السيف! وسوف تجلس غدا للخصومة بين يدى الله، وفى حضرة نبيه، يعدد قبائح الحجاج ويحملك وزرها! أما والله لن تنجو من الموقف إلا بحجة فارفق بنفسك يا أمير المؤمنين.

فسكت عبدالملك مغضبا، وقال: لقد خنت صاحبك يا إبراهيم لقد حملك كريما مهيبا، وقال عنك ما لم يقله عن أحد وظن بك الخير، فإذا بك العدو اللدود، والحاسد البغيض، لقد آذيتنى بحديثك قبل أن تؤذى الحجاج، فقم إلى مجلس مجاور حتى استدعيك.

خرج إبراهيم وقد اسودت الدنيا فى وجهه، وعرف متأكدا أن عبدالملك لن يترك الحجاج مهما طفح الكيل، واستطار الشر وخيل إليه أنه كان متسرعا حين ذكر أمير المؤمنين بمجلس الحساب فى اليوم الآخر، وبمخاصمة رسول الله إياه، إذ كانت مثالب الحجاج مما تضاف إلى حسابه، ثم عض على يده وهو يقول: ظننت أمير المؤمنين رجل حق ودين، فإذا هو رجل باطل ودنيا لقد نسيت أن عبد الملك قد غدر بأقرب أقربائه،

وعاجله بالسيف بعد أن استأمنه!و أنه لا يهتم بغير تثبيت الملك، ولو بأسنة الجور وأسلحة الطغيان! إنه الآن مع الحجاج وسيطلعه على ما قلت وسيُحذره منى وليس الحجاج بمن يسكت عن وشاية! وأنا شهد الله لست واشيا ، ولكنى ناصح أؤدى الشهادة على وجهها الأمين! ولا آمن أن يرجع بى الحجاج فيدفعنى فى الطريق إلى من يكتم أنفاسى، ثم يقول: قدر حان وموت نزل! على الآن أن أستعد للقاء الله، فقد قامت النذر، وسطع البرهان!

مضت فترة ظنها إبراهيم دهرا طويلا، وكان يتوقع أن يرى الحجاج عقب خروجه من مجلس أمير المؤمنين، عابس الوجه أحمر العينين طائر الشرر، ولكنه فوجئ بالحجاج يُقبل عليه ضاحكا ثم يحتضنه فى شوق، ويقبل رأسه، ووجهه ويقول فى فرحة، جزاك الله عنى كل خير يا إبراهيم، لئن سلمت لك فيما بقى من حياتى لأرفعن قدرك، وأعلين كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدمك! ثم تركه لأمر بدا له!

قال إبراهيم فزادت حيرتى وتطرق بعض الشك إلىَّ فقلت لعل الحجاج يمكر بى حتى اطمئن إلى جانبه، وأرجع معه فى طريق واحد، ثم ينفذ فى ما يريد، إن الرجل لئيم، وله كيد تزول به الجبال الرواسى ومثله من يبسم ظاهرا ويلعن باطنا، وقد جربت ذلك كثيرا منه، فماذا أنا صانع معه!؟ ورفعت يدى إلى السماء قائلا: رباه، رباه، أنقذنى من حيرتي، فقد ضللت السبيل؟

ثم جاء الحاجب فاستدعانى إلى مجلس أمير المؤمنين وكنت أظن أن لالقاء بعد أن تجهمنى وعنف علىّ فقمت مترددا أقدم رجلا وأؤخر الأخرى! حتى وجدتنى بين يدى عبدالملك ورأيت وجهه يموج بالبشر، فاطمأننت قليلا ثم جلست إلى جواره بعد أن أشار على بالاقتراب الدانى وربت على كتفى وهو يقول:

أصدقنى يا بن طلحة؟ هل كانت نصيحتك هذه من وحيك وحدك أم شاركك فيها مشارك!؟

قلت عفوك يا أمير المؤمنين فالناس فى المدينة يعرفون صلتى الوثيقة بالحجاج ولا يقدرون على أن يتحدثوا إلىّ بما يغضبه فأنا أمامهم ممالىء مساير؟ فكيف ينصحنى أحد بما يغضب الحجاج! إنى لأعرف فى وجوههم نفرة منى، وضيقا بى فَأَكِلُ أمرى إلى الله! فهو عليم بالسرائر.

قال عبدالملك: ولماذا تضطر إلى مسايرة الحجاج وأنت تعرفه ظالما غشوما، هلا اعتزلت!؟

فبادر إبراهيم يقول: لقد وازنت بين أمرين يا أمير المؤمنين ، أن اعتزل الحجاج فيتمادى فى بغيه، أو أدنو منه فأحذره مرة بالشدة ومرة باللين ثم أنقذ من رقاب المسلمين بذلك ما أستطيع فرأيت الاعتزال سلبا لا خير فيه، ووجدت الاقتراب إيجابا قد يفضى إلى الخير، فآثرت الاقتراب عن الاغتراب!

قال عبدالملك، هذا نظر سديد، ولكن أين كنت؟ حين أغضب عبدالله بن عمر، وآلم أنس بن مالك، وهما من هما؟

فقال إبراهيم: لقد كان لى موقفان موقف مع الحجاج وموقف بين الناس فى شأن عبدالله بن عمر - رضى الله عنه- فقد مات جريحا بسبب حديدة رمح وقع عليها وكانت

مسمومة، فسرى الموت إلى جسمه، وقال الناس: إن الحجاج رمى بها فى طريقه عن عمد ليلقى مصرعه بعد أن عرفوا ما كان بينهما من الخلاف، وقد اتجهت إلى الحجاج أسأله عن حقيقة ما يذاع وهو فى غير حاجة لأن يكذب على، فما به خشية منى ولا من الناس، فأنكر أنه فعل شيئا مما يهرف به العامة وعلا الغضب وجهه فى غيظ أكد لى أن الرجل برئ فأسرعت إلى مسجد رسول الله، وحدثت العامة بما اعتقد وقلت لهم: إنى خبرت الحجاج عن ظهر وبطن وساررته الحديث وجاهرته، وقد وقفت على براءته مما قذف به متهما، فلا تتحدثوا دون بينة، فتفرق الناس بين مصدق ومكذب إذ لم يجتمعوا على قول واحد.

أما أنس - رضى الله عنه- فقد ساءنى موقف الحجاج من تقريعه، وأعلنت له ما أضمر من الإجلال لصاحب رسول الله، فنكص على عقبه، وأصر على ألا يعود لإيلامه، ثم اتصلت بأنس - رضى الله عنه - أُرفِّه عن خاطره، وأقول له: إن الناس اليوم ليسوا كما كانوا على عهد رسول الله وعهد الصالحين أبى بكر وعمر فقد شغلتهم الدنيا وتطلعوا إلى الزخرف وزينة الحياة، والحكام اليوم غير حكام الأمس، فإذا التمست من الحجاج سيرة ولاة السلف فى صدر الإسلام فقد وجدت المستحيل فسكت ولم يرد، وعلمت أنه خاطب أمير المؤمنين فأنصفه ورعاه!

ثم سكت أمير المؤمنين، فاتجه إبراهيم يسأله فى حذر لقد لمست غضبك علىّ حين صارحتك برأيى فى الحجاج ولكن الحجاج خرج من لديك مسرورا يعانقنى فوقعت فى حيرة!

فقال عبدالملك وقد دعوتك لأزيل حيرتك، فقد عرفت إخلاصك النصيحة وأنك ما أردت بها غير وجه الله، ولو كنت محابيا أحدا لغرض من أغراض الدنيا لحابيت الحجاج لفرط إكرامه لك وتعظيمه إياك، وقد أعلنت الحجاج أنك أشرت على بأن يترك الحرمين استقلالا لهما بجانب كفاءته ومقدرته على أن يولى على العراقين فهما فى حاجة إلى حزمه ويقظته، وقد وافقتك على مشورتك فإذا لقيته فأخبره بما كان كما قلت وستجد من بره وإخلاصه ما تعهد! إنى أردت يا إبراهيم أن يستريح أهل الحرمين فأنا منهم ويسوءنى أن يرهقوا بما لا يستطيعون!

ائتلق وجه إبراهيم بالبشر، وصفق أمير المؤمنين يدعو الحجاج، فأقبل مبتهجا قريرا، وصاح به عبدالملك فى دعابة! يا حجاج! صاحبك ولاك العراقيْن، وقد رجوته أن يقتصر على ذلك إذ كان فى عزمه أن يمتد بسلطانك إلى مصر، ولو أصر لأجبت!

قال الحجاج - الشكر لله ولك يا أمير المؤمنين، ونعم الصاحب إبراهيم بن محمد بن طلحة، فقد أسدى إلىّ من الفضل ما لا ينساه مثلى فى يوم، وإذا شاء أن يترك الحجاز إلى العراق فأنا به سعيد، فقال عبدالملك: هيهات يا حجاج فلن يترك جوار رسول الله!!

(عابرسبيل)

نقد علمى لمقال دينى

للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى

تلقى الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى خطاباً من القس الدكتور لبيب ميخائيل بأمريكا، وذكر أنه أذاعه فى الصحف والقنوات الفضائية، فأحاله الإمام الأكبر على الدكتور محمد رجب البيومى ليتولى الرد على أفكاره المخطئة وقد نشر الرد فى حينه، ولكن الدكتور القس الفاضل أذاع الخطاب ثانية على نحو أوسع وفى عدة اتجاهات، فرأينا أن نعيد نشر الرد على صفحات مجلة الأزهر، لنعلن الحقيقة فيما يذاع.

يذكر القس الدكتور لبيب ميخائيل أنه قرأ القرآن الكريم قراءة دقيقة لمدة أكثر من عشر سنوات فوجده يحرض المسلمين فى كثير من آياته على أن يقاتلوا اليهود والمسيحيين والمشركين.. ثم سرد آيات كثيرة من سور مختلفة تدل ـ فى رأيه ـ على هذا التحريض..

والرجل كما يلوح فى الاستشهادات التى ذكرها، لم يخرج من السنوات العشر التى قضاها فى دراسة القرآن ـ كما قال ـ بآراء صحيحة، لأنه لم يرجع إلى أسباب النزول وأقوال المفسرين، فوقع فى الخطأ.

وأنا لا أدرى كيف مرت عليه هذه السنوات العشر وهو يدرس ويجتهد دون أن يكلف نفسه الرجوع إلى المصادرالتى تضئ أمامه!.

إن المسلم لا يستطيع فهم القرآن دون أن يرجع إلى كتب التفسير، وكتب أسباب النزول، وهو الذى نشأ فى بيئة تردد القرآن صباح مساء! فكيف يكتفى القس بظاهر النص المجرد دون أن يعرف شيئاً عن أسبابه ودواعيه، ودون أن يلم بالضوابط التشريعية التى استنبطت من النص الكريم، ثم يتصدر للحكم الجرئ! وكى لا يتشعب الكلام دون جدوى سأحصر النقاش فى نقاط محددة تنتهى إلى عكس ما أراده القس مستعيناً بما لم يستعن به من كتب التفسير والسيرة النبوية، دون ميل إلى التعمية أو التهويل، لأن الحق المجرد هو وجهة هذا الرد الهادف ولا اعتبار لسواه..

إن الهدف الذى يبتغيه القس من سرد الآيات هو إثبات أن فى آيات القرآن ما يدعو إلى قتل المسيحيين بمصر، وأن هذه الآيات هى التى دفعت إلى مظاهر الإرهاب فى الصعيد، فلننظر أكان ذلك صحيحاً أم هو غير صحيح..

١

١ـ لقد استشهد القس بخمس آيات كريمة من سورة الأنفال، وكلنا يعلم أن سورة الأنفال نزلت فى غزوة بدر، وهى بين المسلمين والمشركين، وليس للنصارى واليهود علاقة ما بها وإذن فالنصوص التى استشهد بها مثل قوله تعالى:

أ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾(١).

ب ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٢)

جـ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾(٣).

---

(١) الأنفال (٦٥).
(٢) الأنفال (٣٩).
(٣) الأنفال (١٢).

د ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾(٤).

هـ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾(٥).

هذه النصوص خاصة بقتال المشركين، وليس فى مصر اليوم مشرك والحمد لله.. وغزوة بدر كانت حرباً دفاعية، إذ قدم المشركون إلى المدينة لاستئصال المسلمين، فوجب عليهم أن يتهيئوا للقائهم، فنزلت الآيات الكريمة تشد عضد المسلمين ضد المشركين! وبذلك يكون استشهاد القس بهذه الآيات على أنها دعوة لقتال المسيحيين خطأ صريح لا أدرى كيف وقع فيه!

وتلحق بغزوة بدر غزوة أحد وكانت بين المسلمين والمشركين، وقد خف المشركون إلى المدينة غازين، فوجب على المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، وقد استشهد الدكتور بقول الله ـ عز وجل ـ فى سورة آل عمران:

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٦).

فأين التحريض على المسيحيين واليهود، والسورة جميعها خاصة بالمشركين، والمعركة معركتهما..

فإذا تركنا ما استشهد به من السورتين الكريمتين (الأنفال وآل عمران) فإننا نجد سورة التوبة أكثر السور الكريمة استشهاداً بما نقل من آياتها، وسنتبع كل استشهاد بما يؤدى معناه الصحيح..

بدأ القس مستشهداً بقول الله ـ تعالى ـ :

١) ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٧).

٢) ثم استشهد بقول الله عز وجل فى سورة التوبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾(٨).

وقد قال الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت(٩): يزعمون أن الدين الإسلامى يأمر بقتال الكفار عامة، حصل اعتداء منهم أو لم يحصل، والواقع أن الآية ليست واردة فى بيان سبب القتال، وإنما جاءت إرشاداً لخطة حربية يجب أن يترسمها المسلمون

(٤) الأنفال (١٥)، (١٦).
(٥) الأنفال (٧٤).
(٦) آل عمران (١٥٧، ١٥٨).
(٧) التوبة (٥).
(٨) التوبة (١٢٣).

عند نشوب القتال المشروع، فهى ترشدهم إلى وجوب البدء عند تعدد الأعداء، بقتال الأقرب فالأقرب عملاً على إخلاء الطريق من الأعداء المناوئين، وتسهيلاً لسبل الانتصار، وهذا المبدأ الذى قرره القرآن من المبادئ التى تعمل بها الدول المتحاربة فى العصر الحديث، فلا تخطو دولة محاربة إلى دولة أو قوة بينها وبينهم دول عملاً على الاطمئنان إلى زوال العقبات من الطريق أما الآيات الأخرى فهى:

٣) قال تعالى:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(١٠).

الحديث: الآيات الكريمة عن المشركين ابتداء من قول الله ـ عز وجل ـ

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾(١١).

والمشركون هم الذين نكثوا أيمانهم فى عهد الحديبية وهموا بإخراج الرسول من مكة قبيل الهجرة ومن المدينة حين جمعوا القبائل فى غزوة الخندق لاستئصال المسلمين، وهم الذين لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، وإذن فقتالهم مشروع، لأنهم نكثوا العهد، وقد قال الله عنهم

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾(١٢).

فالنص لا صلة له إطلاقاً بالمسيحيين، فإذا كان الاستشهاد لوجود الأمر بالقتال فقتال المعتدى أمر مشروع، بل هو ضرورى لسير الحياة..

٤) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾(١٣).

إن بعض الذين قاموا على رعاية البيت الحرام، وسقاية الحاج أخذوا يقولون: إنهم مجاهدون كمن اشترك مع الرسول فى الجهاد وآمن به، فرد الله عليهم بقوله:

﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾(١٤).

---

(٩) تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت (ص ٥٤).
(١٠) التوبة (١٢، ١٣).
(١١)التوبة (٧).
(١٢) التوبة (١١).
(١٣) التوبة (٢٠، ٢١).
(١٤) التوبة ١٩، ٢٠).

فالمفاضلة فى النص الكريم بين فريقين ليس بينهما المسيحيون فهل تكون الآية داعية لقتال المسيحيين.

٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾(١٥).

وبعدها مباشرة جاء قوله ـ تعالى ـ:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ ﴾(١٦).

فالحديث هنا عن المنافقين الذين كفروا بعد إيمان وعن الذين يجرحون المسلمين بالقول الكاذب فإذا حوسبوا على ذلك قالوا إنما كنا نخوض ونلعب، وعن الذين كانوا يستهزئون بآيات الله ورسوله ويصدون الناس عن مصادقة الرسول فى تبوك!! أليس من الضرورى أمام هذه الفتنة العارمة من هؤلاء أن ينزل القرآن بجهادهم وقتالهم، وقد بسط لهم حبل الأمل فقال:

﴿ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ ﴾(١٧).

فهل لهذا النص القرآنى صلة بالمسيحيين!

٦) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١٨).

نعلم أن هذه الآيات وكثيراً من آيات التوبة نزلت فى غزوة تبوك، وكان الرومان قد اعتدوا على من أسلموا من العرب بالشام وجاءت الأنباء بأنهم سيتوجهون لغزو المدينة، فرأى الرسول ﷺ، أن يأخذ زمام المبادرة، فاستعد لقتالهم فى وقت حر شديد، وجدب أليم حيث لم تينع الثمار، وأخذ المنافقون يخوفون المسلمين من حرب (بنى الأصفر) وهم الرومان، ويقولون أن ذهبتم لقتالهم فلن تعودوا

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾(١٩).

فنزلت آيات الكتاب مشجعة للمسلمين على القتال دفاعاً عن بيضة الإسلام فقال الله ـ عز وجل ـ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ ﴾

فالنص الكريم لا يدعو إلى عدوان ولكن يشجع على رد العدوان، والجزاء الجنة!

هذا ما استشهد به القس من آيات سورة التوبة، وقد جانب وجه الحق فيها، وقريب منها ما استشهد به من سورة الفتح فى قول الله ـ عز وجل ـ:

(١٥) التوبة (٧٣).
(١٦) التوبة (٧٤).
(١٧) التوبة (٧٤).
(١٨) التوبة (١١١).
(١٩) الفتح (١٢).

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٢٠).

فقد نزلت بعد غزوة تبوك حين جاء المخلفون من الأعراب يقولون

﴿ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾(٢١).

وقد ظنوا المسألة مسألة غنائم ومكاسب، فرد الله عليهم بقوله:

﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾(٢٢).

وللقتال فى الإسلام حدوده المشروعة، وموجباته الضرورية، والنص بعيد بعيد عما يردده الكاتب.

٢

وبعد هذا نأتى إلى الآيات التى تحث على القتال، واختارها القس دليلاً على إرهاب المسيحيين وقتالهم، وها هى ذى:ـ

١) ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢٣).

٢) ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

٣) فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢٤)

٤) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾(٢٥).

٥) ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾(٢٦).

٦) ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢٧).

٧) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٢٨).

هذه النصوص السبعة التى اختارها الباحث الفاضل لا تدل على شرعية القتال فى الإسلام، بل لا تدل على قتال المسيحيين فى مصر واستئصالهم كما يزعم..

ونحن لا ننكر مشروعية القتال فى الإسلام، ولكن ننكر أن الآيات قد جاءت لجواز قتال

---

(٢٠) الفتح (١٦).
(٢١) الفتح (١٥).
(٢٢) الفتح (١٦).
(٢٣) البقرة (٢١٦).
(٢٤) النساء (٧٤).
(٢٥) النساء (٧٦).
(٢٦) النساء (٨٤).
(٢٧) النساء (٩٥).
(٢٨) الصف (٤).

المسيحيين فى مصر، لسبب واضح هو أن الإسلام لم يدخل مصر حين نزل القرآن، إذ كان الفتح الإسلامى لمصر فى عهد عمر بن الخطاب، وإذن فالآيات تدور حول القتال بوجه عام..

والقتال المشروع فى الإسلام هو الحرب الدفاعية سواء كانت دفاعاً عن النفس، أو إغاثة شعب مسلم ضعيف لا يستطيع الدفاع عن نفسه! وقد جاءت الآيات السابقة دائرة فى هذا النطاق، ولا أدرى لماذا لم يذكر القس قول الله فى سورة البقرة

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾(٢٩).

وقوله:

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣٠).

لقد استشهد بنصوص من البقرة، فلم لم يتأمل هذين النصين، وقد درس القرآن فى مدى عشر سنوات!! ثم استشهد بآيات من سورة النساء لا تؤيد دعواه كما بينا من قبل، فلم لم يستشهد بقول الله فى هذه السورة:

﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾(٣١).

ولماذا لم يستشهد بقول الله فى هذه السورة نفسها

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾(٣٢).

أليس القتال فى هذه الآية مشروعا لأنه حماية للضعيف ودفاع عن النفس!

ولماذا لم يستشهد بقول الله:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾(٣٣).

على أن التسامح الإسلامى بلغ أقصاه فى نصوص القرآن بما لا يوجد فى شريعة أخرى، وقد درس القس كتاب الله فلم لم يقف عند قوله:ـ

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(٣٤).

---

(٢٩) البقرة (١٩٠).
(٣٠) البقرة (١٩٢).
(٣١) النساء (٩٠).
(٣٢) النساء (٧٥).
(٣٣) الحج (٣٩، ٤٠).
(٣٤) الممتحنة (٨، ٩).

لقد كتب الفقهاء عن مشروعية القتال في الإسلام، في حدود الدفاع عن العقيدة، ونصرة الجانب المظلوم ما فيه الإقناع كل الإقناع لمن يدرس القرآن درساً محايداً، لا لمن يأخذ نصاً فيبتره عن سياقه أو يتجاهل نصاً آخر ينقص كل ما يريد..

ولا أترك حديث القتال في الإسلام دون أن أشير إلى استشهاد القس بقول الله ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣٥).

فقد رأى القس في الآية دليلاً على إباحة تقتيل الأقباط، مع أن النص الكريم، لا يخص أهل ملة بعينها، بل هو تشريع للمسلمين، يعاقب به الفسقة فيهم ممن يسعون في الأرض بالفساد وقد عرف باسم (الحرابة) في الفقه الإسلامي! وليت الباحث يتدبر في النص من جديد ليعرف أن الإسلام يحتقر العصاة وأصحاب الفساد ممن يعيثون في الأرض تخريباً وتنكيلاً سواء كانوا مسلمين أوغير مسلمين، وإني لأتساءل إذا كان هذا الفهم الغريب قد هجس في خاطر الكاتب على وضوح النص الشريف وسطوع مرماه! أفيجوز له أن يدعى أنه وقف على معاني القرآن بدراسة عمرها عشر سنوات!

ثم ماذا يقول القس لبيب ميخائيل: إن الأتراك المسلمين في سنة ١٩١٥ خلال الحكم العثماني قتلوا مليون مسيحي أرمني كانوا يعيشون في تركيا بمدينة (ناردين) في ليلة واحدة! ومحال أن يقتل مليون في ليلة واحدة، وهب أن ذلك قد وقع فهو مخالفة صريحة للإسلام، ولا يحسب عليه، والذين قاموا بذلك هم جماعة «حزب الاتحاد والترقي العلمانيون» لأن الخليفة كان صورة شكلية فقط ليس بيده من الأمر شئ، وإذن فكلمة الحكم العثماني مضللة! إنما هو الحكم العلماني الذي حارب الإسلام في عهد الخلافة الأخير وبعد سقوطها!

وفي تاريخ المسيحية ما هو أبشع من ذلك، مع أن المسيح قد نهى عن القتال، فالحروب الصليبية التي فتكت بآلاف الآلاف من المسلمين في سبع حملات جبارة توالت على الشرق الإسلامي بالحديد والنار والصواعق، كان البابا هو الذي بعثها! فهل يؤخذ بذلك المسيح!

يقول السير توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجباري محل الدعوة الهادية إلى كلمة الله، حتى كان الملك (أولاف ترايجفسون) ينشر الدين المسيحي بالقسم الجنوبي من النرويج بذبح الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بقطع أيديهم وأرجلهم أو نفيهم من الأرض..

وفي وصية القديس لويس: عندما يسمع الرجل العامي أن المسيحية قد أسيء إليها، فإنه لا ينبغي أن يذود عنها إلا بسيفه، يجب أن يطعن الكافر في أحشائه طعنة نجلاء. وهذا قول أرنولد المسيحي!! وأنا أقول: إن المسيحية في صميم تعاليم المسيح لا تتحمل هذا الوزر، وكذلك الإسلام لا يتحمل أوزار مخالفيه، فهل آن لنا أن نزن الحقائق التاريخية بميزان دقيق!؟

(يتبع)

(٣٥) المائدة (٣٣، ٣٤).

سِيرَة النبي محمد

تأليف

كارين أرمسترونج

٢

عرض وتقديم

الأستاذ الدكتور / إبراهيم عوضين

هذا الكتاب - كما ذكرنا فى اللقاء السابق - كاتبته كارين أرمسترونج الإنجليزية تخاطب به الغربيين بمنطقهم ولغتهم التى يتفاهمون بها؛ لتعرفهم بحقيقة الإسلام ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. التى وقفت عليها من دراستها المحايدة. ولتزيل عن أعينهم وعقولهم ماران عليها من غشاوات وضلالات تراكمت على مدى قرون متطاولة، وفصلتهم عن واقع الحياة الجادة، فظلوا يعادون محمداً وما جاء به عداء حاقدا، دفعهم إلى الحروب الصليبية ابتداء، ثم إلى الاستعمار والتآمر حديثاً، والترحيب بكل شاذ يرضى فيهم طوايا الحقد، بما يقدم من سباب، وزيف وزور عن محمد صلى الله عليه وسلم وعن الإسلام، من نحو ما قدمه أخيراً سلمان رشدى فى روايته (آيات شيطانية).

وفى المقالة السابقة استعرضنا ما قدمته الكاتبة فى الفصول الأربعة الأولى من الكتاب.

مع الوحى فى أطواره الأولى

وفى الفصل الخامس (النذير) تتبعت الكاتبة تدرج الوحى مع محمد ﷺ فذكرت أن محمداً ﷺ فى مبتدأ بعثته كان يتصور أن الدور المنوط به مقصور على إبلاغ رسالة إلى أهل مكة، ولم يدرك أنه مبعوث إلى الناس كافة، ولا حتى إلى العرب جميعاً. كما أنه لم يدرك أنه مكلف بمهمة سياسية؛ ولذلك اهتم فى أول أمره بالسعى إلى مجتمع العدل، فسعى إلى إصلاح ميثاق الشرف العربى القديم الذى كانت قريش تعرفه.

ولم يجنح محمد إلى إدانة الثروة والممتلكات مثلما فعل المسيح، ولكنه بفريضة الزكاة عالج الفوارق بين الأغنياء والفقراء، إلى جانب النهى عن كنز الأموال، والنهى عن أكل أموال اليتامى، مع الأمر برعاية الفقراء.

وحين أُمر محمد بتعميم الإنذار، وطلب من قريش أن تنظر فيما يترتب على إيمانها بالله.. لم يكن يقترح عليها شيئاً غريباً ولا مستحيلاً، فقد كانت قريش على استعداد للإيمان ضمنا؛ إذ لم يكن القرآن يميط اللثام عن شئ جديد، بل كان يقول: إنه تذكرة، وعلى قريش أن تشرع فى الحوار، وأن يعيدوا النظر فى شعائرهم القديمة، وأن يقيموا ميزان العدل.

وتقرر الكاتبة أن الإنسان لا يسعه إلا أن يدهش للعبقرية الروحية للنبى محمد الذى لم تكن له أية صلة باليهود أو بالنصارى الممارسين لدينهم، ومع ذلك فقد نفذ إلى قلب الخبرة بدين التوحيد.

والإسلام لا يؤمن بما تتسم به المسيحية من رؤية تشاؤمية للعالم الطبيعى بسبب الاعتقاد بسقوط الإنسان فى الخطيئة الأصلية، وما ترتب على ذلك من آراء. كما أن الإسلام لا يقدم عقيدة لاهوتية، بل إنه يدفع كل فرد على حدة للتوجه إلى الله، مع عدم الجنوح إلى شطحات التأمل فى الذات الإلهية.

ومع قيام محمد بالإنذار فى قريش، وإقدام كثيرين على اعتناق الإسلام، نشب صراع أحدث صدوعا أدت إلى الانقسام داخل الأسرة الواحدة، على الرغم

من أن الناس كانوا – بصفة عامة – راضين عن محمد، بحيث لم يوجه أحد أى انتقادات لتعليماته الاجتماعية، من كل ما يقرر أن محمداً قد حقق نجاحاً كبيراً فى السنوات الأولى من بعثته.

(آيات شيطانية) السيئة السمعة

وفى الفصل السادس (افتراق الطرق) ترصد الكاتبة أثر ما حققه محمد من نجاح فى نفوس القرشيين وسلوكهم؛ فتذكر أن بعض أفراد من قريش تتبعوا جماعة من المسلمين إلى شعاب مكة، وهاجموهم فى أثناء تأديتهم الصلاة هناك، واضطر المسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم، فضرب – سعد بن أبى وقاص – أحد مهاجميه بعظمة بعير أصابته بجرح، فكان أول دم يسيل فى سبيل الإسلام؛ فأصاب ذلك أهل مكة بصدمة، زاد من عنفها مجاهدة محمد ﷺ بتسفيه آلهتهم، والنهى عن عبادتها، فتجمع سادات مكة ضد محمد، وأعلنوه عدوا لقومه، مستغربين فكرة عدم وجود إله سوى الله، رافضين ذلك، لتهديده مقدسات يعتقدون أن بقاء مجتمعهم يعتمد على بقائها.

وتشبِّه الكاتبة ما كان من قريش فى استقبال دعوة محمد بما كان من الرومان فى استقبال رفض المسيحيين تقديس آلهة روما الوثنية، لاعتقاد الرومان أن تلك الآلهة هى حامية الدولة. وكما عدَّ الرومان ذلك إلحادا من المسيحيين نالوا بسببه الاضطهاد والإيذاء الذى أثمر العديد من الشهداء، كذلك عدَّ القرشيون ذلك من محمد وصحبه إلحادا يجازون عليه الاضطهاد والإيذاء.

وتندفع الكاتبة مع التشبيه والمقارنة، فترى أن بعض المسيحيين الأوائل حاولوا أن يجدوا تواصلاً مع الوثنيين للتخفيف من قسوتهم وعنفهم، كما صنع عالم اللاهوت الفلسطينى (جستين) الذى كتب دفاعين سنة ١٥٠، وسنة ١٥٥م، ذكر فيهما أن المسيحية ليست بدعة تكفيرية للوثنية، وأن المسيحيين يتبعون خطوات أفلاطون وغيره من الفلاسفة المبجلين الذين آمنوا بإله واحد.

وترى أن محمداً – تحت ضغط الاضطهاد والتعذيب فيما يبدو – قد مر بلحظة فكر فيها أن يهادن قريشاً ويتقرب منهم بمثل ما صنع (جستين)، ولكن القرآن جاءه محذراً من ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾(١).

وتذكر الكاتبة أن الدارسين فى الغرب يفترضون أن تلك الآية تشير إلى حادثة ما يدعى (آيات شيطانية) السيئة السمعة، وأنهم يدعون أن محمدا قدم تنازلات مؤقتة للمشركين، مستندين إلى قصة جاءت فى طبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى، فحواها أن الشيطان – فى إحدى المناسبات – تدخل فى أثناء تلقى محمد لكلمة الله، فدس كلمات ترضى قريشا، وتوحى بأن القرآن يعترف بعبادات آبائهم، وأن محمدا تخلى عن الرسالة التوحيدية.

---

(١) الإسراء (٧٣ : ٧٥).

وتدفع الكاتبة هذا الافتراض الغربى، بأن مسلمين كثيرين يعتقدون أن هذه القصة غير صحيحة؛ فلم يرد فى القرآن إشارة إليها، ولم تذكر لا فى صحيح البخارى ولا فى صحيح مسلم، وابن إسحاق لم يذكرها فى سيرته الموثوق بها. ولكن الغربيين المعادين للإسلام رأوا فى القصة مناسبة مهمة للتشكيك فى محمد، والبرهنة على عدم إخلاصه؛ فكيف لرجل قام بتغيير الكلمات السماوية أن يكون نبياً!!

وترى أن اعتراض المسلمين على رواية سلمان رشدى (آيات شيطانية) التى نشرت سنة ١٩٨٨م ناشئ من أنهم يرونها تقدم محاكاة ساخرة لحياة محمد، وتكرر الأساطير الغربية القديمة عن محمد، وتقدمه على أنه (مدع)، ذو طموحات سياسية خالصة، وأن صحابته الأوائل أشخاص تافهين، وأن القرآن إيحاءات إنسانية محضة، كما يدعى الغربيون دائماً.

وترى أن من أيدوا سلمان رشدى يعلنون أن الإسلام ينفى البحث والحرية الإبداعية، متجاهلين أن المسلمين الأوائل أسسوا حضارة عظمى، وأرسوا دعائم تقليد فلسفى عقلانى، كان مصدر إلهام المفكرين فى أوروبا فى العصور الوسطى.

ومن هنا تنطلق الكاتبة لتفند المزاعم الغربية فى شأن محمد ﷺ مرتكزة على تعارض القصة مع القرآن نفسه، ومع المأثورات الأخرى؛ فلم يكن محمد فى تلك المرحلة المبكرة جداً من رسالته مهتماً بالقوة السياسية، بل إنه - فيما بعد - رفض عروض قادة قريش التى تشبه ذلك دون تردد، خصوصاً أن الطبرى لا يقطع بجميع ما يرويه؛ إذ يذكر ما لا يطمئن إليه مسنداً إلى قائله، متوقعاً من القارئ أن يقارن الروايات بعضها ببعض. وقد ذكر الطبرى أن - رسول الله - لما رأى تولى قريش عنه شق عليه ذلك، وتمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه.

على طريق التوحيد

وفى ثنايا مناقشة الكاتبة هذا الموضوع تذكر أن الإسلام يرفض مبدأ السقوط بمعناه المسيحى، فهو يخبرنا أن آدم - بإرادته الحرة - استسلم لغواية الشيطان، ورغم ذلك فقد أصبح أول الأنبياء، وأن رسلا من بعده تعرضوا لأقوال شيطانية فى أثناء تبليغهم كلمة الله لأقوامهم، ولم يعن هذا تلويث كتبهم أو رسالاتهم بأثر للشر.

وكأنها تقصد بذلك أن تدفع عن القرآن تهمة التلوث - على فرض انزلاق محمد إلى التفكير فى مهادنة القرشيين - فلو أن نفس محمد حدثته بشئ من ذلك، فإن الواقع القرآنى يقرر أن ذلك الحديث النفسى لم يخرج إلى نطاق الواقع، فقد نزل القرآن مقرراً أن تلك الإلهة إن هى إلا اختراع إنسانى واهم.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾(٢).

(٢) النجم (٢٣).

وترى الكاتبة أن محمداً منذ ذلك الحين – أصبح شديد الحرص على رسالته التوحيدية فى مواجهة تمسك قريش بما استقروا عليه من تعدد الآلهة، تأثراً بما كانت عليه النظرات الأولى؛ فقد قوى وعيه بحاجة العرب الدينية لأن يجدوا حقيقة عليا واحدة وراء آيات الطبيعة المتعددة والمتنوعة، وأن يعرفوا أن ما اتخذوه آلهة ما هى إلا مخلوقات ضعيفة – إنساً كانت أو جناً أو ملائكة – لا تملك تقديم أية مساعدة.

كما ترى أن القرآن قدم مفهوماً للإله العلى بشكل جوهرى يمكن للعربى أن يستدعيه، وجعل الجزء الأول من الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله) يلخص عزم كل مسلم على أن لا يبجل بأى شكل آلهة أخرى، وأن لا يسمح لأى مغانم أن تشتت ولاءه لله.

وكان هذا العزم وراء تحذير المصلحين الإسلاميين فى العصر الحديث بعض المسلمين حين تخلوا عن الشريعة الإسلامية، والتجأوا إلى الأفكار الغربية، مثل الفردية والاشتراكية.

وكان هذا التوجه فيصلاً حاسماً، دفع كثيراً من اتباع محمد إلى الفرار من قومهم، مما أثار سخط سادات قريش، ولجوءهم إلى مطالبة أبى طالب ليرفع عنه الحماية، فأحرجوه بذلك الطلب، ولكنه رفض مطلبهم، ثم اضطروا إلى معاودة الطلب مرة أخرى، فدعا محمد إليه متوسلاً أن ينقذه وينقذ نفسه من ذلك العناء، فأجابه بقوله: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته»[٣]. فناداه عمه قائلاً: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبداً.

العداء الغربى يحول دون وقوفهم على تأثير القرآن

ومع يأس قريش من النيل من محمد، عمدوا إلى الشطط فى إيذاء المستضعفين، حتى اضطر محمد إلى جعلهم يهاجرون للحبشة، ومع اشتداد قريش فى ضغطها على المسلمين ازداد الإقبال على الدخول فى الإسلام. وكان للتأثير القرآنى أكبر الأثر فى اختراق تحفظات القوم، مما ألجأ قريشاً إلى اختيار وفد للتفاوض مع محمد، وتقديم العروض المغرية، فاستقبلهم هم وعروضهم بتلاوة آيات قرآنية، اضطروا أمام أسرها إلى أن يعودوا أدراجهم مذهولين، من قوة تأثير ما سمعوا من محمد!

وتلتفت الكاتبة إلى أن أحداً من أعداء محمد – مع كل هذا الخصام والعناد – لم يتهمه بتزييف الوحى، حتى إن عتبة – أحد أعضاء الوفد – لم يملك إلا أن يصيح فى قومه محذراً وهو يقول: والله إنى قد سمعت قوله، والله ما سمعت مثله قط.. والله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم.

وتستدل الكاتبة على قدرة أمر القرآن وتأثيره بما رصده (شتاينر) – الذى لا يعتقد فى وجود الله، فى كتابه (حضور حقيقى) – من تأثير للفن يجعله يمثل الإمكانية الوحيدة للتسامى

(٣) سيرة ابن هشام.

فى عــالم ملئ بـالشكـوك، حـتى إن هـذا الفن ليتطلب منا ضمنا أن نغير حياتنا، فإن نظريته تلك التى قوبلت بترحيب كبير تمدنا بلمحة عن تأثير القرآن فى نفوس من ينصتون إليه؛ فقد تجاوبت أصداء القرآن مع شئ ما مدفون فى أعماق العرب، حيث ألمح القرآن إلى موجودات خارج نطاق النص. وبذلك يتجلى القرآن فى استطاعته ممارسة ذلك التأثير إلى يومنا هذا، حتى على الذين يتكلمون غير العربية؛ فتلقى القرآن ليس مجرد تجربة عقلية لاستخلاص المعلومات، أو لتلقى الإرشادات. لكنه – إلى هذا وذاك – تنظيم روحانى.

ومن الطبيعى أن تجربة الشخص الغربى ستكون مختلفة تماماً؛ لأن الترجمات لا تقدم جمال العربية الأصلى، ولأن هذه التجربة تتطلب من المتلقى توجهاً غريباً على معظمنا، خاصة أن القراءة تتم بروح عدائية، ومن منظور استعلاء متخيل كحالة (جيبون) فى قراءته مثلاً.

وتلفت النظر إلى أن القرآن يرى كل القصص التى يقدمها آيات ترمز إلى علاقة الله مع البشر، وليست مجرد سرد للأحداث. كما إن القرآن يحاول استخلاص النتائج من أحداث القصص التى يقدمها، ليصل إلى لب الرسالة.

وإلى أن رسالة القرآن لم تكن كلها دماراً وخراباً؛ فالقرآن يحث المسلمين على الصبر، ويدفعهم عن الانتقام الشخصى من أعدائهم، حتى فى أثناء المقاطعة التى فرضها القرشيون عليهم، إلى أن فقدت المقاطعة شعبيتها، فعدلوا عن المقاطعة.

لكل شدة مخرج

وفى الفصل السابع (الهجرة: قبلة جديدة) ترصد الكاتبة أبرز الأحداث التى كانت وراء اشتداد قريش على محمد، وبالتالى: اضطراره إلى الهجرة، فتذكر أنه بعد وفاة خديجة سند محمد المخلص، وإصابة أبى طالب – فى العام نفسه – بمرض عضال، عمل أبوجهل على الضغط على محمد، فذهب إلى أبى طالب على رأس وفد، طالباً من محمد الاعتراف بدينهم لينصرفوا عنه. ولكن الوفد – أمام إصرار محمد على توحيد الله – عاد بمزيد من التحدى.

وإنه مع موت أبى طالب فقد محمد الحامى المباشر. وكان على أبى لهب أن يخلف أبا طالب فى سيادة العشيرة، وحماية محمد، ولكن تلك الحماية لم تكن على نفس المستوى، خصوصاً بعد أن حفز أبوجهل أبالهب على أن يسأل محمداً عن مصير عبدالمطلب؛ ليوقعه فى حيرة.

من هنا.. كان على محمد أن يبحث عن سند آخر، فاتجه إلى ثقيف فى الطائف، فلم يجد منهم إلا الصدود والإهانة. وكان عليه أن يستجير بمطعم بن عدى ليحميه فى مكة مؤقتاً، وبدأ يسعى بالدعوة بين حجاج البدو فى مواسم الحج، لعله يجد منهم مجيراً أو سنداً، ومع إعراضهم فى البداية اشتد حزنه، حتى كانت حادثة الإسراء والمعراج، لتعود إليه الطمأنينة.

وتستدل الكاتبة بالإسراء والمعراج على أن محمداً كان قد بدأ يرى أنه ربما أصبح أكثر من مجرد المنذر المتواضع لقريش، ومع ذلك فقد كان لايزال يبحث عن مجير من أبناء البشر، ففى

موسم الحج سنة ٦٢٠م التقى بستة من وثنيي يثرب، فلما أسمعهم بعض القرآن وجد منهم إقبالاً عليه لتوقعهم أنه النبى الذى يتوعدهم به اليهود، ولم يجدوا فيما يدعوا إليه من التوحيد ما يزعجهم لتعودهم على سماعه من جيرانهم اليهود. بل لقد عادوا فى العام التالى ومعهم سبعة آخرون ليلتقوا به فى وادى العقبة، ويبايعوه على عبادة الله وحده والالتزام بأوامره ونواهيه، ويرسل معهم مصعب بن عمير العائد من الحبشة لتلقينهم القرآن، ودعوة الآخرين إلى الإسلام، حيث استجابوا لدعوته، باستثناء مجموعة صغيرة فى عشيرة الأوس ظلت على وثنيتها؛ فلما كان موسم الحج التالى سنة ٦٢٢م غادر يثرب عدد كبير – ممن أسلم ومن بقى على وثنيته – إلى مكة، حيث اجتمع محمد بثلاثة وسبعين ممن أسلموا عند العقبة ليبايعوا محمداً على السمع والطاعة، والمؤازرة الكاملة.

الحياة الجديدة فى يثرب

وترى الكاتبة أن الهجرة لم تكن بقرار اختيارى من محمد – كما يؤكد ابن إسحاق – ولكنها كانت قراراً مفروضاً عليه، كما يشير إلى ذلك القرآن فى آيات عدة، نحو قوله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾(٤).

ففى أعقاب عودة الأنصار إلى المدينة، شرع محمد يحث المسلمين على الهجرة إليها؛ فتوافدوا عليها أرسالا. ولما توفى مطعم بن عدى فى هذا العام تأكد محمد من أن حياته أصبحت معرضة للخطر، ولم يعد مجرد احتمال، وبالفعل اتفق قادة قريش – فى اجتماع تغيب عنه أبولهب – على قتل محمد بواسطة جمع من فتيانهم يمثلون جميع القبائل، ولكنه ﷺ استطاع الفرار منهم، بعد أن نبهه جبريل إلى المؤامرة، حيث كانت رحلته هو وصاحبه أبوبكر إلى المدينة، ليبدأ فور وصوله فى بناء مسجد، يضم المسلمين، ويتخذه منزلاً له ولأسرته.

وأخذ محمد فى وضع المعاهدات والتشريعات ليحكم الرابطة بين المهاجرين والأنصار، وليوطد العلاقة مع القبائل العربية واليهودية المجاورة، وبذلك أصبح مهاجرو قريش والأوس والخزرج أمة واحدة محكمة الأواصر، تستند إلى وحدة الخالق، ولا تسمح لرابطة الدم أن تؤثر فى التحام نسجها؛ فبدد بذلك ما كان يشيعه كفار قريش من أن الإسلام يفصم عرى المجتمع، وأن محمدا يسرق الأطفال من أبويهم.

وقرر بعض اليهود الدخول فى الإسلام، وعلى الرغم من أن محمدا لم يكره أحداً منهم على ذلك انقلب اليهود على الإسلام، وأخذوا يسخرون من المسلمين، ويهزءون بدينهم، فنزل القرآن بالحجج التى تكشف خفايا اليهود وتعرف بهم من كتبهم التى تقرر أنهم شعب لا يؤتمن، وأنهم انتهكوا عهد الله بانتكاستهم إلى الوثنية، ودأبوا على عصيان الأنبياء. ومن هنا عرف محمد والمسلمون الاختلاف بينهم وبين

(٤) محمد (١٣).

المسيحيين، على الرغم من رفضهم الزعم أن لله ولدا.

ومع ذلك ظل محمد يقول: إن ما أنزل إليه يتفق مع ما أنزل على من قبله من الأنبياء – مفرقاً بذلك بين علاقته بالديانات السابقة وعلاقته بأهل الديانات – وعلى ذلك فعلى المسلمين ألا يناهضوا من اليهود والمسيحيين إلا من يعادون القرآن.

وظلت هذه السياسة ثابتة، على الرغم من تفاقم النزاع مع القبائل اليهودية الرئيسية فى المدينة.

وترى الكاتبة أن إصرار اليهود على عداوتهم كانت وراء إعلان الله استقلال الدين الجديد عن الدين القيم، ونزل الوحى بالتحول فى الصلاة من جهة القدس إلى جهة مكة، فكان ذلك دليلاً على هوية إسلامية جديدة، تدعم وحدتهم القائمة، حيث جاءت العبادات كلها على طريق التوحد، فالمسلمون جميعاً – رغم انتمائهم إلى ثلاث قبائل – يستيقظون عندما يعلو صوت بلال بأذان الفجر، ويتوقفون عن العمل جميعاً فى موعد صلاة الظهر. والزكاة تذكرهم بأنهم يتحملون مسئولية مشتركة عن الفقراء.

الإسلام دين السلام وتزييف الغربيين

وفى الفصل الثامن (الحرب المقدسة) تذكر الكاتبة أن ما حققه محمد بعد الهجرة من نجاح سياسى وروحى مذهل، دفع المسيحيين الغربيين للشك فى ذلك، وعدوا محمدا مدعياً، استغل الدين وسيلة للقوة، حتى لقبوا الإسلام بـ (دين السيف)، ورأوه عقيدة تخلت عن الروحية الحقة، وارتكزت على العنف وعدم التسامح، على الرغم من أن هؤلاء المسيحيين الغربيين كانوا يشنون حروبهم المقدسة فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت.

وامتد هذا التصور الزائف إلى وقتنا هذا، حيث تلهو الكتب وبرامج التليفزيون بإبراز عناوين مثل (حنق الإسلام)، و(سيف الإسلام)، و(الحنق المقدس)، و(الرعب المقدس) بقصد الإصرار على تشويه الحقيقة، متغافلين عن أن لكل دين عبقرية خاصة – أو بصيرة خاصة – تميز بحثه عن معنى أو قيمة كلية، فمثلاً نجد أن اتسام المسيحية بأنها ديانة المعاناة والمحن، كانت وراء العزوف عن الدنيا، حيث أسئ استخدام تلك السمات، فأصبحت معتقداً يقرر أن الله يساند نظاماً هجومياً، يجلس الغنى فيه فى قصره، بينما الفقير ينتظر عند الباب راضياً، منتظراً أجر معاناته فى الآخرة. وقد عملت المؤسسة الأمريكية على التبشير بتلك المبادئ فى وسط وجنوب أمريكا. ومن هنا وجد ميل جاد قوى فى الغرب المسيحى للنظر إلى النشاط السياسى كشئ خارج نطاق الحياة الدينية، وما نشأ عن ذلك من فصل بين الكنيسة والدولة.

ومن هذا التصور الغربى المسيحى للدين والسياسة عبنا على الإسلام خلطه بين المجالين، فجعلنا أعرافنا الغربية المسيحية ميزاناً نقدر به أعراف الإسلام، على الرغم من الخلاف الجذرى بين منشأ الديانتين.

وترى الكاتبة أنه مع تزايد دور محمد كرجل دولة، ظل يوحى إليه، فلم يشغله الدور السياسى عن رسالته الاجتماعية، ولا رؤيته الدينية، فكل

آيات الله فى الطبيعة توجه المسلمين للخضوع لإرادة الله، حتى يتمكنوا من تحقيق إمكاناتهم.

كما ترى أنهم فى الغرب غالباً ما يتخيلون محمداً قائد حرب، يلوح بسيفه ليفرض الإسلام على مجتمع كاره له بقوة السلاح، على الرغم من اختلاف الحقيقة عن ذلك التخيل؛ فقد كان محمد والمسلمون الأوائل يكافحون فى سبيل الإبقاء على حياتهم، كما إنهم كانوا قد أخذوا على عاتقهم مسئولية كان العنف معها حتمياً.

وتقف الكاتبة أمام كلمة (الجهاد) وجذرها اللغوى، لتلفت النظر إلى أن اختيار القرآن للجهاد يشير إلى أنه يعنى أكثر من مجرد الحرب المقدسة، بما تفيده الكلمة من جهد جسمانى وأخلاقى وروحانى وعقلى؛ إذ لو كان القرآن يريد الحرب فقط لكان أمامه ألفاظ عربية كثيرة تؤدى ذلك، مثل: (الحرب، والقتال، والصراع، والمعارك، والقتل).

هذا إلى أن الجهاد ليس أحد أركان الإسلام الخمسة، وليس هو دعامة الإسلام المحورية، خلافاً للرأى السائد فى أوروبا، فالجهاد يعنى التزام بالنضال على جميع الجبهات؛ الأخلاقية منها، والسياسية، والروحية، من أجل خلق مجتمع عادل كريم جدير بالاحترام. وتستشهد الكاتبة على ذلك بحديث الرسول ﷺ لدى رجوعه من إحدى المعارك: «لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وتذكر الكاتبة أن القرآن – دعما لهذا المفهوم – بدأ يطور تشريعاته للحرب؛ إذ الحرب تكون أحياناً ضرورية للحفاظ على القيم الفاضلة، والله سينصر المسلمين فقط إن هم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، ووضعوا قوانين عادلة شريفة، وأوجدوا مجتمعاً كريماً.

محمد فى مواجهة اليهود

وترصد الكاتبة وضعية اليهود بعد بدر، فتذكر أن قبائلهم صارت مخاطرة أمنية، يخشى تعاونهم مع أى قوة تهاجم المدينة من جنوبيها أو من شماليها؛ فكان على محمد أن يعمل على تأمين تلك الجبهة، خصوصاً بعد علمه أن قينقاع هم الأشد عداء للأمة.

وتقرر أن من الأمور شديدة الصعوبة علينا فى الغرب: فهم علاقات محمد بيهود المدينة؛ لأن الموضوع يبعث أشباحاً مخزية عديدة من ماضينا؛ فقد كان صراع محمد مع القبائل اليهودية مختلفاً تماماً عن الكراهية الدينية والعرقية التى أدت إلى أن يشعل مسيحو أوروبا المذابح لمدة تقرب من ألف عام، ثم وجد إرهابُ المسيحيين اللاعقلانى تعبيره النهائى فى حملة هتلر العلمانية ضد اليهود.

لكن محمداً لم تكن لديه أية رغبة فى رفع شعار الإبادة لليهود؛ فقد كان تآمرهم على المسلمين وراء تصرفه معهم، كما حدث حين تآمرت قريظة مع أحزاب قريش فى غزو المدينة، فلما فرت الأحزاب كان على محمد أن يعاقب قريظة على فعلتهم التى تهددت أمن الأمة، فبوحى من السماء توجه على الفور إليهم. ولكن الغرب يضفى على ذلك معانى من الكآبة والرعب، رابطين ذلك بأفعال النازى الشنعاء.

وتؤكد الكاتبة تلك الرؤية، مسجلة أن هذا المسلك لم يؤثر - بصفة دائمة - فى موقف المسلمين من اليهود؛ فبمجرد أن أقام المسلمون إمبراطوريتهم العالمية الخاصة، وطوروا نظاماً متقدماً فى شريعتهم أسسوا نظام تسامح ظل يسود الأجزاء المتمدينة فى الشرق الأوسط لمدة طويلة، حيث تعايشت مجموعات دينية فى ظله جنباً إلى جنب؛ فالمعاداة للسامية خطيئة مسيحية غربية، وليست خطيئة إسلامية، فلم يعان اليهود فى ظل الإسلام قط ما عانوه فى ظل المسيحية.

كما تؤكد أن هدف أى حرب فى الإسلام هو إحلال السلام والوفاق فى أسرع وقت؛ فلفظ (إسلام) مشتق من جذر يعنى: (السلام)، والصلح، ولأنه لم يكن عليه أن يقاتل من أجل الحياة.. أصبح بإمكان محمد أن يبدأ فى فرض السلم الإسلامى.

محمد والمرأة.. وبذاءات الغربيين

ولأن الغربيين وجدوا فى رواية (آيات شيطانية) ما يرضى رغبتهم فى الحط من شأن محمد ﷺ وتشويه حقيقة الإسلام.. اهتمت الكاتبة بإبراز علاقة محمد بالنساء، ونظرة الإسلام إلى المرأة؛ ملتزمة بمنهجها الموضوعى، وتفكيرها الهادئ، وخطابها العقلى؛ فقالت: «وقد أثار موضوع زوجات النبى تأملات كثيرة فى الغرب تتسم بالبذاءة والصفاقة، وبكثير من مشاعر الحسد التى فشل الكتاب فى إخفائها، ليصموا الإسلام بأنه دين المتعة والشهوة».

وذكرت أن الاقتصار على زوجة واحدة لم يكن من الأعراف المستحبة فى بلاد العرب، بل يغلب أن يكون تعداد الزوجات هو العرف السائد فى المجتمع القبلى، وتقرر ذلك بقولها: «يخطئ من يظن أن محمدا كان ينعم بالملاذ فى حديقة من المتع الدنيوية، بل إن كثرة زوجاته كانت أحياناً نعمة ونقمة معاً؛ فالزواج كان أقرب إلى لون من الترتيبات العملية منه إلى زواج يقوم على الحب، فزواجه من عائشة وسودة كانت له أبعاده السياسية.

وتذكر الكاتبة أن النقاد الغربيين يميلون إلى أن يروا فى السماح بتعدد الزوجات شوفونية ذكورية، كما تروج الأفلام التى تقدم صورة مبالغاً فيها عن الحياة الجنسية لمشايخ المسلمين، على الرغم من أن النظر إلى الأمر فى سياقه يبين أنه لم يقصد بتعدد الزوجات إباحة نوع من الممارسة الجنسية للرجال فقد كان ذلك نوعاً من التشريع الاجتماعى؛ حيث كانت مشكلة الأيتام محل اهتمام محمد منذ بداية رسالته، ثم تفاقمت بعد وفيات أُحد، فلم يترك الشهداء زوجات فقط، لكنهم تركوا بنات وأخوات وقريبات فى حاجة لمن يكفلهم.

هذا إلى احتمال وجود فائض فى عدد النساء غير المتزوجات، واللاتى كن يستغللن استغلالاً سيئاً، مما ألجأ القرآن إلى إباحة تعدد الزوجات وسيلة علاج.

وتواصل قائلة: ومع ذلك فلو أننا نظرنا إلى قاعدة تعدد الزوجات فى سياقها - حيث كان

يتاح للرجل أن يتزوج أى عدد من النساء – لوجدنا أن التقييد بأربع إنما هو حد لتلك الممارسة، وليس ترخيصاً باضطهاد جديد، خصوصاً مع اشتراط المقدرة على العدل، وإلا فعليه الاكتفاء بواحدة.

وتلاحظ الكاتبة أن النقاد الغربيين يلومون الطريقة التى يعالج بها القرآن شئون المرأة، مع أن الحقيقة هى أن تحرير المرأة كان من الأمور المحببة إلى الرسول، وأن ما أنجزه للمرأة غير عادى، ويجب أن نتذكر أن المرأة فى أوروبا المسيحية لم تحصل على شئ من حقوقها إلا فى القرن التاسع عشر، حتى إننا مازلنا فى الغرب نقود الحملات من أجل حقوق متساوية للنساء.

وتلتفت الكاتبة إلى تحريم القرآن وأد البنات، وأن بدلاً من تلك الممارسة الوحشية لتحديد النسل، فإن القرآن يحث المسلمين على الوثوق بالله كافل الرزق للجميع، فعلى المجتمع أن يكفل للمسنين واليتامى والأطفال حقوقاً إنسانية كاملة، وأن يقيموا أسراً متعددة الأفراد واثقين أن لهم الحياة.

وتتوقف الكاتبة – فى هذا المجال – أمام الحجاب فى الإسلام، فتذكر أن الغربيين يرون فى حجاب المرأة – رمز للقمع الذكورى، بينما هو فى القرآن ليس سوى جزئية إجرائية، فالمسلمات – كالمسلمين – مطالبات بمراعاة الاحتشام فى ملابسهن، دون أن يفرض عليهن حجب أنفسهن فى جزء منفصل من المنزل، حتى إن النساء رأين فى الحجاب رمزاً للقوة وحسن الأثر، حتى لقد حاول نساء الصليبيين – بارتدائهن الحجاب – إجبار الرجال على إحسان معاملتهن، حين رأين ما تلقاه المسلمة من احترام.

وفى ضوء هذا تفسر الكاتبة عودة بعض النساء المسلمات إلى زيهن الإسلامى، فهن يرون فيه عودة إلى جذورهن الحضارية، ورفضا منهن للحضارة الغربية، وليس كما يقول الغربيون نتيجة إخضاعهن لعملية (غسيل المخ) من قبل ديانة شوفونية.

وترى الكاتبة أن الأولى بدعاة نصرة المرأة فى الغرب – ممن يتهمون الإسلامية بكراهية المرأة – أن يتأملوا السلبية الشديدة فى التقاليد المسيحية إزاء المرأة، حتى إن الكراهية المسيحية للمرأة تتسم بنزعة عُصابية خاصة؛ لأنها تقوم على رفض الحياة الجنسية التى تنفرد به المسيحية.

كما ترى أن النظرة الغربية إلى المرأة نظرة متخبطة، فبينما ندعو إلى تحريرها نستغلها ونمتهنها فى الإعلانات والفنون الإباحية بأسلوب يستهجنه المسلمون، ويتأذون منه، حتى إن المسلمات رفضن – عن اقتناع – ما قدمناه لهن من الحريات الغريبة.

السلم المقدس

وتذكر الكاتبة – فى الفصل التاسع (السلم المقدس) – أن محمداً بعد انتصاره على قريش، وتخلصه من قريظة.. أصبح سيداً من أهم سادات العرب، وأنه بدأ فى العمل على التحالف مع القبائل المختلفة تحالفاً سياسياً، يأمل معه أن يؤدى آخر الأمر إلى

التزام دينى، وأنه فى صلح الحديبية بين أن الإسلام كانت له جذوره الضاربة فى أقدس التقاليد العربية، حيث وضح أن التشريعات الاجتماعية الإسلامية لا تبتعد تماماً عن الروح القبلية، فهى بما تفرضه من قيود تهذبها وتخلصها للعدالة، كما صنع فى القصاص. هذا إلى أن المجتمع الإسلامى يقوم على المساواة، فليس هناك صفوة أو بناء هرمى من القسس والرهبان، حتى يمكننا أن نلمس ما تنميه تلك المساواة الإسلامية من حب وإخاء، لصب الناس فى مستوى اجتماعى وسياسى واحد.

وإنه على الرغم من صرامة القوانين القرآنية، كان محمد يتميز بالرحمة ولين الجانب، والشفقة التى شملت الحيوان. ومع ذلك دأبنا – فى الغرب على مر القرون – نقدم محمداً فى صورة الرجل الجهم، والمحارب القاسى، والسياسى البارد.

وإن علمه بأن القتال وشن الغارات من عناصر أسلوب الحياة العربية، وإدراكه – بناء على ذلك – أن محافظته على السلام الذى تحقق أخيراً تتطلب وجود قوة دفع خارجية؛ ولذلك وجه طاقة المسلمين إلى غزو القبائل الشمالية التى ظلت على عدائها للمسلمين.

وإنه من منطلق الحفاظ على هذا السلام، بدأ فى أكتوبر سنة ٦٣٠م الاستعداد بجيش كبير للتوجه إلى تبوك المتاخمة للأرض الخاضعة لبيزنطة، وتقع فى الشمال الغربى من المدينة، حيث أقام عشرة أيام أثار فيها إعجاب العرب هناك، فسارع بعضهم إلى التحالف معه.

ثم لم يمض أكثر من ثلاثة شهور حتى استسلمت الطائف، آخر معاقل الوثنية؛ فأصبحت عوامل الحركة الداخلية التى تحدث التغيير الاجتماعى تؤازر محمداً؛ ليتقرر لدينا أن محمدا ما أنجز هذا الإنجاز الفذ فى نحو عشر سنوات استناداً إلى الوحى وحده، بل إنه طبق المبدأ القرآنى القائم على حتمية التوسل بالأسباب، فاستخدم جميع موارده الطبيعية، وعبقريته الشخصية الفائقة، مقرراً بذلك أن الإسلام دين واقعى عملى.

الإسلام والنشاط السياسى والإنسانى

ومن هنا ترى الكاتبة – فى الفصل العاشر (وفاة الرسول) – أن التاريخ والنشاط السياسى لدى المسلمين هدفان فى حد ذاتهما، لكن يظلهما ويحكمهما النظام الإلهى الأسمى، كما يقرر ذلك – باستمرار – الرموز القرآنية المتعلقة بالحساب، والجنة، والنار.

وهكذا تمكن محمد من إنشاء مجتمع قوى، له استقلاله عن الفوضى المحيطة وما يسودها من دوائر لا تنتهى من سفك الدماء.

وفى العاشر من الهجرة سنة ٦٣٢م بدأ محمد رحلته للحج مع كل زوجاته، وحشد كبير من المسلمين، والحج شعيرة مازالت مصدر إلهام للمسلمين بتجربة دينية شديدة العمق بما تقوم عليه من مناسك مختلفة، وإن كانت تبدو غريبة فى نظر الشخص الغربى.

وتخلص الكاتبة من تلك الرحلة إلى أن

للسياسة أهميتها فى الإسلام؛ لأن المشروع الإسلامى هو محاولة لخلاص التاريخ من الانحطاط والفوضى؛ فالجهد السياسى ليس عرضياً فى حياة المسلم الروحية الشخصية؛ إذ إن للأمة أهمية مقدسة.

وأن لذلك - بعد وفاة محمد - كان النجاح المستمر للمشروع الإسلامى مبرراً للجهد السياسى؛ فما لبثت الجيوش العربية أن أسست إمبراطورية امتدت من جبال الهيمالايا حتى جبال البرانس، مع أن العرب لم يحاولوا إجبار شعوب تلك البلاد على الإسلام؛ مما يدل على أن القرآن أجاب احتياجات الناس الدينية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، كما يدل على أن الإسلام أمكنه استيعاب الحضارات القديمة الأخرى، وأقام إرثة الحضارى المتميز، وأن الإسلام لم يكن قوة تهديد أو تفريق، ولكنه أثبت قدرته على توحيد المجتمع.

وتلاحظ أن المسلمين قد واصلوا المسيرة بعد وفاة محمد، باستمرارهم على الاستجابة الخلاقة للتحديث حتى عصر متأخر نسبياً، مع مجابهة المصائب والكوارث التى نجمت عما أحدثه المغول فى القرن الثالث عشر، فقد استمر القرآن يمنح الشعوب الإسلامية سبل التغلب على الكوارث، وتوفير الشجاعة على الاستمرار، كما طور المسلمون علاقات دبلوماسية مع جيرانهم فى دار الحرب، ولم يقع منهم أى ضغط على اليهود أو المسيحيين أو الزرادشتيين لاعتناق الإسلام.

وتختم الكاتبة دراستها مقررة أن سر المسلمين يكمن فى أن حب المسلمين لمحمد لا ينصب على الشخصية الذاتية التاريخية - كتخصيص المسيحيين لعيسى - لكنه ينصب على السر المقدس، فهو يضىء الحياة، ويضيف إليها معنى جديداً، ولذلك انطلقوا يجمعون الأحاديث النبوية، باذلين الجهد الجبار فى تنقيتها من الدخيل والمدسوس. وكان ذلك سر وحدة الهوية الإسلامية، مهما نشب من خلافات بينهم، فحادثة سلمان رشدى إنما أثارت المسلمين فى جميع أنحاء الأرض، لأنهم رأوا فيها هجوماً على الرسول ﷺ، انتهك حرمة منطقة مقدسة فى نفوس الجميع.

ومع هذا النظر الموضوعى المحايد. أرى أن الكاتبة قد جانبها التوفيق فى بعض الأحيان، كما حدث فى تفسيرها تحريك محمد لسانه بالوحى خشية النسيان أنه صياغة للوحى ص١٣٧، وكما حدث فى استبعادها صحة ما روى من أنه ﷺ دعا هرقل وكسرى إلى الإسلام لعدم وجود دليل على أن محمداً كان يرى عالمية الإسلام ص٣١٤، وأن أهل الديانات الأخرى منعوا من اعتناق الإسلام نحو مائة عام بعد وفاة محمد ص٣٨٤، وما كان أحد من المسلمين يملك منع أحد من اعتناق الإسلام، ولكن على الجميع أن لا يكرهوا أحداً على ذلك.

وصفوة القول أرى أن الكتاب نبراس يضىء الطريق لمن يتصدى بالدعوة فى الميدان الغربى العالمانى الحديث.

والله من وراء القصد

من عيون التراث

الأضداد

لمحمد بن القاسم الأنباري

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

يقصد بالأضداد فى اصطلاح اللغويين الكلمات التى تؤدى إلى معنيين متضادين بلفظ واحد، ككلمة «الجون» تطلق على الأسود والأبيض، و«الجلل» تطلق على الحقير والعظيم، وهكذا.

وقد كانت الأضداد - ومازالت - بهذا المعنى، مرادا للقول عند الباحثين، وموضعاً للجدل عند العلماء والدارسين، فمنهم من قال بإمكان وقوعها، وعد وضعها فى مألوف القوانين اللغوية، والمواضع الاصطلاحية - وذلك لأن المعانى غير متناهية والألفاظ متناهية - وذكروا من عللها وأسبابها وشواهدها الشىء الكثير، ومن هؤلاء: الأصمعى، وأبو عبيدة السجستانى، وابن السكيت، وقطرب، وابن الأنبارى، وغيرهم، كما يبدو ذلك واضحاً من مصنفاتهم وآرائهم المنتشرة فى كتب اللغة والأدب.

ومنهم من أنكر هذه الأضداد إنكاراً عنيفاً، وأبطلها إبطالاً تاماً، وتأوَّل ما ورد منها فى اللغة ونصوص العربية، وأشهر من أعلن هذا الرأى ابن درستويه، فإنه ألف كتاباً أسماه «إبطال الأضداد» وذهب إلى جحد الأضداد جميعها.

ومنهم من قال: بوجود الأضداد، إلا أنهم عدوها منقصة للعرب، ومثلبة من مثالبهم، واتخذوها دليلا على نقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وزعموا أن ورودها فى كلامهم، كان سبباً فى كثرة الالتباس عند المحاورة وإدارة الخطاب، وهؤلاء هم الشعوبية أو من كان يسميهم ابن الأنبارى: «أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب».

وقد جرد ابن فارس من هذه الآراء كتاباً، ذكر فيه ما احتج به كل فريق على فريق، وإن كان هذا الكتاب لم يصل إلينا فيما وصل من كتب ابن فارس إلا أنه أشار إليه فى كتابه «فقه اللغة» وقديما حاول العلماء حصر هذه الكلمات وجمعها من كلام العرب فيما شعروا ونثروا، وفيما ورد منها فى القرآن والحديث والشعر.

وقد حظيت هذه المؤلفات بكثير من العناية فى النشر والتحقيق، فقام الدكتور (أوغست هفز) بنشر كتب الأضداد للأصمعى، والسجستانى، وابن السكيت، والصغانى، وطبعت هذه المجموعة طبعة علمية جيدة فى بيروت سنة ١٩١٣.

كما نشر الأستاذ هانس كوفلر كتاب أبى محمد بن المستنير المعروف بقطرب، فى مجلة إسلاميكا «المجلد الخامس» سنة ١٩٣١.

ثم نشر محمد آل يس كتاب أبى محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان، ضمن مجموعته المعروفة بنفائس المخطوطات، وطبعت فى النجف سنة ١٩٥٢.

ونقل السيوطى أن ممن ألف فى ذلك أيضا التوزى، وأبو البركات بن الأنبارى، وإن كان لم يقع لنا شىء من هذين الكتابين. هذا عدا الفصول التى وردت فى كتاب الجمهرة لابن دريد، والغريب المصنف لأبى عبيد، والمخصص لابن سيده، وفقه اللغة للثعالبى، وديوان الأدب للفارابى.

ولكن أعظم هذه الكتب خطراً، وأوسعها كلما، وأحفلها بالشواهد، وأشملها للعلل، هو كتاب أبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى، فإنه أتى على جميع

ما ألف قبله وأربى عليه وجاء بالعجيب من أراجيز وشواهد الشعر الحديث والقرآن، فى كثرة اللغة، وإسهاب كثير، مع عذوبة المورد، ووضوح التعبير، وإشراق الدلالة واطراد التنسيق وسهولة الأسلوب، وأعانه على ذلك كثرة محفوظه، ووفرة روايته، ووضوح الفكرة فى عقله، مع دقة التعليل وقوة الحجاج، ثم استطرد لشرح الشواهد شرحاً أبان فيه المعنى الدقيق، وكشف النقاب عن اللفظ الغريب، وقدم لكتابه ببحث ضاف شامل، انتصر فيه للعرب فيما ورد على ألسنتهم من ألفاظ الأضداد، وأبان على حكمتهم فيما أرادوا، وعلل كل ذلك تعليلا دقيقا أمينا، وبكل هذا عُدَّ كتاب ابن الأنبارى أشمل كتاب وأوفاه فى هذا الموضوع.

والمؤلف هو: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فروه بن قطن بن دعامة الأنبارى ولد فى بغداد يوم الأحد، لإحدى عشر ليلة خلت من رجب سنة إحدى وسبعين ومائتين.

ونشأ فى كنف أبيه القاسم، وكان أحد أعلام الأدب فى عصره، وممن عاناه تأليفاً وإملاء، وأخذ عن أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، وكان أنجب طلابه وألمعهم، كما أخذ عن إسماعيل القاضى وأبى العباس الكديحى، وأحمد بن الهيثم البزاز وطبقتهم، ولم يلبث أن أصبح إماما فى اللغة والنحو والأدب والتفسير، وعُدَّ من أعلام الطبقة السادسة من النحويين الكوفيين أصحاب ثعلب – على ما ذكره الزبيدى فى طبقاته – من أضراب أبى موسى الحامض وهارون الحائك، ونفطويه، وكيسان.

ثم أَمْلَى فى المساجد، واشتغل بالتصنيف، واتصل بالخلفاء من بنى العباس، وعلى الخصوص الخليفة الراضى – يعلم أولادهم ويؤدبهم.

وكان كما يقول ابن النديم «فى نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة وسرعة الحفظ، وكان مع ذلك ورعا من الصالحين، لا يعرف حرمة ولا ذلة، وكان يضرب به المثل فى حضور البديهة وسرعة الجواب». وتحدث عنه الأزهرى فى مقدمة كتابه: التهذيب، فقال: «كان واحد عصره، وأعلم من شاهدت بكتاب الله ومعانيه وإعرابه ومعرفة اختلاف أهل العلم فى مشكله، وله مؤلفات حسان فى علم القرآن، وكان صائنا لنفسه مقدما فى صناعته، معروفا بالصدق، حافظا حسن البيان، عذب الألفاظ، لم يذكر لنا إلى هذه الغاية من الناشئين بالعراق وغيرها من يخلفه أو يسد مسده».

وقال أبو على القالى: «إنه كان يحفظ ثلاثمائة بيت شاهدا فى القرآن، وكان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا بأسانيدها وكتابه أكبر شاهد على وفرة محفوظه».

ويبدو أنه لم يكن يدع لغير العلم والمعرفة سلطانا عليه، وذكروا أن جارية سألته عن تعبير رؤيا، فقال: أنا حاقن، ثم مضى من يومه فحفظ كتاب الكرمانى فى التعبير، وجاء من الغد وقد صار معبرا للرؤيا. ووهب الراضى جارية حسنة كاملة الوصف، فلما صارت إليه اشتغل قبله بها، فاختلفت عليه مسألة كان يطلبها، فقال للخادم ردها، فليس قدرها أن تشغل قلبى عن علمى. فلما بلغ الراضى – أمره، فقال: لا ينبغى أن يكون العلم فى قلب أحد أحلى منه فى صدر هذا الرجل.

وكانت حلقته فى المسجد من أحفل الحلقات وأملئها بأعيان الوزراء والكتاب والأشراف، وكان فى جميع ما ألف يملى من حفظه لا من كتاب.

وكان مع علمه وحفظه رقيقا متواضعا، نقل الخطيب عن أبى الحسن الدارقطنى أنه حضر فى مجلس أملاه يوم جمعة، فصحَّف اسما أورده فى إسناد حديث.

قال أبو الحسن: فأعظمت أن يحمل عن مثله فى فضله وجلالته هم، وهبته أن أوقفه على ذلك فلما انقضى الإملاء تقدمت إلى المستملى، وذكرت له وهمه، وعرفته صواب القول وانصرفت ثم حضرت الجمعة الثانية مجلسه، فقال أبو بكر للمستملى: عرف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلانى لما أملينا حديث كذا فى الجمعة الماضية، ونبهنا ذلك الشاب إلى الصواب، وهو كذا، وعرف ذلك الشاب، أنا رجعنا إلى الأصل، فوجدناه كما قال.

وكان أيضا - على علمه باللغة وبصره بالشعر وفقهه لمعانى القرآن - من كتاب الأخبار والأقاصيص، مشغوفا بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقى والوصفى والفكاهى، وفى أمالى أبى على القالى الكثير من هذه الأقاصيص.

وكان شاعرا وشعره شعر العلماء، ذكر منه ياقوت:

إذا زيد شدا زاد صبرا كأنما

هو المسك ما بين الصلابة والطهر

فإن فتيت المسك يزداد طيبه

على السحق والحر اصطبارا على الضر

وتوفى بعد هذه الحياة الحافلة بالعلم والتأليف والإملاء سنة ٣٢٧.

وله مؤلفات:

١- أدب الكاتب، ذكره ابن النديم وياقوت.

٢- الأضداد، وهو هذا الكتاب

٣- الأمالى، ذكره ياقوت

٤- الألفات، ومنه نسخة بمكتبة «لاله لى»

٥- إيضاح الوقف والابتداء، ومنه نسخ مخطوطة فى بلدية الإسكندرية وسليم أغا والأحمدية بحلب، وكبرلى والاوسكريال.

٦- الرد على من خالف مصحف عثمان، وذكره ياقوت.

٧- الزاهر فى معانى الكلمات التى يستعملها الناس فى صلاتهم ودعائهم وتسبيحهم، ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية، عن النسخة الأصلية المحفوظة بمكتبة كبريلى. واختصره الزجاجى، ومن هذا المختصر نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

٨- السبع الطوال، وسماه ياقوت «شرح الجاهليات» ومنه نسخة خطية بمكتبة نور عثمانية. وفى دار الكتب المصرية نسخة خطية مختصرة منه، ونشر فى مجلة الشرقيات معلقة زهير من هذا الشرح.

٩- شرح المفضليات، وطبع بمطبعة الآباء اليسوعيين.

١٠- ضمائر القرآن، ذكره صاحب كشف الظنون، ونقل عنه البدر الزركشى فى البرهان.

١١- غريب الحديث، ذكره ابن النديم، وقال ابن خلكان: «قيل إنه خمس وأربعون ألف ورقة»، وذكره ابن الأثير فى مقدمة كتابه النهاية.

١٢- الكافى فى النحو، وذكره ابن النديم وياقوت، وقال ابن خلكان: هو نحو ألف ورقة.

١٣- اللامات، وذكره ابن النديم وياقوت

١٤- المجالس، ذكره القفطى وسماه ياقوت «المجالسات»

١٥- المذكر والمؤنث، ومنه نسخة خطية بالفاتح، وشهيد على، وعاطف، ولاله لى.

١٦- مسائل بن شنبوذ، ذكره ابن النديم وياقوت.

١٧- المشكل فى معانى القرآن، رد فيه على ابن قتيبة وأبى حاتم، ذكره ابن النديم وياقوت وابن خلكان.

١٨- المقصور والممدود، ذكره ابن النديم وياقوت والقفطى.

١٩- إلهامات فى كتاب الله - عز وجل - ومنه نسخة محفوظة فى باريس

٢٠- كتاب الهجاء، ذكره ابن النديم وياقوت والقفطى.

٢١- الواضح فى النحو، ذكره ابن النديم وياقوت.

وعمل عدة من دواوين الشعراء، ذكر منهم ابن النديم، زهير، والنابغة الذبيانى، والأعشى والجعدى، والراعى.

وكتاب الأضداد سبق أن قام بنشره الأستاذ هوتسما فى لدين ١٨٨١ فى طبعة علمية جيدة، ووضع له فهارس مجمعة، وعنى بإخراجه عناية مشكورة، ثم عن هذه الطبعة، نشرت فى مصر سنة ١٣٢٥ طبعة لم تخل من الخطأ والتحريف.

وقد اقترح علىّ الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أحقق الكتاب نظرا لفقدان مطبوعه فى أوروبا من ناحية، وقيمة الكتاب من ناحية ثانية، ويسر لى الاطلاع على نسخة نفيسة مصورة عن الأصل المخطوط بليدن محفوظة فى معهد المخطوطات، وهى النسخة التى رجع إليها الأستاذ هوتسما حين نشر هذا الكتاب. وهى نسخة جيدة مضبوطة بالشكل الكامل، كتبها محمد بن سنجر الخازندار المعظمى فى غرة شهر شعبان المبارك سنة اثنين وخمسين وستمائة، ونقلها من خط مؤلفها.

ويبدو أنه كان من الكتاب المحسنين، لعنايته بقواعد النسخ وضبط الكلمات.

وبحواشيها بعض تعليقات لأحد العلماء ممن تملكوا النسخة، كما أثبت فى عدة مواضع منها معارضتها للأصل. وبأولها توقيع العلامة ابن خلكان «أحمد بن محمد بن إبراهيم» صاحب وفيات الأعيان. ومطالعة للعلامة محمد بن خليل الصالحى الحنفى، وتملك للنسخة مؤرخ سنة ٨٨٥، باسم يحيى بن حجى الشافعى.

وتقع فى ٤١ لوحة، ومسطرتها ٢١ سطرا، ومتوسط عدد الكلمات فى كل سطر أحد عشر كلمة.

وقد اعتمدت هذه النسخة أصلا نظرا لنفاستها وجودتها، ثم عارضت النصوص التى نقلها المؤلف عن الأصمعى والسجستانى وقطرب، بكتبهم الموضوعة فى هذا الموضوع، كما رجعت إلى المؤلفات الأخرى فى الأضداد، والنصوص المذكورة فى كتب اللغة والمعاجم، وخَرَّجْت ما ورد من الشعر عن الدواوين والأصول من كتب الأدب، وشرحت ما عَنَّ لى شرحه فى سهولة ويُسْر، كل ذلك على حسب ما ورد فى قواعد نشر النصوص التى وضعها معهد المخطوطات.

وحسب ما وسعنى جهدى وأمكنتنى الطاقة، وما يسر الله لى من العون والتوفيق.

صرعى الأغراض

للشاعر / أحمد الزين (*)

(تحفة من عيون الشعر العربى وطرفة من الشعر الاجتماعى نظمها الشاعر الأزهرى الكبير الأستاذ أحمد الزين منذ سبعين عاماً، مصوراً مأساة المواهب المظلومة، والكفايات المهضومة وكأنها قيلت الآن، فما أشبه الليلة بالبارحة).

يا للعـزائم يَثْنى من مـواضـيـهـا ** أنَّ الكفـايات يُقْـضَى بالهـوى فـيـهـا
وللمـواهب بالأغـراض يقـتـلها ** من يَسـتـمـدُّ حـيـاةً من أياديهـا
وللجـهـود بأعـشَى الرأى يُطْفـئـهـا ** مـاضٍ على ضـوئهـا سـارٍ بهـاديهـا
وللنوابغ يَقْـضى فى مـواهبـهـم ** بما يشـاءُ هواهُ غـيـرُ قـاضِـيـهـا
جـادُوا بأعـمـارهم حـتى لجـاحـدهم ** إنَّ المواهبَ سلْمٌ فى أعـاديهـا
كـالشـمـس تقـبسُ منهـا عينُ عـابدها ** وتُرسلُ النورَ فى أجـفـانِ شـانِيـهـا
والنفسُ إن مُلِئتْ بالود فـاضَ على ** جـدْبِ البـلادِ خلوفٌ من هوامِـيـهـا
لا يدَّعِ العـدلَ قـومٌ فى عـدالتـهم ** صـرعىَ الكفـاياتِ تشكُو ظلمَ أهْلِيـهـا

(١) من كبار شعراء الجيل الماضى، وصاحب التخصصات العلمية فيما نشر من كتب التراث مع صديقه الدكتور أحمد أمين مثل العقد الفريد، والإمتاع والمؤانسة، وديوان حافظ إبراهيم، وقد اشتغل بكتب أخرى فى دار الكتب مثل «نهاية الأرب» وأجزاء من صبح الأعشى وغيرها توفى سنة ١٩٤٧.

ولا المســـــاواةَ والأفــــهـــــامُ لو وُزِنَتْ ** مع الغـــبـــاوةِ فـــيـــهم لا تُســـاوِيهـــا
ولا الحـــضــــارةَ من تَجْــزِى نوابغَـــهم ** وحـــشـــيـــةً تسكنُ البـيــداء والتِّــيــهـــا
إذا البــلادُ تخلَّتْ عن حـــيـــاطَتِـــهـــا ** يدُ النبــوغِ تداعت من صـــيَـــاصـــيــهـــا
دعِ الحـديثَ عن القِــسْطاس فى عُـصَبٍ ** مـــا ســـوَّدتْ بينهـــا إلا مُـــرائيـــهـــا
ســوقُ النفــاقِ بهم شــتَّى بضـائعُـهـا ** تُزجَى لمنْ يشــتـــرى إفكاً وتَمْـــويهـــا
أرخـــصـــتمُ غـــالِىَ الأخـــلاقِ فى بلد ** لم تَغْلُ قـــيـــمـــتُـــه إلا بغـــاليـــهـــا
يارُبَّ نفسٍ أضـاءَ الطهـرُ صـفْـحَـتـهـا ** أفـــســـدتموها فـــزلَّت فى مـــهـــاويهـــا
وكمْ قلوبٍ كـــســـاها الحـسنُ نَضْــرَتَه ** دنَّسْـتـمـوها فـعـاد الحُـسنُ تَشْـويهـا
أغْلقـــتُمُ ســـبُلَ الأرزاقِ لم تدعـــوا ** لفـاضَل الخَلْقِ سـعـيــاً فى نواحـيـهـا
مـــدارسٌ تَغْـــرِسُ الأخـــلاقَ فى نَشءٍ ** ومُـــغْلَقُ الرزقِ بعــد الغَـرس يُذْويهـا
لا تَلْحَ طالبَ رزق فى نَقـــــائصـــــه ** إنَّ الضَّــروراتِ من أقــوى دَواعِـيـهـا
مـــا أطهــرَ الخُلُقَ المصــرىَّ لو طَهُــرَتْ ** تلك الرياســـاتُ من أهواءِ مُـــوحـــيـــهـــا
يا آخـــذينَ بقـــتلِ النفس قـــاتَلهـــا ** قَــتْلَى المواهِب لم يُسْــمَعْ لشــاكـيـهـا
كمْ للنُّبـــوغ دمـــاءٌ بينكم سُـــفِكَتْ ** بـاسم المآرب لا باسمِ اللّهِ مُـــجــريهـــا
هَلّا اقــتــصــصـتم لهـا من ظلم سـافِكِهـا ** وقلَّ فـــيـــمـــا جنَاهُ قَـتلُ جـانيـــهـــا
أولَى الورَى بقـــصـــاصٍ منه ذو غَـــرضٍ ** يَخْـشى المواهبَ تُخـفـيـه فـيُـخْـفـيـهـا
ملءُ المناصِب مَنْهـــومـــون قـــد جَـــعلوا ** من دُونهــا ســدَّ ذى القَـرنين يَحْــمـيــهـا
على مَنَاعـــــة ذاكَ الســــدِّ تَنْفُـــذه ** عِــصَـــابةٌ تتـــواصَى فى حَـــواشِـــيــهـــا
مـن كـل أخْـــــرَق تَـنـســلُّ الحظـوظُ بـه ** إلى المراتـبِ يســمُـــو فى مـــرَاقـــيـــهـــا

خابى القُوَى عبقرىٌّ الجهل يُثْقلُه ** عبءُ الرياسة إذ يَدْعوه دَاعيها
يا حافرين تراب الأرض عَنْ حجَرٍ ** أو جُثةٍ فى ظلامِ الأرضِ يطْويها
ومنفقين من الأموال أنْفَسها ** فى البحث عن خِرَق لم يُغنِ باليها
مُستبشرين بما يَلْقَوْنَ من تُحفٍ ** للقوم أو خَزَفاتٍ من أوَانيها
ورافعين من البُنْيان شاهقَة ** فيه الذّخائرُ قد صُفَّتْ لرائيها
هلاَّ عرَفتم لمصرٍ فضلَ حاضرِها ** يا عارفين لمصرٍ فضلَ ماضيها
إنّ العصورَ التى جادَتْ بمن سلَفُوا ** على الحضارةِ لم تَبْخَلْ أياديها
ذُخْرُ المواهبِ فى أحيائكم تُحَفٌ ** بَذّت متاحفَكم وصْفاً وتشبيهاً
ما إنْ يُقالُ لها للّه صانعُها ** لكِنْ يقالُ تعالَى اللهُ باريها
هَبُوا النوابغَ مَوْتى فاجعلوا لَهُمُ ** حَظَّ النّواويس أكرمتمْ مَثاوِيها
جعلتمُ الحىَّ يرجو حظَّ ميِّتكم ** فَحَظُّ أحيائكم فى مصر يُشْقيها
أيُحْرَمُ النحلُ غَضَّ الزهرِ يَلْفِظُه ** شُهْداً وقد شَبَعتْ منهُ أفاعيها
ويُقْتَل الروضُ ذو الأثمارِ من ظَمَأٍ ** والماءُ يُروِى مَوَاتاً من فَيافيها
من يَقْتل الجُهدَ يَقْتلْ فيهِ أُمَّتَه ** وأُمَّةُ الجُهدِ تُحْييه فَيُحْييها
إنّ الشعوبَ إذا ماتَتْ مواهبُها ** نُقاضَةٌ أعْوَزَتْها كفُّ بانيها

***

طرائف.. ومواقف

إعداد الأستاذ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

قولوا لفلان يغسلني

لما مرض الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ مرضه الذى مات فيه، قال لقومه: إذا أنا مت فقولوا لفلان يغسلنى، فلما توفى وبلغه الخبر، قال: ائتونى بتذكرته فجيىء بها إليه، فوجد فيها على الشافعى سبعين ألف درهم لفلان وفلان، فكتبها الرجل على نفسه، وقال: هذا هو الغسل الذى أراده.

لو بدأت بي لأكثرت

خرج الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر حجاجا فسبقتهم رحالهم ومن يحملونها، وجاعوا وعطشوا فمرّوا بعجوز فى خباء لها، فقال أحدهم: هل من شراب؟ فقالت: نعم، فأناخوا عندها وليس لديها إلا (شويهة) فقالت: احلبوها، واشربوا لبنها ففعلوا. فقالوا: هل من طعام، فقالت: ليس إلا الشاة، فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون، وقام أحدهم فذبح الشاة وكشطها، ثم هيأت الطعام، فأكلوا، وقالوا لها: نحن نفر من قريش نريد الحج، فإذا رجعنا فألمى بنا بالمدينة لنجزيك خيرا. وأقبل زوجها، فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب، وقال: ويحك، تذبحين الشاة لنفر لا تعرفين من هم؟ ثم تقولين إنهم من قريش.

ثم ألجأتهما الحاجة ـ الرجل وامرأته ـ إلى المدينة، فذهبا يلتقطان الفتات من الشوارع ومرت بمنزل الحسن، فعرف العجوز، وكان واقفا أمام داره، فبعث إليها غلامه، فدعا بها وقال لها: يا أمة الله. ألا تعرفينني؟ قالت: لا، قال أنا ضيفك بالأمس يوم كذا وكذا. قالت: فداك أبى وأمى، فاشترى لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأعطاها ألف درهم، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين وعبدالله بن جعفر، ففعلا ما فعل، وقال عبدالله بن جعفر: لو بدأت بى لأكثرت، ولكنى لا أخالفهما فرجعت العجوز إلى زوجها بثلاثة آلاف درهم، وثلاثة آلاف شاة!

التقوى زينة الصالحين

خرج بعض الزهاد فى يوم عيد، وليس عليه جديد، فقيل له: لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة، والناس متزينون؟ فقال: ما نتزين لله ـ تعالى ـ بمثل طاعته.

متى يكون الأدب شرا من عدمه؟

قيل لبعض الحكماء: متى يكون الأدب شرا من عدمه؟

قال: إذا كبر الأدب ونقص العقل، وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله.

وقال سليمان بن عبدالملك: زيادة منطق فى عقل خدعة، وزيادة عقل على منطق هجنة، وأحسن من ذاك ما زين بعضه بعضا.

وقال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله
إذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

إنى قد أعددتك

قال بعض الخلفاء لجرير بن يزيد: إنى قد أعددتك لأمر، قال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعد لك منى قلبا معقودا بنصيحتك، ويدا مبسوطة بطاعتك، وسيفا مشحوذا على عدوك، فإذا شئت فقل.

حقا

قال الشاعر:

يخونك ذو قربى مرارا وربما
وفى لك عند العهد من لا تناسبه

حقيقة

من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم.

أى إخوتى أنت؟

روى أنه قيل لمعاوية بن أبى سفيان: يا أمير المؤمنين بالباب رجل يقول: إنه أخوك فقال: كيف لا أعرف إخوتى؟ أدخلوه، فدخل الرجل فقال له معاوية: أى إخوتى انت؟ قال: أخوك من آدم!! قال: رحم مقطوعة، والله لأكونن أول من وصلها، وقضى له حاجته.

دعاء لرد كيد الشيطان بمشيئته تعالى

اللهم إن هذا الشيطان يرانى من حيث لا أراه، وأنت ـ سبحانك ـ تراه من حين لا يراك، فأسألك ربى أن ترد عنى كيد من تراه ولا أراه.

من مختارات مجلة الأزهر :

العِلمُ وَالدِّين

للأستاذ / محمد أحمد الغمراوى

إعداد الشيخ / على حامد عبد الرحيم

ننشر هذا البحث على طوله نقلاً عن مجلة الأزهر (المحرم سنة ١٣٥٦هـ) بمناسبة ما أثير حول التفسير العلمى الآن، وقد كتب رئيس التحرير بجريدة «صوت الأزهر» رأيه فى اجتهاد الدكتور زغلول النجار الممتاز حقاً، ونريد اليوم أن نطلع القراء على بحث ضليع كتبه الأستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوى منذ خمسة وستين عاماً يؤيد قضية البحث العلمى، والكاتب علم من أعلام الفكر الإسلامى الحديث. رحمه الله.

يظن بعض من لا خبرة له بالعلم أو بالدين الإسلامى أو بكليهما، أن هذه العلوم المسماة بالعلوم الطبيعية، والتى يصح تسميتها بعلوم الفطرة، علوم مستحدثة، وأنها غريبة عن الدين، وأن من الجائز وجود تناقض بين حقائقها وحقائقه. لكن ظنهم هذا باطل، لأن هذه العلوم الطبيعية هى فى الواقع علوم إسلامية، لأنها فى الواقع علوم قرآنية، قرآنية فى موضوعها، قرآنية فى طريقتها، بل قرآنية فى اسمها، لأن مادة (علم) بهذا المعنى الطبيعى المعروف واردة أيضاً فى القرآن.

فأما ورود مادة (علم) فى القرآن الكريم بمعنى العلم الكونى الذى يسمى الآن بالعلم الطبيعى فذلك نراه فى القرآن فى أكثر من آية. ففى سورة الأنعام وردت آيات كثيرة موضوعها الحث على طلب هذا العلم بآيات الله فى الكون، نذكر منها قوله –تعالى–:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(١).

(١) سورة الأنعام الآية (٩٧).

كذلك وردت آيات عدة فى سورة الروم، نذكر منها قوله – تعالى –:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾(٢).

كذلك فى سورة فاطر آيات كونية، نذكر منها قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(٣).

وواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التى أودعها الله – سبحانه– فيما أشارت إليه هذه الآيات الكريمة.

هؤلاء العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الفطرة على خشية الله فاطر الفطرة، لأنهم يكونون بعلمهم أبصر بعظمة الله – سبحانه –وجلاله وقدرته المتجلية فى آيات صنعه. وهذا فى الواقع هو الحكمة الكبرى التى من أجلها أمر الله الإنسان فى كثير من آيات القرآن بالنظر فيما خلق الله فى السموات والأرض من خلق. وهناك طبعاً إلى هذه الحكمة الكبرى حكم أخرى هى ما يتبع طلب هذه العلوم الكونية من منافع مادية دنيوية آتيه من استخدام حقائق العلم فى شئون الإنسان، كالانتفاع مثلاً بخواص الكهرباء والبخار والحديد فى هذه القطارات والسفن البخارية، وهذه المركبات والمصابيح الكهربائية. والحكم كلها مرادة لله – سبحانه – حين أمر الإنسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض، إلا أن الحكمة الأولى حكمة خشية الله المشار إليها فى

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾

هى الحكمة الكبرى، إذ عبادة الله وخشيته هى الغاية الأولى والآخرة من وجود الإنسان.

العلم قرآنى بموضوعه

وأما قرآنية موضوع هذه العلوم الطبيعية فذلك واضح من الآيات السابق ذكرها، ومما لا يتيسر الآن ذكره من نحو خمس آيات القرآن وإن تيسر ذكر بعضه مثل قوله – تعالى: – من سورة النحل:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾(٤).

---

(٢) سورة الروم الآية (٢١).

(٣) سورة فاطر الآيتان (٢٧، ٢٨).

(٤) سورة النحل الآيات (٦٦ ـ ٧٠).

ومثل قوله -تعالى -فى سورة الجاثية :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥) .

فموضوع هذه الآيات الكريمة، ما ذكر منها ومالم يذكر، هو نفس موضوع العلم الطبيعى بأوسع معانيه، ما عرف الإنسان منه وما سيعرفه .

فالعلم الطبيعى، كما قلنا، يبحث عن الأشياء الكونية : طبائعها وخواصها، والعلاقات بينها، ثم عن حقيقتها إن أمكن، أى عن أيات الله المودعة فى هذه الأشياء . ففى آية « فاطر » مثلا لا يعرف سر نزول الماء من السماء إلا بعلم الطبيعة، ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء، ولا يعرف الإنبات والإثمار وأثر الماء فيهما إلا بعلم النبات، ولا يعرف ما الجبال ولا ما طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض، ولا يعرف اختلاف أجناس الناس والدواب والأنعام إلا بعلمى أصل الشعوب والحيوان الخ . وعلى هذه الآية فقس غيرها .

فهذه العلوم الطبيعية ليست قرآنية الموضوع فقط، بل هى لابد منها لتفسير الآيات الكونية فى القرآن .

العلم قرآنى بطريقته

أما أن طريقة العلم فى طلب أسرار الفطرة هى نفس الطريقة التى أمر بها القرآن فيتبين مما يأتى :

أولاً : أن العلم لا يقول عن شىء إنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقينى القاطع، والقرآن الكريم يأمر كذلك بأن لا يقبل الإنسان شيئاً على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان . يتبين ذلك من مثل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٦) .

وقوله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾(٧) .

والعلم هنا هو الحق اليقينى القائم الثابت بالحجة القاطعة، بدليل عيبه عليهم إنزالهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين فى قوله تعالى :

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ .

---

(٥) سورة الجاثية الآيتان (١٢، ١٣).
(٦) سورة البقرة (١١١).
(٧) سورة الأنعام (١٤٨).

ثانيـاً: أن العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقينيا ما ليس بيقينى، وأن ينزل الظن منزلة اليقين، أو أن ينزل الفرض والتخمين منزلة الظن والترجيح. فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التى تشهد للقضية، فإذا كانت الحجة قاطعة فالقضية حق، وإذا كانت غير قاطعة فالقضية ظن، ويسميها العلم فى هذه الحالة نظرية إذا كانت أرجحيتها كبيرة، إذ من الواضح أن هناك فى الرجحان مراتب بعضها أرقى من بعض. أما إذا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها، فتلك هى القضية المجهولة التى وقعت موقعاً وسطاً بين الحق والباطل لا يدرى إلى أيهما هى أقرب. وأمثال هذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة فى منطقة الرجحان، قل حظها من الرجحان أو كثر، هى موضع النظر العلمى والبحث، لا يزال العلم يبحث عنها ويمحصها حتى ينتهى فيها إلى حكم قاطع فيلحقها إما بالحق اليقينى وإما بالباطل اليقينى. وهذا التفريق من العلم فى المنزلة بين ما هو حق وما وهو راجح وما هو دون الراجح يتفق تماماً مع رُوح القرآن الكريم فى النظر، ومع طريقته المتجلية فى القرآن الكريم كله، خصوصاً تلك الآيات منه التى من قبيل ما ذكر تحت: (أولاً) مثل قوله – تعالى –من سورة النجم:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾(٨).

ومثل قوله – تعالى – من سورة الجاثية

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾(٩).

وقوله – تعالى – من سورة يونس:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾(١٠).

ثالثاً: وهو ملتحق بالأصلين السابقين: أن العلم يمنع التقليد فى النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به، والعلم الحديث يخالف العلم قديما فى هذا، لأن العلماء قديما، خصوصاً فى القرون الوسطى، كانوا كثيراً ما يقنعون فى الاستدلال على الصحة أو البطلان بإثبات أن القضية توافق أو تخالف رأى فلان أو علان من المشاهير، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلاً يتخذ حجة قاطعة فى موضوعه من غير أن ينظر فى رأى أرسطو هذا فى

(٨) سورة النجم الآيات (١٩ ـ ٢٣).

(٩) سورة الجاثية الآية (٢٤).

(١٠) سورة يونس الآية (٣٦).

ذاته، ومن غير أن يسأل ما دليل أرسطو. وكان هذا منبع شر كبير، ولعله كان سبب كثير من الشبه الكلامية التى قامت بين علماء المسلمين، بعد أن ترجمت كتب اليونان فى العصر العباسى، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة وما كانوا يسمونه الحكمة، يريدون بالحكمة غالباً ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون وأرسطو وأضرابهما، حتى جاء أمثال الغزالى من المسلمين فوضعوا الأمر فى نصابه.

والعلم فى منعه التقليد الأعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذى شدد النكير على أناس كانوا يستمسكون بالرأى، لا لأنهم عقلوه، ولكن لأن أبائهم فعلوه. ترى ذلك من مثل قوله – تعالى – من سورة البقرة:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(١١).

وقوله ـ تعالى ـ من سورة المائدة:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(١٢).

أو قوله – تعالى – من سورة الزخرف:

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾(١٣).

فالتقليد الأعمى، أى الأخذ بالرأى من غير دليل أو رغم الدليل متابعة لزيد أو لبكر من الناس، محرم على أهل النظر فى حكم العلم وفى حكم القرآن.

والأصل الجامع لذلك كله فى العلم وفى الدين هو تحكيم العقل فى كل ما يعرض للإنسان من أمر. والمراد بالعقل ليس هو العقل الخاص عقل الفرد، ولكن العقل العام أو العقل المطلق الذى ضبطت قوانين تفكيره عن طريق الاستقراء وأودعت ما يسمى بعلم المنطق. هذا العقل هو الحكم فى العلم، وهو الحكم فى الدين. فالقرآن دائماً يحاكم إلى العقل وينعى على من لا يستعمله. بل إن العقل قد أكبره الإسلام إكبار دونه أى إكبار، حتى لقد أوجب الشرع تأويل النص إلى ما يطابق العقل إذا كان ظاهر النص يناقض ما ثبت قطعيا بالعقل. وكلمة «قطعياً» هنا مهمة، فلا يجوز تأويل النص من أجل ما هو راجح عند العقل، لأن العقل نفسه يجيز بطلان ذلك الراجح، فلا

---

(١١) سورة البقرة (١٧٠).

(١٢) سورة المائدة الآية (١٠٤).

(١٣) سورة الزخرف الآيات ٢٢ ـ ٢٥.

حكمة هناك إذا فى تأويل النص الشرعى من أجل ما قد يثبت المستقبل أنه من الباطل. والأمثلة التى ضربت فى الشرع لوجوب التأويل كلها من باب قوله -تعالى-:

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(١٤).

فإن نسبة الجارحة إلى الله -تعالى- محال، فوجب تأويل الآية عن ظاهرها إلى معنى من المعانى المجازية اللائقة به -تعالى-، فأولوا اليد إلى القدرة. لكن من الممكن أن يقال إن هذا النوع من التأويل غير لازم عند النظر فى الآيات الكونية القرآنية. بل كثيراً ما يكون المعنى الحرفى للآية الكريمة هو المنطبق على ما ثبت عند العلم بالبرهان.

رابعاً: أن العلم فى تطبيقة قوانين التفكير المجموعة فى علم المنطق القياسى يتخذ أصلين اثنين يبنى عليهما:

الأول: أنه لا تناقض مطلقابين الحقائق، فليس من الممكن أن ينقض حق حقاً، وما ينقض حقاً إذا فهو باطل. وهذا يصح أن يسمى بأصل توافق الحقائق.

الثانى: أصل اطراد الفطرة. فما ثبت أنه حق فى وقت ما سيكون دائماً حقاً، أو بعبارة أخرى أن الحق مستقل عن الزمان والمكان.

وليس عند العلم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه الماضية، فإنه لم يشاهد مطلقاً أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية، أى لم يشاهد مطلقا تناقضا بين حقائق العلم، سواء اكتشفت تلك الحقائق فى الماضى أم فى الحاضر، فى الأرض أم فى كوكب من الكواكب، بل كثير من حقائق العلم إنما استنتج بناء على هذين الأصلين: أصل اتساق الحقائق أو امتناع التناقض بينها، وأصل اطراد الفطرة، وكانت التجربة دائماً تؤيد الاستنتاج. بل من الواضح أن العلم يصبح مستحيل الوجود ومستحيل النمو لو انهار أحد هذين الأصلين أو كلاهما.

وهذا سبب آخر يجعل العلم يستمسك بهذين الأصلين محافظة على وجود نفسه، وإن عجز العلم عن إقامة الدليل على صحتهما فيما يتعلق بالمستقبل.

هذان الأصلان اللذان يستمسك العلم بهما هذا الاستمساك هما أصلان قرآنيان أكدهما منزل القرآن -سبحانه- كل التأكيد، وهو -سبحانه- أعلم بما خلق. فأصل اطراد الفطرة ثابت قرآنيا من مثل آية الأحزاب:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(١٥).

أو آية فاطر:

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(١٦).

وآية الروم:

---

(١٤) سورة الفتح الآية (١٠).

(١٥) سورة الأحزاب الآية (٦٢).

(١٦) سورة فاطر الآية (٤٣).

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾(١٧).

فهذه آيات صريحة فى اطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها على الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل. والفطرة سننها هذا تشمل كل ما وجد فى ملكوت الله، سواء فى ذلك ما تعلق بغير الإنسان من جماد ونبات وحيوان، أو ما تعلق بالإنسان من ناحية النفس والروح فى الفرد والجماعة مما لم يرتق العلم إليه إلى الآن.

أما أصل توافق الحقائق أو استحالة تناقضها فثابت قرآنياً من الآيات السابقة، لأن تناقض الحقائق يستلزم تناقض الفطرة، ويزداد ثبوتاً بقوله- تعالى -من سورة تبارك:

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾(١٨)

فإن التناقض هو أكبر التفاوت، فإذا ما انتفى التفاوت فى خلق الله لزم أن ينتفى التناقض فى خلق الله أيضاً.

خامساً: أصل المشاهدة:

عرفنا أن العلم فى بحثه عن الحقيقة يسلك سبيل العقل، فلا يعتبر حقاً إلا ما قام البرهان على أنه حق. فالعلم دائب البحث إذا عن البراهين التى تثبت حقائق الأشياء. هذه البراهين عرفنا من أنواعها النوع القياسى، أى الذى يتوصل إليه بالقياس الصحيح. لكن القياس الصحيح إنما يؤدى إلى نتيجة صحيحة إذا صحت المقدمتان كلتاهما. أما إذا كانت إحداهما باطلة أو مشكوكاً فيها فإن النتيجة يصيبها من البطلان أو الشك مثل ذلك، وإن صحت طريقة الاستنتاج. وبعبارة أخرى يلزم لصحة النتائج شرطان: صحة المقدمات كلها، وصحة طريقة الاستنتاج التى هى نفس القياس. أما صحة طريقة الاستنتاج فقد تكفل بها المنطق القياسى، لكن المقدمات ما شأنها وما طريق التثبت من صحتها؟

كثير من المقدمات ناتج عن طريق القياس من مقدمات أولية بدهية الصحة، لا يختلف فى صحتها العقلاء ويصلون إليها مستقلا بعضهم عن بعض. وعلم الهندسة النظرية على تعقد نظرياته مستنتج كله من أمثال هذه البديهيات. لكن ليس كل المقدمات يمكن رده إلى بدهيات كهذه عند إثبات صحته. ولابد إذاً فى إثبات صحة هذا النوع الثانى من طريق آخر غير طريق الاستنتاج من البدهيات. هذا الطريق الآخر هو طريق المشاهدة الصحيحة. وهو الطريق الذى سلكه إلى حد ما العلم قديماً. ويسلكه دائماً العلم حديثاً حتى صار طابعه الذى طبع به وميزته التى امتاز بها.

هذه المشاهدة العلمية تستعمل فيها الحواس خصوصاً السمع والبصر، لكن بشرط تربيتها وتدريبها من ناحية، وإعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى. هذه الآلات هى فى الواقع وسائل هدى الله إليها الإنسان ليزيد فى مدى حسه، فيزيد من مدى إبصاره مثلاً بالمجاهر أو (المكرسكوبات) التى يستطيع

(١٧) سورة الروم الآية (٣٠).

(١٨) سورة الملك الآية (٣).

الإنسان بها أن يرى من الأجسام ما صغر حتى دق عن أن تبصره العين المجردة، كالجراثيم وكرات الدم وخلايا الأجسام الحية، أو يزيد فى مدى إبصاره بالمراقب (التلسكوبات) التى تقرب للإنسان الأجسام البعيدة فيرى منها ما لم يكن يراه من قبل. فأما المجاهر فتستعمل كثيراً فى المعامل، وأما المراقب فتستعمل غالباً فى المراصد.

هذا الأصل أصل المشاهدة الصحيحة هو إذن الطريق الثانى الذى يسلكه العلم الطبيعى للوصول إلى مقدمات صحيحة، ولولاه ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع، ولا نمت هذا النمو ولا كشفت ما كشفت من أسرار الخلق. فالمشاهدة أصل علمى عظيم، وهى أيضاً أصل قرآنى عظيم، فإن الآيات التى تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل كثيرة فى القرآن، نذكر منها ما يأتى:

(١) استعمال البصر مع العقل:

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾[١٩].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾[٢٠].

الآيات - .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[٢١].

(٢) استعمال السمع مع العقل:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴾[٢٢].

(٣) استعمال السمع والبصر مع العقل:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[٢٣].

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢٤].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[٢٥].

---

(١٩) سورة العنكبوت الآية (٢٠).

(٢٠) سورة الملك الآية (١٩).

(٢١) سورة الغاشية الآيتان (١٧ ، ١٨).

(٢٢) سورة الحج الآية (٤٦).

(٢٣) سورة الأعراف الآية (١٧٩).

(٢٤) سورة النحل الآية (٧٨).

(٢٥) سورة الإسراء الآية (٣٦).

(٤) استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾(٢٦).

فهذه الآيات القرآنية الكريمة تحض الإنسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إليها من طرق المشاهدة الصحيحة بجميع أساليب الحض، ثم هى مع ذلك تؤدبه من حيث استعمال هذه المواهب على وجهها الصحيح. فآية [ولا تقف ما ليس لك به علم] الآية: تنهاه من ناحية أن يجرى مع الوهم أو الظن، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول إلى ما ليس بوهم ولا ظن، أى إلى اليقين والحق عن طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل.

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

وفى قوله سبحانه:

﴿ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

ليس فقط أمر شديد بإحسان استعمال البصر والسمع والعقل وعدم إهمالها، بل فيه أيضاً أمر بالاستمساك بما يهتدى إليه الإنسان من الحق عن طريقها. ففى هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هى جماع أصول النظر العلمى:

الأول: ألا يتبع الإنسان إلا الحق المعلوم يقينا

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾.

الثانى: أن طريق الوصول إلى هذا الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح.

الثالث: أن على الإنسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق عن طريق هذه المشاهدة والتفكير الصحيح.

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

على أن علم الإنسان كله مصدره العقل والمشاهدة الصحيحة. بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عن طريق التجارب والمشاهدات. فلو أخذ طفل وحبس عن العالم إلا فيما يكفى لحياته من طعام وشراب، فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال لا ينمو عقله عن عقل الطفولة. بهذا يقول علماء التربية، وإلى هذا تشير الآية الكريمة:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢٧).

فإن هذه الآية تكاد تكون صريحة فى أن ما يحصله الإنسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل.

مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث

وأصل المشاهدة الصحيحة هذا هو من أهم الفروق بين العلم الحديث والعلم القديم، فإن القدماء كانوا فى جملتهم يعتقدون أن من الممكن أن يصل الإنسان إلى ما يشاء من علم عن طريق العقل وحده، أى لم يكونوا يقولون

(٢٦) سورة الأعراف الآية (١٨٥).

(٢٧) سورة النحل الآية (٧٨).

بضرورة المشاهدة لحصول العلم، بل منهم من كان يرى أن المشاهدة تضل العقل لأن الحواس غير مأمونة فى أثنائها، ترى الشىء صغيراً كالنجم مثلاً وهو كبير. لذلك كانوا كثيراً ما يكتفون فى طلب العلم وأسرار الفطرة بالجلوس والتفكير، فكانوا يصلون إلى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق، ولما يقم عليها دليل، إنما كان دليلهم فروضاً يفترضونها يرونها حقاً ويركنون إليها فى الإثبات، ففيثاغورث مثلاً يقول عن الكون: إنه متفرد كامل كروى لأن الكرة أكمل الأشكال، وإنه حى عاقل لأن ما هو حى وعاقل خير مما ليس بحى ولا عاقل. فمثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالى غير المرتكز على حقائق يقينية ينكره العلم الحديث كما ينكره القرآن.

ومن هنا وقع قدماء الفلاسفة من اليونان فى أغلاط كثيرة من حيث لا يشعرون، كقولهم: إن للأجرام السماوية فى أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها، وإن لهذه الأجرام أثراً كبيراً فيما يصيب الإنسان من نحس أو سعود. وقد سقط كثير من المسلمين فى نفس هذه الأغلاط حين أخذوا علم اليونان كله على أنه حق من غير أن يطيعوا الله فيه فيمحصوه، ومن غير أن يردوه إلى القرآن. بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يردون القرآن إليه، كقول إخوان الصفا: إن إدريس -عليه السلام- هو هرمس المثلث بالحكمة، صفت نفسه فصعدت إلى السماء وطافت مع بعض أجرامها ثلاثين عاماً، وشاهدت من العجائب ما لا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف، وأن إلى هذا فى زعمهم يشير القرآن الكريم فى قوله -تعالى-:

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾(٢٨).

وهذا نوع من فهم القرآن لا يجيزه القرآن كما رأيت ولا العقل. ولعلنا لو بحثنا فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، وما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية، لوجدنا أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلها راجعاً إلى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص.

كان قدماء الفلاسفة إذن يرون العقل مصدراً للحقائق مستغنياً بذاته عن المشاهدة، أما محدثوهم فيرونه وسيلة. أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث فهى خارج النفس، خارج العقل. كان القدماءلا يرون امتحان الأشياء نفسها ضروريا لطلب الحقيقة، أما المحدثون فلا يرون سبيلاً للوصول إلى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل. والعلم الحديث باختراعاته واكتشافاته قد ولد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين فى طلب العلم عن طريق التفكير البحت، وبدأ هو بطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير. لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث هو دور مشاهدة تكاد تكون بحتة، ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها.

---

(٢٨) سورة مريم الآية (٥٧).

ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية

للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا(*)

• الترجمة من حيث هى حاجة معرفية وضرورة حضارية:
الأصل فى الترجمة من لغة إلى أخرى أنها نزوع طبيعى عند الإنسان إلى تنمية ثقافته وتطوير علومه ومعارفه بالانفتاح على ثقافات أخرى، فضلا عن أنها ضرورة حضارية لتحقيق التفاعل والتكامل والتواصل بين الأمم.

ويعرف الدارسون لتاريخ الحركة العلمية فى عصر الحضارة العربية الإسلامية أن عناية العرب فى صدر الإسلام - خاصة أيام الأمويين - كانت موجهة بصورة رئيسية إلى علوم الدين واللغة التى عرفت باسم « العلوم النقلية »، تمييزا لها عن « العلوم العقلية » المعنية بالبحث فى ظواهر الكون والحياة، والتى وجه العرب نشاطاتهم الفكرية إليها بصورة مكثفة فى العصر العباسى بعد أن استقرت أمور الحكم وقلت الحروب والفتوحات وكثرت الأموال والثروات وراجت التجارة ونشطت الرحلات وبدأت الاتصالات الثقافية مع أمم الحضارات القديمة الذين جمعتهم حضارة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها.

ولقد قدمت الحضارة العربية الإسلامية نموذجا رائدا لتفاعل الثقافات وحوار الحضارات عن طريق حركة ترجمة واسعة النطاق عميقة المضمون، وكان طبيعيا أن تبدأ النهضة العلمية العربية بنقل معارف السابقين، فانكب العلماء على ترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها. وكانت عمليات الترجمة تعتمد فى أمانتها ودقتها على تمكن المترجمين من اللغة العربية وإتقانهم للغات الأخرى التى ينقلون منها. وممن اشتهر بالترجمة آل ماسرجويه، وكانوا يهودا، وآل بختيشوع، وآل حنين بن إسحاق وكانوا نصارى وآل ثابت بن قرة وكانوا صابئة. ومن

(*) شارك الكاتب بهذا البحث فى مؤتمر «حوار الحضارات» الذى نظمته الأكاديمية المصرية بروما - إيطاليا يومى ١٧و١٨ مايو ٢٠٠١.

أهم الكتب القديمة التى ترجمت إلى اللغة العربية وأثرت تأثيرا عظيما فى فكر العرب كتاب « أصول الهندسة » لإقليدس، وكتاب « المجسطى » لبطليموس، وكتاب « السند هند » للفلكى الهندى « براهما جوبتا » . وكان علماء الحضارة العربية الإسلامية يقومون بدراسة الكتب المترجمة دراسة نقدية فاحصة، ويستوعبون كل ما فيها، قبل أن يبدأوا فى تنقيحها وترتيب علومها وشرحها والتعليق عليها.

وانتقلت الحركة العلمية من طور الترجمة واستيعاب العلوم القديمة إلى مرحلة الابتكار الأصيل وإنتاج معارف جديدة عن طريق البحث وفق منهج علمى سليم يؤدى إلى الأحكام الصائبة والنتائج الواثقة.

ويمكن التعرف على الإنتاج العلمى الغزير الذى تميز به عصر الحضارة العربية الإسلامية بالرجوع لكتب التراجم التى تزخر بها المكتبات العربية، حيث يوجد للأطباء تراجمهم وللأدباء معاجمهم وللعلماء وللفقهاء طبقاتهم وسيرهم. وهناك بجانب هذا التصنيف العلمى تصنيف آخر زمنى مثل كتاب « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » (أى القرن الثامن الهجرى)، وكتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع »، وكتاب « الكواكب السائرة فى تراجم علماء المائة العاشرة » (أى القرن العاشر الهجرى)، و« خلاصة الأثر فى تراجم علماء القرن الحادى عشر »، و« سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر »، وغيرها. وهناك أيضا من اختار أن يقسم تاريخ العلم إلى مراحل زمنية كل نصف قرن وينسبها إلى شخصية علمية رئيسية، على نحو ما فعل مؤرخ العلم المعاصر « جورج سارتون » فى مؤلفه الضخم ذى المجلدات الخمس فى تاريخ العلم عندما سجل أن الفترة من عام ٧٥٠م إلى عام ١١٠٠م تشكل تعاقبا متصلا لعصور: جابر بن حيان، والخوارزمى، والرازى، والمسعودى، وأبى الوفاء البوزجانى، والبيرونى، وابن سينا، وابن الهيثم، وعمر الخيام، الذين انحدروا من أصول وثقافات مختلفة فمنهم العربى والتركى والأفغانى والفارسى، لكنهم أبدعوا جميعا تحت مظلة الإسلام وتفاعلت ثقافاتهم فى بوتقة الثقافة الإسلامية.

وعندما بدأ ظهور الأسماء الغربية فى تأريخ « جورج سارتون » للعلوم بعد عام ١١٠٠م وتتابعت التراجم من العربية إلى اللاتينية (أو العبرية) على أيدى: جيربرت، وقسطنطين الأفريقى، وأديلار الباثى، وجيرار الكريمونى، وروجر بيكون، وغيرهم – استمر شرف التنسيب إلى المراحل الزمنية فى تاريخ العلم على مدى ٢٥٠ سنة أخرى بأسماء علماء الحضارة العربية الإسلامية أمثال: ابن رشد صاحب كتاب « الكليات فى الطب »، ونصير الدين الطوسى مدير مرصد مراغة (أذربيجان)، وابن النفيس المصرى مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وكمال الدين الفارسى شارح بصريات ابن الهيثم فى كتابه « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » وغيرهم.

حتى عندما فقدت ديار الإسلام وهجها العلمى بعد عام ١٣٥٠م، بقيت هناك ومضات عارضة تصلها بعصر الازدهار الأول، كتلك التى لمعت فى المشرق العربى على أيدى الخليلى وابن الشاطر، أو فى سمرقند على أيدى أولغ بك وجمشيد الكاشى، أو فى المغرب العربى على يد القلصادى (ت ١٤٨٦م). لكن هذه الإنجازات العارضة - على أهميتها - لم تكن قادرة على جعل الحياة تدب من جديد فى عروق الحركة العلمية العربية لأنها كانت قد يبست وتحجرت، وتأكد فى ذلك الوقت حيوية الغرب وقدرته على تسلم مشعل الحضارة من العرب لاحتضان الحركة العلمية فى المرحلة الحديثة من تطورها.

وهنا ربما تجب الإشارة بإيجاز إلى إشكالية تتعلق بلفظ «العرب» ودلالته فى الثقافتين العربية والغربية، ودور الترجمة فى تحديد هذه الدلالة عند الحديث عن الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها فى أوربا:

كلمة «العرب» تستعمل بمعناها الحقيقى المشير إلى الأمة القاطنة فى جزيرة العرب، وذلك كلما يكون الكلام عن زمان الجاهلية أو أوائل الإسلام. أما اتخاذ لفظ «العرب» عند الكلام عن العصور التالية للقرن الأول من الهجرة بمعنى اصطلاحى فإنه يطلق على جميع الأمم الإسلامية المستخدمين اللغة العربية فى أكثر تآليفهم العلمية، ولا مشاحة فى الاصطلاح، فلنا أن نقول حضارة عربية ونقصد بها الحضارة الإسلامية، أو العكس بالعكس، فقد امتزجت الناحيتان بحيث يصعب الفصل بينهما، وحينما نقول «العرب» إنما نقصد ما كان لهم من حضارة ليست اللغة أو الدين أو العلوم أو الآداب أو الفنون إلا عناصر من عناصرها، وإن كان الإسلام أهم ما يميز هذه الحضارة عن غيرها من الحضارات.

وكان الغربيون يطلقون على العرب اسم «السراسنة»، وكلمة «سراسنة» آتية من الكلمة اللاتينية Saracenus، نقلاً عن اليونانية Sarakenos وتعنى ساكن الخيام. وقد ظهر هذا المصطلح للمرة الأولى فى مؤلفات كتاب القرن الأول الميلادى وقصدوا به البدو الذين كانوا يعيشون منذ أزمان طويلة على أطراف المناطق المزروعة ما بين النهرين ويهددون طرق التجارة أو يحمونها بتكليف من القوتين العظميين يوم ذاك: الرومان والفرس. ويدخل فى التسمية الأنباط وأهل الحيرة وتدمر.

ويذكر بعض الباحثين أن أصل الكلمة آت من «شرقى» Sharqi، وهذا محتمل، لأن هؤلاء البدو كانوا يعيشون فى شرق الإمبراطورية الرومانية. وقد كتب كاتب إغريقى من القرن السادس الميلادى بعد سياحة فى الجزيرة العربية أن ثمة فرقا كبيرا ما بين سكان اليمن والسراسنة. على أنه لابد من استبعاد الفكرة التى تعيد أصل الكلمة إلى «سارة» زوجة النبى إبراهيم - عليه السلام - لأن العرب لا علاقة لهم بها، وهى أم إسحاق لا إسماعيل.

والكتاب المسيحيون فى أوربا العصور

الوسطى كانوا يفرقون فى التسمية ما بين العرب، فيطلقون على من كان يعيش منهم وراء البحر الأبيض المتوسط اسم «الإسماعيليين» بينما يطلقون اسم «السراسنة» على من جاءوهم فاتحين فى الأندلس وفى صقلية وفى جنوب فرنسا. فكأنهم، وهم ورثة الحضارة الرومانية، أرادوا أن يعطوا الاسم الذى يحمل معنى السلب والتدمير لهؤلاء الغزاة الذين كانوا فى الواقع خليطا من العرب والبربر، كما كان فيهم جماعات من الروم ومن الأسبان ومن اليهود يعاونون الفاتحين. ولهذا فإن كلمة «سراسنة» لا ينبغى تعريبها إلى كلمة عرب أو مسلمين حفاظا على ما تعنى لدى الغربيين، ولأن تعريبها بكلمة مسلمين أو عرب لا يؤدى معناها الحقيقى النفسى لديهم(١).

العربية لغة العلم والتقنية

اللغة – أى لغة – هى وسيلة التواصل الفكرى بين أبناء الأمة الواحدة، وهى فى الوقت نفسه تمثل حاجة ملحة وضرورة لا غنى عنها لكل أمة تشرع فى النهوض من كبوتها وتسعى إلى اللحاق بركب الحضارة الإنسانية، مؤمنة بالدور الأساسى للعلوم وتقنياتها فى صنع التقدم والرقى. هذه الحقيقة التاريخية المؤكدة استوعبها علماء الحضارة العربية الإسلامية عندما ترجموا معارف السابقين إلى اللغة العربية، واستوعبها أيضاً الغربيون عندما ترجموا علوم الحضارة العربية الإسلامية فى أوائل عصر النهضة الأوربية الحديثة، وتعيها اليوم كل أمة تسعى بخطى حثيثة نحو المشاركة الفعالة فى انتاج المعرفة وإعلاء صرح الحضارة المعاصرة.

ويشهد التراث العلمى العربى – بغزارته كماً وكيفاً وتنوعاً – على أن اللغة العربية قد فتحت صدرها لتراث الإنسانية، وانتشرت مع انتشار الإسلام بطريق المدنية والتنوير، لا بطريق الغزو والاستعمار، وكان فى هذا دليل قوتها وأصالتها وقدرتها على استيعاب مصطلحات التقدم المتجددة والمتزايدة. فأصبحت لغة عالمية تتسع للتعبير عن دقائق العلوم والتقنية، وظهر فى الدولة الإسلامية أصحاب اللسانين الذين أجادوا اللغة العربية ولغاتهم المحلية إجادة تامة، وكان العلماء من الموالى يفضلون كتابة مؤلفاتهم بها، حتى أن أبا الريحان البيرونى – الذى أتقن عدة لغات أجنبية غير لغته الفارسية – صنف جل مؤلفاته التى تربو على المائة باللغة العربية، ويؤثر عنه قوله: «إن الهجو بالعربية أحب إلىَّ من المدح بالفارسية»، ووصف أسلوبه العلمى بأنه أسلوب سلس خال من الالتواء، يخرج منه القارئ بثروتين: أدبية وعلمية. كما امتدح البعض أسلوب الخوارزمى فى كتابه «الجبر والمقابلة» ووصفوه بأنه أسلوب أخاذ لا ركاكة

(١) مكسيم رودنسون، الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية، الفصل الأول من الجزء الأول من كتاب «تراث الإسلام» تحرير شاخت وبوزورث، الطبعة الثانية سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٨م.

فيه ولا تعقيد، ينم عن أدب رفيع وإحاطة بدقائق اللغة. كذلك أظهرت الدراسات التحليلية والتركيبية للغة العلمية أن مسيرة المصطلح العلمى فى تاريخ العربية تدين لجهود حنين بن إسحق، وأبى بكر الرازى وأبى عبدالله الخوارزمى، والشيخ الرئيس ابن سينا، وغيرهم، وذلك بفضل أعمالهم العلمية التى اقتحموا بصياغتها العربية علوم الحضارة آنذاك، مع اختلاف ينابيعها من هندية إلى سريانية إلى يونانية إلى فارسية.

وليس هناك من شك فى أن هذه التجربة الأولى لترجمة العلوم إلى العربية تعد نبراسا لقدرة هذه اللغة على التوسع والاغتناء واستيعاب المصطلحات والتعابير العلمية الجديدة، فاستحقت أن توصف بأنها لغة العالم المتحضر عدة قرون، وأشاد الغربيون الذين نقلوا العلم العربى بجمالها وثروتها وسهولة دراستها والتكلم بها وقراءة مؤلفات رجالها، حتى أن «روجير بيكون» كان يعجب ممن يريد أن يبحث فى العلم والفلسفة وهو لا يعرف اللغة العربية، كما أنه اعترف بأن المؤلفات العربية كانت مصدر العلوم فى عصره وأن كتابات أرسطو لم تفهم ولم تلق رواجا فى الغرب إلى أن أوضحتها كتابات الكندى، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم. وسجل الأستاذ رسل GA Russell من معهد «ولكوم» لتاريخ الطب بلندن، فى معجم حديث لتاريخ العلوم (١٩٨١) المعالم الأساسية للعلم العربى ثم قال: «كانت اللغة العربية هى أداة هذا النشاط العلمى كله.

فلما كانت اللغة العربية هى لغة القرآن أصبح لها أهمية خاصة فى الإسلام، بيد أن طبيعة اللغة العربية نفسها هى التى قامت بالدور الحاسم. فمرونتها الرائعة قد مكنت المترجمين من دفع مفردات محددة دقيقة للمصطلحات العلمية والتقنية أو ابتكارها. وهكذا اتخذت لغة للشعر اللغة العالمية للعلم والحضارة». وهذه الإشارة إلى عالمية لغة العلم لفتة بارعة إلى فضل للغة العربية يؤكده المحققون من مؤرخى العلم ويغيب عن بال الكثيرين.

ولقد امتد تأثير اللغة العربية فى اللغات الحية الأخرى، حيث يحصى معجم «وبستر» Webster's Third New International Dictionary– على سبيل المثال – أكثر من ستمائة ألف كلمة مأخوذة من اللغة العربية، منها خمسمائة كلمة فقط من الألفاظ المستعملة فى الكتابة والأحاديث العادية، والباقى فى الشئون العلمية الفنية، ومن يتتبع تأثير اللغة العربية فى اللغات الأخرى يجد لها آثارا واضحة فى الأسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والألمانية، وفى اللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية فى شمال أوربا، وفى الروسية والبولندية واللغات الصقلية والإيطالية. حتى بعد ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية، حرص بعض علماء الغرب على تعلم اللغة العربية لدراسة الكتب فى أصولها العربية ولم يكتفوا بالاطلاع عليها فى ترجماتها اللاتينية. **(يتبع)**

الشيخ محمد الخضر حسين :

صفحة من الجهاد ضد الاستعمار والتغريب

للأستاذ الدكتور / محمد عمارة

ليست هذه بالترجمة المستفيضة لحياة الشيخ الفاضل محمد الخضر حسين وإنما هي «بطاقة» تجتهد لتكشف هذه الحياة الخصبة في سطور..

بمناسبة ما أخرجته المجلة من تراث الإمام الشيخ الخضر حسين فى عددى صفر، وربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ، رأينا أن ننشر هذا المقال ليكشف عن جوانب مضيئة فى حياة الراحل العظيم.

● فمن أسرة جزائرية «شريفة» يرتفع نسبها إلى الأمراء الأدارسة، بالمغرب، جاء والده.. ومن أسرة تونسية، اشتهرت بالعلم والفضل والتقوى – هى أسرة عزوز – جاءت والدته..

● وفى مدينة «نفطة»، من أعمال «الجريد»، بجنوب القطر التونسى، ولد شيخنا فى ٢٦ من رجب سنة ١٢٩٣هـ ١٦ من أغسطس سنة ١٨٧٦م.. وفى «نفطة» كانت نشأته الأولى، التى تأثر فيها بأبيه، وبخاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان من كبار العلماء، وموضع احترام رجالات الدولة العثمانية يومئذ. والذى قضى الشطر الاخير من حياته فى الآستانة، تلبية لرغبة السلطان عبدالحميد (١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨م).. وله مؤلفات علمية معروفة، وترجمة فى بعض كتب التاريخ.

وفى هذه النشأة الأولى «بنفطة»، حفظ شيخنا القرآن الكريم، وألم بجانب من الآداب، والعلوم العربية، والشرعية..

● وفى الثانية عشرة من عمره (١٣٠٥هـ ١٨٨٨) انتقل مع أسرته إلى تونس العاصمة.. وبعد عامين (١٣٠٧هـ ١٨٨٩م) التحق «بجامع الزيتونة»، المناظر فى تونس والمغرب، للجامع الأزهر الشريف..

وفى الزيتونة تقدم الفتى فى تحصيل العلم، وظهرت أمارات نبوغه فى علوم العربية وعلوم الشريعة، وتجلى ذوقه الأدبى، فى الإنشاء وفى التذوق، حتى لقد طلبته الحكومة ليتولى بعض الخطط العلمية، قبل إتمامه دراسته.. لكنه اعتذر عن عدم القبول لرغبة حكومة تونس الفرنسية؟!

● كانت رحلته الأولى، خارج تونس، إلى الشرق – ولما يزل طالبا – فزار طرابلس الغرب، فى ليبيا، سنة ١٣١٧هـ سنة ١٨٩٩م، فأقام بها أياما، ثم عاد إلى تونس، فلازم جامع الزيتونة.

● وفى سنة ١٣٢١ هـ الموافقة لسنة ١٩٠٣م نال شهادة العالمية، وأصبح من علماء الزيتونة.. وفى نفس العام الذى تخرج فيه فى جامع الزيتونة أنشأ مجلة (السعادة العظمى)، التى كانت رائدة المجلات العلمية والأدبية فى بلاد الشمال الأفريقى يومئذ.. فلفت الأنظار إلى قلمه ولسانه.. فلقد كان خطيبا ومحاضرا إلى جانب كونه أديبا وشاعرا وكاتبا..

● وفى سنة ١٣٢٤هـ ١٩٠٥م تولى قضاء مدينة بنزرت ومنطقتها، إلى جانب التدريس والخطابة بجامعها الكبير.

● وفى ١٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٤هـ ٩ من يونيو سنة ١٩٠٦م ألقى فى نادى قدماء خريجى المدرسة الصادقية محاضرة عن «الحرية فى الإسلام»، فكشف بها عن موقف فكرى ذى مغزى فى بلد يستبد بحكمه المستعمرون الفرنسيون؟!.. ثم مالبث أن استقال من قضاء بنزرت، وعاد إلى تونس العاصمة، مدرسا بالمدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الثانوية الوحيدة بتونس يومئذ.. وكان ذلك فى سنة ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م.. وفى العام التالى لتدريسه بالصادقية (سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) تطوع للتدريس بجامع الزيتونة.. ثم أحيلت إليه مهمة تنظيم خزائن الكتب الخاصة بهذه الجامعة.. وتم تعيينه رسميا، مدرسا بجامع الزيتونة.

● وفى سنة ١٣٢٥هـ سنة ١٩٠٧م اشــتــرك فى تأسيس «الجمعية الزيتونية».. ثم كلف بالخطابة فى «الخلدونيــة» وفى ١١ من شــوال سنة ١٣٢٧هـ ٢٦ من أكتوبر ١٩٠٩م ألقى محاضرة فى نادى الجمعية الخلدونية عن «حياة اللغة العربية».. وفى العام التالى (سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) نظم قصيدة يدعو فيها علماء جامع الزيتونة إلى العناية بتنشئة جيل من الكتاب والأدباء والدعاة.. فوضحت مقاصده من وراء الدعـوة إلى إحـيـاء قيـم «الحـريـة» و«العـروبة» وأدوات «الكتــابة» و«الخطابة» فى وطن يخـضـع لاستعمار ينهب خيراته ويستبد بمقدراته ويمسخ هويته العربية الإسلامية!!..

● ولما قامت الحرب الطرابلسية فى ٥ من شوال سنة ١٣٢٩هـ ٢٩ من سبـتـمـبر سنة ١٩١١م بين إيطاليا والدولة العثمانية، وزحفت الجيوش الإيطالية فاحتلت طرابلس وبنغازى، وقف الشيخ الخضر بقلمـه ولسـانه، ومن خـلال مـجلتـه (السـعـادة العظمى) يستنفر الأمة لتـقـاوم الغـزو الإيطالى، ويستنهض الدولة العثمانية لاستخلاص الحق من غاصبيه ومن بيانه فى ذلك قصيدة مطلعها:

ردوا على مـجـدنا الذكـر الذى ذهبـا

يكفى مـضـاجـعنا نوم مـضى حـقـبـا!

● ثم سافر إلى الجزائر زائرا لأمهات مدنهـا، ومحاضرا فيهـا.. وعاد إلى تونس يواصل دروسه بالزيتونة، ونشاطه فى المحاضرات والخطابة والكتابة فى الاصلاح الإسلامى والنهضة العربية وإذكاء الروح الوطنية..

● وفى هذه الفترة رفض رغبة الحكومة ضمه إلى سلك القضاء فى محكمة فرنسية؟!..

● وكـان لابد من الصـدام بين سـعـى الشـيخ المناضل وبين سلطات الاستعمار الفرنسى فى تونس، فـوجـهـت هذه السلطات إليـه فى سنة ١٣٢٩هـ ١٩١١م تهمة «بث روح العداء للغرب، وبخاصة لسلطة الحماية الفرنسية فى تونس».. فلما استشعر الشيخ الخطر على حياته، غادر تونس إلى الآستانة، بحجة الرغبة فى زيارة خاله السيد محمد المكى بن عزوز، الذى كان يعيش هناك.. وكانت رحلته هذه إلى الآستانة، عبر مصر، فدمشق.. لكنه لم يلبث أن حن إلى وطنه تونس، فعاد إليه، عبر نابولى فى ايطاليا ونشر اخبار رحلته هذه.. وعينته الحكومة عضوا باحدى لجان التاريخ التونسى.. لكن الجو الخانق الذى كان مفروضا على تونس من سلطات الاحتلال الفرنسى دعاه إلى الهجرة ثانية، فقصد إلى دمشق.. وفى طريقه إليها مر بالقاهرة فلبث فيها مدة وجيزة تعرف فيها على كوكبة من العلماء الأعلام المناضلين فى سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامى، منهم: الشيخ طاهر الجزائرى (١٢٦٨ ـ ١٣٣٨هـ ١٨٥٢ - ١٩٢٠م) والسيد محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥م) والسيد محب الدين الخطيب (١٣٠٣ ـ ١٣٨٩هـ ١٨٦٦ ـ ١٩٦٩م) وأحمد تيمور باشا (١٢٨٨ ـ ١٣٤٨هـ ١٨٧١- ١٩٣٠م).. وفى دمشق عين مدرسا للغة العربية فى المدرسة السلطانية سنة ١٣٣٠هـ سنة ١٩١٢م.. وخلال تلك الفترة سافر الى القسطنطينية فوصلها يوم إعلان حرب البلقان «الروسية ـ العثمانية».. ذى القعدة سنة ١٣٣٠هـ أكتوبر سنة ١٩١٢م.. ثم عاد إلى دمشق، ومنها سافر، بسكة حديد الحجاز، إلى المدينة المنورة سنة ١٣٣١ هـ سنة ١٩١٣م.. ثم عاد إلى دمشق.

ومن دمشق سافر إلى الآستانة، ولقى وزير حربيتها أنور باشا (١٢٩٩ ـ ١٣٤٠هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٢٢م) فاختاره محررا عربيا بالوزارة.. ولقد اتيحت له الفرصة ليلمس عوامل الفساد التى تفتك بمقومات الدولة العثمانية، فسجل ذلك شعرا فى قصيدته التى نظمها سنة ١٣٣٢هـ ١٩١٤م، والتى يقول فيها:

أدمى فؤادى أن أرى الـ
أقلام ترسف فى القيود
فهجرت قوما كنت فى
أنظارهم بيت القصيد
وحسبت هذا الشرق لم
يبرح على عهد الرشيد
فإذا المجال كأنه
من ضيقه خلق الوليد!

● وفى سنة ١٣٣٣ هـ ١٩١٥م أرسله أنور باشا إلى العاصمة الألمانية برلين فى مهمة رسمية، فمكث بها تسعة أشهر، اجتهد خلالها أن يتعلم اللغة الألمانية.. وعندما تحدث إليه المدير الالمانى للقسم الشرقى بوزارة الخارجية الألمانية، خلال صحبته بقطار ضواحى برلين، عن قول ابن خلدون (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ ١٣٣٢ ــ ١٤٩٦م) قائلا: إن العرب أبعد الناس عن السياسة.. رفض هذا التفسير العنصرى لكلام ابن خلدون، ودافع عن العرب.. ونظم أبياتا قال فيها:

عزيزى من فتى أزرى بقومى
وفى الأهواء مايلد الهذاء
سلوا التاريخ عن حكم تملت
رعاياه العدالة والإخاء
هو الفاروق لم يدرك مداه
أمير هز فى الدنيا لواء

ومن برلين عاد إلى الآستانة.. ومالبث أن ضاقت به، فحن إلى دمشق، وعاد إليها..

● وفى دمشق اعتقله السفاح أحمد جمال باشا (١٢٨٩ ـ ١٣٤٠هـ ١٨٧٢ ـ ١٩٢٢م) الحاكم العام فى سورية، فى رمضان سنة ١٣٣٤هـ يوليو ١٩١٦م، لعدة أشهر، حتى أنقذه من السجن تدخل وزير الحربية العثمانى أنور باشا.. فغادر دمشق، بعد الإفراج عنه، إلى الآستانة، فأوفده أنور باشا، ثانية، إلى برلين سنة ١٣٣٥هـ ١٩١٧م، فالتقى فيها بزعماء الحركات الإسلامية هناك، من مثل الشيخ عبدالعزيز جاويش (١٢٩٣ ـ ١٣٤٧هـ ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م) والدكتور عبدالحميد سعيد (١٢٩٩ ـ ١٣٥٩هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٤٠م) والدكتور أحمد فؤاد (١٣٠٣ ـ ١٣٥٠هـ ١٨٨٦ ـ ١٩٣١م)، ثم عاد بعد فترة طويلة، إلى الآستانة.. ومنها رجع إلى دمشق، وإلى التدريس فى المدرسة السلطانية بقية سنة ١٣٣٥هـ و١٣٣٦هـ ـ ١٩١٧م و١٩١٨م ـ فشرح لنجباء الطلاب كتاب ابن هشام (٧٠٨ ـ ٧٦١هـ ـ ١٣٠٩ ـ ١٣٦٠م) «مغنى اللبيب» فى علم العربية.. وهو الشرح الذى كان الأساس لبحثه فى «القياس وشروطه ومواقفه وأحكامه».. وهو البحث الذى طوره فيما بعد، كتابا نال به عضوية «هيئة كبار العلماء» بالجامع الأزهر.. وطبع سنة ١٣٥٣هـ ١٩٣٤م

● وفى سنة ١٣٣٧هـ ١٩١٨م سافر من دمشق إلى الآستانة، وكانت الحرب العالمية الأولى فى نهاياتها، ومنها توجه إلى ألمانيا للمرة الثالثة، فقضى بها سبعة أشهر.. وكانت نذر الزوال للدولة العثمانية

تطل فى الأفق.. فعاد من ألمانيا إلى دمشق مباشرة:

● وصادفت عودته إلى دمشق إقامة الحكم العربى بقيادة فيصل بن الحسين (١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ ١٨٨٣ - ١٩٣٣م).. سنة ١٣٣٨هـ ١٩١٩م.. لكن الاحتلال الفرنسى عاجل هذا الأمل العربى سنة ١٣٣٨هـ ١٩٢٠م.. ففكر الشيخ، الذى هاجر من تونس المحتلة بالفرنسيين، فى العودة إليها بعد ان أحتلوا دمشق ايضا.. لكنه رحل إلى القاهرة وألقى بها عصا ترحاله الذى استمر عشر سنوات، فاستوطن القاهرة سنة ١٣٣٩هـ ١٩٢١م.

● وفى القاهرة أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمى المنظم، والنشاط الإصلاحى الدائم، فوضحت معالم نهجه فى التجديد والإصلاح، وتكونت من حوله حلقات الطلاب والمريدين، وأخذت تأثيرات علمه وإصلاحه تلفت إليه أنظار العلماء وطلاب الإصلاح.

ففى سنة ١٣٤٠هـ ١٩٢٢م ألف رسالته «الخيال فى الشعر العربى».. واشتغل عدة سنوات فى التحقيق لكتب التراث بالقسم الأدبى فى دار الكتب المصرية.. وتجنس بالجنسية المصرية.. ثم تقدم إلى امتحان العالمية بالجامع الأزهر، فحصل عليها بجدارة، وأصبح واحدا من علماء الأزهر الشريف..

● ولم يكن التجنس بالجنسية المصرية، ولا الانخراط فى «هيئة كبار العلماء»، والاشتغال بالبحث والتحقيق.. لم يكن فى ذلك مايعوق الشيخ الخضر عن مواصلة النهوض بمسئولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربى.. وأيضا رعاية حقوق وطنه الأصلى تونس، وأشقائه الرازحين، بالمغرب تحت نير الاستعمار الفرنسى.. فنهض الشيخ فى ١٣٤٢هـ ١٩٢٤م بتأسيس (جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) لتكتيل وتحريك جهود أبنائها فى خدمة قضية تحرير هذه البلاد من الاستعمار.. ولقد كانت هذه الجمعية مكان اللقاء والتعاون بين أحرار تلك البلاد ومناضليها، فضمت عضويتها من المغرب: الفضيل الورتلانى (١٣٧٨هـ ١٩٥٩م) ومن الجزائر البشير الإبراهيمى (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م) ومن تونس: الحبيب بورقيبة (١٣٢١ - ١٤٢١هـ ١٩٠٣ - ٢٠٠٠م).

● وفى سنة ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م بدأت معاركه الفكرية الكبرى بكتابه (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) ولقد كان الشيخ صديقا لاسرة عبدالرازق، يتردد على منزلهم، وبينه وبينهم علاقات المودة والاحترام.. وعندما قارب طبع كتاب الشيخ على عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) على التمام، طلب آل عبدالرازق من الشيخ الخضر عناوين زعماء العالم الاسلامى ومفكريه ليهدوا إليهم الكتاب، فأتاهم بقائمة العناوين من صديقه محب الدين الخطيب.. فلما طبع كتاب (الإسلام وأصول الدين) أهديث إليه نسخة منه، ففاجأته أفكار صاحبه.. فعكف على الرد عليه ونقضه، فطبع الرد فى نفس السنة، ونفذت طبعته خلال شهر واحد!.

وفى العام التالى (١٣٤٥هـ ١٩٢٦م) ظهر كتاب (فى الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين فرد عليه الشيخ بكتابه (نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) فصنع معه ما صنع مع كتاب (الإسلام وأصول الحكم) عندما فنده فقرة فقرة وفكرة فكرة، مع أدب رفيع فى الحوار وبراعة فى الجدل كشفت عن عقل متمكن ومتمرس فى ميدان البحث والمناظرة يغترف صاحبه من معين من العلم لا يغيض.

لقد أدى الرجل بهذين الكتابين حق دين وأمة

ونهض بفرض كفائى وجب على الأمة جمعاء.. وكان بحق كما قال هو:

ناضلت عن حق يحاول ذوهوى
تصويره للناس شيئا منكرا

● وفى سنة ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م اشترك مع صديقه العلامة أحمد تيمور باشا فى تأسيس (جمعية الشبان المسلمين) التى جاءت طليعة الجمعيات الإسلامية التى تكونت للتعريف بالإسلام والذود عن حضارته فى تلك الحقبة التى تميزت بزحف فكرية «التغريب» على وطن العروبة وعالم الإسلام ولقد رأس أول اجتماع تحضيرى لتأسيسها فى ٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٢٧م.

كذلك نهض الشيخ الخضر بتأسيس (جمعية الهداية الإسلامية) التى ضمت كوكبة من المثقفين ثقافة دينية ومدنية.. وأصدر لها مجلة (الهداية الإسلامية) وكون لها مكتبة عامة جعل من مكتبته الخاصة نواة لها.. ولقد امتد نشاط هذه الجمعية إلى الأقاليم فقامت لها فروع فيها.. وكانت محاضراته المستمرة فيها ومقالاته فى المجلة جهدا منظما ومستمرا قدم من خلاله معالم دعوته للإحياء الإسلامى والنهضة العربية، وتحرير ديار العروبة والإسلام.. ولقد جمعت مقالاته ومحاضراته هذه فى كتاب من ثلاثة أجزاء هو (رسائل الإصلاح)[(١)]..

● وعندما أصدر الأزهر مجلته التى بدأت باسم (نور الإسلام) فى سنة ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م عهد إلى الشيخ الخضر برياسة تحريرها، فنهض بهذه المهمة من عددها الأول (المحرم سنة ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م) حتى عدد ربيع الآخر سنة ١٣٥٢هـ يوليو ١٩٣٣م عندما استقال من رياسة تحريرها، رافضا التعاون مع الأستاذ محمد فريد وجدى (١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤م) الذى عين دون إذن الشيخ خضر مديرا لتحرير المجلة وكان بينهما جدل فكرى يومئذ فى الصحف والمجلات.. ولم تفلح وساطة الشيخ الظواهرى (١٢٩٥ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٨ - ١٩٤٤م) شيخ الأزهر - فى إثنائه عن الاستقالة وكان معاشه يومئذ أقل من خمسة جنيهات؟! لكن نشاطه تواصل فى التدريس بكلية أصول الدين.

● وعندما تكون «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة فى سنة ١٣٥١هـ ١٩٣٢م، من عشرين عضوا عاملا كان الشيخ الخضر واحدا من أقدم هؤلاء الأعضاء ومن أكثرهم إنتاجا.. فلقد شارك فى كثير من لجان المجمع العلمية من مثل: لجنة اللهجات.. ولجنة الآداب والفنون الجميلة.. ولجنة دراسات معجم فيشر.. ولجنة الأعلام الجغرافية.. ولجنة الأصول.. ولجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم.. ولجنة المساحة والعمارة.. ولجنة المعجم الوسيط. الأمر الذى يعكس وزنه العلمى وثقلة الفكرى وثقافته الموسوعية وجهده الدؤوب فى خدمة الفكر كذلك نشرت له مجلة المجمع العديد من الأبحاث، من مثل:

١- «المجاز والنقل وأثرهما فى حياة اللغة العربية»..

٢- «شرح قرارات المجمع والاحتجاج بها وتكملة مادة لغوية ورد بعضها فى المعجمات ولم ترد بقيتها»

٣- «الاستشهاد بالحديث فى اللغة»

---

(١) اعادت المجلة نشر بعض مقالاته فى هديتها لشهرى صفر وربيع الأول ١٤٢٢هـ.

٤ـ « وصف جمع العاقل بصفة فعلاء »

٥ـ « اسم المصدر فى المعجم »

٦ـ « طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها فى البلاد العربية » .

٧ـ « شعراء البديع فى نظر الأدباء »

٨ـ « من وثق من علماء العربية ومن طعن فيه » .

ولم يقف نشاطه المجمعى عند مجمع القاهرة فلقد اختير عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق .

● وفى سنة ١٣٦٦هـ سنة ١٩٤٧م رأس تحرير مجلة (لواء الإسلام) وبدأ فيها تفسيره للقرآن الكريم . .

● وفى سنة ١٣٧٠هـ سنة ١٩٥١م نال عضوية « هيئة كبار العلماء » برسالته (القياس فى اللغة العربية)

● عندما قامت الثورة المصرية فى ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢م كان منصب شيخ الأزهر شاغرا فوقع اختيار الثورة وحكومتها على الشيخ الخضر إماما أكبر وشيخا للإسلام ووجها مشرقا لهذه الجامعةالعريقة تطل من خلاله على عالم العروبة والإسلام فتوجه ثلاثة من الوزراء إلى منزل الشيخ بشارع خيرت، فى يوم الثلاثاء ٢٦ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ ١٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ طالبين منه قبول مشيخه الأزهر فنهض بالأمانة ما وسعته الطاقة وعندما أحس بضغوط تحول بينه وبين تنفيذ مايريد، أو تطلب منه تنفيذ ما لايرضى صمم على الاستقالة فى ٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـ ٧ من يناير سنة ١٩٥٤م قائلا كلمته الشهيرة : « يكفينى كوب لبن وكسرة خبز، وعلى الدنيا بعدهما العفاء »؟!

ولقد ألمح إلى ملابسات استقالته عندما قال : « إن الأزهر أمانة فى عنقى أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدى فلا أقل من ألا يحصل له نقص »!

● ومنذ ذلك التاريخ تفرغ للبحث والكتابة والمحاضرة حتى وافاه الأجل، فانتقل إلى جوار ربه مساء يوم الأحد ١٣من رجب سنة ١٣٧٧ هـ ٣ من فبراير سنة ١٩٥٨م فشيعه العلماء والفضلاء والعارفون لفضله وعلمه ونضاله حتى لقد امتد موكب جنازته ما بين ميدان باب الخلق والجامع الأزهر الشريف؟!

ولم يخلف الرجل وراءه من حطام الدنيا شيئا، حتى لقد دفن ـ بناء على وصيته ـ بمدفن الأسرة التيمورية مع صديقه العلامة أحمد باشا تيمور! . . لكنه خلف، غير النضال والأثر الطيب والذكر الحسن والقدوة الصالحة كنوزا من الفكر شاهدة على عقله المبدع والمجدد، وجهده الدؤوب، وعزمه الذى لم يعرف الوهن أو التقصير . . فغير خطبه ومحاضراته ومقالاته وأبحاثة التى لم تجمع . . خلف لنا هذه المؤلفات :

١ـ (رسائل الإصلاح) ـ فى ثلاثة أجزاء . .

٢ –نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .

٣ – نقض كتاب فى الشعر الجاهلى .

٤ – القياس فى اللغة العربية .

٥ – الخيال فى الشعر العربى .

٦ – آداب الحرب فى الإسلام .

٧ – خواطر الحياة – (ديوان شعره) .

٨ – تعليقات على كتاب (الموافقات) للشاطبى .

لقد كان ـ رحمه الله ـ عقلا إسلاميا مجددا.. ومناضلا فى سبيل النهضة العربية والإحياء الإسلامى، يتحلى بخلق الأولياء والصديقين والشهداء.

فهو فى تونس يواجه الاستبداد الاستعمارى والمسخ الحضارى بالدعوة إلى إحياء العربية لتكون سلاحا فى معركة الأمة من أجل حريتها واستخلاص هويتها العربية الإسلامية... ويستنهض الشعب بإبراز قيمة ومكانة «الحرية» فى الإسلام.. ويدفع الثمن هجرة من الربوع التى نشأ فيها!

● وهو فى المشرق بدمشق يواجه تسلط السفاح أحمد جمال باشا فيدفع الثمن سجنا وتعذيبا فلقد كان عداؤه للاستعمار الأجنبى وللاستبداد الداخلى شديدا ودائما.

فلا كان من عيشٍ أرى فيه أمتى
تساس بكفَّىْ غاشمٍ وغريب

● وهو فى مصر يتصدى لخطر الغزو والفكر الممثل فى تيار «التغريب» فينقض كتابى على عبدالرازق وطه حسين.. ويسهم بالفكر، فى إنهاض العروبة وتجديد الإسلام.. ويسلك سبل التنظيم الاجتماعى والفكرى والقومى والعلمى، من خلال (جمعية الهداية الإسلامية) ومجلتها و(جمعية تعاون جاليات أفريقيا الشمالية) و(جمعية الشبان المسلمين).. و(هيئة كبار العلماء) و(المجامع اللغوية).. و(القسم الأدبى بدار الكتب المصرية).. ومجلات (نور الإسلام) و(لواء الإسلام).. إلخ.. ليجمع الأنصار حول فكرة التجديد وليمهد السبل لهذا الفكر كى يوضع فى الممارسة والتطبيق.

لقد جمع إلى وعيه بتراث أمته وكنوزها الحضارية وعيا بالتحديات المعاصرة التى تحول بينها وبين النهضة والإحياء فكان لسان «الأصالة» المعبر عن مشكلات «المعاصرة وضروراتها يذود عن «فكر الإسلام ومجد العروبة» ويدعو إلى النهضة الحديثة المرتكزة على «المعارف» و«الصناعات»:

أبناء هذا العصر، هل من نهضة
تشفى غليلا حره يتصعد؟!
هذى الصنائع ذللت أدواتها
وسبيلها للعالمين ممهد
إن المعارف والصنائع عُدة
باب الترقى من سواها موصد

ولقد أصاب صديقه العالم الفاضل محب الدين الخطيب، عندما وصفه فقال: «هذا رجل آمن بالإسلام ودعوته، وأحب من صدر حياته أن يكون من الذين قال الله ـ سبحانه ـ فيهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٢، ٣).

---

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) لقد جمعنا مادة هذه الصفحات عن حياة الشيخ الخضر من مقال صديقه محب الدين الخطيب، وعنوانه: (شيخ الأزهر السابق: السيد محمد الخضر حسين) مجلة «الأزهر» عدد شعبان سنة ١٣٧٧هـ. وكتاب «مشيخة الأزهر» لعلى عبد العظيم جـ٢ ص١٤٧- ١٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

العقاد الشاعر بين منهجين فى النقد

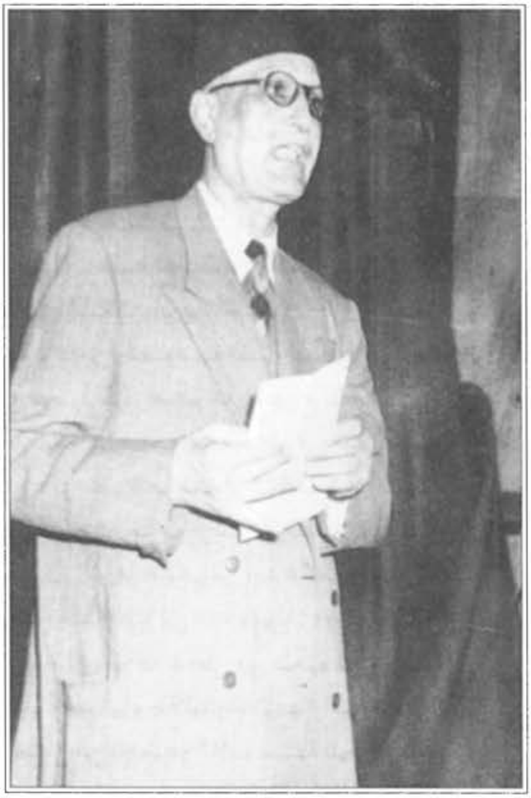

للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

يثير شعر العقاد إشكالية نقدية لاتزال فى حاجة إلى تأمل زواياها وأبعادها، حتى نضعها فى إطارها الصحيح.. لأن شعر العقاد يتسم بكثير من الفكرية الواضحة فى كثير من نماذجه، حتى إن بعضا من أشد حوارييه من النقاد والأدباء والمفكرين لا يستطيعون إنكار هذا الجانب الفكرى الذى يتكىء فى شعره على درجة واضحة من الوعى المتيقظ، والتأمل التجريدى، والتجارب المنطقية، التى تنفى غالبا ما يتطلبه الشعر من رفرفة وانطلاق وتظليل وسبحات..

١

ولكن الأمر ليس على هذا النحو من الإجماع الذى قد يُخيِّل أن كل نقاد العقاد الشاعر يأخذون عليه غلبة الجانب التفكيرى فى شعره، ويدلفون بالتالى من هذا المدخل إلى إدانة الشعر والشاعر على السواء، فهناك نقاد يرون أن عظمة شعر العقاد تكمن فى قدرته على التفكير بالشعر، وأن هذا الجانب الفكرى فى شعره يمنحه نوعا من الخصوصية الفنية الممتازة التى تجعله ليس مجرد مرور عائم على سطوح الأشياء، وإنما مجاسدة وكشف لبواطن البواطن فى هذه الأشياء، ومن هنا يوصف شعر العقاد - بما هو شعر مفكر - بكثير من صفات الرصانة والصلابة والعمق والسموق.. أو هو اقتراب من حد الشعر العظيم كما يحدده العقاد ذاته فى هذه المقولة: «وحدّ الشاعر العظيم عندى هو أن تتجلى فى شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وجلالها وعلانيتها وأسرارها، أو أن يستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحياة ومذهبا فى حقائقها وفروضها، أيا كان هذا المذهب، وأيا كانت الغاية الملحوظة فيه» - (مطالعات ١٩٧)

وبين هذين الاتجاهين فى تناول الظاهرة الشعرية عند العقاد، يظل المجال مفتوحا لعديد من الاجتهادات فى هذا الصدد، وتظل الكلمة الأخيرة فى شعر العقاد - وفى سائر الشعر - احتمالا غير وارد بالضرورة، لأن الفن الحقيقى هو الذى يثير أكبر كَمٍّ من الأسئلة، ويفتح عيوننا النقدية باستمرار على مستوى من الفهم بعد مستوى، ربما لأن أعماق هذا الفن أبعد من أن نصل إليها بضربة معول واحدة.

وقد اخترنا فى هذه الدراسة أن نقف شعر العقاد بين منهجين فى النقد: منهج فنى يعالج الظاهرة الشعرية من وجهة جمالية ترتكز فى مجملها على الإحساس بالنص، ثم على تأمل جماليات هذا النص من حيث هو بناء لغوى يحمل فى طياته تجربة نابضة.. ومنهج فلسفى يعالج الظاهرة الشعرية من وجهة أخرى، ترتكز فى مجملها على الإحساس بالنص كذلك، ثم على محاولة ربط هذا النص كجزء بكلية الحركة الكونية، من خلال تأويل مقولاته وأبنيته، وأيضا من خلال إقامة نوع من التعادل بينه وبين نوعيات من التصاميم الفنية الأخرى التى تنهض جميعها فى النهاية بعبء إقامة حوار جمالى مع سائر الأشياء والأحياء.

أما المنهج الأول فيمثله الناقد العربى الراحل «سيد قطب».. وأما المنهج الثانى فيمثله الناقد العربى الكبير «الدكتور زكى نجيب محمود».. وسنرى أن كلا من الناقدين يحاول تبرير العقاد الشاعر من وجهة خاصة، ترتكز عند سيد قطب على الحس الجمالى، وعند زكى نجيب محمود على الحس الفلسفى، ولكنهما يلتقيان فى النهاية على اجتهاد جاد فى شعر العقاد، لا يهمنا أن يكون اجتهادا مع هذه النوعية الشعرية أو ضدها، بقدر ما يهمنا أن يكون اجتهادا مسلحا برؤية نقدية ثاقبة، وأيضا بطوية نفسية نظيفة.

٢

وسيد قطب يرى أن العقاد الشاعر يتميز دائما بالحضور وبالوعى وبالوضوح ومن ثم فإن للمجهول عنده نصيبا أقل من الضئيل، حتى فى هذا القدر فهو محكوم عنده بكونه فكرة واعية لا مجهولا ضبابيا.. ويذهب إلى أنه من هذه

الينابيع يتفجر شعر العقاد، فيكثر فيه تصوير النفس والفكر والمنطق، بعيدا عن تأمل الانطلاقات والظلال.. وإن كانت الحيوية المتدفقة والحبكة الرصينة والعمق الدقيق والصدق النفسى فى هذا الشعر المفكر تعوضه كثيرا عن الرفرفة الطليقة، وعن الإيقاع المتموج، وعن الانطلاق الهائم، وعن السبحات التائهة.. ومن هنا فإن هذه الحيوية الدافقة تبلغ بشعر العقاد - كما يرى - ذروة التوفيق إذا أتيحت له بكم يؤهله لبلوغ مثل هذه الذروة.

ويقرر سيد قطب أن الإيقاع فى شعر العقاد يبدو محددا رصينا، لا طلاقة فيه، ولا مدى للتموجات والرقص وتمرد الاندفاع، ومن ثم فقد يجوز القول بأن كثيرا من شعر العقاد يمكن أن يضاف إلى رصيده من التجريد الذهنى والتأمل النثرى، وليس إلى رصيده من الإبداع الشعرى والتحليق الخيالى.

و إذا كان الشعر ليس فقط مجرد التعبير عن اللوعة اللاعجة، وإنما هو كذلك التعبير عن الطلاقة والمرح والتعبير عن الشجى الخافت، والتعبير عن ألوان شتى من هذه الآفاق.. فإن حدود الشعر - كما يرى سيد قطب - تتجسد فى أن الشعر لا يحدده الموضوع الذى يقال فيه، ولكن يحدده درجة الشعور بهذا الموضوع وطريقة التعبير عن هذا الشعور وهذا هو ما كان ينبغى أن يتوافر فى شعر العقاد.. (فأيما إحساس استجاش النفس، ورفع نبضها عن النبض العادى اليومى، وجعلها تحس بالوهج أو الانطلاق أو الرفرفة أو السبح فى عوالم مجهولة، وخلصها - ولو لحظة - من الوعى الكامل أو الصحو المتيقظ، فيه إحساس شعرى).

هذا مجمل الرؤية النقدية التى واجه بها سيد قطب شعر العقاد الشاعر، ثم أفضى بعد هذه الرؤية إلى إجراء نقدى تطبيقى حلل فيه نماذج من شعر العقاد، ورضى عن بعضها ورفض بعضها الآخر، دون أن نستشعر فى أى لحظة نوعا من مرارة الحقد، أو نوعا من تسيب المجاملة.

٣

أما الدكتور زكى نجيب محمود فيتناول شعر العقاد من وجهة فلسفية نحس بإيقاعها منذ أول السطور.. ونعنى هنا بالوجهة الفلسفية محاولته فى رد الجزئى إلى مكانه فى الكلى، والمحدود إلى سياقه فى اللامحدود، والخاص إلى موقعه فى العام.. أى رد الظاهرة الشعرية إلى مناطها من حركة التعبير الشمولى عن الحياة والأشياء والمابعد..

ولأن سمة الشعر العظيم - كما يرى الناقد - تكمن فى أن يستحيل البصر موحيا إلى البصيرة، والحس محركا لقوة الخيال، والمحدود منتهيا إلى اللامحدود.. فإن شعر العقاد يعد فى الشعر العظيم

لأنه يجتاز هذه السمات: أى لأنه يعبر بالمتلقى من الخاص إلى العام، ومن الآنى إلى اللازمنى.. وهذا هو ما يميزه من غيره من الشعر.

ويحاول الدكتور زكى نجيب أن يضىء شعر الشخصية بهذا الفهم النقدى المرهف الذى ينضح إيحاء.. فإذا قيل إن الشاعر الحق يصور الحياة فليس التصوير المقصود هنا تصوير المرآة

للواقف أمامها، بل هو تصوير المثال الثابت للجزئية الطارئة حتى تلحق به ولا تظل مجرد جزئية منفصلة.

وكذلك ينهض شعر العقاد شاهدا على الشعر الذى يعكس صورة شاعره ولا يعكسها معا، لأن الشعر الذى يعكس شاعره شعر ردئ، ولأن الشعر الذى يعكس شاعره «فقط» شعر ردئ كذلك، وما هكذا شعر العقاد، إنه يطل من خلاله على الكون، فهو موجود وغائب معا فى نفس القصيدة، محدود ومطلق فى نفس العمل الفنى، ومن هنا تتأكد العلاقة الصحيحة بين الشعر والشاعر: الشعر كعمل إبداعى يخاطب الكون، والشاعر كمفرد ينطوى فى النهاية على معنى الجمع.. ومن هنا كذلك تلوح الأشياء الحسية فى شعر العقاد غير مقصودة لذاتها، وإنما لتجسيد المعانى والأفكار وأمواج النفس.

وكإجراء نقدى يتناول الدكتور زكى نجيب محمود نماذج من شعر العقاد ليدلل بها على قضيته - ففى قصيدته «العُقَاب الهرم» مثلا، تتجسد هذه الملامح الفنية، «فاللقطة الحسية هنا هى عُقَاب زالت عنه قوة شبابه، فجثم على الأرض عاجزا عن النهوض والتحويم فى أقطار السماء كما كان يفعل إبان عنفوانه ويتلفت الشاعر حوله، فإذا صرصور ناشط بوثباته وإذا طائر القطا يصيح، أما شيخ الطيور فقد حطمته السنون، ولم يعد له من حياته إلا الحطام، لكن واعجبا لعينيه الواهنتين، مازالتا ترهبان بغاث الطير فتفر هاربة لا تقوى على مجرد النظر إلى صاحب السطوة حتى بعد أن زالت عنه سطوته... هذه هى الصورة المرئية المحسوسة، يرسمها الشاعر بتفصيلاتها رسما يوحى للقارىء أشد إيحاء بالصورة الخالدة المتكررة فى شتى الكائنات وعلى مر العصور: صورة المجد المخوف المهيب المرهوب الجناب، تذهب مع الأيام قوته المادية، لكن تبقى له آثار الهيبة الماضية يخشع لها الرائى راضيا أو كارها»،

وإذن فلا غرابة أن يكون شعر العقاد - كما يرى الدكتور زكى نجيب محمود - أقرب شىء إلى فن العمارة والنحت، فلا الفكرة عنده قريبة المنال، ولا المادة سهلة التشكيل، إنه يرغم المادة إرغاما حتى تستوى على النحو الذى يريده هو لها، كما يرغم المثال قطعة الجرانيت على التشكل بالصورة التى يبتغيها لها، فهى التى تطاوعه وأما هو فلا يطاوعها إلا بالمقدار الذى يبرز طبيعتها وصلابتها.

ويحاول الدكتور زكى نجيب أن يجرد الحديث النقدى تجريدا يشارف به روح التفلسف الشامل، فإذا كانت هناك حدود نقدية بين ما نطلق عليه «الجليل» وما نطلق عليه «الجميل» كما يقول، فإن شعر العقاد أدخل فى باب «الجليل» منه فى باب «الجميل»، لأن فيه قوة، وصحوا، وعزما، وكبرياء وجدا، فلا عجب أن يمس ديوانه العابثون فيتركوه قائلين: هذه فلسفة وليست شعرا.

٤٠

وبهذه الرؤية الجمالية التى حددها سيد قطب لشعر العقاد، وبهذه الرؤية الفلسفية التى حددها زكى نجيب محمود لشعر العقاد

أيضا، نجد أنه على الرغم من تباين المنهجين النقديين، يظل شعر العقاد مناط الإعجاب والتقدير هنا وهناك، وإن كان ذلك لم يمنع بالطبع من مؤاخذات نقدية تستدرك على مثل هذا الشعر نسيانه أحيانا بدائه أنه شعر، وخوضه فى مقولات تجريدية أو منطقية، بصيغة فكرية تقريرية وليس بصيغة شعرية تخييلية.

على أننا نسارع بالقول بأن من حق الشعر أن يخوض فى شتى آفاق الإحساس والفكرة، وأن يحمل فى طياته كل رؤى التعميق والاستقصاء ولكن بشرط أن يظل شعرا قادرا على امتلاك قارئة من خلال إشعال نوع من الحرائق العاطفية فى وجدانه المتلقى، وإقامة جسور واصلة بينه وبين سرائر الأشياء والأحياء.

وإذا كان سيد قطب رفض جانب التقرير والمباشرة وتعقيل الأحاسيس فى شعر العقاد فقد كان على حق تماما فى هذه القضية، لأن مهمة الشعر تكمن فى التخييل أكثر مما تكمن فى التحقيق.. ومن حق الناقد أن يرفض فى أى شعر هذا النوع من التحديد الإيقاعى الممل، وأن يدعو باستمرار إلى نوعية من الإيقاع الراقص المتدفق.. كما أن من حق الناقد أن يدعو الشعر إلى اقتحام المجاهيل وخطاب الماضى والحاضر والمستقبل، لا أن يظل شاهدا على المتواتر والآنى والمعروف.. وهذا كله قد أشار إليه سيد قطب فى تضويئه لشاعرية العقاد الشاعر، دون أن تحجزه عن مقولة الحق علاقته الوطيدة المعروفة به وولاؤه الصادق الحميم له.

ولكن الدكتور زكى نجيب محمود - مع التسليم بأصالة رؤيته النقدية لشعر العقاد وشاعريته معا - آثر جانب الدفاع المطلق عن شاعره الأثير، فبرره جميعا، دون أن يتلبث قليلا أو كثيرا عند بعض مزالق الإبداع فى شعر العقاد.. فبرر أحجام الكم الفكرى فى شعره، وبرر تجريداته الفلسفية، وبرر العمدية المقصودة فى تطويع المادة وليس فى إذابتها، أو حتى على الأقل جعلها خلفية فلسفية ينزع عنها الشعر وهو قابض على أساسية التخييل والغياب.. ولكن ذلك لا يطفىء من بريق هذه الرؤية النقدية الثاقبة، ولا يقلل من قيمة الجهد النقدى فى العبور من مجرد التحديق الجزئى فى النص، إلى محاولة امتلاك رؤية شمولية تجعل من الشعر إبداعا صميما، وليس مجرد مغازلة للأشياء بالكلمات.

وإذن فنحن مع هذين المنهجين فى دراسة شعر العقاد أمام نوع من المحاولات الجادة المثقفة، التى تحترم عقل القارىء وإبداع الفنان، وتبذل من معاناة الفهم قدرا مساويا أو يوشك أن يكون مساويا لمعاناة الفنان فى تشكيل عمله الفنى، وأيضا لمعاناة المتلقى فى محاولته لقراءة النص قراءة تجعل منه ربما رمزا، وربما معادلا، وربما كونا لغويا يومىء إلى الكون الحى بلا خدود.. وهذا هو المدخل الحقيقى إلى فن قادر على إثرائنا من الداخل، وإضاءة عيوننا بفرحة الكشف، ونشوة الامتلاء!!!

فقيد الأزهر

الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقى خميس

للدكتور/ رضا عبد المجيد المتولى إبراهيم(*)

لا أجد ما أعزى به نفسى وإخوانى وأساتذتى على رحيل الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقى محمد خميس، أستاذ التفسير بجامعة الأزهر، الذى لقى ربه يوم الخميس ٢٥ من المحرم ١٤٢٢هـ الموافق ١٩ من إبريل ٢٠٠١م سوى قوله ـ تعالى ـ مخاطبا حبيبه ومصطفاه ﷺ

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(١).

وقول الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ

(*) مدرس التفسير بكلية أصول الدين بالمنصورة.

(١) سورة الأنبياء (٣٤، ٣٥).

ومن نـزلت بســاحـــتـــه المنايا   فــلا أرض تقــيـــه ولا ســـمـــاء
وأرض اللـه واســـعـــة ولـكـن   إذا نزل القـضـا ضـاق الفـضـاء
دع الأيام تـغـــدر كـل حـــيـــن   فـــمـــا يغـنى عن الموت الدواء

ولد ـ رحمه الله ـ عام ١٩٢٢م في قرية (الهياتم) إحدى قرى المحلة الكبرى محافظة الغربية، وألحقه والده بالكتاب فحفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات، ثم التحق بمعهد طنطا الأحمدى عام ١٩٣٨م، فحصل على الشهادة الابتدائية ثم الثانوية وكان ترتيبه الأول فيهما ومن أهم من تأثر بهم في هذه المرحلة الشيخ عبد الكريم جاويش، الشيخ محمود المصرى، عبد الباسط سليم، محمد عتمان أغا، الأستاذ الشيخ محمد متولى الشعراوى.

ثم التحق بعد ذلك بكلية أصول الدين بالقاهرة، وحصل على الشهادة العالمية عام ١٩٥١م ثم التحق بكلية اللغة العربية فحصل على العالمية مع إجازة التدريس.

وبعد التخرج عين مدرسا بمعهد الفيوم، وبعد أربع سنوات نقل إلى معهد طنطا الأحمدى وعمل به في سنة ١٩٥٥م إلى ١٩٥٩م، ثم نقل بعد ذلك إلى معهد المحلة الكبرى بعد إنشائه، وفي عام ١٩٧٢م نقل إلى كلية أصول الدين بالقاهرة معيدا فمدرسا مساعدا، وظل إلى سنة ١٩٧٥م وحصل بعدها على الدكتوراه في التفسير وكانت رسالته عن: «تصوير القرآن لجوانب الجهاد» وبعد خمس سنوات حصل على درجة أستاذ مساعد ثم أستاذ. وسافر إلى المملكة العربية السعودية مرتين وعمل هناك بالرياسة العامة للبنات بكلية البنات بجدة. ثم عاد إلى مصر يعمل بكليات أصول الدين بالقاهرة، وطنطا، والمنصورة، وكذا بكلية اللغة العربية بالمنصورة وكان يقيم ندوات علمية بها مع صديقه الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الحديدى، وكلاهما مبرز في ميدانه.

وبهذا ملأ الدكتور خميس الأرض علما ونورا، وتتلمذ على يديه الكثير من علماء مصر، ومنهم الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الحميد سلامة، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن حواس، والأستاذ الدكتور شكرى شفيق الأخضر، والأستاذ الدكتور محمد النقراشي، والأستاذ الدكتور محمد محمد الشريف، والأستاذ الدكتور محمد بلتاجى، والأستاذ الدكتور أبو اليزيد العجمى، وغيرهم كثير.

ومن خلال التلقى على يديه ـ رحمه الله ـ فى مرحلة الدراسات العليا وما بعدها أشير إلى أهم ملامح منهجه التفسيرى والقضايا التى كان يعالجها ويركز عليها أثناء تفسيره، وذلك كما يلى:

أولا: تبجيل المفسرين السابقين واحترامهم، ومن ثم فعلينا أن نتأدب معهم فى تلقى آرائهم، وأن نحاول التوفيق بين المختلف من آرائهم إن أمكن، ونلتمس الأعذار لهم إن لم نوافقهم، وكان هذا مسلك أستاذنا مع المفسرين السابقين، وكان يقرر قائلا: (إن أكثر اختلاف المفسرين اختلاف تنوع لا تضاد)، وكان يرشدنا فى تفصيل ذلك إلى كتاب «مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية».

ثانيا: تضييق دائرة القول بالنسخ فى القرآن، فإذا أمكن التوفيق بين النصين المتعارضين فى القضية الواحدة فالقول بالتوفيق أولى من القول بالنسخ، لأن إعمال الدليلين خير من إعمال أحدهما وإبطال الآخر، وأرشدنا إلى قراءة كتاب «النسخ فى القرآن الكريم» للدكتور مصطفى زيد، ووصفه بأنه مؤلف فريد فى بابه.

ثالثا: نفى التكرار عن القرآن الكريم، فالنصوص القرآنية الواردة فى الموضوع الواحد يجب بيان أسرار تعبيراتها المختلفة حتى تخرج عن دائرة التكرار، ومن المسلم أن كل نص فيه معنى جديد، وأرشدنا فى معرفة ذلك إلى «كشف المعانى فى المتشابه من المثانى لابن جماعة»، «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن «للشيخ زكريا الأنصارى» وغير ذلك.

رابعا: ليس فى القرآن من حرف زائد، وإن قال بعض المفسرين عن حرف فى القرآن: إنه زائد، فيحمل قولهم على أن المراد به الزيادة فى اصطلاح النحاة لا الزيادة الحقيقية، وأرشدنا فى بيان ذلك إلى كتاب: «النبأ العظيم» «للدكتور محمد عبد الله دراز»، «بحوث قرآنية ولغوية» للشيخ عبد الرحمن تاج.

خامسا: كان يرى ـ رحمه الله ـ أن التفاسير على اختلاف مناهجها وتنوع مشاربها متكاملة، فكل تفسير فيه جديد ومن ثم كان الشيخ يحث طلابه على قراءة التفاسير كلها مرتبة حسب الترتيب الزمنى لمؤلفيها حتى يتسنى لهم الوقوف على المعانى الجديدة التى يفتح الله بها على المفسرين واستدراكات بعضهم على بعض.

سادسا: كان ـ رحمه الله ـ يرى أن التفسير التحليلى للقرآن الكريم أخذ حظاً وافرا من المفسرين السابقين، ويجب الاعتناء الآن بالتفسير الموضوعى، وكان يصفه بأنه زاد

الدعاة في العصر الحديث، وقد أسهم فيه بمؤلفين عظيمين. الأول: «تصوير القرآن الكريم لجوانب الجهاد» وقد نال به درجة الدكتوراه، والثاني: «مقومات الحياة من القرآن الكريم» وصدره بمقدمة تحدث فيها عن التفسير الموضوعي وأهميته وألوانه ومنهج البحث فيه.

سابعا: كان ـ رحمه الله ـ أثناء تفسيره يركز على إبراز جوانب الهداية ويرى أن الاقتصار على حل ألفاظ الآية من ناحية اللغة والإعراب والبلاغة لا يحقق الغرض المنشود من إنزال القرآن.

ثامنا: كان ـ رحمه الله ـ لا يوافق بعض المفسرين في قولهم بترجيح بعض القراءات المتواترة على بعض.

تاسعا: كان يرى ـ رحمه الله ـ أن القرآن هو مصدر القواعد النحوية، فالقرآن حاكم لا محكوم عليه. فإذا خالفت القاعدة النحوية نصا قرآنيا أو قراءة متواترة عدلت القاعدة حتى توافق النص القرآني تأدبا مع القرآن ومن أنزله.

عاشرا: كان ـ رحمه الله ـ يرى أن هناك فروقا لغوية دقيقة بين الألفاظ التي تبدو في الظاهر مترادفة، وأن الوقوف على تلك الفروق يبرز لونا من ألوان الإعجاز القرآني.

هذا عن الدكتور خميس كمفسر، أما عن علاقته بطلابه وحبه لهم وتشجيعه إياهم واهتمامه بهم وبشاشته لهم إذا حضروا وفتحه قلبه وبيته لهم، وسؤاله عنهم إذا غابوا فحدث عن ذلك ولا حرج.

ومن أهم مؤلفاته العلمية: من أسرار سورة الحج، تفسير سورة ص، الزمر، مقومات الحياة من القرآن الكريم، تصوير القرآن لجوانب الجهاد. تفسير سورة يس في مجلة الأزهر عامي ١٩٩٥م، ١٩٩٦م، ومئات المقالات في جريدة (عقيدتي).

هذه بضعة خطوط رئيسية في سيرة الدكتور إبراهيم خميس ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ وأجزل له المثوبة والعطاء، وجزاه عن الإسلام وطلاب العلم خير الجزاء، ولعلها تتخذ نواة لتاريخ حافل بمآثره ونواحي عظمته وسر نجاحه في حياته، وحسن الأحدوثة عنه بعد وفاته، وذلك أقل مظاهر الوفاء وعرفان الجميل.

من قادة الفتوحات الإسلامية:

القعقاع بن عمرو التميمى(*)

للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

وينتقل القعقاع بصحبة خالد بن الوليد الى الشام لحرب الروم وفى اليرموك كان اللقاء الاول وكالعادة كان القعقاع فى قلب الجيش بجوار خالد الذى كان قد أعاد تنظيم الجيش وجعل القيادة بالتناوب بينه وبين باقى القادة، وتولى هو القيادة فى اليوم الاول والذى انتهى بانتصار كاسح للمسلمين على الروم.

وينتقل الصديق إلى جوار ربه، ويتولى الفاروق عمر بن الخطاب الخلافة فيكون أول قرار له عزل خالد بن الوليد وتولية أبو عبيدة عامر بن الجراح على قيادة جيوش المسلمين فى حين يظل خالد قائدا على الجيش الذى قدم به من العراق.

ثم تتحرك جيوش المسلمين لفتح دمشق التى تحصنت حاميتها داخل أسوارها المنيعة وتقف الجيوش الاسلامية عاجزة عن اقتحام دمشق حتى تفتق ذهن القعقاع عن حل جرئ وهو أن تتولى مجموعة من المسلمين تسلق الأسوار وفتح أبوابها من الداخل ويوافق خالد بن الوليد على هذه العملية الجريئة غير المسبوقة بل ويقوم بالتنفيذ خالد بن الوليد نفسه ومعه القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدى العجلى، وأمثالهم من الأبطال الأشداء، وكانت التعليمات لسائر الجيش: «إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا، وانهدوا للباب».

ويعبر الأبطال الخندق المحيط بالسور والمغمور بالمياه سباحة، ويقذفوا بـ (أوهاق)(1) الحبال حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه، فتسلق عليهما القعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدى،

(*) الطبرى أحداث سنة ١٥ هـ.

(1) خطاف الحبل.

ومعهما باقى سلالم الحبال فأثبتاها جميعا بأعلى السور، وكان هذا المكان الذى اقتحموا منه أحصن موقع بدمشق كلها، أكثره ماء وأعرضه خندقا وأشده مدخلا، ويعتلى خالد ابن الوليد السور مع باقى رجاله ليكبروا جميعا بصوت رجل واحد ليعبر باقى جيش خالد الخندق ويتدافعون نحو سلالم الحبال يتسلقونها، ويتكاثرون حول باب الحصن الشرقى الذى نجح خالد بن الوليد والقعقاع بن عمرو فى فتحه بعد قتال مرير، فلم يجد أهل دمشق بدا من الاستسلام وطلب الصلح.

وفى ذات الوقت كانت جيوش المسلمين فى العراق بقيادة سعد بن أبى وقاص تواجه جحافل الفرس وكان موقف تلك الجيوش شديد الحرج، فكتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح بعد أن تم فتح دمشق يأمره بصرف جيش العراق أصحاب خالد إلى العراق، ولم يذكر خالدا، فاستبقاه أبو عبيدة معه بالشام ليكون عونا له على حرب الروم، وأرسل جيش العراق تنفيذا لتعليمات الخليفة، وأمَّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وعلى المقدمة القعقاع بن عمرو التميمى.

وأسرع القعقاع بالمقدمة، فسبق أصحابه، وطوى المسافة مسرعا فبلغ القادسية يوم أغواث، وقبل دخوله القادسية قسم القعقاع أصحابه - وكانوا ألف مقاتل - الى عشرات، أى مائة عشرة، كلما بلغ عشرة منهم مد البصر سارت فى إثرهم عشرة أخرى.

قصد القعقاع من هذا العمل أن يرفع الروح المعنوية لجيش القادسية عن طريق إشعارهم بتتابع الامدادات حيث كان القعقاع يحرص دائما على رفع الروح المعنوية لعلمه بمدى أثر الروح المعنوية على أداء الجنود فى المعركة وكان القعقاع فى أول دفعة، فأتى الناس فى القادسية، وسلم عليهم وبشرهم بالمدد وقال لهم: « أيها الناس إنى قد جئتكم بقوم والله ان لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم حظوتها، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم، أيها الناس اصنعوا كما أصنع ».

وتقدم القعقاع يشق طريقه بين جيوش المسلمين حتى تقدم الصفوف كلها ووقف فى مواجهة جيوش الفرس مناديا: « من يبارز؟ ».

من يصدق هذا يأتى من سفر بعيد من الشام قادما من معركة مريرة ليقف فى مواجهة جيوش الفرس يطلب المبارزة دون أن ينال أى قسط من الراحة؟!.

ويشتعل حماس المسلمين وتبلغ معنوياتهم عنان السماء من جراء وجود هذا الرجل الذى قال عنه الصديق: « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا ».

ويخرج من بين صفوف الفرس بهمن جاذويه ليبارز القعقاع الذى يبتدره بالسؤال: « من أنت؟ » فقال: « أنا بهمن جاذويه » فثار الدم فى عروق القعقاع إذ تذكر معركة الجسر وشهداءها وما فعله بهمن جاذويه فى ذلك اليوم فصاح: « يا لثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر ».

ثم تبارزا بالسيوف فقتله القعقاع، وكان بهمن جاذويه هو قائد قلب جيش الفرس.

وكان القعقاع يرمى ببصره نحو الطريق الذى يسلكه جنوده متتابعين وجعل يكبر كلما ظهرت عشرة منهم والمسلمون يكبرون وراءه.

ارتفعت المعنويات كثيرا فالمدد يتتابع وبهمن جاذويه قُتل والقعقاع يلهب حماس الجنود، فكانت بحق أغواث النصر ومن جديد خرج القعقاع ينادى «هل من مبارز؟».

وأراد قادة الفرس ان يستردوا معنوياتهم وأن يثأروا لبهمن جاذويه الذى كانت جثته ملقاه بين الصفين تنظر إليها جموع الفرس فى حسرة، والمسلمون فى فخر وعزة.

خرج اثنان من قادة الفرس هما: (بيرزان) قائد المؤخرة، و(بندوان) فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان، فأما القعقاع فقد أطاح برأس (بيزران)، وفعل الحارث مع بندوان نفس الفعل.

ثم برزت فرسان المسلمين للمبارزة، فكان القعقاع يقول لهم: «يا معاشر المسلمين باشروهم بالسيوف، فإنما يُحصد الناس بها».

ذكــــاء مقاتـــل

ورأى القعقاع عجز المسلمين عن مواجهة (فيلة) الفرس التى أفزعت خيل المسلمين فجعلتها تنفر وترتد بمن عليها من الفرسان، فعمد القعقاع إلى إبل المسلمين فألبسها الجلود والبراقع فتغيرت هيئة الإبل وصارت مفزعة فنفرت من مواجهتها خيل الفرس وولت هاربة بفرسانها تاركة مشاة جيوش الفرس وحدهم فى الميدان فحصدهم فرسان المسلمين حصدا.

وفى المدينة علم عمر بأمر يوم أغواث وبلاء المسلمين فيه فبعث أربعة أسياف، وأربعة أفراس هدية يقسمها قائد الجيش سعد بن أبى وقاص بين من أبلى أحسن البلاء. فينال منها القعقاع فرسا.

ثم يأتى يوم عماس ١٥ من شعبان لعام ١٥هـ ليشهد عملا استراتيجيا جديدا للقعقاع الذى رأى التعب والإنهاك قد حل بجيوش المسلمين وتسرب إليهم اليأس من تأخر وصول جيش هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فانتحى القعقاع بجنوده الألف وأخرجهم سرا من معسكر جيش المسلمين وقسمهم إلى عشر مجموعات، كل مجموعة مائة جندى، وقال لهم: «إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة، فإن جاء هاشم فذاك، وإلا جددتم للناس رجاء وجدا».

هذا هو القعقاع القائد الذى يفرض قيادته بسلوكه وحُسن تصرفه وحرصه على الإبقاء على معنويات الجنود عالية تطاول عنان السماء.

وقف القعقاع ينظر ويتطلع نحو الطريق، ملقيا فى روع المسلمين أن يتوقع هاشما

وأصحابه، وجعل يكبر كلما ظهرت فى الأفق نواصى الخيل التى أقبلت مائة فى إثر مائة ومثله فعل أخوه عاصم بن عمرو فانتعش المسلمون واصطفت جموعهم للقتال واقترب هاشم من معسكر المسلمين فى سبعمائة من طلائع جيشه فأخبره المسلمون بما فعل القعقاع، فأعاد هاشم تعبئة جنوده سبعين سبعين لتتلاحق جماعة فى إثر جماعة.

أما المعركة فقد حمى وطيسها ودفع الفرس بأفيالهم فتضعضعت فى مواجهتها صفوف المسلمين، فأرس سعد بن أبى وقاص إلى القعقاع وعاصم يقول لهما: «أكفيانى الفيل الأبيض» وكان أكبر أفيال الفرس مع فيل آخر يسمى «الأجرب».

فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا فى كتيبة من خيل ومشاة، وقالا لهم «اكتنفوه لتحيروه» وهما معهم فأطافوا به وخالطوا حراسه والتحموا معهم، وظل الفيل متحيرا ينظر يمنة ويسرة وهو متحير، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل وهو متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما معا فى عينيه فجلس الفيل على يديه ورجليه وألقى بمن فوقه من جنود الفرس، فاستل القعقاع سيفه وقطع خرطوم الفيل فسقط صريعا فكبر المسلمون وهللوا واستبشروا بالنصر، وحملت جماعة أخرى على الفيل الأجرب فقتلته.

وتتابع أيام القادسية ولياليها حتى كانت ليلة الهرير، والفريقان وقوف كل فى مواجهة الآخر، فأتى من جهة الفرس سهم فأصاب خالد بن يعمر التميمى، وكان القعقاع يتشوق للقتال فأثارته إصابة خالد فزحف ببنى تميم بغير إذن سعد، وعلم سعد فدعا الله وقال: «اللهم اغفرها له وانصره، قد أذنت له إذ لم يستأذنى، واتميماه سائر الليلة» وأقر سعد أمام الناس ما فعل القعقاع وقال: «إن الأمر الذى صنع القعقاع فإذا كبرت ثلاثا فازحفوا» وخلف القعقاع اندفعت كندة والنخع وأسد فدعا لهم سعد بمثل ما دعا للقعقاع، فكان قتالا لم يشهد المسلمون مثله.

وفى ١٦ من شعبان ١٥هـ كان اليوم المشهود، يوم القادسية، فى هذا اليوم سار القعقاع بين جموع المسلمين يشد أزرهم وكان يدرك أن المعركة الفاصلة قد حان أوانها فقال مخاطبا جيوش المسلمين: «إن الدبرة بعد ساعة لمن بدأ القوم بالتخاذل فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر، فآثروا الصبر على الجزع» وأنشد يقول:

يدعون قعقاعا لكل كريهة
فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

والتحم الفريقان التحاما رهيبا، وهجم القعقاع مع قومه بنى تميم على قلب جيش رستم فأزالوهم عن مواقعهم حتى انتهوا إلى سرير رستم وكان قد غادره مذعورا ليتلقاه هلال بن علفة التيمى فيرديه قتيلا ويصيح «قتلت رستم ورب الكعبة».

الجيتو والكيبوتس فى الوجدان اليهودى

للدكتور / محمد حسن عبد الخالق

الجيتـــــو

كلمة (جيتو)[1] تستخدم بشكل خاص للإشارة لأحياء اليهود فى أوروبا وقد أقيم أول جيتو يهودى فى روما عام ١٥١٦.

وللجيتو أسماء متعددة من بينها ما أطلق عليه « الحى الرابع »، وهو عبارة عن جزء من المدينة تعمد الدولة إلى إسكان اليهود فيه لتسهيل معرفة تحركاتهم والوقوف على أحوالهم، وسبب التسمية أن المدينة كانت تقسم إلى أربعة أقسام، أو أربعة أحياء، وكان أحد هذه الأحياء يخصص لليهود[2].

وكانت هذه الأحياء محاطة بالأسوار العالية، وقد انتشر الجيتو المغلق جداً فى نهاية العصور الوسطى فى أسبانيا وإيطاليا وأوربا الشرقية، وغالباً ما أجبر اليهود على التجمع فى أسوأ الأماكن من المدينة، وكانوا يضعون حارساً على باب كل جيتو لمنع اليهود من مغادرته فى ساعات الليل أو فى الأعياد المسيحية، وكان اليهود يستأجرون حراساً خصوصيين منهم لحراستهم بالليل، وغرف هذه الحراسة تقع فوق الأسطح وتوزع على الحى كله.

وبدأت هذه الأحياء المغلقة تلغى بعد الثورة الفرنسية، ورحلات نابليون الحربية، وقد ألغى الجيتو فى روما عام ١٨٧٠م [3].

وفى الحرب العالمية الثانية جدد النازيون « الجيتو » للتعجيل فى الحل النهائى للقضية اليهودية وقد انتشر بين سكان الجيتو فى ألمانيا المرض والجوع والموت.

---

(١) يقال إن الكلمة مشتقة من الكلمة الألمانية «جهتر» التى تعنى «مكاناً محاطاً بالأسوار» أو من الكلمة العبرية «جت» بمعنى الطلاق أو الانفصال. أو من الكلمة الإيطالية التى تعنى قسماً صغيراً من المدينة».

(راجع موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية.. د. أحمد المسيرى ص١٥٤).

(٢) السيد محمد عأشور: التفرقة العنصرية ص١٧٤.

(٣) إفرايم ومناحم تسلمى: معجم المصطلحات الصهيونية ١٩٨٨ ص٩٨.

وقد صفى جيتو «وارسو» بعد التمرد الكبير الذى نظمه اليهود فى نيسان ١٩٤٣[٤].

وعلى وجه العموم فمنذ بداية القرن ١٩ أخذت أسوار الجيتو فى السقوط وهنا لابد أن نذكر تأثير حركة الاستنارة اليهودية «الهسكلاه»[٥] فى سقوط هذه الأسوار، وأصبح الفرار من «الجيتو» لدى قطاع كبير من الجيل الشاب اليهودى هو بمثابة «خروج» للحرية والاندماج فى الشعوب الأخرى ومن خلال تحليل الواقع الاجتماعى لحياة الجيتو والمؤثرات التى أثرت على عقلية اليهود الذين عاشوا فيه والذى أثر فى الشخصية اليهودية التى ظلت حبيسة فيه قروناً طويلة، وقد نجم عن هذه العزلة اكتسابهم صفات خاصة بهم[٦] كبعد النظر والاحتياط للطوارى، بالإضافة إلى الذكاء وسرعة التصرف.

وكان الجيتو هو الحصن الذى يعيشون بداخله كى يحافظوا على هويتهم ويدافعوا عن أنفسهم من خطر الاضطهاد المحتمل فى أى وقت، وكل هذا كان نابعاً من اعتقادهم بأنهم شعب مكروه.

وعلى العموم فكان اليهودى يرى فى حياة الجيتو الأمن والأمان، وهذا يعود بنا إلى الحيوانات المفترسة التى تولد فى الأسر، وتتأقلم عليه، ولاترضى عنه بديلاً، وتحارب من داخل الاقفاص الحديدية وتقوم بتوسيعها إن استطاعت.

وكل هذا ليس بجديد عليهم، فقد تكونت لديهم عقدة الدونية، فهم شعب الله المختار- كما يزعمون- ويعيشون منبوذين فى العالم أجمع، فهم سلالة دونية اختارت حياة الجحور طوعاً لاكرهاً[٧].

وقد ساعدتهم الحياة داخل هذه الجيتوات فى ممارسة شئونهم الدينية وشعائرهم الخاصة، وإقامة معابد داخل هذه الجيتوات حسب فرقهم الدينية وبعيداً عن عيون الأغيار بالإضافة إلى أن الحياة فى الجيتو تحفظ الكيان اليهودى من الذوبان فى الشعوب الأخرى.

ولم يستطع اليهود التكيف مع المجتمع الخارجى بأوضاعه المختلفة، وكان الحلم والملاذ هو «الجيتو» الذى يعيشون فيه، أما الحلم الكبير فهو جيتو كبير على أرض فلسطين.

---

(٤) المصدر السابق ص ٩٩.

(٥) الهسكلاة: أى «التنوير» أو «الاستنارة» وقد أطلقت هذه الكلمة على الحركة التى ظهرت بين يهود أوروبا فى منتصف القرن الثامن عشر «حوالى ١٧٥٠- ١٨٨٠» والتى كانت تنادى بأن على اليهود أن يحاولوا الحصول على حقوقهم المدنية الكاملة عن طريق الاندماج فى المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها».

(موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص٧٢).

(٦) إبراهيم خليل أحمد: إسرائيل فتنة الأجيال ١٩٧٠ ص ١٩.

(٧) إبراهيم خليل أحمد: إسرائيل فتنة الأجيال ١٩٧٠ ص ١٩.

والجيتو اليهودى من الداخل عبارة عن مجموعة من المنازل المتلاصقة والتى لا تفصلها إلا حارات متعرجة مظلمة رطبة لايزيد اتساعها على المتر والنصف، وأسفل هذه المنازل محلات صغيرة شبه مظلمة يزاولون فيها أعمالهم والتى كانت تحتاج إلى مساحة صغيرة كالصياغة وسك العملة، وإصلاح الساعات، ورفى الملابس وصناعة الأدوات المقدسة التى يستعملونها فى العبادة، مثل شال الصلاة وغيره.

وقد ترك الجيتو آثاره العميقة على عقلية المفكرين الصهاينة ونفسياتهم، ومعظمهم نشأ فى الجيتو وقد قال أحد المفكرين: «إن الدائرة اليهودية السحرية هى نتاج «الجيتو» ولايمكن الفكاك منها».

والسؤال الذى يطرح نفسه:

لماذا كرههم العالم أجمع وأجبرهم على العيش فى جيتوات لها باب واحد يغلق فى المساء وحرم عليهم الخروج يوم الأحد وفى الأعياد المسيحية فى الدول المسيحية.

والإجابة:

لأنهم يعيشون على الوقيعة بين «الأغيار» وبث الفتن وإشعالها وكم من المؤامرات تمت داخل هذه الجيتوات، وأحس الجميع بأنهم سبب البلاء لكل الشعوب التى تطوعت بإيوائهم.

وتتعمد المراجع العبرية أن تتغنى بالمذابح التى وقعت لليهود طوال تاريخهم وحتى العصور الحديثة دون ذكر سبب واحد لهذه المذابح كى لايدينون أنفسهم والهدف استدرار عطف العالم عليهم لما عانوه.

فنذكر أن الهجرة الأولى إلى فلسطين ١٨٨٢- ١٩٠٤ قد حدثت فى أعقاب المذابح التى نفذت ضد اليهود فى جنوب روسيا فى الثمانينات من القرن ١٩، وأن الهجرة الثانية: ١٩٠٤- ١٩١٤ حدثت بعد المذابح التى نفذت ضد اليهود فى كيشينوف عام ١٩٠٣ وفى هوميل ١٩٠٤ وأن الهجرة الثالثة ١٩١٩- ١٩٢٣ بسبب المذابح الجماعية، وخلال الحرب الأهلية وبعد وعد بلفور ١٩١٧[٨].

وكان كثير من الصهاينة يتصور أن سقوط الجيتو سيتسبب فى اختفاء اليهودية لأن اليهودية حسب رؤيتهم لايمكن أن تتعايش مع ظروف الانعتاق والاندماج وبالفعل واجهوا صعوبات عديدة فى التكيف مع الأوضاع الجديدة ولذا طالب الصهاينة بإنشاء دولة يمكن أن يمارس اليهود فيها مكائدهم بعيداً عن عيون الآخرين[٩].

أما الجيتو فى العالم العربى فكانوا أسعد حظاً به من العالم الغربى وقد اتخذ عدة أسماء.

---

(٨) افرايم ومناحم تسلمى ١٩٨٨ ص ٣٣٠- ٣٣١.

(٩) د. عبدالوهاب محمد المسيرى، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص١٥٦.

ففى دمشق كان الجيتو اليهودى يسمى (حارة اليهود) عاش فيه أغنياؤهم وفقراؤهم على حد السواء(١٠) ويعترفون بأنهم نعموا بالحياة داخله.

حيث يقول (ديفيد سيطوف) بأن جيتو دمشق الذى تبدو شوارعه مهمله، أقام أغنياء اليهود بداخله قصوراً متعددة الحجرات رصعت مبانيها بالمرمر وكانت مساحات القصور واسعة وعالية(١١).

وفى اليمن: كان يسمى « قاع اليهود » والحى محاط بسور، يدخلون ويخرجون من باب واحد، وكان يعيش فيه بصنعاء ستة آلاف يهودى(١٢).

وفى أيام السبت والأعياد يختفى اليهود من الشوارع العامة معتكفين فى حيهم والمعابد داخل الحى، ويمارس اليهود عبادتهم الخاصة فى حرية تامة ولم تكن هناك قيود على إقامة دور العبادة بالإضافة إلى غرفة « الحيدر » التى يتعلم فيها الأولاد القراءة والكتابة والتوراة، وهي مثل « الكُتاب » لدى المسلمين(١٣).

وفى المغرب: كان يسمى « الملاح » ويرجع إطلاق اسم الملاح على حى اليهود بالمغرب؛ لأنهم كانوا يشتغلون بتجارة الملح ودبغ الجلود.

وعلى وجه العموم فقد عاش اليهود فى دول المغرب العربى فى ظروف أفضل من أوربا. فقد اعترف بحقهم فى الحكم الذاتى الداخلى فى جميع الأدوار التى مرت على المنطقة بعد الفتح العربى(١٤).

أما فى مصر: فكانوا يعيشون فى « حارة اليهود » وقد نعم يهود مصر بما لم يحظ به يهود العالم أجمع مما شجع بعض يهود أوروبا للقدوم إليها والعيش فيها فقد عملوا كسائر الأقليات والجاليات الأجنبية فى الحياة المالية والتجارية والمشاريع والمؤسسات العامة ووظائف الدولة.

وقد سعى يهود مصر شأنهم شأن يهود الدول العربية إلى الحصول على الجنسيات الأوروبية لفوائد نظام الامتيازات الذى لايؤمن فقط حماية القناصل الأجانب بل يعفيهم من الخضوع للمحاكم المصرية(١٥). وهؤلاء قد جندهم المستعمر فى خدمته كى يكونوا شبه جواسيس لتحقيق مآربه.

---

(١٠) ديفيد سيطون: قهلوت يهودى سفارد فهمزراح بعولام بيمينو (جماعات يهود سفارد الشرق فى العالم فى أيامنا) ص٤٦.

(١١) المصدر السابق: ص٤٩.

(١٢) هانز هولفرتيز: اليمن من الباب الخلفى ص١٨٩.

(١٣) على إبراهيم عبده، وخيرية قاسمية: يهود البلاد العربية ص١٤١.

(١٤) د. على ابراهيم عبده وخيرية قاسمية: يهود البلاد العربية ص٢٢٠.

(١٥) المصدر السابق ص١٦٠ – ١٦٣.

وأود أن أشير هنا أنه فى مجال الاستقلال الزراعى:

أنشأ اليهود عدداً من شركات الأراضى الزراعية فى مصر التى تقوم بامتلاك الأراضى واستغلالها والمضاربة فيها منها شركة البحيرة المساهمة وشركة وادى كوم امبو وشركة أراضى الدلتا أسسها «موصيرى» عام ١٩١٠[١٦].

ويقول ديفيد سيطوف:

إن أول «جيتو» يهودى كان فى مصر، فبعد أن أجلى اليهود على يد نبوخذ نصر إلى بابل، فإن جزءاً من المنفيين قد خرج إلى مصر[١٧].

وكانت اليهودية داخل هذه الجيتوات لها صفة خاصة حيث كانت تحثهم على معاداة الأغيار والنيل منهم. فالوصايا العشر الموجودة فى التوراه التى بين أيديهم: لاتقتل، لاتسرق، ...إلخ.

يفسرونها. لاتقتل اليهودى ولاتسرق اليهودى ولاتتعامل بالربا مع يهودى. أما الأغيار فافعل بهم ماتشاء دون أن تعرض حياتك للخطر، وطعامك مقدس. وشرابك مقدس وتوراتك مقدسة والجيتو مقدس، وتعليم التوراه داخل الجيتو مقدس، وعلى كل يهودى أن يخصص ساعات معينة كل يوم لقراءة التوراه، ويسمونها بالعبرية «عيسق توراه». أى «شُغْل التوراه» لأنهم يعتقدون أن الله سيحاسبهم على عدد الساعات التى كرسوها فى قراءة التوراه، وليس على مافهموه منها والطعام الحلال أكله دينياً يسمى «كاشير» له صفات معينة وأدوات خاصة لا يمسها غير يهودى، وإن مسها يصبح «طاريف»، أى حرام أكله دينياً. وكل هذا لايتحقق إلا فى الجيتو.

ويعلل العلماء ذلك، بأنهم فضلوا حياة الانطواء، لهم جيتو خاص بهم ومعابد خاصة بهم وأسواق خاصة بهم مما جعل أخلاقهم تتناسل وراثياً جيلا بعد جيل[١٨].

وكل هذا لايتحقق إلا داخل هذه الجحور التى لايرضون عنها بديلاً.

وإن حياتهم داخل هذه الجيتوات كانت بالنسبة لهم حياة تتناسب مع طبيعتهم تنمى وتضخم عنصر الإحساس بالتمايز والتعالى، وهم يسمون أنفسهم «شعب الله المختار» حيث يعتقدون أن هذا الاختيار هو برنامج إلهى، فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى، وهم الذين يبقون وحدهم فى آخر الزمان متسلطين على رقاب العالم. فهم الشعب المقدس والشعب الأبدى.

والخلاصة: إن الغزو الصهيونى يستمد الوحى والقوة الدافعة لتصرفاته، من أحلام وتطلعات تلك الأرواح التى تعرضت للتعذيب فى الجيتوات الأوروبية مما أحدث شرخا عميقاً فى البنية الروحية لليهود الأوروبيين الذين يقودون إسرائيل اليوم.

(يتبــع)

---

(١٦) المصدر السابق ص١٦٦.

(١٧) ديفيد سيطوف : مصدر سابق ص٦٦.

(١٨) د. رشاد الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ١٩٩١ ص٥٨.

من صفحات الخير

للأستاذ / مجدى عبد الحميد بشير

بحمد الله وفضله بدأت تنتشر فى السنوات الأخيرة ظاهرة حميدة يرى البعض فيها مظهرا من مظاهر الخير وسبيلا من سبل البر وثمرة طيبة للتعاون البناء، يفيىء إلى وارف ظلالها كل من شاء الله له الامتحان والابتلاء. والظاهرة الخيرة التى أعنيها تتمثل فى إنشاء المكتبات الصوتية أو السمعية، سمها ما شئت، التى يستفيد منها إلى جانب المكفوفين كل من أصبح على مر الأيام كليل البصر عن أن يواصل القراءة ساعات طوال وكل من قصرت إمكاناته عن اقتناء النفيس من الكتب والنادر من المراجع، بيد أن المشكلة التى تواجه ذلك العمل الجليل هى المشكلة القديمة الجديدة التى تواجه كل المحبين للخير، الراغبين فى أن تتوج السعادة كل المحيطين بهم.

إنها المعضلة المتمثلة فى فقدان العمل بروح الفريق والتنسيق بين كل من يهمهم الأمر فإلى جانب العفوية والتلقائية ترى أن ذلك الأمر لا يخرج عن كونه مجرد مبادرات فردية تفتقد إلى روح الجماعة والعمل المنظم القائم على أسس سليمة تضمن له الاستمرار والدوام وتمده بروافد القوة التى تحميه من عبث العابثين وتقيه جدال المجادلين وتشكيك المتشككين الذين لا هم لهم ولا غرض إلا أن يكون لكل شىء ربح مادى سريع، ولو أنهم صدقوا مع أنفسهم لأدركوا أن لتلك المكتبات مردودا ماديا واجتماعيا، وأنها نوع من التكافل الاجتماعى الذى لا يقل بحال عن توفير الغذاء والكساء والسكن وغيرها من وسائل الراحة التى لا غنى للإنسان عنها.

وحتى لا يحس القارىء العزيز أننا ندور فى حلقة مفرغة نضع بين يديه مثلا يحتذى فى مجال العمل الاجتماعى، يرى فيه البعد الشديد عن مجرد المبادرات الفردية وأنه ما ضاع حق وراءه مطالب يلح فى طلبه شرعا وقانونا واستثمارا لأجمل ما فى الإنسان من سجايا البر وخصال الخير لينشأ فى النهاية مجتمع متوازن نفسيا، متكافل متعاضد، والمثال المقصود هو قصة الكتاب الناطق فى أمريكا التى حظى أولو الضرر فيها بدرجات من الرعاية أولى بها نحن

المسلمين أصحاب الحضارة التى أرساها سيدنا محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ﷺ.

والقصة التى نريد التركيز عليها هنا تبدأ حينما نطرح سؤالاً يقول: هل هناك تطور حدث فى عالمنا كان عميقا الأثر بعيد المدى بالغ المغزى فى حياة عدد كبير من ذوى البصيرة من ذلك الأثر الذى أحدثه مشروع الكتاب الناطق؟ وربما سارع البعض إلى القول إن ابتكار الخط النقطى البارز هو الذى فتح أبواب العلم والمعرفة والفكر والأدب والتقنية وكل ما ينهض بالحياة ويفتح أبوابها واسعة على مصاريعها للمكفوفين ومكن كل من يستطيع القراءة بتلك الأنامل الذهبية من ولوج دنيا التعلم والثقافة - لكن أصحاب هذا الرأى - على وجاهته سرعان ما يقل حماسهم له حين تصدمهم حقيقية تقول: «إن المستخدمين للخط النقطى البارز لا تتجاوز نسبتهم ١٠٪ من المكفوفين الأمر الذى يعنى أن الكتاب الناطق كان بحق فاتحة الخير التى فتحت للجميع نوافذ الاطلاع على الكتب وللمجلات والمراجع والدوريات.

لكن خدمة الكتاب الناطق المسجل على شريط شابتها – كما أسلفنا – كثير من العقبات الناجمة عن اختلاف المقاصد وتعدد وجهات النظر التى أدت إلى ضروب من الصراعات وأنواع من المعاناة وصنوف من العراقيل.

ففى أوائل سنة ١٩٢٧ قام مدير المؤسسة الأمريكية للمكفوفين – وكان كفيفا – بخطوة جريئة حين فكر أن يقترب عن كثب من معامل التسجيل وكان هدفه طبعا لفت انتباه أصحاب تلك المعامل لتلك الفئة وجعلهم يهتمون بإنتاج وإخراج كتب ناطقة مسجلة على شرائط للمكفوفين ولكل من يحتاج إليها لكنهم لم يعيروا كلامه أدنى اهتمام، والسبب أن اقتراحاته لن تحقق لهم الأرباح التجارية والمكاسب المالية الطائلة التى يصبون إليها ومن ثم اعتبروها مغامرة غير محسوبة ولا مأمونة العواقب لكن ذلك الرجل كان ذا معنويات عالية فلم يفت فى عضده ذلك الاستقبال غير الكريم لمبادرته الطيبة بل زاده تصميما على مواصلة الكفاح وانتهاج شتى السبل الكفيلة بتحقيق بغيته والوصول به إلى هدفه المنشود فلما أصبح واضحاً له وضوح الشمس تقاعس أصحاب معامل التسجيل عن تلبية مطلبه اتخذ قراراً لا يقل جرأة وعبقرية عن سابقه، إذ قرر أن تقوم المؤسسة الأمريكية للمكفوفين بأخذ الأمر على عاتقها بمعنى أن تتولى الهيئة بنفسها مهمة التسجيل للمكفوفين ليرى مشروع الكتاب الناطق النور ويخرج إلى حيز الوجود.

وبعد كفاح مرير دام ست سنوات أوصلتنا إلى سنة ١٩٣٢ وهى السنة التى عم فيها الكساد كل أنحاء العالم، الأمر الذى كان من الممكن أن يحتج به البعض فى عدم أهمية مثل ذلك المشروع واعتباره من الكماليات وصل ذلك الرجل إلى قناعة مؤداها أن مكتبات المستقبل للمكفوفين سوف تضم فى محتوياتها كتبا ناطقة أكثر مما تحوى من كتب بطريقة «بريل» ولأن الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه فقد التقطت المؤسسة الأمريكية للمكفوفين مهندسا شابا لامعا ذا خبرة عالية فى مجال التسجيلات ثم قامت مؤسسات أخرى

ومتبرعون من أهل الخير بدفع الأموال اللازمة للإنفاق على المشروع المزمع حيث تم تزويد المؤسسة بالأموال المطلوبة لشراء الأجهزة والمعدات اللازمة لتشغيل غرف التسجيل الخاصة بالكتاب الناطق وبنهاية سنة ١٩٣٣ تمكنت المؤسسة من إتمام تلك المهمة تقريبا وإكمال الترتيبات الكفيلة بأن تخطو تلك القضية الحيوية خطوات أوسع وذلك بعد أن أكمل المهندس المذكور مشكورا التصميمات الهندسية لآلة التسجيل التى تيسر لمستخدميها استعمالها فى غير عنت ولا مشقة. ثم كانت الخطوة المقدامة التالية حينما قام رئيس المؤسسة بالاتصال بمكتبة الكونجرس لتتحمل الدولة نصيبها فى الإنفاق على مشروع الكتاب الناطق وقد استند فى خطوته تلك إلى أن الدولة كانت قد شرعت من قبل فى تحمل الأعباء المالية لطباعة الكتب البارزة ومن ثم فما على المسئولين إلا أن يطبقوا على الكتاب الناطق نفس الأسس والمعايير التى طبقت على الكتب البارزة فكلا الوسيلتين تصبان فى مصب واحد هو الصالح العام والحق المكفول لكل من يعيش فى تلك البلاد - وكما ترى - عزيزى القارىء - كيف أن الحب للعمل العام والرفاه الاجتماعى لابد له أن يعمل فى النور ولا ينبعث عمله من فراغ أو يخبط خبط عشواء، كما أن عليه أن يدرك أنه كلما انتهى من معركة دخل موقعة جديدة تستدعى سلاحا جديدا وفكرا خلاقا مبدعا يجعل الحياة أكثر رونقا وأبهى رواءا.

فقد فوجىء الجميع بطلب من أحد أعضاء مجلس النواب وآخر من مجلس الشيوخ يريدان به تعديل القانون الصادر سنة ١٩٣١ والمعروف باسميهما والمشهور أيضا بقانون كتب المكفوفين وذلك استجابة لطلب رئيس المؤسسة الأمريكية للمكفوفين بمعاملة الكتاب الناطق بنفس الطريقة التى تعامل بها الكتب المطبوعة بالخط النقطى إنها الفلسفة الإسلامية التى لخصها حديث: «ابغونى فى الضعفاء فهل تنصرون وترزقون وتجبرون إلا بضعفائكم»[(١)] لكن المعركة بين الخير والشر لن تنتهى إلا بقيام الساعة والمثل يقول: مصائب قوم عند قوم فوائد فقد ثارت اعتراضات قوية على ذلك التعديل من دور النشر بطريقة بريل التى علت أصوات ملاكها بالاحتجاج والسبب طبعا أن أصحاب مشروع الكتاب الناطق سيشاركونهم الأرباح التى يحصلون عليها من الدولة كما انضم إليهم أصحاب مدارس المكفوفين والمشرفون عليها وقاموا بإرسال سيل هادر من البرقيات إلى لجنة العمل والتعليم وكلهم يعارضون للأسف توسيع دائرة الفائدة ويريدون الاستئثار وحدهم بالأموال التى يستنزفون فيها موارد الأمة.

ومرة أخرى علا صوت رئيس المؤسسة الأمريكية للمكفوفين وارتفع موضحا للجنة النيابية ومبينا لها أمورا غابت عنها فقال: إن من يعارض مشروع الكتاب الناطق هو واحد من اثنين أما مالك لأحد بيوت الطباعة للمكفوفين أو عضو مجلس إدارة فى أحد دور النشر وهم

(١) رواه أبو داود برقم ٢٥٩٤.

لأنهم لا يريدون أن يشاركهم أحد فيما يحصلون عليه من أموال يتحملها دافعو الضرائب كما ينبغي التنبيه هنا إلى أن المشرفين على مدارس المكفوفين كانوا من أوائل الذين أخروا ظهور الكتاب الناطق لسنين عديدة والسبب أنه مجتمع رأسمالي يهمه بالدرجة الأولى حساب الربح والخسارة وفى ١٩٣٣/٣/٣ وهو آخر أيام العام ٧٢ من عمر الكونجرس قام أحد أعضاء مجلس الشيوخ بمعارضة التعديل القاضى بضم مشروع الكتاب الناطق إلى قانون كتب المكفوفين وحجته فى الاعتراض ما استمع إليه من المشرفين على مدارس المكفوفين فى ولايته ولكن سرعان ما تبين أن ذلك المشرف المذكور لم يكن إلا أحد أعضاء مجالس إدارة لأحد بيوت الطباعة للمكفوفين إضافة إلى أنه هو وابنته من المنتفعين من الطباعة للمكفوفين ومن ثم فإن رفض التعديل يستند إلى رغبتهم الجامحة فى الاستئثار بالأموال وحدهم مما حدا بالكونجرس إلى رفض الاقتراح وإقرار التعديل المقترح فى اليوم التالى فى جلسة استثنائية لكن المعركة ازدادت ضراوة حيث انتقل الصراع إلى مجال جديد شمل الآت التسجيل المستخدمة فى إنتاج الكتاب الناطق.

فقد بدأت المؤسسة للتو فى تصنيع تلك الآلات والأجهزة ودخل المعركة طرف آخر هو مؤسس معهد «برى» بأمريكا الذى كان يحوز أحد بيوت الطباعة والنشر بالخط النقطى وطالما حاول إيقاف وعرقلة قانون ضم مشروع الكتاب الناطق فلما فشلت محاولاته، رأى أن من الأجدى له أن يلعب اللعبة بطريقة مختلفة فقد أعلن أنه اخترع آلة أفضل من تلك التى أبدعها المهندس التابع للمؤسسة الأمريكية للمكفوفين وسماها القراءة عن طريق الهاتف فلما طلب إليه إرسال اختراعه للتقييم رفض ذلك الاقتراح كما رفض اقتراحا آخر بأن ترسل المؤسسة إليه مهندسا يقيم اختراعه وزعم أنه يخشى سرقة اختراعه وأخيرا لم تجد المؤسسة بداً من دفع نفقات سفر كل من مخترع جهاز القراءة عن طريق الهاتف وزوجته وأحد المهندسين ليأتوا إلى المؤسسة لترى جدوى ذلك الاختراع على الرغم من الثمن المكلف لتلك الرحلة وبعد كل ذلك المعاناة والمكابدة قررت اللجنة المختصة بذلك الأمر أن ذلك الاختراع غير عملى على الإطلاق كما أكدت أنه باهظ التكاليف وحاول صاحب الاختراع باستماتة الاتصال برئيس مكتبة الكونجرس كما حاول جاهدا تحريض المكفوفين على تزكية ابتكاره لكنه فشل فى كل محاولاته فشلا ذريعا إذ قررت مكتبة الكونجرس إنهاء ذلك الصراع المرير حين قررت نهائيا أنها لن تشترى الكتب المسجلة لمشروع الكتاب الناطق إلا من المؤسسة الأمريكية للمكفوفين فأسقط من أيدى كل المنتفعين والمتاجرين بمتاعب المُتْعَبين، وكان ذلك القرار الشجاع هو خاتمة المطاف لنضال طويل قاده رجل ذو همة عالية وعزيمة صادقة لا يمل ولا يكل ويتخذ المناسب والملائم من الإجراءات التى أدت فى النهاية إلى ميلاد الخدمة المعروفة بخدمة الكتاب الناطق بمكتبة الكونجرس.

إنها صفحة من الجهاد ليتها تحتذى بعد أن أميط عنها اللثام لتكون نموذجا للعمل الصالح النافع البناء.

رسالة .. و .. رد

لفضيلة الشيخ/ عبدالفتاح جمعان

وردت إلى المجلة رسالة من الأستاذ/ بهاء علوان من المنصورة - ١١٢ شارع السكة القديمة - يقول فيها: الأمل فى الإفادة برأى الدين فى قول إمام مسجد حكومى عبر الميكرفون «إن المسلم الذى لا يعرف للمسجد طريقاً هو من المشركين ومن لم يعرف للجامع طريقاً فهو مشرك». وأكد سيادته كلامه هذا بأن أرسل مع رسالته شريطاً مسجلاً به كلام الإمام المذكور.

●● وللإجابة على هذه الرسالة المهذبة أقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله: شكر الله لك ثقتك فى المجلة والقائمين عليها وشكراً على مؤلفك «عبدالعزيز الشناوى مؤرخاً».. وبعد.. فإن المساجد بيوت الله، وعمارها الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وعلى الرغم من أنه من خصائص أمة الإسلام أن الله - تعالى - جعل لها الأرض مسجداً وطهورا، فأيما رجل من المسلمين أدركته الصلاة، فليصل حيث أدركته، ومع ذلك فإن للمساجد فى الإسلام منزلة كبيرة وفضلاً عظيماً، وكان أول شىء فعله الرسول ﷺ بالمدينة بعد الهجرة أن بنى مسجده الشريف وعمل فى بنائه مع الأصحاب الكرام، وقال صلوات الله عليه: «من بنى لله مسجداً يبتغى به وجه الله، بنى الله له بيتاً فى الجنة»(١) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط»(٢).

وقد أراد بنو سلمة أن يبيعوا بيوتهم البعيدة عن المسجد ويشتروا بيوتا قريبة منه، فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك وقال لهم: «بَنِى سَلَمَه دياركم تكتب آثاركم»(٣) - أى الزموا دياركم

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.

ولا تنتقلوا منها تكن خطواتكم إلى المسجد حسنات فى صحائف أعمالكم.

وعن أبى المنذر أُبَى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ قال: كان رجل– لا أعلم رجلاً أبعد من المسجد منه– وكان لا تخطئه صلاة –أى فى المسجد برغم بُعد بيته عنه– فقيل له أو فقلت له: لو اشتريت حماراً تركبه فى الظلماء والرمضاء، فقال: ما يسرنى أن منزلى إلى جنب المسجد إنى أريد أن يكتب لى ممشاى إلى المسجد ورجوعى إذا رجعت إلى أهلى. فقال رسول الله ﷺ: «قد جمع الله لك ذلك كله»[٤] وفى رواية «إن لك ما احتسبت». وقد ذكر الرسول ﷺ كما جاء فى البخارى أن من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلاً قلبه معلق بالمساجد.

لكن هذا كله مع أهميته لا يعنى أن صلاة المسلم فى بيته ولو من غير عذر، باطلة، وحديث «لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد» أوله العلماء على أنه لا صلاة كاملة الثواب والأجر، كما لا يعنى على الإطلاق أن من لم يعرف للمسجد طريقاً فهو مُشرك أو كافر، فلم يقل بذلك أحد من السلف ولا من الخلف إذ الحكم على المسلم بالكفر أمر فظيع منكر، نهى عنه الرسول ﷺ وأخبر أن من رمى أخاه بالكفر باء أحدهما بهذا الوصف. ولم يكفر جمهور العلماء تارك الصلاة كسلاً وتهاونا مع اعتقاده فرضيتها ولم يقل يكفر تارك الصلاة إلا الامام أحمد – رضى الله عنه – ومن الطريف فى ذلك أن الإمام الشافعى – رضى الله عنه – حاجّ الإمام أحمد – رضى الله عنه – فى هذه المسألة وقال له: يا أحمد إذا أراد تارك الصلاة أن يعود إلى الإسلام مرة أخرى ويصلى فماذا يفعل، فقال له: يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال له الشافعى – رضى الله عنه –: إن الرجل يقولها باستمرار وما تركها لحظة. فسكت الإمام أحمد ولم يَرُدْ.

هذا هو الفقه الحقيقى وهذا هو فهم الأئمة الكبار للدين وإنى أنصح الأخ الإمام الذى نُسب إليه هذا القول أن يتمهل ويتريث فى إصدار الأحكام، خاصة ما يتعلق بتكفير الناس أو تفسيقهم وإن كان يغلب على ظنى أن ما دَفَعَه إلى ذلك الحرص على ترغيب المسلمين فى المساجد لينالوا الأجر الكبير والشرف الرفيع، وقد كان فى الأحاديث الكثيرة الواردة فى فضل المساجد وثواب ارتيادها وعمارتها غنية عما لجأ إليه من تكفير المسلمين والله الموفق الهادى إلى سواء السبيل.

كلمة حق أم كلمة باطل

● وهذه رسالة طويلة من الأخ القارىء سيد محمد نصر إبراهيم من الجزيرة دقهلية يذكر فيها انه استمع إلى حلقة من برنامج تليفزيونى اسمه (كلمة حق) وكان موضوع الحلقة «ختان الإناث» كان ضيوفها من رجال الدين: والطب والصحافة، فقال رجل الطب: إن ختان الإناث ليس من السنة، فسأله رجل الدين وما هى السنة، فلم يجب. وقال الصحفى انه يجب أن يُجرّم من يشترك فى هذا الفعل وأن يعاقب بالسجن (الطبيب والأب والأم).

---

(٤) رواه مسلم.

والأخ القارىء الذى يذكر فى رسالته أنه أزهرى وقارىء قديم لمجلة الأزهر منذ كان طالباً، يعترض لأن هذا الموضوع ما كان ينبغى أن يشغل الناس بهذه الطريقة ويقرر أن ختان الإناث مكرمة للأنثى وهذا أمر قد فُرغ منه ويطلب رأى المجلة فى ذلك كله.

●● **أولاً**: ينبغى أن لا يتحدث فى الدين عموماً إلا رجاله، ولهذا جعل البرنامج من المتحدثين أحد رجال الدين ليتكلم باسم الدين، فما كان ينبغى أن يتكلم الطبيب باسم الدين، وكان الواجب عليه أن يجعل كلامه فى إطار الطب، فيُبين هل خفاض الأنثى ضار بها أم لا، فإذا ثبت ذلك عن يقين انتقل الموضوع إلى دائرة التجريم.. والقانون هو الذى يحدد ذلك، لا الصحفى ولا الاجتماعى ولا الطبيب، وبهذه المناسبة يسرنى أن أنقل رأى الأستاذ الدكتور أحمد شوقى إبراهيم رئيس لجنة إعجاز القرآن الكريم بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية المنشور فى جريدة (عقيدتى) عدد ١٣ من شهر ربيع الأول - ٥/٦/٢٠٠١م وهو طبيب متخصص باحث فى الدين أيضاً يقول سيادته وهو يشير إلى هذا البرنامج الذى تحوّل فى رأيه إلى (كلمة باطل) لأن أحد المشاركين فيه قال: إن الرسول خالف قوله فعله عندما قال لأم عطية «اخفضى ولا تنهكى» وهو فى الوقت نفسه لم يختن بناته.

وحاشا لرسول الله أن يخالف قوله فعله وهو المبلغ عن ربه الذى لا ينطق عن الهوى

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾(٥).

يقول الدكتور أحمد -بارك الله فيه- بعد أن بيّن أن الحديث وحى من الله - تعالى - ومن أصول التشريع وأنه واجب التطبيق فى كل زمان ومكان إلى يوم القيامة وأن كلمات القرآن والأحاديث كالجواهر لها أكثر من وجه يقول بعد كل ذلك: «ولكن كيف تسأل أم عطية الرسول الكريم عن صنعتها وهى تعلم أن الرسول ﷺ لم يختن بناته».. إنها سألته لتعلم هل فيما تفعله حُرمة أم لا، فأجابها الرسول ﷺ «اخفضى ولا تنهكى» والذى يجب أن نفهمه من ذلك أنه إذا كان لا بُد من الخفض لأسباب طبية فلا بد أن يكون خفضاً يسيراً جداً يزيل ما زاد عن الحجم الطبيعى ولا أكثر بحيث لا يُزيل سبب المتعة للمرأة واستمتاع زوجها بها والخفض كما نفهمه من حديث رسول الله لأم عطية فى مختلف رواياته يعنى أن يكون الخفض إذا كان لا بد منه أن يكون فى أيسر اليسير أو لأقل القليل من العضو المراد خفضه وحديث رسول الله ﷺ واجب الحكم والتشريع.. لقد سن رسول الله السنة الواجبة وهى عدم الخفض إلا أنه أعطى الرخصة لأم عطية لتخفض البنات إذا كان ذلك ضروريا وبشروط ذكرها الحديث الشريف وذكر لها ضماناً هو أن خفض البنات إذا كان لضرورة لا حُرمة فيه فقد أعطى صلوات الله عليه الرخصة لأم عطية فى فعله ثم يقول وحديث رسول الله ﷺ ليس لأم عطية وحدها بل للأمة الإسلامية جميعاً فى كل عصر وزمان ومكان أو يشرّع لها فى هذا الموضوع

(٥) الكهف (٥).

الذى يهم كل امرأة ويخاطب الأطباء فى عصرنا هذا ولولا أن الرسول ﷺ أعطى الرخصة فيه عند الضرورة وبشروط محددة لكان الخفض محرماً مهما كانت الأسباب والأحوال من كل ما سبق.

والكلام مازال للدكتور أحمد شوقى: ينبغى أن يدرك الناس ان الرسول ﷺ لم يخالف أمره فعله ولم يتعارض ثم يقول والرأى السائد بين الأطباء فى العصر الحالى أن خفض البنات لا يكون إلا فى حالات نادرة عندما يكون مكان الخفض متضخماً يحول دون متعة المرأة ودون استمتاع زوجها بها وحديث سيدنا رسول الله هو ما يتبعه الأطباء اليوم فى البلاد الإسلامية بل وفى العالم بأسره وهو ﷺ لم يخفض بناته». ثم يستنكر الدكتور أحمد شوقى بشدة التجرؤ على السنة النبوية المطهرة بغير علم ولا هدى ولا بصيرة لأن كثيراً من المسلمين أصبحوا أعداء للدين الإسلامى من خلال الإساءة للسنة النبوية المشرفة. ا. هـ.

وأعتقد أن هذا الكلام الطيب هو الكلام الفصْل فى هذا الموضوع الذى ثار حوله لغط شديد لا مبرر له وهو كلام لا يحتاج إلى مزيد من التوضيح وإذا جاز لى أن أعلق بكلمة موجزة عليه فلتكن كلمة قصيرة متضمنة عدة أمور:

١- إننا فى عصر التخصص الدقيق فلكل علم رجاله بل لكل فرع من فروع العلم رجاله المتخصصون فيه، فللطب رجاله وللقانون رجاله وللسياسة رجالها وللصحافة رجالها وللدين رجاله.. فكما لا يجوز أن يتكلم فى الطب إلا الطبيب وفى الفلك إلا الفلكى يجب ألا يتكلم فى الدين إلا عالم الدين وليس هذا كهنُوتا وليس فى الإسلام رجال دين ورجال دنيا، فالمسلمون جميعاً رجال الدين بمعنى التمسك به والدفاع عنه ولكن فى الإسلام علماء دين لا يجوز أن يتكلم سواهم فى علوم الدين ويبدو أن الدين هو الكلأ المباح الآن يرتع فيه كل إنسان بلا فقه ولا علم ولا دليل.

٢- إن خفض البنات ليس واجبا ولعل عدم اشتهاره عن النبى -ﷺ- أن بنات النبى -ﷺ- ولدن جميعاً قبل بعثته -ﷺ- فلم يكن هناك تشريع يُروى أو يُعرف. علاوة على أن ختان الأولاد غالبا ما يصاحبه احتفال بعكس خفاض البنات فإنه عادة ما يتم فى هدوء بلا احتفال كما هو معروف فى معظم قرى مصرنا الغالية. ولذلك لم يخفض الرسول الكريم ﷺ بناته وليس سنة مؤكدة بل أمر رخص فيه صلوات الله وسلامه عليه يُعمل بها عند وجود مقتضاها، كالفطر فى السفر وقصر الصلاة فيه، إذن هو مُباح لا واجب ولا مُحرم فمن شاء فعله عند وجود دواعيه ومن شاء لم يفعله ولهذا سماه العلماء مكرمة. كما ذكر الأخ الشيخ سيد بحق.

٣- إن العضو الذى يخفض من الأنثى إذا تضخم أو طال كان سبباً فى إثارة المرأة لأدنى سبب حتى من ملامسة ثيابها، وهذا من شأنه أن يشيع الفاحشة وأحياناً يطول هذا العضو حتى يعوق ممارسة الرجل للعملية الجنسية، وهو ما أشار إليه الدكتور أحمد بقوله «يحول دون استمتاع الزوج بزوجته».

٤- فى حياتنا المعاصرة وواقعنا الأليم أمور ملحة عاجلة وساخنة تستدعى أن يُقال فيها كلمة الحق، فلماذا لا يقتحمها هؤلاء المغاوير إن كانوا فعلاً ممن يدافعون عن الحق ويقولون كلمته؟

وفقنا الله جميعاً لقول الحق والعمل به وعلمنا الأدب مع الله ورسوله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إعداد الشيخ/ عبدالفتاح الزيات

● **سؤال من محمد البشير عبدالعظيم - الطوابق متفرع من شارع فيصل الجيزة.**

ما حكم الشرع فى الصلاة فى مسجد مكون من طابقين يؤم الإمام فيه المصلين بالطابق العلوى ويصلى باقى المصلين بالطابق السفلى معتمدين فيه على السماع من مكبر الصوت؟ فهل صلاة من فى الطابق السفلى صحيحة فى هذه الحالة وهل وجود الإمام فى هذه الحالة؟ يعتبر من باب ارتفاع الإمام عن المأمومين؟ أفيدونا ولكم من الله حسن الجزاء.

●● **الجواب:**

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد بأن الصحيح من مذهب الحنفية أنه يصح اقتداء المأموم وبينه وبين الإمام حائط كبير لا يمكن الوصول منه إليه متى كان المأموم على علم بانتقالات الإمام بسماع أو رؤية لما روى أن النبى ﷺ كان يصلى فى حجرة عائشة - رضى الله عنها - والناس فى المسجد يصلون بصلاته - وعلى ذلك صح الاقتداء فى المساكن المتصلة بالمسجد الحرام وأبوابها من خارجه إذا لم يشتبه حال الإمام عليهم لسماع أو رؤية، وفى هذا رخصة عظيمة وتيسير على الناس وذهب المالكية إلى جواز الجمعة فى الطريق المتصلة بالمسجد من غير فصل بنحو بيوت. أو حوانيت بدون كراهة عند ضيق المسجد واتصال الصفوف، فإذا اتصل أحد الصفوف بالصف خارجه صحت صلاتهم وصلاة من يقف وراءهم خارج المسجد مع وجود حائط المسجد، وذهب

الشافعية إلى جواز الاقتداء، إذا كان بين الإمام والمأموم جدار المسجد والباب النافذ بينهما مفتوحاً ووقف المأموم فى قبالته.

وذهب الحنابلة إلى أنه لو كان بين الإمام والمأموم حائل يمنع من رؤية الإمام أو من يقف وراءه فلهم رأيان الأول أنه يصح الاقتداء والثانى لا يصح.

وعلى ذلك وبناء على ما سبق من أدلة وما عليه الفتوى فإن صلاة المأموم الذى فى الطابق السفلى مقتدياً بالإمام الذى فى الطابق العلوى صحيحة متى كان المأموم يعلم بانتقالات الإمام إما بالرؤية أو بالسماع بواسطة مكبر الصوت.

وحبذا لو استبدلنا مكبر الصوت داخل المسجد بسماعة تؤدى الغرض المطلوب من غير ضجيج أو إزعاج حيث إن من شروط الأدب فى الصلاة والخشوع وعدم انشغال القلب والفكر عن كل ما ينقص من هذا الخشوع، ومكبر الصوت من دواعى الانشغال خصوصاً إذا كان عالى الصوت وما قد يسببه أحياناً من صفير وطنين.

أما ارتفاع الإمام عن المأموم فقد قال المالكية: تبطل صلاته إن كان وحده يصلى فى مكان مرتفع عن المأمومين أما إن كان معه مأمومون فلا تبطل صلاته.

والله أعلم

أفضل الطرق لتكوين أسرة صالحة

● **سؤال من جاد السيد على جاد «أجا - دقهلية»:**

أصبحت هناك ظاهرة متفشية فى هذه الأيام وهى أن الخاطب بمجرد أن يتفق على الخطبة فإنه يستبيح لنفسه أن يجلس أو يخرج مع مخطوبته ويظن أن هذا أصبح حقاً مكتسباً له، فهل يجوز له ذلك حقاً؟ وهل له أن يختلط بمخطوبته وقد يقبلها أو يعانقها بحجة أن هذا يزيد من المودة والتآلف بينهما؟

●● **الجواب:**

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه نفيد بأن ما يسأل عنه السائل أصبح من الظواهر المتفشية فى هذه الأيام بحجة التقدم والمدنية وتطور العصر والاختلاط الذى أصبح ظاهرة طبيعية فى المجتمع وهذا بلاشك له آثار سلبية فى المستقبل قد لا ينفع معها الندم أو يفيد ما لم نتبع تعاليم الإسلام ونسير على هديه قرآنا وسنة قولاً وعملاً.

نعم قد أباح الفقهاء للخاطب أن يرى مخطوبته وأن تراه بحضور أحد محارمها كأبيها أو أخيها أو عمها أو خالها، وله أن يكرر الرؤية إذا لم تكف المرة الواحدة بالشروط المذكورة والدليل على ذلك ما ثبت عن النبى - ﷺ - عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - أنه خطب امرأة فقال له النبى - ﷺ -: «انظر إليها فإن أحرى أن يؤدم بينكما»(١) وعن جابر قال: سمعت النبى - ﷺ - يقول: «إذا خطب أحدكم المرأة فقرر أن يرى منها بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»(٢) وهناك أحاديث كثيرة فى هذا الباب فيها دليل على أنه لا بأس أن ينظر الرجل إلى المرأة التى يريد أن يتزوج بها.

ولكن ما هى المواضع التى يجوز للخاطب أن

(١) رواه الخمسة.

(٢) رواه أحمد وأبوداود.

ينظر إليها فى مخطوبته؟ ذهب الأكثر إلى أنه يجوز النظر إلى الوجه والكفين فقط، وقال داود: يجوز النظر إلى جميع البدن، وهناك أقوال كثيرة فى المواضع التى يجوز النظر إليها من المرأة التى يريد الزواج منها ولكن الغالب فيها أن ينظر إلى الوجه والكفين فقط لأنهما ليسا بعورة ولأنه يستدل بالوجه على الجمال أو ضده وعلى الكفين ما يدل على الخصوبة أو ضدها.

هذه هى الضوابط التى وضعها الإسلام للرجل إذا أراد أن يخطب امرأة، لا يباح الخروج عليها لأى سبب أو بأية حجة فإن الإسلام يرسم لأبنائه أفضل الطرق لتكوين أسرة صالحة وعلى الذين يبالغون فى مفهوم الخطبة وأنها تبيح لهم ما يظنون أنه أصبح حقا لهم أن يتقوا الله ويتأكدوا من أن هذه المرأة مازالت أجنبية عنهم تتمتع بكافة الحقوق التى منحها لها الإسلام صيانة لها ولعفتها وشرفها وكرامتها، وأنه لا يجوز للخاطب بأى حال من الأحوال أن يتخطى هذه الحدود، وليعلم هذا الخاطب أن التقدم أو المدنية الزائفة التى وردت إلينا من خارج الحدود لها هدف محدد وهو ضرب الإسلام بأيدى أبنائه فعلينا أن نحارب هذا بتمسكنا بتعاليم ديننا قولاً وعملاً، هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم.

حكم الصلاة فى مسجد أرضه مغتصبة

أرسل فاعل خير يقول: فى بلدتنا رجل اغتصب أرض أخوته الأيتام وبنى فوقها منزلاً، وبنى فوق جزء آخر مسجداً فما حكم الصلاة فى هذا المسجد؟

●● الجواب:

إن الغصب محرم بالقرآن والسنة وبإجماع المسلمين يقول تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣).

وما رواه سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: من أخذ شبراً من الأرض ظلما طوقه الله من سبع أرضين وقد أجمع المسلمون على تحريم الغصب فى الجملة.

ولهذا، اتفق الفقهاء على أن من غصب شيئاً عقاراً أو منقولاً أو أرضاً لزمه رده لقول النبى ﷺ: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه» ولأن حق المغصوب معلق ما بين ماله وماليته ولا يتحقق إلا برده والمالك من حقه أخذ العين المغصوبة وما نقص منها بسبب الاستعمال أو التعدى أو الإهمال، ولو وهب الغاصب هذه الأرض إلى أى جهة تقع الهبة باطلة لأنه غير مالك لما وهب.

ولو اتخذها مسجداً حرمت الصلاة فيه باتفاق الفقهاء وإن اختلفوا فى سقوط الفرض ولا أجر له، ومنهم من قال: لا يسقط الفرض ويظل معلقاً فى ذمة المصلى كأنه لم يؤده أى أن الصلاة فى الأرض المغصوبة باطلة، والله - سبحانه وتعالى - أعلى وأعلم.

---

(٣) البقرة (١٨٨).

خطبة الجمعة :

من ملامح الشخصية المسلمة

لفضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد الشرباصى

هذه الخطبة ننقلها من الموسوعة الشرباصية لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ أحمد الشرباصى. لعل الإخوة أئمة المساجد يجدون فيها موضوعاً مناسبا لخطبة الجمعة وقد ألقيت يوم الجمعة ١٦ من رجب سنة ١٩٨٤هـ الموافق ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٤م.

الحمد لله - عز وجل - خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وكرمه بفضله أعظم تكريم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(١).

أشهد أن لا إله إلا الله، أنعم على الإنسان بما أنعم، فجعله خليفة فى أرضه، والمقدم بين خلقه، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، مزكى الإنسانية ومطهر البشرية، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وذريته، وأنصاره وصحابته، ومن استقام على طريقته:

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام:

شخصية الإنسان مجموعة من الصفات تميزه عن غيره، وتحدد ملامح ذاته، وتعطيه الطابع الخاص به؛ وللمسلم شخصية مثالية يمكن أن نجتلى مكوناتها فى هدى القرآن الكريم، وأدب السنة المطهرة، وعمل الصالحين من سلف المؤمنين، ومن هذه المكونات ما يتصل بالبدن ومنها ما يتصل بالعقل، ومنها ما يتصل بالروح. فالمسلم الحق رجل صحيح البدن قوى

(١) الإسراء (٧٠).

(٢) آل عمران (١٠١).

العضل، صالح بقوته وفتوته للعمل والنضال، والاحتمال وهدوء البال، لأن الجسم الضعيف أو العليل قد ينال تفكير صاحبه بالخلل، وقد يدخل على نفسه بالسأم والملل، وجسم الإنسان بنايه ربه الذى خلقه فسواه فعدله، فى أى صورة ما شاء ركبه، وبناية الرحمن يجب أن تحفظ وتصان، والمسلم الصادق رجل معرفة وفقه، يطلب العلم من المهد إلى اللحد، وكلما نال مزيداً من العلم أقنعه ذلك المزيد بأنه ما زال بحاجة إلى ازدياد، لأن العلم لا نهاية له، والقرآن يقول:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

كلما أدبني الدهر
أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددت علماً
زدت إيماناً بجهلي

والمسلم الحق رجل أخلاق فاضلة كريمة، لأن مكارم الأخلاق هى دعامة الإسلام وأس بنائه. وهذا التكامل الجسمى العقلى النفسى قد تلحظه فى الهدف العام لقول الله ـ عز من قائل ـ:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[4].

أى فى أحسن تعديل من جهة الشكل والصورة، ومن جهة العقل والفهم، ومن جهة الاستعداد ليكون خليفة الله تبارك وتعالى فى هذا الكون العريض؛ وخير الناس من استغل هذا التقويم المثالى الكريم ليؤتى أكله وثمرة بأفضل الوسائل وفى أنظف الميادين، وشر الناس من تنكر لهذا التقويم الحسن، فاستحق الا نتكاس إلى حمأة الأرجاس، ولذلك قال الحق ـ جل جلاله ـ:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[5].

ومن مقومات شخصية المسلم أنه سيد نفسه بامتلاكه زمامها، وسيد العالم بصلاحه، وقوامته على الناس، وشهادته على العاملين، ولكنه أيضاً عبد الله وحده، وليس عبداً لسواه، لاتذل جبهته لغير الله، ولا تنخفض هامته إلا لبارئه ومولاه، إذ خضوع المخلوق للبارىء عز، ورضا المسلم بالمذلة أمام سوى الله كفر:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[6]

وسيادة المسلم فى العالم تقتضيه أن يكون أهلا لهذه السيادة، بعلمه وفضله، وهدايته وعدله، وأن يكون قدوة عليا للناس، يحملهم على حقه، ولا يحملونه على باطلهم.

والمسلم الصادق موصول بيمين الحق ـ عز وجل ـ وهذه الصلة ترفعه عن ترابية الأرض إلى نورانية السماء، ومن حضيض الضعف والاستكانة إلى معاقل الاعتزاز والصيانة، وتجعله موقناً بحقه، مستمسكاً برأيه، قوياً على بهتان الناس، نفوراً من أهوائهم الضالة.

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[7]

وما دام المسلم قد وصل حبله بحبل الله، وقد أسلم وجهه لله، وقد استمسك بالعروة الوثقى فلن يكون للشيطان عليه سبيل، بل سيراه المسلم دائماً عدواً مبيناً له، فلا يقبل عليه، ولا يميل إليه، بل يقيم من نفسه على نفسه حسيباً رقيباً، لأنه يتذكر دائما أن ساعة

---

(٣) الإسراء (٨٥). (٤) التين (٤). (٥) التين (٥، ٦).
(٦) آل عمران (١٣٩). (٧) البقرة (٢٥٦).

ستأتى يلقى إلى الإنسان فيها سجل أعماله، ويقال له:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾(٨)

وسيجد هذا الكتاب دقيقاً فى التسجيل والتدوين، وسيجد الجزاء هناك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾(٩).

ومن مقومات شخصية المسلم الصادق أنه رجل جماعى وليس بأنانى، يغرس فى نفسه معانى الأخوة والمحبة والتآليف والتعاون، لأن مولاه ـ جل جلاله ـ يقول له:

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾(١٠).

والمسلم الصحيح الشخصية يقول كلمة «أنا» فى مواطن البذل والتضحية والإيثار، فحينما دعا الله نبيه إلى أن يتمسك بالحق، أمره أن يذكر نفسه أولا، لأن المقام مقام تبعة وجهاد وتطبيق، فقال الحق ـ جل جلاله ـ:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(١١).

ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يصور فى الأنصار هذه الروح التى تجعل صاحبها ينسى نفسه فى مواطن الشهوة والرغبة، ويقدمها فى مواطن النضال والبذل.

ومن تمام شخصية المسلم الحق أن يتجلى فيه الاطمئنان والثبات، لأن النفس المطمئنة هى الراضية المرضية عند الله فى الدنيا والآخرة، وثبات المسلم على دينه وخلقه ومبادئه هو عنوان إيمانه ويقينه، وهو الذى يجعله لا يبغى عند النعمة. ولا يتزلزل لدى المحنة، والداء العياء الذى تشكو منه المجتمعات هو ذبذبة الأخلاق واضطراب النفوس، ولو آتى الله عبده ثباتاً على ما يرتئيه، وصبراً على ما يلاقيه، وثقة بالذى يرتجيه، لو جدت مكارم الأخلاق حراسها وحماتها ورجالها، ولصان الله المجتمعات من مآثم الثعالب الماكرة التى تتلون بطباعها وأخلاقها تلون الحرباء كل يوم، ولقد صور القرآن ثبات النفوس عند خيار المؤمنين فقال:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(١٢).

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. هذا جانب من ملامح الشخصية المسلمة، ولو تابعنا بقية الملامح لأسلمنا هذا الجانب إلى جوانب، فإن شأن المسلم الكامل أن يظل دائماً مترقياً فى مدارج الفضل والنبل، ومراتب السمو والعلو، حتى يكون فى الدنيا ربانياً، وحتى يكون نعم الخليفة لبارئه فى هذا الوجود، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾(١٣)

---

(٨) الإسراء (١٤).

(٩) النجم (٣٩: ٤٢).

(١٠) المائدة (٢).

(١١) يوسف (١٠٨).

(١٢) الأحزاب (٢٣).

(١٣) النحل (١٢٨).

فقه العبادات في ضوء غاياته

أبو محمد الأقصرى

انتهينا فى مقالنا السابق إلى أن الوضوء وسيلة من وسائل محو ما ارتكبت الحواس من الذنوب، لقول رسول الله ﷺ : إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب.

وهذا يقتضى منا أن نحسن أعمال الوضوء وأن نستحضر النية عند غسل كل عضو أو مسحه وأن نستحضر هذا المعنى وهو محو الذنوب - بإذن الله - مع أفعال الوضوء، فذلك مع ما فيه من الفوائد ما ذكرنا، فيه - أيضا - تعويد القلب معنى الحضور مع الله - سبحانه وتعالى -

ولقد تكلم الفقهاء عن الماء المستعمل - ما هو؟. وما حكم استعماله؟. كلاما يوحى بعدم جواز استعماله فى العبادات وسموه الماء المستعمل، مما جعل البعض من الفقهاء يرفضون هذا الحوار برمته أى أنهم يقولون بجواز استعمال الماء المستعمل، وهذا فى حد ذاته فيه دلالة على أن المسألة فيها خلاف

لكن لماذا كان هذا الخلاف؟ وما أساسه؟

جاء فى كتاب الفقه الواضح ص٣٣ ما نصه:

«يظن بعض الناس أن الرجل لو وضع يده فى الماء وهو جنب نجسه، وأن المرأة لو وضعت يدها فيه نجسته كذلك، وهذا الظن غير صحيح، إذ يرى جمهور الفقهاء أن هذا الماء لا يصير مستعملا بوضع اليد فيه، وحتى لو صار مستعملا فإنه يجوز استعماله ما لم يتغير وصف من أوصافه عند المالكية، وكثير من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم.

والجنب فى الحقيقة ليس نجسا يده ورجله وأعضاؤه كلها طاهرة مادامت نظيفة ليس عليها نجاسة خارجية وكذلك الحائض.

وقد جاء فى كتاب الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك[1]: (المراد بالمستعمل فى حدث ما تقاطر من الأعضاء أو غسلت فيه. وأما لو اغترف منه وغسلت الأعضاء خارجه فليس بمستعمل).

وبهذا القول للمالكية أصبح الأمر أكثر تحديدا حيث إن البعض يفهم أن الماء المستعمل هو ماء غمست فيه يد المتوضئ أو الجنب، أما المالكية فقد بينوا أن الماء المستعمل هو المتقاطر من الأعضاء وبهذا تعلم أن المالكية يعنون بالماء المستعمل هو الذى سبق استخدامه بالفعل وهذا هو المعنى اللغوى الدقيق، أما مجرد غمس اليد فلا يفيد ولا يعنى الاستعمال.

وقد تظن أن هذه المسألة ماكان ينبغى أن تشغل بال الفقهاء حيث إن الماء متوافر والأمر يتعلق بعبادة، لكنك تتحدث وأنت فى مصر بلد النيل والماء من الكثرة بمكان، ولكن الحكم الفقهى والشريعة الإسلامية عامة زمانا ومكانا، ولو أدركت هذا لعرفت أن هذا البحث فى البلاد الصحراوية أو قليلة المياه، جدير بعناية الفقهاء.

وقد ورد حديث لرسول الله ﷺ لو نظرت إليه من منطلق فكرك المصرى - ابن النيل - ربما انزلقت إلى فهم خاطىء فيه، ذلك أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يتوضأ ويسرف فى استخدام الماء فقال النبى ﷺ للرجل: لم هذا السرف؟

فأجاب الرجل: أو فى الوضوء سرفٌ يا رسول الله؟

فقال النبى ﷺ نعم: وإن كنت على نهر جار أو كما قال ﷺ.

إذا الحكم ليس لشخص معين جالس على نهر الماء إنما هو فى الاستخدام الأمثل، وذلك

---

(١) الجزء الأول ص ٦٠ من التعليق المسمى الحاوى لبعض البحوث على شرح الصادى تأليف محمد إبراهيم المبارك مطبعة عيسى الحلبى.

عام فى كل زمان ومكان فإن هذا التعبير من رسول الله ﷺ فى رفض الإسراف ليس من منطلق الضرورة إنما هو من منطلق إرساء قواعد السلوك لدى المسلمين فى الاستخدام الأمثل – كما قلت لأنه ﷺ عاب السرف ولو كنت تتوضأ من نهر جار.

وبحث الفقهاء فى الماء المستعمل، ونسب إلى الإمام أبى حنيفة والشافعى ومالك ـ رضى الله عنهم ـ أن الماء المستعمل لا يجوز استعماله فى رفع الحدث مرة أخرى.

وقد يثير كما نسب إلى الأئمة الثلاثة ولكن إذا تأملت قول النبى ﷺ الذى أوردناه سابقا «إذا توضأ العبد المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه.....» إلخ الحديث.

ألا يفيد هذا الحديث أن الذنوب تنزل مع قطر الماء؟ ومادمنا نتحرز من النجاسات الحسية فلماذا لا نتحرز ـ أيضا ـ من النجاسات المعنوية . وهى أولى بالاحتراز بل هى مقصود العبادة، لكنا لا نرى النجاسات المعنوية.

وهل كل ما لا نراه غير موجود؟!

وإذا كنا لا نرى، فهل ننكر على من يرى ؟

اسمع الإمام الشعرانى فى كتابه الميزان ص٩٣ يقول:

كان الإمام أبوحنيفة من أهل الكشف فكان تارة يرى غسالة الكبيرة فى الماء فيحكم باجتهاده أو كشفه بأنها كالنجاسة المغلظة، وتارة يرى غسالة الصغيرة فى الماء فيقول إنها كالنجاسة المتوسطة لأن الصغائر متوسطة بين الكبائر والمكروهات وهى مرتبة بين النجاسة المغلظة والمخففة تبعا لأصلها.. إلى أن يقول: كان أبوحنيفة من أهل الكشف فإذا رأى الماء الذى يتوضأ منه الناس يعرف تلك الخطايا التى خرت فى الماء ويميز الكبائر من الصغائر والصغائر عن المكروهات والمكروهات عن خلاف الأولى، كالأمور المجسدة حسا على حد سواء» .انتهى كلام الإمام الشعرانى ـ رضى الله عنه ـ أى أن الإمام أبا حنيفة كان يرى الخطايا وهى معنوية كالأمور الحسية على حد سواء. رضى الله عنهم ـ ونفعنا بهم.. آمين.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله

***

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ / محمود الفشني

كتب الأستاذ عبد الرحمن الأبنودى فى «جريدة الأخبار» فى ٢٧ مايو سنة ٢٠٠١م كلمة لم نجد لها ما يناسبها غير قول الله - تعالى:

﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(١).

الفلاح المصرى هانت عليه حياته لقد أخطأ واستدان جنيهات قليلة من بنك الائتمان السحرى الذى حول الدين إلى آلاف مؤلفة يصعب ردها ولا يغطيها ثمن الأرض نفسه.

ولا الدولة ولا الفلاح يستفيد احدهما من الآخر وإنما المستفيد هم موظفو البنوك الذين يساومون الفلاح على التقسيط والجدولة على طريقة (من دقنة وافتله) إذ يفتحون له الاستدانة الجديدة ليسد منها القديم ويترك لهم فى نظير ذلك مبالغ ومبالغ حتى أثروا وبنوا العمارات بينما الدولة كل همها مطاردة الفلاح الذى أهمل الأرض هربا من الدولة.

أيتها الدولة ماذا تريدين من هؤلاء الشهداء الذى أصبحوا يتمنون الموت بعد أن ضاقت بهم الحياة وصاروا مدينين هم وأمهاتهم وأخواتهم وأبناؤهم فى لعبة الجدولة والتقسيط؟!!

أيها البنك المرابى، إن بك ما يوقظ نار جهنم!!

انتهت كلمة الأستاذ الأبنودى وكما قدمنا لها باية من كتاب الله نختم لها أيضا بقوله - تعالى:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

(١) البقرة ٢٧٩.

(٢) البقرة (٢٨٦).

كلمة حق

ونشرت جريدة «الأخبار» فى صفحتها الأخيرة تحت عنوان يوميات الأخبار للشاعر عبدالرحمن الأبنودى بتاريخ ٢٧ من مايو سنة ٢٠٠١ .

لا يوجد شيء اسمه فلسطين كما حاولتم إفهامنا . هناك شيء واحد اسمه إسرائيل يرتع فى جميع انحاء الأرض الفلسطينية ويتمتع بحماية عربية ودولية .

سكنت الدبابات الحارات، والبيوت المهدومة ومصانع الحليب والعمارات التى لم تكتمل، وطفقت تهدم الأبنية الأمنية العَرَفَاتيّة، مَبْنى مبنى، وتقتل جنوده حِزْمَة حزمة .

إن نشيد القتل الدموى فى فلسطين هو ملحمة ملاحم العصر «تسلطن» العالم على نغماته، وإن أشهى أنواع عطور العصر فى كل أطراف الدنيا هو رائحة الدم الفلسطينى!!

وأفضل ما نعلق به على هذه الكلمة هو ما رُوِى عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ :

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يؤمئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاءالسيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول لله وما الوهن؟ قال «حب الدنيا وكراهية الموت» .

رواه ابن ماجة

أية ملكة وأى جمال!!!

تحت هذا العنوان كتبت الأستاذة/ كوثربنت عبدالحليم فى جريدة «الأخبار» يوم ٢٢/٥/٢٠٠١

إن أعجب العجب هو ذلك الذى رأيته فى برنامج تليفزيونى يعرض مسابقة لاختيار ملكة جمال مصر.. ووجدت نفس اهتز ضحكا وحسبتها اهتزازة الجنون وخشيت على نفس لولا أن تذكرت بيت المتنبى الشهير:

وكم ذا بمصر من المضحكات.. ولكنه ضحك كالبكا

إذن فقد كنت أريد أن أبكى فضحكت وتحقق المثل القائل «إن شر المصائب ما يضحك» .

والمصيبة التى تمثلت أمامى هى: كيف نسيت هؤلاء المختالات المتبخترات بدلال على منصة المسابقة شبابا وأطفالا تسيل دماؤهم فوق أرض فلسطين؟

وكيف قبلنا أن تهدر أموالٌ فى عرض أبهة لهن، وفى أوطاننا من يحتاج إلى هذا المال فى ضرورات الحياة؟

ثم كيف قبلن أن يعرضن أنفسهن جيئة وذهابا أمام هيئة تحكيم تقول فيهن نعم أو لا؟

وكيف رضى الاباء والامهات لهن هذا؟! وكأننا فى سوق النخاسة؟

ثم كيف قبلن أن يعرضن انفسهن على اعتبار أنهن الجميلات والجمال ليس صنعتهن فالخالق والصانع هو الله – جل شأنه – وليس لهيئة تحكيم بشرية أن تحكم فى صنعة إلهية أرادها الله صورا تختلف من إنسان لإنسان ليتعارف الناس وتتسمى كل صورة باسمها والجمال نسبى بالنسبة لنا (وحسن فى كل عين من تود) وإلا ما تزوجت الشقراء بالأسود ولا تزوج الأبيض بالسمراء.

والجمال فى الإنسان لا يقتصر على الصورة التى جعلتها هيئة التحكيم مؤدية إلى الفوز ونيل الجائزة، فالله جلت قدرته يقول فى القرآن الكريم:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(٣).

فكلمة (أحسن) اسم تفضيل ومعنى ذلك أن كل خلق الله من أرض وسماء وما فيهما كلها فى تقويم حسن ولكن أحسنها الإنسان، لأن الله قد اختصه بالعقل الذى يختار.

فليكن اختياركن أيتها الشابات لجائزة تفوق علمى أو أدبى أو رياضى من صنع أيديكن ويجب ألا تخدعن بأحكام من لا حكم له.. إذ كيف تصدقين يا من أعطيت تاج ملكة جمال مصر أنك أجمل امرأة فى مصر؟ ثم ما قيمة صورة الإنسان إذا لم يعتن بجوهره؟ وجوهر الإنسان فى قلبه ولسانه وقديما قال الحكماء، (المرء بأصغريه قلبه ولسانه).

فلنكن العقلاء ولنعقل ما أنعم الله به علينا ونعلم أن الإنسان هو المستور وحده حيا وميتا بأمر من الله – جل شأنه –.

وصفة الحياء خلقت معه وحكتها الكتب السماوية عن آدم وحواء قبل هبوطهما إلى الأرض عندما استمعا إلى الشيطان وأكلا من الشجرة التى حرمها الله عليهما فبدت لهما سوءاتهما وظلا يعملان على ستر عوراتهما بورق شجر الجنة وكان ذلك بداية الحياء وإرادة الستر وقد حثت الديانات السماوية على الاحتشام ولا يقال إن الإسلام وحده هو الذى دعا إلى ذلك وإلا ما كان زى الراهبات المسيحيات والمتدينات اليهوديات مطابقا لأمر الله فى الاحتشام.

أما ما نراه الآن من العرى وتلك السراويل الضيقة للصبيان والبنات فيدخل تحت ما يسمى بالفعل العلنى الفاضح: ويقع تحت طائلة القانون، ولا يقال إنه يدخل تحت مسمى الحرية الشخصية، لأنه اعتداء على حريات الآخرين وهو سبب الفساد الذى جر البشرية إلى ما هى فيه من تعاسة تظهر فى ذلك العنف الذى ساد المجتمعات وفى تناول المخدرات وحوادث الاغتصاب.

فهل يعى الآباء والأمهات ذلك حفاظا على أجيالنا من الضياع؟ أسأل الله أن يلهمنا الصواب.

● حقاً إن ما يسمى بالحرية الشخصية فيه اعتداء على حريات الآخرين، لكن ماذا نفعل إذا كنا فى سوق النخاسة انتبهوا أيها الآباء والأمهات.. شكراً للأستاذة كوثر.

قضية تأجير الأرحام

برغم أننا نعارض الفكرة، ولا نقبل أن يكون كل شىء للبيع أو للإيجار، إلا أننا بحقٍ فى قرارة نفوسنا نرى أن حجة الذين يجيزون من الناحية الفقهية أقوى لأن قياسهم جلى، فقد قاسوا الرحم على الرضاع وليس فيما يدعون إليه شبهة زنا أو اختلاط أنساب، وبرغم ذلك فقناعتنا فقهياً حتى هذه اللحظة مع المجيزين، إلا أننا لم نستسغ الفكرة، ولا نقول بها، إلا أننا صدقاً وبكل نزاهة لا نستطيع أن نقدم حججاً فقهية مقنعة ولا نحب أن نقدم سفسطة أو خُطباً رنانة فى مجال الفقه الجاد ونحترم بنزاهة وموضوعية حُججاً فقهية قيلت فى برنامج نور على نور فى التليفزيون أن الأصل فى الأشياء الإباحة، والأصل فى الدماء والنساء الحرمة إلا بنص.

(٣) التين آية (٤).

وبصدق.. نتمنى وندعو الله أن ينصر هذا الفريق، لكننا لا نرضى أن نكون ممن يحرمون شيئاً لمجرد أنهم لا يحبونه، أو يُحِلون شيئاً لمجرد أنهم يمارسونه.

وممن رحبنا بفكرهم وحججهم الأستاذة الدكتورة/ سعاد صالح..

ـ بارك الله فيما تقول وما تكتب ـ فنحسبها تهرع إلى الفقه تستجليه الفُتيا، ولقد نشرنا لها كلمتها من جريدة الأهرام فى عددنا الماضى «ربيع الأول» واليوم ننشر لها مقالاً ورد فى جريدة أخبار الجمعة ١٥/٦/٢٠٠١م. وهذا نص ما قالته ـ أيدها الله ونفع بها:

«إن للشريعة الإسلامية نوعين من الأحكام، ثوابت وأصول وهى التى وردت بنصوص ولا يجوز فيها الاجتهاد، وأحكام ظنية جاء فيها سبب من أسباب الاختلاف يمكن فيها الاجتهاد، ولكن من الذى يجتهد، وضعت الشريعة شروطاً كثيرة يجب توافرها فى المجتهد ولأن هذه الشروط يصعب توافرها الآن، أصبح الاجتهاد الآن اجتهاداً جماعياً وليس فردياً وأن الضرورات تبيح المحظورات.. والضرورات حددها الشرع بكل ما يتعلق بالدين والنفس والمال والعرض. بشرط أن تتفق هذه المحظورات مع مقاصد الشريعة الإسلامية.

أما مسألة تأجير الأرحام ما هى إلا اختراق للأسرة المسلمة تحت زعم ضرورة الإنجاب، وهو أمر يتعلق بحفظ النسل، فالرسول ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر لا يسقى زرعه بماء غيره» من هنا حرص الشرع على فترة العدة بعد طلاق الزوجة وأوضحت «أن تأجير الأرحام يعنى إدخال عنصر ثالث فى مسألة الإنجاب ومن المتفق عليه أنه يحرم تحريماً شديداً أن يكون هناك عنصر ثالث فى الإنجاب، نطفاً أو رحماً، فكل إنسان له نسبان الأم والأب وليس الأب فقط، فعندما نسمح بتأجير الأرحام، سيكون هناك ازدواجية فى الأمومة، ويصبح عندنا الأم نسباً، والأم رحماً، ومن هنا اتفق الفقهاء فى مجمع البحوث الإسلامية على تحريمها لسببين.. الأول: اختلاط الأنساب من ناحية الأم والثانى: أنه يشتمل على صورة من صور الزنا، فهناك نطفة لرجل أجنبى فى رحم امرأة أجنبية عنه، ولذا بعدما أباح المجمع الفقهى فى عام ١٩٨٦ أن الرجل إذا كان متزوجاً من امرأتين يمكن لإحداهما استضافة نطفة الأخرى، قام بتحريم ذلك، لأنه يفتح الباب لمفاسد كثيرة، وهناك قاعدة شرعية تنص على أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

نوع من الزنا

وأكدت الدكتورة سعاد صالح أن قضية الاستنساخ البشرى ستؤدى إلى نسف الأسرة، إذ أين الأسرة فى ذلك الاستنساخ، أين الروابط الأسرية؟.. أما فيما يتعلق ببنوك النُطَفْ.. والذى يمكن عن طريقها أن تُلقح زوجة (مثلاً) بنطفة زوجها بعد وفاته.. فتقول عنها الدكتورة سعاد: إنها صورة من صور الزنا إذ أن صلة الزوجة بزوجها تنقطع بوفاته.

وإذا كانت الضرورات حقاً تبيح المحظورات، فما الضرورات المتحققة وليست المتوهمة؟. والضرورة تقدر بقدرها، أى بالقدر الذى يدفع الضرر ولا يُزال الضرر بضرر مثله، فالإسلام يرحب بكل ما هو جديد فى البحث العلمى بشرط ألا يدمر هذا العلم حياة الأسرة نواة المجتمع، ويؤدى إلى نشر الفساد فيه.

بين المجلة.. والقارئ

إعداد وتقديم / عادل رفاعى خفاجة

الأرشانة بين العامية والفصحى

لغتنا العربية هى ذلك الكنز الثمين الذى شرفه الله -تعالى- بكلامه عز وجل ودُرًات هذا الكنز الثمين وفرائده هى تلك المفردات العربية الفصيحة.

ومع كر السنين تتناثر بعض هذه الفرائد بعيداً عن الاستخدام، فيلفها النسيان، ولا يبقى لها ذكر إلا لمن يطلبها فى بطون الكتب والمعاجم، ومنها ما يُعْرِض عنه الأدباء والخطباء ظناً منهم أنها عامية أو دخيلة على العربية؛ فيعزفون عنها مؤثرين السلامة، مع أنها من الفصاحة بمكان!!..

ومن هذه الألفاظ لفظ «الأرشانة» وقد وردت رسالة القارىء **هلال الحبشى من برهمتوش ـ دقهلية، ليثبت فصاحتها ويعيدها إلى موضعها من القلادة.**

يقول:

أعتقد أن بين اللغة العربية واللغة العامية فى مصر، صلة وثيقة، لأن أكثر كلمات العامية محرفة عن اللغة العربية.

فكلمة (الأرشانة) التى يطلقها العامة على المرأة الماكرة الخبيثة لها أصل عربى.

قالت كتب اللغة: (الأرش: الفساد.. والتأريش: السعى بين الناس بالفساد، وأرشت الحرب بين الفريقين.. أى أشعلتها فحصل الدمار.

وكم لهذه الكلمة من أمثال، تُسْكِت الذين يدعون أن اللغة العربية غريبة عن مصر والمصريين.

نشكر للأستاذ/ هلال حبشى إرساله هذه المساهمة الطيبة.

ونتمنى أن تصلنا إسهامات أخرى نثبت بها أصالة العامية المصرية أو نتناول كلمات مهجورة ننفض عنها غبار الزمن لنُحْييها.

مفتريات ساذجة

أرسل أحد القراء مع رسالته صورة ضوئية لرسالة يقول إنها وصلته بالبريد، ولا يدرى من أرسلها؟.. والرسالة مُزَيلة بالوعيد لكل من وصلته ولم يوزعها على غيره، والخير العميم لكل من وزعها بأعداد كبيرة.

ويطلب القارىء رأى العلماء فى هذه المسألة.

وقد وردت إلى المجلة رسالة مشابهة منذ ما يقرب من ثلاث سنوات قمنا بالرد عليها وتفنيد مفترياتها وأوضحنا أن هذا محض دجل يجب أن لا يشغل بال المسلمين.

وآثرت ألا أرد على هذه الرسالة مرة أخرى.

ولكنى بينما أتصفح مجلة الأزهر فى أعدادها الأولى، وتحديداً فى عدد ربيع الآخر ١٣٥١هـ الموافق ١٩٣٢م. وجدت رداً عن نفس السؤال أفردت له المجلة العديد من الصفحات التى لا يتسع المقام لعرضها مرة أخرى.

فرأيت أن أكتفى بعرض مقدمة هذا الرد الذى جاء فيه:

«بُلى الإسلام بأشخاص يتخذون من الافتراءات عليه طرقاً للتنفير منه، أو حبائل لاصطياد شيء من المال، ومن هذا القبيل صحيفة تشتمل على حكاية رؤيا منسوبة لشخص يسمى نفسه الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية، وقد اخترعت هذه الأكذوبة من مدة تزيد على أربعين سنة، ولا يزال مخترعها يتعهد بها الناس فى الشرق والغرب من سنة إلى أخرى، وكثيراً ما كتب أهل العلم فى تزييفها وبيان ضلالتها، ورجاؤنا اليوم فى الخطباء والوعاظ أن ينبهوا الأمة لفريتها وسخافة عقل من يتقبلها».

ونحن الآن نتساءل: لماذا يصدق المسلمون اليوم هذه الخرافات، ويسارعون إلى تصديقها؟!.. ويتشككون فى أحاديث تلقى عليهم، فيقولون هذا ضعيف، وذاك موضوع!!..

وكيف يتأتى لهذا العقل أن يقبل مثل هذه الخزعبلات التى لا سند لها من الدين أو العقل؟!.

لقد رد الأزهر على نفس هذه المسألة سنة ١٩٣٢م. وقبلها بنحو أربعين سنة.. ثم هذه المرة وقبلها بنحو ثلاث سنوات.

أظن أن الأزهر قد أدى رسالته، وعلى الناس أن تستجيب لندائاته.

القرآن الكريم يخاطب العقل

ووردت من الدكتور/ أحمد شوقى عرفة هذه الكلمة التى يقول فيها:

جاء القرآن الكريم بأفكار ومبادىء جديدة لم يعهدها مشركو مكة والجزيرة العربية. هذه الأفكار تصادم ما عهدوه وألفوه وما وجدوا آباءهم عليه وهم عاكفون على أصنام وتماثيل يعبدونها ويقدمون لها الذبائح والقرابين قبل أن يقدموا على عمل أو سفر طالبين منها العون والمشورة.

وحتى يمكنهم الاقتناع بمبادىء القرآن الكريم واتباعها كان من الضرورى أن يقدم لهم الدليل وأن يحاول إقناعهم بالحجة البالغة والبراهين الدامغة.

يحدثنا القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم حينما حطم الأصنام التى يعبدها قومه أنه ترك أكبرها، فلما سألوه: «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» أجابهم بالجواب المقنع وبالدليل الناصع الذى لا يحتاج إلى مناقشة أخرى قال:

﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾(١).

لقد بين إبراهيم أن هذه الأصنام التى ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها لا تسمع ولا تنطق ولا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً، وبالتالى لا تقدم لهؤلاء المشركين أى نفع، ولا تستطيع أن تمنع عنهم أى ضرر، يذكر القرآن الكريم:

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٢).

إلا أنهم نكسوا لحبهم الإفك والمكابرة والطغيان

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾(٣).

وبالرغم من البراهين التى ساقها سيدنا إبراهيم من أن هذه الأصنام لا تنطق فكيف يعبدونها وهى لا تنفعهم شيئاً ولا تضرهم، فتنادوا مطالبين بحرقه.

يذكر القرآن الكريم فى مواضع كثيرة أن الله – سبحانه وتعالى– هو خالق هذا الكون بما فيه من سماوات وبها الكواكب والأجرام السماوية كما أنه خالق الأرض وما فيها من دواب ونبات وجماد وبحار وأنهار وهو الذى خلق الإنسان، فيكابر المشركون وينسبون إلى آلهتهم الخلق وينفون عن الله هذه الصفة. فيرد القرآن بأدلة ناصعة:

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾(٤).

وفى آية أخرى:

---

(١) الأنبياء (٦٣).
(٢) الأنبياء (٦٤).
(٣) الأنبياء (٦٥).
(٤) الرعد (١٦).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾(٥).

أخبرونى عن آلهتكم -الأوثان والأصنام- الذين عبدتموهم من دون الله وأشركتموهم معه فى العبادة، بأى شىء استحقوا العبادة، أرونى ماذا خلقوا فى هذه الدنيا من المخلوقات، أم أنهم شاركوا الله فى خلق السماوات فاستحقوا بذلك الشركة مع الله فى الألوهية!.

يقول - سبحانه وتعالى -:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾(٦)

أى: خلقوا من غير رب ولا خالق أم هم الخالقون لأنفسهم حتى أنكروا وجود الله -جل وعلا- أم أنهم خلقوا السماوات والأرض؟.. هل وُجدوا بدون خالق؟. فهذا لا يجوز لأن تعلق الخلق بالخالق ضرورى، فإن أنكروا وجود الخالق لم يجز أن يوجدوا، أم هم الخالقون لأنفسهم؟. وهذا أشد بطلانا، لأن ما لا وجود له لا يمكن أن يخلق، فإذا بطلت الحجتان فقد قامت عليهم الحجة، فيجب أن يوقنوا بأن لهم خالقاً فليؤمنوا به وليعبدوه.

عـلاج مشـكلاتنا الحياتيـة

أرسل القارىء/ محمد عباس محمد عرابى هذه الكلمة التى يقول فيها:

فى ظل الظروف التى نعيشها، نحن فى أشد الحاجة إلى علاج مشكلاتنا الحياتية الناجمة عن الأفكار التى تغزونا عبر الشبكات المختلفة الفضائية والتليفزيونية والإنترنت، وبخاصة أن كثيراً من المواطنين منبهرون بما تبثه فكراً وسلوكاً وتطبيقاً ويتخذونها قدوة لهم فى حياتهم اليومية، الأمر الذى يجعلهم دائماً فى حالة من القلق والتوتر الشديد نتيجة لعدم وضوح المنهج الواجب الاتباع.

ولعلاج هذه المشكلات معالجة فعالة لابد من فحص الأفكار التى تغزونا ووضعها على ميزان الشريعة الغراء، لكى نتعرف على صحيحها من فاسدها، ولنعلم تمام العلم أن من أهم وسائل العلاج اتباع المنهج الإسلامى الصحيح فهو يواكب الفكر السليم والعقول المستقيمة فلا ينحرف يميناً فى تطرف ولا يساراً فى خضوع ومذلة وخذلان، وإنما هو وسط عدل وخير فاضل صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان.

(٥) فاطر (٤٠).

(٦) الطور (٣٥).

أنباء مكتب شيخ الأزهر

لفضيلة الشيخ/ عمر البسطويسى

استقبالات فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور/ محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف بمكتبه بمشيخة الأزهر الشريف بحديقة الخالدين بالدراسة ٢٠/٥/٢٠٠١ السيد/ سامى قرنفل سفير لبنان بالقاهرة رحب فضيلته بالضيف فى مصر وأزهرها الشريف مؤكدا على أن العلاقة بين مصر ولبنان علاقة قوية ووثيقة، والروابط العلمية قائمة والتعاون بين البلدين مثمر وقديم، وقال: إن الإخوة اللبنانيين جاءوا إلى مصر وأنشأوا الصحف والجرائد والمجلات، وأن مفتى لبنان تخرج فى الأزهر الشريف، وكان للأزهر بعثة من علماء الأزهر ظلت موجودة بلبنان ما يقرب من خمسين عاماً ومهمة الأزهر الشريف التعاون فى نشر العلوم الدينية والعربية والإسلامية.

والأزهر دائما يقدم العون والمساعدة لتعليم الشعب اللبنانى ولا يدخر وسعا فى تلبية احتياجات لبنان دينيا وعلميا وثقافيا وهذه هى رسالة الأزهر، ونحن نقف إلى جانب الشعب اللبنانى والفلسطينى ونؤيده فى نضاله المشروع لاسترداد حقه المسلوب وأرضه المغتصبة من المغتصبين اليهود، وندعو الله أن ينصر الشعب الفلسطينى فى نضاله وحصوله على حقه كاملا غير منقوص لأننا جميعا فى قارب واحد، والخير يعم علينا جميعا وكذلك الألم يصيبنا جميعا، وأكد فضيلته على أن البقاء دائما يكون للأصلح فالأيام دول ويوم لنا ويوم علينا ولا يجب أن نتألم مما يحدث فإن كان يقتل منا فإنهم يقتل منهم وهم أكثر خوفا.

شكر الضيف فضيلته على حسن الحفاوة واللقاء، وقدم دعوة لفضيلته لحضور المؤتمر الإسلامى الذى سيعقد فى لبنان، وأشاد الضيف بدور الأزهر الشريف وشيخه فى نشر التعليم الإسلامى الصحيح بسهولته ويسره، كما أشاد بالدروس التى يلقيها فضيلة شيخ الأزهر من خلال وسائل الإعلام والتى لها الدور البالغ لدى الشعب اللبنانى فى الحصول على المعلومات القيمة، وأشار إلى أن كثيرا من كتب

علماء الأزهر الشريف موجودة فى مكتبات لبنان والأزهر الشريف ترك أثرا طيبا فى نفوس الشعب اللبنانى.

كما أشاد الضيف الكبير بالمواقف الإيجابية والجهود المكثفة التى يبذلها السيد الرئيس محمد حسنى مبارك للم شمل الأمة ولدى دول العالم المختلفة لوقف الاعتداء على الشعب الفلسطينى الأعزل وعودة الهدوء والسلام للمنطقة العربية وهو أمر يشكر عليه السيد الرئيس.

حضر اللقاء فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف وفضيلة الشيخ سيد وفا أبو عجور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية.

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بمكتبه ٢٣ / ٥ / ٢٠٠١ السيد / صلاح الدين الجمالى سفير الجمهورية التونسية بالقاهرة.

رحب فضيلته بالضيف فى مصر وأزهرها الشريف بمناسبة توليه منصبه كسفير جديد لبلاده فى القاهرة مشيدا بعمق الروابط بين البلدين، وأنه تربطهما روابط أخوة ومحبة على مر التاريخ، وتطرق الحديث حول زيارة فضيلته لتونس والمحبة والترحاب الذى قوبل به فضيلته من كل المستويات، وأشاد فضيلته بالسماحة والمحبة والخلق الطيب الذى يتمتع به الشعب التونسى الشقيق، وتمنى لجمهورية تونس دوام الرقى والسلام والأمان والرخاء، وأعرب فضيلته عن أن الأزهر الشريف دائماً فى خدمة أبناء تونس فقدم لهم العون والمساعدة لأن تعاليم الدين الإسلامى تحثنا على ذلك، ليفهم الجميع أمور الدين فهما صحيحا بعيدا عن التطرف والمغالاة، لأن الدين الإسلامى هو دين السماحة واليسر ودين الأمن والأمان والرخاء والتعاون، وهو دين ينشر الخير والفضائل ويحث على مكارم الأخلاق وينبذ العنف والتطرف والإرهاب، ثم شرح فضيلته للضيف نظام التعليم فى الأزهر الشريف من الحضانة وحتى الجامعة مؤكداً على أن حفظ القرآن الكريم أمر أساسى وهام فى كل مراحل التعليم الأزهرى وهو على رأس العلوم إلى جانب دراسة العلوم الشرعية والعربية والثقافية.

ودعا فضيلته للسيد السفير بالتوفيق فى عمله كسفير لبلاده وتمنى له إقامة طيبة فى مصر.

شكر الضيف فضيلة الإمام الأكبر على حسن اللقاء والحفاوة وعلى المعلومات القيمة التى سمعها من فضيلته وعلى مواقفه الإيجابية فى معظم القضايا الإسلامية المطروحة والتى تتسم بروح الدين وسماحته وقال إن حفظ القرآن هو نعمة عظيمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو حفظ وعصمة للإنسان من الوقوع فى الأخطاء والمحظورات، وقال إن علماء تونس تعلموا من علماء الأزهر الشريف لأنه منارة للمسلمين جميعاً كما قدم الشكر لفضيلة الإمام الأكبر على زيارته لتونس حيث إن وسائل الإعلام التونسية تناولت تلك الزيارة لفترات طويلة، وتمنى أن تتكرر.

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بمكتبه ٢٩ / ٥ / ٢٠٠١ معالى وزير العدل والأوقاف الكويتى الشيخ أحمد يعقوب الباقر والوفد المرافق له.

رحب فضيلته بالسادة الضيوف فى الأزهر الشريف معرباً بأنها فرصة طيبة أن تأتى هذه الزيارات فى إطار انعقاد المؤتمر العام الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، كما أعرب عن سعادته لهذا اللقاء الخالص لوجه الله ـ تعالى ـ

والمحبة الصادقة داعياً المولى - عز وجل - أن يعيد مثل هذه الأيام وهو احتفال المسلمين بذكرى المولد النبوى الشريف وتكون الأرض الفلسطينية والقدس الشريف قد تحررا من براثن العدو الصهيونى وعادت الأرض لأصحابها وعاد المسجد الأقصى الشريف للسيادة العربية، وقال فضيلته: أن الصراع مهما طال سينتهى وسينتصر أهل الحق، وعليهم أن يثبتوا ولا ييأسوا ويخلصوا العبادة لله الواحد القهار فالثبات على الحق والإصرار عليه وعدم التهاون فيه، دون العدوان على الآخرين سيكون مرجعه فى النهاية عودة الحق لأصحابه، وعلى المسلمين إلى جانب إخلاص العبادة لله، أن يجتمعوا على كلمة سواء، وأن يبتعدوا عن الضغائن التى من شأنها إضعاف قوة المسلمين وتفرق الجماعة، وقال: نحن كعلماء نحمل مسئولية التصدى للدعوة وجمع الشمل واتحاد الرأى بعيداً عن الاختلاف والفرقة، فنكون يدا واحدة.

ونحن دائماً مستعدون للتصدى والرد على الادعاءات بالاقناع وبالحجة فى المؤتمرات الدولية.

شكر الضيف ومرافقوه فضيلته على حسن الاستقبال والحفاوة مشيدين بدور الأزهر الشريف وعلمائه فى التصدى لما يقال وما ينشر عن الإسلام وخاصة فيما تتبناه بعض الدول الأوروبية من قضايا حقوق الإنسان تحت شعارات ليست حقيقية ويقحمون الدين فى أمور مخالفة للشرع والدين، فعلينا أن نتصدى لكل هذه الانحرافات وذلك بالتمسك بكتاب الله - عز وجل - وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعلن السيد وزير العدل والأوقاف الكويتى بأن علينا، إقرار قاعدة أساسية وهى أن مايوافق حقوق الإنسان وتقره الشريعة الإسلامية نوافق عليه، وما لا يتفق والشريعة الإسلامية لا نوافق عليه.

وأوضح فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر بأن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر يتعرض للرد على تلك الافتراءات من خلال لقاءاته وحواراته سواء فى وسائل الإعلام المختلفة أو فى المحاضرات واللقاءات والندوات والمؤتمرات التى يحضرها فضيلته.

قدم الضيف الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر. وفضيلة وكيل الأزهر لزيارة دولة الكويت فى القريب العاجل، وقد وعده فضيلته بدراسة الدعوة تمهيداً لتلبيتها، ودعا فضيلته بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف أن يجمع البلدين على التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأن يوحد قلوبنا جميعاً ويرزقنا نعمة الأمن والرخاء والاطمئنان والأمان وأن يجعل كلمة أهل الحق هى العليا وكلمة الأعداء هى السفلى.

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بمكتبه ٣١/٥/٢٠٠١ سعادة السفير/ تراون مان سترون سفير النمسا بالقاهرة والدكتور/ حسن إسماعيل موسى رئيس الأكاديمية الإسلامية بالنمسا، والدكتور/ أنس بن حسن الشقفة بالهيئة الإسلامية بالنمسا، وتأتى تلك الزيارة فى إطار انعقاد المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية حيث حضروا هذا المؤتمر.

رحب فضيلته بالسادة الضيوف فى مصر وأزهرها الشريف مشيداً بعمق التعاون الوثيق بين مصر والنمسا، ولوقوفها إلى جانب نصرة الحق وللنمسا باع طويل فى ذلك.

شكر الضيف فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر على حسن اللقاء مشيداً بكلمة فضيلته فى المؤتمر التى كان لها صدى طيب فى نفوس الحضور، كما أبلغ تحيات سفير القاهرة فى النمسا لفضيلة الإمام الأكبر وتحيات الجالية الإسلامية هناك، كما أشاد بالدور الفعال لبعثة الأزهر فى النمسا فى الفترة من ٢٠-٢٧/٥/٢٠٠١ برياسة فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف والوفد المرافق لحضورهم ندوة الإرهاب وحقوق الإنسان من منظور إسلامى، بمقر الأكاديمية الإسلامية بفيينا، وقد طلب السيد السفير إنشاء معهد أزهرى بالنمسا بناء على طلب الجالية الإسلامية هناك ويكون تحت إشراف الأزهر الشريف بمناهجه وكتبه، ومدرسيه، رحب فضيلته بالفكرة على ٣أن يتم اتخاذ الإجراءات اللازمة وتحديد الخطوات والترتيبات اللازمة لذلك وذلك لنشر التعليم الإسلامى بالنمسا ومساعدة أبناء الجالية الإسلامية هناك.

كما أبدى السيد السفير رغبته فى زيارة فضيلة الإمام الأكبر لدولة النمسا وسيقوم بإرسال الدعوة رسمياً عقب عودته حضر اللقاء فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف.

● استقبل فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بمكتبه فى ٣٠/٥/٢٠٠١ فضيلة الشيخ درويش على مفتى جمهورية قازاخستان.. والسيد السفير/ عسكر موسينوف سفير قازاخستان بالقاهرة والأستاذ/ شمس الدين كريم مدير الجامعة الإسلامية. والوفد المرافق لهم وذلك فى إطار حضورهم المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشؤن الاسلامية رحب فضيلتة بالسادة الضيوف مشيدا بالنهضة الدينية التى تنتهجها دولة قازاخستان ومؤكدا على أن الأزهر الشريف فى خدمة المسلمين فى كل مكان وهو يقدم العون والمساعدة العلمية والدينية والثقافية لبلدان العالم، وأوضح أنه يوجد طلبة من جمهورية قازاخستان يدرسون بالأزهر الشريف على منح دراسية، أشاد السادة الضيوف بدور الأزهر الشريف وبمكانته العالمية وريادته فى تعليم أبناء المسلمين شاكرين فضيلته على المنح التى يقدمها لأبنائهم للتعليم بالأزهر، وأبلغوا تحيات شعب وحكومة ورئيس الجمهورية إلى مصر رئيسا وحكومة وشعبا وللسيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس الجمهورية، لإنشاء جامعة نور مبارك بقازاخستان، وقدموا لفضيلة الإمام الأكبر الدعوة لزيارة دولة قازاخستان بمناسبة مرور عشر سنوات على استقلالها، وقال فضيلة المفتى إن تعداد السكان وصل إلى ١٥ مليون نسمة، ٧٠٪ منهم مسلمون، ووصل عدد المساجد إلى ألفى مسجد وطلبوا تزويد الجامعة الاسلامية بالكتب العلمية فى أفرع العلوم المختلفة لأن الأزهر الشريف هو المصدر الأساسى والمرجع الهام للمعرفة، وقد وعدهم فضيلته بدراسة طلباتهم تمهيداً لتلبيتها.

كما استقبل فضيلته سماحة الشيخ/ محمد رشيد قبانى مفتى جمهورية لبنان والسيد السفير/ سامى قرنفل سفير لبنان بالقاهرة وفضيلة الشيخ/ محمد على الجوزو مفتى جبل لبنان والوفد المرافق لهم، وتناول اللقاء بحث سبل عودة البعثة الأزهرية المصرية إلى لبنان وذلك لأهمية تواجد وحضور الأزهر الشريف الضرورى والحتمى لدى الشعب البنانى كما تطرق الحديث عما يحدث بجنوب لبنان والأراضى الفلسطينية، مؤكدين على دور مصر

الإيجابى والفعال والنهج الذى ينتهجه السيد الرئيس محمد حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية تجاه قضية العرب وقضايا العالم وكذلك موقف الأزهر الشريف وشيخه الجليل فى عقد المؤتمرات الخاصة بقضية القدس وفلسطين وما يتعرض له أطفال فلسطين فى التصدى بالحجارة أمام جحافل العدو الصهيونى المدجج بالأسلحة الحديثة ودعا فضيلته إلى أن تتعاون الدول تعاونا خالصا لوجه الله - تعالى - من أجل نصرة الحق ونشر الخير والحق والفضائل والدفاع عن المظلوم والوقوف فى وجه الظالم حتى يرتدع، والتعاون الذى من شأنه أن يقوى الأمم الضعيفة ويجعلها قوة قوية فى وجه الظلم والبغى والعدوان والطغيان.

● كما استقبل فضيلته سماحة الشيخ/ عبد الأمير قبلان نائب رئيس المجلس الإسلامى بلبنان والسيد السفير سامى قرنفل سفير لبنان بالقاهرة والوفد المرافق لهما، حيث تناول اللقاء التصدى للصورة الخاطئة التى تنشرها وسائل الإعلام المغرضة عن أهل الشيعة وذلك بهدف تمزيق الروابط الإسلامية بين المسلمين وبعضهم، وتفرقة الصف العربى الإسلامى، وأكد الضيف على أن الشيعة يعتبرون الأزهر الشريف نقطة انطلاق للتفاهم والاحترام، والأزهر هو ممثل الأمة الإسلامية للتصدى لتلك الإدعاءات المغرضة.. وطلب من الأزهر الشريف زيادة فاعلية هذا التعاون للتعامل مع توضيح الرؤية للمسلمين.

وأوضح فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أن المسلم هو من نطق بالشهادتين والتزم بأداء الفرائض التى أمر الله - تعالى - بها فى كتابه، وأن الاختلاف فى المسائل الفرعية أمور اجتهادية، أما الأسس والأركان فهى ثابته ولاخلاف عليها: وقدم الضيف الدعوة لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف لزيارة لبنان.

● كما استقبل فضيلة معالى السيد/ قاسم أحمد الأعجم وزير الاوقاف اليمنى والسيد/ عبد السلام قاسم العواض الوزير المفوض، والسيد على محمد الفران مدير الإدارة الدولية بوزارة الأوقاف اليمنية، ودار الحديث عن أهمية دور الازهر الشريف وعنايته البالغة فى البعثات التى يوفدها للمسلمين فى كل بقاع الارض لخدمة أبناء المسلمين، وطلب السيد الوزير المساعدة من الأزهر لإمداد معهد الإرشاد والتوجية الذى أنشىء فى اليمن عام ٩٤ بإرشادات وتوجيهات الأزهر ليؤدى نشاطه على الوجة الأكمل، كما طلب الاسترشاد بالكتب والمحفوظات التى بمكتبات الأزهر الشريف، وطلب أيضا علماء من الازهر الشريف لمراجعة الكتب والمحفوظات التى بمكتبات الوزارة باليمن حتى لا تتعرض للتحريف ولحفظها من أيدى المتطرفين والعابثين، وقد وعد فضيلته بدراسة الطلبات تمهيدا لتلبيتها.

● كما استقبل فضيلته سماحة الشيخ/ سيد عبد المجيد الخوئى الأمين العام لمؤسسة الإمام الخوئى الخيرية بلندن ودار الحديث حول إمكانية إقامة مؤتمر إسلامى بالندن تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، حضر هذه اللقاءات فضيلة الشيخ محمود عاشور.

● التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بمكتبه فى ٢٦/ ٥/ ٢٠٠١ ووفد السياحة الأمريكى المكون من ١٩ فردا من طلبة وخريجى الجامعات الأمريكية برياسة السيد/ جيمس جود المشرف على الوفد.

رحب فضيلته بالوفد فى مصر وأزهرها الشريف شارحا لهم مبادىء الدين الإسلامى فى الصلاة والصوم

والزكاة وشرح لهم نظام التعليم فى الأزهر فى مراحله المختلفة من الحضانة وحتى المرحلة الجامعية والدراسات العليا والمميزات التى يمتاز بها طالب الأزهر حيث يحفظ القرآن الكريم كاملا حتى المرحلة الثانوية إلى جانب دراسة العلوم الدينية والعربية والثقافية التى تؤهله للدراسة فى الجامعة سواء الكليات النظرية القديمة مثل كلية أصول الدين والشريعة واللغة العربية أو الكليات العملية كالهندسة والطب والزراعة والعلوم وطب الأسنان والتربية الرياضية واللغات والترجمة الخ.

كما أوضح فضيلته بأن الأديان السماوية كلها تتفق فى أمرين هما إخلاص العبادة لله الواحد الفرد الصمد، والتحلى بمكارم الأخلاق وهما أمران لا يختلفان من جيل إلى جيل، فمنذ أن أوجد الله الدنيا والعقلاء يتفقون على الصدق والعدل فضيلة، والكذب والظلم رذيلة، ولا فرق بين أبيض وأسود فالناس جميعا من أب واحد وأم واحدة فهم إخوة فى الإنسانية سواء أكانوا فى أمريكا أو فى آسيا أو فى افريقيا أو فى أوروبا وكلهم ينتسبون إلى أب واحد هو آدم وأم واحدة هى حواء، وأن العبادات التى كلفنا الله - تعالى - بها كلف بها جميع الأمم السابقة، فالأديان السماوية كلها تدعو إلى مكارم الأخلاق وإلى احترام كرامة الانسان كما أن الإسلام يدعو إلى نشر الإخاء بين الناس جميعا ونشر الأمانة ونشر الفضائل وتبادل المنافع بين الناس سواء من يعيشون فى أوروبا أو أفريقيا أو آسيا أو استراليا أو أمريكا ولا يستغنى بعضهم عن بعض، ولابد أن يتعاونوا فيما بينهم تعاونا فيه الكرامة الإنسانية، فيه العدل وفيه الأمان والمودة والرحمة والتسامح والوقوف إلى جانب المظلوم حتى يأخذ حقه والوقوف فى وجه الظالم حتى يرتدع، كما شرح فضيلته للوفد موجزعن نشأة الأزهر الشريف وعن المعاهد الأزهرية وعدد الطلاب بها وأيضا عدد كليات جامعة الأزهر الشريف وأعداد طلابها وطالباتها، كذلك فإن الازهر يفد إليه طلاب من ٩٤ دولة من دول العالم يقيمون بمدينة البعوث الإسلامية بالقاهرة والإسكندرية طلاب وطالبات يدرسون على منح الأزهر الشريف، وهناك طلاب وطالبات يدرسون بالأزهر ولكنهم يقيمون على نفقتهم الخاصة خارج مدينة البعوث الإسلامية.

وقد أجاب فضيلته عن أسئلتهم واستفساراتهم حول تعليم الفتيات فى الأزهر والتخصصات المختلفة فى كليات جامعة الأزهر الشريف.

● استقبل فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف نيابة عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى ٢٠٠١/٦/٧ السيد / محمد ياسين والسيد يتروج مهر مدير مؤسسة سعد عبد الله نورى بجمهورية طاجكستان رحب فضيلته بالضيف الكريم فى مصر والأزهر الشريف شارحا لهم الدور الذى يقوم به الأزهر فى تعليم أبناء المسلمين حيث تمتاز الدراسة فى الأزهر الشريف بالوسطية والاعتدال والبعد عن المغالاة والتعصب والتطرف ولا يتحيز لمذهب بعينه وإنما تدرس فى الأزهر كل المذاهب، وقال إن فى الأزهر أبناء من طاجكستان يتعلمون على منح الأزهر وهذا هو دور الأزهر الشريف لأنه بيت المسلمين جميعا.

شكر الضيفان فضيلته على حسن اللقاء وطلبا إنشاء معهد أزهرى فى طاجكستان لتعليم أبناء المسلمين هناك كما طلبا إمدادهم بالكتب والمناهج الدراسية والكتب العلمية والثقافية، كما طلبا اشتراك علماء طاجكستان فى الدورة التدريبية التى يعقدها الأزهر كل ثلاثة شهور، كما طلبا زيادة المنح الدراسية.

وقد وعد فضيلته بدراسة طلباتهم تمهيدا لتلبيتها.

من أخبار العالم الإسلامى

إعداد / محمد الشرقاوى

اكتشاف مقابر جماعية جديدة لشـــهداء البوســـنة

مازال مسلمو البوسنة يتألمون ويعانون فآثار العدوان الصربى الإجرامى لم تختف بعد وأصبح من المعتاد أن يتم اكتشاف مقابر جماعية تضم رفات شهداء من ضحايا مجرمى الحرب من الصرب ففى بلدة « فلاسنتشا » بضواحى مدينة توزلا البوسنية شيعت جنازة جماعية لرفات « ٧٨ » مسلما قتلوا خلال المذابح التى ارتكبها الصرب عام ١٩٩٢ .

الأخبار ٤ / ٥ / ٢٠٠١

تدريس الإسلام فى مدارس ألمانيا

فى إطار برنامج سياسى اجتماعى يهدف إلى إدماج الأجانب فى المجتمع الألمانى بدأت الحكومة الألمانية مشروعا جديدا لتدريس مادة التربية الإسلامية فى المدارس الحكومية وقد تم توجيه الدعوة لعدة جهات مثل وزارة التربية التركية لتقديم محتويات هذه المادة غير أنه تم استبعاد المجلس الأعلى للمسلمين فى ألمانيا من هذه المهمة الأمر الذى جعله يقوم بجمع توقيعات من الجالية الإسلامية حتى يفرض مشاركته فى تحديد محتويات المنهج الدراسى .

مما يذكر أن عدد المسلمين فى ألمانيا حوالى ثلاثة ملايين مسلم ويصل عدد أبنائهم فى المدارس الألمانية إلى « ٣٥٠ » ألف تلميذ أى حوالى « ٦٪ » من إجمالى التلاميذ فى المدارس الألمانية .

الأخبار ٢٨ / ٥ / ٢٠٠١

اتفاق أمريكى روسى على فرض عقوبات علـــى أفغانســـتان

اتفقت الولايات المتحدة وروسيا على خطورة الوضع داخل أفغانستان وضرورة العمل المشترك لتنفيذ العقوبات التى تفرضها الأمم المتحدة على شعب أفغانستان المسلم .

الأهرام ٢٥ / ٥ / ٢٠٠١

انعقاد الدورة الثالثة والخمسين لدعاة ووعاظ العالم الإسلامى

عقد فى القاهرة يوم الأربعاء ٢٢ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ١٤ من يونيو ٢٠٠١م المؤتمر الثالث والخمسون لدعاة ووعاظ العالم الإسلامى والذى نظمه الأزهر الشريف بالتعاون مع مركز الاقتصاد الإسلامى بجامعة الأزهر تحت رعاية فضيلة الإمام الأكبر الدكتور

محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر وحضره دعاة ووعاظ العديد من الدول الإسلامية والعربية.

من الجدير بالذكر أن المركز يقدم محاضرات للدعاة حول القضايا الاقتصادية المعاصرة من منظور إسلامى مثل العولمة والخصخصة والبنوك وشركات التأمين والتجارة الإليكترونية وبطاقات الائتمان والبورصة كما يتم تدريبهم على الكمبيوتر والإنترنت وكيفية استخدامها فى الدعوة والرد على الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام.

الأهرام ١٤ / ٦ / ٢٠٠١

مسلمو أمريكا يعترضون

عقدت مجموعة من المسئولين المسلمين الأمريكيين مؤتمرا صحفيا فى واشنطن تنتقد فيه وزارة الخارجية الأمريكية بسبب الدعم الذى تقدمه للسياسة الإسرائيلية التى وصفوها بالفصل العنصرى تجاه الفلسطينيين وأوضحت المجموعة التى تمثل ست منظمات إسلامية، أنها تعارض الدعم المتواصل - وبدون أى تحفظ - الذى تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية للسياسة الجائرة واللا أخلاقية واللاشرعية التى تنتهجها إسرائيل ضد الفلسطينيين والمسلمين.

الأهرام ١٥ / ٦ / ٢٠٠١

«المعجم الفقهى» أول موسوعة إسلامية من نوعها

صدرت فى مدينة «قم» الإيرانية أول موسوعة إسلامية من نوعها فى العالم الإسلامى عن مركز «المعجم الفقهى» الإيرانى وقال مسئول المركز إن الموسوعة التى تشتمل على ثلاثة آلاف مجلد من أمهات الكتب الفقهية فى المذاهب الدينية الرئيسية وضعت تحت تصرف الجامعات ومراكز الأبحاث والدارسين وأنها متاحة لمن شاء على أكثر من ألف موقع إسلامى فى شبكة المعلومات الدولية وأوضح أن الموسوعة خرجت شاملة ومبسطة جدا بحيث تتيح للطالب الوصول إلى أية معلومة بمجرد اختيار واحد من عشرات المفاتيح وأضاف أنه إذا كان الطالب يعد بحثا عن نظام المواريث مثلا فيمكنه أن يحصل على كل ما كتب فى هذا المجال لدى جميع المذاهب الإسلامية عندما يطبع كلمة «مواريث» فترتسم أمامه عشرات المراجع التى تناولت الموضوع.

الأهرام ١٥ / ٦ / ٢٠٠١

مصير مجهول ينتظر المسلمين فى مقدونيا

محنة المسلمين فى مقدونيا تتزايد، فموجات الهروب من جحيم نيران القوات المقدونية لم تنته ومعظم الهاربين من النساء والأطفال والعجائز الذين استخدموا جرارات وشاحنات بضائع النقل للفرار إلى داخل إقليم كوسوفو وقد اتخذ جنود مقدونيا موقفا أكثر تعسفا زاد من معاناة المسلمين وهو انهم منعوا الرجال من العبور إلى داخل كوسوفو بحجة أنهم يساندون الثوار المسلمين - أو لاستخدام هؤلاء الرجال فى خدمة جيش مقدونيا.

الأخبار ١٥ / ٦ / ٢٠٠١

قناة تليفزيونية إسلامية على الانترنت

بدأ مركز «اكتشف الإسلام» بالبحرين بثاً تليفزيونياً على شبكة الإنترنت تمهيداً لإطلاق قناة تليفزيونية عالمية باللغة الإنجليزية موجهة لغير المسلمين فى مختلف أنحاء العالم ويستفيد منها المسلمون وتهدف برامج هذه القناة إلى تعريف غير المسلمين بدين الإسلام.

الأهرام ١٥ / ٦ / ٢٠٠١

الفهــرس

● العدل ظاهرة كونية قبل أن يكون فضيلة خلقية (الافتتاحية)
للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى ٥٦٢
● تفسير سورة البقرة
لفضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى ٥٦٧
● قضايا قرآنية: قضية الوقف على رؤوس الآيات
لفضيلة الشيخ/ صديق بكر عيطة ٥٧٣
● الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان
للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم ٥٨١
● الدعوة كما ينبغى أن نبلغها
لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى ٥٨٨
● اختلاف فقهاء الشريعة حول التأمين
للمستشار الدكتور/ محمد شوقى الفنجرى ٥٩٥
● محمد ﷺ فى كتابات المستشرقين
للأستاذ الدكتور عبدالعظيم المطعنى ٦٠١
● بلبل الفردوس .. بلال بن رباح (قصيدة)
بقلم/ أبوحسام ٦٠٨
● العربى بين الأصالة والمعاصرة
للأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الفيومى ٦١١
● مواقف إسلامية: من دروس التربية العملية
للأستاذ الدكتور/ محمود محمد عمارة ٦١٦
● قصة العدد: الحق المر
بقلم/ عابر سبيل ٦٢٦
● ما يقال عن الإسلام: نقد علمى لمقال دينى
للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى ٦٣١
● (عرض كتاب) سيرة النبى محمد ﷺ
للأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين ٦٣٩
● من عيون التراث: الأضداد
تحقيق الأستاذ/ محمد أبوالفضل إبراهيم ٦٥٢
● صرعى الأغراض (قصيدة)
للشاعر/ أحمد الزين ٦٥٧
● طرائف ومواقف
إعداد الأستاذ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم ٦٦٠
● من مختارات مجلة الأزهر:
العلم والدين للأستاذ/ محمد أحمد الغمراوى ٦٦٢
● ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية
للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا ٦٧٢
● الشيخ محمد الخضر حسين
للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة ٦٧٧
● العقاد الشاعر بين منهجين فى النقد
للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب ٦٨٥
● فقيد الأزهر: الأستاذ الدكتور/ ابراهيم الدسوقى خميس
للدكتور/ رضا عبدالمجيد المتولى ٦٩٠
● القعقاع بن عمرو التميمى (٢)
للأستاذ أحمد السيد تقى الدين ٦٩٤
● الجيتو والكيبوتس فى الوجدان اليهودى
للدكتور/ محمد حسن عبدالخالق ٦٩٨
● من صفحات الخير
للأستاذ/ مجدى عبدالحميد بشير ٧٠٣
● رسالة و رد
لفضيلة الشيخ/ عبدالفتاح جمعان ٧٠٧
● استفتاءات القراء
تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ٧١١
● خطبة الجمعة: من ملامح الشخصية المسلمة
لفضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد الشرباصى ٧١٤
● فقه العبادات فى ضوء غاياته
للشيخ/ أبومحمد الأقصرى ٧١٧
● بين الصحف والمجلات
للأستاذ محمد الفشنى ٧٢٠
● بين المجلة والقارئ
للأستاذ/ عادل خفاجة ٧٢٤
● أنباء مكتب الإمام الأكبر
إعداد الشيخ/ عمر البسطويسى ٧٢٨
● من أخبار العالم الإسلامى
إعداد الأستاذ/ محمد الشرقاوى ٧٣٤

مجمع البحوث الإسلامية

الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

وصدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩هـ

يصدرها

مجمع البحوث الإسلامية

فى مطلع كل شهر عربى

رئيس التحرير

أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير

الطاهر محمد الطاهر الحامدى

سكرتير التحرير

عادل رفاعى خفاجة

المراسلات باسم

مدير التحرير / مجمع البحوث الإسلامية / م. نصر

ت: ٢٦٣٨٥٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

- تفسير سورة البقرة

  لفضيلة الإمام الأكبر
- لغو عن ميراث المرأة

  للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى
- التثبت من رواية الحديث

  للدكتور / أحمد محمود أحمد شيمى
- الدعوة كما ينبغى أن نبلغها

  للشيخ / الطاهر الحامدى
- حول الأصالة والمعاصرة

  للأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم الفيومى

الاشتراك السنوى

- داخل مصر .... ١٨ جنيها مصريًا
- الدول العربية .... ٥٠ دولارًا أمريكيًا
- أوربا وأمريكا .... ٨٥ دولارًا أمريكيًا
- اليابان وشرق آسيا .... ١٢٠ دولارًا أمريكيًا

عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

☎ ..٥٧٨٦١ - ٨٥٧٦٢٠٠

جمادى الأولى ١٤٢٢هـ - اغسطس ٢٠٠١م - الجزء الخامس - السنة الرابعة والسبعون

افتتاحية العدد

لغو عن ميراث المرأة

«اضطر إلى تفصيل ما أوجزته من قبل فى حديث عن ميراث المرأة ردًا على من يجادل فى التشريع بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير»

من أعجب ما يلاحظه الدارس المتأمل فى صحف اليوم، أن كثيراً من القضايا الاجتماعية التى يتصدى لمعالجتها بعض الكتاب قد فرغ من أمرها بعد أن ظلت قرابة قرن كامل موضعاً لنقاش وضح فيه وجه الرأى الصريح وكان الأجدر بمن يدعون لأنفسهم حرية النظر، وجدة البحث أن يتركوا المكرر المعاد إلى غيره، لأن الجديد يجعل المناقشة ذات مستوى فكرى مشرف، كما أن لصاحبه فضلاً فى سعة أفقه وطرافة منحاه! ولئن شط بعض الشطط فيما يذهب إليه فإن من ورائه من يقوم بتقويم الاعوجاج إذ لا يخلو عصر ما من صادع بكلمة الحق وجاهر بمنطق العدل، مهما كثر المرجفون.

وقد كنا نظن أن الحديث عن ميراث المرأة، والذهاب إلى مساواتها بالرجل، قد فات زمنه بعد أن خاض فيه المغرضون، ووجدوا من يظهر كلمة الله ساطعة تقذف بالحق على الباطل، ولكن بعض الكتاب يلجأ إلى صحيفة شهيرة ليقرن فيها منحى الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى والفرنسى، ثم يذهب إلى أن ضرورة الحياة تحتم الأخذ بالقانون الوضعى، وينقل نصوصاً عن رجال هذين القانونين، وكأن ما ينقله عن هؤلاء كفيل أن يطمس شريعة الله، وأغرب ما فى منحاه أن يعتقد أنه فاجأ الناس بالجديد حين ذكر نصوص القانونين الرومانى والفرنسى! وما يوم حليمة بسر.

ولن أحاول الرد على الكاتب بتلخيص ما هو مشتهر فى هذه القضية ولكن اكتفى بنقل رد موجز لعالم فاضل هو أستاذنا المغفور له الشيخ عبد المتعال الصعيدى، إذ أفرد كتاباً جليلاً تحت عنوان (الميراث فى الشريعة الإسلامية والشرائع الوضعية) قال فيه بصدد هذا الموضوع ما ملخصه: «وقد ذهب القانون الرومانى إلى التسوية بين الذكور والإناث فى الميراث، فغالى فى شأن الإناث كما غالت بعض الشرائع الأخرى حين حرمتهن حرماناً تاماً، أما الإسلام فقد توسط بين

هذه الشرائع فى إرث النساء فلم يذهب إلى حرمانهن منه مع الذكور كما فى الشريعة اليهودية، ولا إلى التسوية بينهن وبين الذكور كما فى القانون الرومانى والفرنسى، وقد نعلم جميعاً أن المرأة لا يطلب منها إلا أمر نفسها، وقد يكون أمرها مطلوباً من غيرها، أما الرجل فيطلب منه أمر نفسه وأمر نسائه وأولاده، لأنه يربيهم ويتعهدهم بما يطلبون، وكذلك يطلب منه أن يقوم بحقوق الأسرة - كأخ مثلاً - إذا فقدت رئيسها، كما إن ميل المورث دائماً مع أبنائه، إذ يرى أن مال البنات يذهب إلى زوج أجنبى، فإذا لم نميز الذكور عن الإناث فإن المورثين سيضطرون فى حياتهم إلى تخصيصهم بأكثر ما فى أيديهم، ويكون هذا مصدر تشاحن وبغضاء بين الورثة جميعاً، والرجوع إلى حكم الإسلام يدرأ السوء».

وشهد شاهد من أهلها

من أكثر من نصف قرن حاضر الأستاذ سلامة موسى فى بعض الأندية المصرية مطالباً مساواة المرأة بالرجل فى الميراث جرياً وراء القانون الفرنسى! ونشر محاضرته فى الصحف، ووجد من أبواقه من يعلقون على المحاضرة معجبين، وقد ظن أنه بهذا الدوى المتشنج سيكسب قلوب السيدات من جماعة النهضة النسائية فكتب إلى الزعيمة المصرية السيدة هدى هانم الشعراوى يستحثها على المناداة بالمساواة فى الميراث بين الجنسين، وظن أن زعيمة النهضة النسائية ستصفق لمذهبه وربما توهم أنها ستنادى به محرراً للمرأة فينزل مع قاسم أمين فى مستوى واحد، ولكن السيدة هدى هانم شعراوى قد خيبت أمله حين ردت عليه بما يلى نقلاً عن مذكراتها المنشورة بمجلة حواء فى تاريخ ٢٠ / ٩ / ١٩٨٠ م ببعض التصرف:

يهمنى أن أبلغ حضرة الأستاذ - تريد سلامة موسى - ومن حضروا خطبته أنى فى خدمتى لهذه النهضة أؤدى واجباً معهوداً إلىّ من جمعية الاتحاد النسائى التى شرفتنى برياستها، ولما كان نصيب المرأة فى الميراث ليس من المسائل الداخلة فى برنامجها فليس لى أن أتدخل فى هذا الموضوع وإن كان ولابد من إبداء الرأى فيه، فأقول إنى لست من الموافقين على رأى الأستاذ فيما يتعلق بتعديل نصيب المرأة، ولا أظن أن النهضة النسوية فى هذه البلاد يجب أن تتأثر بالنهضة الأوروبية لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده وليس ما يصلح فى بلد مما يصلح فى البلد الآخر، على أننا لم نلحظ تذمراً من المرأة وشكوى لعدم مساواتها للرجل فى الميراث، لأن اقتناعها بما قسم لها من نصيب ناشئ من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالإنفاق عليها، وعلى أولادهما، كما منحتها حق استقلال التصرف فى أموالها، أما

القول بأن عدم المساواة فى الميراث من دواعى إحجام بعض الشبان عن الزواج فى الشرق، فغير وجيه، لأننا نشاهد فى أوروبا انتشار هذا الداء فى عصرنا الحالى انتشاراً أشد خطورة منه فى الشرق بالرغم من أن المرأة الأوروبية ترث بقدر ما يرث الرجل، فضلاً عن أنها ملزمة بدفع المهر ومكلفة بالتخلى عن إدارة أموالها لزوجها.

ولو سلمنا بنظرية الأستاذ سلامة موسى وجاريناه فى طلب تشريع جديد فهل لا يخشى أن يؤدى ذلك إلى إسقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده بالاشتراك فى الصرف وفى ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات اللاتى لم ينلن ميراثاً من ذويهن وهذه الطبقة تشمل أغلبية الزوجات، ولا يخفى ما هن عليه من جهل وأمية.

ثم وازنت السيدة هدى هانم شعراوى بين المرأة المسلمة والمرأة الغربية فقالت: نرى الغربية أكثر حظاً منا لأنها تظهر حائزة لقسط كبير من الحرية المدنية بيد أنها أقل حظاً من أختها الشرقية فى الحرية الاقتصادية، فبينما نرى الشرقية غير المتساوية فى الميراث، تتمتع بكافة أنواع الاستقلال فى إدارة أعمالها وأموالها تجد الغربية المساوية لأخيها فى الميراث محرومة من هذه النعم، إذ لا يمكنها أن تنفق أى مبلغ من مالها، ولا أن تتعاقد مع الغير، ولا أن تحترف حرفة دون تصديق زوجها وموافقته لذلك نراها ثائرة فى جميع بلدان أوروبا، على تلك القيود التى تحول بينها وبين الحرية الحقيقة والاستقلال اللذين تتمتع بهما الشرقية منذ عصور طويلة.

دعوى كاذبة

وقد ادعى الأستاذ سلامة موسى فى محاضرته التى ألقاها بجمعية الشبان المسيحيين ونشرتها جريدة المقطم أن الأستاذ قاسم أمين كان ينوى المطالبة بمساوة المرأة للرجل فى الميراث، ولكنه أغفل ذلك حتى يمهد له مستطلعاً الرأى العام فى ذلك، وهى دعوى كاذبة لأن قاسم أمين لو اتجه هذه الوجهة ما وجد مانعاً يعوقه عن تسطيرها فى كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) وحين كتب مؤلفه تحرير المرأة الذى أحدث هذه العاصفة المدوية بالمجتمع الإسلامى لم يتمهل قليلاً قبل إصداره كتابه ليستطلع أفكار الرأى العام فلماذا حرص على ذلك فى مسألة المساواة بين المرأة والرجل فى الميراث بالذات!! ثم إن الأستاذ سلامة موسى لم يكن من تلاميذ قاسم أمين ومن مريديه حتى يعرف أنه كان يرمى الجهر بهذه الدعوى

الكاذبة! وقد أحسنت السيدة هدى هانم شعراوى حين دفعت هذه الفرية فقالت بصددها :

« ومن الرجم بالغيب أن يقال إن المرحوم قاسم أمين لما قام بنشر كتبه فى سبيل تحرير المرأة كان ينوى المطالبة بمساواة المرأة بالرجل، وأن الذى أخره عن إعلان هذا المطلب هو انتظار نضوج الرأى العام، لأن المطلع على كتب المرحوم قاسم أمين يقرأ من بين سطورها أنه كان يعنى فقط بجعل المرأة عضواً صالحاً فى الهيئة الاجتماعية بأن تعد الفتاة لتكون أهلاً للقيام بنصيبها من العمل فى خدمة عائلتها ووطنها » .

تعقيب الأمير عمر طوسون

كان الأمير عمر طوسون من كبار مفكرى عصره، وله اتجاهه الإسلامى الرصين، وكان يرقب أمثال هذه النزعات العاثرة فى يقظة وقد كتب خطاب تأييد للسيدة هدى هانم الشعراوى حين جهرت برأيها فى دعوى الأستاذ سلامة موسى، وقد جاء فى خطابه الحاسم قوله :

« قرأنا المقال الحكيم المنشور فى جريدة الأهرام تحت عنوان (نصيب المرأة فى الميراث) فسرنا أن تكون الحكمة رائد عصمتك فيما توخيته من نهضة المرأة المصرية والعمل على رقيها، من الاحتفاظ بالشرائع الإلهية، والصالح من عاداتنا وأخلاقنا ومميزاتنا القومية، كأمة لها كيان بقوماتها ومشخصاتها، فهذه هى طريق الإصلاح النافع، وسبيل النهضة الصحيحة، أما الدعوة إلى إطراح قوميتنا، والانفصال شيئاً فشيئاً عن أصول ديننا، تلك الدعوة التى يدعو لها الآن نفر منا رأوا الشقة بيننا وبين الغربيين بعيدة فأرادوا بحسن قصد وفيما نظن أن يعلوا بنا إليهم من طريق الطفرة، وحسبوا من استحكام حلقات التأخر وتغلغله فينا، أن ليس لنا نجاة إلا بتحطيم ما نحن عليه من خلق وعادات ودين، فتلك دعوة خطرة المغبة، وسيرون بأعينهم قريباً أنهم قد ضلوا الطريق وأصبحوا حيارى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » .

هذا وقد اتسع المجال حينئذ لنقدات قومية جهر بها أكابر العلماء من أمثال الأساتذة عبد ربه مفتاح، ويوسف الدجوى، ومحمود أبو العيون، وعلى سرور الزنكلونى، فأرضوا الله بما قالوا، رحمهم الله جميعاً إذ هتكوا حجاب الضلال فبدا شائه المنظر، بشع العاهات .

د . / محمد رجب البيومى

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

قال الله – تعالى – : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾
نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

الآيات من ٢٢٢ : ٢٢٣

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فى البيوت أى لا يسكنون معهن – فسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله – تعالى – :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ .

الآية، فقال رسول الله ﷺ أصنعوا كل شيء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما – أى غضب – فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبى ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما[1].

والمحيض: الحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضا ومحيضا فهى حائض، وأصله السيلان. يقال حاض الوادى إذا سال، ومنه الحوض لسيلان الماء إليه.

ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم فى أوقات مخصوصة على وجه مخصوص.

والأذى: الشيء الذى يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه.

والسؤال كان من بعض الصحابة، لأنه لقوة إيمانهم كانوا يحبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى شئونهم الخاصة والعامة، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة فى حال حيضها معاملة غير كريمة فسألوا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر الذى يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء فى حال الحيض، فأجابهم الله – تعالى – جوابا شافيا.

والمعنى: ويسألك أصحابك يا محمد عن حكم مباشرة النساء فى حال الحيض فقل لهم معلما وموجها: إن الحيض أى الدم الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذيا حسيا جسيما، فرائحته يتأذى منها من يشمها، وهو فى ذاته شيء متقذر تعافه النفوس، وتنفر منه الطباع.

وقوله:

﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾

بيان للحكم المتفرع على تلك الحالة التى يتأذى منها وهى حالة الحيض.

والاعتزال: التباعد، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة، كما أن النهى عن قربهن كناية عن النهى عن جماعهن، يقال: قرب الرجل امرأته إذا جامعها.

و﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ من الطهر – بضم الطاء – بمعنى النقاء من الوسخ والقذر

والمعنى: عليكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء فى زمن حيضهم، ولا تجامعوهن حتى يطهرن من ذلك، لأن غشيانهن فى هذه الحالة يؤذيكم بسبب عدم نقاء المحل الذى يكون فيه الغشيان للمرأة، والمرأة أيضا تتأذى من مباشرتها فى زمن الحيض لأنها لا تكون فى حالة تستسيغ معها المباشرة، فجهازها التناسلى فى حال اضطراب، وهيئتها العامة فى حالة تجعلها من شأنها أن تنفر من الجماع، والولد الذى يأتى عن طريق الجماع فى حالة الحيض ـ على فرض إتيانه – فى هذه الحالة ـ كثيراً ما يأتى مشوها ضعيفا،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحيض (١/١٦٩).

لأن النطفة إذا اختلطت بدم الحيض، أخذت البويضات في التخلق قبل وقت صلاحيتها للتخلق النافع الذى يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض وقد قال بذلك الأطباء الثقاة[٢]. وعرفه العرب القدامى بالتجربة، قال أبو كبير الهزلى :

ومبرأ من كل غُبَّرِ حيضة

وفساد مرضعة وداء معضل[٣]

وقد أجمع العلماء – كما بينا – على أن المراد بالاعتزال هو اجتناب المباشرة، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله من المرأة بعد ذلك.

فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة، وحجتهم أن الله أمر باعتزال النساء ولم يخصص من ذلك شيئا دون شيء.

وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى – أى مكان خروج الدم – لقول النبى ﷺ : « اصنعوا كل شيء إلا النكاح ».

وبعضهم يرى اعتزال مابين السرة إلى الركبة من المرأة وله ما سوى ذلك، لقول عائشة : كانت إحدانا إذا كانت حائضة أمرها النبى ﷺ أن تأتزر ثم يباشرها. وقوله :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ تأكيد لحكم الاعتزال وتقرير له، وتنبيه على أن المراد به عدم جماعهن لا عدم القرب منهن أو مخالطتهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب.

والدليل على ذلك ما جاء فى الصحيحين عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : « كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض ».

وروى البخارى عن عائشة – أيضا – قالت : كان رسول الله ﷺ يتكيء فى حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن[٤].

وروى مسلم عنها أيضا قالت : كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضع فىَّ فيشرب.

وقوله :

﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بيان لغاية الاعتزال وقرأ حمزة الكسائى ﴿ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ ﴾ بفتح الطاء والهاء مع التشديد.

ومعناه عند جمهور الفقهاء ولا تجامعوهن حتى يغتسلن، لأن القراءتين معناهما واحد، ولأن الله – تعالى – قد علق الإتيان على التطهر فقال :

﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ ﴾ والتطهر هو الاغتسال. فالمرأة إذا انقطع حيضها لايحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال.

ويرى الأحناف أن معنى ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ أى حتى ينقطع الدم، لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم فانقطاعه طهور منه، وبناء على ذلك فيجوز

---

(٢) راجع تفسير التحرير والتنوير (٢/٣٥٠) للشيخ محمد بن عاشور.

(٣) غبر الحيضة: جمع غبرة، وهى أخر الشئ، يريد أن يقول: إن أم هذا الممدوح لم تحمل به فى أخر مدة الحيض لذا جاء مستقيم الخلقة.

(٤) صحيح البخارى: كتاب الحيض جـ١، ص ٨٢.

للرجل أن يباشر زوجته قبل أن تغتسل متى انقطع دمها لأقصى مدة الحيض، وهو عشرة أيام. أخذا بالقراءة المشهورة ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ بالتخفيف. أما إذا انقطع الدم قبل ذلك فلا تحل مباشرتها إلا بالتأكد من زوال الدم بعمل من جانبها وهو الاغتسال الفعلى، لأن قراءة ﴿ يَطَّهَّرْنَ ﴾ بالتشديد عندهم معناها يغتسلن. وقال بعض الفقهاء يكفى فى حلها أن تتوضأ عند انقطاع الدم.

ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه.

وفى هاتين الجملتين الكريمتين:

﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾

من سمو التعبير، وبديع الكناية ما يغرس فى نفس السامع حسن الأدب، ويصون سمعه عن الألفاظ التى يجافى سماعها الأذواق السليمة، وما أحوج المسلمين إلى التأسى بهذا الأدب الذى يحفظ عليهم مروءتهم وكرامتهم.

ثم قال - تعالى -:

﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ ﴾

أى: فإذا تطهرن من المحيض فجامعوهن فى المكان الذى أمركم الله بتجنبه فى الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره.

والأمر فى قوله - تعالى -: ﴿ فَأْتُوهُنَّ ﴾ المراد به إباحة المباشرة، لأن من المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهى يكون للإباحة، خصوصا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام، وليس المراد به الحتم واللزوم، لأن الإتيان مبنى على الرغبة والطاقة وشبه بهذا التعبير قوله - تعالى -:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾(٥)

وقوله: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ ﴾(٦).

قال الجمل: ومن فى قوله: «من حيث» فيها قولان:

أحدهما: أنها لابتداء الغاية، أى من الجهة التى تنتهى إلى موضع الحيض.

والثانى: أن تكون بمعنى فى، أى المكان الذى نهيتم عنه فى الحيض ورجح بعضهم هذا بأنه ملائم لقوله:

﴿ فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ ﴾(٥).

وعلى كلا القولين فالمقصود أن يأتى الرجل زوجته فى المكان الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية، وهو القبل إذ هو مكان البذر والإنسال، ولا يخرج عن ذلك إلا الذين أصيبوا بشذوذ فى عقولهم، وضعف فى دينهم.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا.

والمتطهر: هو الإنسان المتنزه عن الفواحش والأقذار.

(٥) سورة الجمعة (١٠). (٦) سورة المائدة (٢). (٧) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١، صفحة ١٧٩.

أى: إن الله – تعالى – يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام، ويرضى عنهم فى الدنيا والآخرة.

قال الآلوسى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ مما عسى يبدر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان فى الحيض المستدعى لعقاب الله – تعالى – فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من أتى حائضا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وهو جار مجرى الترهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله، أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله ﷺ أن يعتق نسمة» وهذا إذا كان الإتيان فى أول الحيض والدم أحمر، أما إذا كان فى آخره والدم أصفر فينبغى أن يتصدق بنصف دينار كما دلت عليه الآثار»[8].

ثم قال – تعالى –:

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

روى الشيخان عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها فى قبلها ثم حملت كان ولدها أحول. فأنزل الله – تعالى – قوله:

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ الآية.

والحرث فى الأصل: تهيئة الأرض بالحراثة لإلقاء البذر فيها. وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المزروعة كما فى قوله – تعالى –:

﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾[9] أى على حديقتكم لجمع ما فيها من ثمار.

وشبهت المرأة بالأرض لأن كليهما يمد الوجود الإنسانى بأسباب بقائه، فالزوجة تمده بعناصر تكوينه، والأرض تمده بأسباب حياته.

و ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ بمعنى كيف شئتم، أو متى شئتم فى غير وقت الحيض.

والمعنى: نساؤكم هن مزرع لكم ومنبت للولد، أعدهن الله لذلك كما أعد الأرض للزراعة والإنبات، فأتوهن إذا تطهرن من الحيض فى موضع الحرث كيف شئتم مستلقيات على ظهورهن أو غير ذلك ما دمتم تؤدون شهوتكم فى صمام واحد وهو الفرج.

وفى هذه الجملة الكريمة إشعار بأن المقصد الأول من الزواج إنما هو النسل، ويشير إلى ذلك قوله:

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ إذ من شأن الحرث الصالح الإنتاج وإشعار كذلك بما شرعه الله للزوجين من مؤانسة ومباسطة ويشير إلى ذلك قوله – تعالى –:

﴿ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾.

ويرى صاحب الكشاف أن التشبيه بين ما يلقى فى الأرحام من النطفة وبين البذر الذى يلقى فى الأرض من حيث إن كلا منهما ينمو فى مستودعه ويكون به البقاء والتوالد، فقد قال –رحمه الله–:

(٨) تفسير الآلوسى جـ٢، صفحة ١٢٤، وبتلخيص قليل.

(٩) سورة القلم (٢٢).

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ مواضع الحرث لكم. وهذا مجاز شبهن بالمحارث تشبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بالبذور، وقوله:

﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ تمثيل، أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التى تحرثونها من أى جهة شئتم، لا تحظر عليكم جهة دون جهة والمعنى: جامعوهن من أى شق أردتم بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث.

ثم قال: وقوله – تعالى –:

﴿ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ ﴾ وقوله:

﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وقوله:

﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات الحسنة. وهذه وأشباهها فى كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها فى محاورتهم ومكاتبتهم.

فإن قلت: ما موقع قوله:

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ مما قبله؟ قلت: موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله:

﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يعنى أن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له وتفسيرا، أو إزالة للشبهة ودلالة على أن الغرض الأصيل فى الإتيان هو طلب النسل لاقضاء الشهوة فلا تأتوهن إلا من المأتى الذى يتعلق به هذا الغرض»(١٠).

ثم ختم الله – تعالى – الآية بقوله:

﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى: عليكم أيها المؤمنون أن تقدموا فى حاضركم لمستقبلكم من الأعمال الصالحة ما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم، بأن تختاروا فى زواجكم ذات الدين، وأن تسيروا فى حياتكم الزوجية على الطريقة التى رسمها لكم خالقكم وعليكم كذلك أن تتقوه بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه، وأن تعلموا علم اليقين أنكم ستلقونه فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون.

وقوله:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشارة طيبة لمن آمن وعمل صالحا، وتلقى ما كلفه الله – تعالى – بالطاعة والامتثال.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أرشدتا المسلم إلى أفضل الوسائل، وأقوى الدعائم التى يقوم عليها صرح الحياة الزوجية السعيدة، والتى عن طريقها تأتى الذرية الصالحة الرشيدة، وأن الإسلام فى تعاليمه لا يحاول أن ينكر أو يحطم غرائز الإنسان وضرورياته، وإنما الإسلام يعترف بغرائز الإنسان وضرورياته ثم يعمل على تهذيبها وتقويمها بالطرق التى من شأنه إذا ما اتبعها أن يظفر بالسعادة والطمأنينة فى دنياه وأخراه.

«يتبـــــع»

---

(١٠) تفسير الكشاف جـ١، صفحة ٢٦٦.

التثبت من رواية الحديث النبوى

للدكتور / أحمد محمود أحمد شيمى (*)

إن المتأمل فى أحوال السلف الصالح - رضوان الله عليهم - يرى أنهم كانوا يتحرون أشد التحرى فى روايتهم لأحاديث النبى ﷺ، وذلك لعلمهم أن حديث النبى ﷺ يأتى فى المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، ولأن أحاديث النبى ﷺ دين وقد تعبدنا الله تعالى به.

فلا يندفعون فى روايتهم للأحاديث بدون فهم أو روية، بل لابد من التثبت والتدقيق، وإمعان النظر فيما يقول الراوى أو الناقل، حتى يحفظوا للأمة مصدرها الثانى وهو الأحاديث النبوية.

وعلى هذا النحو صار الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - فنراهم يتثبتون فيما يقوله الراوى وفى المروى. فما اطمأنوا إليه قبلوه ورووه، وما لم يطمئنوا إليه طلبوا عليه شاهدا، وما لم تقم البينة على صدقه ردوه على قائله، ذكر الحافظ الذهبى أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - كان أول من احتاط فى قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ. فروى ابن شهاب عن قبيصة: أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن ترث، قال أبو بكر: ما أجد لك فى كتاب الله شيئا. ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: كان رسول الله ﷺ يعطيها السدس فقال له: هل معك من يشهد لك؟ قال: فقام محمد بن مسلمة فشهد بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر - رضى الله عنه[1].

وعن أسماء بن الحكم الفزارى[2] قال:

(*) مدرس الحديث الشريف وعلومه بكلية أصول الدين بالزقازيق.

(١) أخرجه أبو داود فى سننه، كتاب الفرائض باب فى الجدة ٣/١٢١ (٢٨٩٤).
- وأخرجه الترمذى فى سننه كتاب الفرائض باب ما جاء فى ميراث الجدة ٤/٤١٩ (٢١٠٠).
- وأخرجه ابن ماجة فى سننه كتاب الفرائض باب ميراث الجدة ٢/٩٠٩ (٢٧٢٤).
- وأخرجه مالك فى الموطأ كتاب الفرائض باب ميراث الجدة ٢/٥١٣.

(٢) «أسماء» مما سمى به العرب الرجال والنساء، فهو من الأسماء المشتركة. وإن كان فى النساء أكثر منه من الرجال، وأسماء بن الحكم الفزارى هذا، وثقه غير واحد، وصحح الترمذى له هذا الحديث الذى رواه عن على - رضى الله عنه - مع العلم أنه ليس له فى الكتب الستة إلا هذا الحديث. تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ١/٢٤٢ طبعة/دار الكتب العلمية.

«سمعت عليًا يقول: إنى كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعنى الله منه بما شاء أن ينفعنى به، وإذا حدثنى رجل من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لى صدقته، وإنه حدثنى أبو بكر، وصدق أبو بكر. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلى، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له»[٣]، ثم قرأ هذه الآية:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وهذان الأثران يدلان دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا يتثبتون فى أمر الحديث، ويزنون الراوى والمروى، بميزان النقد العلمى الصحيح، الذى هو أشد من موازين الذهب والفضة.

وهذا أبو العالية يقول: كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم[٥].

وانظر إلى أبى أيوب الأنصارى الذى يرحل من المدينة المنورة إلى عقبة بن عامر الجهنى بمصر يسأله عن حديث سمعه من سيدنا رسول الله ﷺ، فلما قدم منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى وهو أمير مصر خرج إليه وعانقه ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته من النبى ﷺ لم يبق أحد سمعه منه غيرى، وغير عقبة بن عامر، فابعث من يدلنى على منزله، فبعث معه من يدله على منزل عقبة فخرج إليه عقبة فعانقه فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، ولم يبق أحد سمعه منه غيرى، وغيرك فى ستر المؤمن قال عقبة: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخر»[٦].

قال أبو أيوب صدقت، ثم انصرف إلى راحلته فركبها راجعا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة إلا بعريش مصر.

ويؤكد لنا هذا الحديث المعنى الذى ندور حوله، وهو شدة حيطة الصحابة والتابعين فى روايتهم لحديث النبى ﷺ.

فانظر إلى الواحد منهم وهو يسافر السفر الطويل متحملا عناءه ومشقته، بل ربما لايجد الراحلة فيسافر على قدميه حتى يتثبت مما يقول، ولا يتفوه على النبى ﷺ بما لم يقل.

وهذا على الرغم من العلم الذى بلغوه، ولا نصل إليه، فلا يغتر ولا يتكبر أن يسأل عن ما لا يعلم، وهذا من بركة العلم.

ولقد تشدد العلماء فى هذا الأمر. فكانوا لا يأخذون الحديث إلا من أهله وحفاظه، ونقدته.

---

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب أبواب الصلاة باب ما جاء فى صلاة التوبة ٢٥٧/٢ (٤٠٦) وقال: هذا حديث حسن.

(٤) سور آل عمران/١٣٥.

(٥) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع للخطيب البغدادى ١٦٨/١ ط/مكتبة الفلاح بالكويت.

(٦) رواه ابن ماجه فى سننه برقم ٢٥٤٤

روى الحاكم من طريق ابن عبدالحكم عن أشهب قال: «سئل مالك، أيؤخذ العلم ممن لا يحفظ حديثه وهو ثقة؟ فقال: لا، قيل فإن أتى بكتب فقال سمعتها وهو ثقة، فقال: لا يؤخذ عنه، أخاف أن يزاد فى حديثه بالليل، يعنى وهو لا يدرى»(٧).

وروى البيهقى عن مالك قال: أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون لا يؤخذ عنهم شيء من الحديث، يقال ليس من أهله(٨) أقول: إن رواية الأحاديث لها أهلها المتخصصون فيها الذين أفنوا أعمارهم فى خدمتها، وذلك لعلمهم أن الكلام عن رسول الله ﷺ عليهم ليس سهلا، بل هو فى غاية الخطورة التى يأوى صاحبها إلى النار والعياذ بالله.

روى على عن النبى ﷺ قال: «من روى عنى حديثا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»(٩).

وفى رواية أبى قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، على هذا المنبر «إياكم وكثرة الحديث عنى، فمن قال علىَّ فليقل حقا أو صدقا ومن تقول علىَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»(١٠).

وفى صحيح البخارى «من كذب على متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار»(١١).

قال العلماء فى معناه: أى فليتخذ لنفسه منزلا، يقال تبوأ الدار، إذا اتخذها مسكنا، وهو أمر معناه الخبر، يعنى فإن الله يبوئه، وتعبيره بصيغة الأمر للإهانة، ولذا قيل: الأمر فيه للتهكم أو للتهديد إذ هو أبلغ فى التغليظ والتشديد من أن يقال: كان مقعده فى النار، ومن ثم كان ذلك كبيرة، بل قال الشيخ أبو محمد الجوينى: إنه كفر، يعنى لأنه يترتب عليه الاستخفاف بالشريعة، ويؤخذ من الحديث أن من قرأ حديثه وهو يعلم أنه يلحن فيه، سواء فى أدائه أو إعرابه، يدخل فى هذا الوعيد الشديد، لأنه بلحنه كاذب عليه، وفيه إشارة إلى أن من نقل حديثا وعلم كذبه يكون مستحقا للنار، إلا أن يتوب، قال الطيبى: فيه إيجاب التحرز عن الكذب على رسول الله ﷺ، بأنه لا يحدث عنه إلا بما يصح بنقل الإسناد»(١٢).

ولأجل هذا التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ كان الصحابة يتوقون الحديث عن رسول الله ﷺ بل ربما كان الواحد منهم – مع علمه وحفظه لكثير من الأحاديث – لا يحدث حتى بالحديث الواحد.

فعن السائب بن يزيد، قال صحبت سعد بن مالك من المدينة إلى مكة، فما سمعته يحدث عن النبى ﷺ بحديث واحد(١٣).

وروى الشعبى قال: جالست ابن عمر سنة فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ شيئاً(١٤).

---

(٧) تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ص٥ ٢٩ ط/دار الفكر.

(٨) المصدر السابق ص٢٩٦.

(٩) أخرجه ابن ماجة فى سننه/المقدمة باب من حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا وهو يرى أنه كذب ١/١٥ (٤٠).

(١٠) سنن ابن ماجة ٢/١٤ (٣٥).

(١١) كتاب العلم باب إثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم ١/٢٤٢ (١٠٧).

(١٢) قواعد التحديث لجمال الدين القاسمى ص١٧٣ ط/دار الكتب العلمية بيروت.

(١٣) سنن ابن ماجة/المقدمة باب التوقى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/١٢ (٢٩).

(١٤) سنن ابن ماجة المقدمة ١/١١ (٢٦).

وعن عبدالرحمن بن أبى ليلى قال: قلنا لزيد ابن أرقم: حدِّثنا عن رسول الله ﷺ قال: كبرنا ونسينا. والحديث عن رسول الله ﷺ شديد(١٥).

وكان أنس بن مالك إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثا ففرغ منه، قال: أو كما قال رسول الله ﷺ(١٦).

ومن المقرر عند العلماء أن عبدالله بن عمر وأنس ـ رضى الله ـ عنهما كانا من السبعة المكثرين لحفظ أحاديث النبى ﷺ وروايتها، ومع ذلك كانوا يُقلون الحديث عن رسول الله ويخافون من ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك ــ أخى المسلم ــ مع من جالسوا النبى ﷺ وصحبوه وسمعوا منه الكثير، فإنه فى حقنا نحن يكون أشد تأكيداً نظراً لما وقع من الفتن، ومحاولة الكذب على رسول الله ﷺ لغرض من الأغراض.

فينبغى على الداعية أو الخطيب، أو حتى من يتصدون للفتوى أن يتحروا الأحاديث النبوية التى يدعمون بها خطبهم وفتاواهم وذلك لثقة الناس فيهم ونقلهم عنهم، وذلك عن طريق تخـــريج هذه الأحاديث والآثار التى يستندون إليها من مصادرها المعتمدة وهى كثيرة جدا، أو حتى الرجوع إلى الحاسب الآلى (الكمبيوتر) الذى حفظ لنا الكثير من كتب السنة، حتى أصبح هذا الأمر فى غاية اليسر والسهولة، التى لم تتوفر لسلفنا ـ رحمهم الله ـ.

وفى النهاية أنقل لك ــ أخى المسلم ــ هذه الفتوى لابن حجر الهيتمى(١٧) ــ رحمه الله ــ الذى سئل عن خطيب يرقى المنبر فى كل جمعة، ويروى أحاديث كثيرة، ولم يبين مخرجيها، ولا رواتها فما الذى يجب عليه؟ فأجاب بقوله: ما ذكره من الأحاديث فى خُطبه من غير أن يبين رواتها، أو من ذكرها، فجائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة فى الحديث أو بنقلها من مؤلفه كذلك، وأما الاعتماد فى رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها فى كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث أو فى خطبة ليس مؤلفها كذلك، فلا يحل ذلك، ومن فعله عُزِّر عليه التعزيز الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء فإنهم بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها وخطبوا بها من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلا أم لا، فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك، ويجب على حكام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكبه.. ثم قال: فعلى هذا الخطيب أن يبين مستنده فى روايته فإن كان مستندا صحيحا، فلا اعتراض عليه، وإلا ساغ الاعتراض عليه، بل وجاز لولى الأمر ــ أيد الله به الدين، وقمع بعدله المعاندين ــ أن يعزله من وظيفة الخطابة زجرا له عن أن يتجرأ على هذه المرتبة السنية بغير حق(١٨).. انتهى ملخصا أقول: ولا يقتصر الأمر على الخطباء فقط، بل ليتنا جميعا نتعلم علم الحديث وبخاصة تخريجها وعزوها إلى مصادرها الأصيلة، وكذلك دراسة أسانيدها حتى يتبين لنا الحديث الصحيح من الحسن أو الضعيف أو غير ذلك.

والله الموفق وعليه نتوكل

---

(١٥) المصدر السابق (٢٥).

(١٦) تدريب الراوى ص٣٧٩.

(١٧) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن بدر الدين بن محمد شمس الدين بن على نور الدين بن حجر الهيتمى الشافعى المحدث الفقيه، المولود بمحلة هيتم – بالمثناة الفوقية – من اقليم الغربية بمصر وإليها ينسب، توفى سنة أربع وسبعين وتسعمائة من الهجرة. يراجع البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/١٠٩.

(١٨) قواعد التحديث ص١٦١ جمال الدين القاسمى الدمشقى.

الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان

٢

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

عنايـة الإسـلام بحرمـة الأمـوال

عنى الإسلام بالمحافظة على حرمة الأموال، كما عنى بالمحافظة على حرمة النفس الإنسانية، وعلى حرمة الأعراض، تلك الحرمات الثلاث التى هى أغلى ما يحرص عليه كل إنسان فى حياته ومن أجلها يضحى بكل غال ونفيس بل قد يضحى بحياته نفسها. ولقد حفلت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه بالعناية بها ليأمن الناس فى مجتمعاتهم، وتسكن حياتهم، فلا تدنسهم فاحشة، ولا يلاحقهم خوف ولا يفزعهم عدوان وفيما رواه الشيخان من خطبة الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم النحر: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه».

وأريد هنا أن أبرز جانب عناية الإسلام بحرمة الأموال، وأن الله - تعالى - حرم أكل الأموال بالباطل فقال - سبحانه - :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(١).

وفى هذا تذكير لهم برحمة الله بهم وإذا لم يجد التذكير فهناك التحذير

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾(٢).

ويوضح القرآن الكريم، مدى رحمة الله الواسعة إذا اجتنبت الكبائر ولم يعتد على حرمات العرض والمال والنفس فقال سبحانه - وتعالى - :

(١) سورة النساء الآية (٢٩).

(٢) سورة النساء الآية (٣٠).

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾(٣).

وإذا نظرنا إلى تعاليم الإسلام فيما يتصل بجانب المحافظة على حرمة الأموال وجدنا أن الإنسان مسئول عما بيده من مال، من جهة اكتسابه والحصول عليه، ومن جهة صرفه وإنفاقه من أين اكتسبه وفيم أنفقه. ولا يقبل الله أى تصرف للمال إذا لم يكن طيباً وحلالاً حتى لو أنفقه فى وجوه الخير، وفى الحديث: «من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحمه أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع ذلك جميعاً ثم قذف به فى نار جهنم»(٤).

وكثير من الناس يظن أن ما اكتسبه من حرام إذا أدى زكاته، أو إذا قام بإنفاقه فى وجوه الخير لا يكون عليه إثم، وهذا خطأ فاحش وزعم باطل ولا أساس له.. فكما أن المال الحرام لا ينفع صاحبه ولو أنفقه فى الخير بل يكون زاده إلى النار فكذلك يمنع الكسب الخبيث والمال الحرام من قبول دعاء صاحبه.

قال سعد بن أبى وقاص: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال النبى ﷺ: «يا سعد والذى نفس محمد بيده إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل الله منه عملاً أربعين يوماً، أيما عبد نبت لحمه من حرام فالنار أولى به»(٥).

وقد دعا الإسلام إلى العمل والكسب الطيب الذى يكتسب به العبد العزة والكرامة والذى يدفع عن نفسه ذل المسألة ومد اليد كما رسم منهج الإنفاق فى قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله»(٦).

وكما دعا الإسلام إلى الكسب والإنفاق فى الوجوه المشروعة، فقد نهى عن إضاعة المال وصرفه فى غير منفعة أو فيما حرم الله فالرجل الصالح يكسب المال الصالح، لينفقه فى العمل الصالح وفى الحديث: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)(٧) وإضاعة المال مما يكرهه الله لعباده من الخصال وفيما رواه مسلم يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: (إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)(٨)، وليست السعادة الحقيقية فى جمع المال وصرفه على حسب الهوى والرغبات النفسية والمتعة المادية والجنسية، ولكن المال الذى يغتبط عليه صاحبه هو الذى يصرف فى الوجوه المشروعة وفى جانب الحق يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: (لا حسد إلا فى اثنتين رجل أتاه

---

(٣) سورة النساء الآية (٣١).

(٤) كنز العمال برقم ٩٢٥٦.

(٥) مجمع الزوائد ١٠/٢٢٩، ٢٩١.

(٦) رواه البخارى.

(٧) مسند أحمد ٤/١٩٧.

(٨) مسند أحمد ٢/٣٦٧.

الله ما لا فسلط على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها)[٩] .

ولم تقتصر تعاليم الإسلام فى العناية بحرمة الأموال عند تحديد طرق كسبها ووسائل إنفاقها وعدم إضاعتها فى الباطل، لم تقتصر على ذلك فحسب؛ بل إن الشريعة الإسلامية قد أحاطتها بعناية كبيرة، وفرضت عقوبات رادعة لكل من يعتدى على حرمة الأموال فقررت قطع يد السارق فقال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١٠] .

وشدّد الإسلام فى تنفيذ حد السرقة حتى لا يتلاعب الناس ويسطو بعضهم على بعض ويأخذ أحدهم حق الآخر. عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ، فكلمة أسامة فقال ﷺ : « أتشفع فى حد من حدود الله؟ » ثم قام فاختطب فقال: « أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[١١] .

ويشدد الإسلام فى الوعيد لمن يغصب حق امرىء مسلم أو يقتطعه « من غصب شبرا من أرض طوقه الله ـ تعالى ـ من سبع أرضين يوم القيامة » [١٢] .

ويقول: صلوات الله وسلامة عليه: (من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان) . .[١٣] وفى حال الاعتداء على المال أجاز الإسلام للمالك أن يدفع عن ماله كل معتد حماية لحرمة المال وحفاظاً على الملكية الفردية مهما كلفه ذلك وفى الحديث (من قُتل دون ماله فهو شهيد)[١٤] وقد أعلن رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ خصومته ووعيده لمن يأكل حق إنسان أو عامل أو أجير أو لا يعطيه أجره كاملاً: قال ﷺ : (قال الله ـ عز وجل ـ : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره)[١٥] وحماية للملكية وحفاظاً على حرمة المال حرم الإسلام الغش فى الكيل والميزان فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾[١٦] .

---

(٩) رواه البخارى.

(١٠) سورة المائدة الآية (٣٨).

(١١) رواه مسلم.

(١٢) مجمع الزوائد ١٧٦/٤ .

(١٣) رواه أحمد.

(١٤) رواه البخارى.

(١٥) رواه البخارى.

(١٦) سورة المطففين (١ - ٣)

وحرم الإسلام الربا. والقرض بفائدة حتى لا يظلم الناس بعضهم بعضاً أو يستغل بعضهم بعضاً قال ـ سبحانه ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾(١٧).

وتوعد الله ـ سبحانه ـ أولئك الذين يكنزون المال ولا ينفقونه فى سبيل الله توعدهم بعذاب أليم فقال ـ سبحانه ـ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾(١٨).

وهذا الوعيد لهؤلاء لأنهم أكلوا حق الفقراء والمحتاجين وكنزوا المال واحتكروه فهم بالتالى لم يعملوا له حرمة، ولم يصونوا للمحتاجين حقاً هذا وأن الاعتداء على حرمة الأموال بأية صورة من الصور، أو حيلة من الحيل ظلم كبير، وإثم لا يتحلل منه ولا تقبل من صاحبه توبة إلا برد الحق إلى صاحبه ومهما يكن عمله صالحاً أو تضحيته عظيمة فإن كل أعماله فى ضياع.

محافظة الإسلام على حرمة الأعراض

الإسلام دين الطهر والعفاف صان الأعراض كما صان الأنفس والأموال، ودعا إلى حمايتها والدفاع عنها، وأكد الإسلام حرمات المسلمين وفى الحديث: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، وحماية للأعراض وصيانة لها كفل الإسلام لها حقوقاً شرعها تتسق وفق ما أحلّه الله من علاقات نقية طاهرة تتميز بالثبوت والاستقرار، وتحكم بحقوق، وواجبات، تشرق فى ظلها المودة والرحمة، وتنبثق من خلالها المشاعر الإنسانية الوفية والمعاملات النظيفة الراقية. ونفى الإسلام عن المجتمع الإسلامى كل رذيلة من الرذائل وميز عباده ووصفهم بصفات تتفق مع عقيدتهم الصحيحة وإيمانهم الصادق وبين أنهم موحدون لا يدعون مع الله إلهاً آخر ومحافظون على حرمة الأنفس فلا يقتلون ومحافظون على الأعراض فلا يزنون إلى غير ذلك من الصفات.

قال الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١٩).

---

(١٧) سورة البقرة (٢٧٨ - ٢٧٩)

(١٨) سورة التوبة (٣٤ ، ٣٥).

(١٩) سورة الفرقان الآيات (٦٨ - ٧٠).

وحرم الإسلام الاقتراب من الزنا وذلك لأنه من الكبائر والفواحش قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾(٢٠).

الاعتداء على الأعراض

وجريمة الاعتداء على الأعراض من أخطر الجرائم وأكبر الكبائر التى إذا تفشت فى بيئة نشرت التحلل والإباحية وولّدت أخطر الأمراض الفتاكة بين مرتكبيها وأدت إلى غيرها من الجرائم كما أن فيها إهداراً لماء الحياة ولمادتها فى غير موضعها المشروع وطريقها الحلال، كما ينشأ عن هذه الجريمة تشرّد وضياع لمن جاء من الأبناء من طريقها واختلاط للأنساب وفقدان للحياة العزيزة الطيبة النظيفة المحترمة. وهذه الجريمة المنكرة تعتبر من أشد الآفات الاجتماعية خطورة فيما يتصل بالناحية الأخلاقية والناحية الاجتماعية، ففيها محاربة للحياة الزوجية السليمة ومحاربة للعفة والفضيلة وعزوف عن الزواج وهى ظاهرة تحللية وفعلة شنعاء لا تظهر إلا فى البيئة البعيدة عن زواج الإسلام والتى لا تخشى الله وعذابه. وهى أكثر ما تكون مصاحبة لظاهرة العزوف عن الزواج وذلك لأن البعض حين يرى قضاء شهوته بهذه الوسيلة يستهين بشأن الزواج ويرى فيه من الأعباء والمسئوليات ما يمكن أن ينأى بنفسه عنها، ويريح حياته منها.

وبتلك النظرة الهابطة الرخيصة، تصغر الأسر وتقل وتضعف وتتفكك ويضعف أبناؤها جسمياً وعقلياً وخلقياً، ولما كان الزنا والاعتداء على الأعراض له خطورته وله نتائجه السيئة التى تودى بالأفراد والأسر، وتهدم كيان البيوت وتقوض دعائم الحياة، شرع الإسلام عقوبته القاسية لتكون أكبر رادع ومانع مع الوقوع فى هذه الجريمة، فالزانى المحصن يقتل رجماً بالحجارة، والبكر يجلد مائه جلدة.. وتنزل به هذه العقوبة الرادعة. على مرأى ومسمع من الناس ليكون فى ذلك أشد الرذائل الرادعة، وليكون عبرة لغيره ممن تسول له نفسه ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة، وينهى الله ـ تعالى ـ من أن تكون هناك رأفة أو عطف على الجانى حين تنزل به العقوبة حتى لا تتعطل الحدود أو يخف الحد. قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢١).

ومن الجرائم التى ترتكب اعتداء على الأعراض (القذف) فمن قذف رجلاً محصناً أو امرأة محصنة واتهم أحدهما بارتكاب جريمة الزنا ولم يقم البينة والدليل المطلوب شرعاً فإنه يجلد ثمانين جلدة وتسقط شهادته، وهما عقوبتان اثنتان لا عقوبة واحدة، فالأولى: وهى الجلد عقوبة مادية توقع على جسده والثانية: وهى إسقاط

(٢٠) سورة الإسراء (٣٢).

(٢١) سورة النور الآية (٢).

شهادته عقوبة معنوية أدبية توقع على كرامته وتظل دائمة قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢٢)

وللقاذف من الوعيد الشديد ما يستحقه مما قرره الإسلام فى الكتاب والسنة فالذين يقذفون المحصنات الغافلات يرتكبون أكبر الكبائر وتحلّ عليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾(٢٣).

وقال ـ سبحانه ـ وتعالى ـ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢٤)

وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات من السبع الموبقات التى نهى عنها الإسلام وحذّر منها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأمر المسلمين باجتنابها .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولّى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)(٢٥) المحصنات : اسم مفعول . أى التى أحصنهن الله وحفظهن عن الزنا والمراد بهن العفيفات وأما (الغافلات) فالمراد الغافلات عن الفواحش وما قذفن به .

وفيما رواه ابن أبى حاتم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ قال لأصحابه : (تدرون أربى الربا عند الله قالوا الله ورسوله أعلم . قال فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم)(٢٦) ثم قرأ رسول الله ﷺ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾(٢٧).

ومن الذنوب التى تمثل اعتداء صارخاً على حرمات الناس وأعراضهم (السخرية) و(اللمز) و(التنابز بالألقاب) و(سوء الظن) و« التجسس » والغيبة و« النميمة » وقد نهى الله ـ تعالى ـ عن هذه الأمور كلها وحذر منها ونادى المؤمنين أن يحذروها

---

(٢٢) سورة النور (٤).

(٢٣) سورة النور الآيات (٢٣ – ٢٥).

(٢٤) سورة النور الآية (١٩).

(٢٥) رواه البخارى.

(٢٦) إتحاف السادة المتقين ٨/٣٢٧.

(٢٧) سورة الأحزاب الآية (٥٨).

ناداهم بوصف الإيمان الذى يتنافى مع تلك الآفات ولا يستقيم مع تلك الرذائل فقال ـ سبحانه ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾(٢٨).

فلا يجوز لإنسان أن يسخر من إنسان ولا يحل له أن يستهزىء بأخيه أو يسخر منه لأنه فى بدنه نحافة فى بعض أعضائه أو قلة فى ماله أو غير ذلك من الأمور، وقد روى أن عبد الله بن مسعود انكشفت ساقه وكانت دقيقة هزيلة فضحك منها الحاضرون فقال النبى ﷺ :

« أتضحكون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد »(٢٩).. وتأكيداً لحرمة الأعراض، والحفاظ على كرامة الإنسان وعدم الاعتداء عليه بالتجسس أو التطلع إلى أسراره أو بيته جاء فى الحديث المتفق عليه: « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه »(٣٠) وقال صلوات الله وسلامه عليه: (يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله)(٣١).

***

(٢٨) سورة الحجرات الآيتان (١١، ١٢).

(٢٩) رواه الإمام أحمد.

(٣٠) متفق عليه.

(٣١) رواه الترمذى.

الدعوة كما ينبغى أن نبلغها

٦

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

تحدثت إليك فى آخر لقاء عن المطلق والمقيد وضربت لك مثالا لكل منهما وكنت على موعد معك للحديث عما يجب عمله إذا ورد اللفظ ـ فى نص ـ مطلقا ونفس اللفظ ورد فى نص مقيدا، هل يبقى المطلق على إطلاقه والمقيد على تقييده؟

أى نعمل بالنص المطلق فى موضوعه ونعمل باللفظ المقيد فى موضوعه أم نحمل المطلق على المقيد؟ بمعنى أن القيد يسرى على المطلق حتى تستقيم النصوص ولا تتعارض أم أن استقامة النصوص تكون فى إعمال كل نص كما ورد؟ دون أن يقيد المطلق، وقد كنت على موعد معك للحديث فى هذا الموضوع، وأكاد أرى على ملامحك شيئا من الضيق والضجر كأنك أحسست بثقل المهمة لكنك أخفيت ما بك خلف ستار. بسؤال أنت محق فيه كل الحق فقلت: ما علاقة هذا بعنوانك الدائم: الدعوة كما ينبغى أن نبلغها »؟ ثم أردفت تقول: هل شققت عن قلبى فعرفت أنى ضيق ضجر فزعمت أنى أخفى ما بى خلف سؤال عن علاقة ما تتحدث فيه من المطلق والمقيد بعنوانك الدائم « الدعوة كما ينبغى أن نبلغها » ؟وقبل أن أجيك أرجو أن يتسع صدرك للإجابة أو للإطالة فى الإجابة:

أولا : الذى أحسبك أن تتأكد منه أننى أحوج منك إلى مدارسة العلم فلست أزعم أنى عالم ألقى عليك علما ليس عندك، لكنى إذا سمحت لى أنا طالب علم، وكما يقولون: « حياة العلم مدارسته » فأنا أحوج إليك منك إلىَّ، فلست أدعى أن عندى علما لكن الذى أنا متأكد منه أن عندى رغبة ملحة فى التعلم والمعرفة وعندى اعتزاز بتراث الأسلاف وما قدموا من جهد وبى ألم يعتصرنى وأنا أرى هوانا لهذا التراث على يد الأبناء والأحفاد، وأخطر ما تصاب به أمة أن تترك تراثها تنحته عوامل التعرية وعوامل التعدى المدبر المقصود الدؤوب فتفقد هويتها وتسقط فى مستنقع الضياع ولعلك منتبة لما تقوم به من تسمى

نفسها «مراكز بحثية» وتزعم النزاهة والإخلاص فيما تقدمه من سموم.. وللأسف فإننا نزدرد ما يقدم إلينا فى شراهة ونهم!! ولعلك تكون قد أدركت بعض ما أعانيه لما ذكرت لك فى المقال السابق من شعر المتنبى وأنا أتجول فى بعض أحياء القاهرة أطالع لافتات المحلات من تنكر شديد الوقاحة للغتنا العربية وهو دليل على تآكل الهوية، وأضيف إلى شعر المتنبى بيتا آخر لشاعر عربى قديم كان له مذاق مختلف لما سمعته من الداعية المجاهد فضيلة الشيخ محمد الغزالى ـ رضى الله تعالى عنه ورحمه ـ يصرخ به وكم كان عذبا صادقا جريئا قال:

أنا ابن دارة معروفا بها نسبى
وهل بدارة يا للناس من عار

هل بدارة من عار؟ أيها الناس:

أكاد أحترق والله لما أشاهد التليفزيون وأرى عربا يلوكون اللغة فلا تكاد تتبينها ثم تأمل الواحد منهم عندما تأتى كلمة «كمبيوتر» مثلا أو كلمة «كاريكاتير» كيف ينطقها بإتقان؟ تأمل ذلك لعلك تتأثر ويدفعك تأثرك أن تعمل من أجل لغتك وهويتك حيثما كان موقعك، لماذا لايجيد هذا المتحدث لغته ويتهمنا بالتقعر؟ ألا يحق لنا أن نصفه بمهزوم النفس فاقد الهوية؟

ثانيا: تقول تلومني، لماذا حكمت بأنك ضيق ضجر فهل شققت عن قلبك؟ ولا أكتمك يا صديقى لقد هالنى ما قلت، فإنى أحس بك كأنك تستدعى حادث أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - وموقف رسول الله ﷺ معه، تلقيه صاعقة فوق رأسى فأفقد توازنى العقلى والنفسى. ولا أكتمك رغم هذا فقد أثلج صدرى أنك استوعبت السيرة العطرة لنبى الفطرة والعدل تستشهد بها فيما يعن لك، ولعل القارىء الكريم يشاركنى ما أنا فيه من غبطة فأذكر قصة أسامة بن زيد - رضى الله عنه وعن أبيه - مع رسول الله ﷺ لأعطر مجلسنا بذكر سيد الوجود ﷺ فقد روى الإمام البخارى عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال: بعثنا رسول الله إلى الحرقة من جهينة قال: فصبحنا القوم فهزمناهم قال: لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله قال: فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ قال: فقال لى: يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله قال: قلت يا رسول الله إنه إنما كان متعوذا قال: قتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال: فمازال يكررها عليَّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1].

(١) فتح البارى ١٢/١٩١ - ١٩٢ حديث رقم ٦٨٧٢ كتاب الديات.

وقد يقول قائل: ليت أسامة لم يعترف!! حتى يخرج من الموقف كله سليما معافى، وما كان لأسامة أن يكذب، وعلى مَنْ ؟ على رسول الله ﷺ وليس الكذب من خلق مسلم فهكذا قال الرسول، فقد روى مالك عن صفوان بن سليم أنه قال: قيل يا رسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانا؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ فقال: نعم. فقيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ فقال: لا[٢] لأن الذى يكذب ليهرب من مؤاخذة الدنيا أصبح إيمانه ناقصا لأنه من أركان الإيمان أن تؤمن باليوم الآخر، وما أدراك ما اليوم الآخر؟! فيه تتكشف الحقائق فلا يمكن أن يكون المؤمن كذابا لأن الذى يكذب يخالجه شك فى أنه سوف ينجيه الكذب والمؤمن يعلم أن أهم نجاة هى نجاة الآخرة، فلا فائدة ترجى من كذب ينجيك فى العاجلة ويرديك فى العقبى، ولذلك فعندما تتعامل مع المسلم تستريح لأنك لاتجده مراوغا، ولا ختالا، فأنت تتعامل سوى النفس والسريرة مع سوى النفس والسريرة..

لكن تعال معى إلى رسول الله ﷺ لقد كان فى قوله وتصرفه - مع أسامة - إرساء لمبدأ هام - غاب الآن من المجتمع أو يكاد - من مبادئ التحقيق والتقاضى، قال أسامة يدافع عن نفسه وعن فعلته: إنه قالها يتقى بها القتل فغضب النبى ﷺ غضبا لم يغضب مثله قط ثم قال: «أشققت عن قلبه يا أسامة؟»[٣] كأنى برسول الله يقول لأسامة إن دفاعك أنكى من فعلتك؟ يقول راوى الحديث: فقال أسامة: «تمنيت لو أنى لم أكن قد أسلمت» ولعلك تكون - هدانى الله وإياك - قد استوعبت الموقف كله.

وبعد نعود إلى ما كنا فيه، تأمل ما قلته لك فأنا لم أتعرض لقلبك ونواياك لا تصريحا ولا تلميحا فلماذا التسرع فى الاتهام لكنها سمة شباب العصر وكل ما قلته - وارجع إليه إن شئت - أننى أكاد أرى على ملامحك شيئا من الضيق والضجر، فأنا لم ألج قلبك، بل إن لم أحم حول حماه، بل حكيت ما ظهر على ملامح وجهك من ضيق وضجر، فهل أخطأت يا صديقى؟ أرشدنى فأنا حريص على صحبتك ولعلك تقول: كل ذلك لم يكن، فأقول: ليته ما كان.

أما سؤالك عن علاقة ما نحن بصدده من المطلق والمقيد بعنوان: الدعوة كما ينبغى أن نبلغها، أقول لك «حولها ندندن له» وتلك كلمة قالها رسول الله ﷺ لكنها صارت مثلا فيمن يسأل عن أمر هو يريده وأنت حريص على العمل تعمله فيخيل إليه أنك فى منأى عن الأمر كله فتنبهه إلى أن ما أنت فيه هو من أجل الهدف الذى يسعى هو إليه.

واسمح لى أن أحكى لك ما حدث حتى يزداد الأمر وضوحا.. كان النبى ﷺ يجلس

(٢) الموطأ جـ٢ ص٩٩٠ رقم ١٩ كتاب الكلام.

(٣) رواه أبوداود وابن ماجة وأحمد.

مع سيدنا معاذ فجاء رجل فسأله النبى ﷺ : ماذا تقول فى الصلاة «أى بماذا تدعو» ؟ فقال الرجل: أتشهد ثم اسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبى ﷺ «حولها ندندن»(٥).

وبعد فإن كل ما نقوله وما يجرى بيننا من حوار هو – أسأل الله أن يكون – تصحيح لمسار الدعوة كيف تكون.

والآن اعتقد أنه حان الوقت لكى أوضح لك المطلق والمقيد واقرأ معى قول الله تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(٦).

وأولا: ثمة عبارة للفقهاء – هى عبارة موجزة – كأنها قاعدة قالوا: إن العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات «ومعنى هذه العبارة: أنك لو عقدت على امرأة عقد زواج ولم تدخل بها فإنه بمجرد تمام العقد تحرم عليك أم زوجتك تحريما مؤبدا، بمعنى أنك حتى لو طلقت زوجتك والتى هى ابنتها قبل الدخول فإنه لا يحل لك أن تتزوج بأمها وهذا مقتضى قولهم «العقد على البنات يحرم الأمهات» هذا هو النصف الأول من القاعدة الفقهية المحترمة.

أما النصف الثانى من هذه القاعدة، فهو يعنى أنك لو عقدت على امرأة ولها بنت فإن ابنتها لا تحرم عليك بمجرد العقد مثل الحالة الأولى بل لابد من الدخول بالأم حتى تحرم البنت فإن مجرد العقد على الأم لا يحرم البنت، هذا هو النصف الثانى من القاعدة، وهى: «الدخول بالأمهات يحرم البنات».

وأحسبك تسألنى: من أين جاء الفقهاء بهذا الحكم؟ وما أحسب سؤالك اتهاما للفقهاء بعدم وجود دليل لهم على ما جاءوا به وجعلوه قاعدة، لكنه سؤال عن مرجع الحكم من الكتاب والسنة. – هدانى الله وإياك –.

وأعود بك إلى الآية التى صدرنا بها حديثنا عن المطلق والمقيد وهى قوله تعالى حرمت عليكم أمهاتكم إلى آخر الآية.

تأمل معنى كلمة ﴿ نِسَآئِكُمْ ﴾ فى الآية فتجد أنها وردت مرتين وهما فى سياق التحريم الأولى «وأمهات نسائكم» والثانية «من نسائكم اللاتى دخلتم بهن» فتجد أن «وأمهات نسائكم» لم تقيد بقيد الدخول فلم يقل الله ـ تعالى ـ «وأمهات نسائكم اللاتى

---

(٥) سنن ابن ماجه ج١/٢٩٥ حديث رقم ٩١٠.

(٦) النساء – ٢٣.

دخلتم بهن» – مثلا – أما فى الكلمة الثانية فإنه قال «وربائبكم[٧] اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن».

فهنا قيدان :

الأول: فى حجوركم.

والثانى: اللاتى دخلتم بهن.

لذلك قال الفقهاء: إن العقد على البنات يحرم الأمهات لأن الآية فى حقهن وردت مطلقة من أى قيد أما فى الربائب، فإن القيدين فيها كما ذكرنا وهو «حجوركم».. و«دخلتم بهن» فإن القيد الأول وهو كون الربيبة فى حجر الزوج، قالوا: إنه قيد خرج مخرج الغالب إذ أن الربيبة غالبا ما تكون فى حجر زوج أمها، لكن حتى وإن كانت فى بعض الأحيان فى غير حجره وكفالته، فإنها تحرم بالدخول على أمها فهذا القيد كما يقول الفقهاء خرج مخرج الغالب، أما القيد المعتبر فهو «دخلتم بهن» والذى يدل على أن القيد «فى حجوركم» خرج مخرج الغالب وأنه لا اعتبار له أن الله ـ تعالى ـ فى مقام التحليل اكتفى بنفى الدخول فقال تعالى: «فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم» فدلت الآية على حل التزوج بالربيبة عند عدم التزوج بالأم ولو كان وجود الربيبة فى حجر الزوج شرطا فى التحريم لما اكتفى المولى – عز وجل – فى إثبات الحل بنفى الدخول فقط ولقال ـ سبحانه وتعالى ـ مثلا «فإن لم تكونوا دخلتم بهن ولم يكن فى حجوركم فلا جناح عليكم» فالاكتفاء فى ثبوت الحل بنفى الدخول فقط دليل على أن وجود الربيبة فى الحجر ليس شرطا فى التحريم وهذا القيد الملغى – بمعنى أنه لا اعتبار له كما بينا وأنه خرج مخرج الغالب – يشبهه قيد آخر لا اعتبار له فى قوله – سبحانه وتعالى –:

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٨].

فإنه – سبحانه وتعالى – أحل لكم أكل ما نستخرجه من البحر لكنه قيد هذا الذى نستخرجه بأنه (لحما طريا) فقالوا: إن هذا القيد لا اعتبار له فلو استخرجنا لحما غير طرى لجاز أكله وقالوا: إن هذا القيد لبيان المنة وإلى لقاء آخر نتكلم فيه عن بيان الحكم فيما إذا ورداللفظ فى نص مطلقًا وورد نفس اللفظ فى نص آخر مقيداً هل نقيد المطلق أم نطلق المقيد؟ مع بيان آراء الفقهاء وحجة كل فقيه فيما قال لنرى لوناً من ألوان رحابة الفقه وأصالة التراث. ومن الله نستمد العون والهداية.

---

(٧) الربيبة : بنت زوجتك من رجل آخر.

(٨) فاطر – ١٢.

حول الأصالة والمعاصرة

للأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم الفيومى

٢

لا تتصور أن هناك مشكلة فى التراث أو مشكلة فى المعاصرة. فليس هناك أمة تعيش تاريخها دون أن يكون لها تراث حضارى، إذ التراث فى أبسط مظاهرة يظهر فى أسماء الأشخاص، فاسم الشخص تراث، لغته، مجاملاته، مظاهر أكله وشربه.. إلخ. فالأمة تراث، الوطن تراث، وعلى ذلك يمكن تعريف التراث بأنه مجموعة الأعراف والتقاليد والأفكار والمعتقدات والنظم والآراء والأساليب المكونة للتاريخ الحضارى القومى والدينى، أو بتعبير آخر هو مجموعة النظم الاجتماعية، والثقافية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، وما تكوَّن حولها من أعراف وتقاليد، والممارسات التى تكون منها التاريخ الحضارى لقوم ما.

هذا التراث القومى يُكَوِّن هوية الإنسان العربى - مثلاً - وهوية انتمائه القومى الذى يميزه عن الآخرين.

فماذا تعنى الدعوة إلى المعاصرة، ومن مفاهيم المعاصرة: الإحياء، الحداثة.

وماذا تعنى الدعوة إلى التراث: الأصالة، والمحافظة.

تعنى الدعوة إلى المعاصرة - فى نظر دعاتها - استنساخ النموذج الغربى وتقليد العقل الغربى، وفى سبيل تقليد الغرب علينا أن نطرح جانبا التراث القومى. فالمعاصرة على هذا الموقف نوع من الاستلاب الحضارى بمعطيات الغرب. فالدعوة إلى المعاصرة لهذا المعنى، منبتة عن الماضى. والدعوة إلى التراث تعنى من وجهة نظر بعضهم التشبث بكل الموروث الحضارى جامدين فى أماكننا لا نريم. والدعوة إلى التراث بهذا المعنى منبتة عن الحاضر والمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

من الصعب أن نعايش المعاصرة أو أن نكون معاصرين مجردين من التراث كما لو كنا نشأنا فى فراغ ونتوخى خطى الغرب فى حضارته، أو لا نعايش المعاصرة ونحن نعيش فى ضمير الماضى، هذا هو الصراع الحقيقى الذى من شأنه أن يؤدى إلى توتر بين

الطرفين.. الأمر الذى ترتب معه على هاتين الدعوتين فواصل أقامت بناءهما على كثير من التشابه.

ولولا ضيق المقام لذكرنا الفريقين، إنما حسبنا أن نذكر أن الوقوف بجانب أى من الدعوتين مجاف للوضع الطبيعى للقضية. فلا ينبغى الاحتماء بالتراث لنعادى المعاصرة ولا ينبغى الاحتماء بالمعاصرة لمعاداة التراث، فالتراث والمعاصرة وجهان لعملة واحدة، لذلك ندعو إلى التفاعل بينهما بكل ما تعنى كلمة «تفاعل» من آفاق.

طرح دعاة الإصلاح مناهج متعددة للربط بين الأصالة والمعاصرة:

١ - الدعاة إلى الوسطية:

ماذا يعنى القول بالوسطية ـ أى التوسط بين الأمور ـ فليس التوسط دائماً هو المعادل بين الطرفين، قد يكون اختيار أحد الطرفين هو العدل وقد يكون فى التطرف عن الوسط.. فالأمور كما يقول الفقهاء بمقاصدها وليس بالوسط بين الطرفين: ولدينا أمثلة كثيرة منها: كثيراً ما تحتاج المعارك الحربية إلى فرق انتحارية.. وهى خصائص فوق الشجاعة التى يظن البعض أنها وسط بين التهور والجبن.

كذلك من السمو الخلقى: الإيثار وفق قوله تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(١).

وهى صفة فوق الكرم يظن البعض أنها صفة تتوسط الفقر والبخل.. فالإيثار إعطاء ما فى اليد وإن أدى إلى العوز.. إلخ.. فليست الوسطية دائماً: الوسط العادل، قد يكون أحد الطرفين هو ذلك العدل العادل وحين نطرح القول بالوسطية للمناقشة وفق وجهة نظرهم.. بمعنى أن نأخذ من التراث شيئاً عن طريق الانتقاء، سنجد أنفسنا أمام مشكلة البحث عن معيار الانتقاء.. فيدور القول على معنى على أى معيار أخذنا هذا من التراث وتركنا ذاك؟ ونقع مرة ثانية فى دائرة اختلاف ملئ بالتعصب حول المعيار الفاصل بين الصالح من التراث أو المعاصرة، وهكذا يوقعنا القول بالوسطية فى مزالق استفهامات قد تنهك العقل وتبعدنا كثيراً عن جادة الصواب.

٢ - دعاة الانتقاء والاختيار:

رأينا أن القول بالوسطية ينتهى بدوره إلى القول بالانتقاء والاختيار.. والقول بالانتقاء والاختيار يعنى بشكل جوهرى: الأخذ والترك أى آخذ من التراث وأترك، فما أتركه يلزمنى الحكم عليه بعدم جدواه، وما أخذته منه يجب على أن أتقولب داخله وفى هذا عنت شديد.

---

(١) الحشر (٩).

ثم من الذى له حق الحكم على التراث، وما هى مؤهلاته التى تؤهله للحكم على التراث، هل لكونى معاصراً أعطى نفسى حق الحكم على التراث، بأن هذا يتفق مع العصر، وهذا لا يتفق؟ لاشك أن الإنسان الذى يجابه تراثه بهذا الحكم لا يتلاءم مع عصره ولا مع ماضيه.

٣ - التفاعل بين التراث والمعاصرة:

يرى البعض أنه من الإنصاف بعد بطلان القول بالوسطية والقول بالانتقاء أن يعدل إلى القول بالإحياء، وهو مصطلح قديم كان قد استعمله الإمام الغزالى عنواناً لمؤلفه العظيم «إحياء علوم الدين» ولكننا نعدل إلى القول بالتفاعل بين التراث والمعاصرة لأن الإمام الغزالى قد حصر مصطلح «الإحياء» فى علوم الدين، وتلك حقيقة فلا حياة لمن لا دين له إنما حاجة العصر ملحة لتحديد الموقف من التراث الدينى وغير الدينى، لذلك فضلنا مصطلح التفاعل على غيره من المصطلحات المطروحة.

٤ - التراث يشتمل على ثوابت ومتغيرات:

فالثوابت هى دائماً الدين، واللغة، والجنس، والأرض، والتاريخ المشترك. فتلك ثوابت الأرض التاريخية لا يستطيع الإنسان منها فكاكاً، لا ينفع معها القول بالوسطية ولا القول بالانتقاء والاختيار، إنما لا يكون الإنسان إنساناً إلا بالتفاعل معها وهو تفاعل مع تراث بحت.

أما المتغيرات: وهو ما نطلق عليه «متغيرات العصر» فتحملها كتب ونظريات تجاوزها الزمن وألغاها وأبطل ما جاء بها: إما باكتشافات حقائق أكثر صحة ودقة، أو بتخطى ما جاء فيها.. فهناك ضرورة لغربلة وانتخال التراث فنبعث المضىء والمشرق منه، وذلك لا يتم بشكل بناء إلا إذا أقمنا بيننا وبين تراثنا حوارا بناء وإيجابياً ولا نتركه عرضة لتراكم غبار الزمن عليه كما لا يمكن أن نعتمده كله كيفما يكون: فما يدخل فى مفهوم «متغيرات العصر» من التراث من آراء وكتب ونظريات متواضعة فلا يمكن التشبث بها إلا بكونها تشكل تراثاً قد نستفيد منه فى تطور التاريخ العلمى كالإفادة فى مجال المصطلحات العلمية، أما ما تحمله من حقائق علمية ينبغى أن تكون قابلة للنظر فقد تكون معطيات العصر العلمية قد تجاوزتها بكثير.. لذلك نقول دعونا نستجب لطبيعة الإنسان والأشياء. لفرض قوانينها.

من هنا نقول: إن تفاعلنا مع التراث ضرورى فيما هو من ثوابت وتفاعلنا مع المعاصرة ضرورى أيضاً فيما هو من متغيرات، كالنظر العلمى - والتفكير العقلى، بذلك نستطيع الاستجابة لطبيعة الإنسان والأشياء لفرض قوانينها، ولا يتسنى لنا ذلك إلا إذا ازدهرت روح النقد والتحليل لفرز الزائف من التراث من أصيله وإلا وضعنا الزائف فى مرتبة الأصيل، وخصائص الثابت للمتغير.

وعندما يرتقى العقل العربى إلى تلك الرؤية المميزة سوف يكون من أولى مهامه العمل على إيجاد نظرة جامعة إلى مكونات الثقافة فى ظل الإسلام.

ولا يطول بنا الكلام حول الأصالة والمعاصرة، دون أن نعرض للموقف الفكرى المعاصر من الإسلام، لذلك نتجه إلى معالجة هذا السؤال من واقع خطنا الفكرى، وهو:

ما هى مشكلتنا مع الإسلام؟ قد تكون المشكلة نابعة من جهلنا به بالرغم من أننا مسلمون.. لو صدق هذا الاحتمال لاستطعنا أن نضع تصورنا حول تلك الفجوة التى بيننا وبين غيبة الحل الإسلامى، ونحصر حلنا حول كفاح الجهالة وبث المزيد من المعرفة، وأنحينا بالائمة على الأزهر وعلى تقصيره وعلى المؤسسات التعليمية والتربوية، ونادينا بمزيد من النشاط الثقافى والتعليمى.. لكن مشكلتنا مع الإسلام ليست من هذا القبيل، لأننا نعلم أن المسلم منذ أن يولد يتلقى دينه من أبويه عقيدة، وما ينبغى أن يكون عليه سلوكه، ويتلقاه فى المسجد ويتعلمه فى المدارس والجامعات وفق مناهج الثقافة الإسلامية، ثم أخيراً ما تنشره عليه الكتب والمجلات.. على أية حال هذه وجهة نظر لها أنصارها يدافعون عنها، وفى سبيل الدفاع عن وجهة نظرهم يركزون على تقصير أجهزة الإعلام وإلقاء التبعية على مؤسسات التعليم.. أو أن مشكلتنا مع الإسلام هى نوع من اضطراب فى العلاقة التى تربط بين المسلم وإسلامه وبين حضارته، أو بمعنى آخر هى جمود المسلم، أى عدم تجاوب المسلم مع الإسلام من ناحية، ومع الحضارة من ناحية أخرى.. وهذا لا نخاله ناتجاً إلا من توهم الخوف على الإسلام من أن تحتويه أو تهزه أو تعصف به تيارات المذاهب الحضارية التى تقوم أساساً على نوع من الاعتبار الإنسانى، وتأخذ فى اعتبارها قيمة التجربة الإنسانية.. ومما لا ريب فيه أننا لو استسلمنا لعقيدة الخوف لوقعنا فى نفس المشكلات التى وقعت فيها أوروبا قبيل عصر النهضة، وتحولنا بالإسلام إلى مسيحية كنيسة نرفض به المواقف العقلية ونتجمد حول مواقف الرفض، وتصبح وظيفتنا مع الإسلام هى إلغاء وظيفة العقل الأساسية التى هى: الفكر والتفكير، مع أن ديننا ليست فيه طاعة سلبية لأوامر الكهنة أو معتقدات باطلة.

يبدو أن أغلب الناس تصوروا أن تلك مشكلتهم مع الإسلام لذلك رأينا كتابات كثيرة حول المذاهب العقلية الإنسانية والإسلام.. وتصوروا أنهم بذلك أدوا ما عليهم نحو تصورهم لمشكلتنا مع الإسلام.. هكذا خيل إليهم، ولهم أن يتخيلوا، لكن عليهم أن يعلموا أنهم أبعد الناس فهما عن التجاوب بين الإسلام والحضارة من جانب، وأشد مناقضة لأنفسهم أخيراً من جانب آخر.

أما عن بعدهم عن فهم قضية التجاوب

فهم يعلمون أن الإسلام منوط بالعقل والتفكير، وكما يقول العقاد «التفكير فريضة إسلامية» إذا وضح ذلك فلا خوف على الإسلام من العقل وتياراته.

أما عن مناقضتهم لأنفسهم فإن منهجهم اقتضاهم مناقشة تيارات العقل الفكرية بنصوص إسلامية.. فلو كان الإسلام ألغى العقل ووظيفته لما حرم المسكرات وكل ما يعوق العقل عن وظيفته، ولا وجدنا من بين نصوص الإسلام ما يجادل تيارات العقل الفكرية.

لذلك نقول: إنه لا خوف على الإسلام من هذا الجانب، وليست مشكلتنا معه وفق هذا التصور.. فليست مشكلتنا مع الماركسية ولا مع الرأسمالية، إنما مشكلتنا مع أنفسنا.

إن مثل هذه الكتابات تصور لنا جبهات غير حقيقية لمشكلتنا مع الإسلام. كما تشير إلى انقسامات فى الأمة الإسلامية فى الفكر والتطبيق.. ونحب أن نطيل النظر حول موقفنا الفكرى من تلك القضايا ومنهج معالجتها من خلال المؤلفات الدينية والإسلامية التى تكثر يوماً بعد يوم، تغرى القارىء المثقف عناوينها المختلفة، ولا يكاد النظر يمتد إليها إلا ويرتد مطمئنا من فيضها الزاخر فبعض من فيضها يؤذن بازدهار الثقافة الدينية فى عالمنا المعاصر الذى يتميز بالحركة غير العاقلة فى بعض جوانبه، ومازالت كثرتها تبعث فى ذهن القارىء المتابع للحركة الثقافية تساؤلات من عدة جوانب لدى من يحب بحثها كظاهرة ثقافية تلفت النظر، منها: هل هذه الكثرة صادقة النية فيما تكتب؟

هل هذا الفيض الزاخر من المؤلفات عالج موضوعات ترفع من شأن توظيف الإسلام بين الإيديولوجيات المعاصرة؟

هل حاولت الطبقة التى نهضت بالكتابة عن الإسلام أن تبحث عن ضرورة الحوار الفكرى كما يفعل مناصرو الإيديولوجيات الأخرى؟..

هل حاول الذين هم أنصع فكرة فى الفهم الراشد فى الميدان الاجتماعى للإسلام أن يشيروا إلى ما يجب الكتابة فيه؟

يرسل الخاطر أسئلة بقصد، ومن غير قصد، مبعثها السيل الجارف من المؤلفات الإسلامية التى تغمر المكتبات والميدان الثقافى ومع ذلك مازلنا فى مفترق الطريق.. لماذا؟

إننا مازلنا فى مسيس الحاجة إلى فهم طبيعة الفجوة التى بيننا وبين الإسلام ليتحدد مسلكنا الحضارى وإطارنا الفكرى، فما هى المشكلة؟ إذا صدق الأساس العقلى لهذه الأسئلة فإن الأمر يصبح بحاجة إلى شرح وإبراز خفايا النوايا الطيبة للصدق النفسى كى لا يرى غيرنا أنها من سوء الظن أو مرض الوهم.

إن بعض هذه الكتب تكفل بمحاربة الإلحاد مع أن الإلحاد مشكلة قديمة وظاهرة تواكب ظاهرة التدين فى قوتها.. والظاهرة قد تظهر فى شكل من الاستهزاء إما تظرفا وتجدداً، وإما

مجونا وفسوقا، وإما شكا ورفضا للعقائد والمقررات الدينية.

أما الإلحاد فى عالمنا المعاصر فهو شىء آخر قد يظهر فى شكل مذهب غير عقائدى كالماركسية لها دعاتها ومؤسساتها التى تخدمها، وفى سبيل مناهضتها ومكافحتها ظهر هذا السيل من المؤلفات الدينية، ويقول الجاحظ: ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين، يرى أنه متكلم «من علماء الكلام» وإنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد.

ونحن نرى أن الدعوة إلى مناهضة الإلحاد دعوة توحد بين الأديان جميعاً: الإسلام والمسيحية، واليهودية، دون تفريق بينها، لذلك تعتبر مناهضة الإلحاد هدف جميع الأديان السماوية من حيث هى أديان سماوية. فهل نستطيع من توحيد وحدة الهدف هذه أن نجعل من مكافحة الإلحاد بشتى ألوانه دعوة عالمية تتبناها الأديان جميعها؟ تلك دعوى تحتاج إلى توحيد الجهود إن كنا صادقين.. ثم بعد ذلك ننظر إلى ما يتميز به الإسلام عنها وهو شمول نظامه: الدينى، والسياسى، والاجتماعى، وذلك ما لم تزعمه الأديان الأخرى لنفسها.

هذه الشمولية التى ينفرد بها الإسلام، تحتم علينا أن ننظر من جديد: حول تقييم موقفنا من الإيديولوجيات التى ملأت الساحة الثقافية وقسمت الوطن العربى والإسلامى إلى من يتملق الغرب وإلى من يمالئ الشرق الماركسى، وجاءت إلينا من أوسع أبوابها.

ومن وجهة نظرنا: إن الكتاب الإسلاميين الذين حصروا موقفهم الثقافى فى الدفاع ضد الإلحاد الماركسى وحده قد قصروا - إن كانوا دعاة - عن فهم شمولية الإسلام أو لعب بهم الهوى أن كانوا سياسيين.

أما الذين قصروا فى عرض قضية الإسلام والماركسية فهم الذين حصروا منهجهم فى الدفاع عن الإسلام حينما عرضوا لمكافحة الماركسية، وكانت وجهة نظرهم لا تعدو أن تكون تشنيعاً على الماركسية بأنها دعت فى حماس زائد إلى التحلل من الدين، ومن قواعد الإيمان الدينى، تراهم أخذوا عليها هذا الجانب فقط وتناولوه بالنقد والرد دون أن يمتد نظرهم إلى إبراز نظام الإسلام المتكامل ودون معالجة الفجوة التى بيننا وبين التطبيق الإسلامى.

وأما الذين لعب بهم الهوى، فهم الذين شايعوا وجهة النظر السياسية التى ترفض التعاون مع الكتلة الشرقية، تراهم جندوا الإسلام لمكافحة الماركسية مع أنهم كانوا من قبل قد جندوا الإسلام للدعوة إلى الاشتراكية: غير أنهم جعلوها مؤمنة.

أصبح الإسلام - فى نظر هؤلاء، أى الذين قصر نظرهم الثقافى والدينى - دعوة إلى الإيمان فقط.

وفق نظر هؤلاء - أى الذين لعب بهم الهوى - جعلوا الإسلام أسلوب دعوة يخدم السياسة وأهواءها ليس إلا.

بين على عبدالرازق والخضر حسين

قضية وكتابان

١

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة

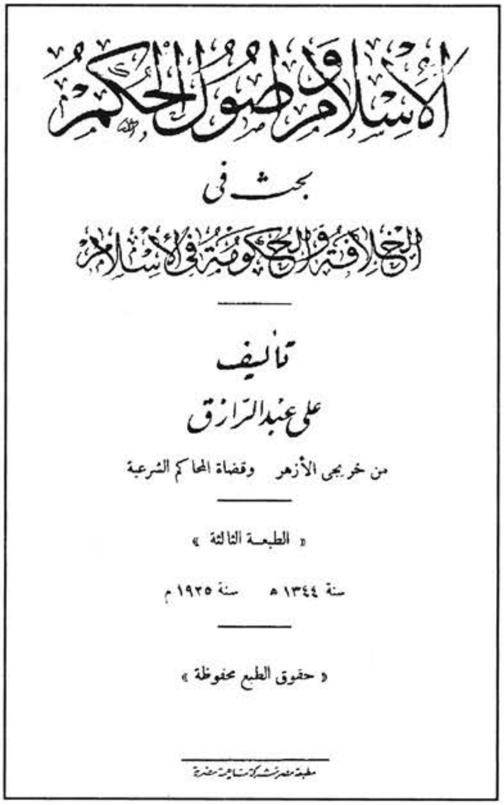

الإسلام وأصول الحكم

بحث في

الخلافة والحكومة في الإسلام

تأليف

علي عبد الرازق

من خريجي الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية

« الطبعة الثالثة »

سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م

« حقوق الطبع محفوظة »

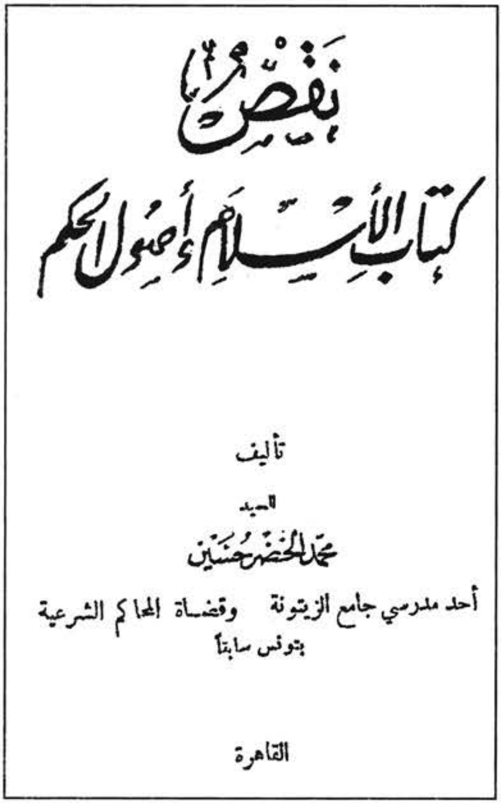

نقض

كتاب الإسلام وأصول الحكم

تأليف

السيد

محمد الخضر حسين

أحد مدرسي جامع الزيتونة وقضاة المحاكم الشرعية

بتونس سابقاً

القاهرة

كانت « العلمانية » - بما تعنيه من فصل الدين عن الدولة - بالنسبة للواقع العربى والإسلامى - وقبل أن يتبلور فى حياتنا الفكرية، فى القرن التاسع عشر الميلادى، تيار مجلة [المقتطف] [١٨٧٦ - ١٩٥٢م] وصحيفة [المقطم] [١٨٨٩ - ١٩٥٢م] - كانت « العلمانية » بالنسبة لنا، قبل تبلور هذا التيار، لا تعدو أن تكون نبتا أوربيا خالصا وخاصا، نسمع عنها ونقرأ حولها كما نسمع ونقرأ عن الأفكار التى لا علاقة لها بتاريخنا القديم أو واقعنا الحديث.. فهى قضية من قضايا الفكر الأوربى، خاصة به، أثمرتها الملابسات الخاصة بواقع القرون الوسطى والمظلمة التى عاشها الأوربيون تحت الهيمنة المستبدة للكنيسة الكاثوليكية.. لم ينبت لها نبت، بل ولم توضع لها بذرة واحدة فى أرض العروبة والإسلام.

أما بعد تبلور تيار [المقتطف] و[المقطم] - يعقوب صروف [١٨٥٢-١٩٢٧م] وفارس نمر [١٨٥٦-١٩٥١م] وشاهين مكاريوس [١٨٥٣-١٩١٠م] - ومن نحا نحو هذا التيار فى هذه القضية، من مثل شبلى شميل [١٨٦٠-١٩١٧م] ونقولا حداد [١٨٧٨-١٩٥٤م] ووجرجى زيدان [١٨٦١-١٩١٤م] وفرح أنطون [١٨٧٤-١٩٢٢م] وسلامة موسى [١٨٨٨-١٩٥٨م] - وذيوله المعاصرة - ... أما بعد تبلور هذا التيار العلمانى، فلقد ظلت «العلمانية» مجرد خيار غير إسلامى لنفر من غير المسلمين، أنشأه وبلوره وزكاه - لدى بعضهم - : العداء المستكن للإسلام، والإعجاب المفرط، إلى درجة الانبهار والتقليد للحضارة الغربية، ورد الفعل الحاد لمأساة التعصب الطائفى الذى لعب الاستعمار الدور الأول فى إشعال ناره بلبنان والشام سنة ١٨٦٠م.. إلى جانب الرفض المشروع والمبرر لبعض ممارسات الدولة العثمانية. المحسوبة - ظلما وافتراء - على الإسلام وموقفه من «الكتابيين» غير المسلمين.

لقد ظلت «العلمانية» خاصية من خصائص هذا التيار، بلورها فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وصحبها، مع ذيوله، إلى الربع الأول من القرن العشرين.. لم يشاركه فى القول بها، فضلا عن الدعوة إليها مفكر مسلم.. إلى أن كان شهر إبريل سنة ١٩٢٥م عندما طلع علينا المرحوم الشيخ على عبدالرازق [١٣٠٥-١٣٨٦هـ ١٨٨٧-١٩٦٦م] بكتابه: [الإسلام وأصول الحكم] فكان أول كاتب مسلم يسعى إلى زرع «العلمانية» فى العقل الإسلامى، وفى واقع المسلمين.

ولقد كان أخطر ما فى هذه المحاولة الوحيدة والفريدة، أنها قد جاءت فى «ثوب إسلامى» وتحت «رايات إسلامية»، ومن عالم فاضل تخرج فى الجامع الأزهر، ويشغل منصب القاضى فى المحاكم الشرعية الإسلامية.

فبعد أن كانت «العلمانية» حلاً أوربياً خاصاً لمشكل أوربى خالص، لا يدعو إليه، فى واقعنا الفكرى، سوى نفر من غير الإسلاميين غير المسلمين، المقلدين لحضارة الغرب.. جاء الشيخ على عبدالرازق فتصور القضية، فى الفكر الإسلامى وفى واقع المسلمين، القديم والحديث، على النحو الذى كانت عليه فى المسيحية الكاثوليكية وفى واقعها الأوربى!..

● **فالإسلام، عنده: دين لا سياسة.. ورسالة لا حكم.. وروحانية لا دولة.. وبلاغ مجرد عن التنفيذ - كما كانت**

المسيحية الأولى دعوة لـ «دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

● والخلافة الإسلامية، عنده: كانت «كهنوتا».. خليفة مستبد، لا يُسْأل عما يفعل، لأنه يستمد سلطانه من الله - كما كان الحال مع تجربة الحكم «بالحق الإلهى» فى أوربا المسيحية، عندما ساد تحالف الكنيسة والأباطرة والملوك -.

● ولذلك، فلقد تصور الشيخ على عبدالرازق الحل عندنا - كما كان فى أوربا الكاثوليكية - هو «العلمانية»!..

لقد صور الإسلام، فى هذا الجانب: مسيحية.. وصور الخلافة الإسلامية، تاريخيا: كهانة كنسية وحكما، مستبدا، بالحق الإلهى.. فكانت «العلمانية» عنده، بسبب هذا التصور، حلا إسلاميا لمشكل إسلامى، بعد أن كانت - قبل كتابه (الإسلام وأصول الحكم) - حلاً أوربياً خاصاً لمشكل أوربى خالص، لا يدعو إليه، فى بلادنا، سوى نفر قليل من غير المسلمين المقلدين للحضارة الغربية!..

* * *

وإذا كان أبناء المرحوم الشيخ على عبدالرازق يؤكدون أن أباهم قد عدل، أواخر حياته، عن تصوره هذا، وتراجع عن دعواه هذه.. فرفض إعادة طبع كتابه.. وهَمّ بكتابة نقد ذاتى للأفكار المحورية التى تضمنها كتابه، لكن الأجل وافاه قبل أن يتمه.. إذا كان هذا هو أمر الشيخ ورجوعه عن «العلمانية»، فإن كتابه الذى ادعى «علمنة الإسلام» لا يزال شهيراً، يحمل سحراً خاصاً لدى قطاع مؤثر من المفكرين والمثقفين والقراء على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام.

والذين عاشوا تلك الحقبة التى ظهر فيها كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، وكذلك الذين درسوا الأحداث الفكرية لتلك الحقبة، يعلمون أنه قد صدرت كتب ونشرت دراسات عديدة، ردت على دعاوى الشيخ على عبدالرازق، وفندت ما حواه كتابه من آراء.. وكل هؤلاء يعلمون أن على رأس هذه الردود يأتى كتاب الشيخ الفاضل والمجدد الإسلامى الإمام الأكبر محمد الخضر حسين [١٢٩٣-١٣٧٧هـ ١٨٧٦-١٩٥٨م]، الذى حمل عنوان: [نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم].

وأمام هذه الحقيقة من حقائق تاريخنا الفكرى، تبرز مفارقات وتساؤلات:

● فكم من الناس هم المفتونون بعلى عبدالرازق.. حتى ولو لم يقرأوا كتابه؟!..

● وكم من الناس قد سمع ويسمع بالخضر حسين؟.. فضلا عن كتابه الذى نقض به بناء كتاب على عبدالرازق؟!..

إن قطاعات مؤثرة من الحركة الفكرية، وفيها، تنحاز للعلمانية - دون أن تدرى خصوصية نشأتها الأوربية - وهذه القطاعات تتصور الإسلام علمانيا - دين لا دولة، ورسالة لا حكم - لأن الشيخ على عبدالرازق قد قال ذلك سنة ١٩٢٥م.. دون أن تعرف أن هناك من نقض هذه المقولة وفند هذه الدعوى بمنطق وبراعة يشهدان للعقل العربى والمسلم بالأصالة والتفوق والإبداع.

كذلك، فإن هناك قطاعات مؤثرة من الحركة الفكرية، وفيها، يدينون على عبدالرازق، دون أن يقرأوه!.. وأخطر من ذلك تصورهم أن الرد عليه وعلى «العلمانية» هو «غثاؤهم الفكرى» الذى يعرض الإسلام: «كهانة».. و«دولة دينية».. و«حاكمية» تجرد الأمة من حقها فى أن تكون - حيال السياسة والدولة وتنظيم المجتمع وعمارة الكون - هى مصدر السلطات.. الأمر الذى يؤدى - شاءت تلك القطاعات «الإسلامية» أو لم تشأ - إلى أن يصبح هذا «الغثاء الفكرى» هو المرتكز الذى يبرر به العلمانيون «العلمانية» التى إليها يدعون وبها يبشرون!..

ومن سخريات حياتنا الفكرية أن هذه القطاعات «الإسلامية» لا تدرى أن كتاب على عبدالرازق قد نقضه وفنده علماء لم يسلكوا لذلك سبيل تجريد الأمة الاسلامية من حقها - بل واجبها - فى أن تكون مصدر السلطات!

ومن هنا جاء اعتقادنا الراسخ بأنه لا شئ يسهم فى ترشيد الحركة الفكرية، بفصائلها وتياراتها المختلفة، مثل: الوعى بالمقولات موطن الخلاف.. والإحاطة الواعية بمعالم الصراع الفكرى الخصب الذى دار حول هذه القضية الجوهرية من قضايا ديننا ودنيانا.. وتأمل وثائقها الفكرية التى جمعت حجج مختلف الأطراف والفرقاء.. ثم الانطلاق من ذلك، وبعده، إلى الإبداع والإضافة، مواكبة للجديد الذى يطرحه الواقع الذى نعيش فيه.

«يتبـــع»

***

محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين

٥

للأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني

فى المقالات الأربعة، السابقة، واجهنا بكل موضوعية فرية المستشرقين، وهى: أن محمدا ﷺ هو الذى ألف القرآن فى غار حراء، حين كان يعتزل الناس فيه، ثم ادعى أنه وحى من الله إليه، وأنه رسول الله إلى الناس جميعا.!!

والقارىء يعرف أن هذا الوهم، الذى طنطن به المستشرقون قد صار ـ بعد المواجهة ـ هباء منثورا، حيث أثبتت المواجهة أنه محال عقلا وواقعا، أن يكون للقرآن مصدر غير الله، المحيط علمه بكل شىء.

وبدءا من هذا المقال نواجه خرافة أخرى من خرافات المستشرقين، وهم يكتبون عن خاتم النبيين ﷺ وهى قريبة الشبه جدا بالخرافة السابقة، المشار إليها آنفا، ويمكن تصوير هذه الخرافة فى العبارة الآتية:

«رسول صادق، ولكن رسالته كاذبة»!!

فى الخرافة الأولى: اتهموه بتعمد الكذب ١٠٠٪، وفى هذه الخرافة تظاهروا بتبرئته هو من الكذب، ثم اتهموا رسالته ـ يعنون واقعيات الرسالة ـ عقائد و عبادات، ومعاملات، وأخلاقا، وقيما، ومبادىء، وقصصا ـ بالكذب ١٠٠٪ كذلك.!!

لكن الهدف من الخرافتين واحد لم يطر عليه أى تعديل، وهو: أن الإسلام منظومة من الأوهام، وليس له مصدر سماوى قط!!

وهم حين تظاهروا بتبرئة محمد ﷺ من الكذب، رموه بنقيصة أخرى، هى أشد شناعة وقبحا من الكذب، وهى أنه «مخدوع»!!

ومحصول الخرافتين معا، هو ـ لا محالة ـ وصف محمد ﷺ بأنه:

- إما مخادع كاذب «الخرافة الأولى».
- وإما مخدوع موهوم «الخرافة الثانية».

وفى مقدمة هؤلاء المستشرقين: رودنسون، ولودى[1] ورودول،[2] وغيرهم.

(١) مصدر القرآن، إبراهيم عوض ص١٤٨.

(٢) الإسلام فى عصر العلم، للدكتور محمد أحمد الغمراوى ص١١٢.

وواقعيات رسالة محمد ﷺ ليست من صنعه هو، وإنما هى من صنع الله ـ عز وجل ـ أعنى أن هذا النفر الحاقد من المستشرقين، حوَّلوا مجرى الخصومة، فصار المتهم بالكذب ـ عندهم ـ هو الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا، بعد أن كانوا يخاصمون النبى فى الخرافة الأولى والذى دفعهم إلى تبرئة محمد من الكذب، فى هذه الخرافة، هو محاولة التوفيق بين ما يقولونه على الإسلام من افتراءات، وبين ما عرفه الواقع من صدق الرسول ﷺ فى حياته كلها، فأدركوا أن اتهامهم له بالكذب دعوى لا يمكن قبولها. لأن ليس فى حياة الرسول ما يبررها عند الناس. ولو كانوا من ألد خصومه.

ولو كان هؤلاء المستشرقون عقلاء، يحترمون عقولهم، لأدركوا أن واقعيات رسالة محمد ﷺ لها من الصدق والصحة، والبراءة من كل خلل أو عيب، ما للرسول نفسه، الذى عجزوا عن نسبة الكذب إليه، فاعترفوا ـ مكرهين ـ بصدقه، لما رأوا أن سيرته الطاهرة لا يمكن عقلا وواقعا أن يوصف شىء منها بالكذب وكذلك واقعيات رسالته، لا يمكن عقلا وواقعا وصف أى عنصر منها بالكذب، أو ما هو أوسع دوائر من الكذب، وهو: الخطأ.

فكلها صدق وحق، وصواب وصحة، ومع هذا فقد تمادوا فى وصفها بالكذب، ولم يصفوها بالصدق – كما وصفوا به الرسول، وهم مكرهون، لأنهم لو أقروا بصدق الرسول مع صدق الرسالة، لوجب عليهم أن يعلنوا فورا خروجهم عن الباطل الذى هم عليه، لأن الإيمان به مع الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، مستحيل، مستحيل.

●●●

ومن حسن حظنا، وسوء حظهم، أن بضاعتنا جاهزة وصالحة للفحص، فمن ارتاب فى شىء منها، فعليه أن يتجرد من هواه، ويقبل على الإسلام، أو واقعيات الرسالة الخاتمة، ويختبرها أصلا أصلا، وفرعا فرعا. ونحن واثقون أنهم لن يجدوا فيها ما يريب،أو ينزع عنها مثقال ذرة من الثقة:

فليختبروا ما فى واقعيات الرسالة الخاتمة من:

عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وتشريع، وقصص، ولا نريد أن نثقل عليهم – سواء كانوا من أهل التوراة، أو من أهل الإنجيل ـ فنطالبهم بأن يجروا مقارنة، بين الرسالات وأن يفحصوا واقعيات الرسالة الخاتمة، وهى كفيلة ـ إذا تركوا التعصب والعناد ـ أن تنتشلهم مما هم فيه وتحملهم إلى ساحات الحق الفواحة بشذا الإيمان.

●●●

لقد اعترفوا بصدق الرسول، وهذا حق، سواء اعتقدوه، أم كان نوعا من الهروب سوَّلته لهم أنفسهم حتى لا ينفضحوا.

وكى يبرروا صدق الرسول، ويظهروه فى صورة مخدوع موهوم، قالوا:

إن ظروف نشأة محمد ﷺ بين اليتم، حيث فقد أباه وهو جنين فى رحم أمه، وفقد أمه وهو فى السادسة من عمره.

وبين الفقر المدقع الذى أخذ بتلابيبه، وبين الحرمان الذى صاحب صباه وشطرا من شبابه،

وبين انتمائه إلى عائلة ليست عريقة.!!

كل هذه العوامل ولدت عنده شعورا بالكبت، وملأت نفسه بالرغبات الحالمة، كتعويض عما كان يحس به من فاقة ومحاولة للخروج منها، ومن الشعور بالنقص، فكان يحلم أنه سيكون له شأن.. ثم خيل إليه أنه رأى ملاك الرب، وأنه نزل عليه من الله وحى، وأنه صار رسول الله.

●●●

ومواجهتنا لهذه الفرية، التى باء بإثمها المستشرقون، لها مداخل كثيرة، نبدأ منها بهذا المدخل:

صدق رسالة حق بمقاييس صدق الرسالات عند أهل الكتاب. أهل الكتاب: مصطلح قرآنى إذا أطلق صح أن يشمل كلا من اليهود والنصارى، ما لم يكن فى الكلام، أو فى المقام دليل يخصص المراد منه فى طائفة واحدة دون الأخرى منهما، أما نحن فقد قصدنا من ذكر أهل الكتاب هنا، الطائفتين معا: اليهود والنصارى، وإن كنا سنسوق الأدلة من العهد القديم «التوراة»، لأن النصارى يعتبرون التوراة جزءا من الكتاب المقدس كالأناجيل التى بين أيديهم الآن.

ومواجهتنا لهم ـ معا ـ تقوم على ذكر ما ورد فى التوراة من معايير صدق رسالة أى رسول. وقد ورد فى التوراة معياران لمعرفة صدق الرسالة والرسول. وهما فى إيجاز يعقبه تفصيل:

المعيار الأول: صدق التنبؤات، التى يُخبر بها النبى، أى نبى.

المعيار الثانى: دعوة النبى إلى عبادة الله الواحد الذى لا معبود سواه.

وأى نبى يتحقق فيه هذان الأمران، فهو رسول صادق، جاء برسالة صادقة.

هذا هو مفهوم الصدق عند اليهود والنصارى، وفى المعيار الأول تقول التوراة:

«قال الرب لموسى، ولبنى إسرائيل: إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حُلما، وأعطاك آية ـ يعنى معجزة ـ أو أعجوبة، ولو حدثت الآية، أو الأعجوبة، التى كلمك عنها، قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى، فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم: هل تحبون الرب إلهكم، وإياه تعبدون، وبه تلتصقون.

«وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل، لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم»(٣).

فالدعوة إلى التوحيد الخالص سمة من سمات صدق الرسالة والرسول، وإذا دعا مدعى النبوة إلى عبادة غير الله فهو كاذب حتى لو اقترن بدعواه بعض الخوارق والمعجزات ولا تكتفى التوراة بتكذيب «هذا النبى» بل تنص على أن «الرب الإله» قضى عليه بالقتل.

وفى المعيار الثانى تقول التوراة:

«قال الرب لموسى، ولبنى إسرائيل:

«وإن قلت فى قلبك: كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم

(٣) سفر التثنية (الإصحاح ١٣: فقرة ١: ٥).

الرب، ولم يحدث ولم يصر – أى لم تحدث له معجزة – فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبى، فلا تخف منه»(٤).

وهذان المعياران، من حيث الجملة، معياران صادقان ومما يعتبرهما الإسلام أساسين يدلان على صدق الرسالة والرسول.

إذا تقرر هذا فإننا نقول بكل ثقة: إن وجود هذين المعيارين فى التوراة التى يؤمن بها اليهود والنصارى على حد سواء يلزم كلتا الطائفتين بالإيمان الجازم بصدق محمد ﷺ وبصدق رسالته، وهما يقولان ـ كما تقدم ـ أن محمدا صادق، ولكنه مخدوع موهوم!

وأن رسالته كاذبة!!

وذلك لأن هذين المعيارين:

● الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد بلا شريك.

● وصدق التنبؤات التى أخبر بها ﷺ سمتان ظاهرتان فى الرسالة الخاتمة، بل ليس لهما مثيل فى العهدين القديم والجديد «التوراة والإنجيل»(٥).

●●●

فالدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والإقرار له بالوحدانية فى الذات والصفات والأفعال، تمثل فى القرآن وفى السنة، وهما أساسا الإسلام، خطوط العرض والطول وكل ما عداها فى خطاب الشرع الإسلامى عُرَى مشدودة إلى عقيدة التوحيد، سواء فى ذلك ما أنشأه الإسلام إنشاء فى خطاب الله والرسول للمسلمين، أو ماحكاه عن رسالات الرسل السابقين، مثل نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ

وإذا ولينا وجوهنا شطر القرآن وحده، ضاق بنا المقام عن ذكر عُشْر معشار ما ورد فيه مناصرا لعقيدة التوحيد وإفراد الله ـ عز وجل ـ بالعبادة، لذلك نكتفى بما قل ودل من آيات القرآن العظيم.

وليكن باكورة ما تذكره، أية الكرسى، وفيها يقول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٦).

ولا نعلم كلاما فى غير القرآن مجد الله هذا التمجيد، أو عظمه هذا التعظيم.

وقد اشتملت هذه الآية العظيمة الشأن على المعانى القدسية الآتية نذكرها فى إيجاز:

● تقرير وحدانية الله جل ثناؤه.

● دوامه الذى لا يلحقه، ولم يتقدم عليه فناء.

● هيمنته التى لا نظير لها.

---

(٤) سفر التثنية (الإصحاح ١٨: فقرة ٢١ ـ ٢٢).

(٥) أما ما قصه الله علينا فى القرآن عن الأنبياء والرسل، ومنهم موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ فهو صدق كله.

(٦) البقرة (٢٥٥).

● سلب أدنى درجات الغفلة عنه.

● ملكيته الخالصة للكون كله، علوية وسفلية وما بينهما.

● تفرده بالتصرف والسلطان.

● علمه الدقيق بأحوال العباد.

● لا يدرك أحد كنه علمه، ولو بمقدار يسير إلا إذا شاء هو.

● إحاطة علمه بواقعيات الكون كله علوا وسفلا.

● حفظه خلقه جميعا. أحياء وجمادا.

● تفرده بالكبرياء والعظمة.

هذه الآية لو لم يكن فى واقعيات رسالة محمد ﷺ غيرها من عقيدة التوحيد، لكانت وافية بالمقصود منه على أعلى مستوى، لأنها لم تقف عند تقرير وحدانية الله الواحد الأحد، بل ضمت إليه كماليات التوحيد وجمالياته وجلالياته، سالبة عنه ـ عز وجل ـ نقائض تلك الصفات والمحامد، التى يسمو بها التوحيد فى رسالة محمد سموا ليس بعده غاية، تدرك.

وليت شعرى ماذا يكون صدق رسالة إذا كان ما قررته رسالة محمد ـ هنا ـ صورة من صور الكذب الذى وصمها به أولئك المستشرقون؟

أجل؛ إذا كان هذا كذبا فليرنا هؤلاء المستشرقون أين هو الصدق فى التوحيد، فى أى عهديهم القديم والجديد؟

وإذا كانت آية الكرسى الآنفة الذكر، قد قررت فى منطوقها ومفهومها التوحيد الخالص لله، بكل ما فيه من كمال وجلال وجمال، فإن فى واقعيات رسالة محمد ﷺ نُصرة لعقيدة التوحيد من زاوية أخرى:

تلك الزاوية هى إقامة البراهين القاطعة على وحدانية الله عز وجل بما يقطع الطريق بكل حسم أمام كل شاك أو مرتاب ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد ما يأتى:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٧).

هذا أحد البراهين العقلية على توحيد الله، ونفى التعدد ودلالته القاطعة تدرك من الواقع المحسوس. فالكون كله يسير على نظام محكم بديع، ولو كان مع آلهة أخرى لاختل هذا النظام، ولاضطرب نظام الكون، ولكننا لا نرى إلا إحكاما فى الصنع، وحكمة فى التصرف، فذلك هو الدليل العقلى على تفرد الله بالألوهية والسلطان. ولن ينكر هذا إلا من اختل عقله، وذهب صوابه، وصار من عداد الجمادات، بل إن الجمادات لتسبح بحمد ربها وإن كنا لا نعى من ذلك شيئا

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(٨).

وفى القرآن أدلة وبراهين أخر تُجلى للعقل وحدانية الله ـ عز وجل ـ لم نرد الإطالة بذكرها.

أما إفراد الله بالعبادة فنكتفى توضيحا للإيجاز

(٧) المؤمنون (٩١).

(٨) الإسراء (٤٤).

بآية واحدة، هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٩]

وما أكثر ما ورد فى القرآن الكريم من الدعوة إلى إفراد الله بالعبادات، والتحذير من عبادة غير الله وبهذا يكون المعيار الأول لصدق الرسالة قد تحقق بما لا يدع وليجة للنزاع، وعلى هذا فإن رسالة محمد ﷺ صادقة ٥٠٪ باعتبار تحقق المعيار الأول، كما جاء فى التوراة، فى سمات صدق الرسالة والرسول.

أما المعيار الثانى، وهو صدق التنبؤات التى يخبر بها الرسول، فلدينا على تحققه فى الرسالة الخاتمة ما يضيق المقام عن ذكره، أو مجرد الإشارة إليه.

ونكتفى منه بذكر مثالين لا يملك الخصم مبررا أيا كان للطعن فيهما، أو فى أحدهما صدق واقعيات الرسالة، ومنها صدق التنبؤات، شيء القرآن به حافل.. ومنها ما أخبر به القرآن الحكيم قبل وقوعه بما يقارب عشر سنين، وهو:

انتصار الروم على الفرس، فى زمن حدده القرآن، فجاء ذلك الانتصار فى الإطار الزمنى الذى حدده القرآن، وفى ذلك يقول القرآن واعدا بانتصار الروم، وهزيمة الفرس:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١٠]

هذه الواقعة كثير من المستشرقين احتفل بها، وسجلها فى مصنفات علمية، مثبتا أن حصول النصر للروم كان بعد إخبار القرآن عنه، وأن الأوضاع تحولت بسرعة فى المعسكرين المتخاصمين:

– هبوط فى معسكر الفرس مؤذن بالانكسار.

– وصعود فى معسكر الروم مؤذن بالانتصار.

– ومن المستشرقين الذين احتفلوا بهذه الواقعة:

المؤرخ الإنجليزى ستيفن رنسيمان[١١].

والمستشرق كارل بروكلمان[١٢].

هذا الحدث التاريخى العظيم حقيقة لايرتاب فيها أحد لا فى الغرب، ولا فى الشرق.

وليست هى أنبوءة واحدة، بل هى أنبوءات من حيث التحليل والتفصيل:

● وقوع النصر فى جانب، والهزيمة فى جانب آخر.

(٩) الإسراء (٢٣).

(١٠) الروم (١: ٥)

(١١) الحروب الصليبية (١/٢٤: ٢٧)

(١٢) موسوعة تاريخ العلم (٤٧٨/٢) وانظر الإسلام والأديان الأخرى، لواء أحمد عبدالوهاب ص٦٤.

● التحديد الزمنى .

● فرح المؤمنين « المسلمين » بانتصار الروم على الفرس ردا على فرح الوثنيين فى مكة، بانتصار الفرس وهزيمة الروم أولا .

ونسأل السادة المستشرقين، الذين اتهموا رسالة محمد ﷺ بالكذب :

أين الكذب فى هذه الواقعة؟ وقد شهد شاهد أهلكم فقال :

« هلل المكيون لهذه الانتصارات الفارسية، ولكن محمدا أعلن أتباعه أن الهزيمة لابد أن تحل بالفرس فى وقت قريب »[١٣] .

● ● ●

أما الأنبوءة الثانية فهى إعلام الله حفظ رسوله الكريم من أى اعتداء جسيم يقع عليه من الناس، وفى ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[١٤] .

وقد صدق وعده، فحفظ رسوله الكريم من كل سوء ولم ينل منه أعداؤه منالا يذكر، وهو يمشى بينهم ويخاطبهم ويبلغهم ما أنزل الله إليه، لم يكن له حراس من الناس بعد نزول هذه الآية، القاضية بحماية الله له، وظل يسير على الأرض آمنا غير عابىء بعدو، وإن مكر وحقد .

وظل فى آمن الله ورعايته حتى أدى رسالته كاملة غير منقوصة . وأعلن الله كمال الرسالة فى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[١٥] ثم انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقضى نحبه على فراشه وتحققت النبوءة الثانية، كما تحققت الأولى وبهذا استكملت رسالة محمد المعيارين اللذين ذكرهما الكتاب المقدس، الذى يؤمن به جميع المستشرقين، بصدق وصحة الرسالة، وصارت رسالة محمد ﷺ، رسالة، صادقة ١٠٠٪ لا ٥٠٪ باعتبار معايير الصدق والصحة، التى يؤمن بها المستشرقون وعلى هذا فيلزمهم الإيمان والتصديق الجازم بصدق رسالة محمد . فإن أبوا فإنهم يكونوا مكذبين بما ورد فى كتابهم المقدس . وهذا أمر خطير بالنسبة لقضية الإيمان الكتابى عندهم، يقلب أوضاعهم عقبا على رأس .

أما رسالة محمد ﷺ فلن يغيرها شىء . سواء سلموا بصدقها أم أصروا على وصفهم لها بالكذب . فهم وحدهم الخاسرون .

---

(١٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص٩٠.

(١٤) المائدة (٦٧).

(١٥) المائدة (٣).

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

لابن إسحاق

للدكتور

محمود علي مراد

(١)

ينقده ويعلق عليه

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين

فى العددين السابقين من مجلة الأزهر الغراء، ومع مقدم شهر ربيع الأول قدمت كتاب (سيرة النبى محمد) للكاتبة الانجليزية كارين أرمسترونج، تحية لصاحب الذكرى عليه الصلاة والسلام. وفى أثناء إعداد المقالين السابقين اتصل بى بعض الإخوة ينبئنى أن الدكتور محمود على مراد الذى كتبت من قبل فى مجلة الهلال ردا على مقاله فى سيرة ابن هشام.. هذا الدكتور قدمت له مطابع دار الهلال أخيرا كتابا بعنوان (سيرة رسول الله ﷺ)، آملين منى معاودة النظر فى ذلك الكتاب لتقديمه أو للرد عليه.

أما مقال الدكتور محمود على مراد فقد نشرت له مجلة الهلال فى أول يناير سنة ١٩٩٨ مقالا تحت عنوان (سيرة ابن هشام.. هل أنصفت الحقيقة) وجدت فيه ما حفزنى على الرد فى ثلاث مقالات، أفند فيها ما ساقه فى مقاله من افتراءات ومغالطات، نشرت منها مجلة الهلال مقالين اثنين فقط.

وفى ٢٠ / ٢ / ١٩٩٩ - وبعد قراءة المقالين - أرسل أخى الفاضل الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض الأستاذ بآداب عين شمس كتابه (إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية). فوجدت أنه مشكورا - بعد قراءته ما كتبته، وتلقيه رسالة من الدكتور مراد - أعد هذا الكتاب، ليفند كذلك مزاعم الدكتور عن ابن إسحاق وكتابه، مع إضافات أفادها من اطلاعه على أصل الكتاب، وجدت فيه ما يضئ الطريق أمامى، ويعرفنى بالدكتور أكثر مما عرفته من مقاله، فتأكد لدى ما كنت أراه ظنا يحتمل الصواب والخطأ.

بين يدى دراسة الدكتور مراد

أما الدكتور مراد فهو - كما ذكر فى مقدمة مقاله فى الهلال، وفيما أرسله إلى الدكتور إبراهيم عوض - مصرى، ولد سنة ١٩٢٦ بالخرطوم، ويقيم بجنيف منذ ربع قرن، وقد حصل على ليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية، ودبلوم دراسات عليا إنجليزى من فرنسا، ودبلوم دراسات عليا فى الدراسات العربية والإسلامية من فرنسا. ثم دكتوراه فى التاريخ الإسلامى من جامعة باريس (السربون الجديدة) فى (سيرة الرسول لابن إسحاق / ابن هشام - الفترة المكية) - وهى موضوع هذا الكتاب - بناء على اقتراح استاذه المشرف أن يترك الموضوع الأول، وأن يعد رسالة فى نقد سيرة ابن هشام. وكان قد سجل منذ نحو ٢٥ سنة موضوع رسالة دكتوراه دولة عن (برنارد شو والإسلام).

وأما الكتاب فهو الترجمة العربية لرسالته التى حصل بها على الدكتوراة سنة ١٩٩٧، ويضم ٥١٦ صفحة من القطع المتوسط، طبع مطابع دار الهلال سنة ٢٠٠٠، ولم يرد بالكتاب اسم المترجم، لأن الدكتور مراد لما حاول ترجمة الرسالة بنفسه لم تعجبه الترجمة، ففضل أن يحولها إلى مقالات يحاول أن ينشرها فى المجلات المصرية، لأنه فيها - على

حد قوله - يقدم استنتاجات تقلب المفاهيم التى استقرت فى موضوع السيرة على مدى ١٢ قرنا رأسا على عقب.. بدلا من أن يكون لها وقع القنبلة النووية إذا قدمت فى رسالة أو كتاب واحد[١].

ويبدو أنه بعد ردى عليه فى مقالين بمجلة الهلال آثر أن يهجم على غرضه سريعا بإلقاء قنبلته النووية، مستأنسا بمن يسَّر له أمر الطبع فى مطابع دار الهلال، ومن انبرى يقرظ الكتاب فى بعض الصحف المصرية.

والدكتور مراد قد وعد - فى رسالته للدكتور إبراهيم عوض - أن يواصل دراسته عن الفترة المدنية ليحصل على الدكتوراه من جامعة جنيف، إذا لم يجد إعتراضا على دراسته الأولى، يعتمد فيها على القرآن وحده، دون الحديث النبوى، لأن كتب الحديث بحرها غويط أولا، ولأن من اعتمدوا على كتب الحديث (بلعوا) كلام ابن إسحاق كما هو، ولم يدركوا ما فيه من مخالفة كبيرة للقرآن[٢].

وهكذا لم يكتف الدكتور بإلقاء قنبلته على السيرة النبوية، ولكنه صوبها كذلك إلى كتب الحديث، والمحدثين.

بين الموضوعية المحايدة والانطباعية الجائرة

والدكتور الذى لم تسعفه عربيته فى ترجمة رسالته إلى العربية، يجد لديه من القدرة والتمكن من العربية ما يتمكن به من نقد كتب الحديث، وليس كتاب ابن إسحاق وحده، فيذكر:

أنه لاحظ اعتماد كل من كتبوا فى السيرة حتى الآن على ابن إسحاق، وأنهم (بلعوا) كلامه كما هو، ولم يدركوا ما أدركه هو مما فيه من مخالفة كبيرة للقرآن، وأنه حيث عرض تلك الملاحظات على أستاذه المشرف، اقترح عليه أن يترك موضوع رسالة الأول، وأن يعد رسالة فى نقد سيرة ابن هشام.

وأنه لاحظ اشتمال سيرة ابن إسحاق على عدد من السمات الغريبة، سار وراءه فيها عشرات كتب السيرة التى رجع إليها!

وقد أجمل هذه السمات فى خمس هى: قلة مادة الحديث عن الفترة المكية، وإبراز صورة محمد فى الفترة المكية بأنه محمى أو ينشد الحماية، وضآلة الحيز المخصص لحالات اعتناق الإسلام، وعدم وجود أية بيانات عن انتشار الإسلام خارج مكة والمدينة، وتصوير محمد فى المدينة بأنه رجل حرب.

وأنه حين رجع إلى كتب السيرة المختلفة وجد - دون جهد كبير - أن ما فيها من معلومات قد استمدت من السيرة القديمة التى تحمل اسم ابن هشام، والتى كان مؤلفها هو ابن إسحاق، كما وجد أنها هى الأصل فى معظم السمات التى استوقفته فيما ألف فى العصر الحديث من كتب السيرة النبوية[٣].

(١) انظر: رسالته للدكتور إبراهيم عوض فى كتاب (إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النوية) ١٦ - ٢٠.

(٢) السابق صـ ١٨.

(٣) سيرة الرسول لمحمود على مراد: ٢/١.

ويبدو أن تلك الملاحظات ـ على ما فيها من جرأة مغرورة ـ فتحت شهية من يتحينون الفرص للانقضاض على الإسلام، والانتقاص منه ومن رسوله محمد ﷺ، فأغرى الدكتور مراد بأن يستبدل ذلك الموضوع بموضوع رسالته الأول، أو لعل الدكتور مراد نفسه رأى فى ذلك الموضوع ما يرضى أساتذته فى السربون، ويخلصه من موضوعه الذى لم يستطع إعداده على مدى نحو ٢٥ سنة، وقد يكون هذا وذاك، أو لا هذا ولا ذاك، وإنما دفع اليه العجلة والغفلة عن الحقيقة، وعن الإمكانات الشخصية!.

المهم: أن التفسير الذى أرضى الدكتور مراد والدكتور المشرف هو أن ابن إسحاق ـ فى هذا الكتاب ـ كان أداة عباسية، وظف كل إمكاناته فى الدعاية العباسية، ضاربا بكل ماعدا ذلك من القيم والمقاصد عرض الحائط.

وفى سبيله إلى ذلك: استخلص من تلك الملحوظات أمورا ـ سوف يكون أبرزها محور ردودنا ـ إن شاء الله تعالى ـ كان من أهمها أن كتاب ابن إسحاق يصور الرسول ﷺ من البداية إلى النهاية على أنه رجل ليس ذا حيثية، وأن هذه السيرة ـ فى جزئها المكى ـ إنما هى كتاب دعاية كتب تمجيدا لبنى هاشم قبيلة الخليفة العباسى، وتمجيداً لأهل المدينة، وثأرا من عشيرة القائد العربى الذى أسر جده ـ يعنى خالد بن الوليد ـ وأن هذه السيرة دعاية عباسية، اقتضت الارتفاع بعبدالمطلب إلى درجة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وإظهار أبى طالب الكافر فى هيئة الشخصية التى تتفرد بالتوقير، وإظهار بنى هاشم فى صراع مع قريش جميعها لحماية محمد، وأن هذه السيرة ـ إلى هذا وذاك ـ دعاية مدنية تقوم على: سرعة استجابة أهل المدينة للإسلام، واستقبالهم المهاجرين من مكة، ومؤازرتهم الرسول ﷺ فى فتوحه وغزواته.

ومن هنا.. انطلق الدكتور مراد يصف سيرة ابن إسحاق بأن ما فيها من أخبار مختلفة، تحمل فى الواقع علامات واضحة لنية التزييف والاختلاق، ويشوبها التحيز ضد مسلمى مكة، وأنها تقوم على لعبة الظل والضوء، والصمت والتفصيل لإبراز ما ليس مهما، وإخفاء المهم، وأنها تقوم على النزوع العسكرى، وتخضع للمؤثرات الشخصية، وأنها لا تقوم على السرقة فحسب، بل على التلاعب كذلك(٤).

ثم أجمل كل ذلك فى وسيلتين، ذكر أن ابن إسحاق اعتمد عليهما فى السيرة، هما: الاصطناع المقترن بالتزوير، والتلاعب بالقرآن والإغفال المقصود لبعض آياته(٥).

ويمكرون ويمكر الله

بذلك توهم الدكتور مراد ـ أو من وراءه ـ أنه تمكن من تفجير القنبلة النووية التى تنسف السيرة النبوية، وأنه قدم لأستاذه المشرف الثمن

---

(٤) سيرة الرسول لمحمود على مراد صفحات: ٤٢ /١٠٩/ ٢٠٧/ ٢١٠/ ٢١٣/ ٣٨٣/ ٣٨٥/ ٣٩٠/ ٣٩٤/ ٤٢٣/ ٤٢٥/ ٤٤٩/ ٤٥٢/ ٤٥٣/ ٤٥٥.

(٥) السابق: ٥٠٤/ ٥٠٦.

الذى يستحق به درجة الدكتوراه ـ بعد أن طوى نحو ربع قرن من الموضوع الآخر دون أن يحصل على تلك الدرجة ـ حيث قدم ما يثبت أن الرسول ﷺ أصبح فى حاجة إلى من يعيد كتابة سيرته، فما دامت كتب السيرة المختلفة ـ قديماً وحديثاً ـ مستمدة من سيرة ابن إسحاق التى أثبت أنها تضم أحداثا وروايات مختلقة مزيفة، مشوهة للحقيقة، تقوم على التلاعب والاصطناع والتزوير، فهذا يعنى بالضرورة أن جميع كتب السيرة قائمة كذلك على باطل، وليس بين أيدينا إذن تاريخ صادق أمين نتعرف منه على حقيقة السيرة النبوية.

ولا ندرى ـ كما ألمحنا من قبل ـ من الذى رسم هذا المخطط ـ أو السيناريو ـ لهدم السيرة النبوية، ولا يعنينا أن نعرف من الذى رسمه، إنما الذى يعنينا هنا هو أن ننبه إلى أن الدكتور ـ فى وهمه هذا ـ غفل عن حقيقة صارخة ـ أو لعله تغافل عنها عامدا ـ بقصد تفريغ الميدان من سيرة موثقة للرسول ﷺ.

ولو أن الدكتور تجرد من الغرض الشخصى، والاستسلام الخانع لما ادعاه المستشرق (وليم سوير) من قبل على ابن إسحاق، واتهامه بممالأة العباسيين فى كتابه..

ولو أنه استعان بسلاح الباحث عن الحقيقة، المتوج بالتواضع.. إذن لعرف أن المبادرة إلى اتهام ابن إسحاق بممالأة العباسيين، وقيامه بأخطر عملية تزييف وتلفيق، وكذب وتزوير لينال رضاهم.. أقول: إذن لعرف أن هذا الاتهام لن يحقق له ولا لأستاذه السربونى ما أراد من هدم سيرة الرسول ﷺ، لأنه عندئذ كان سيتبين أن ابن إسحاق لم يكن هو أول من كتب فى سيرة محمد ﷺ، وأن ما اتهم به ابن إسحاق بأنه افتراء واختلاق، جامل به العباسيين، قد ذكره من المؤرخين ـ قبل ابن إسحاق ـ من لا يمت بصلة أى صلة بالعباسيين، وكتبهم محققة مطبوعة، تتداولها أيدى الباحثين عن الحقيقة.

نعم.. لقد غفل الدكتور مراد ـ أو تغافل ـ عن أن ما ذكره ابن إسحاق من الأحداث فى كتابه قد سبقه إلى ذكره عروة بن الزبير بن العوام الأسدى، المتوفى سنة ٩٣هـ سنة ٧١٢م فى كتابه (مغازى رسول الله ﷺ)، وهو كتاب حققه الدكتور محمد مصطفى الأعظمى، ونشره مكتب التربية العربى لدول الخليج/ الرياض سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م، كما سبق ابن إسحاق كذلك إلى كتابة السيرة النبوية محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ سنة ١٧٤٢م فى كتابه (المغازى النبوية)، وقد حققه سهيل زكار، ونشره دار الفكر سنة ١٤٠١هـ سنة ١٩٨١م كذلك. وما كان واحد من هذين عباسيا ولا أدرك العباسيين.

أضف إلى هذا ما قدمه ابن حزم الظاهرى المتوفى سنة ٤٥٦هـ سنة ١٠٦٤م فى كتابه (جوامع السيرة النبوية) الذى أعده أحمد حسن جابر، ونشر ملحقا بمجلة الأزهر جمادى الأولى ١٤١٣هـ.

فابن حزم– على الرغم من أنه كان فى زمان الدولة العباسية– أبعد الناس عن مجاملة العباسيين، لأنه كان يعيش فى الأندلس التى

كان يحكمها الأمويون وكان هو وأبوه أحد وزراء الأمويين هناك كما أنه لم يكن بالعالم الذى يسهل تطويعه ليغير الحقيقة، ولا كان بالذى يأخذ عن ابن اسحاق أو غيره من غير اقتناع، فلقد اشتهر بالصلابة فى الرأى، حتى استقل عن مشاهير الفقهاء، بمذهب فقهى أخذ عليه فيه عنفه وشدته فى مواجهة آراء الآخرين، ونقدها، من كل ما يؤكد أنه لم يكن بالذى يجامل العباسيين أو غيرهم، أو بالذى ينقل عن ابن اسحاق وغيره دون تمحيص ونقد.

ولا نتصور أن جهل الدكتور مراد بوجود هذين المصدرين المبكرين للسيرة النبوية، كان وراء قراره أن ابن اسحاق أول من كتب السيرة، خصوصا أن ابن اسحاق نفسه روى فى كتابه كثيرا من الأحداث عن عروة بن الزبير، وابن شهاب الزهرى، كما روى عن غيرهما، فلفت النظر إلى أن هناك من سبق ابن اسحاق إلى كتابة السيرة، وإلى أن هناك من قام برواياتها.

ولكن الدكتور لما رأى فى ابن اسحاق شبهة الالتقاء بالعباسيين بادر بإغفال من سبقه ليجعل منه كبش الفداء الذى يحقق بذبحه ما قصد إليه ابتداء مننسف السيرة النبوية، وتفريغ الساحة من سيرة تؤرخ له ﷺ، حتى يخلو الجو له ولأساتذته المستشرقين كى يصطنعوا السيرة التى يرضونها والتى تحقق لهم المراد. وما دروا أن الله من وراء المزيفين محيط.

وما قصدت بهذا أن أدفع عن ابن اسحاق أو غيره احتمال الخطأ، فكل جهد بشرى يحتمل الخطأ والصواب، ولكن الذى قصدت إليه أن أدافع عن ابن اسحاق ما كاله له الدكتور مراد من تهم خطيرة، وما ألصقه به من صفات ذميمة بدون سند أو حجة.

بين الكم والكيف

وأول الأمور المثيرة التى رأى الدكتور مراد أن ابن اسحاق وقع فيها، وتأثرت به الكتب الحديثة: أن الجزء المخصص فى كتاب السيرة للفترة المكية ابتداء من مبعث الرسول ﷺ، إلى وصوله المدينة أقل من خُمس الجزء المخصص للفترة المدنية!(٦)

وإننا لنعجب من أن يقف الدكتور هذا الموقف من كم الصفحات، مع ماله من باع واسع فى ميدان البحث العلمى، أفرزه لسيادته- بالضرورة- سنه، وهيأه له تتلمذه فى تلك السنن على أستاذ فى إحدى الجامعات الفرنسية.!

فليس من شك فى أن كل من له صلة بالبحث العلمى، والدرس الجاد، يدرك أن محتوى البحث هو الذى يدور حوله النظر، وتقوم عليه الموازنة، ويتخذ مجالا للقبول أو الرفض، سواء ضُمِّنته صفحة واحدة، أو مائة صفحة.

فعدد الصفحات لم يكن- ولن يكون- معيار الصدق والكذب، ولا دليل الصواب والخطأ ولا مناط الإنصاف وعدم الإنصاف،

(٦) سيرة رسول الله ﷺ: صـ ١.

حتى فى مجال الإبداع الأدبى.. قد يكون الإعجاز فى الإيجاز، كما قد يكون فى الإطناب، فلكل مقام مقال.

فإذا وجدنا ابن هشام أرخ المرحلة المكية فى مائتى صفحة، وأرخ المدنية فى ألف صفحة، وجب علينا أن ننظر فيما تضمنت كل مرحلة من أحداث، وعلاقة تلك الأحداث بالموضوع- وهو فى كتاب ابن اسحاق حياة المصطفى ﷺ- ومكانها منه.. إلى غير تلك الأمور، التى يعرفها كل من مارس الدرس والبحث والنظر الناقد.

ومن هنا يصبح علينا- ونحن نقوم كتاب ابن اسحاق- أن نوازن بين ما تضمنته المرحلة المكية من أحداث تتعلق بالرسول ﷺ، وما تضمنته المرحلة المدنية من ذلك، ولا نطلق الحكم دون سند بأن قلة الصفحات فى المرحل المكية. قصد به ابن اسحاق إخفاء حقائق لأغراض أخرى غير تجلية الموضوع الرئيسى.

أما المرحلة المكية بالنسبة لصاحب السيرة ﷺ، فنعلم جميعا أنها مرحلة الميلاد، والنشأة، والمبعث، والدعوة إلى الإسلام وما واكب ذلك من أحداث، انتهت بالهجرة إلى المدينة المنورة. بينما كانت المرحلة المدنية مرحلة الانتشار الشامل، والمواجهة العامة، حيث تجاوز الأمر محور قريش والوافدين لمكة بل تجاوز أرض الجزيرة العربية - لتتشعب العلائق، وتتردد أصداء الدعوة فى شتى أنحاء الأرض، وتنتقل الحياة من بساطة الحياة البدوية، إلى تعقيدات الدولة، وما واكب ذلك من أحداث ومواقف؛ فبعد أن كان محمد ﷺ - فى مكة - يواجه قريشا وحدها، أصبح - فى المدينة - يواجه قبائل العرب جميعهم، وقبائل اليهود، وأطماع الروم والفرس المسيطرين على أطراف الأرض العربية كلها، فضلا عما واجهه من مشكلات نشأت مع هجرة من هاجر من مكة مجردا من كل ما يملك، وما يحتاجه ذلك من تدبير وتنظيم يقيم العلاقة بين أفراد هذا المجتمع الجديد على أسس راسخة قوية.

فأى المرحلتين - بربك - أيها الدكتور تثريها الأحداث، التى يعلم كل مشتغل بالتاريخ أنها هى الشغل الشاغل لأى مؤرخ يتوفى الأمانة، ويحترم متلقيه، ويلتزم الإنصاف لمن يكتب عنه؟!

فإذا ذكرت طبيعة المرحلة المكية ياسيادة الدكتور، وذكرت أن ابن إسحاق مؤرخ ذو منهج محدد واضح، يقوم على تقديم ما توفر لديه من أخبار، استقاها من الرواة الذين نقلوها من غيرهم، فى سلسلة متتابعة.. وأنه ليس مؤرخا يعنى بفلسفة التاريخ.. أقول: إذا ذكرت هذا تبين لك أن المرحلة المكية لم تكن تتسع لأكثر من ذلك؛ لأن اهتمام الرواة بالنشأة دائما أقل بكثير من اهتمامهم بما يلى النشأة من أحداث متشابكة، حتى إن نشأة كثير ممن اشتهروا فى شتى الميادين تكاد تكون مجهولة.

السلام والحرب.. ومحمد ﷺ

ولكن نظر الدكتور الفاضل لم يلتفت لتلك الحقيقة التى يجب أن لاتغيب عن باحث ولا

مؤرخ – فضلا عن ناقد التاريخ – والتفت إلى ما يحرص عليه بعض المستشرقين والصليبيين ممن يزعمون أن رسول الله ﷺ كان رسول حرب؛ فظن أن المرحلة المكية كانت مرحلة سلام، وأن المرحلة المدنية كانت – وحدها – مرحلة حرب، طبقا لتصور المؤلف.

وبناء على ذلك.. يرى الدكتور مراد أن ابن اسحاق – بكتابه هذا – يقرر أن رسول الإسلام كان رسول حرب لاسلام، وأن الإسلام دين حرب لا دين سلام(٧).

ولا أدرى ماذا يقصد الدكتور – ومن تأثر بهم أو من تأثروا به – بالسلام المكى، والحرب المدنية.!

إن أى دارس جاد منصف لايمكن أن يفرق بين حقيقة ما واجه النبىَّ ﷺ من الأحداث فى مكة والمدينة، اللهم إلا فى حجمها؛ فمنذ علمت قريش ببعث محمد ﷺ، ونار الحرب موقدة، لم يهدأ لها أوار، فمحاربته فى المدينة امتداد لمحاربته فى مكة، بيد إن كيفية الحرب وسلاحها فى مكة اختلف عنها فى المدينة؛ فقد اعلنتها قريش – فى مكة – حربا يواجهون بها محمدا ﷺ وأتباعه بالتعذيب والتسفيه، والسب، والدعاية المضادة، والحصار، إلى غير ذلك من وسائل الحرب ومظاهرها، حتى إن أبا جهل – كما ذكر ابن إسحاق – كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه، وخزَّاه، وإن كان تاجرا قال: لنكْسِدنَّ تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه، وأغرى به(٨).

ويواجهونه بها – كما روى ابن إسحاق – بمطالبة عمه أن يكف عنهم ابن أخيه، حين سعوا إليه قائلين : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه(٩).

ويواجهونه بالمشى إلى عمه– على ما روى ابن إسحاق – مرة أخرى، قائلين له: يا أبا طالب إنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا والله لانصبر على هذا.. حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين(١٠).

ثم بالمشى إلى أبى طالب ثالثة بعمارة بن الوليد بن المغيرة، ليتخذه أبوطالب ولدا، ويسلم إليهم محمدا الذى قد خالف دينهم، وفرق جماعتهم، فلما رفض أبوطالب ذلك العرض أشتد الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، وقام أبوطالب فى بنى هاشم، وبنى عبدالمطلب يدعوهم إلى ما هو عليه، من حماية رسول الله ﷺ، والدفع عنه، فأجابوه إلى ذلك إلا ما كان من أبى لهب(١١).

(٧) سيرة رسول الله ﷺ: ٣٩٤/٤٢٥.
(٨) سيرة النبى ﷺ لابن هشام: ٢٤٢/١.
(٩) السابق: ٢٧٦/١ ـ ٢٧٧.
(١٠) السابق: ٢٧٨/١.
(١١) السابق: ٢٨١/١.

ويواجهـون محـمـدا ﷺ بتلك الحرب – كما روى ابن إسحاق– بإغراء سفهائهم به ويسبونه، ويطعنون فيه بالقول، حتى وقف قائلاً في ثوب التوعد: «أتسمعون يا معشر قريش؟! أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح»! فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم تحريضاً عليه قبل ذلك ليُقبل عليه يهدئه بأحسن ما يجد من القول[١٢].

ولكن واحداً من هؤلاء السفهاء يواجهه في الغد، فيأخذ بمجمع ردائه، حتى قام أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ يدفع عنه، وهو يقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله» ويرجع أبوبكر ذلك اليوم إلى بيته وقد صدعوا فرق رأسه من شدة جذبهم بلحيته[١٣].

ويواجهونه بها– كما روى ابن إسحاق– بما أغروه به من مال وجاه وسلطان، فلما أبى إلا الدعوة نهض أبوجهل ليعلن قريشاً بأن قرر أن يتعهده غدا بحجر ثقيل يشدخ به رأسه حين يصلى، وليفعل بى بنو عبد مناف ما بدا لهم[١٤].

ويواجهونه بها، بعزله عن الوافدين إلى مكة من خارجها، بشتى المزاعم والأكاذيب، كما فعلوا مع الطفيل بن عمرو الدوسى، حيت مشى إليه رجال من قريش قائلين يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذى بيد أظهرنا قد أشتد أمره، وفرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر.. وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه، ولا تسمعن منه شيئاً[١٥].

ويواجهونه ﷺ بالضغط على قبيلته، بفرض المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية عليه، وعلى بنى عبدالمطلب، وبنى هاشم سنتين أو ثلاثا. حتى جهدوا، لا يصل إليهم شيء إلا سراً، مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش[١٦].

ويواجهونه بها في الحبشة، حيث أرسلوا وراء المهاجرين عبدالله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص بهدايا للنجاشي ووزرائه ليسلم المهاجرين إليهما فبم ينعت الدكتور ما كان من مشركى مكة فى تلك المرحلة؟ وبم يصف موقف محمد ﷺ وأصحابه من تلك المواجهات المتنوعة؟!

أم إنه يرى أن الحرب أنما تكون بالسيف والرمح فحسب!

إنها – كما ترى – حرب معلنة متطورة – وإن لم يستعمل فيها سيف ولا رمح – شنها مشركو مكة على محمد ﷺ، وعلى أصحابه، ولم تلن للمسلمين فيها قناة، فما ضعفوا وما استكانوا، ولكنهم واصلوا نشاطهم رادين الصاع صاعين بطريقتهم

(١٢) السابق: ٣١٠/١.
(١٣) السابق: ٣١١/١.
(١٤) السابق: ٣١٧/١ ـ ٣١٨.
(١٥) السابق: ٤٠٧/١.
(١٦) السابق: ٣٧٢/١.

الخاصة والمناسبة، والتى كان من بينها إذاعة ما كان ينزل فى بعضهم من القرآن، مثل أبى لهب وامرأته، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمى وأبى جهل بن هاشم، والنضر ابن الحارث، والأخنس بن شريق، والوليد بن المغيرة، وأبى بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، والأسود بن المطلب.

نعم.. يا سيادة الدكتور إنها لحرب شرسة اضطر إليها محمد ﷺ فى مبتدأ الأمر، فلم يملك إلا أن يمتشق لها ما يناسبها من السلاح، ويخوضها دفاعاً عن نفسه وعمن معه، وعن دعوته، لا تقل فى شراستها عما واجهه بعد الهجرة إلى المدينة من حروب عسكرية وغير عسكرية، حيث أبى المشركون واليهود، ثم الروم والفرس أن يتركوا له فرصة يهنأ فيها بشىء، من الراحة والأمان - على مدى عشر سنوات - حتى لحق بالرفيق الأعلى، ظنا منهم أن تلك الحروب سوف تردعه عن مواصلة الدعوة، أو أنها ستنال منه فتضعف نشاطه، ولكنهم فوجئوا بما لم يكن لهم فى حسبان، فوجدوه المثابر على دعوته، فى الوقت ذاته الذى ينهض فيه محارباً، يدفع العدوان، ويرد الكيد، وينشر الأمن والسلام.

فابن إسحاق- بإطالة الحديث عن المرحلة المدنية- ليس هو الذى يقرر أن محمدا ﷺ كان رسول حرب، لأن المرحلة المكية لم تخل من الحرب كما رأينا. غايةالأمر أن سلاح الحرب فى مكة كان مختلفا عن سلاحها فى المدينة، ومحور الحرب، وأعداء محمد ﷺ هم الذين كانوا وراء تغيير السلاح، وبالتالى كانوا وراء تغيير هيئة الحرب.

وابن إسحاق ما أطال الحديث عن المرحلة المدنية إلا استجابة لما ضمته تلك المرحلة من أحداث، وإلا إستجابة لما كانت تفرضه طبيعة الحياة، تطور الدعوة من وقائع، بخلاف المرحلة المكية.

فهناك ملابسات واكبت كل مرحلة هى التى وجهت ابن إسحاق، وهى التى توجه كل من يتصدى للحديث عنها.

أما هؤلاء الذين يغمضون أعينهم عن تلك الملابسات والظروف التى كانت وراء ما نسب من حروب، وما كان من سريا، والذين يغمضون أعينهم عما واكب عنت القرشيين فى مكة من أساليب القهر والعنف، ليحكموا على الإسلام بأنه دين حرب لا سلام، فهم من ينقبون عما يمسخ الحقائق، ويزيفوا الواقع، ويصطنعوا المواقف، ليشينوا الإسلام، ويشوهوا صورة رسول الله صلوات الله تعالى وسلامه عليه، فلم يكن أمامهم إلا أن يسلكوا سبيل من يقول: إن القرآن ينهى عن الصلاة؛ لأن يقول: «فويل للمصلين» ولو أنهم قرأوا سيرة ابن إسحاق قراءة البصيرة المحايد لما خطر ببالهم ما خطر ببال الدكتور محمود مراد ومن ماثله من المستشرقين وغيرهم.

هذا... والحديث حول ما قدمه الدكتور محمود مراد فى كتابه متصل أن شاء الله، سعيا وراء تجلية الحقيقة، وإبطال مفعول تلك القنبلة النووية، بنزع المفجر منها. والله من وراء القصد أولا وآخرا.

نقد علمي لمقال ديني

٢

للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي

٣ ثم أترك آيات القتال بعد أن وضح الحق في تفسيرها، إلى آيات أخرى رأى القس الفاضل أنها تؤيده في منحاه، وإن جاء ذكر القتال فيها عرضاً!

لقد بدأ فذكر آية الجزية

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾(١).

وإقحام حديث الجزية، يدل على أن الباحث لم يقرأ ما كتبه الفقهاء عنها، ولا أطيل في سرد ما قيل، ولكنني اكتفى بما ذكرته من قبل في تقرير آخر إذ تعرض بعضهم لمثل ما تعرض له الباحث فقلت دافعا قوله: إن الجزية ليست ضريبة مفروضة ولكنها بدل عن الدفاع الحربي الذي يقوم به المسلمون عن البلاد، فإذا قاموا بالدفاع مع المسلمين فلا جزية..

يقول السيد محمد رشيد رضا، في كتاب «الوحي المحمدي» ط٣ص٢٧٨، وهو خلاصة لما نشر بالمنار عند تفسير الآية الكريمة في سورة التوبة: «إن الجزية في الإسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم، فضلاً عن المغارم التي يرهقونهم بها، وإنما هي جزء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة، وإغاثة للجند،الذي يمنعهم أي: يحميهم ممن يعتدي عليهم، كما يعلم من سيرة أصحابه ﷺ، وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة، وأعدلهم في تنفيذها»..

ثم استشهد السيد محمد رشيد بمثالين من تاريخ الصحابة ، استشهد بهما موجزين، فرأيت أن أرجع إلى مصدره التاريخي لاستوعب ما قيل..

١ـ جاء في كتاب «الخراج» للقاضي أبي يوسف، «أن أبا عبيدة بن الجراح كان قد جمع من أهل الذمة أموالاً للدفاع عن مدنهم، ثم علم من أهل الذمة أنفسهم أن الروم قد جمعوا لحربه جيوشاً لا طاقة للمسلمين بدفعها، فأمر أبوعبيدة بأن يرد إلى كل مدينة، ما أخذ منها من جزية. وقال : إننا رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا لكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط أن ينصرنا الله عليهم».

٢ـ جاء في «فتوح البلدان» للبلاذري أن أباعبيدة صالح أهل السامرة بالأردن وفلسطين دون أن يأخذ الجزية لأنهم كانوا عيوناً للمسلمين على أعدائهم، وبذلك ساهموا في الحرب..

ويقول الأستاذ المستشار على منصور في كتاب «الشريعة الإسلامية» والقانون الدولي العام ص٢٦١ تعليقاً على ذلك، وأصل هذا سنة عمر ابن الخطاب حين قرر أن من استعين به من غير الملة، لا يدفع جزية، وروى ذلك الطبري في حوادث سنة ٢٢ هـ عن حادث ملك «شهر بزار» الذي قال لأمير المسلمين: أنا اليوم منكم، ويدي مع أيديكم، وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم هي النصر والعون والقيام بما تحبون فقبل منه ذلك.

---

(١) التوبة (٢٩).

٣ـ جاء فى فتوح البلدان، أن حبيب بن مسلمة الفهرى، غزا الجرجوقة فصالحه أهلها على أن يكونوا للمسلمين عيوناً ومسالح، وإذا دعوا إلى الحرب مع المسلمين أجابوا، على أن يتقلدوا أسلاب من يقتلونه من أعداء الإسلام.

٤ـ نقل السيد محمد رشيد رضا (الوحى المحمدى ط٣ص٢٧٩) عن خالد بن الوليد أنه كتب لصلوبا بن فسطونا «إنى عاهدتك على الجزية والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا»..

وفى كتاب السير توماس أرنولد «الدعوة إلى الإسلام، تحت عنوان (الغرض من فرض الجزية) بسط شاف لهذه المعانى، واستشهاد واف بأحداث التاريخ فى القديم، ومن أحسن ما قاله.. إن الفلاحين من المصريين كانوا رغم إسلامهم يعفون من أداء الخدمة العسكرية مقابل جزية فرضوها على أنفسهم»..

ولعلى بعد ذلك أكون قد وضعت مفهوم الجزية فى نصابه الصحيح، وصححت ما فهم عنه خطأ، فليتأمله القس الفاضل.

٤ ننتقل إلى الحديث عن التوراة واختيار القس لآيات من الكتاب، فهم منها ما شاء وتركه آيات أخرى لم يشأ أن يذكرها لأنها لا تساير وجهته، وذوو البحث العلمى يرفضون هذا الاتجاه، فعلى الباحث فى موضوع أن يذكر كل ما قيل فيه، فإذا اقتنع بوجهة نظر خاصة، ورأى ما يعارضها من النصوص، حاول الرد على ما يخالف، وبسط للقارئ وجه الحقيقة كاملاً دون نقص وقبل أن أذكر الآيات التى اختارها الباحث، مع ما تركه من الآيات الأخرى، أشير إلى خلاصة ما قرره القرآن بشأن التوراة، وقد جاء فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾(٢).

فهذا النص الصريح يدل على أن القرآن مهيمن على ما جاء بالتوراة والإنجيل، فما اتفق فيهما مع القرآن فهو هدى ونور، وما خالف فيهما فهو الحق الذى أنزله الله، إذ من أصحاب التوراة من حرفوا الكلم عن مواضعه، ومن نسوا حظا مما ذكروا به فجاء القرآن ليسيطر على ما أنزل من قبل، فقوله فى القرآن هو الفيصل..

هذا ما نقرره مبدئياً بشأن ما نعرضه من الآيات التى استشهد بها القس، وها هى ذى:ـ

١ـ

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾(٣).

تتحدث الآية عن قوم من اليهود جاءوا للرسول يرضون حكمه فى حالة «زنا» وقرروا أن التوراة ترى أن الزانى يفضح ويجلد» وظنوا موافقة الرسول على اتجاههم، فطلب الرسول من عبد الله بن سلام أن يقرأ

---

(٢) المائدة (٤٨).

(٣) المائدة (٤٣، ٤٤).

التوراة فإذا الحد الرجم، وإذا القوم كاذبون! فنزل قول الله

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾

وهذا الحكم لم يبدل ولم يلحقه التحريف، وكل ما كان كذلك من التوراة فهو هدى ونور، وما لم يكن فهو ضلال وظلام!.

٢-

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٤).

نعم! الإنجيل فيه هدى ونور ومصدق لما بين يديه من التوراة، ولكن أى إنجيل؟ أهو الذى نقرؤه اليوم؟ إننا نقرأ للباحثين قولهم: «إن الإنجيل لم يكتب منه شئ أيام المسيح، فقد قام تلاميذه وتلاميذ تلاميذه بكتابةما روى عنه، وكلها مقطوعة السند، وأنا لا أريد أن أمس مشاعر الباحث فأنا حريص على الود الذى يجب أن يكون مشتركاً، ولكننى أعلن وجهة الإسلام فى الهيمنة على ما جاء فى التوراة والإنجيل، وقد استشهد بما لم يدرك مرماه، فوجب التنبيه.

٣-

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾(٥).

نحن نتمنى أن تتبع الفضائل الإنسانية التى جاءت فى التوراة والإنجيل، ولا خلاف فى هذه الفضائل المعترف بها بين المسيحية واليهودية والإسلام! ومن أسمى هذه الفضائل المحبة والتسامح والإخاء.

٤-

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾(٦).

كما لا نمارى فى أن الله ـ عز وجل ـ قد أنزل التوراة والإنجيل هدى للناس، كما أنزل القرآن مصدقاً لهما، وكل مسلم يؤمن بذلك!

ونأتى بعد ذلك إلى آيات عن التوراة لم يقف عندها القس، وكان عليه أن يتتبع كل ما فى الكتاب، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

١ـ قال الله ـ تعالى ـ فى سورة النساء:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾(٧).

قال الأستاذ الإمام محمد عبده نقلا عن المنار: «قوله أوتوا نصيباً من الكتاب، لأنهم لم يأخذوا الكتاب كله بل تركوا كثيراً من أحكامه، لم يعملوا بها، وزادوا عليها والزيادة فيه كالنقص عنه، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا، وكانوا يفعلون ذلك»..

(٤) المائدة (٤٦).
(٥) المائدة (٦٦).
(٦) آل عمران (٣، ٤).
(٧) النساء (٤٤، ٤٥).

وقال السيد محمد رشيد رضا تعقيباً على هذا التفسير: ولما انتهى الإمام من الدرس قلت له: أليس التعبير بالنصيب إشارة أو نصاً على أنهم لم يحفظوا الكتاب كله، بل فقدوا حظاً ونصيباً منه آخر منه؟ فقال: بلى..

٢ـ قال تعالى فى سورة المائدة:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ ﴾(٨).

قال صاحب المنار: أثبت الله فى هذه الآية أن اليهود يحرفون كلم كتابهم عن مواضعه وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، ثم قال: «وذلك بفقدهم الكتاب وعدم حفظهم له كله فى الصدور، ثم إن الذى أوتوه منه، وبقى لهم ما كانوا يعملون به كما ينبغى بل كانوا يحرفونه عن مواضعه باللى والتأويل».

٣ـ قال تعالى فى سورة الأنعام

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾(٩).

فالآية تدل على أن الأحبار منهم من كان يكتب الآيات فى قراطيس، ليخرج منها ما يدل على ميله الخاص، فإن كان النص معارضاً لاتجاهه أخفاه! هذا فيما لديهم من التوراة، وما غاب عنهم أكثر، وقوله ـ تعالى ـ بعد ذلك:

﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ ﴾(١٠).

أى عرفتم من القرآن ما ليس لديكم وذلك تصديق لقول الله:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(١١).

لأنه هو المهيمن المسيطر فهذه آيات كان من المتوقع أن يقف عندها القس طويلاً، ليعلم أن القرآن هو الكتاب الخاتم، وأن ما جاء به يجب كل ما خالفه من أقوال حرفت عن موضعها الصحيح، ولم استقص ما ذكر من الآيات الكريمة، لأن المضمون واحد، والإجابة عن بعض تغنى عن بعض منعاً للتكرار.

ولنست أرى داعياً للرد على ما ذكره القس حين استشهد بالآيتين الكريمتين:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ﴾(١٢).

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ ﴾(١٣)

لأن هاتين الآيتين من صميم العقيدة الإسلامية، وهى لا تتفق فى مسألة التوحيد مع المسيحية وكل يؤمن بما يعتقد؟ وليس فى النصين ما يدعو المسلمين إلى قتال المسيحيين، وهو الهدف الذى تمناه القس من تسطير بيانه، ولعله ظن أن قول الله:

---

(٨) المائدة (١٣).
(٩) الأنعام (٩١).
(١٠) الأنعام (٩١).
(١١) النمل (٧٦).
(١٢) التوبة (٣٠).
(١٣) المائدة (١٧).

﴿ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ يدعو إلى القتال، وعبارة «قاتلك الله» فى العربية تقال فى مجال التعجب وهى نمط من الأساليب (البيانية) بل إنها تقال فى المدح أحياناً، حين يتعجب الإنسان من فعل خارق فيقول لصاحبه (قاتلك الله) مثلما يقول لصاحبه (لا أبا لك!) فى مجال الثناء فهل كان القائل يدعو على أبيه أو عليه!!

وفى الختام نقف عند الآية الكريمة التى فهمها القس بطريقته الخاصة، لتدل على أن معناها الصحيح، ولا أترك هذا الرد دون أن أنقل قول القس معقباً عليه..

يقول: (عندما تعرض النبى محمد للشك فيما أنزل عليه من القرآن) يقول القرآن:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾(١٤).

فهذه الآية جعلت الكتاب المقدس (كتاب المسيحيين والذين يقرأونه المرجع الأعلى لمحمد عندما داخله الشك فيما أنزل إليه)..

هنا تناسى الباحث كل ما جاء فى القرآن عن تحريف التوراة للكلم عن مواضعه، وعن إخفاء بعض آياته وإظهار الآيات الأخرى، مما أشرنا إليه من قبل، واعتصم بآية لم يفهم معناها على الوجه الصحيح، لأن دراسة البيان العربى لم تكن من حظه فى يوم، وقد تجرأ فقال: (عندما داخله الشك!).

إن الحديث يوجه إلى المخاطب فى الظاهر، ويراد به غيره لأسباب بلاغية تحدث عنها البيانيون، وقد نزل القرآن بالأسلوب العربى، ففهمه العرب كما يفهمون كل بيان..

فإذا قال الله ـ عز وجل ـ (مخاطباً رسوله):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١٥).

٥ فليس المراد رسول الله بالخطاب، ولكن المراد بعض أتباعه ممن يوسوس الشيطان فى نفوسهم فيستمعون أقوال المنافقين والكافرين، وتقوى الله أقوى ما يحرص عليه رسول الله، ويلتزمه، فكيف يؤمر بشئ هو فى صميم كيانه؟

وإذا قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾

فما شك رسول الله فيما أنزل إليه، ولكن إذا خطر الشك فى نفس بعض أصحابه فليسأل ذوى الأمانة من أهل الكتاب ممن أسلموا، كعبد الله بن سلام وسواه، وإذا جاز لغافل أن يقول: إن النبى لم يتق الله جاهلاً حقيقة الأسلوب البيانى، فإننا نقول له: ضللت السبيل، كما نقول لمن يتوهم أن الرسول قد شك فيما أُنزِلَ اليه لقد ضللت وغفلت!

---

(١٤) يونس (٩٤).

(١٥) الأحزاب (١، ٢).

وإلى القارئ بعض ما قاله مفسران معاصران حول الآية الكريمة..

يقول الأستاذ الكبير محمد متولى الشعراوى (ص٦١٩٨ من تفسيره) «إن الحق - سبحانه وتعالى - يضمر خطاب الأمة فى خطاب رسوله، لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب، وهو موجه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستنكفوا عن أى أمر يصدر إليهم ومثال ذلك: لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين، فيقول القائد الأعلى لكل منهما، إياك أن تفعل كذا، أو تصنع كذا، والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له، ولكنه يقصد كل مرؤسيهم من الجند، وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ، ما كان ليتأبى على أمر من أمور الله، بل هو ﷺ، ينفذ كل ما يؤمر بدقة، وذلك من خطاب الأمة فى شخصية رسولها ﷺ..

وقال الإمام الأكبر الدكتور/ محمد سيد طنطاوى (المجلد السابع ص١٣١) ليس المراد ثبوت الشك لدى رسول الله ﷺ، وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير، لا على سبيل الثبوت، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى شأن عيسى - عليه السلام:

﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾(١٦).

أى إن كنت قلته على سبيل الفرض والتقدير، فقولى هذا لا يخفى عليك»..

-٦-

وبعد، فهذا بعض ما عن لى بعد قراءة ما كتبه الدكتور القس لبيب ميخائيل، أرجو أن يقرأه بهدوء واطمئنان ليتجلى نور الحق لعينيه، وإنى لأذكره بقول الله عز وجل:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾(١٧).

***

(١٦) المائدة (١١٦).

(١٧) المائدة (٨٢، ٨٣).

مواقف إسلامية

الزوجة الوفية: كأنك تراها

للأستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة

أخرج الطبراني بإسناد حسن. عن طلحة بن يحيى. عن جدته سُعدى رضى الله عنها قالت:
دخلت يوما على طلحة «تعنى: ابن عبيد الله زوجها» فرأيت منه ثقلا، فقلت له:
مالك؟ لعله رابك منا شىء. فتعتبك «نترك ما تكره.. ونفعل ما يرضيك».
قال: لا.. ولنعم حليلة المرء المسلم أنت
ولكن: اجتمع عندى مال.. ولا أدرى كيف أصنع به.
قالت: وما يغمك منه؟ أدع أهلك، وقومك، فأقسم بينهم.
قال: يا غلام: علىّ بقومى
فسألت الخادم: كم قسم؟ قال:
أربعمائة ألف.

تمهيد:

قال المثنى بن زهير:

ما رأيت شيئا قط فى رجل وامرأة.. إلا وقد رأيته فى الحمَام: رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها. ورأيت حمامة لا تمنع شيئا من الذكور. ورأيت حمامة لا تزيف «تمشى فى دلال» إلا بعد شدة طلب. ورأيت حمامة تزيف للذكر ساعة يطلبها. ورأيت حمامة وهى تمكن آخر. ما تعدوه»(١).

ومن مملكة الطير. إلى مملكة الإنسان لتجد الناس مذاقات وطعوما.. فإذا كان الإنسان هو

(١) عيون الأخبار، كتاب الطبائع.

الزوج.. أو الزوجة.. كان إحساسنا قويا بما يكون هناك من فروق فردية بينهما.. ربما تتسع بها مسافة الخلف.. إلا أن تداركها كلمة هادية..

ذلك بأن الأمر على ما قيل:

إن شرارة الاختلاف – وخاصة بين الزوجين – سريعة الانتشار: إنها كالخلية الواحدة: تتكاثر بالانقسام.

ألا وإن غضب الزوج أو الزوجة أمر وارد على أن تظل القضية محصورة بينهما.. وتحت سقف البيت لا تتعداه: لماذا؟

لأن الزوجين – وفى لحظة غضب طارئة – قد يتبادلان العتاب.. والذى قد يصعَّد ليكون السباب.. فالعذاب!

وفى لحظة صفاء.. يُنسى كل شىء.. وكأن شيئا لم يكن.. ولكن تظل الأم أو الأب يذكران ما حدث فلا يغيب.. إن لم يكن مضروبا فى عشر!

وإذن فلا بأس من الغضب.. لكن البأس كل البأس أن تنتقل الأسرار خارج الدار.. أو لا يكون خلاف بالمرة.. وعلى هذا السنن.. سار الأتقياء من سلفنا الصالح ومنهم الإمام أحمد الذى قال يوما:

تزوجت أم صالح فمكثت معى ثلاثين عاما ما اختلفنا فى كلمة واحدة!!

وربما كان حول هذا العالم الجليل دور وقصور.. تعج بمباهج الدنيا.. ولكن القلوب هناك مختلفة:

يغضب الزوج.. لأن رأيه لا يطاع.. وعندئذ يتحول البحر إلى بحيرة، بحيرة تموت فيها كل الأسماك.. ولا يبقى إلا الدموع.. حين لا تجدى الدموع.

«سعدى» ومبادرة الصلح

لقد كانت الزوجة صاحبة مبادرة الصلح.. وحين يأخذ بعض الأزواج الموقف المتشدد.. صادرين عن إحساس حاد.. بالرجولة التى لا ينبغى أن تلين..

وإذا كان هناك فى البيت صغار.. لا يرقب الزوج فيهم راحة ولا سعادة.. فإن الزوجة البارة الوفية.. تتودد.. وتتحبب إلى زوجها..

إن الهدف هنا عظيم وهو: إنقاذ الأسرة من الانهيار.. إذا ما اشتط بالرفيقين المزار..

ومادام الهدف عظيما.. فإن التضحيات مهما كانت جساما.. فإنها تهون.

على أن يدخل فى هذه التضحيات:

التفكر بعمق لاكتشاف أسباب الاختلاف.. وجذوره.. لتبدأ مهمة الإصلاح والعود الحميد إلى الماضى المجيد.

وهنا.. لن تستطيع المجاملة العابرة.. ولا الترضية بمعسول الكلام.. أن تحل العقدة.. لأنه دهان على الوبر لا يستأصل العلة الكامنة هناك تحت هذا الوبر.

وهذا ما فعلته الزوجة هنا.. حين اقتربت من زوجها.. فى لحظة صفاء تهيىء النفوس للفهم.. ثم للتفاهم:

لقد كان الزوج منذ لحظات سعيدا.. يسعد به البيت كله لكن شيئا غريبا عكر الصفو.. وسحابة داكنة حجبت الشمس.. وفتح الصغار أعينهم على شىء لم يعهدوه.. ذلك الصمت المريب بين الوالدين.. فانطفأ فى وجوههم القنديل وجلسوا ينتظرون الفرج.

الأم تنقذ الموقف

وإذا كانوا يقولون: ما بين الكرام حساب.. بمعنى أن ينفق كل واحد ما شاء له كرمه.. بلا حساب ولا عتاب.. فإن الزوجة هنا تبادر فتتساءل في أدب عن سر ما ترى:

إن بعض الزوجات قد يلذن بالصمت بينما يبدو الزوج معتل المزاج..

لكنه الصمت المريب الذى يعنى الاستغناء عنه.. مما يعتبره تحدِّيا لرجولته..

من أجل ذلك تقطع «سعدى» هذا الصمت بقولها:

مالك؟ لعله رابك منا شيء فنعتبك؟

الأصل القرآني

والمرأة المسلمة هنا صادرة في تصرفها عن القرآن الكريم: فالله - تعالى - يقول:

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. ﴾[٢].

فالزوج حصن للزوجة تأوى إليه.. ثم هى من «النساء» والنساء: اسم جمع لا واحد له من لفظه.. وإذن.. فهى لا وجود لها منفردة.. إنما وجودها في بستانها.. في بيتها.. وتحت رعاية زوجها.. أو أبيها.. أو أخيها.. أو ولدها.. وهى هنا تحقق هذا المعنى: فهى لا تريد أن تتخذ البيت مهجورا.. وإلا وجدت نفسها في العراء.. ومن ثم.. تقرر العودة إلى البيت المهجور عن طريق العتاب.. ويبقى الود ما بقى العتاب.

وهكذا المرأة الوفية دائما: لها من نفسها الأبية عدة إذا فقدت العدة.. وفى لحظة الشدة تظهر المعادن.. والحر وإن فقد كل شيء فيها لكنه لا يفقد مروءته.. ولا وفاءه:

وتراها تؤنس زوجها.. فيطوى سمعه على صوتها حين ينام.. تنثر من قلبها فى البيت.. فإذا هو جنة وارفة الظلال.. وإذا استوى الناس فى العافية.. فإنهم عند نزول البلاء يختلفون.. وتظل الزوجة الوفية على الود القديم.. وتسفر لحظات الشدة عن وفائها، الذى صار حياتها، فإذا هى لون آخر من النساء، في الوقت الذى تسقط فى الامتحان زوجات غافلات:

إن الحب الصغير يضخم الهفوات.. لكن الحب الكبير بحر بعيد الشطآن.. لا تعكره الدلاء.

ناس.. أغلى من الماس

لقد كانت الزوجة من قبل طفلة.. تفسر الأمور كما تراها.. لكنها اليوم تكبر.. ويكبر معها وعيها.. فإذا هى تعرف أن كل ما تراه ليس صحيحا.

إنها تلك المرأة الحكيمة التى تسجل عيوبها.. لتراها ماثلة أمامها.. ثم تحاول إصلاحها يوما بعد يوم.. وهى بذلك تؤكد طبيعة الجيل الذى رباه رسول الله ﷺ، إنه الجيل الصالح أبدا لأن يكون القدوة: فى صفاء المعدن. وصياغة البناء.. إنها معادن ناس.. هى أغلى من الماس..

موقف الزوج

لقد أتاحت الزوجة لزوجها فرصة ذهبية:

أ- إنها أعفته من صعوبة الابتداء بالكلام.. فبقى فى الموقف الأفضل

---

(٢) النساء/ ٢٤.

ب- ثم طردت بهذا التودد ذلك الشيطان المريد الذى نزغ بينهما..

جـ- وقبل ذلك أكدت كيف كان اختيار الشريك قطعة من عقل الرجل.. وأن التوفيق فى الاختيار طيب الثمار.. على ما قال ابن الجوزى:

«ينبغى للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه، ويزوجه أو يتزوج إليه.

ثم ينظر بعد ذلك فى الصور. فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن.

أما الأصول فإن الشىء يرجع إلى أصله.. وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن وأن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت ردىء.. فقلَّ أن تكون صينة.

فإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدنس فالغالب معه السلامة وإن وقع غير ذلك كان نادرا»

وقد اختار «طلحة» - رضى الله عنه - ذات الأصل.. وها هى ذى فى المحنة تؤتى أكلها.. توددا وتقربا.. ثم يجنى هو ثمرة اختياره.. إن لحظة من الاختلاف لا تمحو بجرة قلم أو جرة لسان ما فى شخصية الزوج من قيم أصيلة.. لاسيما وهى التى وصفته قبل ذلك فقالت: إنى لعارفة بخلائقه:

إن دخل.. دخل ضاحكا، وإن خرج.. خرجا باسما، وإن سألت.. أعطى، وإن سكت ابتدأ، وإن عملت.. شكر.. وإن أذنبت.. غفر،

وها هو ذا لا يكتفى بالمغفرة وقد ضاقت المعذرة.. وإنما يبالغ فى الإحسان عندما سارع إلى نفى التهمة عنها.. مؤكدا أصالتها وتفردها

لا.. ولنعم حليلة المرء المسلم أنت

إن معنى تودد الزوجة هنا أنها مستعدة للمساءلة.. لو فرض وكانت هناك إساءة.. وسوف تعود من بعدها إلى ما يرضيه.. وكما كانت له فى ماضيه.. فهى له كذلك فى آتيه.

وقد أثبت الزوج فعلا أنه أيضا (لنعم حليل المرأة المسلمة.. هو) إنه الزوج الذى إذا حاورته زوجته.. كان عليما وإذا خبرته وجدته حكيما وإذا غضبت كان حليما وإذا ظفر كان كريما وإذا وعد وفى.. وإن كان الوعد عظيما» بل إنه ذلك الزوج الذى قيل له:

إن زوجتك أحسنت القول فيك فقال:

لا جرم أكافئها.. فلما قيل بماذا؟ قال:

أحقق قولها

ولقد حقق الرجل قولها بهذه الإشادة بها.. وما يترتب على هذه الشهادة من أنس ينشر ظله على كل من فى البيت إن بعض الأزواج قد يعتصم برجولته.. ثم بسعة الساحة خارج البيت.. والتى يمكن أن يتغلب فيها بعيدا عن من فى البيت.. حرا طليقا.. بينما أهله يتضورون جوعا إلى حنانه.. لكن طلحة رضى الله عنه.. وإن كان يملك ذلك.. كان يعتقد أن تفتح زهرة واحدة لا يدل على مجىء الربيع.. لابد أن تتفتح كل الأزاهير.. وأن تغنى كل العصافير.. وأن سعادة لا تنقسم على الزوج وأهله وولده.. لهى سعادة عقيمة..

عقيمة يعنى: لا تلد.. لا تلد أمنا فى البيت ولا سلاما

لقد أظفره الله تعالى بذات الدين فهى: أقل

مئونة.. وأكثر معونة.. وها هى ذى تثبت ذلك عمليا وفى نفس الجلسة المباركة: إن الزوجة – بعد أن اطمأن قلبها – يهمها أن تطمئن على قلب زوجها الذى بدا مغموما.. ولابد أن تقف معه فى خندق واحد.

فلما بين لها السبب اقترحت عليه أن يقسم ماله فى أهله هو.. لا فى أهلها.. متجاوزة بذلك واحدة من أعقد المشكلات الأسرية وهى تلك العداوة التقليدية بين الزوجة وأهل زوجها!! والتى لا سوغ لها.

وهكذا تفعل الزوجة الأصيلة.. والتى لا يتخلى عنها أصلها فى ساعة العسرة.

إن الخاتم الحديد.. والخاتم الذهب: كلاهما يدفن فى كومة من التراب.. لكن الحديد يصدأ.. بينما الذهب يظل محتفظا ببريقه لا يصدأ وإن طال به المدى.

وبضدها تتميز الأشياء

وإذا كان «أهل الزوج» واحدا من المجالات التى تمتحن فيها القيم.. وإذا كانت زوجة.. طلحة بن عبيد الله.. قد تجاوزت الامتحان بنجاح.. فقد سقطت.. نائلة بنت عبد الله.. زوج طلة بن عبد الرحمن فيما نجحت فيه أخت لها من قبل:

لقد كان طلحة بن عبد الرحمن بن عوف من أجود قريش فى زمانه

قالت له زوجته «نائلة» يوما: ما رأيت قوما ألأم من إخوانك!

قال لها: مه!.. ولم ذلك؟ قالت:

أراهم إذا يسرت.. لزموك، وإذا أعسرت تركوك!

فقال لها: هذا والله من كرم أخلاقهم.. يأتوننا فى حال قدرتنا على إكرامهم. ويتركوننا فى حال عجزنا عن القيام بحقهم!.

وهكذا كانت المرأة كما قيل:

«فيها عمق البحر. ومد الأمواج وجزرها. ولمعان النجوم. وحرارة الشمس. وقطرات الندى. وتقلبات الرياح. وارتجاف النبات. ولون الأزهار وعطرها. وخفة أوراقها. وتمايل الأغصان. ولطف النسيم..

كما أن فيها لين الحية ونعومتها، وتلون الحرباء، ونفار الغزال.

الزوج حيث يضع نفسه

وإذا كانت هذه طبيعة المرأة كأنثى.. والتى يكمن فيها السم.. والترياق معا.. فإن الزوج مطالب بحسن التعامل معها.. وهو حيث يضع نفسه:

إن داخل كل زوج هناك فارس متمنطق بالرمح والدرع.. هناك عنتر وعبلة!

وعندما يشعر الرجل بالثقة فإنه يخرج ما فى نفسه من أشياء جميلة وعندما يشعر أنه غير موثوق به يخسر احترامه لنفسه، ويكون أقل رعاية لشريكته.

إنك أيها الزوج تعيش مع شخص آخر.. وهذا الشخص له مثل مالك.. وبالمعروف.. له حياة وآمال وعواطف وعليك أن تفكر فيها.. ولو كان الخلاف بين رجل ورجل.. لكان المتوقع هو الشد باتجاهين متعاكسين.. يوصلان إلى القطيعة فى النهاية أما إذا كان الطرف الآخر هو الزوجة فإن الأمر يختلف فالرجال يحتاجون إلى الاحترام

والإخلاص والثقة.. والنساء يحتجن إلى الإعجاب والرعاية والتشجيع وقد وقف كل من الزوجين فى هذا الموقف عند حدوده.. وطبق ما تمليه وظيفته.. فكان الوئام بعد الخصام وقد نرى وقع الزوجين اليوم يجافى هذه الحقيقة فالزوج يتعامل مع زوجته.. بناء على ما يعرف وما يتوقع.. والزوجة تتعامل معه.. لا بناء على ما يحتاجه.. ولكن.. بناء على ما تهوى.

وتتسع المسافة بين ما يتوقع.. وما تهوى.. حتى تظن أن الزوج من كوكب المريخ والزوجة من كوكب الزهرة!!.

إلى الود من جديد

قلنا فيما سبق إن «النساء» اسم جمع لا مفرد له.. بمعنى أن المرأة لا وجود لها منفردة.. وأن سعادتها مع إيقاف التنفيذ حتى تتكامل مع شريك حياتها.. ليجتمع بذلك: السالب والموجب.. فيضىء المصباح أو يشرق المصباح..

وقد أكدت الدراسات العلمية هذا المعنى:

يعكس ما قد يعتقده البعض، أوضحت دراسة أمريكية فى جامعة نيويورك أن قضاء وقت أطول مع شريك الحياة يعد واحدا من أفضل الطرق لخفض ضغط الدم، وقالت الدراسة إنه عندما يكون الزوج أو الزوجة بصحبة شريك حياته، فإن ضغط الدم ينخفض إلى ما دون المستوى الذى يصل إليه عندما يكون الشخص وحيدا أو مع أصدقاء.

وقالت إن هذه النتيجة تنطبق أيضا حتى لو كانت العلاقة بين الزوجين ليست جيدة. وأكدت الدراسة أن السبب فى ذلك هو علاقة الاعتياد بين الزوجين التى من شأنها بث الشعور بالاسترخاء، بينما يؤدى التعامل مع الغرباء إلى شعور بالتحفز.

بضاعتنا ردت إلينا

وما يقوله الباحثون الأجانب هو بضاعتنا ردت إلينا: «فالعرب لم يكونوا شعبا بدائيا يجهل عاطفة الحب ويقيم الزواج على أنه اتصال حيوانى لإشباع الجنسى.. لقد شهد المنصفون من الباحثين شرقا وغربا بأن الزوجة العربية كانت أرفع مكانة من المرأة اليونانية والرومانية لأن هذه أو تلك لم تكن تنال مثل ما نالت المرأة العربية فى ظلال الأسرة العربية. من حب زوجها وتقديره.

كما شهدوا بأن الأوروبيين لم يعرفوا للمرأة هذه المكانة الرفيعة إلا بعد أن فتح العرب الأندلس.. ونقل عنهم الأسبان والأوروبيون حب المرأة وتقديرها فيما نقلوا»(٣).

وما لم يسجله الكاتب هنا هو: ما أضافه الإسلام إلى عروبة المرأة من وفائها لزوجها وتقديرها له: حيا وميتا إلى الحد الذى قرر فيه الفقهاء أنه إذا خرجت الزوجة لأداء فريضة الحج ثم بلغها وفاة زوجها قبل الميقات.. فإن عليها أن تعود إلى دارها.. وفاء وانتماء!

مع الشيخ على الطنطاوى

وقد يكون من المفيد أن نؤكد ما قلناه.. بما قرره الشيخ على الطنطاوى فى هذا المجال.

---

(٣) المرأة فى الشعر الجاهلى - أحمد الحوفى ١٥٩ - ١٦٠

قال رحمه الله:

قد يغتفر الرجل لصديقه ما لا يغتفر لزوجته، ويحمل منه مالا يحمل منها، ويتسامح معه فيما لا يتسامح معها فيه، وما ذلك إلا لأنه يصدق الخرافة التى تقول إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد: فهو يريد منها أن تفكر برأسه، وهى تريد منه أن يحس بقلبها، مع أن الناس كخطوط مستطيلة وفيها اعوجاج يسير، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازين متوافقة تضيع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها، فإذا تدانت وتقاربت، بانت الفجوات، فأنت تصحب الصديق عشرين سنة، فلا ترى بينك وبينه اختلافا ثم ترافقه أسبوعا فى سفر، تنام معه وتأكل وتشرب فترى فى هذا الأسبوع ما لم تره فى السنين العشرين، فتشنؤه وتبغضه وقد كنت تحبه وتؤثره.

والله لم يخلق اثنين بطباع واحدة، لا الصديقين ولا الزوجين، فليكن الزوجان متباعدين قليلا، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما وليكن بينهما شيء من الكلفة والرسميات.. كما يكون فى عهد الخطبة وأوائل الزواج، ولتكتم عنه بعض ما فى نفسها، فإنه ما تكاشف اثنان إلا اختلفا. وما زالت الكلفة إلا زالت معه الألفة، لأن المرأ يتظرف ليظرف، ويتلطف ليلطف، ويساير الناس ليحبه الناس، فإن لم يفعل ثقل عليهم، وأنا أعرف رجالا من أهل النكتة والظرف، يحرص الناس عليهم فى مجالسهم لخفة أرواحهم، وحلاوة أحاديثهم إذا دخلوا بيوتهم كانوا أجهم الناس وجها، وأيبسهم لسانا، وأثقلهم نفسا وما ذاك إلا لإسقاط الكلفة، وإذهاب المجاملة.

إن الرجل يمشى فى الطريق فلا يرى إلا نساء فى أحسن حالاتهن قد طلين وجوههن، وجملن ثيابهن، ثم يدخل داره، فيرى زوجه على شر هيئة، وأقبح صورة: مصفرة الوجه، قذرة الثوب، منغمسة فى أوضار المطبخ أو غارقة فى غبار الكنس، فيظن أن نساء الطريق من طينة غير طينتها، وأن عندهن ما ليس عندها، فيميل إليهن وينصرف عنها، والدواء أن تكون المرأة عاقلة، فلا تجعله يراها إلا فى الهيئة التى تخرج فيها من بيتها، وتستقبل عليها ضيفها، ولا تدعه يبصرها نائمة ولا يراها بغير زينة، ولا يطلع عليها فى مباذلها وأعمالها.

ولابد لكل شركة أو جماعة من رئيس، فإن كان فى المركب رئيسان غرق المركب، ولو كان فى السماء والأرض إلهان فسدت السماء والأرض فلابد من ترئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف إلى رأيه، واعتراف الثانى برياسته وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكما بعدل ورفق، وعلى المرؤوس أن يكون طيعا بفهم واحترام.

ولدوام المودة لابد من اغتنام الفرصة لإظهار العاطفة المكنونة بحديث حلو، أو مفاجأة منه: هدية ولو صغرت، وطرفة ولو قلّت، واهتمام منها بصحته وراحة نفسه ومطعمه وملبسه وكتبه، وأن يصبر كل منهما على غضب الآخر وتعتبه.

يا سادة: إن مشكلات البيت هيّنة سخيفة، ولكنها إذا استفحلت نغّصت العيش وسودت وجه الدنيا، ولم ينفع معها ملك ولا مال، فلقد كان الإمبراطور نابليون الثالث يجد من مكارهها ما لم ينجه منه ملكه، وكان الرئيس لنكولن يلقى من متاعبها ما لم يخلصه منه سلطانه، وإنى لأستأذن السيدات بأن أختم هذا الحديث بكلمة لامرأة مثلهن هى «آن شرر» قالت: «إن بين كل عشر

نساء تسعا يحرصن على مضايقة الرجل، وتنكيد عـيشـه ولهن إلى ذلك وسـائل لا تحـصى، وهن يعتقدن أنه لا عمل للرجل إلا الثناء على جمالهن يومه كله، وامتثال أوامرهن، وإجابة رغباتهن، وإذا رأينه مقبلا على قراءة أو كتابة أو عمل له، اقتحمن عليه مكتبه، ونفضن فى وجه من المنغصات ما يحيل عزلته سجنا، وحياته جحيما».

فيا سيداتى: أرجو أن لا تكون فيكن واحدة من هؤلاء! أ. هـ

لم تكن «سعدى» بيضة الديك

لم تكن «سعدى» رضى الله عنها.. لم تكن وحدها على طريق الوفاء.. إحسانا للتبعل.. ولكن كانت هناك مدرسة للوفاء تجعل من رضا الزوج غاية المراد بعد رضا رب العباد..

وهذه سهلة بنت سهيل رضى الله عنه تقف نفس الموقف توددا إلى زوجها.. ورغبة فيما يرضيه

عن عائشة رضى الله عنها قالت:

جاءت سهلة بنت سهيل إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أرى فى وجه «أبى حذيفة» الكراهية من دخول سالم علىّ

فقال النبى ﷺ: «أرضيعه» قالت: كيف أرضعه وهو رجل كبير؟! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «قد علمت أنه رجل كبير»

ففعلت فأتت النبى ﷺ فقالت ما رأيت فى وجه أبى حذيفة شيئا أكرهه بعدُ وكان شهد بدرا(٤).

إن من حق الزوج أن يغضب.. ولابد من التنفيس.. ولكن كيف؟

إنه هنا مجرد ملامح تظهر على الوجه.. ولا تعنيف هناك.. ولا تأنيب.. وإذا كانوا يقولون: إن الناس لا خير فيهم.. فإنا نقول: ومع هذا.. فلابد منهم!

ومن علم ذلك.. عامل الناس على أساس من هذا العلم.. فإذا تعلق الأمر بعلاقة الزوجية كان المقام للفضل والإحسان.. ومن حكمة الزوجة أنها لم تذهب لتشكو إلى أمها.. حتى لا يتسع الخرق على الراقع.. ولكنه تذهب إلى الرائد الذى لا يكذب أهله ﷺ مفترضة أن ما تراه من إعراض زوجها.. له ما يسوغه وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله.. فقد دل اختيارها على رجاحة عقلها. وصفاء قلبها.

ومن خلال تصرف الزوج تبرز حقيقة تفرض نفسها وهى أن الغيرة حق مكفول للطرفين.. شريطة ألا تتحول إلى غول يذهب بسلام البيت.. ودليل ذلك:

أن سالما وإن ُعد واحدا من أفراد الأسرة.. ثم أنه مع ذلك كان «بدريا» لكن ذلك لم يلغ حق الزوج فى غيرة الحر.

ولكنه إذا لامس قلبه برد اليقين.. عاد إلى الحق المبين وهذا هو الذى حدث بعد أن تدخل ﷺ بهذا الحل العملى.. فكان بردا.. وكان سلاماً على أهل البيت.

---

(٤) رواه مسلم فى كتاب الرضاع.

(٥) أبو حذيفة زوج سهلة وقد تبنى سالما حين كان التبنى مباحا، فكان يسكن معهم فى بيت واحد ولما نزل «ادعوهم لآبائهم..» وحرم التبنى كره أبو حذيفة دخول سالم مع اتحاد السكن وكان تعدد السكن صعبا عليه. «وكان شهد بدرا» قبل الإرضاع والجمهور على خصوص ذلك الحكم بتلك الحادثة يؤيد ذلك رواية «وما يدرينا: لعل ذلك كان رخصة لسالم وحده»

مختارات من مجلة الأزهر

لا تيأسوا من روح الله

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى (*)

إعداد الشيخ / على حامد عبد الرحيم

أشد ما تصاب به الأمم والجماعات من نكبات، هو يأسها من نفسها وشعورها بأن أمورها قد وصلت من السوء إلى حد لا يستطاع معه إصلاحها، وأن كبوتها قد وصلت بها إلى الحضيض، فلا نهوض لها من بعدها وأن كل يوم يمضى عليها هو شر من سابقه وخير من لاحقه.

شعور الأمة أو الجماعة بهذا وامتلاء نفوسها به من شأنه أن يفت فى عضدها، وأن يصور لها المستقبل فى صورة قاتمة مظلمة وأن يساعد على تقويض بنيانها ويعجل بآخرتها وزوالها من الوجود.

والأمر فى الأفراد وإن كان كذلك لكنه أقل خطرا وأضعف أثرا وأيسر علاجا فإن الفرد إذا يئس لم تمت بموته الأمة ولم تضطرب باضطرابه شئونها العامة، وها نحن أولاء نرى أفرادا ييأسون فيستسلمون للموت الأدبى أو يقدمون على الانتحار فيذهبون إلى حيث اختاروا لأنفسهم ولا تكاد الأمة أو الحياة الاجتماعية تشعر بهم.

وقد يجد الأفراد من أمتهم أو أسرتهم أو أصحابهم أو ذوى المروءة فى مجتمعهم من يأخذ بأيديهم وينتزعهم من بين أحضان اليأس ويفتح أمامهم مجال الأمل والعمل؛ أما الأمم والجماعات فإنها إذا فقدت الثقة بنفسها ويئست من استقامة

(*) مفتش بالأزهر

أحوالها وقدرتها على معالجة أمراضها لم تلبث أن تدخل فى سكرات الموت وتعالج منها الكروب والأهوال حتى تموت، ولن تجد من يحول بينها وبين هذا المصير ذلك بأن «عجلة الإنقاذ» لابد أن تأتيها من غيرها ولم نعهد فى تاريخ البشرية - إذا استثنينا عهود الفتح الإسلامى العادل - أمة تدفعها إنسانيتها إلى التقدم لغيرها من الأمم بنية صادقة وباعث شريف مخلص هو مجرد الرغبة فى إنقاذها من الخطر الذى يتهددها، وإن زعم ذلك أهل السياسة من دهاقين أوربا وأمريكا وأشباههم من الطامعين.

لم يرتفع مستوى الإنسانية إلى هذا الحد، ولم يصل الضمير البشرى بعد إلى هذه المرتبة، وما من أمة اليوم تمد عينيها إلى غيرها من الأمم إلا وهى؛ تبطن منفعتها هى ومصالح أبنائها أو المتسلطين فيها وقل مثل ذلك فى الجماعات أو الهيئات فإن إحداها لا يمكن أن تمد يدها لإنقاذ سواها مما يعانى، إلا إذا كان ذلك لمصلحة تعود عليها هى بأن تقوى من مبادئها أو تضعف من قوة خصومها ومنافسيها والأحزاب السياسية مثل لذلك واضح، فإننا لا نرى حزبا يتقدم لمؤازرة حزب آخر بنية تقويته وتأييده وتخليصه مما يعانيه إلا حيث يحسب أن ذلك قهر لخصومه أو تقوية له فيجعل ذلك قنطرة لأغراضه ووسيلة ينال بها ما يهدف إليه.

لاشك إذن فى أن التماس الإنقاذ عن «الغير» إن صح أن يؤدى إلى خير فى شأن الأفراد فإنه لن يؤدى إلى خير فى شأن الأمم والجماعات.

ولهذا كان الخطر شديدا حين تشعر الأمة والجماعة باليأس من إصلاحها، واستقامة شئونها وتفقد الثقة بنفسها.

●●●

فى أمم الشرق الآن غربان ما تزال تنعب فى كل صباح ومساء ونعيبها مقلق للنفوس مميت للأمل فى القلوب يصور للناس حياتهم فى صورة كريهة ويخيل إليهم أن شئون العرب والمسلمين قد فسدت فسادا لم يعد معه أمل فى الإصلاح وأن المسلمين الأولين قد ذهبوا بالمثل الطيبة فى الإيمان والخلق والتضحية والإيثار، فلم يتركوا وراءهم حظا منها لغيرهم وأن العزة التى كانت للآباء قد زالت حيث لا رجعة وأن الموت الزؤام هو نصيب اللاحقين، كما كانت الحياة السعيدة القوية هى نصيب السابقين.

لست أريد أن أحدا من الناس ينادى بذلك حرفيا، ويقوله لفظا أو معنى وإنما أصف شأنهم فى تضخيم الأمور، وتفظيع المساوىء والبكاء الملح على المجد الضائع والعزة المفقودة والكرامة الذاهبة والأخلاق التى دنست والتقاليد التى أهملت والرزايا التى تابعت فهذه النظرة التشاؤمية بمثابة القول الصريح بأنه لا سبيل لأهل هذا الجيل أن يدركوا شأو الأجيال قبلهم، أو يدانوها، وفيها إيحاء قوى بأننا ضعفاء وعاجزون وأننا مهما حاولنا أن نعمل أعمالهم أو ننهض كما نهضوا فلن نصل إلى ذلك ولن نقارب.

إن هذا لن يكون داعيا إلى ملاقاة النقص ومضاعفة الجهد، وإنما هو دعوة إلى اليأس والإذعان والتسليم فيه تثبيط للعزائم وإرجاف على النفوس الوثابة الطلعة ولو أن امرءاً ظل يردد على مسامع ولده أنه قاصر متخلف وأن عقله راكد وجهده ضئيل، وأن فلانا من إخوته أو أبناء عمومته أو خؤولته خير منه عقلا وأذكى قلبا وأحرص على أداء واجبه وأقرب إلى درك النجاح فى مستقبله القريب والبعيد؛ لو أن أحدا ظل يقول ذلك لابنه وهو يربيه ويحاول أن يبعث فى نفسه الرغبة والعمل والنشاط لما كان إلا مسيئا إليه مميتا مواهبه قاتلا فيه الهمة والعزيمة والثقة

بالنفس ناشرا اليأس فى أقطار قلبه، وهو يحسب أنه من الذين يحسنون صنعا.

●●●

إن المسلمين بخير وإن عدت عليهم العوادى ونزلت بساحتهم الأحداث، وما كان ضعفهم وتخلفهم إلا تمحيصا وتهذيبا سيخرجون منه إن ـ شاء الله ـ أقوياء ذوى عزة ومنعه، وإن فيهم الآن لدلائل نهضة فى العلم والقوة والسياسة والتضحية تبشر بمستقبل سعيد وحياة طيبة فليترفق الكتاب والخطباء والدعاة بأنفسهم وأهليهم وليعترفوا بنواحى القوة والحيوية والنهوض فى أمتهم، وليصوروا لهم المستقبل فى صورة جميلة تشرح الصدور وتحيى ميت الآمال، وتثير العزائم والهمم إلى التدرج فى مدارج الكمال والانبعاث فى طريق التقدم.

ولا يحسبن أحد أننى أدعو إلى غض العيون، وسد الآذان عن نواحى النقص، فإن ذلك أيضا من أسباب الضياع والانحلال ولكن علينا أن نصف الداء ونصف العلاج، فإننا إذا تعامينا عن الداء سرى فينا وأهكلنا وإذا استسلمنا له وهوّلنا فيه وشغلنا أنفسنا باستفظاعه وتأمل وجوه الخطر فيه ضعفنا عن مقاومته، وأعانه علينا هزال يصيب الهمم، وضعضعة تسرى إلى العزائم وتتغلغل فى الأعمال، وإجداب فى الفكر يسرى من الكبير إلى الصغير ومن الصغير إلى الكبير ويمر فى كل طبقة ويجول فى كل دائرة وكفى فى بيان شناعة ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى يقول ـ :

﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(١).

وإذا كنت أرجو من الكتاب وأهل القيادة والتوجيه فى الأمة أن يفطنوا إلى ذلك ويعملوا على إحياء الآمال فى نفوس الناس، فإنى أوجه ذلك ـ أيضا ـ إلى أساتذتى وإخوانى وأبنائى من الأزهريين، فقد سرى إليهم أن ضعفا شديدا قد استولى على العلم والدين والخلق، وأن الأزهر لم يعد يجد مكانا له بين أهل الرأى والقيادة فأصبح محصورا بين كلياته ومعاهده، يدرس ما يدرس ويهمل ما يهمل ويجرى فى كل ذلك على سنن من التباطؤ والتكاسل لا يدفعه عنه دافع ولا يعبأ به عابىء، سرى إليهم ذلك، وظنوا أن مصلحة العلم والدرس مضيعة بين التراخى والإهمال فيئسوا أو كادوا، وصار كبارهم يتحدثون بما كان من علم الماضين ودأبهم وقوة إيمانهم، ويشكون مر الشكوى من انصراف القلوب وانحلال العزائم وضعف الأخلاق، وصار المحدثون منهم يفعلون ما يشاءون، ويأتون من الأمر ما يأتون، ويدعون منه ما يدعون، لا يدفعهم إلى ذلك دافع من العلم والتكمل بالدرس والمعرفة، ولكن دافع من الرغبة فى مستقبل مادى يضائهون به غيرهم من أهل المعاهد والجامعات الأخرى، كأن المستقبل يضمن بالقوانين والقرارات، لا بالتمكن من العلم، وإقناع الأمة بكفاية الخرجين.

نعم صرنا إلى ذلك كله، والأمر فيه خطير إذا لم يتدارك ولكن لا ينبغى أن نيأس ولا ينبغى أن ننسى أن ظروف الحياة الدراسية والفكرية فى البلاد قد تطورت وخير لنا أن نعالج أسباب الضعف بالحزم والقوة والصبر وتوسيد كل أمر إلى من يصلح له ويستقيم به فإن أكبر الإصلاح أن يباشر الأمور أهل الإصلاح، أما أن نندب ونستغيث ونتصور الأمور تصور المشدوهين المغلّبين ونتربص أن يصلح الله الأحوال بأمر من السماء يتنزل به جبريل أو سواه من ملائكة الرحمن فسيطول تربصنا وتكثر متاعبنا ولن يجدينا الصياح ولا العويل.

(١) يوسف (٨٧).

إحساس النبات

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾
الرحمن (٦٠)

أبو حسام

سرتُ فى موكب الربيع وللطيـ ـر هتافٌ يرن فى الآذان
وعلى الدوح من غدائره الخضر ثيابٌ بهيجة الألوان
ما أجلّ الربيع يغمر قلبى بشعورٍ يحيا به وجدانى
سبتِ العينَ منه أشجار توتٍ تتهادى تحت النسيم الوانى
دونها مقعدٌ جلست عليه مستريحاً فى ظلها الفينان
وأتى صاحبى فعاث فساداً فى حماها كماردٍ شيطان
هصَر الغصنَ كى ينال جناه أى ذنب لديه للأغصان
صحت فى وجهه : جنيتَ عليه آثماً فانتظر عقابَ الجانى
ارحم الغصن لا تنلْه بسوءٍ قد يحس النبات كالإنسان
واستمعْ للحفيف منه تجده بات يشكو الإنسان للرحمن

***

قال لى صاحبى ولجّ به الغيـ ـظ فأزْرى بمنطقى وبيانى
أىَّ هزلٍ تقول دون اكتراثٍ هل يحس النبات كالإنسان؟!

ألــديـــه روح تـــلاقـــى الـــرزايـــا ثم تبكى بدمـــعـــهـــا الهـــتّـــان

مـنطق خـــانه الـدلـيل فـــأمـــسى يتـــداعـى كـــواهـن الـبنيـــان

ربما قـــد قـــرأتـه ذات يـوم لأديـب فـى غـــابـر الأزمـــان

تـبـع الـوهـم ثـم أحـــدث رأيـاً نمّقـــتـــه زخـــارف الـبـــهـــتـــان

***

وجلـسنا مـــعـــاً فطال نقـــاشٌ أعـــوزتْه بـلاغـــة الـبـــرهـان

نـرسل الـقـــول مـثلمـا جـاء فـأعـجبْ لـلـســـان يـصـــول فـــوق لـســـان

ومـــضتْ ســـاعـــةٌ فـــهبّ نـسـيـم لامَسَ الدوح كـــالرفـــيـق الحـــانى

فـــإذا الـغـــصن يـســقط الـتـوت فـوقى دونـه، وهْو لاصـق مـــتـــدانى

قـلت: يـا صـــاحـــبى مـلكـت دلـيـلى إذ بـدا الحق واضـــحـــاً لـلعـــيـــان

أدرك الـغـــصـن رأفـــتى وحـنـانى فـــحـــبـــانى ببـــره ورعـــانى!!

إن يـكـن لا يـحـس كـــيـــف تـراه قـــام يجـــزى الإحـــســـان بالإحـــســـان

منطق قـــد يجـــادل الـعـــقل فـــيـــه غـــيـــر أن الـفـــؤاد ذو إيمان

وأتـى طـائـرٌ فـــرجّـع لحـنـاً هـيّج المـســـتـكنّ من أشـــجـــانى

أبصـــر الـغـــصن كـــالجـريح فـــواســـاه مـلـيـــاً بـصـــوتـه المـرنـان

يبـــصـــر الطائرُ المصـــابَ فـــيـــبكى ونـراه فـــتـــضـــحك الـشـــفـــتـــان!!

***

ارحـم الـغـــصـن لا تـنـلهْ بـســـوءٍ قـــد يحس الـنبـــات كـــالإنـســـان

واســـتـــمعْ لـلحـــفـــيف منه تجـــده قـــام يشـكـو الإنـســـان للـرحـــمن

***

من قادة الفتوحات الإسلامية

القعقاع بن عمرو التميمى (*)

٢

إعداد الأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

وانتهت معركة القادسية وظل سعد بن أبى وقاص مرابطا بجنوده بالقادسية مدة شهرين حتى جاءه أمر الخليفة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بالزحف نحو المدائن، فاقتحم (بهرسير) فى صفر سنة ١٦هـ ووقف بجيشه على نهر دجلة ولم تكن لديه سفينة واحدة، والنهر عريض متسع، فكيف السبيل إلى عبوره؟! لم يجد سعد بدا من أن يعبر النهر على ظهور الخيل، ولكن كان لابد أن تسبقه كتيبة تستطلع الأمر على الضفة الأخرى للنهر وتمهد له السبيل فصاح فى جنوده: « من يبدأ ويحمى لنا الفراض[1] حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟ فتطوع له أهل البأس والقوة، وكان فى مقدمة المتطوعين عاصم بن عمرو - الذى تولى قيادة هذه الكتيبة - والقعقاع بن عمرو ومعه فرقته وكان يقال لها الخرساء وكانت تضم فحول فرسان المسلمين، ومعهم ستمائة من أهل النجدة.

اندفعت هذه الكتيبة بخيلها فى نهر دجلة، فلما اقتربوا من ضفة النهر أحس بهم المجوس فهبطوا بخيلهم إلى النهر لمواجهتهم، فصاح عاصم والقعقاع معا: « الرماح الرماح، أشرعوها وتوخوا العيون » هذا الأسلوب فى المواجهة أنهى المعركة قبل أن تبدأ ففرسان المجوس عجزوا بسيوفهم عن اختراق صفوف المسلمين إزاء ما فعلته فيهم الرماح.

أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع

ورغم أنه لم يكن القائد إلا أن روح القيادة كانت تسرى فى دمه، تفقد القعقاع الجند بعد

(*) انظر: الطبرى، الجزء الرابع، أحداث سنة ١٦ ، ١٧هـ.

(١) الشاطىء.

الوصول إلى ضفة النهر الأخرى فوجدهم سلموا من عند آخرهم إلا رجلا من بارق يدعى «غرقدة» زال عن ظهر فرس له شقراء، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه عائدا إلى النهر باحثا عنه فوجده فأخذ بيده فجره حتى عبر، فقال له «غرقدة» وكان من أشد الناس: «أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع».

واندفع عاصم والقعقاع - بعد أن قاما بتطهير الشاطىء من بقايا فلول الفرس - صوب المدائن وكانت قد أقفرت من الجند وخلت من الناس.

وأبصر القعقاع فارسا فارسيا يهرب منسحبا فلحق به فاقتتلا، فقتله القعقاع، وإذا مع المقتول جنيبة[٢] عليها عبيتان[٣]، وغلافان [٤]فى أحدهما خمسة أسياف، وفى الآخر ستة أسياف. وإذا فى العُبيتين ثروة لاتقدر، فيها درع كسرى ومغفره، وساقاه، وساعداه، ودرع هرقل، ودرع خاقان، ودرع النعمان بن المنذر، وأدراع مشاهير قادة الفرس، أما الأسياف فكانت لكسرى (أنو شروان) و(هرمز) و(قباذ) و(فيروز)، و(هرقل) و(خاقان) و(النعمان) و(داهر) و(سيا وخش) جاء القعقاع بكل هذا وألقاه تحت قدمى سعد بن أبى وقاص الذى ذهل مما رأى وقال: «والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت وأيم الله على فضل أهل بدر» وقال جابر بن عبدالله: «والله الذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة»

هذه الغنائم كلها غنمها القعقاع بطل فتوح العراق والشام وفارس الذى لم ينكسر له سيف ولم يخسر معركة واحدة، وكان صوته ساعة الوغى كما قال الصديق- رضى الله عنه: (خير من ألف رجل) ترى أكان أحد سيلومه لو احتفظ لنفسه بهذه الغنائم؟! نظر إليه سعد نظرة فخر وإعجاب، وقال له: «اختر أحد هذه الأسياف» فاختار سيف (هرقل) وأعطاه درع (بهرام جوبين) ومنح سائر الغنائم لجنود القعقاع ماعدا سيف كسرى، وسيف النعمان بعث بهما إلى الخليفة عمر ابن الخطاب ضمن الأخماس.

ولم يكد سعد يستقر فى المدائن حتى علم بأن الفرس قد أعادوا تجميع جيوشهم فى جلولاء بقيادة (مهران الرازى)، فكتب إلى الخيفة عمر يعلمه بذلك فجاءه الرد: «سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى اثنى عشر ألفا، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو» وهكذا يظل القعقاع قائد قوة الاقتحام الرئيسية، وقد يقول قائل لماذا لم يعهد عمر إلى القعقاع بقيادة هذا الجيش بدلا من أن يتولى فقط قيادة المقدمة مع بلائه فى كل المواقع التى خاضها؟ أقول: إن تفرغ رجل مثل القعقاع لقيادة مجموعة من مجموعات الجيش كان أمرا مطلوبا حتى يتفرغ ذهنه

---

(٢) الجنيبة: الدابة تسير بجانب صاحبها.

(٣) العبية: كيس من الجلد.

(٤) الغلاف: حافظة جلدية.

للفرقة التى يقودها فقط بدلا من أن يتوزع جهده على سائر الجيش فضلا عن أن القعقاع طبقا لأولويات القيادة فى خطاب عمر كان هو الرجل الثانى فى الجيش، والفرقة التى يقودها - وهذا هو الأهم - هى المقدمة أى قوة الاقتحام والاشتباك الرئيسية، فضلا عن أن طبيعة المعركة كانت تتطلب أن يكون جميع القادة بلا استثناء على أرفع مستوى، وهو ما قد حدث بالفعل.

بطل جلولاء

وصل القعقاع بمقدمة الجيش إلى جلولاء ليجد الفرس قد أقاموا خندقا كبيرا متسعا وعميقا حفروه حول مواقعهم يحوطه حسك الخشب وهى قطع خشبية مدببة تنغرس فى حوافر الخيول إذا ما حاولت التقدم تجاه مواقع الفرس.

فأرسل القعقاع إلى هاشم بن عتبة يخبره بما استعد به الفرس، فكتب إلى سعد بن أبى وقاص يسأله المدد فأمده بستمائة مقاتل

ووقف هاشم يخطب فى الجيش: «إن هذا المنزل منزل له مابعده، أبلوا الله بلاء حسنا يتم لكم عليه الأجر والمغنم واعملوا لله».

والتحم الفريقان التحاما شديدا استمر حتى الليل واكتشف القعقاع أن الفرس أنشأوا مدارج ومعابر لنقل جيوشهم من وراء الخندق مما أضعف من قوته الدفاعية، ولما حل الليل وبدأ الفريقان يتحاجزان استعدادا لجولة جديدة صاح القعقاع: «يامعشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذوا به فأقبلوا إليه ولا يمنعنكم من بينكم وبينه من دخول» ألهب صوت القعقاع حماس الجنود، إذا كيف يتركون قائدهم هاشم بن عتبة فى يد الفرس، ولم يحدث قط أن ترك المسلمون قائدهم لعدوهم يقتلوه أو يأسروه، وكانت حيلة بارعة من القعقاع، فهاشم لم يكن فى الخندق، ولكن القعقاع كان قد نجح فى اقتحامه فى نفس التوقيت الذى بدأ فيه الفرس الانسحاب طلبا للراحة ففوجئوا بالقعقاع داخل الخندق يقطع عليهم خط الرجعة، والمسلمون من خلفهم يكرون عليهم لاستنقاذ قائدهم فحاقت بهم الهزيمة وملأت جثثهم ميدان المعركة وكان ذلك فى غرة ذى القعدة لسنة ١٦هـ.

وسار القعقاع بمقدمة الجيش إلى حلوان حيث لجأ إليها يزد جرد، فاستولى عليها القعقاع بمعاونة نفر من العجم الذين أسلموا واطمأن القعقاع إلى إسلامهم، حتى أنه ولى أحدهم ويدعى (قباذ) على حلوان، وعاد ليلحق بسعد ابن أبى وقاص الذى كان قد نزل الكوفة.

إلى الشام

وفى ذلك الوقت كان أبوعبيدة عامر بن الجراح يواجه موقفا حرجا فى الشام، فقد تحالف أهل منطقة (الجزيرة) مع الروم للقيام بعمل ضد المسلمين فكتب أبوعبيدة إلى عمر بن الخطاب يسأله المدد فأرسل عمر من فوره إلى سعد بن أبى وقاص فى الكوفة يأمره بإنفاذ أربعة آلاف مقاتل على رأسهم القعقاع بن عمرو لنجدة أبى عبيدة فخرج القعقاع مسرعا من الكوفة إلى الجزيرة ليجد أن أبا

عبيدة قد دمر جموع الروم فأمر عمر أن يشرك القعقاع ومن معه فى الغنيمة وقال: «جزى الله أهل الكوفة خيرا، يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار».

فارس نهاوند

أما الفرس فكانوا قد أعادوا تنظيم صفوفهم واحتشدوا فى نهاوند، فرصد قباذ بن عبدالله الفارسى المسلم الذى استخلفه القعقاع بن عمرو على حلوان جموعهم، فكتب إلى سعد يعلمه بذلك فكتب سعد بدوره إلى الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب الذى اختار بعد المشورة النعمان بن مقرن المزنى لقيادة جيوش المسلمين فى نهاوند والقعقاع على الفرسان وكان الفرس قد أحكموا تحصيناتهم فى نهاوند، فضرب المسلمون الحصار حولها، ولكن الفرس اكتفوا بالقتال من خلف الأسوار، وطال الحصار أياما مرت ثقيلة على المسلمين، فجمع النعمان قادته يستشيرهم، فاستقر الرأى على أن يتحرش القعقاع مع فرقة من فرسانه بالفرس ويتظاهرون بالانسحاب فيعتقد الفرس أنهم يهربون فيخرجون من حصونهم لمطاردتهم.

فتقدم القعقاع بفرسانه نحو خنادق العجم وحصونهم وتحرش بهم فخرجوا لقتاله فجعل يتراجع وكأنه منهزم والفرس فى أعقابه فى حين سلك النعمان بقواته طريقا آخر صوب حصون الفرس الذين أخذوا يخرجون قواتهم فرقة وراء أخرى لمطاردة القعقاع حتى لم يبق فى حصونهم إلا من يقوم على أبوابها وكان القعقاع مطالبا بالصمود مع فرسانه فى مواجهة جحافل الفرس حتى يكتمل خروجها من الحصون وينقطع سبيلهم إليها لينقض عليهم النعمان بسائر الجيش.

وكان موقف القعقاع بالغ الدقة فلم يكن مطلوبا منه أن ينهزم وينسحب سريعا، إنما كان المطلوب منه أن يقاتل ثم ينهزم وينسحب وألا يكون الانهزام والانسحاب سريعا إنما ينبغى أن يكون على مراحل وأن يكون بطيئا وليس سريعاً حتى لا تنكشف الخطة، بمعنى أن عبء المعركة كلها واقع على عاتق القعقاع، إذ سيصل به الأمر فى النهاية إلى أن يقاتل بفرسانه جحافل الفرس ولابد له من الصمود حتى يتمكن النعمان من اتخاذ مواقعه للانقضاض على الفرس الفرحين بانتصارهم المزعوم.

ونجح القعقاع وصمد، وانقض النعمان بسائر الجيش على جحافل الفرس، واستدار القعقاع بفرسانه يكر بهم على جموع الفرس منتقلا من موقف الانهزام إلى الهجوم الخاطف بسيفه البتار، فذهل الفرس، ولم يجدوا إلى حصونهم سبيلا، فالقعقاع أمامهم والنعمان خلفهم وحصونهم خالية من كل مدد ممكن أن يأملوا فيه وأحرز المسلمون نصرا مؤزرا، وأنشد القعقاع:

نحن حبسنا فى نهاوند خيلنا
لشر ليال أنتجت للأعاجم
ملأنا شعابا فى نهاوند منهم
رجالا وخيلا أضرمت بالضرائم

(يتبع)

ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية

للأستاذ الدكتور / أحمد فؤاد باشا(*)

بدايات انتقال العلوم العربية إلى أوربا

يؤكد المنصفون من المؤرخين بما لا يدع مجالاً للشك أن من أهم العوامل التى ساعدت على ظهور النهضة الأوربية الحديثة وانتشارها كان اتصال الأوربيين بمراكز الحضارة العربية، سواء فى فترة الحروب الصليبية، أو أيام حكم العرب للأندلس حيث ساد ما يقرب من ثمانية قرون، أو عن طريق جزيرة صقلية التى خضعت لحكم العرب ما بين منتصف القرن التاسع الميلادى وأواخر القرن الحادى عشر الميلادى.

وقد تأثر الأوربيون بالحضارة العربية المزدهرة فى مصادرها المختلفة، واقتبسوا منها الشئ الكثير، ولا سيما فى مجال الفنون والعلوم الطبيعية والتكنولوجيا، ونشطت حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية التى كانت وحدها لغة الأدب والعلم والدين. ولكن عندما زاد اهتمام الأوربيين بلغاتهم القومية، كالإيطالية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية، بدأوا فى التأليف فى هذه اللغات، ومن ثم انتقلت المعارف المتنوعة إلى الشعوب الأوربية فى سهولة ويسر، وكان لاطلاعهم على الكتب العربية المترجمة عن الإغريقية أكبر الأثر فى تنبيههم إلى أهمية تراث الإغريق والرجوع إليه ومحاولة الاستفادة من تراث الحضارة العربية الإسلامية فى القرون الوسطى ثم الاجتهاد فى إيجاد صياغة جديدة للمعرفة بما يلائم العقلية المتحررة ويفتح الطريق أمام تقدم حضارى فى جميع المجالات.

وما يعنينا هنا على أية حال هى ثمرة اختلاط العرب بالأمم اللاتينية فى القرون الوسطى، واللقاء بين ثقافة يانعة براقة وثقافة ناشئة اجتذبها البريق الأخاذ. وكان الإخصاب الذى أسفر عنه هذا اللقاء فذاً رائعاً لا ينضب معينه، ولا ينقطع مدده.. ولولاه لتأخرت مسيرة المدنية عدة قرون، ولما وصلنا إلى حضارة اليوم بكل شمولها وأبعادها وآثارها.

وقد تمت عملية الإخصاب هذه – فى جانبها الفكرى والعلمى – بصورة رئيسية عن طريق ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية:

(١) فى صقلية وجنوب إيطاليا من ناحية.

(٢) وفى الأندلس ومدينة طليطلة من ناحية أخرى.

وكان المترجمون غالبا من المستعربين أو اليهود، وفى بعض الأحيان من العرب الذين لديهم معرفة واسعة ومباشرة بالعالم الإسلامى.
(١) أما صقلية التى افتتحها العرب على يد الأغالبة سنة ٨٢٧م وطالت أيامهم فيها إلى أن سقطت فى أيدى النورمان عام ١٠٦٠م، فقد شهدت تأسيس أول مدرسة للطب فى عاصمتها بالرمو Palermo، وأدخل العرب فى الجزيرة صناعات وزراعات لم تكن معروفة لأهلها، منها صناعة الورق التى انتشرت منها إلى إيطاليا، وصناعة المنسوجات الحريرية، وأدخلوا أساليبهم الفنية فى العمارة والصناعات الدقيقة.

وكان اوجين البالرمى Eugene de Palermo من أشهر المترجمين عن العربية، ويعرف بآن واحد اليونانية والعربية واللاتينية، وترجم إلى اللاتينية كتابى: «المجسطى» و«أوبتيكا» (البصريات) لبطليموس، وكتاب «كليلة ودمنة» أو على الأقل ساعد فى ترجمته. كذلك اشتهر الجغرافى العربى الشريف الإدريسى (ت ١١٦٦) الملقب «باسترابون العرب»، واقترن اسمه باسم ملك صقلية النورمندى روجر الثانى Roger II، وصنف كتابه الشهير «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» عام ١١٤٥م جمع فيه بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الرياضية الفلكية، وكانت درة عمله خريطة العالم التى نحتها على شكل كرة من الفضة قطرها متران، ورسم فيها العالم ببره وبحره وجباله وسهوله وأنهاره وبحيراته ومدنه وممالكه، وجعلها تقرب من وضعها العالمى الصحيح الذى هى عليه اليوم. وترجم كتاب الإدريسى إلى اللاتينية وترجمت كل أمة ما يعنيها منه، وتعلمت أوربا منه علم الجغرافيا فى القرون الوسطى واستمرت تنسخه لأكثر من ثلاثة قرون، وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية: «.. إن كتاب الإدريسى هو أوفى كتاب جغرافى تركه لنا العرب، وإن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى». ومن مؤلفات الإدريسى أيضا كتاب «الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والأزهار والحيوانات والمعادن وتفسير أسمائها باللاتينية والسريانية واليونانية والبربرية».

وفى مجال الرياضيات والفلك تدلنا أعمال الراهب «جيربرت» Gerbert (ت ١٠٠٣م) على أنه أول عالم كبير عمم ونشر الأرقام العربية والأسطرلاب فى أوربا. وكان جيربرت قد أقام فى أسبانيا بين سنتى ٩٦٧و٩٦٩م وعرف فيما بعد (٩٩٩م) باسم البابا سلفستر الثانى Sylvester II وأظهرت مراسلاته أنه طلب من صديقه «لوبيتوس» Lupitus (أو ليوبيه Liobet) فى برشلونة إرسال كتاب عن «علم التنجيم» Astrology (ربما كان

مـخـصـصـاً فى الاسطرلاب)، ويعـزى إلى جـيـربرت فـضل اسـتـجـلاب الأسطرلاب إلى العـالم اللاتينى ثـم شيـوع استـخـدامه بفـضل الراهب « ريشينو Reichenau » .

وقـد اعـتـنى بوبنوف N.Bubnov بنشـر المؤلف الذى وضعـه جيـربرت فى الرياضـيـات وضـمنه مـسـأله أصل الأرقـام العـربيـة وإجـراء العـمليـات الحـسـابيـة وفـقـاً لطريقـة المعـداد Abacus الذى أخـذه عـن العـرب . وبصـورة تدريجـيـة أصـبـحت الأرقـام تدون كـمـا عند العرب فوق الرمال أو فوق الغبار(١) . ويعتقد ان انتشار طريقة المعداد الحسابية فى الغرب قد تم عن طريق الأندلس بواسطة المعاملات التجارية والرحلات والسفارات، وأن ظهور الأسطرلاب فى الغرب فى نفس حقبة المعداد قد تم بنفس هذا النهج النقلى المباشر.

وعلى غـرار مـا حـدث للرياضـيـات والفلك على يد جيـربرت، كـانت بداية دخـول الطب العـربى إلى أوربا عن طريق مـدرسـة سـالرنو Salerno التى يعـزى تأسـيـسـهـا إلى أربعـة أسـاتذة كـان كل منهم يعلم بلغـتـه، وهم : سـاليـرنوس Salernus باللاتينيـة، وبونتـوس Pontos باليـونانيـة، وأديلا (ربما عـادل أو عـبـدالله) Adelah بالعـربيـة، وهيلينوس Helinus بالعبرية .

وظهـر الراهب العـربى قـسطنطين الأفـريقى (ت ١٠٨٧م) كـرائد لفـريق التـرجـمـة فى مدرسة سالرنو، وكـان تاجراً من قرطاجة، ترك عمله وانصرف إلى الطب، ثم تنصر وهرب الى إيطاليـا حـاملاً العـديد من المخطوطات العربيـة التى عكف على ترجمتها الى اللاتينية، ولكن ترجـمـاته جاءت صـعـبـة غـامضـة، وفى أغلب الأحـيـان خـاطئـة رغـم تصـحـيـحـات صـديقـيـه الراهـبين، اتـو ويـوحـنا الفـاسـى Atto & Johannes . وقـد أورد مـؤرخـو الطب العـربى قـائمـة للكتـب التى صنفـهـا قـسطنطين بلغت أربعـة وعـشرين كـتـاباً، وكـان لا يشـير إلى أن اغلبـهـا كـان مجـرد ترجـمـة، وعـثـرت البـحـوث الحـديثة على أصـولها العـربيـة، ومنهـا « الكـتـاب الملكى » أو « كـامل الصـناعـة الطبـيـة » الذى تـرجـم إلى اللاتـينيـة تحت عـنوان (Liber Regius) لعلى بن عباس المجوسى (ت ٩٩٤م)،

(١) الأرقام الغبارية ((Ghubar هى أرقام هندية الأصل هذبها العرب، وسميت غبارية لأن الهنود كانوا يذرون غبارا على لوح من الخشب ويرسمون عليه الأرقام .١ .٢ .٣... وقد انتشر استعمالها فى بلاد المغرب العربى وأوربا وعرفت باسم «الأرقام العربية Arabic numerals».
أما معداد جيربرت ذو الأعمدة (الخانات) فكان يعتمد فى الحساب على ترتيب قطع صغيرة من قرون الحيوانات رقمت عليها الأعداد من ١ إلى ٩ بسبب مواقعها المتنوعة ضمن العامود الذى يحتويها.

راجع:

N. Bubnov, Gerberti opera mathematica, Berlin, 1899. –
- E. Smith, History of Mathematics, Boston, 1923 - 1925.
- R. Taton, Histoire Generale de sciences, Tome I; La Science Antique et Medievale (Des Origines a 1450). Arabic Edition, 1988.
- G. Sarton, Introduction to the History of Science, 1929-1948.
- S.Hunke, Allahs Sonne Uber Dem Abendland Unser Arabisches Erbe. Arabic Edition, 1981

وعرف باللاتينية باسم (Haly Filius Abbas)، وهو الكتاب الذى ألف قسطنطين على منواله «كتاب الكليات» Liper Pantegni. ومن ترجمات قسطنطين أيضا كتاب «زاد المسافرين» Viaticum Peregrinantis لابن الجزار القيروانى، «وطب العيون» لحنين أبن اسحق، وعدة رسائل لاسحق الإسرائيلى فى البول والحميات والأدوية. وكانت معظم هذه الكتب التى ترجمها قسطنطين تدرس فى مدرسة سالرنو وامتد تأثيرها إلى أنحاء أوروبا بأكملها.

ومن صقلية وإيطاليا تدفق سيل الترجمة تدفقاً متواصلاً، وظلت حركة الترجمة على أشدها حتى القرن السادس عشر الميلادى.

(٢) وأما أسبانيا فقد أصبحت المركز الثقافى المتميز الذى يأتيه مثقفو أوروبا كلها طلبا للعلم من المصادر العربية، وكان آديلار الباثى Adelard de Bath (١٠٩٠ - ١١٦٠م) من رواد هذه النهضة، فقد ولد فى «باث» (قرب بريستول) ثم انتقل وهو شاب صغير إلى فرنسا، وسافر إلى صقلية وسيليسيا، وأجرى قياسات فلكية فى القدس عام ١١١٥م، وزار دمشق وبغداد ومصر، وأمضى فى إنجلترا سنوات رشده، وكتب «المسائل الطبيعية» حوالى سنة ١١١٦م، وعرضها بشكل حوار فلسفى عالج مختلف المسائل البيولوجية بتدرج تصاعدى من النبات إلى النفس الإنسانية، وبعدها تأتى المسائل المتعلقة بالطبيعيات، وحاول من خلال ذلك أن يرسم بداية منهج علمى مؤكدا على أهمية البحث عن الأسباب الطبيعية، فقد كتب يقول: «إذا كانت مشيئة الخالق تقضى بوجوب إنبات النبات من الأرض، فإن هذه المشيئة ليست خالية من السبب». وفى بعض الأحيان يعبر عن تشبعه بالعلوم العربية فيصرح بتعبير أقوى قائلا: «هل من أحد غيرى تعلم على يد المعلمين العرب سلوك درب العقل. فعليك من جهتك أن لا تعميك غشاوة السلطة، إذ لو فعلت فكأنك قد ربطت برسن (أى زمام على الأنف)، وأى شئ يمكن أن توصف به السلطة غير وصف الرسن؟ إن تركت نفسك تخضع للسلطة تكن كالحيوانات التى لا تعرف لا إلى أين ولا إلام تجر».

ومن أهم ترجمات آديلار الباثى كتاب الخوارزمى فى الحساب بعنوان «الجمع والتفريق بحساب الهند» وترجمه بعنوان Algoritmi de Nemero Indorum، وهو أول كتاب من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة العلمية، كما أنه أول كتاب دخل أوروبا وبقى المصدر المعتمد فى البحوث الحسابية، وبقى علم الحساب لمدة قرون معروفا باسم «الجورتمى» نسبة إلى الخوارزمى. كذلك ترجم «زيج الخوارزمى» المعروف فى أوروبا باسم Tablas Astronomicas.

وأفصح آديلار الباثى من خلال ترجماته اللاتينية للنصوص العربية عن مدرسة المترجمين فى طليطلة Collegio de tradutores Toledanus صاحبة الفضل فى نقل العلوم الإغريقية، وما أضافه العرب إليها من شروح وتعليقات إلى المدارس الأوربية.

ولابد من التنويه هنا بفضل ريموندو

Raimondo (ت ١١٥٢م) أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتالة آنذاك، فهو الذى شجع حركة الترجمة ونقل الكتب العربية إلى اللاتينية، فكان فعله هذا حدثا حاسما ترك أبعد الأثر فى مصير أوروبا - فيما يقول رينان. ثم توالى خلفاؤه من الأساقفه فى تشجيع هذه الحركة والحدب عليها.

ونذكر من كبار المترجمين الأسقف دومينكوس جونديسالفى Gundisalve (أو Gundisalinus) المتوفى سنة ١١٨٠، وهو من كبار كنيسة طليطلة وقد شاركه فى الترجمة غالبا يوحنا بن داود Aben Daud المعروف بالإشبيلى أو الأسبانى، فنقلا بعض مؤلفات ابن سينا (النفس) و(الطبيعة) و(ما وراء الطبيعة)، وبعض آثار الغزالى (مقاصد الفلاسفة).

كما اشتهر فى حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية جيرار الكريمونى Gererd of Cremona (ت ١١٨٧م)، ويذكر له جورج سارتون قائمة من سبعة وثمانين كتابا ترجمها عن العربية فى الفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك وفى الطبيعيات والميكانيكا (علم الحيل) مع شرح الكندى، وثابت بن قرة، وابن ماسويه، وأبى بكر الرازى، وأبي القاسم الزهراوى، وابن سينا، وغيرهم.

وهناك أيضا روبرت الشسترى Robert of Chester الذى يؤثر عنه اهتمامه الكبير بمآثر الشرق فى الرياضيات، حيث ذهب إلى أسبانيا ودرس فى برشلونة، وكانت ترجمته لكتاب الخوارزمى «الجبر والمقابلة» أساسا لدراسة كبار العلماء فيما بعد أمثال ليونارد البيزى Leonard of Pisa وكردان Cardan وتارتاجليا Tartaglia وفيرارى Ferrari وغيرهم من الذين تقدمت على بحوثهم موضوعات الجبر العالى.

* ونذكر من أمثلة الكتب العربية ذات التأثير الواضح فى النهضة العلمية الأوربية :-

كتاب «الزيج الصابى» للبتانى، الذى ترجمه أفلاطون التيفولى Plato of Tivoli فى القرن الثانى عشر الميلادى بعنوان De Sciencia Sttellarum أى «علم النجوم»، وكتاب «غاية الحكيم» للمجريطى الذى ترجم إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر للميلاد بأمر الملك الفونس تحت عنوان Picatrix، وكتاب الحاوى Continens والمنصورى Almansorem فى الطب للرازى Rhases، وكتب «القانون» و«الشفاء» و«النجاة» لابن سينا Avecenna، وكتاب «المناظر» لابن الهيثم Alhazem، وكتاب «التيسير» لابن زهر Avenzoar وكتاب «التصريف» لأبى القاسم الزهراوى Albucasis وكتاب «الكليات» Colliget لابن رشد، وكتاب «الأقربازين» لابن الجزار Liber fiducia de simplicibus medicimis، وغيرها.

وعلى كل حال، لقد نشطت حركة الترجمة والنقل فى صقلية وإيطاليا وأسبانيا، وتسابق الرجال من ذوى العقول النيرة إلى بالرمو وسالرنو وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية. ولم يظهر فى أوروبا آنذاك كتاب واحد تقريبا إلا وقد ارتوت صفحاته بالينابيع العربية وظهرت فيه بصمات

الفكر العربى واضحة جلية، سواء من حيث اللفظ والكلم، أو من حيث المعنى والمضمون.

ترجمة العلوم العربية عمل ضخم لم يتم

إن الحديث عن ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية لا ينبغى أن يغفل قضية بالغة الأهمية تتعلق بإحياء التراث العربى وترجمته، وهذا الموضوع مسرح عمل ضخم لم يتم، حيث تقدر المخطوطات العربية المفقودة أو المحفوظة فى العالم بعشرات الآلاف، ولم يحقق منها إلا النزر اليسير، فى الوقت الذى تشهد فيه ساحة الفكر العلمى منذ عدة عقود نشاطا منظما على مستوى العالم بهدف نشر الأعمال الكاملة لكبار العلماء، على اعتبار أن إحياء التراث العلمى مسئولية دولية تستوجب الرعاية والتعاون من جميع الدول. وقد حدث أن لجأت الهيئات المسئولة عن نشر الأعمال الكاملة للعالم الشهير «برنوللى» Bernoulli إلى تدعيم جهودها عن طريق الاكتتاب العام، ويجرى حاليا إعداد طبعة جديدة لهذه الأعمال من خلال التعاون بين عدة دول لتصدر تباعا فى خمسة وأربعين مجلدا. ومن أسف ألا يحظى التراث العلمى بأى رعاية على خريطة الاهتمام العالمى بالقضايا التراثية. ومن ثم فإن الدعوة إلى إحياء التراث العلمى العربى وترجمته تكتسب اليوم ذات الأهمية التى أوضحتها لنا تجربة الترجمة فى عصرى النهضة العلمية العربية والأوربية، وذلك من أجل صياغة أكثر دقة وموضوعية لنظرية العلم وتاريخه وفلسفته، والعودة بالعلوم التخصصية الحديثة إلى جذورها فى المجتمعات التى كانت شاهدا على ميلادها، والتعرف على طبيعة الظروف التى سمحت للمفاهيم والأفكار الوليدة أن تنمو وتزدهر، وتصبح بعد ذلك فروعا فى شجرة المعرفة، وروافد لا غنى عنها لتغذية الحضارة الإنسانية، ولقد أظهرت بحوث العلماء حديثا أهمية ما ندعو إليه عندما كشفت عن المزيد من النظريات العلمية والاختراعات المتقدمة فى كتب التراث العربى وأوضحت الحاجة إلى إعادة تأصيل فروع العلم المعاصر: البصريات والصوتيات والميكانيكا والشفرة والبيزرة والفلك والرياضيات والبيئة والمراعى والجيولوجيا والطب والصيدلة والوراثة وغيرها. هذا بالإضافة إلى ضرورة إعادة بحث الظاهرة العلمية وتحليلها فى ضوء حقائق تاريخية لا يمكن إغفالها. فالشرق والغرب قد التقيا طوال التاريخ لقاءات حضارية عدة أثمرت فى حصيلتها ما تنعم به البشرية اليوم، وكانت الترجمة هى إحدى صور التفاعل المتبادل بين هذه اللقاءات الحضارية(٢).

---

(٢) راجع:
- د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة القاهرة ١٩٨٣.
- د. أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى، دراسات تأصيلية، دار الهداية، القاهرة ١٩٩٧.
- J.H. Hayes (Editor); The Genius of Arab Civilization, Source of Renaissance, 2nd Edition, London 1983.
- J. Dhombres; On the Track of Ideas and Explantions Down the Centuries: The History of Science Today, Impact of Science on Society, Unesco, No. 159, 1990.
- D. Speiser and P. Radelet - de Grave; Publishing Complete Works of Great Scientists: An International Undertaking, Impact of Science on Society, Unesco, No. 160, 1991.

أثر العقيدة الصادقة على التقدم العلمى عند المسلمين

للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى

على كثرة ما نقرأ عن النهضة العلمية التى واكبت الثقافة الإسلامية عبر العصور، فإننا لا نكاد نرى مرجعا وافيا أو مؤلفا ضافيا يعكف ـ فى تخصص وعمق ـ على دراسة الوشائج المتينة بين ذلك التقدم العلمى الذى أحرزه المسلمون فى كفاءة واقتدار، وبين العقيدة الإسلامية الصادقة التى وقرت فى قلوبهم، وعمرت بها أرواحهم، وكانت هى الزاد الدافع والطاقة الحافزة لهم على ما حققوه من نهضة علمية خلاقة، وجهد علمى مبين.

وكم نحن الآن فى حاجة ملحة إلى بعث هذا المعنى، وشرحه، وتعميقه لدى الناس ولاسيما عند أبنائنا من الشباب حتى نواجه دعاوى كثير من المستشرقين والمستغربين الذين يدعون ـ فى تعصب مقيت وذاتية ضيقة ـ أن هذا العصر الذى نحياه مدين للغرب بما آل إليه من فكر علمى، ومنهاج تجريبى، وأن المسلمين السابقين ـ إن كان لهم دور فى بعض الميادين مثل الطب أو الفلك أو الطبيعة ـ إن هم إلا نقلة مقلدون، وليسوا روادا مبدعين!!

وتناسوا ما تحلى به المسلمون الأوائل من مثابرة على البحث الدقيق، والمصابرة على التنقيب المتأنى فى ظروف (تقنية) صعبة، ومن خلال إمكانات (اتصال) قاسية، فلقد كان على الباحث المسلم آنذاك ـ ولم يكن هناك باحث غيره ـ أن يستهلك عصارة عينيه على ذبالات الزيت والشموع، وأن يستنفد

جمع جهده فى نسخ مؤلفاته المخطوطة بأقلام بدائية، على قراطيس معتمة.

ولعمرك، إنَّ هذا كله، وغيره من ضروب المشقة، وألوان المعاناة لهو أمر جد يسير إزاء المحاولات المتوالية، والحيل المتتالية فى سبيل الحصول على مرجع يطلع عليه، أو سفر يهتدى به، فكل صعب يهون بجانب هذا الأمر الشاق إذ لا مطبعة حينذاك تفرز ألوف الألوف من النسخ، كما نرى الآن، وإنما هى آحاد من المخطوطات اليدوية لا يدرَك أحدُها إلا بالجهد الجهيد، والعناء الشديد.

وبالرغم من ذلك كله فقد تمتع الأسلاف العباقرة من المسلمين بعناد صارم، وإصرار حازم، حتى خلفوا لنا تراثا عجبا، كان له فى الآفاق دويٌّ وصداه، وكان له فى حياة البشرية آثاره التى مازالت الإنسانية تجترها حتى اليوم فى صور متباينة، وألوان شتى.

فأية طاقة هائلة تلك التى دفعت هؤلاء الباحثين الرواد إلى إبداع هذا التراث الأصيل مستعذبين فى سبيل ذلك كل صعب وشاق؟

وإذا كان مفكرو العالم قد شغلوا بتناول هذا التراث الفذ من جوانب عدة دون أن يعنوا كثيرا بالبواعث التى جعلت من مبدعى هذا التراث علماء أجلاء يفتحون لخلفائهم أبواب البحث العلمى الصحيح، ويضعون أيديهم على طرائق الاتجاه التجريبى الدقيق؛ فما أحرانا أن ندق اليوم هذا الباب دقا حثيثا إنصافا للحق، وإبرازا لدور العقيدة الإسلامية الجليلة التى كانت وراء ذلك التراث العظيم.. إذ لم يعد يكفى التنبيه إلى تأثير هذا التراث العلمى الخلاق فى النهضة الأوروبية أو التنويه بأئمة البحث والتجريب من أمثال الحسن بن الهيثم، وجابر بن حيان، وابن النفيس، وغيرهم من ذوى الأفكار الرائدة التى أثرت ـ دون جدال ـ على فكر روجر بيكون، وفرنسيس بيكون، وجون ستيورت مل، وهارفى، وأمثالهم.

نعم، لم يعد هذا الواقع الجهير كافيا للتعرف على فضل الإسلام الحنيف على عمارة الكون، وحضارة الإنسان، ومن ثمة كان جديرا بنا مدارسة العامل الأساسى، والوازع الأصيل الذى جعل علماء المسلمين يتسنمون قمة الحضارة، ويحتلون محل الصدارة فى مواكب المعلمين الخالدين بما قدموا للإنسانية من أساس سليم لمنهج فكرى قويم.

لقد عزا نفر من الدارسين ذلك التقدم العلمى عند المسلمين الأوائل إلى بعض العوامل التى هى إلى العرض أقرب منها إلى الجوهر فى هذا المجال، وإننا ـ مهما بدت أمامنا الأسباب المتصلة بالتقدم العلمى عند المسلمين ـ لا نرى على قمة هذه الأسباب جميعا إلا سببا واحدا أصيلا، ألا وهو «العقيدة الإسلامية الصادقة» التى أُوحى بها إلى محمد ﷺ، والتى ربَّى عليها النبى ﷺ

تلاميذه الذين أشاعوا بدورهم فى قلوب المؤمنين المخلصين من التابعين، وتابعى التابعين، رضوان الله عليهم أجمعين.

إنها العقيدة الدافعة التى كان الاستشهاد فى سبيلها هو أسمى ما يأمل أصحابها الأبطال الذين هتف أحدهم ذات يوم :

ولستُ أبالى حين أقتلُ مسلما

على أى جنب كان فى اللّه مصرعى

هؤلاء قوم لم يملكوا ـ أمام قلوبهم العامرة بالإيمان ـ إلا أن يكونوا طلاب علم ورواد حضارة.

فقد كان تقدير العلم والاحتفال به من صميم جوهر العقيدة الإسلامية التى احترمت الإنسان، وسمت بعقله، ودعته إلى التفكّر فى خلق السموات والأرض، ولم تفرض عليه مصادرات مسلما بها دون برهان، أو قضايا مبهمة تفتقر إلى بيان، بل فتحت أمامه الآفاق لاكتناه المعلوم، واكتشاف المجهول حتى يعمر الكون، ويتقدم العمران، وبهذا استحق الإنسان أن يكون ـ بحق خليفة فى الأرض مصداقا لقول الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١)

وأن يكون جديرا بالتكريم الإلهى الحكيم

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾(٢).

ومن ثمة انطلق المسلمون يدفعهم إيمانهم الصادق، وتحفزهم عقيدتهم الحقة يبحثون فيما حولهم من كائنات وينقبون عن حقائق الأشياء، ويتدبرون صنع الله الذى أتقن كل شىء، وبهذا يزدادون إيمانا مع إيمانهم، ثم هم إلى هذا يفيدون الفائدة العظمى مما سخر الله لهم فى هذا الكون العامر بما ينفع الناس، وهكذا يجمعون بين النظر والعمل، أو بين العقيدة الخالصة، والسلوك العلمى البناء.. فجعلوا من البحث العلمى الحافل بالمجاهدة أشبه ما يكون بالطقوس العملية التى تعبر عن الإيمان المتدفق الفياض.. فهم لم يبحثوا فى السنن الكونية ليكونوا علماء أو ليقول الناس عنهم ذلك ولكن ليتقربوا إلى اللّه ـ عز وجل ـ وليكونوا عبادا قانتين له مذعنين لأوامره، عاكفين على تأمل خلقه الأكمل، ونظامه الأبدع الأجمل، وعنايته المثلى بالعالمين.

وهكذا التقت فطرةُ العقيدة التى فطر اللّه الناس عليها، وفطرة السنن الكونية، فتم الاتساق بين الذات الباحثة، والموضوع المبحوث، فلله ما أروع الاتساق، وأبدع الاتفاق.

ومن هنا رأينا أن هؤلاء المسلمين الذين دفعهم إيمانهم إلى البحث العلمى كانوا يرجون التوفيق دائما من اللّه وحده، ويبتهلون إليه ـ سبحانه ـ كلما حزبهم أمر فكرى أو استعصت

---

(١) البقرة (٣٠).

(٢) الإسراء (٧٠).

عليهم مسألة علمية مؤمنين ـ بصدق ـ بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى حثهم على التفكير والبحث لابد فاتح لهم بقدرته أبواب العلم الموصدة ماداموا مخلصين له الدين، متجهين إليه، قاصدين وجهه.. ولله در حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى ـ رضى الله عنه ـ عندما يقرر (أردنا أن نطلب العلم لغير الله، فأبى العلم ألا أن يكون لله).

ورضى الله عن عالم قريش الإمام الشافعى عندما ينشد فى ابتهال عميق:

شكوتُ إلى «وكيع» سوءَ حفظى
فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور
ونورُ الله لا يُهدى لعاصِ

ولك أن تعيش الآن مع الطبيب المسلم العالم «ابن سينا» بعض الوقت لتستمع إليه وهو يتحدث فى ترجمته الذاتية التى نقلها عنه تلميذه عبدالواحد الجوزجانى :

«وكلما كنت أتحير فى مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح إلى المنغلق، وتيسر المتعسر».

أرأيت كيف تمكنت العقيدة من قلب المفكر المسلم، ودفعته إلى الابتهال إلى المبدع الأعظم ليفتح له مغاليق العلم؟

ولنستمر فى الإنصات إلى حديث الشيخ الرئيس :

«ثم عدلت إلى (الإلهى) وقرأت (كتاب ما بعد الطبيعة) فما كنت أفهم ما فيه،والتبس على غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة، وصار لى محفوظا، وأنا مع ذلك لا أفهمه، ولا المقصودَ به، وأيستُ من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وإذا أنا فى يوم من الأيام حضرتُ وقت العصر فى الوراقين، وبيد دلالٍ مجلدُ ينادى عليه، فعرضه علىّ فرددته ردَّ مبرم معتقدا أن لا فائدة فى هذا العلم، فقال لى : اشتر منى هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته فإذا هو كتاب (أبى نصر الفارابى) فى (أغراض كتاب ما بعد الطبيعة) «ويستطرد ابن سينا فيقول : «ورجعت إلى بيتى، وأسرعت إلى قراءته فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب» ثم يقول : «وتصدقت فى ثانى يوم بشىء كثير على الفقراء شكرا لله ـ تعالى ـ»[٣].

نعم، شكراً لله ـ تعالى ـ الذى فاض عليه بالفهم والاستيعاب... ذلك هو ابن سينا صاحب كتاب (القانون) الذى ظل المنهل الوحيد لطلاب الطب والمشتغلين به فى أوروبا حتى القرن السابع عشر، ومازالت أوربا تتنسم نفحاته حتى اليوم.

ثم هذا هو عالم الطبيعة ومؤسس علم الضوء

(٣) منطق المشرقيين، تصنيف الرئيس أبى على بن سينا.

فى كتابه الأشهر «المناظر».. ذلكم الحسن بن الهيثم الذى يحكى عن نفسه فيقول :

«اشتهيت إيثار الحق، وطلب العلم، واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ولا أشد قرابة إلى الله من هذين الأمرين».

ولعلنا نذكر أن كتب الكندى التى كان يوجهها إلى الخليفة المعتصم وابنه أحمد كان يستهلها ويختتمها جميعا بالدعاء إلى الله بالتوفيق لطالب المعرفة، لأن التأييد والتوفيق والعون من الله ـ تعالى ـ خالق كل شىء، والمبدع المدبر، الفاعل القادر، مما يشير إلى تأصيل الروح الإسلامية فى قلب الكندى، وإلى عقيدته التى يؤمن بها، ويخلص لها، ويدعو إليها.

أما ابن النفيس الذى اكتشف الدورة الدموية ـ ونسبت فى غفلة من الزمن إلى العالم الإنجليزى هارفى ـ فقد نصحه طبيبه المختص ـ فى مرض وفاته ـ بتناول قليل من النبيذ كدواء، ولكن ابن النفيس رفض شرب الخمر ولو دواء قائلا «لا أريد أن ألقى الله وفى بطنى شىء من الخمر».. فما أصدق إيمان العلماء.

وطيب الله ثرى العالم الكيميائى المسلم الأشهر جابر بن حيان الذى كثيرا ما صرح بأن مصدر علمه هو النبى ﷺ فيقول مثلا فى المقالة الرابعة والعشرين من كتاب «الخواص الكبير» : «فو الله مالى فى هذه الكتب إلا تأليفها، والباقى علم النبى ﷺ».

وقد عنى جابر بن حيان بإبراز السلوكيات العلمية التى ينبغى أن يتحلى بها العلماء، وقد كان الإسلام عنده أهم مصدر يجب أن يستمد منه العالم أخلاقه، وكم نصح العلماء فى مقالته آنفة الذكر بأن يثابروا على البحث العميق، والدرس الدقيق مهما اشتد العناء دون يأس، ثم هو يستشهد فى هذا بقول الله ـ عز وجل ـ:

﴿ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾(٤).

وأنت تحس عند هذا العالم المسلم الجليل بقوة الدافع الدينى نحو البحث العلمى فى وصيته التى يرويها عن أستاذه «الإمام جعفر الصادق» ومنها قوله لمن يريد أن يكون باحثا عالما :

«ابدأ بالطهر بأن تفيض على بدنك ماء نظيفا فى موضع نظيف، ثم تلبس ثيابا طاهرة نظيفة.. ثم تستخير الله ألف مرة وتقول فى استخارتك :

اللهم إنى استخيرك فى قصدى فوفقنى، وأزغ الشيطان عنى إنك تقدر عليه، ولا يقدر عليك».

ثم تستمر الوصية فى النصح بالصلاة والابتهال والدعاء العميق ومنه «اللهم إنى قد مددتهما إليك ـ أى يديه ـ طالبا مرضاتك، وأسألك ألا تردهما خائبتين».

(٤) يوسف (٨٧).

ويستطرد الدعاء كما يلى فى ضراعة ضارعة :

اللهم إنى قصدتك فتفضل على بموهبة العقل الرصين، وإرشادى فى مسلكى إلى الصراط المستقيم ».

فأكرم بهؤلاء من قوم طلبوا العلم لله، فرفعهم ولم يطلبوه شهوة فى شهرة، أو طمعا فى مال، أو زلفى إلى جاه أو سلطان، أو رئاء الناس.

كما طلبوا العلم للعمران، وهو مناط خلافة الإنسان فى الأرض، وليس للدمار والفناء. وهكذا اتفق نبل الدافعية الإيمانية ونبل الغاية العصماء إذ انتشر العلماء المسلمون فى الأرض فانتشر فى ركابهم ما أفاء الله به عليهم من معرفة بناءة، وعلم مفيد، و« تنوير » حقيقى نافع.

والله أعلم بمراده حين يضع العلماء فى موقف خشيته، وتقواه إذ يقول عز وجل

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾(٥)

وأى موقف أرقى وأسمى من هذا الموقف، ولعلنا ندرك أن الخشية هنا ليست مجرد موقف سلبى ولكنها عمل ايجابى فعال، إنها سلوك نابع من طاعة الله، والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه، والإيمان بعقيدته، والقيام على شريعته، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ذلك أن العلماء.. يدركون مواطن العظمة فى الشهادة، فيستدلون بها على بواطن العظمة فى الغيب، وهى مسائل تحتاج إلى المعاناة العقلية، والمجاهدة النفسية، والرفعة الروحية التى لا قبل بها إلا لأولى العزم.. وقليل ما هم.

ويذكّرنا هذا بسحرة فرعون الذين ألقوا ساجدين من خشية الله

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾(٦).

وذلك عندما أدركوا ـ وهم العلماء الخبراء فى فنهم ـ أن ما أتى به موسى ليس هو بالسحر، ولكنه الآية المعجزة من رب العالمين.

ولله ما أوثق الرباط بين التقوى الحقة، والعلم الحق فى قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٧)

ولئن دفعت العقيدةُ الإسلامية الصادقة أبطالَ المسلمين إلى الدفاع عنها فى فتوحات الأمصار والبلدان، فقد حفزتهم هى أيضا إلى الحرص عليها فى فتوحات العلم والعرفان، فاستحقوا بهذا سيادةَ الأرض، وهى سيادة لم تقم على تسلط جبروتٍ أو طغيان، وإنما نبعت من ذل العبودية الخالصة للواحد البارىء الديان.. لاشريك له..

---

(٥) فاطر (٢٨).

(٦) الأعراف (١٢١، ١٢٢).

(٧) البقرة (٢٨٢).

الغَدَ المحجَّب

للمرحوم الأستاذ / عبدالمغنى المنشاوى(*)

كم سألْنا الغدَ ماذا فى الوِطَابْ ... ولسان الغد عيٌّ بالجواب

وجَهَدْنا أن نَرَى صفحتَهُ ... فتصدى دوننا ألف حجاب

عجبًا للغد يتلو عجبًا ... إنما أمر غدٍ أمر عجاب

كلَّما قلنا ازجرُوا أطياره ... أودعت أسراره صدر عُقاب

حار فيه الناس جارًا أعجمًا ... يحذق الصمت ولا يدرى الخطاب

غامض السر وإن لامسته ... تجهل الروح وإن مس الإهاب

نازلٌ فى كل يوم راحلٌ ... ما طوى الرحل ولا حط العياب

يالَهُ ضيفًا قِراهُ أبداً ... أنفس الشيب وأرواح الشباب

شمسه يحفر فيها رَمسهُ ... وكذا الدنيا مجئ وذهاب

* * *

مستكفًّ(1) الغد رفقًا لم تصب ... فقصارى العين منه أن تصاب

جحر ضبٍ قد أضبت(2) شمسه ... هل ترى الزرقاء(3) جحرا فى ضباب

* * *

(*) الأستاذ بدار العلوم سابقاً.

(١) استكف الشئ استوضحه بأن وضع كفه على حاجبه كمن يستظل.

(٢) أضبت الشمس حجبت بالضباب.

(٣) زرقاء اليمامة أو العين.

إن هذا الغـد بحـر زاخـر … لجـه الصـاب أو الشـهـد المذاب
هـم فـلـك فـطـوى آذيـه … ومـضى آخـر يطويه العـبـاب
أو هـو الـلـيـل : نجـوم تـزدهـى … وشـهـاب ينتـهى إثر شـهـاب
أو هو الـسـيـف : يسـوى نـازلاً … بين غـمـدين : قـراب ورقـاب
بـل هـو الـغـيـب المهـول المرتجى … بـل هو الحظ : نعـيـم أو عـذاب

* * *

كم عـروس فـوفـوا أثوابهـا … فـتـولى غـدها شق الثـيـاب
خـضـبـوا بالمسك كـفـاً لو دروا … بـدلـوهـا دم دمـع بـالخـضـاب
وجلوها شـمـس حـسـن دلكت[٤] … أكـذا كل طلوع لغـيـاب
ثم غنوا لحنهـا حـتـى قـضـت … منه نحـبـاً فـإذا اللحن انتـحـاب
زوجـوهـا القـبـر فى زينتـهـا … لتـقـضى فـيـه أوطار الشـبـاب
مما تراخى القـبـر عن جلوتهـا[٥] … مـلأ القـبـر يديهـا بالتـراب

* * *

وكـمى زلزلت عـزمـتـه … مـا حـوى الغـاب ومـا ضم القـراب
فـابنة الريح تراه نـسـرهـا … وتـراه زيـدهـا الخـيـل العـراب
ينظر الموت مـغـيـظًا مـشـفـقـا … من عـقـاب تتـحـامـاها العـقـاب[٦]
قـد طواه الغـد فى شكتـه[٧] … وذباب الـسـيـف مـاذب الذبـاب

* * *

ومليـك بنـت الجـن لـه الـمـلك والريح جرت حيث أصاب[٨]

---

(٤) أصفرت أو مالت أو زالت عن كبد السماء.

(٥) الجلوة بالكسر ما يعطى للعروس وقت الجلاء.

(٦) جمع عقبة.

(٧) شكته سلاحه.

(٨) أصاب أراد.

فاسألوا بلقيس مَنْ مِنْ سبأ   أحضر العرش ومن ألقى الكتاب
ما احتواها الصرح حتى أسلمت   عز من أسلم للحق وثاب
وأجد الغد هدماً فغدا   ذلك الصرح سواءً واليباب
فسلوه هل عدا عمر الندى   قبلته شفتا الشمس فذاب

* * *

كم أقام الغد ما تحت الثرى   وأمال الغد ما فوق السحاب
فنجا المعتل فى كبرته   وقضى السالم فى شرخ الشباب
واستراح العبد من ربقته   وشكا السيد أغلال الرقاب

* * *

ليس يدرى العقل فى حكمته   أله فى الغد حظ من صواب
ليس يدرى الليث فى ربضته   أيراه الغد ذا ظفر وناب
ليس يدرى الجيش فى عدته   أتقيه فى الغد الحرب(٩) الحراب
ليس يدرى الصب فى خلوته   أيديم الغد نعمى الاقتراب
ليس يدرى الثغر فى ريقته   أيلاقى الغد معسول الرضاب
ذئب ختلٍ لا يحابى ظفره   من تولى عمره حتى الذئاب

* * *

عالج الإنسان أبواب العلا   وتخطاهن باباً إثر باب
ذلك المخلوق من طينٍ مضى   ينطق الطين ويأتى بالعجاب
خشيته الريح طيراً بشراً   يزجر الريح ويستاق السحاب
وشكاه النجم عيناً رصداً   ترقب النجم فلا تخطئ الحساب
وسرى فى الكون صوتاً أحداً   ليس يثنيه جبال أو هضاب
فإذا الدنيا لديه رحلة   وإذا المريخ من كفيه قاب

* * *

ثم كان الغد طلسماً فهل   حل ذا الطلسم أو شاب الغراب

---

(٩) الحرب الشديد.

دق باب الغــد حــتى مسـه — دون باب الغـد نصب وعـذاب
هو باب الغـيب لا يفـتحـه — غـير مـولًى عنده أم الكتـاب

* * *

فـاطو ذكـر الغـد يا طيف كـرىً — أسـفـر الصـبح لعـينيـه فـغـاب
ولـد النـاس فـرجـل وطئـت — هذه الدنيـا ورجل فى الركـاب
كل حى بعـد حـين مـيت — عاش عمر النسر أو عمر الحباب[10]
فـاحـذر الدنيـا ولا تسكن لهـا — يا تراباً مـاشـيـاً فـوق تراب
نـاقـة تنتج آلافـا فـلا — تسـأم الوضع ولا تبـقى السقاب[11]
حـلبـوها أشطراً لـكنهم — لم يفـيـدوا الحـزم من هذا الحلاب
ورأوها جـيـفـةً فـاستكلبـوا — حـدثوا الصـدق أناس أم كـلاب

* * *

إنما الأحـيـاء مـوتى غـرقـوا — فى مـلاهى ذلك العـيش الكذاب
نومـهم مـوت فـإمـا استيـقظوا — فـشـيـاه نمن عن ختـل الذئاب
خطبـوا الجـدة فى دنيـا البلى — نشـدوا العـمـران فى دار الخـراب
فـاسكنوا الدور قـبـوراً زورت — إنما أكـفـانكم تلك الثـيـاب

* * *

سـاعـة الهـول أتت أشـراطهـا — أيهـا الجـانى فـأيان المتـاب
قـد دعـا الحق فللحق استجب — يسـتـمع منك الدعـاء المستـجـاب
وارقب الأوبة واسـجـد واقـتـرب — فى خـشـوع فـإلى الله المآب
لا تقل عـتـبك مـر فـاقـتـصـد — تعـذب العـتـبى إذا مـر العـتـاب
لا تهـيـمن بأسـرار غـدٍ — مـا عـهـدنا الهـيم[12] يرويهـا السراب
واغـتـبط واجـهل مـصـابًا فى غـدٍ — إنما الحكمـة فى جـهـل المصـاب
أيهـا الغـيـب عن الناس احـتـجب — شق عـيش الناس لو شق الحـجـاب

* * *

(١٠) فقاقيع الماء.

(١١) جمع سقب وهو ولد الناقة.

(١٢) الهيم الإبل العطاش.

قصة العدد

المهاجرة الصبور

للأستاذ / شوقى محمود أبو ناجى

لم تنتظر هند حتى يجلس زوجها لتسأله، فقد كانت متلهفة على معرفة ما حدث، أو ما جعل أساريره تنبسط والمسلمون يمرون فى هذه الأيام بالمحن الشداد.. فالعام عام الحزن -كما سماه النبى ﷺ إذ توفى منذ أيام عمه أبو طالب الذى كان يحول بين قريش وبين ابن أخيه ﷺ وهو الذى كان يعيش عبدالله بن عبدالأسد «أبوسلمة» فى جواره، وهو الذى رد فى قوة وحزم على بنى مخزوم عندما استنكروا عليه أن يضم إلى كنفه واحدا منهم -أى من بنى مخزوم- وسألوه:

ـ يا أبا طالب: منعت منا ابن أخيك، اتمنع منا ابن أخينا؟!

فقال لهم:

ـ نعم.. أمنع ابن أختى مما أمنع منه ابن أخى.

ولم يستطع رجال بنى مخزوم أو غيرهم من مشركى قريش أن ينالوا من أبى سلمة إلا بعد موت أبى طالب.

ومع أنه كان فى جوار رجل لم ينطق الشهادتين، إلا أنه كان سعيدا بأمنه لأن رفيقه فى هذه الحماية هو أخوه من الرضاع، ومعلمه وهاديه ومرشده إلى سواء السبيل محمد ﷺ. ولهذا كان مطمئنا إلى هذا الكنف، ولم يفكر أن يفعل كما فعل عثمان ابن مظعون الذى رد جوار الوليد بن المغيرة لأنه مشرك.

وأعادت هند السؤال بلهفة لم تستطع إخفاءها، وبنبرة هى المزيج من الرقة والخوف والرجاء، بينما تسوى له حشية الأدم ليجلس عليها:

ـ انتظرى يا هند.. ستعرفين كل شىء.

ـ أخشى أن تكون سعيدا على حساب إخلاصى وحبى لك.. ألست رجلا مثل بقية الرجال؟

ـ قلت لك ألف مرة أقلعى عن هذه الغيرة التى لا مبرر لها.. دعك من هذه الوساوس، فليس فى قلبى مقدار قلامة ظفر يمكن أن يكون لغيرك.. ولا ولم ولن أساوى بك امرأة، ولست أرى فى الدنيا بأسرها أجمل منك ولا أرق ولا أعقل.. رضيت؟!

ـ إذا أشركنى فرحتك.. قل لى.. قل لى بربك حتى أفرح معك.

ـ أحْكمى رتاج الباب أولا ثم اسمعينى.

وجلست هند تحدق فى وجه زوجها كأنها تستنطق قسماته قبل أن تنفرج شفتاه:

ـ شكونا إلى رسول الله ﷺ ما نلاقى من أذى قريش فقال لنا:

«إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها».

ـ تعنى أننا سنهاجر إلى المدينة؟

ـ نعم.. سنقيم فى قرية نأمن فيها على عقيدتنا وأنفسنا.. كما أن الدعوة ستنطلق إلى الدنيا كلها من المدينة بعون الله وتأييده.. فما رأيك؟

ـ عبدالله.. إنى أحس انقباضا وأخشى أن يحدث لنا ما نكره فى هذه الرحلة.

ـ دعى عنك هذه الأوهام يا هند.. أين الإيمان القوى الذى أعرفه عنك وتعتزين به وتواجهين الشدائد بوازع منه.. لا تخافى، فليست هذه الرحلة بأشق من رحلتنا إلى الحبشة.. ثم إننا سنعيش بين قوم مسلمين بايعوا الله ورسوله.. قومى، تجهزى حتى أرحل البعير.

خرج أبو سلمة سعيدا يقود الجمل الذى يحمل زوجه هند «أم سلمة» التى قاسمته ولا تزال تقاسمه الصبر على أذى المشركين والارتحال فى أرض الله هروبا من بطشهم، وفى حجرها ابنهما «سلمه» ومع أن الجد والصرامة كانا يرسمان قسمات أبى سلمة، إلا أن شيئا من مشاعر السعادة ألم به فجعل يترنم بأبيات من شعر عبدالله بن الحارث بن قيس قالها فى الحبشة:

إنا وجدنا بلاد الله واسعة
تُنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا
قول النبى وعالوا فى الموازين

كانت مشاعر السعادة أقوى من أن يخفيها، بل شغلته أن يتحوط لنفسه وأهله، فإذا بهذه الأبيات التى يترنم بها تنفذ إلى آذان بنى المغيرة رهط زوجه أم سلمه فيخفّون إليه تدفعهم شهوة البطش، فلم يسر طويلا حتى وجد ذوى الانفعالات الشرسة يحيطون به ويصرخون فى وجهه وكلهم متحفز للبطش به:

ـ هذه نفسك غلبتنا عليها.. أرأيت إلى صاحبتنا هذه.. علام نتركك تسير بها فى البلاد؟!

وقبل أن يستجمع أبو سلمة ما اضطرب من

مشاعره ليواجه الصدمة التى لم تكن فى حسبانه، وكيف يتصرف فى سرعة للتخلص من هؤلاء الذين يعترضون سبيله، كانت يد قوية تنتزع منه خطام البعير فى عنف ليقف ذاهلا ينظر إلى ما حدث وهو فاغر الفم زائغ العينين.. ولم يقف الأمر عند هذا، فكأنما انشقت الأرض عن رجال من بنى عبدالأسد «رهط أبى سلمة» أناخوا البعير وهم يصيحون فى رجال بنى مخزوم:

ـ لا نترك ابننا عندها بعد إذ نزعتموها من صاحبنا.

ونظر الزوجان فى فزع إلى القوم وهم يتجاذبون الطفل بلا أدنى شعور من رحمة كأنه شىء من المتاع، وهو يصرخ فى هلع بوالديه أن يستنقذاه من هذه الأيدى الغاشمة التى خلت قلوبها من مشاعر الإنسانية، وقلب الأم يكاد يسقط بين ضلوعها وهى تحاول -دون جدوى- أن تقتحم جموع المتصارعين فيدفعونها دون وعى يمنة ويسرة.. ويطلق الفزع من داخلها صرخة تخر بعدها مغشيا عليها، بينما تتجمد الدموع فى عينى والد الطفل «أبى سلمة» وهو ينظر إلى ذراع ابنه يشدها القوم فى قسوة، ويحس خورا فى قواه وجفافا فى حلقه، فلا يملك إلا أن يفوض أمره إلى الله ويسير فى وجوم متثاقلا والحزن ينهش كل جارحة فيه، وهو يترك بضعة منه. ابنه الوحيد مغشيا عليه بين ذراعى رجل من بنى عبدالأسد ينطلق به وكأنه غنم مالم يقدر غيره عليه!، وزوجه التى لا تكاد تقوى على النهوض بين يدى رجلين من بنى المغيرة.

لم يكن أمام أم سلمة إلا اجترار الأسى والمنظر المفزع متجمد فى محجريها لا يبرحهما فى يقظة أو منام، وهل تستطيع أن تنسى -ولو للحظة- منظر ابنها الوحيد يتجاذبه غلاظ القلوب فى غير رحمة حتى يخلعوا ذراعه، وزوجها الذى لم يفارقها يوما منذ دخلت داره، ولم تتركه يهاجر وحده إلى أرض الحبشة، إنها لا تكاد تصدق أن يعيش كل منهما فى بلد لا يعلم عن أخبار الآخر إلا ما يتناقله الركبان، ولم يكن بوسعها إلا أن تخرج كل غداة لتجلس فى الأبطح تسح الدمع حتى يخيم المساء.

عام كامل -أو قرابة عام- لا تدرى كيف كانت تنصرم أيامه الطوال ولياليه الحوالك، والهم يفرخ كل يوم هما جديدا والأسى تزداد وطأته حتى غاضت نضارتها وجف عودها.. وكأن الحزن اختصرها فى عينين ذابلتين لا تكفان عن البكاء ووجه مصفر كأن هموم البشر اجتمعت لتمتص النضارة منه وترسم عليه من خطوطها ما ينطق أن الحزن لو بدا فى صورة مجسمة ما كان غير هذا الوجه الذى كان فى يوم ما مضرب المثل فى الرواء والملاحة.

كانت صورة لم يستطع أمامها أحد بنى عمومتها «بنى المغيرة» إلا أن يغلبه الإشفاق عليها وهو يبصرها تتوكأ على نفسها ذات مساء عند عودتها من الأبطح، فاقتحم نادى القوم صائحا:

ـ ألا ترحمون هذه المسكينة.. فرقتم بينها وبين زوجها.. وبينها وبين ولدها.

وكأنما تسللت الرحمة -في هذه الساعة- إلى قلوب المتحلقين، فإذا بها تسمع ما لاتكاد تصدق من أصوات هؤلاء:

ـ الحقى بزوجك إن شئت يا أم سلمة.

كانت الليلة الأولى -منذ ذلك الحادث الأليم التى تترقب فيها انبلاج الصبح بعد أن كادت تفقد إحساسها بمرور الزمن.. ورغم ما كان بها من ضعف إلا أنها بدت خفيفة نشطة، وعاد شىء من البشر إلى ملامحها، ولجأت إلى مصلاها تقف أمام الله شاكرة فضله حتى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فغفت ساعة لتستيقظ على صوت ابنها سلمة يحمله رجل من بنى عبدالأسد وهو يصيح فى لهفة: أمى.. أمى.. أمى.

وتلقفت الأم الوالهة ابنها فى شوق تمطره بقبلاتها وتبلل وجهه بدموع الفرح وهى تتحسس مكان الخلل المؤلم فى الذراع المخلوعة حتى كادت مشاعر الرحمة تستدر الدمع من عينى الرجل الذى قدم بالطفل.

وكالذى حبس ظلما ثم ظهرت براءته فجأة، انطلقت أم سلمة فى سرعة وعجلة لترحل بعيرها -وابنها فى حجرها- وتنطلق إلى حيث هاجر الزوج الحبيب، دون أن تفكر كثيرا فيما يلزم الرحلة والطريق، وكأنها تخشى الطلب، كان كل همها أن تنجو بنفسها ووحيدها.

لم تقطع أم سلمة شوطا كبيرا من الطريق حتى رأت عند التنعيم من يحملق فيها من بعيد ثم يخف إليها قائلاً:

ـ إلى أين يا ابنة أبى أمية؟

ـ أريد زوجى بالمدينة.

ـ أو ما معك أحد؟

ـ لا والله إلا الله.. وابنى هذا.

وإذا بعثمان بن أبى طلحة «أخى بنى عبدالدار» يتذكر أباها «أبا أمية» وكيف كان إذا سافر لم يتزود معه أحد، ولا يدع غريبا ولا مارا فى طريق، ولا محتاجا يجتاز به إلا أنزله وتكفل به حتى يظعن، حتى سمى بزاد الركب.. ويرى عثمان أنه ليس من الأريحية أو الشهامة أن يترك ابنة «زاد الركب» تقطع المفاوز دون دليل أو صاحب.. ولم يطل به التفكير فإذا به يقول لها:

ـ والله مالك من مترك.. وأخذ بخطام البعير وانطلق يهوى بها فى شجاعة وكرم، كان إذا بلغ منزلا أناخ البعير ثم استأخر عنها حتى إذا نزلت استأخر بالبعير ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى البعير فقدّمه ورحله ثم استأخر عنها وقال: اركبى، فتستوى عليه ثم يأخذ بخطامه فيقوده حتى ينزل بها، ولم يزل يفعل ذلك حتى أقدمها المدينة، فلما نظر قرية بنى عمرو بن عوف قال لها:

ـ زوجك فى هذه القرية،! فادخليها على بركة الله.

من بلاغة الخطابة النبوية

للأستاذ الدكتور / عبد الحليم حفنى

من مكرور القول الحديث عن بلاغة الرسول ﷺ، وقد أفاض وسيفيض المتحدثون فى هذا ولكن يبقى كل ما يقولون وكل ما يصفون دون التعبير الكامل عن القمة البيانية التى وهبها الله لرسوله الكريم وهى موهبة جوامع الكلم التى خصه بها دون العالمين وهذا الحديث لا يعدو أن يكون دلوا صغيرا يلقى فى بحر من بحور البلاغة النبوية، وهو بحر الخطابة، ومهما يرجع به الدلو من هذا البحر فسيبقى البحر زاخرا شاسعا لا يغيض ولا ينضب مهما تدافعت نحوه الدلاء.

وهذا مثال من أمثلة خطابته ﷺ وهو خطبته فى الأنصار يوم حنين، هذه الخطبة التى رأبت صدعا كان أخطر صدع فى كيان المسلمين، فكل الصدوع والشروخ فى الكيان الإسلامى كانت جانبية وفرعية لا تؤثر على الكيان العام تأثيرا ذا قيمة ولكن الصدع يوم حنين جرف الفرع الرئيسى الذى قام عليه كيان الإسلام وكيان الأمة الإسلامية وهو فرع الأنصار، فالذى حدث أن الأنصار كانوا من أهم أسباب نصر المسلمين فى موقعة حنين، حيث انهزم المسلمون فى بداية الموقعة حتى تفرقوا عن رسول الله وتركوه مكشوفا للأعداء ولكن شجاعة الأنصار وحبهم الشديد لشخص النبى جعلهم يسرعون إلى النبى ويلتفون حوله فيعود المسلمون حينئذ إلى التماسك والتجمع حتى يتحقق النصر الذى سقطت به راية الشرك فى الجزيرة العربية كلها، وغنم المسلمون ما لم يكونوا يحلمون بأيسره، أموالا وعبيدا، حيث أصبحت أموال قبائل ثقيف كلها غنيمة، وأصبح أهلها أسرى أى عبيدا، لأن قائد العدو حشد كل القبائل فى ميدان القتال، الرجال للحرب، والنساء والأطفال لتشجيع المقاتلين، والوضع فى الكيان الإسلامى حينئذ كان خطيرا ولم يكن فى مجموعة كيانا صلبا حيث كان معظم هذا الكيان من الذين دخلوا فى الإسلام حديثا منذ أيام أو أسابيع فقط، فقد كان جيش المسلمين يوم فتح مكة عشرة آلاف وبعد

ذلك بنحو ثلاثة أسابيع اتجه الرسول بالجيش إلى قبائل هوازن فى ثقيف فبلغ المسلمون ثلاثين ألفا فكان هؤلاء العشرون ألفا من الأفواج التى دخلت فى دين الله عقب فتح مكة تصديقا لقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾(١).

وأغلب هؤلاء الذين دخلوا فى دين الله أفواجا عقب فتح مكة كانوا من الذين يصدق عليهم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾(٢).

بمعنى أن دخولهم فى الدين لم يتعد مرحلة الانقياد والاستسلام ولكن دخول الإيمان إلى قلوبهم يحتاج إلى وقت ومداومة على الطاعة.

ورغم أن الفتنة التى استدعت هذه الخطبة النبوية التى هى موضوع الحديث نشأت بين صفوف الأنصار إلا أن جذورها ومصادرها جاءت من بين صفوف هؤلاء الذين دخلوا فى دين الله أفواجا.

والسبب المباشر فى الفتنة كان هو الغنائم، حيث كان النبى ـ ﷺ ـ هو الذى يتولى تقسيم الغنائم وكانت طريقته المعروفة والواضحة عنه أنه لم يكن يهتم كثيرا بعطاء الذين يثق فى إيمانهم، وإنما يهتم بأن يعطى ضعاف الإيمان، ليقربهم من الإيمان ويحميهم من التفكير فى الردة عن الدين، أو الانزلاق إلى النفاق، ولذلك كان يقول «إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ منه خشية أن يكبه الله فى النار». وبهذا المنهج وزع غنائم يوم حنين الهائلة، فأفاض فى العطاء على هؤلاء الذين دخلوا فى دين الله أفواجا، وخصوصا سادة القبائل الذين يتألف قلوبهم كما أعطى عيينة ابن حصن والأقرع ابن حابس كلا منهما مائة ناقة، بينما لم يعط الأنصار شيئا ذا قيمة لثقته فى صدق وثبات إيمانهم، ولم يكن الأنصار ليأبهوا للعطاء قليله أو كثيره أو منعه، فالصفة التى عرفت عنهم فى الإسلام أنهم يقلون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع ولكن الفتنة اشتعلت بينهم حينما وجدوا القبائل من هؤلاء الذين دخلوا فى دين الله أفواجا يتنافسون فى الفخر بعطاء النبى من الغنائم، ويقرنونه بمنزلهم وبلائهم فى الموقعة فكل من كان عطاؤهم أكبر يشدو شعراؤهم بأنهم إنما نالوا ما نالوا لأنهم كانوا عصب الموقعة وكانوا سبب النصر، كما فعل شعراء بنى سليم الذين جندوا فى الموقعة ألف مقاتل وكان عطاؤهم وعطاء سادتهم كبيرا فانطلقت أشعارهم بأن المسلمين لولاهم ما انتصروا وسيطرت روح الجاهلية بعصبيتها وفخرها وتنافسها على هذه الحشود التى دخلت فى دين الله أفواجا بدون تمحيص لهم، حتى إن بعض شعرائهم أخذ يعاتب النبى ﷺ على أنه لم يرع منزلته الاجتماعية فميز بعض السادة عليه مع أنهم ليسوا أعلى منه نسبا، كما فعل العباس بن مرداس وهو من سادة بنى سليم وفرسانهم حين قال فى إحدى قصائد

(١) سورة النصر.

(٢) الحجرات (١٤).

فخره يومئذ يعاتب النبى:

أتجـعل نهـبى ونهب العُبيد

دون عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس

يفوقان مرداس فى مجمع

والعبيد اسم جواده، بمعنى كيف تجعل نصيبى ونصيب فرسى دون نصيب عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مع أن أبويهما لم يكونا يفوقان منزلة أبى فى المجتمع؟وحين بلغ النبى ذلك قال من القائل:

اتجعل نهبى ونهب العبيد دون الأقرع وعيينه؟ وغير قافية البيت حتى لا يصبح شعرا لأنه لا ينبغى له أن ينطق الشعر، فقال العباس بن مرداس: أنا، فقال النبى لعلى بن أبى طالب: اقطع عنى لسانه، أى اعطه حتى يرضى فيكف عنى لسانه.

وبعد أن سيطرت روح الجاهلية على هذه الحشود التى دخلت فى دين الله أفواجا منذ أيام أو أسابيع انتقلت عدوى هذه الروح إلى الأنصار عبر المنافقين، وعبر الشباب الذى لم يفقه حكمة الرسول فى تقسيم الغنائم حق فهمها، ثم أخذ شررها يتطاير بين الأنصار حتى عمهم جميعا وحتى خيمت روح الجاهلية على الأنصار كما خيمت على غيرهم، وأرادوا أن يفخروا كما فخر غيرهم فلم يجدوا ما يفخرون به، لأن الأنصبة من الغنيمة أصبحت يومئذ هى ميزان التفاضل وسبيل التفاخر بين القبائل، وبين السادة والفرسان، والأنصار لم يأخذوا من الغنيمة شيئا ذا قيمة فبماذا يفخرون؟ وكيف يحافظون على كرامتهم بين القبائل وليس لديهم ما يفخرون به بينهم؟ حتى إن حسان بن ثابت الأنصارى الذى يوصف بأنه شاعر الرسول أو شاعر الإسلام أخذ يعاتب النبى ﷺ على أنه قدم الذين دخلوا فى الإسلام حديثا على الأنصار الذين بنى مجد الإسلام على أكتافهم فيقول فيما قال:

علام تدعى سليم وهى نازحة

قدام قوم هم آووا وهم نصروا؟

وحيث بلغت الفتنة بين الأنصار هذا المبلغ فمعنى ذلك أنه حدث فى كيان المسلمين شرخ خطير، وصدع كبير لا يعلم مدى ما ينتج عنه إلا الله ولكن دون ريب سيكون أخطر صدع فى تاريخ الإسلام منذ بدئه إلى ما شاء الله، وأخطر ما فيه أن غضب الأنصار حينئذ متجه إلى شخص النبى، فهو الذى يتولى كل أمر عام، ومنه قسمة الغنائم، والأزمات وخصوصا الحروب هى أخصب المجالات لتفريخ الإشاعات ونشر الفتن والدسائس، فانتهز المنافقون هذه الفرصة وأخذوا يغدون ويروحون بين الأنصار يوغرون صدورهم بكل ما يرون أنه ينفرهم من الدين، ويهز ثقتهم فى شخص النبى، ولا شك فى أنهم أوحوا إليهم بأن النبى إنما كان يقدرهم حين كان فى حاجة إلى عونهم، ولكنه الآن ليس فى حاجة إلى عون فنفض يديه منهم حتى جعلهم سخرية القبائل، بل أوحوا إليهم بما هو أخطر عند الأنصار شأنا، وهو أن النبى إنما لجأ إلى المدينة حينما لفظته مكة، أما وقد فتح مكة وسيطر عليها فسيعود إلى الإقامة فيها تاركا مدينتهم وما فيها ومن فيها، وكل شىء يهون عند الأنصار إلا هذه، وهكذا ظلت الوساوس تتكاثر فى نفوس الأنصار

وتتضخم حتى فاضت، وحتى أصبحوا فى موقف خصومة حقيقية بينهم وبين النبى نفسه وإن لم تنطق بها ألسنتهم، وأحس النبى ﷺ بهذا فضلا عما ترامى إلى سمعه مما فاضت به نفوسهم فنطقته ألسنتهم. وحينئذ تسطع موهبة القيادة فى شخص النبى ﷺ بكل جوانبها المعجزة، ومنها إعجاز الخطابة:

فقد جمع النبى الأنصار وحدهم دون غيرهم وألقى فيهم هذه الخطبة التى لا تتجاوز فى توقيتنا بضع دقائق، ولكنها جعلت الأنصار ينتقلون فى هذه اللحظات من السخط والغضب إلى البكاء الذى بلل لحاهم بالدموع، وذلك أنه استخرج كل ما يدور فى أعماقهم من هواجس فناقشه عنصرا عنصرا ببلاغته التى لا تحيط بوصفها الألفاظ، ولكنه بدأ بأن سجل عليهم ما بلغه من سخطهم حتى لا يحرجه سفيه أو منافق بأن يقول له ولكن ما تنسبه إلينا لم يصدر منا، فسألهم عن القول الذى قالوه عن تقسيم الغنائم وعن السخط الذى سخطوه من أجل ذلك، فلم يردوا فكان هذا إقرارا منهم بأن ما بلغه عنهم صحيح، ثم تبدو الحكمة البالغة فإذا هو صلوات الله عليه يلجأ إلى عرف شائع عند العرب فى الخصومات، وهو أن يلجأ طرفا الخصومة إلى حكم يقضى بينهما بعدأن يعرض كل طرف حقه من خلال مزاياه وعارضا عدم أحقية خصمه من خلال نقائص هذا الخصم، فيرد عليه الطرف الآخر بعكس ما عرض الطرف الأول، وتسمى هذه العادة عند العرب «المنافرة» ولها مواقف تاريخية مشهورة فى الجاهلية، فلجأ النبى إلى هذه العادة وكأنه يقول لهم ما دمتم قد وضعتم أنفسكم فى موضع الخصومة منى فافترضوا أننى لست نبيا ولا رسولا بل خصم عادى حتى تأخذوا حقكم كاملا دون حرج، وسأعرض حقوقى عليكم، فاعرضوا حقوقكم أنتم على، وكان أول حقوقه عليهم ما لا تساويه الدنيا بكل ما فيها وهو الإيمان بالله مقابل كفرهم قبل أن يكون هو سببا فى إيمانهم، وكان حقه التالى أن ما لديهم من الغنى إنما كان بسببه هو، ثم حق ثالث وهو أن فريقى الأنصار الأوس والخزرج كانا فى صراع دائم وحروب متلاحقة حتى قدم عليهم رسول الله فأصبحوا إخوة متوادين، فيقول لهم «ألم آتكم ضُلالا فهداكم الله؟ وعالة – فقراء – فأغناكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم؟» فأجابوا بالإيجاب لأنها حقائق لا تقبل الجدال فيها، وانتظر النبى أن يقوم من ينوب عن الأنصار فيعرض حقوق الأنصار على النبى بأسلوب المنافرة فلم يقم أحد، فأراد أن يستحثهم على الرد عليه كما يرد الخصم على خصمه ليستخرج كل ما فى نفوسهم دون حرج منه بوصفه رسول الله فقال ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟ فأبوا أن يقفوا منه موقف الخصم قائلين، بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل فإذا النبى يقف نيابة عنهم موقف الخصم ضد نفسه قائلا «أما والله لو شئتم لقلتم – فلصدقتم ولصُدِّقتم – أتَيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا – فقيرا – فآسيناك» ولا شك أن الأنصار ذهلوا من هذه المشاعر التى يحملها الرسول لهم، فبعد أن ملأت وساوس المنافقين ومرضى القلوب نفوسهم بنحو أن النبى كان يقدر لهم قدرهم حينما كان محتاجا إليهم فى مؤازرته ونصره والدفاع عنه،

فلما بلغ ما بلغ من القوة وأصبح العرب جميعا فى قبضته هان الأنصار عنده، وصغر شأنهم فى نظره، فإذا هم يجدون النبى يشعر نحوهم بما لم يكن يخطر لهم بصورته هذه على بال، يشعر بأن الناس كذبوه، ولكن الأنصار وحدهم صدقوه، وأن الناس خذلوه، ولكن الأنصار وحدهم نصروه وأنه أتى إلى الأنصار مطرودا، فالأنصار آووه، وأنه آتاهم فقيرا فالأنصار أغدقوا عليه العون والمواساة وأقصى ما كان يتمناه الأنصار يومئذ أن يكون النبى لازال راضيا عنهم، لم ينصرف حبه عنهم واهتمامه بهم إلى غيرهم من القبائل التى كانت حينئذ تتباهى وتتنافس على ألسنة خطبائها، وشعرائها بأن النبى رفعهم فوق القبائل جميعا حبا لهم وتقديرا لفضلهم وبلائهم بكثرة ما أعطاهم من الغنائم، فإذا هم يجدون النبى يحمل لهم من الشعور بالشكر والامتنان والفضل ما لا يمكن أن يحمله لأحد سواهم.

وتواصل الحكمة البالغة فى بلاغة النبوة مناقشة العناصر التى نبع منها سخط الأنصار، فيعاتبهم على أنهم سخطوا من أجل عرض تافه زائل قدمه إلى أناس ضعاف الإيمان ليتألف به قلوبهم، بينما تركهم هم مطمئنا واثقا من إسلامهم، ومعنى ذلك أنه ربأ بهم، ورفع قدرهم عن أن يجعلهم من المؤلفة قلوبهم، وإذن فقد كان منع الغنائم عنهم تكريما وتفضيلا لهم، وليس حطا من قدرهم فيقول لهم «أوجدتم يا معشر الأنصار – أى سخطتم وغضبتم – فى لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟» واللعاعة يراد بها الشيء القليل الزائل.

ثم تعمد البلاغة النبوية إلى صورة فنية بالغة الروعة، حيث كانت هذه الصورة هى قلب الموضوع، والموضوع هو سخط الأنصار من أجل نصيبهم من الغنائم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يفزعون أشد الفزع من أن يتصوروا أن النبى سيترك المدينة، ويعود إلى موطنه الأصلى مكة بعد أن فتحها، ولكن إعجاز الخطابة يصور هذين العنصرين هذا التصوير الفنى البالغ الروعة، فأما عن عنصر الغنائم، فإن أحسن ما فى الغنائم عندهم الإبل والغنم، فيصور الأنصار فريقا، وسائر الناس فريقا آخر، فأما فريق الناس فقد رجعوا بغنائم هائلة من الإبل والغنم، وأما الأنصار فلم يرجعوا إلا بشخص النبى وحده، فأى الفريقين أعظم نصيبا، الذين رجعوا يسوقون الإبل والغنم، أم الذين رجعوا يحملون معهم رسول الله ﷺ؟ وأى النصيبين أعظم قدرا، الإبل والغنم ولو ملأت بطاح الأرض، أم شخص النبى ﷺ وحده؟ والإجابة عند الأنصار أوضح وأسطع من ضوء الشمس، وأما عن عنصر الخوف من عدم رجوع النبى إلى المدينة فإن هذه الصورة الفنية البالغة الروعة أجابت عنه أبلغ إجابة، حيث لم يكتف النبى بأن يطمئنهم إلى أنه سيعود معهم إلى المدينة، وإنما جعل الصورة كأنهم أصبحوا يملكونه كما يملك المرء متاعه، ويضعونه فى رحالهم كما يضع الشخص متاعه فى رحله، فلم يقل لهم إنه سيعود معهم إلى مدينتهم أو إلى ديارهم، وإنما يقول لهم إنهم سيعودون به إلى رحالهم، ولا أظن أحدا يملك من الألفاظ ما يعبر عما يحدثه هذا الأسلوب من أثر فى نفوس الأنصار، حيث قال لهم «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم»؟

ولكن النبى لا يكتفى بذلك، وإنما يخرج لهم من قلبه وعواطفه نحوهم ما يقلب موقفهم الغاضب رأسا على عقب، فيحلف لهم وهو أصدق القائلين بعد الله أنه يتمنى أن يكون واحدا من الأنصار، ولولا أن الله جعله بصفته مهاجرا فى أعلى منازل الدين فلا يملك أن ينزل بنفسه عن منزلة رفعه الله إليها، لولا ذلك لأعلن أنه أحد الأنصار، فيقول لهم «فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار».

ثم يعقب النبى على ذلك وكأنه يقول لهم مع أننى مع المهاجرين فى المنزلة إلا أننى مع الأنصار فى المسلك، وفى الرابطة الاجتماعية، ولو أن الناس جميعا ومنهم المهاجرون سلكوا مسلكا وسلك الأنصار مسلكا لتركت الناس جميعا وسلكت مسلك الأنصار، فيقول: لهم «ولو سلك الناس شِعبا - طريقا - وسَلَكَت الأنصار شِعبا لسلكت شِعب الأنصار».

وحيث يعلم النبى أن كل ما يتعلق به ستترويه وتتناقله الأجيال، فقد تشعر الأجيال التالية من الأنصار أن آباءهم المعاصرين للنبى لم يكونوا موفقين فى هذا الموقف الغاضب من أجل غنائم ولعلهم يتوجسون خيفة من أن يكون الله قد غضب على آبائهم من أجل هذا الموقف، وقد يمتد شىء من هذا الغضب إلى الأجيال التالية لهم من ذرياتهم من حيث إن الأولاد يرتد إليهم ما يكسبه آباؤهم من خير أو شر، فالنبى يطمئن الأنصار إلى أنه راض عنهم وعن ذرياتهم من بعدهم ويدعو لهم الله أن يكون راضيا عنهم كما يرضى هو فيقول «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

ولنا أن نتصور كيف أصبحت نفوس الأنصار وقلوبهم بعد أن سمعوا من النبى هذا الذى سمعوه، بعد أن كانت كل أمانيهم محصورة فى أن يطمئنوا إلى أن النبى راض عنهم وأنه سيعود معهم الى المدينة بعد أن تهيأت له الإقامة فى مسقط رأسه مكة.

وأما نص الخطبة فهو:

«يا معشر الأنصار: ما قالةٌ بلغتنى عنكم؟ وجدة وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل ثم قال: ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك وطريدا فآويناك، وعائلا - فقيرا - فآسيناك، أوجدتم يا معشر الانصار فى أنفسكم فى لُعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار» وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى الأنصار حتى اخضلوا - بللوا - لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا(٣).

(٣) سيرة ابن هشام ٤/١٥٦، ١٥٧.

قضية للمناقشة

هل كان النقد فى العصر الجاهلى سطحيا

للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

تواضع معظم الذين كتبوا عن النقد الجاهلى على أن هذا النقد يمثل وضعية ساذجة تلقى بأحكامها التأثرية اللحظية على نحو من العفو الذى لا يعلل حكماً، ولا يرتب نتيجة على مقدمة، ولا يصدر فى نظره النقدى عن رؤية فنية شاملة، تكشف أبعاد النص المنقود من مناحيه الجمالية واللغوية والنفسية والبيئية، أو تضعه فى مكانه الطبيعى من خارطة الإبداع متابعة واحتذاء، أو تمرداً فى وجه هذه المتابعة وهذا الاحتذاء. أو تحاول الكشف عن نوعية العلاقة الرابطة بين المبدع وإبداعه الشعرى.. وربما كان بعض هذا الاتهام صحيحاً فى عمومه إذا نظرنا إلى التاريخية الراهنة للنقد الجاهلى كما نراها الآن.

ولكن.. لابد أن نفترض.. حتى مجرد افتراض.. بأن هذا النقد لا يمكن أن يكون قد بدأ من هذه النقطة لأن ما فيه من قيم أصيلة، وإن بدت مبعثرة هنا وهناك بفعل غياب التدوين واستعصاء النثر على الذاكرة، يؤكد أن هذا النقد الجاهلى يمتلك تاريخاً أعرض من تاريخه المعروف، وأن منطق الأشياء يحتم أن تكون هذه الذكاءات النقدية التى أثرت عن أمثال النابغة، وطرفة، وأم جندب.. لها رصيد أعرض فى عمق التاريخ النقدى، وإن ضاع مع كثير مما ضاع فى هذه العصور.. كذلك يمكن القطع شبه اليقينى بأن ما أثر عن العقل الجمعى الناقد فى هذه المراحل من رؤى نقدية فاهمة ـ من مثل ما يقال: « وقد عاب « العرب » على النابغة وبشر ابن أبى حازم الإقواء فى شعرهما.. » أو: « .. فقدم المدينة فعيب عليه ذلك، فلم يأبه لهما، حتى « أسمعوه » إياه فى غناء.. » أو « .. كانت العرب تعرض شعرها على « قريش » فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه منها كان مردوداً.. » أو: « .. وأخذ العرب على المهلهل ابن ربيعة أنه كان يبالغ فى القول، ويدعى فيه بأكثر من فعله.. » أو: « .. وكانت « الأسواق ».. « وبلاط الملوك والأمراء تعمل عملها فى نقد الشعر » كل هذه المقولات تؤكد أن النقد لم يكن هم رجلٍ أو رجال متخصصين فحسب بل كان هما جماعياً إذا جاز أن يقال، حتى صح أن تنسب الواقعة النقدية

هكذا إلى مدينة، أو قبيلة أو جنس، كما رأينا منذ قليل.

ولعل أخطر من هذه الدلالة الاستنتاجية، دلالة أخرى يمكن تسميتها دلالة استقرائية، وهى طبيعة البناء الفنى فى الشعر الجاهلى ذاته، فالذين يقرأون هذا الشعر فى هذه المستويات الفنية المتكاملة التى تتسم بالنضج التعبيرى والكمال الفنى، كما فى المعلقات ودواوين الشعراء الجاهليين التى وصلتنا، لا يمكن أن يأخذوا ظاهرة هذا الكمال الفنى على أنها ظاهرة نشأت هكذا فى فراغ نقدى، وإنما يجدون أنفسهم فى حتمية أن يلاحظوا بأن هذا الإبداع الشعرى لابد أن يكون قد نشأ فى حضن حركة نقدية ناهضة. زاملت خطواته الأولى. وأضاءت دروبه البكر بكثير من مشاعل التقويم والترشيد والتصويب، حتى شارف هذا المستوى الفنى المتكامل الذى نراه فى نماذجه الجاهلية التى ما تزال تبهرنا حتى اليوم، على الرغم من هذه المتاحات الثقافية والفكرية التى جدت على الساحة الفنية منذ الجاهلية حتى الآن.

وهل يمكن أن تكون عفوية كل هذه القيم الشعرية التى استقرت فى صميم الشعر الجاهلى. من مثل استطراده على: وحدة الروى.. ووحدة حركة هذا الروى.. والتصريع فى أوائل القصائد أو فى معظم أوائل القصائد.. وافتتاحها بالغزل.. والوقوف على الأطلال.. ووصف الناقة والصحراء والرحلة.. والخلوص إلى الغرض.. وتجنب الإقواء.. والزحافات.. والعلل.. وسائر عيوب الشعر؟؟

هل يمكن أن تكون عفوية كل هذه التقاليد التى أصبحت قواعد النظرية الشعرية العربية، والتى جاء الإسلام فشكل على النمط الجاهلى ثورة عارمة اقتلعت جذوره ورمت بها فى غياهب النسيان، ولكنه لسبب ما لم يكتسح هذه التقاليد الفنية للقصيدة الشعرية الجاهلية وظل على ولائه لها برغم الانقلاب المضمونى الكامل الذى طالع به الكون والحياة؟؟ يوشك النظر النقدى هنا أن يؤكد أن هذه التقاليد الفنية كانت شبه طبائع مركوزة فى أعماق الذات العربية وما تزال، وأن جريرة غياب التدوين هى المسئولة عن هذا التيبس فى حركة السير إلى الوراء، ونحن ننقب فى أعماق التاريخ النقدى عن نقطة البداية، أو حتى ونحن نفترض فروضاً هى إلى اليقين أقرب منها إلى مجرد الافتراضات.. إن ما تم فى هذا الصدد على سذاجته يوحى بأن المسار الفنى الذى استطرد فيه الشعر كان محروساً بتشريعات نقدية متعقبة ومتعاقبة، حتى استوى له هذا النموذج الفنى على هذا النحو من الكمال.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هناك أصواتاً شعرية رائدة: كامرئ القيس، وزهير، وعنترة. سمعناها تشكو من بطء الإيقاع فى شعرها، وتتململ من تقليدية الصوت فى حناجرها، تأكد لدينا أن هذه الأصوات مجرد مرحلة تالية لمراحل سبقتها بالتأكيد، وأن هذا الحس الناقد فى قولها الشعرى يعكس ملامح حركة نقدية كانت موجودة بالفعل يقول امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لعلنا
نبكى الديار «كما بكى ابن حزام»

ويقول زهير:

ما أرانا نقول إلا «معاراً
أو معاداً من لفظنا مكروراً»

ويقول عنترة:

«هل غادر الشعراء من متردم»
أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

فامرؤ القيس يشكو من الغناء بحناجر الآخرين «ابن حزام».. وزهير كذلك ولكن بشكل أكثر جرأة وصراحة «معاراً.. معاداً.. مكروراً» وعنترة يبكى هذه الوضعية الراسفة فى قيود التقليد حيث

لم يغادر الشعراء من متردم.. مما يوحى بأن هؤلاء لم يكونوا طليعة الشعر الجاهلى. وأن تاريخ هذا الشعر أبعد عمقاً من امرئ القيس وغير امرئ القيس، وبالتالى فإن تاريخ النقد الذى نشأ بالضرورة مواكباً أو حتى تالياً لهذا الشعر الموغل فى الزمن، لابد أن يكون أبعد عمقاً فى التاريخ من هذا الذى تطالعنا به المدونات، وإن كان من المحزن حقاً أن معظمه قد ضاع، ولم يبق أمامنا إلا أن نلجأ إلى هذه الفرضيات التى تلوح شبه يقينية لولا ما يعوزها من شواهد مادية تؤكد حلولها فى التاريخ.

وإذا صح تعليق القصائد السبع بستار الكعبة فإن هذا الانتخاب الفنى قد يعد لوناً من ألوان النقد الذى كانت تمارسه الذهنية العربية الجاهلية، لأنه إيثار لبعض الفن على بعضه الآخر، وإجماع يوشك أن ينبئ بأن ذوقاً عاماً تواضع من خلال إيمانه بتقاليد موروثة ومكتسبة ـ على أن ما فى المعلقات من قيم فنية يضعها بالضرورة على رأس الإبداع فى ذلك العصر..

ومن هنا يجوز أن تكون المعلقات مصدراً من مصادر التعرف على طبيعة المنحنى النقدى الذى كان سائداً فى الجاهلية، إذا ثبت أساساً أن هذه المعلقات صحيحة النسب كاملاً إلى شعرائها من جهة، أو أنها قد سميت بالمعلقات فى هذه المرحلة الغابرة من جهة أخرى.. فهناك روايات متضاربة فى هذا الصدد يشير معظمها إلى أن مصطلح «المعلقات» لم يظهر إلا فى القرن الثالث الهجرى، وأن بعضها يعزى إلى أكثر من شاعر فى وقت معاً.

إلى جوار ذلك نستطيع أن نلاحظ كما لاحظ كثير من الباحثين أن ألواناً من التأثير والتأثر اللذين قد يصلان إلى تشكيل مدرسة أو تشكيل اتجاه، كان قد حدث فى ذلك الحين، فالرواة يحدثون بأن زهيراً كان راوية أوس بن حجر، وأن الحطيئة كان راوية زهير، وأن كعب بن زهير كان شاعراً تعلم الشعر من أبيه. فإذا عرفنا أن زهيراً كان ينفق الحول فى تسوية بعض مثاله الفنى قبل أن يخرج به على الناس، وأن الحطيئة كان من عبيد الشعر الذين يتكلفون ويعاونون فى صنعته.. وأن كعبا ذكر صناعة الشعر وتثقيفه ومعاودة النظر فيه، عرفنا أننا أمام مدرسة شعرية أو فلنقل أمام اتجاه شعرى يشترك فى كثير من خصائص اللفظ، وخصائص المعنى، وخصائص الصورة، وخصائص البناء، وأن ملاحظة تدفق هذا الإتجاه من الوجهة النقدية أتاحت له أن يمتد فى جميل الذى أخذ فى الإسلام عن الحطيئة، وفى كثير الذى أخذ عن جميل.. كل هذا قد لا يمكن أن يتم ـ كما أسلفنا ـ فى غيبة حركة نقدية متابعة، لها رصيد من النظر النقدى الموروث ـ حتى فى جوانب منه ـ يؤهلها لاكتشاف جوهر ما تم بين الشعراء من تأثر وتأثير، وما ألحوا عليه من ظواهر تشكيلية أفضت فى النهاية إلى رسم ملامح مدرسة أو ملامح اتجاه.

أما لماذا لم تتحدد المدارس تحديدا منهجياً علمياً فى هذه المرحلة؟ فيكفى أن نقول: إن غياب التدوين وحده يضع الناقد المنهجى فى مأزق تاريخى، فهو لا يستطيع ـ مع غياب التوثيق النصى للشعر ـ أن يعايش النصوص معايشة منهجية ليتأمل خصائصها الجمالية والبنائية كما ينبغى، ومن ثم تقويمها تقويماً شمولياً عميقا.. كذلك يصعب على مثل هذا الناقد أن يضع الشعراء وشعرهم فى مكانهم المحدد دائماً على خريطة الإبداع الفنى. وهو من صميم عمل الناقد، لان هذا الواقع الفنى نفسه غائب كله أو بعضه فى أدمغة الرواة، أو مشتت فى ذاكرة الناقد، أى أنه ليس له وجوداً مطروحا للرؤية الكلية الشاملة.. ومن هنا يأتى قصور التحديد المنهجى فى هذا النقد بلا جدال!!

الشاعرة جليلة رضا .. وداعا

للأستاذ / أحمد مصطفى حافظ

كـأن لـم يمـت حـي سـواك، ولم تفـض
علـى أحـد، إلا علـيـك.. اللواعـج

فهكذا نفذ السهم، وماتت جليلة رضا، فى يوم السبت الموافق التاسع من مارس عام ٢٠٠١م، بعد رحلة عطاء خصبة.. وكيف لا؟ وقد كان شأنها مع الشعر، كشأن صديقنا الشاعر الراحل الدكتور عزت شندى موسى، الذى قال فى قصيدة له:

وهبـت للشـعر نفسـى ... غـدى ويومى وأمسـى

بل وقول جليلة رضا نفسها:

إيه ياشـعـر ما الذى بك أغـرا ... نى حـتى أذبت فـيك شـعـورى
وتفـانيت فى رضـاء خـيـالى ... وطويت الحـيـاة.. فى التـفكير

ويا لها من حياة، تلك التى تتحدث عنها الشاعرة، فى بيتها الثانى، فقد حفلت بكل ما هو مثير حقا، إذ أتت إلى الوجود لحظة ميلادها، غير مرغوب فيها..! أو بتعبيرها هى الصريح: (فوق البيعة)[1]، فقد جاءت مولودا: (أنثى)، فى حين كان والدها يتمنى ان يكون المولود: (ذكرا).. وتقص علينا هذا الأمر، بقولها بديوانها: (اللحن الباكى) ص٦٢ تقول:

فى ليلة من ليالى الدهر حاملة ... ثوب البسيطة من هم وأكدار
جئت الحياة وفى عينى ظلمتها ... جئت الحياة.. وخلفى طيف أقدارى
وهل طيف أبى فى الدار منفعلا ... وفى جوانحه: جمر على نار

(١) أنظر كتابها (صفحات من حياتى) سلسلة كتاب الهلال ١٩٨٦ ص٩.

وقـــد توهـم أن الأرض قـــاطبـــة
في راحـتـيـــه- وقـد زينت بأقـمــار
حـتى إذا مـا انحنى فـوقي يداعـبني
رأى الحـقـيـقـة، في رعب وإحـقـار:
«بنت»؟ إلهي!.. ومـا أرجـو سوى ولد
يا وصـمـة في دمي.. يا وصـمـة العـار
ورحت في صـحـراء العـمـر ضـاربة
تحنو عـلـى.. بـصـــدر ثـائـر نـارى
في مـعـصـمي قـيـود البـؤس خـالدة
والطوق في عنقي، أشـدو بأشـعـارى

وهكذا كان الشعر خير متنفس لها، فيما كابدته بعد ذلك، من ضروب الأسى المتلاحقة، التي مرت بها وعانت منها طويلا.

لقد كانت جليلة رضا ـ رحمها الله ـ شديدة الإيمان بقضاء الله وقدره، ونلمس ذلك في قولها – لله تعالى–:

أنت روح الوجـــود ســـر وجـــودي
وخـيـــال الرجـاء سـاعـة رمـسى

وكانت تجتر آلامها في أحزان وحدتها، بعد أن ابتعدت عن المحافل الأدبية، والتزمت عقر دارها، وتشرح لنا ذلك كله، بقولها:

إني على طول الطريق كـــمـــا أنا
أمـــضي وأعـــثـــر في ذيول هواني
وحدي أداعب في الظلام كآبتو أمدها..
بـالـصـــــبـــــر والإيـمـــــان
وعلى جـــدار اللانهـــاية أرتمى
حـيـرى.. أسـائل من أنا؟ مـا شـاني؟

يارب فـيـــضـــا من حنانك في دمي
وظلال آمـــال.. على أجـــفـــاني

ولشعر الأسرة نصيب كبير في دواوينها، تسجل فيه التجارب الأليمة التي مرت بها، وخاصة تلك الواقعة التي حدثت لها مع زوجها، على إثر مشادة حدثت بينهما وصممت على أن تنطلق لتشكوه لذويها إلا إنها سرعان ما ذهب غضبها شيئا فشيئا، وهي في طريقها إليهم، وما أن وصلت إلى باب الدار، حتى تلاشى انفعالها تماما، وكأن شيئا لم يكن!.. وهي تصور ذلك كله في قصيدتها التي تحمل عنوان: (رب الدار) بقولها:

وتركت بعـــدك في الصـــبـــاح ديار
وأنـاعـلـى غـــــيـظي وثـورة نـارى
وذهبت أشكو منك عند أقـــاربى
وبحـــدة الإفـــضـــاء آخـــذ ثارى
وعلى الطريق تبـخـرت من خـاطرى
ذكـــرى الإهانة، والأسى، والعـــار
حـتى وصلت، فلم أجـد بمشـاعـرى
مـــايُســتــدل به.. على الإعـــصـــار!
ولمحت في فلق خـــيـــالك قـــائمـــا
بـيـنـى وبـيـن الأهـل فـى إصـــــرار!
وخـــشــيـت أروى عنك أية هفــوة
لـتـظـل في الأذهـان: رمــــز وقـــار
وذهلت.. كـيف نويت أكـشف سـرنا
وحــيـــاتنا قـــدســيـــة الأســرار
وأجـــاب عـــقـلى:- يـابنيـــة إنه
- رغـم الخـــــلاف المر-: رب الـدار

وقد اتسع قلب جليلة رضا، حتى أصبح مفعما بحب الخير للناس جميعا، برغم انزوائها عنهم، فى عقر دارها، حين بلغت سن الأربعين، كالدرة التى عادت إلى محارتها وهو العنوان الذى أطلقته على آخر دواوينها - برغم ذلك كله- يتناهى إلى أسماعنا دعاؤها الحار، الذى تقول فيه:

يارب أعط السائل المحروم أسباب السرور
وامنح لكل مشرد ركنا موشى بالحرير
أطفئ وقود الحرب فى الدول المؤججة السعير
وامنح جميع الكون أسباب السعادة والحبور

وإذا أردنا - فى هذه العجالة - ان نتعرف على مذهب جليلة رضا فى الشعر، فإنها تبدو فى معظم قصائدها، كلاسيكية الشكل، رومانسية المضمون، وإن ألقت الواقعية بظلالها على بعض القصائد التى وصفت فيها وقائع الحياة اليومية المألوفة وفى تقديمها لديوانى الذى يحمل عنوان (ما أبقت الأيام)، تصف مواتاة الفكرة لها، بقولها، فى السياق: «تحضرنى الآن بعض أبيات، ناديت بها الفكرة، فى سكون الليل- بينما قلبى يستعد، وكلماتى تتأهب:

تعالى وامنحينى الوحْىَ، فى صدق وحرية
تعالى وارسمى للعقل لوحة فنه الحية
سأبدأ رحلة الكلمات والتصوير والمعنى
سأسبح فى بحار التيه، أغزو الكيف والأينا
سأدخل معملى السحرى، حيث أشيد أغنية

ثم تتساءل : ما هو مذهبى فى الشعر؟ وهل أسير على مذهب بعينه؟

وتجيب على هذا التساؤل، بقولها حائرة:- لست أدرى.. ربما اكتشفنى غيرى، أما أنا.. فشعرى هو نفسى، وأنا لم اكتشف نفسى بعد.. كل ما أدريه، هو أن شعرى متداخل متمازج، مذهبه الحب، ومدرسته الحرية، وأسلوبه العطاء.. إن شعرى- على وجه التحديد- تلميذ صغير، خرج يوم عطلته المدرسية، يطوى دربه حرا طليقا، ولا يزال.. إنه

إنه شعرى فوق الدرب يمضى ثم يمضى
يعبر الظلمة والنور وآفاقى وأرضى
جائعا يقتات بالفكر ويروى من شعورى
حاملا معطف بردى ومظلات هجيرى
هو كالتلميذ يطوى الدرب حرا يوم عطله
جاهلا أين يقود الدرب رجليه وظله

وسلام على جليلة رضا فى جوار ربها ـ عز وجل ـ ورحمته، بعد منغصات السن المرتفعة، وأشجانها، وعزلتها، وانفرادها بالألم.. وعزاء لابنتها الصابرة المحتسبة بعد ان وفقت بإخلاصها وتفانيها زهاء ثلث قرن من الزمان- إلى رسم ابتسامة على وجه والدتها الشاعرة الكبيرة، فى أخرياتها، بما كانت تنقل إليها من أنباء احتفاء (الهلال) و (الأزهر) و (الثقافة) بخرائدها، الأمر الذى كان يمنحها الأمل، والاستبشار بالحياة من حولها، بعد افتقادها مكانتها السابقة السامقة، لدى تلاميذها وعشاق فنها وإبداعها .

الجيتو والكيبوتس فى الوجدان اليهودى

٢

للدكتور / محمد حسن عبد الخالق

الكيبوتس

وهى كلمة عبرية تعنى (مزرعة) والمقصود بها نظام المستعمرات (المزارع) الجماعية التى أقامتها الحركة الصهيونية فى فلسطين منذ مطلع القرن العشرين. ولا تتوفر لدينا مصادر نقدية عبرية تبين مواطن الضعف فيه، وقد مدحه الباحثون وأشاد به الأدباء اليهود فى أدبهم ووجدوا به مادة خصبة ووصفوه بأنه «مصنع الرجال اليهود».

وتدعى المراجع الصهيونية أن مزارع الكيبوتس هى أنقى تجربة اشتراكية عرفها التاريخ [1].

وقد سبق أن تحدثنا عن (الجيتو) أى حارة اليهود خارج فلسطين والآن نتحدث عن الجيتو الزراعى داخل فلسطين.

فمنذ التفكير فى إنشاء هذه «الكيبوتسات» والهدف الصهيونى واضح وتأكد وضوحه بمرور الأعوام كى يكون قاعدة زراعية عسكرية لغزو واحتلال فلسطين. ويجب علينا ألا ننسى الدور الخطير الذى لعبته هذه المستعمرات الزراعية فى تحقيق آمال الصهيونية، فمنذ كانت الخلية الأولى لمجتمع المستقبل والذى نرى إفرازاته اليوم، فالفكرة قديمة والتخطيط لاحتلال فلسطين أقدم منها.

وأود أن أشير إلى أن أول كيبوتس قد أسس فى بلدة (دجانيا) عام ١٩٠٩ - ١٩١٠، وكان يتكون من عشرة رجال وامرأتين، وفى نهاية عام ١٩١٨ بلغ عدد المزارع «٢٨» مزرعة.

ونذكر جميعا المؤتمر الصهيونى الأول عام

---

(١) عبدالوهاب المسيرى: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص ٣٢٢.

١٨٩٧ - بال / سويسرا والذى ذكر أن تحقيق الهدف الصهيونى يكمن فى أربعة أهداف:

الأول: العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود وفق أسس مناسبة(٢).

وقد تبلور هذا الكيان بعد الهجرة الثانية، التى كانت دوافعها صهيونية وأفرادها أعضاء فى (حركة الشباب) الصهيونية فى أوروبا الشرقية، والتى كان هدفها استعمار فلسطين وبناء وطن لليهود، وصاحب الأثر الأكبر على رواد الهجرة الثانية هو أ. د غوردون ١٨٥٦ / ١٩٢٢، وهو صاحب فلسفة (دين العمل) والذى قال كلمته المشهورة:

«إننا بحاجة إلى متعصبين للعمل متزمتين لهم بأعلى معانى الكلمة»

وقد اختاروا الزراعة لأنها ترتبط بالأرض التى يسعون جاهدين إلى اغتصابها وادعاء ملكيتها، وهى الوسيلة لديهم.

ولكونهم قد تعودوا على حياة (الجيتو) فى أرض الأغيار طوعا أو كرها، فقد حانت الفرصة لامتلاك مجموعة من الجيتوات تكون فى المستقبل جيتو كبيراً.

ومنذ أيام الانتداب البريطانى قاموا بتأسيس ثلاثة كيبوتسات زراعية تجريبية كبيرة، منها كيبوتس (جفولوت) وتعنى بالعربية (حدود) ١٩٤٣ على حدود النقب بسبب الرغبة المستقبلية فى توسيع الحدود، وبنفس نظرتهم (الجيتوية) بنى الكيبوتس على شكل قلعة وأحيط بسور مرتفع(٣).

وهكذا تكونت المستعمرات الزراعية وازداد عددها وحققت وجودها وانضم إليها الفلاح والعامل والمقاتل، كل هذا وفق خطط استراتيجية صهيونية مرسومة.

إذا فالكيبوتس هو مزرعة جماعية يشترك فيها كل الأعضاء فى مسئوليات متساوية.

وأصبح البوتقة التى حاولت الصهيونية من خلالها صهر يهود الشرق مع يهود الغرب. وهو خليط من يهود أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى والغربية (إثر الاضطهاد النازى) وأيضا من (الصابر)(٤) أى أبناء المهاجرين المولودين فى فلسطين.

وهو مجتمع مُغلَق والعمل إجبارى ويشبه النظام العسكرى فى صرامته والعائلة المكونة من (رجل وامرأة) تسكن فى غرفة واحدة، أمام الحمام وغرف الغسيل وصالة الطعام فهى منافع عامة.

---

(٢) عبدالوهاب كيالى: الكيبوتس. دراسات فلسطينية/٤ ص ١١.

(٣) إفرايم ومناحم تسلمى: معجم المصطلحات الصهيونية ١٩٨٨ ص ٩٨.

(٤) الصابرا: كلمة عبرية مشتقة من الكلمة العربية «نبات الصبار» أو «التين الشوكى» واتخذ هذا الاسم لليهود المولودين فى فلسطين رمزا للخشونة والشدة والتحمل.

حيث يقوم الفرد فى الخامسة صباحا يتناول الإفطار فى دقائق معدودة، وبعدها يذهب إلى عمله حتى وقت الظهيرة. حيث يتناول وجبة الغداء الرئيسية ويستغرق ساعة ثم يعود للعمل حتى الرابعة فى الشتاء والخامسة فى الصيف.

والعائلة فى الكيبوتس تعبير مجازى ويصبح الزواج قانونيا عندما تحمل المرأة وصالة الطعام العامة هى مركز الحياة الاجتماعية فى الكيبوتس.

وكما هو مفهوم فإن وضع المرأة فى الشريعة اليهودية متدن للغاية، وقد حررها الكيبوتس من كل هذا، وأصبحت تتمتع بنفس حقوق الرجل، حتى العمل الجسدى، وقد اتضح من الممارسة العملية بالكيبوتس أن طبيعة المرأة غير مؤهلة للأعمال الشاقة التى يقوم بها الرجل، مما دفعهم بعد ذلك لتشغيل حوالى ٨٠٪ من النساء فى فروع الخدمات(٥).

وأود أن أشير إلى أنه فى عام ١٩٠٨ كان هناك ست فتيات فقط يعملن فى مزارع «الشجرة» فى الجليل التابعة للمنظمة اليهودية لاستعمار فلسطين (٦).

والانضمام للكيبوتس تطوعى.. يتم على مراحل، الستة شهور الأولى يعتبر زائرا ثم مرشحا لمدة ستة شهور أخرى، وأخيرا يقبل كعضو عامل إذا وافق عليه ثلثى أعضاء الكيبوتس على الأقل.

وإتقان اللغة العبرية هو أحد المعايير الهامة للانضمام للكيبوتس.

والاعتماد على الشباب من يهود الصابرا هو الأساس، فهم يمثلون القوة ويتمتع الصغير مع الكبير بكل شئ، حتى أخذ القرارات والاقتراحات مما كان يغضب الكبار، ويضطر بعض كبار السن إلى مغادرته لهذا السبب.

وهذه الكيبوتسات تخضع فى تبعيتها للأحزاب - دينية وغير دينية ـ كل حزب حسب اتجاهه وفكره وعقيدته إلا أن (الدولة) تتولى التمويل والنظام العام.

وبعد أن كان الكيبوتس أداة استيطانية، أصبح أداة استيعابية فمفهوم العائلة غير موجود، وأصبح إضعاف الروابط العائلية يتم لحساب الروابط القومية ولحساب الولاء للدولة أو المؤسسة أو الحزب(٧). وقد برعت الصهيونية وأبواق دعايتها فى اجتذاب شباب اليهود فى هذه المستعمرات كل حسب هواه، فهناك المستعمرات الدينية والاشتراكية، وكل شئ مباح.

وساعد هذا على دمج أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود فى نوع جديد من الحياة كل هذا بالرَغْم الاشتراكى لحركة الكيبوتس.

---

(٥) موسى حنا عنتر: الكيبوتس من الداخل - دراسات فلسطينية ١٩٧٠ ص ٢٤.

(٦) أديب قعوار: المرأة اليهودية - دراسات فلسطينية ص ٢٢.

(٧) موسى ضاغتر : الكيبوتس من الداخل ص٢٥.

وفضل العرب على يهود العالم العربى كبير جدا. حيث رفض يهود الشرق حياة الكيبوتس لأنها تتعارض مع القيم التى تعلموها بين أحضان العرب من احترام الأسرة ومكانة الأب ورعاية الأبناء... الخ

وفضلوا شأنهم فى هذا شأن العرب المقيمين هناك بالعمل كأجراء فى مزارع الكيبوتس.

ويتألف التنظيم الإدارى من السكرتير العام للكيبوتس والسكرتارية وعدة لجان أهمها:

١- لجنة الأمن - وهى مسئولة عن الأمن والدفاع والاستعداد العسكرى وكل حزب إسرائيلى هو مؤسس لعديد من الكيبوتسات، ويتمتع بحكم ذاتى محلى، حيث يشارك أعضاؤه فى إدارته ضمن إطار السياسة التى يرسمها الحزب التابع له.

ويرفع الكيبوتس شعار:

« التعليم أداة للتحرر القومى والاجتماعى للشعب اليهودى »

والتعليم فى الكيبوتس إجبارى من الابتدائى وحتى الثانوى، وعلى وجه العموم فإن الهدف الرئيسى للتعليم الجماعى هو ضمان استمرار (قيم) الكيبوتس التى تترجم إلى العمل التطوعى.

والهدف الأساسى للتعليم فى الكيبوتس هو تنمية المفهوم الصهيونى بين أطفاله.

نظام التعليم فى الكيبوتس

يدخل الطفل سلك النظام التعليمى وعمره أيام حيث يعتنى به منذ اللحظة التى يولد فيها مجموعة من الممرضات والمختصات بدلا من والديه ثم يلحق بالحضانة وعمره عام.

ويعنى منذ طفولته بالمفاهيم الصهيونية وعلى رأسها معاداة العرب.

ويتبع نظام الكيبوتس « النجاح التلقائى » بحيث ينتقل الطالب من صف لآخر دون امتحان نهاية العام، وبعد الثانوية يلتحق معظم خريجيه بالجيش أو يعملون بالزراعة وينظر إلى جندى الكيبوتس أفضل من باقى الجنود الإسرائيليين ويشكل الطيارون القادمون من الكيبوتس نسبة عالية بين الطيارين الإسرائيليين وقد بلغت نسبة القتلى من أعضاء الكيبوتس فى عدوان ١٩٦٧ ٢٥٪ من مجموع القتلى الإسرائيليين.

وقد بلغ من تبجحهم أن هذه المصانع البشرية الفريدة غير قابلة للتصدير فهى قاصرة على « شعب الله المختار » أى أن كل أعضائها يهود وهم صادقون فى هذا، فهى مؤسسات أقامتها حركة عنصرية مرتبطة بالغرب وكانت الطريقة الوحيدة التى فرضوا بها وجودهم على الواقع الفلسطينى العربى.

وكانت تؤسس تحت ستار الليل كدرع عسكرى / زراعى جديد.

وقد ساهم الجيش الاسرائيلى فى حصول هذه المزارع على مساحات شاسعة من الأراضى العربية مجانا بالاضافة إلى الإعفاءات من الضرائب والتمويل والتسهيلات

الائتمانية التي يوفرها الكيان الصهيوني بالإضافة إلى دعم المؤسسات الصهيونية في العالم لهذه المستعمرات ماديا.

وبالإضافة الى هذه المستوطنات الزراعية هناك مستوطنات غير زراعية أى سكنية.

وقد اكتسبت كلمة (اليشوف) أى الاستيطان عدة معان وهى كلمة عبرية تعنى (التوطن) أو السكن. وهناك نوعان لهذا اليشوف:

النوع الأول: ويسمى اليشوف القديم، ويقصد به الجماعات اليهودية التى كانت تسكن فلسطين لأغراض دينية.

واليشوف الاستيطانى: وهى الجماعات التى سكنت فلسطين واحتلتها لأغراض سياسية.

وفى عام ١٩٤٨ كان اليهود يملكون مانسبته أقل من ٦٪ من إجمالى مساحة فلسطين، للمنظمة المركزية الصهيونية لاقتناء الأراضى والصندوق القومى اليهودى «قيرين هقييمت» وقد وقع اختيار مواقع المستوطنات استنادا إلى اعتبارات سياسية طبيعية وعسكرية، ومعظم هذه المستوطنات كانت مجرد حاميات عسكرية، وأغلبية السكان القرويين من الرجال خصوصا فى المستوطنات الجماعية ينتمون إلى المنظمة العسكرية الصهيونية الرسمية «الهاجاناه»[(٨)].

وهذا ما يفسر لنا الآن استماتتهم فى بناء مستوطنات جديدة عنوة، واقتطاع مساحات من فلسطين العربية تضم إلى بقية ما نهبوه من أراض والآن أصبح الكيبوتس الواحد يمتلك منشآت مقامة على أرضه ومصانع أخرى على غير أرضه وتطور الكيبوتس من الداخل وأصبح مكانا مرفها به كل وسائل التسلية والترفيه وأصبح عضو الكيبوتس مسئولا له وضعه فى مراقبة العمال الأجراء.

وأود أن أشير إلى أن جميع الحكومات الاسرائيلية بلا استثناء قد لجأت منذ احتلال الأراضى العربية عام ١٩٦٧ إلى إقامة المستعمرات لتنفيذ المخطط التوسعى على الأراضى العربية، والتسويف والمماطلة والخداع، شيمة مميزة للمجتمع. فقد خدع (رابين) الرأى العام العالمى بأن هناك فرقا بين المستعمرات الأمنية والمستعمرات السياسية ومع الأسف تجاوب معهم (بوش) الأب، وأصدر قرار استكمال بناء ٩٨٥ وحدة سكنية فى الضفة الغربية، و١٢٠٠ فى قطاع غزة ومثلها فى الجولان السورية وأكمل بناء ١٦,٢٤٧ وحدة فى القدس وبلغ عدد المستعمرات الإسرائيلية حتى نهاية ١٩٩٥- ١٥٠ مستعمرة فى الضفة الغربية، ١٠ فى القدس الشرقية، ١٦ فى قطاع غزة.

---

(٨) المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى العربية المحتلة ص٤٩٧.

وواصل نتنياهو وباراك نفس السياسة، حيث وصلت لأكثر من ٢٠٠ مستعمرة يسكنها ٢٠٠ ألف يهودى.

ومع بدء عملية السلام، لا ننس الموقف العادل الذى قام به (بوش) الأب أمام إسحاق شامير، وطالبه بالتوقف عن بناء المستوطنات، وتسببت هذه الأزمة فى سقوط حكومة شامير.

وكان المتوقع أن يحذو الابن حذو أبيه، ولكن!!

والجدير بالذكر أن شارون هو الرجل الأول المنفذ لخطة الاحتلال هذه وله خطة تحمل اسمه. تستولى على نصف أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة فقد أقام ١٥ مستعمرة جديدة منذ توليه. والمسلسل مستمر. وعملية تجميد المستوطنات هى لعبة قديمة حديثة، حفظ أوراقها عن ظهر قلب، فقد جمدها مناحم بيجين لفترة وجيزة أيام كامب ديفيد كما فعل رابين.

وأود أن أشير إلى أن هذه الكيبوتسات قد أسسها يهود الغرب (الاشكناز) وهى خاصة بهم وبأبنائهم، أما بالنسبة ليهود الشرق فالوضع يختلف، ويتضح هذا جليا فى الأدب، فقد تناول عديد من الأدباء «الكيبوتس» فى أدبهم وأشادوا به ومجدوه ومنهم «يهودا بورلا» لكنه يعترف بالغبن الذى لاقاه يهود الشرق فيه حيث يقول.

«انضمت جماعة من يهود الشرق تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة إلى الكيبوتس، وقد سببوا الضيق لكل من فيه، حيث أقلقوا قادتهم وأظهروا لهم العناد»[٩].

وعندما طلب منهم القيام ببعض الأعمال الوضيعة مثل تنظيف المراحيض، رفضوا، واحتار القادة لأنهم لا يفهمون العبرية جيدا ومن الواجب التحدث إليهم بلغتهم العربية، فكلفوا «تمارا» للقيام بهذه المهمة.

وعندما سألتهم عن سبب شكواهم فأجابوا:

«إننا نعمل نصف اليوم بلا توقف كالخدم، ولم نحضر إلى هنا كى نكون عبيدا.. ولن نقبل الأعمال الوضيعة ولن نتحمل تنظيف المراحيض ولم نسمع أبدا أن أبناء المحترمين يقومون بهذه الأعمال، بالإضافة إلى أننا جياع»[١٠].

«لا نحب أكلهم ولا نستطيع بلعه كما أننا رفضنا الكيبوتس ونريد المدينة، وقد خدعونا، وقالوا إننا سنعيش فى إسرائيل فى مدن جميلة وسننعم بالحرية والهناء، وهنا فى الكيبوتس لا حرية ولا هناء ولاشئ إطلاقا»[١١].

---

(٩) يهودا بورلا: البرعم الأول، «سنونيت ريشوناه» ص ٢٠٥.

(١٠) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(١١) المصدر السابق ص ٢٠٧.

من منظمات الإرهاب الصهيونى فى إسرائيل

للأستاذ/ صلاح عبد الرحيم محمد

إن تاريخ إسرائيل ـ منذ تأسيس كيانها الصهيونى بقرار التقسيم رقم ١٨١ فى ١٩٤٧/١١/٢٩، وإعلان قيامها فى ١٩٤٨/٥/١٤، وحتى قبل ذلك ـ ما هو إلا سلسلة من الاغتيالات والمؤامرات، والقتل والطرد والتشريد لعرب فلسطين. ومازالت مذابح دير ياسين، وكفر قاسم، وقانا، وصبرا وشاتيلا، وضرب انتفاضتى ١٩٨٧ و٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ ماثلة فى الأذهان تجلل تاريخ إسرائيل الإرهابى بالعار، وتصمه بالعدوان وانتهاك الحرمات والاستهانة بالمقدسات وسلب حقوق أصحاب الأرض؛ العرب إننا الآن أمام كيان سياسى عدوانى قائم على اغتصاب حقوق الغير يفرض وجوده بالقوة المسلحة الغاشمة بعد أن سرق أمة فلسطينية بمؤامرة صهيونية، ومساندة دولية، مما يؤكد أن إسرائيل كيان استيطانى إحلالى استعمارى تقوده جماعة من العسكر.

فإسرائيل، والحال كذلك، دولة قائمة على الإرهاب، ولولاه ما قامت لها قائمة، فهى تضم مهاجرين يهود من قوميات عديدة، أصولهم الحضارية متباينة ليس هناك ما يوحدهم إلا زرع الإحساس بخطر العرب الفلسطينيين عليهم وهى مهمة تصدى للقيام بها، ومارسها باقتدار قادة إسرائيل من بن جوريون إلى شارون كبير الإرهابيين المعاصرين مما خلق شعورا بالكراهية وروحا من العداء الشديد فى نفوس المجتمع اليهودى بمختلف فئاته، واتجاهاته تجاه العرب بعامة، والفلسطينيين بخاصة وتبعا لهذا كله صار ممارسة العنف والإرهاب اليهودى سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى أمرا اعتياديا وأمرا طبيعيا الأمر الذى مهد السبيل لقيام العديد من المنظمات الإرهابية المعادية لكل

ما هو عربى وفلسطينى وإسلامى داخل دولة الكيان الصهيونى. وسأستعرض فيما يلى أهم المنظمات الإرهابية الصهيونية لبيان أهدافها ومراميها وكيف ساندتها دولة إسرائيل لنشر الفزع والترويع فى نفوس الشعب الفلسطينى حتى يخضع ويستسلم لواقع الاحتلال الإسرائيلى:

حركة كاخ: وهى حركة يمينية متطرفة، أسسها الحاخام اليهودى الامريكى «مائير كاهانا» عام ١٩٧٢ المعروف بتمسكه بتعاليم التلمود التى تنادى بطرد العرب الفلسطينيين من فلسطين لتظل خالصة لليهود فقط لا يشاركهم أحد من الأغيار. وتعتبر هذه الحركة امتدادا لمنظمة الدفاع اليهودى التى أرسى أساسها الحاخام «مائير كاهانا» عام ١٩٦٥.. ويرى «كاهانا» أن جبل الشيخ فى سوريا، وقناة السويس، والأردن هى الحدود الآمنة لإسرائيل، وبدونها لا يمكن استيعاب المهاجرين اليهود الجدد. ويتمحور برنامج هذه الحركة حول ضرورة نشر الرعب وبث الفزع بين عرب فلسطين لإجبارهم على ترك فلسطين، وتفريغها منهم لإقامة المزيد من المستعمرات اليهودية عليها[1] ويأتى على رأس أهداف هذه الحركة الإرهابية الاستيلاء على المسجد الأقصى، والتخطيط لتفجير مسجد قبة الصخرة وبث الفزع والهلع فى قلوب المصلين فى هذين المسجدين.

ففى الحادى عشر من إبريل عام ١٩٨٢ قام «ألان جودمان» اليهودى الأمريكى وعضو حركة كاخ باطلاق النار - من بندقيته الآلية - على المصلين بالمسجد الأقصى فقتل اثنين وجرح العديد منهم وعندما عرض الحادث على مجلس الأمن الدولى فى ٢٠/٤/١٩٨٢ استخدمت الولايات المتحدة حق النقض «الفيتو» كعادتها فى مثل هذه الأحداث ضد المشروع الذى قدمته لجنة القدس مع دول أخرى لمنع إدانة إسرائيل عن أعمالها الإرهابية فى حق الشعب الفلسطينى. ولا ينسى العرب يوم ٢٧/٤/١٩٨٢ محاولة جماعة من حركة كاخ بزعامة «كاهانا» اقتحام المسجد الاقصى وهم يحملون لافتات تنادى بطرد العرب من فلسطين، كما حملوا أيضا صورة كبيرة يبدو فيها الحرم القدسى الشريف خاليا من المسجد الأقصى ومسجد الصخرة وحل محلهما الهيكل اليهودى الذى يخططون لإقامته مما يؤكد أطماع اليهود فى إزالة المقدسات الإسلامية وعلى رأسها المسجد الاقصى المبارك ومازالت الذاكرة العربية والإسلامية تعى الجريمة الشنعاء التى ارتكبتها حركة كاخ داخل الحرم الإبراهيمى بمدينة الخليل فى ٢٥/٤/١٩٩٤ عندما قام «جولد شتاين» ضابط الاحتياط اليهودى فى الجيش الإسرائيلى بإطلاق الرصاص على المصلين وهم فى صلاة الفجر فقتل منهم ما يقرب من

(١) أيمن حمودة، أهم المنظمات الإرهابية داخل الكيان الصهيونى، مجلة المنار الإسلامى، عدد صفر ١٤٢٢ هـ/مايو ٢٠٠١.

خمسين مصليا وجرح ما لا يقل عن مائتى مصل[٢].

ولقد لقى هذا العمل الإجرامى قبولا شعبيا بين اليهود، وحتى الأطفال منهم، إذ علقوا على صدورهم عبارة تقول: «لقد شفى جولدشتاين علل إسرائيل[٣] مما يكشف العداء اليهودى لكل ما هو عربى وإسلامى. وقد أدى التنافس الشديد على زعامة هذه الحركة الإرهابية إلى انشقاق العديد من أعضائها مكونين تنظيمين آخرين لحركة كاخ هما: لجنة الأمن فى الشوارع، وشرطة يهودا[٤].

جماعة جوش إيمونيم: وهى تعنى كتلة الإيمان، وهى جماعة تطلق على نفسها «حركة التجديد الصهيونى» أسسها «موشى ليفنجر» فى مايو ١٩٧٤.

وهى حركة تسعى للاستيطان فى الضفة الغربية وغزة وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى. ومن مبادىء هذه الجماعة أنه لا تنازل، ولا انسحاب من الأراضى العربية المحتلة وهذه الجماعة تؤمن بأرض إسرائيل الكاملة، ومعظم أعضائها من شباب المدارس الدينية التابعة للحزب الدينى القومى «المفدال» الذى يمثل الصهيونية الدينية.. وقد تعهد الإرهابى شارون ـ رئيس الوزراء الحالى ـ بتنفيذ سياسة «جوش إيمونيم» فى غضون النصف الثانى من فترة حكومة «بيجين» اليمينية عام ١٩٧٧ وقد نالت هذه الحركة الإرهابية دعم الحكم العسكرى الإسرائيلى ومساندته خاصة من رئيس الأركان الإسرائيلى «رفائيل إيتان» أثناء هذه الفترة. وشعار «جوش ايمونيم» هو تكثيف الاستيطان فى كل أنحاء إسرائيل، وطرد العرب من فلسطين بالقوة والعنف. وتحظى هذه الجماعة بدعم مختلف التيارات الحزبية فى إسرائيل، مما أكسبها تأييدا شعبيا جارفا. يقول «دانى روبنشتاين» مؤلف كتاب «حركة جوش إيونيم الوجه الحقيقى للصهيونية»: «لا تعتقد أن حركة جوش إيمونيم كانت تستطيع تكوين نفسها، والعمل وفق أسلوبها بدون التعاون العلنى والخفى من الحكومات الإسرائيلية فى الماضى والحاضر، خاصة من قبل حكومة الليكود اليمينية وتعتبر الأداة الطيعة لسياسة «بيجين ـ شارون» فى المناطق المحتلة فهما اللذان قدما التمويل والإمكانات ومنحا الصفة الشرعية لهذه الحركة الدينية المسماة «جوش إيمونيم»[٥] وقد أعلن أحد قادة «جوش

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) دكتور/ عبدالرحيم أحمد حسين، ظاهرة الإرهاب فى تعاليم التلمود، مجلة الوعى الإسلامي، العدد ٤١٠ شوال ١٤٢٠ هـ.

(٤) أهم المنظمات الإرهابية داخل الكيان الصهيونى، مرجع سابق

(٥) عبدالعزيز مصطفى، قبل أن يهدم الأقصى، ص ٢٠٦.

إيمونيم» وهو «إسرائيل أرييل» «أن الأرض لن تفتح بالسلام ولكن بسفك الدم»[٦] ولعل أقدم المصادر الثقافية التى تغذى هذه النزعة الدموية تتجسد فى التوراة المحرفة والتلمود فهما المصدران العقيديان لليهود التى تعلى من شأن الشعب الإسرائيلى كشعب اختاره الله لقيادة العالم[٧].

واستنادا إلى فهم اليهود للتلمود فقد صرح أحد أعضاء جماعة «جوش إيمونيم» وهو «شلومو أفنيرى» قائلا: «إن الشريعة اليهودية تقر إعدام العرب الذين يلقون الحجارة على اليهود ولو كانوا أطفالا . فإعفاء الأطفال من العقوبة تحت سن ١٣ للذكور، وتحت سن ١٢ للإناث لليهود فقط.[٨] وهذا يفسر إقدام جنود الجيش الإسرائيلى على قتل الطفل الفلسطينى «محمد الدرة» وهو فى أحضان أبيه بالرصاص الحى على الرغم من أنه لم يكن يحمل حجارة فى يده.

ويؤكد ذلك السلوك الإرهابى اليهودى ما صرح به «أفنيري» فى قوله: «إن من حق مجلس الحاخامات اليهودى قتل أى إنسان غير يهودى إذا ما كان ذلك القتل فى مصلحة العالم اليهودي»[٩] وتستقى جماعة جوش إيمونيم فكرها المتطرف، وسلوكها الإرهابى من تعاليم التلمود خاصة النص التلمودى القائل: إنه «إذا ضرب أممى «غير يهودى» إسرائيليا فإنه يستحق الموت»[١٠] وهذا ما نشاهده على شاشات التليفزيون، أثناء انتفاضة الأقصى من قيام الجيش الإسرائيلى بإطلاق الرصاص على البراعم الفلسطينية التى تقاوم الاحتلال الإسرائيلى بالحجارة وقد عارضت حركة جوش إيمونيم مفاوضات فصل القوات فى سيناء عام ١٩٧٣ / ١٩٧٤ واستنكرت ما جاء باتفاقية «كامب ديفيد» الأولى بدعوى أنها لا تحقق السلام الذى تطالب به هذه الحركة والذى لا يعترف إلا بالسيادة الإسرائيلية على أرض إسرائيل، كما رفضت أيضا اتفاق أوسلو ١٩٩٣[١١] وهذه الجماعة المتطرفة لا تتورع عن إخفاء أطماعها فى المسجد الأقصى فقد احتشد حوالى ثلاثمائة يهودى من هذه الجماعة فى أغسطس ١٩٨١ وكسروا أحد أبواب المسجد الأقصى وهو «الباب الجديد» واقتحموا ساحته وقاموا بالصلاة مستفزين بذلك مشاعر

---

(٦) ظاهرة الإرهاب فى تعاليم التلمود، مرجع سابق.

(٧) هيثم الكيلانى، مقدمة فى الإرهاب الإسرائيلى، مجلة الحرس الوطنى السعودية، العدد ٢١٩، جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ.

(٨) ظاهرة الإرهاب فى تعاليم التلمود، مرجع سابق.

(٩) نفس المرجع السابق.

(١٠) محمد على البار، الرئيس موسى بن ميمون وتعاليم التلمود، مجلة المنهل العدد ٥٦١، رجب ١٤٢٠ هـ.

(١١) أهم المنظمات الإرهابية داخل الكيان الصهيونى، مرجع سابق.

المسلمين(١٢) وتدعو هذه الحركة الإرهابية إلى تهويد فلسطين وتفريغها من أصحابها العرب، وتكثيف الاستيطان اليهودى، وتشجيع الهجرة اليهودية، وإقامة هيكل سليمان المزعوم وبسط السيادة اليهودية على الحرم القدسى الشريف. وهذه الجماعة أكثر تطرفا وعدوانية من حركة كاخ وسائر المنظمات الإرهابية التى نتناولها فى الصفحات التالية.

حركة أمنا: ومعناها الأمانة أو الميثاق. وهى تنظيم استيطانى يضم جماعة من الشباب المتطرف دينيا «المتدينين الأصوليين» ذوى القبعات السوداء واللحى الطويلة من خريجى المدارس الدينية. ويؤمن أعضاء هذه الحركة الدينية المتشددة بعودة المسيح اليهودى الذى سيقيم لهم دولة تتمسك بتعاليم التوراة وتقوم بتطبيق الشريعة اليهودية على جميع يهود إسرائيل، وتنادى هذه الحركة بمناهضة الاتجاهات العلمانية ورفض أى تعاليم تتعارض مع تعاليم التوراة. وترفض أيضا الصهيونية ولا تعترف بدولة إسرائيل الحالية لأنها من صنع البشر وهى فى الوقت نفسه تعارض الانسحاب من كافة المناطق الفلسطينية المحتلة، وتدعو إلى تكثيف الاستيطان اليهودى فيها. وتختلف هذه الحركة الدينية عن كل المنظمات والحركات الإرهابية الأخرى فى إسرائيل فيما يختص برفضها للصهيونية وعدم شرعية قيام دولة إسرائيل، لأنها صنيعة الإنسان، إذ أن إسرائيل الشرعية هى التى تقوم بمشيئة إلهية على يد المسيح اليهودى المخلص وفقا لمنظور هذه الحركة الحديدية المتطرفة.

تنظيم سرى فى صفوف الجيش الإسرائيلى:- هذا التنظيم السرى اكتشف أمره عام ١٩٨٤ قبل قيام جماعة عسكرية من سلاح الجو الإسرائيلى بمحاولة قصف المسجد الأقصى بالقنابل من الجو لتدميره. وقد تبين بعد ذلك أن أعضاء التنظيم السرى ليسوا جميعا من الجماعات الدينية وكان أغلبهم من العسكريين فى الجيش الإسرائيلى(١٣) ولتمجيد العنف والإرهاب والحرب يقول «موشى ديان» وزير الحرب الأسبق «إن إسرائيل تعتمد على السيف، وهذا قدر جيلنا أن نكون مستعدين ومسلحين وغلظاء، وإلا سوف يسقط السيف من قبضتنا وحينئذ تنتزع حياتنا (١٤) وهناك أيضا العديد من الحركات السرية الأخرى التى لها نفس الأهداف نذكر منها حركة «حيرب ديفيد» أى سيف داود، وحركة «سيف جدعون»، وحركة «جال» وحركة «موكيد ياهاف»،

---

(١٢) عبدالعزيز مصطفى، قبل أن يهدم الأقصى ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(١٣) نزار حميد، المنظمات والجماعات اليهودية المعنية بهدم الأقصى، مجلة معلومات دولية، سوريا، العدد ٦٥.

(١٤) حمد سعيد/ الموعد، الصهيونية واستغلال الدم اليهودى، مجلة معلومات دولية، سوريا، العدد ٦٦.

وحركة «تسفيا» ومنظمة إيال «التنظيم اليهودى المقاتل»، ومنظمة «دوف» أى منظمة قمع الخونة[١٥] ويرى بعض الباحثين أن فكر، وسلوك هذه المنظمات الإرهابية فى إسرائيل يُعزى إلى العديد من الأسس التى تقوم عليها العقيدة الصهيونية نذكر منها استباحة الحقوق الطبيعية للعرب، ومنها حق الحياة حتى تصبح إبادة الجنس العربى عملا مطلوبا ومشروعا، وتسويغ اللجوء إلى أى وسيلة مهما كانت صفتها الإجرامية لتحقيق الأهداف الصهيونية، واعتماد قانون أعلى هو «الحق الصهيونى المطلق» فلا يعلو عليه أى حق أو مفهوم آخر، والإيمان بالقوة، وتنشئة الأجيال المتعاقبة من اليهود عليها حتى تصبح قوام ثقافتهم وتكوينهم النفسى، ويؤكد الزعيم الصهيونى «**ديفيد** بن جوريون» على ذلك قائلا: «القوة إذا لم تستعمل تصبح خطرا على صاحبها وعلى المجتمع»[١٦] كما أن هناك العديد من الأساطير والخرافات التى تقرر مصير إسرائيل وتدعوها إلى العنف والإرهاب والخوف من الآخر وتجعل اليهود فى حالة استنفار كامل وتحفز للعدوان والعنف منها: اللاسامية أو أبدية العداء لدى شعوب العالم وكراهيتهم لليهود كيهود، وتفوق اليهود على بقية شعوب العالم، والمصير المشترك لليهود[١٧] وكلها أساطير لا توجد إلا فى خيالهم المريض. ولا يفوتنى أن أنوه فى هذا الصدد إلى ما سبق أن أشرت إليه سلفاً من قيام إسرائيل بوضع برنامج تربوى بهدف غرس الفكر الإرهابى وتنميته فى نفوس الشباب الإسرائيلى من خلال التخطيط التربوى لمحتوى المناهج الدراسية لبعض المواد مثل اللغة العبرية، الدين اليهودي، التاريخ اليهودى، والأدب العبرى مما ساعد على ولادة هذه النزعة العدوانية والخوف من الغير، وجعل الإسرائيلى فى حالة تحفز واستنفار دائم ضد كل ما هوغير يهودى.

ويمكن القول بأن الإرهاب الذى تمارسه إسرائيل ـ من خلال هذه المنظمات الإرهابية التى بينت أهدافها ومراميها من تهويد لفلسطين العربية، وتكثيف للاستيطان، وتكريس للاحتلال الإسرائيلى فى الأرض العربية المحتلة، وسعى مخطط لبناء الهيكل اليهودى، مكان المسجد الأقصى ـ ليس وليد اليوم إنما يضرب بجذوره فى أعماق الفكر الصهيونى، وفى تطبيقات وممارسات إسرائيل العدوانية كما هو مشاهد فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس، وسائر الأراضى العربية المحتلة، مما يعزز، بيقين مطمئن، إرهابية الكيان الصهيونى، فى فلسطين العربية، ونازيته.

---

(١٥) المنظمات والجماعات اليهودية المعنية بهدم الأقصى، مرجع سابق.

(١٦) مقدمة فى الإرهاب الإسرائيلى، مرجع سابق.

(١٧) الصهيونية واستغلال الدم اليهودى، مرجع سابق.

طرائف.. ومواقف

إعداد الأستاذ/ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

إشــــراقات روحيــــة
لابن عطاء الله السكندرى يتحدث عن ربه

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، وهو الذى أظهر كل شئ.

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، وهو الذى ظَهَر بكل شئ.

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، وهو الذى ظهر فى كل شئ.

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، وهو الظاهر قبل وجود كل شئ.

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، وهو الواحد الذى ليس معه شئ.

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، وهو أقرب إليك من كل شئ.

● كيف يتصور أن يحجبه شئ، ولولاه ما كان وجود شئ.

أخـــى..

إذا جهلت فاسأل، وإذا أسأت فاندم، وإذا ندمت فأقلع، وإذا أفضلت على أحمد فاكتم، وإذا منعت فأجمل.

القلـــوب الكبيـــرة

كان كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى ممن هجا النبى ﷺ، فأهدر دمه، فلما بلغه ذلك خشى عاقبة أمره بعد فتح مكة، ونصحه بعض أصحابه بأن يستسلم لرسول الله فإنه لا يحمل ضغنا لأحد، قائلا: إن هذا أنجى من كل وسيلة. فقصد إليه فى المسجد واندفع ينشده لاميته المشهورة حتى بلغ إلى قوله:

نبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

فألقى رسول الله ﷺ بردته عليه.

المنافـــق العليـــم

عن أبى عثمان النهدى، قال: سمعت عمر ابن الخطاب يقول على المنبر: «إياكم والمنافق العليم» قالوا: وكيف يكون المنافق عليما؟!! قال: «يتكلم بالحق ويعمل بالمنكر».

حقــــا

قال الأصمعي: قلت لأعرابى معه شاة، لمن هذه الشاة؟!

فقال: هى لله عندى.

أبو تمــــام.. والكنــــدى

امتدح أبوتمام الخليفة العباسى أحمد بن المعتصم بقصيدة، فلما بلغ إلى قوله:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم
فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الكندى بجرأة وثبات: الأمير فوق من وصفت، فأطرق أبوتمام مليا ثم قال:

لا تنكروا ضربى له من دونه
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا شرودا فى الندى والباس
مثلا من المشكاة والنبراس

فسكت الكندى، وأعجبت الفئة الحاضرة لفطنة أبى تمام وأصالة رأيه، وجودة فكره، وسرعة خاطره.

لم تخطىء.. فراسته

قال عمرو بن نُجيد: كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطئ ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بالمراقبة، وظاهره باتباع السنة، وتعود أكل الحلال، لم تخطىء فراسته.

لكــم أقــول

يا معشر الأغنياء لكم أقول: استكثروا من الحسنات فإن ذنوبكم كثيرة.

ويا معشر الفقراء لكم أقول:

أقلوا من الذنوب فإن حسناتكم قليلة.

هــى أكثــر مــن أن تحصــى

اجتمع قس بن ساعدة وأكتم بن صيفى فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟

قال: هى أكثر من أن تحصى، وقد وجدت خصلة إذا استعملها الإنسان سترت عيوبه.

قال: وماهى؟ قال: حفظ اللسان.

دعــــاء

اللهم إنى أسألك بك، ولا أسألك بأحد غيرك أن توفقنى لصالح الأعمال وتطلق لسانى عند السؤال، وتثبت قلبى على دينك يوم الرجف والزلزال ياذا العزة والجلال.

تهنئة ودعاء

أصدر فضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية قراراً يقضى بأن يُسند إلى الشيخ:

الطاهر محمد الطاهر الحامدى

مدير عام مجلة الأزهر القيام بعمل وظيفة «مدير عام البحوث والتأليف والترجمة»، إضافة إلى عمله الأصلى بصفة مؤقتة وذلك لحين شغلها بصفة أصلية بمن تتوافر فيه شروطها وفق أحكام قانون الوظائف القيادية رقم (٥) لسنة ١٩٩١م ولائحته التنفيذية.

ويسر «مجلة الأزهر» أن تهنىء الشيخ الجليل الطاهر محمد الطاهرى الحامدى باختياره «مديراً عاماً للإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة»، راجية له ما تعهده فيه من اليقظة والإخلاص والعمل الدائب مع ارتقاب عودته وتفرغه للمجلة ليأخذ مكانه العزيز.

[أسرة تحرير مجلة الأزهر]

خطبة الجمعة :

نزهوا الإسلام عن صغائركم (١)

لفضيلة الأستاذ الدكتور / أحمد الشرباصى

الحمد لله يا عزيزا يريد لعباده العزة بلا طغيان، وقديرا يريد لأهله دينه اقتدرا لا يبغون به على إنسان

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢)

نشهد أن لا إله إلا أنت، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبدك ورسولك، كان سيد قومه بلا استبداد، ورأس جماعته بلا فخر أو اعتداد، فصلواتك اللهم وسلامك عليه، وعلى آله وحزبه، وجماعته وصحبه، الذين لانوا فى غير ضعف، واشتدوا فى غير عسف، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

يا أتباع محمد ﷺ . . .

كـان المسلمون فى أيام العزة والسيـادة، لا يشـغلون أنفسـهم إلا بما يتناسب مع عـالى هممهم، وكبير عزائمهم، فهم يفتحون عقول الناس بالحكمة والنور، ويقتحمون أرجاء العالم بالهداية والتبشير، ويحررون العبيد من أغلال الإهانة والتحقير، ويبطشون صادقين بالجبارين، فإما هداية من غواية، وإما تطهير للدنيا ممن يريدون أن يكونوا فى الأرض آلهة من دون الله يعبدون، ولكن الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين فى عصور الضعة والضعف والهوان، لا يفكرون فى شيء من هذا النضال، ولا يهـمون بقليل أو كثير من جليل الأعمال، بل حسبهم أن يتكلوا على ميراث الأجداد، وأن يتباهوا بكثرة الأعداد،

(١) القيت يوم الجمعة ٨ من ذى الحجة ١٣٦٨هـ ـ الموافق ٣٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٩م.

(٢) الشورى (٤٠).

وأن يطليوا الجدال بألسنة حداد، وحسبهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها من البكاء والأنين، والنشيج الحزين، كلما ضاعت من الوطن الإسلامى رقعة، أو هتكت للدين المحمدى حرمة، أو عطلت من شريعة السماء فريضة.

وتراهم يقبلون على تفاهات وصغائر يحسبونها من الدين، والدين عنها بعيد، ويظنونها من الخير للإسلام وهى لو علموا طعنات توجه إليه منهم وهم لا يشعرون.

إن الإسلام قد جاء ليحقق فى المرء معنى إنسانيته الكاملة، التى تتعالى عن شهوات الأجساد ونزوات النفوس، وضلالات العصبية وترهات العقول، ولقد روى عن جابر بن عبدالله قال: مرت جنازة فقام لها رسول الله ﷺ وقمنا معه، فقلنا يا رسول الله، إنها يهودية، فقال: «إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا» أى إن الموت له رهبته وزلزلته التى تخشع لها القلوب، وتعتبر لديها الألباب، فيجب أن يقوم المرء له مدكرا موقرا، دون التفات إلى شخص من مات. وفى رواية أخرى أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد، كانا قاعدين بالقادسية، فمرت بهم جنازة فقاما لها، فقيل لهما: إنما هو من أهل الذمة «أى ليس مسلما» فقالا: إن رسول الله ﷺ مروا عليه بجنازة فقام لها، فقيل له: إنه يهودى فقال: «أليست نفسا؟!» .. نعم يا سيدى يا رسول الله، إنها نفس لها حرمتها الإنسانية، وإن الموت له جلاله وعظته، فإذا مر علينا مثل هذا الحادث، دون أن نتعظ به أو نلتفت إليه فكيف نكون من الناس، أو ندعى أننا من أصحاب القلوب.

والنصوص الدينية والوقائع التاريخية الإسلامية، التى تدلنا على سماحة الإسلام، وعدالته مع غير المسلمين، كثيرة مشهورة، قد صافحت الأسماع وطالعت العيون مرات ومرات، وها هو ذا نبى الملة وإمام الأمة محمد ﷺ، وهو المثل الأعلى فى التمسك بالدين، والحرص على رضاء رب العالمين، كان نبيلا كريما، يعاشر جيرانه من اليهود والنصارى معاشرة كلها سماحة ورجاحة فهو يعينهم وينصحهم، ويعودهم ويزورهم، ويحدثهم ويسمع منهم، ويهدى إليهم من طعامه ومتاعه، وما فكر صلوات الله عليه وسلامه يوما أن يتخذ من اختلاف العقيدة أو تغاير الدين، سببا للتطاول السفيه، أو الاعتداء الظالم، بل لقد كان منه ما هو أسمى من ذلك وأكرم.

قدمت إليه يهودية شاة مسمومة تريد بذلك قتله، ثم أعلمه الله بأمرها، واعترفت المرأة بفظيع جرمها، ومع ذلك عفا عنها مع أنها يهودية مجرمة، لأنه يريد أن يوضح للعالمين كيف بعثه ربه متمما لمكارم الأخلاق، وكثرت جراحه ﷺ فى غزوة أحد جرحه المشركون الذين لا يدينون إلا بالأصنام وشق ذلك على أصحابه فقالوا له: لو دعوت عليهم؟. فقال: «إنى لم أبعث لعانا، ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون».

فانظر كيف ترفع صلوات الله عليه عن طلب العقاب والنقمة لهم، فضلا عن الاعتداء عليهم، أو الإساءة لهم، مع أنهم هم البادئون!

قد يضل ضال فى التفكير فيقول: إن هذا التصرف من باب الغيرة على الملة، والغضب من

مخالفيها والخارجين عليها، فنقول: بئست الغيرة، إنها لغيرة مجنونة حمقاء عمياء. لا تحسن تصرفا، ولا تعرف كيف تدعو إلى دينها، لأن الغيور على الدين يفعل ما ينفعه ويرفعه، لا ما يشينه ويضعه، ومثل هذه الحماقات الصغيرة، التى يرتكبها أولئك الأغرار باسم الإسلام، وهم يعدون من المسلمين، تصور الإسلام للجاهلين به دينا همجيا وحشيا، لا يحترم حقوق الناس، ولا يرعى حرمة حرياتهم، مع أنه الدين الذى يوصى بالإحسان إلى أهل الأديان كلها، وأن نعامل المخالفين لنا فى الدين، من مواطنين وذميين، معاملة المساواة والقسطاس، لهم مالنا وعليهم ما علينا، وإن المسلم الصحيح ليستطيع أن يكون أفضل داعية إلى دينه بمعاملاته الشريفة، وأخلاقه الجميلة وآدابه العالية، وحسن سلوكه مع جيرانه ومعاشرته، لأن المسلم إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف، وأقرب الناس من رسول الله فى الجنة يوم القيامة أحاسن الناس أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون!..

ليت الذين يدعون بأن الغيرة تأكل قلوبهم على الدين، فتضلهم عن الصراط المستقيم، ليت هؤلاء يوجهون طاقة جهودهم وجهادهم إلى ما يستحق المجاهدة والكفاح، من كبائر الإثم وعظائم السيئات.. ليتهم يؤدبون الذين يحاربون الله جهارا نهارا، ويناهضون شريعته، ويعطلون تعاليم كتابه، ثم يقولون: بلا خجل نحن من المسلمين!.. ليتهم يؤدبون أولئك الذين سادوا فى غفلة الزمن، فاتخذوا من الناس عبيدا ومطايا، يركبونها ويسيمونها الخسف والهوان، ثم لا يتفضلون عليها بالقوت! ليتهم يؤدبون الذين يمتصون دماءهم وأموالهم، ثم ينفقونها جهارا نهارا على أجسام البغايا، وموائد الخمور، وحلقات القمار!.. ليتهم يؤدبون أولئك الذين يظنون أن الأرض قد ألقيت عليهم من السماء، مختومة بأسمائهم وألقابهم، فذهبوا يتحكمون وينكلون، ويشردون ويتعسفون ويعطون ويمنعون، ويرتكبون كبريات المخازى والمآسي، لا فى سبيل غرض شريف أو قصد نبيل، بل فى سبيل المطامع والشهوات، والأهواء الضالة ضلال الشيطان اللعين!..

يا أتباع محمد ﷺ..

هناك نوع من البطولات يسمى البطولات الرخيصة وهو أن يعجز الإنسان عن بلوغ غاية أو وصول نهاية أو التغلب على مشكلة فيحاول أن يستر ضعفه ويرضى مركب النقص فيه بالتردى فى أعمال صغيرة حقيرة، لا تقدم ولا تؤخر، ثم يفتح فمه كالبركان قاذفا منه عريض الادعاءات وطويل الافتخارات فحاشا كم أن تكونوا من هؤلاء فإنما أعددتم لعمل موصول وسعى مقبول فترفعوا بأنفسكم عن سفاسف الأمور وعلقوا همتكم بعظائم الأعمال، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون!..

قال ﷺ: ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذئ وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن!».

فضل قراءة القرآن الكريم وتعلمه وتعليمه

لفضيلة الشيخ / فوزى الزفزاف

القرآن الكريم كتاب الله المكنون لا يمسه إلا المطهرون، أنزله الله على رسوله الصادق الأمين محمد بن عبدالله ﷺ ليكون معجزته الكبرى على صدق رسالته، وشرف الله شهر رمضان على سائر شهور السنة بنزول القرآن الكريم فيه

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾(١)

وسمى الليلة التى نزل فيها ليلة القدر، وأعطاها الله -جل شأنه- منحة خاصة لأمة محمد ﷺ بأن جعل العبادة فيها خيراً من ألف شهر.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾(٢).

ولقد وقف العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة - عند نزول القرآن الكريم وسماعه مذهولين مبهورين مشدودين عاجزين عند التحدى عن الإتيان بمثله.

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٣)

(١) البقرة (١٨٥).
(٢) سورة القدر.
(٣) الإسراء (٨٨).

أو الإتيان بمثل عشر سور فقط

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤).

أو الإتيان بمثل سورة واحدة فقط وهذا منتهى التحدى.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٥).

ويصف الرسول ﷺ القرآن فيقول سيدنا على ابن أبى طالب – رضى الله عنه –: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق «يبلى» على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين والذكر الحكيم، والصراط المستقيم»(٦).

والقرآن الكريم هو الكتاب السماوى الذى ضمن الله حفظه من الضياع والتحريف

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٧).

ولقد أنعم الله على الأمة المحمدية فأجزل لها العطاء والأجر والثواب والحسنات بفضل القرآن الكريم، فجعل تلاوته تعبدا، وفاض بالحسنات على من يقرأه، فعن عبدالله بن مسعود – رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٨).

ويرغب النبى ﷺ المسلمين فى تلاوة القرآن الكريم، وتدبر معانيه، ودراساته وتعلمه وتعليمه، فعن أبى هريرة– رضى الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٩).

وقراءة القرآن الكريم نور للمسلم فى دنياه، يرشده إلى الخير، ويهديه إلى الصواب، ويبعده عن الشر، ويجنبه الزلل، ويحميه من الوقوع فى الخطأ، ويصرف عنه الشيطان، ويلبسه ثوب السكينة والاطمئنان، والهدوء وراحة البال، أما فى أخراه فهى رصيد ضخم من الحسنات، وكنوز مليئة بالخيرات من ثواب الله، تفتح له أبواب رضا الله، وتقوده إلى الجنة، وتصعد به إلى أعلى درجات الجنان فعن أبى ذر – رضى الله عنه – قال: قلت يا رسول الله: أوصنى؟ قال: «عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله، قلت: يا رسول الله زدنى. قال: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض، وذخر لك فى السماء»(١٠).

---

(٤) هود (١٣).
(٥) يونس (٣٨).
(٦) الدر المنثور ١ / ١٥ وكنز العمال ٨٨٧.
(٧) الحجر (٩).
(٨) اتحاف السادة المتقين ٤٦٦/٤ والقرطبى ١/ ٧، ٣٢٠/١٠.
(٩) رواه مسلم فى الذكر والدعاء. ب ١١ رقم ٣٨، والبيهقى ٢٢٥.
(١٠) الترغيب والترهيب ٣٤٩/٢.

وفضل قراءة القرآن عامة تشمل من يقرأه ومن يستمع إليه، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»(١١).

ويتفاوت العباد فى مردود حسنات قراءة القرآن الكريم بالنسبة لهم، وفى تأثير القراءة بالنسبة لغيرهم، فمنهم من له النصيب الأوفر من الحسنات والتأثير وهو المؤمن القارىء، ومنهم من لا نصيب له مطلقاً وهو المنافق الحقيقى، ومنهم من له تأثير ظاهر دون الباطن وهو المرائى، ومنهم من له تأثير باطن دون الظاهر وهو المؤمن الذى لا يقرأ القرآن الكريم، يوضح ذلك الحديث الشريف الذى يرويه أنس – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة وطعمها طيب ولا ريح لها ومثل الفاجر «وفى رواية المنافق» الذى يقرأ القرآن، كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها، ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه»(١٢).

ويراعى عند قراءة القرآن الكريم أمور كثيرة يغفل عنها كثير من الناس منها: صحة التلاوة، وتدبر معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، والتخلق بأخلاقه.. فعندما سئلت السيدة عائشة –رضى الله عنها– عن خلق الرسول ﷺ أجابت: كان خلقه القرآن.. فعار على قارىء القرآن الكريم أن يكون بوقاً مزماراً لا يعى ما يقول.. ولا يعمل بما ينطق.

قال رجل لإبراهيم النخعى: إنى أختم القرآن كل ثلاث. قال: ليتك تختمه كل ثلاثين وتدرى أى شىء تقرأ!

وقالت السيدة عائشة– رضى الله عنها –: كانت تنزل علينا الآية فى عهد رسول الله ﷺ فنحفظ حلالها وحرامها وأمرها وزجرها، قبل أن نحفظها.

وقال ﷺ: «سيكون فى أمتى قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، هم شر الخلق والخليقة»(١٣).

وقال الحسن: حملة القرآن ثلاثة نفر: رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس، ورجل حفظ حروفه وضيع حدوده، واستدر به الولاة، واستطال به على أهل بلده. وقد كثر هذا الضرب فى حملة القرآن لا كثرهم الله – عز وجل– ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه، فسهر ليلته،

---

(١١) مجمع الزوائد ١٦٢/٧ . وابن كثير/ ٥٤٣.

(١٢) سنن أبى داود حـ٥/١٦٦ رقم ٤٨٢٩.

(١٣) رواه مسلم فى كتاب الزكاة.

وهملت عيناه، تسربل الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن، ووالله لهذا الضرب من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر، بهم يسقى الله الغيث وينزل النصر، ويدفع البلاء.

والقرآن الكريم كتاب الله

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾(١٤)، وكله يتعبد بتلاوته، وكل حرف من كل آية فيه يثاب المسلم بحسنات عند قراءته. غير أنه وردت بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ تعظم سورا من القرآن الكريم وتعظم بعض آياته، وترغب فى الإكثار من قراءتها مثل: سورة الفاتحة، وسورة البقرة، وآية الكرسى، وسورة آل عمران، وسورة الكهف، وسورة ياسين، وسورة تبارك «الملك»، وسورة التكوير، وسورة الزلزلة، وسورة التكاثر، وسورة الكافرون، وسورة الصمد «الإخلاص»، والمعوذتين.. من هذه الأحاديث: عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: «بينما جبرائيل عليه السلام قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا «صوتاً» من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»(١٥).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله – تعالى–: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل. وفى رواية فنصفها لى ونصفها لعبدى، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدنى عبدى، فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال: أثنى علىَّ عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال مجدنى عبدى، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل(١٦).

وعن معقل بن يسار – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً، واستخرجت: الله لا إله هو الحى القيوم من تحت العرش فوصلت بها، أو فوصلت بسورة البقرة، وياسين قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له(١٧).

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قلب القرآن ياسين لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له، أقرؤوها على موتاكم»(١٨).

---

(١٤) الواقعة (٧٩).

(١٥) رواه مسلم فى صلاة المسافر ٨٠٦ والقرطبى ١١٦/١.

(١٦) رواه البيهقى ٣٧/٢ وإتحاف السادة ١٥٠/٣.

(١٧) مجمع الزوائد ٣١١٦ ومسند الإمام أحمد ٢٦/٥.

(١٨) مسند الإمام أحمد ٢٦/٥.

وعن عبدالله بن مسعود – رضى الله عنه – قال: « يؤتى الرجل فى قبره فتؤتى رجلاه، فتقول: ليس لكم على ما قبلى سبيل كان يقرأ سورة الملك، ثم يتؤتى من قبل صدره أو قال: بطنه، فتقول ليس لكم على ما قبلى سبيل كان يقرأ فى سورة الملك، ثم يتؤتى من قبل رأسه فتقول: ليس لكم على ما قبلى سبيل كان يقرأ فى سورة الملك، فهى المانعة تمنع عذاب القبر، وهى فى التوارة سورة الملك من قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب »[19].

وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾[20]: تعدل نصف القرآن، و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[21]: تعدل ثلث القرآن، و﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾[22]: تعدل ربع القرآن[23].

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: لا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع ذلك؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾[24].

سبحانك ربى أنزلت على نبيك ورسولك قرآنك، وفتحت به أبواب الخير لعبادك، وجعلته مصدر رحمتك وحسناتك، نزل به الروح الأمين على خير الأنبياء والمرسلين، فعنت لعظمته وجوه الفصحاء، وخرت لسحر بيانه جباه البلغاء، فأذعنوا له صاغرين، وآمنوا به ساجدين، وأيقنوا أنه تنزيل من رب العالمين.

فاتقوا الله أيها المسلمون، واحرصوا على تعلم القرآن الكريم وتعليمه، وعلى تلاوته وترتيله، وربوا أبناءكم على حفظه وتجويده، تفوزوا وتربحوا وتنجوا، فهو الذى أخرج الناس من ظلمات الجهل والغى والفساد إلى نور العلم والاستقامة والصلاح، وسطع نور هديه فى الأكوان، وظهرت آثار عدله ورحمته فى كل مكان. قال –تعالى–:

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[25].

***

(١٩) المستدرك ٢/٤٩٢.

(٢٠) الزلزلة (١).

(٢١) الإخلاص (١).

(٢٢) الكافرون (١).

(٢٣) رواه الترمذى ٢٨٩٤ والمستدرك ١–٥٦٦.

(٢٤) الترغيب والترهيب ٢/٣٧٩.

(٢٥) فصلت (٤٢).

رسالة .. و .. رد

رسالة هذا العدد وردت من القارئ.. أمين جمعة محمد ـ السباعية ـ أسوان.. يقول فيها:
جاء فى بعض الكتب أن المحشر سيكون فى الشام وهذا يتنافى مع قوله ـ تعالى ـ:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾(١).

ثم إن أرض الشام ضاقت بمن فيها فى عصرنا هذا، فكيف تكون أرض المحشر لجميع الخلائق من لدن آدم إلى يوم القيامة؟.

وقبل أن نبين المراد من الآية المذكورة وأزيل شبهة الأخ القارىء، أبادر فأقول إنه لا تعارض البتة بين آيات الكتاب العزيز ولا بين القرآن والسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ وقد جاء فى السنة أن أرض المحشر بالشام، فقد روى أحمد وأبو داود وابن ماجة عن ميمونة مولاة رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قالت: يا رسول الله أفتنا فى بيت المقدس قال: «أرض المحشر والمنشر، ائتوه وصلوا فيه فإن صلاة فيه بألف صلاة».. وفى رواية لأحمد عن بعض نسائه عليه الصلاة والسلام ـ أنها قالت: يا رسول الله فإن لم تستطع إحدانا أن تأتيه؟. قال: «إذا لم تستطع إحداكن أن تأتيه فلتبعث إليه زيتاً يُسْرج فيه، فإن من بعث إليه بزيتٍ يسرج فيه كان كمن صلى فيه».. والمراد ببيت المقدس فى هذا الحديث وغيره، المسجد الأقصى والأرض التى بارك الله فيها حوله وهى لُب الشام، ولفظ الشام يطلق عليها وعلى ما جاورها كما أن أهل سوريا يطلقون كلمة الشام على دمشق.

أما قوله ـ تعالى ـ:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾

فيقرر بلا جدال أن الأرض والسماوات يبدلان يوم القيامة لا محالة وللعلماء فى هذا التبديل رأيان:

الأول: أنه تبديل صفة لا ذات.. بمعنى أن الذات باقية والذى يُغَيَّر الصفة والشكل.. كما تقول بَدَّلْت الفضة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً.. فنقلتها من شكل إلى شكل، ومنه قوله ـ

(١) إبراهيم (٤٨).

تعالى ـ:

﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ ﴾(٢).

ويقال بدلت قميصى جبة، أى نقلت العين من صفة إلى صفة. ويقال تبدل زيد إذا تغيرت أحواله.

الثانى: أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه قوله ـ تعالى ـ عن الكفار فى جهنم:

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(٣).

وكقوله ـ تعالى ـ عن أهل سبأ:

﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾(٤).

فجلود الكفار المبدلة فى جهنم غير الجلود السابقة التى تهرأت وفنيت من النار، وكذلك جنتا سبأ بعد الكفر غير الجنتين الأوليين اللتين كانتا لهم قبل الكفر واللتين قال عنهما ربنا:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾(٥) بدلهم الله بالجنتين العظيمتين جنتين أخريين تحتويان على شجر ذى ثمرٍ مُرٍّ وشوك وقليل من النبق عقوبة لهم على عدم الشكر(٦).

وذكر الآلوسى فى تفسيره أن ابن ـ عباس رضى الله عنه ـ قال: «تبدل الأرض يزاد فيها وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وما فيها وتُمَّد مَدَّ الأديم وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.. وتبدل السماوات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها، وحاصله يُغيَّر كلٌّ عما هو عليه وأنشد:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
ولا الدار بالدار التى كنت أعلم

وقال ابن الأنبارى: بطيِّها وجعلها مرة كالمهل، ومرة وردة كالدهان.. وأخرج ابن أبى الدنيا، وابن جرير، وغيرهما عن على ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه تكون الأرض كالفضة والسماوات كذلك. وصح عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: تبدل الأرض أرضاً بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يسفك عليها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة(٧).

ورجح الآلوسى أن يكون الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ على التشبيه، أى شبه الأرض المبدلة بالفضة فى البياض والسماء بالذهب.

---

(٢) الفرقان (٧٠).
(٣) النساء (٥٦).
(٤) سبأ (١٦).
(٥) سبأ (١٥).
(٦) مفاتيح الغيب للرازى جـ ٩ ص ٣٧١ وما بعدها بتصرف.
(٧) روح المعانى للآلوسى جـ ١٣ ص ٢٥٤.

وجاء فى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى»[٨].. قال سهل أو غيره ليس فيها معلم لأحد.

قال ابن حجر فى شرح هذا الحديث.. قرصة النقى أى الدقيق النقى من القش ومن النخالة.. وشرح قوله ﷺ «ليس فيها معلم لأحد.. المراد أنها ليس فيها علامة سكنى ولا بناء ولا أثر ولاشىء من العلامات التى يهتدى بها فى الطرقات كالجبل والصخرة البارزة، وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة بينهما».. وقال ابن أبى جمرة: فيه دليل على عظم القدرة والإعلام بجزئيات يوم القيامة ليكون السامع على بصيرة، فيخلص فيه من ذلك الهول لأن فى معرفة جزئيات الشىء قبل وقوعه رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصها، بخلاف مجىء الأمر بغتة وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جداً، والحكمة فى الصفة المذكورة أن هذا اليوم يوم عدل وظهور حق، فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذى يقع فيه ذلك طاهرا من عمل المعصية والظلم وليكون تجليه ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده...؛. وفيه إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلّتْ وأن أرض الموقف تجددت[٩].

هذا وأقوال أئمة المفسرين والشُراح يرجحون الرأى القائل بأن التبديل تبديل ذات لا صفات، وبقى أن نشير إلى أمرين: الأول: أين يكون الخلق عند التبديل؟ الثانى: وهو ما اشتبه على الأخ السائل، كيف يحشر الناس جميعاً على أرض ضيقة.. أما عن الأول فقد أجاب عليه حديث عائشة الذى أخرجه مسلم ـ رضى الله عنه ـ أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية: «يوم تبدل الأرض غير الأرض».. أين يكون الناس يومئذ. قال: «على السراط»[١٠]. وفى رواية الترمذى: «على جسر جهنم»[١١] ومثله فى رواية «أحمد على متن جهنم»[١٢].. وقد جمع البيهقى من هذه الأقوال جميعاً بأن المراد بالجسر والمتن.. الصراط.. والله أعلم.

أما عن الثانى فإن أرض المحشر سواء أكانت أرض فلسطين أو غيرها لا تبقى على حالها بل تُمَد كَمَد الأديم كما سبق أن ذكرنا. فتسع الناس جميعاً والله قادر على كل شىء، فالذى أعادهم بعد العدم وحشرهم جميعاً بنفخة واحدة من الصور، قادر على أن يوسع أضيق المساحات لتسع الناس جميعا. فلا تَقس يا أخى أحوال القيامة على أحوال الدَنيا.

(٨) رواه البخارى.

(٩) فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٢٤ ص ١٧٨.

(١٠) رواه مسلم.

(١١) رواه الترمذى.

(١٢) رواه أحمد.

وفى المسألة أحاديث أخرى وكلام كثير لا يتعارض بعضه مع بعض، وفيما ذكرنا كفاية لإزالة الشبهة التى عرضت للأخ السائل. والله أعلم.

● وفى رسالة الأخ أمين جمعة سؤال آخر عن تسبيح الله وتحميده وتكبيره دُبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين. ويقول: لكنا نرى المصلين يفعلون ذلك بسرعة لا تليق وجلال اسم الله ـ تباركِ وتعالى ـ ويسأل: هل نُطق لفظ الجلالة فى الذكر سواء فى الصلاة أو غيرها يكون كنطقه فى قراءة القرآن الكريم.

وفى حديث أبى هريرة الذى أخرجه مسلم ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال: «مَنْ سَبّح لله دُبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسع وتسعون.. ثم قال تمام المائة.. لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.. غُفِرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[١٣].

وروى أن الفقراء شكوا إلى رسول الله ﷺ نهم ليس لهم ما يتصدقون به كما يفعل إخوانهم الأغنياء. فأرشدهم إلى ختام الصلاة السابقة كى يعوضوا ما فاتهم من ثواب الصدقة، ففعلوا. ثم عادوا إليه مرة أخرى يقولون: إن إخواننا الأغنياء سمعوا ما نقول وعلموا ما نفعل، ففعلوا فعلنا. أى أنهم مازالوا متفوقين علينا فى الثواب بسبب غناهم.. فقال لهم ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾[١٤].

والعدد مطلوب بذاته كما قال العلماء ولا يجوز أن ينقص أو يزيد لاحتمال أن يكون لتلك الأعداد حكمة وخاصية تفوت بمجاوزة ذلك العدد، وقد عَد القرافى الزيادة من البِدَعْ المكروهة لأن شأن العظماء إذا حددوا شيئاً أحبوا أن يوقف عنده، ويعد الخارج عنه مسيئاً للأدب، قالوا: وذلك كالدواء، إذا زيد فيه أو نقص ذهبت فائدته ومثلوا لذلك بأسنان المفتاح، إذا زيد فيها أو نقص لا تفتح. فكذلك العدد المذكور إذا زيد فيه أو نقص لا يحصل على الثواب الموعود به، فعليك بالاتباع واترك الاختراع والنزاع[١٥].

بقى أن نقول للأخ السائل: إن لفظ الجلالة وكل أسماء الله الحسنى له قدسيته وجلاله، لابد أن ينطق نُطْقاً صحيحاً كما يُقّرأ فى القرآن الكريم بلا مد فى أوله ولا فى آخره لأن المد فى أوله كُفر.. لأنه يتحول إلى استفهام. والمد فى آخره، لحن لا يليق بجلال الله. على أن الذكر لا يؤدى ثمرته المرجوة من خشوع القلب وامتلائه بالخشية إلا إذا كان النطق بلفظ الجلالة والأسماء الحسنى عموماً على النحو الوارد فى القرآن الكريم. والله أعلم.

---

(١٣) أخرجه مسلم.

(١٤) المائدة / ٥٤.

(١٥) الدين الخالص. للشيخ محمود خطاب جـ٢ ص٣٤١ بتصرف.

﴿ فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إعداد الشيخ/ عبدالفتاح الزيات

● سؤال من خالد عبدالمحسن سعد - حوش عيسى - :

ـ أنا رجل مسلم من المواظبين على أداء الصلوات فى وقتها ولكننى أصبت بمرض فى ساقى ولا أستطيع الجلوس للتشهد إلا على كرسى وكذلك فى الركوع. فما هى الطريقة التى أستطيع أن أؤدى بها فريضة الصلاة من غير تقصير؟

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد بأنه من المنصوص عليه شرعا أن المريض إذا عجز عن الصلاة وهو قائم، أو خاف زيادة المرض أو أصابه من ذلك ألم يشغله عن الخشوع الواجب فى الصلاة، عليه أن يصلى قاعداً كيف شاء لأن ذلك أيسر على المريض، والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنبك... إلخ» [الحديث]

ولأن عذر المرض أسقط عن المريض الأركان فلأن تسقط عنه الهيئات أولى، فإذا تعذر الركوع والسجود أومأ برأسه قاعداً إن قدر على القعود وجعل سجوده بالإيماء أخفض من ركوعه.

وإذا كان السائل يقول: إنه لا يستطيع

الجلوس إلا على كرسى وأنه لا يستطيع الركوع ففى هذه الحالة يصلى وهو جالس على الكرسى وعليه أن يكبّر تكبيرة الإحرام ثم القراءة واقفا ثم يكمل صلاته جالساً، ويومىء للركوع برأسه ويسجد فعلاً إن كان يستطيع السجود فإن لم يستطع أومأ له برأسه كالركوع وجعل إيماءه للسجود أخفض من الركوع، وصلاته صحيحة مادام العذر قائما فإن زال عذر المرض وجب عليه أن يصلى وهو قائم بركوع وسجود لعدم وجود العذر حينئذ.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم.

● **سؤال من فضل الله. س. ف - وادى حلفا -:**

ـ قمت ببيع بعض أطيانى الزراعية بمبلغ لا بأس به لأشترى به عمارة فى أسوان ولكنى لم أوفق فى الشراء وترتب على ذلك أننى كنت أصرف من هذا المبلغ حتى بلغ ما قمت بصرفه حوالى النصف وبقى النصف الآخر فهل تجب فيه الزكاة مع العلم أنه ليس فائضاً عن حاجتى وحاجة أولادى لأننى كلما احتجت أية مصاريف آخذ منه؟

●● **الجــواب:**

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله ومن والاه نفيد بأن شرط وجوب الزكاة كما نص على ذلك فى فقه المذاهب -ملك نصاب حولى تام فارغ عن دين عليه لأى من جهة العباد وكذا عن حاجته الأصلية تحقيقا كالنفقة ودور السكن وآلات الحرب والثياب المحتاج إليها لدفع الحر والبرد، أو تقديرا كالدين فإن المدين محتاج حتما إلى قضائه خوف الحبس الذى هو فى الحكم كالهلاك وآلات الحرفة وأثاث المنزل ودواب الركوب وكتب العلم، فإن كان عنده مبالغ مستحقة يصرفها إلى تلك الحوائج صارت كالمعدومة وصارت مثل الماء الذى يحتاج إليه للدفع العطش فإنه يصبح كالمعدوم وجاز التيمم للصلاة.

وصرح ابن مالك بأن من معه دراهم ومسكها بنية صرفها إلى حاجته الأصلية فإنه لا تجب فيها الزكاة إذا حال عليها الحول وهى عنده، وهذا الذى جاء عن ابن مالك وإن كان موافقا لظاهر عبارات المتون فإنه يحمل على ما إذا أمسكه لينفق منه كل ما يحتاجه فإن حال عليه وبقى فى يده نصاب فإنه يزكى ذلك الباقى وإن كان قصده الإنفاق منه على نفسه وعياله فى المستقبل.

وعليه فإن ما بقى فى يد السائل من هذا المال بعد الصرف فى حوائجه الأصلية وبلغ النصاب الشرعى وحال عليه الحول فإنه تجب فيه الزكاة وهى ربع العشر أى: ٢,٥٪.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم.

● سؤال من رباب السيد فرحات - المنيب - الجيزة:

- نظراً لما نراه ونسمعه عن جرائم إسرائيل وفظائعها وتقتيلها للفلسطينيين الذين يدافعون عن أرضهم وعرضهم فهل يجوز إخراج الزكاة لهؤلاء الفلسطينيين على أية صورة وبأية وسيلة؟

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد بأننا نشكر الأخت السائلة على هذه النخوة وهذا الإحساس الذى هو نابع من عقيدتنا التى ترفض الظلم وتحث على مقاومة المعتدى الباغى الغاصب.. ثم نقول: لقد بيَّن الله - سبحانه وتعالى - مصارف الزكاة فى الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة والتى حددتها بثمانية مصارف، والفقهاء متفقون على تحديد المراد منها فيما عدا المصرف المعبر عنه بقوله - تعالى -:

﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾(١). فإنهم اختلفوا فى تحديد المراد منه، والأكثر على أن المراد منه «الغزاة»، والغزاة هم جند المسلمين الذين يعدون ويجهزون للدفاع عن الوطن ويردون عنه العدو ويقومون على حماية الدين وتأمين الدعوة الإسلامية والإنفاق على هؤلاء الغزاة وعلى كل من يدافع عن الأرض والعِرض وعن بيوت الله فى الأرض يشمل كل ما يحتاجونه ويعينهم على أداء واجباتهم والقيام بها على الوجه المطلوب من عتاد وسلاح وتموين وكل ما يؤدى إلى مساعدتهم لتحقيق مطالبهم. والأخوة الفلسطينيون أحوج ما يكونون إلى مثل هذه المساعدة التى تقويهم على الوقوف فى وجه هذا المعتدى الباغى الغادر المدجج بالعتاد والسلاح ونظم القتال الحديثة وهم بلا شك داخلون فى معنى «وفى سبيل الله» والمعبر عنهم بالغزاة وهم بذلك مصرف من مصارف الزكاة المنصوص عنه فى الآية السابقة.

غير أنه لاعتبار المبلغ المدفوع لهؤلاء المدافعين عن حقهم الشرعى، من الزكاة الواجبة شرعاً فى المال فإنه يجب على صاحبه أن ينوى عند الدفع أن يكون المبلغ المدفوع زكاة ماله، إذ النية شرط من شروط إخراج الزكاة.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال. والله أعلم.

---

(١) التوبة ٦٠.

الزواج مشكلات وحلول

للأستاذ / مجدى عبدالحميد بشير

اقتضت حكمة الحكيم الخبير ـ سبحانه ـ حفظ النوع البشرى وبقاء النسل الإنسانى إعماراً لهذه الدنيا وإصلاحاً لشئون العالم. يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(١).

ولذا شرَّع الحكم العدل ما ينظم العلاقات الإنسانية بين الجنسين الذكر والأنثى ومن أجل ما شرَّع وأجمله سنة الزواج وما لها من حِكم وأحكام ومقاصد وغايات وآداب. فالزواج ضرورة اجتماعية لها دورها الفعال فى بناء الحياة وتكوين الأسر وتأسيس البيوت، كما أنه المنوط به تكوين أوثق الوشائج وأقوى الروابط، وهو شِرعة إلهية ثمرتها اليانعة استقامة الحال وهدوء البال وراحة الضمير. إنه أمر يتواءم مع الفطرة وتقتضيه السجايا الطيبة قبل أن تحث عليه المِلَّة وتطلبه الشريعة السمحة. إنه ينسجم تمام الانسجام مع الطباع السليمة والفطر السوية. إنه حصانة وابتهاج.. وغاية القول فيه إنه آية من آيات الله الدالة على حكمته.

قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

والفرد يسعى إلى الزواج منذ شبابه الباكر مستجيباً لنداء الرسول الكريم ـ ﷺ ـ حين قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(٣) كما أن الشاب يدقق فى الاختيار استجابة لقوله ـ ﷺ ـ: «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(٤).

(١) هود (١٦).

(٢) الروم ـ آية ٢١.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم من حديث ابن مسعود ـ رضى الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود والنسائى وغيرهما.

وقد بين الفاروق ما يمكن أن يمنع من الزواج بقوله لقبيصة: «ما يمنعك من الزواج إلا عجز أو فجور». وقانا الله الأمرين. وفى تبيان أن الزواج أمر جوهرى مُلِّح.. يقول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «لو لم يبق من أجلى إلا عشرة أيام ولى طول على النكاح لتزوجت كراهة أن ألق الله عزبا». ثم يوضح الرسول ﷺ أن الخير كل الخير فى الزواج حين قال ـ ﷺ ـ: «وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٥).

وبعد تلك الإلمامة السريعة بمكانة الزواج وآثاره نجد أنفسنا أمام سؤال وهو: ما بال كثير من الناس يشكوا ويتبرم؟. ولماذا تزداد المشكلات الاجتماعية للزواج وتتفاقم؟. وما السبب فى أن الأدواء الأسرية تكثر وتتعاظم؟.. نعم لقد كثر الحديث عن مشكلات الزواج وتوالت فيه الكتابات والمقالات وحيث إن تلك المشكلة الخطيرة تضرب بجذورها العميقة فى صميم الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة على مختلف الظروف والمستويات، فتكاليف الزواج تمثل شبحاً مخيفاً للشباب. فهل من مخرج؟.

ولا ريب أن شريعتنا الغراء قد أبانت المنهج الواضح الصحيح حين جاءت بتيسير أمور الزواج والتشجيع على الاقتصاد فى نفقاته. فقد روى الإمام أحمد من حديث عائشة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة» ومن ثم فالذين يخالفون هذا المنهج بالتسويف والتأخير وأى لون من ألوان التعقيد، إنما يحيدون عن شرع الله ويجانبون سنة رسول الله ـ ﷺ ـ القولية والفعلية.

أولى تلك الظواهر: ظاهرة العنوسة وتأخر كثير من الجنسين عن الزواج. وهى ظاهرة استشرت، وحجة المستمسكين بها المدحوضة هى تعلقهم بآمال وأحلام، وتشبثهم بخيالات وأوهام وتمسكهم بطموحات أو قل مثاليات هى فى الحقيقة نسج الشيطان وتلبيسه.

إن العنوسة مدعاة للوقوع فريسة لأنواع الزواج المشبوه ومرد تلك المشكلات ضعف المعتقد وقلة الديانة وسوء الفهم لأحكام الشريعة. إنه النظر المشوش حول المستقبل والتخوف الذى لا مبرر له.. والسلف الصالح عليهم الرضوان قدوتنا، يقول الصدِّيق: أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى. ويقول ابن مسعود: التمسوا الغنى من النكاح. وأما التقاعس عن ذلك فإن له مضاره الخطيرة وعواقبه الوخيمة لا سيما فى زمن فشت فيه أسباب الفتن والسبل المنحرفة لقضاء الشهوة. فلا عاصم إذن من الانزلاق فى مهاوى الرذيلة والفساد الأخلاقى إلا التحصن بالزواج الشرعى.

وثانى الظواهر هى: ظاهرة عضل النساء من زواج الأكفاء. والرسول ـ ﷺ ـ يقول: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكون فتنة فى الأرض وفساد

(٥) رواه أحمد.

عريض» (أخرجه الترمذى وابن ماجة والحاكم بسند صحيح). والحقيقة أن هناك بعض أولياء الأمر - هداهم الله - يخونون الأمانة التى حملوها تجاه بناتهم حينما يرفضون زواجهن من الأكفاء ديناً وخُلُقاً، وأمانة.. فقد يتقدم لهم الخاطب الكفؤ فيعتذرون متعللين بأعذار لا تصمد أمام المنطق السليم.. فمنهم من يحتج بقلة مال الخاطب ودنو وظيفته وعدم وجاهته، أو مكانته.. وكلها أمور نسبية ويغفلون أمر دينه وخلقه وأمانته. بل قد يدفع الجشع والطمع بعضهم أن يعرض ابنته الحرة المسلمة، سلعة للمزايدة والمساومة، فياللظلم والعضل!!.. وقصة النبى شعيب أشهر من أن تحكى والأسوة فى السلف الصالح متوافرة، فها هو عمر يعرض ابنته حفصة على أبى بكر ليتزوجها، ثم على عثمان.

وثالث المشاكل وأهمها: مشكلة غلاء المهور والمبالغة فى الصداق من بعض الأوساط الأمر الذى جعل الزواج عند البعض مشكلة صعبة مستعصية على الحل، إذ كيف السبيل وقد وصلت بعض المهور أرقاماً فلكية خيالية تثقل كاهل الزوج. وقد بيَّن الفاروق - رضى الله عنه - خطأ كل تلك السلوكيات حين قال: «ألا لا تغالوا فى صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى فى الآخرة لكان النبى - ﷺ - أولاكم بها. لم يصدق امرأة من نسائه ولم تصدق امرأة من بناته بأكثر من اثنتى عشرة أوقية». وانظر إلى البساطة واليسر فى فعله - ﷺ - فقد زوج رجلاً بما معه من القرآن. وقال لآخر التمس ولو خاتماً من حديد.

رابعاً: التكاليف الباهظة والعادات العقيمة التى فرضها البعض تقليداً ومفاخرة وإسرافاً ناسين قول الله: «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا».

وخامس الأمور: ما أحدثه البعض فى حفلات الزواج من أمور منكرة يأباها الشرع إضافة إلى ما سبق. فقد توسع البعض فى الاختلاط بين الرجال والنساء.

السادس: أنه بعد أن حُلَّت المشاكل وأزيلت العقبات وبنى الزوج بزوجته ودخل بها يدعى لهما: بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما فى خير. وتلك دعوة الإسلام التى خالف بها دعوة الجاهلية.

فما أجدرنا بالسير على منهج الإسلام لنحقق الحياة الاجتماعية السعيدة الموفقة التى ترفرف عليها رايات المحبة والوئام وحينها قل على مشكلات الطلاق السلام بعدما بلغت إحصاءاتها أرقاماً مذهلة تنذر بخطر كبير وشر مستطير.

والختام قوله - ﷺ -: «لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن. ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين».. رواه ابن ماجة والبيهقى وغيرهما. والله أعلى وأعلم.

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ / محمود الفشني

(مســـابقات أم قمـــار)

طالعتنا جريدة الأخبار فى عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠١/٧/٥ بهذا التحقيق الجرىء، وضمت فيه رأى خيرة رجال الدين والعلم وعلى رأسهم فضيلة مفتى الجمهورية د. نصر فريد واصل، الذى أفتى بتحريم برامج المسابقات واعتبارها لوناً من ألوان القمار وتغريرا بالمشاهدين. نفتح بابا للمناقشة الجادة لمحتوى هذا السيل المتدفق من برامج المسابقات التى تطل علينا صباح مساء من جميع القنوات التليفزيونية بإلحاح.. تطرح أسئلة ساذجة وتسيل لعاب المشاهد بجائزة مالية ضخمة مقابل اتصال تليفونى عبر النداء الآلى.. ويظل يتأرجح بين الأمل والاحباط حتى يكتشف أنه سراب!!

تعليقا على فتوى فضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية بتحريم المسابقات الهاتفية عبر وسائل الإعلام لأنها صور مستحدثة من صور القمار والميسر، اتفق د. أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر فى الرأى مع فضيلة المفتى، لأن المسابقات التى تركز على الجوانب الهزلية والمعلومات غير المفيدة محرمة، ويُقسِّم الدكتور أحمد عمر هاشم المسابقات الهاتفية إلى نوعين: الأول يتعلق بسؤال دينى أو اجتماعى أو ثقافى يختبر فيه ذكاء المتسابق وثقافته فإذا حصل على جائزة دون التقدم بمال أو بذل لشىء يكون كالرصيد أو كالقمار فهو جائز وحلال، أما النوع الثانى فهو مسابقات عن موضوعات غير مفيدة وليس لها قيمة علمية أو ثقافية أو مسابقات يدفع المتسابق ثمنا للاشتراك فيها مثل ثمن المكالمة التى تحتسب لصالح الجهة التى تجرى المسابقة فتكون رصيداً مالياً من ثمن آلاف المكالمات بينما يفوز بالجائزة المالية شخص واحد فقط فهى حرام لأنها تشجع على إهدار الوقت..

أما التأثير الاجتماعى لهذا الطوفان من برامج المسابقات التى انتشرت فى الفترة الأخيرة فى جميع قنوات التليفزيون فيثير قلق الدكتورة عزة كريم الخبير الاجتماعى بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية لأنها غريبة على مجتمعنا. فهناك مسابقات

إيجابية تهدف إلى تحفيز المواهب والابتكارات مثل مسابقات الاختراعات أو مسابقات تحفيظ القرآن الكريم.. هذه المسابقات مطلوبة لأنها تؤدى إلى تنمية شخصية الإنسان ومواهبة وذكائه والمفروض أن نتوسع فيها لأنها تعطى الفرصة للمغمورين من أصحاب المواهب للظهور والإبداع وتعطى الأمل للشباب بظهور القدوة المبدعة.

القمار بالتليفون هو أنسب تسمية لبرامج المسابقات عبر الهاتف التى انتشرت هذه الأيام. هذا ما يؤكده الدكتور صفوت العالم أستاذ الإعلان والعلاقات العامة بكلية الإعلام جامعة القاهرة لأنها تختلف عن مسابقات ترويج السلع والخدمات التى تهدف إلى تنشيط المبيعات وينحصر ضررها فى تعظيم وإثارة النزعة الاستهلاكية لدى الأطفال وتركيز القرارات الشرائية فى نوعيات محددة من السلع قد لا تكون مفيدة أو ضرورية للمستهلك. أما مسابقات الهاتف فشخصية المعلن فيها مبهمة بالنسبة للمشاهد فتنطوى على الخداع خاصة لعدم إعلان اسم الفائز بالجائزة حتى يتحقق من مصداقية المسابقة، والملاحظ أن أرقام الهواتف المعلنة على الشاشة هى أرقام خدمات والمفروض أن تكون مجانية حتى لا تصبح وسيلة للتربح للمعلن. كما أن تكرار إذاعتها بين الفقرات يفسد متعة المشاهدة ويشتت انتباه الجمهور، ويؤكد مفهوم ضربة الحظ والمقامرة عن طريق النسبة والتناسب بين تكلفة المكالمة وقيمة الجائزة وقد كشف لى أحد المعلنين أنه قدم مسابقة جائزتها ٥٠٠ جنيه ربح من خلالها ٥٥ ألف جنيه قيمة المكالمات التى أجراها المشاهدون البسطاء الطامعون فى الجائزة!! هذا العبث بأحلام الناس من خلال الشاشة له تأثير خطير فى دولة نامية تعانى من ارتفاع نسبة البطالة والكساد. ومن خلال الأسلوب المتعمد لإطالة مدة الاتصال إذا نجح المشاهد فى إتمام المكالمة. لتصل إلى ٦ أو ٧ دقائق لتصل قيمة المكالمة إلى حوالى ١٥ جنيها كشرط للاشتراك فى المسابقة هو نوع من المقامرة بينما المفروض أن يتم اختيار المتسابقين عشوائيا.. وأخيراً يؤكد الدكتور صفوت العالم أن شكل الشاشة المصرية التى تتغنى بالريادة والتميز صار شكلا معيبا ومهلهلا بتكرار إذاعة هذه المسابقات العقيمة التى لا تقدم معلومات مفيدة، بل تغرى البسطاء بأحلام الكسب السريع، وتعظم من قيمة ضربة الحظ والمقامرة.

■ **التعليق:**

هذه المسابقات ضرب من الميسر وإهدار للوقت فى لهو من الحديث لا يُسمن ولا يُغنى من جوع.

الفهم الصحيح للإسلام

فى جريدة الأخبار فى عددها الصادر فى ٢/٧/٢٠٠١ كانت لنا هذه الوقفة مع الكاتب السورى الغيور على دينه «عبدالقادر يحيى الديرانى» قال فيه:

لقد تداعت جميع الأوساط الثقافية شرقا وغربا علينا نحن المسلمين كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ذما وقدحا واتهاما بانتهاك حقوق المرأة وأصدروا حكمهم بأننا نحن المسلمين أعداء المرأة وطواغيتها بل وأننا أمة ضحكت من جهلها وظلمها الأمم لا سيما فى قضية تعدد الزوجات.

وبسبب الفهم الخاطىء بل والمنحرف لقضية تعدد الزوجات وبسبب هجر القرآن الكريم وعدم دراسته والأخذ من كتب وأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، بسبب ذلك نسب لهذا الدين الحنيف الظلم كل الظلم وهضم المرأة فى هذا

الأمر كل الهضم، فقد ظلمت المرأة وهضمت حقوقها وغبنها الإسلام وما ذلك إلا لعدم فهمهم للإسلام ولتأويل الآيات الواردة بهذا الخصوص.. فهم يقرأون فقط

﴿ فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾(١).

وقد أخذوا هذا النصف الأخير من الآية الكريمة وقرأوها ناقصة فعموا عن القرآن الكريم وصموا.

الحقيقة أنه لا يصح قراءة آية قرآنية دون ربطها بما قبلها وما بعدها لأن آيات القرآن الكريم محكمة مترابطة فيما بينها، أما هم فقد أخذوها منقوصة دون إعطائها حقها من التدبر والتفكر ودون ربط بداية الآية بنهايتها، لذا فسروها بتفسيرات شهوانية نفسانية لا تتوافق والمراد الإلهى السامى الذى وضعها به الله -تعالى- فلم يدركوا حقيقة معانيها السامية وهضموا حقوق المرأة وأساءوا لها بالغ الإساءة بل وشوهوا سمعة الإسلام السامية أيما تشويه.. إن هذه الآية الكريمة نزلت لأهداف إنسانية سامية، وقد وردت فى حق النساء اللاتى توفى أزواجهن أو استشهدوا وعندهن أطفال بحاجة إلى رعاية وتربية إيمانية تسمو بهم إلى مكارم الأخلاق، فالآية الكريمة جاءت لأمرين:

أولاً: المرأة الأرملة. وثانياً: الأيتام.

وإنه لا يجوز لأحد أن يقسم الآية نصفين وعلى حسب المزاج وذلك لأن الآية الكريمة أبدا لا تقبل التقسيم لأنها مشروطة بـ «إن» الشرطية ولا تقبل التجزىء فالآية القرآنية.

﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾.

أى: فى حالات الحروب ونقص الرجال بالاستشهاد وقد خلفوا وراءهم أرامل ويتامى.. فى هذه الحالة فقط أو بحالات إنسانية، لا نفسانية أنانية، يحق للرجل المتزوج الاقتران بأكثر من زوجة بغية تربية أبنائها التربية الصالحة؛ فيربى ذلك الرجل الصالح هؤلاء الأيتام مع أولاده كما لو كان أبوهم موجودا وكأنه أب ويأخذ أموالهم ويديرها لهم بتشغيلها لصالحهم حتى تتأمن منها نفقاتهم وأمور معيشتهم وإذا ما كبروا يجدونها بين أيديهم محفوظة كما ينقذهم من براثن الانحطاط الأخلاقى والفساد الاجتماعى لعجز الأم «الأنثى» عن قيامها بهذا الدور من حيث تقويمهم وتسليكهم سبل الرشاد والسيطرة على سلوكيات أبنائها البالغين وكبح جماح انحرافهم وشذوذهم إذ ليس الذكر كالأنثى، ولكل مقام على حسب الخلق والتكوين الطبيعى، فسيطرة الرجل البنيوية والطبيعية «من ناحية نفسية وفسيولوجية» تختلف تماما عن سيطرة المرأة.. وهذا أمر مقطوع فيه بالواقع العملى والعلمى. فللأمهات سكب الحنان والحب والدلال للابن وللأب العطف وكبح جماح الشذوذ والانحراف، فينشأ الابن النشأة الصالحة القويمة بين الرغبة والرهبة فلا يميع ولا يتعقد.

وإن هذا القسط وهذه الرعاية للأيتام وهذا الحفظ لأموالهم يستلزم أن يدخل الرجل الذى يرعاهم عليهم بيتهم دائما وفى ذلك ما فيه من

(١) سورة النساء (٣).

الشبهة بحق الأرملة والرجل الذى أراد الإحسان لها ولأيتامها إن لم يتزوجها لذلك أمر -الله عز وجل- بالزواج منهـا، وتلك هى إنسانيـة هذا التشريع الإلهى الحكيم.

وعندما يستشهد الأب الصالح فى سبيل الله دفاعا عن الوطن والأهل والولد هل يصح ترك الأبناء دون أب يصلح ويقوّم اعوجاجهم ويحول دون شذوذهم وضياعهم؟.. هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، هذا الشهيد الذى ضحىّ بحياته «والجود بالنفس اسمى غاية الجود» هل جزاؤه أن تبقى زوجته أرملة عرضة للانحلال الأخلاقى والفساد الاجتماعى، فإذا كان الإسلام قد أمر بالإنفاق على الأرملة فهل يكفيها الإنفاق وحده بعد رحيل الزوج؟ أليست بحاجة إلى رجل هى أيضا يحنو عليها ويؤنس وحدتها ويشبع غرائزها الفطرية من طريق حلال وبما تحمد عقباه!؟

وهل يبقى الأيتام دون مشرف قوى على تربيتهم التربية القويمة لا سيما عند سن المراهقة عندما لا تقوى المرأة على ضبط سلوكياتهم؟ هل نتركهم عرضة للإجرام والشذوذ، فيصبح أبناء الشهيد «دون ضابط حازم قوى» فيتشردون ويغدون مجرمين أشقياء؟

من أجل ذلك، وحباً ورحمة بنا خاطب الله -تعالى- فينا إنسانيتنا لنستفيد من هذا العمر الثمين

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾.

إذا خفت ألا تسوس الأيتام وتؤدى لهم حقوقهم والعناية بهم

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾.

تزوج أمهاتهم

ويشترط القرآن الكريم أنه يحق للمتزوج القادر من الناحية المالية والجسمية والعقلية أن يتزوج أرملة أو اثنتين أو بأقصى الحدود والإمكانات البشرية ثلاث أرامل لإيواء أبنائهن وحفظ شرفهن وامدادهن بالعيش الكريم بشرط أن يكون: حكيما عالما حائزا على قسط من الكمال والحكمة ليعدل بين الزوجات وينشأ الأبناء التنشئة الصالحة إذ معنى آية

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم ﴾ لكم جميعا أنه لن تطيب الحياة الزوجية إلا بتوافر ثلاثة شروط أساسية فى الزوج:

١- السعة المالية. ٢- القوة الجسمية.

٣- الحكمة الإيمانية.

إذن الزواج باكثر من زوجة لا يجوز أبدا إلا لأهداف إنسانية سامية مشحونة بالرحمة على الأطفال والحفظ لأموالهم والحنان، والعطف على الأرامل لإنقاذهن من الدمار الاجتماعى وتلك لعمرى أسمى الآيات، آيات الله الرحيم وعطفه على عباده، إذ أن تعدد الزوجات أمر بناء مزدان بالتآزر والتضامن والإحسان للشهيد الكريم ولزوجه وأبنائه.. بناء على الآيات الكريمة لا يجوز تعدد الزوجات إلا لأهداف سامية إنسانية وبغية إنقاذ الأرامل واليتامى لا لإشباع الميول المنحطة والتمسح بالدين والقرآن وهضم حقوق المرأة والإساءة لها.

■ **التعليق:**

نشكر الكاتب على متابعته لما يُقال عن الإسلام وغيرته التى جعلته يرد بحجة دامغة من قول كريم فى لوح محفوظ.

بين المجلة... والقارئ

إعداد وتقديم/ عادل رفاعي خفاجة

بين الجد والفكاهة

كنت أعتقد أن كلمة «الأرشانة» تنفرد بها النساء، وأنها ميراث خالص للمرأة دون الرجال لا تسمح أن تقتسمه مع أحد.

غير أن الاستاذ الدكتور فرج كامل سليم، الاستاذ بجامعة الأزهر أبى إلا أن ينصف المرأة وينتصر لها ويثبت مشاركة الرجل لها فى هذا الإرث الوبيل، وأن من بين الرجال من هو «أرشان» أيضا، فيُمْتِعُنا بهذه الكلمة الطريفة حيث يقول:

ـ قرأت فى «مجلة الأزهر» ما جاء بشأن كلمة «الأرشانة» وردها لأصلها العربى. ويسرنى أن أمتع القراء بأبيات شعرية تدور حول هذه الكلمة نظمها الشاعر الأديب محمد حسين عبدالحليم عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة.

أرشانةٌ زُفت إلى أرشان
فتواثبا ذئبين يصطرعان
خاضا عراكهما لأوّل ليلةٍ
فتضاربتْ فوق الخدود يدانِ
أمِنَ الأنام فنَعجبُ أم هما
شيطانةٌ مردت على شيطانِ
خضعا لقانون الغريزة لحظة
وتواعدا بالشرّ بعد ثوانِ

وكم فى ندوات المجالس من شعر فكاهى يستحسن أن يُتحف به القراء.

● **المحرر**: كم نتمنى أن يثرى القراء هذا الباب بمثل هذه الطرائف الجادة ونحن إذ نقدم شكرنا للاستاذ الدكتور فرج كامل سليم ننتظر من سيادته ومن السادة القراء المزيد.

كيف تحسب رزقك؟

● **ومن الصديق الدائم الاستاذ / السيد حسين العزازى وكيل وزارة بالكهرباء والطاقة وردت هذه الكلمة عن مفهوم الرزق يقول فيها :**

ـ علماء الاقتصاد يفرّقون بين نوعين من الدخل، أحدهما الدخل النقدى والآخر الدخل الحقيقى، والأول يمثل جملة النقود والمقبوضات التى تصلك فى صورة أجر أو مرتب أو بدلات وخلافه، أما الثانى فيشكل الدخل النقدى مضافاً إليه الخدمات التى يحصل عليها المواطن فى صورة دعم للسلع والخدمات الأساسية كالتعليم والصحة والتموين والمواصلات.. إلخ. وعلى ذلك فالدخل الحقيقى أشمل من الدخل النقدى ويدل على دور الدولة فى تحقيق العدالة الاجتماعية وتقليل الفوارق بين الطبقات من خلال ما تقدمه من تسهيلات لذوى الدخول المحدودة وإزالة أسباب الفاقة والعوز وهذا أمر نرجو أن يستمر ويضطرد ويتزايد لأنه الترجمة الحقيقية للتكافل.

ـ ولأن اسباب الحياة ليست مادية فقط فلا يمكن الاقتصار فى حساب مصادر الإشباع والإمتاع على النقود وما يقابلها من خدمات ذات قيمة حيث لا يمكن إنكار الجوانب المعنوية وأثرها فى كينونة الفرد وديمومة الحياة على نحو من الرضا والقبول وقبل ذلك وبعده محتوى الإيمان الذاتى الذى يرتب الأمن النفسى والتعامل مع الآخرين بثقة وثبات لا يخالجه شك أو تردد وذلك من شأنه تهيئة جماليات شعورية وتأملية تنمى فينا روح الأمل وتكسر موجات الاحباط وترفع عنا غائلة الوقوع فى براثن العجز واستشعار الذل وجماع هذه الايجابيات الأخلاقية والسلوكية يضمه معنى واحد وهو التقوى. والتقى من يستشعر الرضا فيسعى دون كلل ويجد بلا ملل ويرضى بالمقسوم فإذا به أغنى الناس.

ـ وعلى هذا فعلينا ونحن بصدد الكلام عن الدخل ألا نبتعد به عن دائرة الرزق لئلا يفوتنا أن نستجمع الربط بين ما نحوزه بفعلنا وما يصلنا بفضل الله علينا وذلك حتى لا نقع فريسة المادية الفجة التى تحاصرنا بغشاوة لا نتبين معها ما حولنا أو حتى ما بداخلنا من كنوز وفيوض ربانية أولها الحواس المدركة والعقل المفكر وتلك مداخلنا للتفوق والتميز بقدر توظيفها والاستفادة منها فإذا أضفنا إلى ذلك مشاعرنا ودخيلتنا ومتانة عقيدتنا وتفعيل ذلك لخيرنا وغيرنا ومردود ذلك علينا لتضاعف الحصاد نقودا وسعودا..

والهوايات من الرزق... فالذى تروقه الكتابة أو سبل التعبير الأخرى كالرسم ووسائل الفنون الجميلة أو حتى القراءة والتأمل فى قدرة الله وبديع صنعه يضم بين جنبيه روحا محلقة وإرادة وثابة وبصيرة ثاقبة ونفساً مفعمة بالمحبة للخالق والخلائق وهؤلاء يتمتعون بالاستغناء أى انهم يملكون ما هو أرقى وأنقى وأبقى.

ـ ومن الرزق ما نحسه ولا نلمسه ممثلا فى (الستر) وهو عناية الله بعباده وعطفه عليهم وتفضله بالغوث والتيسير فيزيل الهموم ويفرج الكروب ويبهج القلوب بما لا يعدله مال الدنيا فى

نظر الشاكرين. وفى ظروف كثيرة تجد من يقضى حاجتك دون عناء أو من يتفضل بإفادتك فى أمر يرتبط بمصلحتك ولولاه لتعرضت لضرر مادى أو أدبى وهو مما يُعد رزقا يضاف إلى حسابك بغير تدخل منك وهو ما تحتسبه فضلا من الله ونعمة.

ـ والسعادة الزوجية والتوافق الأسرى والصداقة الحميمة والزمالة الراقية وعلاقات العمل الجيدة والتفاهم بشكل عام، مبعث للسعادة وذلك مما لا يقوّم بمال.

ـ والذُرّية من الرزق وإن كان البعض يضيق بها فى ظل اعتبارات الغلاء وتفاقم أعباء وتكاليف المعيشة وواقع الأمر أنهم ذخر فى الشباب وسند فى المشيب واضافة مادية ومعنوية وإيمانية لمن أفاء الله عليه بالذرية الصالحة فضلاً عما يخامر الآباء من سعادة بالأبناء تكتمل بشكر الله وابتغاء مرضاته فإذا بالأبناء طاقة عطاء للآباء تستحث إخلاصهم وتستنفر شفافيتهم واستغفارهم وتقرّبهم إلى الله وتغلف تصرفاتهم بالشفقة على من سواهم اتقاء لله فى ذريتهم وكلنا يعلم أن الذرية لا تشترى ولا تستجلب بالمال بل عطاء اللّه لمن يشاء من عباده والله يرزق من يشاء بغير حساب.

ـ والسلام الاجتماعى مما لا يقدَّر بمال، وهو مقدّم على كثير من مطالب الحياة وعندما ننعم بروح الأخوّة وتحتوينا المبادىء الرفيعة فى العمل والتعامل فمن شأن هذا توفير مناخ الاستقرار والحرص على الانطلاق والاستمرار على دروب التنمية والارتقاء. وعندما نرقب الدنيا من حولنا بما يثور فيها من خلاف واختلاف واقتتال بين أبناء الوطن الواحد نشعر بنعمة السلام والوئام ونجدد العهد على التماسك والتمسك بكل أسباب الترابط والاتحاد.

ـ وعدل الله ينشر ألويته ويبسط أجنحته على خلقه جميعا وبلا استثناء ولو تأمل كل منا واقعه لوجد خيرا كثيرا تترجمه حقائق منها صحة الجسم وسلامة العقل والحلم والصبر وحسن النية وانشراح الصدر وامتلاء القلب بكل أسباب الرقة والعطف وتلك وغيرها أدوات وآليات لجلب السعادة وهى الغاية التى يتمناها البشر ولا يمكن توفيرها بالأسباب المادية بل تستدعى مقومات وعناصر معنوية يمنحها الله إيانا بلا مقابل، ومن ذلك نتبين سذاجتنا وضيق أفقنا عندما نقصر الرزق على الدخل فلا نحسب فضل الله الذى لا ينفد بل يتوالى مدده دون توقف ولكن اكثر الناس يجحدون.. ومن ذلك يتضح انك تستطيع أن تحسب (دخلك) ولكنك تعجز عن ان تحصى رزقك لأنه عطاء الله ونعمته التى تشكل المظلة الواقية والروضةالتى تغذى عقلك وقلبك وكوامنك وتسرى فى أوصالك فتجعل الحياة مشرقة بضياء الأمل والإيمان. وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾

[آية ٣٤ / سورة إبراهيم]

● **المحرر**: تذكرنا هذه الكلمة بقول علماء الرياضيات: «إن الكمية المحدودة إذا ما قورنت بكمية غير محدودة تؤول إلى الصفر» ولا خلاف أن غير المحدود هنا: نعم اللّه التى لا تعد ولا تحصى، وأن المحدود هو الدخل مهما عظم، فياليت الذين يتطاحنون ويتباغضون من أجل الحصول على دخل أكبر يعلمون أنهم إنما يتطاحنون من أجل الحصول على كمية تؤول إلى الصفر!!!

أى الأطفال يدخل المساجد؟!

إن اصطحاب الأطفال إلى المساجد لتعويدهم على الصلاة أمر هام، ولكن الحفاظ على هيبة المسجد أمر اكثر أهمية.

حول هذا المعنى وردت رسالة القارىء خيرى محمد إبراهيم -كفر الجرايدة- بيلا- كفر الشيخ.. يقول فيها:

ـ نحن مأمورون بأن نعوّد أطفالنا منذ الصغر على الصلاة والصيام وسائر أعمال الخير حتى إذا بلغوا حد التكليف، كانت ممارستها سهلة عليهم إذا ما كبروا وبلغوا سن التكليف. كما يندب تدريبهم على الأعمال الجماعية لتقوية روح الاجتماع فى نفوسهم ومن ذلك شهودهم الجُمَع والجماعات فى المساجد، والفقهاء تحدثوا عن ترتيب صفوف الجماعة فقالوا:

ـ يكون الرجال فى الصفوف الأولى ثم يليهم الصبيان ثم يليهم النساء.

ولا تعارض مع الحديث الذى رواه ابن ماجه والطبرانى من أن النبى ﷺ قال: «جنّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم».

لأنه يُقصد به المحافظة على نظافة المسجد وتوفير الجو الهادىء الذى يليق بمكانته ويساعد المتعبدين والمصلين على أداء عبادتهم بخشوع وخضوع واطمئنان وورع والغالب من الصبيان صدور أعمال تتنافى مع ما تقدم ذكره. وحتى لا يكون هناك تعارض بين صلاتهم فى المساجد والأمر بإبعادهم عنها قال العلماء: إن التجنيب يكون للأطفال غير المميزين الذين يكثر منهم العبث واللعب واللهو. أما المميزون العقلاء فلا مانع ولا بأس باصطحابهم إلى المساجد ومشاركتهم الكبار فى الصلاة والعبادة وقراءة القرآن الكريم وأعمال الخير الأخرى، مع متابعة تنبيههم إلى المحافظة على آداب المساجد والآداب الاجتماعية بوجه عام.

وهذا ما أوصى به النبى الأكرم والرسول الأعظم فى حديثه النبوى الشريف حيث قال ﷺ: «مُروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرّقوا بينهم فى المضاجع» [رواه الإمام البخارى فى صحيحه].

● **المحرر :**

● نسأل الله العظيم أن يوفقنا لاتباع هدى نبينا الكريم، ونسأله – جل وعلا – أن يجد هذا القول استحسانا لدي هؤلاء الآباء الذين يصرون علي **اصطحاب أطفالهم** برغم ما يحدثونه من صخب وجلبة بين صفوف المصلين وأولئك الآباء الذين **يتركون أبناءهم** لايعرفون للمسجد طريقا، وكأن الأمر لا يعنيهم!!!

أنباء العالم الإسلامى

إعداد الأستاذ / محمد عبدالحميد الشرقاوى

مساعدات إسلامية لإعمار مساجد كوسوفا

قررت هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية صرف مبلغ ١٣ مليون ريال سعودى لإغاثة وإعمار إقليم « كوسوفا » الذى يقطنه أغلبية ألبانية مسلمة..

وصرح مدير مكتب الهيئة فى بريشتينا عاصمة كوسوفا بأن الهيئة صرفت ثلاثة ملايين ريال على اللاجئين الكوسوفيين فى ألبانيا كما كفلت فى تلك المرحلة أكثر من ٢٠ ألف معلم وداعية وطبعت ووزعت ١١٥ ألف كتاب إسلامى وانفقت فى إعمار المساجد وتشييد المدارس والمنازل أكثر من ٦ ملايين ريال.

وأضاف مدير مكتب الهيئة أيضاأنها تسعى لاقامة عشرة مساجد جديدة فى مختلف مدن الإقليم وتخطط لرفع عدد من تكفلهم من الأيتام إلى أربعة آلاف يتيم.

ترجمة لمعانى القرآن فى المالديف

تم إنجاز ترجمة لمعانى القرآن الكريم باللغة الديفيهية وهى اللغة التى يتحدث بها سكان جزر المالديف وقد انجز هذه المهمة لجنة من علماء المسلمين تم تشكيلها بقرار من رئيس الجمهورية « مأمون عبدالقيوم » على أن يتم طبعها قريبا وتوزيعها فى البلاد وجدير بالذكر ان « عبدالقيوم » رئيس جمهورية المالديف من خريجى الأزهر الشريف.

جنود الاحتلال الإسرائيلى يشربون الخمر داخل الحرم القدسى

ندد أحمد هاشم الصغير عضو المجلس التشريعى الفلسطينى عن محافظة القدس بقيام جنود الاحتلال الإسرائيلى بشرب الخمر داخل الحرم القدسى الشريف وأكد ان هذا التصرف اعتداء سافر على مشاعر المسلمين، وانتهاك لحرمة المسجد الأقصى المبارك.

حريق متعمد فى مسجد بفرنسا

دمر حريق متعمد مسجداً ببلدة بور - دو - بوك الفرنسية يقع على بعد ٣٠ كيلو متر تقريبا غرب مرسيليا بعد ثلاثة أشهر من افتتاحه حيث أتى الحريق على المسجد بأكمله وقال الأمين العام لمجلس أئمة مرسيليا وضواحيها « عزالدين عينوش » ان المسجد لم يكن قد افتتح رسميا بعد لكن مسجد باريس انتدب إماما له وقال مسئول المسجد أنه لما جاء لفتحه لصلاة الفجر وجد رجلاً

مسلحاً أمره بالابتعاد قبل اشتعال الحريق وبدأت الشرطة تحقيقا عن الحادث.

وصف عينوش ما جرى بأنه «مشين» مؤكدا أنه أثار حالة كبيرة من الاستياء.

الأزهر يصادر كتباً تدعو الى البهائية

قرر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف مصادرة جميع كتب البهائية التى تحاول جماعات خبيثة ترويجها فى مصر وقد أبلغ الجهات المسئولة لمنع دخول هذه الكتب إلى مصر لتصادمها مع العقيدة الإسلامية وهى كتب: العهد والميثاق» لدرويش مصطفى و«المجموعة المباركة» وهى مجموعة رسائل تعليمية لنشر البهائية أصدرها المحفل البهائى بالاسكندرية و«مفاوضات عبد البهاء» المطبوع فى دار النشر البهائية فى بلجيكا.

مسلمو بريطانيا يحتجون على فصل صحفى مسلم من «B.B.C»

أعرب بيان أصدره المجلس الإسلامى البريطانى عن استنكاره لقرار اتخذته شبكة الإذاعة البريطانية «B.B.C» بفصل مراسل مسلم بسبب انتماءاته الإسلامية وقال البيان الذى نقل تفاصيله موقع ليلة القدر على شبكة الانترنت أن مسئولا فى «B.B.C» أعلن عن وقف التعامل مع صحفى فلسطينى يدعى «فيصل بودى» بسبب ما ورد إليها من شكاوى حول انحيازه الواضح للمسلمين وهو ما اعتبرته الشبكة متنافيا مع الحياد الذى يجب أن يراعى فى أخبارها.

واعتبر البيان ان قرار «B.B.C» يمثل تفرقة واضحة بين موظفيها بسبب اتجاهاتهم الدينية ودعا البيان الإذاعة للتراجع عن هذا القرار.. وقال السكرتير العام للمجلس ان «B.B.C» كانت قد أثنت مراراً على كفاءة هذا الصحفى وحياده فى صياغة تقاريره مما يدل على ان هذا القرار استجابة لضغوط يهودية وبخاصة أنها لم تتخذ نفس الخطوة تجاه كثير من مراسيلها اليهود الذين يعدون لها تقارير متحيزة ضد المسلمين.

شبكة المعلومات الدولية «الانترنت»

من أجل شارون بوليس واشنطون يعتقل زعماء المسلمين

اعتقلت شرطة واشنطن قادة أكبر المنظمات المسلمة الأمريكية خلال احتجاج نظمه القادة المسلمون اعتراضا على استقبال الرئيس الأمريكى «بوش» لرئيس الوزراء الإسرائيلى «شارون» وما يعنيه هذا الاستقبال من اعتراف ضمنى بسياسات القمع الإسرائيلية حيث يرى الزعماء المسلمون الأمريكيون أنه ينبغى معاملة شارون كمجرم حرب وليس كقائد دولة.

جاء اعتقال القادة المسلمين بعد ان تعمدوا الجلوس أمام البيت الأبيض ورفضوا أوامر الشرطة بالتحرك، من بين الزعماء الذين تم اعتقالهم رؤساء: مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية - منظمة المسلمين الأمريكيين من أجل القدس - مجلس الشئون العامة الإسلامية - المجلس الإسلامى الأمريكى - الجمعية الإسلامية الأمريكية - منظمةالتضامن الدولى من أجل حقوق الإنسان.

ومن الجدير بالذكر انه يعيش بالولايات المتحدة حوالى «٧» ملايين مسلم.

أنباء مكتب شيخ الأزهر

لفضيلة الشيخ / عمر البسطويسى

استقبالات فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف بمكتبه السيد السفير / أبوبكر بن داود سفير ماليزيا بالقاهرة يرافقه السيد / وان أبوبكر وان المستشار التعليمى بالسفارة والسيد / عبدالرزاق عبدالوهاب مدير الشئون القنصلية والسيد / محمد نور بن يعقوب الملحق التعليمى بالسفارة والوفد المرافق لهم.

رحب فضيلته بالسادة الضيوف مشيرا إلى أن طلبة وطالبات دولة ماليزيا يدروسون بالأزهر الشريف على منح منه ويصل عددهم حوالى ستة آلاف طالب وطالبة، وقد أثنى فضيلته على خلق الطلاب الماليزيين، مما جعلهم قدوة طيبة لغيرهم من الطلاب.

وأوضح فضيلته بأن الأزهر الشريف دائما فى خدمة دولة ماليزيا ولا يدخر وسعا فى تقديم العون والمساعدة العلمية والتعليمية والثقافية.

● كما استقبل فضيلته وفدا من أعضاء مجلس الشيوخ التايلاندى ورجال الصحافة والإعلام برئاسة الدكتور / كريسال شونها وان رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ التايلاندى يرافقهم السيد روراويث كافيتاسين سفير تايلاند بالقاهرة رحب فضيلته بالوفد فى مصر شارحا لهم دور الأزهر الشريف فى تعليم أبناء المسلمين أمور الدين الصحيح، وموضحا أن منح الأزهر الدراسية لطلاب وطالبات دولة تايلاند وجامعته الصديقة تجاوزت أعدادها ٥٠٠ طالب وطالبة ومشيدا بالخلق الطيب للطلاب والطالبات والنبوغ والاجتهاد الذى يتمتع به طلبة وطالبات تايلاند وهم يمثلون القدوة الطيبة لغيرهم، وأوضح فضيلته أن الأزهر الشريف لا يألوا جهدا فى تقديم المساعدة والعون للمسلمين التايلانديين فى النواحى العلمية والتعليمية والثقافية.

شكر السيد رئيس الوفد فضيلة الإمام الأكبر على حسن اللقاء والحفاوة معربا عن أن حضورهم إنما هو لتقديم الشكر والعرفان ومد جسور التعاون بين تايلاند والأزهر الشريف، وطلب زيادة المنح الدراسية، وتقديرا وعرفانا لدور الأزهر الشريف فإنهم بصدد إهداء معدات وآلات طبية لمستشفى جامعة الأزهر

الشريف مساهمة منهم فى التعبير عن عمق الروابط بين البلدين.

وقد شكرهم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف ووعدهم بتلبية طلباتهم.

● واستقبل فضيلته السيد / ابديز تيام نائب رئيس مجلس الشعب ومبعوث الرئيس السنغالى والسيد بابا عثمان سن وزير مفوض السفارة فى السنغال بالقاهرة.

رحب فضيلته بالضيفين الكريمين بمصر والأزهر الشريف مؤكدا على عمق الروابط الأخوية بين البلدين وأن الأزهر الشريف يقدم المنح الدراسية لطلاب السنغال حيث يدرس فى الأزهر ٢١٨ طالبا على منح الأزهر الشريف، كما أن للأزهر بعثة أزهرية من العلماء يقومون بالتدريس لأبناء السنغال.

شكر الضيف فضيلة الإمام الأكبر على حسن اللقاء.

● واستقبل فضيلته الوفد النيجيرى من ولاية سكوتو برئاسة الحاج حمزة عيسى نائب محافظ سكوتو والسيد / دوت إما سفير نيجيريا بالقاهرة والوفد المرافق.

رحب الامام بالضيوف فى مصر والأزهر الشريف وقال نحن لاندخر وسعا لخدمة الإسلام والمسلمين وأوضح أن فى الأزهر الشريف حوالى ١٣٥ طالبا بالقاهرة والإسكندرية، يدرسون على منح بالازهر وحوالى ١١٢ يدرسون على نفقتهم الخاصة شكر السادة الضيوف فضيلة الإمام الأكبر على حسن اللقاء وطلبوا زيادة المنح الدراسية وزيادة عدد المدرسين كما طلبوا تزويدهم بالكتب الدينية كالتفسير والحديث وسيرة الرسول ﷺ وطلبوا معادلة الشهادات الموجودة فى نيجيريا بالشهادات الأزهرية والمساهمة فى إنشاء معاهد أزهرية بالولاية وقال السادة الضيوف إن الأزهر الشريف فيقوم بالتعليم بالطرق الصحيحة والمعتدلة وفى نهاية اللقاء قدم السادة الضيوف الشكر لفضيلة الإمام وقدموا الدعوة لفضيلته لافتتاح معهد أزهرى بولاية سكوتو النيجيرية وقد وعد فضيلته بدراسة طلباتهم تمهيدا لتلبيتها.

حفظة القرآن أمل الأمة

● شهد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر حفل تكريم الطلاب والطالبات أوائل الشهادات الأزهرية كذا تكريم المناطق الأزهرية الفائزة فى مسابقات أنشطة رعاية الطلاب الجائزة الكبرى والتى تنظمها الإدارة المركزية لرعاية الطلاب وذلك بمبنى مجمع المعاهد النموذجية بمدينة نصر ويبلغ عدد الطلاب الأوائل المكرمين ٢٤ طالبا وطالبة هم أوائل ثمانى شهادات أزهرية : الابتدائية والإعداية والثانوية ودبلوم المعلمين وشهادة التجويد وتخصص التجويد وعالية التجويد وثانوية البعوث الإسلامية بالإضافة إلى تكريم ١٠٧ من العاملين بالمناطق الأزهرية وبلغت قيمة الجوائز أكثر من ١٦٤ ألف جنيه، كما تم تكريم المناطق الأزهرية التى فازت فى المسابقة الكبرى وجاءت فى المركز الأول محافظة الغربية، والمركز الثانى الدقهلية والمركز الثالث الشرقية ومحافظة كفر الشيخ والاسكندرية وسوهاج والبحيرة والجيزة وقنا والقليوبية والقاهرة والمنيا ودمياط.

وفى كلمته اكد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أن حفظة القرآن الكريم هم أمل الأمة فى دفع مسيرة التقدم مشيرا إلى أن الإنجازات التى تحققت للأزهر الشريف جامعا وجامعة فى عهد السيد الرئيس محمد حسنى مبارك حفظه الله، وقد حث فضيلته الطلاب المكرمين على مداومة الفوز والاستمرار فى التقدم لمسابقات حفظ القرآن الكريم وذلك بالمثابرة على قراءة القرآن الكريم وحفظه، وقد رصد الأزهر الشريف مبلغ ثمانية ملايين ونصف لحفظة القرآن الكريم لمسابقة هذا العام وسيتم الإعلان عنها قريبا.

ثم قام فضيلته بتوزيع الجوائز وشهادات التقدير

والدروع للطلاب والطالبات ولرؤساء المناطق والعاملين بالمناطق الأزهرية ومتوسط ما حصل عليه الطالب أو الطالبة من جوائز حوالى ٥٠٠ جنيه مصرى.

حضر الحفل الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الشريف ونواب رئيس الجامعة وفضيلة الشيخ رئيس قطاع المعاهد الأزهرية وقيادات قطاع المعاهد والمسئولين عن رعاية الطلاب.

لا مساس بموضوعات التراث

● رأس فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف جلسة المجلس الأعلى للأزهر الشريف، وقد وافق المجلس على تعديل المناهج الدراسية والكتب المقررة على المراحل المختلفة الابتدائية والإعدادية والثانوية مع الالتزام بعدم المساس بموضوعات التراث القديم، وتدريس كتاب الفقه الميسر للمرحلة الإعدادية، وتدريس كتب التفسير الوسيط للمرحلة الثانوية وكتاب مباحث فى علم التوحيد والأخلاق فى الصفوف الثلاثة.

كما تمت الموافقة على الأخذ بنظام التقييم المستمر على القائمين بالتدريس فى المعاهد الأزهرية والتكثيف على الدورات التدريبية التنشيطية للمدرسين فى فترات الاجازة الصيفية وذلك فى المواد التى يدرسونها للارتقاء بالمستوى العلمى لهم، كذا تمت الموافقة على تشكيل لجان متخصصة لتقييم الأداء من حيث مستوى الطالب والمدرس ونتائج الامتحانات وترفع نتائج هذه اللجان لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف.

وقد أكد المجلس على أن المعادلة التى تمت بين جامعة الأزهر الشريف والجامعة الإسلامية الأمريكية المفتوحة بأمريكا خاص بالدارسين داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

الموافقة على اعتماد مشروع اللائحة الحالية الداخلية لمركز جامعة الأزهر لأبحاث علوم المواد والزجاج بكلية العلوم للبنين بالقاهرة، كذا الموافقة على تصويب مسمى قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بشعبة أصول الدين بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية ليصبح قسم «العقيدة والفلسفة» حضر الاجتماع فضيلة الدكتور أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر الشريف والسادة نواب رئيس الجامعة وفضيلة رئيس قطاع المعاهد الأزهرية وفضيلة الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر الشريف وفضيلة الشيخ عمر البسطويسى رئيس الإدارة المركزية للإعلام والعلاقات.

ترجمة «معاملات البنوك وأحكامها الشرعية» إلى الأردية

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف السيد السفير أنور سماك سفير باكستان بالقاهرة رحب فضيلته بالسيد السفير فى مصر وأزهرها الشريف مؤكدا على العلاقات الطيبة والممتازة بين البلدين فى مجالات كثيرة وأهمها الناحية التعليمية والتثقيفية حيث توجد بعثة من علماء الأزهر الشريف بدولة باكستان الشقيقة لنشر الثقافة الاسلامية كما توجد معاهد أزهرية بباكستان تدرس مناهج وكتب الأزهر الشريف، كما يوجد طلاب من باكستان يدرسون على منح الأزهر فى معاهده وجامعته الصديقة.

شكر السيد السفير فضيلة الإمام الأكبر على حسن الاستقبال، وقد طلب من فضيلة الإمام الأكبر الموافقة على ترجمة الكتب الخاصة بالمعاملات الإسلامية وأحكامها الشرعية إلى اللغة الأردية لينتفع بها أبناء باكستان وبخاصة كتاب «معاملات البنوك وأحكامها الشرعية» لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف

مؤكدا على أن الحكومة الباكستانية هى التى تتولى عملية ترجمة وطبع الكتاب وسيقوم بالترجمة متخصصون فى اللغة العربية والأردية وسيتم العرض على فضيلته قبل اتمام الطبع.

وقد ابدى فضيلة الإمام الموافقة المبدئية من قبيل نشر العلم والانتفاع به على ان تتم بعض الإجراءات القانونية مع السفارة فى هذا الشأن.

كما طلب السيد السفير وفدا من علماء الأزهر لمناقشة معاملات البنوك فى دولة باكستان حيث لم تحسم هذه المسائل فى دولة باكستان وقد رأى فضيلته أنه من الأفضل أن يأتى وفد من علماء باكستان والمهتمين بهذه القضايا إلى مصر ونحن مستعدون لشرح وتوضيح هذه المسائل والإجابة على كل تساؤل فى هذا الخصوص من الناحية الشرعية حضر اللقاء فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف وفضيلة الشيخ رئيس الإدارة المركزية للإعلام والعلاقات.

الإسلام يدعو الى مكارم الأخلاق

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف وفد القضاة بدولة قازاخستان حيث رحب فضيلته بالضيوف شارحا لهم دور الأزهر الشريف فى نشر العلم وتصحيح المفاهيم الإسلامية وتعليم أبناء المسلمين فى شتى أنحاء المعمورة ومبينا وجه الإسلام السمح للزائرين من دول الغرب حتى يتعرفوا على سماحة الإسلام ويسره، وأن ما ينشر عن الإسلام بقصد تشويه صورته لا أساس له من الصحة لأن الإسلام هو دين الأمن والأمان والعدل ويدعو إلى مكارم الأخلاق وينبذ العنف والتعصب ويبتعد عن المغالاة والتطرف كما شرح لهم التفاصيل المتعلقة بالتعليم فى الأزهر من الحضانة حتى الجامعة وأكد أن الأزهر يقدم العون والمساعدة لكل من يطلب ويوجد أبناء من دولة قازاخستان يدرسون بالأزهر الشريف على منح منه، وشكر الوفد فضيلته على حسن الاستقبال وعلى ما يقدمه الأزهر لأبناء دولتهم وحسن الرعاية لأبنائهم فى مصر حيث يقيمون فى مدينة البعوث الإسلامية تقدم لهم كل الخدمات التعليمية والتثقيفية والترفيهية والصحية مثل غيرهم من أربع وتسعين دولة يسكنون فى مدينة البعوث إقامة دائمة.

لا مجاملات فى حرمات الله

● التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بوفد الملحقين الدبلوماسيين فى إطار تدريب الدفعة ٣٠ بمعهد الدراسات الدبلوماسية بوزارة الخارجية حيث رحب فضيلته بهم فى الأزهر الشريف مؤكدا على أننا نعيش فى عصر التخصص الدقيق وأن الأمم السعيدة القوية هى التى يعمل جميع أفرادها كل فى مجال تخصصه وذلك لمصلحة الأمة، وأن الأمم العاقلة هى التى يكثر بين أفرادها التواضع وحب العمل وحب العلم والمعرفة والتزود بالثقافات المتنوعة النافعة التى تجعل الفرد فاهما لدينه ومتفهما ظروف أمته وما يجب عليه نحو نفسه وأسرته ووطنه مشيرا إلى أن شريعة الإسلام لها مميزات كثيرة على رأسها الوضوح فلا يوجد بها طلاسم ولايوجد سؤال إلا وله جواب، اسأل ماشئت تجد الجواب الواضح الصريح الذى يقنع العقول السليمة، من هنا نجد أن شريعة الإسلام واضحة فى العقائد والعبادات والمعاملات والآداب والسلوك واضحة فى كل ما يسعد الإنسان سواء كان ذكرا أم أنثى وما نعانيه الآن أساسه عدم فهم لحقيقة وضوح الشريعة الإسلامية مما أدى إلى ظهور بعض السلبيات فى المجتمع وعلى رأسها الوساطة معلنا أن هذا سوء سلوك فى المجتمع يؤدى إلى تأخره لأنها تضع الإنسان غير المناسب فى مكان لا يستحقه لأنه بن فلان، وهو مما يؤدى إلى فساد الأمم وفسادها يبدأ من الوساطة

والرشوة والمحسوبية حتى يتقدم من لا يستحق ويتأخر من يستحق والإسلام أمر بأن يعطى كل ذى حق حقه دون ظلم.

وأجاب فضيلته على الأسئلة التى طرحت من أعضاء الوفد ومنها سؤال عن تقديم الخمور فى الحفلات التى تقيمها السفارات وقال إنك إذا دعيت إلى حفلة فى إحدى السفارات فإنك تؤدى الواجب الدبلوماسى مادمت لم تشارك فى أى شيء يخالف أو يغضب الله، وإذا أقمت أنت حفلة مثلا فلا تقدم ما يخالف الله عز وجل أو يغضبه ويتنافى مع شريعة الإسلام ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا مجاملة فى تقديم ما حرمه الله ونحن مسلمون ويجب علينا احترام ديننا وشريعتنا حتى يحترمنا الناس، ولا مجاملات فيما يتعلق بحرمات الله ودين الله وشريعته مهما كانت الأمور والظروف حتى لو كان هذا العمل دبلوماسيا، والمجاملة مرحبا بها بشرط ألا تتعارض مع الآداب وما ثبت من الدين بالضرورة مؤكدا على أن الدول العربية لا تقدم الخمور أو شيئا يغضب الله ولو حدث لقام أعداء الإسلام بفضحهم فى جرائد العالم.

كما أجاب على الأسئلة الخاصة بتأجير الأرحام، وتحطيم طالبان للتماثيل وحقوق المرأة والتعامل مع البنوك، والتعديلات التى شملتها وثيقة الزواج المدينة. والحوار بين الحضارات إلى غير ذلك من الأسئلة .

الإمام الأكبر يؤدى العمرة

● غادر القاهرة إلى المملكة العربية السعودية فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف فى ١٠ / ٧ / ٢٠٠١ وذلك لأداء مناسك العمرة وسيلتقى فضيلته خلال هذه الرحلة التى تستمر عشرة أيام مع بعض المسئولين فى المملكة العربية السعودية لبحث توثيق الروابط بين الأزهر الشريف وبين المؤسسات الدينية فى المملكة.

مجمع البحوث يبحث موضوع المسابقات

● صدر بيان مجمع البحوث الإسلامية بمناسبة ما أثير فى الصحف حول موضوع المسابقات وتم اجتماع برئاسة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف وحضره فضيلة الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف وفضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتى الجمهورية وتقرر فى هذا الاجتماع عرض الموضوع على مجمع البحوث الإسلامية خلال هذا الشهر لمزيد من الدراسة فى ٨ / ٧ / ٢٠٠١ .

فضيلة وكيل الأزهر يشهد اجتماعات منظمة الدعوة

● صدر قرار فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف برقم ٧٣٧ لسنة ٢٠٠١ بالموافقة على سفر فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر إلى جمهورية السودان وذلك لحضور اجتماعات منظمة الدعوة الإسلامية فى الفترة من ١٦ – ١٨ / ٧ / ٢٠٠١م وتتحمل موازنة الأزهر قيمة تذاكر السفر ذهابا وعودة وبدل السفر المقرر قانونا.

كما صدر قرار فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف رقم ٧٣٨ لسنة ٢٠٠١ بالموافقة كل سفر فضيلة الشيخ عمر البسطويسى على حمزة رئيس الإدارة المركزية للعلاقات العامة بالأزهر الشريف لجمهورية السودان وذلك لحضور اجتماع هيئة الرئاسة للمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة الذى سيعقد فى الفترة من ١٦– ١٨ / ٧ / ٢٠٠١ بناء على الدعوة الموجهة من منظمة الدعوة الإسلامية بدولة السودان.

الفهـــرس

● الافتتاحية (لغو عن ميراث المرأة)
فضيلة أ.د. محمد رجب البيومى ٧٣٧
● تفسير سورة البقرة
فضيلة أ.د. محمد سيد طنطاوى ٧٤٢
● التثبت من رواية الحديث
فضيلة أ.د. أحمد محمود شيمى ٧٤٨
● الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان (٢)
فضيلة أ.د. أحمد عمر هاشم ٧٥٢
● الدعوة كما ينبغى أن نبلغها
لفضيلة الشيخ/ الطاهر الحامدى ٧٥٩
● حول الأصالة والمعاصرة
فضيلة أ.د. محمد إبراهيم الفيومى ٧٦٤
● بين على عبد الرازق والخضر حسين
فضيلة أ. د. محمد عمارة ٧٧٠
● محمد (ﷺ) فى كتابات المستشرقين
فضيلة أ. د. محمد عبد العظيم المطعنى ٧٧٥
● حول نقد سيرة رسول الله لابن إسحاق
نقد وتعليق أ.د. إبراهيم عوضين ٧٨٢
● ما يقال عن الإسلام
فضيلة أ.د. محمد رجب البيومى ٧٩٢
● الزوجة الوفية .. كأنك تراها
فضيلة أ.د. محمود عمارة ٧٩٩
● من مختارات مجلة الأزهر: لا تيأسوا من روح الله
لفضيلة الشيخ محمد محمد المدنى ٨٠٧
● إحساس النبات (قصيدة)
بقلم : أبو حسام ٨١٠
● القعقاع بن عمرو التميمى
للأستاذ / أحمد تقى الدين ٨١٢
● ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية (٢)
أ.د. أحمد فؤاد باشا ٨١٦
● أثر العقيدة على التقدم العلمى عند المسلمين
للأستاذ/ مصطفى البسيونى ٨٢٢
● الغد المحجب (قصيدة)
للأستاذ عبد المغنى المنشاوى ٨٢٨
● قصة العدد: (المهاجرة الصبور)
للأستاذ شوقى أبو ناجى ٨٣٢
● من بلاغة الخطابة النبوية
فضيلة أ.د. عبد الحليم حفنى ٨٣٦
● قضية للمناقشة
أ.د. محمد أحمد العزب ٨٤٢
● الشاعرة جليلة رضا .. وداعاً
للأستاذ / أحمد مصطفى حافظ ٨٤٥
● الجيتو والكيبوتس فى الوجدان اليهودى
د/ محمد حسن عبد الخالق ٨٤٨
● من منظمات الإرهاب الصهيونى فى إسرائيل
للأستاذ/ صلاح عبد الرحيم محمد ٨٥٤
● طرائف ومواقف
للأستاذ/ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم ٨٦٠
● تهنئة ودعاء ٨٦٢
● خطبة الجمعة: نزهوا الإسلام عن صغائركم
أ.د. أحمد الشرباصى ٨٦٣
● فضل قراءة القرآن الكريم
لفضيلة الشيخ/ فوزى فاضل الزفزاف ٨٦٦
● رسالة ... و .. رد
لفضيلة الشيخ/ عبد الفتاح سيد جمعان ٨٧١
● استفتاءات القراء
تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ٨٧٥
● الزواج: مشكلات .. وحلول
للأستاذ/ مجدى عبد الحميد بشير ٨٧٨
● بين الصحف والمجلات
للأستاذ/ محمود الفشنى ٨٨١
● بين المجلة والقارىء
للأستاذ/ عادل خفاجة ٨٨٥
● أنباء العالم الإسلامى
للأستاذ/ محمد عبد الحميد الشرقاوى ٨٨٩
● أنباء مكتب الإمام الأكبر
للأستاذ/ عمر البسطويسى ٨٩١

الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تأسست عام ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م

وصدر العدد الأول فى المحرم ١٣٤٩هـ

يصدرها

مجمع البحوث الإسلامية

فى مطلع كل شهر عربى

رئيس التحرير

أ.د. محمد رجب البيومى

مدير التحرير

الطاهر محمد الطاهر الحامدى

سكرتير التحرير

عادل رفاعى خفاجة

المراسلات باسم

مدير التحرير / مجمع البحوث الإسلامية / م. نصر

ت: ٢٦٣٨٥٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

داخل العدد

- تفسير سورة البقرة

لفضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر

- إنسانية الغرب فى الميزان

للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومى

- من ركائز التضامن الإسلامى

للأستاذ الدكتور / أحمد عمر هاشم

- الدعوة كما ينبغى أن نبلغها

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدى

- مساجلة بين فقيهين كبيرين

للدكتور / حمدى فتوح والى

- محمد ﷺ فى كتابات المستشرقين

للأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى

الاشتراك السنوى

- داخل مصر .... ١٨ جنيهًا مصريًا
- الدول العربية .... ٥٠ دولارًا أمريكيًا
- أوربا وأمريكا .... ٨٥ دولارًا أمريكيًا
- اليابان وشرق آسيا .... ١٢٠ دولارًا أمريكيًا

عن طريق قسم الاشتراكات بمؤسسة الأهرام

شارع الجلاء - القاهرة

☎ ٥٧٨٦١٠٠ - ٨٥٧٦٢٠٠

جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ - سبتمبر ٢٠٠١م - الجزء السادس - السنة الرابعة والسبعون

افتتاحية العدد

إنسانية الغرب في الميزان

لا أدرى أين قرأت هذه الحادثة ذات الدلالة النفسية البعيدة. قرأت أن قاضياً يحب أن يذاع عنه العدل والإنصاف عُرضت عليه قضية كان الحاكم خصماً فيها، وكان الحق معه، ولكن القاضى حكم ضده مع وضوح حقه ليذاع فى الناس أنه وقف أمام ولى الأمر!! وقد اضطر الحاكم إلى عزله فجعل السطحيون يقولون: إن الوالى جبار طاغية وإن القاضى برىء شهيد!!.

قرأت هذه الحادثة، فذكرت ما يشابهها لدى بعض الكتاب، حين يعرض باحث مسلم لمسألة يتضح فيها وجه الحق فى جانب الإسلام، فيحاول جاهداً أن يفترى على الإسلام، وهو من أبنائه لينال شهرة لدى السطحيين والمغرضين بأنه فوق الشبهات، وأنه من حرية الفكر بحيث لم يقف مع دينه، وإذا كان هذا مستغرباً لدى نفرٍ من القراء يستشعرون فى صدورهم حمية متوهجة لدينهم الحنيف، فإنه ليس بمستغرب لدى من درسوا الواقع الأدبى فى العالم العربى فى هذا القرن، فعرفوا كيف بهرت أوربا نفراً من المبعوثين إليها، فانطلقوا يشيدون بحضارتها، وتطرفوا فى الإشادة فانتقصُوا الإسلام عامدين، ليقال عنهم إنهم أحرار تخلصوا من معتقداتهم حين استضاءوا بنور الفكر الحديث.

كتب أحدهم عن مظاهر القسوة والطغيان فى التاريخ العالمى، فلم يكن من همه أن يقارن حضارة بحضارة ولكن همه الأكبر أن يجعل الإسلام فى ناحية وأوربا القديمة والحديثة فى ناحية، ثم يهدف إلى موازنة مخطئة خاطئة تنتهى به إلى القول بأن مظاهر القسوة عند المسلمين تتضح بجلاء فى تاريخهم المتكرر، وأن أوربا فى القديم والحديث أقل قسوة وأكثر رحمة من دول الإسلام فى شتى عصوره، وإذا كان الحق لم يعدم نصيراً فقد رأينا من الباحثين من كشف عوار هذا الإفك بالدليل القاطع والمنطق الحاسم، وقد بدا لى أن أضيف الجديد إلى هذه القضية لعل الذين لايخجلون من الافتراء على ذويهم البررة يستشعرون ندماً تائباً فيرجع إلى الحق من يستمع إلى القول فيتبع أحسنه، أما الجاحد المتصلب فلا حيلة لنا فيه.

إن تاريخ أوربا فى قديمها لايختلف عنه فى حديثها بالنظر إلى القيم الإنسانية وإهدارها،

وإذا ظن ظان أن عصر النهضة قد عاد على العالم أجمعه بالحرية والإخاء والمساواة كما يتشدق بهذا الظن نفريطمسون وجوه الحقائق عن عمد، إذا ظن ظان هذا الوهم فليعلم جيداً أن ما نادت به الثورة الفرنسية من مبادىء إنسانية لم يجدْ تطبيقه إلا فى أوربا وحدها!

فإذا عشقت فرنسا الحرية وأقامت لها تمثالاً وهتفت بأناس دعوا إليها، وجاهدوا فى سبيلها، فإن هذه الحرية وقف على الدولة وحدها!! لها أن تعتنقها فى أمورها السياسية والاجتماعية، وأن تحرص على تطبيقها قدر ما تستطيع، ولكنها فى الوقت نفسه لاترى هذه الحرية حقاً لسواها، فهى تستعمر الشعوب، وتقهر الأمم وتسلط شتى فظائع الإبادة على من يقاومون استعمارها إذ لانصيب لهم فى هذه الحرية التى تعتنقها داخل أسوارها! وقل فى انجلترا وإيطاليا وهولندة وبلجيكا وسائر دول الاستعمار ما تقوله فى فرنسا! فقد لاقت أفريقيا وآسيا - وأمريكا من قبل - من شرور هؤلاء الطغاة ما لايجهله أحد، وما اضطر الاستعمار إلى أن يحمل عصاه على كتفه ويبادر بالرحيل إلا حين وجد من المقاومة الرهيبة ما أخذ يوازن به بين الكسب والخسارة فإذا الرحيل كسب ظافر، وإذا الاحتلال خسارة فادحة، فأين اعتناق الحرية والمناداة بمبادئها إذا كانت وقفاً على أناس دون أناس.

لنرجع إلى تاريخ أوربا فنتساءل أين وجدت المعانى الإنسانية لدى هؤلاء المتجبرين، أفى عهد الحضارة الإغريقية حين كان يعذب الأرقاء ظلماً وعدواناً إذا اتهم سيدهم بجريمة، فهم وحدهم يعذبون ليعترفوا بجريمة سيدهم، فإذا لم يجدوا لدى أنفسهم مايقولونه إذْ غابوا عن المسرح، فإن العذاب يسلط عليهم حتى يحصل الاعتراف، والسيد آمن مستريح لايهمه فى شىء أن يعذب أرقاؤه مدىً يقصر أو يطول، فإذا اضطر أحد هؤلاء الضعاف إلى الاعتراف بشىء قد رآه تحت سياط العذاب، فإن الحكم يصدر على السيد، ثم عليه بعد ذلك أن ينتقم من عبده المعترف بأفظع وسائل التعذيب!! أم ترى وجدت هذه الحضارة فى عهد الرومان وكانوا يشنون الحرب على المدن الآمنة، فإذا تحقق لهم الظفر قتلوا الرجال وباعوا الأطفال والنساء فى سوق الرقيق، وكانت مشاهد القتل الآثم أعظم حفلات الترفيه لدى الرومان! إذ يقيمون السرادقات الممتدة فى الميادين الواسعة ثم يدفعون بالوحوش الجائعة من آساد ونمور وذئاب لتنقض على الأسرى بين صيحات الإعجاب، وتصفيق المشاهدين! أين المعانى الإنسانية فى هذه الفظائع المنكرة، وأين ما يقال عن التقدم الحضارى حين ترى الأجساد مصلوبة فى الطرقات، وحين تنظر إلى الأحشاء والأرجل والأيدى والرءوس تملأ الشوارع لتدل على معانى الانتصار الآثم لدى قوم يعتزون بأكرم الخصال!! وقد يكون الموت أهدأ حالة من سواه حين تقطع الأيدى والأرجل ويترك أصحابها فى الطريق يلاقون الموت البطىء استنزافاً ويتضرعون إلى الله كى يعجل بخلاصهم من الحياة.

ومن يرزق العمر بعد أن بترت أعضاؤه يعيش حياً كميت، فلا يجد غير الحسرة الكاوية، والذل المبين! هذه أوربا القديمة إغريقية ورومانية، فهل وجدت المعانى الإنسانية لديها فى واقع أو مثال! إن كبار الفلاسفة قد نادوا باختلاف الطبقات، وجعلوا جماعة من الناس أحراراً يتولون الرياسة والسلطان، وجماعة أخرى عبيداً يخضعون ويذلون فإذا كان كبار الفلاسفة فى أوربا لايدينون بالمساواة ويرون أن يتسلط قوم على قوم فأين هى قيم الإنسان؟

وحين ظهرت المسيحية كانت روما ذات الجهد البارز فى اضطهادها، وقد أحرق نيرون روما ليلقى تبعه إحراقها على المسيحيين، ويقيم المذابح لاستئصالهم وقد بلغ من الفظاعة فى التعذيب أن ألبس ضحاياه جلود الوحوش وطلا أجسامهم بالقار والزيت ثم أشعل الجلود لتأكلهم النار وهم أحياء، على حين أقام حفلة ألعاب، والنار تأكل بنى جنسه ليزداد طرباً مع من يشاهدون هذه الفظائع من مؤيديه، وما دار الزمن وتمكنت المسيحية من السيطرة فى أوربا (وهى دين الرحمة فى شرعها السماوى) حتى تركت تعاليم هذا الدين، ووالت تعذيب المعارضين جرياً على سنن السابقين، وكان من الغرائب حقاً أن يقوم قديس مفكر ذو مكان بارز فى دنيا العلم بصياغة نصوص تدعو إلى الإرهاب الفكرى إذ رأى القديس أوغسطين أن يكون من حق الملحد النفى والجلد والتغريب. ووضع قانوناً للكنيسة يلزمها اتباع هذا الحق، إذ يعزوه إلى السيد المسيح نفسه!! وهى مفارقة ساخرة، يكون فيها نبى الرحمة رسول الانتقام والفظاعة، وأعجب ما قاله القديس أوغسطين أنه بهذا التعذيب القاهر يرحم الضحايا! وينقذهم من العذاب الأبدى يوم القيامة فإذا شئت فجوراً فى الدعوى الفاحشة فلن تجد أقوى من فجور يدعى الصلاح ليقوم بأعنف ضروب الفساد، وبهذه السلطة التى خولها (أوغسطين) للكنيسة يكون قد قدّم لقساة البابوات حججا قوية فى استباحة ما لايستباح من شنائع التعذيب، وطبيعى أن يفرح هؤلاء بما أوتوا وأن يستزيدوا أحبارهم، وحفظة أنا جيلهم من الحجج القامعة، حتى استطاعوا بهذا الاحتيال الآثم أن يمنحوا البابا حق الإله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء! أليست بيده صكوك الغفران يمنحها لمن ارتكبوا الموبقات فقتلوا وأثموا وفجروا جزاء أموال تساق إلى الكنيسة سوقاً، لتجد ما يشبع نهمها الأرضى تجبراً وعتواً، وقد كان للبابا سلطة إصدار القرار للأمراء وحكام الإقطاع كى يستأصلوا أعداءه إذ نصّ قرار مجمع (لاتزان) على إلزام الحكام بمحاربة أعداء الكنيسة، وأن ينحصر جهادهم الدنيوى والأخروى معاً فى هذا المجال، ولاتسل عن فرحة الحكام بهذا القرار، إذ أتاح لهم أن يدحروا أعداءهم بتهمة الخروج عن الكنيسة مهما أظهروا التبرؤ من هذه التهمة، وفى شهادات الزور وتلفيق

الأحداث ما يدفع بالأبرياء إلى مقاصل الإعدام لأنهم أعداء الكنيسة!!

وإذا تعجب القارىء مما أقول وعده مبالغة فليقرأ نص قرار الكنيسة الصادر فى عام ١٢٢٩م إذ يقول «يحتفظ الحاكم بعرشه متى قام بواجبه فى استئصال الإلحاد، فإن تردد فى الاستجابة لأمر البابا أكره على الطاعة فوراً، فإن تراخى صودرت أملاكه، وبيعت لمصلحة الكنيسة، واعتقل فوراً ليحاكم على ما فرط فى حق المسيح» وقد قرأنا فى التاريخ عن أباطرة كبار تراخوا بعض الشىء فى تنفيذ رغبات البابا الانتقامية، فأصدر أمره بعقابهم حتى اضطر أحدهم أن يخلع ثياب الإمبراطورية وأن ينتظر حافياً عارى الرأس أمام الكنيسة أربعة أيام حتى يأذن له البابا بالدخول فيقدم توبته، ويصدر قرار العفو عنه، قرأنا ذلك وعرفناه! فهل رأينا شيئاً من ذلك فى تاريخ الإسلام!.

والحديث عن محاكم التفتيش ليس سراً، فقد ألفت الكتب ذات المجلدات الضخمة لتشرح فظائع هذه المحاكم التى صبت نارها على الأبرياء، والتى اصطلى المسلمون بنارها فى الأندلس، وننقل عنها عن كتاب قصة الاضطهاد الدينى بعض ما كتبه مؤلفه الأستاذ الدكتور توفيق الطويل حين قال ص٧٣.

أما الطريقة التى اتبعت فى محاكمة المتهمين بالهرطقة فى أسبانيا فكانت تنكر كل طريقة معقولة لتوكيد الحقيقة فلم يكن المتهم بريئاً حتى يثبت اتهامه، بل اعتبر كل متهم مذنباً حتى تثبت براءته - إن كان هذا ممكنا - ومن ثم وكلوا إليه عبء التدليل على براءته، وكان قاضيه هو المدعى عليه، وكل من تقدم للشهادة ضده قبلت شهادته، ولو كان من أرباب السوابق، إذ كانت قواعد ادعاء المشهود عليه مرنة طلقة، وعلى عكسها كانت القواعد التى وضعت لرفض شهود الدفاع، إذ كان من حق اليهود والمغاربة والخدم والأقارب إلى الدرجة الرابعة أن يقدموا ضد المتهم ما يثبت إدانته من الأدلة، ولكنهم ممنوعون أن يشهدوا فى صالحة، وكان المبدأ الذى اعتنقته محكمة التفتيش هو: لأن يدان مائة برىء زوراً وبهتاناً خير من أن يهرب من العقاب مذنب واحد، ومن ساهم فى تقديم الوقود الذى يحرق به الملحد فقد استحق المغفرة.

والحديث عن فظائع محاكم التفتيش لايقف عند حد! وهذه بعض فظائع أوربا، أما رحمة الفاتحين من المسلمين، والأخذ بمبدأ المساواة العادلة بين الأفراد، فقد تحدثت عنه فى أكثر من مقال، وقد أعود.

د./ محمد رجب البيومى

تفسير سورة البقرة

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

قال الله - تعالى - :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا
وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤)
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ
قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ
أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الآيات من ٢٢٤ / ٢٢٧

العرضة : فعله - بضم الفاء - بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة، وهى اسم لكل ما يعترض الشئ فيمنع من الوصول إليه، واشتقاقها من الشئ الذى يوضع فى عرض الطريق فيصير مانعا للناس من السلوك والمرور يقال فلان عرضة دون الخير أى حاجز عنه.

وتطلق كذلك على النصبة التى تتعرض للسهام وتكون هدفا لها، ومنه قولهم: فلا ن عرضة للناس إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه قال الشاعر:

دعونى أنح وجدا كنوح الحمائم

ولا تجعلونى عرضة للوائم

يريد اتركونى أنح من الشوق ولا تجعلونى معرضا للوم اللوائم.

والأيمان: جمع يمين وتطلق بمعنى الحلف والقسم، وأصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه، و «تبروا» من البر وهو الأمر المستحسن شرعا.

والمعنى على الوجه الأول: لا تجعلوا الحلف بالله- أيها المؤمنون- حاجزا ومانعا عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس، وذلك أن بعض الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول: حلفت بالله ألا أفعله فنهاهم الله- تعالى- عن سلوك هذا الطريق.

وهذ المعنى هو الذى رجحه كثير من المفسرين لأنه هو المناسب لما يجئ بعد ذلك من قوله - تعالى-:

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾(١).

ووجه المناسبة أن الله- تعالى- يكره للمؤمن أن يجعل الحلف به مانعا من رجوعه إلى أهله، ولأن هناك أحاديث كثيرة تخص من حلف على ترك أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتى الأمر الذى فيه خير، ومن هذه الأحاديث ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ «إنى والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها»(٢).

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير»(٣).

وشبيه بهذه الآية فى النهى عن الحلف على ترك فعل الخيرقوله- تعالى- فى شأن سيدنا أبى بكر عندما أقسم ألا ينفق على قريبه الذى خاض فى شأن ابنته عائشة:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾(٤).

فالآية على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين مانعة من فعل الخير.

واللام فى قوله: ﴿ لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ متعلق

(١) البقرة (٢٢٦).

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٦.

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٦٦.

(٤) النور (٢٢).

بعرضة، وقوله:

﴿ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ ﴾ مفعول لأجله أى: لا تجعلوا الحلف بالله سببا فى الامتناع عن عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس.

والمعنى على أن عرضة بمعنى النصبة التى تتعرض للسهام: لا تجعلوا- أيها المؤمنون- اسم الله- تعالى- هدفا لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به فى كل حق وباطل، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن من شأن الذى يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه، وقد ذم الله- تعالى- من يكثر الحلف بقوله:

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾(٥) وأمر بحفظ الأيمان فقال:

﴿ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ ﴾(٦).

قال الإمام الرازى: «والحكمة فى الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف فى كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين فى قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلى فى اليمين، وأيضا كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله. كان أكمل فى العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله- تعالى- أجل وأعلا عنده من أن يستشهد به فى غرض دنيوى، وأما قوله بعد ذلك ﴿ أَن تَبَرُّواْ ﴾ فهو علة لهذا النهى. أى: إرادة أن تبروا والمعنى إنما نهيتم عن هذا- أى عن الإكثار من الحلف- لما أن توقى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونون يا معشر المؤمنين بسبب عدم إكثارهم من الأيمان- بررة أتقياء مصلحين»(٧).

وهذا الوجه أيضا استحسنه كثير من العلماء، ولا تنافى بينهما، لأن الله- تعالى- ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعا من فعل الخير، كى ينهانا فى الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به فى عظيم الأمور وحقيرها.

ثم ختم- سبحانه- الآية بقوله:

﴿ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

أى: سميع لأقوالكم وأيمانكم عند النطق بها عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم لتنالوا رضاه ومثوبته.

وقوله- تعالى-:

﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ ﴾.

استئناف بيانى، لأن الآية السابقة لما أفادت النهى. عن التسرع فى الحلف، أو عن اتخاذ الأيمان حاجزا عن عمل الخير، كانت نفوس السامعين مشوقة إلى حكم اليمين التى تجرى على الألسنة بدون قصد.

---

(٥) القلم (١٠).

(٦) المائدة (٨٩).

(٧) تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص٨٠.

والمؤاخذة: مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإلزام بالوفاء بها.

واللغو من الكلام: الساقط الذى لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية مصدر لغا يلغو ويلغى.

والمعنى: لا يعاقبكم الله- تعالى- ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللاغية فضلا منه-سبحانه- وكرما.

واليمين اللغو هى التى لا يقصدها الحالف، بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد، وقد ذكر العلماء صورا لها منها- كما يقول ابن كثير:

ما رواه عطاء عن عائشة أنها قالت: (اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله) وفى رواية عن الزهرى عن عروة عنها أنها قالت: (اللغو فى اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارءون فى الأمر- أى يتناقشون ويتذاكرون فيه- فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم) أى تجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين:

ومنها ما جاء عن عروة أنها كانت تتأول هذه الآية يعنى قوله- تعالى-:

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾

وتقول: «هو الشئ يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه».

ثم بين- سبحانه- اليمين التى هى موضع المحاسبة والمعاقبة فقال:

﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾.

أى: لا يؤاخذكم الله فى اليمين التى لم تصدر عن روية وتفكير ولكن يؤاخذكم أى يعاقبكم فى الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب فى اليمين، بأن يحلف أحدكم على شئ كذب ليعتقد السامع صدقه، وتلك هى اليمين الغموس- أى التى تغمس صاحبها فى النار- ويدخل فيها الأيمان التى يحلفها شهود الزور والكاذبون عندالتقاضى ومن يشابههم فى تعمد الكذب.

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم بباطل.

ويرى الإمام الشافعى أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة.

والباء فى قوله: ﴿ بِمَا ﴾ للسببية، وما مصدرية أى، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب، أو موصولة والعائد محذوف أى ولكن يؤاخذكم بالذى كسبته قلوبكم.

وقوله:

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة فى اللغو. أى والله غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو، حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة.

وبعد بيان هذه الأحكام فى الأيمان عامة، عقب – سبحانه – ذلك ببيان حكم اليمين الخاصة فقال:

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

و﴿ يُؤْلُونَ ﴾: من الإيلاء مصدر آلى يؤالى ويؤلى إيلاء بمعنى حلف. قال الشاعر:

قليل الألايا حافظ ليمينه
وإن سبقت منه الألية برت

وقد خص الإيلاء فى الشرع بالحلف على ترك مباشرة الزوجة. وكانوا فى الجاهلية يحلفون ألا يقربوا نساءهم السنة والأكثر إضرارا بهن.

و ﴿ تَرَبُّصُ ﴾ التلبث والانتظار والترقب. قال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلها
تطلق يوما أو يموت حليلها

و ﴿ فَآءُو ﴾ معناه رجعوا. والفىء فى اللغة هو رجوع الشىء الى ما كان عليه من قبل، ولهذا قيل لما تزيله الشمس من الظل ثم يعود فىء. وقيل لما رده الله على المسلمين من مال المشركين فىء كأنه كان لهم فرجع اليهم.

قال الشاعر:

ففاءت ولم تقض الذى أقبلت له
ومن حاجة الانسان ما ليس قاضيا

و ﴿ عَزَمُوا۟ ﴾ من العزم وهو عقد القلب على الشىء، والتصميم عليه. يقال عزم على الشىء يعزم عزما وعزيمة.. إذا عقد نيته عليه.

و ﴿ ٱلطَّلَـٰقَ ﴾ هو حل عقد النكاح الذى بين الرجل والمرأة، وأصله من الانطلاق، وهو الذهاب. يقال: طلقت المرأة تطلق – من باب نصر – طلاقا، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن كانت فى عصمة رجل معين.

قال الفخر الرازى: كان الرجل فى الجاهلية لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات بعل والغرض منه مضارة المرأة. ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك – أيضا – فأزال الله، – تعالى – ذلك، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل فإن رأى المصلحة فى ترك هذه المضارة فعلها، وإن رأى المصلحة فى المفارقة عن المرأة فارقها».

ومعنى الآيتين الكريمتين: أن الله – تعالى – جعل للذين يحلفون على ترك مباشرة أزواجهم مدة يراجعون فيها أنفسهم، وينتظرون فيها ما يستقر عليه أمرهم، وهذه المدة هى أربعة أشهر، فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة، ورأوا أن المصلحة فى الرجوع فإن الله – تعالى – يغفر لهم ما فرط منهم. وإن استمروا على ترك مباشرة نسائهم، وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله – تعالى – يحكم بالتفريق بينهما، لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران، وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة.

وقوله:

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ ﴾ متعلق بمحذوف خبر مقدم. وتربص مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام بهذه التوسعة التى وسع الله بها عليهم، فهى مدة كافية لأن يراجع المرء فيها نفسه، ويعود إلى معاشرة زوجه خلالها.

وعدى فعل الإيلاء بمن، مع أن حقه أن يتعدى بعلى، لأنه تضمن هنا معنى البعد كأنه قال: للذين يؤلون متباعدين من نسائهم.

و﴿ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ على حذف المضاف، أو من إقامة العين مقام الفعل المقصود منه المبالغة أى للذين يؤلون من مباشرة نسائهم

وأضيف التربص إلى الظرف ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ على الاتساع إذ الأصل تربصهن فى أربعة أشهر. وقوله:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ دليل الجواب. أى فإن فاؤا إلى زوجاتهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها بالابتعاد عنهن، بأن كفروا عنها وتابوا إلى ربهم فحنثهم مغفور لهم لأنه – سبحانه – غفور لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، رحيم بعباده فى كل أوامره وتكاليفه.

وجواب الشرط فى قوله:

﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ محذوف والتقدير وإن عزموا الطلاق فقد وجب عليهم ما اعتزموه، والطلاق منصوب على نزع الخافض لأن عزم يتعدى بعلى.

وفى قوله:

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وعيد شديد لمن يحلف على ترك مباشرة امرأته أو يمسكها بقصد إيذائها ومضارتها.

أى فإن الله – تعالى – سميع لكل ما كان من الزوج الحالف، عليم بما يقع منه من مضار أو غيرها، وسيجزيه يوم القيامة بما يستحقه.

قال القرطبى ما ملخصه: وقد جعل الله للزوج مدة أربعة أشهر فى تأديب المرأة بالهجر، وقد آلى النبى ﷺ من أزواجه شهرا تأديبا لهن – عندما طالبنه بزيادة النفقة – وقد قيل: الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع أن تصبر عنه أكثر منها، وقد روى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – سأل بعض النساء عن مقدار صبر المرأة عن زوجها فقلن أربعة أشهر، فجعل عمر مدة الرجل فى الغزو أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين، وهذا – والله أعلم – يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر»(٨).

وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف فى مثل هذه الأمور، والأربعة الأشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله، فإما أن يعود إلى معاشرة زوجه بالطريقة التى شرعها الله، وإما

(٨) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ١٠٧ بتصرف وتلخيص.

أن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق، ليبدأ كلاهما حياة زوجية جديدة مع شخص آخر. فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون، وأنفع للرجل كذلك وأشرف. وقد اختار الله هذه المدة وهو الأعلم بحكمة اختياره فعلينا أن نتقبل ما شرعه لنا طائعين خاشعين.

هذا وجمهور العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة، وانما بانتهائها يأمره الحاكم بالفيئة، فإن تقبل أمر الحاكم بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها، وإن لم يتقبله بالرضا أمره بالطلاق، فإن طلق فبها وإلا طلقها الحاكم منه.

وعليه فإن الفاء فى قوله – تعالى –:

﴿ فَإِن فَآءُو ﴾ لترتيب الحكم الذى يحصل بعد مدة التربص.

وقال الأحناف: إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهى الأربعة الأشهر، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها، ويكفى فى مراجعته لنفسه تلك المدة، ومادام لم يرجع إلى معاشرة امرأته خلالها فقد آثر فراقها، ولا يصح أن نعطيه أية مهلة من الوقت بعدها. وعليه تكون الفاء عندهم للتفصيل، أى تفصيل ما يحصل من الزوج فى هذه المدة.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المسلم عن اتخاذ الحلف بالله حاجزا بينه وبين فعل الخير، وأمرته بأن يحفظ لسانه عن الإكثار من الحلف بالله من الأمور الصغيرة والكبيرة، وحذرته من تعمد الأيمان الكاذبة التى تؤدى إلى غضب الله – تعالى – لأن اليمين الكاذبة الفاجرة من كبائر الذنوب، وحذرته كذلك من أن يهجر زوجته بقصد إيذائها والإضرار بها، لأن الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المودة والرحمة، وأرشدته إلى أن أقصى مدة لهجر الزوجة بقصد تأديبها وعلاج اعوجاجها هى أربعة أشهر يراجع فيها نفسه، فإما أن يعود إليها ويكفر عن يمينه، وإما أن يقع بينهما الفراق ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾(٩).

وبهذه الأحكام السامية يكون الإسلام قد شرع للرجل والمرأة ما ينفعهما ويصون كرامتهما، ويحفظ لهما حريتهما وحسن استمتاعهما بالحياة.

«يتبــــع»

***

(٩) النساء (١٣٠).

قضايا قرآنية :

قضية الوقف على رؤوس الآيات

لفضيلة الشيخ / صديق بكر عيطة

من القضايا القرآنية العظيمة ذات الأثر الواضح فى موسيقى القرآن الكريم، قضية الوقف على رؤوس الآى. ولقد رأى مؤلف كتاب « الفرقان » (١) . رحمه الله. أن هذه القضية فى حاجة شديدة إلى أن تحل عليها « بركاته » ليترك فيها بصماته « البيضاء » وذلك بالرغم من أنها بعيدة عن الهدف الأول الذى ألف كتابه من أجله، وأعلنه فى مقدمته ص٨، ٩ وهو بيان حكم ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى غير العربية.

وياليته فعل ذلك بقصد البحث، أو حتى إبداء الرأى، الذى يحترم آراء الآخرين، ويرى فيها الخطأ الذى يحتمل الصواب، كما يرى فى رأيه الصواب الذى يحتمل الخطأ، كما هى سنة الحوار العلمىّ المنظم!! وياليته فعل ذلك فيما يحتمل الاجتهاد، وإبداء الرأى الشّخصىّ؛ إذن لهان الأمر. ولكنه ـ سامحه الله ـ دسّ أنفه فيما هو متناقل عن رسول الله ﷺ وعن صحابته الأبرار ـ رضى الله عنهم ـ أجمعين؛ ولهذا كان موضع تسليم تام من جميع المسلمين وفى كل العصور وخارج دائرة الحوار والمناقشة تماما.

وقد أفردت لها حديثا خاصا أناقشه فيها على الرغم من أن مؤلف كتاب « الفرقان » أورد الكلام فى ثنايا حديثه عن القراءات والتجويد، حيث اعتاد ـ وعلى امتداد الكتاب كله ـ الخلط بين القضايا داخل الفصل الواحد وبين الفصول المتعددة.. أقول أفردت لهذه القضية حديثا خاصا.. لأنها موضوع قائم برأسه من الأجدى الفصل بينه وبين القراءات والتجويد. وفى هذا المقال والذى يليه ـ إن شاء الله تعالى ـ :

(١) تمت مناقشة هذا الكتاب المسمى بـ «الفرقان» فى قضايا: الرسم العثمانى ـ الأحرف السبعة ـ التجويد فى هذه المجلة الغراء «الأزهر» فى أعداد سابقة، فليرجع إليها من شاء ليتعرف عن قرب على هذه الافتراءات والأكاذيب التى تفترى حول كتاب الله. وقد تمت مصادرة هذا الكتاب فى مصر منتصف القرن العشرين، ولكنه وجد طريقه مرة أخرى وطبع فى إحدى البلاد العربية خارج مصر.

سنناقش كتاب «الفرقان» فيما ذهب إليه مؤلفه.. ونبيّن وجه الخطأ لديه، ثم نُقدّم بعض الرؤى، لما يجب أن تكون عليه دراسة الفواصل، ورؤوس الآيات، كما أننا سوف نقدم بعض الدراسات لبعض الأعلام السابقين، الذين صدقوا مع الله ومع أنفسهم. وأخلصوا فى قراءة القرآن الكريم، واستنباط أوجه العظمة فى هذا الكتاب المعجز.

يقول صاحب كتاب «الفرقان» مُنددًا بالقُراء وعلى وجه الخصوص علماء القراءات والتّجَويد منهم فى صفحة ١٤٩، ١٥٠: «وقد اعتاد كثير من القُراء التزام الوقوف على رُؤُوس الآى، والابتداء من أوائلها بدون مراعاة المعنى، ولا مراعاة الاحتياج إلى الوصل.

«وحجتهم فى ذلك أن الوقوف على رُؤُوس الآى، سنةٌ عن رسول اللّه ﷺ.

«وقد فاتهم - ولايزال الكلام لصاحب كتاب الفرقان - أن الرسول عليه السلام، إنما وقف عليها ليُعلم مكانُها ولتدوّن الفواصلُ، وتعدّ الآياتُ.

«ولولا وقوف الرسول ﷺ على رؤوس الآى؛ لما علمناكم آية نزلت، ولما أدركنا مواضعها، وأمكنتها، وأوائلها».

«ولا شك أنّ الرسُول الأمين، صلواتُ اللّه تعالى وسلامُه عليه كان يقف على رأس كل آية فيصل مايستحق الوصل، ويدعُ مايكونُ قد اكتملت معانيه واستتمت مراميه.

أما المحافظة على الفواصل، لمجرد أنها رؤوسُ آى فحسب، بدون مراعاة لحسن النظم والتئامه، وارتباطه بما قبله؛ فليس من الحكمة ولا من البلاغة فى شئ» ا،هـ كلام الأستاذ.

وهو بذلك إنما يفجر قضية من أكبر قضايا التلاوة القرآنية المباركة، قضية الوقف على رؤوس الآى. ولقد كان من الميسور على الرجل، أن يتجه إلى البحث، والدرس فى هذه القضية الكبرى، التى لم يشبع منها العلماء ولا أظنهم يشبعون؛ فهى تفتح الباب واسعا على قضية موسيقى القرآن الكريم، وقضية بلاغته فى تكوين العبارة من بدئها لختامها، وقضية المعنى.. وقضية ما استنبطه العلماء من علامات الوقف بجميع أنواعه: الواجب، والممتنع، والجائز مع استواء الطرفين، والجائز مع ترجيح أحد الطرفين، وعلة كل شئ من ذلك، وعلاقته بأهداف الآية أو الآيات، والبعيد منها والقريب، وعلاقة كل ذلك بإعجاز الكتاب العزيز، والحقّ أن الرّجل لم يكن بعيدا عن كل ذلك أو بعضه، وإنما كان على ضربة مِعْوَل. ولو أنّه اتجه إلى ذلك، محترما آراء الآخرين، الذين يختلفُون معه؛ إذن لأضاف إلى المكتبة الإسلامية ضوءا كاشفا، نستجلى به جانبا من هذا الكتاب الذى لاتنقضى عجائبه.. كان من الميْسُور عليه أن يتجه إلى ذلك، ويحقق فيه الكثير، لو أنه أراد؛ لكنه لم يشأ؛ حيث غلبه تيار الرفض، الذى ركب منه كل مركب، منذ أول صفحة طالعنا بها فى كتابه.

إن المؤلف بحديثه عن الوصل أو الوقف على أواخر الآى، إنما يفتعل معركة شرسة، بلا أدنى مبرر.. وإلا فإن من يفتح المصحف - أىّ مصحف - لينظر فى تشكيل أواخر الآيات، فسوف يرى أنّ القرآن كله، قائم على الوصل فيما بين آخر كل آية مع أول التى تليها؛ حتى آخر سورة الناس مع أول سورة الفاتحة. إذن هذا مبدأ ثابت فى القرآن كله، ماعدا الأحرف المقطعة التى تبدأ بها بعض سور القرآن

الكريم، مثل: الّمّ. حمّ. طسّ. المّر. كهيعص. حم عسق. ق. ن. وماشابه ذلك فإنها تقوم على الوقف دون الوصل.. وهذا يدركه كل مسلم اعتاد قراءة القرآن، والنظر بعينيه فى المصحف الشريف، فلا معركة فى هذا المجال إطلاقا، ومع ذلك لامانع من الوقف على أواخر الآيات، اقتداء بسُنّة النبىّ ﷺ، التى أشار إليها المؤلف، مع وجود بعض العلاقات النحوية والتركيبية فى بناء العبارة القرآنية. فالوقف مع وجود بعض العلاقات لايعنى انقطاع الجملة وفساد النظم؛ إذ لا دخيل، وليس هناك فاصل زمنى يُفْسدالمعنى، أو ينسّ مامرّ فى أول الجملة.

فلو أن المؤلف «العلامة» ـ اجتهادا منه فقط ـ أعلن أنه يختار الوصل هنا، أو يختار الوقف هنا لسبب يذكره، أيا كان موقع هذا السبب بين تقدير الصواب والخطأ. لكان له ذلك؛ إذ لا دليل من نص خرج على مقتضاه، ولن يكون لنا اعتراض على مايقول، وإذا اختلفنا معه فلن يَفْسُد مابيننا وبينه من علاقة الود والاحترام. ولكنه سخر بأسلوب يدعو إلى الاشمئزازوالتقزز، من علماء القرآن الكريم، ولم يدر ـ سامحه الله ـ أنه حفظ شيئا وغابت عنه أشياء: حفظ أن هناك علاقات نحوية، ونسى أن هناك علاقات وملابسات بلاغية، وكلا النحو والبلاغة وجهان لعملة واحدة، هى اللغة الصحيحة قلْبا وقالَباً. فإذا كان النحو يمثل القالَب، فالبلاغة هى القلْبُ داخل هذا القالَب؛ فلا منافاة إذن بينهما، والوصل له وجهته والفصل أيضا له وجهته، ولانَعْنى بذلك أن نُسوّى بينهما فى جميع المواضع؛ فتلك قضية كبرى من قضايا القرآن، وهى تخضع لمراجعة التفاسير، وآراء العلماء تفصيلا فى كل موضع، وقد وضعوا لها رموزا تشير إلى ذلك كله. ولكى ندلّل على صحة ماذهبنا إليه دون إطالة سنكتفى بالرّدّ على بعض الأمثلة التى ذكرها؛ لنبين خطأه فى المصادرة على أراء الآخرين، وليس فيما ذهب إليه من صحة الوصل هنا أو الوقف هنا. يقول سيادته صفحة ١٥١ من كتاب «الفرقان»:

..ومن ذلك أيضا قوله ـ تعالى ـ:

﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾(٢).

فإذا قرأنا مابعدها بدون وصل؛ لما وضح له معنى. وهو قوله ـ جل شأنه ـ:

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٣).

بل يجب أن يقرأ:

﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٤).

«وذلك لأن «يعبدون» فعل، و«من دون الله»: متعلّق به، ولا يجوز الفصل بين الفعل ومتعلقه» ا.هـ كلام المؤلف.

أما نحن، فنقول: الوصل هنا وارد بمقتضى مافى العبارة من تعلّق نحوىّ أشار إليه المؤلف. وليس هناك من يمنعه من القراء، ولا من غيرهم من علماء المسلمين. وللوقف أيضا بلاغته؛ حيث إنّ الذهن ليتساءل عند قوله ـ تعالى ـ: «يعبدون» عن أسباب حشرهم فى جهنم، وكيف يُحشرون فيها مع أنهم يعبدون؟!

فإذا بالسبب يأتى بعد لحظة الفصل التى هى

(٢) الصافات (٢٢).

(٣) الصافات (٢٣).

(٤) الصافات (٢٢ ، ٢٣).

لحظة التساؤل.. «من دون الله» ليبين أن عبادة غير الله هى السبب فى أن يُحشروا فى جهنم.

وفيه أيضا نكتةٌ بلاغية أخرى تترتب على ذلك، وهو التأكيد على نسبة عبادتهم لغير الله - تعالى - بتكرار الإسناد، المضمر فى النفس عند قراءة «من دون الله» فكأن القارئ قال: يعبدون من دون الله. وهو مايسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال.

وهناك رد آخر على وجود الفصل مع التعلق النحوى، ورد على لسان المؤلف نفسه، وجرى به قلمه، دون أن يتدبره. ونحن هنا سننقل عبارة الكاتب ملتزمين بتسجيل الفواصل التى خطها قلمه، لأنها ذات دلالة هنا. يقول: «فإذا قرأنا مابعدها بدون وصل؛ لما وضح له معنى، وهو قوله جل شأنه. .إلخ» تدبر معى أيها القارئ الفاصلة المنقوطة، والتى تعنى أن للقارئ أن يتوقف برهة لالتقاط الأنفاس، مع أنها توسطت بين الشرط وجوابه، وهما يشكلان جَنَاحَيْ العبارة.. نحن لا ندّعى أن المؤلف مخطئ فى ذلك؛ وإنما نقول: إن الوقف عند «يعبدون» لايعنى انقطاع النظم، ولا يعنى الفصل بين الفعل ومتعلقاته، والفواصل التى وردت على لسان المؤلف من هذا القبيل أكثر من أن تُحصَى.

مثال آخر: يقول المؤلف صفحة ١٥٣: «والذى يقطع بما قدمناه، ويجزم بوجوب الوصل عند رؤوس الآى، مادام المعنى ناقصا وغير تام: قوله تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴾(٥)

وهو رأس آية. فإذا وقفنا على ذلك بدون وصل، لم يجز. لأنه إخبار بأنهم يقولون، بدون ذكر لما يقولونه. وإذا بدأنا الآية التى تليها بدون وصل، لكان ذلك مكفرا، لأن البادئ بذلك يقول: «ولد الله». وكأنه يقرر أن الله قد ولد، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

«وفى مثل هذه الحال يجب الوصل وجوبا، فيقول:

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾(٦).

«وذلك لأن «ولد الله» مقول القول، ولا يجوز الفصل بين القول ومقوله» ا.هـ كلام المؤلف.

أما نحن فنقول: الوصل هنا وارد للتعلق النحوى الذى أشار إليه المؤلف، ولم يمنعه أحد من القراء، كما تُوهم سيادته، أو كما تقرر عبارته، وللوقف أيضا بلاغته. فالقارئ عندما يقف على «يقولون» هنا يبدو الذهن فى حالة ترقب، لمعرفة مضمون هذا الإفك، الذى نبهت الآية على خطورته بعدة وسائل، كما أكدت نسبته إليهم بعدة أدوات. ويظل الذهن يطوف بين احتمالات تشمل مابين المشرق والمغرب. فى هذه البرهة التى تبلغ الغاية فى القصر الزّمنىّ، لكنها تتسع لما بين المشرقين من حيث قوتها، وماتحمله من مشاعر فوارة بالتوق إلى معرفة حقيقة ذلك الإفك، ثم تأتى بعد ذلك الإجابة لتقع كالعاصفة المباشرة على أذن السامع، ولذا أعقبها بما يحكم به عليهم حكما قاطعا، يغسلُ ماعلق بنُفُوس المؤمنين؛ من شعور بالمرارة من سماعهم لهذه الفرية النكراء «ولد الله. وإنهم

(٥) الصافات (١٥١).

(٦) الصافات (١٥١، ١٥٢).

لكاذبون» فالوقف هنا فيه تسليط للضوء على ضخامة هذه الفرية. وهذه هى النكتة البلاغية التى لم يفهمها الأستاذ المؤلف.

مرة أخرى. نحن لانستنكر على المؤلف أو غيره الوصل. فيما لو رأى المعنى يدعو إلى ذلك؛ ولكن مانعجب له حقا أن يستنكر هو وقف القراء على أواخر الآى، وهو يقرر فى نفس الوقت «أن الوقف سنة عن رسول الله ﷺ »أفَتَراه يدعو للتخلص من هذه السنة، ليكتب المصحف بعد ذلك، وقد تخلصت طبعاته من الفواصل المرقمة، التى تشير إلى نهاية الآية، وبداية التى تليها؟! أم أنه يدعو إلى إعادة النظر فى ترقيم الآيات داخل كل سورة من سور القرآن الكريم؟!

تقسيم الآيات: بين التوقيف والاجتهاد

إن قضية تقسيم الآيات، قضية محسومة، ولم تعد محل خلاف أو اجتهاد، بين هذا وذاك، ولم تعد قابلة للأخذ والرد، سواء اعتبرناها توقيفية عن رسول الله ﷺ، أو من اجتهاد الصحابة والسلف الصالح، الذين هم أعرف منا بالجو الإسلامى العام، والجو القرآنى الخاص.

يقول الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى فى «الجامع لأحكام القرآن»: «.. وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد: أن الله - تعالى - أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فُرّق على النبى ﷺ فى عشرين سنة، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر يسأل، ويوقف جبريل رسول الله ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، فكله عن محمد خاتم النبيين، ﷺ عن رب العالمين.. فمن أخّر سورة مقدّمة. أو قدّم أخرى مؤخّرة، فهو كمن أفسد نظم الآيات.. وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات»(٧).

ويقول أيضا: «.. وقال يحيى بن أبى كثير: كان القرآن مجردا فى المصاحف فأول ماأحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم..»(٨).

وبقراءة هذه المنقولات والجمع بينها، نرى أن أواخر الآى، وأوائل التى بعدها، قد استقرت منذ عصر النبوة؛ حيث وقف جبريل رسول الله - ﷺ - غير أنه ﷺ، لم يأمر بوضع النقط بين الآيات، وإنما تركها، وهى محفوظة فى الصدور، محددة المعالم حفظا وتلاوة. إلى أن جاء اجتهاد الصحابة - رضوان الله عليهم - فوضعوا النقط - ضمن تحديداتهم - بين الآيات، كما وضعوا النقط فوق الحروف، للتفريق بين المتشابهات فى الرسم: كالباء، والتاء، والثاء مثلا.. ولم يبتكر الصحابة شيئا من ذلك، وإنما قاموا - فقط - بتمييز ما استقر عليه الأمر منذ عهد رسول الله ﷺ.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تحديد أوائل الآيات وأواخرها، توقيفى عن الرسول أولا. ثم كان وضع العلامات اجتهادا من الصحابة ثانيا، فيما استقر عليه عن الرسول ﷺ الذى نقل عن جبريل - عليه السلام - فلا مجال هنا لاجتهاد صاحب كتاب «الفرقان» أو غيره.

---

(٧) الجامع لأحكام القرآن ص٥٢.

(٨) نفس المصدر ص٥٥.

من روائع أسلوب القرآن

حذف جواب "لو ترى"

للأستاذ الدكتور/ عبدالحليم حفنى

لفظ (لو) من الأدوات التى تتضمن معنى الشرط، فلها فعل شرط وجواب شرط، تقول: لو زرتنى أكرمتك، فالزيارة فعل الشرط، والإكرام جوابه، وتقول لو نزل المطر نبت العشب، فنزول المطر فعل الشرط، والإنبات جوابه، وحين يصرح بجواب الشرط أيا كان يصبح معروفا والنفس تستطيع أن تستوعب صورته ولو تخيلا محددا.

ولكن يراد أحيانا حذف جواب الشرط حين يقترن لفظ (ترى) بلفظ (لو) فتصبح (لو ترى) ويبقى الشرط وملابساته ليدل على الجواب، فيكون التعبير حينئذ دالا على التهويل وتضخيم المشهد.

والقرآن الكريم يصور مشاهد للوعيد يحذف فيها جواب (لو) ليترك للخيال فيها مجالا فسيحا يتخيل فيه ما يشاء فى ضوء ملابسات فعل الشرط، أو كما يقول علماء البلاغة لتذهب فيه النفس كل مذهب.

ومن هذه المشاهد ما يبدأ من أول لحظة فى قدوم أعداء الله على الآخرة، أو آخر لحظة فى حياتهم الدنيا، وهو مشهد خروج الروح، حيث يصور المشهد أعداء الله وقد دخلوا فى سكرات الموت، وغمرتهم أهواله، وملائكة الموت لاينتزعون أرواحهم مرة واحدة، وإنما يتركون الأجساد تطرد هذه الأرواح وكأنها تتبرأ منها، وكأن أعداء الله هم الذين يخرجون أرواحهم، فيكون هذا أشد إيلاما لهم، كما نتصور إنسانا يضطر إلى إجراء جراحة لنفسه، فإن الألم حينئذ يكون أشد مما لو أجراها له غيره، والملائكة يطلبون منهم هذا قائلين لهم:

﴿ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ﴾[1] وفى هذا المشهد نجد عذاب الإهانة والإذلال يكون معدا بحيث ينالهم فور خروج أرواحهم، ولو بمشاهدتهم هذا العذاب منتظرين أن يحين دخولهم فيه، وفى الأمثال الشائعة: قولهم وقوع البلاء أيسر من انتظاره، بمعنى أن حلول المصيبة أهون احتمالا من انتظار حلولها، وهذا المشهد فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ ﴾[2].

ومن الواضح أن هؤلاء كانوا من سادة القوم ذوى الأتباع والأنصار، وأصحاب الثراء والجاه، وهذا يدل عليه الكثير من مضمون ما سبق فى الآيتين الكريمتين، مثل:

﴿ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ فإن الكبرياء لا تصدر عادة من عامة الناس، وإنما من خاصتهم، وكذلك ﴿ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ ﴾ حيث يتضمن هذا أنكم تركتم أتباعكم وأعوانكم فى الدنيا وجئتم يوم القيامة فرادى بدون أتباع أو أعوان، وكذلك ﴿ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ ﴾ بمعنى تركتم ما كان لديكم فى الدنيا من نعم الله فى الجاه والبنين وغير ذلك، وكذلك:

﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ﴾ أى تركتم الذين كنتم تظنون أنهم آلهة ينفعونكم أو يشفعون لكم، كما قال بعضهم فى الدنيا عن الأصنام:

﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾[3].

وكل هذا تأنيب وتهكم بهم ليكون هذا التهكم عذابا نفسيا يضاف إلى عذابهم البدنى، ولكن تركيز الوصف وبيان حالهم يومئذ كان فى حذف جواب لو من تعبير:

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ ﴾ فالمعنى لو رأيت حالهم يومئذ لرأيت شيئا فظيعا أو شيئا مهولا أو شيئا لاتوصف بشاعته أو لرأيت أبشع ما يمكن أن يتصوره الخيال من سوء حالهم وهوانهم أو نحو ذلك من كل ما تستطيع النفوس أن تتخيله وتتصوره، فالتعبير لايهدف إلى تحديد صورة معينة لسوء حالهم حينئذ، وإنما يهدف إلى نحو ما يصفه علماء البلاغة بقولهم: لتذهب فيه النفس كل مذهب، أى لتتصور أو تتخيل كما تشاء.

وبعد أن ينتهى المشهد السابق نجد مشهدا آخر من مشاهد الموت لأعداء الله حين يتوفاهم الملائكة فينها لون عليهم بنوعين من العذاب وليس نوعا واحدا، أحدهما لا يقصد به الإيلام البدنى، وإنما تقصد به الإهانة والإذلال، وهو صفعهم على وجوههم، وضربهم على أدبارهم، والعذاب الآخر هو العذاب الأليم جسديا، وذلك

(١) الأنعام (٩٣).

(٢) الأنعام (٩٣)، (٩٤).

(٣) الزمر (٣).

فى قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾(٤).

أى يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق، وحقه أن يقال اصطلوا هذا العذاب، أو ادخلوا فيه، ولكن التعبير بالذوق ﴿وَذُوقُوا۟﴾ هو من باب السخرية بهم، لأن الذوق والتذوق هو اختبار طعم الشىء باللسان أو بطرفه، وعذاب جهنم لايذاق باللسان ولا يختبر طعمه، لأنه معروف، وهو يحرق حرقا، ويشوى شيا، ولا يذاق ذوقا.

ولكن حذف جواب لو فى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يقتضى تضخيم المشهد وتهويله، حيث يكون المعنى لو رأيت هذا المشهد لرأيت شيئا فظيعا تتخيل فيه أبشع ما تتصور من حالهم يومئذ.

وإذا كان فيما سبق تصوير لمشاهد خروج أرواحهم، وتصوير ما يعقب ذلك، فهذا مشهد يصور بعثهم من القبور، حيث يخرجون من قبورهم مسرعين متزاحمين أذلاء منكرين كما يصورهم قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾(٥).

ولكن حذف جواب لو يأتى فى صورة أخرى لهذا المشهد نفسه، حيث تصور الصورة المشهد حين يفزعون من قبورهم بالبعث ولكنهم يفاجأون بأنهم مأخوذون من كل وجه بقبضة قوية بالغة القوة والشدة لا يجدون منها منجى ولا مهربا، وذلك فى قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾(٦).

وحذف جواب لو يضخم المشهد ويكسبه هولا غير محدود رغم أن الصورة لاتتضمن حديثا مباشرا عن العذاب أو الإيلام، ولكن حذف الجواب يوحى بما يعوض ذلك، بل بما هو أشد منه، حيث يكون المعنى لو رأيت حالهم حينئذ لرأيت مشهد مهولا وحالا غير موصوفة فى شدة ما يحيط بها وما تعانيه نفوسهم، وفظاعة ما يحيط بها.

وفى مشهد آخر تنتقل الصورة إلى مشهد الحساب والمساءلة أمام الله، وهو مشهد رهيب لأعداء الله، حيث يشعرون بكل مشاعر الصغار والندم والتهيب والخوف وكل ما من شأنه أن يملأهم حسرة على ما ضيعوه فى حياتهم الدنيا من فرصة الإيمان وإرضاء الله، وعلى أنهم ورطوا أنفسهم فى التكذيب بدين الله ورسوله، ولفظاعة هذا المشهد على أعداء الله يكرره القرآن

---

(٤) الأنفال (٥٠).

(٥) القمر (٦ : ٨).

(٦) سبأ (٥١).

مـبـرزا السـبـب الذى وضـعـهـم فى هذا الوضع الرهيب، وهو مـعـاداتهم دين الله، وتـكـذيـبـهـم بالبعث، ففى القرآن :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾(٧).

فحذف الجواب فى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ وفى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ ﴾ لأن التعبير لم يذكر ماذا سيحدث حين يراهم فى أحد الموقفين، والحذف لتهويل المشهد وتضخم آثاره، وكلاهما مرتبط بالآخر، فمشهد وقفهم على النار يجسد ندمهم البالغ الشدة والإيلام بسبب أنهم كانوا يكذبون بما يرونه الآن ماثلا أمام أعينهم من العذاب، بل بما يعذبون به اليوم عذابا لايوصف، ومشهد وقفهم على ربهم يجسد إحساسهم بالخزى والهوان عند ربهم وهو يسجل عليهم اعترافهم بما كسبت أيديهم.

ولكن حذف الجواب فيهما يصور كأن المشهدين لايوصفان لفظاعة مافيهما من هول وآثار، وكأنه قيل لو رأيت أعداء الله فى المشهدين لرأيت هولا شنيعا، وحالا لا توصف.

وفى مشهد آخر نرى صورة أعداء الله وهم غـارقـون فى الذل والندم، حـتى إنهم لا يستطيعون رفع رءوسهم من الشعور بالذل والهوان، يضرعون إلى الله أن يعيدهم إلى الدنيا ليضعوا أنفسهم فى الوضع الصحيح الصالح، بدل الوضع الخاطئ الذى أودى بهم ووصلهم إلى هذا المصير، ولكنها ضراعة جاءت فى غير أوانها، حيث كان أوانها فى الدنيا وليس فى الآخرة، فيقول تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(٨)

فمفهوم اعترافهم أنهم كانوا عميا عن رؤية الحق، ولكنهم حينما أصبحوا عند الله وعقابه صاروا مبصرين، وكانت آذانهم صما عن سماع الداعى إلى الله فى الدنيا، فأصبحوا فى الآخرة من السامعين، وكانوا يكذبون بالدين أو يرتابون فى صدقه فأصبحوا اليوم موقنين بصدقه، ولكن حذف جواب «لو» يضخم مشهد الذل والهوان والندم الرهيب الذى يسيطر عليهم، وكأنه قيل: لو رأيت حالهم حينئذ وهذه العوامل تصطرع فى نفوسهم لرأيت شيئا شنيعا ومشهدا رهيبا لايوصف.

وفى مشهد من نوع آخر تدور معركة حامية بين الأتباع وسادتهم الذين كانوا سببا فى كفرهم، حيث يتبادلون الاتهام، ويتقاذفون بالشتائم، يقول الأتباع للسادة أنتم الذين

(٧) الأنعام (٢٧ : ٣٠).

(٨) السجدة (١٢).

صددتمونا عن دين الله، ولولاكم لكنا مؤمنين، فعليكم اليوم وزر كفرنا، ولكن السادة يسفهونم مؤكدين لهم أنهم كانوا يعرفون الحق، وكان يستطيعون أن يخرجوا من طاعتهم ويؤمنوا بربهم، ولكنهم آثروا الضلال وارتكبوا جريمة الكفر مختارين غير مكرهين، فيرد عليهم الأتباع مذكرين إياهم بما كانوا يدبرونه من كيد ومكر بالدين، وبما كانوا يأمرونهم به من الكفر والشرك، وهكذا فى معركة حامية صاخبة يصور القرآن بأسلوب إيجازه أهم عناصرها فى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٩).

ومن الواضح أن هذا المعنى من أهم مايعبر عن الواقع الاجتماعى فى ملابسات توصيل الدعوة الدينية إلى الناس، فإن السادة وقادة المجتمعات كانوا هم العقبة الكئود أمام كل دعوات الدين والإصلاح فى كل العصور وكل البيئات على الإطلاق، فهم يرون الدين بما يدعو إليه من المساواة هدما لسيادتهم وقيادتهم، وهم يشعرون بأنهم يملكون زمام العامة بحيث يوجهونهم كما يريدون، ولكن الدين ينقل هذا الزمام إلى الله – سبحانه –، لتكون طاعة الإنسان لله قبل أن تكون لغيره، فيرى السادة فى الدين سلبا لسيادتهم أو انتقاصا منها على الأقل، ومن هنا تأتى أهميـــة هذا المعنى الذى تتضمنه الآيات السابقة، والذى يتكرر فى القرآن كثيرا، فى صورة هذه الخصومة التى تنشب فى الآخرة بين السادة والأتباع ، لتكون تنبيها وتحذيرا للأتباع من خطورة انقيادهم للسادة فى سبل الضلال والكفر، ولتكون تبصيراً لهم بأن لديهم الفرصة فى حياتهم الدنيا ليفكروا فى مصلحتهم ومسئوليتهم أمام الله قبل أن يفوت الأوان بالموت، ويجدوا أنفسهم فى مثل هذا المشهد الذى يصوره القرآن كثيرا فى أوضاع مختلفة.

والذى يعنينا هنا هو حذف جواب «لو» فى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

فإن التقدير لو رأيت هذا المشهد بما يحفل به من خزى الكافرين جميعا أمام الله، ومن ندمهم الشديد على ما ارتكبوه فى حق أنفسهم من جريمة الكفر، وبما يحفل به هذا المشهد من صراع بين السادة والأتباع، وبما يحفل به من إذلال لهؤلاء المتكبرين حيث توضع فى أعناقهم الأغلال، لو رأيت ذلك لرأيت شيئا شنيعا لك أن تتخيل أو تتصور فيه كل مايمكن أن يخطر ببالك مما يستدعيه هذا السياق.

(٩) سبأ (٣١ : ٣٣).

من القصص التربوى فى القرآن الكريم

ولـــــدان

للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى

يولى علماء النفس وخبراء التربية القصص المعبر والمثال المؤثر أهمية كبرى وعناية قصوى باعتبارهما من أخطر وسائل الإيضاح وطرائق الإفصاح، فتراهم يوصون بهما الوصية الأكيدة ويلحون على ضرورة اصطناعها الإلحاح الشديد لما يرون لهما من الفعل النافع والأثر الناجع فى مجال التربية والتعليم والتقويم.

ولقد ظن هؤلاء وأولئك أنهم قد خلقوا فى هذا خلقاً، أو أنهم ابتكروا به صنعاً ولكن إن يتبعون إلا الظن، فقد سبقهم إلى هذا – ولا ريب – الكتاب التربوى الأعظم الذى أنزله رب كل شئ وخالق كل شئ على قلب المعلم الأمثل، محمد ﷺ بعد أن أدبه سبحانه فأحسن تأديبه.

إذ ضرب الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم أدق الأمثال، وقص أحسن القصص لتكون عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يدكر.

ولئن كلف علماء النفس، وخبراء التربية بالقصص والأمثال الرمزية التى تزخر بها كتب المناهج الدراسية، وبعض كتب التراث مثل كتاب «كليلة ودمنة» الذى يسوق ما ينبغى أن تكون عليه الأخلاق فى أسلوب يرضى بالتلميح دون

التصريح، فإن القصص القرآنى الحكيم، والمثل السماوى المحكم جاءا بالفكرة الحية التى تعيش بين الناس، وتتجسد أمام الأسماع والأبصار.

والقرآن بهذا يواجه الإنسان بنفسه ويكشف النفس أمام صاحبها، فكأنما الإنسان ونفسه مرآة عاكسة ومعكوسة معاً ومرسلة ومستقبلة فى آن واحد.

فإذا لم يتأثر المرء بالمثل بعد هذا الحق الصراح والبيان المفحم فإن ذلك لهو العتو بعينه، وإن هذا لهو الضلال المبين.

ولك فى هذا المجال أن تتأمل بفكرك الواعى بعض الأمثال التربوية الرائعة التى يسوقها إلى الناس، رب الناس.

فهذان مثلان جهيران ضربهما الله ـ سبحانه ـ وتعالى فى القرآن الكريم فى موقف المحنة والاختبار على سبيل الموعظة والاعتبار.

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(١).

وهما مثلان لفتيين يافعين إن يكونا قد اختلفا فى نسب البنوة والأبوة فقد اتفقا فى الانتساب إلى بيتين عريقين من بيوت الرسالة والنبوة.

وأحد هذين الفتيين هو ولد نوح ـ عليه السلام ـ وثانيهما هو إسماعيل ولد إبراهيم ـ عليهما السلام ـ.

ولقد بين الله ـ عز وجل ـ هذين المثلين فى كتابه التربوى المجيد مبيناً تقابل الخير والشر، وتنافى الرشد والحمق فى مدى استجابة الأبناء لتوجيهات الآباء ولاسيما فى مواقف الشدة، والخطر، ومواطن الرهبة، والحذر.

فنحن أمام هذين المثلين إزاء وسيلة تربوية إلهية معجزة وموقف سماوى مبين.

وما أظن الشباب المسلم اليوم إلا فى حاجة - وأية حاجة - إلى الوقوف مليا أمام هذه الأمثال الباهرة، والدروس العامرة فى تأمل طويل، وفى دراسة وتحليل، ممعناً فيها ما وهبه الله من لب ومهيئاً لها ما منحه الله من قلب.

لقد وضع كل من الولدين فى امتحان عسير واختبار خطير، وناهيك بامتحان عقدته المشيئة الإلهية، هل يجتازه إلا الصابرون المؤمنون؟!!

فأما ولد نوح فقد شهد الطوفان الغامر شهادة العين، ورأى بعينى رأسه سفينة أبيه ذات الألواح والدسر، وقد حملت من كل زوجين اثنين وأهله.

نعم!! شهد الابن ذلك المشهد المصيرى الرهيب حيث تجرى السفينة بمن فيها من المؤمنين الصادقين فى موج كالجبال ولكنه فى عناد وغرور، يأخذ مكانه بعيداً بعيداً مؤثرا العصيان على الطاعة، ومفضلاً العزلة المهلكة على الجماعة ظناً منه أن مأواه إلى الجبل سيعصمه من الماء.. وهيهات.

وعندئذ يرتجف قلب الوالد الواله فرقا على ولده الذى يحدق به الخطر من كل مكان، ويحيق

١- إبراهيم (٢٥).

به الهلاك من كل صوب أمام ناظريه، فيدعوه فى لهفة شديدة وإشفاق رحيم:

﴿ يَـٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٢)

ولكن الولد الأحمق العاق يرد أباه القلق الحانى فى صلف واستهتار، ويزين له صلفه واستهتاره أنه قد عثر على الحجة التى تبرر له هجر أبيه وعصيانه:

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾(٣).

ولكن الأب الشفوق اللهيف يعود إلى مناجاة ولده، ومناداة فلذة كبده، لا ينال من أمله يأس، ولا يضعف من همته خور ولا فتور.. ومن يدرى؟ لعل الإلحاح يعيد ابنه إلى الرشاد، ويهديه إلى السداد!!

هناك ظل الوالد الشيخ يجادل ولده، ويؤكد له نصحه الصادق الأمين:

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾(٤).

ولما كانت إرادة الله ـ عزوجل ـ فوق كل إرادة، ولما كان علمه الأزلى القديم ـ سبحانه ـ قد سبق كل علم، كان لابد أن تصل المأساة إلى ذروتها، وأن يكتمل الدرس لتنفعل به النفس لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فوقع حكم الله، وتمت مشيئته بين الوالد النبى والولد الشقى.

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾(٥).

ولعل الله ـ سبحانه وتعالى – وهو بمراده أعلم – قد أتاح للابن وأبيه فرصة الجدل وفسحة الحوار حتى يستنفد كل منهما حقه فى القول، وعندئذ يكتمل المثل، وينقضى الأجل، ليصبح بعد ذلك آية للناس جيلاً بعد جيل.

ذلك ولد ينصحه والده بأن ينجو من خطر داهم وطوفان عارم، ويبين له سبيل النجاة، ويرسم له وسيلة الحياة، بل وتكاد هذه النصيحة الأبوية الخالصة أن تخرج إلى الرجاء والتوسل، ولكن الابن الجانح سادر فى غيه كأن فى أذنيه وقراً فهو لا يسمع نداء، أو كأن على بصره غشاوة فهو لا يرى قضاء، أو كأنه قد أصر إصراراً على عصيان أبيه ولو دفع حياته وروحه ثمناً لذلك العصيان.. فلله ما أشقى!!

وأما الولد الآخر فإسماعيل ـ عليه السلام ـ لا يكاد أبوه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ينهى إليه ما رآه فى المنام– مجرد المنام – من أنه يذبحه حتى يهب طائعا ملبيا هاتفا فى حماس شديد وإيمان أكيد

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾(٦).

فلله ما أعظم بطولة الأب، وما أروع بطولة الابن.

٢– هود (٤٢).

٣– هود (٤٣).

٤– هود (٤٣).

٥– هود (٤٣).

٦– الصافات (١٠٢).

ولئن دخل إسماعيل مع ابيه في جدل - وحاشاه - فما كان أيسر عليه من أن يذكر لأبيه أن ذلك المنام قد يكون أضغاث أحلام.. ولكن الطاعة المذعنة والاستجابة المؤمنة تمنع إسماعيل أن يقف من أبيه موقف المراوغ المجادل حتى لو كان موضوع هذه المراوغة والمجادلة نجاة روحه ونجدة حياته وإنقاذ نفسه من الذبح الأليم، وحتى لو كان هذا الذبح قد جاء أمره فى المنام، وليس فى العيان.

وكأننا بإسماعيل لم يكتف بتلبية حلم أبيه وهو يعرضه له فى صورة الحديث الجارى وليس الأمر القاطع:

﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[٧].

كأننا بإسماعيل لم يكتف بالطاعة فقط، ولكن لعله عند ذاك قد أخذ يربت على كتف أبيه الشيخ مهدئاً من عاطفته، معزياً له، مطمئناً إياه فى إسلام عامر، وإيمان باهر.

﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٨].

لم يكن الخطر مشهوداً للإبن كما كانت الحال فى الطوفان ولكنه كان مناماً، ولم يكن الابن نفسه هو الذى رأى ذلك المنام، كما لم يكن خطاب إبراهيم لولده فى صيغة الأمر كأمر نوح لابنه

﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾[٩].

ولكن إسماعيل فى إيمانه المطلق، وإذعانه للحق، قد عرف النجاة العظمى فى طاعة أبيه، وهى نجاة تدركها البصائر النافذة دون الأبصار الجامدة، وتعيها القلوب الواعية التى لا تقف عند الساذج المحسوس من الأمور.

ثم نقف فى نهاية المشهدين المتقابلين عند نقطة المصير، فبينما ينتهى أمر الولد العاصى إلى أن يكون من المغرقين، إذا بالولد المطيع يكافأ على طاعته بالمثوبة والنجاة.

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[١٠].

وهكذا نرى أنفسنا أمام صورتين تحلت إحداهما بالإيمان، وباءت الأخرى بالعصيان والخسران.

فلله كم نتشوق إلى المدارسة الدؤوب لمثل هذه العبر والأمثال مع أبنائنا الشباب الذين ندعو لهم بالتوفيق فى كل حين.

إن الله - سبحانه وتعالى - عندما يضع أمامنا هذه الصور الناطقة، والنماذج الصادقة فكأنما يلفتنا إلى ما نصادفه فى حياتنا الإنسانية عبر الزمان والمكان من أنماط السلوك التى نلمسها لدى الناشئة فى علاقاتهم بالوالدين والمربين حيث نرى منهم الشقى

٧- الصافات (١٠٢).

٨- الصافات (١٠٢).

٩- هود (٤٢).

١٠- الصافات (١٠٧).

والرضى، والجانح والفالح، فماذا يكون موقف هؤلاء الآباء والمربين إزاء سلوكيات أبنائهم المختلفة وأخلاقياتهم المختلطة؟ إننا لا نشك فى أنهم ينبغى عليهم أن يتأسوا بهذه النماذج التربوية التى ساقها القرآن الكريم فى هذا المجال.

ولا ننسى دور الأم فى هذا السياق إذ من المعروف أن امرأة نوح - عليه السلام - كانت تحت هذا النبى الكريم ولكنها خانته كما وصمها بذلك الذكر الحكيم، وهذا يلفتنا إلى أنها كانت نموذجا تربوياً فاشلاً حيال ولدها الذى سلك سبيل العصيان فهوى فى هاوية الخسران المبين.

بينما نستشعر دور «هاجر» الأم الرءوم التى احتملت الوحشة الموحشة والاغتراب الأليم فى واد غير ذى زرع لا يؤنسها إلا الإيمان الفطرى الغامر والمسئولية الواعية نحو رضيعها إسماعيل الذى تعهدته ورعته حتى بلغ مع أبيه السعى فى ولاء رائع وطاعة مذعنة لا تعرف التمرد والمروق.

حتى إذا جاء موعد الامتحان الربانى الحاسم لكل من الولدين والوالدين على بعد الزمان والمكان تجلت الحكمة الإلهية الباهرة فى قصة الفداء والطوفان.

وهكذا نتأمل قدرة الله - عز وجل - عندما يجرى التجربة السلوكية على من اصطفاهم من أولى العزم من الرسل حتى يتفهم الإنسان هذه التجربة ويعى الدرس ويتأسى بما يعى ويفهم فى حياته العملية مع أبناء الجيل لكى تستقيم الحياة وتستنير البشرية ويتحقق مراد الله فى الخلق، وحكمته فى الكون:

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(١١).

وإننا اليوم لنجد من البيوت ما شابه العصيان والجنوح، كما نجد منها ما يعمره الطاعة والامتثال.

ومما يحلو لى ذكره فى هذا المقام أننى أشاهد شاباً رقيق الحاشية، مضئ الوجه، هادئ الروح، يصطحب أباه الأزهرى الصالح المسن إلى باب المسجد عقب الصلاة ثم ينكفئ على قدمى أبيه ليضع فى قدميه الحذاء دون أن تأخذه العنجهية والكبرياء التى نشاهدها عند الكثيرين من أبناء جيله من الشباب، ولك أن تعلم أن هذا الشاب البار التقى النقى يعمل طبيباً ناجحاً متميزاً وقد أنعم الله عليه بالبصيرة الحية النافذة التى عمقت فى وعيه أن طاعة الأب والبر به هى من طاعة الله - سبحانه - والإيمان به.

والله يقوى الحق وهو يهدى السبيل

١١- البقرة (٣٠).

دعوى بشرية القرآن وموقف المستشرقين

للأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم الفيومى

تعنى بشرية القرآن، من حيث السند التاريخى: عزوه إلى تأليف محمد، أى أن القرآن من وضع بشرى، وليس من وضع إلهى، وتعنى القضية، أيضاً: أن محمداً ليس برسول إنما هو مفكر استطاع أن يؤلف القرآن، هذه هى جوانب القضية، سجلها القرآن كدعوى مفتراة من العرب على الرسول ﷺ ذكرها القرآن فى قوله -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾(1).

هذه الآية على صغرها، تناولت القضية شكلاً ومضموناً ورداً عليها حين قالت: « يقولون إنما يعلمه بشر » هذه هى الدعوى. والرد عليها جاء تالياً بعد الدعوى مشاراً إليه فى قوله -تعالى-:

﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

فالدعوى والرد عليها من قبل القرآن تفيدنا أنها من حيث الجانب التاريخى قديمة، منذ أن تحمل الرسول رسالته وقام بعبء الدعوة إليها، كذلك تفيدنا من جانب آخر أن القضية حين سجلها القرآن- ونحن نعلم أن القرآن كتاب عالمى لايختص بزمان ولابمكان ولابأمة- كان يعنى بتسجيلها وتلاوتها من جميع المسلمين على مر الدهور أن يرد على العقل الإنسانى أنى وجد وحيثما اتفق لهذا العقل أن يدعى تلك الدعوى على الرسول ﷺ. فالقرآن حين سجلها إنما يعين المسلم وهو بصدد التيارات الفكرية أن يدفع تلك القضية لأن القرآن دافع عنها، ثم هى فى النهاية تصيب صميم دينه.

(1) سورة النحل الآية: 103.

هذا ماتعنيه قضية بشرية القرآن بوجه عام، أما شكلها التفصيلى فإنها تحتاج إلى تسطيح فكرى يعالج القضية بعد أن يحللها تحليلاً تاريخياً، من جانب، وواقعياً من جانب آخر، مع الاهتمام بالجانب المنطقى فى مناقشة بعض القضايا الموضوعية التى تعرض لها فيما تعرض، وذلك حين يطرح العقل سؤاله خلال إثارة دعوى « بشرية القرآن » .

وحقيقة هناك أسئلة كثيرة من الممكن أن ترد إلى سؤال واحد يقول أو يتساءل :

إذا كان الرسول ألَّف القرآن و هو الآن بين أعيننا وأيدينا، فياترى متى تعلم الرسول وفى أى مدرسة من المدارس القديمة انتظم ومن علمه؟

ويا ترى عندما ألف القرآن : هل استمده من المسيحية، أو من اليهودية، أو من المجوسية، أو من الصابئة، أو من الوثنية؟ وهل كانت هذه الأديان أو تلك النحل منتشرة فى الجزيرة العربية؟ وبأى لغة كانت؟ ونحن نعلم أن هذه الأديان التى عددناها ليست ناشئة فى مكة، وإنما نشأت بعيداً عن الجزيرة العربية، وحقيقة كانت بلسان أعجمى، فالمسيحية مثلاً : لم تكن باللسان العربى وإنما كانت لساناً سريانياً، واليهودية لم تكن لساناً عربياً، وإنما كانت لساناً عبرانياً، والمجوسية كذلك لم تكن باللسان العربى وإنما كانت باللسان الفارسى، كذلك الصابئة لم تكن باللسان العربى إنما كانت باللسان الآرامى، كذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربى إنما كانت باللسان الإغريقى الرومانى على أساس أن الفلسفة اليونانية كانت لاتعتقد بعقيدة دينية وإنما كانت تؤمن بالعقل الإنسانى وفكره وحسب .

فإذا ماتكلمنا عن الوثنية الفكرية لابد للذهن أن يتجه نحو اليونان، أما الوثنية المنتشرة فى العرب فإنها كانت وثنية ساذجة ليس لها مضمون فكرى، وهى -أيضاً- كما تذكر الرواية العربية- أن شيئاً منها وفد إلى العرب على يد « عمرو بن لحى » حينما جاء « بهُبَلْ » من بلاد البلقان أيام الإسكندر الأكبر، هكذا تقرر المراجع العربية، فالوثنية العربية بالرغم من أنها وفدت إلى العرب فإنها كانت وثنية لاتخرج عن عبادة الحجر من غير شكل فنى، أى من غير صورة يخلعها العربى على هذا الحجر نحتاً، أو تصويراً، إنما كانت العرب تكتفى بعبادة الحجر وحسب .

واضح مما قدمنا سابقاً أن الأديان التى انتشرت فى الجزيرة العربية ومكة منها والتى جمعها الله فى قوله -تعالى- :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢) .

هذه الأديان- كما عرضنا سابقاً- كانت أعجمية وفق ماقال القرآن : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى) فتسجيل القرآن لتلك الأديان يعنى من وجهة النظر التاريخية أن العرب كانوا يعلمون شيئاً أو أشياء عن تلك الملل والنحل (المذاهب) المنتشرة فى أجواء الجزيرة العربية .

فهل ياترى أى شئ تعلم منها؟ وماهى اللغة

(٢) سورة الحج الآية : ١٧.

التى قدر لمحمد أن يتعلمها؟ قطعا الإجابة سوف توجه بشكل تحليلى، بمعنى أننا نسير بخطوط متوازية مع تلك الأديان وعلاقة الرسول بها بادئين بالمسيحية.

بدأنا بالمسيحية لما لها من أهمية فى تاريخ الدعوة الدينية فكانت ديناً رسمياً للدولة الرومانية إبان مولد الرسول ﷺ وبعثته، وكانت لها بعثاتها التبشيرية التى كانت تؤم الجزيرة العربية إما فى شكل جاليات مضطهدة، وإما فى شكل رسل وهبوا أنفسهم للدعوة إلى المسيحية.

على أى حال، فإن الدعوة المسيحية كانت أكثر الأديان السماوية انتشاراً بعد أن اجتازت مرحلة الاضطهاد الرومانى لها ومنذ أن أعلن الوفاق بين المسيحية والدولة الرومانية فى حكم قسطنطين، لذلك بدأنا بالمسيحية وعلاقة الرسول بها. والسؤال الذى يواجهنا هو:

هل المسيحية دخلت مكة أم لا؟

بلا شك أن هذا السؤال على جانب عظيم من الأهمية مادمنا تجاه دعوى تأثر الرسول بالمسيحية، ومن غير استفاضة حول هذا السؤال فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى مناقشة قضية انتشار المسيحية داخل مكة.

لقد دخلت المسيحية مكة واتخذت سبيلها إليها من عدة روافد:

الرافد الأول: الرحلات التجارية التى قام بها البيت القرشى، وقد سجلت سورة قريش من هذه الرحلات رحلتين: رحلة الشتاء، ورحلة الصيف، ولم تكن هذه الرحلات التجارية تسير مسار الصدفة، وإنما كانت رحلات منظمة وفق عهود ومواثيق تجارية عبر عنها القرآن «بالإيلاف».

ومعنى الإيلاف: المعاهدات والعقود التجارية إذ وقعت هذه العقود مع الدولة الرومانية، ومع الدولة الفارسية، ومع الحبشة، ومع اليمن، كل هذه الأطراف المتعددة مع طرف واحد هو بيت بنى هاشم، وكانت تعنى هذه العهود التجارية جانبين.

جانب منها: يتعهد تأمين سفن الصحراء التجارية من قناصة البدو، أى تأمين الممر التجارى حتى تصل إلى الجهة التى تقصدها.

وجانب آخر: تعنى هذه المعاهدات التنظيم التجارى بين حاجات العرب وحاجات الدول المتعاهدة، وهذا المعنى فى شكله النهائى يعطينا أو «يذكرنا بوظيفة» الغرف التجارية المعاصرة.

إذن فالعربى فى تجارته كان يصدر عن تنظيم تجارى يبدد عنه مقالة من يصمه بالهمجية.

على أى حال هذا لايعنينا، إنما الذى نقصده أن العربى حينا وقع هذه المعاهدات وقعها وفق صيغ فى أكثرها رومانى مسيحى، لأن الدولة الرومانية مسيحية والحبشة مسيحية واليمن مسيحية. إذن بعض هذه العقود الموقعة كانت تحمل بعض صيغ مسيحية وعربية.

ومهما يكن الأمر، فإن العربى قد تمرس وفق هذه المعاهدات على النقل التجارى المؤمن عليه فإنه من الجائز جداً أن يكون أيضاً قد تمرس على النقل الثقافى بصورة ضئيلة، وسر ضآلتها أن العربى وهو يجتاز فيافى الصحراء وبواديها يكون قد أصابه شيئاً من النصب قد ينسى الذاكرة بعض ماجمعته من الثقافة،

ومهما تنس الذاكرة فإن العربى سوف يذكر بعد راحته ماجمعه من الثقافة، وطبيعى أن يتعامل مع دول مسيحية، وسوف يصادف- وهو بطبيعته متدين- أفكاراً دينية يأنس إليها فيحملها، فمن الممكن أن تنتقل المسيحية فى شكل أفكار متناثرة إلى مكة.

الرافد الثانى: غزو أبرهة الحبشى مكة:

نحن نعلم أن أبرهة الحبشى قام بغزو مكة لهدم بيتها وإحلال القليس- أى الكنيسة باللغة الحميرية- محلها، أى أن جيش أبرهة كان موجهاً توجيهاً دينياً، ولانستفيض فى ذكر القصة إنما نُقرر ان الحملة فشلت حربياً يقول الله -تعالى-:

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾(٣).

وننتهى إلى أن حملة أبرهة فشلت حربياً، لأن الله أراد ذلك، غير أن فشلها لم يكن كاملاً إنما يمكن أن نقول:

إنه تخلف أفراد من جيش أبرهة فى مكة، ومن الممكن أن يكونوا حملوا المسيحية معهم.

الرافد الثالث: الحنفاء:

وهم الذين سلخوا أنفسهم من عبادة الوثنية، وانشقوا عليها وراحوا يلتمسون ديناً سماوياً يرضى نفوسهم القلقة، وذلك حينما قللوا من شأن الأصنام وعبادة العرب لها.

وحينئذ جدوا فى البحث عن دين يرضى نزعتهم، فتفرقت بهم السُبُل، منهم من اتجه نحو الحنفية دين إبراهيم، وبعضهم التمس المسيحية، والثالث اعتنق اليهودية، والأخير دعته السياسة فارتمى فى أحضانها.

ومن غير استفاضة تاريخية حول منازع هؤلاء الحُنفاء اعتنق بعضهم المسيحية، ودرسها من منابعها، ثم رجع إلى مثواه فى مكة، كما كان بقية الحُنفاء مصدراً لأديان أخرى دخلت مكة، فالمسيحية تكاد تكون بشكلها الرسمى دخلت مكة قبيل بعثته ﷺ، وذلك مثل ورقة بن نوفل.

الرافد الرابع: دولة بنى غسان:

من المعلوم تاريخياً أن قبيلة من القبائل العربية استطاعت أن تقيم دولة على مشارف الجزيرة العربية عاصمتها «بصرى»، وكان رئيسها الحارث ابن جبلة الغسانى، وكانت دولة الغساسنة تتبع فى ولائها السياسى الدولة الرومانية، واستطاع الحارث الغسانى أن يحرز لقب «فيلارك» أى شيخ الدولة أو رئيسها، وهو لقب هيلينى منحه إياه الإمبراطور الرومانى، وفى سفرة من سفرات الحارث الغسانى أراد أن يعرب للإمبراطور الرومانى عن مدى إخلاصه السياسى له. فطلب منه أن يمنحه راهباً مسيحياً ليقوم بقداس الكنيسة فى بصرى، فاستجاب له الإمبراطور، ومنحه الراهب يعقوب البرادعى.

وهكذا أصبحت دولة بنى غسان سياسياً، ودينياً تتبع الدولة الرومانية وأُعْلنَت فيها المسيحية بشكل رسمى، وأُقيمت فى بصرى كنيسة رسمية لها قديسها وقداسها، ومن هذه الكنيسة انتشرت بعض أفكار مسيحية فيما حولها.

---

(٣) سورة الفيل الآية: ٣ :٥.

الرافد الخامس: العبيد والإماء:

انتشر فى مكة بعض العبيد، وبعض الإماء كانوا يتبعون الدين المسيحى، وهذا الرافد ليس على وجه من الجزم غير أننا اعتبرناه مصدراً خامساً، وإن كان ينقصه المعلومات التاريخية الأكيدة بالرغم من ذلك ذكرناه، لأن العقل لايمنع فرضه، وعرضنا له نقدم مسحاً شاملاً لأطراف المشكلة ومالدينا من معلومات حول هؤلاء العبيد- وإن كانت غير مؤكدة كما قلنا- فإنها تفيد أنهم كانوا يشتغلون فى بيوت الخمر ومراقص النساء التى كان يشرف عليها يهود العرب، فربما يكون عن طريق هؤلاء قد تسربت بعض أفكار المسيحية بين العرب.

وبعد، فإن ماقدمنا من الروافد الخمسة التى يمكن للمسيحية أن تتخذ سبيلها من خلالها فإن السؤال هو:

هل استطاع الرسول -بعد ماتأكدنا من دخول المسيحية مكة- أن يتعلم شيئاً منها؟

هذا السؤال ضرورى فى طرحه والوقوف أمامه بعض الوقت، ثم نعقب بكلمة عامة قبل التفصيل فنقول: إن الروافد التى ذكرناها قد تساعد على نشر بعض أفكار عن المسيحية ولاتساعد مطلقاً على نشر المسيحية من حيث هى دين.. فالرحلات التجارية- كما قلنا- يظن أنها حملت بعض الأفكار.

وحملة أبرهة كذلك لم توفق حربياً، وماتبقى منها كان قد أخنى عليه الدهر.. على أية حال، فإن الروافد الخمسة لم تستطع أن تخلق جواً مسيحياً بدليل أن الوثنية فى مكة ظلت ديناً رسمياً، إذن ماهى علاقة الرسول بالمسيحية بعدما شرحنا احتمال وجود المسيحية فى مكة؟

للإجابة على هذا السؤال؟ ينبغى علينا تقسيم الإجابة عليه لتشمل علاقة الرسول بالمسيحية قبل البعثة، وعلاقة الرسول بعد البعثة، فأما عن علاقة الرسول قبل بعثته: فهى كما يذكر مؤرخو كتب السيرة النبوية حين كان الرسول ﷺ غلاماً يافعاً وكان فى رحلة عمه أبى طالب التجارية فصادف الركب - وهو فى مسيرته قرب صومعة- راهباً نصرانياً يدعى بحيرا الراهب، وكما تذكر الرواية التاريخية أن هذا الراهب استضاف أعضاء الركب التجارى القرشى، كما أن القوم تعجبوا من هذه الدعوة إذ كانوا يمرون عليه ولم يعبأ بهم غير هذه المرة، فأخذ الراهب يتفرس من بينهم غلاماً صغيراً وتساءل عن أوصاف فيه وخصائص هى له من علامات النبوة، ثم أقبل على الغلام وبشره بمستقبل رسالته ونبوته، ثم حذر عمه من أن تغتاله يد اليهود.

فهذه الرواية يستفاد من دراستها أن أول علاقة للرسول برهبان المسيحية كانت فى سن لاتسمح لمثله أن ينال حظاً من المعرفة كما كانت المدة الزمنية ليست بالطويلة حتى تسمح للغلام أن يجالس الراهب المسيحى لينال حظه من تعليمه.

والذى يستخلص من الرواية أن الراهب المسيحى- وهو بحيرا وفق ماتذكره الرواية-

أنه كان مبشراً للرسول بمستقبل رسالته. وليس فيها مايفيد أن بحيرا كان معلماً وأن محمداً كان متعلماً، فعلاقة الرسول بالمسيحية كما ذكرت الرواية التاريخية فيها مايدعيه بعض المستشرقين من أن محمداً تعلم المسيحية على يد بحيرا الراهب، إنما كل ما أفادته الرواية مع ملاحظة الأمانة التى اتصف بها مؤرخو السيرة حيث ذكروا مثل هذه الجزئيات من قبيل الإرهاصات لنبوة الرسول ﷺ.

هذا عن العلاقة الأولى.. أما عن العلاقة الثانية: فإنها كانت كما يذكر مؤرخو السيرة أيضاً فى سن يمنح فيها التعلم، لأنه كان هو صاحب الركب التجارى عن خديجة زوجته - رضى الله عنها - تقول الرواية أنه قابل نسطورا. غير أن هذه الرواية أبانت عن ضعف كامن فيها مؤداه: أن الرواة تشككوا فى شخص نسطورا وفى زمن الرواية نفسها.

أما الروافد التى اعتبرها المستشرقون مسالك صالحة لحمل المسيحية إلى الرسول ﷺ وأنها أثرت فيه، فهى ثلاثة:

(١) ورقة بن نوفل.

(٢) مارية القبطية.

(٣) الإماء العبيد المنتشرون هنا وهناك.

فأما عن الرافد الأول: وهو ورقة بن نوفل، فتطالعنا الروايات التاريخية التى تكلمت عنه بأنه كان مبشراً للرسول ﷺ بالنبوة والرسالة، وذلك حين ذهبت إليه خديجة زوج الرسول ﷺ لتقص عليه الحدث الذى تعرض له الرسول فى غار حراء، فما أن سمعه منها إلا أن قال: «قدوس قدوس، إن هذا هو الناموس الذى أُنْزِل على موسى من قبل» ثم قال: «والله إنه لنبى هذه الأمة» ثم تقول الرواية الأخرى: «إنه قابل الرسول ﷺ وهو يطوف بالكعبة فأكد بشارته له -أى الرسول- ثم انصرف ولم تذكر الروايات التارخية شيئاً آخر عن علاقة ورقة بالرسول أو علاقة الرسول من حيث التعليم أو التعلم أو عن معرفة سابقة ربطت بينهما، وإنما- وكما تدير الرواية- أن خديجة هى التى اقترحت على نفسها وعلى الرسول الذهاب إلى ورقة ليقصا عليه مارآه الرسول ﷺ، فالمقابلة تمت باقتراح من خديجة وبحضور خديجة أيضاً، وكان ذلك بعد أن وافاه الوحى فلم يدع ورقة أنه علم الرسول وإنما كل الذى حدث أنه بشر الرسول بمستقبل، فهل كان ورقة بن نوفل قيمة تارخية تصلح لأن يعلق عليها بعض المستشرقين مايذهبون إليه من افتراءات، أو تشويش على الرسالة الإلهية التى رشح لها الرسول ﷺ من قبل الله..».

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[٤] ومثل هذا الموقف أيضاً يقال عن عداس، وكان مملوكاً للوليد ابن المغيرة فى الطائف.

أما الرافد الثانى: وهو مارية القبطية: فترجع قصة مارية القبطية إلى زمن الرسل

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٢٤.

والكتب التى أرسلها الرسول ﷺ إلى الملوك حينئذ، فكان ممن أرسل اليهم المقوقس عظيم القبط بمصر، وعندما وصل إلى المقوقس كتاب الرسول ﷺ أرسل اليه جاريتين: مارية وسيرين، وعبد مجبوب وبغلة. فأما مارية فتزوجها الرسول ﷺ واستبقاها لنفسه.

فأى دور يسند إلى مارية وقد تزوجت الرسول ﷺ بعد أن تكونت الدولة الإسلامية وقاربت الرسالة من الاكتمال، وكيف يسند إليها دور وهى ذاتها هدية من المقوقس فأى دور إذن قامت به مارية بالنسبة للرسول ﷺ؟ ولقد ظلت مارية تعيش فى صمت إلى حد أنه لم يؤثر عنها حديث واحد، وتوفيت فى زمن عمر ابن الخطاب وقام عمر بدعوة الناس إلى تشييع جنازتها، فليس هناك كذلك مايصلح أن يسند إلى مارية أى دور تاريخى من قريب أو بعيد، ولاسيما بعد أن اكتملت رسالة الإسلام ودولته.

أما عن الرافد الثالث: وهو الإماء والعبيد (طواشى مكة): فليس لهم دور يذكر فى حياة الرسول ﷺ، لما لهم من حياة خاصة يتصرف فيها سيدهم أو المالك لهم.

فأما مانقرأه عن عداس، فإنه كان فى الطائف ونعلم أن الطائف بعيدة عن مكة وكان مملوكاً أيضاً لسيد، وليس متفرغاً للتعليم والتعلم، وبعضهم كان يشتغل فى حانات الخمر ومراقص النساء، ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان بطبعه عزوفاً عن مراكز الرجس والإثم فلم يؤثر أنه أم هذه الأماكن أو نزل فيها، فأى دور تاريخى يمكن أن يقوم به عبد هو كل على مولاه؟

من هنا نستطيع أن نؤكد زيف ماذهب إليه المستشرقون من أن الرسول ﷺ تعلم على يد حبر مسيحى.

نماذج وردت فى القرآن ولم ترد فى الأسفار المقدسة

نقدم بين أيديكم أشياء وردت فى القرآن ولم ترد فى الأسفار المتداولة، وأشياء وردت فى القرآن والأسفار مع تغاير فى الجزئيات، منها:

ليس فى سفر التكوين- مثلاً- ماورد فى القرآن من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وعصيان إبليس، وليس فى هذا السفر- مافى القرآن من قصص إبراهيم مع قومه وتخريبه لأصنامهم ونظرته فى النجوم، وحجاجه مع قومه ومحاولتهم إحراقه فى النار وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله المحرم -أى مكة- واشتراك إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة، وليس فى هذا السفر (سفر التكوين) - مافى القرآن من محاورة بين نوح وابنه الكافر وعدم ركوب هذا فى السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله فى ذلك.

وليس فى هذا السفر مافى القرآن من تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف، ولاكلام النسوة ودعوة امرأة العزيز إياهن وتقطيعهن أيديهن، وليس فى أسفار الخروج والعدد والتثنية التى فيها قصص موسى وفرعون وبنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر وحياتهم فى سيناء مافى القرآن من خبرة سحرة فرعون والتقام الثعبان لحبالهم وعصيهم وسجودهم ومحاورتهم مع

فرعون، ولا غرق فرعون وجنوده حينما خرجوا لمطاردة بنى اسرائيل، والقرآن يذكر أن الشخص الثانى الذى أراد موسى أن يبطش به هو عدوه فى حين أن سفر الخروج يذكر أنه عبرانى.

والقرآن يذكر أن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو السامرى فى حين أن هذا السفر - سفر الخروج - يذكر هارون - والقرآن يذكر موقفاً لمؤمن من آل فرعون، وموقفاً آخر لناصح نصح موسى بالخروج وليس هذا وارداً فى أى سفر.

والقرآن يذكر أن بنات رجل مدين اثنتان فى حين أن هذا السفر -سفر الخروج- يذكر أنهن سبع.

وليس فى أى سفر ماورد فى القرآن من محاورة بين فرعون وهامان لأجل بناء صرح ليطلع إلى إله موسى.

وليس فى هذه الأسفار ماورد فى القرآن من خبر أمر موسى قومه بذبح بقرة ومحاورته معهم، ولا أمر الله بدخول الباب سجداً ومخالفتهم لهذا الأمر، ولا خبر عداوتهم فى السبت ومسخهم قردة.

وليس فى الأسفار التى تذكر قصص داود وسليمان ماورد فى القرآن من تسخير الله الشجر والطير والحديد لداود، وتسخير الريح والجن لسليمان، ولا قصة الهدهد ولا كتاب من سليمان لملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرشها بلمح البصر من قبل الذى عنده علم من الكتاب.

ويلمح بعض الفروق فيما ورد من جزئيات فى القرآن وماورد فى سفرى يونان (يونس) وأيوب أيضاً.

ونذكر هذه الأمثال من قبيل التمثيل لا الاستقصاء (الحصر) فهناك نقاط وأمور كثيرة أخرى فى قصص آدم وابنيه، ونوح، وإبراهيم، ولوط، ويوسف وإخوته، وموسى وفرعون وبنى إسرائيل، وداود، وسليمان، وطالوت، وردت فى القرآن ولم ترد فى الأسفار أو وردت فى القرآن مباينة قليلاً أو كثيراً لما ورد فى الأسفار.

فإذا كان ماذكرناه بين أيديكم هو الواقع الحقيقى للقرآن والكتب المقدسة، فياترى إذا كان محمداً استقى معلوماته من الكتب المقدسة، فمثل هذه الزيادات التى انفرد بها القرآن عنها من أين أتى بها محمد؟

إنه لامناص -علمياً وتاريخياً- من الإيمان بأن المصدر الوحيد الذى استقى منه محمد ﷺ، هو الوحى الإلهى اتفق معه مالم يحرف من الكتب المقدسة لأنها من نفس المصدر.

ذلك نمط مازال يرتد فى تفسيره إلى تلك الرؤية الاستعمارية التى تدور فى مدار نظرية العرق، أى تفضيل الأجناس وذلك لهدف استعمارى هو:

أن الشرق السامى لايصلح للحياة إلا بوصاية الغرب الآرى عليه.

من ركائز التضامن الإسلامى

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

قال الله ـ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١).

فى هذه الآية الشريفة، يقرر الإسلام أخوة الإيمان، وأنها لا تتقيد بعلاقة النسب، فإن أخوة النسب تنقسم بمخالفة الدين، ولكن أخوة الدين لا تنقسم بمخالفة النسب. وفى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا»(٢) والتجسس: هو الاستماع لحديث القوم، والتناجش: هو أن تزيد فى ثمن السلعة دون رغبة فى شرائها لتحريض الغير عليها، وفى رواية أخرى بلفظ مسلم يبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه حقوق هذه الأخوة وواجباتها: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٣).

١- الحجرات (١٠). ٢- رواه البخارى ومسلم. ٣- رواه مسلم.

ومن الواجبات المترتبة على أخوة الإيمان بين المسلمين ما جاء في الآية الشريفة:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾

فالإصلاح بين كل مسلمين أو طائفتين واجب تمليه أخوة الإيمان، وقد مهدت الآية الشريفة طريق الإصلاح بالتزام التقوى، حتى لا يحيد المصلحون ولا يحابي بعضهم بعضا، بل يكون العدل رائدهم والتقوى طريقهم، وبهذا تتحقق الغاية الكريمة وهي رحمة الله بالمؤمنين دنيا وأخرى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ويدعو القرآن الكريم جميع المؤمنين أن يطهروا البيئة الإسلامية من رذائل شتى:

١- منها الرذائل الظاهرة التي تتعلق بالجوارح كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب.

٢- ومنها الرذائل الباطنة التي تتعلق بالمشاعر كالظن.

أما الأولى الظاهرة: فيقول فيها القرآن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾(٤).

فينهى الله - تعالى - عن سخرية بعض الناس ببعض، فعسى من سخروا منه أن يكون خيرا منهم عند الله- تعالى- في عقيدته وفي عمله وفي باطن أمره. فإن مقاييس الخيرية ليست في المظهر ولا في الشكل، ولكنها فقط في التقوى:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(٥) وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن - ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٦).

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾

نرى أنه ورد في سبب نزولها آراء منها: أنها نزلت في وفد بني تميم عندما استهزأوا بفقراء الصحابة أمثال عمار، وبلال، وخباب، وابن فهيرة، وصهيب، وسلمان، وسالم مولى أبي حذيفة، وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم..

وقيل: نزلت في سخرية الغني بالفقير، وقيل: في عكرمة بن أبي جهل، فعندما جاء إلى المدينة مسلما كان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: نزلت في ثابت بن شماس كان في أذنه وقر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبي ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد

٤- الحجرات (١١).
٥- الحجرات (١٣).
٦- رواه مسلم.

فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبى ﷺ فلما انصرف النبى ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه فرضى كل رجل منهم بمجلسه وعضوا فيه - أى لزموه - فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا، فيظل قائما فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبى ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له: تفسح فقال الرجل: قد وجدت مجلسا فاجلس، فجلس ثابت من خلفه مغضبا ثم قال: من هذا؟ قالوا: فلان، فقال ثابت: ابن فلانة، يعيره بها يعنى أما له فى الجاهلية فاستحى الرجل فنزلت[7].

وقد نصت الآية على النساء كذلك وأفردتهن بالذكر فى النهى عن السخرية، وذلك لأن السخرية تقع كثيرا منهن «فإنهن خلقن من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه» ولذا نص عليهن فيقول:

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[8].

وقد جاء فى سبب نزولها أن امرأتين من أزواج الرسول ﷺ سخرتا من أم سلمة عندما ربطت خصريها بثوب أبيض وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها فقالت عائشة لحفصة - رضى الله عنهما -: انظرى ما تجر خلفها كأنه لسان كلب، فهذه سخريتها. وقال أنس وابن زيد: نزلت فى نساء النبى ﷺ، عيرن أم سلمة بالقصر. وقيل: نزلت فى عائشة أشارت بيدها: يابنى أنها لقصيرة، تعنى صفية بنت حيى - رضى الله عنها -، وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حيى بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله إن النساء يعيرننى فأنزلت هذه الآية..

وقد نهى الله - تعالى - كذلك عن اللمز (وهو العيب)، ويكون تعبيرا باليد، أو العين أو اللسان أو الإشارة.

وأما الهمز فيكون باللسان قال تعالى:

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[9] ويدل هذا التعبير الحكيم على أن المؤمنين نفس واحدة، فلا يليق بهم أن يعيب بعضهم بعضا، وكما لا يعيب المؤمن نفسه، لا ينبغى أن يعيب غيره، فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولا تنابزوا

ومن الرذائل التى نهى عنها الإسلام: التنابز بالألقاب. قال تعالى:

﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[10] قيل إنها نزلت فى بنى سلمة، قدم رسول الله الله عليه وسلم وليس رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فجعل رسول الله ﷺ يقول: يافلان، فيقولون: مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الأسم، فنزلت الآية، وقال الحسن ومجاهد: كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره كأنه يقول له: يا يهودى يا نصرانى، فنزلت الآية،

٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.

٨- الحجرات (١١).

٩- الحجرات (١١).

١٠- الحجرات (١١).

وقال قتادة: وقول الرجل للرجل يافاسق يا منافق..

قال تعالى:

﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾(١١).

يقول ابن زيد أى بئس أن يسمى الرجل كافرا أوزانيا بعد إسلامه وتوبته.. وقيل: من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق. أما بعض الصفات التى يكون ظاهرها الكراهة، ولكن لا يراد بها العيب حين التحدث بها فلا بأس بها. وقد سئل عبدالله ابن المبارك عن الرجل يقول حميد الطويل، سليمان الأعمش، وحميد الأعرج، ومروان الأصفر، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به.

وقد ختم الله – تعالى – الآية الكريمة التى نهى فيها عن تلك الرذائل بتهديد من تسول له نفسه الاسترسال فى مثل هذه المعايب بأنه وقع فى الهلاك وأصبح من الظالمين لأنفسهم لارتكابها فقال تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(١٢).

وإذا كان التنابز بالألقاب مما يعيب المسلم ويمزق ود الصدور، فإن بديله وهو نداء المسلم لأخيه بأحب الأسماء مما يصفى له ود أخيه، يقول ﷺ: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته وتوسع له فى المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه»(١٣).

ومثال النوع الثانى وهى الرذائل الباطنة التى تتعلق بالقلب والشعور: (ظن السوء) وقد حذر الله – تعالى – من الظن فى قوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾(١٤)

وقد نزلت هذه الآية الكريمة كما قال أبوعبدالله القرطبى فى رجلين من أصحاب النبى ﷺ اغتابا رفيقهما، وذلك أن النبى ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام، ولم يهيئ لهما شيئا فقدما فلم يجدا طعاما وإداما فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبى ﷺ طعاما وإداما فذهب فقال له النبى ﷺ: اذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عنده فضل من الطعام فليعطك. وكان أسامة خازن النبى ﷺ فذهب إليه فقال أسامة: ما عندى شئ، فرجع إليهما وأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل ثم بعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة – وهى بئر قديمة بالمدينة بها ماء غزير – لغار ماؤها، ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شئ فرآهما النبى ﷺ فقال: مالى أرى خضر اللحم فى أفواهكما؟ فقالا: يا نبى الله، والله ما أكلنا فى يومنا لحما ولا غيره، فقال: ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة فنزلت الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾

١١، ١٢ – الحجرات (١١).

١٤– الحجرات (١٢).

١٣– رواه الحاكم والطبرانى فى الأوسط، والبيهقى فى شعب الإيمان.

وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[١٥].. والظن الذى تحذر الآية منه هو: الظن الذى يقوم على اتهام لا أساس له ولا سبب يوجبه.

ومن الرذائل المنهى عنها «التجسس» وهو البحث عما يكون خفيا عن الإنسان كمن يتهم إنسانا بفاحشة أو بشرب الخمر مثلا دون أن يبدو له ما يقتضى ذلك أو أن تظهر له علامة على تحقيق ظنه، كأن يكون المظنون به من أهل الصلاح والتقوى فإن ظن السوء به حينئذ يكون محرما، هذا بخلاف من عرف واشتهر بين الناس بمخالفة الشرع والمجاهرة بالمعاصى فلا يكون الظن به محرما.

هذا ويترتب على الظن التجسس ثم الغيبة، وذلك لأن مجرد التهمة يكون سببا فى البحث عما ساور الإنسان من خاطر فيحاول التجسس ليتحقق مما يظنه فينتقل من درجة الظن إلى درجة التجسس ثم يدعوه وقوفه بالتجسس على بعض ما يعلم أو مالا يعلم إلى غيبة أخيه فينتقل إلى درجة أسوأ وحالة أكبر وهى الغيبة وهكذا.

وينقى الإسلام جو المجتمع على مختلف طبقاته ويوضح كيف يتفاقم الخطر من جراء الظنون السيئة بين الناس بعضهم مع بعض، بل وبين الحاكم والمحكوم، فحين يبتغى الحاكم الريبة فى الناس يفسد ذات بينهم، ويوضح الرسول ﷺ خطر الغيبة والتجسس ويبين نتائجها السيئة التى لا تقتصر على الآخر فحسب، بل إن المغتابين والمتجسسين ينالون جزاءهم فى الدنيا وعقابهم فيها قبل الآخرة، قال ﷺ «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن اتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته»[١٦] ولذلك أدرك سلفنا الصالح خطر التجسس فنهوا عنه وحذروا منه.

فقد كان سلفنا الصالح يدركون خطر التجسس ومدى حرمته، فكانوا يبتعدون عن التجسس وعن تتبع أسرار الناس حتى ولو ترتب على ذلك إقامة حكم من أحكام الشريعة، أو إقامة حد من حدود الله، قال عبدالرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب –رضى الله عنه – بالمدينة إذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهما الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه.. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ وقد تجسسنا وانصرف عمر وتركهم.

كفارة الغيبة

ومن الرذائل المنهى عنها: الغيبة، قال الله– تعالى –:

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾[١٧] وقد فسر الرسول

١٥– رواه البخارى ومسلم.

١٦– رواه أحمد وأبوداود والترمذى.

١٧– الحجرات (١٢).

ﷺ معنى الغيبة: ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»(١٨).

وقد رأى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج صورة محسوسة لأولئك المعتدين المغتابين وكيفية عذابهم، عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون فى أعراضهم»(١٩). وقد صور القرآن الكريم صاحب الغيبة فى هيئة مستقذرة، وصورة تدل على خسة الطبع ودناءة النفس وفساد القلب، قال – تعالى –:

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾(٢٠)

فصور الله – تعالى – الغيبة بأكل الميتة لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبته ممن اغتابها، ولننظر بعد تصوير الرسول ﷺ للغيبة: روى أبو هريرة – رضى الله عنه – أنه حين جاء ماعز إلى النبى ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجمه الرسول ﷺ فسمع نبى الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب، فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن يا رسول الله، قال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار، فقالا: يانبى الله ومن يأكل هذا؟ قال: فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه، والذى نفسى بيده إنه لفى أنهار الجنة ينغمس فيها»(٢١).!!

وحكم الغيبة: أنها من الكبائر، قال رسول الله ﷺ «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»(٢٢). واتفق العلماء على أنها من الكبائر تجب التوبة إلى الله منها، واختلفت الآراء هل يستحل المغتاب أم لا؟!

١– فقال بعض العلماء: ليس عليه استحلاله، وإنما هى خطيئة بينه وبين ربه واستدل أصحاب هذا الرأى بأنه لم يأخذ شيئا من ماله، ولا أصاب من بدنه ما ينقصه فليس فى ذلك مظلمة يستحلها منه وإنما المظلمة ما يكون فى المال والبدن.

٢– وذهبت فرقة أخرى: إلى أن الغيبة مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه، واستدلوا على ذلك بما روى عن الحسن: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته.

٣– وذهبت فرقة ثالثة: إلى أن الغيبة مظلمة، وعلى صاحبها الاستحلال منها، واستدلوا على ذلك بما أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة –رضى الله عنه

١٨– رواه مسلم.

١٩– رواه أحمد وأبوداود.

٢٠– الحجرات (١٢).

٢١– رواه أبوداود.

٢٢– رواه البخارى ومسلم.

- قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شئ فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٢٣].

والذى نرجحه: هو الرأى الثالث القائل بأن على الذى اغتاب الاستحلال من غيبته لحديث البخارى، فهو يدل على التحليل، وحديث الرسول ﷺ هو الحجة والبيان الصحيح ولأن التحليل كذلك يدل على التعاطف والتراحم وهو من قبيل العفو قال تعالى:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾[٢٤].

اللهم إلا إذا ترتب على الاستحلال خطأ شديد، ومخافة أن يجر إلى اندلاع فتنة كبرى فإنه حينئذ يمسك عن الاستحلال حتى يواتيه الوقت الملائم له ويقول بالتوبة والاستغفار لأخيه.

وأما الرأيان الثانى والأول: فنرى أن أصحاب الرأى الأول ينفون الاستحلال متعللين بأنه لم يصب مالا ولا بدنا فليس فى ذلك مظلمة، والحق: أن اجتماع العلماء منعقد على أن على القاذف للمقذوف مظلمة بأخذه بالحد حتى يقيمه عليه، وذلك ليس فى البدن ولا فى المال، فهذا دليل على أن الظلم فى العرض والبدن والمال، وأما الرأى الثانى القائل: إنها مظلمة يستغفر لصاحبها ففيه تناقض لأن قولهم «مظلمة» يثبتون ظلامة المظلوم وإذا ثبتت لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له، وهذه الأحكام سارية فى سائر المظالم. وأما صاحب الهوى والفاسق المعلن فسقه والإمام الجائر فكل هؤلاء لا غيبة فى حقهم فإن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له، بل إن ذكرهم بما هم عليه يحذر ويكشف عوارهم.

قال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس»[٢٥] وإذا كانت واجبات الأخوة فى الدين تقتضى تكريم المؤمن ونفى كل الرذائل عن دائرة نفسه ومجتمعه وتحتم احترام المسلم لأخيه ومساعدته له وعدم التعرض بما يسيئه فى نفسه أو ماله أو عرضه.

إذا كانت هذه وغيرها من أسمى المبادئ لتكريم الإنسان المسلم فإن الله - تعالى - قد وسع دائرة هذه الأخوة فلم يجعل للأسرة الإسلامية حدودا تحدها قرابة أو نسب أو زمان أو مكان أو بيئة أو مجتمع بل إن الإسلام فتح أمام أتباعه آفاق التعارف والتآلف.

واستهدف من وراء جعله لهم شعوبا وقبائل التعارف المثمر الذى يكمل بعضهم بعضا فى إطاره المشرق.

ولم يجعل من اختلافهم فى اللون أو اللغة أو المال أو القوة سببا للتمايز والتعاظم، فنفى أن تكون هذه الأسباب أصولا للتكريم أو قواعد للتعظيم، وإنما جعل المعيار الحقيقى الذى توزن به منازلهم منحصرا فى شئ واحد هو «تقوى الله»..

قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٢٦].

٢٣- رواه أحمد والبخارى.

٢٤- الشورى (٤٠).

٢٥- رواه ابن أبى الدنيا، وابن عدى، والطبرانى.

٢٦- الحجرات (١٣).

الدَّعوة كما ينبغي أن نبلِّغها

٧

لفضيلة الشيخ / الطاهر الحامدي

ختـــام المجـــلس

جلس إلىَّ صاحبى هذه المرة ضائقاً ضجراً متبرماً ولم يخف ضيقه ولا ضجره، بل أعلنه فور جلوسه إلىَّ، ولفت نظرى ما رأيت منه، وعجبت من إعلانه الضيق والضجر، وأنه لم يزعم ما زعمه فى الجلسة السابقة من أننى أعلن ما أخفاه، كأننى شققت عن قلبه، وعلى غير ما هو متوقع منه ومنى، فلم أجزع أنا لضيقه ولم يخف هو ما بدا منه، بل كان يعمل على إظهاره فى إلحاح واضح.

فقلت ـ أحاول أن أستجلى حقيقة أمر صاحبى وما طرأ عليه من تغير ـ: عجبت لأمرك، أقيس حالك اليوم بحالك بالأمس، فأجد بوناً شاسعاً، فما الذى غيرك؟.. قال ـ فى استعجال واضح كأنه يريد أن يلتقط شيئاً أو يلحق به قبل أن يفلت منه ـ: دعك منى ومن حالى، المهم عندى أننى سمعتك تقول: أقيس حالك اليوم بحالك بالأمس، فأرجوك حدثنى عن القياس، فأنا أعرف أن للأصوليين فيه مقالاً واسمح لى أن أطلب منك الدخول فى الموضوع مباشرة، ولا أخفيك سراً، فأنا أكاد أن أضيق بمقدماتك التى لا تخلو من إطالة وإطناب.

قلت ـ برغم عتاب صاحبى علىَّ فى الإطالة والإطناب ـ: إذاً لماذا الضيق والضجر باديان عليك، تعلنهما ولا تخفيهما؟.

قال صاحبى:

على أى حال دعك مما أعانيه من ضيق وتبرم، وأرجو أن تحدثنى عن القياس.

قلت لصاحبى: ما أعظم المقارنة بين حالك اليوم وحالك بالأمس، لكن لا عليك ولا تشغل بالك بمقارناتى بحالك، المهم

عندى أن تعرف أن للقياس شروطاً وأركاناً قد بَيَّنَتْها كُتُب أصول الفقه، وأفاضت فى الشرح والبيان، بل إنها عرضت لرأى قد أنكر القياس أصلاً وبَيَّنَت حججه، وسمت القائلين به: نفاة القياس. وبالطبع اشتمل البيان على رأى وحجج المثبتين للقياس والعاملين به، وكان الحوار شيقاً وجميلاً، ارجع إليه عند من أنشأ علم أصول الفقه، وأول من بوبه وجعله علماً بعد أن كان شذرات أو ومضات فى فقه مَنْ سبقوه وهو الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه وعَنَّا به، آمين ـ فى كتابه القيم: «الرسالة». وأيضاً ارجع إلى كتاب آخر هو: «إعلام الموقعين لابن القيم» حيث انتصر للحديث الذى جعله كل من تكلم فى القياس وأجازه وعمل به، جعل هذا الحديث أساس الباب وحُجة له، وهو حديث معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً ومعلماً (انظر الحديث فى البخارى) فإنك ترى ابن القيم محدثاً فقيهاً واسع العقل قوى الحُجة على أننى أوثر أن تكون هذه البحوث القيمة وهذه الحوارات فى القياس وعنه بعيدة عن مقال عابر فى مجلة وليكن لهذه الكتب وغيرها كثير متسع فى وقتك إن شاء الله، والذى أحب أن أتحدث إليك عنه هو علة القياس وما شروط الفقهاء فى العلة؟. فإن حديثهم فيها رفيع المستوى عميق الفكر.

أما شروط القياس وأركانه فهى سهلة التناول والشرح، والبيان فى كتب الأصول.

أما علة القياس فهى فى رأيى أهم ما فى موضوع القياس لأنها أساس استخراج الحكم وجعله سارياً إلى غيره، وقبل كل شىء أحبك أن تعلم أقسام القياس أو أنواع القياس: فمنها ما هو معمولٌ به: أى يُعْتَد به عند من أخذ بالقياس ـ ومنها ما ليس معمولاً به. أما أقسامه فهى ثلاثة: قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه.

ولو أننا ـ أنت وأنا ـ جلسنا نتكلم عن كل نوع وبَيَّنَاه ومثلنا له، لاحتجنا إلى كتاب، وليس إلى جلسة يضمها مقال. ولنكتف الآن بالحديث عن علة القياس التى هى أساس نقل أو إثبات حكم أمر لأمر آخر لم ينص فيه على الحكم. فأساس نقل الحكم المنصوص عليه إلى آخر هو: العلة التى تجمع بين الأمرين الأول والثانى.

قلت لصاحبى: أستميحك عذراً فى حديث يبتعد عن شروط القياس قليلا. ويمكن تسميته اشتراطات فيمن يقيس أو قل إن شئت محاذير حتى لا تزيغ به الأهواء، فنحن بشر قد ننحاز ـ وقد هنا أحبها أن تكون للتحقيق ـ وأسباب الانحياز كثيرة متعددة قد تكون: القرابة أو المصلحة أو المعاصرة. وأخطرها الهوى، وحيث قلت: إن هذه من أسباب الانحياز، وأحبك أن تعلم

أنهـا من الممكن أن تكون (مع أو ضـد)؛ لذلك فقد وضع الفقهاء ـ أهل الاختصاص ـ تعـريفـات وشـروطاً للعلة هى فى الواقع ضمانات حتى لا يحيد الاجتهاد عن مساره، ناهيك عما كانوا عليه من زهد وورع وتجرد وإيثار ومراقبة لله ـ تعالى ـ والخوف منه، وإنكار للذات وحب للخمول، هل تعرف هذه المصطلحات أو بعضها؟. أو هل تذوقت هذه المعانى؟. أو طُفْتَ حول حماها؟. أرجو أن تكون قد فعلت، وعلى أى حال تزود منها فى كتب السلف الصالح أو على أيدى الرجال وبرغم كل هذا فقد وضعوا شروطاً للعلة أو قل قيوداً للعلة حتى لا يحيد الفقيه.

قال صاحبى: حدثنى عن علة القياس وشروطها ـ رعاك الله.

قلت: شرط العلة أن تكون وصفاً ظاهراً منضبطاً متعدياً مناسباً للحكم، ولا مجال لشرح التعريف هنا لكن لابد من الإشارة إلى بعض معانى التعريف.

فمن بعض معانيه فى العلة: أن تكون وصفاً ظاهراً بمعنى أنه يمكن التحقق منه، فلا يصح أن تكون العلة أمراً خفياً، أى: قلبياً مستتراً فى ضمير الإنسان، لأن ذلك يوقعنا فى دائرة الغموض والتخمين التى لا تنبنى عليها أحكام عادلة. قال صاحبى: كيف؟. مع أن الشارع الحكيم جعل علة العقود هى التراضى بين المتعاقدين، والتراضى أمر باطنى خفى؛ لأنه علةٌ فى إباحة الشيء المشترى أو المبيع وإباحته للمشترى، فكيف تقول: إن العلة لابد أن تكون وصفاً ظاهراً؟!.

قلت لصاحبى: إن شئت، فَضُمَّ إلى البيع من العلل الباطنة الخفية: النكاح وإباحة كل من الزوجين للآخر، بل أضيف لك ثالثاً: القصاص، فإن علة القصاص هى إزهاق الروح عمداً عدواناً، والعمد أمر باطنى، وأرجو منك ألا تتسرع باتهام الأصوليين بالقول فى الدين بما لم يأذن به الله، فالواقع أنهم يتحرون إذن الله وأمره ويضعون الضوابط لمن يأتى بعدهم، فالأصوليون يقولون: إن الرضا فى البيع والنكاح ونية إزهاق الروح عمداً عدواناً فى القصاص، وهى وإن كانت نوايا باطنة إلا أن الشارع الحكيم جعل لها أموراً ظاهرة واضحة يمكن التحقق منها، دليلاً على هذه النية وهى الأمر الباطنى فجعل الإيجاب والقبول وهو أمر ظاهرى جعله دليل التراضى وهو علة فى المعاوضة وكذلك النكاح، أما فى القتل العمد فقد جعل استعمال آلة من شأنها أن تقتل هو علة القتل. وإيجاب القصاص، لذلك تجد حتى فى القانون الوضعى الذى اقتبس هذا من أصول الفقه الإسلامى فى حيثيات الحكم فى أى قضية جنائية لابد أن يُبَيِّن القاضى فى حكمه دليلاً مادياً على وجود نية إزهاق الروح وبيان علاقة السببية بين الفعل المؤدى إلى القتل والنتيجة.

واسمح لى أن أقول لك: قد تكون العلة وصفاً ظاهراً مادياً، لكنه يتم فى السر والخفاء.. من أجل هذا، لا يصلح ربط الحكم به، فمثلاً ثبوت نسب ولد الزوجة من زوجها، علته فى الحقيقة وصول ماء الرجل إلى رحم الزوجة، لكنه أمر خفى لا يمكن الاطلاع عليه، لذلك فقد قال الأصوليون: فراش الزوجية الثابت بالعقد الصحيح يقوم مقامه، وهو أمر ظاهر يمكن التحقق من وجوده وعدمه، وهذا القول يفتح مجال الاجتهاد فى نفى العلة الخفية، فلا حاجة إذن لأمر ظاهر - وهو فراش الزوجية الثابت بين الزوجين بالعقد الصحيح - لأن يقوم مقام العلة الأصلية.. بمعنى: لنا أن نجتهد فى إثبات العلة الحقيقية أو نفيها، فمثلاً إذا كان الزوج عقيماً أو صغيراً لم يبلغ الحلم، فهذا دليل على أن الولد ليس منه، فلا يقوم فراش الزوجية مقامه وإن ثبتت الزوجية بين الزوجين بالعقد الصحيح. قال صاحبى: أسرفت على نفسك وعلىَّ، فى بيان الوصف الظاهر للعلة، فهلا بَيَّنْت لى كيف يكون منضبطاً متعدياً ومناسباً؟!..

قلت: لقد حيرنى أمرك يا صاحبى... أتشكو السرف فى العلم؟! قال: إن الرأس وعاء وكل وعاءٍ له نهاية وحد وأنا أحب أن يمتَلأ وعائى بمعانى أصول الفقه، فقد أحببت هذا العلم وأهله، قلت: الحمد لله لك ما تريد - إن شاء الله..

قلنا: إن الوصف لابد أن يكون ظاهراً وقد عرفت ذلك، أما أن يكون منضبطاً، فمعناها أن يكون له حدود لا تتفاوت، باختلاف الأشخاص والأحوال.. فمثلاً لو قلنا: إن المشقة علة فى قصر الصلاة، أو الإفطار فى السفر، فإن ذلك لا يصلح أن يكون علة للقياس، لأن المشقة أمر مرن غير منضبط، يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، فلا تصلح المشقة أن تكون علة لإباحة الفطر للمسافر، لأنه يمكن أن تحدث المشقة من غير سفر، أما العلة المنضبطة أى المحددة فهى السفر بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان.

أما معنى أن يكون الوصف متعدياً، أى أن يمكن وجوده فى غير الأمر الأصلى المقيس عليه، فإن أساس القياس هو العلة، فإذا كانت العلة قاصرة على الأمر الأصلى ولا توجد فى غيره، فلا يمكن القياس، ومثال ذلك: السفر.. فإنه علة قاصرة لإباحة الفطر فى رمضان إذ لا توجد فى غير المسافر، كمن يشتغل فى أعمال شاقة، فإنه لا يمكن قياسه على المسافر. وكذلك المرض، فإنه علة قاصرة على المريض بالنسبة للصيام والصلاة، فلا يمكن القياس عليهما، وحتى تتضح المسألة، أضرب لك مثالاً بعلة متعدية، توجد فى الأصل ويمكن أن توجد فى غيره، وبذلك نقيس الفرع على الأصل مثل الإسكار، فهو علة متعدية توجد فى الخمر، ولهذا حُرِّمَت،

ويمكن أن توجد فى أى مشروب آخر، فإذا وُجِدَتْ أخذ هذا المشروب حكم الخمر مع فارق بسيط هو أن الخمر تُحَرَّم ولو لم تُسْكِر حيث إنها الأصل، أما غيرها فلا يُحَرَّم إلا بثبوت الإسكار، ولا عبرة بحال الأشخاص قوة وضعفاً. لأن الأحكام ـ كما قلنا ـ والعلل لا تنبنى على التفاوت بين الناس، ولا عبرة أيضاً بالمسميات، أقول هذا بمناسبة ما أشيع ويشاع من فَسَقَةٍ أو مغرضين، من أن الإمام أبا حنيفة أباح شرب النبيذ، وذلك باطل من وجهين:

الأول: أن ما أفتى عليه الإمام أبو حنيفة هو ما نعرفه الآن ونتناوله فى إفطار رمضان وهو التمر المنبوذ فى الماء(١). أما إن ترك هذا التمر فى الماء عدة أيام حتى تَخَمَّرَ وأسكر فإنه يُحَرَّم.

فأنت ترى أن الإمام لم يُفْتِ بِحِلِ مُسْكِرٍ، وإنما قال إن الخمر محرمة بالنص والنبيذ محرم بالقياس إذا أسكر، فإذا لم يُسْكِر بمعنى أن العلة لم تتوافر فى الفرع كما توافرت فى الأصل، فلا ينطبق الحكم، وبهذا يقول جميع الفقهاء، لأن من شرط القياس وجود العلة فى الفرع كما هى فى الأصل.

أما من أين جاءت الشبهة أو راجت الإشاعة أو رغب قوم فى التشويش بها على الإمام، فأولاً: لأنهم يريدون أن يسكروا ويشربوا ويريدون أن يُلْبِسوا فعلهم الآثم ثوب الحلال والاجتهاد.

ثانياً: تَغَيُّر استعمال لفظ النبيذ الآن، حيث أصبح يطلق على نوع من أنواع الخمور. شديد الإسكار(٢).

وإذا بصاحبى يذكرنى بموضوع كنا قد تواعدنا على استكماله فى هذا اللقاء، وهو تكملة الحديث عن المطلق والمُقيد، قلت لصاحبى وأنا مغتبط فرح بما آل إليه حاله لتعلقه بعلم «أصول الفقه» أراك الآن تطلب الاستزادة من الحديث فى علم أصول الفقه، بعد أن كنت تضيق به ولا تطيق الحديث فيه إلا على مضض منك.. قال صاحبى: الحق أنى أحببت هذا العلم وتعلقت به، قلت ـ وأنا أهم بالانصراف ولا أخفى فرحى واغتباطى بصاحبى وما آل إليه حاله:

الحمد لله أنى قد بلغت منك وبك إلى ما أريد، فهذا العلم لا تكفيه مقالات عابرة فى مجلة سائرة مهما تكن مكانتها العلمية وإنما هو فى حاجة منك إلى قاعة درس منضبطة أو مجلس علم ملتزم بقواعد الدرس والتحصيل، قال صاحبى ـ وهو يمسك بى ـ: مهلاً، لا تجعل هذا آخر العهد بمجلسنا. قلت فى استجابة حانية لكنه ربما كان آخر عهدنا بحوارات أصول الفقه.

(١) هو ما يطلق عليه المصريون «خشاف».

(٢) راجع كتاب الإمام أبى حنيفة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ـ رحمه الله.

من تاريخ التشريع الإسلامى:

مساجلة بين فقيهين كبيرين

للدكتور/ حمدى فتوح والى (*)

تحتاج الأمم فى مسيرة حضارتها، إلى معالم تنير طريقها، وتهدى خطوها وتحفزها بقوة لتواصل سيرها، وتضاعف عطاءها.

وتشتد الحاجة إلى تلك المعالم عند اختلاف الدعوات، واختلاط الصيحات، وتعدد المناهج، وتباين الطرائق، وكثرة المتصدين للتزعم والقيادة ممن لا يملكون أسبابها، ولا يفقهون فى الغالب حقوقها وأسرارها.

وفى عالم الاقتصاد لا يلجأ الفرد إلى الاستدانة وله رصيد مذخور، قبل أن يراجع رصيده فيرى إن كان فيه غناء، ولا تلجاء الدولة إلى الاستيرادقبل أن تراجع خزائنها وتنظر فى خاماتها ومقدراتها كذلك، أفلا يقوم رصيد الروح وزاد الفكر ووراثات القلب والضمير، كما تقوم السلع والأموال فى حياة الناس؟! بلى، ولكن الناس فى عالمنا الإسلامى لا تراجع رصيدها الروحى، وتراثها الفكرى قبل أن تفكر فى استيراد المبادىء والقيم، واستعارة النظم والشرائع من خلف السهوب ومن وراء البحار.

ومن هنا كان ضرورياً أن نقدم لأبناء جيلنا صفحات مضيئات من تاريخنا التشريعى العظيم.

والصفحة التى نجلوها اليوم تعرض نموذجاً عالياً للأدب الرفيع، والخلق الرصين فى المناظرات العلمية، وما ظنك بنقاش فقهى يدور بين إمام المدينة وعالمها «مالك بن أنس» وإمام الكنانة

(*) مستشار تربوى بوزارة التربية والتعليم.

وفقيهها «الليث بن سعد» وهما من هما مكانة وعلماً فى تاريخنا التشريعى.

وقد كانت تربية الإمامين الجليلين فى دور الطلب مما ساعد على ارتقائهما العلمى والروحى والأدبى. يقول ابن القاسم: أفضى طلب العلم. بمالك إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه ثم أقبلت عليه الدنيا بعد ذلك.

ويقول الإمام مالك عن نفسه: «ما جلست للفتيا حتى شهد لى سبعون شيخاً بالعلم»(١) ومع هذا الرسوخ العلمى والتمكن الأدبى والروحى فقد كان أكثر الناس تهيباً للفتيا حتى اشتهر عنه القول المأثور «من قال لا أدرى فقد أفتى» وكان لشدة تعظيمه لمدينة رسول الله ﷺ أن حرم على نفسه أن يركب مطية فى المدينة، حتى مع تقدم السن، وضعف القوة عن المسير، فإذا روجع فى ذلك قال: «لا أركب فى مدينة بها قبر رسول اللهّ ﷺ».

أما الليث بن سعد إمام مصر فيكفيه شهادة قول الإمام الشافعى - رضى الله عنه - «الليث أفقه من مالك إلا أن قومه ضيعوه»(٢) وقول الإمام أحمد بن حنبل «ليس فى المصريين من هو أثبت من الليث بن سعد» وقد ذكره ابن حبان فى الثقات وقال: «كان من سادات أهل زمانه فقهاً وورعاً وعلماً وسخاءً».

والقضية التى دار حولها النقاش وكانت موضوعا للمساجلة بدأت بإنكار الإمام مالك على الإمام الليث فى بعض المسائل الفقهية بما يخالف ما أجمع عليه أهل المدينة.

إذ يرى الإمام مالك - رضى الله عنه - أن إجماع أهل المدينة وحدهم يكون حجة على من خالفهم فى انعقاد إجماعهم. وهى مسألة أصولية يلتزمها علماء المذهب المالكى، ويضيفون إليها فوق ذلك أن خبر الواحد من نقل أهل المدينة يرجح من يعارضه من خبر مخالف تناقله من أهل المدن الأخرى ويعلل الإمام مالك هذا التفضيل بقوله: «انصرف رسول الله ﷺ من آخر غزواته ومعه نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة، مات بالمدينة منهم عشرة آلاف، وباقيهم تفرق فى البلدان، فأيهما أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم؟ من مات عندهم النبى ﷺ وأصحابه الذين ذكرت. أو من مات عندهم واحد أو اثنان من صحابة رسول الله ﷺ»(٣).

وهى دعوى قد تبدو قوية واضحة، وحججها ظاهرة دامغة، وتزداد أهمية وقوة مكانة المدينة فى قلوب المسلمين إذ هى ملاذ رسول الله ﷺ ومهجره وبها عاش وفيها قبر، وبها أيضاً عاش غالب أصحاب رسول الله ﷺ، وفيها ماتوا. ومن هنا تكتسب دعوى الإمام مالك أهميتها وقوتها، فإذا أضيف إلى ذلك ما يتمتع به الإمام مالك من هيبة، وما يحظى به من شهرة أدركنا مدى حرج موقف الإمام الليث.

فلنر كيف جرت المناقشة وكيف كانت نتيجتها؟

تبدأ المساجلة برسالة من الإمام مالك معارضاً

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ صـ ١٧٤.

(٢) المرجع نفسه صـ ١٦٦.

(٣) مجالس العلم فى حرم المسجد د. محمد رجب البيومى صـ ٤٣.

ومنكراً بعض فتاويه قائلاً: «من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليكم فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: عصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية، وعافانا وإياكم من كل مكروه، واعلم - رحمك الله - أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذى نحن فيه، وأنت فى أمانتك وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلهم إليك، واعتمادهم على ما جاء منك، حقيق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله - تعالى - يقول:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

وقال - تعالى -:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾(٢).

فإن الناس تبعاً لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وأحل الله الحلال وحرم الحرام إذا رسول الله بين أظهرهم، يحضرون الوحى والتنزيل، ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله عليه ورحمته وبركاته، ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، ممن ولى الأمر من بعده، فما نزل بهم مما عملوا أنفذوه وما لم يكن عندهم، فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا فى ذلك فى اجتهادهم وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف، أو قال أمراً غيره أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغيره.

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون ذلك السبيل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً ومعمولاً به لم أر لأحد خلافاً للذى فى أيديهم من تلك الوراثة التى لا يجوز لأحد انتحالها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا، وهذا الذى مضى عليه من مضى منا ولم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك الذى جاز لهم، فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك واعلم أنى أرجو ألا يكون ما دعانى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله - تعالى - وحده، والنظر لك والظن بك، وانزل بكتابى منك منزله، فإنك إن فعلت تعلم أنى لم آلك نصحاً. وفقنا الله وإياك لطاعته، وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتبت يوم الأحد لتسع مضين من صفر.

تلك كانت رسالة الإمام مالك، التى جمعت إلى قوة الحجة وضوح العبارة، ودقة اللفظ وسهولة التعبير وجمال الأسلوب.

وواضح من خلالة الرسالة قوة إيمان صاحبها بفكرته، وامتزاجه بقضيته، وثقته الكاملة فى صحة دعواه. كما يظهر من خلالها عمق الحب وصدق الود، وخلوص النية، وسلامة والقصد.

---

(٤) سورة التوبة آية ١٠٠.

(٥) سورة الزمر الآيتان ١٧، ١٨.

كما نحس كمال الخلق، وروعة الأدب، ورقة الخطاب، وحسن العرض. إذ بدأ الإمام مالك رسالته بالدعاء لأخيه، واختار من الدعوات ما يتناسب وموضوع الرسالة؛ ليكون ذلك توطئة لقصده ومدخلاً لمراده، ثم لا ينسى أن يضيف نفسه إلى أخيه عند الدعاء تلطفاً وأدباً بقوله: «عصمنا وإياك» «وعافانا وإياكم» وهى صيغة فى الخطاب أرق وأجمل مما قال: «عصمك وعافاك» فإن ذلك يوحى بنقص ذلك عند المخاطب واحتياجه إليه.

ثم يدخل فى موضوع المناقشة فى حسن تخلص، وجمال تلطف، فيكشف له عن سبب الرسالة قائلاً: «واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا وببلدنا الذى نحن فيه» لكنه يسارع فيغلف هذا الإنكار قبل إتمامه بغلاف من الثناء الجميل فيثنى عليه بعظيم فضله وعلو شأنه فى بلده، لكنه يستثمر هذا الثناءوذلك الإطراء لخدمة قضيته فيخوفه عاقبة التسرع بمخالفة ما عليه إجماع أهل المدينة، فإن تبعة ذلك ثقيلة لأن الناس فى مصر سيتبعونه. وكأن الإمام مالك قد استوثق من صحة دعواه وخطأ ما عداها حتى جعل ما عداها أمر يخاف منه، ويتقى الوقوع فيه، ويخشى على صاحبه من فعله. وحجة الإمام مالك فى ذلك كما أشرنا «أن الرسول ﷺ انصرف من آخر غزواته ومعه نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة، مات بالمدينة منهم عشرة آلاف، وباقيهم تفرق فى البلدان فأيهما أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم . .».

فلننظر كيف كان جواب أمام مصر على رسالة إمام المدينة، لقد كتب إليه يقول: «سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو - أما بعد - عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا الآخرة. قد بلغنى كتابك تذكر فيه صلاح حالكم الذى يسرنى، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقها بنظرك فيها.

وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدائى بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندى موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فيها جميلا إلا أننى لم أذكر مثل هذا وأنه بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأنى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيهم، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن.

وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله - تعالى - ، ووقع منى بالموقع الذى تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أمره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا آخذلفتياهم فيما اتفقوا عليه منى. والحمد لله رب العالمين، الذى لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهرانى أصحابه وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا تبعا لهم فيه فكما ذكرت. وأما ما ذكرت من قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٦).

فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ـ تعالى ـ ، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه، ويجتهدون برأيهم فيما يفسره القرآن والسنة، وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان والذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا أمراً فسره القرآن، أو عمل به النبى ﷺ بمصر والشام والعراق، أو ائتمروا فيه بعده إلا عملوه، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبوبكر وعمر وعثمان، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى أشياء كثيرة، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها، ثم اختلف التابعون فى أشياء بعد رسول الله ﷺ : سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف، ثم اختلف الذين بعدهم فحضرتهم بالمدينة ورأسهم يومئذ ابن شهاب، وربيعة بن عبدالرحمن. وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما عرفت وحضرت. وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه فى الشىء الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضاً، ولا يشعر بالذى مضى من رأيه فى ذلك. فهذا الذى يدعونى إلى ترك ما أنكرت تركى إياه».

ورسالة الإمام الليث طويلة نكتفى منها بهذا القدر. إذ فيه كما لمسنا ردوداً وافية وشواهد كافية للرد على ما جاء فى رسالة الإمام مالك. وتعقب حججها واحدة واحدة فى عبارات واضحة، وحجج ظاهرة وشواهد دامغة، دون أن ينسيه ذلك كله مكانة صاحبه وهيبته وفضله.

ورسالة الإمام الليث شاهدة على ما كان يتحلى به علماؤنا فى مناقشاتهم ومناظراتهم من أدب جم وذوق رفيع وخلق نبيل وهو ما سيكون موضوع حديثنا فى المقال القادم أن شاء الله ـ تعالى ـ :

(٦) سورة التوبة آية ١٠٠.

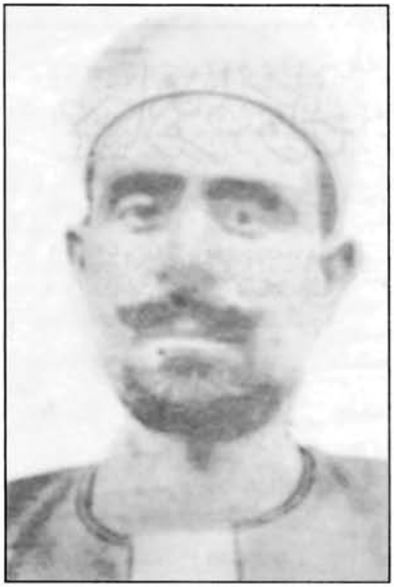

بين الخضر حسين و على عبد الرازق

قضية وكتابان

٢

للأستاذ الدكتور / محمد عمارة

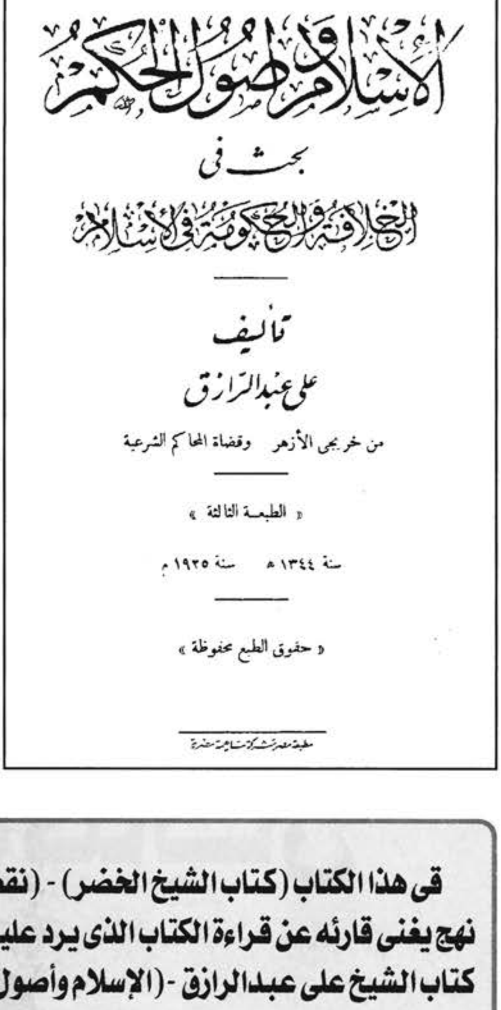

الإسلام وأصول الحكم

بحث في

الخلافة والحكومة في الإسلام

تأليف

علي عبد الرازق

من خريجي الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية

« الطبعة الثالثة »

سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م

« حقوق الطبع محفوظة »

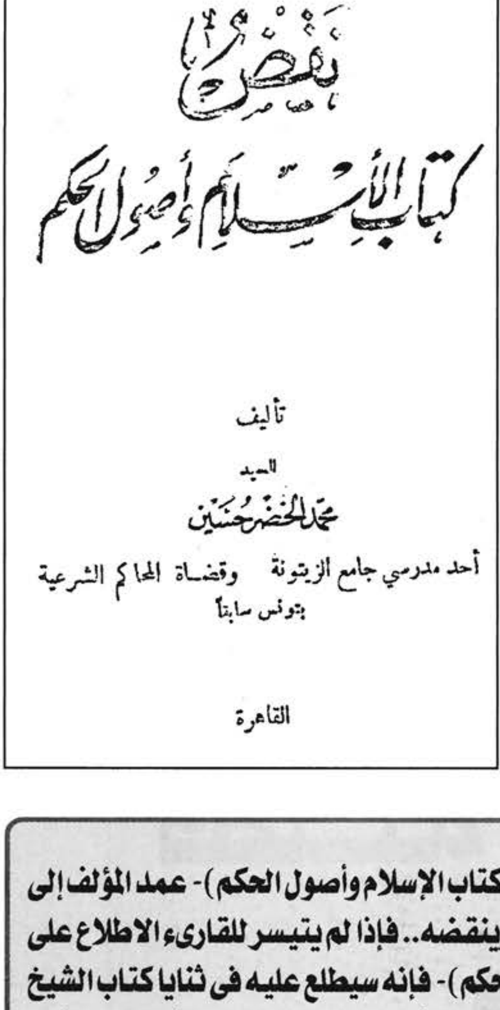

نقض

كتاب الإسلام وأصول الحكم

تأليف

السيد

محمد الخضر حسين

أحد مدرسي جامع الزيتونة وقضاة المحاكم الشرعية

بتونس سابقاً

القاهرة

فى هذا الكتاب (كتاب الشيخ الخضر) - (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) - عمد المؤلف إلى نهج يغنى قارئه عن قراءة الكتاب الذى يرد عليه وينقضه.. فإذا لم يتيسر للقارىء الاطلاع على كتاب الشيخ على عبد الرازق - (الإسلام وأصول الحكم) - فإنه سيطلع عليه فى ثنايا كتاب الشيخ الخضر، حتى ليكاد الرجل لا يترك من كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فقرة إلا أوردها ليناقش صاحبها ولينقدها وينقض فكرتها أو يبين رأيه فيها.. فهو يتتبع أبواب الكتاب، موضوع النقض، بابا بعد باب، فيبدأ بتلخيص الباب.. ثم يأخذ فى إيراد الفقرة المعبرة عن الفكرة، فينقضها، وهكذا، إلى نهاية الباب.. ففيه معظم نصوص كتاب على عبد الرازق.. الأمر الذى يغنى القارىء عن كتاب على عبد الرازق.

وفي هذا الكتاب يتجلى الشيخ الخضر، في أسلوبه واختيار ألفاظه، «عالما- أديبا».. فهو ينتقى ألفاظه المعبرة بدقة شديدة عن المعنى المراد كما يصنع «الفلاسفة- العلماء». وهو يتخير من هذه الألفاظ المحكمة ما هو جميل، ويصوغها في أسلوب بالغ الرقي، كما يصنع الأدباء الذين برعوا في تذوق العربية وفقهوا أسرار جمالها وأعانهم على ذلك علم غزير بعلومها.. حتى ليصلح أسلوب الرجل وبيانه لأن يكون نموذجا للغة «العلماء- الأدباء»!..

وفي هذا الكتاب نرى الشيخ الخضر «عالما بالمنطق وقضاياه»- بالمعنى الفني والاصطلاحي- بارعا في فن الجدل والمناظرة.. وإذا كان الشيخ على عبدالرازق قد برع في «المراوغات التشكيكية» التي مكنته من أن يضع في كتابه متناقضات يستطيع أن يلجأ من إحداها إلى الأخرى عند المناظرة، وفي أسلوب وبألفاظ قد تسعفه إذا هو شاء أن ينفي عن كتابه التناقض؟! -وهو الأمر الذي وضح جليا في «مذكرة» دفاعه عن نفسه ودفعه لاتهامات «هيئة كبار العلماء»[1].. فإن براعة الشيخ الخضر في فن الجدل وأدب المناظرة قد مكنته من تتبع «المراوغات التشكيكية» للشيخ على عبدالرازق، في صبر وأناة ورسوخ قدم، يحسده عليها أهل العلم وأساطين الجدل والمناظرة.. وإن بدا الرجل، في هذا الميدان، غير مألوف بالنسبة للقراء المتعجلين؟!..

كذلك، يتجلى الرجل، في كتابه هذا «ناقدا- محققا أمينا».. فهو لا يقف في نقد مصادر خصمه عند ما استند إليه الخصم من نصوص واقتباسات، بل يعود إلى المصادر التي يقتبس منها الخصم، ليتحقق من أمانته في النقل، وليرى هل انتزع النص من سياقه على نحو مخل باتساق الأفكار؟.. ولقد استطاع الرجل أن يمسك بتلابيب الشيخ على عبدالرازق في بعض من هذه المواطن!..

وكمثال على هذا «النهج التحقيقي» في نقد استخدام المصادر، تتبع الشيخ الخضر لمقولة الشيخ على عبدالرازق القائلة إن علماء الكلام الإسلاميين قد قرروا للخليفة والإمام سلطانا إلهيا مطلقا.. فلقد ذهب الشيخ الخضر إلى المصادر التي عزا إليها الشيخ على هذه المقولة، فكشف غياب الدقة عن الرجل في هذا الادعاء.. وهو يكشف لنا هذه الحقيقة، التي هي نموذج لهذا النهج في «النقد بالتحقيق» فيقول: «قال المؤلف -(على عبدالرازق)-، عازيا إلى (طوالع الأنوار)[2] وشرحه (مطالع الأنظار)[3]: «ولا غرو أن يكون له -(الخليفة)- حق التصرف في رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم»[4].

قطف المؤلف هذه الجملة من أصلها وأطلقها خالية من الروح التي تجعلها حكمة جليلة؛ فإن صاحب (الطوالع) إنما ألقاها في نسق التعليل لأخذ العدالة شرطا من شروط الإمامة، فقال:

---

(١) انظرها في كتابنا [الإسلام وأصول الحكم - للشيخ على عبدالرازق].

(٢) هو متن في التوحيد، للإمام البيضاوي، ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن على.

(٣) لشمس الدين أبي الثناء محمود بن عبدالرحمن الأصفهاني.

(٤) الأبضاع: الفروج.

(الرابعة: أن يكون عدلا، لأنه يتصرف فى رقاب الناس وأموالهم وأبضاعهم). وقال شارحة فى (المطالع: (لو لم يكن -يعنى الإمام- عدلا لم يؤمن تعديه، وصرف أموال الناس فى مشتهياته، وتضيع حقوق المسلمين)؛ فالمراد من التصرف فى الأموال والرقاب والأبضاع التصرف بحق، وهو التصرف بنحو القضاء، أو بعمل مشروع، كاستخلاص الأموال المفروضة، وحمل الناس على أمر الجندية، وولاية نكاح من لا ولى لها»[٥].

فهو، هنا، يحقق اقتباسات خصمه، ويكشف التجاوز الذى حدث فى الاستشهاد بسبب عزل العبارة المقتبسة، قسرا، عن السياق الذى وردت فيه!..

ولقد كانت المعركة بين الشيخ على عبدالرازق وبين خصومه، فى نظر التيار «العلمانى»، على وجه الخصوص، قد اتخذت صورة الصراع بين «التجديد» وبين «الجمود والتقليد».. فصاحب (الإسلام وأصول الحكم) قد قدم نفسه كمجدد إسلامى، وتحدث عن كتابه كإسهام فى التجديد الدينى.. كما اشتملت جبهة خصومه على أصوات كثيرة مثقلة بنغمات «الجمود والتقليد».. لكن الشيخ الخضر حسين لم يكن ضد هؤلاء، ولا كان كتابه صوتا من هذه الأصوات.. فلقد كان الرجل مجددا إسلاميا راسخ القدم على درب تجديد الإسلام، يخاصم الجمود والتقليد، ويرى فيهما شذوذا على نهج الإسلام الحق والمسلمين الحقيقيين.. وفى هذا الصدد يقول: «.. من أول ما عنى به الإسلام فى تشريعه أن أطلق العقول من وثاق التقليد، وفتح أمامها باب النظر حتى تعبر إلى قرارة اليقين على طريق الحجة والبرهان، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[٦].

وقال:

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[٧].

وقد جرى علماء الإسلام، ولا سيما السلف الصالح، على هذا المنهج، فكانوا لا يتابعون ذا رأى على رأيه ولا يتقلدون حكما قبل أن يعلموا مستنده، وإذا عرفوا المستند عرضوه على قانون الأدلة السمعية ووزنوه بميزان النظر ليعلموا مبلغه من الصحة، فإذا ثبت على النقد وسلم من وجوه الطعن رفعوه على كاهل القبول وإلا نبذوه نبذ الحذاء المرقع، غير مبالين بمقام مدعيه وإن حاكى القمر رفعة وسناء! ومن درس مسائل الخلاف من عهد الصحابة، -رضى الله عنهم، -إلى العصر الذى ساد فيه القول بسد باب الاجتهاد، رأى الصحابة كيف يخالف بعضهم بعضا ولا ينقاد صغيرهم إلى كبيرهم إلا بزمام الحجة، وسار على هذا الاستقلال وحرية الفكر التابعون فمن بعدهم، ولا يكبر على أحد من المجتهدين أن يناظر أستاذه أو من كان أوفر منه علما وأوسع نظرا فيقارع حجته بالحجة، حتى إذا لم تمتلئ نفسه بالثقة من أدلته اجتهد لنفسه وأقام بجانب مذهبه مذهبا، ولتجدن

---

(٥) الباب الأول من الكتاب الأول [ص١١ من طبعة الأصل].

(٦) الإسراء: ٣٦.

(٧) النجم: ٢٨.

من هؤلاء من يبلغه مذهب الصحابى فى قضية لم ينعقد عليها إجماع فيستأنف النظر فى دلائلها ولا يكون فى صدره حرج أن يخالف الصحابى أو يرجح مذهب تابعى على مذهبه »[٨].

وهذا الانحياز الإسلامى إلى التجديد قد ظل نهجا لم يخل منه عصر– وإن ذبل خلال مرحلة الانحطاط والجمود– المملوكية العثمانية– أما فى عصرنا، عصر اليقظة « فإن فى العالم الإسلامى علماء شبوا على حرية الفكر وإطلاق العقل من وثاق التقليد الأصم، فهم لا يكرهون لذوى الألباب أن يبحثوا حتى فى أصل العقائد (وجود الخالق)، وهم لا يستطيعون أن يحولوا بين المرء وما يعتقد من باطل، وليس فى أيديهم سوى مقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد »[٩].

هكذا حدد الشيخ الخضر موقعه فى هذه المعركة وأبان عن هويته، فهو نصير للتجديد، وخصم للجمود والتقليد، ومن هذا الموقع يتقدم لنقض كتاب الشيخ على عبدالرازق « بمقابلة الآراء بما تستحقه من تسليم أو تفنيد »!

وإذا كان الرجل قد حدد موقعه وأبان عن هويته فى هذا الصراع الفكرى، فهو قد نفى عن على عبدالرازق سمة التجديد، وأعلن عن أن « التغريب » والافتتان بالغرب ومقولات كتابه ونظريات فلاسفته وتصورات مستشرقيه هو الذى جعل الشيخ على عبدالرازق ينظر إلى الإسلام –فى قضية الدولة والسياسة– بالمنظار الذى نظرت به النهضة الاوروبية إلى المسيحية الكاثوليكية، فيرى الخلافة: استبدادا وحكما بالحق الإلهى وكهانة تجعل الحاكم نائبا عن الله، لا يُسأل عما يفعل.. ويرى الإسلام: دينا لا دولة، ورسالة روحية يتباعد ما بينها وبين السياسة وتنظيم المجتمعات.

إنه تقليد الغرب، ذلك الذى جعل صاحب (الإسلام وأصول الحكم) يرى الإسلام مسيحية تطلب أن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!.. هو « التغريب » إذا، وليس « التجديد »، المنطلق الذى رآه الشيخ الخضر مصدرا لهذا الفكر الذى انفرد به الشيخ على عبدالرازق دون كل علماء الإسلام على امتداد تاريخ الإسلام!..

إنه يحدد « التغريب » –وتطور الإسلام فى السياسة مسيحية، كعلة أولى لهذا الفكر، فيقول: « يتساءل الناس أحيانا عن الحال الذى لبس قلب المؤلف –(الشيخ على عبدالرازق– حتى أصبح يقول على الله غير الحق: هل اقتحم هذه الخطيئة لقصور فى الفهم؟ أم لداعية افتتانه بملة أخرى؟. إذا صح للقارىء أن يتردد فى بعض المباحث السابقة، فإن هذا البحث –(الذى تصوّر فيه على عبدالرازق) الإسلام « رسالة لا حكماً ودينا لا دولة) لا يبقى له ريبة فى أن المؤلف قد يقصد إلى قلب الحقائق، حيث لا يصح أن تنقلب فى نظره »![١٠] فليس قصور الفهم هو علة هذه الأفكار.

---

(٨) الباب الثالث من الكتاب الأول. ص٣٨، ٣٩ من طبعة الأصل.

(٩) الباب الأول من الكتاب الثانى [ص١٣٠، ١٣١ من طبعة الأصل].

(١٠) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص١٧٢ من طبعة الأصل].

وعندما يتحدث على عبدالرازق عن وجود تصورين للحاكم فى نظر علماء الإسلام، أحدهما – وهو مذهب الجمهور فى رأيه– يرى الحاكم ذا سلطان إلهى مستبد.. يبصر الشيخ الخضر أثر التقليد لمذاهب الغربيين– لا مذاهب الإسلاميين– فى هذا الادعاء.. فيقول– فى تحفظ العلماء ودقتهم–: «والذى يؤخذ بطريق الاستنتاج أن المؤلف عرف أن للغربيين فى سلطة الملك مذهبين فابتغى أن يكون للمسلمين مثلهما، ولما لم يجد فى كلام أهل العلم عن الخلافة ما يوافق أو يقارب القول بأن سلطان الخليفة مستمد من سلطان الله تلمسه فى المدائح من الشعر أو النثر..»؟!(١١).

وعندما يستند الشيخ على عبدالرازق إلى آراء المستشرق «السير آرنولد» [١٨٦٤ – ١٩٣٠م] فى تقرير «أحكام شرعية» خاصة بالإمامة والخلافة، يبصر الشيخ الخضر أثر الافتتان بالغرب وتأثيرات الهيمنة التى تمارسها الحضارة الغربية على عقول البعض إلى الحد الذى جعلتهم يأخذون عنها، لا المباحث التاريخية والاجتماعية، بل وأحكام الشرع والدين؟!.. فيقول: «... ولو أحالنا المؤلف –(على عبدالرازق)– على كتاب السير آرنولد –(الخلافة)– فى بحث تاريخى أو اجتماعى له مساس بالخلافة لأخذ منا الأسف على أن فاتنا الاطلاع عليه، مأخذا بليغا، ولكنه أحالنا على كتاب السير أرنولد فى الراسخين فى علومها!.. يجب أن تكون قيمة الأحكام الشرعية فى نظر المؤلف فوق هذا التقدير، وما ينبغى له أن يخيل إلينا أنا فى حاجة إلى الاقتداء بعقول الغربيين حتى فى أمور الدين من واجب وحرام. وإذا كان المؤلف يدرى أن للشريعة أصولا ومقاصد لم يدرسهما السير آرنولد حق دراستهما، فإن إحالتنا على كتابه ليست سوى عثرة فى سبيل البحث تعترض السذج فتكبوا بهم فى تردد وارتياب»!(١٢).

وعندما يتصور الشيخ على عبدالرازق، ويصور الرسول ﷺ مجرد «مبلغ» رسالة، لا حظ له ولا شأن «بالتنفيذ» لما تضمنته هذه الرسالة من تنظيم للمجتمعات وسياسة للناس.. ينبه الشيخ الخضر إلى تأثيرات صورة المسيح –عليه السلام– بنظر علمانية الحضارة الغربية، فى تلوين تلك الصورة المدعاة لنبى الإسلام.. «فالرأى الذى يقصده المؤلف –(على عبدالرازق)– حسبما تصرح به ألفاظه وما يسوق عليه من الشبه– هو أن النبى ﷺ مبلغ فقط، ولم يكن من وظيفته تنفيذ ما أوحى إليه بتبليغه، وأنه لم يأت بشريعة لها مساس بالقضاء وسياسة الدولة، وهو رأى لم ينسج على أصل شرعى ولم يقم على بحث علمى، ولكن الافتتان بزخرف الحياة الافرنجية يخامر العقل، فإذا الخيال ينقّر بالقلم ما شاء أن ينقّر، ويقلب صور الحقائق، إلى مالا يخطر على قلب أفاك أثيم»!(١٣).

وإذا كان اللاهوت المسيحى قد تصوّر المسيح منبت الصلة بالدولة والسياسة، يدعو إلى أن ندع مالقيصر لقيصر، وما لله لله.. فهو قد تصوره إلها أو ابنا لله، له خصائص الألوهية وصلاحياتها.. فإذا جاء الشيخ على عبدالرازق وتحدث عن سلطان الرسول ﷺ على القلوب سلطانا يجعل له «حق التصريف

---

(١١) الباب الأول من الكتاب الأول [ص١٤ من طبعة الأصل].

(١٢) الباب الثانى من الكتاب الأول [ص٢٩ من طبعة الأصل].

(١٣) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص١٦٥ من طبعة الأصل].

لكل قلب تصريفا غير محدود».. رأينا الشيخ الخضر ينبه على أن الإسلام يرى الله - سبحانه وتعالى - هو المنفرد بتصريف القلوب.. وينقل رأى الحافظ ابن حجر العسقلانى [٧٧٣ - ٨٥٢هـ/ ١٣٧٢- ١٤٤٩م] فى (فتح البارى) والذى يقول فيه: «إن - الله تعالى - تمدح بالانفراد بذلك ولا مشارك له فيه».. ورأى البيضاوى [٦٨٥هـ ١٢٨٦م] الذى يقول فى تفسير آية:

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾(١٤).

إن فى نسبة تقليب القلوب إلى الله إشعارا بأنه يتولى قلوب عباده ولا يكلها إلى أحد من خلقه».. ثم يحدد الشيخ الخضر مصدر هذا «الغلو» فيقول: «وإنك لتجد فى هذه الجمل من الغلو فى الوصف ما لم يذكره النبى ﷺ عن نفسه، وإنما علق بقلم المؤلف -(على عبدالرازق)- من أثر ديانة أخرى»(١٥).

وفى الحديث عن موقف علماء الإسلام من الفلسفة يلمح الشيخ الخضر خطر النهج الذى يجعل أصحابه مقلدين «لكل ما يلفظ به الغربيون(١٦).

ولم يكن الرجل داعية لإقامة الأسوار بين الحضارات، ولكنه كان نصيرا للتفاعل الصحى الراشد، الذى يقوم بين حضارات مستقلة بما تتمايز به وتتميز من سمات وخصائص ومتصديا للافتتان بزخرف الحضارة الغربية.. وهو يتحدث عن هذا الموقف المتوازن عندما يعرض لموقف حضارتنا من الحضارة اليونانية، فيقول: «لقد عنى المسلمون من علوم اليونان بالفنون التى كانت معروفة لهم، أو كانت بضاعتهم فيها مزجاة(١٧)، وكانوا يصرفون عنايتهم إلى هذه العلوم على قدر ما يرون لها من فائدة، وعلى حسب ما تمس إليه الحاجة، فأقبلوا على العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة والمنطق بمجامع قلوبهم، وأعطوا جانبا من عنايتهم إلى ما نقل لهم من سياسة أفلاطون وأرسطو، مع علمهم بأن أيديهم مملوءة بمبادىء السياسة الكافية فى تدبير مصالح الأمة وصيانة حقوقها على منهج الحرية السامية والعدالة الصادقة.. ومن نظر فى تاريخ عظماء الإسلام ببصيرة لم تفتتن بزخرف المدنية الغربية رأى أن سيرتهم العملية وما يلفظون به من نوابغ الكلم ما يشهد له بأنهم أدركوا فى فن السياسة شأوا بعيدا ولم يكن حظهم منها أقل من حظ دارسى كتابى الجمهورية والسياسة»!(١٨)

لقد أبصر الشيخ الخضر أثر «التغريب» و« الافتتان بالحضارة الغربية» فى مجىء دعوى الشيخ على عبدالرازق جانحة عن مسار الفكر السياسى الإسلامى منذ تبلور هذا الفكر وحتى عصرنا الحديث.. ذلك أن من آفات هذا «التغريب»:

● تصور تطور كل المجتمعات على ذات الدرب وبذات المراحل وعلى نفس النحو الذى سلكه المجتمع الغربى فى التطور:

● وتصور كل المدارس الفكرية والمذاهب والمنظومات الفكرية فى ضوء مثيلاتها الغربية.. إلى الحد الذى نرى فيه ذاتنا وتاريخنا وواقعنا بمنظار الاستشراق!..

(١٤) الأنعام: ١١٠.

(١٥) الباب الثالث من الكتاب الثانى [ص١٦٦ من طبعة الأصل].

(١٦) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص٥١ من طبعة الأصل].

(١٧) أى رائجة.

(١٨) الباب الثالث من الكتاب الأول [ص٤٨ من طبعة الأصل].

مصر

(للشاعر الكبير الأستاذ على الجارم)

صور الله فيك معنى الخلود ... فابلُغى ما أردته ثم زيدى

أنت يامصر جنة الله فى الأر ... ض، وعين العلا وواو الوجود

أنت أم المجدَين بين طريف ... يتحدى الورى وبين تليد

كم جديد عليه نبل قديم ... وقديم عليه حسن جديد !

قد رآك الدهر العتى فتاة ... وهو طفل يلهو بطوق الوليد

شاب من حولك الزمان ومازلـ ... ـت كغصن الريحانة الأملود[1]

أنت يامصر بسمة فى فم الحسـ ... ـن ودمع الحنان فوق الخدود

أنت فى القفر وردة حولها الشو ... ك، وفى الشوك عزة للورود[2]

يلْثم البحر منك طيب ثغور ... بين عذب اللَّمى وبين برود[3]

يابنة النيل أنت أحلى من الحـ ... ـب وأزهى من ضاحكات الوعود

نثر النيل فيك تبرا وأوهى ... لينه من قساوة الجلمود[4]

فتن الأولين حتى أشاروا ... نحو قدسى مائه بالسجود

---

(١) الريحانة: واحدة الريحان وهو نبت طيب الرائحة. الأملود: الغصن الناعم اللين.

(٢) المراد بالقفر هنا: الصحارى التى تحيط بمصر وتكتنفها.

(٣) الثغور: جمع ثغر وهو الفم. والثغور - أيضا - هى المدن التى تقع على البحار. اللمى: سمرة الشفتين.

(٤) الجلمود: الصخر.

ووشـى لـلـريـاض ثـوبـا وحـلّـى ... كلَّ جِيدٍ من الرُّبا بعقود(٥)

أنت للاجئين أم، ووِرد ... لظماء القلوب عذب الورود

قد حملت السراج للناس، والكو ... ن غريق فى ظلمة وخمود

لا نرى فيك غير عهد مجيد ... قرنته العلا بعهد مجيد

وجهود تمثلت فى صخور ... وصخور تشبهت بجهود

عظم يبهر السماء، وشأوٌ ... عاق ذات الجناح دون الصعود(٦)

أنت يامصر صفحة من نضار ... لمعت بين سالفات العهود

أين رمسيس والكماة حووا ... ليه مشاة فى الموكب المشهود؟(٧)

ملأ الأرض والسماء: فهذى ... بجنود، وهذه ببنود

وجموع الكهان تهتف بالنصـ ... ـر وتتلو النشيد إثر النشيد

وبنات الوادى يَمِسْنَ اختيالا ... ويحيين بين دف وعود(٨)

أين عمرو فتى العروبة والإقـ ... ـدام أوفى مجاهد بالعقود ؟(٩)

شمرى يحطم السيف بالسيـ ... ـف ويرمى الصنديد بالصنديد(١٠)

لم يكن جيشه لدى الزحف إلا ... قوة العزم صورت فى جنود

قلة دكت الحصون وبثت ... رعدة الرعب فى الخضم العديد

ذعر الموت أنهم لم يخافو ... هُ ولم يرهبوا لقاء الحديد

ينظرون الفردوس فى ساحة الحر ... ب فيستعجلون أجر الشهيد

---

(٥) وشى الثوب: زينه بالنقوش. الربا: جمع ربوة وهى المرتفع من الأرض.

(٦) البهر: الغلبة. الشأو: الغاية.

(٧) الكماة: جمع كمى. الشجاع أو لابس السلاح. الموكب: الجماعة . ببنود: البند العلم الكبير.

(٨) دف: الذى يضرب به.

(٩) يشير الشاعر إلى الفاتح العظيم عمرو بن العاص، ويصفه بالشجاعة والإقدام والوفاء بالعهود.

(١٠) شمرى: ماض فى الأمور مجرب. الصنديد: السيد الشجاع.

صعدوا للعلا بريش نسور ومضوا للردى بعزم أسود
أينما ركزوا الرماح ترى العدل مقيما فى ظلها الممدود[11]
وترى الملك أريحيا . عليه نضرة من سماحة التوحيد
وترى العزم عابسا لوثوب وترى السيف ضاحكا فى الغمود
وترى العلم يلتقى بهدى الديـن على منهج سوى سديد[12]
ملكوا الأرض لم يسيئوا الى شعب ولم يحكموه حكم العبيد
هم جدودى، وأين مثل جدودى إن تصدى مفاخر بالجدود؟
فسحوا صدرهم لحكمة يونان وآداب فارس والهنود
وأصاروا بالترجمات علوم الروم ورداً للناهل المستفيد
حذقوا الطب والزمان غلام والثقافات رُضَّعٌ فى المهود
وشعوب الدنيا تعالج بالسحر وحرق البخور والتعقيد
هل ترى لابن قرة من مثيل؟ أو ترى لابن صاعد من نديد ؟[13]
والطبيب الكندى لم يبق فى الطب مزيدا لحاجة المستزيد[14]
أين أين الرازى، أين بنو زهر دعاة النهوض والتجديد؟[15]
وابن سينا، وأين كابن نفيس عجز الوهم عن مداه المديد؟[16]

---

(١١) ركز الرمح: أثبته فى الأرض. وهذا كناية عن الإقامة

(١٢) المنهج: الطريق الواضح. سوى: قويم

(١٣) ذكر الشاعر بعض أعلام الطب من العرب مفاخرا بهم. «وابن قرة» هو سنان بن ثابت بن قرة. وكان من أطباء المقتدر «وابن صاعد» هو هبة الله ويعرف بابن التلميذ. كان فى أيام المقتفى لأمر الله قالوا: ولم يكن مثله بعد أبقراط.

(١٤) الكندى: هو أبويوسف يعقوب بن إسحاق الكندى من بيت ثرى نبيل. ويلقب بفيلسوف العرب. ولد فى أواخر القرن الثانى للهجرة. وكان مترجما عالما بالطب والفلسفة والحساب والمنطق. واتصل بالمأمون والمعتصم.

(١٥) الرازى: هو أبوبكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب الكيميائى، توفى سنة ٣١١هـ ألف كتاب الأقطاب فى ثلاثين مجلدا «وبنو زهر». أهل بيت كلهم علماء وأطباء. وأشهرهم أبوالعلاء بن زهر ثم ابنه مروان ثم ابنه أبوبكر.

(١٦) ابن سينا: هو أبوعلى الحسن بن سينا، ولد فى قرية من بخارى. درس الفلسفة والطب ونضج نضجا مبكرا. وتقلد الوزارة لشمس الدولة فى همذان. توفى سنة ٤٢٨هـ. وابن النفيس: هو على بن أبى الحزم القرشى صاحب كتاب الشامل فى مائة مجلد وهوأندلسى.

هذه أمــــة من الـصـــخـــر . كـــانت ... فى قـــفـــار من الحـــيـــاة وبيـــد

تأكـل القـــد والدُّعَـــاعَ من الجـــو ... ع وتهـفـو شـوقـا لحب الهـبـيـد[17]

وتثـيـر الحـروب شـعـواء جـهـلا ... وتدس الـوئـيـد إثـر الـوئـيـد[18]

نبع الـنـور بالـنـبـوة فـيـهـا ... فطوى صـفـحـة الليـالى الـسـود

ومـضـى يملأ المـمـالـك عـدلا ... باسم الوعـد مكفـهـر الوعـيـد

أطلق العـقـل من سـلاسله الدهـ ... ـم ونحـاه عن صليل القـيـود

بلغت مـصـر فى التـآليف أوجـا ... فـات طوق المنى بمرمى بعـيـد[19]

فـاسـأل الفـاطمى كم من كـتـاب ... زان تاريخـه وسـفـر فـريد[20]

والصـلاحى والممـاليك كـانوا ... مـوئل العلم فى عـصـور الركـود[21]

تلك آثارهم شـهـودا على المجـ ... ـد، ومـاهم بحـاجـة لشـهـود

اتئـد أيهـا القـصـيـد قليـلا ... أنا أرتاح لاتئـاد القـصـيـد[22]

وإذا مـا ذكـرت نهـضـة مـصـر ... فـامـلا الخـافـقين بالتـعـريد[23]

---

(١٧) القد: جلد الشاة الصغيرة. الدعاع: حب شجرة برية أسود يختبز منه. الهبيد: الحنظل.

(١٨) الوئيد: وأد بنته، دفنها حية.

(١٩) الأوج: ضد الهبوط وهو هنا الرفعة والعلو.

(٢٠) السفر: الكتاب.

(٢١) الموئل: الملجأ. الركود: عصور تراجع النهضة العلمية ببغداد- وهو فى هذا البيت يذكر أن مصر كانت ملجأ العلوم والعلماء زمن صلاح الدين وزمن المماليك في عصور انحطاط النهضة فى بغداد.

(٢٢) اتئد: تمهل وتأن.

(٢٣) الخافقين: المشرق والمغرب.

محمد صلى الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين

للأستاذ الدكتور/ عبد العظيم المطعني

الإسلام «صنع الله» وليس صنع أحد غير الله، وقول المستشرقين: إن محمدا ﷺ صادق، ولكن رسالته كاذبة؟!
هذا القول إنما هو اتهام لعمل الله - عز وجل - بالكذب؟!
فهم - إذن - يلتمسون عذراً المخلوق، ويضعون الخالق في قفص الاتهام؟!
وقد واجهنا هذه الفرية الشنيعة في المقال السابق بما يبطلها بمقاييس الصدق في الكتاب المقدس، الذي يؤمن به المستشرقون سواء كانوا يهوداً أو نصارى، وكان ذلك كافياً في الرد على فريتهم التي طنطنوا بها ولم يستطيعوا أن يجدوا لها دليلاً أو حتى ما يشبه الدليل.

بيد أننا لا نكتفي بالمواجهة الحاسمة لهذه الفرية لأننا - والحمد لله - نملك من أسلحة المواجهات الحاسمة لكل ما يثار ضد الإسلام معيناً لا ينضب، سواء طالت معاركهم أو قصرت.

وقبل البدء في المواجهة الجديدة - هنا - رأينا من الأفضل أن نضع بين أنظار قراء «مجلة الأزهر» الكرام، حقيقة قد تغيب عن بعض الأذهان، أولا يلتفت إليها أحد.

تلك الحقيقة أن خصوم الإسلام، منذ ظهر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وإلى الآن، لم يملك واحد منهم سلاحاً يساعده على الصمود والاستمرار في نقد الإسلام، أو يصيبه في مقتل:

واجهه في عصر نزول القرآن مشركو العرب، وكان القرآن يذكر شبهاتهم التي يثيرونها ضد الإسلام بكل أمانة وصدق، ثم يتصدى لها بكل قوة، ويحيلها إلى سراب خادع.

وللقارئ الكريم أن يعود إلى القرآن نفسه، لتتأكد له هذه الحقيقة، وذلك من خلال مواجهة القرآن لشبهات خصومه القدامى لقضيتي:

إنكار البعث، وتعدد الآلهة..

وقد أثمرت هذه المواجهة الانبهار بمبادئ الإسلام وقيمة نكوص المشركين عما كانوا متمسكين به من قبل، ودخل الناس - بعد فتح مكة - في دين الله أفواجاً إلا من مات منهم على الشرك قبل الفتح المبين.

●●●

وفى العصر الحديث ظهر جيش من المبشرين والمستشرقين ووقفوا ـ جميعا ـ فى صف واحد يحاربون الإسلام.. الفريق الأول: «المبشرون» هدفهم تضليل عوام المسلمين، والفريق الثانى: «المستشرقون» هدفهم تشكيك المثقفين فى واقعيات الإسلام: كتابا ورسالة وعقيدة وتشريعا.

وفى فترة من الزمن، من سنة ١٨٠٠ م إلى سنة ١٩٥٠م، أى فى مائة وخمسين سنة كتبوا ضد الإسلام مؤلفات بلغت ٦٢ ألف مجلد.

وفى هذه الأعمال كلها لا نجد كلمة، واحدة صائبة قالها مبشر، أو كتبها مستشرق، استطاعت أن تخترق الغلاف الخارجى المحيط بالإسلام، فضلا عن إحداث أية أضرار بقيم الإسلام وواقعياته الخالدة.

ومن هذا القبيل هذه الفرية التى نواجهها الآن وهى:

«محمد صادق، لكن رسالته كاذبة»؟

إن هذه الجملة ـ مع قصرها ـ أشنع جريمة ترتكب لا ضد الإسلام فحسب، ولكن ضد العقل، وضد الواقع المعاش فى كل البيئات والعصور.

●●●

وفى هذه المواجهة لن نحتكم إلا إلى مقياس واحد لا يختلف معنا فيه أحد، لا من المبشرين، ولا من تلاميذهم المستشرقين، ولا من غيرهم ممن ينتسبون إلى ذوى الإدراك والتمييز، لأننا سنحتكم إلى أمور هُم يؤمنون بها، ويعدونها من تراثهم المقدس وإن شوَّهوا هُمْ دلالاتها عن طريق الاختلاق والوهم.

وحدانية الله

عقيدة التوحيد لها جذور فى الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد، وهو كتاب يُعد أعز ما لديهم من كتب «الديانتين» اللتين يؤمن كل فريق منهما – أعنى اليهود والنصارى ـ بصدق كل ما ورد فيه من نصوص.

هذا الكتاب ماتزال بعض نصوصه تقرر وحدانية الله، رغم «التثنية» عند اليهود، و«التثليث» عند النصارى:

ففى سفر الخروج «٢٠/٢-٥» تأتى الوصية الأولى لموسى ولبنى إسرائيل هكذا:

«أنا الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما.. لا تسجد لهن، ولا تعبدهن، لأنى أنا الرب إلهك، إله غيور»

وفى كتاب أشعياء «٤٣/ ١٠-١١» ومواضع أخرى نجد العبارات الآتية:

«قبلى لم يُصوَّر إله، وبعدى لا يكون، أنا، أنا الرب، وليس غيرى مخلِّص.. أنا الأول، وأنا الآخر، ولا إله غيرى.. أنا وليس آخر»

هذان نصان من العهد القديم «التوراة» ينطقان بكل وضوح، ويدلان بكل قوة: أن الله واحد، لا اثنان، ولا ثلاثة، ولا أكثر من ثلاثة.

كما يدلان بأن الله هو الأول، وهو الآخر، وأن الله هو وحده «المخلص» لا غيره هذه العقيدة ينبغى أن يؤمن بها النصارى كما هى فى العهد القديم «التوراة» لأن النصارى يؤمنون بصدق التوراة، ويعتبرونها القسم الأكبر من «الكتاب المقدس».

والذى تقرره التوراة ـ هنا ـ هو ما جاءت به رسالة محمد ـ ﷺ ـ وورد هذا فى القرآن الحكيم فى سور متعددة، معناها مطابق لما ورد فى التوراة فى ما ذكرناه آنفا، وصياغاتها مختلفة ومما ورد فى القرآن، الذى هو رسالة محمد ـ ﷺ ـ ما يأتى:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾(١).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾(٢).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٣).

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾(٤)

هذه الآيات من عشرات الآيات التى تقرر وحدانية الله، وتنهى عن الإشراك به.

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٥)

وهذه الآية نظير ما نقلناه من قبل عن أشعياء: «أنا الأول، وأنا الآخر».

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾(٦).

وما ورد فيها يناظر ما نقلناه عن أشعياء كذلك: «قبلى لم يصور إله، وبعدى لا يكون»

ومعنى ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لم يسبقه إله، ومعنى ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لم يعقبه إله.

كما تفيد هاتان الآيتان كونه – عز وجل – الأول الذى لم يكن فى الوجود قبله شىء، والآخر الذى لن يأتى فى الوجود وجود لشىء آخر مكافىء لوجوده ـ عز وجل ـ والسورة كلها قرار حاسم يبطل عقيدة الإشراك بالله، وإقامة لصرح عقيدة التوحيد.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(٧).

فى هذه الآية ينهى القرآن، وهو رسالة محمد ﷺ عن السجود لغير الله، مما يتخذه المشركون آلهة أخرى مع الله، أو من دون الله وما قررته هذه الآية مناظر لما نقلناه من قبل من سفر الخروج:

«لا تسجد لهن، ولا تعبدهن».

ـ ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾(٨).

---

(١) البقرة ١٣٣.
(٢) البقرة ٢٥٥.
(٣) آل عمران ٦.
(٤) الإسراء ٢٢.
(٥) الحديد ٣.
(٦) الإخلاص
(٧) فصلت ٣٧.
(٨) آل عمران ١٣٥.

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٩)

وهاتان الآيتان تقرران أن الله وحده هو الذى يملك غفران الذنوب، وهو وحده الذى يعفو إذا شاء عن عباده.

وما قررته هاتان الآيتان نظير ما تقدم ذكره نقلا عن كتاب أشعياء:

« أنا، أنا الرب، وليس غيرى مخلص » نكتفى بهذا القدر من المقارنات بين ما ورد فى رسالة محمد ﷺ وما ورد فى أسفار العهد القديم من حقائق تتعلق بعقيدة التوحيد، يوافق القرآن ما ورد فى الأسفار.

نكتفى بهذا القدر، وقد مهدنا الطريق لنوجه إلى السادة المستشرقين، الذين يؤمنون بصدق التوراة من أهل الديانتين « اليهودية والنصرانية » ويصفون رسالة محمد ﷺ بأنها رسالة كاذبة، نوجه إليهم ما يأتى:

●●●

إن كلاً من العهد القديم « التوراة » والقرآن الكريم قد اتفقا على عقيدة توحيد الله ـ عز وجل ـ ونفى الشريك معه فى الوجود، وأنه وحده بيده مقاليد كل شىء ولا يملك أحد معه نفعاً ولا ضرا، وأنه وحده الديان، وأنه هو القديم « الأول » والأبدى « الآخر » وأنه وحده المستحق للعبادة.. إلخ.....

وأنتم تؤمنون بصدق رسالة موسى وغيره من أنبيائكم، وهذا الإيمان يلزمكم ـ عقلا ـ بأن تؤمنوا بصدق رسالة محمد ﷺ لأنها أيدت ووافقت ما ورد فى كتابكم المقدس.

فإن لم تؤمنوا بصدق رسالته فى ما اتفقت فيه مع كتابكم المقدس لزمكم ـ عقلا ـ كذلك أن تتهموا كتابكم المقدس بأنه كتاب كاذب.

ولا مخرج لكم من أحد مصيرين:

إما أن تؤمنوا بصدق الاثنين: رسالة موسى وما لحق بها من رسالات العهد القديم، ورسالة محمد ﷺ فإن آمنتم بصدقهما ـ نزولا على حكم العقل ـ كان هو المطلوب، ولكنتم قد هديتم إلى سواء الطريق وإن أصررتم على أنهما كاذبتان ورسالة موسى (رسالة محمد ﷺ) فأنتم وشأنكم وحسابكم على الله.

أما نحن فدائمون على تصديق رسالة محمد ﷺ وعلى تصديق ما ورد فى كتابكم المقدس فى ما يتعلق بوحدانية الله وتنزيهه، وهى النصوص التى ذكرنا من سفر الخروج وكتاب « أشعياء »

● لأن ما ورد فيها بشأن التوحيد صدق كله من حيث المعنى المراد أما حرفية « النصوص » وكونها هى هى وحياً من الله فلا ننفيه ولا نثبته.

أما أن تؤمنوا بصدق ما ورد فى كتابكم المقدس وتكفروا بنظيره الذى ورد فى رسالة محمد ﷺ وتتهموا هذه الرسالة بأنها كاذبة فهذا فى حكم « العقل » تحكم وعناد وتعسف، وجرى مع هوى النفس.

---

(٩) الزمر ٥٣.

● أما عند الله ـ أى عنادكم وتعسفكم ـ فهو زور وبهتان، فتأملوا جيدا ما أنتم عليه قبل فوات الأوان.

●●●

أما العهد الجديد «الإنجيل» فقد وردت فيه نصوص صريحة، تقرر وحدانية الله ـ عز وجل ـ ومن ذلك ما يُسند إلى المسيح ـ عليه السلام ـ:

« .. وهذه الحياة الأبدية: أن يعرفوك، أنت الإله الحقيقى وحدك، ويسوع المسيح الذى أرسلته» يوحنا «١٧ / ٣».

فى هذه الفقرة يعلن المسيح ـ عليه السلام ـ وحدانية الله بكل وضوح، كما يعلن أنه رسول الله، وفى مطلع هذه الفقرة يعلن أن الآخرة هى الحياة الأبدية وأنها لا تُنال إلا بالإقرار بوحدانية الله، وهذه معان صحيحة.

ـ «كيف تعرفون أن تؤمنوا، وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلبونه» يوحنا: «٥ / ٤٤».

هذه موعظة صادقة، يرويها إنجيل يوحنا عن المسيح ـ عليه السلام ـ حيث يُنكر على سامعيه الاشتغال بالمجد الزائل، والإعراض عما عند الإله الواحد، والموعظة ـ كما ترى ـ تشهد لله بالوحدانية.

ـ «بالحق قلت، لأن الله واحد، وليس آخر سواه» إنجيل مرقس «١٢ / ٣٤».

وهذه شهادة أخرى يرويها مرقس عن المسيح ـ عليه السلام ـ تشهد بعقيدة التوحيد بكل جلاء.

ـ «أنت تؤمن أن الله واحد، حسنا تفعل» رسالة يعقوب: «٢ / ١٩».

جاءت هذه العبارة فى رسالة يعقوب، أحد تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ وهى على قصرها تشهد بوحدانية الله ـ عز وجل ـ.

وهذه كلها معان صحيحة، تشهد رسالة محمد ﷺ بصدقها.

ومما جاء فى رسالة محمد «أعنى القرآن» هنا، شاهداً بصدق هذه الأقوال قول الله ـ عز وجل ـ:

﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾(١٠).

فهذه الآية يناظرها قول المسيح ـ عليه السلام ـ: «وهذه هى الحياة الأبدية»

وقوله ـ تعالى ـ فى شأن رسالة المسيح:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(١١).

وهى تقابل قول المسيح: «ويسوع المسيح الذى أرسلته».

أما قول المسيح ـ عليه السلام ـ: «أنت الإله الحقيقى وحدك» فله نظائر كثيرة فى رسالة محمد ﷺ منها قوله تعالى:

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾(١٢).

وقوله فى لوم من اغتر بزخارف الدنيا وأعرض عن رضوان الله: «والمجد الذى من الإله الواحد لستم تطلبونه» يناظره فى رسالة محمد ﷺ قوله ـ

(١٠) الأعلى ١٧.
(١١) آل عمران ٤٩.
(١٢) الأنبياء ٨٧.

تعالى ـ:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾(١٣).

وأما ما ورد في رسالة يعقوب: «أنت تؤمن أن الله واحد حسناً تفعل.. إن الإيمان بدون أعمال ميت».

هذه العبارة، نظيرها في رسالة محمد ﷺ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾(١٤).

وهكذا لا نجد معنى صادقاً في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إلا ظفرنا بنظائر كثيرة له في رسالة محمد ﷺ ـ التي يزعم كثير من المستشرقين ـ يهوداً ونصارى ـ بأنها رسالة كاذبة!!..

●●●

ومما ورد في العهدين القديم والجديد «التوراة، والأناجيل» ما يأتي:

«ليس مثل الله، الإله القديم» سفر التثنيه «٣٣ / ٢٦».

ـ «الله لم يره أحد قط» إنجيل يوحنا «١ / ١٨».

ـ «الذي لم يره أحد من الناس، ولا يقدر أن يراه» الرسالة الثانية إلى ثيموتاوس: «٦ / ١٦».

هذه النصوص الثلاثة تقرر بعضاً من صفات الله المقدسة، وهي:

● نفي المثلية عن الله ـ عز وجل ـ.

● عدم رؤيته والإحاطة بذاته العلية.

وهاتان الصفتان ثابتتان لله ـ عز وجل ـ وهما مما لا يكمل إيمان أحد إلا بهما.

فإذا ولينا وجوهنا شطر القرآن الكريم «رسالة محمد» ﷺ وجدناه يقرر ما ورد هنا في أسفار الكتاب المقدس.

ففي نفي المثلية عن الله ـ عز وجل ـ تقرأ قوله ـ تعالى ـ:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(١٥)

وفي عدم رؤيته في الدنيا نقرأ قوله ـ تعالى ـ:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(١٦).

وقوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١٧)

هذه هي رسالة محمد ﷺ التي حلا لمستشرقي العهدين أن يتهموها بأنها رسالة كاذبة وهذا الاتهام لا يمكن أن يكونوا

(١٣) النحل ٩٦.
(١٤) الكهف ٣٠.
(١٥) الشورى ١١.
(١٦) الأنعام ١٠٣.
(١٧) الأعراف ١٤٣.

صادقين فيه مع أنفسهم، لأنها رسالة تشهد لله بالوحدانية وصفات الجلال والكمال وقد رأينا أن أسفار الكتاب المقدس قد بقيت فيها عبارات وجمل تحمل معانى صادقة فى جانب الإيمان بالله وبعض صفاته القدسية. واتهامها بالكذب جريمة تقع خارج نطاق العقل، وهو معيار عام مشترك بيننا وبينهم فى التمييز بين الصواب والخطأ والحق والباطل، وبناء على حكم العقل فإن إيمانهم بما ورد فى عهدى الكتاب المقدس فى مجال العقيدة الإلهية، كما ورد فى نصوصهم المتقدم ذكرها، ونظائرها من أساسيات رسالة محمد، يلزمهم بالإيمان بصدق رسالة محمد ﷺ.

فإن أبوا هذا المصير واجهناهم من طريق آخر، هو:

أن كفرهم برسالة محمد يلزمهم ـ عقلا ـ بأن يكفروا برسالات العهد القديم والجديد فى آن واحد، أو أن يكفر المستشرقون اليهود على الأقل برسالة موسى – عليه السلام ـ.

وأن يكفر المستشرقون النصارى برسالة عيسى ـ عليه السلام ـ وبرسالات العهد القديم كلها.

أما نحن فسنظل مؤمنين برسالات جميع الرسل، على الصفة التى أرسلهم الله بها، وقصها علينا القرآن الأمين، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وبقيت نقاط أخرى وافقت رسالة محمد ﷺ بعض ما ورد فى الكتاب المقدس، بعهديه: القديم والجديد، أغضينا عنها توخيا لعدم الإطالة، ولأن قصدنا إبطال افتراءات هؤلاء المستشرقين، على الإسلام كتاباً ورسولاً، بأقصر طريق، وما قدمناه فى هذه الحلقة والتى تقدمتها، كان فيه الكفاية فى دحض ما ادعوه من اتهام واقعيات رسالة محمد ﷺ بالكذب وقد وضعناهم أمام خيارات صعبة، لأنها محرجة كما التزمنا جانب الدفاع دون الهجوم، وأثبتنا أن رسالة محمد فى قمة الصدق بالبرهان الفعلى، لا بقوة العضلات.

وفى نهاية مواجهتنا لهم فى هذه الفرية نقول لهم ما أمرنا الله به:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١٨).

والحمد لله رب العالمين..

(١٨) آل عمران ٦٤.

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

لابن إسحاق

للدكتور

محمود علي مراد

٢

ينقده ويعلق عليه

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم عوضين

يقيم الدكتور محمود مراد كتابه - أو رسالته - على فرض سلم به مقدما، مفاده: أن ابن اسحاق عميل عباسى، قصد من وراء كتابه الدعاية للعباسيين فى مواجهة فلول الأمويين.

ويرى الدكتور أن من مظاهر الدعاية العباسية التى أقام عليها ابن اسحاق حرصه على تمجيد بنى هاشم، وأن حرصه على تمجيد بنى هاشم ألجأه إلى أن يخترع من الأحداث، ويلفق من القصص ما يحقق له ذلك، حتى ينال - رضا العباسيين.

وكان فى مقدمة ما لاحظه الدكتور من أكاذيب ابن اسحاق إضفاؤه على عبد المطلب من الأهمية ما لم يضفه على شخصية أخرى، خلال الفترة المكية[1]، حيث قدم صورة عبد المطلب من خلال ثلاثة أحداث؛ هى: حدث أبرهة، وزمزم، وفداء عبد الله، وما تخلل ذلك من أشعار.

ويغلب على ظن الدكتور مراد أن صورة عبد المطلب التى أراد ابن اسحاق أن يرسمها له لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وأن فيها قدرا لا يستهان به من الاختلاق، ويرجح الدكتور أن المؤلف ومصادره أرادو إعلاء شأن قبيلة عبد المطلب التى ينتمى إليها الخليفة العباسى، بقصد تعزيز مشروعية خلافته، ويبنى هذا الترجيح على عدة أمور، كان من أبرزها: تصوير عبد المطلب - فى حديث أبرهة - على أنه سيد قريش وشريفها، والإسهاب فى الحديث عن عبد المطلب حتى على الحديث عن محمد ﷺ فى أربعين سنة الأولى من حياته[2].

والدكتورمراد - بقصره حديث عبد المطلب على ابن اسحاق وجعله من اختراعه - يدين نفسه ابتداء، ويعلن أنه يكذب على ابن اسحاق؛ فلو أنه نظر فيما قدمه مثل ابن شهاب الزهرى الذى عاش فى كنف الأمويين، ومات سنة ١٢٤هـ قبل أن تكون للعباسيين دولة لوجد أنه ذكر فى كتابه (المغازى النبوية) ما قدمه ابن اسحاق عن عبد المطلب فى قصة حفر زمزم، وما كان من تكرار رؤاه وسماعه الهاتف الذى أتاه وهو نائم عند الكعبة يدله على موضع زمزم بعبارات قصيرة مسجوعة[3]. على الرغم من أن الكتاب مخصوص للمغازى النبوية كما يوضحه العنوان، مما يؤكد أن هذا الحديث ليس من اختلاق ابن اسحاق كما يزعم الدكتور، وأنه ليس مختلقا؛ إذ لا حاجة لمثل ابن شهاب الزهرى تدعوه إلى اختلاق مثل ذلك.

ومع ذلك، فلو جرينا مع الدكتور مراد فى إغرامه بالإحصاء، لوجدنا أن الصفحات التى

(١) سيرة رسول الله للدكتور مراد: ٢٥.

(٢) السابق: ٢٦ - ٢٤.

(٣) المغازى النبوية: ٣٣ وما بعدها .

شغلها ابن اسحاق بالحديث عن عبد المطلب لا تتجاوز خمس عشرة صفحة متناثرة بين صفحة ٥٠ - حيث الحديث عن اعتراض أبرهة - إلى صفحة ١٨٠ حيث الحديث عن وفاته. وفى هذه الصفحات تحدث ابن اسحاق عن عبد المطلب فى اعتراضه أبرهة، وفى قصة حفر زمزم، وفى توليه السقاية، وتحليته الكعبة بالذهب، ونذره ذبح ولد من أبنائه، وتزويجه ابنه عبد الله، ثم وفاته!

هذا إلى أن عبد المطلب لم يكن جد لبنى العباس وحدهم، فقد كان كذلك جدا لمحمد ﷺ، وجدا للعلويين، وللزبيريين، فما ينال العباسيين من رفعة عبد المطلب، ينال محمدا، وينال العلويين، والزبيريين.

وما كان بنو العباس من السذاجة ولا الجهل بالدرجة التى يخدعهم بها ابن اسحاق - كما رجحه ظن الدكتور - حيث يقدم هذه الصورة النموذجية لعبد المطلب لإعلاء شأن قبيلة بنى عبد المطلب التى ينتمى إليها الخليفة العباسى الحاكم، اللهم إلا إذا كان الدكتور يرى أن عبد المطلب كان جد العباسيين وحدهم!

كما إن حديث ابن اسحاق عن عبد المطلب لم يرد إلا فى سياق ذكر نسب المصطفى ﷺ، كلما استدعى ذكره الحدث الذى يتناوله، و ليس كما توهم عبارة الدكتور حديثا منقطعا عن السياق؛ فالحديث عن عبد المطلب، ومن سبقه، ومن لحق به إنما هو فى الواقع حديث عن محمد ﷺ؛ لأنه حديث يعرِّف بأسرته.

مقارنة واهية خادعة

ويصر الدكتور على وصم ابن اسحاق بجريمة رفع مكانة عبد المطلب على حساب محمد ﷺ، فيعقد مقارنة بين موقف عبد المطلب مع أبرهة، وموقف محمد ﷺ مع عمه، فيرى - كما ذكر فى ص ٦٨ من هلال يوليو سنة ١٩٩٨ - أن ابن إسحاق قدم عبد المطلب - فى حديثه مع أبرهة - واثقا معتزا، متحديا، بينما قدم الرسول ﷺ - فى حديثه مع عمه - مستخذيا، يبكى، حيث ظن أنه يتخلى عن حمايته؛ فأرانا محمدا ﷺ لا يملك إيمان جده الوثنى.

هكذا قدم الدكتور مراد ابن إسحاق فى سعيه لنيل رضا أبى جعفر المنصور، من خلال هذه المقارنة الواهية، وتلك النتيجة الفاسدة.

وإلا.. فأين عبد المطلب - فى موقفه تجاه المعتدى الغازى - حين هدده بغزو الكعبة، من محمد ﷺ - فى موقفه تجاه عمه وكافله ورأس أسرته وقبيلته - حين يظن أنه سيتخلى عن دوره القبلى معه، ومكانه منه، ويسلمه إلى سفهاء قريش؟!

ثم أين الحقيقة والصدق فيما نقله الدكتور مراد من كلام ابن إسحاق، وما فهمه منه؟!

إن الدكتور - لكى يصم ابن إسحاق بوصمة التلفيق والتزييف - التفت إلى بعض ما ذكره ابن إسحاق من أن الرسول ﷺ استعبر فبكى، ليصوره ﷺ أقصر قامة من أبى طالب، مغفلا فى سبيل بقية العبارة التى

واجه الرسول ﷺ بها عمه، والتى سبقت بكاءه، فقد ذكر ابن إسحاق أنه ﷺ قال: «يا عم. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أوأهلك فيه ما تركته»(٤).

ولا أعتقد أن الدكتور يغفل ذلك إلا ليقول: وتصوير أبى طالب ومحمد على هذا النحو ينطوى على تزييف كبير للحقيقة(٥). فلو كانت الحقيقة هى مقصد الدكتور لما أغفل هذه العبارة التى ترينا محمدا شامخا، ثابتا، مرفوع القامة، لا يعرف الضعف، ولرأى أن بكاء محمد لم يكن استخزاء - كما ذكر - لأنه بكاء ابن أمام أب ضعف عن حماية ابنه - أو بدا ضعيفا - فهو الاستجابة للعاطفة البشرية الفطرية، وليس الاستخزاء.

ولكن قلم الدكتور دائما يكشف طواياه، معلنا أنه هو الذى يقيم دراسته على لعبة الظل والضوء، والصمت والتفصيل، لإبراز ما ليس مهما، وإخفاء المهم، التى اتهم بها ابن اسحاق، والتى تعلمها هو من أساتذته فى أوروبا.

ابن إسحاق ومحاور كتابه

ويذكر الدكتور مراد من جرائم ابن إسحاق التى زيف بها الحقيقة ليمالىء العباسيين: أنه جعل حماية أبى طالب لمحمد الموضوع الأساسى الذى تعالجه سيرة النبى، حتى ليكاد حديثه عن الفترة المكية يدور كله حول هذا المحور.

ويرى أن ابن إسحاق من أجل إثبات تلك الفرية اصطنع كثيرا من الأحداث التاريخية التى تتعلق بمحمد ﷺ، وبالدعوة إلى الإسلام، وبأسماء من أسلم، وإغفال كثير من الآيات القرآنية التى نزلت فى هذه المرحلة... إلى غير ذلك من الأمور والأحداث.

ويرى الدكتور مراد ابتداء أن حماية أبى طالب الكافر لابن أخيه الذى خرج على دين القبيلة أمر لا يتصوره عقل، وأن حاجة محمد ﷺ إلى حماية أبى طالب الكافر أمر لا يمكن تصديقه... ثم ينطلق وراء تلك الرؤى بتكذيب كل ما رواه ابن إسحاق واستبعاده.

ويومىء الدكتور مراد إلى أن ابن إسحاق بتلك الفرية التى اصطنعها إنما اصطنعها لينال رضا العباسيين، وإن أغضب الله ورسوله بهذه المفتريات، فيذكر أن مؤدى هذه الحماية أن محمد ﷺ مدين ببقائه على قيد الحياة لقبيلته، وأن الإسلام مدين لهذه القبيلة - بالتالى - بوجوده.

ويخلص الدكتور مراد من ذلك إلى أن الخبرين الأساسيين اللذين أقام ابن إسحاق عليهما فريته، وهما: أن الدعوة فى أول الأمر كانت خفية، وأن قريشا لما علمت بأمر محمد ﷺ واجهته بالحرب والمعارضة، مما ألجأ عمه إلى حمايته... يخلص الدكتور مراد إلى أن هذين الخبرين لا أساس لهما من الصحة، وأنهما يدلان على نية التزييف والاختلاق(٦).

---

(٤) السيرة لابن هشام: ١/٨٢٧.

(٥) سيرة رسول الله: ٢٠٩.

(٦) سيرة رسول الله للدكتور مراد: ١٠٩.

فلا يسعنى إلا أن أسأل الدكتور: ماذا تتصور من إنسان أوحى إليه بدين يختلف تماما عما عليه قومه؟! أيسوغ عقلك أنه بمجرد نزول الوحى عليه ينهض صائحا فى قومه، معلنا دعوته؟! وإذا صور الوهم لإنسان هذا الأمر، فما تفسيره لنزول الوحى عليه آمرا إياه بإنذار عشيرته الأقربين، فى قوله تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٧).

ثم مواصلا الأمر بالنهوض بعبء الدعوة العامة دون خوف، فى قوله تعالى:

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٨).

وإذا أوغل هذا الإنسان فى أوهامه، معتمدا على ما يجده فى النص القرآنى من احتمالات، يرجح منها ما لا يتعرض مع وهمه أو مع بدعته التى اصطنعها ليعزز رأيه فى ابن إسحاق... أقول: إذا أوغل هذا الإنسان فى اتجاهه ذلك الذى ينفى به أن تمر الدعوة فى أول الأمر بمرحلة الاستخفاء، وما سبقها من مرحلة فتر فيها الوحى حتى ظن محمد ﷺ أن ربه قلاه، فماذا يقول فيما رواه الإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ والإمام مسلم المتوفى سنة ٢٦١هـ عن أبى هريرة، قال: لما أنزلت هذه الآية: « وأنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشا فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار، فإنى لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها.» وفى رواية: فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت:

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾(٩).

أم لعل الدكتور يضم البخارى ومسلم بأحاديثهما مع ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ، الذى علق على سيرة ابن إسحاق، واختصرها، ونقد بعض ما ورد فيها... ليضع ثلاثتهم مع ابن إسحاق فى طابور المتهمين بتزييف الحقائق، وتلفيق الأحداث واصطناعها لينالوا رضا أبى جعفر المنصور أو غيره من بنى العباس؟

ويواصل الدكتور مراد رحلته مع ابن إسحاق، فذكر أنه حين تحدث عن توقف الوحى فى الابتداء لم يعط أى بيان عن المدة التى فتر فيها الوحى، واكتفى بتفسير سورة الضحى.

ولا أدرى ماذا يريد الدكتور من ابن اسحاق – أو ماذا يأخذه عليه – وقد ذكر ما بلغه، دون تزيد، فقال: ثم فتر الوحى عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك؟!

أما الدكتور فيستمر فى بذر الشكوك والمغامز قائلا: يتضح من هذه الملحوظات أن الآيات القرآنية التى أوردها النص فى جزئه الأول تتعلق فى معظمها بمسائل دينية، وليس لها طابع

(٧) الشعراء (٢١٤ ـ ٢١٥).
(٨) الحجر (٩٤).
(٩) سورة المسد آية (١، ٢)، والحديث فى صحيح البخارى: ٦/١٤٠، وصحيح مسلم: ١/١٣٣.

تاريخي[١٠] ولا أدري - كذلك - ماذا يقصد الدكتور بذلك؟!

التلاعب بالقرآن بين ابن إسحاق وابن مراد

ويرى الدكتور مراد أن من مظاهر الدعاية العباسية التي أقام عليها ابن إسحاق كتابه: حرصه على تمجيد بني هاشم، وأن حرص ابن إسحاق على تمجيد بني هاشم ألجأه إلى أن يخترع من الأحداث، ويلفق من القصص ما يحقق له ذلك لينال رضا العباسيين، حتى لقد بلغ ذلك بابن إسحاق أن يزيف صورة الرسول ﷺ، ويخفض حجمه إلى حجم مجرد رجل من بني عبد المطلب وبني هاشم تشمله قبيلتاه بحمايتهما بصفته هذه، لا باعتباره نبيا لله - سبحانه وتعالى - خرج على قومه، وعلى عقائده[١١] وأن من أخطر هذه الأحداث الملفقة: دعواه اضطرار محمد ﷺ إلى الاستخفاء ثلاث سنوات تقريبا، وما استتبعه ذلك من مواقف وقضايا لفقها ابن إسحاق ليدعم مقصدة الأساسي.

وقد استنتج الدكتور مراد - بعد استعراض تلك الأحداث والمواقف - أن نص ابن إسحاق الذي تناول تلك المرحلة لا يعتد به في أي موضوع من الموضوعات التي تناولها، ثم قرر أن ابن إسحاق تلاعب بالقرآن وسخره لخدمة تحزبه العباسي، معتمدا في تقريره ذلك على افتراض أقامه على التسليم لما زعمه (بلاشير) في مقدمة ترجمته للقرآن، حيث زعم أن الفترة الأولى من الدعوة نزل فيها وحدها ١٢١٣ آية، وتعادل ربع ما نزل في الفترة المكية كلها، وأن قرآن هذه الفترة حين يذكر الله، يتحدث عن سمتيه الرئيسيتين، وهما ما يتعلق بصفاته، وما يتعلق بقدراته سبحانه وتعالى.

ومن هذا الافتراض المستسلم لزعم (بلاشير) في تأريخ نزول القرآن، وفي ترتيب سورة، والمتجاهل كل التراث الإسلامي والعربي مما قدمه العلماء المسلمون على مدى تلك القرون المتطاولة... أقول من هذا الافتراض انطلق يستعرض ما يروقه من صفات الله وقدراته، معلقا عليه بما يتخيله من أثر في نفوس العرب حين سمعوه من محمد، ومفسراً الآية تلو الأخرى بما يروقه ويوافق هواه، من غير أي سند من فهم لغوي، أو رواية مأثورة؛ قاصدا من وراء ذلك كله الإيهام بأن ما نزل من القرآن خلال هذه الفترة الذي يعطي صورة أقرب إلى التصديق من تلك التي يعطيها نص ابن إسحاق عن دعوة رسول الله ﷺ، وعن ردود الفعل التي أحدثته[١٢].

أي إن الدكتور مراد قرر ابتداء أن ابن إسحاق ادعى كذبا أن الفترة الأولى من الدعوة كانت سرية، وأنه دعم هذا الادعاء الكاذب التلاعب بالقرآن، حيث لم يورد الآيات التي هي من أم الكتاب، والتي تشكل في آن واحد جوهر رسالة الإسلام، قاصدا من وراء ذلك تزييف صورته صلوات الله وسلامه عليه، وتخفيض حجمه إلى حجم مجرد رجل من بني عبد المطلب وبني هاشم، وتزييف تاريخ بداية الإسلام، وتسخير آية:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[١٣].

---

(١٠) السيرة للدكتور مراد: ٦٩.

(١١) السيرة للدكتور مراد: ١١٠ - ١١١.

(١٢) السابق: ٧٢ - ١١١.

(١٣) الشعراء (٢١٤).

وآية :

﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[14] .

وآية :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[15] .

لخدمة ما اخترعه من فترة الاستخفاء التى لم توجد إلا فى خيال ابن إسحاق[16] .

وهكذا أصبح الدكتور مراد الذى وجد نفسه عاجزا عن ترجمة رسالته إلى العربية – كما صرح بذلك فى رسالته للدكتور إبراهيم عوض –[17] قادرا على تأويل القرآن الكريم، وتفهم نصوصه تفهما يكشف به تلاعب ابن إسحاق وغير ابن إسحاق من مؤولى القرآن الكريم، منذ ابن عباس إلى العصر الحديث، فقد أوتى القدرة على تأويل القرآن، والوصول إلى مراميه على الرغم من أن مقامه فى أوروبا أكثر من ربع قرن قد أضعف عربيته عن القدرة على ترجمة رسالته إلى العربية .

ويبدو أن سيطرة هذه الفرية على الدكتور بلغت من القوة للدرجة التى جعلته يتوهم – أو يفرض – أن ابن إسحاق وحده من بين المؤرخين هو المتلاعب بالقرآن – كما يزعم – وفاته أن محمد بن شهاب الزهرى فى كتابه (المغازى النبوية) تحدث عن سرية الدعوة فى سنواتها الأولى ثم الجهر بها إثر نزول قوله تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[18] .

وأن ابن حزم تحدث عن ذلك كذلك، فقال :« ثم أعلن رسول الله ﷺ بالدعاء إلى الله ـ عز وجل ـ وجاهرته قريش بالعداوة والأذى »[19] .

كما أن الدكتور بتلك الفرية يتجاوز ما ذكره مؤولو القرآن الكريم من الصحابة والتابعين الذين تقدموا العباسيين والأمويين، مثل ابن عباس الذى أول قوله تعالى :

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ بقوله : أظهر أمرك بمكة[20]، وهو الذى ذكره عبد الرزاق فى تفسيره[21] .

ويتجاوز كتب السنة الصحاح، فلا يلتفت إلى ما رواه الأمام أحمد – الذى تحمل سجن العباسيين وتعذيبهم لتمسكه برأيه – عن جابر ابن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :« ثم فتر الوحى عنى فترة، فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصرى قبل السماء، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء الآن قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فجثثت منه فرقا – أى فزع – حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلى، فقلت : زملونى، زملونى، زملونى، فأنزل الله عز وجل :

---

(١٤) الحجر (٨٩).

(١٥) الحجر (٩٤).

(١٦) السابق: ١١٠ – ١١١.

(١٧) إبطال القنبلة النووية: ,١٦

(١٨) المغازى النبوية: ٤٦، ٧٤.

(١٩) جوامع السيرة النبوية: ١/ ,٨٠

(٢٠) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ٢٦٧.

(٢١) تفسير عبد الرزاق: ٢/٢٦٢، ٤٦٨

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾(٢٢).

ثم حمى الوحى بعد وتتابع»(٢٣).

بل إنه لا يكتفى بتجاوزه كتب السنة الصحاح، ولكنه يبالغ فى هذا التجاوز، فيغفل مابذله علماء المسلمين من جهد - لم يسبقوا إليه ولم يلحقهم فيه إلى اليوم لاحق - فى توثيق المروى من الأحاديث النبوية، وتنقيتها من كل الشوائب، ووصف كل حديث بما يستحقه؛ مخلفين أضخم وأعظم تراث عرفته البشرية إلى اليوم فى تقويم الرجال ونقدهم، وما استوجبه ذلك من دقة تأريخية، وعمق مخلص صادق فى التعريف برواة السنة جرحا وتعديلا، حتى أصبح المروى من السنة منذ نحو اثنى عشر قرنا كتابا مفتوحا، نرى فيه الحديث الموضوع، والضعيف، والحسن، والصحيح، والمتواتر.. إلى غير ذلك من الصفات التى قرن بها كل حديث.

نعم.. تجاوز الدكتور مراد كل ذلك ليشكك فى الحديث النبوى، ويكرر الزعم الاستشراقى الخبيث بأنه لا يطمئن إلا إلى القرآن فى الوقوف على سيرة الرسول ﷺ، حتى لكأن القرآن كتاب سيرة وتاريخ، لا كتاب هداية ورحمة.

فمن هذا المنطلق ذكر الدكتور بطريقة ملتوية خبيثة بعض الأحاديث الموضوعة - على الرغم من عدم الحاجة إلى ذلك فى رسالته - موهما أنه هو الذى اكتشف وضع تلك الأحاديث، ومغفلا دور العلماء المسلمين فى كشف ذلك وتخصيص الكتب للتعريف بمثل تلك الأحاديث، من كل ما يدعم الثقة فيما تضمنته كتب الصحاح.

وأعتقد أن الدكتور مراد ما تجاوز كل ذلك - فى طريق اتهامه ابن اسحاق بالتلاعب بالقرآن - عن جهل منه بأن كثيرين من الصحابة والتابعين، وأئمة المسلمين الذى لا يمكن وصمهم بممالأة العباسيين قد سبقوا ابن إسحاق إلى القول بأن الدعوة الإسلامية كانت فى أول أمرها سرية، فضلا عن أن العقل السليم يفرض حتمية مرور مثل هذه الدعوة بمثل تلك المرحلة.

لكن الدكتور مراد لايكفيه كل هذه التجاوزات، فيأبى إلا أن يتلاعب بالنص القرآنى، مستجيبا لأستاذه (بلاشير) فيراوغ باستعراض ساذج لبعض الآيات الكريمة، ليقرر أن آيتى الحجر (٨٩، ٩٤) لا يصح تحت أى تفسير ممكن اعتبارهما النقطة التى تنتهى عندها مرحلة السرية، وتبدأ مرحلة الجهر(٢٤).

على طريق التلاعب بالقرآن الكريم

ويندفع الدكتور مراد إلى غايته الأصلية - وهى نسف السيرة النبوية - مستهينا بكل شىء فى سبيل ذلك، دون أن يمنعه من ذلك مانع من عقل، أو قيم، أو دين، ويوظف القرآن الكريم فى تحقيق مقصده مبالغة منه فى الإيهام أنه ملتزم بالمنهج العلمى، فنراه يعرض لتأويل ماجاء فى سورة البروج من حديث عن

(٢٢) المدثر: (١:٥).

(٢٣) المسند ١١/٤٦١.

(٢٤) سيرة رسول الله ﷺ للدكتور مراد: ٧٠ - ٧١.

قصة أصحاب الأخدود، فينحى جانبا كل ما تضمنته كتب السنة الصحاح من الحديث النبوى عن أصحاب الأخدود وهويتهم[٢٥]، ويتجاهل ما ذكره المؤرخون وكتاب السيرة، من أنها تشير إلى قصة جماعة من الموحدين النصارى تحدوا إرادة حاكم أن يقهرهم على عبادته مع الله، فلما رأى إصرارهم على الرفض، خد لهم أخدودا ملأه بالنار وأمر بالقائهم فيه. فجاء الدكتور مراد بادعاء – لا أعلم أن أحدا سبقه إلى مثله – فحواه: أن أصحاب الأخدود هم بنو عبد المطلب وعلى رأسهم أبو لهب؛ فقد كان أبو لهب رجلا غنيا ذا نفوذ، وكان سيدا – سيد بنى عبد المطلب، أو بنى هاشم، أو حتى سيد قريش – ولابد أن ما جنت يداه من أفعال كان أخطر بكثير مما ذكره ابن إسحاق، ولابد أنه كان جلادا، جعل للإرهاب الكلمة العليا فى قبيلته، وأنه استخدم نفوذه لدى رؤساء القبائل الأخرى كى تطبق حيال مسلميها سياسة قمعية لا تعرف الهوادة. ولابد أن كل تصرفاته جعلت منه أعدى أعداء الإسلام خلال الفترة المكية بأكملها[٢٦].

رأى الدكتور مراد أنه باختلاق هذه الصورة لأبى لهب، يقيم الدليل على أن ابن إسحاق خفف من نعوت أبى لهب، ولم يذكر حقيقته لأنه واحد من بنى عبد المطلب الذين أراد أن يجامل العباسيين برفع شأنهم.

والدكتور فى سبيله إلى ذلك لم يجد مانعا من أن يتوسل بالقرآن الكريم، ويوجه آياته لخدمة غرضه، فصور له خياله الواهم أن أبا لهب لابد أن يكون هو زعيم بنى هاشم، أو زعيم قريش كلها، ولابد أن يكون هو الذى استخدم نفوذه فى مقاومة المسلمين والتصدى لهم فى مكة بالإحراق بالنار؛ وبذلك يصبح هو ومن معه أصحاب الأخدود، حيث لا يملك الدكتور إلا أن يلاحظ صلة مابين سورة المسد، وآيات سورة البروج المتضمنة قصة أصحاب الأخدود.

وهكذا.. نرى الدكتور مراد يبذل قصارى جهده فى الوصول إلى غايته معتنقا مبدأ الغاية تبرر الوسيلة – حتى لو كانت وسيلته إلى ذلك قائمة على التلاعب بالآيات القرآنية.

محمد ﷺ بين الحماية والمقاومة

والدكتور مراد يرتكب كل هذه التجاوزات – وهو آمن من لوم أستاذه – ويجترم خطيئة التلاعب بالقرآن على النحو الذى أشرنا إليه؛ لينعت ابن إسحاق بالتزييف، والتزوير، والكذب، والتلفيق، والاختلاق، والتلاعب بالقرآن، وطرح كل القيم خلف ظهره.. كل ذلك يرتكبه ابن إسحاق – فى ادعاء الدكتور مراد – ليصطنع أحداثا يمهد بها لدعواه اضطهاد قريش لمحمد ﷺ، وحاجته إلى حماية عمه أبى طالب، حتى ينال هذا المزيف المزور الكذاب رضا أبى جعفر المنصور، وخلفاء بنى العباس؛ إذ أعطاهم الوسيلة التى يدعمون بها حكمهم فى مواجهة فلول الأمويين.

ومن هنا... يرى الدكتور مراد أن حماية محمد ﷺ هو ثانى الأمور التى لم ينصف فيها ابن إسحاق الحقيقة، حيث أبرز ابن إسحاق قول أبى طالب لمحمد ﷺ حين علم بما يدعو إليه: «أى ابن أخى، إنى لا

(٢٥) صحيح مسلم: ٢٢٩/٨ – ٢٣١، وسنن الترمذى: ٤٣٧/٥ – ٤٣٩ وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ٥٩٠، وتفسير عبد الرزاق: ٤١٣/٣ – ٤١٥.

(٢٦) السيرة للدكتور مراد: ١٤٤ – ١٤٥.

أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، لكن والله لا يُخْلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت.»[٢٧]، وحيث واصل ابن إسحاق بعد ذلك حديثه عن تلك الحماية – بعد أن أظهر محمد الدعوة، وبادى قومه بالدعوة – في لقاءاته الأربعة مع رؤساء قريش، ليجد الوعد المزعوم الذي وعده أبو طالب لمحمد ﷺ خلال فترة الاستخفاء[٢٨].

ومن هنا.. يطلق الدكتور مراد لخياله العنان، فيسوق افتراضات صنعها وهم الخيال المريض، ولا صلة لها بالعقل المتوازن، ولا بالوقائع المأثورة، فيملأ تلك الصفحات التي تقارب مائة وخمسين صفحة بافتراضاته المؤسسة على قوله: (لابد)، مثل: لابد أن كذا قد حدث، ولابد أن محمدا لم يستطع كذا، ولابد أن بعض من استمعوا إليه كانوا كذا... إلى غير ذلك من الافتراضات القائمة على (لابد)، ولا سند له في شيء منها إلا (لابد)، وكل همه من تلك الافتراضات التي ينفي فيها وبها معظم الأحداث التي رواها ابن إسحاق، ولها صلة أي صلة بحماية أبي طالب ابن أخيه محمدا ﷺ لأن حماية أبي طالب له – في تقدير الدكتور مراد – أمر ينزل بمحمد ﷺ إلى درجة أدنى من درجة حاميه، ويتعارض مع علم محمد ﷺ أنه تحت حماية من هو أقوى من عمه ومن قبيلته، كما يتعارض مع وجوب عدم خشيته أحدا غير الله، خصوصاً أن القرآن نهاه عن اتخاذ أولياء سوى خالقه. وينفي دور المسلمين الذين كانوا يكنون له من الحب أكثر من محبتهم لأبنائهم، والذين كانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم فداء له[٢٩].

فالدكتور مراد لا يتصور أن يحمي محمدا ﷺ أحد غير ربه أو المسلمين الذين استجابوا لدعوته، فأين كان الله – تعالى – حتى يترك أبا طالب ليقوم بهذا الدور؟ ولماذا لم ينهض المسلمون الذين يحبون الرسول ﷺ لدفع أذى قريش عنه في هذه المرحلة المبكرة من عمر الدعوة؟ وكيف يتطلع محمد إلى حماية واحد من الكفار – حتى لو كان عمه – وهو يعلم أنه في حماية ربه؟!

على هذا بنى الدكتور مراد قراره بأن ابن إسحاق مزيف وكذاب، وبهذا الاعتراض ملأ نحو نصف الرسالة العلمية بافتراضاته الخيالية التي لا تمت بأي صلة للتفكير العقلي، ومن هذا وذاك خرج باستنتاجه افتراء ابن إسحاق وتزييفه في جرأة لا يمكن تصور صدورها عن إنسان في مجال البحث العلمي، كي ينال عليه تلك الدرجة العلمية العليا.

فعقل الدكتور مراد يرفض أن يقول أبو طالب حمى محمداً ﷺ من اعتداء قريش، مع بقائه على دين آبائه، لما فيه من تناقض بين فعله ومعتقده، ويرفضه لأن أبا طالب لم يكن سيد قومه بسبب فقره، ويرفضه لأن حمزة أخاه هو الذي خطب إليه خديجة، فكيف لا يكون هو الذي يحمي محمداً ﷺ، ويرفضه لأن أخاه العباس هو الذي ورث من أبيه ولاية زمزم والسقاية. ويرفضه لأن أبا طالب إذا لم يستطع حماية ابنه جعفر الذي اضطر إلى الهجرة إلى الحبشة فرارا من أذى قريش، فكيف يستطيع أن يحمي ابن أخيه؟!

أيا ما يكن طابع هذا الرفض، ودوافع تلك الأوهام الخيالية... فإن لنا مع هذا الدكتور وكتابه لقاء آخر في العدد القادم إن شاء الله – تعالى – نكشف فيه خطل هذا التفكير، وفساد تلك الأوهام، يضطرنا إليه ضيق المقام، مع الحاجة إلى شيء من البسط الموضح.

---

(٢٧) سيرة ابن هشام: ١/١٦٥.

(٢٨) السيرة للدكتور مراد: ٤٩ – ١٨٦.

(٢٩) السيرة للدكتور مراد: ٦٢.

الأذان فى الإسلام

للأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومى

تقوم الدراسات المقارنة بين الشرائع والقوانين المختلفة فتؤتى ثمارها الطيبة متى سارت على النهج الصحيح فى التزام الحيدة، والإخلاص للحق وحده، وقد قرأنا بحوثا شافية تتحدث عن مقارنات بين الصيام والصلاة والمواريث والمعاملات والحدود وغيرها من قضايا التشريع الإسلامى وبين مثيلاتها فى الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، فاتسع المجال أمام القارىء المتيقظ ليشترك فى الرأى، ويهتدى إلى الصواب، هذا إذا كان البحث سائرا على سننه المنطقى، خالصا من الهوى، نائيا عن الغرض المسف، ولكن نفرا من الذين انصبوا على شريعة الإسلام انصبابا هاجما لا يتبين الحق إلا ليطمس معالمه ويشوه وجوهه.

قد اندفعوا يقارنون بين العبادات والمعاملات فى الإسلام وما سبقه من الشرائع كى يجعلوا ما جاء فى كتاب الله منتزعا من سابقه، وكأن محمدا النبى الأمى الذى نشأ فى الأميين بمكة قد ألم بدراسات المشترعين ليأخذ منها ويدع! ونحن لا ننكر أن شرع الله واحد، وأنه الدين الخاتم مكمل متمم لما سبقه، فإذا تشابهت مسألة من مسائل التشريع مع سابقتها، فلأن الدين القيم من عند الله! هذا ما يفطن إليه الباحث البرىء من الغرض، أما الذين يتخذون من وجوه التشابه دليلا على النقل والتلفيق، فلماذا لايطبقون نظرهم المعوج، على ما انفرد به الإسلام وتبعته فيه القوانين الوضعية تبعية ينهض عليها الدليل، إنهم حين يجدون هذا التأثر الواضح، يعز عليهم أن يكون التشريع الإسلامى رائدا غير مسبوق، وكأن الهدف المنشود أن يكون التشريع الإسلامى أمشاجا مختلطة لاتخضع لنظرية شاملة جاء بها الذكر الحكيم، وطبقها رسول الله ومن وليه من خلفائه الراشدين.

تقرير كاشف

يقول الأستاذ الدكتور جواد على فى مقدمة بحث له عن الصلاة فى الإسلام «بين يدى رسالة للمستشرق اليهودى المعروف (أويكين ميتوخ) بحث فيها عن الصلاة عند المسلمين وقارن بينها وبين الصلاة عند اليهود، وقد أجهد المستشرق نفسه ليصل إلى نتيجة كان يقصدها ويريدها قبل الدخول فى الموضوع، وهى أن الرسول الكريم أخذ صلاته من صلاة اليهود، كما أخذ سائر الطقوس والعبادات.

وبين يدى بعض الأبحاث العلمية التى قام بها نفر من المستشرقين فى هذا الموضوع أى تطور الصلاة ونشوء العبادات فى الإسلام كبحث المستشرق المجرى اليهودى كولدزهير، وبحث المستشرق الهولندى جرينبول، وبحث

(١) مجلة الرسالة العدد ٦٢٥، ١٥ من رجب ١٣٦٤هـ.

المستشرق بيكر، وهى تسير على نفس الأسلوب، ولكنها تختلف فى النتائج، إذ من رأى هؤلاء أن النبى ﷺ أخذ صلاته من النصارى لا اليهود».

هذا ما ذكره الدكتور جواد على فى مقدمة بحوث جيدة نسف بها محاولات من يطمسون اللألاء المشرق، تأتى بالمنطق الصائب داحضا مبطلا، وقد أصاب مقطع الصواب حين ذكر فى هذه المقدمة أن المستشرق من هؤلاء يجهد نفسه ليصل إلى نتيجة كان يقصدها ويريدها قبل الدخول فى الموضوع، ومعنى ذلك أن الحق لا يقصد لذاته وأن الغرض قد تسلط على الحقائق الصريحة ليشوهها أفحش التشويه! وأن جماعة من المبشرين قد لبسوا ثياب الباحثين ليقولوا على الله الكذب وهم يعلمون!

ومن الحق أن الذين يكتبون عن التشريع الإسلامى من أعلام الفاقهين لايعيرون هؤلاء المغرضين التفاتا، إنما يرجعون فى بحوثهم إلى المعتمد الثابت من قول الله، وحديث الرسول، وإجماع أهل الرأى فيجيئون بالحق المبين، ولكن نفرا من مدرسى التاريخ فى بعض كليات الجامعة، يتحدث عن حياة الرسول ﷺ فيكتب فصلا عن التشريع، ويزحمه بنقول عن المنصف والمغرض، وما كان لهؤلاء وقد تعرضوا للتشريع بعيدا عن تخصصهم التاريخى أن يشيروا فى شىء إلى تخرصات المبطلين، بل ما كان لهم أن يتجاوزوا التاريخ إلى الفقه الإسلامى وهم لايعرفون عنه شيئا! ولكنهم وجدوا من الاستطالة العلمية أن يتحدثوا عن كل شىء وأن يجمعوا بين المخطىء والمصيب ليظهروا سعة الاطلاع دون تمحيص!

الأذان فى الإسلام

من العجيب أن الأذان لا يشتبه فى شىء مع وسائل الإعلام عن الصلاة لدى السابقين، فقد انفرد بعبارات إسلامية لامثيل لها من قبل، ولكن الذين فى قلوبهم مرض.. يحاولون أن يرجعوه إلى الإعلام اليهودى، متجاهلين كل ما دونته كتب السيرة وروايات الحديث النبوى فى هذا النطاق، وهو من الوضوح بحيث لايقبل الالتباس.

تناقلت كتب الحديث والفقه مرويات صحيحة منها ما جاء فى البخارى ومسلم من أن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون، فيتحينون للصلاة، وليس ينادى بها أحد، فتكلموا يوما فى ذلك، فقال بعضهم، اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: قرنا مثل قرن اليهود، فقال عمر: ألا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ «قم فناد بالصلاة».

فهذا الحديث الصحيح المروى فيما دونه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، ينطق بأن الأذان لم يكن اقتباسا من أحد، بل اهتداء بما وافق عليه الرسول من مشورة عمر،

وفيه بعد صريح عما يفعله اليهود والنصارى حيث اتخذ هؤلاء ناقوسا وأولئك قرنا».

وإذا كان فى هذا الأثر الشريف إجمال موجز، ففى أثر آخر تفصيل شاف رواه أبوداود عن أبى عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار، قال:

«اهتم رسول الله ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها؟ فقيل: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضا، فلم يعجبه ذلك، فذكر له القُنع، وهو شبور اليهود «بوقهم» فلم يعجبه ذلك ـ وقال: هو من أمر اليهود، فذكر له الناقوس، فقال: هو من أمر النصارى، فانصرف عبدالله بن زيد الأنصارى، وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ، فأرى الأذان فى منامه، فغدا على رسول الله ـ ﷺ، فقال: يارسول الله إنى لبين نائم ويقظان، إذ أتانى آت فأرانى الأذان، وكان عمر بن الخطاب قد رآه قبل ذلك، فكتمه عشرين يوما، ثم أخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما منعك أن تخبرنا فقال: سبقنى عبدالله بن زيد، فاستحييت، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ، قم يا بلال، فانظر ما يأمرك به عبدالله فافعل فأذن بلال، قال بعضهم: إن الأنصار تزعم، لولا أن عبدالله بن زيد كان يومئذ مريضا لجعله رسول الله ﷺ مؤذنا».

وفى شرح النووى[٢] لحديث الأذان كلام «جيد» نقله عن القاضى عياض: حيث قال تعقيبا على رؤيا ابن زيد: إن رسول الله شرع الأذان بعد هذه الرؤيا إما بوحى أو باجتهاده ﷺ، وليس عملا بمجرد المنام».

وشبيه به ما ذكره الأستاذ محمد أبوزهرة إذ نقل عن ابن هشام فى سيرته ما يفيد نزول الوحى بالأذان فقال رحمه الله:

«إن الأذان شعار من شعائر الإسلام، وأنه تعرف به الجماعات الإسلامية، وما يكون كذلك من العبادات لا يكون من الأمور التى تكون بشورى الناس، وقد تكون الشورى ابتداء لمعرفة طريق الإعلام، فجاء الوحى بهذا الطريق الذى يعتبر سنّة»[٣].

وليس فى الأمر بعد هذا الوضوح خلاف، فالرسول قد استشار، ثم رأى عمر وعبدالله رؤيا، وجاء الوحى مصدقا، فاتصلت الحلقات، وإذا اقتصر كل حديث على خبر معين، ففى اجتماع الأخبار ما يوحى بالتسلسل والتماسك، لا بالتعارض والخلاف.

ثم إن للأذان صيغة معروفة، وهى ذات ترتيب متصل، ولن يأمر الرسول بلالا بأدائها دون أن تكون شرعا أوحى له، أو اجتهد فيه، لأن للرسول ﷺ يجتهد، ومن اجتهاده إقراره بصيغة الأذان كما جاء فى شرح الإمام النووى لحديث مسلم.

---

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ص جـ ٧٦٤ المطبعة المصرية.

(٣) خاتم النبيين للأستاذ محمد أبى زهرة جـ ٢ ص ٥٧٠ – دار الفكر.

رجع إلى ما سبق

نعود بعد ذلك إلى ما قاله المستشرق اليهودى ميتوخ، ونقله عنه الدكتور جواد على حين أقر: أن الأذان فى الإسلام مأخوذ من الأذان عند اليهود، لأنهم يدعون إلى الصلاة، ويتخذون البوق أداة للدعوة، فإذا اجتمعوا قالوا أيها الكهنة استعدوا لأعمالكم أيها اللاديون قفوا فى مصاطبكم، أيها الإسرائيليون، خذوا مواقعكم».

فإذا كان الرسول يعلم أن البوق أداة الدعوة إلى الصلاة لدى اليهود، وقد أشير عليّه به فكره أن يوافق اليهود، ولم يسترح إلى البوق، كما نص الحديث الشريف، وهو مما يعرفه المستشرق جيدا، فكيف يكون الأذان فى الإسلام مأخوذا عن هؤلاء؟

وإذا كانت للدعوة إلى الصلاة فى اليهودية صيغة معروفة هى: «أيها الكهنة استعدوا لأعمالكم، أيها اللاديون قفوا فى مصاطبكم. أيها الإسرائيليون خذوا مواقعكم» فكيف تلتقى هذه العبارات مع صيغة الأذان، وليس بين النصين أدنى اتفاق؟!

إن ما قاله ميتوخ فى خطئه، لا يقل خطأ عما قاله «بيكر» حين حاول أن يرجع الأذان إلى تأثير المسيحية، وكأنه قد عز عليه أن يسبقه المستشرق اليهودى فينسب التأثير لليهودية، فرأى وهو المسيحى أن تكون ديانته صاحبة التأثير فقال: وليس الأذان إلا قطعة من القطع الكنائسية التى يرددها الكاهن أو الشماس حيث يقوم الإمام فى الإسلام مقام الكاهن، ويقوم المؤذن مقام الشماس»(٤).

لقد نظر بيكر، فوجد فى الإسلام أذانا وإقامة، فشاء أن يوزع الشعيرتين بين المؤذن والإمام، وقد نسى أن الإمام لا يقوم بالإقامة وإنما ينطق بها مصل جهير الصوت ممن يأتمون به، كما أغفل ابتعاد النصين فى المسيحية والإسلام كل الابتعاد، فكيف يأتى التأثير!؟ وإذا كان مجرد الكلام يعتبر اتفاقا مهما تباعد المضمون، فكل نطق فى الشعائر منذ نوح، بل كل نطق فى مقدمة الاجتماعات الدينية يكون بتأثير الكاهن والشماس! وإذا انتهينا إلى هذا المنطق فلا نقاش.

خاتمة

إن مجرد النظر العابر يهدم ما اتجه إليه الذين يحاولون إرجاع الأذان إلى اقتباس يهودى أو مسيحى، وقد تعمدت أن أشير إلى ذلك، لأقول إذا كانت المسائل الواضحة التى لاتحتمل اللبس تجد من يحاولون تمويهها بزائف الأباطيل، فعلينا أن نأخذ الحذر حين نقرأ بحوثا تتسم بالمنهجية فى ظاهرها المكشوف، أما الباطن فتدليس مغرض، يؤول النصوص، ويبتر النقول، ويخفى الحقائق ويختلق الأحداث، لينتهى بعد ذلك كله إلى ضباب واهن، إذا خدع الجهلاء، فقد فنده العلماء، والحق لا يعدم النصير، مهما كثرت الجلبة وساد الضجيج.

---

(٤) الرسالة العدد ٦٢٩، ١٤ من شعبان ١٣٦٤ هـ.

مواقف إسلامية

وَفَاءُ الأَشقَاء

للأستاذ الدكتور / محمود محمد عمارة

مدخـــل

ذهب فريق الأطباء إلى القرية.. فكانت المفاجأة من نتيجة البحث أكدت خلو القرية من أمراض القلب تماما.. واحتار الأطباء من تفرد هذه القرية بتلك الخصيصة.. دون جيرانها من القرى.. وبدأ البحث عن السبب:

هل هو فى نوعية الطعام والشراب؟ أم هو راجع إلى طبيعة البيئة؟ أم لا هذا.. ولا ذاك.. إنما هو عامل الوراثة؟

ولكن ثبت أن أهل القرى النائمة فى أحضان الجبل.. كلها سواء فى نوعية الطعام.. وطبيعة الجو.. وأن عامل الوراثة لا أثر له هنا.

وأخيرا وجدوا فى القرية المتميزة ما لم يكن لدى كل القرى من حولها:

لقد ركز المختصون على نوعية العلاقات بين أفراد هذه القرية فوجدوا:

التعاون على البر.. والحب فى الله..

وكان هذا الحب.. وذلك الانتماء سبب راحة القلوب التى برئت من علة الاختلاف.. والكراهية.. إن يدهم ممدودة بالعطاء.. فلا يحس أحد باغتراب.. فالسرور يعم الجميع.. فاستراح القلب.. إنهم المؤمنون.. والذى أثمر الإيمان فى قلوبهم الرحمة.. فكان هذا الود الجامع المانع.. في الوقت الذى كان الخلاف وكانت الأنانية قانون التعامل بين أهل القرى من حولهم..

ومـوقف اليـوم واحـد من المواقف التى يرعى ذلك الود الحميم حتى يظل رابطا بين الأقارب.. جامعا قلوبهم على كلمة سواء.. بما يؤكد من قيمة «حسن الظن» بالآخرين. وما يجب على الأخ حيال أخيه والذى يدافع عنه فى موقف يحاول الآخرون النيل منه.. عكس ما يحدث أحيانا من مثل ما قاله الشاعر:

يمر أقـــاربى بحـــذاء قـــبـــرى

كـــأن أقـــاربى لم يعـــرفـــونى

ومن مثل ما قاله الآخر:

وكـــان ســـراج الوصل أزهر بيننا

فــهـبت به ريح من البين.. فـانطفـا!

ألا إنه إذا كـان هناك من أمّـر الهـوى على نفسه.. فنطق بالبدعة.. فإن هناك من أمّر السنة عليها.. فنطق بالحكمة.

ومن هؤلاء الحكمـاء الأوفيـاء.. سلمـة بن الأكوع ـ رضى الله عنه ـ والذى كان وقوفه إلى جانب أخيه المتهم درسا فى ضرورة التثبت قبل الحكم.. حتى لا نشطب بالتسرع تاريخ رجال لهم فى الإسلام قدم صدق.

ومن حديثه – رضى الله عنه – أنه قال:

لما كان يوم خيبر قاتل أخى قتالا شديدا مع رسول الله ﷺ.

فارتد عليه سيفه فقتله.

فقال أصحاب رسول الله ﷺ فى ذلك وشكوا فيه:

رجل مات فى سلاحه! وشكوا فى بعض أمره.

قال سلمه:

فقفل رسول الله صلي الله عليه وسلم من خيبر. فقلت:

يا رسول الله: إذن لى أن أرجزلك.

فأذن له رسول الله ﷺ:

فقال عمر بن الخطاب: أعلم ما تقول: قال: فقلت:

والله لولا الله مـــا اهتـــدينا

ولا تـصـــــدقنا ولا صـلـينا

فقال رسول الله ﷺ: «صدقت».

وأنـــزلـن ســكـيـنة عـلـيـنـا

وثبت الأقـــدام إن لا قـــينا

والمشـركون قـد بغـوا علينا

فقال رسول الله ﷺ –: «صدقت».

قال فلما قضيت. رجزى قال ﷺ من قال هذا؟ قلت: قاله أخى.

فقال رسول الله ﷺ: «يرحمه الله».

قال: فقلت: يارسول الله: إن ناسا ليهابون الصلاة عليه يقولون: رجل مات بسلاحه.

فقال ﷺ: «مات جاهدا مجاهدا» ـ وفى رواية «كذبوا مات جاهدا مجاهدا فله أجره مرتين وأشار بأصبعيه»(١).

(١) رواه مسلم ج ١٢، ص ١٦٩، ١٧٠.

تمهيـــــد

كان عامر بن الأكوع - كما روى مسلم - رجلا شاعرا وكان رفاقه فى الجهاد والسفر يناشدونه أن يسمعهم من رجزه تنشيطا للقوى - ليواصل الركب المسير - فلا يحس بالألم.

وحدث يوما أن تصاف القوم وكان سيف «عامر» فيه قصر.. ولما قصد به ساق يهودى ليضربه - فى خيبر - رجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه.

قال أخوه «سلمة» رضى الله عنه -:

﴿ فلما قفلوا: رآنى رسول الله ﷺ ساكتا.. فقال: مالك؟

قلت له: فداك أبى وأمى.. زعموا أن عامرا حبط عمله.

قال: من قاله؟ قلت: فلان. وفلان. وأسيد بن حضير الأنصارى. فقال: كذب من قاله.

إن له لأجرين.. وجمع بين أصبعيه.. إنه لجاهد. مجاهد».

لقد كان صالح - رضى الله عنه - جاهدا.. يجهد نفسه فى العبادة.. وكان على أرض المعركة مجاهدا.. يبطل الله به إحساس الكافرين..

كان نجما فى السماء يتجدد نوره. .فلا يخبو وكان المتوقع أن يحسن الظن بهذه القيادة العسكرية الفريدة وفى لحظة من زمان.. وهذا حقه.. على ما يقول الشاعر:

كل شىء له زكـــاة تؤدى
وزكاة الجهاد.. رحمة مثلى!

ولكن رفاق السلاح لم يرحموه..

وإذا كانوا فى نقدهم اللاذع صادرين عن نية خالصة.. لا شماتة معها.. فقد كان عليهم أن يدركوا أن محاولة النيل من قيادة مؤمنة عمل غير صالح.

لأنه يحقق مأربا من مآرب أعدائنا الذين يقعدون لنا بكل سبيل متخذين من مثل هذا الاتهام دليلا يحاولون به تأييد مزاعمهم.

وضرب القيادات الفاعلة.. حتى نصبح أمة بلا تاريخ.

وإذا سقطت قيادة منا.. وبأيدينا نحن.. فإن ذلك يشكل خصما من حساب قوتنا.. يضاف إلى حساب أعدائنا.

وعندئذ سوف يستنسر البغاث بأرضنا.. وسوف تحاول الأرانب أن تتفاخر بآذانها الطويلة.. وهى ترمق الخيول.. من بعيد!

ضـــرورة التثـــبت

لقد كان على من اتهموا «صالحا» - رضى الله عنه - أن يدركوا حجم اتهامهم.. وما دام الاتهام خطيرا. .فلابد أن يكون له كفؤه من التثبت قبل التسرع فى الحكم.

وذلك ما تؤكده طبيعة الإسلام التى تقضى:

فى الغيبيـــات : الدليل.

وفى المحسوسات : المشاهدة.

وفى النقـــول : توثيق النص.

والأمر هنا لا يعدو أن يكون مجرد وهم..

وكـان المتـوقع أن يحـيلوه إلى مـاضى « صـالح » العظيم.. ليحسنوا الظن به.

الأخ.. يدافع عن أخيه.

وعلى الفور ينهض سلمة ـ رضى الله ـ ليدافع عن أخيه.. حين عرض القضية برمتها على الرائد الذى لا يكذب أهله ﷺ.. والذى كـان عـتـابه شـديد اللهجة إلى الحد الذى دفع بالكذب كل من اتهم « صالحا ».

ولا يجىء هذا العتاب من فراغ.. فان لصالح ـ رضى الله عنه ـ ماضيا يزكيه.. وحاضراً يكفيه!

فهو كما وصفه ﷺ: « مات جاهدا.. مجاهدا ».

فكيف يمسح هذا السجل الحافل بجرة لسان؟!

إن اتهـام القـيـادة المؤمنة ضـعف للإسـلام.. وواجبنا أن ندفع عنها ليبرز الإسلام من خلالها قويا مهابا.

معنى الكذب هنا

وقـوله ﷺ: « كـذبوا » لا يعنى الكـذب الذى يناقض الإيمان..

وإنما هو الكذب: بمعنى الخطأ. مثلما تقول:

كـذب سـمـعى كـذبت عـينى.. يعنى توهمت.. فأخطأت.

وقـد يكون التعـبير بالكذب صـدمة للحس الإيمانى ليصحو على مرارة ما ادعاه.

ولله در سلمـة ـ رضى الله عنه ـ والذى خف لنجدة أخيه عن طريق رسول الله ﷺ.

وإذا كـان إخـوة يوسف ـ عليـه السلام ـ قـد اتهـموه.. فـإن سلمة كان عظيمـا فى وفائه حين دافع عن أخيـه.. فـدافع عن كـرامتـه فى نفس الوقت.

وياليت قومى يعلمون اليوم..

يعلـمـون إلى أى حـد يركـبـون الشطط حين يتعـقبون القيـادات من ذوى قرباهم فى محـاولة لضربهـا.. مع أن نجاحهـا نجاح لهم.. وعزها عز لهـم.

ولقد كان من عدل الله تعالى أن يجبر خاطر المظلومين.. حين يعـترف المخطىء بخطئه: إدانة له.. وتبرئة للمظلوم.. تماما كمـا اعتـرف إخوة يوسف، وكما اعترفت امرأة العزيز.. بل إن العدل ليأخذ مجراه عندما يضع الله ـ تعالى ـ الظالمين تحت رحـمة المظلوم الذى أحوج الله ظالمه إليه.. ثم يكون العفو مسك الختام.

المسلمون اليوم

كـان هذا الموقف.. والجـو صـاف.. والقلوب أيضـا صـافية: من شأن هـذه السماء الصـافية أن تظهر الخطأ.. الذى ينبغى تلافيه.

إن « الرادار » حساس.. لا يسجل الطائرة فقط.. وإنما يسجل حتى الذرة التائهة فى جو السماء.

أما اليوم.. فقد تلبد الجو بالغيوم.. وصدرت الأحكام على الناس والأحداث بدافع من التربص وسوء الظن.

حتى رأينا من يريد جزاء التواضع.. وهو عند الله ه المتكبرين.. ومن يرجو أن يكون من ورثة جنة النعيم.. وهو لم يسع لها سعيها.

واجب المسلمين

أما واجب المسلمين اليوم فهو التسلح بخلق العفو.. فلعل العفو أن يلين قلوبا قاسية..

فلا تشتم من شتمك.. حتى لا تظهر رأيه فيك.. وعجزك أمامه.

ولكن عامله بالصمت على الأقل..لتستر عجزك.

وأمامك على الطريق رواد. منهم الأحنف بن قيس.

لقد سكت الأحنف يوما.. فلم يرد على شاتمه.. فقال الشاتم: وا لهفى! والله ما منعه من أن يرد على.. إلا هوانى عليه.

ولاحظ كيف يعبر الشاتم عن مشاعره بصوت مسموع.. شاهدا بقدرة العافى على صدع قلب شاتمه.. بصمته الذى يشبه صمت القمر فى سمائه العالية.. حين يقطع رحلته ساكنا.. بينما هو الذى يهيج سكينة البحار مدا وجزرا!

ومن قبل الأحنف كان أبو ذر ـ رضى الله عنه: فقد شتمه رجل فقال له:

لا تُغرق فى شمتنا..ودع للصلح موضعا فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر مما نطيع الله فيه.

ولما شتم هو «بلالا» وضع له خده على الأرض ليطأه.

وما أصدق ما قيل:

ليست الأحلام فى حين الرضا

إنما الأحلام فى حين الغضب

وإذا بذل سلفنا الصالح العفو فطرة.. طبعا.. لا تطبعا فقد حاول العقلاء من غيرنا أن يريحوا قلوبهم من عناء الغضب والانتقام.. طبق فلسفة قد تفيد فى معاملة من تخاصمهم.. فقالوا:

بالمال تستطيع أن تشترى.. «كلبا».

ولكنك لن تشترى به.. «قلبا».

فاستخدم كل جوارحك.. ما عدا قلبك..

عليك أن تريحه من عناء الخصام.. فليس هناك من هو جدير بحبنا.. أو كراهيتنا!

أما بعد :

فبعد أن بينا صدق الصحابة فى رضاهم وسخطهم.. نجد أنفسنا أمام سؤال يفرض نفسه نلفت به نظر أمتنا وقد غام الجو من حولها: لماذا لا تدافع عن أخيك بظهر الغيب.. حتى تجد من يدافع عنك فى فرصة آتية.

إن الله تعالى يقول:

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾(١).

وإذن.. فسوف تحصد من جنس ما زرعت.. وسوف تكتشف فى النهاية أنك تلمز نفسك قبل أن تلمز أخاك.. فاشتم من شئت.. فإنما تشتم نفسك.

واضرب من شئت.. فإنما تضرب نفسك.

إنما أنت.. حيث تضع نفسك!.

---

(٢)البقرة / ١١٠.

قصة العدد

القمة الموحشة

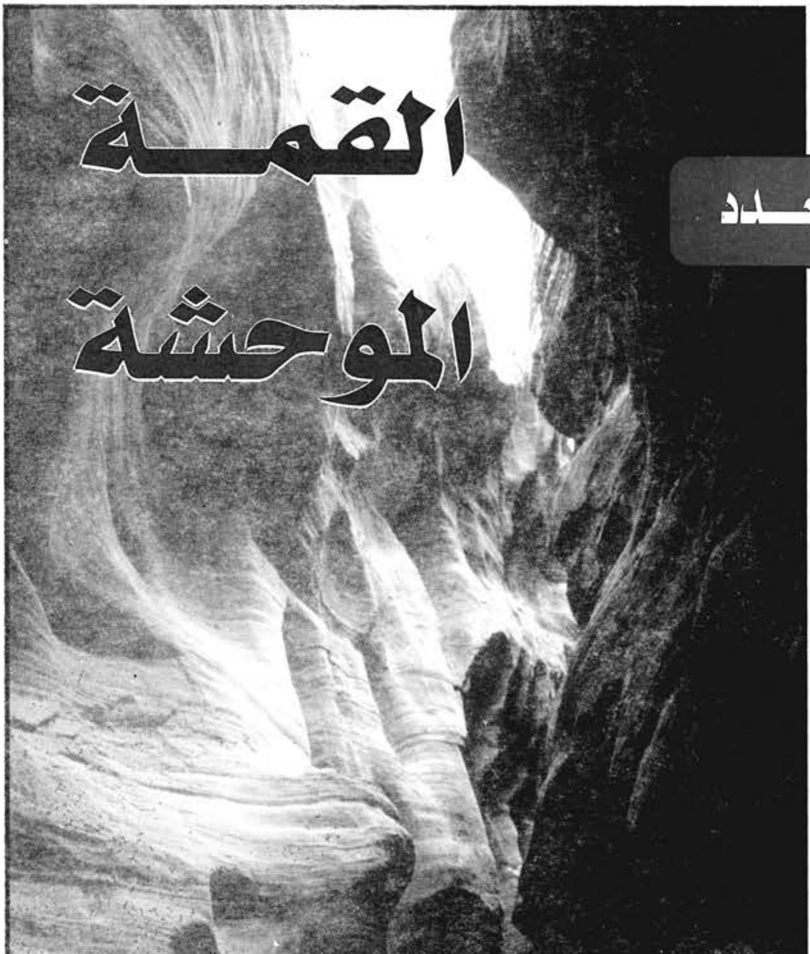

للأستاذ/ محمد فريد أبو حديد

إعداد الشيخ/ على حامد عبد الرحيم

«ستذهب إلى هذا الرجل يا سليمان بن مخلد، وستجلس إليه خاليا أو مع غيرك من أهل هذه الدولة، وستسمع منه، وتفضى إليه بما تراه من رأيك، فاعلم ياسليمان أنك لن تستطيع أن تدرك غوره، وإن خيل إليك أنك تفعل» هكذا كان عبدالملك بن حميد يتحدث إلى سليمان بن مخلد أبو أيوب المورياني عندما أراد أن يقدمه لأبى جعفر المنصور أمير المؤمنين العباسى.

وكان أبو أيوب شابا حسن الهيئة تلوح عليه الوداعة ويلمع الذكاء فى شعاع نظراته إذا رفع عينيه من إغضائهما. وأجاب الفتى قائلا:

سأكون يا سيدى عندما تحب، وسترضى عن اختيارك إياى، وسأحفظ لك هذا الصنيع ما دمت حيا.

فقال الشيخ ـ وكان فى صوته ما ينم عن الحزن ـ: لست أدرى يا ولدى إن كنت تعرف هذا الرجل وما تكلفك مصاحبته من المشقة. وقد كنت أحاول جهدى أن استميل قلبه وأبلغ عنده ما أحب ولكنها الشيخوخة يا ولدى، الشيخوخة والمرض وضيق الصدر تجمع على فلا أملك نفسى ولا يطيعنى لفظى حتى عرفت أننى ثقلت عليه وتبينت أنه يريد أن يستبدل بى غيرى.

وها أنذا أسبقه فاختارك لتكون عنده بدلا منى حتى لا يختار له كاتبا آخر يهدم علينا كل ما بنيناه ويفسد كل ما ترفقنا فى إصلاحه. ولست أحب أن أخيفك أو أن أخلع قلبك قبل أن تبدأ عملك، ولكنى لا أجد بداً من أن أفتح عينيك وأجلو بصيرتك لعل الله يكتب لك التوفيق معه. فقال الشاب هادئا:

ـ بارك الله عليك يا سيدى فقد عرفت مقدار برك بى وحدبك على، وليست هذه أول مرة تغمرنى بفضلك وبرك. ولكنى أحسب أننى أعرف الرجل ولا أجد فى نفسى قلقاً من التقرب إليه.

فقال الشيخ فى فتور:

ـ تحسب أنك تعرفه؟

فقال أبو أيوب: بل أعرفه حقاً يا سيدى أعرف أنه لا يشبه إذا حلق فى الفضاء وانقض على فريسة وأعرفه كالذئب ينام بإحدى مقلتيه ويسهر بالأخرى وأعرفه كسنان الرمح لا يلين فى طعنته. عرفت فيه هذا وغيره ولكنى لا أجد فى نفسى قلقاً من التقرب إليه.

فقال الشيخ باسماً:

ـ أمروض سباع يا أبا أيوب؟

فقال الشاب باسما كذلك:

ـ ولم لا أكون ياسيدى؟ أنت تعلم أننى من أول من دخلوا فى دعوة هذه الدولة وأننى بايعت آل محمد وكنت من المقربين إلى أبى سلمة الخلال. ولست بعيداً عن قلب الرجل فقد كانت لى عليه يد لا ينساها. فصاح الشيخ عبدالملك.

ـ لك عليه يد؟

فقال سليمان بن مخلد: إذا شئت أن تسميها يدا، كنت كما تعلم كاتباً لسليمان بن حبيب وهو عامل لمروان بن محمد على الأهواز، فأتى حراسه برجل، قالوا عنه: إنه أبوجعفر عبد الله بن محمد العباسى فما وقعت عينى عليه حتى عرفت أنه سيكون صاحب هذه الدولة الجديدة إذا لم يحل الموت دونه. وجعل سليمان يعنفه ويطالبه بما معه من الأموال ويتهمه بأنه اختان الدولة وسلب رعيتها ودعا

بالسياط فضربه أربعين سوطاً. ولكن الرجل كان كما قلت في وصفه أصلب من سنان الرمح فلم يستطع سليمان بن حبيب أن ينال منه شيئاً. فألقيت بنفسي عليه وحميته بظهري وأخذت أجادل بن حبيب وأخوفه من دولة بني العباسي المقبلة وأشعره باليأس من دولة بني أمية حتى رضي أن يضعه في السجن ويعدل عن تعذيبه.

فلما سكن الليل حركت الجنود المضرية فاقتحموا عليه سجنه وأطلقوه فأصبح يسير آمنا على طريق البصرة. ألم تكن هذه يدا لي عنده؟

فقال عبدالملك في اهتمام:

-إذن فالرجل يعرفك يا ولدى. لقد نبهتني إلى شيء لم أفطن إليه قبل هذا أذكر الآن أنه كان يتجه بي إلى جهتك في حديثه حتى إذا ما نطقت باسمك وثب إليه وثوبا. ألا ترى أنه رجل لا يسبر غوره؟حتى أنا لم استطع أن أسبر غوره.

ثم قام وأمسك بيد الفتى وتلفت حوله كأنه يخشى أن يكون أحد في ركن من أركان الحجرة فيسمع من قوله حرفا. ثم قال هامساً.

-تذكر يا سليمان بن مخلد أننا نخاطر بحياة أمة بأسرها، ماضيها وحاضرها، ومستقبلها. تذكر ما ذاقه قومنا الفرس منذ مائة عام حتى لاحت لنا هذه البارقة من آل محمد. فهؤلاء هم يبذلون لنا الوعود ويظهرون لنا المودة ويعتمدون علينا ويجعلون ثقتهم في ولائنا، وإذا لم يفسد علينا هذا الأمر كان. من اليسير علينا أن نستعيد في دولتهم مجد أمتنا. ولكن آمالنا كلها معلقة على شعرة، أتفهم قولي؟

كان الفتى يسمع إليه في لهفة وقلبه يخفق سعيداً بأن عبدالملك بن حميد يتحدث إليه ويثق فيه ويفضي إليه بمكنون أسراره، وقال في صوت متهدج:

أظنني أفهم ما تقول ياسيدى، ولكني لا أفهم كيف تتعلق الآمال بشعرة.

فقال الشيخ مرتاحا:

أحسنت في سؤالك وهذه بشرى تنبيء بأنك جاد في نيتك أقول إن آمالنا معلقة على شعرة لأن أبا جعفر مثل أخيه الذى سبقه - أبي العباس عبدالله بن محمد ومثل سائر بني هاشم ليسوا سوى عرب خلص. وإذا كان غيظهم من بني أمية يجعلهم يلجأون إلينا ويستندون على نصرتنا، فأنهم لن يلبثوا أن ينقضوا عهدنا إذا أحسوا منا خوفا.

ورفع الفتى رأسه في شيء يشبه الذعر فتلاقت عيناهما في صمت، ومضى الشيخ قائلا:

فليكن كل همك ألا تقطع هذه الشعرة يا ولدى، بل اجعل همك أن تقويها وتعززها حتى تصير سبباً متيناً يصل بين هذه الدولة وبين أمتنا. هلم تذهب إلى أمير المؤمنين يا ولدى فإنه ينتظرنا ولا ينبغي أن يرانا أحد نطيل حديثنا،سوف ألقاك في مجلس الخليفة بين حين وآخر، ولكني سأعرض عنك ولا أظهر لك ارتياحا، ولتكن مراسلتنا سرا ورمزا. وسأختار لك الأمين الذى يحمل رسائلنا، هلم بنا إلى القصر لندرك وقت الصلاة فنصلي العشاء وراءه جماعة.

وخرج الشيخ مع صاحبه فركبا إلى قصر أمير المؤمنين أبي جعفر في مدينة الكوفة. وهكذا اتصل أبو أيوب أول مرة بالخليفة العباسي الصارم في أول حكمه عندما كان لا يزال يبني قواعد ملكه.

وكان أبو أيوب ظريفاً لبقا حلو الحديث كأنه

خلق ليكون صاحبا للملك. كان خبيراً بالكيمياء والطب، حاذقا فى الحساب، أديبا بارعا فى اللغة، وكان فوق هذا عالما بالنجوم يتحدث إليها ويستطلع أخبارها، قديراً فى السحر حتى قالت العامة إنه اتخذ لنفسه دهنا يمسح به وجهه كلما دخل على الخليفة فإذا هو أسلس الناس له قيادا.

وما أسرع ما صار سليمان بن مخلد سيد رجال الدولة وأقرب أولياء الخليفة حتى كان أبوجعفر يقول لأمرائه إذا أعدت له مجلساً أنيقاً، إنه لا يجد فى ذلك المجلس متعة إلا إذا شاركه فيه كاتبه أبو أيوب المورياني.

وهل يستطيع الإنسان أن يكون سوى إنسان؟ كان قلب أبى أيوب عندما دخل على الخليفة أول مرة يحس أنه يحمل معه أمل أمه. كان كما قال له عبدالملك يعرف أن ذلك الأمل معلق على شعرة، وأن عليه أن يقويها ويحميها ويعززها، ولكنه بلغ من المجد مالم يبلغه أحد من رجال الدولة، ونال من بر الخليفة وثقته مالم ينله كاتب ولا وزير فى دولته. ووجد نفسه آخر الأمر يعتلى ذروة شامخة لم يستطع أحد أن يطمح إليها، ولم يجرؤ وزير قبله أن يرقى إليها. أصبح هو العين التى يرى الخليفة بها، والأذن التى يسمع بها واليد التى يحركها إذا أراد بطشاً.

ومنذ بلغ تلك القمة نسى كل شىء إلا أن يحتفظ بمكانته السامية فوقها.

صار كل همه أن يحمى نفسه من المنافسين الذين يخشاهم على نفسه، وأن يحتفظ بثقة سيده الذى أعطاه مالم يعطه ملك لأحد من رعيته.

وبدأ يشعر بالقلق والخوف ويمتلىء بالهم والرهبة. كان يحس فى أعماق حسه المرهف أنه لن يتحرك من ذروته الشاهقة إلا لكى يهوى إلى هوة عميقة. كان ينظر حوله من فوق تلك الذروة التى يتسنمها، فلا يرى إلا خلاء موحشاً ليس فيه أنيس ولا صديق، ثم يلقى بنظرة إلى أسفله فلا يرى سوى غور مظلم بعيد. كان لا يحس فى قلبه سلاماً، ولا يعرف اطمئنانا، بل كان فى مجده شقياً وفى سلطانه العظيم مضطربا خائفا.

كان مثل الثرى الذى تحوى خزانته الكنوز العظيمة، ويقضى أيامه ولياليه فى حراستها دائم القلق والنصب.

ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يدفع عن نفسه إرادة القضاء فنفذت إليه المقادير من حيث كان يريد أن يزداد أمنا على مكانته، وهكذا نحن معاشر الأحياء نتجه إلى مصائرنا كأن عيوننا مغلقة، وإن خيل إلينا أننا نبصر، وننقاد إلى أقدارنا وإن حسبنا أننا نمسك بأعنتها.

كان أبوجعفر قد نقل عاصمته إلى بغداد الجديدة - بغداد الصغيرة التى بدأت مثل عدد ضئيل لا يستطيع أحد ممن دخلوا إليها أول مرة يتصور أنها ستبلغ من السعة والعظمة ما بلغته من بعد. كانت عند ذلك لا تزيد على حصن يشبه الدائرة يحيط به نطاقان من الأسوار وفى قلبه قصر أمير المؤمنين مثل النواة فى التمرة.

وأما أمير المؤمنين المنصور فمقامه فى حجرة تكاد تكون عارية، ليس فيها شىء ما يدل على أبهة الملك أو براعة الفن. وكان يخلو هناك إلى نفسه وإلى هموم دولته الفسيحة كأنما هو أحد السباع الحانقة يتربص فى مكمنه ويجيل بصره فيما حوله ولا يشم إلا رائحة الدماء.

لم يجلس هناك يوم فى لهو أو طرب ولم يعبأ فيه بسمر أو نجوى صديق كان ينتظر صاحب البريد الذى يحمل أنباء الثورات أو صاحب الشرطة يحمل إليه رقاع الجواسيس الذى يبلغونه الهمسات الخافته.

وهناك أتى إليه يوما فتى يريد أن يفضى إليه بنصيحة وأبى الإدلاء بها إلى أحدٍ غير الخليفة.

بل إنه أبى أن يفضى بها إليه إلا إذا خلا المجلس من كل من هناك من خاصة رجال الدولة فلما صار وحده مع أبى جعفر رفع إليه عينيه فوجده ينظر إليه كما ينظر السبع الحانق إلى فريسته.

وثارت فى قلب الفتى دعوة كما ثارت فى قلب الخليفة شكوك كثيرة. فماذا يريد ذلك الفتى الذى لم تقع عينه عليه من قبل؟أهو أحد البائسين جاء إليه يتعلل بتلك النصيحة ليحاول أن يفتك به؟ ولكن وجهه كان لا ينم على شيء من الشر أو الغدر، فهو وسيم وديع فيه شبه عجيب بصورةمألوفة. فمن يكون؟ وما تكون تلك الصورة المألوفة التى تشبه الطيف فى الحلم البعيد؟ وجعل أبوجعفر يتأمل نظرة الفتى وجبينه وأنفه ولونه الأسمر وقامته الفارعة المتينة.

كانت نظرته إلى الخليفة نظرة كلب أليف فيها جرأة وفيها مودة وفيها انكسار وخشوع. فاطمأن أبوجعفر وأحال النظر إلى مودة الفتى مرتاحا كأنه يسبح فى حلم غامض بعيد العهد وقال فى نفسه: «لا ليس مثل هذا من يضمر الغدر بى».

وقال للفتى:

-هات ما عندك يا فتى. من أنت أولا؟

فقال الشاب فى صوت خافت به هزة مكبوتة:

-أنا ابنك يا أمير المؤمنين.

فقال المنصور فى صرخة: ابنى!

فأجابه الشاب: نعم أنا ابنك وهذه علامتى.

وأخرج من جيبه قميصاً وخاتما وقال:

-هذه علامتى.

فاستلقى المنصور على ظهر وسادته كأنه كان مشدوداً إلى وثاق ثم انفك منه فجأة وغاب لحظة طويلة فى ذكريات قديمة هجمت عليه كما تهجم الأمواج على الشاطيء الصخرى فى ساعة المد.

إنه يعرف هذا القميص حقاً وهذا هو الخاتم الذى أعطاه لزوجته الأهوازية عندما كان يضطرب فى الأرض وحيداً طريداً حانقاً يتخفى فى بيوت أصحابه ويخشى أن تمتد إليه أيدى أعدائه. حقا هذا هو الخاتم الذى خلفه عند امرأته الحسناء ابنة دهقان الأهواز. لقد أنسته الحوادث الجليلة تلك الزوجة المسكينة التى سكن إليها أشهراً قليلة ثم أزعج عنها فغادرها وذهب فى الأرض ليستأنف اضطرابه، ويمهد لدولة بنى العباس بالعرق والدماء والأشلاء. وتذكر يوم ودعها وهى تتمسك به باكية وتذكره بالجنين الذى يجاور كبدها.

مسكينة تلك الزوجة البعيدة، فماذا كان اسمها؟

لقد نسى اسمها كما نسى الجنين الذى خلفه عندها، وها هو ذا يرى ابنها أمامه شابا فيه ذلك الشبه العجيب من الصورة الغامضة التى لاحت له كأنها شبح فى حلم بعيد العهد. وقام فاعتنق الفتى وأسال من دمعه على كتفيه واختفى المنصور العارم المخيف ولم يبق منه إلا الوالد الذى يهزه الحنين.

وكان بينهما حديث طويل أحس فيه الرجل الذى قضى حياته فى الصراع والجلاد بأنه عاد شابا طريداً يتوجس خيفة من أنظار الأعداء.

ألا ما أعجب هذه المقادير فى تصاريفها، وما أضعف القلب البشرى فى نسيانه! كان عند ذلك لا يملك شيئاً من دنياه ولا يأمن شيئاً على نفسه، وها هو ذا قد أصبح سيد الدنيا ويملأ الآفاق بهيبة سلطانه، ومع ذلك فهو مايزال مضطربا لا يأمن على نفسه شيئاً. أهى سخرية القضاء أن يهب له كل ما كان يطمح إليه ثم يدعه آخر الأمر دائم الطموح والقلق كأنه لم يقبض إلا على خيال.

ودعا صاحبه أبا أيوب الموريانى بعد أن قضى حيناً فى حديث مع ولده وكان قلبه مازال يشتعل حنيناً وقلقاً. فماذا يقول لوزيره وماذا يقول للناس؟ أيأمن أن يجهر قائلا ها هو ذاك ابنى؟

وماذا يقول ابنه محمد المهدى الغيور الذى كان أشد حرصا على ولاية عهده من أبيه على ملكه؟

إنه لو جهر بهذه الحقيقة لأدخل على الدولة سبباً جديداً للفتنة وفتح للناس باباً جديداً من الأحاديث، ومن يدرى؟ من يدرى ماذا يكون وراء هذه الأحاديث وتلك الفتنة؟

وأوصى الفتى قائلا:

ـ لا يسمع أحد منك لفظاً مما قلت لى يا ولدى. ولا يجتمع بك أحد من الناس إلا أن يكون فى حضرتى وأما هذا الذى بعثت إليه، هذا الوزير أبو أيوب المورياني، فإنه رجل أهوازى مثلك، وستقيم عنده فى بيته حتى أدبر لك من بعد هذا أمرا. ولكن السر الذى بيننا لا ينبغى له ولا لغيره أن يعرف منه حرفا. أتعدنى؟

فقال الفتى: أسمع وأطيع يا أبى.

ووقعت نغمة صوته فى أذن أبى جعفر كأنما هو يسمع نفسه.

وقال المنصور لوزيره عندما أقبل عليه:

اجعل هذا الفتى فى بيتك واصنع له ما كنت تصنع لولدى لو بعثت به إليك، وله أن يزورنى متى شاء فلا حجاب لأحد عليه، ولكن لا يقترب منه أحد غيرى.

وخرج أبوأيوب مع الفتى من القصر خفية حتى بلغ داره. وكان فى طريقه صامتاً دهشاً لا يدرى أى سر جديد ذلك الذى طرأ على الخليفة بغتة. من هذا الفتى؟ ولم يبعثه المنصور إلى بيته ليقيم معه؟ وما الذى يحمله على كل ذلك التستر، وعلى كل هذه التوصية؟ ثم من هو حتى يذهب إلى القصر متى شاء فلا يحجب عنه ولا يؤذن لأحد أن يراه أو يقترب منه غيره؟

ومنذ حل الفتى فى بيت أبى أيوب لم يهدأ له بال فى ليل ولا فى نهار، فكان كل يوم يصابحه ويماسيه لغزاً غامضاً مستعصيا.

كان الفتى لا ينبس بكلمة كأنما هو باب مغلق ينطوى على سر عميق، باب نهاه أمير المؤمنين أن يعرف ما وراءه. إنها القصة القديمة لا تدخل من هذا الباب فيتحرق القلب شوقا إلى الدخول، ولا تأكل يا آدم من هذه الشجرة فيخاطر آدم بالخروج من الجنة ويأكل من الشجرة.

وهكذا أحس أبوأيوب. أحس كأنه وهو واقف على قمته العالية ومن حوله الفضاء الموحش ومن تحته الهوة العميقة، يرى شبحا غامضا يقبل عليه فيزاحمه ولا يدرى من أين أتى. فماذا يبغى المنصور من وراء إقامة ذلك الفتى عنده؟ أيضمر له كيدا كما أضمر من قبل لأبى مسلم وغير أبى مسلم من أوليائه الذين أقاموا له دولته؟

أم هو يطمع فى أمواله كما كان يطمع فى أموال غيره من العمال الذين يرفع إليه جواسيسه أنهم يخفون كنوزهم العظيمة حيث لا يطلع أحد عليها؟

إن أعداءه كثيرون يتربصون به الدوائر ويحاولون فى كل يوم أن يدفعوه عن القمة التى يعتليها، ولكنه يدفعهم عنها ويلقى بهم إلى الهاوية العميقة التى تحف بها. فهل ذلك الفتى أحد هؤلاء؟ وحاول مرة بعد مرة أن يعرف من الفتى أو يكشف عما يكون بينه وبين أمير المؤمنين إليه، فخلا إليه ولكن الفتى كان لا يبيح له أن يتحسس إلى شىء من أسراره.

وهكذا نسى أبوأيوب كل شىء إلا الخطر الذى يلوح له من جانب الفتى الصامت الذى لا يريد أن ينطق له بكلمة. نسى كل شىء إلا نفسه والقمة العالية التى يقف عليها وحده، والهوة العميقة التى تحت قدميه.

وقضى ليلة مسهدة طويلة يفكر فى أمر المنصور وذلك الشاب الغريب الذى كان يذهب إليه كل ليلة فيخلو معه ساعة طويلة ثم يعود إليه متستراً بالظلام ولا يقول له فيم كانا يتناجيان، فماذا عليه لو دفع ذلك الشاب المجهول عن قمته التى جاء يزاحمه فيها، ثم يبتدع عذراً يحتال فيه بحكمته كما ابتدع من قبل أعذاراً كثيرة فيمن تخلص منهم من المنافسين.

وكان أبو أيوب بارعا فى الطب والكيمياء كما كان بارعا فى حساب النجوم. وها هى ذى النجوم تبسم له قائلا «أقدم ولا تتردد».

وأعد فى أكوابه وبواتقه جرعة لا يفيق من يتجرعها، ثم أعد معها طعاما من طرف مختارة، وفواكه ممتازة، وحلوى شهية، فى ليلة من ليالى الخريف الساجية فلما عاد الشاب من مجلسه فى القصر وقف له يخدمه بنفسه وفاء بوصية أمير المؤمنين، ثم تركه وذهب إلى مخدعه ينتظر الصباح فى لهفة، فلما طلع الصباح ذهب إلى الفتى على عادته ليقوم على خدمته فوجده على الأرض ميتا وجهه المقلص يدل على ما قاساه من الآلام المبرحة.

وما هى إلا ساعة قصيرة حتى ضجت الدار بالفزع والحزن وانطلقت أصوات الفجيعة من النساء والجوارى يندبن الفتى النبيل الذى وافاه الأجل كما يوافى الناس فجأة.

وذهب أبوأيوب مسرعا إلى الخليفة ليحمل إليه النبأ الفظيع وكانت عيناه تدمعان وصوته يضطرب وهو يروى قصة المفاجأة القاسية.

بات الفتى أتم ما يكون شبابا وصحة ثم طلع عليه الأجل فى الصباح كما يقتل الصقيع الزهرة وأطرق حزينا ويداه على صدره خشوعا، وكانت تلوح له من وراء غشاء الدمع صورة الفتى وهو يزاحمه على القمة العالية يريد أن يدفعه إلى الهوة التى تحتها. وكاد يصرخ عندما خيل إليه أن شبح الفتى يريد أن يتمسك به لكى يترديا فى الهاوية معا:

وسمع المنصور وهو يقول له فى صوت أجش كأنه حشرجة قتيل: «أمات حقا فجأة؟».

ونظر إليه أبوأيوب فلم يقو على أن يلقى نظرة عينيه الصارمتين التى تشبه نظرة الفهد الغاضب، فأغضى مرغما وخرج موليا غير متمالك من الخوف، كأن الفهد يثب من ورائه يريد أن ينشب فيه أنيابه.

وقضى أبو أيوب الليلة فى سجن القصر مسهداً كما قضى الليلة السابقة فى داره مسهداً. ثم دخل عليه الموكلون بالعذاب ليستقصوا منه أمواله قبل أن يقذفوا به إلى الهاوية المظلمة التى تحف بالقمة التى كان واقفا عليها ـ القمة الموحشة.

من الأدب الإنسانى

القط الأعمى

أبو حسام

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾(١) .

ما برحت ذاكرتى قصة ... تذكرها العين لقط ضرير
قد سارت الأعوام من خلفها ... وطيفها الماثل ما أن يسير

* * *

شاهدته عن كثب حائرا ... يشم ترب الأرض كالفاحص
يظن فيها مطعما إنما ... قد بعد الدر عن الغائص

* * *

الأنف يا للأنف يوحى له ... بأن فى البيت طعاما يفوح
والعين يا للعين تنأى به ... عن قصده ، فهو حزين ينوح

* * *

(١) سورة هود آية «٦».

كم يرفع الرأس كـــمن يشـــتكى فـــإن وهى عن حـــمله أطرقـــا
له مـــــواء شف عن حــــــــرة كـــاد بهـــا الأعـــجم أن ينطقـــا

* * *

مـــــواؤه الضـــارع مـــســـترسل تلمس فـــيـــه ذلة الســـائل
يحـــســـبـــه يعطف بعض الورى لكنه يمــــضى بلا طائل

* * *

وربما يصـــمت فى غـــفـــوة صـــمـــتـــا يدوى حـــزنه الواضح
كـــالجـــمـــر يغـــشـــاه الثرى برهة ووقـــــده من حـــــوله لافح

* * *

هـــزالـــه المـــر دلـــيـــل الطوى ووجـــهـــه الجـــهم دليل الضـــجـــر
رعـــشـــتـــه تنبىء عن خـــافق فى صـــدره لاقى الضنى فـــانفـــجـــر

* * *

أعـــمى الورى يفـــصح عن نفـــســـه لكنه الأبكم لا يفـــصـــح
مـــأســـاته فـــاقت مـــآسى الورى ومـــا لهـــا من ناطق يشـــرح

* * *

فى صـــدره الزفـــرة لم تنطلق إلا تفـــاريق بمجـــرى النفس
كـــهـــائج البـــركـــان لم ينفطر رســـا عليـــه طوده فـــاحـــتـــبس

* * *

يشم مـــا يرجـــو فـــإن رامـــه لم يلق غـــيـــر الأسف اللاذع
كـــالآل يبـــدو لامـــعـــا إنما قـــد ضـــاع فـــيـــه أمل الطامع

* * *

يفـــتح جـــفنا يدلهم الدجى به فـــمـــا من قـــبس يسطع
إن بدت الشـــمس مـــضت دونه حـــســـرى طواها ليله الأســـفع

* * *

قــد هان عند الفــأر واحــســرتا | فــحـــوم الفـــأر عليـــه لاهيـــا
رأى بــه ذلا فــلـم يــكـتـــرث | وخـف فى فــــرحـــتـــه شـــاديا

* * *

مـــقلتـــه الخـــضـــراء تحت الدجى | تـشـع بـالضـــوء ولا تبـــصـــر
جـــوهرة زيفـــهـــا حظـهـــا | فـــمـــا لـهـــا من قـــيـــمـــة تذكـــر

* * *

ينصب من خلف الدجى ســمـــعـــه | كـــمـــجـــهــــر يبـرز مـــا يـخـــتـــفى
صـــوت الـشـــواء الحلـو يجلى بـه | لكـنـه بـالـصـــوت لا يـكـتـــفـى

* * *

يظـن مـــا فى الأرض من جنســـه | يشكو الدجى فـــالليل مـــســـتـــحكم
ظـن يـريـح الـنـفـس إذ لا حـــجـــا | يـرشــــده ، والرشـــد قـــد يؤلـم

* * *

بحـــثـت عـن كـــاف لـه مـــســعـــد | بظلمـــه أطبق فـــيـــهـــا الشـــقـــاء
وكـــدت أســـتـــيـــئس فى حـــيـــرتى | لولا يـقـــين ثابت فى الســـمـــاء

* * *

أســـأل نفـــسـى مـــا الذى قـــد جنى | ومـــا غـنـاء الكـون من بؤســـه
يحـــيـــا حـــيـــاة مـــا اســـتـــفـــادت بـه | أرغـــد منهـــا النوم فى رمـــســـه

* * *

لعلـه اعـــتـــاد الدجى فـــاغـــتـــدى | بـــالـفـــــه ذا سـلـوة وارتـضـــــاه
وبـت وحـــدى شـــاكـــيـــا همـــه | وذو الأسى مـــســـتـــمـــرىء مـــا دهاه

* * *

لا انـكـســـــار الـرأس فى خـطـوه | يـنبىء عن إحـــســـاســـه الـنـاقـم
وصـــاحب الإحـســـاس وا لهفتـــا | مـن حـــســـه بـيـن لظى جـــاحـم

* * *

قـــد يرتقى القط بإحـــســـاســـه | إلى ســـمـــاء الـقـــمـــة العـــالـيـــة
وفـى طـغـــــام الـنـاس مـن يـرتمـى | إذ يـفـــقـــد الحس إلى الـهـــاويـة

عالمٌ زاهدٌ.. وتقيٌّ ورعٌ

لفضيلة الشيخ / على محمود أبو الحسن (*)

بسم الله وصلاة وسلاما على سيد من آمن بالله. وأكرم إنسان دعا إلى الله. وأعظم هاد أوقف الناس على طريق الله سيدنا محمد وآله ومن ولاه واتبع هداه. وبعد:

فإن لله عبادا فطنا
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا
أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفنا

كان عالما زاهدا، وتقيا ورعا، بهى الطلعة، زكى السمعة، عابدا صوفيا. وزعيما سياسيا. يوثر دينه على دنياه. فلم يشغله شاغل ولم تلهه تجارة ولا بيع عن ذكر الله. واسع الآفاق غيورا على ما أقر الإسلام من أخلاق.

إذا سمعته قلت: أفصح الخطباء. وإذا قرأته قلت: أكبر الفقهاء. وإذا جاورته قلت: أكرم

(*) أمين عام مساعد مجمع البحوث للدعوة والإعلام الدينى ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر.

الأسخياء. وإذا عايشته قلت: إمام الأتقياء وشيخ الصوفية الفضلاء. وإذا أردت أن تضعه فى مكانه من عصره عدت به إلى عصر العلماء الزعماء. الأبطال العظماء . وإذا تمثلت فيه قول حكيم. فكأنه يقول:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حر ترى المذلة كفرا
وإذا ما رضيت بالقوت عمرى
فلماذا أخاف زيدا وعمروا

إنه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر - رضى الله عنه وأرضاه - نشاء فى ربوع الريف من أسرة مشهورة بالصلاح معروفة بالتمسك بشعائر الإسلام . فى ظل والده الشيخ محمود على الذى كان شغوفا بالعلم محبا للعلماء . بقرية « أبوحمد » المسماة بدار السلام من أعمال بلبيس محافظة الشرقية، التحق بالأزهر الشريف ينهل العلم عذبا من منابعه فى حلقاته الأولى حول أعمدة الجامع المعمور فى سنة ١٩٢٣م، ثم ألحقه والده بمعهد الزقازيق الدينى بعد افتتاحه للدراسة سنة ١٩٢٥م، فواصل دراسته فى جد وعزم، حتى ما كان يترك الكتاب من يده، لا فى دراسة ولا فى أيام أجازة. حتى نال شهادة العالمية وحقق لوالده آماله وأسمى أمانيه.

ثم آثر الكفاح على الراحة. متطلعا إلى مواصلة الدراسة بالجامعات الأوربية. فشد الرحال إلى فرنسا ليلتحق « بجامعة السربون » فى باريس على نفقته الخاصة.. زاده التقوى وسلاحه الإيمان. حتى التحق بالبعثة الأزهرية هناك فى عام ١٩٣٧ وآثر أن تكون رسالته للدكتوراة فى التصوف الإسلامى. وكان موضوعه الذى أحبه شخصية « الحارث بن أسد المحاسبى »فشرب وارتوى حتى غدا حارسا لدينه أسدا فى عرينه محاسبا لنفسه قبل أن يحاسب الآخرين.

فلما قامت الحرب العالمية سنة ١٩٣٩م فر من ويلاتها الكثير من زملائه فى ديار الغربة. لكنه كان الوحيد الذى أنساه إيمانه بالله وحبه للعلم الخوف على نفسه فآثر البقاء حتى أتم رسالته التى تحدد لمناقشتها يوم ٨ من يونيو ١٩٤٠م فنال الدكتوراه بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى حتى لقد أصرت الجامعة على طبعها بالفرنسية على نفقتها.

ثم عاد إلى مصر مدرسا بكلية اللغة العربية لمادة علم النفس. ثم عمل أستاذا للفلسفة فى كلية أصول الدين سنة ١٩٥١ ثم عميدا للكلية فى سنة ١٩٦٤ ثم عضوا بمجمع البحوث الإسلامية ثم تولى أمانة المجمع ليقوم بإعادة تنظيمه، فما لبث أن جعله مؤسسة عالمية تقوم على حراسة الثقافة الإسلامية وتجديدها ثم تجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب للسياسة والمذهب فنظم أروقته وعزز فى العالمين

الشيخ/ عبدالحليم محمود مع الرئيس الأمريكى جيمى كارتر فى البيت الأبيض
خلال زيارته للولايات المتحدة الأمريكية فى ١٩٧٧/١١/١٥

مكانته وعقد مؤتمره المؤلف من كبار علماء العالم الإسلامى.

ثم والى انعقاده وأصدار قراراته واهتم بتنفيذها فى قوة وعزم لا تثنيهما قلة المال ولا محاصرة الظروف وفى سنة ١٩٧٠ صدر قرار جمهورى بتعينه وكيلا للأزهر فزادت أعباؤه التى ضاعف لها جهوده فى القيام بخدمة الدعوة الإسلامية فى الداخل والخارج وإعلاء راية الأزهر خفاقة فى ربوع الدنيا بالإذاعة المسموعة والمرئية داخل وخارج الحدود ثم كانت نهاية المطاف حيث استقر فى المكان الطبيعى الذى أعدته له وللمسلمين العناية الإلهية. بصدور قرار تعيينه شيخا للأزهر فى ٢٧ من مارس سنة ١٩٧٣ بعد قضاء فترة وجيزة وزيراً للأوقاف.

طاف - رحمه الله - بالدعوة الإسلامية إلى الله على بصيرة وهدى فسافر إلى العراق بدعوة من حكامها ثم إلى دمشق فى أحد مؤتمراتها ثم إلى تونس محاضرا بجامعاتها،

ثم إلى ليبيا أستاذا زائراً للجامعة الإسلامية بها وكذلك أستاذاً زائراً بكل من أندونيسيا وباكستان والسودان، ثم إلى ماليزيا لتنظيم شئون المسلمين بها، ثم إلى الكويت لإلقاء بعض المحاضرات فى شهر رمضان، ثم إلى الإمارات العربية لافتتاح الموسم الثقافى سنة ١٩٧٤، ثم إلى ماليزيا مرة أخرى بدعوة من حكومتها وقد أشهر يومذاك على يديه أربعة آلاف مواطن مسيحى إسلامهم، ثم سافر إلى يوغوسلافيا، ثم الهند، ثم لندن لحضور مهرجان العالم الإسلامى، ثم إلى مكة المكرمة لحضور مؤتمر رسالة المسجد فى ١٦ ابريل من سنة ١٩٧٦ ثم إلى تشاد لافتتاح المؤسسة الإسلامية الكبرى بها، ثم كانت رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت مثار حديث صحافة وإذاعات العالم، واستقبل كزعيم دينى كبير فى البيت الأبيض الأمريكى فى ١٥/١١/١٩٧٧ وكان فى استقباله الرئيس الأمريكى بنفسه.

لقد كان - رضى الله عنه - على دراية كافية وغيرة وافية بقضايا أمته. يسعى فى آمالها. ويبكى لآلامها. ملما بأحداث الأمة الإسلامية عامة. وكان يعرف لهذه الأحداث دوافعها فما يقع خلاف بين دولة إسلامية وأخرى إلا وسارع باصدار البيانات باسم الأزهر الشريف بيت الأبوة الروحية للمسلمين ويستصرخ فى الحكام أن يسارعوا إلى وقف نزيف الدماء. ثم المناداة بفريضة الإصلاح بين المتخاصمين عملا بقوله - تعالى -:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾(١).

ثم كان يعرف لعدوه خبثه وحقده على الإسلام والمسلمين فكان يخطط بحكمة لإبطال كيده ورده إلى نحره. فكم واجه وهو الرجل الصوفى مؤامرات الشيوعية حتى ضربها فى مقتل حينما جمع آراء المذاهب والطوائف.

ودون فتاوى جميع المؤسسات الدعوية والبحثية فى كتيب باسم الأزهر يحمله جميع الناس فى يسر للحصول عليه، يبين فيه الحكم بردة الشيوعى التى يترتب عليها طلاق زوجته وعدم صحة إرثه أو الإرث عنه. وعدم جواز الصلاة عليه ودفنه فى مقابر المسلمين، سمعناه يصرخ فى وجوههم ونحن طلاب بالجامعة وفى مؤتمر بقاعة الإمام محمد عبده يقول بكل صراحة وقوة: «إن مثل الشيوعى كالكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث».

---

(١) الحجرات (٩).

لقد عرف الرجل بقيادته الواعية ومواقفه المبدعة وريادته المبصرة الصانعة وحجته المانعة. من خلال أخلاقه المثالية وفلسفته الصوفية وبلاغته العربية. وغيرته الإسلامية. وهيئته المهابة. مما ساعده على أن يقف مواقف الأبطال فى صياغة الحق وإزهاق الباطل. فكم صدَّ ورَدَّ وأقام الحدَّ فى مواقف الجِدّ. حتى هابه العظماء. وتصاغر أمامه الكبراء. وأحبته قلوب العلماء. وغدا بحق الأب الروحى للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بعد غروب شمس الخلافة الإسلامية. كتب وحقق. ونشر وألف. بالعربية وغير العربية ما يعجب الإنسان من أجله. كيف تم هذا؟ ومتى؟

والمشاغل كثيرة والمهام كبيرة ووفيرة والأيام قصيرة؟ لكنه الإيمان ونور البصيرة. حتى نيف على سبع وستين ٦٧ كتابا كان آخرها كتاب «الحمد لله هذه حياتى» كأنه كان يعرف نهاية حياته ودُنو أجله. [طبع دار المعارف سنة ١٩٧٦].

نعم جد وكد. وسعى ودعا. وصان ورعى. وأعطى حتى أغنى. وعشق ربه حتى أبلغه الغاية وبلغه المنى. بعدما بلغ الأزهر المعمور المجد والسنا. حتى أطل على الناس فجأة صباح يوم بئيس. غصت فيه الحلوق بالحسرات وامتلأت القلوب بالزفرات. وفاضت العيون بالعبرات.

وكان يوم الفراق يوما عصيباً
شاب فيه الصغير شيبا طويلا
ليتنى قبل ما قد بدا لى
فى رؤس الجبال أرعى الوعولا
كل عيش وإن تطايب حينا
فقصارى أيامه أن يزولا

وغاب عن أسماعنا من كان ملء الأسماع والأبصار، وملتقى الخواطر والأفكار والأمل الممدود بالليل والنهار بعد عودته من الأراضى المقدسة. حيث أحس ببعض الآلام فداعبها بالصبر الجميل كعادته ولكنها اشتدت عليه فأشار عليه الأطباء بإجراء عملية جراحية عاجلة فأمهلهم حتى صلى ركعتين خاشعتين ودع بهما الدنيا إلى الآخرة فلقى ربه راضيا مرضيا بمستشفى الشبراويشى صبيحة يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٩٨هـ الموافق السابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٨م وكان آخر ما نطق به لسانه الطهور: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» [«الله حق»] طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه. وجمعنا معه فى دار رضاه يوم نلقاه. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

مقومات النهضة العلمية للأمة الإسلامية

للأستاذ الدكتور/ أحمد فؤاد باشا(*)

لا نشك فى أن الأمة الإسلامية تستشعر اليوم مسئوليتها الكاملة تجاه القضايا المعاصرة والمستقبلية المطروحة على ساحتى الفكر والواقع العالميين، حيث امتد الاهتمام ليشمل العلوم والتقنيات المتقدمة، على نحو ما نلحظ فى الخطاب السياسى، وفى المقالات والندوات والمؤتمرات وغيرها من وسائل التعبير. لكن هذا كله لم يؤد حتى الآن إلى حصاد ملموس، ولم يترجم بعد إلى سياسة علمية وتقنية واضحة المعالم، وبرامج ومشاريع محددة الأهداف، وآليات إدارية وتنفيذية متطورة.

من هنا تأتى أهمية الحديث عن نهضة علمية إسلامية من خلال إتاحة الفرصة أمام علماء الأمة ومفكريها ليسهموا بتقديم رؤاهم وأفكارهم فى رسم صياغة الإطار الفكرى والعملى لاستراتيجية إسلامية طموحة تلبى حاجيات الأمة لمواجهة تحديات القرن الحادى والعشرين وتدفعها إلى الإسهام فى حضارة العصر بنصيب يتناسب مع تاريخها المجيد.

تشخيص الواقع العلمى فى ظل العولمة

يتحدثون الآن عن «العولمة» أو «الكوكبية» Glopalization باعتبارها السمة المميزة لحضارة العصر المادية فى سعيها إلى الهيمنة وفرض النموذج الغربى سياسيا واقتصاديا وثقافيا وعلميا.

والحقيقة أن صياغة تعريف جامع مانع – كما يقول المناطقة – لمصطلح «العولمة» ليس بالأمر اليسير نظراً لتعدد مفاهيمه التى تتأثر كثيراً بتعدد الاتجاهات إزاءه رفضا أو قبولاً بدرجات متفاوتة. فهناك من لا يرى فى «العولمة» إلا بعدها المكانى، ويعرفها بأنها مجرد وصف لمجموعة من العمليات التى تشمل أغلب الكوكب، أو التى تشيع على

(*) عميد كلية العلوم جامعة القاهرة.

مستوى العالم، وهناك من يرى أن «العولمة» تعنى فقط حالة التداخل المكثف فى العلاقات بين دول العالم على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والأيديولوجية وغيرها، وذلك نتيجة الإنجازات العلمية والتقنية فى مجالات الاتصالات والمعلوماتية وصناعة المعرفة خلال العقد الماضى، بعد أن توفرت القدرة على اختراق الحدود من خلال الفضائيات التى حولت العالم إلى «غرفة كونية صغيرة»، لكن مهمة إيجاد صيغة محددة لوصف كل هذه العمليات والأنشطة تبدو عملية بالغة الصعوبة. وحتى لو تم التوصل إلى مثل هذه الصياغة المحددة، فإنها فى الأغلب لن تحظى بالقبول أو الاستعمال على نطاق واسع. والأفضل - فيما نرى- أن يتم تعريف «العولمة» بتحديد أهم خصائصها وصفاتها ومظاهرها التى تدل عليها، ويمكن - من جانبنا - أن نجسد هذه الخصائص والصفات بصورة إجمالية فى أمرين مهمين جداً:

- الأمر الأول نستشفه من تحاشى أنصار «العولمة» وبعض فلاسفتها إدخال الدين ضمن مجالات نشاطها، فهم يحصرونها بصورة رئيسية فى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة، وفى بعض الأحيان يدرجون مجال العلم والتقنية.. وهم بهذا الاختزال المقصود، يجعلون منها «علمانية» جديدة تستبعد الدين من دائرة التأثير.

- الأمر الثانى هو ذلك التحيز الواضح الذى يصل بالمشايعين «للعولمة» إلى درجة التعصب وفرض الهيمنة والسعى إلى اختراق خصوصيات الغير وطمس القسمات التى تتشكل منها شخصيات الأمم والشعوب الأخرى، وخاصة المستضعفة منها. وهم يسخرون من أجل هذا كل إمكانات النموذج الغربى العلمية والتقنية، وقدراته الاقتصادية والإعلامية، بل وقوته العسكرية إذا اقتضى الأمر، ليفرضوا تصوراتهم الخاصة عن السلام والأمن والحرية وحقوق الإنسان، وغير ذلك من المفاهيم التى لها عند كل أمة، بل عند كل توجه فكرى وسياسى، تصور خاص.

وهذان الأمران اللذان يجسدان أهم خصائص العولمة الغربية ومظاهرها التى تدل عليها قد صاحبهما خلال السنوات الأخيرة ظهور اتجاهات نقدية جعلت كثيرا من الشعوب، بل الحكومات، فى الغرب نفسه، تخشى هذا الخطر القادم وترفض الاستجابة لدعواته والانخراط تحت لوائه، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ظهرت حركات فكرية مضادة للعولمة داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، وفى الوقت نفسه تحاول هذه الحركات تقديم البديل للعولمة.

من ناحية أخرى، يتفق دعاة العولمة الغربية على اعتبار الإسلام فى مقدمة الأخطار التى تواجههم أو تقوض أركان دعوتهم فى جانبها «الأيديولوچى».

وقد ظهرت عقب انهيار الشيوعية كتابات وبحوث ومقالات تحذر من الإسلام على أنه الخطر الجديد. وفى المقابل، هناك بعض المعتدلين الذين ينصفون الإسلام بمبادئه وقوته الروحية، ولا يجدون غضاضة فى التعامل معه ومع أتباعه من خلال الحوار، ولا مانع لديهم من أن تكون الغلبة لمن يصلح للبشرية حتى ولو كان هو الإسلام.. فهم يرون البون واسعا بين «عالمية النموذج الإسلامى وحضارته» وبين «عولمة النموذج الغربى المعاصر»، حتى وإن حاول الغرب أن يضفى على تصوراته طابعاً إنسانياً، ويرفض أى نوع من الاختلاف حول هذه التصورات.

وفى ضوء هذا الإطار العام للفكر العالمى السائد نجد أن العلم أيضا لم يسلم من السقوط فى أسر أيديولوجيا العولمة، فقد تحول البحث العلمى إلى سلطة سياسية مرتبطة بنفس الأيديولوجية، وأصبح «العلم السرّى» Secret Science تعبيراً عادياً يبرر استثناء بعض مجالات البحث العلمى من «قانون حرية المعلومات» بحجة أن هذه المجالات مرتبطة بالمركز التنافسى الاقتصادى وبالأمن القومى، الأمر الذى يؤدى إلى تخلف العلم نفسه فى بعض الميادين.

كذلك أصبح العلم سلعة وموضوعاً للإنتاج فى صناعة جديدة هى «صناعة المعرفة» التى حلت تدريجيا محل المادة فى الإنتاج.. الأمر الذى جل مكانة المواد الأولية الطبيعية أكثر تدهوراً لأن الحاجة إليها تقل تدريجيا، وهذا ينعكس سلبا على حركة التقدم العلمى فى الدولة التى تلهث وراء تقنيات جديدة تحتكر العولمة إنتاجها. ومن الأمثلة الصارخة على الخلل الذى أحدثته العولمة فى توجيه مسيرة العلم والتقنية مشكلة التلوث البيئى التى تزداد تفاقما يوما بعد يوم، وأصبحت خطراً قائما يهدد حياة الإنسان فى كل مكان على الأرض، وينذر بأوخم العواقب.

وإن الفاحص المدقق لواقع الأمة الإسلامية الآن لا يجد صعوبة فى تشخيص هذا الواقع وتقييمه من مختلف الجوانب، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية وغيرها، مقارنة بالأحوال المناظرة فى دول العالم المتقدم، الأمر الذى يتضح معه أن فجوة التخلف العلمى والتقنى التى تفصل بين دول العالم الأول ودول العالم النامى فجوة هائلة تزداد اتساعاً يوما بعد يوم ويعتقد الكثيرون أن سد هذه الفجوة، أو حتى تقريبها، يكاد يكون مستحيلاً.. ويروج البعض لما يقول به الغرب من أن حالة التخلف التى يعيشها المسلون نتيجة طبيعية لارتباطهم بالإسلام، وأن ما يقاسونه اليوم عقوبة يستحقونها لانسلاخهم عن الغرب، خاصة وأنه يزعم أن حضارته وتصوراته وثقافته هى المعيار الذى يجب أن يقاس عليه الحال عند الأمم الأخرى، فكل ما وافق الفكر الغربى اعتبره الغرب حضارة وتقدما، وكل ما

خالف نظامهم وصف بالتخلف والبعد عن الحضارة، ولما كان التركيز منصبا بصورة رئيسية على العداء لدين الإسلام وحضارته، فإن العولمة الغربية تسعى بكل السبل إلى تدمير النموذج الإسلامى، وتستخدم فى المجال العلمى أساليب عديدة منها:

١ - إضعاف نظام التعليم فى العالم الإسلامى وجعله مجرد وسيلة للحصول على شهادة متوسطة أو عليا لا تعبر فى أغلب الأحوال عن المستوى الذى يناظرها فى الدول المتقدمة، ولقد فقد نظام التعليم فى جميع مراحله القدرة على إعداد متخصصين أكفاء قادرين على المنافسة العالمية فى المجالات العلمية: النظرية والتطبيقية.

٢ - نشر ثقافة التغريب التى تدعو إلى تهميش دور الدين وإبعاده عن دائرة التأثير وإحداث قطيعة معرفية مع الماضى، والترويج لفلسفة العلم الغربية.

٣ - تحجيم البحث العلمى والحد من انطلاقه بحيث لم يتناسب العائد منه كما وكيفا مع الإمكانات والقدرات والأموال التى تنفق دون ترشيد، بالرغم من آلاف الخريجين ومئات الجامعات والمعاهد والمراكز المتخصصة الموزعة فى مختلف دول العالم الإسلامى.

مواجهة التحديات العلمية والتقنية

إذا ما قبلنا هذا التشخيص لحالة العلم والتقنية فى ظل العولمة فإنه يمكن تحديد صور التحدى التى تواجه الأمة الإسلامية بصورة إجمالية فيما يلى:

١ - على المستوى الفكرى لابد من تفنيد المزاعم المعادية للإسلام دينا وتاريخا وحضارة، والمروجة لاتساع الفجوة العلمية والتقنية واستحالة اجتياز حالة التخلف العلمى والتقنى التى تعيشها الأمة الإسلامية استنادا إلى الفهم الواعى لطبيعة التقدم العلمى والتقنى الذى يسير فى شكل موجات أو أجيال، إذا فاتنا الإسهام فى جيل منها، فلا يعنى هذا أننا لا نستطيع اللحاق بالأجيال التالية.. وهناك مجالات يمكن أن تحقق الأمة فيها تفوقا على غيرها إذا ما أحسنت الإفادة من الثروات والإمكانات المتوفرة لديها فالأمة الإسلامية تمثل ربع سكان العالم تقريبا، وتشغل أكثر من ربع مساحة اليابسة فى موقع متوسط من العالم يمتاز بسهولة الاتصال وتعدد الثروات وتكامل التضاريس والمناخ وتنوع مصادر المياه، ويطل على مسطحات مائية عديدة، كذلك يمتلك العالم الإسلامى حوالى ٧٥٪ من احتياطى النفط العالمى، وأكثر من ٢٥٪ من احتياطى الغاز الطبيعى، بالإضافة إلى حوالى ١٪ من احتياطى الفحم، ونسبا متفاوتة من المواد المشعة، ومعادن القصدير، والكروم، والمنجنيز، والرصاص، والزنك، والحديد، والنحاس، والألومنيوم، والكوبالت، والنيكل، والذهب، والفضة، وأملاح الفوسفات، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم، وغيرها.

وفى الوقت الذى تعانى فيه البشرية الآن من مشكلات التلوث البيئى ونضوب مصادر الطاقة التقليدية واستنزاف الموارد الطبيعية، نجد أن الأمة الإسلامية قد حباها الله - تعالى - شمساً ساطعة خلال أغلب أيام السنة، بالإضافة إلى السيليكون المتوفر فى مساحات شاسعة من الرمال، وهذان مصدران مهمان من مصادر الطاقة النظيفة والصناعات الإلكترونية الدقيقة، بالإضافة إلى مصادر الطاقة المائية والهيدروجينية والهوائية (الرياح) وغيرها.. ناهيك عن وجود مساحات شاسعة من الأراضى البكر الصالحة للزراعة.

٢ - لاشك أن إصلاح مناهج التعليم لإعداد الباحث الجيد يعتبر من التحديات التى تحتاج إلى مواجهة تأخذ فى الاعتبار طبيعة المجتمع الإسلامى وقيمه، إلى جانب الاسترشاد بالنماذج الناجحة فى الدول التى مرت بنفس ظروفنا، ومتابعة برامج الإصلاح لمختلف عناصر العملية التعليمية والبحث العلمى وهى: المحاضر (المعلم)، والمتعلم (الطالب أو المتلقى)، والمنهج الدراسى (المقرر والمراجع)، ومكان الدرس والبحث والتدريب (المدرج، والمدرسة، والمعمل أو المختبر) وما يلزم ذلك كله من معدات وأجهزة وأدوات وتمويل، وينبغى عدم إغفال العلاقة المتبادلة بين هذه العناصر أخذا وعطاء لتفعيل دورها فى خدمة وتنمية المجتمع الإسلامى.

٣ - كذلك يشهد واقع البحث العلمى فى الجامعات ومراكز البحوث - على كثرتها فى العالم الإسلامى - بأن الوقت والجهد يضيعان سدى - ناهيك عن الأموال بسبب غياب الإدارة العلمية الجيدة للتخطيط والتنسيق بين الباحثين أنفسهم، فضلا عن غيابها بين مختلف المؤسسات العاملة فى ميدان البيت العلمى والمتصلة به، والحقيقة أن غياب هذا العامل المهم يأتى فى مقدمة الأسباب التى تحول دون نهضة علمية إسلامية متكاملة ويمكن التغلب على هذه العقبة بإنشاء «اتحاد علمى إسلامى» يضع السياسات العلمية والتقنية الدقيقة والمستقرة من واقع الإمكانات المتاحة للأمة الإسلامية، ويعمل على تحقيق التكامل بين البرامج العلمية الإقليمية، ويقضى على العزلة القائمة حاليا بين العلم الإسلامى والعلم العالمى، ويسهل متابعة كل ما يستحدث فى مجال إنتاج المعرفة واستخدامها.

وهذا كله يتطلب بطبيعة الحال توفر الإرادة القوية، بالإضافة إلى توفير رعاية مالية سخية من القادرين، أفرادا ودولا ومؤسسات، خاصة وأن العلم فى عصرنا أصبح صناعة ثقيلة ومكلفة تنفق عليها الدول المتقدمة بسعة وبذخ.

«يتبـــــع»

موكب الشهداء

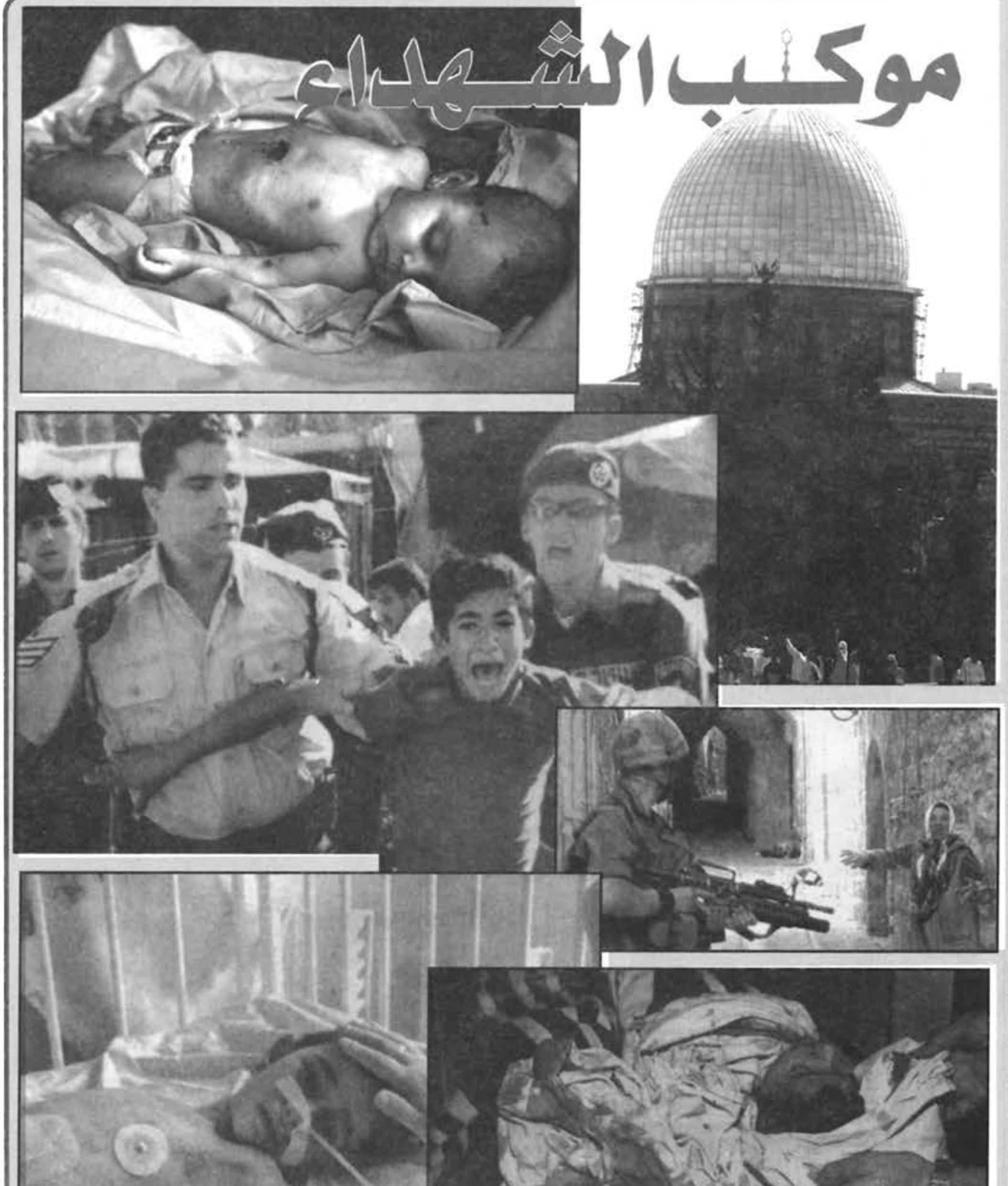

الفكر التلمودى
فى الوجدان اليهودى

للدكتور / محمد حسن عبد الخالق

إن ما نراه اليوم على الساحة الفلسطينية، وما يقوم به جيش الدفاع الإسرائيلى من إبادة للشعب الفلسطينى على مرأى ومسمع من العالم أجمع وهذه الغطرسة التى فاقت الحدود، لم تأت من فراغ، ولم تكن وليدة الظروف، ولكنها خلاصة فكر توارثوه عبر الأجيال من كتاب إرهابى صهيونى وضعه وبث السموم فيه تجاه كل الأغيار «غير اليهود» ألف حاخام، واستغرق تأليفه أكثر من خمسمائة عام!! ويعتبره اليهود الشريعة الشفوية التى نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ ويعادل بل ويعلو على الشريعة المكتوبة لديهم وهى «التوراة»، إنه كتاب «التلمود».

وكى يقنع الحاخامات جمهور اليهود بالتلمود، فقد بذروا فى نفوسهم عبر الأجيال أن كلام الكهنة يُطاع طاعة عمياء، وأن مخافة الحاخامات هى مخافة الله.

والحقيقة التى يجب الإشارة إليها أن الذى جمع اليهود منذ قديم الزمان وحديثه هى التوراة، بالإضافة إلى الرباط الوثيق بين «حرب إسرائيل» و«رب إسرائيل»، فالحرب فى عقيدة بنى إسرائيل عمل مقدس، وبقاء إسرائيل مرتبط بدق طبول الحرب، فهى الرباط المقدس الذى يجمعهم، وبسببها تذوب الخلافات، حتى المستعصية منها.

وقد سبق أن قال (بن جوريون): «إن جميع الحروب التى خاضتها إسرائيل هى حروب مقدسة: الأولى لتحرير الأرض والثانية لاستمرار الدولة والثالثة تحقيقا لنبوءات أنبياء إسرائيل..». فإسرائيل دولة حرب بحكم عقيدتها الدينية وارتباطها توراتيا وتلموديا بفكرة تفوّق الجنس اليهودى على كافة ما عداه من أجناس.

فقد ورد فى التوراة التى بين أيديهم:

«لأن الرب إلهكم سائر معكم لكى يحارب عنكم أعداؤكم ليخلصكم... ولتكن حربكم مقدسة».(١)

وكذلك فى نفس السفر:

«حين تقترب من مدينة لكى تحاربها... فلا تستبق منها نسمة واحدة».(٢)

وإذا اعتبرنا أن كتاب التوراة الموجود بين أيديهم الآن والذى تم تدوينه فى عهد عزرا، لم يسلم من التحريف والتبديل، وهذه التوراة هى حلقة واحدة فى سلسلة طويلة من الكتب والأحاديث والأفعال المقدسة، وتحتل مكانة هامة فى وجدان اليهود الدينى وأنها عروس الله التى تجلس إلى جواره على العرش. وقدسية التوراة المكتوبة لا حدود لها، فما بالنا بقدسية التوراة الشفوية بالنسبة لهم وهى «التلمود» الذى أصبح المعيار الأساسى فى الوجدان اليهودى.

وقد انعكس هذا الفكر التلمودى على الأدب العبرى الحديث، حيث نرى فى رواية (يعيش)

(١) سفر التثنية: ٢٠ : ٤.

(٢) سفر التثنية: ٢ : ١٠.

للأديب الصهيونى حاييم هزاز، وهو يعترف بالضغينة الدينية فى نفوس اليهود ضد جميع الشعوب فيقول على لسان أحد الفتيان فى مجتمع للهو والمجون:

«لو أراد الله لاستطعنا حشد قوة كبيرة، ومن جميع أنواع الأسلحة، ونمتطى ظهور الخيول والبغال، ونركب السفن فى البحر الكبير ونحتل المدن والبلدان، ويهرب أمامنا جميع الشعوب كالجراد».(٣)

وإذا أردنا أن نتحدث عن التلمود، فلا بد أن نتعرف أولاً على «المِشْنا»(٤) و«الجمارا»(٥).

والعهد القديم «التوراة» الموجود بين أيديهم مكتوبا يطلقون عليه «مِقرا» من قرأ، أما «المشنا» فهى الشريعة الشفوية التى تتناقلها الألسن؟، وهى تكرار شفوى لشريعة موسى ـ عليه السلام ـ كما يدعون.

وتُعد المِشنا مصدرا من مصادر الشريعة الأساسية لديهم، وتأتى فى المقام الثانى بعد العهد القديم. وقد تم جمعها على مدى ستة أجيال (١٠ - ٢٢٠م).

وتتكون من ستة أقسام:

١- كتاب «زراعيم» ويعنى بالزراعة والحاصلات الزراعية ونصيب الحاخام من المحصول.

٢- كتاب (موعد) ويعنى بالأعياد.

٣- كتاب (ناشيم) أى النساء، ويتعلق بالزواج والطلاق.

٤- كتاب (نزيقين): أى الأضرار. وفيه كل سمومهم تجاه الأغيار من بيع ومبادلة وربا وغش واحتيال.

٥- كتاب (طهاروت): ويعالج أحكام الطهارة.

٦- كتاب (قداشيم) أى المقدسات.

وهو عن الشرائع الخاصة بالطقوس وخدمة الهيكل.

ومن العجيب أن العهد القديم (التوراة) والمشنا والجمارا لم تشف غليلهم؛ فقاموا بتأليف (التلمود) وبثوا فيه سمومهم.

وهو أهم الكتب الدينيـة على الإطلاق، موسوعة كاملة بها كل ما يتعلق بهم من دين وشريعة وتاريخ وأدب وعلوم طبيعية وزراعة وصناعة ومهن وتجارة وربا وميراث وضرائب وفلك وتنجيم، وباختصار وضع اليهود جميعا فى قالب لا يحيدون عنه. وتم الانتهاء من كتاب التلمود فى القرن الخامس، أى أن تأليفه استغرق أكثر من ٥٠٠ سنة، ويبلغ عدد صفحاته ستة آلاف صفحة فى كل منها ٤٠٠ كلمة، وأن ألف حاخام

---

(٣) حاييم هزاز: رواية (يعيش) جـ١ ص١٩٢ (مصدر عبرى).

(٤) كلمة (مِشنا): مشتقة من الفعل العبرى (شاناه) معناه يثنى أو يعيد تكرار الشىء، ومن الفعل الآرامى (تانا). راجع د. عبدالوهاب المسيرى. موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص٣٦٥.

(٥) الجمارا: من الفعل العبرى (جامر) بمعنى أنهى أو أتم أو ختم، وهى اسم عام لكل كتاب من كتب التلمود التى تضم فصول المشنا وتفاسيرها، وكلمة جمارا: كلمة أرامية أيضا وتعنى الاكمال.

اشتركوا فى تأليفه، وهو التلمود البابلى. وقد تمكنت الحاخامية اليهودية التلمودية من السيطرة على اليهود بالإضافة إلى تأكيد النزعة الانعزالية المتعالية.

وهناك التلمود الأورشليمى (وهو مجموعة الأحكام الفقهية وتفاسير المشنة التى وضعها حاخامات إسرائيل وخصوصا حاخامات طبريا وتسبورى، وقد تم قبل التلمود البابلى بمائة وخمسين سنة أى فى عام ٣٧٥م).

وكلاهما مكوّن من المشنا والجمارا، ووجه الاختلاف بينهما فى الجمارا.(٦)

كما تطلق كلمة «التلمودية» على علية الربانية، وهم يضفون القداسة على التلمود وينزلونه من أنفسهم منزلة أعلى من منزلة التوراة عند جمهور اليهود، وعندهم أنه روح الشعب هى التى أهلت «موسى» ـ عليه السلام ـ لتلقى الألواح فى سيناء، وهو جهد اليهود فى إقامة الدين المقابل للجهد الإلهى المتمثل فى تنزيل التوراة.

والتلمودية هم شراح التلمود ومفسروه، وهم الفقهاء العارفون ببواطن التلمود الخفية، وتأويلاتهم نبوءة مفتوحة.(٧)

لغة التلمود

تتصف لغة التلمود بالغموض فى نصوصه وتفاسيره لما يحتوى عليه من حشو ومغالطات وأكاذيب ومهاترات، كما يحتوى على عبارات كثيرة تدعو للتفرقة العنصرية، وكل ذلك نشأ من ميل العلماء منهم إلى جعل التلمود طلسما من الطلاسم لكى يستغلوا العامة.

وقد نشأ هذا الحشو والغموض نتيجة أن التلمود ليس من وضع مؤلف واحد أو لجنة من المؤلفين، كما أنه لم يوضع فى عصر واحد، كما أن مؤلفى التلمود كانوا رجالا من مختلف الأقطار لا يتفقون فى اللغة، إذ كان بعضهم يعرف الآرامية والبعض الآخر يعرف العبرية أو الفارسية أو اليونانية، فالتلمود تنقصه الوحدة اللغوية القواعد النحوية.(٨)

والشعب مقدس، والتوراة مقدسة، والتلمود مقدس، والأرض مقدسة واللغة مقدسة، وكل شىء لهم وبهم، حتى المولى ـ سبحانه وتعالى ـ خاص بهم وحدهم وعليهم أن يحتفظوا بجنسهم، وهذا هو الأساس فى فكرة عدم التبشير عندهم.(٩)

كما أن الحلولية من خصائصهم فقط، بمعنى أن روح الله لا تحل إلا فى الشعب اليهودى المقدس، وأن العالم أجمع بالنسبة لهم عالم مُدنَّس.

وبعد ظهور المسيحية سيطرت أسطورة الشريعة الشفوية سيطرة تامة على اليهود، وأصبح معادلا للتوراة المكتوبة إن لم يكن أكثر منها قداسة، وقد لقبوه بالتوراة الشفوية.

---

(٦) د. عبدالوهاب المسيرى: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص١٤١.

(٧) د. عبدالمنعم الحفنى: الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية ١٩٨٠م - دار المسيرة، بيروت، ص٨١.

(٨) ا. سيد عاشور: (مركز المرأة فى الشريعة اليهودية) ص١١٢ - ١١٣.

(٩) ا. سيد عاشور: (اليهود فى عصر المسيح) ١٩٩٢/ ص٩٠.

● **وقد قال أحد الحاخامات:**

«يا بنى كن حريصا على مراعاة أقوال الكتبة [أى الحاخامات مؤلفى التلمود] أكثر من حرصك على أقوال التوراة، لأن أحكام التوراة تحوى الأوامر والنواهى، أما شرائع الكتبة فإن من ينتهك واحدة منها يجلب لنفسه عقوبة الرب».

وإفرازات اليوم هى نتاج مفاهيم الأمس، وما ينفذه اليهود عملياً على الساحة الفلسطينية، ما هو إلا تجربة عملية لنظريات تلمودية يؤمنون بها أكثر من إيمانهم برسولهم موسى ـ عليه السلام ـ، وهو برىء منهم ومن كتبهم وأفعالهم.

وقد نغضب حين نرى تطاولهم على الدين المسيحى أو الإسلام.

فما بالنا بقوم قد تطاولوا على المولى ـ سبحانه وتعالى ـ.

واستأذن القارىء الكريم فى أن يفسح لى صدره فى نقل صورة أمينة لبعض ما ذكر فى التلمود، وفى محاولة لسبر غور هذه الشرذمة التلمودية، وأن يكون القارىء العربى مسلماً كان أم مسيحياً على دراية بما يحكيه له عدو الله وعدو الرسل وعدو الشعوب.

● **فقد ذكر فى التلمود:**

«ان النهار اثنتا عشرة ساعة.. فى الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفى الثلاث الثانية يحكم وفى الثلاث الثالثة يطعم العالم وفى الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك».

● **ويقول (مناحم) وهو من علماء التلمود:**

«إنه لا شغل لله فى الليل غير تعلم التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين (أسمودية) فى مدرسة السماء».

«والحوت كبير جدا يمكن أن يتسع حلقه لسمكة طولها ٣٠٠ فرسخ. ونظرا لحجمه الكبير فقد رأى الله أن يحرمه من زوجته، لأنه إن لم يفعل ذلك امتلأت الدنيا وحوشاً تهلك من فيها، ولهذا حبس الله الذكر بقوته الإلهية وقتل الأنثى وملَّحها وأعدها لطعام اليهود فى الفردوس!!»[١٠]

● **وفى التلمود:**

«الله يندم على تركه اليهود فى حالة تعاسة حتى إنه يلطم ويبكى كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان فى البحر فيسمع دويهما من بدء العالم إلى نهايته، وتضطرب المياه وترتجف الأرض فى أغلب الأوقات فتحصل الزلازل.

> القمر يقول لله: لقد أخطأت حيث خلقتنى أصغر من الشمس؛ فاعترف الله بخطئه وقال: «اذبحوا لى ذبيحة أكفِّر بها عن ذنبى».

والأمثلة عديدة وكلها قدح فى الذات العليا، وسأكتفى بهذا القدر فيما يتعلق بالمولى ـ سبحانه وتعالى ـ.

وكى لا يصدم القارىء أود التنويه بأن مفهوم الرب لدى اليهود يختلف عن مفهومه ـ سبحانه وتعالى ـ لدى العالمين عداهم؛ وذلك فى التوراة الموجودة بين أيديهم، فما بالنا بالمكتوب فى التلمود، وهذا ليس بجديد على فكرهم، فالإله

(١٠) كتاب من التلمود ص٢١، راجع كتاب الفكر الدينى– للدكتور حسن ظاظا.

عندهم بشر يأكل ويشرب ويلعب بل ويندم على أنه خلق الإنسان.

« ورأى الرَبُّ أن شَرَّ الإنسان قد كثر فى الأرض.. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض »(١١).

وأود أن أشير إلى أن التوراة الموجودة بين أيديهم لم يرد فيها ذكر أو وصف للجنة، وقد استغل حاخامات اليهود هذا ووصفوها على هواهم فى التلمود حيث قالوا:(١٢)

ـ « مأكل المؤمنين فى الجنة هو لحم زوجة الحوت المملحة، ويقدم لهم أيضا على المائدة لحم ثور برى كبير جدا كان يتغذى بالعُشب الذى ينبت فى مائة جبل. ويأكلون كذلك لحم طير كبير لذيذ الطعم، ولحم أوز سمين، أما الشراب فهو النبيذ اللذيذ المعتق المعصور ثانى يوم خلق فيه العالم ».

« ولا يدخل الجنة إلا اليهود ».

« أما النار فهى مأوى الكفار ولا نصيب لهم فيها سوى البكاء لما فيها من الظلام والعفونة والطين ».

« والنار أكبر من الجنة ستين مرة، وسيظل المسلمون فى النار إلى الأبد لأنهم لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم والمسيحيون لأنهم لا يختتنون ».(١٣)

والتلمود ملىء بالحقد والكراهية تجاه المسيح ـ عليه السلام ـ ومن اتبع ديانته، والسؤال الذى يطرح نفسه: « لماذا كره اليهود المسيح ـ عليه السلام ـ ؟ ».

الأسباب عديدة، منها ما يتعلق بالديانة اليهودية، والتى ورد فى بعض فقرات التوراة بما سيحدث عند مجيئه، من أن السلام سيعم والمرض سيختفى، وأن البحر سوف يلفظ اللآلىء الثمينة، وأن الحيوانات المفترسة سوف تأكل عشب الأرض... إلخ

ومنها أنهم كانوا يعتقدون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيبعث إليهم رسول يخلصهم مما حل بهم من كوارث وأزمات.. ولكن خاب ظنهم، إذ كان عيسى ـ عليه السلام ـ مرسلا من قِبَلْ المولى ـ سبحانه وتعالى ـ ليعلمهم الأخلاق الكريمة التى نبذوها وراءهم وليصلح حالهم بعد أن غرقوا فى بحور الانحرافات.

بالإضافة إلى أنهم أرادوا أن يكون (المخلص) قائدا حربيا يحمل السيف، عدا كونه من أهل الجليل التى كانوا يتهمون أهلها بالوثنية، وكان يرفض عدم القيام بالأعمال المفيدة يوم السبت.(١٤)

بالإضافة إلى أنهم لم يعترفوا بالمسيح ـ عليه السلام ـ فهم مازالوا ينتظرون مسيحهم.

---

(١١) سفر التكوين: ٦ : ٥ - ٦.

(١٢) د. حسن ظاظا، محمد السيد عاشور: (شريعة الحرب عند اليهود) ص٣٤.

(١٣) من التلمود: ص٣٥.

(١٤) ا. سيد عاشور: (اليهود فى عهد المسيح) ص١٠.

وكما هو معروف فإن التلمود قد تم تدوينه قبل الإسلام، ولكنهم أضافوا إليه الكثير بعد ظهور الإسلام، ويُقال أنهم حتى القرن العاشر الميلادى كانوا يضيفون إليه.

● **وقد ذكر فى التلمود:**

«عندما يأتى المسيح تطرح الأرض فطيرا وملابس من الصوف وقمحاً حبه فى حجم كلاوى الثيران الكبيرة، وحينئذ تعود السلطة لليهود وكل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له، وفى هذا الوقت يكون لكل يهودى الفان وثمانمائة عبد يخدمونه.. لكن المسيح لن يأتى إلا بعد القضاء على حكم الأشرار الخارجين عن دين بنى إسرائيل».

«وأن اليهود سيعيشون فى حرب طاحنة مع باقى الشعوب فى انتظار ذلك اليوم، وسيأتى المسيح الحقيقى ويحقق النصر المنتظر.

ويقبل المسيح إذ ذاك هدايا جميع الشعوب ولكنه يرفض هدايا المسيحيين، وتكون الأمة اليهودية يومئذ فى غاية الثراء لأنها تكون قد ملكت كل أموال العالم. وأن هذه الكنوز ستملأ بيوتا كثيرة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها إلا على ثلثمائة حمار وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون فى دين اليهود أفواجا ويقبلون جميعا عدا المسيحيين فإنهم يهلكون لأنهم من نسل الشيطان».

● **وورد أيضا:**

«وعلى اليهودى ألا يبالغ فى مدح المسيحيين، ولا يصفهم بالحُسن والجمال إلا إذا قصد أن يمدحهم كما يمدح الإنسان حيوانا، لأن الخارج عن دين اليهود يشبه الحيوان».

ويعتبر التلمود المسيح ـ عليه السلام ـ بأنه «ارتد عن الدين اليهودى وعبد الأوثان».

وقد ساوى التلمود بين الوثنى الذى لم يتهود والمسيحى الذى بقى على دين المسيح وأن كلاهما عدو الله وعدوهم.

وقد يباح لليهود أن يزوروا مرضى المسيحيين ويدفنوا موتاهم إتقاء أذاهم أو ضررهم.

● **فقد قال (ففنكرن):**

أموال المسيحيين مباحة لليهود كالأموال المتروكة.

وجاء أيضاً: «إن الكفار ـكما قال الحاخام اليعازر- هم يسوع المسيح ومن اتبعه».

وورد أيضاً:

«إن المسيح كان مجنونا، وإن الكنائس النصرانية بمقام قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة».

وهذا ليس غريباً على كل من يعوزه البرهان، فيعمد سريعاً إلى وصف خصمه أو عدوه بالجنون أو السحر وللنظر إلى القرآن الكريم فيما حكاه عن الكفار واتهامهم الأنبياء بالجنون:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾(١٥).

---

(١٥) الحجر (٦).

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾(١٦)

الأغيار في نظر التلمود

ورد في التلمود ما يلي:

● غير مصرح للكاهن بأن يبارك الشعب باليد التي قتل بها شخصا حتى لو حدث القتل بطريق الخطأ، أو ندم الكاهن بعد ذلك.

وقد أفتى الحاخام (شار) بقوله:

ـ إن الكاهن يمكنه أن يبارك الشعب بتلك اليد إذا كان المقتول غير يهودى.

● إذا ضرب أمى (غير اليهودى) إسرائيليا فالأمي يستحق الموت.

● النطفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هى نطفة حصان.

● الأجانب كالكلاب.

● الكلب أفضل من الأجنبى.

وقد ذكر في التلمود:

ـ إذا وقع كلب في حفرة فعلى اليهودى إخراجه وإطعامه، أما إذا وقع بها أحد (الأغيار) فعليه اتباع ما أمر به الرب بأن يحضر حجرا ثقيلاً ويغطي به فوهة الحفرة ويحرسها سبعة أيام حتى يتأكد من أنه مات خوفا وهلعا وجوعا وعطشا، فيبارك له الرب.

● قتل غير اليهودى من الأفعال التي يكافىء عليها الله.. وإذا لم يتمكن من قتلهم فواجب عليه أن يتسبب في هلاكهم في أى وقت وبأى طريقة ممكنة.(١٧)

● أرواح غير اليهود هى أرواح شيطانية تشبه أرواح الحيوانات.

● يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تملك باقي الأمم في الأرض لتبقى السلطة لليهود وحدهم(١٨)

● حياة غير اليهودى ملك لليهود فكيف بأمواله.

● لا يخطىء اليهودى إذا انتهك عرض الأجنبى، فكل امرأة ليست من بنى إسرائيل بهيمة، وكل عقد نكاح لغير اليهود فاسد.

● إذا زنا اليهودى بامرأة غير يهودية فلا يكون قد ارتكب محرما، لأن لليهودى الحق في اغتصاب غير اليهوديات.

اليهودى في نظر التلمود

● يعتبر اليهود أنفسهم مساوين للعزة الإلهية، ولذلك تكون الدنيا بما فيها ملكاً لهم، ولهم عليها حق التسلط، ولهم مطلق التصرف في كل شيء.

● يعتبر اليهودى عند الله أفضل من الملائكة.(١٩)

---

(١٦) الذرايات (٥٢).

(١٧) شوقى عبد الناصر – التلمود ص١٤٦، ١٤٧.

(١٨) د. مصطفى مراد: استعدوا لقتال اليهود ص٢٧.

(١٩) د. حسن ظاظا ومحمد السيد عاشور (شريعة الحرب عند اليهود) ص٣٤.

● اليهودى جزء من الله. كما أن الابن جزء من أبيه.

● إذا لم يُخلق اليهود انعدمت البركة من الأرض ولما خُلقت الأمطار والشمس.

● الفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وباقى الشعوب.

● الشفقة ممنوعة لغير اليهود.

● إذا زنى الولد بأمه الأرملة لا يقام عليه الحد ولا يوجه إليه لوم وعليه أن يستمر فى معاشرتها كذلك حتى بعد أن يتزوج رعاية لحقها عليه، وكذلك الوالد الذى يزنى بابنته التى توفى زوجها فلا لوم عليه ولا حد.

وتبريرهم لهذا المنكر الفظيع والفساد العريض الذى تنفر منه الطباع السليمة أن هذا الوضع يحفظ عليه ماله فلا ينفقه على العاهرات.(٢٠)

● من يرتد عن الدين اليهودى يعامل معاملة الأجنبى، غير أنه إذا فعل ذلك لأجل غشهم، فلا خوف عليه ولا جناح، لأنه إذا استطاع اليهودى أن يغش أجنبيا ويوهمه أنه غير يهودى فهذا جائز.

● محظور على اليهود تلموديا أن يحيوا الكفار بالسلام مالم يخشوا ضررهم أو عداوتهم، فاستنتج الحاخام «بشاى» من ذلك أن النفاق جائز وأن الإنسان(أى ايهودى) يمكنه أن يكون مؤدبا مع الكافر ويدعى محبته كذبا، إذا خاف أن يؤذيه.

● مصرح لليهودى أن يسلم نفسه للشهوات إذا لم يستطع مقاومتها بشرط أن يكون ذلك سرا.

● وقد جاء فى التلمود:

«إنه غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا»

ـ «لا يعتبر أى قسم يقسمه اليهودى لأى فرد من باقى شعوب العالم يميناً، لأن القسم لغير اليهودى هو قسم لحيوان فلا يُعد يمينا».

وأود أن أشير إلى أن هذه القواعد ذكرت فى التلمود القديم، وفى النسخ الجديدة المطبوعة في أمستردام سنة ١٦٤٤م، وسلزبورج سنة ١٧٦٥م ووارسو سنة ١٨٦٤م.

ـ «كما يدعو التلمود إلى تقديس مبدأ الغزو والتوسع للعودة إلى فلسطين ومنها يتم السيطرة على العالم أجمع»(٢١)

والتوراة التى بين أيديهم والتى جمعتهم طوال السنين مليئة بالعنصرية، وجاء التلمود بزيفه ليزيد الطين بلة ويؤكد لهم أن العالم كله حل لهم، وخلق من أجلهم، علماً بأن أكثر من ثلثى يهود اليوم لا صلة بينهم وبين يهود التوراة ولا بالأراضى المقدسة، فقد أثبت علم الأجناس هذا النص:

«إنه لا توجد اختلافات بين السلالات البشرية أكثر مما نجده بين الجماعات اليهودية فى مختلف القارات، واليهود ينتمون إلى عدد كبير جدا من

(٢٠) د. على عبدالواحد وافى: الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص٣٠ - ٣٤.

(٢١) د. حسن ظاظا، السيد محمد عاشور: (شريعة الحرب عند اليهود) ص٣٥.

السلالات وهم يشبهون الجماعات التي يعيشون في وسطها، ولقد استطاع كثير من اليهود الألمان أن يثبتوا بالوثائق وتحليل الدم أنهم آريون لم تجر فى عروقهم قطرة من دم آخر سوى الدم الآرى».

والعجيب أن حاخامات الفكر التلمودى يتطاولون يومياً على العرب بلا خجل أو حياء كالحاخام (عوفاديا يوسف) الزعيم الروحى لحزب شاس المتطرف، وآخر ما طالعنا به من إسفاف يوم ٢٠٠١/٧/٢٧ حيث هاجم العرب وكان كعادته يصفهم كل مرة بصفة، مرة بالأفاعى، وآخرها بأنهم كالنمل يتكاثرون، وطلب من شارون إبادتهم وقال:

« من تكون تلك الأمم.. سيأتى المسيح ولن يلقوا سوى الاحتقار والذل والتقوقع».

ولعل فى ذلك دعوة لكل من كان له قلب وقرأ التلمود وتاريخ اليهود بشىء من التدبر ليعرف أنه من الأغيار وأن وصفه لا يزيد عن حيوان فى الفكر التلمودى.

وأذكرهم فقط بما قاله الحاخام (ماغنس) عميد الجامعة العبرية عام ١٩٤٨ حيث قال بالحرف الواحد:

« سينزل بنا عقاب من الرب، إننا نعبد الذهب وننشر الدعايات المأجورة، ونعبد الدم، ونبث الرعب بين الناس، وهذا لدى الرب حرام، وشعائرنا شاهدة على أننا كنا نتلقى العقاب فى كل مرة فعلنا مثله».[٢٢]

---

(٢٢) د. محمود دياب (الصهيونية العالمية) ص ٣٧.

حجر من أرض الإسراء!

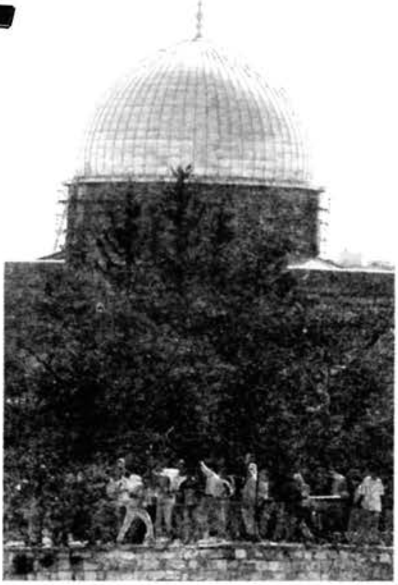

للأستاذ / السيد الصديق حافظ

أيظل القـــدس أســـيـــرا ويقـــاسى العـــيش مـــريرا؟!
وتـــئـــن الأرض وتـــشـــقـــى وتغض الطرف كـــســـيـــرا؟![1]
أيُذِلُ العـــرب يهـــود خلقـــوا للذل حـــصـــيـــرا؟![2]
لعنوا فى كل كـــتـــاب جـــعلوا للشـــؤم نذيرا!
زرعـــوا الآلام وعـــاشـــوا مـــرضـــا فى الكون خطيـــرا!
وعـــتـــوا فى الأرض عـــتـــوا وطغـــوا مـــالا ونفـــيـــرا!
يتـــبـــاكى من يتـــبـــاكى ويفـــيـــض الدمع غـــزيرا
نعـــمـــوا بالظل ظليـــلا وفـــراش النوم وثـــيـــرا

(١) تغض الطرف كسيرا: تخفض بصرها فى ذلة وانكسار.

(٢) خلقوا للذل حصيرا – ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

«وعلى الأعراف رجالٌ» صَليَتْ حرًا وهجيرا![٣]

صلوْا لله وصاموا لجهاد دام عسيرا!

قدس الإسراء سيبقى قبسا لله منيرا!

و«فلسطينٌ» وبنوها عرب أرضا وعشيرا!

وشباب الأرض أسود ملأوا الأجواء زئيرا!

ضربوا للناس جميعا مثلا قد عز نظيرا!

حجر كالأسعد يمنا شهد الإسراء قريرا![٤]

قذفته كف صبى فجرى بالفجر بشيرا!

ولى. الرشاش. جبانا وانطلق الفهر مغيرا![٥]

يستخفى منه يهود فزعا يرجون مجيرا!

دبت فى الصخر حياة رسمت للمجد مسيرا!

فتعالى الله عزيزا وتعالى الله قديرا!

حجر فى كف صغير سيعيد الحق كبيرا!

ليعيش العدل عزيزا ويموت الظلم حقيرا!

حصيات الأرض جمار وبها يَصْلَوْن سعيرا!

وجهادى لن يتوانى ما دام الصخر وفيرا![٦]

وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا!

---

(٣) على الأعراف رجالا - الأعراف - سور بين الجنة والنار. والمراد هنا موقف المجاهدين بحجارة أرضهم بين الموت والحياة فقد خلفوا حياة الذل والمهانة وراءهم واستقبلوا بطلب الشهادة حياة النعيم الأبدى والكرامة الدائمة فى جنات النعيم.

(٤) كالأسعد - كالحجر الأسود يمنا وبركة - شهد الإسراء قريرا - أى شهد الحجر فى طفولته أنوار الإسراء تغمر أرض القدس المباركة

(٥) الفهر - الحجر ملء الكف

(٦) لن يتوانى - لن يكل ولن يفتر ما بقى الصخر وفيرا..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

التوبة (٤١)

من قادة الفتوحات الإسلامية

القعقاع بن عمرو التميمى

٤

إعداد الأستاذ / أحمد السيد تقى الدين

وكما كان للقعقاع تاريخه الناصع المشرق فى ساحة الوغى، كانت له كذلك مكانته السياسية، وهو الأمر الذى تجلى واضحاً إبان أحداث الفتنة الكبرى، التى اشتعل إوارها، وأكلت الأخضر واليابس.

فبعد استشهاد ذى النورين، عثمان بن عفان -رضى الله عنه- يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمسة وثلاثين على المشهور، عدل الناس إلى على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- فبايعوه بالخلافة.

فى حين رفض معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنه- أن يبايع علياً إلا بعد إقامة الحد والأخذ بدم عثمان.

وفى الكوفة وقف القعقاع بن عمرو التميمى خطيبا، معلناً بيعته لعلى بن أبى طالب -كرم الله وجهه- بالإمامة، وحث الناس على بيعته قائلاً:

«لابد للناس من أمير يردع الظالم وينصف المظلوم وينتظم به شمل الناس، وأمير المؤمنين على يلى بما ولى، وقد أنصف بالدعاء، وإنما يريد الإصلاح فانفروا إليه».

وفزع القعقاع عندما علم بخروج أم المؤمنين

عائشة –رضى الله عنها– فى جمع من فرسان المسلمين على رأسهم الصحابيان: الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله إلى البصرة تطلب القصاص من قتلة عثمان.

فذهب إليها من فوره قائلاً: أى أماه! ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أى بنى! الإصلاح بين الناس. فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها، فحضرا، فقال القعقاع: إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: إنما جئت للإصلاح بين الناس. فقالا: ونحن كذلك. قال: فأخبرانى ما وجه هذا الصلاح؟ وعلى أى شىء يكون؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن. قالا: قتلة عثمان؛ فإن هذا إن تُرك كان تركا للقرآن. فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل، فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم (حرقوص ابن زهير) فمنعه ستة آلاف، فإن تركتموه وقعتم فيما تقولون، وإن قاتلتموهم فأُديلوا[1] عليكم، كان الذى حذرتم، وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه – يعنى أن الذى تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة، ولكن يترتب عليها مفسدة هى أربى منها– وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من (حرقوص بن زهير) لقيام ستة آلاف فى منعه ممن يريد قتله، فعلىٌّ أعذَرُ فى تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم؛ فإن الكلمة فى جميع الأمصار مختلفة، ثم أعلمهم أن خلقا من ربيعة ومُضر، قد اجتمعوا لحربهم بسبب هذا الأمر الذى وقع.

فقالت له عائشة –رضى الله عنها–: فماذا تقول أنت؟

قال القعقاع: أقول: إن هذا الأمر الذى وقع، دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة، وإدراك للثأر، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شر وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وايم الله لأقول قولى هذا وأدعوكم إليه، وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها مانزل، فإن هذا الأمر الذى قد حدث أمر عظيم، وليس كقتل رجل رجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة.

فقالوا: قد أصبت فأحسنت فارجع، فإن قدم علىٌّ وهو على مثل رأيك، صَلُحَ الأمر. قال: فرجع إلى علىّ، فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه.

واصطلح الناس على رأى القعقاع، فأسقط فى أيدى رؤوس الفتنة وعلى رأسهم (عبدالله ابن سبأ) وغيره ممن تورطوا فى قتل عثمان بن عفان – رضى الله عنه– فتبادلوا الرأى بينهم حتى توصلوا إلى إنشاب القتال.

---

(١) غلبوكم وانتصروا عليكم.

وبالفعل أنشب الغوغائيون القتال بأسباب تافهة، إذ تسابب الصبيان، ثم تراموا وتتابع العبيد حتى إذا توترت الأجواء باشر السفهاء.

واندلع القتال الذى فوجىء به على ابن أبى طالب -كرم الله وجهه- بين جيشى البصرة وعلى رأسه طلحة والزبير، وجيش الكوفة وكان القعقاع من قادته.

وأبصر القعقاع هودج الجمل الذى تجلس أم المؤمنين السيدة عائشة -رضى الله عنها- بداخله قد رشقته السهام من كل جانب، والسيدة عائشة تصيح من داخله: «الله الله يا بنى.. اذكروا يوم الحساب». ورأى القعقاع أنه لا يمكن حماية الهودج من السهام المصوّبة إليه من الجانبين إلا إذا انخفض فأصبح قريبا من سطح الأرض، فعقر الجمل فسقط على الأرض، وأوكل القعقاع إلى عدد من رجاله بحماية الهودج وأن يموتوا دونه.

وأبصر القعقاع (طلحة بن عبيد الله) قائد جيش البصرة يقاتل جريحا، فقال له: يا أبا محمد إنك جريح، فحبذا لو دخلت أحد البيوتات!!

لله درّك يا قعقاع.. قائد يبصر قائد خصومه جريحا فينصحه بالراحة بدلاً من أن يجهز عليه. من منا يزعم أن هذا المسلك له ما يماثله فى تاريخ الحروب فى العصر الحديث؟!

وانتهت المعركة وكان أول ما فعله القعقاع أن أشرف بنفسه على نقل هودج السيدة عائشة والذى كان يقاتل بجواره، ثم تتبع كل من سولت له نفسه التعرض للسيدة عائشة مُنزلاً به أشد العقاب، وقام بجلد عدد غير قليل ممن أساءوا الأدب فى حق أم المؤمنين - رضى الله عنها -.

وتضع الحرب أوزارها، وينتهى الأمر بتولى معاوية بن أبى سفيان مقاليد الحكم.

أما القعقاع فقد أدرك أن لهذه الفتنة ما بعدها، وأن النفوس ما زالت تحمل الكثير من الضغائن، فضن بسيفه وبنفسه وهو الذى لم تنكسر له حرب فى سبيل الله من أن تكون له جولات أخرى مع أبناء دينه، وهو المقاتل فى سبيل الله، أفبعد أن نشر الاسلام فى الشام، وفارس كلها يشهر سيفه فى وجه مسلم، كيف هذا؟! بماذا يصيح وهو يحمس جنده؟! فى مواجهة الفرس والروم كانت صحيته: «الله أكبر» وبها كان ينتصر ولم يرزق فيها الشهادة، أفبعد هذا يرفع سيفه فى وجه أخيه المسلم؟! فكيف يلقى ربه إن قتل مسلما، أو قُتلَ بسيف مسلم؟! فانتقل إلى إيلياء بفلسطين حيث توفى بها عام ٤٠هـ.

وفى روايات أن معاوية أخرج من الكوفة المستغربين فى أمر على؛ فأخرج القعقاع إلى إيلياء.

رحم الله القعقاع بن عمرو، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(٢).

(٢) الأحزاب (٢٣).

من قضايا النقد

ثقافة الناقد فى مرآة ابن المعتز

للأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

كان ابن المعتز فى كتابه: (البديع) رجل بلاغة ونقد، وكان فى كتابه: (طبقات الشعراء) رجل نقد فحسب.. على هذا تواضع معظم الباحثين.. ربما لأن حسن التأصيل فى (البديع) كان لافتاً تماماً إلى أن الرجل كان ساعياً وراء جمع الظاهرة البلاغية من مظانها المختلفة، وإعطائها شكلاً من أشكال التحديد العلمى الذى ينأى بها عن أن تظل مجرد ظواهر عمومية بلا تحديد.. فى الوقت الذى يلوح فيه ابن المعتز من خلال (طبقات الشعراء) منصرفاً تماماً عن هذا التوجه البلاغى فى شكله القاعدى إلى نوع من أنواع النظر النقدى الذى يتسم بالانطباعية والذاتية والرفق فى تناول الأشياء، إلى جوار ما يتسم به من استقصاء قارىء لشعر التراث فى مراحله المتعددة، مما يتيح له - أحياناً - أن يصل إلى جواهر بعض القضايا النقدية فى ذكاء لامح، ووعى شديد.

وقد ألم ابن المعتز فى (طبقات الشعراء) بعديد من القضايا النقدية التى تتصدى للعملية الشعرية من جانبيها معاً: جانب الإبداع.. وجانب المبدع.. ويمكن أن نحصر هذه القضايا التى أثارها فى قضية (ثقافة الناقد) وقضية (ثقافة الشاعر) وقضية (الطبع والتكلف) وقضية (الصنعة الفنية) وقضية: (القديم والحديث) وقضية (الانتحال) وهى قضايا تتفاوت عند ابن المعتز تعميقاً وتسطيحاً.

فى قضية (ثقافة الناقد) يشير ابن المعتز إلى المستوى الذى يمكن أن يؤهل إنساناً ما لعملية التصدى لدراسة الإبداع، وإعطاء أساس نقدى أو تنظيرى لضروبه المختلفة، وأنماطه المتشابهة ولعل ابن المعتز كان موفقاً

تماماً حين جسد هذا المستوى المثالى من خلال (الخليل بن أحـمـد) لأن هذا الرائد العظيم أقمن قمين فى التراث العربى بكامله يمكن أن يرتبط اسمه بالنظرية الشعرية العربية، التى كان أول من حدد تخومها، وجمع شتاتها، وصنف إيقاعها الضخم فى هذا السياق الرياضى الضابط والمتناغم فى آن.. فإذا جسد منه ابن المعتز مستوى مثالياً للناقد المثقف، أو لثقافة الناقد كيف كان ينبغى أن تكون. فإنه قريب من صواب الرؤية إلى مدى بعيد.

يقول ابن المعتز:

(حدثنى اسحاق بن الصلت الأنبارى قال: حدثنى المعلى بن جعفر السعدى قال: كان الخليل بن أحمد أعلم الناس بالنحو والغريب، وأكثرهم دقائق فى ذلك، وهو أستاذ الناس، وواحد عصره، وأول من اخترع العروض وفتقه، وجعله ميزاناً للشعر، وكان سببه: أنه مر فى سكة القصارين بالبصرة فسمع من وقع الكدين[1] أصواتاً مختلفة، ففكر فى هذا العلم، وقال: لأضعن من هذا أصلاً لم أسبق إليه، فعمل العروض على هذه الأصوات التى فى أيدى الناس، وكان ذكيا فطناً عالماً بأيام الناس وأخبارهم، وكان مع ذلك شاعراً مفلقاً، وأديباً بارعاً، وله أيضاً فى الألحان والنغم كتاب معروف، وهو صاحب كتاب «العين» الذى جمع فيه أصول الكلام للعرب كلها.

حدثنى محمد بن يزيد المبرد، قال حدثنى أبان بن رزين البصرى قال: زعم يونس النحوى أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر اللغات، ذكاء منه وفطنة.

فمعرفة الخليل كانت معرفة يمكن أن تسمى -بمنطق عصرها- شمولية لأنه رجل عالم بالنحو والغريب، وهو ريادة تاريخية على طريق التأصيل لعلم العروض، ثم هو لا يخوض فى كل ما يتصدى له إلا عن أصالة فى الطبع. فقد لا نتصور أن الخليل صادف العروض هكذا فى سكة القصارين بالبصرة، ولكن من المؤكد أن هذا العروض كان همه الشاغل الذى يفكر فيه بياض نهاره وسواد لياليه، فما إن صادف بداية الخيط فى إيقاع الكدين حتى تفجر فيه شلال العمل على جمع ما تناثر فى كل الشعر العربى من إيقاعات، وحصرها على النحو التاريخى المعجز بحق، ليس ذلك فحسب، ولكن الخليل كان كذلك عالماً بأيام الناس وأخبارهم، وكان شاعراً وأديباً، وله بصر بالألحان والنغم، ثم هو ريادة أخرى أعظم وأضخم على الطريق التأصيل للمعجم العربى، حين تصدى لجمع اللغة فى كتابه الرائد (العين)[2]، وكان إلى جوار أولئك

---

(١) الكدين: فارسية جمع كدينة، أى مدقات القصارين.

(٢) لا نهمل فى هذا الصدد الخلاف الكبير فى نسبة (العين) إلى الخليل ولكننا لا نجد البديل المقنع لهذه النسبة التاريخية، التى تؤكد على الأقل نسبة النصف الأول إلى صاحبه.

كله يستدل -كما يقول يونس- بالعربية على سائر اللغات.. فإذا أضفنا إلى ذلك جميعه رسوخه فى الذاكرة العربية المثقفة كأحد القلائل العدول الذين يمكن أن يعتد بآرائهم ومصدريتهم الموثوقة، كما حدث فى قصة الليث بن نصر هذه التى تؤكد أن كتاب الخليل كان عشقه الأول، حتى إنه حفظ نصفه، وحتى إن زوجته المشتعلة بالغيرة لم تجد ما تفجعه فيه من مال أو ولد غير هذا الكتاب الأثير، وحتى إن الرجل طلبه -بعد احتراقه وموت الخليل- (فى الدنيا كلها) وحتى إنه جمع -بعد يأسه البادى- علماء أهل زمانه لينسجوا على منواله فعجزوا عن المشى فى مجرد غباره.. إذا أضفنا هذه القيم الجليلة التى ترشح صاحبها لصدارة الشمول المعرفى ووثوقيته معاً، عرفنا إلى أى مدى ينبغى أن تكون (ثقافة الناقد) ومن هو الرجل الذى يمكن أن يضيف إلى الظواهر الفنية والفكرية بعداً نقدياً أو تأصيلياً ربما يفوق حجم الظاهرة ذاتها، وهذا هو الدور الذى نهض به الخليل بجدارة هائلة.. فهل يستطيع الآن أن نتصور مثلاً كيف كان يمكن أن يكون شكل العروض العربى والمعجم العربى معاً لولا جهود هذا الرائد الجليل؟

ويحدد ابن المعتز داخل إطار ثقافة الناقد - طبيعة المسئولية التى يستشعرها حيال جمهوره القارىء أو المتلقى وهى مسئولية يراها الناقد جزءاً من صميم رسالته النقدية، ويرى أن التخلى عن بعضها يمكن أن يتحيف المضمون النهائى لعمله النقدى، فهو يحيل قراءه على دواوين الشعراء حتى يستحث فى هؤلاء القراء نزوعهم إلى المشاركة فى تشكيل العملية الفنية، لا أن يستسلموا لمجرد التلقى عن هذا الذى يساق إليهم كاملاً أو مبتوراً، صحيحاً أو غير صحيح.. فإذا ندرت هذه الدواوين، ولم توجد عند كافة المثقفين، فإن مسئولية الناقد حينذاك تحتم عليه أن يضع أمام قرائه مجموعاً صالحاً من هذا الشعر، حتى يكون ذلك اقتراباً حقيقياً من كمال الفائدة، أو فائدة الكمال.

يقول ابن المعتز:

(ومن أراد شعر القوم على الوجه، فإن دواوينهم موجودة، ولا سيما هؤلاء المشهورين عند أكثر الناس، فأما من ليس يوجد شعره إلا عند الخواص، فسنضمن الكتاب لهم قطعة صالحة، وصدراً وافراً، ليكون أكمل للفائدة عندنا)(٣).

فهنا تحريض غير مباشر على رؤية الشاعر من خلال ديوانه كله، لأن ذلك وحده هو الذى يحقق للمتلقى لقاءه بشعر القوم (على الوجه) وبخاصة إذا كانت دواوين الشعراء موجودة غير مفقودة ولا نادرة، فإذا لم يتحقق هذا الكمال المنشود، فلا أقل من أن يتحمل

(٣) ابن المعتز طبقات الشعراء ص٤٧، ٤٨.

الناقد عبء توصيل حد من الإبداع القارىء، حتى يوفر له أساساً يلتقى فوقه مع أوضد هذا الإبداع.

وحين يتحدث ابن المعتز عن قضية (ثقافة الشاعر) نراه يركز فى هذا الحديث على محورين متوازيين: محور ضرورة الثقافة العامة.. ومحور ضرورة الثقافة الشعرية.. لأن الثقافة العامة هى الخلفية الفكرية التى ينزع عنها الشاعر فى إبداعه الشعرى، وبمقدار ما يحصل الشاعر منها يصبح ذا أفق عريض أو ضامر، وذا رؤية شمولية أو أنانية.. ويلوح ابن المعتز من خلال هذه السياقات دافعاً إلى حتمية امتلاك هذه الثقافة، وإلى تقدير الشاعر الذى يمتلك منها أعرض ما يمتلك سواه.. ثم لأن الثقافة الشعرية هى المدخل الطبيعى لقدرة الشاعر إلى عالم التعبير بشكل فنى جدير بالبقاء، وكلما كان الشاعر أعرف بالموروث الشعرى، وأوعى لتقاليده وقوانينه وتطوره، كلما كان أقدر على تمثيل تجاربه الفنية بصورة أعمق، ومن ثم على نقل هذه التجارب بصورة أكمل، فجزء لا يتجزأ من طبيعة تشكيل التجربة طبيعة إحساسنا، وهذا هو مناط التفوق فى إبداع المبرزين.

وابن المعتز فى تراجمه لعديد من الشعراء يركز بشكل أولى على منحى أولئك الشعراء فى امتلاك نوعية شمولية من الثقافة العامة، فاسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى (كان شاعراً ظريفاً، حسن النمط، مطبوعاً جداً، محكم الشعر مع ذلك، وكان أحذق الناس بسوق الأحاديث والأخبار والمناقب فى الشعر، لم يترك لعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فضيلة معروفة إلا نقلها فى الشعر)[4] .. وأبو نواس كان على تفوقه الشعرى ضارباً بسهم فى علوم كثيرة متشابكة: (ومما يذكر من خصال أبى نواس المحمودة، ما حدثنى به أحمد بن أبى عامر قال: حدثنى سلمان شحطة قال: كان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وقد تأدب بالبصرة وهى يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين)[5].

ومن هذا المنطلق كان أبو نواس يدعو بشكل تقدمى إلى الإيغال فى المعرفة، لأن امتلاك المعرفة مشروط بحتمية الإيغال فى بحارها المترامية. فقد حدث محمد بن زياد بن أبى هفان قال: (قال لى أبو نواس: الشره فى الطعام دناءة، وفى الأدب مروءة، وكل من حرص على شىء فاستكثر منه سكن حرصه، وقرت عينه غير الأدب، فإنه كلما ازداد منه

(٤) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص٣٢.

(٥) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص٢٠١.

صاحبه ازداد حرصاً عليه، وشهوة له، ودخولاً فيه)[٦].

وقد جسد أبو نواس نفسه حقيقة هذه المقولة التى تضع الشاعر الجائع أبداً للزاد المعرفى على قمة الحضور الإبداعى، فقد حدث إبراهيم بن حرب الكوفى قال: حدثنى بن الدابة قال: (اجتمع أبو نواس ومسلم بن الوليد والخليع وجماعة من الشعراء فى مجلس، فقال بعضهم: أيكم يأتينى ببيت شعر فيه آية من القرآن وله حكمه؟ فأخذوا يفكرون فيه، فبادر أبو نواس فقال:

وفتية فى مجلس وجوههم
ريحانهم قد آمنوا الثقيلا
دانية عليهم ظلالها
وذللت قطوفها تذليلا

فتعجبوا وأفحموا، ولم يأت أحد منهم بشىء، قال محمد بن عبدالوهاب: فسمعت بعد ذلك بمدة بيتاً لدعبل استحسنته وهو:

ويخزهم وينصركم عليهم
وليشف صدور قوم مؤمنينا[٧].

ويركز ابن المعتز على (ثقافة الشاعر الشعرية) تركيزه على (ثقافته العامة) وأكثر، لأن هذه الثقافة الشعرية فى النهاية، هى التى تصقل أداة الشاعر ورؤيته جميعاً، وتجعله باستمرار واعياً لتقاليد موروثة وقادراً على تجاوزه وتخطيه، ومن هنا نشأت فى النقد العربى إشكالية فكرية ما تزال بحاجة إلى درس مستفيض، فالنقاد كانوا يدعون إلى احتذاء القديم من خلال الوعى به وتمثيل تقاليده الثابتة، وكانوا يدعون فى نفس اللحظة إلى حتمية التجديد وأن يكون الشاعر صوت نفسه الخاصة.. ومن خلال هذه الجدلية نشأت إشكالية فكرية تحار بين تمثل الموروث واحتذائه من جهة، وبين تجاوزه والاستواء الفنى على عرش الأصالة الذاتية من جهة أخرى.

ولو أحسن النقاد فى التعبير عن أنفسهم، وارتفعوا فوق مهابط التعصب للقديم وحده أو للحديث وحده لرأينا تناغماً كاملاً فى مقولاتهم بلا تخليط، فالشاعر المحدث مطالب بامتلاك موروثه الشعرى ليس ليتنفس من حوله، وإنما لكى يسلح نفسه بمعرفة طرائق القدماء والمحدثين على السواء في التعبير عن عوالمهم الخاصة، ليشتق لنفسه طريقاً خاصة يحمل من خلالها همومه إلى الناس، رافضاً فى كل آن أن يذوب فى غيره. أو أن يتحدث بصوت الآخرين.

هنا تصبح المعرفة الشعرية بمثابة إرهاف لحد الشاعرية لدى الشاعر، وزخماً فنياً موحياً قد يمده بزاد من تأمل تجارب الغابرين والمعاصرين، فتتسع رقعة الحركة الرؤياوية والحركة التعبيرية عنده فى وقت معاً، وتنحل الإشكالية الفكرية والنقدية إلى لا شىء على وجه التقريب.

(٦) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص٢٠٤.

(٧) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص٢٠٧.

طرائف.. ومواقف

إعداد الأستاذ/ عبدالحفيظ محمد عبدالحليم

الأنس بالله

قال بعضهم: مررت بجماعة يترامون، وواحد جالس منفرد عنهم! فتقدمت إليه، وأردت أن أكلمه، فقال: ذكر الله أشهى!

فقلت: إنك وحدك: فقال: معى ربى وملكان. فأشرت إلى أصحابه، وقلت: من سبق منهم؟ فقال: من غفر الله له.

ثم قام ومشى وهو يقول: أكثر خلقك متشاغل عنك.

نصيحة

أخى:

عف عن المعاصى تكن عابدا.

وارض بما قسم لك تكن غنيا.

وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما.

وصاحب الناس بمثل ماتحب أن يصاحبوك به تكن عدلا.

ثلاث.. وأربع

قال جعفر بن محمد: من كان فيه ثلاث فقد وجب له على الناس أربع: إذا خالطهم لم يظلمهم، وإذا حدثهم لم يكذبهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم، وعلى الناس أن يظهروا عدله، وأن تظهر فيهم مروءته وأن يجب عليهم أُخوته، وأن يحرم عليهم غيبته.

كلام يكتب بالذهب

خطب عبدالملك بن مروان يوما خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديدا، ثم قال:

يارب إن ذنوبى عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبى قال الأصمعى: فبلغ ذلك الحسن فبكى، وقال: لو كان الكلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام.

إياكم لبستين

قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -: إياكم لبستين: لبسة مشهورة ولبسة محقورة وقال بعض الحكماء: البس من الثياب مالايزدريك فيه العظماء، ولايعيبه عليك الحكماء، وقال بعض الشعراء:

إن العيون رمتك إذ فاجأتها.

وعليك من شهر الثياب لباس

أما الطعام فكل لنفسك ماتشا

واجعل لباسك مااشتهاه الناس

أعظم المصائب

قال قتادة: أعظم المصائب مصيبة الدين، ثم الموت، وموت الأب قصم الظهر، وموت الابن صدع فى الفؤاد، وموت الأخ قص الجناح وموت الزوجة حزن ساعة

قال راويه: ولعلها الزوجة السوء!!

الإصابة بالظن

قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ قال: الإصابة بالظن، ومعرفة مايكون بما قد كان.

وقال الشاعر:

وقلما يفجأ المكروه صاحبه

حتى يرى لوجوه الشر أسبابا

وإنما ركب الله العقل فى الإنسان دون سائر الحيوان ليستدل بالظاهر على الباطن، ويفهم الكثير بالقليل.

دعاء

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شر العى والحصر.

﴿ فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

استفتاءات القراء

تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

إعداد الشيخ/ عبدالفتاح الزيات

● **سؤال من سلوى م.م. الرمل - الإسكندرية:**

زوجي عاطفي جداً نحو أبويه ويمدهما بمبلغ من المال من راتبه كل شهر ونحن لسنا في يسر نستغني معه عن هذا المبلغ وقد اعترضت على زوجي في هذا الشأن بحجة أن أبويه رفضا إمدادنا ببعض النقود في وقت كنا في أمس الحاجة إلى مبلغ من المال وأن لوالد زوجي بعض العقارات لو باعها لكفته مدة طويلة وأن زوجي يعيش في معاناة من تأنيب الضمير لأنه قطع ما كان يمد به أبويه من نقود فما حكم الشرع بالنسبة لفعل زوجي هذا؟

●● **الجواب:**

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد بأن الله - سبحانه وتعالى - فرض بر الوالدين على أولادهما في آيات كثيرة من القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى -:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾(1).

وفي آية أخرى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾(2).

فبر الوالدين فرض من الفروض التي أوجبها الله على الأبناء وليس هذا البر مشروطا بفقرهما أو احتياجهما، لأن الولد كسب أبيه كما جاء في

(1) النساء (36).

(2) الإسراء (23).

الحديث الشريف عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: أتى أعرابى رسول الله ﷺ فقال: إن أبى يريد أن يجتاح مالى، قال ﷺ: «أنت ومالك لوالديك إن أطيب ما اكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا»(٣) فالمفهوم من الآيتين السابقتين والحديث أن بر الوالدين واجب ولو كان الأبوان موسرين وذلك قضاء لحقهما على أولادهما من وجوه عدة أقواهما أنهما سبب فى وجوده ونحن ننصح الأخت السائلة بأن تشجع زوجها على وصل ما انقطع من إمداد أبويه ببعض المال وأن تكونى عونا له فى هذا الأمر فإن الله – سبحانه وتعالى – مخلف عليكما بما انفقتما، فإن المال يزكو بالعطاء، وإياك أن تكون عامل فرقة وسببا من أسباب قطع صلة الرحم حتى لايعاملك أبناؤك بهذا الاحساس ولأنه كما تدين تدان ومن يعمل سوءاً يجز به.

هذا إذا كان الحال كما ورد بالسؤال والله أعلم

● سؤال من صبرى عبدالعزيز أبوالسعد. مصر القديمة – القاهرة: بمناسبة ما أثير أخيرا على صفحات الجرائد والتليفزيون حول زواج بعض المصريين من يهوديات وتباين الآراء حول هذه المسألة.. أرجو من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف إفادتنا برأى الشرع فى هذا الزواج.

●● الجواب:

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد بأن الإسلام أباح أن يتزوج المسلم من نساء أهل الكتاب – اليهود والنصارى، وذلك بنص القرآن الكريم: قال تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾(٤).

ونساء أهل الكتاب هن: النصرانيات واليهوديات.. وبالنظر إلى منطوق الآية الكريمة، نلاحظ تقديم المحصنات المؤمنات فى الذكر على المحصنات من أهل الكتاب، وأنه يعطينا إشارة إلى أن الزواج من المؤمنات أولى وأفضل من الزواج من اليهوديات والنصرانيات.. وذلك لاعتبارات كثيرة أهمها: وحدة الدين والعقيدة والمحافظة على النسل من أن تتلاعب به أهواء وأغراض غير المؤمنات من أهل الكتاب.

وربما يكون هذا هو الذى جعل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه – فيما أثر عنه – يحث ويشير على بعض من الصحابة ممن تزوجوا بيهوديات أن يطلقوهن لضمان حسن تربية الأولاد وتنشئتهم نشأة إسلامية سليمة. وإن كان التفاهم فى الحياة الزوجية يمكن أن يتخطى هذه المسائل إلا أن التوافق العقدى من أهم الروابط الأسرية حتى لاتذوب العقيدة أو تختلط لدى الأبناء فتقع المحاذير وتنتهك الحرمات ويصبح هذا الزواج سببا قويا للتحلل من الدين والتفسخ الأسرى بلا داع وهذا بداية للانزلاق إلى الهاوية يؤدى إلى سوء المنقلب. والسبب نزوة طارئة أو انفعال مؤقت ومالنا لانتخذ من حديث رسول الله ﷺ «فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك»(٥) – وقوله: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»(٦)

---

(٣) مسند الإمام أحمد.
(٤) المائدة (٥).
(٥) البخارى ٩/٧.
(٦) شرح السنة ١١/٩.

ولن تكون المرأة صالحة إلا إذا كانت مسلمة حقا، وعلى شبابنا وأبنائنا أن لاينساقوا وراء نزواتهم وعواطفهم وأن يبتعدوا ما أمكن عن الهبوط فى هذا الدرك وليعلموا أن فى بناتنا وفتياتنا الخير كل الخير وهن أفضل ألف مرة من غيرهن، والله الموفق، هذا إذا كان الحال كما ورد بالسؤال والله أعلم.

● **سؤال من ج. س. - الوادى الجديد:**

زوج أثبت الطب أنه غير قادر على الإنجاب ولكنه لشدة حبه لزوجته أخفى عليها هذا الأمر، وهذه الزوجة أثبت الطب - أيضا - أنها صالحة للإنجاب وليس بها أى عيب يمنع ذلك. فوقعت هذه الزوجة فريسة للحيرة والقلق إلى أن وقعت فى أيدى إحدى الدجالات التى أوهمتها أنها قادرة على حل مشكلتها فانخدعت هذه الزوجة وانساقت وراء هذه الدجالة التى أعطتها صوفة مغموسة فى منى رجل آخر على أن تضعها فى فرجها، وبعد فترة من الزمن حدث الحمل فعلا فلما علم الزوج اتهم زوجته بالزنا بناء على حالته المرضية وتقارير الأطباء.

فما موقف الشرع من هذا الحمل الذى جاء عن هذه الطريقة، وهل تعتبر الزوجة زانية فى هذه الحالة، وهل يباح إجهاض هذا الحمل؟ وإذا بقى الحمل فلمن ينسب؟ نرجو الإجابة الشرعية لهذه الحالة، ولكم من الله حسن الجزاء.

●● **الجواب:**

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه نفيد:

بأن نطفة الرجل لاتتخلق الا إذا وصلت إلى رحم المرأة المستعد لقبولها عن طريق الاتصال الجنسى المعتاد بين الزوجين وعندئذ يكون نسب الولد من هذا الاتصال إلى أبيه قطعا. وذلك لحديث رسول الله - ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»(٧)، وقد يكون الاتصال عن طريق إدخال نطفة الزوج فى رحم زوجته - بغير الاتصال الجسدى المعتاد، وذلك لما جاء عن أبى حنيفة - رضى الله عنه - فى البحر الرائق - «إذا عالج الرجل جاريته فيما دون الفرج فأخذت الجارية ماءه فى شيء فا ستدخلته فرجها فى حدثان ذلك «أى لحظة الإنزال» فعلقت الجارية وولدت فالولد ولده، والجارية أم ولد له» ومن هذا يتبين أن الصلة العضوية بين الزوجين والاختلاط الجسدى هو الوسيلة الأساسية لإفضاء كل منهما إلى الآخر.

أما إذا أدخلت الزوجة منى رجل آخر غير زوجها إلى فرجها فإن هذا يكون محرما شرعا لما يترتب عليه من اختلاط الأنساب ونسبة الولد إلى أب لم يتخلق من مائة، وهذا الإدخال إذا حدث الحمل بسببه يكون فى «معنى الزنا» والزنا محرم فى كل الشرائع السماوية. أما عن التساؤلات التى وردت فى السؤال. فنجيب:

بخصوص حدوث الحمل نتيجة استدخال الزوجة صوفة مغموسة بمنى رجل غير زوجها ممكن ومحتمل ويعتبر الحمل حمل سفاح إذا ثبت ذلك.

ولايقام على هذه الزوجة حد الزنا، لأن هذا الحد إنما يقام على المباشرة الجنسية الفعلية وثبوت ذلك بالإقرار به أربع مرات أو شهادة أربعة شهود بواقعة الزنا أمام القضاء.

---

(٧) رواه الجماعة.

وأما بالنسبة لإباحة الإجهاض فى هذه الحالة فنقول: إن هذا الجنين نفس محترمة له مقومات النفس الإنسانية منذ انعقاد الحمل، ومن ثم يحرم على هذه المرأة أن تجهض نفسها تخلصا من هذا الجنين، ولايحتج هنا بقاعدة: «الضرورات تبيح المحظورات».

وعن نسب الولد نقول: إذا استكمل الحمل الموصوف فى هذه الواقعة أشهره الرحمية ووضعته أمه كان نسبه إلى الزوج ثابتا بحكم الفراش القائم بين الزوجين وذلك للحديث السابق: «الولد للفراش..» فإذا أنكر الزوج أنه منه وأقام الدليل الصحيح وأنه عقيم حتى تاريخ هذا الحمل وطلب من القضاء نفى نسب هذا الطفل إليه، قضى له بذلك، وفى هذه الحالة لاينسب هذا المولود اليه وإنما ينسب إلى أمه التى ولدته باعتبار أن الولادة واقعة مادية لايمكن إنكارها.

فإن عجز الزوج عن إثبات الواقعة لسبب أو لآخر، ثبت النسب إليه بالقرينة الشرعية وباعتبار أن العقم قد يزول فيبرأ من عقمه ويصير صالحا للإنجاب، وإثبات النسب فى هذه الحالة أولى من نفيه خصوصا وأن التقدم فى مجال الطب فتح آفاقا واسعة، وأحيا آمالا كانت فى حكم المعدومة، وفى النهاية فإن قدرة الله فوق كل شىء وهو على كل شىء قدير.

هذا إذا كان الحال كما ورد فى السؤال والله أعلم

● السيد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف مقدمة لفضيلتكم/ جمال بيومى كساب - شبين القناطر:

نرجو من فضيلتكم الإجابة الشرعية عن سؤالنا هذا:

نهينا عن الاسراف فى الماء ولو كنا على نهر جار، ونصيب الفرد من الماء فى تناقص مستمر ونجد كثيراً من الناس يرشون المياه النقية أكثر من مرة فى اليوم الواحد أمام محلاتهم وبيوتهم، فما حكم الدين فى ذلك وهل يُعد هذا من الاسراف المحرم؟.

●● الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وبعد

فالإسراف حرام سواء كان فى الماء أو غيره لقول الله - تعالى -:

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾[8] ويبين المولى - عزوجل - أن المسرفين والمبذرين بإسرافهم وتبذيرهم أصبحوا إخوة الشياطين فقال - تعالى -:

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[9].

وإذا كان المولى - عز وجل - نهانا عن الاسراف والتبذير فى الأكل والشرب فأولى بنا ألا نسرف فى استعمال المياه سواء فى الوضوء أو الغسل أو الرى أو رش الشوارع، لأن هذا مضيعة لثروة المياه وبالنسبة لرش الشوارع لايصح إلا فى الضرورة القصوى ولايكون بالمياه النقية وإنما يكون بالمياه المستعملة فى الوضوء وغسل الملابس ونحوها هذا والله ولى التوفيق.

---

(٨) الأعراف (٣١).

(٩) الإسراء (٢٧).

خطبة الجمعة :

الإسلام وروابط المجتمع

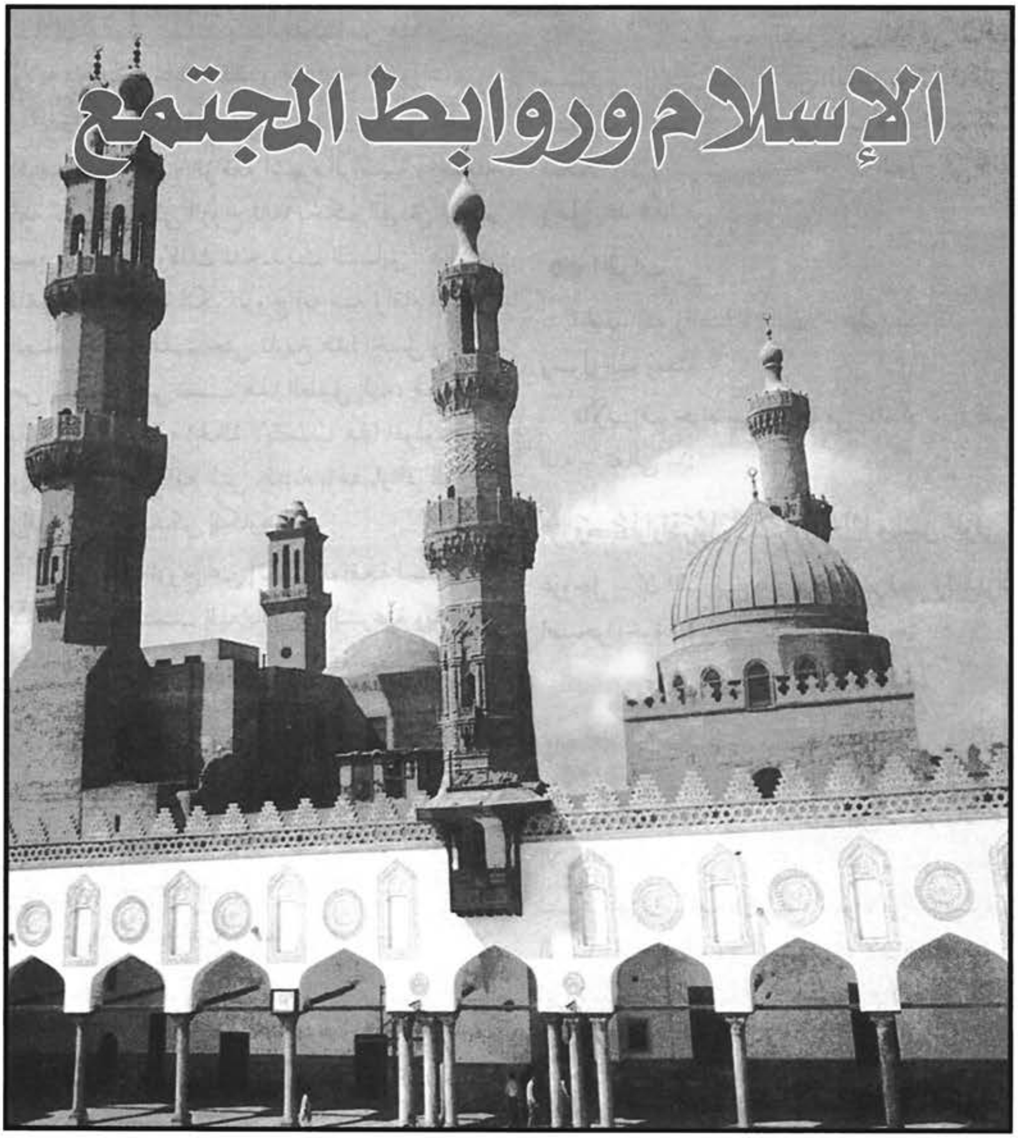

لفضيلة الأستاذ الدكتور / أحمد الشرباصي

الحمد لله عز وجل، هو رحمن الدنيا والآخرة، وقيوم السماوات والأرض، والهادى إلى الصراط المستقيم، أشهد أن لا إله إلا الله، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله، القائل له ربه:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾(٢).

فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى ذريته وأنصاره وأهل صحبته، والقائمين بأمر دعوته:

﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾(٣).

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام:

لقد جاء الإسلام ليوثق علاقة المؤمن بالمؤمن على أكرم أساس، وفى ضوء أطهر نبراس، ومن أجل هذا أقام مجتمعه على أساس «الأسرة» باعتبار أنها اللبنة المتينة الحصينة التى تجعل روابط هذا المجتمع عميقة وثيقة، لأن الأسرة تتكون من شريكين يرتبطان بعقد توثقه كلمة الله، ثم تكون للزوجين حياة مشتركة، وعواطف متجاوبة، ثم تكون لهما ذرية تزيد روابط الأسرة وثاقة وعمقاً، ولم يجعل الإسلام معنى «الأسرة» مقصوراً على حياة هذين الشريكين وبيتهما، بل علم أبناءه أن ينظروا إلى الحى أو القرية أو المدينة على أنها «أسرة» أكبر نوعاً من أسرة البيت، وأن ينظروا إلى أمتهم المؤمنة على أنها الأسرة الكبيرة الواسعة النطاق، إنما المؤمنون إخوة وأن الإنسانية أو البشرية هى الأسرة الكبرى التى تنتهى إليها غاية الإنسان وعزيمته بعد أن يكون قد أدى ما عليه من واجبات وتبعات نحو ما يسبق هذه الأسرة الكبرى من أسر أخرى أضيق منها نطاقاً، وهى بحكم ضيق نطاقها، وبحكم قربها من صاحبها أولى بالتقديم والعناية والاهتمام، ولذلك قال رسول الإسلام ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»(٤)، ثم قرر أن أقرب الأقربين أولى بالمعروف، ثم أوصى بالجار القريب والجار البعيد، ثم قرر أن المؤمنين إخوة ثم قرر أخيراً أن خير الناس أنفعهم للناس.

ولتوثيق الروابط الإنسانية بين الأفراد شَرَّع الإسلام نظام «الميراث» الذى يحفظ كيان الأسرة ويدعمه، ويوثق الروابط بين الأقرباء

(١) الأعراف ٥٦.

(٢) آل عمران ١٥٩.

(٣) فاطر ١٨.

(٤) البيهقى ٤/ ١٧٨، ١٠/ ٣٠٩.

وشَرَّع نظام «النفقة» بين الأصول والفروع أو بين الأقارب ليحقق التكافل بين هؤلاء وهؤلاء، وشَرَّع نظام «الحضانة» الذى يصون الطفولة من التشرد والضياع، وشَرَّع نظام «الوصاية» على القاصر، لكى يتصرف الوصى الرشيد بدله تصرفاً سليماً حكيماً يؤدى إلى خير القاصر وحفظ ممتلكاته وتثمير أمواله، فإذا كبر القاصر أدرك أن سابقيه قد صنعوا معه الجميل فيقابلهم بمثله. وشَرَّع نظام الحَجْر على السفيه الذى لا يحسن التصرف حتى لا يبدد ماله ولا يضيع ثروته، وهناك نظام «الكفالة لليتيم» و«الكفالة للقيط» و«الضيافة للغريب» و«الإرشاد للضال»، وكل هذه نظم أراد الإسلام بها أن يعمق الصلات بين الفرد والفرد، وأن يقيم العلاقات بين أبناء الأمة على أسس من الإخوة والمحبة والتعاون على البر والتقوى.

ولتوثيق هذه العلاقات شَرَّع الإسلام آداباً وقواعد للمعاملة الاجتماعية الحميدة فى الأمور الكبيرة والأمور الصغيرة، حتى شملت هذه الآداب النظرة واللفتة والكلمة والتحية وهيئة الحركة، فالإسلام يحث المسلم مثلاً على أن يُحْسِن القول ويبذل التحية لمن يلقاه عَرفَه أم لم يعرفه، حتى يشيع التعارف والتآلف، فيقول سيد الخلق محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحُسْن الكلام»[٥]. ويحرضه على مصافحة معارفه حتى يتأكد الود بينه وبينهم، وتزول عنهم ما قد يكون غائماً فى أفق صلاتهم وروابطهم، ولذلك يقول الحديث: «ما مِنْ مُسْلِمَيْنِ يلتقيان فيتصافحان إلا غُفِرَ لهما قبل أن يتفرقا»[٦]. ويحرضه على أن يتذكر دائماً أنه ليس وحده فى بيئته ومجاله، بل هناك من قد يكون أحق بسبقه فى ركوب أو نزول أو مسير أو تناول شىء من الأشياء، إلى غير ذلك من الأوضاع. وها هو ذا القرآن يُعَلم أهله مثلاً أن يوسعوا فى المجلس أو يُخْلوا مكاناً فيه لمن يستحق التوسعة أو النهوض، فيقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٧].

والحديث النبوى يعلمنا فى هذا المجال أن نُكَرِم الشيخ الطاعن فى السن، والمرأة العجوز أو الحامل، والضعيف مهما يكن، فيقول: «ما أكْرَم شاب شيخاً لسنه إلا قَيَّضَ الله له من يُكْرِمه عند سنه»[٨] أى عند شيخوخته، وفى رواية: «من أكرم ذا شيبة سَخَّرَ الله له من يكرمه عند شيبته» ويقول أبو بكر الصديق - رضى الله عنه -: «الضعيف أمير الركب» ويقول الحديث الشريف:

(٥) الترغيب والترهيب ٤٢٦/٣.
(٦) البيهقى ٩٩/٧.
(٧) المجادلة (١١).
(٨) ابن عدى ٨٩٨/٣.

« ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر »[٩]. ويعمم الرسول الحث على الرحمة والرفق بالضعفاء وتقديم من يستحق التقديم فيقول: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[١٠]، ويوسع الإسلام باب الإحسان فى المعاملة وييسر أسبابه، فنجد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يخبرنا بأن الكلمة الطيبة صدقة، وأن التبسُّم فى وجه الإنسان صدقة، وأن إعطاء القليل من الماء صدقة، وكأن الإسلام بهذا يريد أن تتحلى كل ألوان المساعدات للناس بحلية إلهية ربانية تؤدى إلى جمالها وبهائها فى الدنيا، وإلى حُسْنِ الثواب عليها فى الآخرة.

ومن حرص الإسلام العظيم على توثيق الروابط الكريمة بين الناس أنه دعا إلى معاونة الإنسان غيره للاستقامة فى السلوك والتحلى بالمكارم، وذلك عن طريق النصح الرقيق والتوجيه الرفيق، ومن هنا قال سيد البشرية محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « الدين النصيحة »[١١] وقال: « المؤمن مرآة المؤمن »[١٢] وقال: « إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذى فليمطه عنه »[١٣]. ومن ألوان التعاون على هذه الاستقامة أن يحسن المرء الإغضاء عما يقع فيه صاحبه من هفوة أو خطأ، فالحديث يقول: « من أقال مسلماً من عثرته أقاله الله يوم القيامة »[١٤]، ويقول: « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس »[١٥] ويقول: يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تتبعوا عورات الناس، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ففضحه ولو فى عقر بيته »[١٦]. ولا يكتفى المسلم فى هذا الباب بالإغضاء عن الزلة، أو العفو عن الخطأ، بل هو لا يتيح الفرصة للمفسدين كى ينالوا الناس بالتجريح أو الافتراء، فما أوسع باب الشر فى هذا المجال، والحديث يقول: « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار »[١٧].

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام:

فليكن الإنسان منا فى هذه الحياة بحسن معاملته للناس، وجميل سلوكه معهم ـ وردة تنفح غيرها بالشذا الطيب والعبير اللطيف، فإذا رآها الناس شُغفُوا بها وحرصوا عليها، وإن غابت عنهم طلبوها وسعوا إليها.

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١٨].

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾[١٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[٢٠].

---

(٩) ابن عدى ٩١٨/٣.

(١٠) البيهقى ٤١/٩.

(١١) البخارى ٢٢/١.

(١٢) البيهقى ٣٧٥/٣.

(١٣) الترمذى ١٩٢٩..

(١٤) اتحاف السادة المتقين ٢٥٦/٦

(١٥) اتحاف السادة المتقين ٤٣٨/٧، ٤٦٥، ٥٤٨.

(١٦) سنن أبى داوود ٤٨٨٠.

(١٧) مسند أحمد ٤٥٠/٦.

(١٨) العنكبوت (٦٩).

(١٩) المائدة (٨٨).

(٢٠) النحل (١٢٨).

الإنفاق في سبيل الله

لفضيلة الشيخ / فوزى فاضل الزفزاف (*)

جُبلت النفس البشرية على حب المال وجمعه واكتنازه، كما طبعت النفس البشرية على الشح والبخل والإمساك بالمال، فالمال هو زينة الحياة الدنيا وبهجتها، ومن شدة حب الإنسان للمال وتعلقه به وتطلعه إليه قدمه الله - سبحانه وتعالى - على الأولاد فى حب الإنسان لتملكه والزهو والافتخار به، فقال - سبحانه وتعالى -:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(1).

كما أن إغواء المال شديد، وسيطرة الرغبة فى اقتنائه قوية، وشهوة حب تملكه عنيفة يقول الله – تعالى –:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(2).

وخطب ابن الزبير – رضى الله عنهما – على منبر مكة فقال: أيها الناس إن النبى ﷺ كان يقول:

« لو أن ابن آدم أعطى واديا مـلآن من ذهب أحب إليه ثانيا، ولو أعطى ثانيا أحب إليه ثالثا، ولايسد جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب » (3).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: « قَلب الشيخ شابَ على حب اثنتين: طول الحياة وكثرة المال »(4).

واقتضت حكمة الله – سبحانه وتعالى – من باب الاختبار والابتلاء أن يتفاوت الناس فى الغنى

(*) وكيل الأزهر السابق.

(1) الكهف (46).

(2) آل عمران (14).

(3) رواه البخارى 8/115.

(4) مسند الإمام أحمد 2/358.

والفقر، وفى السعة فى المعيشة، والضيق فيها، وفى الرزق الكثير الواسع والرزق القليل الضيّق، يقول الله – تعالى – :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾(٥).

ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٦).

كما اقتضى عدل الله – سبحانه وتعالى – أن يدّخر الآخرة لفقراء الدنيا الراضين الحامدين المتعففين فيعطيهم من فضله وكرمه ونعمه ما يجعل غنيّ الدنيا يتمنى فى الآخرة عندما يرى مكانة هؤلاء الفقراء عند ربهم فى الآخرة ومنزلتهم فى الجنة أن لو كان ضمن فقراء الدنيا، فعن عبدالله بن عمرو – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال: «يجتمعون يوم القيامة، فيقال: أين فقراء هذه الأمة؟ قال: فيُقال لهم: ماذا عملتم؟ فيقولون: ربَّنا ابْتُلينا فصبرنا، ووليت الأموال والسُّلطان غيرنا، فيقول الله – جل وعلا: صدقتم. قال: فيدخلون الجنة قبل الناس ويبقى شدَّةُ الحساب على ذوى الأموال والسلطان. قالوا: فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: يوضع لهم كراسىٍّ منْ نور ويُظلَّلُ عليهم الغمامُ يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار»(٧).

ولذا نرى رسول الله ﷺ كان يحب الفقراء والمساكين، ويحرص على القُرب منهم لمكانتهم ومنزلتهم عند الله – تعالى –، بل كان يدعو الله – سبحانه وتعالى – أن يحُشر معهم، فعن أنس – رضى الله عنه –: أن النبى ﷺ قال: «اللهم احينى مسكينا، وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة، فقالت عائشة: لم يارسول الله؟ قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا، يا عائشة لاترُدِّى مسكينا ولو بشق تمرة، يا عائشة حبِّى المساكين وقرِّبيهم فإن الله يُقرّبك يوم القيامة»(٨).

وتحقيقا للعدالة الاجتماعية، ولكى يعيش المواطنون فى المجتمع الإسلامى عيشة تسودها المحبة والمودة، والصلة والرحمة، والترابط والتلاحم، فرض الله زكاة المال على الأغنياء، ولم يجعلها منحة من الأغنياء تخضع لأهوائهم ورغباتهم إن شاءوا أخرجوها وإن شاءوا منعوها، بل جعلها ركنا من أركان الإسلام الخمسة، يقول الرسول ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن

(٥) النحل (٧١).
(٦) الزخرف (٣٢).
(٧) كنز العمال (٣٩٣٩٢).
(٨) الترمذى (٢٣٥٢).

استطاع إليه سبيلا »(٩)، وجعلها حقا مفروضا إخراجه لاتهاون فيه ولاتقصير ولاتأخير، يقول الله – تعالى –:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١٠).

ويقول – عز وجل –:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾(١١).

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾(١٢).

ولأهمية الزكاة بصفتها ركنا من أركان الإسلام، ولأهمية الآثار المادية والاجتماعية المترتبة على إخراجها سواء بالنسبة لمن يخرجها أو لمن يستحقها اهتم الإسلام اهتماما بالغا بها، فقد ورد الأمر بإخراج الزكاة صراحة «أى بلفظ الزكاة»، أو الثناء على من يخرجون الزكاة فى أكثر من ثلاثين آية فى القرآن الكريم، بخلاف الآيات الكثيرة الأخرى التى تتضمن الإشارة إلى الزكاة والحث على إخراجها.

وقد تضمنت كتب الفقه الإسلامى شروط إخراج الزكاة، والنصاب المقرر فى جميع أنواع المال: من ذهب وفضة، وأوراق مالية، وعروض التجارة، والمحاصيل الزراعية، والأنعام على اختلاف أنواعها.. الخ.

كما حدد القرآن الكريم مصارف الزكاة فى قوله – تعالى –:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١٣).

ولأن لله – سبحانه وتعالى – علام الغيوب، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ويعلم طبيعة النفس البشرية وحبها للمال فهو خالقها وبارئها، حذر من اكتناز المال وعدم انفاقه، حتى لايكون للإنسان حجة أمام الله يوم الحساب فقال – سبحانه وتعالى –:

وقال جل وعلا:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾(١٤).

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا «الحية الذكر» أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه

---

(٩) البخارى ٩/١.
(١٠) التوبة (١٠٣).
(١١) البقرة (٤٣).
(١٢) الأنعام (١٤١).
(١٣) التوبة (٦٠).
(١٤) التوبة (٣٤، ٣٥).

« عظم اللحى تحت الأذن »، ثم يقول له : أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا - ﷺ - :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾(١٥)

وصدقة المال ليست قاصرة على الزكاة المفروضة فقط، وهذا خطأ يقع فيه كثير من الناس، فالزكاة فرض لافضل للمسلم فى إخراجها لأنها ركن من أركان الإسلام.

غير أن فضل الله - سبحانه وتعالى - على عباده - فهو الرءوف الرحيم - يثيب ويمنح مخرج الزكاة المفروضة ثوابا وحسنات وأجرا يوم القيامة، يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يجعله يفرح بما أخرج فى دنياه من زكاة المال، ومن عظم الأجر والثواب والنعيم الذى يلقاه لو كان قد أنفق كل ماله صدقة فى دنياه.

فعن فاطمة بنت قيس - رضى الله عنها - قالت : سألت أو سئل النبى ﷺ عن الزكاة فقال : إن فى المال لحقا سوى الزكاة ثم تلا :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾(١٦).

ويقول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾(١٧).

ويقول - جل وعلا - :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾(١٨).

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولاتلام على كفاف، وأبدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى »(١٩)، وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « أيما مسلم كسا مسلما ثوبا على عرى كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلما على ظمأ سقاه الله - عز وجل - من الرحيق المختوم »(٢٠).

وخير الصدقة وأفضلها عند الله - تعالى - ما كانت على الأهل وذوى القربى، وأن يخرجها الإنسان وهو فى شبابه وصحته

(١٥) البقرة (٢٥٤).
(١٦) البقرة / ١٧٧.
(١٧) المنافقون/ ١٠.
(١٨) آل عمران / ٩٢.
(١٩) الترمذى (٢٣٤٣).
(٢٠) الترغيب والترهيب ١١٧/٣.

وقوته، فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «دينار أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك. أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك»(٢١)، وسئل النبى ﷺ عن الصدقة على القريب فقال: «له أجران أجر القرابة وأجر الصدقة» ولفظه «الصدقة على المسكين صدقة، وهى على ذى الرحم ثنتان صدقة وصلة»(٢٢)، وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يارسول الله أى الصدقة أعظم أجرا؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولاتمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان»(٢٣).

ولقد أدرك كثير من الصحابة - رضوان الله عليهم - بصدق عقيدتهم، وقوة إيمانهم، وصفاء قلوبهم ونقاء سريرتهم، وحبهم الذى لا حدود له للخير، وزهدهم فى الدنيا - أدركوا أن المال الذى فى ايديهم هو مال الله استودعه عندهم لإنفاقه فيما يرضى الله وفيما ينفعهم فى الدنيا والآخرة وأنهم سيحاسبون عليه حسابا عسيرا، وأن الدنيا عرض زائل، وأنهم سيغادرون الدنيا بأكفان تسترهم فقط إلى قبور موحشة، لاحول لهم فيها ولاقوة، ولاصديق لهم فيها ولاخليل، قبور لاتنقل إليها خزائن حفظ المال، بل إنهم سيتركون أموالهم لورثة يتنعمون بها، وينفقونها فيما يشتهون حلالا كان أم حراما.

آمن هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم - بأن ما عند الله هو خير وأبقى، وأنه الرصيد الذى ينفعهم فى أخراهم، فلم يكتفوا بإخراج زكاة أموالهم المفروضة فقط، بل سارعوا بإخراج أموالهم فى سبيل الله وأقاموا تجارة رابحة مع الله، ووصل الأمر ببعضهم إلى قيامه بتجهيز جيش كامل للمسلمين على نفقتهم الخاصة..

ولقد سجل التاريخ أمثلة رائعة لهؤلاء الصحابة منهم: سيدنا أبوبكر الصديق - رضى الله عنه -، وسيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنه -وسيدنا عبدالرحمن بن عوف - رضى الله عنه - تدل على مدى قوة إيمانهم بالله، وهوان الدنيا فى نظرهم.

***

(٢١) البيهقى ٧/٤٢٧.

(٢٢) مسلم، كتاب الجهاد.

(٢٣) البخارى ٢/١٧٧.

رسالة .. و .. رد

لفضيلة الشيخ / عبد الفتاح سيد جمعان

● رسالة هذا العدد وردت من قارئ وقعها بـ «مسلم غيور على دينه يبحث عن الصواب» يقول فيها: قرأت فى «سورة محمد» الآية رقم ٣٥ وفهمت منها أنه ليس من حق المسلمين أن تهون عليهم نفوسهم ويتهافتوا علي السلم بأى ثمن حتى ولو كان هذا الثمن كرامتهم، وأجدنى أشعر أن المسلمين فى هذه الأيام تركوا العمل بهذه الآية وهم يطلبون السلم بأى ثمن والعدو يقتل الأطفال والنساء يوميا بالإضافة إلى الكثير من المخازى التى نراها على شاشة التليفزيون. فهل معنى الآية كما فهمت؟ وإذا كان المعنى كما فهمت فما العمل؟ ولماذا نحن هكذا؟ وهل نحن محاسبون على تفريطنا فى العمل بهذه الآية والأمر الذى تضمنته من الله؟ أفيدونا أفادكم الله.

هذه هى رسالة الأخ المسلم الغيور بنصها تقريبا وفي البداية أشكره على ثقته فى مجلة الأزهر مجلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها كما أشكره على تقريظه القائمين على تحرير المجلة ثم أقول له: إن المعنى الذى فهمته من الآية لا يبعد كثيرا عن المراد منها، فقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾(١).

فبين سبحانه أن الكفار لا حرمة لهم فى الدنيا والآخرة ولذا أمر بقتالهم، وبين أن النصر عليهم حليف المؤمنين لا محالة فقال:

﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ ﴾(٢).

والمعنى: فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين وتجبنوا عن قتالهم وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة خوراً وإظهاراً للعجز وأنتم العالون الغالبون والله معكم بنصره

(١) سورة محمد آية (٣٤).

(٢) سورة محمد آية (٣٥).

وتأييده ولن يظلمكم بانتقاص أجوركم على القتال والشهادة.

قال الفخر الرازى في تفسيره: مفاتيح الغيب:

وفى الآيات ترتيب فى غاية الحسن وذلك لأن قوله تعالى:

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾(٣).

يقتضى السعى فى القتال لأن الله ورسوله أمرا به وقد أمروا بالطاعة فذلك يقتضى ألا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون فإن علمتم ذلك فلا تهنوا وأنتم الأعلون بالإيمان وحتى لا يعجب المؤمنون بأنفسهم لأنهم الغالبون قال: «والله معكم»(٤) أى أن هذه الغلبة ليست من أنفسكم بل من الله ـ تعالى ـ »(٥).

وقال الألوسى فى تفسيره (رُوح المعانى): (واستدل بعض العلماء بهذه الآية على منع مهادنة الكفار إلا عند الضرورة وعلى تحريم ترك الجهاد إلا عند العجز)(٦).

وعليه فإن بعض العلماء أباح المهادنة وطلب السلم عند العجز والضرورة ولا عجز أشد مما فيه المسلمون اليوم فقد صاروا فى حالة من العجز والضعف والوهن ليس لها مثيل بسبب تركهم دينهم وتفرق كلمتهم مع أن دينهم دين التوحيد يدعو إلى اجتماع الكلمة ووحدة الصف فربهم واحد ورسولهم واحد وقبلتهم واحدة وعباداتهم واحدة ولغتهم فى الأعم الأغلب واحدة.

لقد قال ربنا عن اليهود:

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾(٧).

ومعنى هذا أن الذلة والمسكنة المضروبتين على اليهود واللاصقتين بهم ترتفعان عنهم إذا واتاهم حبل من الله وحبل من الناس، أما حبل الله ليس لأمر ذاتى فيهم ولكن لأمر يرجع إلينا بابتعادنا عن إسلامنا وتخلينا عن ديننا، وإخلادنا إلى الأرض والدنيا واتباع أهوائنا لأن الله ـ تعالي ـ لا يحابى أحداً من الناس بالنصر بل نصر الله ـ تعالى ـ يجرى وفق قانون مطرد:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٨).

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾(٩) ونصر الله فى اتباع دينه وتنفيذ أحكامه واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأما حبل الناس فحاصل لهم من مساندة

---

(٣) النساء (٥٩).

(٤) سورة محمد آية (٣٥).

(٥) مفاتيح الغيب جـ١٤ صـ٢٩٦ وما بعدها بتصرف.

(٦) روح المعانى جـ٢٦ صـ٨٠.

(٧) آل عمران (١١٢).

(٨) محمد (٧).

(٩) الحج (٤٠).

أمريكا دولة الظلم والطغيان والعربدة الدولية فقد تعهدت لهم منذ ما يقرب من نصف قرن على أن تجعلهم أقوى تسليحا من العرب مجتمعين، وهى لا تخجل من هذه المساندة وتعتبر المدافعين عن أرضهم وعرضهم وشرفهم إرهابيين، مع أنها تعيش علي بترول العرب والمسلمين الذى لو قُطع عنها لعاشت هى وأوروبا – التي تحالفها – فى ظلام دامس.

وجاء فى تفسير المراغى لهذه الآية: «والخلاصة أن هؤلاء لا عزة لهم فى أنفسهم لأن السلطان والملك قد فقدا منهم وإنما تأتيهم العزة من غيرهم بهذين العهدين، العهد الذى قرره الله والعهد الذى تواطأ عليه الناس».

ولا تفهمن يا أخى أن فى هذا الكلام تيئيسا وتقنيطا، فرغم أن هذا هو الواقع المؤلم إلا أن أمامنا كثيرا من الأسلحة لو أدخلناها المعركة لجنينا من ورائها الخير الكثير ومنها على سبيل المثال:

١ – **المقاطعة**: وهى من أمضى الاسلحة من أقدم العصور، لقد عرف العرب الجاهليون خطرها وأثرها فاستعملوه ظالمين فى مقاطعة بنى هاشم والمسلمين حتى يرغموهم على ترك دينهم، ومنذ أكثر من أربعين

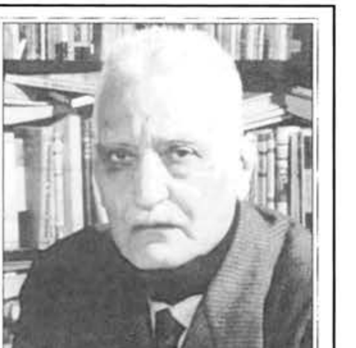

العقاد: العرب لم يهزموا إسرائيل إلا بالمقاطعة الاقتصادية

عاما قال الأستاذ العقاد فى إحدى ندواته لروادها: إن العرب لن يستطيعوا أن يهزموا إسرائيل عسكريا لكن هزيمتهم الاقتصادية ممكنة، ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق المقاطعة وقد كانت معظم دول أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا وبعض دول أوروبا تقاطع إسرائيل حين كان العرب يقاطعونها فلما تخلى العرب عن هذه المقاطعة تخلى عنها الجميع، فقد أصبح لإسرائيل سفارات فى كثير من الدول العربية وفى بعضها الآخر مكاتب تجارية أهم من السفارات وقد دعا مؤتمر القمة إلى اجتماع طارئ من أجل المقاطعة فاعتذر كثير من دول البترول اعتذارات واهية كانت مثارا للتندر ومجالا خصبا لأفكار أحمد رجب وريشة مصطفى حسين.

الملك فيصل: بترول العرب ليس أغلى من الدم العربى

٢ – **البترول**: فلو علمت أمريكا أن مصالحها عند العرب – خاصة دول البترول – مهددة لغيرت موقفها ورحم الله الملك الراحل فيصل بن عبدالعزيز آل سعود الذى قال: إن بترول العرب ليس أغلى من الدم العربى الذى يراق كل يوم هنا وهناك وأدخل سلاح البترول المعركة فكان له أثره الفعال فى وقف أمريكا عند حدها ومعها أوروبا المنافقة.

٣ - الإعلام العربى والإسلامى المدروسين جيدا وذلك لتغيير الرأي العام العالمى الذى مازال ينظر إلى إسرائيل على أنها دولة صغيرة مظلومة وسط وحوش من العرب يكادون أن يبتلعوها، وتعبئة الرأى العام العربى قضية يعمل لها الحكام ألف حساب، فلو أن إعلامنا أولى قضية الانتفاضة أو الحرم القدسى ربع ما أولاه لموت أحد الفنانين أو الفنانات لتغير الأمر كثيرا.

هذه يا أخى بعض الأسلحة التى مازالت أمامنا جاهزة للاستعمال وأهم منها سلاح الايمان بالله فلو كنا مؤمنين حقا لأمدنا الله بجند من عنده:

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾(١٠).

فالزلازل من جند الله، والبراكين من جند الله والريح التى نصر الله بها المسلمين فى غزوة الاحزاب من جند الله، والميكروبات من جند الله، والحشرات من جند الله.

وأهم هذه الاسلحة الملائكة التى نصر الله بها المسلمين فى بدر.

لقد رووا أنه فى حرب فلسطين قبل الثورة حوصرت كتيبة من المسلمين المتطوعين وأوشكوا أن يموتوا جوعا فقال قائدهم وكان مسلما حقا: يارب إن نبيك ورسولك نوحا - عليه السلام ـ دعا فقال:

﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾(١١).

فنصرته بالطوفان ، وأنا يارب أدعوك بما دعاك به نبيك نوح، فلم يمض وقت كبير حتى رأوا طائرات إسرائيلية تسقط عليهم صناديق الأغذية ولم يكن المقصود الكتيبة المسلمة بل كانوا يسقطونها على كتيبة يهودية كانت محاصرة هى الأخرى قريبا منهم فخطأ التقدير يعتبر من جند الله أيضا مثل خطأ خداع البصر.. ألم يغير الله قانون الرؤية فى بدر كى ينتصر المسلمون الذين نصروا الله فى أنفسهم فاستحقوا النصر وصدق الله العظيم:

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾(١٢).

هذا وبالله التوفيق والله أعلم وإلى اللقاء فى مقال آخر إن شاء الله رب العالمين.

---

(١٠) الفتح (٧).
(١١) القمر (١٠).
(١٢) الأنفال (٤٤).

المفهوم الصحيح للحرية

لفضيلة الشيخ محمد فوزان

كلمة الحرية أصبحت شعارا على كل لسان.. ولكن هل هى التصرف المطلق وحرية الكلمة المطلقة والرأى المطلق. كما يفهمها البعض؟ وما معنى كلمة الحرية فى القران الكريم؟ وما هو المفهوم الصحيح للحرية..؟ الحرية إذا كانت كما يفهما البعض على أنها حرية الانسان فى أن يفعل ما يشاء. وأن يقول ما يشاء.. فهذا فهم خاطئ يتنافى مع الشرائع السماوية والقوانين الوضعية. ولا توجد حرية بهذا المعنى فى أى مجتمع إنسانى. وقد لا توجد الحرية بهذا المفهوم إلا فى الغابة فقط. حيث لا شرائع سماوية. ولا قوانين وضعية. ولا عقل يحكم الحيوان.

أما معنى كلمة حرية فى القرآن الكريم. فقد جاءت بمعنى حرية الرقبة من العبودية. فإذا كان الإنسان مملوكا لإنسان آخر كان عبدا يباع ويشترى. وإذا كان غير ذلك، كان حرا لا يباع ولا يشترى.. وهذا المعنى مبين فى آية القصاص فى قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾(1).

فهذا هو المعنى الحقيقى للحرية وعدم الحرية فى القرآن الكريم.. ولا مانع من أن تستعمل هذه الكلمة. استعمالا مجازيا فى الفعل أو القول، بمعنى أن الإنسان حر فى بعض أفعاله. وبعض أقواله.. لا فى كل أفعاله وكل أقواله.. وعلى هذا فحرية الإنسان مقيدة وليست مطلقة. كما يحدث فى هذه الأيام التى عمت فيها الفتن. وفاحت فيها رائحة الحقد والكراهية وعم فيها الظلم. وضاعت فيها الحقوق. واختلط الحابل بالنابل.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

لذا جاءت الشرائع السماوية. لتقول للإنسان. افعل كذا ولا تفعل كذا.. وكذلك القوانين الوضعية. فإذا كانت حرية الإنسان

(1) البقرة: (178).

مطلقة لا قيود عليها، لما كانت هناك حاجة للشرائع السماوية. ولا القوانين الوضعية.. لأن أول ما خلق الله أدم ـ عليه السلام ـ وحواء فى الجنة. لم يطلق لهما حرية التصرف.. وإنما فرض عليهما قيودا.. حيث قال ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

وهذه سنه الله فى خلقه. افعل ولا تفعل.. وإذا نظرنا إلى القرأن الكريم. الذى جاء لإصلاح البشرية، نجد أنه يأمرنا بأفعال فيها صلاحنا إذا فعلناها.. وينهانا عن أشياء فيها شقاؤنا إذا لم ننته عنها.. فمثلا يأمرنا بالصلاة والزكاة، والصوم، والحج، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، إلى غير ذلك من المأمورات التى فيها صلاحنا. واستقامة أمورنا وسعادة نفوسنا.. وينهانا عن المعاصى مثل القتل بغير حق، والزنا، وشرب الخمر، والسرقة، والظلم، والغش، والفتن، الى غير ذلك من المنهيات التى فيها شقاؤنا.. ومعنى هذا أن الإنسان ليس حرا فى كل أفعاله . وإنما هو مقيد، بما أمر الله به، وبما نهى عنه وعلى هذا فحرية الإنسان إنما تكون فى إمتثال ما أمر الله به، وإجتناب فإذا خرج عن هذا الإطار تهدر حريته وكرامته. ويقع تحت طائلة العقاب الإلهى. الذى وضعه الله لمن يخالف أوامره. ونواهيه وكذلك من يخرج على قوانين الدولة التى تنظم العلاقات الاجتماعية والأمنية بين أفراد المجتمع يقع تحت طائلة القانون. ولا حرية ولا كرامة مادام خارجا على القانون.. وكذلك لا توجد فى الإسلام حرية كلمة مطلقة أو حرية رأى مطلق كما يفهم البعض.. ولكن هناك ضوابط وضعها الإسلام.. إذا ما التزمنا بها أصبحنا مجتمعا متحابا ومتماسكا، لا متباغضا ومتفرقا.. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمرنا بالكلمة الطيبة التى تجمع بين القلوب وتؤلفها.. وينهانا عن الكلمة «الخبيثة» التى تفرق بين القلوب وتباعدها.. فيقول ـ سبحانه ـ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾(٣).

فهو سبحانه ـ يأمرنا بالكلمة الطيبة لما لها

(٢) البقرة : «٣٥».

(٣) إبراهيم : «٢٤» – «٢٧».

من أثر طيب فى صلاح أمورنا وأحوالنا. وأعمالنا. فيقول ـ عز من قائل ـ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(٤).

ويقول سبحانه :

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾(٥).

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾(٦).

ويقول :

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾(٧)

ويقول رسول الله ـ ﷺ ـ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

إلى غير ذلك من القول الطيب.. وينهانا ـ سبحانه وتعالى ـ عن القول السيء الذى يفرق بين القلوب ويباعدها. ويؤدى إلى إثارة النفوس وتخاصمها.. حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(٨).

ويقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾(٩).

ويقول ـ ﷺ ـ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

إلى آخر ما جاء فى القول السئ، فمن خرج عن هذا الإطار تهدر حريته، ويقع تحت طائلة الإلهى الذى وضعه الله ـ عز وجل ـ لمن خالف ذلك.. أو العقاب القانونى الذى وضعه القانون لذلك..

وبعد هذا الإيضاح يجب أن نعرف أن الكلمة التى تهدم، أو التى تفرق، أو التى تشكك، لا مكان لها فى مجتمعنا الآمن والمتماسك. أن ما يكتب فى الصحف الصفراء بقصد النيل من الأديان والتفريق بين عنصرى الأمة مرفوض وغير مقبول لأن الشرائع السماوية ـ كما ذكرنا آنفا ـ تؤكد على أن حرية الإنسان ليست مطلقة. وأن الحرية الحقيقية هى تحرير الإنسان من الشرور والرذيلة.

إن حرية الكلمة لا تعنى الفوضى. والحديث عن أعراض الآخرين. وإنما هى لتحقيق الصالح العام. للوطن وإرساء دعائم الديمقراطية الصحيحة. وبالله التوفيق..

---

(٤) الأحزاب : «٧٠، ٧١».

(٥) البقرة : «٨٣».

(٦) النحل : «١٢٥».

(٧) البقرة «٢٦٣».

(٨) الأنعام «١٠٨».

(٩) الحجرات «١١».

أيها الإعلاميون رويدكم..

للأستاذ / مجدى عبد الحميد بشير

كلما تلوت قول الله عزوجل:

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١).

أدركت كم يفتح الله للناس من طرق الخير وييسر من سبل البر، فى الوقت الذى ازداد فيه أسا ولوعة للمنحى الذى تسلكه كل وسائل الإعلام فى تقديم صورة بشعة مرعبة لكثير مما يحدث فى العالم مصورة إياه وكأنه خلا تماماً من الخير والحق والجمال، ولا عجب فتلك إحدى الخصائص الغريبة التى تريد العولمة ومنظروها تأصيلها فى النفوس وترسيخها فى العقول والتى علق عليها قارىء برازيلى يبدى رأيه فى كيفية الاحتفال بأى شىء جديد فقال: (إن احتفالنا بأى جديد فى حياتنا ينبغى أن يلبس ثوب الأمل الزاهى والعزم القوى على أن يكون مستقبلنا أفضل من ماضينا وغدنا أشد ثراء من أمسنا).

وهذا - لشديد الأسف - ما لايحدث، والسبب أن غالبية الإعلام المقروء والمسموع والمرئى لايغير ما اعتاد من نغمة تصيب الواحد منا بالكآبة والانقباض وإنك لن تجد إلا فيما ندر سوى تركيز على الجوانب السلبية والسلوكيات غير الحميدة التى يبالغ

(١) (النساء ١١٤).

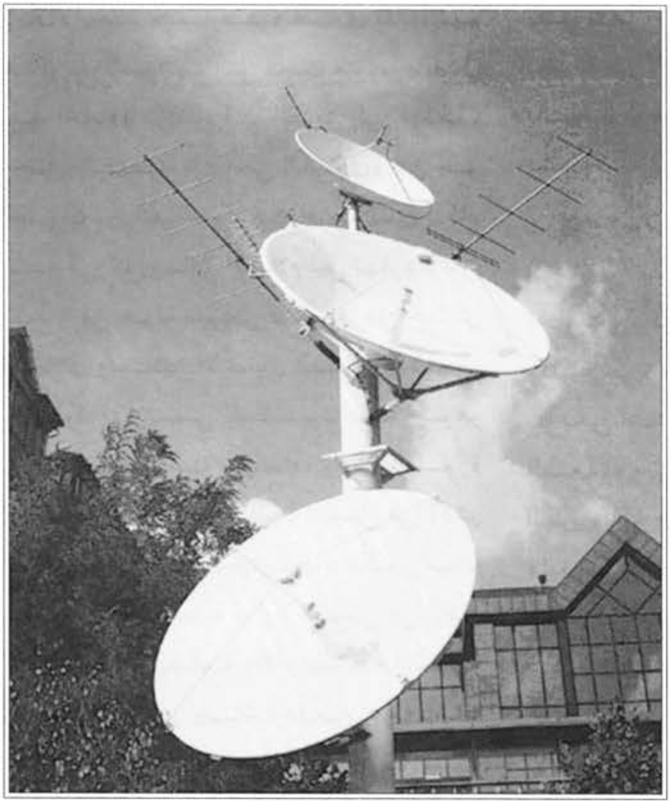

فى إبرازها وتضخيمها خصوصاً فى دول العالم الثالث.. أجل فعيون أولئك الصحفيين لاتبصر فى تلك الشعوب غير الأخطاء الأمر الذى يصيب القارىء بالدوار، وحجتهم فى ذلك أن بإمكانك ألا تقرأ أو تسمع أو ترى، وهى حجة واهمة تفترض فى الإنسان تعطيل منافذ الإدراك لديه.. صحيح أن بإمكان البشر اختيار الأخبار التى تروقهم، لكن من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحاشى الجوانب السلبية.

الهدف النهائى للعولمة إذاً هو قولبة كل شىء ووضعه فى أطر محدده، وصيغ ضيقة وهو ما اتهم به المغرضون الإسلام كثيراً ووصموا به تعاليمه السامية والإسلام من ذلك برىء فهو منهج حياة متكامل ورسالة عالمية تنظر إلى كل مشكلات البشرية بعين الواقع لتوجد لها الحلول الممكنة، شريطة توافر النيات الطيبة والهمم العالية والعزائم المتينة التى تبتغى وجه الله. أما كل وسائل الإعلام - أو معظمها - فقد أصبحت أذناباً لمصدرى العولمة وأصداء لنعراتها الجوفاء وأبواقها الخالية.

ولتوضيح الصورة أدعوك إلى أن تتأمل بعين المنصف كيف تتفنن كل تلك الوسائل فى قولبة كل شىء ووضعه فى نماذج وأشكال لايخرج عنها وهدفها المحورى هو إعلاء القيم المادية. فهم يجعلون الناس يفكرون بطريقة واحدة وأسلوب عقيم لايستطيعون منه فكاكا مرتكزين على الطنين الفضائى الذى لاينقطع ولاينفك يردد أننا نعيش حقبة العولمة التى اتخذت الكيل بمكيالين وجعلت من تعدد المعايير والازدواجية أمراً عادياً

لايكاد يجد معارضوه صدى لنداءاتهم المتكررة ولأصواتهم التى بحت منادية بالعدل ونبذ المحاباة، مؤكدة أنها الطريق إلى الهلكة.

وحتى أبتعد بك أخى القارىء عن جو الحروب الخائفة وحديث الموت الذى يكاد يشيع فى كل وسائل الإعلام ليل نهار، دعنى آخذك فى جولة نتريض فيها داخل حدائق الأخلاق وبساتين الأعمال الصالحة والأفعال الخيرة التى ينسى المسلمون أنها جوهر الإسلام ولُحمته وسداه، وهذه الصورة الوضيئة لا أقول مثلاً إنها تتمثل فى أكثر الأنفاق نظافة فى «ساوباولو» أكبر مدن أمريكا اللاتينية - ولا حتى فى أرقى المستويات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية فهذه كلها أمور حياتية ملموسة معاشة، لكنها تتمثل فى الطابع الإنسانى الرقيق لتلك المجتمعات، فهناك مثلاً - وهو ما تغفله العولمة ويتجاهله أصحابها - ما يعرف بالجماعات الراكبة التى يتألف كل منها من ثلاثين فرداً من طلاب الجامعة مهمتهم خدمة أناس تجاوز كل واحد منهم سن الخمسين منهم، يقومون بقضاء مصالح أولى الضرر من المعاقين ذهنياً أو بصرياً أو بدنياً أو سمعياً لمدة ثلاثة أيام أسبوعياً مضافاً إليها أيام عطلات نهاية الأسبوع، وتشمل تلك المشاوير الخيرة العناية بهؤلاء المساكين والذهاب بهم إلى أماكن البيع والشراء لجلب حاجياتهم بل يصل الأمر أحياناً إلى إطعامهم الطعام والقيام بخدمة من لايستطيع منهم حراكاً ومؤانستهم بالتحدث معهم لتخفيف وحدتهم وما يشعرون به من فراغ قاتل ووحشة شديدة.

إن ما يوليه أصحاب القلوب الرحيمة من الرعاية والعناية والعطف والمحبة لتلك الفئات المحرومة وتمكينهم من تخفيف بعض رغباتهم وتلبية شىء من حاجياتهم الملحة، لأمر جدير بنا نحن أمة الخير أن نحرص عليه فمعاونة الضعفاء وتوصيل الخير إليهم جَعَلَه رسولنا الكريم ﷺ طريق الفوز والفلاح حين قال: «إبغونى فى الضعفاء فهل تنصرون وترزقون وتجبرون إلا بضعفاءكم» ولا يقف الأمر طبعاً عند قضاء المصالح الضرورية بل يتعده إلى الترفيه المباح والتسلية البريئة لإزالة ما أصاب الأنفس من كدر، وتخفيف ما علق بها من أدران وهو اتجاه مخالف لمنطق العولمة التى تجعل من متاعب الناس ومعاناتهم غذاء ضرورياً وموردا لاينفذ لأخبار تخلق من الدنيا مكاناً يكاد يمقت الإنسان فيه نفسه ويجد الصورة قاتمة يحس معها بالغربة. فأنت غير واجد فى البوسنة والهرسك إلا المقابر الجماعية للمسلمين. والمحاكمات الدولية لمجرمى الحرب وهو أمر إيجابى لاشك. أما فى «فلسطين» فالصورة تختلف تماماً فعلى الرغم من المجازر البشعة التى يتعرض لها أولئك البائسون وتهديم البيوت وإزالة

المزروعات وكل الأعمال البربرية التى تتنافى تماماً مع أى حضارة أو مدينة تجد عالماً يصم أذانه ويغمض أعينه ويقسو قلبه إلى درجة تجعله لايفرق بين الجانى والضحية ويصدر أحكاماً تلبس الذئب المفترس ثوب الحمل الوديع وتسمى الأشياء بغير أسمائها، فالجهاد عندهم إرهاب، ومقاومة الاحتلال عنف لابد من إيقافه. فإن ذهبت إلى « الصومال » ارتعدت فرائصك لمنظر أناس ذوى وجوه شاحبة وأشخاص هم أقرب إلى الأشباح منهم إلى الآدميين نظراً لما يعانون من نحافة أجساد واهنة لاتكاد تميز فيها بين العظام والجلود. أما أعمال الخير وتطبيق الشريعة هناك فلا يكاد يحدثك عنه أحد وأما « أفغانستان » فلن يخبرك عنها إعلاميو العولمة إلا أنها مكان طغى فيه الجُهال وفشا فيه التخلف وألزمت فيه المرأة بيتها لاتعمل ولاتتعلم. أما تحويل دور المسرح والسينما وغيرها إلى مساجد ودور لأعمال البر والخير فلا يُذكر عنها كلمة واحدة. وحتى تحويل المساحات الشاسعة التى كانت مزروعة بالخشخاش والأفيون والماريجوانا والكوكا وكلها نباتات مخدرة تغتال عقل الإنسان قبل حياته، تحويل كل تلك المساحات إلى مساحات خضراء تزرع فيها المحاصيل المثمرة والنباتات المفيدة كالقمح والذرة والأرز وغيرها مما لاغناء للإنسان عنه فى حياته اليومية يسد به جوعته ويرفع مستواه الاقتصادى فهو فى نظر أولئك المجحفين أمر غير ذى بال لايستحق التحدث عنه أو التنويه به. وتقوم الدنيا ولاتقعد عندما تحطم تماثيل بوذا. أما أن يزال المسجد البابرى بالهند من فوق الأرض ويحرق بمن فيه فالدنيا فى سبات عميق تطبق الشفاه على المرارة والألم. والأمثلة لاتنتهى فى « السودان » التى يُحَارَبُ الإسلامُ فيها حرباً ضروساً شعواء وكذا الجزائر التى يراد لها أن تغير هويتها الإسلامية العربية. كل ذلك لأن العولمة لا تكل أو تمل وتعتبر الإسلام هو العدو الباقى بعد أن قضت على الزحف الأحمر للشيوعيين. وهنا نهمس أو نصرخ لايهم ونقول: أيها الإعلاميون رويدكم وأجعلوا الناس تلتقط أنفاسها وترى فى الدنيا شيئاً جديراً بالتقدير والإعجاب والشكر والامتنان فدنيا الله لم تخل ساعة من مظهر من مظاهر الخير والحق والجمال.

إن من الأخبار أخباراً لاتكتب إلا فى زوايا الصحف وأركانها التى لاينتبه لها الكثيرون وكان حقيقاً بها أن تُدون بارزة فى أماكن ظاهرة يقرأها القاصى والدانى محيياً متهللاً مستبشراً مؤمناً بأن المستفيدين من طفرات العلم أناس لهم الحق فى الحياة كأقرانهم سواء بسواء، وأقصد بهم كل من شاء الله له أن يستظل تحت شجرة البلاء فهم ليسوا فى حاجة إلى مصمصة الشفاه والشفقة المحبطة

إنما هم فى حاجة ماسة إلى أن ترفع قضاياهم وتعرض بصدق يبتغى لها حلولاً جذرية تساعد أصحابها على تحمل البلاء وتعينهم على رفع معنوياتهم وهو أمر لن يتحقق إلا أن تتسنم هذه القضايا أولويات العولمة.

وهنا أقدم أمثلة تمس حياة أولئك الناس فى أدق تفاصيلها ألا وهى العملة المالية ورقية كانت أو معدنية. فحينما أقدمت الحكومة الأمريكية على تغيير شكل العملة تيسيراً على الضعفاء قابلها الإعلاميون بالعبوس والتجهم والسخرية والتهكم وهو أمر يناقض ما يفترض أن يتسم به أولئك الإعلاميون من التحضر وتقدير ظروف الآخرين. إن هؤلاء الإعلاميين لايقدرون أن تلك الخطوة ذات فوائد جمة من أهمها أنها تكسب المعاقين ثقة أكثر فى أنفسهم وتجعلهم أقل اعتماداً على غيرهم. ومن هنا بادرت الحكومة الكندية بما بدأته أمريكا على استحياء إذ جَعلت كندا اللون الأزرق مميزاً للورقة من فئة خمسة دولارات والأخضر للعشرة والأرجوانى للعشرين والأحمر للخمسين والبنى للمائة. ولم يقف الأمر عند تحديد الألوان تيسيراً على ذوى الرؤية المحدودة بل تعدده إلى خطوة أكثر جرأة وأشد مراعاة لظروف مستخدميها فمنذ بداية هذا العام سيتم كتابة الفواتير بطريقة «بريل» وهو أمر يلتزم به كل المتعاملين مع المكفوفين ومخالفته أو تجاهله تقتضى المساءلة القانونية الرادعة. إنهم يتعاملون مع الأمور الشائكة تعاملاً بناء لايقف عند حد الكلمات المعسولة والوعود البراقة. أما الخطوة الأخيرة المذهلة حقاً والتى أقدمت عليها الحكومة الكندية أيضاً فى مسألة العملة والتى لم تعرها الصحافة أدنى انتباه فهى مساعدة حتى اولئك الذين لايستطيعون قراءة الخط البارز، وكانت قدراتهم ومهاراتهم فيه محدودة ضعيفة. فقد زودت تلك الحكومة الرشيدة كل فاتورة بمشفر كودى يسمى بالانجليزية «Bar code» يتم قراءته عن طريق جهاز مبتكر صغير يحمل فى اليد ويقوم بنطق قيمة العملة بصوت مسموع لمستخدميه تماماً كما تعمل أجهزة كبيرة من مثل الساعة الناطقة والحاسوب الناطق والقفاز الناطق.. فهل آن لحكومات أخرى أن تكون العملة فيها بهذا الشكل الميسر الذى نقدره كثيرا؟!.

***

للأستاذ / أحمد إسماعيل إبراهيم (*)

كانت القلاع والحصون منذ القدم تحاط بأسوار ضخمة تتخللها أبراج قوية بها فتحات تخرج منها أسلحة الرماة لصد الأعداء عند هجومهم.

وكان يتم اختيار المواقع المرتفعة والمسيطرة لإقامة القلاع عليها، بحيث ترقب ما حولها بيسر وسهولة، وإذا تطلب الأمر يخلى ما حولها من الأشجار أو كل ما يحجب الرؤية للراصدين.

(*) مدير متحف الملك عبدالعزيز الحربى سابقًا.

وتطبيقا لهذا الفكر الاستراتيجى فى اختيار مواقع القلاع فقد تم اختيار موقع قلعة القاهرة فوق احدى المرتفعات العالية المتصلة بجبل المقطم، الأمر الذى هيئ لها أن تشرف علي مدينة القاهرة بأكملها فى ذلك الوقت دون وجود حجاب أو ساتر حولها.

تشييد القلعة:

أمر السلطان صلاح الدين بن أيوب وزيره (بهاء الدين قراقوش الأسدى) بتشييد القلعة عام (٥٧٢هـ- ١١٧٦م) ولكن لم يتم الانتهاء من بنائها إلا فى عهد ابن أخيه الملك الكامل (٦٠٤هـ- ١٢٠٧م). وكان الهدف من بناء القلعة في ذلك الوقت هو تحصين مدينة القاهرة وتهيئة مقر آمن السلطان.

فصل القلعة عن المقطم:

كانت القلعة عند بنائها على هيئة شكل مستطيل غير منتظم، ومتصلة بجبل المقطم لذلك أمر صلاح الدين الأيوبى بفصل القلعة عن جبل المقطم بهوة كبيرة (خندق) حتى يمنع العدو فى حالة سيطرته على جبل المقطم من السيطرة على القلعة.

ومن منشآت صلاح الدين فى القلعة:

١- إقامة ثلاثة أبواب بها:

- باب المدرج (المواجه لمدينة القاهرة).
- باب القلعة (المواجه لجبل المقطم).
- باب القرافة (فى المنطقة الشرقية للقلعة).

٢- الإيوان الكبير (المعد لجلوس السلطان فى أيام المواكب).

٣- البئر (وقيل إنه كان ينزل إليها بثلاثمائة درجة).

٤-الاسطبلات السلطانية.

٥- قاعة الصاحب (الوزير).

٦- أبراج الحمام.

٧- خزانة الكتب.

٨- الجامع.

القلعة في العصر المملوكى (١٢٥٠-١٣٨٢م):

كان هذا العصر مثل سابقه من أزهى العصور ارتقاء بالقلعة، فد اهتم سلاطين الدولة المملوكية بالقلعة، والذين عرف عنهم جهادهم الكبير فى مقاومة الصليبيين، والمغول والعثمانيين. ولقد صاحب هذا الاهتمام ظهور التنظيم الحربى الدقيق والانضباط فى إدارة شئون القلعة مما علا شأنها، خاصة فى عهد الظاهر ركن الدين بيبرس الذى شيد فيها دار الذهب (قاعة فخمة ومهيبة) ودار العدل القديمة، وبرج الزاوية.

كما ازدهرت القلعة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون (٧١٠هـ- ١٣١٠م) والذى أنشأ فيها الجامع والإيوان، وقصر الأبلق (١٣١٣م) والسبع قاعات والاسطبلات والبرج المربع (١٣٣٤م)

والميدان كما أنشأ أربعة أسواق على النيل لنقل المياه إلى السور ثم من السور إلي القلعة.

القلعة فى عهد العثمانيين (١٥١٧-١٧٩٨م):

لم تظفر القلعة فى عهد العثمانيين بشئ يمجد تاريخهم الطويل فى حكم البلاد، بل على النقيض من ذلك.. بدأت القلعة تفقد بالتدريج مكانتها الرفيعة، فبمجرد أن وطأت أقدامهم القلعة دب الخراب فى دورها، وبدأت الأيدى تنتزع رخامها، وحليها ونقوشها وتحفها وتم شحنها إلي اسطنبول، وهكذا خيم الخراب على قلعة القاهرة فى عهدهم.

ولم تكن القلعة أسعد حظا أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م) فما أن نزل الفرنسيون قلعة القاهرة حتى هدموا أبنيتها، وقوضوا مواضع كثيرة ودمروا قصر صلاح الدين ووضعوا مدافعهم في أماكن تم اختيارها حسب تصورهم التكتيكى، وعموما فقد بدلوا محاسن القلعة إلى مساوئ.

القلعة فى عهد محمد على وخلفائه:

ومنذ أن تولى محمد علي باشا حكم مصر عام (١٨٠٥م)، أخذت القلعة اهتمامه الشخصى واتخذها مقرا لحكمه. فبدأ دولاب

العمل ينشط فى كل ركن من أركانها، فبدأ باصلاح وترميم ما أفسده وخربه السابقون فأصلح أسوارها، ورمم أبراجها وأبوابها، وبنى ثكنات للجند، ودواوين للحكومة، ومصانع للذخيرة ومدارس للجيش، وقصورا للسكنى، ومسجدا للصلاة. فأعاد للقلعة مجدها وعظمتها ورونقها.

● **قصر الجوهرة**: الواقع فى الزاوية الغربية للقلعة. وتحديدا يقع جنوبى مسجد محمد على، وكان هذا القصر مخصصا لاستقبالات محمد على الرسمية. وهو يتكون من عدة غرف كبيرة وصغيرة، وكلها لها أبواب تصل إلي القاعة الكبرى المسماة بقاعة العرش أوالفرمانات، والقصر يطل علي ميدان صلاح الدين، ومنه هرب مراد بك بحصانه فى مذبحة المماليك التي دبرها محمد على لهم وسمى بالمملوك الشارد.

● **الدفتر خانة (دار المحفوظات)**: شيدت هذه الدار عام ١٨٢٨م ، على أنقاض طبلخانة بيبرس، وهي تقع على يمين باب القلعة الجديد والذى يؤدى إلى ميدان صلاح الدين. والدار تتكون من عدة غرف أعدت للمحفوظات، وهى مازالت دارا للحفظ علي مستوى الجمهورية.

● **قصر الحرم (١٨٠٧م)**: ويشغله الآن المتحف الحربى.

● **دار الصناعة**: وحشد فيها ما تبقى من الصناع المهرة (فى عهد العثمانيين) وهى تضم مصانع ومعامل متعددة لصناعة الأسلحة الخفيفة وطرق النحاس وصب المدافع وصناعة السيوف والرماح والسروج واللحم وغيرها. من أهم معاملها معمل صب المدافع عيار (٨ رطل) وكان يصنع فيه من ثلاثة مدافع إلي أربعة مدافع كل شهر، وكذا مدفع الهاون عيار (٨ بوصة) ومدافع قطرها (٢٤ بوصة). ،وقد بلغ عدد الصناع فى هذ الدار نحو تسعمائة صانع ينتجون شهريا ما بين (٦٠٠) إلي (٦٥٠) بندقية.

● **جامع محمد على**: وقد عهد محمد على

ضريح محمد على
في الركن الغربى القبلى

باشـا إلى المهندس التـركى (يوسف بوشناق) بوضع تصميم له، فاختار تصميما لطراز مسجد السلطان أحمد بالأستانة مع تعديلات طفيفة عليه، والمسجد عبارة عن بناء مستطيل الشكل ويتكون من قسمين: المسجد ويتوسطه نافورة للوضوء، ولكل من القسمين بابان أحدهما قبلى والآخـر بحـرى. ولقـد شـرع فى بنائه عـام (١٨٣٠م) واستمر العمل فيه حتى وفاته عام (١٨٤٩م) ودفن فيه (يقع ضريحه فى الركن الغربى القبلى). وأكمل خلفاؤه النقوش والأسوار وغيرها وفى عهد الملك فؤاد الأول تم إزالة قبة المسجد لوجود خلل حل بها وأعاد بناءها من جديد عام (١٩٣٩م).

وللقلعة حاليا بابان، الأول للقادم إليها من ميدان صلاح الدين (وهو الباب العمومى الذى شيده محمد على عام ١٨٢٥م). والآخر للقادم إليها من طريق صلاح سالم. وكلاهما يؤدى إلى أهم المآثر الباقية فى القلعة والتى تستحق الزيارة وهى:

■ **مسجد محمد على**: الذى يتميز بعمارته الفريدة، وزخارفه البديعة.

■ قصر الحرم: وتتزين جدرانه وأسقفه بالرسومات والزخارف الرائعة، وبعضها مذهب. ويشغله الآن المتحف الحربى للقوات المسلحة المصرية.

■ وأمام الباب المؤدى للمتحف تشاهد مجموعة ضخمة من مدافع الحصون والقلاع التي صنعت في عهد محمد على.

■ البئر: التى أنشئت في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبى.

■ قصر الجوهرة: ويمتاز برسوماته وزخارفه الرائعة والذى كان مقرا لحكم محمد على.

■ مسجد السلطان الناصر بن قلاوون (وبدأ العمل فيه عام ١٣٢٨م) ولهذا الجامع منارتان حجريتان.

■ مسجد سيدى سارية: أنشأه الوالى سليمان باشا عام ١٥٢٨م، وتحيط بصحن المسجد أروقة ذات قباب صغيرة.

وهكذا نرى أن قلعة القاهرة بأسوارها الشاهقة وأبراجها الضخمة وجنودها المدربين على جميع أنواع القتال كانت مركزا هاما لأحداث جسام خلال حقبة تاريخية هامة، وذلك نظرا لكونها مقرا للحكم ومكانا آمنا للحكام منذ عهد صلاح الدين الأيوبى إلى عهدالخديوى اسماعيل الذى نقل دواوين الحكومة من القلعة إلي دور داخل مدينة القاهرة.

ومن ثم أضحت قلعة القاهرة أثرا إسلاميا شامخا فى البلاد، مما حدا بوزارة الثقافة (فى وقتنا الحاضر) القيام بعملية ترميم شاملة لأسوار القلعة، وأبراجها، وجامع محمد على، وقصر الحرم، وبابها المطل على المقطم بأسلوب علمى رفيع وحديث.

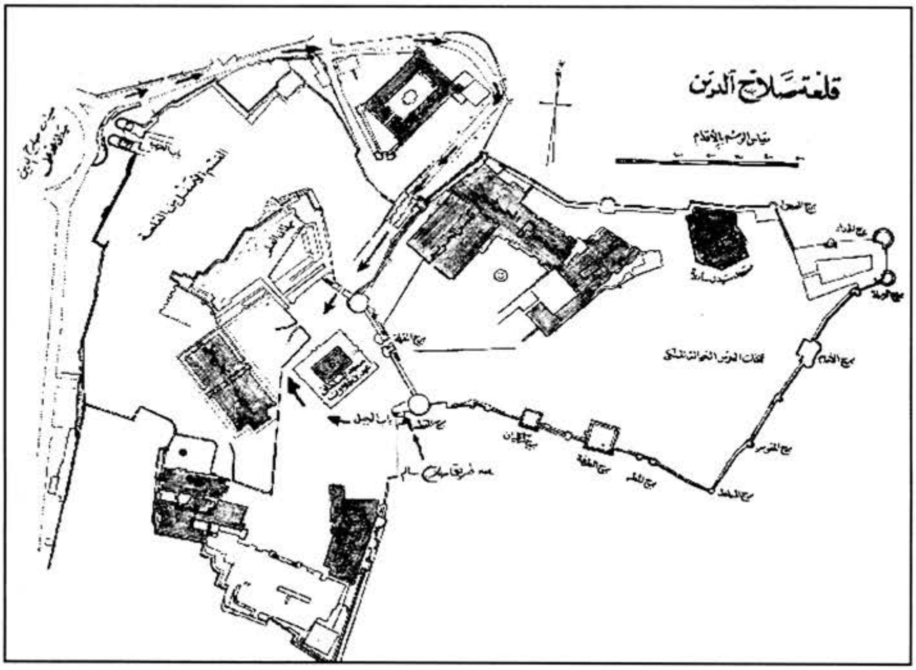

بين الصحف والمجلات

إعداد الأستاذ / محمود الفشنى

قراءة صحيحة لتاريخ القدس

طالعتنا جريدة عقيدتى فى عددها الصادر فى ٣١ / ٧ / ٢٠٠١ بهذا المقال للكاتب الإسلامى الكبير الدكتور أحمد صدقى الدجانى.

حاجتنا ماسة نحن العرب هذه الأيام لقراءة صحيحة لتاريخ القدس، كى نحسن التعامل مع ملف قضية القدس. وذلك فى وقت نشهد فيه قيام الحركة الصهيونية بهجمة قوية لتعميم قراءة خاطئة لتاريخ القدس على العالم أجمع.

والهدف الصهيونى هو استكمال تهويد القدس بعد احتلالها واغتصابها وتعميم الزعم الإسرائيلى «بأن القدس عاصمة أبدية لدولة إسرائيل التى لها السيادة على المدينة» وحصر قضية القدس فى «كونها خلافا مع مسلمين ومسيحيين حول أماكنهم المقدسة فيها كيف تتم إدارتها».

ويتداعى إلى الخاطر ما أورده (فيليب حتى) فى كتابه: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.. عنه، والنتيجة التى نستخلصها من هذه الوقفة هى أن تاريخ القدس لا ينفصل عن تاريخ فلسطين وتاريخ الوطن العربى بمغربه ووادى نيله وشامه وعراقه وجزيرته العربية وتاريخ ديار الإسلام عامة. وأن موقع القدس يتميز بأهمية استراتيجية بالغة بالنسبة لجميع «الحواضر» فى منطقتنا من القاهرة إلى دمشق إلى بغداد إلى مكة وصنعاء.. وصولا للرباط وطهران والأستانة. وقد شاء الله أن يجعل أهل القدس من خلال هذا الموقع فى رباط إلى يوم القيامة.

حين ننتقل إلى بعد الزمان فى تاريخ القدس نجد أن هذا التاريخ جزء من تاريخ فلسطين والمنطقة، وأنه موغل فى القدم ومتصل على مدى عصور وحافل بأحداث كثيرة ويمكن أن نميز فيه بين قسمين تصل بينهما الانطلاقة العربية بالإسلام فى القرن

السابع الميلادى «الأول الهجرى»، لما لهذا الحدث من تأثير كبير.

لقد سكن الانسان فى منطقة القدس منذ فترة ما قبل التاريخ - حسب اصطلاح المؤرخين - وهناك آثار له فيها تم اكتشافها تعود إلى العصر البيستوسينى، وأخرى من العهد الباليوليثى، وثالثة من العهد النيوليثى الذى شهد حدوث الثورة الزراعية. وظهرت القدس مدينة فى بدايات العصر البرونزى حين بناها الكنعانيون مع مجموعة مدن على طريق المياه بين الشمال والجنوب حوالى الألف الرابعة قبل الميلاد على مرتفع الضهور قرب عين ماء جيمون فى موقع حيوى. واكتسبت القدس منذ إنشائها مكانة دينية وكان ملكها هو عبدالإله «السلام» وهى مدينة سالم «أور سالم». وقد عرفت باسم سالم وكونت مملكة مدينة وعرف من أسماء ملوكها قدوم سالم وملكى صادق وجاء ذكرها فى نصوص العرب قد تردد فى تاريخ فلسطين من قبل. واعتنق جزء من شعب فلسطين الإسلام وبقى جزء آخر يدين بالنصرانية واليهودية. واستمرت فلسطين بعد الفتح وطنا لشعَبها العربى هذا بملله كلها، واندمج فى هذا الشعب مهاجرون جاءوا إليها آمنين ومستأمنين حملتهم غزوات اندلعت.

والنتيجة التى نخلص إليها من الوقوف أمام هذه العلامات السكانية أن القدس وفلسطين وطن لشعب فلسطين العربى الذى تمتد جذوره فيها إلى أقدم العصور والذى فيه مسلمون ونصارى ويهود. وهى لم تكن قط وطنا لشعبين كما تحاول الحركة الصهيونية أن تفرض بالقوة وبالأمر الواقع أن يتبنى هذا الزعم بعض أبناء فلسطين والعروبة، توطئة لفرض زعمها أنها وطن لشعب يهودى يسعى للاستئثار بها. وما العبرانيين الذى جاءوا إلى فلسطين إلا جماعة من جماعات عدة أتوا - كما يقول فيليب حتى - بشكل متجولين ومغامرين ومرتزقة وجنود استقروا تدريجيا بين سكان كانوا أرقى منهم فتعلموا الحرث والبناء والقراءة والكتابة وورثوا المظاهر الأساسية للحضارة الكنعانية. وتحاول الصهيونية اليوم بعد إبرام اتفاق أوسلو - واشنطن عام ١٩٩٣ أن تنزع صفة الوطن عن قضية القدس وتقدمها للعالم على أنها قضية أماكن مقدسة يقوم تزاحم حول كيفية إدارتها. ومن المؤسف أن ينساق البعض وراء هذه المحاولة فيخوض غمار حديث حول الأماكن المقدسة ويغفل عن أن القدس وفلسطين وطن لشعبها بداية وأن قضية القدس هى قضية وطن فى الأساس هو وطن شعب فلسطين العربى الواحد بما يضم من مسلمين ونصارى ويهود وكل من يلجأ إليه مستأمنا لا غازيا. وهذا الشعب هو جزء من أمة عربية واحدة فى وطنها العربى الكبير.

التعليق:

ياليت شبابنا وأطفالنا يعرفون بأن صراعنا مع العدو الإسرائيلى طويل ذو ميادين متعددة

ضعف العرب والمسلمين سبب قوة إسرائيل

حرص فضيلة المفتى فى كلمة له بجريدة الوفد فى عددها الصادر فى ٣١ / ٧ / ٢٠٠١ على إبراز أهم قضايا الساعة ومنها قضية أن قوة إسرائيل نتجت عن ضعف العرب والمسلمين وبسبب تفرقهم وحبهم للدنيا.

طالب المفتى العرب بالتوحد ونبذ الخلافات ودعم الانتفاضة الفلسطينية بكل الوسائل المشروعة ومواجهة الغزو الثقافى الإسرائيلى.

ووصف فضيلة المفتى تصريحات آرييل شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى حول السلام بأنه سلام الخضوع والردع للعرب وأكد أن سياسة إسرائيل تهدف إلى تخريب العالم.

التعليق:

قال رسول الله ﷺ: يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل: يارسول الله ﷺ «إفمن قلة بنا يومئذ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن[1] فى قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهتكم الموت».

ضحك كالبكا

نشرت جريدة الاخبار فى يوم ٢٥ / ٧ / ٢٠٠١ للأستاذة - سهير عبدالرحمن رئيس قطاع الإعلام بالهيئة العامة للاستعلامات تقول:

● صحيفة أعدت تحقيقات عن النكات وعلى ماذا يضحك المصريون، ولم تدرك أن ما كتبه كان أيضا من الضحكات ولكنه والله ضحك كالبكاء.

قالت لا فض فوها: وإن نكات المصريين تتركز على «الأقليات» مثل أهل الصعيد والشرقية والمنوفية. وحتى ساعتها لم أكن أعرف أننى أنتمى للأقليات ولكننى عرفت منها والحمد لله، أن أهل الصعيد أصبحوا من الأقليات وكذلك غيرهم من أبناء المنوفية وغيرها من المحافظات. أليست هذه بالله عليكم فكاهة فى حد ذاتها.. ولم لا فقد سبقتها صحيفة أخرى بموضوع عن أهل النوبة وسألت أحد أبناء النوبة عن وضع «الجالية» النوبية فى مصر وكأنهم الجالية العربية فى كندا أو أمريكا.... اضحكوا أو ابكوا فالأمر يرجع اليكم.

التعليق:

ولم نجد تعليقاً على ذلك إلا قول المتنبى:

وكم بك يا مصر من مضحكات
ولكنه ضحك كالبكا

---

(١) راوه أبوداود رقم سنة ٤٢٩٧ والإمام أحمد ٢٧٨/٥.

مــــن أيـــن نجلبـــه؟!

فى مجلة أكتوبر فى عددها الصادر بتاريخ ٢٩ / ٧ / ٢٠٠١ كانت ثورة الغضب وصيحة الاستغاثة من الكاتب الكبير عبدالعال الحمامصى قائلاً :

أقول لكم . .

نعم إنقاذ اللغة العربية يبدأ من الابتدائية ولكن مدرس الابتدائى من أين نجلبه.

● المحنة التى تعانيها لغتنا العربية . . لا تحتاج أعراضها البادية وظواهرها الفاشية إلى من يبرهن عليها . . فالمرض قد استشرى فى كل المواقع . . حتى فيما يعتبر معاقل لحمايتها من الكليات والمعاهد . . وحتى بين من يكتبون أدباً خامته الأساسية هى اللغة . . والمحزن أن هذا يحدث فى كتب مطبوعة من جهات، المفروض أنها محترمة . . وإذا كنتم تريدون شواهد على واقع الحال فعندى ما أقدمه.

وفى مرات كثيرة عندما كنا نناقش قضية اللغة فى شعبة الآداب بالمجالس القومية المتخصصة . . كانت الأبحاث جميعاً تركز على توصية تتكرر فى كل تقرير فحواها : إن بداية الإنقاذ تبدأ من المدارس الابتدائية . . وهذه حقيقة لاشك فيها . . ولكن من أين يتخرج المعلم الذى يتولى تدريس اللغة العربية فى المدارس الابتدائية أليس من نفس الكليات والمعاهد التى استشرى الداء فيها . . وأصبح المتخرجون فيها لا يجيدون حتى قواعد الإملاء ناهيك بصحة اللغة . . ولقد دفعنى الغيظ مرة من هذه التوصية لأن أطالب بتوصية أخرى موازية لإنشاء معاهد تقتصر الدراسة فيها على مواد اللغة العربية ومشتقاتها فحسب . . بشرط أن نجلب لها الأساتذة من العراق واليمن وبلدان الشام ودول الخليج! والله لم أكن ساخراً ولا متهكماً . . كنت صادقاً مع نفسى . . لأننى أتحدى أن تجدوا فى هذه البلدان مذيعاً أو كاتباً أو متحدثاً يذبح اللغة كما يفعل جهابذتنا . . والله أسأل أن يقيلك يا مصر من كبوتك التعليمية . . لتعودى رائدة ومعلمة!!

ومما يزيد الطين بلة ويجعل أمر المستقبل محفوفا بالتشاؤم . . أن ظاهرة تدنى مستويات اللغة فى جامعاتنا ومدارسنا . . أصبحت تصاحبها ظاهرة التكالب على إدخال الصغار منذ الحضانة مدارس اللغات قبل أن يعرفوا أولا ما هى لغتهم الوطنية . . وهذا ما لا يحدث فى أى بلد من بلدان العالم غير مصر المحروسة . . هل أضرب لكم مثلا؟ . . ليست هناك دولة من دول العالم اتجهت إلى تقليد الغرب فى كل شأن مثل ما فعلت تركيا منذ استيلاء كمال أتا تورك ورفاقه على مقاليد أمورها.

ولكن تركيا هذه تحرم على أبنائها أن يلتحقوا بأى مدرسة أجنبية إلا بعد الانتهاء من التعليم الابتدائى . . حيث كل المواد باللغة التركية وحدها . . ليس هذا فحسب . . بل لابد أن يكون قد بلغ الحادية عشرة من عمره . . وفوق هذا فإن القانون يحتم على كل ملتحق بأى مدرسة أجنبية - بعد هذه الشهادة الابتدائية وبعد هذا السن - بأن يتعلم اللغة التركية جنبا إلى جنب مع اللغة الأجنبية على مدى مراحل التعليم . . هذا ما تفعله تركيا المتغربة . . أما مصر - بلد الأزهر الشريف - فكم ذا بها من المضحكات . . وهو فى الحقيقة ضحك أمر من البكاء . . كما قال المتنبى قديما!!

التعليق :

(حسبنا الله ونعم الوكيل)

بين المجلة .. والقارئ

إعداد وتقديم / عادل رفاعى خفاجة

معاهدة سيكو / بيكو

عفواً عزيزىء القارىء.. ليس هذا خطأ فى الطباعة، فلن نتحدث عن معاهدة سايكس ـ بيكو الشهيرة. ولكن عن معاهدة أخرى تمت بدار للحضانة، وإنى أدعوك لتتعرف على هذه المعاهدة من خلال ما سأقصه عليك:

عاد عبدالرحمن إلى المنزل بعد أن قضى يومه في الحضانة، تناول غداءه، وقام يقفز هنا وهناك حتى نال منه الجهد، جلس يشاهد برامج الأطفال المحببة إليه.

لاحظ الأب أن وقت النوم قد حان ولم يجلس الطفل ليكتب واجبه المنزلى المعتاد، نبه الأب صغيره إلى ذلك، لكن الصغير أجاب بثقة كبيرة: « لا دراسة غداً »، ولكن الأب أكد لابنه أن غداً دراسة، ووجدها فرصة ليشرح لصغيره أن الاجازات تكون أيام الجمع وأيام الأعياد وو.... إلخ.

أوقف الطفل شرح أبيه بثقة أكبر قائلاً: ان غداً ليس اجازة.. لكنه « سيكو ـ بيكو ».

بدت الدهشة على وجه الأب الذى تساءل عن معنى ذلك اللفظ العجيب!!

فإذا بالمدرس الصغير يقول: إنه يوم عادى ليس اجازة، ولكن « مس[1] فلانة » إذا أرادت أن تتغيب تقول لنا: إن غداً (سيكو ـ بيكو) حتى لا يحضر أحد.

أنهى الطفل كلامه وعلى وجهه علامات الاستعجاب والاستغراب لحال أبيه، وكأن ما قاله من المنطق بمكان!!

بدت على وجه الأب علامات الأسف وقال:

---

١ ـ كلمة مس ((MISS كلمة انجليزية تعنى: «الآنسة»، تستخدم هذه الأيام بدلاً من الكلمة العربية «المدرسة» يحدث هذا فى معاهد العلم المنوط بها تعليم اللغة العربية، ونحن نعقد المؤتمرات للارتقاء بشأن اللغة العربية.. فهل يوافق قولنا ما ننادى به!!

ليتنى أدخلت ابنى الأزهر.

قلت له: يا صديقى العزيز إن المشكلة ليست فى التربية والتعليم أو فى الأزهر.

إن المشكلة تكمن فى «مس فلانه» كما ترى، وهى مشكلة: «مدرس اليوم» الذى تغيَّر كثيراً.

إننا لا ننسى كيف كان مدرسونا يحاولون ايجاد بعض الوقت لمزيد من الشرح إما قبل طابور الصباح بساعة أو بعد نهاية اليوم الدراسى يفعلون ذلك بدون مقابل لا يبتغون الثواب إلا من الله - تعالى -، كان أكثرهم يفعل ذلك وكانوا يأتون من أماكن بعيدة يعلمون أنهم أصحاب رسالة.

أما مدرس اليوم فإنه يبحث عن كيفية إهدار الوقت، كما رأينا!!.

لقد دعانى إلى كتابة هذه القصة أمران:

الأول: أننا نستعد لاستقبال عام دراسى جديد، نأمل ألا تكون فيه مثل هذه الاتفاقيات.

الثانى: ما كتبه فضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى رئيس تحرير «مجلة الأزهر» وعضو مجمع البحوث الإسلامية تحت عنوان: كتب ومذكرات بجريدة صوت الأزهر يوم الجمعة ١٣ من جمادى الأولى ١٤٢٢هـ حيث تناول الكتاب فى الماضى والحاضر. وأوضح الفارق بين كتاب تلميذ الابتدائى البسيط فى الماضى، وحمله الثقيل فى الحاضر وأن المدرسة الابتدائية كانت لسنوات خلت، لا تهيىء للتلميذ غير كتيب فى كل مادة فكان ما يحمله لا يلفت نظر مشاهد وكانت هذه الكتب القليلة ذات محصول جدى يهدف إلى اللباب دون القشور وكيف اتسعت تلك الكتب اتساعا مفرطاً بحيث يشفق الإنسان على ذلك الطفل الصغير بالمدرسة الابتدائية حين يجده حاملا حقيبة منتفخة ينوء بها!!

نقول للمسئولين عن التربية والتعليم فى بلدنا:

- لقد تضخم الكتاب المدرسى واضطر التلاميذ للبحث عن كتاب خارجى.

- وتخلى المدرس عن واجباته، ولجأ التلاميذ وأولياء الأمور إلى البحث عن مدرس خصوصى.

واتسع الأمر لتدخل الدروس الخصوصية فصول المدرسة تحت مسمى «فصول التقوية»، ثم يتسع الأمر أكثر حين تضم فصول التقوية كل طلاب الفصل بدلاً من الطلاب المحتاجين إلى معاونة فقط؛ ليتضح أن الهدف هو جمع المال ليس أكثر، والسؤال الذى يطرح نفسه تلقائياً: ما الفرق بين شرح المدرس صباحاً وبين شرح نفس المدرس آخر النهار مادام عدد الطلاب هو.. هو .. والمدرس نفس المدرس.

لا أعتقد أن هناك فرقًا غير طلاب أكثر تركيزاً ومدرس أكثر نشاطًا صباحًا، وخمول يلحق الطرفين آخر النهار.

ثم يزداد الأمر سوءاً حين تزحف تلك الدروس الخصوصية لتصل إلى مرحلة الحضانة!!

وعلى الطفل أن يلتحق بهذه الدروس الخصوصية أو أن يسبقه زملاؤه ويتخلف هو بقية سنوات عمره!! فأى ابتزاز يفوق هذا؟!

نأمل أن يكون لدى الوزارة حل.

بيـــن الجـــد والفاكهـــة

إن ما يجب علينا أن نثبته هنا ونثنى عليه هو ذلك التواضع الجم وذلك التعاون المثمر الذى يثرى «باب القراء» بأقلام أساتذة كبار مثل:

الأستاذ الدكتور فرج كامل سليم الذى شارك معنا فى العدد السابق

والأستاذ الدكتور عبداللطيف الحديدى الأستاذ بجامعة الأزهر الذى يشارك معنا فى هذا العدد حيث أرسل يقول:

نشرت مجلة الأزهر طرفة شعرية فى العدد الماضى عن (الأرشانة) وطلبت المجلة بعض ما ينتمى لهذه الفكاهات.

وعندى طرفه شعرية قالها الشاعر الأديب الدكتور محمد حسين عبدالحليم عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة، صاحب الطرفة الشعرية السابقة وهى تتحدث عن عريف بعض الكتاتيب فى الريف حين يُصرّ كل عام بمناسبة شم النسيم أن يحضر كل صبى أرنبا حيا ليشترك مع زملائه فى غداء جماعى مع إحضار قدر من الأرز، وعدد الأطفال يفوق الخمسين، فيقوم بذبح حوالى خمسة أرانب فقط ويلتهم التلاميذ هذا اليسير مما قدم لهم، أما باقى الأرانب فيذهب إلى منزل العريف لتقوم الزوجة ببيعه تباعا فى سوق الثلاثاء، ولتذبح منه إذا احتاجت إلى لحم.

هذه الواقعة التى كانت تتكرر كل عام قال فيها الدكتور محمد حسين عبدالحليم - حفظه الله - متفكهاً:

عريفى الهمام له حيلةٌ
تدلّ على منتهى الشيطنهْ
يضمُّ الأرانب فى بيته
ليأكل منها جميع السنهْ
وما ليس يؤكل يمضى به
إلى السوق كالسلعة الهنيهْ
ونكتم من خوفنا أمره
ومن حقنا اليوم أن نعلنهْ

المحرر: كم نتمنى لو نتعرف على أحفاد هذه الأرانب التى تخص الدكتور محمد حسين عبدالحليم - حفظه الله - فنستعيدها له، إذن لسمعنا لعودتها أعذب مما قال لذهابها.

فى الإيمان بالله وقاية من الشائعات

أما رسالة الأستاذ / عبدالسلام محمد وحيد عمرى.. مدرس العلوم الشرعية بمعهد أبنوب- أسيوط فقد ورد فيها:

قال الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾(١).

ستظل الشائعات دوما الخطر الداهم الذى يهدد كيان بنى الإنسان فكم للشائعات من ضحايا على مر الأزمنة فبسببها كم من أواصر قطعت، ورحم أهملت وعادى الأخ أخاه، وطلق الزوج زوجته وتبرأ الوالد من ولده وتنكر الولد لوالده.

وكم من حروب اشتعلت ونار استعرت بسبب الشائعات. فالشائعات دمار على مستوى القبيلة والقرية والمدينة والدولة والدول والشائعات لا تصدر إلا من منافق أو عدو حاسد أو جاهل مكابر.

فالمنافق لا يحب الاستقرار للفرد ولا للمجتمع ومن أجل ذلك يذيع الإفك وينشر الباطل ويخون الأمانة.. ولقد بصرنا رسول الله ﷺ بعلامات النفاق فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا اؤتمن خان».

متفق عليه

أما العدو فإنه ينتهز فرصة يجد من خلالها التنفيس عما بداخله من نار العداوة والحسد فيردد الشائعات ويظهر الشماتة فيقع فى الخطيئة التى تؤدى به إلى الهلاك قال النبى ﷺ: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» رواه أبو داود، كما أن إظهار الشماتة يكون سبباً فى ابتلاء الشامت قال رسول الله ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك» رواه الترمذى.

والجاهل أيضا بعدم وعيه ومكابرته يقع فيما لا تحمد عقباه.

وللوقاية من الشائعات. يجب على المسلم التثبت من الأخبار عملاً بقول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾(٢).

والإعراض عن مجالس اللغو واللهو والمحرمات قال الله تعالى موجهاً نبيه ﷺ بصفة خاصة وكل مسلم فى كل زمان ومكان بصفة عامة:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(٣).

---

(١) الحجرات الاية ٦.

(٢) الحجرات الاية ٦.

(٣) الأنعام ٦٨.

وقد مدح الله المؤمنين فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾(٤).

والبعد عن الشبهات عملاً بقول النبى: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات. وقع فى الحرام»(٥).

فيجب على المسلم ألا يضع نفسه موضع شبهة فعلاً أوقولا أو سلوكا.. كما يجب عليك أيها المسلم تجلية الموقف والأفعال والتصرفات وتفسير وتوضيح الكلمات إن شعرت أن لبسا قد حدث فى موقف أو تصرف أو فى فهم الكلمات التى خرجت من فيك خشية أن يوسوس الشيطان لمن شاهدك أو سمعك بسوء وإليك أيها القارئ الكريم هذا الموقف التربوى لرسول الله ﷺ والذى ترويه أم المؤمنين صفية رضى الله عنها «كان رسول الله ﷺ معتكفا فأتيته أزوره ليلا، فحدثته ثم قمت فأنقلبت فقام معى ليقلبنى - أى ليصرفها - فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا فقال النبى ﷺ: على رسلكما إنها صفية بنت حيى. فقالا: سبحان الله يارسول الله فقال: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وانى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا. أوقال. شرا»(٦).

وختاما: فليعلم أولئك الذين يروجون الشائعات أن الكلمة الخبيثة لا بقاء ولا قرار لها.

من إبداعات القراء:

وليستمر الشذى يرسل الأستاذ / محمد سليم الدسوقى هذه المقطوعة الشعرية

دلائـــل للـــه فى الخلقـــة

(١) دنَــوْتُ لــذاتِــك فــى خــلْــوَتِــى ... وعطّرتُ من روْضِـــهـــا جَنتِى

(٢) أرُشُّ عــبــيــرَ الضّــيــاء الوثِــيــر ... علـى لُجّـــة الموْج والصّـــخــــرةِ

(٣) وأرسُـمُ فــوق الفــضــاء الفــســيح ... بـدُوراً تـنـوّرهـا ضَـــحـــــوتـى

(٤) فــمــشْـكاةُ عـــرْش مليك الملوك ... تُضَـــوِّى، تبـــدّد أمـــســـيّــتى

(٥) ويخـــتـلجُ الكونُ ذاك البـــديع ... دلائـل لـلـه فـى الخِـلـقـــة

(٤) المؤمنون٣.
(٥) رواه البخارى ومسلم.
(٦) رواه البخارى ومسلم.

أنباء العالم الإسلامى

إعداد الأستاذ / محمد الشرقاوى

مكتبات إسلامية شاملة لـ ١٥ دولة بأمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا

أهدى الدكتور محمود حمدى زقزوق - وزير الأوقاف - عدة مكتبات إسلامية شاملة ومتميزة من المطبوعات التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية باللغة العربية ومختلف اللغات الأجنبية إلى ١٥ دولة بأمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا وروسيا وبعض الدول العربية.

وتتضمن هذه المكتبات أمهات الكتب وكتب التعريف بالإسلام وقرص الليزر (CD) المسجل عليه الموسوعة الإسلامية المتكاملة والتى تتضمن عدداً هائلاً من المعلومات الإسلامية من مراجع وفتاوى وترجمة لمعانى القرآن الكريم بست لغات هى: الفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية والروسية والأندونيسية، وموسوعة للأحاديث الشريفة وغيرها من المفاهيم الإسلامية الهامة، إضافة إلى المصحف المعلم والمصحف المرتل بصوت الشيخ الحصرى. وسيتم تصدير عدد من المكتبات والمطبوعات إلى ١٦ من المراكز الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

عقيدتى

١٤/٨/٢٠٠١م

دور القضاء الإسلامي في الهند

قرر مجلس مسلمي الهند لقانون الأحوال الشخصية إنشاء دور للقضاء الإسلامي في عدد من مناطق الهند ـ وصرح الشيخ «مجاهد الإسلام قاسمي» رئيس المجلس بأنه تم إنشاء معهد في مدينة باتنا لتخريج القضاة والمفتشين، وقد تخرجت فيه دفعتان حتى الآن ـ .

الأهرام

٢٠٠١/٧/٢٥م

دراسة ألمانية حول مشكلات المسلمين في ألمانيا

يعاني المسلمون في ألمانيا من أزمات في ممارسة دينهم بشكل طبيعي، هذه النتيجة توصلت إليها دراسة ألمانية جديدة. وتكشف الدراسة التي أعدتها مؤخراً مؤسسة فريدريك إيبرت المقربة من الحزب الديمقراطي الاجتماعي الحاكم في ألمانيا عن وجود أزمات في العديد من مناطق ألمانيا بشأن بناء المساجد. ولاحظت الدراسة وجود مشكلات على صعيد ممارسة بعض الشعائر الإسلامية في مواقع العمل كالصلاة، والصيام، وارتداء النساء المسلمات للزى الإسلامي الشرعي في القطاعات العامة، وتحدثت الدراسة التي حملت عنوان «الحياة اليومية الإسلامية في ألمانيا» عن بعض الجوانب والصعوبات الأخرى التي تعترض المسلمين.

● نأمل أن تسفر هذه الدراسات عن نتائج طيبة على طريق حصول الأقليات الإسلامية في بلاد أوروبا على حقهم في ممارسة شعائرهم الدينية.

اللواء الإسلامي

٢٦ من يوليو ٢٠٠١م

الإعداد لترجمة عبرية للقرآن الكريم

يعتزم مجمع الملك فيصل لطباعة المصحف الشريف إصدار ترجمة صحيحة لمعاني القرآن الكريم باللغة العبرية !!..

وفي بيان صادر عن وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية أن المجمع انتهى الآن من طباعة ثماني وعشرين ترجمة آسيوية وأفريقية وأوروبية ليصل بذلك مجموع لغات الترجمات إلى تسع وثلاثين لغة عالمية.

الأهرام

٢٠٠١/٧/٢٧م

إذاعة إسلامية لمسلمي أوروبا وآسيا

قررت مؤسسة الوقف الإسلامي لمسلمي هولندا إنشاء إذاعة إسلامية تغطي أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى لنشر الثقافة الإسلامية لمسلمي هذه البلاد.

تذيع الإذاعة برامجها بالهولندية والألبانية بالإضافة إلى لغات البلاد التي شملها إرسال الإذاعة.

الجمهورية ٣ / ٨ / ٢٠٠١

مركز إسلامي كبير في أديس أبابا

أعلنت لجنة مسلمي إثيوبيا للتنمية والإغاثة تنفيذ خطة خمسية سيتم من خلالها بناء العديد من المساجد والمراكز والمعاهد الإسلامية من بينها مركز إسلامي كبير في العاصمة أديس أبابا. ودعا الحاج أدان ألمانا ـ رئيس اللجنة العربية والإسلامية ـ إلى تقديم الدعم لإخوانهم المسلمين في إثيوبيا ومساعدتهم على إنشاء هذه المعاهد والمراكز وقال ألمانا: إن اللجنة كانت قد تأسست منذ ثلاثة عشر عاماً من أجل رفع مستوى المسلمين في إثيوبيا وإخراجهم من دائرة الفقر والجهل من خلال الاستفادة من الثروات الطبيعية التي تذخر بها بلادهم.

الأهرام

٣ / ٨ / ٢٠٠١م

مساعدات إلى المسلمين في الصين

أجرى الدكتور أحمد شريف أمين عام جمعية الدعوة الإسلامية العالمية محادثات في بكين مع مسئولي الجمعية الإسلامية الصينية برياسة الحاج ـ هلال الدين تشن جوانج يوان ـ حول التعاون بين الجانبين والمساهمة في عدد من المشروعات التي تنفذها الجمعية الصينية لخدمة المسلمين في الصين.

وأضاف أن جمعية الدعوة الإسلامية تعمل بالتنسيق مع الأزهر الشريف والعديد من الهيئات والجمعيات الإسلامية في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي لتقديم العون للمسلمين في شتى مناطق العالم وتعريف المسلمين الجدد بأساسيات دينهم بأسلوب بسيط يسهل عليهم فهمه واتباع قواعده.

الأهرام

١٠ / ٨ / ٢٠٠١م

***

أنباء مكتب شيخ الأزهر

لفضيلة الشيخ / عمر البسطويسى

الإمام الأكبر:

من حق الفلسطينين أن تكون لهم دولتهم

• استقبل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر بمكتبه السيد جراهام بويس السفير البريطانى بالقاهرة وذلك بمناسبة انتهاء فترة عمله كسفير لبلاده فى القاهرة.

رحب فضيلته بالضيف فى الأزهر مشيدا بالتعاون بين جمهورية مصر العربية والمملكة المتحدة، وأوضح فضيلته أن للأزهر مبعوثين لدى المملكة المتحدة يقومون بشرح الإسلام وإظهار سماحته ويسره فى المراكز الإسلامية ،

وقال فضيلته إن الارتقاء بالحوار من أجل التقارب وتوضيح الصورة الصحيحة والحقيقية للإسلام الحنيف أمر لا خلاف عليه، وقد حمل فضيلته السيد السفير إبلاغ تحياته وتقديره إلى الصديق رئيس أساقفة كانتربرى لرجاحة عقله، وأيضاً إبلاغ تحياته للسيد تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا لما له من تفكير سديد وعقلية ناضجة، وكذلك إبلاغ تحياته للسيد / روبن كوك.

وطلب فضيلته أن تقف المملكة المتحدة إلى جانب الحق لمساندة إخواننا فى فلسطين لأن من حقهم العيش على أرضهم وأن تكون لهم دولة يمارسون فيها حقوقهم المشروعة، وما نراه الآن من ظلم يقع على الفلسطينيين أمر لا نرضاه ولا يرضاه أى عاقل، وعلى المملكة المتحدة أن تتحمل المسئولية، وأن تدافع عن الحق وأن تمنع الظلم لما لها من كلمة مسموعة وثقل فى المجتمع الدولى شكر الضيف فضيلته وأشار إلى أنه سيقوم بإبلاغ حكومته رسالة شيخ الأزهر، لأن ما يحدث فى فلسطين هو اهتمام مشترك، وأن هناك الكثير من المتابعة والضغوط من المملكة المتحدة حتى تأتى بنتائج لضمان السلام والأمن فى المنطقة لرجوع الحقوق للفلسطينيين.

***

وكيل الأزهر: رسالة الأزهر هى تعليم أبناء المسلمين

● استقبل فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف نائبا عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر وفد الجمعية الإسلامية الصينية للإخاء والثقافة بهونج كونج بالصين برياسة السيد / محمد نور الدين يانغ رئيس الجمعية.

رحب فضيلته بالوفد فى مصر وأزهرها الشريف شارحاً لهم مراحل التعليم فى الأزهر الشريف وتطور الدراسة به لمواكبة العصر وأن المعاهد الأزهرية تضم معاهد نموذجية من الحضانة والابتدائى والإعدادى والثانوى، وأيضاً فإن الكليات الأزهرية بها كليات نظرية كالشريعة والقانون، واللغة العربية، وأصول الدين، والدراسات الإسلامية، والعربية، ومنها الكليات العملية كالطب، والهندسة، والزراعة، والعلوم، واللغات والترجمة، والتربية الرياضية، ومنها كليات فى القاهرة والاسكندرية وعواصم المحافظات والكليات بجامعة الأزهر الشريف تستوعب جميع الطلاب الأزهريين الذين أكملوا الدراسة الثانوية الأزهرية وأوضح فضيلته بأن الأزهر الشريف بصدد تشغيل خط على الإنترنت يتم من خلاله عرض جميع المخطوطات والوثائق العلمية التى تحتويها مكتبة الأزهر الشريف والتى تعين الباحثين والدارسين فى الحصول على المعلومات التى تساعدهم على أداء مهامهم العملية والثقافية والإسلامية من مصادرها الأصلية.

كما أشار إلى أن رسالة الأزهر الشريف هى تعليم أبناء المسلمين وتثقيفهم فى الأزهر الشريف وبيان سماحة الإسلام ويسره ووضوحه بعيداً عن المغالاة والتعصب، كما أن للأزهر الشريف بعثات من العلماء يوفدون إلى معظم بلدان العالم فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا، لتعليم المسلمين فى بلادهم، كما أن الأزهر يعقد دورات تدريبية لأبناء العالم الإسلامى من الأئمة والدعاة مدة الدراسة بها ثلاثة شهور يتعلمون فيها القرآن والفقه والتفسير والحديث والعلوم الأخرى على يد أساتذة وعلماء كبار وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ويستقبل طلاب أكثر من ٩٤ دولة للدراسة على منهج الأزهر الشريف ويقيمون فى مدينة البعوث الإسلامية ويتعلمون فى الأزهر الشريف معاهده وكلياته.

وأجاب فضيلته عن أسئلة واستفسارات الوفد والتى تدور حول دور الأزهر فى

القضايا الإسلامية المعاصرة، وفى كيفية الإصلاح بين الدول الإسلامية المتحاربة.

وفى نهاية اللقاء شكر الوفد فضيلة وكيل الأزهر على حسن الحفاوة وأبدوا سعادتهم بهذا اللقاء وهذه الزيارة للأزهر الذى هو منارة الإسلام للعالم كله، وطلبوا زيادة المنح الدراسية لأبناء الصين للدراسة بالأزهر.

نتيجة الابتدائية الأزهرية

● اعتمد فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر نتيجة امتحان الدور الثانى للشهادة الابتدائية الأزهرية للعام الدراسى ٢٠٠٠ / ٢٠٠١ حيث تقدم لأداء الامتحان ٣٤١٢١ طالبا وطالبة حضر منهم أداء الامتحان ٣٢٩٣٩ طالبا وطالبة نجح منهم ٨٣ ٢٤٧ طالبا وطالبة، وبلغت النسبة المئوية للنجاح فى الدور الثانى ٧٥,٢٤٪ ولما كانت النسبة المئوية للنجاح فى الدور الأول ٩٦,٧٣٪ وبذلك تصبح النسبة المئوية للنجاح فى الدورين الأول والثانى معاً ٩٢,٠٨٪.

افتتاح معاهد أزهرية جديدة

● قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بافتتاح معهد الحاجة / صفية الإعدادى الثانوى فتيات والمسجد الملحق به الكائن بشارع ترعة الإسماعيلية المطرية القاهرة، والمعهد بنى على نفقة الأستاذ الدكتور طلعت السيد أحمد يوسف ومقام على مساحة ٣٠٦٠م٢ ومكون من خمسة طوابق وبه ٢٩ فصلاً دراسياً، وعدد ٧ حجرات للإدارة ومعملين وحجرتين للتحضير والمحاضرات وشيد المعهد طبقاً للمواصفات الخاصة بالأبنية التعليمية وأثث بأثاث على أحدث النظم التعليمية وتكلف إنشاؤه حوالى مليون ونصف المليون جنيه ويستقبل الطلاب هذا العام، وتكلف إنشاء المسجد الملحق به حوالى المليون جنيه.

كما قام فضيلته بتفقد إنشاء وأعمال البناء والتشطيب لمعهد الدكتور محمود طلعت الفقى الإعدادى الثانوى فتيات بمعهد حلمية الزيتون وهو مكون من أربعة طوابق ويحتوى على ٢٤ فصلاً دراسياً، وثلاث حجرات للأنشطة، ومعملين وأربعة حجرات للإدارة والمعهد مقام على مساحة ١٣٢٠م٢ وبلغت تكلفته حوالى المليون ونصف المليون جنيه وسيتم تجهيزه للافتتاح فى العام الدراسى الجديد.

رافق فضيلته فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر وفضيلة الشيخ محمد أبوالعلا رئيس قطاع المعاهد الأزهرية ووكلاء قطاع المعاهد ورئيس الإدارة المركزية لمنطقة القاهرة الأزهرية.

الإمـام الأكبـر:

محاولة بث الفتنة لن تجدى

● استقبل فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بمكتبه القمص شاروبيم الباخومى نائب البابا بالاسكندرية يرافقه الأب أنطنيوس، حيث دار اللقاء حول الأخوة وتوطيد العلاقات الطيبة.

كما قام الضيفان بلقاء فضيلة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر الشريف الذى أكد على أن اللقاءات التى تجمع بين المسلمين والمسيحيين هى لقاءات طيبة وبناءة وحيوية، وأن محاولة بث الفتنة أو النيل من قوة مصر لن تجدى لأن شعب مصرى قوى ومترابط مهما حاول المغرضون الذين يتربصون للنيل من قوة مصر واقتصادها، وأكد على عمق العلاقات والترابط منذ القدم وقبل دخول الإسلام مصر، كما أضاف الأب شاروبيم بأن العقل المفكر هو الشعب المصرى، ولذلك فهو مستهدف، ولكن الوعى المصرى يقف صلباً أمام التحديات، ولن يستطيع أحد النيل من قوة وترابط المسلمين والمسيحيين فى مصر وقد وجها الدعوة لفضيلة وكيل الأزهر لزيارة الكنيسة

الإمام الأكبر فى محافظة الشرقية

● بدعوة كريمة من السيد الأستاذ الدكتور/ حامد محمود شتلة محافظ الشرقية قام فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بزيارة محافظة الشرقية حيث التقى فضيلته بالسيد المحافظ والسيد محمد المسلمى سكرتير عام المحافظة والمسئولين التنفيذيين والشعبيين، والتقى برجال الصحافة والإعلام وأجاب عن أسئلتهم واستفساراتهم حول الاجتهاد وقال مرحباً بالاجتهاد فى الدين طالما فى حدود الحق والعدل وعنده وسائل الاجتهاد، ونحن لا نستطيع أن نكمم الأفواه ولكل إنسان أن يجتهد ومن كان اجتهاده خطأ صححنا له خطأه

وعن نقل الأعضاء قال فضيلته: إن نقل الأعضاء لا يمثل مشكلة مادام يتم عن طريق التبرع التام الخالص لوجه الله - عز وجل - وبموافقة الأطباء وهو لون من الإيثار الذى مدحه الله - عز وجل - فى قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(١).

والذى نمنعه هو المتاجرة بالأعضاء وبيعها لأن جسد الإنسان ليس محلاً للبيع أو الشراء

(١) الحشر (٩).

إلى غير ذلك من الأسئلة حول ما يفعله اليهود بالمسجد الأقصى وما يسمونه هيكل سليمان على أنه تحت المسجد الأقصى أو قريب منه قال فضيلته: إن سيدنا سليمان نبى من أنبياءالله نجله ونحترمه أعطاه الله ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده والحديث عن هيكل سليمان لا أساس له من الصحة ولا أساس له من الناحية النقلية أو العقلية لأن سيدنا سليمان توفى منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، والأمور التى تركها أمور مضى عليها الزمان وجاء بعده أقوام وأقوام.

ثم توجه فضيلته والسيد المحافظ والوفد المرافق لفضيلته إلى المجمع الإسلامى بعزبة الحاج عبدالرحمن سمرى - القضاة مركز كفر صقر حيث قام بافتتاح المجمع، وقد قام ببنائه بالجهود الذاتية الحاج عبدالرحمن سمرى على مساحة ١٢ قيراطا ويتكون من أربعة طوابق ويضم معهداً ابتدائياً يشتمل على ١٣ فصلا دراسيا، ومعهدا إعداديا ويشتمل على تسعة فصول، ومعهد ثانوى ويشتمل على ٩ فصول ومسجد مجاور للمجمع الأزهرى وقد تكلف إنشاء المجمع والمسجد أكثر من مليون جنيه.

ثم تحدث فضيلة شيخ الأزهر فى السرادق المقام والذى تجمع فيه أكثر من ثلاثة آلاف شخص من العلماء والأهالى والإعلام والصحافة فقال: إن عدد المعاهد الآن على مستوى الجمهورية أكثر من ستة آلاف معهد ابتدائى وإعدادى وثانوى بنين وبنات ومعظمها بالجهود الذاتية ويوجد فى محافظة الشرقية وحدها أكثر من سبعمائة معهد أزهرى وقال: إن فى الشرقية أقدم معهد الزقازيق الدينى الأزهرى والذى تعلم ودرس فيه العديد من علماء الأزهر الكبار وعلى رأسهم العالم الجليل المرحوم أستاذنا الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى ندعو الله - عز وجل - أن يحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وقال: عندما كنا طلابا فى الأربعينيات كان عدد المعاهد الأزهرية قليل جداً لا يتعدى ثمانية معاهد دينية واليوم والحمد لله يقوم أهل الخير والفضل ببناء المعاهد الأزهرية لتعليم القرآن وعلومه وعلوم اللغة العربية والفقه والحديث والعلوم الحديثة فيشع فيها العلم النافع وحينما ننظر إلى هذا المبنى الفخم الجميل نقول: الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله كى ألحق بالمجمع الأزهرى مسجداً أسس على تقوى الله ورضوانه ندعوا الله - عز وجل - أن يجعل هذا العمل فى ميزان حسنات من

قام ببنائه يوم القيامة كما ندعوه سبحانه أن يبارك فى شعب محافظة الشرقية رجالاً ونساء شيبا وشبانا، حكاما ومحكومين، وأن يجعل مصر فى خير وألا تمد يدها إلا إلى خالقها - عز وجل - ونحن فى عصر تتنافس فيه الأمم بالعلم وعندما ينتشر العلم النافع فى أمة من الأمم لابد أن تتقدم وترقى ويسودها الرخاء والأمن والاستقرار ولأن فضيلة العلم ميز الله بها أبانا آدم على الملائكة قال تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾(٢).

فالميزة التى ميز الله بها أبانا آدم على الملائكة أنه أعطاه علماً لم يعطه الملائكة.

وتحدث الدكتور/ حامد شتلة محافظ الشرقية الذى قدم الشكر لفضيلة الإمام على حسن رعايته واهتمامه بهذه الزيارة التى كانت الاستجابة فيها سريعة فقال: إن العلم مطلوب لكل مسلم ومسلمة ودعا إليه القرآن الكريم فقال:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾(٣)

والمتغيرات الحديثة التى يمر بها العالم أجمع تتطلب علماً عميقاً لأنه السبيل الوحيد للتنمية، والجهود الذاتية مطلوبة ليعم الخير أرجاء مصر، ومصر ستظل - إن شاء الله - بخير بأزهرها الشريف وعلمائها الأفاضل.

مصر ستبقى وفية لعهودها من أجل القدس

● التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بطلاب الجامعات والمعاهد العليا بمعهد إعداد القادة بحلوان وبحضور الأستاذ الدكتور عبدالهادى الجوهرى مدير المعهد وقال فضيلته: إن مصر التى تقف دائماً إلى جانب الشعب الفلسطينى ستبقى وفية لعهودها من أجل القدس الشريف أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى سيدنا رسول الله ﷺ، وبالنسبة للتبرع بالأعضاء قال: إذا كان

(٢) البقرة (٣١:٣٣).

(٣) العلق (١:١٩).

التبرع من أجل المحافظة على صحة إنسان آخر فهو لون من الإيثار الذى مدح الله – تعالى – أصحابه فى قوله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٤)

أما إذا كان على سبيل البيع والحصول على المال فهذا حرام لأن جسد الإنسان ليس محلاً للبيع والشراء، وأوضح فضيلته أن الإعلانات فى وسائل الإعلام المقروءة والمرئية يجب ألا تتنافى مع مكارم الأخــلاق ويجب أن تكون هناك ضوابط لمثل هذه الإعلانات، وأى إعلان يشتمل على الرذيلة ويأتى بشكل فاضح ويتنافى مع القيم والآداب الإسلامية النبيلة، فالإسلام ضده ونحن لا نقره وهو حرام، والاعلانات التى تقدم خدمات معينة للناس ومنها الإعلان عن ندوة أو محاضرة أو مدرسة إلى غير ذلك فهذا لا شئ فيه.

وعن شرعية الحصول على جوائز من برامج التليفزيون قال فضيلته: إذا كانت الجوائز مقابل عمل شريف مثل التى تمنح للنابغين من الطلبة والعلماء فهى حلال، أما إذا كان الحصول عليها مقابل عمل قبيح فهى حرام، وإذا نظمت مسابقة لحفظ القرآن الكريم ورصدت لها الجوائز فهى حلال بالإضافة إلى الجوائز التى تعطى للنابهين والنابغين والمتفوقين.

وبالنسبة لقوانين الأحوال الشخصية وهل هى مستمدة من الشريعة الإسلامية والحكم الشرعى هو السائد وتتراوح النسبة التى لم يتم تطبيقها من الشريعة بين ١ إلى ٢٪ فقط.

وأشار إلى أن الاستنساخ إذا كان من أجل زيادة الإنتاج النباتى والحيوانى فهو حلال.

وحول سؤال عن مشروعية الختان للإناث قال فضيلته: إن مسألة ختان الإناث مسألة اختيارية لم يرد فيها حديث صحيح يأمر بختان الإناث وهو عادة وليس عبادة ولا علاقة لها بالدين فهى مسألة اختيارية وليست إلزامية، وحول سؤال عن مزاعم اليهود بوجود بقايا هيكل سليمان – عليه السلام – أسفل المسجد الأقصى أو بالقرب منه، قال فضيلته: إن هيكل سليمان الذى تدعى إسرائيل وجوده فى أرض المسجد الأقصى أكذوبة ولا يوجد شئ بهذا الاسم وإنما هى دعاوى من اليهود ولا دليل عليها، وأكد على أن مصر رئيسا وحكومة وشعبا تقف إلى جانب إخواننا فى فلسطين تؤازرهم وتناصرهم وتعاونهم وتمدهم بكل عون ومساعدة وقد خاضت مصر أربعة حروب وضحت بآلاف من الشهداء والكثير من الأموال من أجل فلسطين وستبقى مصر بعون الله

---

(٤) الحشر (٩).

وفية لعهدها تجاه القدس الشريف ونصرة الشعب الفلسطينى، وأكد فضيلته على ضرورة تحصيل العلم النافع وطلب الاستزادة منه لأن طبيعة المنافسة تقوم بين الأمم على العلم والتفوق فيه وحث طلاب الجامعات والمعاهد على ضرورة التفوق والنبوغ العلمى وأن يكونوا مثالاً للرقى العلمى والانضباط والتحلى بمكارم الأخلاق، والتمسك بالقيم النبيلة وجميع الشرائع تدعو إلى نشر العلم النافع، والعالم الآن يتطور بصورة سريعة ومذهلة، والإسلام بل والأديان كلها ترحب بكل تفوق علمى مادام يستخدم فى الخير والتقدم والإصلاح لصالح البشرية وخدمة الإنسان، ولقد جاءت الرسل جميعاً برسالة واحدة فى جوهرها دعوة الناس إلى وحدانية الله - سبحانه وتعالى - والأزهر الشريف يرحب بكل تفوق ورقى علمي وقد تم شراء ٧٠٠ جهاز كمبيوتر لتوزيعها على المعاهد الأزهرية حتى تتمكن من متابعة العلم الحديث، لأن تعلم هذه العلوم أصبح من مستلزمات العصر.

الإمام الأكبر يلتقى بطلبة البعوث الإسلامية

● التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بطلبة البعوث الإسلامية بمعسكر الطلاب بالإسكندرية فى الملتقى الثقافى وقال فضيلته: نشكر أولاً وسائل الإعلام على اختلاف ألوانها المرئية والمسموعة والمقروءة وعلى رأسها إذاعة القرآن الكريم تلك الإذاعة التى نسمعها على مدى ٢٤ ساعة تبث العلم النافع وتحرص على أن تعرف المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بما يجب عليهم نحو دينهم ونحو أنفسهم ونحو غيرهم وبصفة خاصة نحو إخوانهم المسلمين، ونحمد الله - سبحانه وتعالى - أن وفقنا لكى نلتقى جميعاً على طاعة الله - عز وجل - مع طلبة وطالبات أكثر من ٩٤ دولة جاءوا إلى الأزهر الشريف لكى ينهلوا من العلم النافع ولكى يعودوا إلى أوطانهم وقد تزودا بهذا العلم فيعلموه لأهليهم وذويهم، ونحن نعلم أن الذين يخدمون دينهم وأوطانهم عن طريق علمهم لا يقلون فى المنزلة عند الله - تعالى - عن الذين يبذلون أموالهم وأرواحهم والدليل على ذلك قول الله - تعالى - فى أواخر سورة التوبة:

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾(٥).

(٥) التوبة (١٢٢).

فالآية الكريمة معناها واضح أى ما استقام للمؤمنين أن يخرجوا جميعاً لقتال أعدائهم إذا كان بعضهم يغنى فى قتال هؤلاء الأعداء وإنما الذى يصح ويستقيم، أن يقسم المسلمون أنفسهم إلى قسمين قسم يتفرغ إلى تعليم أنفسهم وغيرهم وقسم يتفرغ لقتال الأعداء.

والأزهر الشريف الذى عمره الآن أكثر من ألف سنة وهب نفسه لخدمة أبناء المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ونحن نشعر بالسعادة النفسية وبالاطمئنان القلبى عندما نجد فى مدن البعوث الإسلامية فى القاهرة والأسكندرية طلبة بهذا العدد الكبير يأتون من دول آسيا وأفريقيا وأوروبا تفتح لهم مصر قلبها قبل أن تفتح أبوابها بكل سرور، ومحبة وأخوة صادقة وتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، عندما نجد أبناءنا من مشارق الأرض ومغاربها يفدون إلى أرض مصر ليتلقوا العلم فى معاهدها بصفة عامة، وفى الأزهر الشريف بصفة خاصة.

لقد استمعنا إلى آيات كريمة من كتاب الله - عز وجل - قرأها علينا الطالب النجيب قبل المحاضرة، والآيات الكريمة تبين لنا كيف أن الله - عز وجل - مدح المؤمنين الصالحين وذكر لنا جزءاً من صفات هؤلاء الصالحين، آيات من سورة الفتح وهى من السور المدنية التى نزلت فى المدينة المنورة على رسول الله ﷺ بعد هجرته من مكة إلى المدينة وكان نزول معظم آياتها بعد صلح الحديبية وهو من الأحداث المشهورة التى تحدثت عنها السيرة النبوية بالتفصيل وملخصها أن الرسول ﷺ رأى أنه يطوف بالبيت الحرام ورؤيا الأنبياء حق وصدق، وطلب من الصحابة أن يخرجوا معه ولكن المشركين منعوهم وتمت معاهدة بين المسلمين وبين أهل مكة وعاد المسلمون فى تلك السنة على أن يرجعوا فى عمرة القضاء، وفى العودة نزلت معظم آيات هذه السورة الكريمة:

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾(٦).

أى لقد صدق الله ما رآه وقال سيدنا عمر - رضى الله عنه - لسيدنا أبا بكر -

---

(٦) الفتح (٢٧).

رضى الله عنه - إن الرسول ﷺ قد أخبرنا أنه سيطوف فى هذه السنة، فالآية تقص علينا ما رآه النبى ﷺ وأن ما رآه سيتحقق إن عاجلاً أو آجلاً وقد تحقق فى عمرة القضاء فى السنة السابعة:

﴿ لقد صدق الله رسوله الرءيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ءامنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾

أى لتدخلن المسجد الحرام آمنين من كل خوف فنعمة الأمان ونعمة عدم الخوف وما وجدت فى أمة إلا وكانت كلمتها هى العليا وكلمة أعدائها هى السفلى، نعمة الأمان عندما تسود فى الأمة يتعاونون على نشر الفضائل وعلى إماتة الرذائل يتعاونون على كل ما يجعلهم يتقدمون ويسبقون غيرهم إلى كل مكرمة، والآية:

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تريهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾(٧).

أرسل محمدا رسول الله ﷺ شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وفيها مدح لأصحابه ﷺ وأتباعه لأنهم يتعاونون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان فهم يقتدون به:

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾(٨).

وهم أشداء على الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وعلى من ينتهكون حرمات الله - عز وجل -، وهم أشداء على من يعتدى عليهم فى النفس أو المال أو العرض أما الذين لا يعتدون علينا ولا يسيئون إلينا فالقرآن يقول:

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ۝٨ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(٩).

ليس معنى ذلك أن المسلمين قساة القلوب على غيرهم وإنما المقصود أنهم أشداء على أعدائهم.

---

(٧) الفتح (٢٩).

(٨) الأحزاب (٢١).

(٩) الممتحنة (٨)، (٩).

بعض الناس يزعم أن الإسلام انتشر بالسيف وبالقتال وهذا زعم باطل فالإسلام انتشر بهدايته وسماحته وعدالته انتشر لأنه دين الفطرة. فطرة الله التى فطر الناس عليها لأنه الدين الذى يبقى ولا يهدم يصلح ولا يفسد يعمر ولا يخرب الدين الذى يجمع ولا يفرق.

ثم قال فضيلته: إن الذين يعتدون على مقدساتنا وديننا وقيمنا وأرضنا كما نرى الآن فى فلسطين نرى الإسرائيليين يبطشون بإخواننا فى فلسطين بطريقة تحرمها الديانات السماوية فعلى الفلسطينيين أن يدافعوا عن أنفسهم ويردوا على المعتدين ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد وعلينا جميعاً بصفة خاصة كمسلمين أن نقف إلى جانب إخواننا فى فلسطين ونمدهم بكل ألوان المساعدة المادية والمعنوية وإذا لم نفعل ذلك نكون مقصرين ويحاسبنا الله - عز وجل ومصر والحمد لله رئيسا وحكومة وشعبا تقدم لهم كل ما يحتاجون إليه والمعونات المستترة أكثر بكثير مما يقدم ظاهراً ولا يكاد يمض أسبوع إلا ويتقابل السيد الرئيس محمد حسنى مبارك مع السيد الرئيس ياسر عرفات للتشاور والتناصح، وقد مدح الله - عز وجل - المؤمنين الذين يتعاونون على البر والتقوى ثم شرح فضيلته الآيات الكريمة وبين صفات المؤمنين فى التوراة وفى الانجيل وفى القرآن.

ثم ختم اللقاء بقوله: نحن سعداء بهذا اللقاء الخالص لوجه الله - عز وجل - ونحن نلتقى لا من أجل شئ من عرض الدنيا وإنما التقينا من أجل خدمة ديننا وأمتنا ومن أجل أن نتناصح ونتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، والأخوة عندما تسرى بيننا نكون قد امتثلنا لقول الله - عز وجل -:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(١٠).

ندعو الله أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وقدم فضيلته الشكر لفضيلة الشيخ فرحات المنجى المشرف العام على مدينة البعوث الإسلامية والعاملين بالمدينة وللسادة الحضور ولوسائل الإعلام.

الإمام الأكبر يلتقى بطلاب العالم الإسلامى

● التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف مع شباب معسكر أبى بكر الصديق بالأسكندرية، بحضور فضيلة الأستاذ

(١٠) الحجرات (١٠).

الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف وقيادات وزارة الأوقاف وعلماء الأزهر والطلاب فى إطار النشاط الثقافى والذى تضمن لقاءات مع كبار العلماء والمفكرين والمسئولين.

ويضم المعسكر نخبة من طلاب جامعات مصر والعالم الإسلامى الذين يدرسون بالأزهر الشريف وهو عبارة عن أربعة أفواج كل فوج يضم حوالى ٥٠٠ طالب وتنظمه وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو للطلبة المتميزين دراسياً ودينياً وأعلن الدكتور محمود حمدى زقزوق أن طلاب أكثر من ٩٠ دولة من طلاب مدن البعوث الإسلامية يشاركون فى هذا الملتقى وأن أبناء ٥٦ دولة من آسيا وأفريقيا وغيرهما يشاركون فى هذا المعسكر مما يؤكد اهتمام مصر والرئيس مبارك البالغ بزيادة المنح الدراسية لشباب العالم الإسلامى والدارسين فى الأزهر الشريف موضحاً أن هناك أكثر من ١٤ ألف طالب وطالبة من مختلف العالم الإسلامى يدرسون بالأزهر الشريف وجامعته بعضهم على منح الأزهر الشريف وبعضهم على منح من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وبعضهم على نفقته الخاصة، وأضاف أن الوزارة تشرف على ٥٦ ألف مسجد، و١١٢ ألف زاوية، وخلال عام واحد سوف تشرف الوزارة على جميع المساجد والزوايا بالجمهورية بهدف ضمان سلامة الكلمة من فوق منابرها،

وأكد فضيلته أن مصر تبنى نفسها بكل قوتها من أجل تقديم الخير لكل فرد فى هذا البلد، وأن الدين الإسلامى يقدس العلم والعمل من أجل الدين والدنيا فهناك ثورة فى عالم الاتصالات والمعلومات والعالم اليوم يتنافس فى مصادر القوة، ومصدر القوة الأساسى هو العلم والذى يملك العلم يملك القوة، والشباب هم عدة الأمم، وعلى أكتافهم تبنى الأمم أوطانها، وقال إنه يجب ملاحقة هذا بالتقدم العلمى، والثورة فى عالم الاتصالات وطالب الشباب بأن يتسلحوا بالعلم لأن الذى يملك العلم يستطيع مواجهة المتغيرات العالمية حتى لا نتخلف عن ركب التقدم.

وأعلن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف أن ما تقوم به مصر بقيادة الرئيس محمد حسنى مبارك لنصرة القضية الفلسطينية واجب دينى مقدس، وأن مساندة الفلسطينيين لاستعادة كامل حقوقهم المشروعة غير منقوصة على ترابهم وأرضهم واجب وفرض على مختلف

الحكومات والشعوب العربية والإسلامية، ومصر تحرص على أن تساعد إخواننا فى فلسطين بكل ما تملك وتقف دائماً إلى جانب الحق وتقف دائماً إلى جانب المظلوم فقد خاضت مصر أربعة حروب من أجل إخواننا فى فلسطين ونقف إلى جانبهم بكل لون من ألوان المساعدة وأوضح فضيلة شيخ الأزهر الشريف أن هناك أنواعاً من الجهاد وأفضلها جهاد النفس وطلب العلم هو نوع من الجهاد وبذل النفس نوع من أنواع الجهاد، والمؤسسات الدينية الآن فى أسمى درجات التعاون من أجل خدمة ديننا ومن أجل خدمة وطننا، هذا التعاون يزيدنا قوة، والقوة هى الحياة، والمسلمون ليسوا قلة وهم يشكلون خمس سكان العالم، والمسلمون الآن فى أشد الحاجة إلى التضامن حتى يمكن لهم أن يدافعوا عن مقدساتهم، فالقدس ليست ملكاً للفلسطينيين وحدهم، بل للمسلمين جميعاً، وننتظر من شبابنا أن يبذلوا كل ما يستطيعون من أجل أن يبنى نفسه علمياً بأسلحة العصر من تكنولوجيا ومعلومات وثقافة من أجل خدمة هذا البلد حتى ينعم بالاستقرار والأمان ويأخذ المكان اللائق به، فالضعفاء ليس لهم فى دنيا الأقوياء مكان أو نصير، مشيراً إلى أن مصر بلد الأمن والأمان وقلعة الفكر الإسلامى بوجود الأزهر الشريف على أرضها، وحث فضيلته الشباب على التمسك بالقيم الإسلامية النبيلة والتردد على المساجد وقراءة القرآن والتمسك بالفضائل وبمكارم الأخلاق، إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا وقد أجاب فضيلته عن أسئلة الطلاب والطالبات واستفساراتهم.

اتفاقية علمية بين الأزهر وماليزيا

● استقبل فضيلته الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر نائبا عن فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ٢ / ٧ / ٢٠٠١م السيد / يعقوب ابن إدريس مدير عام هيئة الامتحانات بوزارة التربية والتعليم بماليزيا، ودار الحديث حول الاتفاقية العلمية والثقافية بين الأزهر الشريف ودولة ماليزيا وتطبيق مناهج الأزهر فى مدارس ومعاهد ماليزيا وتوحيد الشهادات مع الأزهر بحيث يلتحق الطالب الحاصل على الشهادة الثانوية الأزهرية فى دولة ماليزيا بجامعة الأزهر الشريف، والأزهر الشريف يمد هذه المدارس والمعاهد بالكتب والمناهج الدراسية وبالسادة المدرسين من علماء الأزهرالشريف.

تهنئة ودعاء

● أصدر السيد رئيس مجلس الوزراء القرار رقم ٩٣١ لسنة ٢٠٠١ وبناء على ما عرضه فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف بتعيين فضيلة الشيخ/

محمد سيد أبو العلا عزيز

رئيساً لقطاع المعاهد الأزهرية

بالدرجة الممتازة اعتباراً من ٢٠٠١/٧/١م حتى بلوغه السن القانونية المقررة لترك الخدمة.

ويسر مجلة «الأزهر الشريف» أن تهنئ السيد صاحب الفضيلة الشيخ/ محمد سيد أبو العلا باختياره:

رئيسا لقطاع المعاهد الأزهرية

وتدعو لفضيلته بالتوفيق،،

أسرة تحرير مجلة الأزهر

الفهـــرس

● افتتاحية العدد : إنسانية الغرب فى الميزان
لفضيلة أ.د. محمد رجب البيومى ٨٩٨
● تفسير سورة البقرة
لفضيلة أ.د. محمد سيد طنطاوى ٩٠٢
● قضية : نوقف على رؤوس الآيات
لفضيلة الشيخ صديق بكر عيطة ٩٠٩
● حذف جواب : لو ترى
أ.د. عبدالحليم حفنى ٩١٤
● من القصص التربوى فى القرآن الكريم : وَلدان
للأستاذ / محمد مصطفى البسيونى ٩١٩
● دعوى بشرية القرآن
أ.د.محمد إبراهيم الفيومى ٩٢٤
● من ركائز التضامن الإسلامى
أ.د.أحمد عمر هاشم ٩٣٢
● الدعوة كما ينبغى أن نبلغها
لفضيلة الشيخ الطاهر الحامدى ٩٣٩
● مساجلة بين فقيهين
للدكتور حمدى فتوح والى ٩٤٤
● بين الخضر حسين وعلى عبدالرازق : قضية وكتابان..
أ.د.محمد عمارة ٩٤٩
● مصر
شعر الأستاذ على الجارم ٩٥٦
● محمد ﷺ فى كتابات المستشرقين
أ.د. عبدالعظيم المطعنى ٩٦٠
● كتاب الشهر
نقد كتاب (سيرة رسول الله ﷺ لابن اسحق للدكتور على مراد)
نقد وتعليق أ. د / إبراهيم عوضين ٩٦٧
● ما يقال عن الإسلام (الأذان فى الإسلام)
للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ٩٧٧
● مواقف إسلامية : وفاء الأشقاء
أ.د. محمود عمارة ٩٨٢
● قصة العدد .. القمة الموحشة
للأستاذ محمد فريد أبو حديد ٩٨٧
● القط الأعمى
شعر : أبو حسام ٩٩٤
● عالم زاهد .. وتقى ورع
لفضيلة الشيخ / على محمود أبو الحسن ٩٩٧
● مقومات النهضة العلمية للأمة الإسلامية
أ.د.أحمد فؤاد باشا ١٠٠٢
● الفكر التلمودى فى الوجدان اليهودى
للدكتور / محمد حسن عبدالخالق ١٠٠٨
● حجر من أرض الإسراء
شعر الأستاذ / السيد صديق حافظ ١٠١٨
● القعقاع بن عمرو التميمى
للأستاذ / أحمد السيد تقى الدين ١٠٢٠
● من قضايا النقد : ثقافة الناقد فى مرآة ابن المعتز
أ.د.محمد أحمد العزب ١٠٢٣
● طرائف ومواقف
للأستاذ / عبدالحفيظ محمد عبدالحليم ١٠٢٨
● استفتاءات القراء
تجيب عنها لجنة الفتوى بالأزهر ١٠٣٠
● خطبة الجمعة
لفضيلة أ.د.أحمد الشرباصى ١٠٣٤
● الإنفاق فى سبيل الله
لفضيلة الشيخ / فوزى فاضل الزفزاف ١٠٣٨
● رسالة ..و..رد
لفضيلة الشيخ / عبدالفتاح سيد جمعان ١٠٤٣
● المفهوم الصحيح للحرية
لفضيلة الشيخ محمد فوزان ١٠٤٧
● أيها الإعلاميون رويدكم
للأستاذ مجدى عبدالحميد بشير ١٠٥٠
● قلعة القاهرة
للأستاذ / أحمد إسماعيل إبراهيم ١٠٥٥
● بين الصحف والمجلات
للأستاذ محمود الفشنى ١٠٦١
● بين المجلة والقارىء
للأستاذ / عادل رفاعى خفاجة ١٠٦٥
● أنباء العالم الإسلامى
للأستاذ محمد الشرقاوى ١٠٧٠
● أنباء مكتب الإمام الأكبر
للأستاذ عمر البسطويسى على ١٠٧٣